

إسحاق ماشباش

رَدَدُ

رواية تاريخية

ترجمة
وليد تحقّاخ

مايكوب 2018

أمير الأدبغة الكبير الشهير ردد هو الموضوع الذي تتناوله الرواية التاريخية الجديدة لإسحاق ماشباش، كاتب جمهوريات الأدبغة والقبرتاي - بالقر وشركيسيا، والحائز على جوائز الاتحاد السوفييتي سابقاً، وروسيا الاتحادية، وعلى جائزة ميخائيل شولوخوف.

في خِصَم الأحداث التي جرت للأدبغة في القرن الحادي عشر، جمع الأمير الكبير ردد البطل الرئيس للرواية الأدبغة في دولة واحدة، ناوياً أن يقرِّبهم من روسيا، ولكن الظروف لم تسمح له بتحقيق هدفه.

مقدمة

تاريخ العالم تراكم طبقات من الأحداث كما أقوام البشر والقرون المنصرمة... مضت سنوات كثيرة على ما سأروي. كان الاحتفال بأيام الأدب السوفيتي يجري في كازاخستان. والتقينا، نحن الكتاب، في نهاية الاحتفال في ألما - آتا، بعدما اجتمعنا بالناس، ونقلنا إليهم أحوالنا في معيشتنا وأفكارنا. وفي المساء اجتمع على المائدة، تبعاً لتقاليد الضيافة، الممثلون المنتخبون لتنوعات الأدب السوفيتي الخمسة عشر، وغيرهم من الضيوف. وكنت على تلك المائدة عارفاً في نفسي أي واحد من بقايا الأديغة الذين انتكبوا في القرون الماضية.

لم يكن رئيس كازاخستان كوناى دينمحمد كبير مائدة الاحتفال يقصّر في شيء: يطلب من الحضور التحدث في خطب الأنخاب عن تعداد أقوامهم، ومكانة الأدب في بلادهم، ومكانة كل أديب. ويجري تناقل الأطباق على المائدة التي يجلس إليها قرابة المئة، والمضيفون يقفون على خدمتنا. والموسيقيون الجالسون إلى الجدار يعزفون ألحان كل شعب من شعوب المجتمعين. ورغم ارتياحي لهذه الموسيقى وإعجابي بها فألحاني التي ينبثق منها حزني الخفي البعيد مختلفة. ومن أين لزملائي على المائدة وللعاشرين أن يعرفوها! الاحتفال المسائي يمضي إلى نهايته، والكلمة تُمنح للمتحدث الأخير. - ليس إليّ، بل إلى شخص آخر...

ينهض كوناى ثانية، وأتوقع أن يختتم الاحتفال غير أن قلبي يقفز ممّا أسمع: - والآن أودّ أن أعطي الكلمة إلى أحد كتّابنا، - يتناول الورقة التي وُضعت أمامه، ويتأملنا مع ابتسامة لطيفة، - صحيح أنه لم يطلب منا منحه الكلمة ولكن الحضور يتلهفون عليها. من أعطيه الكلمة الآن هو إسحاق ماشباش، أحد المنتمين إلى أعراق دولتنا الكبيرة. وإن لم أخطئ فهو قادمٌ من مقاطعة كراسنودار ذات الحكم الذاتي.

- قوموا أيها القادمون من القفقاس جميعكم! - الصوتُ صوتُ الكاتب الأرمني سيرو خانزاديان، الكهلُ المتين البنية الذي يزينه شاربان كثيفان. ويضيف إلى قائمته، قبل أن يتاح لي الفرصة لأثّّن طلبه، كتاب غروزين

وأذربيجان وأرمينيا: - سأقول لكم السبب في طلبي من الكتاب القادمين من نواحيننا. من ستسمعونه الآن هو صوتُ التاريخ البطولي للقفقاس، وإسحاق ماشباش هو أحدُ المنتميين إلى الأقبام القليلة العدد. الأديغة من أعرق الأقبام على الأرض، وهم من أشد الناس مدعاة للاحترام. ووجه القفقاس وشرفه، وصوته الأزلي. وهذا هو سبب طلبي من ممثلي القفقاس النهوض، وهو سبب رغبتني في إطلاعكم أنتم عليه.

لا أعتقد أن هناك كلاماً أصدق من قولهم: من أجل حصان واحد يُسقى مئة حصان. فرحت لنهوض كل الحضور من أجل الأديغة القليلي العدد، واحترامهم لي. ولكن لم أملك في طريقي إلى ديارنا بعد كلمتي إلا أن أعيد التأمل في التاريخ البعيد رغبة وحزنًا.

الكتاب الأول

I

صباح بداية سنة 999 البعيدة.

إقليم شمال القفقاس الجبلي السهلي الواقع بين البحر الأسود وبحر قزوين يُجَيِّلُ إليك للوهلة الأولى أنك أيقظته من نوم أزلي ثَقِيل، كسولاً غَيْرَ مسكون بالأحزان. ولكن الأقوام المختلفة تتنازع عليه من الشرق والغرب والشمال، والأقوى بينها يحتل سهوة الحصان، مزيجاً الأضعف كما يقال.

عِرْق الأديغة شرق البحر الأسود - القُصُوغ، والزِيخ والموط¹ أصحاب البحر الأسود. وشمال هؤلاء يعيش السكيف سيرمات، أخلاف الياس - ألان. وعلى الضفة اليسرى من نهر إيدل البورتاس والبلغار، وإلى الجنوب الخانج والساكيل والبايدو والإيتل. وجهة الداغستان البيلينجر والسميميندير إلى الغرب، مروراً بـ "توم تقاش" الواقعة على معبر بحر آزوف، بالإضافة إلى القرم والماديار (المجر). وإلى الشمال دولة قَعَنَات الخزرية التي تفرض الإتاوة على الموردافار، والجيريميس والفياتيج والبوليان والسيفيريان والراديفيتش دون أن تمنح الطمأنينة لأحد.

من الجبال تنبثق أنهار ضيقة تتنافس في جَرِّها دون أن تعباً بيوم ميلادها أو عامه أو قرنه، معتدّة بانتمائها إلى العالم، معتبرة ذاك نعمة، معبرة عن افتخارها بأصواتها الحادة. يتلعب النهر الأقوى الأضعف منه، رافعاً من حدّته وقوته، ناسياً أن نهرأ آخر أقوى منه سيبتلعه هو أيضاً، فتمضي إلى البحر الأسود بين قزوين إلى الشمال وبحر الموط².

ربما ليس بين الأحياء والجماد على الأرض أحدٌ كالإنسان شجاعة وجبناً، وظلماً ورحمة، فاقداً الروح والشرف، عابثاً بالحلّال والحرام، بعيد النظر وقصيرة معاً.

ومع أن الشمس هي من تمنح الحياة للإنسان فليست المواقف التي تحرقه فيها

¹ لعل التسمية ترتبط بتسمية الإغريق لبحر آزوف بالبحر الميوتي Maeotis. المترجم. وكل

ما يرد في الترجمة من حواشٍ هي للمترجم إلا أن يُشار إلى مصدر آخر.

² هو بحر آزوف نفسه كما سبق.

قليلة. ويحدث أن يُغرقه الماء وإن كان يشرب منه ويستحم فيه. ويفنى في نار الحطب، والصاعقة، والعاصفة والزلزال. ونهاية حياة الإنسان على الرمح الذي اخترعه ليعيش به ويحمي نفسه أكثر من نجاته به.

لماذا خُلق الإنسان إذن على الأرض؟ أمن أجل أن يؤمن لنفسه الطعام الذي يقوم بأوْده، واللباس الذي يكسو جسده أم لأجل تربية أطفاله فحسب؟ الحيوانات لا همّ لها طوال النهار، في الحر والبرد، إلا أن تملأ بطونها. وهذه يولد لها صغار تربيها جزعاً عليها، وتعلمها أن تحمي أنفسها في أي موقف وجدت نفسها فيه. ولكن النهار المضيء والليل المظلم موضع قلق ورعب دائماً لها وللناس. غير أن الإنسان فوق كل الكائنات الحية: الإنسان وحده هو من يستطيع التأمل في مسألة الحياة والموت، وهو من يستطيع تفهّم كنهيهما، والإنسان وحده هو من يستطيع عقله استيعاب سبب زرق السماء، وبياض السحب، وهبوب العواصف، وارتطام الأمواج بالساحل.

ما لا تستطيع العين الإحاطة به هو الجبال - الغابات الخريفية المترامية الأطراف، والريف الذي لا نهاية له. وما يدلك على أن السماء التي أفقدها الصيف القائط لوّحاً تستعيد وعيها هو أنها تغطي كتفيها بكل أناة بغطاء الرأس الذي يغلب عليه اللون المرقط بالأبيض والأسود. والشمس تتسلق قبة الصباح مختلسة النظر من وراء السحب المقطّعة الرقيقة. وتنحسر دون أن تولي اهتماماً بقرية مزّية المتناثرة على سفح الغابة الجبلية، ولا بقرية "مستخقوه" على بعد بضعة غلوات حصان، التائهة في الطرف الآخر من المضيق، المنطوية على نفسها رعباً وخجلاً، ولا بغيرهما من القرى.

الوقّع الأصمّ لحوافر مئات الخيول التي تنثر وراءها الغبار الباهت والحشيش الأصفر إلى عنان السماء تقوّض الهدوء الصباحي الصادق فجأة في المضيق الجبلي.

التقط رددّ أول عود مسنن وقعت عينه عليه، وقفزت من الغرفة أمه "رافبس" التي عرفت أن لا شيء يوحى بالخير:

- يا ولدي ما الذي يجري، أما يزال الأعداء يغيرون علينا؟

- الخزر ينهبون القرى المجاورة!

- النجدة، حالاً، ابتعدوا، الجؤوا إلى الجبل والغابة! - ناداهم الفارس المبلِّغ وهو يمر من أمام الباب.

- ماذا تنوي أن تفعل يا ردد؟ إلى أين تمضي؟ - نادت الأمُّ الشابَّ الربعة المتين البنية بما لا يتناسب مع أعوامه الثمانية عشر، الراكض نحو باب الدار. - أقول لك توقّف، توقّف!

- ألا تسمعين يا أمنا¹ بهجوم الأعداء علينا؟ ينهبوننا ونحن لا نفعل غير اللجوء إلى الجبل. سأقف وقفة الرجال إلى جانب من يتصدى لهم.

- الناس يتجنبون العاصفة ولا يخوضونها. والدك وأصدقائه كانوا أشجع منك ولكنهم لم يستطيعوا الانتصار على الجراد. - اعترضت رامبس ابنها - لن أدعك، وأنا في وعيي، تحابه الناس الهائجين المنتشرين بالدم والظلم. اليوم منعة الجبال حصننا؛ هيا أسرع؛ مصيرنا مصير القرية.

- ماذا تنتظرون؟ - ينادي الجائر العجوز كولس - أسرعوا! لن نسلم من هؤلاء الخثالة الذين يتدافعون نحونا.

ألقي ردد العود وهرع إلى الغرفة. ولم يلبث فيها طويلاً. خرج وعلى كتفه نصف كيس من الدُّخْن، وتحت إبطه لفافة من ضلوع الخروف المجففة، ويده قرص جبنٍ مجفّف. وعلى يساره السيف. ويبدو من أعلى جزمته طرف سكين.

- هات اللحم والجبن يا ردد! - تركض رامبس بقامتها الرقيقة وراء ابنها المسرع بخطواته الطويلة، لا يردّ على توسلات والدته.

سأل ردد حين ارتقى الناس الهاربون في حصن الجبل:

- هل أنت آتية يا أمنا؟

- نعم، آتية، اصعداً أيضاً إلى الأبعد!

- هذا مكان آمنٌ - جلس كولس، - هذا الريف الصخري هو ما حمانا هذا

¹ العادة عند الأدبغة قديماً، وإلى ما قبل جيلٍ، لا ينادوا أو يتحدثوا عن الأب والأم إلا

بصيغة الجمع: والدنا، أمنا، تعبيراً عن مزيد من الاحترام.

الربيع أيضاً. هيا اجلسوا! إن أشفق علينا إلّنا الكبيرُ السماء¹ فستحمينا إلهة غابتنا. هؤلاء الذين أراهم يقال إنهم ينهبون القرى المجاورة ولكن لا أرى شيئاً من هذا فيهم. ها هم ينحرفون عن قريننا، يتدافعون ويتلفتون.

- هؤلاء، بالقياس إلى من ينهبوننا في هذا الربيع، لابد أن أمراً مقلقاً يحركهم، تنظر رامبس أيضاً وتدعو في سرّها إلى الله أن يحافظ على بيتها ودارها ومواشيها. سنعوّض شيئاً فشيئاً ما سلبوه من البيت ومن أرض الدار إن لم يحرقوا بيتنا. والولد المنحوس أجبرته على الابتعاد عن مجاهنتهم.

- الآن كأني أفهم ما وراء نشاط هؤلاء... - قال كولس وهو يلتفت بطرف عينه إلى ردد. - يبدو أن ما يتردد من أن الروسيح هزموا الخرز عند توم تقاش صحيح. هل تذكر يا ردد ما قاله الرومي ديميتري الذي دخل إلى قريننا في هذا الصيف؟ لم نصدّقه وقتها ولكن يبدو أن كلامه كان صحيحاً.

- ليس مستبعداً، - قال ردد بعد قليل، - كان والدنا يقول إن ما يتردد كثيراً على الألسنة يتبين أنه صحيح. ابتسمت رامبس مخفية سرورها بذكر سيرة الأب. ولكن ردد تابع كلامه دون أن يسمح لأمه أن تلاحظ أي اختلاج في وجهه الشاحب كالصخرة التي يجلس عليها: - ولكن يقال يا كولس إن الخرز كثيرو العدد.

- ربما كانوا كثيرين ولكنهم مفككون مثلنا. احتلوا أرضاً واسعة فلم يعودوا قادرين على الاحتفاظ بها. وصاروا عاجزين عن السيطرة على الأقوام التي استعبدوها، وعلى الأقوام التي فرضوا عليها الإتاوة. وربما عجّلت هذه الأسباب انتصار الروسيح في نواحي توم تقاش.

- إذا كان الروسيح احتلوا توم تقاش - أسرع رامبس بالقول عاجزاً عن كتمان قلقها، - فماذا سيكون مصير أخي الصغير قانشاو الذي هو في الأسر؟ الخبر الذي وصلنا عنه هو أنه بواب على باب ملك توم تقاش. ليس له من يزوره أو يسأل عنه غيري... يا حسرتي، وما أملّي أنا؟! لو كان والده حياً

¹ استعملتُ، متجاوزاً المألوف، اسمي السماء والشمس في حالة التذكير متى أشارا إلى الإله،

وهما على أي حال من المؤنث المجازي، لا الحقيقي.

لصرف عني همي في أخي الوحيد... انتكبتُ بكليهما في ذلك اليوم الأسود...
- مسحت رامبس عينيها بطرف غطاء رأسها. وأزاحت رأسها غير راضية عما يجري لها أمام جاراها العجوز وابنها.

- كفى يا أمانا، لا تهينيني أمام زعيم الخير كولس... - لام ردد، أمه ودفعه اليأس إلى الإطراق برأسه. ثم أضاف بصوت أشدَّ حزماً: - أما قلتُ لك إني سأعيد إليك قانشاو إن كان ما يزال حياً!

- يا حسرتي يا ولدي، متى سيحدث هذا!

- لا تيأسي بهذه الحجة يا رامبس، ولا تفقدي أملك، - لم يقبل كولس طريقة سؤال الجارة، - ضعي ثقتك في هذا الشاب المراهق. وما مصيره إن لم يصبح مثل والده! كان لاوَرَسَتَن واحداً من رجالات قرينتا. لم يتباه يوماً بأنه أمير، غير أن القرية كانت تعيش تحت ظله. وإن كان في قرينتا رجل واحد جدير بأن يُنجب رجلاً فأنا شاهد أنه لن يخذلني. وإن شهدت أنا هذا اليوم فحسب، وإن لم أشهد فستعترفون بأني تنبأت به. أنا في عمره كان والدي يصطحبني إلى توم تقاش وخالج وساركيل وإيتل وسيميندير بل إلى عند البيجينغ. وحدث أن تحاربنا ودمرونا، ولم يخل الأمر من أن يأسرنا الخزر والألان، ومن أن يطردونا من قرينتا كما اليوم، ولكني نجوتُ من كل هذه المخاطر، وها أنا أمامكم كالفولاذ الذي لا يفنى، أختبئ الآن من موجة الفرسان تلك... مهلاً، مهلاً يا ردد، اسكت قليلاً. لا تُقاطع حديث الكبار. واحفظ في سِرِّك ما فيه حكمة وما ليس فيه، وثمنه. ليس كلُّ ما في عالمنا القاسي كما نشاء. هل قلت شيئاً يا رامبس أو تريدان أن تقولي؟ هل قلت: لا؟ سأخبركِ إذن بمسألة لست مُحقة فيها نحو ردد.

- ساجني يا كولس على مقاطعتك، لا أظنني مخطئة في أمر واحد فحسب في شأن الولد.

- بلى يا رامبس، في أمر واحد فحسب. - يتكلم كولس بشيء من الرياء من بين شاريه ولحيته غير الكثيفة، - أما الأخطاء الأخرى فهي بينك وبين ولدك، تعالجها بقدر ما تستطيعان. من الخطأ يا رامبس أن تُبقي ولدك متعلقاً بطرف ثوبك من لهفتك عليه. نعم، نعم يا رامبس، بإمكانني أن أكون دواء لمرضك ولو

كان مُحْزِناً. ومرة أخرى إن كنت واثقةً مني فسأكون عوناً لِرَدِّ ابن الإمارة. وكنا تحدثنا في حياة لاورستن في الصيف الماضي في الموضوع، ولكن وفاته المفاجئة لم تُتِّحْ لنا الفرصة. لم يزعم أحدٌ أن مضافة كولس فارغة حتى لو لم أكن لسنًا. ولم يريني أحدٌ أعود من الجبل خالي الوفاض ولو لم أكن صياداً ماهراً. ولم أدع أحداً يسخر مني في شأن المصارعة ولو لم أكن مصارعاً عظيماً... إن وثقتكم بي وضعت تحت تصرف ردد فصاحتي ومهارتي وحيلتي بكل إخلاص. ولن أسمع للناس أن يصفوا ردد بأنه ابنُ أرملة. سأرعاه منذ اليوم بما أستطيعه كما أرى حفيدي ججان.

- حياك الله يا كولس، - كان مضى زمن طويل على هروب الناس مذعورين من قريتهم، وعلى مرور الفرسان المغيرين المسرعين من أمامهم، وعلى ركود الغبار الذي أثاروه، حين قالت رامبس ناسية، - وفي كل الأحوال كنت ترى هذا الولد حتى في حياة والده. ولم تغفل عينك الرحيمة عنه ساعة. ولن أسمع أنه خرج عن طوعك، ولن أقبل منه إن فعل. وإن قلت لك إني سأتحلى عن الولد الوحيد فأنا أكذب عليك، أضعه منذ اليوم بين يديك يا كولس.

- على ما يبدو، - ضحك كولس من بين لحيته وشاربيه راضياً، - الشر يرافقه الخير... طردنا الشر فجمعنا الخير. ها هم الخزر اختفوا في الأفق، وسلم الناس والقرية. جلسنا إلى الآن متوقعين أن يهزمهم الألان. وهم، والخزر ليسوا أفضل منهم، لم يتبعهم أحد بفضل ألهتنا. هيا بنا يا من أتوسم فيهم الخير. تعال يا ردد، تعال يا ولدي، لنعد إلى قريتنا التي هجرناها. - يرفع يديه ويتوجه إلى الشمس التي تصعد إلى قبة السماء: - نحن راضون عنك يا إلهنا الكبير. اشملنا برحمتك. ويقول لرفاقه من ورائه: أشيروا إليه إشارة الخضوع. ثم يحكي كل شجرة تمر أمام ناظره: - وإله الغابة أزاح عنا الخوف من أجل أن يحميننا...

II

تذكرت رامبس كلمات كولس حين ولجوا الجبل. ابتسمت كئيبة معتدّة وهي تنظر إلى ردد: انظر كيف أصبح مثل "العملاق"¹: وجهه طلق، يخسف أرض الغرفة حين يمشي عليها. في عينيه التفكير والخشونة، ولكنه لا يزال شاباً جداً على هذه المظاهر، فيصبح كطفل العملاق. ثم تتمعن الأم في طفلها بعدما قال كولس بحقه: أدركتُ أن من كانت تعدُّه طفلاً أصبح الآن رجلاً.

كان ردد جالساً إلى الموقد على المقعد الوطنيء المصنوع من خشب البطم.

- يا ردد، يا ولدي، ما أشدّ كآبتك اليوم، هل هناك ما يُقلِّبك؟ - سألت الأم ابنها بعد مرور عدة أيام على تجاوز قوات الخزر القرية، وجلست إلى الجدار المضفور من العيدان، المتوجّه نحو الفناء، ونظرت كما لأول مرة من فوق المائدة المتطاولة والمقعد المنخفض وراءها، وسألت ثانية الشاب الذي لا تبين نار الموقد من ورائه: - أراك لا تقول شيئاً يا ولدي؟

- ماذا تريدان أن أقول يا أمنا؟ - سأل ردد من وراءه دون أن تتحرك قامته الصلبة كالحجر، غير مسرور لإبعاده عن أفكاره غير الكثيرة. وحين مدّ يده إلى الموقد ليذكي النار ارتطم بطرف الوجاق² فسقطت قبعته الكبيرة. وفيما يتناولها بيده اليسرى الضخمة غمغم قائلاً: - أفكر في حلاقة شعري. ججان أيضاً حلق شعره قبل أيام.

- الشتاء القارس قادم، ماذا جرى لك يا صغيري فتحلق شعرك؟

- ألا ترين يا أمنا أن القبعة صغرّت على رأسي؟ تسقط عن رأسي لأيّ لمسة.

- إن كانت القبعة صغيرة عليك فهاتها. لا يُصاد ذئب كل يوم، ولا تخاط قبعة. إن لم تبق لك قوة في يديك وركبتك فسأوسّعها لك.

- إن كنت قوية إلى هذا الحدّ فهأ هي، وسّعها! - رمى ردد قبعته إلى وراء.

¹ يشير إلى نوع من العمالقة في الأساطير: شجاشه، ولا تزال في سورية أسرة تحمل هذه النسبة.

² نوع بدائي مما يسمى الآن بالفرنسية cheminée في البيوت الفاخرة. كان يعلو الموقد قرابة المتر، يخرج منه الدخان، وتُدخّن فيه أقراص الجبنة الشوكية.

- كم مرة نبّهتُك يا ولد ألا تتخذ من القبة لعبة! - استدركتُ رامبس تنبيهها العنيف بكلام لطيف: - لا تنس الأسرة التي تنتمي إليها. لا أنذكر والدك عبث بقبعته... المرحوم كان يقول: الرأس والقبة سيّان... ما تشنّه يثبّنك... تنهد ردد حين سمع ذِكْر الأب. وانتصب أمام عينيه من جديد مقتل والده على يد قائد مجموعة فرسان الخزر، وركوُغ والدته أمام القاتل، وتقديّمها له حصاني الأسرة ومواشيها، والنطاق الفضّي لجدته.

- صحيح يا أمنا، لم أشهد والدنا حتى رأسه لأحد أو خلع قبعته له.
- وهذا كان سبب مقتله... وتركنا أرملةً ویتماً في الحياة...
- يُخيّل إلي يا أمنا أنك تنتقدين سيرة والدنا. سيرة والدي يعدّها أصدقائي والقرية بطولية. والعشية جاؤوا على ذِكْره في مضافة كولس بالخير. كثير من المعاني وراء تخليّك عن شرفك أو ابتياعك له، أو التضحية بالحياة. وعليك أن تعرف متى ترتقي على ركبتك.

قطعت الأم، بعدما سمعت الكلمات الأخيرة لابنها، توسيع قبة ابنها التي تدوّرها على ركبتها فانتصبت قامتها الرقيقة. وألقت نظرة حزينة على كتفي ابنها. وكظمت قلبها الملتهب وهي تمسح على قبة زوجها لاورستن التي أصبحت الآن صغيرة على ولدها. وواست نفسها، ثم قالت مخفية حزناً:

- إن كنت تقصد يا ولدي ركوعي على ركبتيّ أمام قائد مجموعة الخزر فلا ضير في هذا... حتى الوحوش تفعل هذا للحفاظ على جرائها. لو كنت أنت في قالب الرجال كوالدك تستطيع أن تحمي نفسك لربما ما فعلتُ هذا... ولكن، من يعرف، ربما كان مصيرك كمصير والدك أو أسيراً مثل أخي الأصغر... الولد نار لا تنطفئ.

الأم حسب تقاليدنا ونمط معيشتنا فوق الجميع يا ولدي. تصبح حامية لابنها متى رأى النور وشعرت بشهيقته الأولى. وتضع ثقتها بقلبها وروحها في هذا الولد. الأم، وإن كانت أضعف جسداً من الرجل، هي من تحمي ولدها في كل زمان. ولذا تحمل الأم الخير إلى من يَحْيون على الأرض.

توجهت رامبس إلى النافذة كي لا يرى ولدها الدموع التي غشيت عينها. ووقفت طويلاً تتأمل الجبال والسماء التي تعلوها.

توجه ردد إلى الموقد وقلب الجمرات بالملقط، وقال حذراً بعد هنيهة:
- لا تعدّني يا أمنا صغيراً بعد اليوم.

- ما الأمر؟ ماذا تغير اليوم عن أيامك السابقة؟ - ضحكت برقة دون انتظار الجواب. - وكولس يعاتبني في هذا الشأن، ولكنك ستبقى في نظري صغيراً إلى الأبد. حسناً يا ولدي أريد أن أخبرك بشيء من سلوكك لا يعجبني. متى حدّثك أحد سواء كان أمك أم أبك أم صديقك، بل لو كان أشدّ الناس عداء لك، فلا تجبّه مديراً ظهره لك. المكان الذي ترى فيه ردّ فعل الإنسان على ما يوجّه له من كلام، حلواً كان أم مرأً، هو وجهه عموماً، وعينه خصوصاً. استدرّ إليّ وانظر إلى كيفية توسيع قبعة والدك. قبعته يا ولدي ليست مجرد قبعة. بقيت فيها آثار دمّه وعرقه، وغبار معاركه. لا يزال فيها إخلاص والدك وطيبته ودفع عواطفه.

الرجل الذي عُمر ثلاثين عاماً أو أربعين يعرف قيمة الصداقة والغدر، ويكون قد تجاوز آماله المحبطة وانتصاراته، واعتاد على أحزانه العميقة وأيامه الآمنة، غير أن قلب الشاب الذي ما يزال في العشرين يبقى طائراً وراء أحلامه، محتفظاً بالعلاقات الجميلة بين الناس، متخيلاً أن العدالة يجب أن تنتصر دائماً. ولكنه متى اصطدم لأول مرة بعقبة ما، أو حدث له مكروه، أو تعرّض لعملية خداع ما، حُبل إليه أن ما جرى له هو نهاية العالم. كان ردد يعدّ والده المثل الأعلى ولا أحد يُدانيه في استقامته. كان قادراً على التوفيق بين أشدّ المتناقضات، ويشرحها له. ولم يكن ردد مستعداً لأن يصدع رأسه بهذه الأمور. وإن لم يحدث شيء بقي معتمداً على جناحي والده القويين. والآن؟.. يعتبر ردد هروبه إلى الجبال مع والدته وكولس مذعوراً من الخرز خطيئة لا تُغتفر. ولذا يتجنب مخالطة الناس في هذه الأيام، مغموراً بالسواد كما تقول والدته.

- حُذ قبعتك يا ولدي، صارت على قياسك تماماً، - مسحت الأم على فرو الذئب بنعومة ومدّت القبعة إليه. - هذه لا تحتاج إلى أن تبللها، ستفقد لوها. وستعود إلى حالها متى نشفت.

نظرت رامبس بؤدٍ إلى ولدها مرتاحة إلى تفاهيهما:

- لا أعرف ماذا ننتظر لتناول الطعام.

- وأنا أيضاً، - ابتسم ردد، - ألم يبق شيء من لحم الخنزير البري؟
 - عندنا لحم مجفف ولحم مقلي وجبن، ولكننا مللنا من الطعام المسخن. اذهب
 حالاً وصِدْ جرو خنزير لأشوي لحمًا طرياً.
 لم يمض وقتٌ طويل على خروج ردد من الدار حتى شُمع صراخٍ خنزير بري.
 وخرجت رامبس من المطبخ والمغرفة الخشبية بيدها ونادت الولد:
 - يا ولدي، أدِرْ وجه الخنزير إلى إلهنا العظيم شمسينا، كما كان يفعل والدك،
 قبل أن تُزهق روحه. ويمكن أن توجهه إلى موقع شجرة البلوط إلهنا العظيم
 الآخر.
 - لن أسمح له أن يملأ الدنيا بصراخه بانتظار أن تخرج الشمس من بين
 السُحب. والأفضل أن أوجهه إلى البلوطة الإله الآخر. - قطع ردد بضربة
 واحدة رأس الخنزير، وبقي واقفاً يتأمله ريثما انقطعت حركته.
 نادى رامبس من فوق المسطبة:
 - لا تتصرف هكذا بعد الآن يا ولدي مع من تزهق روحه!
 - لن يتصرف أحد كما تطلبين حتى مع الإنسان القليل... أنسيت كيف قتلوا
 والدنا؟.. لم يسمحوا لنا بالاقتراب منه... - عادت الأم إلى الغرفة غير متحملة
 ما ترى رغم اعتراضات ردد فلم تسمع ما كان يقوله في إثرها. - ليأتنا ثانية
 محصّلو الإتاوة!.. ماذا كان اسم قاتِلِ والدنا؟ كانوا ينادونه أسباروخ على ما
 أذكر. سأعلقه أمامك يا أمنا بالعمود المدبب الرأس، وانتظري إن لم أدعك
 تخلعين عنك ثوب الحداد بدموع الفرح!..

III

كان الطريق الوحيد والقصير القادم من آسيا ومن الشرق القريب داخلاً إلى
 أوروبا عبر شمال القفقاس يمر عبر إقليم الأديغة. ولم يكن الأديغة يتكون لياً أو
 نهاراً أيّ عابر لهذا الطريق، وإن لم يحرسوه بعناية، دون أن يتحققوا من وجهته
 وسلاحه ويسألوا عن نواياه، حتى يصلوا به إلى المضيق الواصل إلى بحر آزوف.
 وإذا كان هذا المكان خطيراً من ناحية فالجانب الآخر كان بريداً لأخبار العالم.
 والقسوغ والموط والزيخ الذين كان هذا طريقهم يسمّونه طريق السعد وطريق

النحس. وفي جميع الأحوال يدعون مَنْ في قلبه الخير إلى الطعام، ويعترضون طريق مَنْ لا ينويه. وإن عرفوا أنهم غير قادرين على مجابهته غلبوا الحكمة على الجبن، وحموا أنفسهم بجبالهم المنيعه وغاباتهم الكثيفة وسهولهم المتسعة التي لا حدود لها. ويحدث كثيراً أن يؤسسوا أسراً جديدة في أماكن جديدة، ويعيدوا فيها بناء قراهم من تحت الأنقاض. ولكن مهما جرى لهم، ومهما أهينوا فهم لا يغزون أحداً بدافع الرغبة في الانتقام، ولا يسلبونهم أرضهم وسماؤهم. يحبون إلههم الشمس العظيمة التي تدفئ لهم نهارهم، وقمرهم الذي ينير ليلهم. وإله غاباتهم، وإله صيدهم. ويحمون أنهار جبالهم وسهولهم، وأطراف الأعشاب الناجمة في الربيع، وأوراق أشجار خريفهم المتعددة الألوان، كما يحمون عيونهم وأرواحهم.

كان الأديغة يعرفون قيمة أرضهم الغالية، وحبهم العظيم لها. وتسري حياة الحرية في دمائهم. وانطلاقاً منها يحترمون حرية الأقوام الأخرى. كانوا محاربين ممتازين يوظفون رجولتهم من أجل أرضهم الحبيبة، ومن أجل أن تُظَلَّها سماؤهم وشمسهم. يسكنون في الإقليم الذي تلتقي فيه أوروبا والشرق القريب. ومع ذلك تفردوا بنمط حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، وبما أغنوا أرضهم - جنتهم. لا جدال أن الحياة في دولة كبرى ميزة. ولكن على قدر اتساع الدولة تتسع مخاوفها ودواعي قلقها. كان القسوغ والموط والزيوخ قانعين بالقليل الذي عندهم، سعداء بما تجود به عليهم الشمس والغابات، وبما تحبه لهم من فرح وجمال وكرم وطُمأنينة. عاشوا حياتهم على شاطئ البحر الأسود وبحر آزوف مستمتعين باللحن الأبدي لتكسر أمواجهما، قريبين من الغابات الكثيفة المعطاء، والريف الذي ينبت فيه الحشيش، والفسحات المنيرة في الغابات. ويحبون الأرض التي لا حد لها بين نهري بشرة والدون، ويرعون فيها قطعان مواشيهم وحيولهم. ويُقيمون فيها سباقات الخيل، ومسابقات تنازع الجلود مغالبين الريح، مختبرين قوتهم.

قرية مَرَبه واحدة من مئات القرى التي يسكنها القسوغ والموط والزيوخ على ساحل البحر الأسود، المنتشرة على الجبال وأعماق الغابات وعلى ساحل بحر آزوف في الجانب الآخر، ومراعي المواشي المنتهية عند نهر الدون الكسول، وفي

منابت القصب والمستنقعات الجافة والغابات الجبلية غير المرتفعة.

خريفُ الأديغة القسوغ يلتفت إلى قرية مزبه كشعاع شمس مسكوب، ماشياً إلى الظهيرة رويداً رويداً كأنه يخرج من حُرْمِ إبرة. وماء نهر بُشده الجبلي يتعرّ بالأحجار ثم ينهض، ولكن أصواته الممزقة تتبدد على الضفتين العاليتين. والغابة التي تتعنج للدنيا خلال نصف سنة بلباسها المرقط لا تعرف الآن أين تختبئ، خجلةً من تعرّي أشجارها. ومِرْقُ السحاب تتدافع، يلحق بعضها بعضاً فتبلغه أو لا تبلغه، وتذوب القطع الصغيرة في الكبيرة؛ هل يرضى بعضها عن بعض؟! "العالم مزيج من أسئلة لا نهاية لها، - يقول كولس الذي يلتف حول النهر متمهلاً، - الإنسان يفد إلى العالم مصحوباً بالفرح كما يأتي الأحياء والجماد، ويقضي حياته بكل عُسرٍ راضياً وغير راضٍ. ومهما لاقى في حياته من مشاق رأى كل ما أمام عينيه جميلاً لذيذاً، يريد أن يعيش سنين كثيرة. ولا يفارُق الحياة ما دام عنده أمل في الاحتفاظ بها. وإن انتحر نتيجة مرضٍ يسومه العذاب لم يعد أحدٌ ما فعله رجولاً..."

كان كولس يود أن يختلي بنفسه مثل كل المسنين. ولكن ليس أيّ اختلاء كما اتفق بل كان دأبه أن يتأمل في الماء، ومن فوق الجبال، ويصعد نظره إلى قبة السماء، ويندوب في العالم الهادئ. ثم يحب أن يستغرق في التفكير في العمر الطويل الذي عاشه، وما سيفكر فيه هو الموضوع نفسه. كانت الفكرة نفسها تتجلى بأشكال مختلفة في كل وقت. ولهذا السبب لم تكن هذه الأوقات مملّة متساهلة في كل حين. كانت تنجم في رأسه دائماً أفكار جديدة متنوعة.

تنتصب أمام الإنسان منذ طفولته وإلى أرذل العمر مآسٍ كثيرة، ويزداد اقتناعاً بعدم جدوى حياته، ومع ذلك لا يريد مفارقة الحياة، بل يصارع حتى النفس الأخير لإبعاد ملك الموت. ما أبأس أن لا ترى ثانية أرضك وسمائك، وأصدقاءك المخلصين وأسرتك، ويواروك الثرى فلا تذكر أنك كنت يوماً ما حياً! وعلى هذا فكل إنسان يفكر في أنه ترك الأسوأ وراءه وأن فجراً جديداً بانتظاره. وهذا الشعور يلازم المرء في شبابه وشيخوخته.

يلتف كولس مع النهر وعصاه على كتفه وهذه الأفكار في ذهنه. ولكن ما

هذه؟ نظر إلى الصخرة العظيمة التي لم يرها قبلُ على طريقه، ثم إلى قمة الجبل، وابتسم: هذه الصخرة الهائلة سقطت من هذا الارتفاع. و داخله الحذر لما رأى الكلب الأشعث الضخم صاحبه قد توقف، وهُرع إلى الصخرة وشمّها، ولكن لم يجد فيها ما يُريب. وألقى نظرة تساؤل على وجه كولس: ما الذي جرى؟ صخرة ككل الصخور.

" يقال إن الحجر بلا روح، - مسح كولس على عنق الكلب، - ليس هذا صحيحاً. ألا ترى أنها نزلت من الجبل من تلقاء نفسها لخدمة الناس؟ لا شكّ أنها ستنتفع إنساناً ما. سيستفيد منها من يبني جدار بيته الذي سيؤسس فيه أسرته، أو سوراً يقي به من لا يُضمر له الخير. ما من كائن بلا روح. الكل يتنفس مثلنا، ها هو الوحش حُلِق صياداً لإعالة أسرته، والعشب يتحول زهراً لإسعاد الجميع "

تفهم الكلب: لا شيء يدعو للقلق. أصدر صوتاً ينم عن فرح، وغدّ السير إلى الأمام. لا داعي لأن يقلق مالكي، إن اعترضته مُلَمّة فلن يتسامح مع أحد. سيحميه بأنيابه الحادة وبصدره القوي. الكلاب التي تصارع الذئاب ليست كالأشخاص المنفردين. تُخلصُ حتى الموت لمالكيها. والجبال لها أرواح، وهي تنحدر ابتداء من قممها المكسوة بالثلج إلى أن تصل إلى "أنابه".

تجاوز كولس الصخرة، وسبقه كلبه متشمماً. ولما رفع رأسه نحو قمم أشجار الغابة المتسابقة على رؤوس أصابعها انتصبت أمام ناظره قمم الجبال المترصّة. وألقى نظرة بقلبه على قرية أنابه التي تتضاءل فيها قامات الجبال حتى تضع في الأفق. وأنصت إلى الصوت الناعم لأمواج الخليج الذي تقع عليه القرية. وتجاوزها إلى بحر أزوف ماراً بـ "بانتيكابي"، ودخل إلى ميناء "قاف"¹ المزدهمة التي أقام فيها أكثر من مرة. وأطل على السفن التي تُقبِل وتُدبِر رافعة أشرعتها. وتألّم قلبه ثانية من منظر العبيد المحدّفين المربوطين إلى المراكب، مدكّرين إياه بسنتيه اللتين قضاها في الأسر. ونقلته أفكاره البعيدة إلى القسطنطينية وأفيني

¹ أو كاف، مدينة تجارية في شبه جزيرة القرم.

وسالونيك وجنوة. وتألّمت من جديد ندبات ظهره كما تتألّم مواضع السوط من ملوحة ماء البحر.

"لا مكان أسيرٍ سعيداً، - تنهّد كولس بعمق، - كان الزمن الذي أمضيته حائناً الرأس دائماً زمناً مأساوياً، ولكن لا شيء يعدل عودتك سالماً من الأسر، عودتك إلى أرضك وسمالك، لقاءك أخيراً بقومك. غير أنني تحققت مهما عانيت من مشاق من صدق قولهم: ما تراه العين يساوي حياة الإنسان. ما خبرته يساوي عمراً طويلاً للإنسان. أفهمُ حزن جاري السيدة رامبس. لم يكن لاورستن أميراً ضعيفاً غير أن الظروف لم تخدمه. قضى في ساحة الحرب مع الخزر قبل أن يجد حليفاً قوياً. يا ربّ أياكون ما يروى عما جرى للخزر في توم تقاش صحيحاً؟ قائد جيش الروسيج الذي هزم جيش الخزر رجل قويّ كما يقال. ومن هؤلاء شباب اجتمعت به في الأسر يسمى نفسه روسيغ أيضاً. مات في أقل من نصف شهر شاعراً بالإهانة من ربطه إلى المجذاف، رافضاً تنفيذ أوامر أسريه، متسبباً لنفسه بالتعذيب بالحديد المحمّى على الظهر... وأكثر ما أحزني هو إلقاء جثمانه للأسماك... حماني ربنا الكبير من محنة أسري في عزّ شبابي. وأبتهل إليه أن يحقق لي هذا في شيخوختي"، - أسبل كولس يديه اللتين رفعهما واقفاً على رؤوس أصابعه. لمس جبينه بيده اليمنى، ووضع اليسرى على صدره.

التفت ردد الجالس على حجر بجانب قرية للنمل حين التفت بإحادة من حدسه إلى كولس، فاستغرب طريقة دعائه المختلفة عن طرق سواه؛ قال في نفسه: "لأول مرة أرى شخصاً يلمس يديه جبينه وقلبه بعد أن يُسبل يديه من الدعاء إلى الشمس العظيمة إله السماء. - كيف لم أنتبه إلى قدوم كولس وكلّبه إلى ضفة النهر واقتراحهما مني؟ ربما لم أنتبه إليه إلا حين قذف يديه إلى السماء... أنا أصمّ وأعمى وعديم الفهم إن لم يكن عندي من الفطنة ما أنتبه به إلى من ورائي..."

- أهذا أنت يا جاري؟ ابتسم كولس في وجه الشاب الذي نهض احتراماً له.
- كدتُ أصدملك إذ أعمّنتني أفكاري. ماذا تفعل يا ردد في قيط الظهيرة إلى جانب قرية النمل؟ وليس معك صديقك جيجان وداور.

- أبعدتني أمي يا كولس مرة ثانية عن رفاقي... أسلّي نفسي بملاحظة النمل في انتظار من غادروا لتصنيع الخشب.

- لهذا السبب وحده؟

- ماذا إذن؟ وهل في الحشرات ما يسترعي الاهتمام؟..

- لن أسمع لك يا ولد بإهانتها إلى هذا الحد... لا أظنك تأملتها بعمق.

- بلى تأملتها، إنها في فوضى شديدة. ما تحمله إحداهنّ تنتزعها منها الأخرى. وقد نكشتُ قريتها بطرف عودٍ اعتقاداً مني أنها تتنازع الملك بينها مثلنا نحن البشر.

- وماذا وجدت؟ أعاد كولس السؤال غير مقتنع برأي الشاب في مجتمع النمل الكادح.

- من أطلقها من قريتها عديمات الصبر، وأشدّ شراهة ممن يدرن حول القرية.

- إسمع إذن، - نظر كولس المرائي في وجه جاره الشاب، - حكاية النملة: في أحد الأيام التقت نملة في الطريق برجل كان يعرف لغة الوحوش والحشرات فقال لها: "ما أكبر رأسك!" أجابت النملة: "محشوٌ عقلاً"، "لماذا جذعك رقيق جداً؟" أجابت: "لأنني لا أكل كثيراً"، "وكم تستطيعين أن تحملي إذن؟" أجابت: "أحمل من الرصاص ما يساويني حجماً" سألتها: "كم تأكلين يا قليلة الطعام؟" قالت: "تكفيني حبة قمح في السنة". ألقى الرجل النملة في جعبة على صدر كسائه قائلاً لها: "سنرى إذن". ومضى عام منسيّة في الجعبة، والرجل مشغول بأعماله. وبعدما مضى عام آخر تذكرها فتفقدتها متسائلاً: "ألا تزال حية يا ثرى؟" كانت النملة حية وعندها نصف حبة القمح. قال لها "أخبرتني أن حبة قمح تكفيك عاماً، وها قد مضى عامان ولا يزال عندك نصف الحبة؛ فلماذا فعلتِ هذا؟!" أجابت النملة التي احتقرها تواً: "قلتُ نفسي لأني عاقلة: ماذا إن نسيني عامين لا عاماً فاقتصدتُ". روى كولس حكاية النملة دون أن يظهر إن كان فيها ما يسترعي الاهتمام أم لا.

دعت الحكاية ردد إلى النظر فجأة إلى العجوز ذاهلاً. وقال لكولس شاعراً بالعار إذ لم يستخلص حكمة من علاقات النمل فيما بينها، ونمط معيشتها، وعملها الدؤوب، بعدما راقبها ساعة كاملة:

- سألني يا جدي؛ سيحدث لك أسوأ من هذا إن لم يكن لكلامك وسلوكك جذور ولا موضوع. وأعاد إلى قلب الجار العجوز رضاه عنه، شاعراً بالعار من أنه كان يسحق النمل بجذائه وبطرف عوده: - صحيح ما قلته يا كولس من أنه لا يطير كل ذي جناحين. كثيراً ما صادفتُ أعشاشاً للطيور، ومخابئ للحشرات، ودجاجات أهلية وأخرى برية... ولكن في حكاية النملة ما يسترعي الانتباه. وهل يعرف المسنون الذين يجتمعون في مضافتك ليلاً هذه الحكاية؟

- الأسئُّ منا يعرفون... ولكن بين الأصغر سناً من لا يعرفون. لماذا تطرح هذا السؤال يا ولدي؟ أألئك تعتقد أن لا سؤال بلا جواب؟ - شَعَّ الفرح من لحية كولس البيضاء ومن شاربيه، وحدَّق في العينين الكبيرتين الزرقاوين الحادثين لكلبه ذي المظهر الذئبي، المرافق له حيثما حلَّ. وأضاف إلى سؤاله غير مُخَفِّ حُبَّتْه: - لا أعرف رأيك في الموضوع، وأنا أيضاً مهموم به... لا شيء إلا الموت لا جواب له... - شعر ردد بالانكسار المفاجئ لصوت العجوز وبشحوب لونه.

- أهو الوحيد الذي لا جواب له يا جدي؟
- أخرجتني، - سرت ابتسامة خفيفة على شفتي العجوز، - لا أعرف مصدر الرعد والصاعقة.
- أليس السببُ فيهما غضَبُ إلهنا الكبير، السماء؟ - ألقى ردد نظرة سريعة على العجوز.

- هذا اعتقادنا... ليغمزنا إلهنا العظيم برحمته. واغفر لي إن أخطأت... ورغم أننا نعتقد هذا فلا نعرف سبب العواصف.
- سأخبرُك إذن بملاحظة لي على الريح.

- أنقصد كونها أعنف على مستراح الذئاب العالي ذاك؟
- لا يا جدي، - لمعت عينا ردد السوداوان الحادثان شاعراً بالفخر إذ يُخبر العجوز بما لا يعرفه، - لا علاقة لملاحظتي بمكان استراحة الذئاب. ملاحظتي مبدأً الريح تعود إلى داخل إسطبلاتنا قبل أيام فحسب. أراقب الجو فأرى النهار دافئاً وهادئاً، ولا رياح. فتحتُ الباب ودخلتُ الغرفة فرجَّ شيء ما

النافذة المفتوحة ثم أغلقها. نظرت في كل اتجاه متسائلاً عما حدث، وأعدت فتح النافذة: لا شيء في المحيط! وما إن فتحت الباب لأخرج حتى ارتجت النافذة بأشد من سابقتها. وحين تساءلت عن هذا الجي ففتحت النافذة مرة ثانية دون أن أغلق الباب داهمني نسيم بارد انبثق من الجو الحار المرهق: هزّ ياقة قميصي، ونثر شعري، وانتشر الهواء المتجاوب بين الباب والنافذة المفتوحين. أليس هذا عجباً يا كولس؟

- كل ما تكتشفه لأول مرة عجبٌ. - ابتسم العجوز المتخابث، - ولكن الهواء المتجاوب يبدأ مع جانب المهد الأول. ولا أظنهم غفلوا عن تعليمك هذا في الأسرة التي وُلِدْتَ فيها.

- وكيف لا أعرف الهواء المتجاوب؟! أنا أروي لك منشأه... - ظهر العتاب على صوت ردد رغماً عنه وإن كان كلام العجوز حذراً. - ألسنت من قال قبل قليل إن كل ما تلاحظه لأول مرة عجب؟!

- نعم، نعم أنا من قال، - وافقه كولس راضياً بإثارة كلامه للفتى الضخم، - وقدّرتُ فِطنتك، ولم تسألني أي سؤال لسْتُ مستعداً له. لا فائدة من وقوفنا؛ نريخ أرجلنا وأنت ترتاح. اجلس على الصخرة تلك وأرح نفسك من الوقوف في حضرتي. وإن تساءل من يرونا عن الحديث الذي لا ينتهي منه هذان الكسولان في هذا اليوم الخريفي المناسب جداً للعمل فلا توافقه. لا يخلو متحدثان من موضوع جدير بالحديث مهما يكن. وقد وجدت ما تقول وما تفعل ولو كنت جالساً إلى قرية النمل تراقبها في انتظار رفاقك الذين يحتطبون. هذه حال الدنيا... هذه غرفة ذات نوافذ وأبواب كثيرة تتجاوب فيها الريح. يأتي الناس إلى هذا العالم مختلفين في لباسهم، وجنسهم بين ذكر وأنثى، وأشكال وجوههم، ولو تشابهوا في أجسادهم، ويعيشون فيه ويعملون. وقد خِرتُ هذا في بلاد الروم أيام أسري. وبقيت في ذاكرتي هذه الملاحظات في أثناء إقامتي في جنوة. وكذلك الخزر والبورتاس والألان والبلغار.

- والروسيج الذين هزموا قائد خزر توم تقاش؟ - تذكر ردد الخبر الذي سمعه قبل ليالٍ وهو واقف إلى جانب قائمة باب مضافة كولس يستمع إلى المسنين. - يبدو أن هؤلاء، حسب الروايات، أناس أشداء أقوياء جداً... والخزر لا

يفتقرون إلى القوة... - قال كأنه هو من أهين، لا أعداؤه، حتى لو كان يحتقر من قضى والده على أيديهم، ثم استدرك بسرعة: - ليس هؤلاء ممن يستحقون الرحمة. جرى لهم ما يفعلونه هم بغيرهم.

- صحيح يا ولدي، صحيح. ولكن دولة الخزر لن تتفتت بسهولة بمجرد سلّهم إمارة توم تقاش. ثم إنه لا أحد في العالم ليست لديه نقاط ضعف؛ حتى الحجر يتكسر، والحديد يصدأ. إن اتخذنا مثلاً كسائين من جلد الذئب، أحدهما مخيط من الرُّع، والآخر مخيط من ثلاثة جلود كاملة، فأيهما يكون أضعف من غيره؟

- يبدو أن إمارة توم تقاش سقطت من رُع كساء الخزر! - أسرع ردد بالإجابة لأن الكسائين المفرودين أمام ردد لا يحتاجان إلى مزيد من التفكير.

- حسناً يا ولدي، أرحمني، لم أتوقع أن تصل فطنتك إلى هذا الحد. أقول لك الحق: كنت قد طرحت هذا المثال على أناس أكبر منك عمراً بكثير. بل، لا تشعر بالاستياء مما سأقول: كنت أتيت بمثال الكسائين الذئبيين المختلفين فيما أنا ووالدك لاورستن نتحدث في هذا الربيع في النهاية المحتملة لدولة الخزر المتباينة الأصول، ولكن لم أستطع أن أستخلص منه ومن غيره من الحاضرين النهاية التي أتوقعها لهم. أكون قولي إن الكساء مؤلف من رُع مجموعة إلى بعضها جعلك تتوقع الجواب؟..

- ربما كان هذا صحيحاً... - ابتسم ردد ولكنه أضاف باقتناع قوي: - من الواضح أن كل ما هو مؤلف من قطع ورُع سيتفتت يوماً ما.

- ستكون رجالاً صالحاً يا جاري. وهذا كلام صائب. اليوم، بعد حكاية النمل، غيّرت نظرتي إليك. يسرني أنك تود أن تعلم ما لا علم لك به. وأنا مهموم بأنني لم ألاحظ هذه الفطنة في ججان الذي اكتسب قالب الرجال في حضني وبين يدي.

- ليس ججان بالشاب الذي تقلق لأجله يا كولس، - خاطبه ردد دون ألقاب وكأن لم تق بينه وبين العجوز علاقة الأكبر بالأصغر، ثم أضاف: - لا تظنّ أنني أقول هذا دفاعاً عن صديقي ججان. يحتفظ بأثار تربيتك له في حضنك، ونشأته في مضافة يرتادها المستون الحكماء، وتدريبك له على فنون

المصارعة.

- أكيد أن الحفيد يرث شيئاً مني... - قال العجوز مبتسماً كمن لا يبالي بالموضوع، - حسنٌ أنك تحامي عن صديقك، لا تزالان في ريعان الشباب، ولا تزال أمامكما مواقف اختبار صعبة كثيرة. ولكن لا تمدحاً نفسيكما لأنّ إلباس المرء ما لا يستحق من المزايا مهلكة له. وأنا لا أمتدحك أنت، بل أتعجب من حجة ملاحظتك. وعلى ثالثكما داور ألا يعتدّ بقوته المفرطة! والآن سأعود إلى حديث الروسيج الذين سألت عنهم. لم يبق في ذهني من الروسيج إلا حكاية الأسير الذي عاندهم فدفعهم إلى قتله رغم أنهم داروا بي العالم مُكرهاً. ولكن من أين لك أن تعرف لغة أهل الغابة وحياتهم وطعامهم دون أن تعاشرهم! ليس رجالهم ونسائهم كخليط الخزر، هم شقر. ولابد أن الروسيج الآخرين الذين استولوا على إمارة توم نقاش الخزرية محاربون ممتازون.

- أكونون أقوى مِنّا؟! - أسرع ردد بالإجابة كما لو أن شرف الأديغة تعرّض للإهانة.

- ماذا تقصد بالأقوى يا جاري؟ ابتسم كولس في سرّه، - أنقصد القوة الجسدية أم الرجولة؟

- أقصد أن الأديغة ليسوا محرومين من الرجولة...

- لستَ مخطئاً، يُخيّل إلينا أننا هكذا حين نكون على المائدة... نعم، نعم. نعيش نحن، أعراق الأديغة، نميز بين القسوغ والموط والريخ، فنتباعد مثل قرانا المتناثرة. ونصطدم بمواقف كثيرة علينا فيها أن نتخلى عن رجولتنا.

كان ردد يود الإجابة قائلاً: " مثل التجائنا إلى الجبل في ذلك اليوم وأنت في مقدمتنا!.. " ولكنه صبر احتراماً لمن يجلس في حضرته.

- هل تريد أن تقول شيئاً يا ولدي؟

- لا... بل تذكرت لجوءنا إلى الجبل في ذلك اليوم.. - لم يملك إلا أن يقول.

- هذا إذن؟.. ألم تنس إلى الآن؟ - استغرب كولس ما قيل له لأنه يسمعه للمرة الأولى. قال العجوز في نفسه: " هذا الشاب تصل فطنته إلى كثير من الأمور فيفرحني أحياناً ويُجزّني أخرى، ولكن لا أعرف مستقبله وما في انتظاره. ويقلقه كثير من الأمور أيضاً. يتأملك وما يستحق السؤال في رأيه عما يعرف

وعما لا يعرف كثير، والإجابات قليلة. أتوقع أن يصبح أميراً حقيقياً " ثم تابع الكلام دون الإفصاح عما خطر له توأ: - لماذا قال كبارنا: لو كان كل ما في الحياة مرتباً كما تشاء لما احتفظ الناس بالأمل في صدورهم؟ حدث كثيراً أن صرعونا بصدور خيلهم، وأن أزھقنا أرواحهم بضربة سيف، ولم تسعنا الدنيا من النصر. وحدث أيضاً أن أهانونا في الأسر.

- على ما يبدو يا كولس، - قال الشاب الذي وجد فُرجة في الحديث، - بعد الصحو المطر، وبعد المطر الصحو.

- ليس بعيداً يا جاري أن يأتي بعد المطر - الصحو جذب. كنت أود أن تتعمق في فطنتك بأن تفهم هذا أيضاً. - قال العجوز بنبرة عتاب صريح سريع إلى من صار وراءه، وأضاف ما كان يقلقه دائماً شخصياً: - ولكن ليس هذا ما يُقلِّقنا اليوم نحن المسنين. - يحزني في شيخوختي ويقلقني عدم قدرتنا على تحقيق الأمانة التي شغلت اهتمام كبارنا، وأودعوها في أعناقنا. هذا الهم الأديغي يعود فينتصب أمام كل الأجيال. وقد تكلمنا، نحن المسنين، في الموضوع قبل أيام في مضافتنا. متى سنتخلص من الفرقة الأديغية ونحن نعيد ونكرر الكلام، وتتكسَّس الحُطْب على موائدنا؟ نتمنى رجولة غيرنا، نهتم بالخزر، ونغرز في عيون الألان، ونستقصي رجولة الروسيغ؟ سأل كولس على نحو لا تعرف معه إن كان يحْدِث نفسه أم يسأل الأمير الواعد أمامه. ثم أزاح من أمامه الحجر الصغير بطرف العصا. - يا مبارك النسل، نتبادل، نحن سكان بضع القرى التي تعيش في وادينا، نظرات الارتياب، ونتعادي، مقسِّمين أنفسنا إلى قسوغ وزبخ وموط، وكأننا لا نتكلم لغة واحدة، ولا نتشارك في الأسماء، ولا في تشييع الجثامين إلى المقابر، ولا نتزواج، ولا نعيش في عالم أديغي واحد. هكذا شَبْنَا يا ولدي على مماحكات أكابرنا، وأظن الموضوع لا يزال أمام جيلكم. هذه ليست المسألة الوحيدة التي تقلقنا في كِبَرنا. هيا أسمعني رأيك أنت أيضاً. قد ننكبكم ونحن نظن أننا نربيكم فتتكشفون عن أحصنة بلا ترويض ولا تفكير.

قال ردد في سرّه دون أن يُبين على نفسه: "لم أجد صوت كولس وتفكيره وكلامه منفلتاً من قيوده كما اليوم. - إسهامه في حديث الرجال الذين يجتمعون كل يوم في مضافته قليل جداً. وحين يُسأل يكون حذراً في الإدلاء

برأيه الشخصي، مقتصدًا في الكلام. من الصعب أن تعرف موقفه وما يعجبه وما لا يعجبه من لحيته الشائبة وشاربيه الخفيفين إن لم تُمعن النظر في عينيه الباهتتين العسليتين. وحين يتهاثر شخصان بينهما بسعلة واحدة. ما الذي جرى لكولس اليوم يا ترى؟ أخمن أن أحدهم أساء إليه ولكن هيئته لا توحي بهذا. لا، لا أعرف تفسيراً لكلماته الأخيرة، ليس بسبب أنه أعادني إلى وعيي أكثر من مرة إذ لم يقل لي ما لا أستحق، وكذلك لصرف نظره عني، وعبثه بطرف عصاه... أياكون السبب عبثي بقرية النمل على سبيل تزجية الوقت؟ ولكن لماذا أخبار النمل؟ تقبّلتُ منه الحكاية عن طيب قلب... حين قال لي "لا سؤال بلا حل إلا الموت" فسألته: "أهو الوحيد الذي بلا جواب؟" ربما تصورته صار مدعاة للسخرية على مبدأ: العجوز يصبح ثرثاراً يروي الحكايات والأخبار، وإن لم تستمع إليه حرد. أأعيد السؤال؟ ولكن كلام أمنا "من تسأله كثيراً بغضب منك" صحيح، لن أستطيع هذا..."

- إن كنت ترى يا كولس أن أساهم بأفكاري في أفكارك الناضجة أطلعك على رأيي. أوافقك على تثمينك المسنين في زمانكم، ولكن لا أوافق على تبكيت نفسك في ما عشت. لا ننكر فضل أقوالكم وأفعالكم، ألسن من صرح في مضاقتك أن حياة الإنسان ليست كلها أفكاراً؟

- لا يُستبعد أن يحدث مثل هذا بيننا. ولكن آراء كبارنا لن تجد لها مكاناً في نفسي فأحملها. القبة التي لم تُفصل على رأسك لا تستقر عليه. - ستكون صغيرة أو كبيرة. يسرني أن تكرر ما قلتُ أنا أو قاله غيري، وسيسمعه أحدهم، ويحفظه في قلبه إن كانت فطنته تساعد، ويطوّر بها غيرها. من يعرف فقد تصبح بطانة ناعمة للإنسان الظالم. قد يغدو الإنسان كالصخرة ذات التواءات الكثيرة إن لم تُربّه منذ طفولته فتهدّب عقله. وسيمزّقك حتى لتفضّل عليه الوحوش الضارية... نعم أمثلتُك من حديثي، أسمعك يا ردد إن كنت لا ترى فيّ عجوزاً ثرثاراً.

- لن يصفك أحد بالثرثرة ولو وصل في حضرتك الليل بالنهار. ترسلني والدتنا إليك قائلة: أن تجلس إلى عجوز حكيم خيرٌ من أن تجلس على كومة من الذهب.

- حيّا الله رامبس السيدة الكبرى إن كانت تحكم هكذا على المسنين الذين يتسامرون في مضافتي. تظل تشهد بسلوكها على أنها ربيبة أسرة حكيمة.
- ولكن يا كولس... - أسرع ردد الآن أيضاً مغلوباً بحداثة سنه، ولكنه أحجم عن المتابعة وقد بدا عليه خطؤه.

- أكمل ما بدأت به، أكمل، لا فائدة الآن أن تعض طرف لسانك. - لم يغفر كولس الحدة والسرعة اللتين ظهرتتا على ردد، - الخنجر¹ سهل سحبه من غمده.

- لو كنت أمهر في القتال، منه في التهور في الحديث... - استأنف ردد الحديث معتدّاً بأن ما سيقوله لا امتداح فيه للنفس:

- ولكن حتى لو كنت تحكم على والدتنا بالفطنة فقد سألتها يوماً عن سبب نخوض الجالس حين تصبح في حضرته فلم أحصل منها على جواب مقنع. وأنا لم يصل تفكيري إلى جواب للسؤال.
ابتسم كولس ونظر بعين الرضا إلى الأمير الشاب:

- لا تقل إن ذكائك لم يصل إلى جواب، ولا تدنّ والدتك؛ أنت أجبت على سؤالك. إن لم يحترم أحدنا الآخر فمن يحترمنا في هذا العالم؟ في اعتقادي أن الأفضل بين الناس الذين نشأ بينهم هذا الاحترام، سواء كانوا رجالاً أم نساء، أم يتكلمون بلغة أخرى، ألا يشهر أحدهم السيف على الآخر، وهل هناك أجمل من أن ترفع جسدك قليلاً لمن يُقبل عليك وتدعوه للتفضل؟!
قفز الكلب الضخم الذي كان رأسه على قائمته المفرودتين، ونظر نحو الغابة القريبة.

- ما الذي جرى لهؤلاء؟ - نهض كولس فرأى الكلب يستقبل الناس المتجمعين والعربات والفرسان المتدافعين. ومشى العجوز وهو يهز طرف عصاه، - حالاً، لا خير... أهل مستحقوه هاجموا الآن أيضاً خطأينا... - وقال العجوز الذي يركض شاهراً سيفه وراء ردد: - هكذا يا ولدي تبين أن ما قلناه طوال هذا النهار لا فائدة فيه... توقفوا، واهدؤوا ولا تُشبهوا سيوفكم!

¹ ترجمت ما يُعرف في لغة الأديغة بالقامة، بالخنجر.

داور وججان يقفان على العربة المحملة بالحطب وفي يد كلٍّ منهما عمود مدبَّب، يمتنعان الفارسين المهاجمين من الاقتراب منهما. ومن الغابة المجاورة خرج عدد من الفرسان بالإضافة إلى الفارسين الذين يلوّحان بسيفيهما في الهواء. وارتفع من جهة قرية مَزِيَه نباح كلاب ووقع حوافر خيل. ولجم أحد الفرسان الثلاثة الذين اقتربوا حصانه حتى وقف على قائمته الخلفيتين، ونادى ردد:

- هيا يا بن لاورستن، اركب ورائي!

- لا يخوض ابن لاورستن حرباً ركباً وراء أحد! جابه آل مستخقهو المتدافعين إلينا برجولتك.

قفز ججان من العربة مستمداً الشجاعة من الناس المسرعين من القرية للنجدة، ونادى صديقه الذي يقطر الدم من يده اليسرى:

- لا تترك العربة!

اشتبك فرسان الطرفين كأن بينهم حقداً أزلياً. واختلطت على حدود قرية مزبه أصوات المتقاتلين المجنونة، وصهيل الخيل، وصليل السيوف. وصرع صدر أحد خيول آل مستخقهو العجوز الذي ظل يروح ويغدو بين الطرفين يهزّ عصاه ويدعو إلى وقف القتال. وصرع ججان بضربة واحدة الفارس الذي شهر سيفه على جدّه.

- انظر إلى مبلغ إنسانية أولاد الكلاب هؤلاء!.. - تخض العجوز بخفة وهو يسبّ، واعترض طريق ججان. ونادى العجوز الذي أهينت شيخوخته داور الواقف على عربة الحطب: - هيا يا ولد إرم لي العمود المسنن أو السيف! ترك الطرفان اللذان اشتبكا فجأة ثم تفرقا قتيلاً وجريحاً من قرية مزبه، وأسيراً وقتيلاً من قرية مستخقهو في ساحة الاشتباك.

- ماذا سنفعل بالأسير الذي تركه لنا أبناء قرية مستخقهو؟ - سأل أحد الفرسان.

- وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟ - أجاب مشقهو الذي دعا ردد إلى الركوب وراءه. - دعونا نعلقه على رأس العمود حتى لا يغيروا علينا بعد الآن.

- لا نفعل ما لا يليق بنا! - نصح كولس الشباب المدفوعين بحميتهم. - لا يجوز أن تفعل هذا بالأعزل. ولا تدعونا نقترف ذنباً أمام القتيلين.

- أعيذوا إليه سلاحه إذن وأطلقوه إلى الساحة! - لا يزال مشقوقه مُصراً.
 - مهلاً، مهلاً، لا تُضيفوه إلى قائمة الثأر! - رفع كولس صوته، - لا أظن في هذا المكان أحداً، بمن فيهم أنا، لم يُقتل والده أو أخوه أو أحد أقربائه، أو لم يقع في الأسر. يكفي ما انتكبنا من وراء هذا التقليد. كلما فقدنا واحداً نقص عدد الأديغة واحداً، وزاد الأعداء الذين ينهبونا. ليست علاقاتنا نحن أهالي مزبه، ومستحقوه، وششخرس، وبشده، وبزأمر، وأنا به، وأهالي القرى الأديغة الأخرى، حسنة. إن أطمعتموني فسأرسل عدداً منكم يُعيد هذا الأسير والجثمان إلى مستحقوه. سيحلب عداؤنا لنا المزيد من المصائب إن لم يبادر أحداً فيتنازل قليلاً عن كرامته. يقول كبارنا: يمكن أن يُجنَّ إنسان فرد، لا قرية بأكملها. أظن أهل القرية الأخرى سيتفهمونا. وربما يعودون إلى وعيهم فيأتونا ليعزّونا بقتيلنا. لا تُشح بوجهك يا مشقوقه! ربما كان السبب في قولهم: إن الكلام الجميل يُخرج الحية من وكرها، موقفاً يشبه ما نحن فيه.
 - لا يمكن لأحد أن يعرف نواياك إن لم تفتح فمك يا كولس، - وافق ردد الجار العجوز، - سنفكر في الموضوع، واعتبرني في عداد من سترسلهم إلى مستحقوه.

...

لم يعرف من رأوا الفرسان الثلاثة الذي عادوا إلى مزبه في مساء اليوم نفسه تفسيراً لما يرون: ردد ومشقوقه وججان قبعاتهم على رؤوس خيلهم، وهم مقيدون على صهواتها، ووجوههم إلى مؤخرات الخيل لا يرون غيرها، مكمومي الأفواه.

حين وصل الخبر المشؤوم إلى كولس قال وهو يهزّ رأسه: "نحن لم نخطئ في ما فعلنا إن تصرفنا مع جيراننا بإنسانية"

IV

- أسرع يا جدي، داور في حالة سيئة! - هرع ججان إلى جده بعد ثلاثة أيام على المعركة التي جرت على تخوم قرية مزبه. ولم يترجل عن الحصان، ولا دخل الدار. - تورم جرحه، وارتفعت حرارته.

- لم تأتينا بنجر سعيد يا ججان! - ينزل كولس من المسطبة. - كنت توجّسُ

من حدوث هذا للولد البائس... هل تورّم أم تقيح؟.. هيا انزل من حصانك وجهّز لي حصاني. كيف لا تميز الورم من القيح أيها المنحوس!.. وأخيرٌ جاري ابن لاورستن، واطلب منه أن يركب هو الآخر، - يقول كولس لحفيده الذي يجهز له حصانه.

- ردد يعتني بالمريض، وهو من أرسلني إليك على عجل... ما إن رأى ردد ومشقوه العجوزَ كولس بين قائمتي الباب حتى نهضا. وهَمّ داور أن يرتفع بجسمه ولكن الجسد الثقيل تهاوى، فابتسم مدّعياً الرجولة لمن استدعوه له.

- أنظر إلى ثلاثتكم فأراكم شاحبي الوجوه كأن شيئاً خطيراً جرى. بل إن مشقوه كأنه عائد من منجم الكلس، - يجلس كولس إلى جانب المريض فيما يمازحهم. - وأنت في الفراش تدلّل نفسك بحجة أن طرف سيف لمسك؟ هيا أرني جرحك!.. نعم، نعم، تقيح الجرح... لا داعي لليأس يا ولدي. كُن صلباً، سأريحك الآن حالاً. ولكن علينا أن نستدعي اليوم، بل حالاً نحلّش الأصهب¹ الخبير بأمراض العظام. كأن حدّ السيف وصل إلى العظم.

تبادل مشقوه وصاحبه النظرات حين سمعوا اسم الخبير بالعظام. - مهما تبادلتُم النظرات، - قال كولس وهو يحسّ ثقب العظم دون أن يرفع رأسه، - فليس في الجوار من هو أهمُّ في مشكلات العظام من نحلش الأصهب. اسمع يا ردد: ضع موسى الحلاقة في النار. والآن أدر رأسك يا داور إلى الجانب الآخر واستعدّ لتحمل الألم. سأحاول ألا أوْلمك، ليس أكثر من عضبة بعوضة.

- وأنتما أيتها الفتاتان انصرفا عنا! - قال العجوز للأخت الصغرى لداور ولجارتها الصبية، اطلبا أن يُحضّر لنا ماء الفضة الدافئ لتعقيم الجرح. جرح كولس اليد اليسرى المجروحة التي أمسك بها في الموضع الأبيض الضارب

¹ بين اللون الأحمر والأصفر، وهو لون قبيح، ويوصف به أصحاب الوجوه الطافحة التي من هذا اللون، لا الوجوه النحيلة. وفي الكلمة صبغة تحقير ثانية بإضافة حرف واحد يفيد معنى القديم في السياق الأصلي.

إلى الحمرة. وداور، لا يفعل غير أن يعضّ على شفّتيه، لم تصدر منه أنة أو صرخة. وقال حين أحسّ بالقيح الدافئ الأصفر - الأحمر على ذراعه:

- الحمد لله، أنعشتّ روحي يا كولس!

- لينزفِ القيح، دعوه يسيل، - قال كولس وهو يزيد من ضغطه على الذراع، - متى نظّف الدمّ نفسه شعرت بمزيد من الراحة. هيا هاتوا ماء الفضة الدافئ. ولينظفوا الجرح. أظن يا داور، إن لم أخطئ، أن أختك الصغرى هي من تأتي به، ما اسمك يا بنتي؟

- اسمي أينار يا جدي، - شعر ججان أنها تلقت نحو ردد وهي تلفظ اسمها وقد تورّد وجهها الأسمر المتطاوّل. ورغم أنه كتم شعوره فقد عصر الألم قلبه.

- اسم جميل يا بنتي. لا أرى بين الحضور ذوي القبعات الجالسين باسترخاء من سيرأف بأخيك أكثر منك إن كنت ستتحملين. نظّفي الجرح، واعصيه بقماش ناعم. والآن أحتاج إلى شخصين يرافقانني على الطريق. تعال يا جاري، وأنت أيضاً يا ججان. ستناسي المعاملة المشينة التي قابلونا بها قبل أيام ونسافر إلى مستخقوه لاستدعاء نخلش الأصهب.

- الثلاثة عدد قليل يا كولس، - أظهر مشقوه استعداداً لمرافقتهم.

- لا يتعلق الأمر بقليل أو كثير إن نوى من سنزورهم أن يقتلونا أو يأسرونا. مرة أخرى سنحمل إليهم إنسانيتنا، ونختبر إنسانيتهم.

- إذا كان الأمر هكذا يا كولس، - استعجل داور، - فلا فائدة، دعنا نصرف النظر عن استدعاء نخلش الأصهب!

- أعرف أن مرضك غير مُلح الآن يا ولدي، ولكن لا يجوز إهمال العظم المجرّوح. لا أجهل أن نخلش الأصهب ارتكب حماقات كثيرة معتداً بقوته، وأنه رجل قاسٍ مغرور، ولكن لا يعتبر نفسه رجلاً ولا طبيباً من لا يستجيب لنداء الاستغاثة.

- حسناً، صرتم على الطريق، - ابتسم مشقوه، - سأقول لك يا كولس إن لم يقل لك رفاقي لأني أكبر ممن اخترتهم ببضع سنوات، هذا من وراء ما فعله أهل مستخقوه بقبعاتنا ومؤخرات خيلنا، لن تنالوا منه وعداً.

- لن نتعالى قبل أن نصبح على الطريق؛ سنرى ما يحدث. - توقف كولس

عند قائمة الباب كمن نسي شيئاً. - يا مشقوه لا تعجبني طريقة حديثك.
إياك أن تستدعي ورائنا، مدفوعاً بالحمية وغسل العار، فرسان مزبه الذين
امتلاّت قلوبهم غضباً! لا تنس قولهم إن من يُهَنُّ يجد فرصة للانتقام.
- أقول هذا في ساعة غضبٍ تحسباً. لن أستطيع أن أفعل ما خطر لك... مع
السلامة!

تغيّر جوُّ الصباح كما يحدث كثيراً في الجبال. الريح المفاجئة التي هبّت في
الوادي تلمّ أوراق الأشجار المتساقطة، وتقرب بين رؤوس الأشجار العارية.
وتُصادم الأغصان وتشر أعراف الخيل، وتقذف بأذناهما بين أفخاذها. وتبعث
بأطراف أكسية الفرسان. وتهجم على الفرسان لتطير قبعاتهم من رؤوسهم،
وتصدّم ظهورهم. وتختطف أصوات حوافر خيلهم فتنتشرها في الوهدة. والشمس
التي ابتهلوا إليها قبل انطلاقهم غيّبتها السحب البيضاء المائلة للسود. وأحياناً
تطل فجأة من بين القمم التي تمرّق السحب فتشرق على آمال الفرسان الثلاثة
الذين على الطريق، وعلى ما يشغل بالهم. ثم تهرب قبل أن يجدوا الفرصة
لاستقبالها.

- الجوّ عاصف لا أعرف سبب عتبه علينا! - قال ججان وعينه نحو جدّه.
اصطنع كولس سعلة فيما يضمّ طرف الكساء إلى جزمته، ولم يردّ. وبعدما مشوا
مدة على يمين نهر بشده، سأل ججان غير مدركٍ تفسيراً لصمت جدّه: -
أراك لا تقول شيئاً يا جدّنا!

- ماذا تريدني أن أقول يا ولد؟

- وكيف لي أن أعرف؟!

- وهذا ليس جواباً يا ولد. - قال كولس بعد قليل حين تجاوزوا المنعطف
وبدؤوا بالانحدار من الجبل، ثم سأل بعد مسافة ناسياً حفيده: - وأنت يا
جاري ما أخبارك؟ الجو معكّر يجلب الكسل للهم، أليس كذلك؟

- لن أبالغ إلى هذا الحد يا كولس، - قال ردد متمهلاً كالعجائز، - ولكني أنا
أيضاً مهموم بثقل طريقنا. كان الصباح لطيفاً حين حملنا جُرْح داور على
الركوب، كانت السماء صافية، وشمسنا معنا.

- وهل فارقتنا الآن؟

- لا أعرف.

- وما الذي لا تعرفه أنت أيضاً يا ردد مثل حفيدي؟ - انفلت من كولس عتائه، وأكمل سؤاله حريصاً على صوته: - وكيف تقولان: لا نعرف، وكأنكما صبيان! هل تواطأتما اليوم فتبلعا ما تريدان قوله؟ ولماذا تعتب علينا الطبيعة؟ وبماذا تديننا الشمس العظيمة إلها؟ - أجايمها العجوز دون ملاحظة، - لا تتعجبا من هبوب الريح وحجب الغيوم للسماء، بل من سقوط هذه الصخرة العظيمة من الجبل. أعجب ما في الوجود هو مجيء الإنسان إلى العالم، وحياته، ثم رحيله. وما قد تغير صباحنا الجميل ويصدف أن تُفاجأ بالبرد المؤذي فيما نحن نترقب المطر الصيفي الحلو. كان الخزر تجاوزوا قرينتنا دون مهاجمتها ولكن حوافر خيلهم خربت محاصيلنا ومراعينا وكروم أعابنا وبساتيننا، وخلعوا أشجارنا المثمرة. وقضوا على الفرسان الذين تصدّوا لهم. وارتكبوا مجزرة بحق عدة أسر وأحرقوا بيوتها. وفيما نحن سعداء بنجاتنا من الخزر إذا بقرتين من قرانا تتحاربان. ما الكنز الذي لا تستطيع هاتان القريتان أن تتقاسماه؟ أنتم يا ججان من أتكلم عليكم، من الذي استاء من أصوات فؤوسكم حين ذهبتم إلى الغابة للاحتطاب؟

- هو نخلش الأصهب الذي تذهب بنا إليه نترجاه.

- وما علاقة نخلش الأصهب بموضوعكم؟ لم يكن بين من هاجموكم. - تذكر كولس ما قاله مشقوه قبل أن يصلوا إلى المنعطف ولكن لم يكثرث به. - ما الذي أتى برجال مستحقوه إلى غابتنا؟ ولماذا استأوا من أصوات فؤوسكم. - تذرّعوا بأننا أجفلنا الغزلان فهاجمونا... لم نفكر في الاشتباك معهم، وحين أدركنا رؤوس عرباتنا كان نخلش هو من حرّض أهل القرية على اللحاق بنا - قال ججان وكنتم أن لجده علاقة بالكلمات المهينة.

تذكر كولس أنه تحاتر يوماً قبل خمس سنوات أو ستّ مع نخلش في إحدى مضافات ششخرس. وكان كظم غضبه إكراماً للاورستن والد الأمير الشاب على يساره، فوجب عليه بعدما أسرع إلى سيفه أن يتراجع. ابتسم كولس في سرّه: الرجل الأضخم مني جداً كان آذاني، ما كنت قادراً على مقارعته. ولكن مع اعتقادي أنني أفهمته بالكلام قدرتي على حماية شرفي، ولو على حساب

حياتي، فما كنت لأجني خيراً من الرجل المجنون بقوته لولا إشارة لاورستن التي تطلب مني الهدوء. وظل بعد تلك الحادثة يرسل إليّ كلمات سخيّة، غير أنني لم أسمح له أن يشتبك بي قولاً أو فعلاً. ورغم توتر علاقاتنا فقد زارني قبل سنوات مع كاهن رومي. ما العمل؟ من يدخل مضافتك، ولو كان عدوك، ضيفك كما يقول مسنونا. وبعد تلك الزيارة لم يمر بيننا أي كلام خيراً كان أم شراً. وانظر ماذا فعل الآن بحفيدي!.. هل يمكن ألا يتذكرني؟ ظل ججان يوماً وليلة في خدمتهم في مضافتي..."

- يا ججان، - خرج كولس من أفكاره، - وأنت أيضاً يا ردد، أنا ألقّب نخلش بالأصهب بسبب تقدمي في العمر، ولكنكما لا يجوز أن تنادياه أنتما به سواء في حضوره أم في غيابه. سيُسّر إن ناديتموه نخلش المجير أو نخلش الصياد.

- كيف تريدنا أن نفعل ما لا يتقبله القلب يا جدّنا!
- وهل تظن أن قلبي أنا يتقبل كل شيء؟! - لم يقبل كولس ما سمع. و أضاف بعد قليل: - أنت المسؤول الأول عن كل هذا يا ردد، - لماذا تدفعني إلى كثير مما لا أحبه، ومما هو من واجبات الأمير بحجة أنني الأكبر؟ لماذا قالوا: لا تلتزم بما لا تستطيع، ولا تحمل ما لا قدرة لك عليه؟ هل ستسمح لججان أن يقف في غيابي على يمينك لأنه أكبر منك بعام واحد في حين لا يرضى عنه من يراكما؟

- أنت يا كولس بمثابة أمير في نظري ولو لم تكن من أسرة أمراء، - أجب ردد الأمير الشاب بما يدل على استعدادده للسؤال. - وكان هذا موقف والدنا منك. وعلى هذا كان يريني. وموضوع ججان وداور ومشقوه وغيرهم ممن كانوا يقفون إلى جانبي موضوع آخر. إن تحققت أمنيّتنا فهل نعيش حياتنا ومن يخطر له يهاجمنا وينهبنا؟ هؤلاء أتأمل منهم متى أصبحنا دولة وطبقنا النظام أن يصبحوا أنصاراً مخلصين لي وإن كنت لا أعرف رأيك يا كولس في أفكاري؟

- ولماذا لا أؤيدك يا ردد إذا كنت تفكر في بلادك، في قريتك والقرى المجاورة!
- شدّ كولس الزمام مما سمع، ثم أضاف وهو يستأنف سيره: - لو لم يكن هدفك خيراً لكان لي تعليق آخر... ولكن يسرني أنك لم تتخلّ عن أهداف

والدك التي لم يسمح له العمر بتحقيقها، وتنوي أن تتابعها بعقلك الشاب.
والآن لا أعرف رأي حفيدي في ما كنت أعتب عليكم فيه، ما رأيك يا
ججان؟

- ججان يؤيدني، - أسرع ردد بالجواب بدلاً من الصديق، - ولكننا نختلف
في واحدة.

- أن نختلفا في واحدة أمر سيء. هذا نصف توافق، - قال متعجباً من
الكلمات الأخيرة التي سمعها، والتفت ثانية إلى حفيده، - وما نقطة الخلاف؟
لا أظنها سرّاً، أحب أن أعرف.

- ولماذا يكون سرّاً يا جدي، - ابتسم ججان في وجه جده، وألقى النظرة
نفسها إلى الصديق: - لا يمكن أن يكون بيننا مثلٌ هذا. أقول إن الاحتفاظ
بجيش كامل لحماية الأرض فحسب أمرٌ صعب. إن كنا لا نستردّ ما يسلبنا إياه
أحدّهم فما نوع هذا الجيش؟ .. - اختتم ججان ما يشغل باله.

- يبدو يا حفيدي أن مستقبلنا هو نوع من النزاع الضاري!
- ألسنّ يا جدي من يقول إن عالمنا هو من هذا القبيل؟
- صدف أن قلتُ هذا في مواقف معينة، واقتتال ذلك اليوم شاهد على هذا.
ولكن ما لا أقول فيه مثل هذا أكثر من سابقه.

- لا أستطيع أن أفهم ججان، ومشقوه خصوصاً هذا الكلام. - أفلت من ردد
قلقه وهو يظن أنه يحامي عن صديقيه. واستدرك بسرعة: - ولكن لا أدعي
أنها مسألة خلاف خطيرة. إن لم نوقّق بين قرانا، ولم نوحّد بين القسوغ والموط
والزبخ، ولم نتحقّق الوحدة في بلادنا، ولم نوثّر الامن للأديغة، فكيف نجهز
جيشاً نرحف به إلى الأقوام الأخرى؟

- ألا يهاجمنا الخزر، وينهبنا الألمان؟ - لا يزال ججان يجادل.
- نعم يهاجمونا وينهبونا، - يرتفع صوت ردد وهو يوافق الصديق، - ولكننا
بحاجة إلى جيش يمنعهم ويحمينا منهم.

ابتسم كولس راضياً بنقاش الأصدقاء، قائلاً في نفسه: "لم نكن في شبابتنا نشغل
بالنا بمثل هذه الأفكار، - لا أقصد أنه لم يكن هناك ما يشغلنا ويُقلِّقنا،
يسمونني كولس العجوز ولكن هل سنوات عمري الستون كثيرة جداً؟ أمس

فحسبُ كنت صبيّاً أمْسِك يد جدّي. وأتذكر أول مرة رفعتني فيها إلى صهوة الحصان فرماني. وكيف كانوا يكلفوننا، نحن الحرّاثين، بحماية بشده دون أن نجد الوقت للاستراحة فيه. وكيف كانوا يسلموننا الأقواس، قائلين: إليكم إن كنتم تريدون أن تأكلوا وتصبحوا رجالاً، دون أن يعبؤوا إن كنا قادرين على شدّ الوتر أم عاجزين، فيكلفوننا بمجابهة الخنزير البري الذي لا نعرف من أين سيهجم. وكيف كنا نتشاجر، أولاد الحي الشمالي والحي الجنوبي، بعد أن اكتسبنا صفات الوحوش التي نصيدها حتى تسيل دماؤنا وتتكسر أنوفنا؟ ولا نزال إلى الآن نحفظ بهذه العادة. ولا نزال، نحن أبناء القرى المتجاورة، نسئُ أسناننا وتبادل الهجمات. ونهابو الخزر والألان؟ ولو لم يكن إلا العذاب الذي ساموني إياه نصف عام في "قاف" ثم على البحر، دون أن يظهر من يفتديني!.. والآن، من حسن حظنا، لا من سوءه، حتى لو كان عالمنا ما يزال قاسياً، أن نرعى هؤلاء الشباب في شيخوختنا. أتأمل العالم الذي تضيق فيه مساحة الفرح وتتسع مساحة الألم فلا أرى شيئاً قد تغيّر. الجبال تتراصّ وتبادل نظرات الغيرة متنافسة على من هو أعلى. وكذلك مزبأه. العالم حتى لو كان يتغير أربع مرات في مقياس الزمن، لم يفارق رؤوس الجبال ولم يختفِ من بين الوديان. ونهر بشده منذ وعيت يلطم أحجاره بعضها ببعض جاحظاً بعينيه، وليست قليلة الأوقات التي يمكن أن تعبر فيها النهر من فوقها... مهلاً، مهلاً... اسمع ماذا يقول هؤلاء... " - صحاكولس من أفكاره المتسابقة.

- أعدّك جمعت هؤلاء، - يقول ججان، - ألف فارس أو ألفين، وربما أكثر، وربما أقلّ، - ماذا ستطعمهم، وكيف؟

- لن يكون جيش الفرسان وحيداً، - لا يتوقف ردد، - سنحتاج إلى جيش مشاة أيضاً.

- حسناً، حسناً، جهّز جيش مشاة أيضاً. ولكني أسألك أيضاً: ماذا ستطعمهم، وكيف ستسلّحهم؟

- ستطعم القرى الجيش وتسلّحها إذا أرادت أن تعيش في أمان.

- ولكن ألا تفهم يا ردد، - يتجادل الصديقان ناسيين أن الفارس الثالث الأكبر منهما يتوسّطهما، - أن الجيش يجب أن يعيل نفسه؟ هذا ما يفعله

الخزر والألان والروسيح الذين تتحدث عنهم.

- صدعتما رأسي، وثقبتما أذني. ومن أجل ألا تتناقلا الكلام من فوق رأسي سأبتعد عنكما، - قال كولس دون حقد، وحث الحصان بنعومة، وسبقهما.

- لا تمثّل لي بالخزر والألان النهائيين! - لا يقتنع ردد. وما يتبادل الصديقان من حديث لا يتجاوز أذني كولس.

استأنف كولس أفكاره المتقطعة: "هذا هو الواقع، نحن لم نخطر لنا مثلاً هذه الأفكار حين كنا في عمرهما. يحثّل إلينا أن العالم لا يتحرك، غير أنه يظل يصدم الماضي بالحاضر. ويغيّر نظرتيه إليهما، ويوسّع أفقنا مالئاً أذهاننا بالأفكار. ويجعلنا نلتفت إلى الماضي. وهما رفيقاي الشابان يتجادلان مهمومين بالموضوع نفسه..."

- ولكن السيف يصدأ إن لم يُستعمل يا ردد، - حملت النبرة الراضية لردد كولس على رفع رأسه. وجعلته يغير اتجاه حصانه، وقال للمتجادلين:

- كنت قررت ألا أتدخل في النقاش بينكما أيها الشابان فلم أطق صبراً. صحيح يا ججان أن السيف يصدأ مع الإهمال، ولكن خير أن يصدأ من أن ترفعه بوجه البريء. أليس هذا ما تريد أن تقول يا ردد؟

- ليس تماماً، ولكن في ما قلته يا كولس شيئاً من الحقيقة. نتشارك، ججان وداور ومشقوه وأنا، في ضرورة امتلاك جيش، ولذا يسرّنا أن تؤيدنا.

- لا أظن يا جاري أن الخلاف بينك وبين ججان قليل، - ابتسم كولس، - لا تدعه يردفك بهذه الحجة، سيحتل سهوة حصانك.

- ما أضعف ثقتك فيّ يا جدي!

- أنت وأنا ليس وُضعنا مهماً يا حفيد، - قال كولس وهو يحثّ حصانه دون أن يلتفت إلى أحد الفارسين اللذين عادا إلى صُحبتيهما. - ألم تسمع أن قائمة البقرة لا تقتل عجلاً؟ وإن لم تسمع فاحفظه في قلبك. لن نختلف أنت وأنا، سيبقى الودُ بيننا. إن كان عند الأمير الشاب مثل هذه النية فأين نذهب به؟ هو صديقك أنت، وجاري أنا. سنعضده. ولكن هذا المشروع ليس سهلاً كما تظنان. لا أعرف إن كنت سأشهد ميلاده... - حثّ كولس الحصان بباطن قدميه. ولحق به الآخران.

حُيِّل إلى الفرسان الثلاثة حين انحدروا من المرتفع وصاروا في الوهدة أن الريح التي كانت تلاحقهم هدأت بعدما توارت في الزاوية. وظهرت من بعيد بيوت القش المتناثرة على ضفتي النهر المتقاربتين حيناً والمتباعدتين حيناً. كان الدخول إلى قرية مستخفوه خطراً رغم أن الوقت لم يتجاوز الظهيرة، فوصلوا إليها سالكين الطريق القادم من جهة الغابة الصماء. واستأنف كولس أفكاره وهو يصغي إلى وقع الأقدام المتناثر: " حسناً، حسناً يا ردد، يرتبط مشروعك بعالم الأديفة كله، لا بشخصي، سواءً عشْتُ إلى حين تحقيقه أم لم أعش. سأبتهل إلى آلهتنا كلهم إن كانوا سيحققون لك هدف والدك. ولكن ها قد ظهر قبل أن تبدأ مشروعك من يعترضك ومن يرمي أفعى العقبة¹ في طريقك. ولكن إن كان عقلك ومُلكك قادرين على تحقيقه فلا تتراجع! يسرني أنك لم تهجر مشروع والدك القديم، وأنك تخطط على تفصيل والدك. وليُحِمِك إلهنا الكبير، ولنغمرك آلهتنا الأخرى بالرعاية".

اعترضت مجموعة من الفرسان المسلحين فجأة كولس ورفاقه من أمامهم ومن خلفهم عند المكان الذي تنقطع فيه أصوات الغابة. كانت خوذاهم مدبية. ودروعهم الجلدية تبدو من تحت أكسيتهم. ومن خلفهم تظهر سهام قسيهم. وأيديهم اليمنى على مقابض سيوفهم. وبين آذان خيلهم رماحهم المدبية جاهزةً لالتقاطها.

- لا تتهاوننا، ولكن اهدأ، - همس كولس للشابين، - أظن أن هؤلاء من مجرمي الموط، - أنظر إليكم فأراكم لستم من الخزر ولا من الألان. - نادي كولس الفرسان الذين أحاطوا بهم من كل جانب. - وماذا في قلوبكم بعدُ نحونا أيها الموط؟ كنا دعوناكم إلينا لو لم تعترضوا طريقنا. ولكن يبدو لي من مظهركم أن لا نية للتفضل عندنا.

- أنت تثرثر أيها القسوغ! - ناداه الفارس الرُبعة الذي يتوسطهم: - إن كنتم ترغبون في القليل من هواء الحياة فترجلوا من أحصنتكم، ثم ضعوا أسلحتكم جانباً، وقفوا على حافة هذا الوادي!

¹ إشارة إلى القول الأدبجي المأثور: ما تهيَّب منه مرصود بأفعى.

- ألم تسمعوا أيها القسوغُ ذوو السيقان العوجاء ما أمركم به قائدنا؟! - صرخ فيهم أحد الفرسان من المؤخرة.

- من هذا الذي ملأ غابتنا صراخاً؟! - قال نخلش الذي خرج من الغابة مقابل الفرسان، واستغرب ما رآه: - يا كولس كيف حصركم هؤلاء المجرمون بين طرفي ملزمتهم وأنا أتابعهم؟

- في العالم تجري أحداث كثيرة. وأنت ترى ما جرى لنا يا نخلش.
- وأنت أيها القسوغ القصير الرقبة ساقك الله إلينا. - مرة أخرى نادى الفارس المتقدم من بين المحاصرين، ترحل من الحصان وضع سلاحك!
- جاجني بصدر الحصان إن كنت رجلاً! - امتشق نخلش السيف، وقال لمن تحالف معهم تواء: - أنا أتكفل هؤلاء، ولكن لا تسمحوا لمن وراءكم أن يتقدموا.

أطلق نخلش الحصان الذي هاجمه بصدرة دون أن يجابهه، ودقَّ عُنق الفارس بالسيف، ورماه عن ظهر الحصان. وحين اندفع الآخرون قفز عن ظهر حصانه إلى الحصان المعادي الذي بقي بلا فارس فأوقفهما ولو لغمضة عين، وحين رأى الفارس الثالث جاره وقد انغرزت السكينة التي رماها نخلش في عنقه استدار سريعاً وهرب تاركاً جماعة كولس. نادى ردد الفارس المنهزم، غير أن نخلش لم يقبل:

- اتركه! لن يذهب بعيداً سيقضي على يد أحدٍ من أمثاله!
أحضر ججانُ الفارسَ السليم من المجرمين إلى حيث يقف نخلش وردد ممسكاً به من تلايبه. وتبعهم كولس نافضاً الغبار عن جسده.
- ما هذا؟ سأل نخلش ججان.

- هذا الفارس، - قال كولس بدلاً من ججان، - تبين أنه جبان.
- لأنه كان التجأ إلى أسفل بطن حصانه؟ - ابتسم نخلش مستبشعاً من أمامه.

- لا، لم يصل إلى هذا الحد من الذعر، ولكن حين ضربنا رأسه تبين أن خوذته متينة. فبقي على الأرض فاقدًا الوعي يراقبنا حتى انتهى المشهد.
- إن كان الأمر هكذا فأنا أعرف ما سأفعل به، - التمتعت عينا نخلش، -

اخلع كاسية ذراعك الجلدية!

- ماذا تنوي بحق هذا الفارس يا نخلش؟ - قلق كولس.

- سأوقفه على ضفة الوادي التي طلبوا منكم الوقوف عليها.

- لن أدعك تفعل هذا يا نخلش إن سمعت كلامي، - اعترض كولس.

- وماذا سنفعل به عالة علينا؟

- كُرمي لنا أيها الزعيم المبارك، - قال ردد حذراً جداً على من أمر بتقييده على

ظهر الحصان قبل أيام، - دعونا نُطلق سراح هذا الرجل. متى عاد إلى أهله،

أبناء قومنا، روى لهم إنسانيتنا ورحمتنا. ووصل الخبر إلى الزبيخ أيضاً.

- لم تُراع مشاعرهم قبل أيام، أنتم أهل مزبه، فمن عرف أيها البائس أنك ابن

الأمير لاورستن؟ كنت شَبَّهتْك به، ولكن لم يكن ما يلجئنا في ذلك اليوم ونحن

في ذروة الحمية. إن كان هذا رأيكم أطلقته كرمي لوالدك ولكولس. انزعوا منه

سلاحه، واتركوا له سكيناً مفلولة ليأكل بها، ودعوه يركب حصانه.

أخذ نخلش لنفسه ملابس زعيم المهاجمين وسلاحه، وترك البقية لجماعة كولس.

وقال لهم بعد أن وازوا الجثث الأربع تحت رجم أحجار إلى جانب الطريق، ناوياً

الانصراف:

- هذا هو يا كولس ما يمكن أن يُنجد أحدنا الآخر في المواقف الخطرة...

ولكن إن تجاهنا قريةً مقابل قريةٍ كما في السنين السابقة فالأفضل ألا نصل إلى

حدِّ الاقتتال.

- ماذا كان يحدث لو لم نكن هكذا يا زعيم الخير؟.. - سأل ردد ثانية الرجل

صاحب القلب المفتوح الكبير.

- ما العمل؛ هذه طبيعة الحياة التي نحياها؟ - قال نخلش، ثم أضاف وقد بانث

ابتسامته بصعوبة من الوجه الطافح، غير مُحْفٍ أنه يقصد نفسه: - الأقوى

يصرع الأضعف، أظن يا كولس أن هذا الأمير الشاب سيصبح ذا قوة هائلة

كوالده. لم نلتق أنا ووالدك يا أخي الصغير في ساحة معركة، ولكن ما كنت

أسمح له أن يصرعني لو تصارعنا... ولكن إن أصبحت أميراً فلا يُستبعد أن

نتجابه في ساحة الحرب... متى جرى هذا؛ فقد نختفي وراء زاوية ما كهؤلاء

الذين واريناهم تحت تلك الأحجار... ماذا يا كولس؟ كأن ما تسمعونه مني لا

يُعجبكم! لا أعرف إذن ماذا أروي لكم فيعجبكم جميعاً... سأقول إذ أنتم أيضاً على طريق سفر: ليعد كلٌّ إلى بيته، وبيتي أنا أفضل البيوت¹، وأنصرف. أدعوكم بجِدٍّ يا كولس إلى بيتي. سأستضيف الأمير الشاب، وأكرمكم بصحبته. وسنجد في مضافتي من نروي لهم ما فعلنا بالموط. من هذا الشاب الرقيق الذي يرافقكم؟ يُخَيِّل إليّ أنه كان في عداد من أتوا لاصطحاب الجثث قبل أيام.

- هذا الشاب حفيدي، ابن ابنتي، واسمه ججان.

- هذا هو ججان! - انتفض نخلش الأصهب برأسه الثقيل. واسم حفيدك لا أسمعه لأول مرة. يروون سيرته في مستخقه بصفته مصارعاً جيداً. ولكنه لن يكافئني قوةً.

- من أصارعهم يا زعيم الخير هم من يقاربونني عمراً وجسداً. ما الفائدة في أن تقطّع الحطب مع من لا تكافئه؟

- وفي مستخقه من يكافئونك يا ججان... إن كنتم تنوون أن تعرّجوا علينا يا كولس فعودوا. وإن كانت الإهانة التي ألحقناها بمؤلاء الشباب في ذلك اليوم السبب في ترددكم فلن أخفي عنكم الخبر المنتشر عندنا في هذا الخصوص: حين سمع كبارنا ما جرى لم يقصّروا في لومنا...

- لو سمعوا هذا في مزبه لارتاحوا. - قال كولس، وصارحه بسبب سفرهم: - اعتبرنا استضافتنا يا نخلش؛ أنت من كان مقصدنا.

- ماذا كنتم تنوون بحقي؟ - استغرب نخلش ما سمع.

- الجرح الذي أصيب به أحد الشابين في الغابة قبل أيام وصل إلى العظم. حالته لا تسرّ. فعلتُ ما أنا قادرٌ عليه، والآن أنت أملتنا.

- أيُّ جرح؟

- أظن طرف السيف وصل إلى عظمة الساعد الأيسر.

- هل قلت: عظمة الساعد؟ تهشّم العظم أهوٌّ من جرح عظمة الساعد بطرف السيف... لا بد أن أجد حلاً ما... لا أعرف بم أعدكم. تسببنا في

¹ عبارة كانت تُردّد حين افتراق الأصحاب. والترجمة الحرفية: كلٌّ بيته قائمةٌ عجل، وبيتي أنا من ذهب.

مشكلات للقريتين. - ألقى نخلش ذو الوجه الطافح نظرة شاردة في وجه موفدي مزبه، ثم أطرق برأسه الضخم وغمغم: - ولم يكف هذا بل اختتمناها بتصرف أحمق آخر فلا أعرف إن كان أهل مزبه الذين لم ينتهوا من مأثمهم يتفهموننا... مهما كان حملك يا نخلش فهو مسؤوليتك! أظن اليوم فحسب تجد نفسك في مأزق! - خاطب نخلش نفسه، ثم نهض وقد زاد ضخامة على ضخامة. - تعالوا لن أدعكم وأنتم ثلاثة موفدين من قريتكم تعودون دون ضيافة. - وسأل بعدما ركب: - هل أقمت له حفلة "جابهش"؟¹ ابنا كُسرت إصبعة الصغرى فحسب ومع ذلك تقام له حفلة جابهش كبيرة... حسناً، لا تقل لاحقاً هذا مُبكٍ وهذا مُضحك! - ضحك نخلش مما قاله بصوت أجش متكسر.

V

سمع أهل مزبه بقدوم نخلش الأصهب فتدافعوا إلى بيت داور. أغلب لابسي القبعات من الصبيان. والمراهقون ينظرون من فوق السور راكبين أحصنة عارية. والأصاغر سناً لا تتسع لهم نافذة غرفة داور. وفي مكان آخر، قرب أهراء الذرة الصفراء، يتجمع عدد من الرجال. وبنات الجيران الصغيرات يتمسكن بأذيال النساء المتجمعات على مسطبة المطبخ. - ابتعدوا لحظة عن المريض! - يُبعد حقار الرجل الصلب المعتد بنفسه، مع شنبه الذي يسبقه بقبعته المنتصبة عالياً، ونطاي الذي يحرص على ألا يتأخر عنهما، الصبيان الذين تضيق بهم المسطبة، عن نافذة غرفة المريض. - أنتم ابقوا في الفناء، - يتوقف حقار الذي أفسحوا له الطريق، ويُصلح وضع نطاقه مصلياً كتفيه. ويتظاهر بإعادة الخنجر الكبير إلى مكانه، ويصطنع سعة راغباً في أن يستمعوا إليه.

¹ يكاد الأديغة ينفردون بهذا النوع من الحفلات التي تقام للجرحي الخطيرين وأصحاب كسور العظام للتخفيف من آلامهم. وهي أشبه الآن بحفلة سمر أو منوعات، لها تقاليد خاصة بها، مثل نوع من الحلوى القاسية جداً يتنافس الشباب على اقتطاع شيء منها بأسنانهم دون استخدام أيديهم.

- أراك يا حقدار لم تطرق السندان¹ - يلاحقه أحد الصبيان.
- من هذا الذي يعلمنا واجباتنا! - يلتفت حقدار باستياء.
- طلبت منك السكوت! - استدار شنبه نحو مصدر الصوت كذئب لا يلوي عنقه. وألقى نظرة على الصبيان الذين يتفرقون. ثم نظر بقسوة إلى الصبيان الثلاثة الواقفين على المسطبة، وسأل نطاي بعينه متسائلاً عن المتكلم من بين هؤلاء. ثم حافظ على مكانته بصفته متقدماً في العمر: - وهل حقدار، الزعيم المبارك، له قرين من الجنّ فيطرق السندان؟!
- اضربوا هذا الثرثار ثلاث ضربات بسوط الحصان ريثما أكلم نخلش.
- اطمئن من هذه الناحية، سنلبي طلبك يا كبير. - قال من يُقجم قبعته الكبيرة العالية في الباب في إثر نطاي. ثم استدار سريعاً وسأل الصبيان الثلاثة: - أي ثرثار منكم أساء إلى كبيرنا بهذه العبارة؟
- أأكون في المسألة ثرثرة إن تهبوك إلى نسيانك عادة الطرق على السندان؟ - سأل أدشس الصبي الأشقر القصير الواقف بين رفيقيه.
- يبدو أنك أنت من يربي كبيرنا، - أسرع شنبه فامتشق السوط بعنف، - إن كان جلدك يحكك فأدرْ ظهره!
- ولماذا نرهقك إن كانت جلودنا تحكنا؟ - أيد الصبي المستدير الوجه رفيقه أدشس باسمًا. - سنقف إلى العمود ونحك به ظهورنا.
- ولماذا نُضعِض العمود، - ساهم الصبي الثالث في الحديث دون مبالاة، - سنطلب منه نفسه أن يحكها لنا.
- هؤلاء يا شنبه، - قال نطاي الآن بصوت منكسر، متظاهراً بالتعجب، - تخلّوا عن تقاليد الصغير والكبير، نحن الأديغة ننتكب!
- وهل كانوا تفوّهوا بأي كلام يجري على ألسنتهم لو حافظوا على هذه التقاليد؟.. - غمغم شنبه أيضاً ناسياً أن يرفع صوته، قائلاً في نفسه: لا يجوز أن تسمح هؤلاء الصبيان أن يحاوروك. وها هي القبعات الواقفة مرتاحة إلى

¹ وكان الآتون إلى حفلة الجابشه يطرقون السندان على باب الدار ثلاث طرقات إيذاناً بقدومهم فينصرف قسم ممن في الحفلة لإفساح المجال للقادمين.

جانب مخزن الحبوب تنصت. هؤلاء ستظهر مواقف كثيرة في الغابة الجبلية نختبرهم فيها. أغرموا بكولس العجوز اللسن. لا أعرف بم يفوق كولس الضئيل الجسد، جدُّ ججان الغبي، حقار الزعيم المبارك. ما إن يقدم ضيفٌ إلى القرية حتى يصطحبوه إلى مضافته. ومضافة حقار مزارٌ للناس ولكنهم يتجاوزون بالضيوف باب داره. - صحا شنبه من أفكاره المتضاربة هليعاً من شروده، وفرح بما ليس في قلبه ولا يقدر عليه: - لن نفعل ما أوصانا به حقار بصددكم ريثما يتحدث إلى نخلش. ولن نسمح لأحد أن يدّعي أن أهل الحي الجنوبي من القرية سببوا ازدحاماً في حفلة أهل الحي الشمالي. ولكن لا تنسوا ثلاثتكم أن عليكم منذ اليوم ديناً عليكم تسديده.

- قد لا تعرف يا شنبه كيف سنتصرف مع هؤلاء حين يخرج كبيرنا من الغرفة... - أضاف نطاي.

- نعم، نعم، وافق شنبه رفيقه، - هذا يتعلق بقرار كبيرنا. تعال نُخالط هؤلاء الكبار الواقفين إلى جانب المخزن ولو أنهم جميعهم من أهل شمال القرية.

- نهاركم سعيد يا كبار أهل الشمال وصغارهم. - نادى شنبه من وراء نطاي، سالباً منه حقَّ الكبير في التحية.

لفتت التحية المستعجلة لأحد الرجلين المهمومين بتقاليد الأكبر والأصغر أنظار الرجال المجتمعين عند المخزن. كان بين الرجال الواقفين من قال: "ما أغرب سلوك هذين القادمين من أدنى القرية، وثالثهم حقار الذي دخل الغرفة!"، ومن سخر منهم في سرّه، ومن أشاح بوجهه، ومن ابتسم لهم من خارج قلبه. غير أن الأكبر بينهم ردّ على التحية باسم الجميع:

- إن حبيبتونا يا أهل الجنوب فنحن أهل الشمال نرد على تحيتكم. وسأل الرجلين دون انتظار الجواب: - لماذا لم تدخلوا إلى الغرفة مع حقار؟

- كان هذا ممكناً، ولكن لا بأس، - ثم أضاف شنبه إلى ما قاله معتقداً أنه ينطق بالصواب: - ولكن الكبير في عاداتنا، نحن أهل الحي الجنوبي، يبقى دائماً الكبير. ثم لماذا ندخلُ كلُّنا أمام الضيف الكبير نخلش؟

- متى احتاج إلينا ليقادِمنا إلى الضيف ونادانا، - كان جواب نطاي جاهزاً، - فلن ندعه ينتظرنا.

هاجت فجأة أفكار شنبه من جديد: " ما أكثر ما تشاجرنا، أهل شمال القرية وأهل جنوبها... هذا الجالس إلى جانب المخزن ولم ينهض احتراماً لنا يبدو أنه نسي ضربة العمود مني فتسببت في تشويه رقبته. ولكنه يرميني بنظرة استياء خفية. والآخرون؟ انظر كيف يتصرف هؤلاء!.. ظهر بينهم شاب يسمونه ردد، لا يزال أنفه يسيل، اتخذه أميراً، بعدما سعيث في قتل الخزر والدّه. يعتدّون بقيادته وهو في الحق ليس أميراً. نسوا أن أهل مستخقوه أمسكوا برفاقه حين ذهبوا إليهم بحجة استلام جثث قتلاهم، فأوسعوهم ضرباً، وطاردهم إلى قريتهم. ثم إنهم جعلوا من أنفسهم ممسحة لأرجل من سخروا منهم وخدعوهم كما قال زعيم الخير حقار، فجاءوا به إلى قريتهم... أهل الشمال النّقاجون هؤلاء لا بد أن يظهر من يعيدهم إلى وعيهم، هؤلاء عنيدون..."

لم يكن الوضع في الغرفة التي دخل إليها حقار كما يتصور شنبه ونطاي. ليس لأن من خالطهم لم يحترموه؛ كان كثيرٌ ممن في الغرفة طُلب منهم الخروج ولكن آخرين، منهم العجوز كولس، والمجبر نخلش، وردد، ومشوقه، كانوا يشرفون على داور الذي رُبِطت يده العارية إلى لوح خشبي. والشاب الذي يحمل وعاء متناولاً فيه خليط من السمن والطحين وبعض الأعشاب يقف وراءهم.

لم يسمع المهتمون بأمور المريض سريعاً صوت حقار الذي توقف عند عتبة الباب. ولكنه لم يرجع مع ذلك، ما المشكلة؟ لم آت مضطراً، ولا أعرف أن المجبر الأصهب سيكسر من جديد يد المريض المستلقي في فراشه. لام نفسه قائلاً: كان عليّ ألا أوقّت وصولي مع هذا الموقف لولا أنني غبيّ.

- يا داور، يا أخي الصغير، - ينادي نخلش المريض كأنه بلامبالاة، - هل سمعت قولهم، لا أعرف إن كان متداولاً في مزبه: "من أين جئت يا مصيبة؟"
- كيف لا أسمع ونحن ننتمي إلى عرق واحد! - يجيبه دون أن يعرف سبب رُبِط يده إلى اللوح الخشبي، ووضع قضيب الحديد في نار الموقد، ولكن دون أن يبدى ارتياحه في الأمر.

- حسنٌ إن كنت تعرف، - يبتسم نخلش مرة أخرى، - ولكن من يستطيعون مجارة الروح الأديعية لأهل مستخقوه قليلون؛ أليس صحيحاً يا كولس؟ أنت خالطتنا كثيراً، ما رأيك؟

- نسبي المواشي التي تعيش في ديارنا، وتزودنا بالحليب، بالبقر والغنم والماعز.
- والخيل يخلبونها أيضاً يا كولس، - ساهم حقدار في الحديث يريد لفت انتباههم إلى وجوده في الغرفة.

- هذا أنت يا حقدار! - نظر إليه كولس وتابع الآخرون الكلام دون اهتمام ظاهر: - ولذا فطريقة حلب الثلاثة ولذة منتجاتها متباينة رداً على سؤالك. - اختتم نخلش كلامه، ولو أن الكلام المبطن وصله، من حيث ساهم حقدار: - صحيح أن الفرس تُحلب ولكن الخبراء في طعمه هم الخزر.

- وهذا صحيح، وافق كولس المجبر في شأن حلب الفرس، وقال دون أن يلتفت: - ولكن لا أعرف لماذا يخلب حقدار الأفراس... يا داور، يا أخي الصغير، لا تزال أمامك فرصة أخرى: جرحك هذا لا أعده جرح بطولة!

- إن اعترف بهذا من شنوا علينا حرباً فأنا راض بهذا الحكم.
- إن كان هذا رأيك أيها الشاب فنحن متعادلان اليوم، اليوم فحسب. إن كانت الحديدية تلك قد حميت فأوصلها إليّ. وأنت يا بن لاورستن إن كنت تتمتع بقوة عظيمة فلا تسمح لداور أن يرفع كتفيه عن الوسادة. وأنتم أمسكوا برجليه!

- إذا كنتم ربطتم يدي، - قال داور كاظماً غضبه، - هل من الضروري أن تربطوا كل جسدي.

- لا تنغّر ببطولتك إلى هذا الحد يا صغيري. - قال نخلش وهو يغمس طرف الحديدية في السمن المصقّى، - صدف أن رأيت من هم أشد منك صلابة أغمي عليهم نتيجة هذه العملية. نفّذوا ما أمرتكم به! - غرز الحديدية المحمّاة في مكان القيق مفتعلاً الخشونة على الأصدقاء. وحركها فوق العظم باعثاً رائحة اللحم المشوي، ثم سحبها مع القيق. وسكب السمن السائل في الثقب الذي أحدثه. ولام داور الذي كان يمسح براحتيه الضخمتين العرق من جبينه ووجهه، ناهراً إياه ومثنيّاً عليه: - ولماذا لم تصرخ يا مبارك النسل؟.. هذه ليست بطولة وجلداً... أرهقتني، أما كان بإمكانك أن تحرك إحدى عضلاتك يا منحوس!..

نظر داور الذي عاد الدم يتسرب إلى وجهه، إلى نخلش المجبر الذي أرهقه، وقال

له:

- حياك الله يا نخلش!

- أتشكرني يا داور لأني أشرفت بك على الموت! - ضحك نخلش الأصهب ثم تتم: - حقاً سيحدث لك في هذا العالم الأشعث مثل هذا. احرص قدر الإمكان على ألا يصرك كل من يحاول إسقاطك بحركة من رجله. صادفني كثير من أمثال هؤلاء، وفي مقدمتهم حقار الجالس هنا، ولكنهم عجزوا عن التغلب عليّ. أليس حقاً ما أقول يا حقار؟

- لا يمكنني اتهامك بالكذب يا نخلش... - بدأ حقار من بعيد، ثم جزم: - من أين لي أن أكافئك قوة إن لم نرشح رد ابن لاورستن هذا لمنازلتك؟ - لن تنطق بأصدق من هذا يا حقار. - التمتعت عينا نخلش الصافيتان الزرقاوان وقد سمع ما يريد تماماً، - وأنا أنوي هذا غير أنه ما يزال غضباً جداً. لا أزمع أنه بلا قوة ولا مهارة، أعجبنى اليوم أمام فرسان الموط... يا كولس، يا زعيم الخير، هل تعرف ما خطر لي؟ الزرد الذي غنمته من الموط سأعطيه لداور مكافأة له واعتذاراً. هو معلق بطرف سرج حصاني فليأتني به أحذكم يا ججان. وسأرفق به الخوذة والسيف. - قال نخلش الأصهب في سرّه "إن كنا محظوظين كان علاجي له دواء. لا يعجبني سيلان قيحه... توقعنا أن تكون العلة في عظمة الساعد غير أنها سليمة. أظن أن المرض تغلغل في اللحم والدم... يبقى الدواء الوحيد له إذن ضربة سيف واحدة... وما حاجته إلى الزرد الذي أعطيه إياه إذن؟..". - صحا نخلش مرتعباً من أفكاره المتشائمة: - الحق يا كولس ألا يستعملون هنا "الأبوة"¹ التي نحن جالسون من أجلها؟ هيا اربطوها بالسقف ودعوني ألعب مع حقار. سنجعلها تبعث الشرر من أسناننا كضربة السيف تخرج من تلمسه.

¹ الاسم بالأديغية. وهو قرص من الخبز المحلى السميكة والقاسي، المزين بما تجود به قريحة الفتاة الموجهة له من زخارف. كان يعلق في السقف ويُجرّك كالأرجوحة فيحاول شابان يجلسان متقابلين اقتطاع ما يمكنهما منه بأسناهما دون استعمال الأيدي. وتعني الكلمة حرفياً: ما يصدّم الفم.

قال نخلش لكولس في اليوم التالي، بعد موعد الإفطار، وقد اقترب موعد سفر الأخير:

- لي معك موضوعان نتكلم فيهما. أحدهما لن أخفيه عنك، والآخر جعلتني أفكر فيه طوال الليل لأنك أنت من أخبرني به، عليك أن تصارحني به. لا ثقة لي بمصير الشاب الذي أقمنا له الليلة حفلة جابشه. إن لم يُطلق جرحه القيح خلال ثلاثة أيام فسيشفى. ولكن إن استأنف القيح سيلانه بعد ثلاثة أيام فلا تطلبوني. لن يشفيه إلهنا نفسه، دعك مني. وما تفعلونه به تعرفونه كما أعرفه. ما العمل؟ كثير من الناس يعيشون بيدٍ مبتورة...

- وهذا ما كنت أتوجس منه أيضاً، - قال كولس، - لن نسبب لك القلق من أجله... والموضوع الآخر الذي قلت لي عنه أنتظره منك.

- والموضوع التالي يا كولس لم أستطع تفسيره وإن لم يكن موضوعَ آلام جسدية. حين تطرق الحديث العشية إلى موضوع الأديغة، لم أفهم لماذا قارنتني بكل ما ينتج الحليب من البقر والغنم والماعز.

- أهي قضية الأديغة التي لا تستطيع فهمها؟ - ابتسم كولس من خلال لحيته وشاربيه وهو يسأله بنبرة مرآية لطيفة، - قضية الأديغة صعبٌ تحليلها يا نخلش، ولا أظن أنه حُلِقَ إلى الآن من يستطيع تربيتها. وإن حُلِقَ فقد يلحق بها أو لا يلحق. في الموضوع الأول أنت مخطئ في قولك إن في قضية داور المأ جسدياً أما هنا فلا. مآسينا تأتي من عدم اتفاقنا نحن الأديغة مقسمين أنفسنا إلى قسوغ وموط وزيخ، وهذه القرية وتلك. ومأساة داور، وطريقة موت مجرمي الموط أمس لهما الأساس نفسه. الاسم الذي نطلقه على الحيوانات التي تعطي حليباً بما فيها الفرس، هو اسم الحيوان. ونحن نسمي أنفسنا أديغة وإن كنا منقسمين إلى أعراق متعددة. نشعر بحلاوة ما تنتجه ما نطلق عليها اسم الحيوان، في حين أن الأديغة المنقسمين إلى أعراق كثيرة يتعادون حتى على مستوى سكان القرية الواحدة بين الحي الشمالي والحي الجنوبي، ويتجاهون عرقاً عرقاً - لا يُطبق أحدهم رؤية الآخر، ولا يتسامح معه. عالم الأديغة عجيب غريب، حتى لتعجز العيون عن تحليله... هذه هي الحال يا نخلش، أطلعتك على

ما يصل إليه تفكيري المحدود. قد تتقبّله وقد لا تتقبّله تبعاً لتفهّمك له وقدرتك على تحليله.

- لا أظنّ ما أسمعني إياه خالياً من الصدق يا كولس، - نخض نخلش بكل ضخامته مائلاً الغرفة كلها، ولكن سيكون أسهل عليّ أن أُعْمِل سيفي في رؤوس الموط أصحاب السيقان العوجاء، والزيوخ سكان المستنقعات، وأمثال حقار الدعيّ، من أن تجرّني إلى الكلام عليهم. بل سيسرني. وقد طمأنث قلبي بما فعلتُ بالموط الذين التقينا بهم أمس. ليس مستبعداً أن يقطع هؤلاء أو غيرهم الطريق عليّ... سأركب إذن. ليخفّف الآلهة عن مريضكم يا أهل مزبه. من يعرف ماذا سيحدث له، عند الضرورة تصرّفوا معه كما أشرتُ عليكم. حرام أن يحدث هذا للشباب الذي مستقبله أمامه، ما كان أحسن أن يهيئاً للمصارعة...

...

وقع داور في الوضع الذي كان كولس وأصحابه يتوجسون منه في اليوم الرابع. وكان الحلّ الوحيد المتبقي أمامهم ضربة السيف الوحيدة فجاء نخلش لينقذ لهم ذلك العلاج.

VI

أفاق أهل مزبه وقد غمر قريتهم الثلج الذي حملته الرياح الباردة التي هبت من الغابة قبل انقضاء الخريف ببضعة أيام. كان ردد قد وصل إلى آخر الطريق الذي يفتحه للمواشي حين ألقت رامبس نظرة عبر النافذة.

- يا ولدي، - نادى رامبس من فوق المسطبة، - ليرسل الله إلينا ثلجاً مباركاً، سنّ الشتاء أسنانه علينا فجأة.

- لا أتوقع يا أمنا أن يدوم هذا الثلج طويلاً على الأرض. إنه ثلج جافّ بين الناعم والخشن، تتباعد ذراته.

الأرض بيضاء تماماً فلا يبين أيّ سواد، خفيفة حتى لتكاد تقفز وترتمي في حضن السماء. وإذا كانت القبعات البيض على سطوح المنازل، وذرا الأشجار، وأسقف مخازن الحبوب القصيبة المدببة، وقمم الجبال، لا تثقل عليها فقد أجبر

رددَ الكساءُ الذئبي الدافئ على كتفيه الصلبتين وهو يحرف الثلج بمجرفة هائلة أن يخلعه. والأم التي ترى هذا تجزع:

- سيصيبك البرد يا ولدي!

- أيصيبي البرد يا أمي من ثلج يذوب في يومه! - يتسم ردد في وجه أمه بقبعته الضخمة الضاربة إلى الحمرة، ويخاطبها من ورائه: - هل ترينه كيف يتناثر؟

- إذا كان كساء الفرو يقيد حركتك فلا تخلع القبعة يا ولدي. تُفصح الأم عما يقلقها، وتلمح له بعلامات الثلج المتفتت الذي لا يعيره ابنها اهتماماً: - من الصعب أن تحكم على مثل هذا الثلج المتناثر بأنه يذوب في يومه يا ولدي. لو كان الثلج رطباً، قد لا يدوم طويلاً إذا كانت ذرا الأشجار وأطراف الأعشاب عاجزة عن حمله. تعلّم يا ولدي أن العالم مركب على طريقة العلامات الكثيرة. ها أنت ترى، - تشير إلى ردد الذي التفت معتمداً على المجرفة، - دخان موقد كولس ومواقد جيراننا الآخرين يتصاعد بخطوط مستقيمة.

- لأنه يشهد على أنه لا هواء في الجو، - ابتسم ردد.

- ليس لهذا السبب وحده، - لا تزال رامبس على موقفها، - خفة دخان الموقد منسجمة مع خفة الثلج. وهذا شاهدٌ على أن الأيام الثلاثة القادمة أيام صحو.

- ربما كان في كلامك نصيب من الصحة يا أمنا، ولكني أظن أن خفة الدخان ترتبط بما يُحرق في الموقد.

- أكيد أن دخان البلوط ليس كدخان سوق الشعير. لا أقصد لونيتهما ولا سماكتهما، بل تصاعدهما في السماء.

- صحيح يا أمنا، صحيح، فهمتُ ما تقصدين، - ابتسم ردد ثانية في وجه المرأة المستندة إلى عمود المسطبة، - ها هو دخان موقد كولس غير دخان موقد داور في اللون، ولكنهما يصعدان بالطريقة نفسها يا أمنا. - يسأل ردد كمن يلوم نفسه، - أليكون الموقد بلا حطب جاهز؟

- لا يا ولدي، - لا أتذكر أنه كان عندك مثل هذا الإهمال. أفيق الصبح وحطبك وماؤك جاهزان كما عودك والدك. أيبقى موقدي بلا نار!.. لا أعرف

إن كنتُ أثّرثر. سنشعل نار موقدنا حالاً، وأحضّر فطورنا. - غادرت رامبس المسطبة حالاً كما أتت إليها.

نفخ ردد في راحتيه واستأنف جَرَفَ الثلج. وبعدما عمل بعض الوقت التفت فرأى الدخان الكثيف الصادر من مدخنتهم. رقّ قلبه وأفكاره. والآن نظر في كل اتجاه مقارناً دخان موقدهم بدخان موقد الحَيِّ. حُيِّلَ إليه أن دخان موقد داور، ولو أنه أبعد من دار كولس، أقرب لوناً إلى دخان موقده هو، ولكن طريقة صعوده أعذب. وامتمثلت أبنار أمام وجهه كأنها خرجت من قلب الثلج الأبيض الناعم، وفي اللحظة نفسها وقفت صديقتها آنست. وانضم إليهما صديقه ججان ثم اختفى من الصورة. وكان أعجب ما رآه ردد هو وقوف "تراب" الأحذب مع الثلاثة بكل طلاقة وجه.

"ابتسم ردد في سرّه: " لا أستغرب رؤية ججان مع الصبيتين الجارتين. أعرف أن عواطف ججان نحو أبنار وإن كان ينجل من التصريح... ولكن ما بال تراب الأحذب؟ ماذا يريد هو الآخر؟ أظن أن مزاح الناس بشأنه قائلين: هراً تراب شارع أبنار وأنست، في محلّه. أيُّهما أقرب إلى قلبه يا ترى؟ ربما هي أبنار... لا أستطيع مصارحتها بما في قلبي وإن لم أكن أحذب... وقد تكون عاهته وشببهها السبب وراء قولهم: "الله يفعل بك والناس يذمونك عليه". عيب عليّ أن أسخر من تراب البائس. ما الذي يصل بي إلى جارنا المشوه، ومثله من يقال فيه: إنه لم يُقلق ساهراً في ليل... - ما إن نحر ردد نفسه حتى لفت نظره من ناداه.

- هل جرفت يا ردد ثلج الفناء؟ - ظهر تراب الأحذب من باب الدار متمهلاً، وكأنه خجلٌ قليلاً من نفسه، - سقط علينا ثلج كثير، لا أعرف ماذا ينوي بحمّنا.

- تفضّل يا تراب، تفضّل، - يقول للضيف وهو يسند إلى جدار الإسطبل المجرّفة التي انتهى من العمل بها، - ضيف الصباح يحظى بالقشدة، خرجت مبكراً.

- خرجت لأني لستُ حرّاً بنفسي، - غمغم تراب، - ألا تعرف طبيعة والدنا ووالدتنا؟ هل عجيب أن ولداني أحذب يستدعيان سخرية من يراني، إن لم

أكن أقطع أو أعرج كما يقال. لا يسمحان لي أن أشتغل أي شيء في البيت أو في الفناء. ولكنني خرجتُ عن طوعهما هذا الصباح، - لمعت عينا تراب، هل تستطيع يا مبارك النسل جرف الثلج بيد واحدة؟ ساعدت المسكين داور. وسأقول لك من كانت معي: أينار. وحين انضم إلينا ججان فجأة نظفنا الدار وقد صرنا ثلاثة في غمضة عين.

- أتقول إنكم تركتم أينار تجرف الثلج؟!

- ولماذا لا تجرف؟

- أقصد: أليست صبية، ألا تلبس غطاء رأس؟

- أتظن أن العالم خلق من أجل لابس القبعات فحسب؟ - اعترض تراب على ما سمع، - لابسات الغطاء أيضاً جزءٌ من هذا العالم يا ردد. لا تحكم على أينار من نحوها ورقّتها، ليست ضعيفة كما يُخيّل إليكما، أنت وججان. اعترضتُ على ججان حين ألحّ عليها أن تدخل البيت إذ كفى ما اشتغلته. ووافقتني داور. لا تجوز الرأفة بالمرأة. - ارتفع صوت تراب فجأة رغباً عنه، ولمعت عيناه ثانية، - دلّلناهن ونحن نرأف بهنّ!

صرخ ردد في قلبه مما سمع: "اسمع ماذا يقول، وكيف تلتمع عيناه! - لم ألحظ عليه مثل هذا الموقف القاسي مع أننا ولدنا في حيّ واحد، وليس أكبر مني بأكثر من شهر واحد، ومع أنه حدث أن تشاجرنا كثيراً، وتضاربنا، وتصلحنا. لم أسمع رأياً له في النساء شبيهاً برأيه اليوم. مهلاً، مهلاً، تذكرتُ: أليس هو من فعل أسوأ من هذا! أليس عاراً أن تتجسس على ظهور النساء اللواتي من جيل أمك؟.. - خرج ردد بسرعة مرعماً من أفكاره. وعرض للواقف أمامه بقبعة من جلد الثعلب وكساء من فرو الذئب:

- لا تعجبني نظرتك إلى المرأة يا تراب. لا يجوز وصف من ولدنا بهذه الصفات.

- وهل عجيب إن كنّ ولدنا!.. - مرة أخرى احتدّ صوت تراب دون إرادته. وقال في نفسه: "لو وُلدت مثلي لرأيتُ موقفك منهن" وتظاهر باستدراك موقفه: - أظنني أصرّح برأيي فيهن في الشارع؟ الأم تبقى في كل الأحوال أماً. حقاً، ليس الحكم على النساء من شأننا.

- والبنات أيضاً؟ - قابله ردد بالسؤال.
- أظن رأيينا، أنت وأنا، سيختلفان. - ضحك تراب والكتف البارزة من تحت الكساء تَهْتَز، - مَنْ أجمل فتاة في قريتنا؟
- كل من يسمّين بالبنات جميلات، صعبٌ اختيار واحدة منهن. لا أعرف كيف أعبر لك.
- ججان يعرف، وأخبرني باسمها.
- إن لم يكن سرّاً يا تراب...
- ليس هذا سرّاً: أينار!
- ألا يمكن أن تجد في قريتنا أجمل منها؟
- هذا رأيي ججان، وأنا أضع آنست إلى جانبها.
- أظنكما قاربتما الصواب جداً في هذا. - تظاهر ردد بالضحك دون حماسة، - وأنا أعرف عدة بنات يمكن صفهنّ إلى جانبهما.
- من هنّ؟ - تلهّف تراب، - قلّ رأيك أنت أيضاً.
- في قريتنا كثيرٌ من الفتيات الجميلات اللواتي يمكن الإشارة إليهن. ولكن يقال إن القلب يختار واحدة فحسب.
- لن يعترف ججان بمثل هذا... - انكسر صوت تراب ولكن سرعان ما عاد إلى وعيه، وفضحه استياؤه، - أظنه دائخاً بين أينار وآنست لا يعرف إلى أيّهما يتجه.
- وأنت يا تراب، لو كنتَ مكانه، أيّ الجارتين كنت تختار؟ سأل ردد ناوياً أن يعرف ما في قلبه.
- إيه يا ردد!! - أسرع تراب بالكلام مستغرباً ما يسمع. - إن كنت تتنازل عن طيب خاطر عن إحدى الصبيتين جارتينا، وترغب في مرافقتي إلى مغازلتها فإني سأهب قلبي، ولا أكتّم عنك، إلى أيّ منهما. وإن كانت أينارَ اعتبرت نفسي محظوظاً... ولكن أقول لك ثانية يا ردد إن كان هذا رأيك فمن حظك أنك لم تطمع في أينار إذ أُنِي، حسب ما لاحظت على ججان، لن يفسح مجالاً لنا إليها، لا أنت ولا أنا. والحق أُنِي لم أرها تحب جداً ججانَ حفيدَ كولس، ولكن من يدري ما في قلب المرأة... أقول هذا ولكن إن ساندتني فلن

نتراجع. سنخطفها وإن لم ترغب فينا! وهل تظننا نعيش وآمالنا تتحقق؟! أخفى ردد انفعاله في اللحظة نفسها لا يعرف إن كان سيضحك أم سيعضب، مستغرياً قوة الحب التي لا حدود لها، فتتسبه عاهته، قائلاً في نفسه: "هل تسمع ما يخطر لتراب الذي صاحبناه مشفقين عليه أينما ذهبنا بحجة أنه بائس وصاحب عاهة؟!" ولم يملك إلا أن يشفق على من حرر الحب لسانه بصوت مسموع وبصراحة مطلقة... "لا عجب في هذا، الحب لا يميز إنساناً سليماً من صاحب عاهة. وكلُّ يقول ما عليه ويفعل، غير أنك لا يمكن أن تحقق في الحياة كل ما تتمناه... ولكن، كما يقول كولس، لا يفهم الكثيرون أن الذنب والشر والفصاحة منبعها الحب. وفي قريتنا يُعتقد أن ما حدث لتراب يمكن أن يحدث لأينار وأنست أيضاً. فتحثا باب الحب لتراب الذي لم تنتظراه البتة وهما تجاريانه وتساخمانه بحجة عاهته... هل ترتبان فيه يا ترى؟ على رواية تراب فلا خبر من جهته إلى الآن من هذا القبيل. يرضى بأي منهما، ولكنه يفضل أينار إن تحقق له. وإن استطاع اختطفها بمساعدتي حارماً ججان منها..."

- أراك لا تقول شيئاً يا ردد! - سأل تراب من ينغرز حذاؤه في الثلج.

- ألا تقتنع بأنست دون منافسة ججان؟

- لا بأس بها أيضاً، - قال تراب كاتماً عدم حماسه نحو الفتاة التي سمع اسمها. وأضاف بصوت آخر حادٍ، - ولكن أينار أجمل. يُحِبُّ لي أن هذه الصبية تنظر إليّ بوَدٍّ.

- سنرى يا تراب ما سيحدث، سنرى، - كتم ردد ما يعتمل في قلبه تجاه ما سمعه.

- سنرى طبعاً يا ردد. هذا موضوع يحتاج إلى تروٍّ. لا أقول اليوم، ولا غداً، ولا العام القادم. ولكن عليك ألا تنسى قضية الحب متى كنت لابس قبعة. الأفضل ألا تسمح لمنافسيك أن يسلبوك من عينك عليها لأن الحب سيتسلل إلى قلبك إن عاجلاً أم آجلاً...

في ذلك اليوم، وفي العشيّة، وفي اليوم التالي، بقي ردد في البيت يحاول أن ينسى أفكار تراب وأفكاره هو، إما بصُنع الملاعق أو خياطة واقبات الساعد الجلدية. واليوم، كما أمس وأول من أمس، استمر بحبس نفسه في البيت لا

يريد الخروج والطبيعة تساعد في قراره. الريح التي هبت فجأة وقت الفطور تزيد من صفيها وضحكها الخفية من وقت لآخر. وتحمل الثلج المتناثر، وترفعه وتنزل به. وتتسرب من خلل النافذة وتملؤه. وحين تعصف بالمدخنة لا يجد الدخان العاجز عن متابعة سيره إلا أن يعود فيتكور في داخل الغرفة.

تتابع الأم وابنها عملهما رغم أن الدخان يعمي العيون: يسئُ ردد بالمسن سهام القسي، وتجهز رامبس جلد الخروف الممدد على أرض الغرفة. وترش عليه الماء بفمها لا تترك منه بقعة لا يصلها الماء. وبعد قليل تمر براحتها على الصوف آملة أن يستوي الجلد.

ليست هذه المرة الأولى التي يرى فيها ردد ما تفعله الأم. فمتى انتهى موسم حلب الأغنام في الصيف وأعمال الخريف الريفية، يتداول الفلاحون بالات الصوف ودواليب غزله. وتبدأ الأسر في تهيئة الخيوط والأكياس.

- لا أعرف إن كنتُ أصدع رأسك بصوت الدولاب يا أمنا ، - سأل ردد مطرق الرأس، راغباً في الحديث.

- ليس مستك مشكلة يا ولدي، - ردت الأم التي تلفّ الصوف الذي احتل نصف مساحة الغرفة دون أن ترفع رأسها كذلك. - ولكن الدخان أعمانا!

- لا يمكن أن نغيّر شيئاً في هذا. لن يخرج الدخان ما لم تهدأ الريح.

- ليست الريح وحدها السبب فحطب البلوط المبلول لا يستطيع إذكاء النار. ضع حطب التتوب تحته يرتفع اللهب. - حاولت رامبس دحرجة كتلة الصوف المرصوفة على أرض الغرفة ولكنها لم تستطع تحريك أحد الطرفين، فتلمّح لابنها الذي يحاول إذكاء النار رغم إعجابها بمنكييه العريضين: - من رزقها بآبنة تجيد أعمال الصوف.

- صحيح يا أمنا ألي لا بس قبة، ولكن، - يستدير ردد وقد فهم ما يشغل بال الأم، - لن أدعك تشكين؛ هاتي الطرف أدرجه معك.

- كنتُ ماهراً في كل الأعمال وأنت صغير مع استغراب والدك. أما الآن فلا أعرف يا ولدي... أمسك الطرف الآخر، سنظل نمسّد الصوف ما دام يستجيب لنا. سنمسّده.

يجلس ردد بكل جسده الهائل إلى أحد طرفي رزمة الصوف الملفوفة، وتضع

رامبس على الطرف الآخر يديها النحيلتين القويتين، وتلفتت إلى اليمين واليسار، وتقول:

- دُعنا يا إلهنا العظيم في السماء وفي الأرض ننسج هذا الصوف كما يجب. ولنتفق على أن نصنع منه جوارب طويلة تحمي السوق، وأكسية دافئة، وبطانات سروج دافئة. ليتحقق مرادنا، ولتكن مشغولاتنا خيراً علينا! لندفعها يا ولدي بدفعة متزامنة. حسناً، حسناً، يدك مباركة، كُن لطيفاً معها، لا تُبالغ في دفعها.

الصوت الصادر من المسطبة مع توقف الريح أجبر ردد على الانتباه:

- أحدهم قادمٌ، - ترك ردد على عجل مساعدة أمه والتفت إلى أعمال الرجال. وغمغم: - من هذا الذي لا يستقر في بيته في هذا الجو العاصف!.. لا بد أنه واحد من أمثال تراب.

كانت أبنار هي من دخلت الغرفة وغطاء رأسها الصوفي يتدلى على كسائها المصنوع من فرو الثعلب.

- هذه أنت يا بنتي! - استغربت رامبس قدوم ابنة الجيران الصبية، - كيف نفدت من العاصفة الثلجية؟

- الثلج يتطاير ولكن لا بُدَّ بمنع من الحركة يا رامبس، - أخرجت أبنار من تحت غطاء رأسها صحناً مغطى وقد ازدادت جمالاً بوجنتيها المحمرتين، محتلسة نظرة إلى ردد. - أرسلتني أُمِّي لتتناولوا هذا البرِّك دافئاً.

- حيا الله أمك يا بنتي، - رامبس مرتاحة لما سمعت. - لا تحمِئنا عُشْنائُ من مأكولاتها. خذ يا ردد دُقُّ من هذه الفطائر، لا تدعها تبرد.

- لاحقاً يا أُمِّي... - قال ردد وقد بدا عليه الخجل من صبية الجيران، واستأنف عمله بالمسن والدولاب. ثم غيَّر الموضوع: - ما أخبار داور؟ لماذا لا يزورنا؟

- جماعة داور ذهبوا لمعابطة حقار في الحي الأدنى من القرية. - أسرع أبنار بالجواب كأنها كانت تنتظر السؤال، ولكنها لم تملك إلا الإفصاح عما يقلقها: - دُقُّ من البرِّك الدافئ يا ردد، لا تدعه يبرد.

- سأمَد يدي إليه، - اختار ردد أصغر قطعة من الصحن، مولياً أهمية لطريقة

- تناوله إياها، ولكن لا أعرف سبب معاتبة حقار، من رفاق داور؟
- يبدو يا ردد أنك غير مطلع على الخبر، - كانت أينار راضية بلقاء ردد في البيت، غير أنها مستاءة من عدم مرافقته لأخيها الأكبر.
- ومن أين لي أن أسمع أخباراً وأنا لم أخرج من البيت طوال ثلاثة أيام!
- العشية، وفيما حقار يرقص في حفلة الزفاف، ضرب شنبه تراب بسوط الحصان أمام الحضور بحجة أنه لم يصفق للراقص. وهل وصلت جماعة حقار إلى تراب المسكين! - اعترضت رامبس، وأنتت الحديث متذكراً زوجها لاورستن دون ذكر اسمه: - ربما كان هذا السبب في قولهم: تعبت الفئران حيث تغيب القطط... يفعلون في القرية ما يخطر لهم.
- ليس الأمر كما تقولين تماماً يا أمنا، - ابتسم ردد وقد عرف مغزى كلام الأم. ولكنه لم يستطع أن يكتفم ما يسوؤه: - أستغرب عدم دعوة جماعة داور لي إلى مرافقتهم...
- وفي هذه اللحظة أصبح تراب داخل الغرفة، وقال مستغرباً ما يسمع:
- وأنت هنا يا أينار! - ثم استدار إلى من نفضوا احتراماً له على طريقة الأديغة: - نهاركم سعيد، اجلسوا، اجلسوا، أنا مشغول. أوفدتني جماعة داور يطلبونك يا ردد. - لم يقبل أن يقول أمام أينار " أرسلتني".
- وأين هم؟ - سأل ردد والاستياء من أصدقائه بادٍ عليه.
- مجتمعون في مضافتنا.
- وهل كانوا قبل في مكان آخر؟ - سأل ردد بعدما نظر في وجه أمه ووجه أينار وكأنه مجهل كل شيء.
- أهذا ما تعرفه يا ردد؟! - صرخ تراب، وقطع ما بدأ فيه. وأضاف دون تأخر: - أنت لا تعرف الحكاية المنتشرة في مزه البارحة واليوم. شنبه اللئيم الذي يقول إنه حارس حقار الذي عينه على الإمارة بعد وفاة المرحوم لاورستن والدك عاقبوه بما يستحق حتى لا يرفع سوطه ثانية في عرس أو في غيره. تعال يا ردد، سيخبرك هؤلاء بحقيقة الوضع أفضل مني. وقد ذبح لهم والدنا خنزيراً صغيراً.
- لا بد أنك ذاهب يا ولدي إن كان الأمر هكذا، وافقت رامبس تراب الذي

يخفي الإهانة وكأنها لا تعرف الموضوع. وسألت ابنها الذي يتقلد السيف: - وماذا ستفعل بالسيف يا ولدي؟

- خذ معك سيفك يا ردد، - أدار تراب سيفه إلى الجانب الآخر معتداً بنفسه. واختلس نظرة إلى أينار، - المجتمعون في مضافتنا يحملون سيوفهم إذ من يعرف ماذا يمكن أن يخطر لجماعة حقار! ولكنهم سيندمون إن اقتربوا من باب دارنا، بل من سور حظيرتنا. لا تقلقي يا رامبس! وأنت أيضاً يا أينار.

- نعم، نعم يا تراب، أنتم موضع ثقتنا بعد إلھنا الكبير، - قالت رامبس لولدها وإن ضحكت في سرِّها: أخيرُ عُشناً وأنت تمر بباب داور أني استبقيت أينار كي تمسّد معي الصوف. وإن جاءت هي أيضاً وساعدتنا فهو أفضل.

- رامبس سيدة كبرى تختلف عن سائر النساء، - أدار تراب ظهره الشائه إلى الباب كأنه يُخفيه عن أينار مستغرباً ما سمع، - هل ترسلين الأمير ردد وأنا حاضر! أنا بنفسني سأبلغ عُشناً. - خرج تراب من الغرفة، متراجعاً، وهو يسحر المرأتين بنور الفرع المنبعث من وجهه.

قالت رامبس بعد قليل:

- هذه هي الحال يا بنتي، لأجل هذا قالوا: الله يفعل بك والناس يعيرونك به. لولا عاهته لعاش في مزبه والبنات يتنازعنه، لا يسخر الناس منه. أظن أن ما يعانيه أبواه بلا حدود.

- نعم، وهذا رأي أنست أيضاً، وأمي، - تنهدت أينار، - تقول إن في تراب صفة جيدة ليست في أترابه.

- أكون حضوره الدائم على عتبة بابكم دون أن يفوت يوماً، - قال رامبس باسمّة.

- دعلُ من هذا الكلام يا نانا! - صاحت أينار البريئة حتى لا تعرف غير الله مما سمعت، ثم عادت إلى وعيها وأضافت بشيء من الرياء والخبث. - ربما كان هذا هو السبب كما تقولين أنت، أليس تراب مسكيناً ذا عاهة!

- ليس مستبعداً يا بنتي، - مازحت رامبس مرة أخرى جارتها الصبيّة، - أتدّاخلُك أنتِ وأنست شفقةً ما بهذه الحجة؟

- حسْبُك يا نانا! - هبّت أينار الآن من مجلسها، وهُرعت إلى عينيها، - إن

استمررت في هذا الحديث فسأعود إلى البيت.
- لا، لا يا أبنار، أمزح فحسب. كيف يطمع فيك وفي آنست أمثال تراب
الشائه!..

...

كما بدأت العاصفة الثلجية أول من أمس توقفت فجأة بعد ظهر اليوم.
والشمس تنظر طافحة الوجه مستبشرة من وراء الغيوم التي تنسحب. والقرية
التي صمتت في الريح العاصفة تعود شيئاً فشيئاً إلى طبيعتها: ترتفع فيها أصوات
الكلاب، والصبيان لاعبو الدوامات يتجمعون على أطراف الأسوار، وتنبعث
من الدور أصوات المجارف، والديكة تتجاوب وقد اختلطت عليها مواعيد
النهار. والأبقار البادية من وسط الحظائر المظلمة تحور.

الطبيعة بيضاء ناصعة، ناعمة. والشمس تضحك من السماء التي هجرتها
الغيوم. والثلج يلتمع تحت أشعتها اللعوبة. والسماء تجمع أدخنة المواسم المتنوعة
القادمة عبر طرق آمنة متعددة. وكيف يصل إلى مزبه ما يحدث في القمم المحيطة
بها، والغابات الجبلية، والسهول العالية التي تبتعد نحو الشرق مكسوة بلباس
أبيض يبهر العين حتى ليخيل إليك أن العالم خلا من القلق ومن الحروب.
والناس في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، والبحار القريبة والبعيدة عنها،
بل في توم تقاش والأبعد منها لا يتمنون إلا أن تعيش القرية في أمان، ولا
يتقاتل رجالها، ولا يهاجمهم الخزر والألان، ولا أبناء قومهم الموط والزبيخ...

- أطلت علينا يا رامبس شمس رائعة ونحن نشتغل في صوفك، - قالت أبنار
بنت غُشناغ وهي تفسح الطريق لرامبس على المسطبة، - لا بد أن تسجي من
هذا الصوف جوارب عالية وبطانات سروج مباركة.

- نعم، يا غشناغ، نعم، شكراً لك. سهّلتا عملي. وأبنار فتاة ماهرة،
في أشغال الصوف. - لن أكتفي بردد بل سأصنع منه لأصدقائه داور وججان
ومشقوه.

- وتراب المسكين فقد جوربه لونه، - أضافت أبنار واحداً إلى المذكورين.
- ولن أحرم تراب منه يا بنتي، - ابتسمت رامبس وهي تتذكر أنه اختار أبنار
من بين الفتيات هذا الصباح.

- يا بنتي، - اعترضت غشناغ، - أملكنا أنت وأنست وأنتما لا تكفان عن ذكره. أما بقي في القرية موضوع أهم من تراب الأحذب. كلما تعرّض لإهانة أقامت له مأدبة مواساة له.

وفي اللحظة نفسها ارتفع ضجيج من جهة بيت تراب نقض سكون النهار المشمس اللطيف.

- ما الذي يجري بين هؤلاء؟ - نصّت برأسها غشناغ التي لم يمض كثير من الوقت على مأساتها، واختطففت المجرفة المسندة إلى العمود.

- لا خير في تلك الناحية! - تسلمت رامبس بالملزاج الخشبي الكبير جزعةً على ولدها - تعالي يا غشناغ، أولادنا في خطر.

في شارع تراب مجموعة من الرجال تتحارب بالسيوف والأعمدة الخشبية والقبضات. ومن أدنى القرية ومن أعلاها تتقاطر مجموعات من الرجال. ومن يقع السيف على رقبته يسقط مضرباً الثلج بدمه. ومن يصصره العمود يتهاوى غير قادر على النهوض. والجريج يزحف إلى أسفل السور طلباً للحماية. ومن يتصارعون بأيدي عارية يتزحلّقون على الثلج، ويسقطون عليه متماسكين بالتلابيب. والنساء اللواتي أسرعن يفضضن الاشتباك رجعن مخذولات. ييكن، يصرخن، يشتمن. والمتحاربون يزيحون جانباً من يحاول فكّ الاشتباك بينهم.

والسيوف التي سقطت منهم، أو انثرت، والقضبان المتكسرة، والقبعات المتطايرة من الرؤوس، والجرحى، متناثرون على الثلج الذي أشيع دعساً تحت الأقدام.

- أيتها القرية، نتكّب، نتفانى! - يصرخ العجوز كولس يخط بيده هنا وهناك. - يا مباركي النسل، إن كانت لحاكم وشواربكم لا تردعكم فاحجلوا من أمهاتكم ومن أخواتكم. توقفوا! لا تتفانوا! - حين يرى كولس السيدة رامبس قادمة وفي يدها ملزاج الباب: - هؤلاء لم يعد شيء يردعهم، ولذا يا رامبس أنت وأخواتك ارمينَ بينهم أغطية رؤوسكن، وأرينهم أنفسكن، وذكّرهم أنكن ولدنّهم، عسى أن يستحوا منكن فيتوقفوا.

لم ير الرجال النساء اللواتي اندفعن إليهم كبيرات وصغيرات حاسرات. حين اندفعت رامبس إلى الساحة فحسب عاد من سفكوا الدماء إلى وعيهم.

وكذلك ردد الذي كان ممسكاً بحقار يفرك شاربيه ولحيته وفمه النازف دماً بالثلج.

...

أقيم في مزبه ثلاثة عشر مأتماً بدلاً من الأعراس والأفراح. وانفتح واحد وعشرون باباً لحفلات الجابشه في ضفتي القرية: أعلاها وأدناها...

VII

في أحد الأيام وضع ردد مشاعره جانباً وتوجه إلى كولس.
لا أحد في المضافة غير كولس. والعجوز الجالس يصلح سوط الحصان تظاهر بالارتفاع عن مقعده قليلاً ولم يُوله اهتماماً. وقال بعد انتظار:
- لماذا أنت واقف؟ اجلس!

قال ردد في نفسه: "كولس عاتبٌ عليّ، لم يُرني عينيه ولا أنفه. لا أدعي أنني لم أشارك في المأساة التي جرت في القرية غير أن لسنا من تسبّب فيها، كانت جماعة حقار البادئة. وهذا ما لا يفهمه كولس ولا يريد أن يفهمه. حتى إنه يُعرض عن محادثة ججان حفيده. وهُزّ مشقوه أيضاً. أما داور فيمنعه حتى من المثول أمامه بحجة أنه نسي سريعاً ما انتكب به في شجارات الأديغة. والحق كله على تراب البائس؛ فرغم أن عزاه بفقد والده في تلك المعمة سمّاه بالمنحوس، ومنعه من مقابلته... ولكن ما ذنبي أنا؟ يكلم والدتي، ويقاطعني... لست من زار حقار معاتباً ومهدداً. شبه هو من أشبعه ضرباً"
- ضفرت سوط حصان غليظاً يا كولس.

فرك كولس السوط بضع مرات براحتيه ينعمه. وحناءه، وأطلقه، واختبر فحذه بالسوط المحني. ولم يتدخل ردد في شيء.

قال ردد في نفسه: "سمحت لججان وجماعته أن يورطوني على علمٍ مني" صرخ ردد غير متحمّل سلوكهم معه. - لماذا لا يفهمني كولس؟.. ألسنت من يقول إن على الكبار والصغار أن ينحنوا لي احتراماً لأني سليل أسرة إمارة؟! لماذا هذا الإعراض منك إذن؟ أقول هذا ولكن هل سمحت لجماعة مشقوه أن يتخذوني مراسلاً لو كنت أحترم نفسي؟.. يبدو أنك إن لم تعرفهم على حقيقة إمرتك لم ينفعك مجرد ادعاءها. ومن هذه الناحية لم أقصر مع حقار الذي كان يقيم

حفلة جابشه كبيرة. إن كان محظوظاً شُفي عظم ظهره... هكذا يجب أن تتصرف إن حاولت أن تُبرز نفسك من بين أصحابك، لن ينفعك توسُّلك إليهم!.. ندين نخلش المعتدّ بقوته ولكن في كلامه نصيباً من الصحة. لن يفهمك الظالم إن لم تردّ على ظلمه بالظلم..."

- هل أعجبك سوط الحصان هذا؟ - قطع كولس الآن أفكار ردد وقلقه.
- يعجبني يا كولس كل ما يُصنع من الجلد ومن الحديد. - ابتسم ردد في وجه العجوز ناسياً وساوسه.

- هذا رأيك؟ - ابتسم كولس. - لولا أنني أريد أن أسوط به صديقك ججان لأخبرتكَ حسب عاداتنا: إن حظَّك ساقك إلى السوط.

- أيصل بك الأمر مع ججان إلى هذا الحد يا كولس؟ استغرب ردد منفِعلاً.
- ولماذا لا يصل إذا كان فعل بي هذا أمام أهل القرية؟! - لمعت عينا كولس كجمرتين مُنسيّتين إياك شيخوخته. واختتم بيأسه: - يهرب مني منذ أسبوع.
- أمس كان عندنا في البيت!

- من كان عندك، ومن يقيم على رأس شجرة، - ابتسم كولس، - ليسا سهلين عليّ. - أترك هذا الموضوع وصارحني بما وراء إرسالك من رفاقك إليّ.
- لم يرسل معي هؤلاء رسالة محددة. بل طلبوا أن أعرج عليك وأطلع على أخبارك.

- حياكم الله على تذكركم إياي، - ابتسم كولس ثانية وسروره بما سمع بادٍ عليه، ولكن لم يستطع أن يغالب عتبه: - لو لم يكن عندكم من تستشيرونه قبل أن تثيروا فتنة في القرية، وتورّعتم من قبعاتكم، لوجدتم في أنفسكم عقلاً يحميكم... مهلاً، مهلاً يا جاري، - استعجل كولس مدركاً ما في نفس ردد وإن لم يفتح فمه، - أعرف ما تريد قوله، نحن الأديغة، إن تحاربنا تحت أسماء القسوغ والموط والزيوخ، وأغارت القرى المتجاورة بعضها على بعض، فلن نُعدّ لنا بطولاً. إن كنت تريد أن تكون رجلاً حقاً، وتريد القيادة، فصالح قبل كل شيء بين أبناء قومك، ووفق بينهم، وجايه من هاجموا بلادك بالرجولة والأمل والإنجاز. أنتم لا تسع قبعاتكم رؤوسكم بانتصاركم على جماعة حقار.

- ولكن يا كولس، - قال ردد بمنتهى الحذر، أما كان على أحدهم أن يُخمد

حركتهم!

- أكثر الأديغة معاندون، صعبٌ إرضاءهم. - ألقى كولس نظرة خبيثة نحو ردد، - لن يستطيع سيفك مجابهة الجميع، يقول الأديغة: لا تمتشق سيفك قبل أوانه!

- لم أسمع بهذا المثل، - أجاب ردد، ثم قال في نفسه: "ولكنه ينتقد الأديغة بكل قسوة في طريق إرشادنا إلى ضرورة وحدتهم. أليس من أجل هذا نريد نحن أيضاً أن ينتشر الخلق الحميد والنخوة بين أبناء قريتنا"

- ألم تتصرفوا تصرفاً أخرق لأنكم لم تسمعوهم!.. - غمغم كولس وهو يعلق الكير على الجدار. ثم سأل بصوت أقوى ولكن أنعم: - أين هم أصدقاؤك؟ - تقصد جماعة ججان؟ - أفرحت نبرة كولس المهادئة ردد.

- هؤلاء الذين قاتلوا معك.

أخفى ردد انفعاله قائلاً: "أنا، على ما يبدو، من يدينه كولس بما جرى في القرية وإن لم يعلن. يعرض بي قائلاً: "من حاربوا معك". لماذا يُبرِزني في ما أنا مذنب فيه، وما لستُ مذنباً؟ إن أردت الحق فمن كان السبب فيما تعادينا لأجله هو حفيدك ججان... قاد جماعة داور إلى العرس بحجة أن تراب أهين، وبعد أن حدث ما حدث أرسل وراثي... هذا ما سيجري حين تبرز من بين رفاقك؛ سيتهمونك كما يتهمون الذئب في ما افترس وما لم يفترس... إن كنت رجلاً فلا تجعلهم يتخذون منك ممسحة لأرجلهم كما يقول تراب..."

- أنت سارخ بعيداً يا جار وإن كنت أمامي، - اصطنع كولس سعلةً.
قال ردد الذي قُطعت أفكاره:

- نعم يا كولس، نعم. إن كنت تقصد جماعة ججان، - اعترف ردد، - فليس العثور عليهم صعباً، وإن طلبتهم الساعة جمعتهم لك.

- لن نؤجل الموضوع إذن، - نهض كولس، - اركبوا أنت وججان وداور ومشقوه ريثما أجهّز نفسي، وتعالوا إليّ، سنذهب إلى مكان ما.

- أين سنذهب يا كولس إن لم يكن سراً؟

- حين يطلب منك أحدهم الركوب لا تسأله إلى أين.

- أسأل لأني لا أعرف إن كنا سنحمل السلاح. - تراجع ردد.

- لن نحتاج إلى واقيات الساعد، ولا إلى الخُوذ، ولا إلى السيوف. سنعود المصابين من أهل جنوب القرية.

- أتريدنا أن نعتذر من حقار! - احتدّ ردد.

- من يُهنّ يجد الفرصة للانتقام، - كانت نبرة كولس صلبة ولو أن صوته ناعم، - نحن نذهب إلى حقار ليس من أجله، بل من أجل القرية. وأيُّ منكم يرفض، أنت أو غيرك، ليس رفيقي.

- من أتيت على ذكرهم يا كولس، - شهد ردد على موافقته، - ليس بينهم تراب.

- إن ضمنتم موافقته فاصطحبوه أيضاً.

لم يبحث ردد طويلاً عن رفاقه. لم يكن ججان بحاجة إلى بحثٍ. كان كما في كل وقت، إلا وقت النوم، في بيت داور، مخفياً حبه الدفين لأينار. ووجد مشقوقه على عتبة الباب عائداً من الصيد، أما تراب فعاند.

- لن أذهب لعبادة من قتل والدي!

- ليس لزيارة حقار، بل لزيارة أهل الحيّ الجنوبي، - نقل كلام كولس حرفياً إلى تراب. وأضاف بعد سكتة قصيرة: - وأنا أيضاً لست متحمساً، غير أننا نتحرج أمام الزعيم كولس، وأمام القرية.

- حسناً، إذا كان هذا رأيك فسألني لك. إذا كان كولس طلب مني أن أركب معكم فسأفعل.

- بين أسباب جمع كولس لنا اليوم كثيرٌ مما يستحق التفكير... - تنهد ردد حتى ليضيع سوطه المطوي بين راحتيه. وتفهم الحصان الذي بيده حالة صاحبه فشخر حتى اهتزت العظمة الرقيقة بين منخريه. - كل الرجال، عاد لهم وظالمهم، متشابهون... هؤلاء متى غلبتهم الحمية ففقدوا حلومهم صعبت السيطرة عليهم... هل تتذكر أن كولس بلغ به اليأس مداه، وفقد الأمل في المخرج، فطلب من النساء أن يحسرن عن شعورهن؟

- وكيف لا أتذكر؟! - صاح تراب راضياً. - لو لم يطلب كولس هذا من النساء فلربما تفانينا، وها هو والدنا المسكين قضى تحت سيف حقار!

- قال تراب بعدما مشى الفارسان مسافة:

- يا حسرتي يا ردد، ما حاجتي إلى أُمِّنا ومن تسميهنَّ بالنساء، والذي رحل.
لو سمحت لي أن اصطحب سيفي لقتلت حَقَّار الذي كسرت ظهره في فراشه.
- يا تراب! - لجم ردد حصانه حتى سَمَّره في الثلج، - اسكُت! لا يقال مثلُ
هذا في النساء.

- حسناً، حسناً، سأمُحني إن تجاوزتْ حدودي. - تظاهر تراب باتهام نفسه
ولكنه غمغم حريصاً على نفسه، - لو وُلِدْتُ مثلي لرأيتُ ماذا قلتُ بحَقِّ
والدتك...

تألم قلبُ ردد حين تفحص ظهر تراب، وأخبره بعد قليل بالحيلة التي سيموّه بها
موقفه:

- لا أظن أحداً يولد بلا عيب ظاهر أو خفي يا تراب... هل ترى سمرتي
الشديدة بالقياس إلى أقراني جميلة؟

- ليتني خلقتُ من جديد أسمر فاحماً سليماً مثلك! - صرخ تراب بصوت
يفضح ما يتمناه حتى نصب الحصان أذنيه.

- وماذا كنت ستفعل يا تراب؟

- هل سألت ماذا كنتُ سأفعل؟ سأل تراب ناسياً حديثه، وابتسم: - كنت
رججت هذه الجبال، وقريتي مزبه معها، معرفاً إياها بنفسي، متجاوزاً نخلش.
ومن لا ينحني لي احتراماً وطئته بحوافر حصاني، كنعلٍ من نعالها...

- كفى يا تراب!

- حسناً سأتوقف يا ردد... - أسمعُك ما يحز في نفسي لأنك فتحت هذا
الحديث معي. - ضحك تراب محرّكاً حديثه كمن يلعب بها، واختتم كلامه: -
لا أجهل أن القصير ينجل من قصره، وأن الضخم ينحني من ضخامته، ولكني
سأصارحك يا ردد بشيء من أعماق قلبي. لن أعدل أبنار بشيء في العالم
مهما قال الناس عني وسخروا مني.

" اسمع ماذا يقول! " - ارتعب ردد من كلمات تراب الأخيرة خلافاً لحديثه
الآخر. وحثَّ حصانه دون أن يعرف السبب.

- تعال، ها هم جماعة ججان مجتمعون.

بعد الظهر ركب خمسة فرسان طريق الحي الجنوبي: ولا أحد على جانبي كولس

كأنه غيرُ عابئٍ بالفرسان الأربعة وراءه لا قريباً ولا بعيداً. والآخرون متفرون اثنين اثنين حسب أعمارهم. والفارس المتقدم عليهم تشحنهم طريقة امتطائه بالأدب والوقار. ومن ير الفرسان يسأل: إلى أين يصحب كولس هؤلاء؟ هل في الحي الجنوبي مآثم؟ - وبينهم من يقول: "قد يكون أهل الحي الشمالي ذاهبين لمصالحة أهل الحي الجنوبي" وآخرون: "إن صالحهم حقار بعدما فعلوا به ما فعلوا فهو مجنون" و "لم يفعل بنفسه ما لا يستحق" و "ابن لاورستن يرفع جناحيه بدعوى أنه سليل أمراء... هو الآخر أمامه مصير أسود..." و "انظر إلى البائس تراب يرافقهم كأن كتفه طرف سرج... من جعل من هذا المنحوس رفيقاً لزعيم الخير كولس!" و "بالله عليكم أن تتورّعوا عن مثل هذه الأقوال..." ويؤيدهم أحدهم: "وهذا صحيح" و "لا أعرف صحة ما رووا عن مقتل الأمير لاورستن؛ يقال إن قاتله أسبارخ كان أعور..."

حين خرج الفرسان من وراء المنعطف بدا بيت حقار المغطى بالقصب على أسفل التّبة. فرح كولس إذ رأى مربوط خيل باب داره فارغاً. قال: حسناً، حسناً، لا يحتاج من نزوره إلى كثير من الشهود، نصارحه بما في قلوبنا نحوه. سيسمع من يحتاجون، ومن لا يحتاجون سيتكلمون على زيارتنا بما يُحِيل إليهم، يضيفون إليه ويحذفون ما يريدون.

- يا شباب، قال كولس لمن وراءه: انضموا إليّ!.. لا حاجة أن أعرفكم بطبيعة من أصرحبكم إليهم. لا تحاولوا إقناعهم بذنبهم. ستوافقوني على ما أقول. وإن سمعتم ما لا يعجبكم مني أو من الطرف الآخر فاكظموا مشاعركم!

- يا زعيم الخير، - لم يتحمل تراب ما سمع، - هل بعد ما قتلوا والدي على جدار بيته؟!

- والرجال الآخرون؟! - ارتفع كولس عن صهوة الحصان وسأل من خلفه، وأضاف دون انتظار الجواب: - بُقي القرية في جو القتل والموت ونحن في حديث مقتل فلان وفلان.

- أفهم يا كولس... - تظاهر تراب بالتراجع عما قاله ولكنه أنهى مُفهِماً أصدقاءه الصامتين أنه أصبح محدثاً للكبير: - نعم يا زعيم الخير، نعم يا كبير. ما أهمية مصيبي بالقياس إلى ما جرى للقرية، سأتحمل أنا أيضاً... ندعي أننا بشر

ولكن لا نختلف عن الوحوش كثيراً في قسوتنا. ولو اقتصر الأمر على قربتنا لهان الأمر، القرى الأخرى مثلنا...

- يا تراب! عرّض به الفارس إلى جواره.

- ما الأمر يا مشقوه، هل قلت ما لا يقال؟ ما يقلقني...

- تتكلم كثيراً، - اعترض أيضاً ججان من الجانب الآخر. وأيّده داور بهزة رأس وكلام مبهم. أما رد فلم يُن أي انفعال، خيراً كان أم شراً.

- يا كولس، من سافروا معنا متواطئون ضدي، - أفلت من تراب لا إرادياً. وفرح لقوله "سافروا معنا".

- لسنا نحن، - لم يقبل رد نادماً لأن تراب رافقهم بطلب منه. - بل كولس الزعيم الأسنّ هو من طلب منا الركوب.

- لا تنسوا أن الهّم الأديغي هو ما دعانا إلى السفر! - صحح كولس. - وطبيعة حقار ليست كما نريد.

الغرفة التي دخلها الزوار واسعة على قياس صاحبها ذي البنية الضخمة. ويستلقي حقار على الأريكة الضخمة إلى جانب الحائط ذي النافذتين. ويزيد ضخامته اللحاف المخيط من جلود الذئاب. وليس في الغرفة إلى جانب المريض إلا نطاي الذي يبدو صغيراً إلى جانب حقار. ألقى الأخير نظرة ارتياب إلى كل من وقفوا على سريره واحداً واحداً. ولكنه قال مدفوعاً بالعجز الذي وقع فيه:

- لماذا تقفون على رأسي يا كولس؟.. - ثم قال لنطاي كاضماً غضبه بصعوبة: - ألا تدعو زعيم الخير إلى الجلوس... أتى من الحي الشمالي.

- إن كنا من الحي الشمالي أم من الجنوبي يا حقار، - أجب كولس بنعومة ودفع، - فنحن قرية واحدة، وعرق واحد. جاء بنا ألمانا لنقول لك "راح الشر"، الحمد لله على السلامة".

- حياكم الله إن كانت عندكم مثل هذه النية، - أشاح حقار برأسه، ثم استدرك بسرعة ما قطعه: - لا أعرف يا كولس ما يمكن أن يخطر لك متى وقف على رأسك عدد ممن لا يودّونك.

- نعم، يا حقار، يا من جعل الله يومه مئة. - استعاد نطاي الذي جلس

على فراش المريض شجاعته، - إن وقف الأعداء على رأسك وأنت بلا أمل...
- المهم أنه ظهر في القرية من يردعكم، - غمغم تراب أيضاً.
- يا تراب، وأنت أيضاً يا نطاي، - قال كولس بصوت هادئ حازم، وأضاف
إليهما حفيده كي لا يكونا وحدهما، على مبدأ: قريبك غريمك. - أنتما،
ومعكما ججان، توقفا! نعيش دون أن نحترم أقوالنا وأفعالنا، يكسّر بعضنا
بعضاً دون تسامح ومغفرة.

مرة أخرى أشاح حقار برأسه نحو الجدار. وتأوّه، ثم استدار وقال وهو يهز
رأسه:

- يا بن لورستن!.. - تناثر صوت تأكل أضرار حقار من تحت شاربيه
الكثيفين، - جئت تشمت بي، لا يكفيك ما فعلت بي؟
اشتعل ردد غضباً مما سمع ولكنه التفت إلى كولس يفهمه أنه يكظم غيظه
بصعوبة، وأنه عاتب عليه، وابتسم. وامتنع وجه ججان وتراب الواقفان إلى
الباب، وداور ومشقوه الجالسان في الطرف الآخر. وارتحنى نطاي الذي كان
يتميز غيظاً، وساد الغرفة صمتٌ ثقيل.

- إن كنت ستسمع كلامي يا حقار، - قال كولس بعد صمتٍ قصير، -
طلبْتُ منك أن تسحب الكلمة التي وجهتها لجاري ردد. إن كنت تتصور أنني
جئتكم بمؤلاء الشباب تلومونهم ويترجّونكم فأنت على خطأ. لم أوافقهم حين
قالوا إنه لن يفهمنا، ولكن تبين أنهم أحكم مني.

- عاتبوني، وتوسّلوا إلي إن أردتم يا كولس. أقول لك ولرفاقتك: وعدني المجير
نخلش أن يوقفني على رجلي خلال شهرين أو ثلاثة ولذا لن أحيا على سطح
الأرض دون أفعال بابين لاورستن ما فعل بي، ودون أن أعرف تراب الأحذب
قيمه. أبعد عني هؤلاء يا نطاي لأن موعد قبيلوتي حان.

- تحلّوا بالصبر! - شدّد كولس على الشباب الذين هبّوا، وسألهم دون إظهار
تبكيته لنفسه: - هل سمعتم أنه لا يُطعن الخنزير القليل بسكين؟ إن كنتم لن
تسمعوا فيها هو من فعل هذا بنفسه مستلقٍ أمامكم. سنرى ما يحدث؛ هيا
نركب.

VIII

كان بقي على حلول القرن الحادي عشر بضعة أشهر حين التقى ردد ونخلش على طريق الجبل - الغابة.

- أتساءل: من هذا الذي اعترض طريقي؟- نادى نخلش الفارس الذي لم يتعرّفه.

- وأنا يمكن أن أسألك السؤال نفسه يا نخلش، ولكن لن أستطيع أن أفعل هذا في حضرتك. - أجاب ردد الفارس الذي تعرّفه من صوته.

- أهذا أنت يا بن لاورستن، الذي نسمع بسيرته ولا نرى شخصه؟ أراك لست خالي الوفاض؛ من أين تأتي؟

- كنت في الصيد.

- وحدك؟

- كما تراه.

- هذا عجيب... حقدار يغتابك أمامنا من هناك وأنت تُبين عن رجولة. هل تصيد وحيداً؟

- وهل يحتاج هذا إلى رجولة؟ لك حصّة في صيدي إذ حضرت يا نخلش¹.

- حياك الله، لا ينقصنا جلود ذئاب ولا لحم غزلان.

- تفضّل إذن، لن أدعك تتجاوز مزبه وقد وصلت إليها.

- لن أدعك تتوسل إليّ في هذا يا أخي الصغير، مقصدي هو مزبه.

- نعم، ولكن موقع مزبه هو اتجاه رأس حصاني.

- صحيح، لم تخطئ، - ابتسم نخلش، وأدار وجهة الحصان. - حين سمعت

وقع حوافر عدث أتساءل أيّ شجاع يصدع الغابة في هذا اليوم الكالح. وكنت

أريد أن أروّض جسدي. ولكن لن نستطيع أنت وأنا أن نفعل هذا. لو كان

حقدار محلنا لفعل هذا. يرسل إليّ كل أسبوع طالباً أن أنزع من جسده ما

¹ تعبير قريب من مقصد قوله تعالى ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ

فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ...﴾ (النساء 8/4)، وكما يقال في التقليد السوري "مقدّم" لمن يعجبه

الشيء تحمله أو تلبسه.

تسبب ابن لاورستن في وضعه.

- مضى على إنذار حقار شهراً يا نخلش.

- لماذا لم تُجهز عليه وقد ضربته! - ضحك نخلش بـجُبْث.

- إن سمحت للشفقة أن تعبر إلى قلبك حدث لك مثل هذا.

- لا تضحك يا بن لاورستن! ماذا يفعل الدب الجريح متى عاد إلى وعيه؟

- يمزق من يجده في طريقه.

- متى أفاق حقار فعل بك هذا بعينه.

- وهل يخلو حقار من أي نقطة ضعف؟

- في إنسانيته أم في بنيته؟

- من جهة إنسانيته، - ابتسم ردد وكتفا حقار المرفوعتان دائماً قبل أن يلازم

الفراش تنتصبان أمام عينيه، متذكراً طريقة استقباله لهم حين زاروه في مرضه. -

كله عيوب. ولكن أقول إن من حدد لي موعداً دون أن يفكر في نفسه لن

يقوم من فراشه سليماً بكامل قواه.

- لا تشكّ في شفاء حقار، ولكن لا أجهل أنه سيرث في جسده نقطة

ضعف. لا تترجّني يا بن لاورستن، لا تترجّني. - ضحك نخلش بكل قوته، -

لن أكشف لك عنها ولو رجوتني.

- صحيح يا نخلش. الأفضل ألا يدخل الغش في أي مسألة. - أنهى ردد

بالصدق الحديث الذي بدأ بالمزاح.

- الصدق، صحيح، أوافقك على أنه فوق كل شيء. ولكن لا أخفي عنك،

أنت وحقار تتمتعان بقوة هائلة، تظنان أن لا أحد يستطيع صرعهكما ولذا، -

مرة أخرى ضحك نخلش الأصهب من أعماق قلبه، حتى هزّ ظهر الحصان، -

فمن يغلبني يكن ثوري، من يعرف كيف ستصرف معي أنت؟ سأحتفظ بالسرّ

الذي معي.

"أيّ سرّ لا يكشف لي عنه متظاهراً بالمزاح؟ - استمع إليه ردد صادقاً دون

انفعال، - لا يثق في أيّ منا، حقار وأنا، يسعى لأن نتصارع، ومن يغلب

يصبح ثوره. أيكون صادقاً في دعواه أنه سيوقف حقار ثانية على رجلية؟

أيتخبرني بهذه الأقوال؟ إن كنت سأخضع بدلاقة لسان نخلش الأصهب فهذا

يعني أن كل ما يقوله لي كولس صحيح. نطلب من تراب أحياناً أن يتكلم في ما لا فائدة له منه، وننهره ، ولكننا نصطدم بما لا نقبله منه من شكوكه... هو يعالج حقدار ويشفيه ولكن لا يجوز أن يعرف أحد غيره بنقطة ضعفه بعد الإصابة متى أوقفه على رجليه. لا ألح عليك أن تخبرني، ولن أتوسل إليك محققاً لك ما تريد أنت تماماً. ولكن إن رجع حقدار الذي تتفائل بشفاؤه إلى الربيع القادم فليفرح!..."

"هل ترى كيف يستعد هذا الذي لا شأن له مدعياً أنه عملاق ذو قوة هائلة؟ - نظر نخلش الأصهب إلى من صار رفيقاً له دون موعد. - يُئِيل إليه أن ليس في أرض القسوغ أكبر منه رأساً وجسداً فلا يعود يحترمني... إن كنت تظن يا ولد أنك صرعت حقدار وانتهيت من أمره واستدرت إليّ فأنت مخطئ... لم أتخيل مطلقاً أن حقدار سيسمح بصرعه بحركة واحدة من رجل ردد. شجّعته دون فائدة. يدعي أن الثلج هو ما زحلقة، على مبدأ أن من يُصرع لا يشبع من المصارعة، ولكن ألم يكن ردد أيضاً على الثلج نفسه؟!"

- يا بن لاورستن، يا أخي الصغير، - خرج نخلش الأصهب فجأة من أفكاره كما وقع فيها، - لماذا تبتعد عني حتى لا أسمع غير وقع حوافر حصانك؟ - لا يا نخلش، - خرج ردد من أفكاره جاهزاً للجواب كأنه كان ينتظر السؤال، - لن أدعك تتهمني بهذا، - يمكنني أن أسألك هذا السؤال نفسه. - إن كان هذا رأيك يا أخي الصغير، - استدرك نخلش باسماء، - فأنا أظن أن أفكارنا تباعدت ونحن نعتقد أنها متقاربة. - على ما يبدو، قال في نفسه، لسأله كما سيفه، لا أتكلم على قوته الفائقة، حادّ. ثم أضاف: - أحياناً نُشيع عن أنفسنا تصرفات وحشية لا حاجة إليها، ولكن أفكاره المتسارعة المتقلبة مثل نظراته السريعة. اسمع يا أخي الصغير، - أوقف نخلش الأصهب حصانه فجأة حين أصبحا على ضفة نهر بشده متجاوزاً كلامه السابق. - ألق نظرة على شتائنا ما أجمله مريحاً العين وناشراً الدفء في القلب!

- وحين يُطل عليه إلهنا الكبير يا نخلش! - وافقه ردد. - هذا بديهي! ألا ترى كيف تبتسم لنا طرقنا وإن كان اتجه إلى بلاد الموط والزبخ!

- يتهياً لك يا نخلش، - ابتسم ردد في قلبه، ولم يملك إلا أن يقول، - لا أظننا وحدنا من يبتسم له.

- لو سألتني لما سمحت لك أن تقول هذا يا أخي الصغير. - لم يكتف نخلش الأصهب بعدم الرضا عما سمعه بل بان على محيّا، وسأل: - من تعرف في أنحائنا ممن يعتمد عليه إلهنا الكبير ويثق به؟ لا تتق بما يقال لك متجاوزاً طبيب العظام نخلش، حتى لو كان القائل كولس، أو ججان أو مشوقه أو داور الذي أعدت إليه الروح، وغيرهم، انتهاء بتراب الأحذب، ولو مسحوا على جسدك وربتوا على ظهرك، ولا تسمع لهم. عيب حقار السري، - يكرر ما قاله سابقاً كي لا ينسى، - لأني الوحيد الذي يعرفه لن يطمع في معرفته غيرك.

- إن كان إلهنا الكبير أمّله فما شأني؟.. ولكننا نحن الأحداث سنأ، وعلّق علينا بما تريد، سنتحمل ما نستحق وما لا نستحق. ولن أسمح لك بأن تنتقد كولس الكبير بما لا يستحق.

- الحق يا بن لاورستن، حاولت أن أتحمّل، ولكن، - احتدّ نخلش الأصهب، - هل كولس العجوز إلهكم يا أهل مزبه؟ ماذا تتصورونه؟!

لا يتذكر ردد منذ أن تعرّف نخلش الأصهب أنه التقى به في مثل هذا الغضب كما اليوم. تصوّر ردد أن قبعة غريمه الضخمة المصنوعة من جلد الذئب ضيقة على رأسه، وجسده بارزاً كذلك من كسائه الأزرق المنفوش كأنه صغير عليه، حتى حصانه صغير عليه، ولكنه ردّ على الهجوم بهجوم:

- لا يعدّ أهل مزبه، صغارهم وكبارهم، كولس زعيم الخير إلهاً. ولكن وجود مثل كولس في قريتك ومن أبناء قومك نوع من حسن الحظ. - ثم أنهى بصوت أنعم وأحزم: - لتتفق إذن يا نخلش أن كلاً منا عبّر عن رأيه فحسب. وإن تسرّعت دون داعٍ فسامحني.

- يا بن لاورستن! - كان نخلش نطق اسم والد ردد بصوت حادٍّ ولكنه أنهى بنبرة لطيفة: - يا بن لاورستن، يا أخي الأصغر، لا تبرئ نفسك بحجة التسرع. كنت أريد أن أستفرك قليلاً في شأن كولس العجوز الحكيم، ولكنك لم توقّر شيئاً بحقي، وأفحمتني، - اختتم نخلش بضحكة عميقة.

- إن أردت الحقيقة يا نخلش فقد فكرت في الموضوعين اللذين ذكرتهما،

- اختتم ردد أيضاً بابتسامة متحدثاً من خارج قلبه.
 - الأفضل يا أخي الصغير، - وافقه نخلش بسرعة، - ألا تفكر في ما يصدع الرأس. ما الذي يحافظ على عالمنا اليوم في رأيك؟ ليس العقل، بل السيف والقوة. لماذا يقولون: الساق القوية تصرع الساق الهشة؟ هذا هو الواقع: لا يمكن بالعقل وحده إخضاع الموط والزبيخ. لماذا في رأيك تختار الوحوش أقواها قائداً؟ يقال إن كولس العجوز يدربك على حركة الرجل التي توقع الخصم أرضاً في الرياضة، فيوصلون الخبر حتى إلى قريتنا مستخفوه. ولكن لن أدعك تصرعني وأنا حيّ واع بهذه الطريقة. إن كنت تريد يا بن لاورستن أن أثبت فعلاً ما أتكلم عليه فسأصرخ على تلك الشجرة في المعبر فأسقط الثلج عنها. ألا تصدّق؟ نظر نخلش بعينين لامعتين إلى ردد وإن لم يدعّه إلى الشك، وارتفع عن الركاب.

- لا، لا، نخلش، - استعجل ردد صادقاً، - أنا أصدِّقك، لماذا تهيج الطبيعة الهادئة؟ لتحفظ تلك الشجرة بالكساء الذي حباه به إلهنا الكبير.

- إذن، - مرة أخرى ضحك نخلش الأصهب راضياً تحقّق له ما أراد، - لن أرهق حنجرتي، ولن أدع أهل مزبه يجفلون غير عارفين ما حدث... ولكن أنت وأنا يا أخي الصغير، لا، أنا لا أمزح، لابد أن نختبر قوتينا معاً.

"لم أر أحداً يعبت بقوته مثل هذا الرجل، - ابتسم ردد مرة أخرى في قلبه، واستغرب، - عجيب أن لم يقابل إلى الآن أحداً يحطم له أنفه... وعلى مبدأ تراب: إن لم تعرّف كلاً حدّه فليس قليلاً ما يخطر له..."

- أراك صامتاً يا بن لاورستن؟ هل يمكن أن ترتعب من مجرد كلامي؟

- فرغنا من الكلام في هذا الموضوع منذ زمن بعيد يا نخلش.

- متى؟

- ألا تتذكر؟ في هذا الخريف.

- وماذا بعد؟ الخريف انقضى، والشتاء حلّ.

- أليس من طلب عدم الاستعجال؟

- نعم، أنا، - أخفى نخلش انفعاله رغم أنه نصّ برأسه، وأخفى بكلام حاسم:

- ليس من عادي التراجع عما قلّت. أنت تجهّز نفسك سراً حسب كلامك،

صحيح؟

- وكيف يكون سراً وأنت تعرف ما جرى لحقار؟

- مرة أخرى أفحمتني، - صاح نخلش الأصهب دون حقد، - لم تغلبنني بالقوة، بل بالكلام. ولكن إقضي دين حقار أولاً، أنا صريح جداً ولذا ما على لساني وما في قلبي واحد. إن كنت محظوظاً لم يتشف منك حقار بقوته المجنونة. - سنرى. - لم يترجع ردد. - وأنهى بمزحة: - وإلى حينها سيجري في نحر بشده الكثير من الماء. وإن حدث وصرعونا في الربيع سينعم عشبه الجديد الأرض تحتنا.

"إن انتظرك إلى حينها... - غمغم نخلش في سرّه، - لا أظن أنكما ستفترقان دون أن يقتل أحكما الآخر، حقار وأنت، متى تماسكتما بتلابيبكما. وأنا واثق أن ما تسميه بالعشب الناعم سيغطي قبركما. ولماذا لا أصدق نفسي إن قلت إن إمرتك ستنتقل وقتها إليّ ويقع القسوغ في يدي؟.. ما لا تخدم به نفسك لن يقدمه أحد إليك هدية... بقينا نتصاغر لوالدك المرائي ونتوسل إليه وكذلك لخالك حتى انتكبتا على أيديهما. لولا أنهما كانا يعترضان طريقي ومُجَبَّطان خططي لصار القسوغ منذ زمن بعيد في عُهدي... وها أنت، بعد أن قضى والدك، وأُسِرَ خالك، بقينا نحتقرك حتى انتصبت أماننا دون أن ننتبه إليك... وهذه مسؤولية العجوز كولس، ظل يدعو في الآفاق بلقب الإمارة لك حتى لم يعد من لا يشير إليك إشارة الاحترام يهنأ بما يأكل، وصار يعدّ حياته بلا جدوى. لا بد من معالجة هذا الوضع بعدما أضعت الوقت بين اليوم والغد. وأنا من أنقذهم في الخريف الماضي حين تصدى لهم فرسان الموط..."

رفع نخلش رأسه بسبب أصوات الخيل التي سمعوها مع دخولهم إلى مزبه. وعرف الفارسَ الجاري إليهم من حديثه، وغمغم:

- انظر من قابلنا! أشأم شخص في مزبه.

وصاح ردد غير مرتاح إلى طريقة جري الفارس:

- هل هناك ما يُقلق؟

- يا ردد، - أجاب تراب صائحاً، - لا تتعرف فرسي حصانك فلا أستطيع السيطرة عليها. سلاماً يا نخلش، كأنك وحدك؟

- ومتى طلبت منك أن ترافقني، أنا وحدي طبعاً. - أجاب نخلشُ تراب جواباً مهيناً بدلاً من أن يرد السلام.

ابتسم تراب بما يعني: "ما الذي يجبرني على ترتيب أمورك؟ أستحق جوابك"، ولم يردّ بشيء.

- هل تقصد مكاناً معيناً أم تروّض الحصان؟ سأل ردد.

- مررتُ على بابكم إذ كان حصاني جاهزاً، وكانت رامبس قلقة لغيابك فلحقْتُ بك، - قال تراب متجاهلاً نخلش، وأظهر اهتمامه بما صاد ردد، وعمّق الإشارة إلى إمرته: - صِدّت جيداً يا أمير. ليس من يقدر على مثل هذا الصيد كثيرين. وجلد الذئب كبير. والجدي ليس صغيراً، ولا نحياً.

- تبادلا التهاني إذن إذ التقيتما! - لم يُطق نخلش الأصهب ما سمع، - وأنا سأزور البائس حقار.

- وكيف تبدّل مُضيفك يا نخلش وأنا أول من التقيت به! - عرض ردد برفيقه الفارس: - تعال، تفضّل إلى بيتنا، وعلى رأي كولس: ما مضى كثيره سيمضي قليله. سنوصلك إلى بيت حقار بعد أن تذوق من طعام والدتنا.

- ألا يمكن أن تصاحباني الآن إليه؟ لمح نخلش بكلام مُراءٍ مبطن.

- لا شغل لنا عند حقار! - حسم تراب المسألة متشفياً.

- على ما يبدو، - ابتسم نخلش وحقده فاقع، - تحتبآن ممن له دين في رقبتهما. أنا لا أعدّ هذا يا بن لاورستن، لا آتي على ذكر هذا الذي هُرع لاستقبالك، رجولة.

- يا نخلش! - قال ردد كاظماً غيظه بصعوبة، - لا تدعنا نتبادل عبارات مهينة، ولا تُقم بيننا عتياً. أنت طيب عظام، لا تميز بين مريض وآخر إن كان بريئاً أم مذنباً. نحن، لا جاءنا الله بما نحتبئ لأجله! وإن قضيت واجبك وعدت فباب مضافتي مفتوح لك. نحن لسنا مدينين لأحد. ولكن كان يسرنا لو أفهمت من تزوره أننا لن نفعل ثانية ما أجبرتنا إنسانيتنا أن نقوم به.

صبرت رامبس عدة شهور لا تصارح ابنها بما في نفسها مؤجلة الموضوع من يوم لآخر. وردد نفسه كان يشك في الأمر ولكن يخفي شكّه. قررت الأم أن تبوح لابنها ولكنها تراجعت كي لا تقطع عليه فطوره. كان ردد قد لبس للخروج من

الدار فتأجل تنفيذ نية الأم في الحديث إلى ليل الشتاء الطويل.

- يا أمنا، هناك ما يقلقك ولكنك لا تجرؤين على البوح به. - قال ردد لحظة خروجه من الغرفة إلى من وراءه، - تريدان أن تقولي شيئاً؛ هل هو موضوع مُقلق؟

- أمك تقلق لأمر كثيرة يا ولدي، - توقفت رامبس على أرض الغرفة الطينية راضية بفتح الموضوع من ابنها، غير مرتاحة لطريقة سؤاله، - ولكن لا أعرف ما الذي انتبهت إليه. إمضِ إلى حيث توجهت يا ولدي، ومتى عدت، ليست المسألة مقلقة، تكلمنا على راحتنا في كل الموضوعات. لا يناقش أي موضوع، كبيرٍ أو صغير على عتبة الباب.

- نحن لن نسافر إلى مكان بعيد، - بدأ ردد يفك الأزرار الخشبية لفروته، - سنذهب إلى مستحقوه القرية.

- ومن معك؟ - سألت رامبس وقد خطر لها نخلش المقيم في تلك القرية، وامتقع لونها.

- داور، ومشقوه.

- وججان؟ - استغربت غياب اسم أقرب أصدقائه إليه.

- حافر حصان ججان مصاب. أبي أن يسافر معنا على حصان مستعار.

- وتراب؟ - سألت رامبس تقول في نفسها: بين ردد وججان جفوة ما، وقلّت زيارته إلى بيتنا، وتتنصب صورة أبنار الجارة الصبية في عينيها.

- ليس من الضروري أن نصطحب إلى مستحقوه المعوق الوحيد في القرية...

- غمغم ردد وقد انكسر صوته عمّا قبل.

- صحيح يا ولدي ما يقال من أن الله يفعل بك والناس يعيرونك به... لا أستطيع أن أقول إن والدك كان إنساناً لطيفاً صاحب قلب هشّ ولكنه لم يعيش حياته لا يميز بين من يستحق الشفقة ومن لا يستحقها. وأنت تتذكر، دون أن أدركك، معاملته للمسكين تراب. لا أتذكر أنه تكلم على عاهته، بل كان يتنبأ له أن يصبح شاباً فطناً.

- نعم يا أمنا، نعم، - قال ردد نادماً على وصفه المهين لتراب. - والدنا وأنت عادلان في شأن تراب. ولكنه يتدخل في ما يعنيه وما لا يعنيه... لا أظن أن

هذا هو الموضوع الذي كنتِ تريدِين فتحه معي.

- سنُعَدّ كلامنا في موضوع تراب منتهياً. عرفتُ أيّ مهتمة بموضوع آخر. ولولا أنكِ أخبرتني بسفركِ إلى مستحقّوه لما كاشفتكِ به اللحظة. ولكن لا يعجبني تودُّد نخلش إليك. كتمتِ استيائي حين جاءنا ضيفاً، غير أنني أخبركِ الآن. كان يعادي والدكِ أيضاً خائفاً منه، كاتماً عداؤه. وأنتِ لا يُكُنّ لكِ الخير.

- وحارس والدنا، تيمرقوه الرجل الصالح، كان نخلش من تسبب في أسر الخزر له، - قال ردد وأضاف: - والآن بعدما عاد من الأسر، فهو من نذهب إليه للتهنئة.

- متى عاد تيمرقوه؟ - تلهّفت رامبس من الخير الذي سمعته. - إن كان أمس فلماذا لم تخبرني إلى الآن؟ - وقانشاو أخي كان أُسر معه.

- فضّلتُ ألا أتكلّم في ما لست متأكداً منه، - أعاد ردد عقد أزرار فروته مبرئاً نفسه، ودسّ رأسه في قبعته الكبيرة بصعوبة. ثم ابتسم في وجه أمه بوجه طلق: - أظننا سنعرف شيئاً عن مصير قانشاو يا أمنا!

- ليكن أخي الصغير في أي مكان شريطة أن يكون سالماً، - قالت رامبس وقد اختلط فرحها بحزنها، ثم لم تُخف عن ابنها الخبر المزعج الذي خطر لها: - الآن فهمتُ لماذا لن يذهب ججان إلى مستحقّوه للتهنئة... يُقال إن والد ججان، ولا أظنهم يعرفون تماماً، قضى على يد تيمرقوه... ولكنني أعرف أن كولس ليس راضياً تماماً عن صهره... لا حاجة لفتح الموضوع.

IX

إن ارتقيت مُستراح الذئاب على الجبل العالي ظهرت قرية مستحقّوه المتناثرة أسفل الجبل على الغابة المرتفعة قريبة جداً. ومتى سافرت في طريق صعدتُ بكِ مفارقه وهبطتُ فبدا لكِ الوقت طويلاً. وإن عبرت النهر ومشيت على يساره دون اهتمام بكونه طريقاً صعباً قصُر الوقت نصف ساعة، ولذا فقد اختاره الفرسان الثلاثة الخارجون من مزبه الذين لفت الفارس الخارج فجأة من القرية نظرهم.

- أَسْتَحلفكم بإلهنا العظيم، - قال مشقوه، - أن تدعونا نرجع، هذا المنحوس الجاري نحونا لا يحمل خيراً لنا.

- مَنْ مِنَّا وشى بنا إليه؟ - غمغم داور أيضاً.

- أتعرفون اليوم لأول مرة أن تراب لا يحتفظ بسِرٍّ؟ - ضحك ردد، وأكد على رفيقيه متذكراً نصيحة أمه قبل السفر: - لا تُظهروا على أنفسكم إعراضاً عنه، سيئاً لهذا.

- رافقتكم السلامة أيها الجمع! - حياهم تراب قبل أن يجد الفرصة للتوقف، واستبق بلومهم على عدم عرضهم مشاركتهم سفرهم على طريقة الأديغة. - لم تخبروني، فأخبرني أبنار، والشكر لها، فلحقت بكم على مبدأ: من يُهن يجد الفرصة للثأر. أراكم لا تقولون شيئاً يا ردد؟

- ولماذا لا نعرض عليك السفر وقد بدأت به، - أجاب ردد وهو يختلس النظر إلى رفيقيه.

- نعم، جنثٌ ولو أنكم لا تريدوني. وأين تذهبون بي: وجهتكم وجهتي، وسلاحى سلاحكم.

- لم يخبروك يا تراب لأن مستحقوه التي ننوي السفر إليها، - قال داور دون حقد، - فيها نخلش الأصهب صديق حقار. رافقنا إن كنت مصرّاً، ما من فارس يزيد عن الحاجة.

"عداء نخلش الأصهب لكم ليس أقل من عدائه لي، ولكن لا أعيركم به. - لم يُخف تراب هياجه - وهل كنتُ معكم حين طردكم من الغابة والدم يسيل من يدك، ولم يكف هذا بل ألحقه بساعدك فبتره عاجزاً عن أن يشفيك منه؟ وإعادة رفيقك إلى مزبه ووجهاهما إلى مؤخرة الحصان؟ مصيري مصيركم، لا تبعدونني إذ لم يعصني كلب مسعور. لا تتخيل أنني سأحتفظ بهذه المشاعر فأتركها تتعفن في صدري. ولكني أسكتُ إكراماً لأختك الصغيرة. ولكن إذا وصلتكم إلى هنا فلن أدعكم تأخذون عني هذه الفكرة خائفاً أن أفجّر قبحي".

- في كل قرية أناس صالحون وآخرون طالحون، - خرج تراب من أفكاره وشواغل باله، معتداً بنفسه، - هل ستوقف عن السفر لأن نخلش الأصهب يقيم في مستحقوه؟! ليعرف هو وغيره أننا لا نضمّر العداء في قلوبنا. لا يجوز أن نتعادي بحجة أنهم قتلوا أبانا، واحتطفوا أختنا، وألقوا بأخيना الأصغر في الأسر. أليس صحيحاً يا ردد؟

- ما سألت عنه يا تراب، - قال ردد بعدما ساروا مدة لا يصدُر منهم غيرُ وقعِ حوافر الخيل ونخيرها، - لا يمكن أن يكون له جواب حازم. إن كان الأمر يتعلق بالقسوغ والموط والزِيخ، أعراق الأديغة، فمن الممكن عند الضرورة العثور على مقارنة للموضوع، وسيتعلق هذا باتفاق القوم ووحدهم. ولكن إن تعلّق بالخزر والألان الذين ينهبوننا فلا حاجة للكلام عليهم. علاجهم الوحيد سيوفنا ورماحنا.

- ما أتكلّم عليه يا ردد هو موضوع الأديغة، - وأنهي تراب كلامه دون توقف طويل: - إن اهتممنا بأكسية غيرنا بقضايا غيرنا وأهملنا نظافة أكسيتنا، أعني اهملنا قضايانا، فلن نكون مستقيمين. تبادل داور ومشقوه كثيراً من الكلام بالنظرات.

" أحسنت الكلام في شأن الأكسية، - ابتسم ردد في سرّه، ولكني لا أعرف كيف سيفهم رجال القسوغ الذين لا يقلقون إلا لأموهم وأمور أُسرهم الخاصة. كيف سَنُفهم من يختبئون في الحُفَر حين يهاجمهم العدو حلاوة أرضهم وأُسُرهم وقريتهم وأرضهم؟.. ظل والدنا مهموماً بهذا ولا يتحقق له شيء حتى رحل عن الدنيا... وأنا أكرر هذا منذ بلغت سن الرشد. والتناحر بينهم لم ينقص إن لم يزد. والأعداء يغيرون علينا وينهبوننا. أسس للقسوغ مهما تعرّضوا للحرب نظاماً جيداً ينسي القرى عادة الارتحال. وكيف كنت تفهم طيبة الأرض التي تعيش عليها إن لم تعمل فيها، ولم تمزجها بعرق جبينك، ما أبأس أن تبحث كل مرة عن مرعى جديد فترحل معك أسرتك من مكان إلى آخر؟ ورأي كولس القائل إنه لا يمكننا أن نتكيف مع الخزر الرُحل الذين تقاطروا إلى بلادنا فيه نصيب من الصحة. وما حياة الموط الذين يعيشون في سهوب ناحية بحر آزوف يا تُرى؟ لا أظنهم ينساقون مع نمط حياة الخزر المتنقلين. لم نر أحداً منهم مع الخزر إلا بعض مجموعات من فرسانهم تأتينا أحياناً لصوصاً. ونحن لو زرنا تلك الناحية يوماً ما لكان حسناً، ليس بقصد السرقة، ألا تعمق معرفة كل من الطرفين بالأخر إن تبادلنا الزيارات واختلطنا؟.."

- أيتها الجماعة التي أسافر معها على نية الخير، لا أعرف رأيكم أنتم ولكن كان يسرني لو استمر شتاؤنا أيضاً، - مرة أخرى نقض تراب الصمت بين

الرفاق، وعَلَّلَ قوله وإن لم يسأله أحد: - استرحنا في شهري الشتاء دون غارات من الخزر.

- بغضِ النظر عن المصائب التي حَلَّتْ بقرانا منذ بدأ الثلج يسقط عندنا، - ساهم مشقوه.

- ولم أنسها يا مشقوه، والدنا المرحوم قضى في فصل الشتاء. وفقد داور يده. وسقط ضحية المعارك بين الحي الشمالي والحي الجنوبي شباب ممتازون ماتوا قبل أوانهم. ومستخقوه التي نسافر إليها ليست في أمان. ويقال إن الوضع في شِشْخَرِس وغيرها من القرى أسوأ مما ذكرت. إن استمر وضعنا هكذا بضع سنوات فسيتوقف نمونا البشري.

- كفى يا تراب، أنت تقول الكثير، - اعترض ردد، ولم يملك إلا أن يسأل: - ما حاجتنا إلى شتائكم إن كنا سنتفانى؟ أفضِّل أن نقرض على يد الخزر قبل هذا، سيأتون على ذكرنا يوماً ما في أسوأ الأحوال.

- هل تعتقد يا ردد أنهم سيتذكروننا يوماً ما بعد أن نموت؟ - سأل داور.

ضحك تراب بصوت مسموع رغماً عنه، واحتجَّ مشقوه:

- ماذا جرى لك يا أخانا الصغير؟

- اتركنا هذا الشاب، كفاكما، - ساند داور تراب. تعترضون عليه إن تكلم، وإن ناقش لم تقبلوا أفكاره.

"أخفي عني عليكم وإن أسكتتموني. لحقت بكم متناسياً موقفكم ومع ذلك تُشعرونني بأنكم لا تطيقونني. وإن ابتلعتُ تلميحاتكم أحياناً فلا تتوهّموا أنكم أعقلُ مني... هل المشكلة في حديثي... هذه تكافئ بوجه من الوجوه عيوبكم الخفية..." - أضاف تراب إلى اعتراض داور أحزانه وعتبه.

- ما قلته يا داور يمكن فهمه من جهتين، - قال ردد متناسياً المماحكات الناشئة، ظاهراً عليه ارتياحه للسؤال. - نحن، هذه المجموعة، إن كان الأمر يتعلق بأشخاصنا فحسب فنحن نعيش ونأكل وننام ونشتغل، ونلجأ إلى الجبل متى لاح خطر، ونأمل؛ فماذا يمكن أن نترك لمن بعدنا يسردونه؟ ومن الجهة الأخرى، أي ما يتعلق بالأديغة، فهو موضوع آخر. تأكّد أنهم سيدكرون يوماً ما أن القسوغ الأديغة عاشوا في تلك الجبال. وإن انقرض العرق بأكمله عاجزاً

عن حماية نفسه فستبقى أسماؤهم في الجبال والغابات.

- صحيح يا ردد، - يوافقك تراب، - ها هو جبل أوفتين بادٍ، وفشّت ليس بعيداً عنه. ومن بعيد يُظلهما أوشحه مافه. ولكني لا أوافق على ما تصفنا به مستثياً من سمّا هذه الجبال. لا أقصد أنك لست مهموماً بأمر ما، وأنا لا نوافقك عليه، كلُّ إنسان ينتظره قدره. ما حملنا الله حملنا؛ أليس كذلك يا مشقوه؟

- كأنك تثرثر من جديد يا تراب... - حرص ردد هذه المرة على تراب أكثر، دون الاهتمام بجواب سؤاله.

- دعه يتكلم، دعه، - أسرع مشقوه، - سينقص طريقنا ولو سلماً واحداً¹. "اسمعوه، اسمعوه، - ابتسم داور في سرّه، - ليصدغ رؤوسكم أيضاً مرة ما. أنا أعيش في هذه الثثرة كل يوم. متى رأى جبان قادماً إلينا انصرف هارباً لا يلوي على شيء. من حظه أنه ليس معنا. ولكن ما لا أستطيع تفسيره هو عدم ملل أبنار وأنست منه. ومتى انقطعت زيارته العاصفة استدعتاه. وهو يجد ما يقول للصبيتين دون كلل أو ملل حتى يحين موعد النوم فتفرّقهم أمنا. ولو توقّف الأمر هنا لكانت المشكلة إذ أنه يستطيع حمل هؤلاء على الطاعة. صحيح ما تقول أمنا: كأنه ساحر"

- لا أعرف إن كان سلماً، - يكمل تراب مماطلاً ما قاله مشقوه، - سأقول ما في قلبي. هل تتذكر يا ردد ما قال والدك حين وقع في خطر الموت على يد الخرز؟ "لا تفنى الأسرة بموت واحد منها؟" كنتَ أولَ من أبلغه بهذا، ثم نحن، ثم الأديغة بكاملهم. نعم، نعم، ألسْتُ حياً إذا كان حقار قتل والدي؟ وأنت أيضاً يا ردد... الحقّ يا شباب أني أرى مهارات الأديغة ومعاركهم الأهلية تزداد.

- وكيف؟ - خرج داور من أفكاره.

- لا عجيب في هذا يا داور، - قال تراب كأنه يتابع حكاية مألوفة. - ليس

¹ تقليد قديم للمسافرين خلاصته أن يطلب أحدهم نصّب السّلم للطريق، فيتبادلون الحكايات والألغاز بهدف ترجمة الوقت.

هناك ما هو أشد ضرراً من الدم الذي يُسفك داخل القوم. كلما فكرتُ في الموضوع تجذّر في ذهنك اليّ فقدتها، ومصرعُ والدي، وغيرهما من القصص، ولا تسمح لك أن تنساها.

- والأعداء المغيرون يسفكون دم الأديغة.

- لا يا مشقوه، هذا موضوع آخر، - لم يوافق تراب، - لن يمتزج دمنا الذي يسفكه أعداؤنا ودمنا الذي نسفكه فيما بيننا. نحن نغض الطرف عن الصراع بيننا ولكنه يُفَرِّز كثيراً مما يدعو إلى التفكير.

- أنت، احتد داور، - ستصالح حقدار الذي قضى والدك على يده.

- ما أهمية أن أصالح حقدار أو لا أصلحه بعد أن حدث ما حدث. لن يعود والدنا ورجال قريتنا التعماء من الموت. أريد أن أقول: لا يمكن أن يسود السلام بلادك ما لم يشد بيتك، ولا أن تحمي نفسك... لا تتصوروا أنني أعقل منكم. دعونا يوماً ما، كما يقول كولس، نصفي قلوبنا، بعضنا نحو بعض، دون تمييز بين قريب أو بعيد، وتنصالح...

"يا إلهي الكبير، من أين يعرف هذا ما في نفسي!.. - جفل ردد مما يسمع. - أهو ظلي أم صوتي؟ ليس اليوم يقول تراب مثل هذه الأقوال لأول مرة، يسلبني أفكار، ويحملني على أن أفعل ما لا أريد، ويجدني ولو اختبأت عنه. لا يفارق ذهني ولا يتركني أستريح إن تعادينا أو تصالحنا، أو كان حاضراً أمامي أو غاب عني... أي نوع من البشر هذا؟.. - أعاد ردد الحصان إلى وعيه بعقبه، فأجراه مسافة، فسبق رفاقه فكان تراب هو من لحق به ومن ناداه:

- الطريق مبلول، يمكن أن تتزحلق يا أمير، احذر من المنعطف!

لا يخفف سرعته من وقع على ظهره العريض تعب "يا أمير" على مسمع من الجميع، لا ينوي الالتفات. فُتات الثلج المتجمد يتناثر من حوافر الحصان، ويصيب وجه تراب وفمه، ويسقط من ضفة النهر. والهواء النائر من الجري المفاجئ للفرسان الأربعة يغطي بثمار الثلج أشجار الطريق الواقعة على رؤوس أصابعها. والأغصان التي لا تتحمل ثقل الثلج المتساقط تنكسر. وكما أن الصوت الغريب عن الجبل - الغابة التي كتمت نفسها لا يستقر فيه، فكذلك أفكار الذين قطعوا صمتها متتابعة لا تلحق إحداها بالأخرى.

" ما الذي لم يعجب هذا الذي حثّ حصانه كل هذا الحثّ؟ - يلاحق تراب ردد وإن كان منحنياً على الحصان بحديثه النافرة، - لا يتقبلون الحسن والسيء. ما في عقولهم قليل، ورؤوسهم منتصبه... هل أجبرتهم أن يفعلوا إن عرضت عليهم مصلحة حقار؟ إن كان هذا همكم فليس من قتله الرجل والد أي منكم... ولكن مع ذلك فمتى قام حقار من مرضه صالحته بطريقة ما وصالحني، ولكن لا أعرف ما سيحلّ بكم... والآخرا اللذان يسيران ورائي يراقبان حديثي مستضعفين إياي... أأنا الضعيف المهزوم؟ - يتابع تراب مهتاجاً الفارس الضخم أمامه. ولا يحرم من وراءه من ابتسامته الموهبة... - سنى إن لم أحملكم إن عاجلاً أم آجلاً على أن تعودوا فتتوسلوا إليّ... ليس بالقوة وحدها يحيا الإنسان... للمشوهين أيضاً رؤوس. عندهم عقولهم وإن لم يكونوا أقوياء البنية..."

- يا ردد، يا أمير، لا أريد أن أعلمك ولكن، - صاح تراب إلى من عاد بحصانه إلى مشيته المعتادة، دون أن يحاذيه، متأخراً عنه بمقدار طول حصان، - تصرّفت معي الآن بطريقة غير صحيحة.

- ما الخطأ الذي فعلته معك؟ - أوقف ردد حصانه بسرعة، وظهر امتعاضه مما سمع مع أنه تظاهر بأنه يدين نفسه: - لا أعرف أي أخطأت إذ أجريت حصاني، أوضح لي المشكلة!

- يا مشقوه أنت أكبر الفرسان، - توجه تراب إليه، آملاً اتخاذه سنداً وقد فهم سوء مزاج ردد، - هل يجوز تعكير هذا الجو الجميل بحوافر حصان؟

- هل تقصد الثلج الحديث؟ - سأل ردد قبل أن يجد مشقوه الوقت للتفكير، ودون أن يلتفت إليه، وأضاف لمن لم يسمع ضحكته الخفيفة: - تتكلم حيناً على خطر الانزلاق، وحيناً على برودة الجو؛ أيهما تقصد تماماً؟

- حسب وضع قلبك يا أمير يمكن أن تعتمد أحدهما، - جواب تراب على لسانه.

"لأجل هذا اقترحت العودة حين لحق بنا هذا... - تجدد غضب مشقوه. - ينشر بيننا ما يريد من أفكار ومشاعر متظاهراً بأنه يستشيرنا. ولا يعبأ برأينا. نستحق أي ملاحظة يوجهها إلينا، هذا الذي لا يساوي شيئاً لم يكف أنه

التحق بنا جرياً حتى فرض نفسه علينا، وها هو يسيطر علينا الآن. يتراجع متى أراد، ويشد زمامنا متى أراد، ويحثّ خيلنا بمشيئته. كل الذنب ذنب ابن لاورستن. يغفر له ما يستحق الغفران وما لا يستحق لأنه يناديه بـ "الأمير". أنت تحتاج إلى زمن طويل حتى تستحق لقب الأمير الذي كان لوالدك. ولن يستقرّ عليك لأن أحداً يناديك به فحسب. يجب أن تناله برجولتك أو بعقلك. أنت تصطحبه بحجة أنه جارك وبائس دون اعتبار لموقف الناس منك. وداور ألطف مما ينبغي ورقيق القلب. وججان هو من يتمتع بالرجولة فلا يقرّبه إليه مهما تودد...

- إن كنت تسأل عن حالي فاسمع، - وقف ردد بكل جسامته في الركاب حتى نبّه الخيل إليه فنصبت آذانها. وصاح في الغابة الجبلية فتساقطت الثلوج من الأشجار، وطار صدى صوته من ظهر المرتفع، واختفى في المضيق.
- ما هذا يا رجل! - صاح تراب بصوت ناعم. - مرّقت كل ما في الغابة.
- كان الأفضل يا تراب ألا تكشف لنا عن بُعدك عن الصيد. - سبقهم داور ممتعضاً مما فعل ردد ومن الدافع وراء فعلته، ومن كلامه.

- ويّم أتخلف عنكم في مسألة الصيد يا داور؟
- في الشتاء ينام الدب في وكره. - لم يُطق مشقوه ما سمع.
- حسنٌ إن نام فيه، نفترض أننا أيقظناه؛ أليس كذلك يا ردد؟
- إن أردت إيقاظه فاصرخ بصوت أعلى من صوتي، - ضحك ردد في قلبه مستاء من مماحكته، ونادماً قليلاً في الوقت نفسه على ردّه، ولكن كاتماً انفعالاته.

- لا أقول إن صوتي أقوى من صوتك ولكن عندي قدرة على الصراخ إن أردت.

- وإن صرخت وطاردك دبٌ غاضب؟
- يا مشقوه، يا كبير، ما أقلّ ثقتك فيّ؟.. - لا تتصورني شديد الفرع. لن أحتمي بأحد عند الاستنفار.

كان داور يودّ أن يسأل تراب: "من كان يسترق النظر من وراء سور بيته حين كان والدك في موقف الموت، وأنا يجروني في كساء دون كمين؟"، ولكنه أراح

رغبته جانباً وقال غيره:

- كفى يا مشقوه، لا يخلو تراب من الرجولة، اتركه!

- طبعاً يا داور، - لا يتوقف تراب، - ألم أكن بين من فزعوا لكم حين قاتلتكم جماعة نخلش الأصهب، ووقفت معكم أمام حقار. وكنت معكم حين اصطحبنا كولس زعيم الخير للمصالحة؟! أنا لا يظهر لي أيُّ فضل مهما فعلتُ على مبدأ: معروفي انقلب عليّ نحساً. أقترح عليكم مصالحة حقار من أجل أن يسود السلامُ القرية لأنه تعافى من إصابته، وأنتم تدينوني.

- هل قام حقار من الفراش؟ - نادى ردد إلى من وراءه بلامبالاة وإن كان يسمع الخبر لأول مرة.

- لم يقم فحسب، - أسرع تراب بالردّ، - رأيته حين انطلقت للحاق بكم بين رجال حيّه على زاوية أحد الأسوار. وهزّ لي عصاه الضخمة، وجعل الواقفين يسخرون مني.

- ولماذا لم تُخبرنا إلى الآن؟ - سأل مشقوه.

- وهل أفسحت لي المجال لأخبركم!.. - غمغم تراب، ثم قال متهمّاً الشباب الثلاثة: - ألستم من ائهمني بالثرثرة؟ ولم ترحّبوا بي حين لحقت بكم فقلتُم لي، كأني طفل صغير: تعال معنا إذ لحقت بنا إلى القرية التي يقيم فيها نخلش الأصهب صديق حقار.

- حسب كلامك يا جاري، - قال ردد دون أن يتوقف عند ثرثرة تراب، - فقد قام حقار الذي ندين له من فراشه، ولو عرفت أنه سيهددك بعصاه لما اقترحت علينا مصالحته.

- أأنا أم كولس من قال هذا؟.. - نظر تراب بطرف عينه إلى الفارسين الآخرين ولكن لم يلاحظ منهما تأييداً، ولم يكتُم ما يُقلّقه غير عابئ بقبول ردد: - أفضل أن أموت تحت السيف كما مات والدي على أن أعيش حياتي مشوهاً في الفراش. من كان يعرف يا أمير أن هذا القبيح سيقوم من فراشه ثانية... ثم إنه يهزّ لي عصاه، ويدعو مرافقيه للسخرية مني.

- ييدو يا أصدقاء، - قال ردد بعدما مشوا مدة، - أن صاحبنا نخلش الأصهب حقّق وعيده، ولكن لا أعرف على من منهما، حقار ونخلش،

سينقلب النحس.

- وهل تسأل عمن سيكون خيراً عليه؟ - استعجل مشقوه حين صمت الجميع كي ينقض الصمت الثقيل بينهم، ثم استدرك الاستعجال الذي لا يليق به بكلمات لها جذورها: - هذان يعتدّان بقوتكما المجنونة. وعُمرًا أكثر، وشهدا. لن يكفّ عنك نخلش حتى يُفشي لك السرّ الذي أخبرك به عن حقدار. ولكنّ فيك يا ردد كثيراً من الميزات غرسها إلّنا الكبير فيك بالقياس إليهما: أنت شابٌّ، وفي ريعان قوّتك، ولست ظالمًا، وطبيعتك حلوة...

- لا تمتدحوا أنفسكم! - تدخّل تراب.

- أتساءل: كيف تتصرف فتعترض عليّ كلما قلتُ شيئاً دون مراعاة الأكبر والأصغر؟ - لجم مشقوه حصانه فوقف على قائمته مثيراً الثلج حوله. - أقصد يا كبير أن أمامكم مهمات كثيرة.

ابتسم داور الأقطع المعلق بزمَام حصانه، وأضاف ردد الذي نخر كلامُ تراب رأسه، ودون أن يسيء إلى مشقوه:

- بين الأفضليات التي قلتُ إني أتمتع بها يا مشقوه، - ابتسم ردد في وجه الأكبر الواقف إلى جواره، - أقبل كوني قوياً وفي مرحلة تنامي قوتي. وأنت تقول "لست ظالمًا، وطبيعتك حلوة" وهذا يتعلق بالموقف الذي تجد نفسك فيه. حسناً، ليقولوا: هذا الرجل طبيعته حلوة ولن يرد على الظلم بالظلم وليصارعوني!.. - التمعت عينا ردد السوداوان الواسعتان بأكثر من لمعان عيني حصانه، ولم يعرف تفسيراً لما رأى على ظهر التّبّة: - يجري في مستحقوه شيء خطير!

البيت المتطاوّل الواقع على بداية الشارع في مدخل القرية محاط بالفرسان والمشاة. وفي السهل المقابل له تتناثر مجموعات من الفرسان كلٌّ منها من فارسين أو ثلاثة.

- لا خير! البيت المحاصر هو بيت تيمرقوه... - استعجل مشقوه.

- ولماذا نحن واقفون! - حثّ ردد حصانه.

X

لحظة ولوج الفرسان الأربعة إلى مستخفوه مال تراب على جنبه وهمس لردد:

- نحن ضيوف، لا تدعوننا نتدخل قولاً أو فعلاً دون ضرورة!

- لا تُعلّمني ما عليّ فعله! - مرة أخرى حثّ ردد حصانه، وسأل العجوز

المستعجل والشوكة الخشبية على كتفه: - ماذا يجري في قريتك يا والدنا؟

توقف العجوز المرتدي كساء من جلود الذئاب والثعالب، متكئاً بذقنه على

مقبض الشوكة، والسيف المجرد معلق بالنطاق العريض، وعلى رأسه قبعة من

جلود الأرانب، ومن الجورب اللبادي العالي على حذاء من جلد البقر غير

المدبوغ المملوءة مقدمته تبدو حربة بيضاء. وتفوح منه رائحة زبل دليلاً على أنه

كان يجرفه قبل قليل. وأخبر دون أي استعجال بما يشغل باله هو:

- في قريتنا عدة رجال عابثين بقيادة نخلش لا يردعهم أي اعتبار. وربما سمعتم

باسمه إن كنتم قادمين من الجوار، لا من بعيد.

- أليس هو المجير؟ - سأل تراب.

- أيّ مجير هذا! - ابتسم العجوز، - إن كنت محظوظاً لم يتعرض لك.

يقطّعلك ثم يتبعك ليشفيك على زعمه.

التفت مشقوقه نحو داور مرتعباً مما سمع، وبهذه النظرة السريعة نفسها طلب من

تراب أن يلتزم الصمت.

- أنتم قادمون من مزبه إن لم أخطئ، - تابع العجوز كلامه وقال لردد:

- أنظر إليك فأخمن أنك ابن الأمير لاورستن. لم يظهر من بيننا، نحن القسوغ،

رجل متكامل مثله. ما الذي بيدنا؟ لم يدعنا المجرمون الخزر نحقق الأمل الذي

كنا ننتظره. وهل نخلش الأصهب الذي يثير ضجة على باب تيمرقوه أفضل

منهم؟ ولكن هؤلاء لن يتحقق لهم شيء. كبارنا لا يقبلون سلوكهم، وشبابنا

يساندون الكبار. يهاجم تيمرقوه بحجة أنه جاءنا بالرومي الذي ليس من ديننا

من وراء البحر. ويكرمه في مضافته. تعالوا تفضّلوا إلى بيتي، أنتم ضيوف. صيدنا

أمس أنا وجاري جباغ خنزيراً برياً فمائدتنا منصوبة، والنار جاهزة في موقدنا.

- حياك الله يا والدنا، - ارتفع ردد عن سرج حصانه قليلاً معبراً عن ارتياحه

لذكر والده بالخير، ولدعوته إياهم إلى البيت. وفعل رفاقه كما فعل، - لن

نتجاوز هياج القرية إلى مائدة طعام. ونحن كان تيمرقوه مقصدنا. وأنت من أي أسرة يا والدنا؟ لا تؤاخذنا، كان ينبغي أن نبدأ حديثنا بهذا السؤال. رفاقي هم: مشقوه وداور وتراب. وهم حراسي المرافقون. - قال ردد مُسمِعاً رفاقه لقب "الحارس" لأول مرة.

- يسرّني، رفاقك رجال ممتازون. وأنا لا أعد نفسي عجوزاً متقاعداً مثل كولس الخير، ابن قريّتكم. إن طلبت مني رافقتك حارساً رفيقاً. وسأخبرك، إذ سألتني، بأيّ أحمل اسماً لا يناسبني: بشِماف¹ هل تسمعون: " بشِماف! - كرر الاسم بشيء من التملق.

- ولماذا لا يناسبك؟ - استغرب ردد، - هل الاسم كبير عليك؟
- لن يقبل منك نخلش الأصهب هذا الكلام! يلاحقني طالباً مني تغيير اسمي، متهماً إياي بتدنيسه.

- ومتى صار نخلش الأصهب أميراً! - صاح تراب الذي لا يبين من وراء ردد.
- لا أعرف جواباً لهذا السؤال. لا تتهمني بالكذب إن كررت ما يقول الأصهب. ولا أشي إليكم بهذا المهرج. ولكني أخبركم بنيتي في انتزاع الإمارة من ابن لاورستن بالقوة إذ لا يخفيها هو نفسه.

ابتسم ردد بوجه طافح وأنف ضخّم متناسقين. وقال داور الذي كان نسي مأساته:

- نسمع بعضاً من هذه الأخبار يا بشِماف، - أعاد ربط الزمام بالكمّ الفارغ كأنه يُظهر دور نخلش في فقدان ذراعه. - ونحن نعرف أنه يُهيّج ضدنا واحداً من أمثاله يسكن في مزبه واسمه حقار.

- وعندنا خبر بموعده الربيعي. - مرة أخرى اندسّ تراب في الحديث. وانتصب أمام عينيه هُزّة العصا في وجهه، والضحك الساخر لرفيقه شنبه ونطاي، وغيرهما.

"لم يكن الناس يصدّقون أن عين نخلش الأصهب على الإمارة في القسوغ ولكنّ، - ضحك ردد في قلبه، - كثيراً منهم بدؤوا يفهمونه الآن. وأنا حين

¹ أمير مبارك.

بدأ يُخبرني بأنه سيصارعني حُيِّل لي أنه يمزح. والآن تبيّن أنه كان جاداً. ولستُ أسمع لأول مرة اليوم أنه لا يُجيد كثيراً في الطب، بل بعد بثّره ذراع داور... ولولا أن كولس يثق به لما اصطحبنا إليه. ولما اصطحبنا إلينا وبدأ في معالجة داور كنا نحضر معالجته. ولما ضرب ذراعه بضربة لا نجاة منها كنا واقفين إلى جواره. كيف تتهم الإنسان بما ليس ذنبه؟ لم أر أنه يضمّر الشر لداور. والعجوز كولس فطِنٌ حتى لو كنا نحن عُمية... ولكن ما يقولون بحقه في شأن الإمارة صحيح. وأنا وحقار شاهدان على هذا".

- فارقناك بالسلامة إذن يا بشماف، - قال ردد، - نحن سنمضي إلى بيت تيمرقوه.

- اذهبوا، اذهبوا. ولو عرفتُ أنني سألتقي بجمع حسنٍ مثلكم لركبت حصاني الأشقر وانضمت إليكم، أما الآن فلا يليقُ أنني أذهب معكم لعدم تجانس الفرسان والراجلة. وما هو جاري جباغ قادم والرمح بيده!.. لا تؤاخذوني، ما زلتُم شباباً. سأطلعكم لتعرفوا على ما كان جدّي يقوله لي: من أجل ألا تأخذوا عني فكرة من "يقتل العدو دون أن يضربه، ويطرد الفرس دون أن يخرج، ويقسم الغنيمة دون أن يسوقها" فسأنصحكم بنصيحة تربوية: متى التقيتم بالأكبر منكم أو بامرأة فترجلوا من الخيل فتحترمون هكذا من قابلتم، وتثمينون أنفسكم. لا، لا، لا تفعلوا هذا الآن. تابِعوا طريقكم. ولا تتراجعوا أمام الأصب الذي لا يفهم هذا.

اجتازت المجموعة التي يتزعمها ردد الناس الذين يتفحصونهم، سواء كانوا فرساناً أم مشاة، إذ لا يعرفون هويتهم، وانضموا إلى الحراس الذين يحمون تيمرقوه وبيته. وكانت مجموعة نخلش الفرسان والمشاة قليلين جداً بالقياس إلى أنصار تيمرقوه. ووقف بشماف وجباغ جاهزين، واحد بالشوكة، والآخر بالرمح، أمام ردد. ثم زادوا بضعة أشخاص آخرين.

وفي اللحظة نفسها انقطع ضجيج الازدحام. ونقضت ضحكة أحد فرسان نخلش الصمت الخالي من الثقة والأمل:

- مهلاً، انظروا إلى مَنْ جاؤونا بهم من مزبه! أحدهم أقطع اليد، والآخر أحذب!

- هلكت مزبه إن لم يبق فيها إلا المعوقون! - وافق نخلش المرتدي كساء مفتوح الأزرار وقبعة من فرو الذئب شعناء زرقاء مائلة، الرجل الواقف وراءه. وأوقف بحركة من يده الضخمة ضحك رفاقه. ونادى المضيف من فوق ردد ذي المنكب العريض كأنه لا يراه بينهم: - يا تيمرقوه، كنت أعدك إلى الآن رجلاً. غير أن قلبك يهتز مع اهتزاز العود. جئتم بأنصار من مزبه. لألوث ذلك الرومي ذا الأنف الضخم الجالس في مضافتك، بلء بطني من الباستا والحساء! بورك لك فيه! أسامحك. ولكن أقول باسم إلهنا الكبير: إعتبر أن طريقه في قرية مستخقوه، قرية نخلش، مسدود. رأسه الأسود على عمود باب داركم...

- يا نخلش! - خرج ردد من بين أصحابه بمقدار قامة حصان. وقال بصوت حازم صلب: إن كنت أديعياً تحمل اسماً أديعياً فلا تقل أمام الكبار ما لا يليق. ولا تنس ما وراء قولهم: ضيف الأديعي في منعة.

- نعم، صحيح، - وقف العجوز بشماف إلى جانب ردد عابثاً بشوكتة الخشبية. ووقف في الطرف الآخر جباغ بكل صلابة كمن يخسف الأرض تحته. - كل من تجاوز عتبة بابك، كائناً من كان، سواء كان من معارفك أم لم يكن، هو ضيفك. وكل من يلجأ إليك مضطراً أنت حاميه.

- أهذا ابن لاورستن من يعلمني الأصول! - خرج نخلش أيضاً من بين الفرسان الذين يقف بينهم دون اهتمام بما يقول العجوز بشماف. وابتسم: - نعم، هو بعينه، لم أكن أعرف إلى الآن ما يحز عيني. كنت أود أن أدعوك يا ردد أن تتفضل بصفتك ضيفاً ولكن لا أظنك جئت ضيفاً.

- ليس سبب قدومنا إلى مستخقوه كما تظن، - يخفي ردد ما في قلبه وإن كان يكظم غيظه بصعوبة: - حين سمعنا أن تيمرقوه عاد من أسر الخزر جئنا نهنئه بالسلامة ولم نأت للقتال. لا تهمم بكوننا ضيوفاً، من جئناه لا بد أن يتصرف بطريقة ما. - حين ترجل ردد من الحصان على رسله فعل أصحابه مثله بالجملة، وأمسك الأصاغر سناً بأزمة خيول الضيوف.

- يا بن لاورستن! - نادى نخلش الشاب الضخم الداخل إلى الدار، - إن كنت تظن نفسك خبيراً بتقاليد الضيافة فلا تنس أن المضيف لا يحب قدوم ضيف على ضيف.

- ولا تَهْتَم بهذا أيضاً، - قال ردد إلى من وراءه غير عابئٍ بإسماعه، ولم يلتفت إليه.

سأل تيمرقوه مستغرباً طريقة لقاء ردد والضيف الرومي:

- من أين تعرف ضيفي يا ردد؟

- هذا الرجل أقام في مضافة كولس قرابة شهر حين وقعتما، أنت وخالنا قانشاو، في الأسر.

ابتسم الرجل الرومي الأسمر ذو الوجه النحيف، الذي يعرف شيئاً من لغة الأديفة بعدما تخلص من رعبه. وتسلسل الشحوب من وجوه رفاق ردد. ونظر في وجه المضيف يطلب الصفح. ورسم الصليب لنفسه بثلاث أصابع مضمومة.

- لماذا يلمس هذا الرجل جبينه وصدرة؟ - استعجل تراب بالسؤال كأنهم حرموه من شيء ما.

- هذه طريقة الروم القاطنين وراء البحر الأسود في الدعاء إلى إلههم. - قال ردد، ونظر إلى تيمرقوه نظرة رجاءٍ آملاً أن يفتح الأخير الحديث قبل أن يسأل هو عن سبب مجيئه، وهو السؤال عن خاله.

- يجب أن ترفع يديك إلى السماء، وتبتهل إلى الإله الكبير على مرأى منه، لا أن ترسل هذه الإشارة، - لم يسمع ردد كلام داور إذ كان ما يهّمه اللحظة هو الجواب الذي ينتظره.

- نعم، نعم يا ردد، فهمتُ مغزى نظرتك... - تنهّد تيمرقوه عميقاً.

- هل خالنا على قيد الحياة؟

- كان قانشاو حياً ما دمتنا معاً. أما الآن فلا أعرف حقيقة حاله.

- وكيف حدث أن انفصلتما؟ - سأل مشقوه بدلاً من ردد.

- ما كانوا ليسمّوه أسراً يا أخي الصغير لو كنتَ حراً في نفسك... - تنهّد تيمرقوه تحت عبء الذكريات، ثم أضاف: - أنا رجعتُ إلى ديارنا حين دمر الروسيغ إمارة الخزر، ولم أفهم سبب توجّه قانشاو نحو الروسيغ.

- أياكون حدث بينكما شيء؟ - أفلت صوت ردد منه.

- لا يا أخي الصغير، لا يا ردد، - رفع تيمرقوه رأسه مما سمع، - كنا أخوين نتشارك الكلام والفعل. لم أدخر جهداً لإقناعه: توسّلت إليه، ونصحته، فلم

يفهمني. كان يقول لنفسه دائماً: بأي عين سأنظر في وجه رامبس أختي إن رجعت دون الانتقام من الخزر الذين رملوها؟ ربما كان هذا هو السبب في قراره البقاء مع الروسيج... يعتبرهم رجالاً شجعان...

- ربما هذا هو السبب، - قال مشقوقه.

- لا أعرف حتى إن رجعتَ إلى نواحيننا... - بدأ تراب، غير أن ردد قاطعه:

- ما الأمر؟ وهل يخلو الأديغة من الشجاعة؟

- لا أقول هذا، ولكنك رأيت الفوضى التي أثاروها هنا اليوم. - ساهم داور أيضاً برأيه.

- رأيْتُ يا داور! - غضب ردد كأن كل المشكلات التي تحدث بين الأديغة إنما من وراء داور، ولكنه انتهى بلطف: - إن كنتم تتخذون من نخلش نموذجاً للأديغة فكأننا أموات. هيا تعالوا، أطلنا الجلوس، تعال يا ديمتري نصطحبك إلى مزبه، سيفرح بك العجوز زعيم الخير كولس.

رسم الرجل الرومي الأسمر إشارة الصليب لنفسه ثلاث مرات بوجه قلق وإن كان ما عُرض عليه سرّه. وقال بلغته الأديغية الثقيلة:

- حياكم الله، بلّغوا تحياتي إلى الزعيم كولس. أنا في طريقي إلى طوابسه.

- أي شيء تسمحون لهذا بفعله في حضرنا وكأنه سحرنا؟! - نهض تراب بسرعة غير راضٍ عما يرى.

- لا يجوز هذا الكلام يا تراب! - اعترض ردد على سلوك رفيقه. - سيجد الإله الوحيد لهذا الرجل مكاناً له بين آلهتنا الكثيرة.

- حسناً إن كان هذا رأيك، - تتم تراب محدثاً نفسه، مُسمِعاً الآخرين، - غير أن المهمة التي يقوم بها هذا الضيف موضوع آخر على ما أظن.

...

وصلت جماعة ردد إلى القرية مساءً.

لم يتسبب الطريق السريّ البديل الذي اختاره الفرسان في أي أذى، بل كان مفيداً: لم يصادفهم من أمامهم أو من خلفهم ما يعرقل سفرهم. ولم يكن السبب في الطريق البديل الخوف بل كما يقول تراب: من يدري ما يمكن أن يخطر ببال نخلش الأصهب... عادت جماعة نخلش إلى مخيلة ردد وهو يترجل،

ولكن الأم التي نادته قطعت خياله:

- يا ولدي، هل جئت بخبر سار من حيث كنت؟

- خالنا حي، حسم ردد الوضع.

- ولماذا لست مسروراً إذن يا ولدي؟ - ارتعبت رامبس.

- لو عاد خالنا إلى قريته مثل ما فعل تيمرقوه لفرحت... - انكسر صوت ردد

الآن عن ذي قبل. - توجه إلى الروسيح.

- يا مصيبيتي!! - وضعت رامبس دلوِي الحليب عن كنفها. - ماذا سيفعل

بين غير أبناء قومه؟ من هؤلاء الذين تسميهم الروسيح؟

- يقيمون في الساحل الشرقي لبحر آزوف. كان كولس حدثنا عن واحد منهم

التقى به في الأسر. من أين لي يا أمنا أن أعرف إن كانوا أناساً صالحين. وهل

بقي الآن أناس صالحون؟ - غضب ردد ثم سحب كلامه: - حسناً، لا

أعرف، وكيف تعرفهم إن لم تلتق بهم؟ لا أظنهم بلا إنسانية ولا رحمة. يعرف

الناس عنهم أنهم محاربون يحمون حدود بلادهم.

- هل تقصد أنهم أعتى من الخزر؟

- لا أعرف يا أمنا. من توجه إليهم قانشاو قد يكونون أقسى من الخزر، أو

أرحم منهم. ولكن لا أظنهم أسوأ من الخزر الرُّحْل الذين يدنسون أرضنا.

- نعم يا ولدي، نعم. ولكن يا حسرتي لا أعرف سبب توجه قانشاو إلى

أولئك الروسيح المحاربين الأشداء.

- وهذا رأيي أنا. لا أوافق على توجهه إلى الروسيح الذين لا نعرفهم للانتقام

من الخزر فاقد الأمل منا. عيّر ردد عما يؤلم قلبه. وأنهى بعد سكتة قصيرة

مُفهِماً والدته: - من البؤس أن تدير ظهرك لأبناء قومك، وألا تقع عينك ثانية

على إلهنا الكبير للأبد.

- لا تبرّد عواطفك نحو خالك بهذه الحجة يا ولدي، - قالت رامبس متذمرة

وإن لاطفت ابنها، وحامت عن أخيها الأصغر كما يبدو لها: - كلُّ يتصرف

تبعاً للموقف الذي يجد نفسه فيه...

- لا يا أمنا، لا أوافقك على هذا، - مرة أخرى حسم ردد النقاش.

- هكذا؟! - أتهت رامبس الحوار بنبرة أنعم، مستغربة ما تسمع: - أنت لك

رأي آخر... لماذا نقف هنا؟ أرح الحصان وادخل إلى البيت. لا تهتم بخدمة المواشي. هذه يقوم بها ججان، وقد خرج قبل لحظات. وكولس عنده ضيف كبير ولذا أوصى أن تزوره.

- من هو؟ ومن أين جاء؟

- أظنهم قالوا إنه عربي. وهناك خبرٌ أعجبٌ. كان حقدار أرسل إليك فارسين لدعوتك إلى احتفالات شفائه.

- وهل وصلنا في قضيتنا إلى هنا الآن! - نص رد برأسه، وضحك. - لن أخطو خطوة واحدة. تراب هو من يتشوق لمصالحة حقدار فلنرسله!..

...

لم يراود النوم ردد مع أن النهار الثقيل أضيف إليه السهر في المضافة. ظل يتأمل في النزاع القائم الذي شاهده في مستخفوه، وأخبار خاله، وطريقة صلاة الرومي، والجدال بينه وبين أمه نتيجة عدم التفاهم، ودعوة حقدار إلى الطعام والشراب التي لم يلبثها، وضيف كولس العربي، وطريقة دعائه الإسلامي.

"تراب يساهم في حديث المضافة سواء كان في محله أم لم يكن. - يقول ردد لنفسه، - وتبعاً لغمضة ججان فإن تراب لم يدع إلى المضافة. ولكنه وصل قبلي وكان فيها. وكيف كان يتصرف مع الرومي المسيحي والعربي المسلم وكيف كان يتسم لهما، وماذا كان يريد؟ مهلاً، مهلاً عم سألني قبل أيام؟ كيف سيسألنا إلهنا الكبير متى تبوأ كبد السماء إن كنا راضين عنه؟ ولماذا لا نرضى عنه إذا كان يمدنا بالدفع والحياة؟ لا أعرف إن كان الإله يشفق عليه لكونه أحذب! ونحن ربما نرعاه إكراماً لإلهنا الكبير، ونغفر له أخطائه في القول والفعل... ججان هو من لا يتقبل ثثرة تراب. ما أعجب ججان! أتظن تراب وحده من عينه على أينار؟.."

ارتعب ردد دون مناسبة وهو راجع من مضافة كولس مما كان قاله له تراب. أنصت في الظلام: لا شيء من المخاوف التي خطرت لتراب. كان كل شيء هادئاً وراء الجدار الذي ينام إلى جانبه إلا نبض قلبه.

"من أين يعرف تراب أن مصيبة ستحدث في قريتنا الليلة إلا من خياله. - نهر ردد نفسه، وبعد قليل بدأ يستدرك معيداً التفكير. - هذا هو السبب في أنه

قال من أعماقه: إن لم تجر المصيبة الليلة في مزبه فليلاً الغد وليلاً ما بعد الغد... هل يحدّثه إلهنا الكبير إذن بما يريد كما يدّعي؟.. يا إلهنا الكبير أبعد الخوف عنا وارحمنّا. نحن مخلصون لك قلباً وروحاً. ما حاجتنا إلى آلهة غير من أمرت بهم!.. - غرق ردد فجأة في النوم وهو بين القلق واللهفة.

قفز ردد مع الفجر على صفيح الريح ودوي الرعد. وفي اللحظة نفسها دخلت رامبس مع شمعة:

- اطمئنْ يا ولدي. هذا صوت غضب إله الرعد.

- لا أتذكر أن إله الرعد الكبير كان يغضب في الشتاء... - لبس ردد مردداً بينه وبين نفسه: يبدو أن تراب يقول الحقيقة؛ هذا الشاب يتفرد بشيء ما. وحالاً تفجر الرعد على طرف الجدار فرج البيت كله. وسمع صوت تكسّر أشجار. وارتمت ألسنة لهب إلى الغرفة عبر النافذة.

كان كولس من أوائل من هرعوا لتفقد الأشجار التي ضربتها الصاعقة، فاستقبل ردد الحامل دلوين من الماء ناسياً أن المطر يهطل، وقال له:

- لا يجوز إطفاء النار المنبثقة من الصاعقة! هذا فآل شرّ. حتى المطر الذي جلبته لا يستطيع إطفاءها.

- نعم يا كولس، نعم. لا أتذكر ممن سمعتُ هذا، ربما منك. - وتراب الذي وصل مسرعاً أيّد كولس. ججان ومشقوه هما اللذان كانا يميزان إن كانت صاعقة الشتاء تغضب أم لا تغضب. إن أغضبت الإله الكبير - الصاعقة لم يميز شتاء من خريف، غير أن خطر هذا الصباح انحسر عنا. لنحتفظ في قلوبنا بالخير، ولا ننس إلهنا الكبير. ولا نقلّد من ليس عندهم إلا إله واحد. هيا لتوجهه إلى إلهنا الكبير وإن لم نكن نراه، ولنبتهل إليه! - حين استدار تراب بيدين مرفوعتين جثا الرجال والنساء المتجمعون على ركبهم، ورفعوا أيديهم إلى عين السماء المغمضة التي كانت توقف المطر البارد.

في أحد الصباحات، فيما ردد يتهيأ ليورد البقر الماء في نهر بشده، رأى تراب يتفحص شجرة البطم نصف المحترقة من الصاعقة، فسأله:

- هل يجوز إحاطة مكان ضربة الصاعقة بالحجر؟

- حسناً إذ خطر لك هذا. وأنا كنت أنوي أن أخبرك، ولكنك سبقتني. وهذا

ما يقوله إلهنا الكبير، سيكون هذا مكاناً مقدساً.
تأمل ردد في وجه تراب مستغرباً، مرتعباً بعض الشيء.
- نعم، يا أمير. إن عايشَتَ غير أبناء دينك يرمون الصليب ويرددون " الله أكبر " فلن يقبل إلهنا الكبير. وقد أعاد إلينا وعينا بهذا إذ أنك الأمير الوحيد في قريتنا... هيا بنا يا أمير أسوق المواشي معك إلى المورد. لا أجد خدمتك شخصياً المواشي لائقة. من لا يساوون ظفرك عندهم عبيد أسرى...

الكتاب الثاني

I

في الأيام الأخيرة من الشتاء الأول من القرن الحادي عشر هبت في الصباح ريح شرقية حارة أحرقت رؤوس الشوك، ولم تترك مكاناً لم تبلغه إلا قمم الجبال، فأحرقت من عالم القسوغ في بضعة أيام نثار الثلج الذي كان اكتسب لون القذارة.

الشمس التي أعقبت الريح فلطّفتها نظفت حوافّ الجبال وأشرطت الغابات كاسرة من عنفوانها، ومنحت للأرض شيئاً فشيئاً لون الخضرة. وإن دقت النظر في أعالي الغابات العارية المتشحة بالسواد، وفي المساحات القليلة الشجر المتناثرة، رأيت فيها وجهاً صبوحةً جديداً. ورأيت منظر السماء ومنظر الأرض متناسقين.

في السماء تدوم بعض العقبان تحمّل التيار الهوائي أجسادها - وأحياناً تنقضّ كقطعة حجر، ثم ترتفع وفي محالها القوارض. والمواشي التي تعرض للشمس ظهورها النحيلة وأجناب بطونها الرقيقة تخور من الأفنية الخلفية للدور. وتتصايح العصافير الثرثرة على ذرا الأشجار تتنافس على حدة الصوت. وتصبح الديكة بأصوات مؤتلفة ومختلفة من أعلى القرية ومن أدناها، ومن تخومها ومن جهة النهر. وفي الأحياء تنبح الكلاب التي يغلب عليها الكسل واللامبالاة. ومتى أضيف إلى كل هذا خوار الأبقار الأمات وعجولها، ونخير الخيل، وضجيج الأولاد الذين يلعبون بالدوامات ومشاحناتهم، أدركت أن في مزبه حياة صاخبة. ومتى خرجت من مزبه وتوغلت في الجبل أو توجهت إلى الشرق أو الشمال تاركاً وراءك المستنقعات ومنابت القصب والسواقي التي تنتجها الجبال الحيل إليك أنك تحت في عالم آخر. السماء نفسها، والشمس وبعض السحب البيضاء تظلك. والقمم البيضاء تبدو من بعيد. وتستنشق الهواء نفسه، وتهمس لك وإن لم تفهم لغتها. كل ما تشتهيهِ العين أمامها ولكن الخوف المبهم يحاصرُك من كل اتجاه. تتساءل: من أين سيخرج العدو: من وراء هذه الشجرة الملتفة أم تلك الأجمة؟ ورغم أن العالم هادئ فالمستنقع يطلّ عليك عبر الهمس الناعم للقصب الجاف في أذنك، ويث فيك خوفه الخفي. وتنقّ من المستنقع

الضفادع التي حرر الربيع الدافئ ألسنتها حريصة على نفسها. ويث الرعب في القلب من وقت لآخر صوت مخنوق لطائر. ويجاوبه طائر آخر من أعماق حنجرتة.

- ما الذي يصدع رأسك يا ججان؟ سأل ردد رفيقه.
- لا شيء يقلقني إلى الآن. ولكن لا أعرف يا أمير تفسيراً لصوت الطائر المختنق في المستنقع. يصيح ويصيح ومن يجيبه بخّ صوته. - وأضاف بعد قليل: - المستنقع مزيج من أسرار لا فغر لها.
- هل تخاف يا أخي على عالمنا الذي يأتينا بالربيع بعد الشتاء البارد؟
- لا أعرف كيف أعبر عن هذا يا ردد. لا أرى فيه فرحاً.
- جلس ردد بعدما كان مستلقياً على كسائه القصير والسرّج وصادته، وعلى وجهه قبعته. ونظر إلى ججان الذي هو في وضعيته نفسها. وسأله ثانية متسائلاً عما جرى له:

- هل أساء إليك أحدٌ فلا تتمتع بالربيع الجميل؟
- جلس ججان على غير رغبة البتة مغمغماً: "ما أشدّ ما تعلّق هذا بي اليوم!..
- لا يقبل أن أركب ولا أن أترجل. ويتهمني إن وقفت أمام القطيع أو وراءه بأني أشيح برأسي. ولا يعجبه استلقائي والقبعة على وجهي... ما كنت لتقول لي مثل هذا الكلام لولا أن أمراً ما يشغل بالك كما بالي. إن كنت تشكّ في علاقة لي بأينار فلا تكتم! أم تراب هو من يقلقك؟ إن كنت لا تتقبّل سلوكه فالأمر مختلف. وإن خمنتُ أن داور متكبّر بسبب أخته فالحقّ أني لم ألاحظ عليه مثل هذا. يخيّل إليّ أنه يتودد إليك بقلبه وروحه أكثر مما يفعل مع شخص آخر... لا أريد أن أنافسك يا ردد ولكني أخاف ألا يطاوعني قلبي في هذه المسألة وحدها. يقولون: الحبيبة حصّة لم توزّع. والموضوع لم يبدأ من عندي..."
- وأنت يا ردد مهموم بأمر ما ولكنك عاجز عن الإفصاح. - أجاب ججان على سؤاله، وسرعان ما مؤّه الكلمات الخفية التي تسارعت إلى قلبه: - ما الذي يؤلم القلب في مثل هذا النهار الربيعي الدافئ؟.. أستمع إلى الطائرين اللذين بخّ صوتهما وهما يتحاوران فلا أستطيع أن أحكم بأنهما متقاربان أو متباعدان. ولكن كيف تعرف أحزانهما وأفراحهما؟

- إن لم يكن ذهنك مشغولاً إلا بطائري المستنقع اللجوجين فأنت محظوظ يا ججان. - ضحك ردد في سرّه ولكن استغرابه لما سمع بدا عليه عفويّاً دون سخرية. ولم يتناسر ما لُمِحَ به إليه: - وأنا لست خالياً من شواغل البال يا ججان ولكني أظنك مخطئاً في حكمك بأني لا أستطيع التعبير. لا يمكن أن يكون أو يدخل بيننا سرّ.

- هذا صحيح يا ردد، - فرح ججان على نحو ظاهر من صوته ومن وجهه، وفي اللحظة نفسها انتصبت في وجهه أبنار التي كانت تقلقه، وامتلأ أمامه تراب بقامة منتصبه ووجه طلق ناسياً حديثه. وتألّم القلب الذي لا يستطيع أن يُخضعه. قال في نفسه: حسناً، حسناً، ابدأ أنت أولاً همومك بأبنار، وأنا سأكمل. نحن نخطئ إذ لا نتكاشف بما في قلوبنا، بل من المؤكّد أننا سنبقى في الساحة موضع سخرية ممن يسمع. وفي حال الضرورة سيتحلّى أحدنا بالرجولة ويُخلّي الساحة لصديقه. ويتصدى لمن ينافسنا... - لا كلام أصدق من هذا يا ردد، - خرج ججان من أفكاره المضطربة كما دخل إليها بسرعة. - يستوي أن يكون بيننا أسرار وأن نهني صداقتنا. قولك قولي، وفعلك فعلي. ثِقْ بي في هذا وأنا أتوقع منك هذا.

"تلومني بحجة أُنِي عاجز عن الإفصاح ولكنك أنت أيضاً لا تستطيع البوح بما في قلبك، - مرة أخرى ضحك ردد في سرّه غير أنه استطاع كتم ضحكته. ومع أنه لم يتكاشف مع أحد في مواضيع عاطفية فقد قال معتداً بنفسه في المنافسة مع الشابين اللذين يزاحمانه في أبنار دون أن يعرف تماماً السبب في هذا الاعتداد: - ما أشد صراعكما، أنت وتراب، على أبنار، غارقين في أسرار لا تنتهي. ألا تفهمان أن أيّ فتاة صبية، وأبنار على نحو خاص، سيظهر لها محبّون كثيرون سرّاً أو علناً؟ ولا تتناسيا أن نطاي أرملة... وقد طلق زوجته دكابس في العام الماضي بحجة أنها عاقر مع أنه كان يعرف أن حقار كان على صلة حميمة بها. ولا تزال إلى الآن تعيش أرملة وحيدة يتسرى بها حقار. ولذا لا تعرفان على من ستقع عينا نطاي ليترك أرملة له حقار..." - انتصب رأس ردد من ذكرياته المفاجئة، ولكنه مؤه قلقة بمزاح واضح:

- حتى لو دخلت بيننا لابسة حجاب أو لابس قبعة؟

- كلاهما يا ردد! - أسرع ججان بالجواب كأنه كان يفكر في هذا السؤال، واستغرب كيف يعرف ما في قلبه، وأطبق عليه بأفضل جواب محكم: - حتى لو كانت إحدى عيني!

- حياك الله يا ججان، - قال ردد بنفس نبرة محدّثه، وأجاب إجابة أجفّلت الصديق: - لا تظن أنني أفكر في ما ترتاب فيه نحو أينار.
- ماذا إذن؟

- ما يقلقني شيء آخر.

- أسمعك إن كنت موضع ثقّتك.

- سأصارك إن لا سرّ بيننا: موضوع حقار.

- أما قلنا إن حقار سيهدأ ويستكّر لضعفه! - جحظ ججان بعينه الحادثين. وانتصبت قامته الدقيقة المتينة، ونتاجاً رأساً كتفيه. وأمطر رفيقه ردد بوابل من الأسئلة وكأنه السبب في كل ما يحدث، والمتهم في كل شيء: - ألم يتوقف بعد؟ هل يرسل إليك الرسل؟ وهل يتصور أن ظهره شفي تماماً؟
- هل تظن أن حقار حرّ في نفسه؟

- ستحرمه قوته المجنونة من السيطرة على نفسه، ولكن ماذا يريد بعد؟ وقد أصبت ظهره؟

- وضع نفسه تحت إمرة نخلش الأصب! - ضحك ردد وعاتب، - وهو لا يصدّق إن أرسلت إليه عبر رُسْله أنه لم يُشَف بعد. يُحَيّل إليه أنني أخافه وأختبئ منه. أرسل إلي البارحة نخلش الأصب قائلاً: إن كنت رجلاً فلا تتراجع!
- وماذا كان ردُّك؟

- وما العمل إذا كانوا لا يتركونك؟ أعطيته موعداً.

- متى؟ تلَهّف ججان.

- لا داعي للقلق يا ججان، - ابتسم ردد بشيء من الرياء، - ما ذنبي أنا إن لم يفهم حقار ما ستكون عليه نهايته الحقيقية! حددت لهم موعداً مع عشب الربيع الذي سيكون طرياً تحت ظهره. وافقوا وإن استطالوا الموعد فلا شيء ييدهم. لا يجوز أن تعرف أُمي بما قلت لك؛ هل فهمت؟

- فهمت، - بدا من لونه عدم ارتياحه لما سمع، ولكنه سأل مع ذلك بعد

فاصل قصير: - ومن غيري يعرف؟

- كلانا فحسب.

- وداور وصحبه؟ - أول من خطر لججان هي أينار، ثم أخوها الأكبر.

- سيأتي اليوم الذي أخير فيه داور ومشقوه.

- وتراب؟ - سأل ججان، وأنتى بما يرغب فيه هو: - لا يجوز أن يعرف!

رفع ردد حاجبيه دهشةً من الجواب القاطع الذي سمعه. وابتسم، وقد امتثل لعينيه موقفهما من أينار، مغالباً رغبته في ضحكة ناعمة بدلاً من أن يسأل: ما معنى كلامك؟ ودون أن يدري كيف، انتصبت أمام عينيه أيضاً صورة آنست، الفتاة السمراء الصبوح الودود. قال ردد: "أفهم كيف تدخل أينار في علاقتنا نحن الثلاثة. وآنست؟.." وفي هذه اللحظة نظر ردد إلى صديقه واجماً لا يعرف سرَّ خطور دكابس، أرملة نطاي، إلى ذهنه، وخاطبه برأس مطرق قليلاً:

- وأين نذهب بتراب يا ججان؟

- لا، لا، لا، لا يجوز أن يعرف تراب!.. كان بوده أن يجيب على الفور: " أنت لا تعرف، ولكنه في الحقيقة يفتن بيننا وبين أينار بلسان معسول " غير أنه عاد إلى وعيه بسرعة، وانتقل إلى الخبر الذي يعرفه الصديقان كلاهما: - هل نسيت يا ردد أنه أسرع إلى مصالحة حقار الذي قتل والده رغم نصائحنا له؟

- أما تكلّمنا على هذا الموضوع الذي لم يكن موضع اتفاق تماماً؟.. كلُّ له موقفه من الحياة؟ كيف يمكن أن تسلبه إياه؟ وتراب عمل ما يريد دون إكراه. لا تدعنا ندينه على هذا.

- ولكن أليست هذه خيانة يا ردد؟

- نحو من؟

- نحونا.

- وما شأننا به؟

- ألم نسانده حين أهانوه في حفلة الرقص؟

- وهل ترجّاكم أن تفعلوا؟

- لا.

- كيف نعدّ هذه خيانة على تراب؟

- أفهم من كلامك أننا تطوعنا مع تراب دون أن يطلب منا... - ضحك ججان من خارج قلبه، وابتسم لصديقه قائلاً في سره: "أنت لا تعرف إلى الآن الخيانة التي سيقترفها بحقك من تسميه صديقاً. بل لا ترغب حتى في أن ترتاب فيه. واختتم بسؤال صريح: - إن كنا ندين أنفسنا على أننا عرّفنا حقار وصحبه قيمتهم، وما تلاه، فكيف ننظر إلى من مدّ يده إليهم من وراء جثمان والده؟

- سؤالك هذا موضوع آخر. هل تتذكر يا ججان أننا ما كنا نقبل من تراب تصرفه هذا ولكنه كان أخبرنا... ثم فكّر مرة أخرى: من كان السبب وراء مصالحة أهالي الحيين الشمالي والجنوبي... استطاع تراب تجاوز مأساته بفضل جدك كولس. ثم تدين تراب على البطولة التي اجترحتها...

- إن كنت ترى هذا بطولة فلا أعرف إذن... - غمغم ججان، ثم نهض بسرعة كأنه لم يتكلم من قلبه، وأعلن ما كان يكتمه عن غير رضا منه كأن بلا حقد: - لو رجع أمامي تيمرقوه اللعين الذي قضى والدي على يده، والذي سافرتم إليه تهنئونه لما قبلت منه. ولن يراني أحد وقد صالحته. يطلب مني جدي أن أنزع من رأسي فكرة الانتقام لحادث مضى فلا أقبل منه. وسنجد الوقت في المستقبل للثأر لوالدي يا ردد، غير أن ما لن نستطيع استدراكه هو من حددت لهم موعداً قريباً. إذا كان الربيع سيأتي دافئاً هكذا فسينجم العشب الناعم مقرباً موعدك. وإن تراخيت فلن ينفعك تراب وغيره. ماذا قال لنا جدي كولس الزعيم المبارك؟

- كولس الذي أدعو له أن يجعل يومه مئة يقول لنا الكثير. ويجهّزنا لكثير من الاحتمالات. - قام ردد عملاقاً¹ وقال وهو يشد حزام سيفه: - إن كنت ستعيش تبعاً لكلامك فأنت على مبدأ: إن كانت يدك مدهنة فامسح بها رأسك، انفع نفسك فحسب. هذا يصلح للمواقف الصعبة يا ججان، ولكن...

- صحيح يا ردد، صحيح، - لم يكمل ما بدأه، - لا تُعد سيفك إلى

¹ سبق التعريف بالعملاقة في الفصل الثاني من الكتاب الأول.

خصرك، واخلع فروتك الخفيفة، واربط حزام بنطالك كي لا يسقط. واخلع قميصك إن كنت لا تريد تمزيق كُتَيْهِ.

- ألأننا سنتصارع أيها البطل الهمام؟ ضحك ردد، وفيما هو يخلع ملابسه مسروراً بما قيل له، ويفرك راحتيه، يتفحص الساحة التي يخططها ججان برأس السيف. - ما نيتك الآن كما قبل أيام؟ هل حمى الربيع الدافئ قلبك؟ - كي لا تقول لي: المغلوب لا يشبع من المصارعة، - ججان أيضاً يتعرق حتى الخصر، - سأصارعك اليوم. ولكن أبتْهك: لا يجوز الخروج من الحلبة المخططة. وأنا لن أخرج ولا إصبعاً. أقول لك سلفاً. سأصارعك اليوم بحركة رجلين لم أُطْلِعْ عليها إلى الآن. ولا أحد في مزبه يعرف هذه الحركة. ولا أحد في القسوغ. نعم، نعم، أمسك بي ولو مرة واحدة إن كنت رجلاً. يركض ججان إلى ردد كعززة تهوى النطاح، ويرجع. ويدور حول الحلبة. - مدّ إصبعك عليّ وأصرعك حالاً...

يضبط ردد أعصابه فلا يغضب مهما ناوروا حوله وأمامه. ولا ينسى الحركة التي علمه إياها كولس. وعنده رجلان يثق بهما. مفصل ركبته محني قليلاً، والجسد الضخم محني عليهما، والكفان الضخمتان اللتان تحتلج عضلاتهما ممدودتان فلا تستطيع أي حركة خفية إسقاطه الآن. والجسد العملاق، وإن لم يكن غاضباً، هو كالدب الهائج الواقف على قائمته الخلفيتين. ومع أن ججان الذي يعتدّ بخفّته لا يوفر جهداً فيتقافز هنا وهناك فإن ردد لا يعبأ به، ويسخر:

- إن كنت تعبت فاسترخ، هذه ليست مصارعة.
- إذن أمسك بي أنت أيضاً، لا تقف جامداً.
- إن كنا سنتصارع فلنتماسك! دورانك هذا ليس صحيحاً.
- وهل مصارعة رجل في ضخامتك صحيحة؟
- لماذا إذن تجرأت عليّ؟
- كنت أريد أن أروّضك قليلاً. ثم إنه من الصعب التغلب على حقار ونخلش بالقوة وحدها.

- أليس حقار من شفوا له ظهره؟
- ما تتكلم عليه كان موقف حرب لا حلبة مصارعة. هل تتذكر حين تكسر

سيفاكما، أنت وحقار، من مدّ بالعمود إليك؟- سأل ججان ناهراً نفسه على خاطرته وعلى من يروي له.

- وكيف لا أتذكر؟! - قال ردد مرتاحاً، - هي أبنار، حين تَفَكَّر في ما قيل له ضحك دون حقد.

- يبدو أننا ألبأنا حقار إلى الفراش تطوُّعاً منا. وأقمنا له حفلات جابشه.

- وطلبنا من نخلش الأصبه أن يعالجه تطوعاً، - وافق ججان صديقه صراحة، ومع ذلك لم يملك إلا أن يعرِّض بردد وهو يتذكر أبنار التي انتزعت العمود الخشبي من السور: - الآن لن يدخر من شَفْوه ومن شفاه جهداً من أجل أن يمسحاك من وجه الأرض. لهذا السبب كان بودي أن أعلمك طريقي الخاصة في إيقاع الخصم أرضاً بحركة من الرِّجل، والتي لا يعرفها أحد.

- حتى كولس لا يعرف!

- وهل هناك ما لا يعرفه كولس؟! أليس هو من علّمني إياها؟ وخصّني بمعلومة... لماذا لا تزال واقفاً يا ردد؟ - امتنّع وجه ججان من هواجسه.

- هل تقصد الضربة تحت الركبة؟

- ومن أين تعرف هذا؟! - صاح ججان ثانية ووجهه يزداد شحوباً مع شكِّه في من أفشى سرِّه، ثم هوى إذ عجزت رجلاه عن حمله، وتمتم مستغرباً ما يسمع: - حتى لو كانوا سيخطفونني فسيدعني جدي يفعلون من أجلك...

أسرع ردد بالقول غير سامعٍ ما يقال له:

- من هذا الفارس الذي هرب إلى عمق الغابة؟ أسرع يا ججان، يحمل شخصاً على حارك حصانه!

يئس الفارس المجرم من إمكان التخلص من مطاردَيه فألقى بالصبي المقيّد على الأرض، ولكن ردد لحق به بعد قليل. وألقاه من على السرج. وحمله تحت إبطه العاري، ورماه أمام ججان الذي كان يفكّ قيود الصبي:

- قيّد هذا المجرم، أظنه من الخزر!

- نعم، نعم من الخزر! - أجاب الصبي ذو الأربعة عشر عاماً وعيناه تلمعان بعد ما عاد إليه وعيّه، ثم قفز وهجم على المجرم.

- كفى يا أخي الصغير! - أسرع ردد بإبعاد الصبي عن المجرم الذي يقيده

ججان، - ستأتيك فرصة تتشفى فيها منه.

- هذا قتل أبي وأمي!- يحاول الصبي الإفلات من ردد! - واغتصب أختي ورمى بها في النهر... دعوني أقتله واحملوني وبيعوني إن شئتم!

- أنا طلبت منك أن تهدأ يا أخي، كُفَّ عن الحركة! - لان الصبي حين خاطبه ردد بصوت أعلى. - ما اسمك، ومن أين؟

- اسمي شوباش، وحملني من ساحل بحر آزوف، من قرية بُراب. - قال الصبي بنَفَسٍ واحد دون انقطاع. وتوسَّل: - والآن أعطني سيفك ودعني أنتقم لأبوي!

- هل يعرف لغتنا؟ - سأل ججان أول سؤال خطر له من أجل تهدئة الصبي.

- نعم، يفهم، وينطق بعض الكلمات. أجاب شوباش وهو يلقي نظرات احتقار

على من أمامه، ثم غضب وهو يهزّ رأسه الصغير المنتصب: - هل يجوز أن تبقي على حياة من يشرب دم الخيل؟!

- ماذا تقول يا أخي الصغير! - نصَّ ججان برأسه، أعرف أنهم يأكلون لحم الخيل، ولكن أن تشرب دم الحصان الذي يحملك...

- ظل يشرب منذ البارحة من دم الحصان الذي يحملنا حتى هوى الحصان..- شهد الصبي على صِدق ما قاله.

- وأنت يا شوباش، أنت يا أخي ماذا أكلت؟ - لم يستغرب ردد كثيراً ما سمع لأنه كان سمع من والده أن الخزر يأكلون لحم الخيل، وأنهم متى احتاجوا إلى طعام يطعنونه حتى يسيل منه الدم فيشربونه.

- وأنا ماذا؟.. - أطرق الصبي برأسه، - في البداية كان يُجبرني عليه... وبعدها

هل تترك نفسك تموت جوعاً؟! ولكن حين نفق حصاني لم أقبل البارحة واليوم أن أشرب من حصانه.

- تترك نفسك تموت... - قال ردد دون أن تعرف إن كان يسأل أم يعاتب.

ثم تذكر أباه وهو يلتفت نحو المجرم، واستشار ججان: - هل نحقق لأخيना الصغير أمنيته؟

- لا مانع لدي إن كان قادراً على قتله! - حسم ججان الأمر.

ارتعب المجرم مما سمع، غير أن يديه ورجليه المقيدة هوت به. وتوسل وهو يتلوى برجليه بلغة أديغية مكسّرة:

- لا تقتلونني!

- أنت ما تزال صغيراً يا أخي على أن تقتل إنساناً! ولكن ما فعلوه بوالديك فعلوه بوالدي، ولذا فكل ما تفعله بمن لم يراع طفولتك يستحقه. أعطه سيفك يا ججان. لا تتراجع؛ سأضيف سيفي إلى سيف انتقامك!

- كلاكما قوي جداً، - قال ججان بنبرة لا تعرف مزحها من جدّها وهو يتأمل الجثة التي تلقت ضربتي سيف، - لم تقصّراً بحقه...

- تعالوا نجمع قطيع الخيل، ونرجع إلى القرية، - قال ردد وهو يعيد التفكير في مشروعية ما دفع الصبي إلى فعله وعاونه فيه، وعدمها، موازناً بين الموقفين.

بعدما مشى الفرسان الثلاثة وراء القطيع قال ججان ملتفتاً بشبه لامبالاة إلى الصبي الممتطي حصاناً غريباً:

- انتهى أمر من تركناه في الغابة يا أخي، الليلة سيكون طعاماً للذئاب. إن كان هذا ما تريد قوله يا ججان، - قال شوباش مبتسماً كالرجال، وكأنه يعرف ججان طوال عمره: - لا أهتم به البتة. كان والدي المرحوم يقول: الكلب يموت ميتة الكلاب!

تألم قلب ردد مفكراً: "لا يجوز أن يُجرم الصبي الذي شهد دمّاً بشرياً من طفولته فيكتسب قلب الرجال. والأسوأ من هذا ما دفعناه، نحن الراشدين، إلى فعله.

سألت رامبس حين رأت الصبي الذي عاد بالقطيع مع ابنها:

- يا ولدي، إلى من ينتمي هذا الصبي الذكي؟

- رفيقي اسمه شوباش. وهو منذ اليوم أخي الأصغر. لم يبق له أهل.

- هكذا؟.. - ضحكت رامبس في وجه الصبي وإن كان الحدث المفاجئ أربعها. وضمته إليها، ومسحت على ظهره، - أليس الله رزقك إذن يا ولدي بالأخ الذي كنت تتمناه!

- يا أمانا، لم يذق أخي لقمة منذ البارحة.

- ما مضى كثيره سيمضي قليله، - يسترجل الصبي وإن كان الدوار أصاب رأسه.

- لا، لا يا ولدي، إن كان أخوك الكبير يقول هذا فأصغ إليه. تعال، المائدة جاهزة.

- حين تنزع الزمام من الحصان الخزري يا ردد، - نادى الصبي، - انتبه إلى الجرح الذي على عنقه. هذه هي البقعة التي كان الخزري اللقيم يمص منها دمه.
 - أي خزر وأي دم تتكلمان عليه؟ - توقفت رامبس واجمة، وتأملت في وجه الصبي المرهق، وألقت نظرة قلقة على فناء المواشي حيث يقف ردد.
 - لاحقاً يا أمنا، لاحقاً... سيروي لك أخي الصغير كل شيء... - نادى ردد الآن من صاراً على المسطبة وقد أدرك أن المهمة التي أناطها بالصبي لا تليق به: - انتظراني، ها أنا حالاً... أطعمي أخي يا أمنا، أنا سأروي لك كل شيء...

II

ليس سهلاً إرسال الخبر الحزين.
 أجل حقدار الخبر المزعج الذي سينقله إلى أصدقائه بضعة أيام أخرى شاعراً بثقله. الربيع الدافئ يحثّ العشب، والوعد الذي حدده مع ردد يقترب. يدّعي حقدار الرجولة أمام أنصاره المحيطين به، صغارهم وكبارهم، ولكن آلام الظهر تنبّهه أحياناً دون معرفة السبب. وليس العجيب أن الألم لا يظهر وقت يقطع الخطب، أو يصارع، أو يركب الحصان، أو يرفع حملاً، بل متى تذكر مواعده مع ردد عادت آلام الورك سواء كان جالساً أم واقفاً أم نائماً.
 وفي هذه اللحظة، حين نظر حقدار من على المسطبة جهة بيت ردد، شعر بالألم نفسه. وأمام ناظره انتصب ردد الذي كان مقرّراً أن يصارعه، ضخماً عريض المنكبين. ورأى نخلش شامخاً بين الناس المحتشدين حول حلبة المصارعة. وارتحفت عضلة الظهر من جديد دون إرادته. قال لنفسه: " أيّ طيشٍ ركبني على غير عادي؟ " نطاي يتأخر، مع أنه بلا أسرة ولا مشاغل كما يقال. هل نسي أنه يجب أن يقودني إلى الشارع؟ والطرق على السندان لا يتوقف في محددة " يَمْزُش " لأنه وقت بداية الربيع. ولا يُستبعد أن يكون بضعة أشخاص مجتمعين يتدفقون بالشمس قرب المحددة. عجيبٌ ألا يأتي نطاي إلى الآن... ربما يعتب عليّ من أجل دكابس، زوجته السابقة. أهو ذنبنا أيها المنجون البائس أن لم تستطع إرضاءها؟! ألا يجب أن تكون في القرية أرملة مثلها تنقّس عنا وقت الحاجة! ولكن لا أعرف مدى صحة الخبر الذي مفاده أن أهل الحي

الشمالي أيضاً يُلَمّون بها... "

ضرب حقدار عُنق حذائه بسوط الحصان، ونزل من المسطبة. ووقف مدة متردداً في ركوب الحصان، منتظراً نطاي. ثم وقف فجأة تحت صدر الحصان ورفع قائمته عن الأرض. وما إن أعاده إلى وضعه دون أن يتحرك ألم ظهره حتى نادى من كان يصيح من فوق عارضة الباب:

- هذا أنت يا نطاي! - وأجاب دون اهتمام بسؤاله: - لا ذنب لحصاني، الذنب، إن كنت تريد أن تعرف، على من يتأخر.

- يا صاحبي، أوقفوني وأنا أمر بالمحددة...

- كفى، كفى، لا يهتني توقُّفك، - قاطع حقدار محدّته بجفاف، - ألا ترى شبهة؟ هو الآخر بدأ يغيب عمدًا. لا أعرف ما ينوي... تعال، دعنا نركب إلى المحددة.

ركب الفارسان الشارع ونطاي على يسار حقدار.

الوقت تجاوز موعد شرب الشاي. والربيع الحار الذي يدفع العشب وأوراق الأشجار جُنَّ جنونه: يُطل من سمائه أزرق اللون، وأشعة شمسهِ تضحك لك، والعصافير تشدو، ونُحُر بشده يتجاوز مزيه نائراً أشعة ضحكة أمواجه. وأفنية الدور العاشقة للربيع وأشجار الخوخ والتفاح والإجاص تكتسي بثوب أبيض - أحمر. والجمال التي تعبرها الأنهار ما تزال تقف على رؤوس أصابعها كأنها تخاف أن تخسر قبعاتها البيض، وتنحسر عن الغابات التي تتنوع ألوان أوراقها وذراها. والأرض التي تخلصت من ردائها الذئبي الأزرق يتصاعد البخار الخفيف من بساتينها وتخوم قراها المحروثة.

لا يرى حقدار دفء الربيع، ولا لُطف النهار، ولا فرحة الأسر العاملة في البساتين والأرياف. أفكاره القلقة اليوم والغد وبعد الغد، منذ وقف على رجليه، في مكان آخر. ويبدأ يشك في نخلش الذي يجد فيه سنداً ودعماً لروحه. يرهقه التفكير في طريقة مصالحة ردد الذي أهانه دون أن يدع نفسه مُضغّة في ألسنة الناس تسخر منه. كان الأفضل من كل ما عده أن تأتي المبادرة من غيره.

"لو عشنا متصالحين في القرية لما تحوّل نخلش عدواً لي. ولكن ابن لاورستن، على ما أراه، لن يقبل هذا أبداً. حتى لو قُبل لما وافقت حاشيته الكبيرة. هل

أوسّط العجوز كولس في هذه المسألة إذن؟ كان زارني بقصد المصالحة برفقة الشباب الثرثارين... ظهري المتألم دفعني إلى أن أخطئ في جوابي... لهذا كان العجوز كولس قال لي: الحجر الذي ترميه أمامك تعثر به. بأي حجة أبادر الآن لمقابلة كولس؟ لو وجدت وسيطاً إليه دون أن أظهر أنا في الصورة... من في مزبه يمكن أن تثق به في هذه المسألة؟ ولا تخلو قرية مستخقوه من رجل حكيم، يكفيها تيمرقوه، له خبرة في التعامل مع الناس. وقد عاد من الأسر. ولكنه من قرية نخلش فلا يجوز إطلاعه، بل حتى الإيحاء إليه. ألا يمكن أن يكون الوسيط من قرية " ششخرس "؟ هذه أيضاً قرية ممتازة فيها رجل صالح اسمه قَمد. لا يتأخر عنا، نخلش وردد وأنا، في فطنته... لا، لا، لا يصلح فمد لهذه المهمة! عواطفه كلها نحو الخزر. ويُقال إنه يشرب من دم الخيل، ويأكل من لحمه... "

لجم حقار الحصان بقلبه المتوتر فسأله نطاي:

- ما الأمر يا كبير؟

- وماذا سيكون؟! - تصلب حقار على صهوة الحصان، وسرعان ما أخفى صوته الجلف: أتساءل فحسب أيّ ابتهاج كبير في القرية، يحنون ظهورهم إلى الأرض بأيديهم وأرجلهم كأنه لن يأتي يوم آخر غداً. ما الحدث الخطير الذي جرى؟

- وهذا صحيح يا كبير، - وافق نطاي حقار متودداً إليه، - ألا يقال إن يوماً من الربيع يأتي بإتاوة سنة!

- يا نطاي!.. غضب حقار لأن نطاي يعرف هذا القول المأثور الحكيم ولكنه حوّل الكلام إلى ما يتعلق بشخصه: - ما كنت أريد يا نطاي أن أفتح هذا الموضوع ولكن كم مرة طلبت منك أن تخاطبني " يا أمير " بدلاً من: يا كبير؟! القرية ستناديني تبعاً لما ترثونها عليها. ألم تسمعوا كيف ينادون ابن لاورستن في القرية؟ لم يبق على ألسنتهم إلا لقب الأمير. وكذلك اسمي ليس مناسباً¹، يجب

¹ يمكن أن يُفهم للوهلة الأولى بمعنى الكلب الأسود، كما يقال عن الحصان الأسود،

والإنسان الأسمر وإن كان يحمل في الأصل معاني عالية القيمة كالذهب وما شابه. وبهذا

أن أتصرف معه.

- هو اسم جميل جداً! - أصلح نظاي موقفه بسرعة. - لا يتسع له الفم، ويرنّ في القلب.

- ماذا تقول يا مبارك النسل، - صاح حقار دون حقد. - أنتم اعتدتم عليه ولكن اسمعه على هذا النحو: حه - قار! يعني الكلب الأسود. ثم إن كلمة "قار" ليست من لغتنا، دخلت إليها من لغة التتر - الخزر. وكنت أفضل لو نادوني بمرادفه "حه فأز" بلغتنا.

- لا، لا يا أمير! - مرة أخرى اعترض نظاي. - ما هذا التعبير "حه فأز"؟ حقار بملأ الفم، ويخفق من لا يُكَنّ لك المودة. ويزيد قامة أمثالنا من قومنا قامةً. ما معنى ردد إذن يا أمير؟ اسمك يحمل معنى ما في كل الأحوال. ما ليس له أي معنى هو اسم عدونا.

"نعم، نعم، ترفع من روحي المعنوية، - ابتسم حقار خفيةً، - بُحاملني، وبهذه الأقوال المعسولة تُخفون عني حقيقة مشاعركم. وإن نظرت من وراء ظهري فما سترونه أمرٌ آخر: ابن لاورستن الذي يستهينون باسمه، ونخلش الأصهب الذي لا تطيقونه، وكل من يحيط بهما لا يفارقون أذهانكم. ولا تتصوروا أن هذا الشعور وليد اليوم، كان في ذهني وأنا في الفراش تتوددون إليّ. إن كنت محظوظاً عشت وقوتك ونفوذك متلازمان. وإن سقطت فهؤلاء الذين أراهم حولي لن يلتفتوا إليك. سيحملوني على مصارعة ابن لاورستن دون أن يعبؤوا بما سيجري لي. نعم، متى صارعته فصرعني انصرفوا عني حماةً - نبلاء أحراراً. ولا بد أن نخلش الأصهب يقول في سرّه: الغالب ثوري! إن صارعت ابن لاورستن فلن يحفظ نخلش العيب الذي يعرفه مني ولن يبخل به على غريمي... لماذا أدخل بين القوتين المجنونتين فأسمح لهما أن يطحناني بينهما؟! ابن لاورستن لا يزال شاباً. وإن غلبته على مبدأ: من لا تعرفه مجهول، هذا غير مستبعدٍ" عادت الشجاعة فجأة إلى نفس حقار وهو يصارع نفسه بنفسه، وقال للفراس إلى

يُفسّر انتشار الأسماء المبدوءة بحرف الحاء قديماً. وقد نشر المرحوم فؤاد دغوظ مقالاً قيماً في هذا الموضوع في أحد أعداد مجلة البروس.

يساره:

- لا أظن ابن لاورستن على ما تصوّرونه، اسمه وشخصه متشابهان. - وقال لنفسه باسمًا: - "إن كنت تتظاهر بأنك لا تعرف معنى اسمه فأنت تعرف أنه اسم دلال" - وحين نظر جهة المحددة استغرب ما رأى: - أيّ جمال على باهما؟ ولماذا كل هذه الخيول حولها؟

- من أين نجمت هذه؟ لم تكن على باهما في طريق ذهابي. - فغر نطاي أيضاً فمه دهشة.

- لنمضِ! - حث حقار حصانه، لبسوا خزرًا ولا من الألان، ربما تجار عرب. لا تمش بمحاذاتي تمامًا. تأخّر عني بمقدار رأس حصان. ولا تنس أن تناديني بالأمير كما تبتّهك.

دنا حقار ونطاي وبينهما رأس حصان من باب المحددة فخرج شنبه من بين الجمع الغفير، وساعد حقار في الترحل ممسكاً بزمام حصانه.

- بأي نية دخل التجار العرب قرية مزبه؟ - سأل حقار الجمع الذي خرج منه شنبه دون أن يفارق مكان ترجّله، ويداه الضخمتان على خصره. - وهؤلاء الفرسان العرب المسلحون ماذا يريدون؟

- نحن آتون من بلاد العرب، - ابتسم له رجل كهل يرتدي قبعة الحج، وكلّمه بلغة أديغية متقنة. - نحن ماضون إلى توم تقاش "والفرسان الذين تسأل عنهم حراسنا. نحن، وأنتم تعرفون، نعيش في عالم قاسٍ.

- هل أنت أديغي؟ - تبين أن الأمر غير ما توقّع حقار، فاستغرب، وأعاد السيف الضخم الذي لا ذنب له إلى غمده.

- إن شاء الله العلي العزيز فأنا أديغي ومسلم. - أجاب الكهل كمن كان ينتظر السؤال، - واسمي الحاج إسحاق. أعيش بين العرب منذ كان عمري عشر سنوات. وأعتنق دينهم، وسلاحهم سلاح، وقضيتهم قضيتي.

- ما أعجب أنك لم تنس اللغة! - سأل أحد الحاضرين مستغرباً، ولام نفسه: - نحن نفقد لغتنا منذ وقّعنا بين الخزر.

- إن احتفظت في قلبك باللغة التي وضعتها الأم على لسانك، وكلّمت بها نفسك بنفسك فلن تنساها. ومن في بيتي، زوجتي، تذكّرها، وعلمتها لأولادنا.

ليس هذا بفضلنا بل بفضل الله الأحد. - حين رفع الحاج المسلم يديه إلى السماء وبدأ يدعو إلى الله، فعل مثله رفاقه التجار والحراس.

- ماذا يتلو هؤلاء وأيديهم مرفوعة إلى إلهنا الكبير؟! أكيونون يسحرونه؟ - اعترض نطاي. ولم يقطع المسلم الحاج دعاءه وإن سمع الكلام، وقال بعدما انتهى:

- لا يقال مثلُ هذا في حقِّ الله العلي العزيز الذي نبتهل إليه يا أخي الصغير. تأكدوا أن لا إله إلا الله! متى انتهت إقامتكم في دنياكم العارية وعُدتم إليه فستعبرون صراطه الذي هو أرقُّ من الشعرة إلى عالم الأموات.

- كفى! - غضب حقار فقاطع كلام الحاج المسلم، - لسنا مهمومين بلغتك ودينك.

- وأهْلُنا لن يقبلوا منك هذا، - وافقه شنبه أيضاً. خرج الحداد يَمْزُش من المحددة بقامة منحنية صلبة، والبخار يتصاعد من السيف الذي سقاه، شاعراً بأن المهاترة التي جرت أمام بابه غير لائقة. وبعدهما تفحص وجوه الواقفين وقعت عينه على حقار فسأله:

- لماذا لا يعجبك ضيوفنا يا حقار؟
- ليس فيهم ما يعجبك يا يَمْزُش، ألا تسمع حديث ابن قومنا عن الإله الأحد الذي يعبدونه؟

- نعم، أسمع. ينفخ يَمْزُش بلامبالاة بشفتيه الثخينتين على السيف الذي يبرد. ويمدده نحو الشمس، يقلِّبه. ثم ينظفه بلعابه، ماسحاً إياه بالقميص تحت إبطه، ويختبر حدته بقطعة البلوط. ثم يختبره ثانية بشعر رقبته.

- ماذا إذن إن كنت تسمعه؟ - لا يطيق حقار سلوك الحداد وحاله.
- هل تطبق عمامات الحاج ورفاقه؟ - يسأل يَمْزُش ثانية بلامبالاة.
- وماذا إن كنت لا أطيقهم؟ - يتصلب صوت حقار الآن.

- وأنا أيضاً لا أطيقهم، - يخلق الحداد الآن شعر عنقه بسيفه، - ولكن لا أطلب منهم خلعها. لا أفهم غير اللغة التي يتكلم بها ابن قومنا وغير ديننا من أدعيتهم وكلام رفاقه العرب. لا أطلب منهم السكوت، بل إن الجمال لا يرييها أحدٌ عندنا إلا الخزر...

- أيها الحداد يمزش، - لم يُطق نطاي صبراً، - ماذا تريد أن تقول بهذا لأمرنا؟
- أقول: لا تثيروا صخباً حول الضيوف الذين دخلوا إلى قريتنا.
- إن كان هذا ما تريده فحسنٌ، كلُّ يركب الحصان بطريقته كما كان يقول والدنا. - بدا على حقار ليئ موقفه، ولم يكتم حرصه على القرية، - ولكن، ألن يدفع هؤلاء مقابل عبورهم أرضنا؟
- لا حاجة لأن تسأل، سيدفعون، - تلَهف الحاج المسلم على الرد، وهزّ رفاق من ترجم لهم إلى العربية رؤوسهم. وأعلن بعضهم: - وإن سمحتم لنا أن نقضي ليلتنا في قريتكم فعلنا، ودفعنا لكم مقابلاً.
- ليس هذا من شأن حقار، هذا هو الأمير ردد ابن لاورستن، يأتون به.
حين رأى حقار كوكبة الفرسان الكبيرة المرافقة لردد قال معتداً، مخفياً انكسار قلبه.
- ليتكروا على مزبه أيها الأمير ابن لاورستن، لا يحتاج هذا إلى قوة حقار العظيمة أيها الحداد يمزش... ونحن لولا جرئنا على هذه القرية لما بقيت على حالها.
" أنت تتصاغر يا مسكين... " غضب نطاي من بين الحضور، " يجري لك ما تستحق أمام أهل القرية يا عديم الرجولة!.. " ساهم شنبه أيضاً بما يشغل باله، وضحك الحضور بينهم وبين أنفسهم إلا الضيوف.
دنا ردد من باب المحددة على رأس الفرسان الكثيرين فخرج من بين المستقبلين الذين تباعدوا احتراماً اثنان من أصاغرهم، فأمسك أحدهما زمام الحصان، والآخر الركاب.
- لتحلوا ضيوف خير علينا! أقول لكم باسم القرية، - استقبل ردد الغرباء بتحية احترام. ورفع رأسه الذي حناه انحناء خفيفة. وجعل الحضور جميعهم، من أصدقاء وأعداء، ينظرون إليه نظرة ثقة وإعجاب.
" انظر كيف يتصرف! - ضحك حقار في قلبه، - يعرفنا بشخصه، مهلاً، مهلاً، من الذي وقف الآن على يساره؟ أهذا هو شوباش الذي أنقذوه من يد أحد المجرمين الخرز؟ أيكون نكب أسرة أديغية بائسة بهذه الحجة؟ لا يمكن أن تتكهن بما يفعل هؤلاء... يرتقون على ظهرك، ثم يقفزون عنه... انظر إلى ذاك

الذي تلمع عيناه! هذا لا يشرب دم الخيل فحسب، يمكنه أن يشرب دم البشر أيضاً. والمجنون الواقف إلى جانبه! كأنه نما جسدياً في هذا الربيع. وأعضاؤه كأنها مصنوعة من الحديد... لا ينظر إليّ، يتجاهلني... لو جرى لك مثل ما فعلت بي لنمت في الفراش لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة... "كان حقار يحدث نفسه وقلبه يغلي ويتصاغر ولكن لم يستطع إلا أن يقول:

- أيها الأمير ابن لاورستن، هؤلاء يطلبون فضاء ليلتهم في مزبه. وسيدفعون أجرة الطريق والمبيت.

- لا بأس، لن نؤذيهم.

- شكراً يا أمير، - حيا الحاج المسلم بإيماءة من رأسه باسم الضيوف. - استقبلتنا بروح إنسانية كريمة. كنت تعرفت على المرحوم والدك الأمير لاورستن قبل بضع سنوات في مدينة ساماندير، غير بعيد عن بحر آبسكون¹ وقد حزنْتُ جداً حين سمعت أنه قضى على يد الخنزير آكلي لحم الخيل. كان رجلاً أديغياً حقيقياً... وقد جئت برفاقي إلى نواحيكم كي أجتنبهم الطريق البعيد. وستكلم على والدك حين نجتمع هذا المساء. وكان أتى على سيرة أحد المسنين من جيرانكم بكل خير. أياكون هذا العجوز على قيد الحياة بعد؟ وإن لم أخطئ فاسمه كولس.

- لم تُخطئ أيها الضيف، - بدا على صوت ردد فرحه لسماع سيرة والده واسم جاره. - كولس زعيم الخير الذي تسأل عنه حيٌّ وبصحة جيدة. وها هو حفيده، ابن ابنته، معنا. وعند كولس في هذا الوقت بالضبط ضيفٌ روميّ.

- هل أتى من بلاد الروم؟ - رفع المسلم الحاج حاجبيه الرقيقين مستغرباً.

- نعم، جاء من بلاد الروم. - لم يستطع تراب إلا أن يصيح من فوق رؤوس الواقفين أمامه ملمّحاً إلى أنه أمسك بأصل الحديث الذي لا يستطيع الإفصاح عنه. - وهذا يتابع قضايا لغير ديننا.

"لستُ الداعية الوحيد بين أبناء قومي الذين خالطتهم، - ارتخى قلب الحاج المسلم، ولكنه لم يتراجع. - علينا أن نبعد هؤلاء من عبدة الآلهة المتعددة إلى

¹ الاسم القديم لبحر قزوين. المؤلف.

الإسلام إذ ضعفت سيطرة الخزر، قبل أن يأتيهم الروم والروسيج المسيحيون بدينهم. كل الأقوام دانت في الماضي بالجوسية التعددية باستثناء القليل منها. لا إله إلا الله! الله الأحد الذي يتهل إليه الكثيرون ولا يتهل هو إلى أحد هو القيوم على كل الناس، الضالين منهم والمهتدين في الدار العارية. وهو يرى كل شيء ويعرف. ومن قيل إنه أتى من بلاد الروم لا يجهل هذا. لم يفهمهم أنهم نشروا المسيحية بين الروسيج بعد أن زوجوا ابنة أحد أمراء كييف من رومي، فاستداروا نحو الأديغة. وكما يقول النبي محمد يجب التصدي لغير أبناء قومنا!.." خرج الحاج المسلم من أفكاره المفاجئة، وسأل متجاوزاً ما لمحوا به إليه:

- هل تريدون يا أمير أن ندفع لكم بالفضة أم بالقماش؟

- اطلب نقوداً! - استعجل تراب.

- ربطة القماش تكسوننا، نحن الواقفين هنا، - بدا على حقار استياؤه من سبق أحدهم له.

- وأهل القرية؟ - لم يقبل مشقوه.

- في مزبه كثير ممن يرتدون جلود الخراف والكلاب، لا تهتم بهم. عارضه شنبه.

- إن كان هذا رأيكم، - ساهم الحداد يمزش في الحوار، - فخذوا منهم فولاداً دمشقياً إن كان معهم منه.

- أيها الحداد، لا نحمل معنا ما يُصنع من فولاد دمشق إلا سلاحنا الذي على أجنابنا. قال الحاج، ثم استدرك: - ولكن عندي سيفاً زائداً عن حاجتي مصنوعاً من الفولاذ الدمشقي أبادله بما معك إن أردت. وهو من صناعة حداد من قومي، أليس سيفاً أديغياً؟ أحمله معي أينما سافرتُ عارفاً أنني منكم، حافظاً لله في سري.

- من كلفوني بصناعة هذا السيف لأجله هو الأخ الأصغر للأمير ردد الواقف إلى جانبه.

- بادل! - جزم شوباش كأنه استعمل السيف المسقي.

- ألن يعتب علينا يمزش زعيم الخير يا أخي الصغير؟

- لا، لا يا أمير! - لم يملك يمزش إلا أن يصارح بما خطر له وإن استعجل. -

لماذا لا أُسرَّ إن كانت صناعتي اليدوية ستنتقل إلى بلد آخر!

- كيف يورط السيف المصنوع من القلب الأديغي أيها الزعيم المبارك قلبي الأديغي في بيع وتبديل، اطمئن من هذه الناحية!
- أليس قلبك الأديغي من بدلته بدين آخر؟ - مرة أخرى عرض تراب.
- هذا بديهي! - وافقه نطاي.
- توقفا أنتما عن الكلام! - ردّ حقار عليهما.
- لا يُعدّ ما يتعلق به القلب وتخلص له الروح تبديلاً. - جزم الحاج الذي كان حديثه إلى الآن ناعماً. وتناول السيف الزائد معتبراً أن الموضوع انتهى عند هذا الحد، وأخرجه من غمده ومدّه إلى شوباش وهو يتوهج من شعاع الشمس. وكان يود أن يُريه ما حُفر بماء الذهب على صفيحته بالعربية ويترجمه له ولكنه لم يجد من اللائق أن يفعل هذا أمام المتجمهرين من هنا وهناك، فلم يستطع إلا أن يقول له: - خذْ يا ولدي؛ هذا مصنوع من فولاذ دمشق الخالص، وزار المدينة ومكة. ولم يغبْ عن عين إلهنا الأحد. وقرأ عليه أن يكون لك سلاح خير قوياً تردع به من يتجبرّ عليك. والسيف الأديغي الذي صنعه لك أعدت التفكير فقررت ألا آخذه منك فأرفقّه به. والآن على أي مبلغ رسوتم في موضوع أجرة العبور؟
- نتكلم في موضوع النقود إذن، - حسم ردّد دون استشارة أحد.
- نحن نحمل نقوداً عربية وفارسية ومنغولية ومن الروسيج. ليست كثيرة جداً لأننا لم نبيع بعدُ غير أننا نحمل شيئاً نسدّ به رسم العبور، - استبقّ الحاج الموضوع يريد أن يقول: لا تبالغوا في طلبكم.
- يا كبير نحن لا يهّمنا مصدر النقود، المهم أن تكون ذهباً أو فضة.
- اخترْ أحدهما، - تكلم الحاج مع رفاقه بالعربية، وهز التجار رؤوسهم دليلاً على تأييدهم له، اعترض الخامس طالباً منه مساومتهم بما يعني: ما تقدمه لهم كثير؛ ألسن تاجراً!
- اخترنا الذهب، - ثبتّ ردّد الآن الاختيار.
- إن اخترتم الذهب فسندفع ثلاث قطع تساوي ثلاث أباسات¹. هذه الأجرة

¹ جمع أباسة: عملة تساوي حسب المعجم الأديغي عشرين كوبيكاً.

المعتادة. - أعلن الحاج ما يدفع التجار الأجانب مقابل العبور.

- وأجرة مبيتكم في مزبه؟ - سأل داور الآن.

- نعم، لا تعرفون بعدُ هذا الموضوع. إذا كان الناس استقبلونا بإنسانية في مزبه، فقد قرر رفاقي متابعة السفر بعد صلاة الظهر إلى ششحرس دون المرور بمستحقوه. ليجعلنا الله الذي يبتهل إليه الكثيرون ولا يبتهل إلى أحد في عداد المسلمين الذين يركبون طريق السلامة! وإن كنتم تستقلون القطع الذهبية الثلاث فسأضيف انطلاقاً من أديغيتي - إسلامي قطعة ذهبية عربية. خذ يا أمير هذه القطع الأربع وليجعل الله ما يزيد على دخلكم كثيراً وما ينقص قليلاً.

- أنت يا مشقوه أمين خزانة القرية، - قال ردد مُسمعاً الجميع، - خذ الذهبات الأربع من التجار. وأضفها إلى الذهبات الثلاث عشرة الأخرى. احفظوها في مأمن، سننفقها على مستلزمات مجموعة الفرسان التي نؤلفها ليكونوا حراس قرية مزبه.

- ونحن ألسنا من القرية يا بن لاورستن؟ - احتد حقار مما سمع.

- ولماذا لستم منها؟ - ضحك ردد في سرّه، - إن كنتم ستصدقون معي فلا مانع لدي. ويسرني أن تنطق اسم الأمير والدي. ولكن لا تنس أي أحمل لقب الأمير أيضاً.

- إن كانوا ينادونك في مزبه بهذا اللقب فأنا منها أيضاً فأين أذهب بك. ولكن أماننا، أنت أنا، موضوعاً علينا الكلام فيه.

- أنا حاضر في أي وقت تريد. ولكن لا أجد من المناسب الحديث فيه في حضرة الضيوف. - إذا كان التجار العرب سيستأنفون رحلتهم قلنا لهم: رافقتكم السلامة. - ركب ردد وتبعه رفاقه، - لا يجوز أن يلحق بالتجار الذين سيغادرون مزبه أيّ فارس لصّ يا حقار. وأكّلف بهذه المهمة أهل الحي الجنوبي.

- سأبلي طلبك يا أمير... - اقتلع حقار بصعوبة كلمة "أمير" من فمه. ثم غمغم من تحت أنفه الضخم وقد ظهرت سعادته بارتياحه مُسمعاً الضيوف: - إن عرف نحلش أنك سترسلهم إلى مستحقوه...

وفي هذه اللحظة خلع التجار العرب وحراسهم أحذيتهم وهم يراقبون صعود

الشمس إلى الظهيرة. وبدؤوا يتوضؤون من الماء الذي أسالوه من القرب على أجناب جماهم، ويمدون سجاداتهم جهة القبلة. واستدار الحاج المسلم نحو جهات العالم الأربع ممسكاً بإصبعين من يده اليسرى بأنفه، وواضعاً إبهامه الأيمن على الأذن اليمنى. ونادى بأعلى صوته:

- الله أكبر، الله أكبر!...

أوقف صوت الأذان ردد وصحبه بعدما مشوا قليلاً:

- يدعو المسلمين إلى صلاة الظهر، - قال ردد.

- لنتابع مسيرنا يا أمير! لماذا نتوقف إن كان من ليس له إلا إله واحد يدعو متجهاً إلى الجهات الأربع ويبتهل، - سدّ تراب أذنيه بإصبعيه، صارخاً متجبراً على الجميع، لا على ردد وحده. - وأنتم أيضاً سدّوا أذانكم. وإن لم تفعلوا سخطت آهتنا علينا. أبقوا أصابعكم في أذانكم، يكاد ينتهي من الأذان. هل يجوز لهؤلاء أن تسمح لهم بالدخول إلى قريتك؟ هذا فال شرّ!.. وهل يجوز أن تأخذ منهم سيفهم!

- وذهبهم إذن؟ - سأل ججان لا تميز جدّه من هزله.

- هل سألت عن الذهب؟ - قفز تراب من السؤال المفاجئ.

- نعم، نعم، هذه الذهبات التي مع مشقوه، - لا يتوقف ججان أيضاً، وينظر بطرف عينه إلى ردد.

- لماذا توقفت الآن عند ذهب القرية! - ناكف مشقوه ججان وقد بدا من شحوب وجهه شيء من الارتعاب، والنقود تحرق أسفل جيبه.

- لا تختلفا، - ضحك ردد: - لا يميز الذهب بين الأعراق، ولا بين الأديان. وكذلك القاتل. يقتلك وينهبك، ثم يهرب.

- صحيح يا أمير، صحيح، - يؤيده تراب الذي يعود إلى وعيه، - ألم يذكر المسلم الحاج مصادر الذهب؟.. أتى على ذكر الروسيح النصارى، والعرب المسلمين، دغك من المغول خزر العيون. أديانهم مختلفة وإن كان ذهبهم واحداً... لا تنظروا، لا تنظروا تلك الجهة، المصلون المسلمون توجهوا بوجوههم إلينا. ينوون أن يسحرونا!.. - حثّ تراب الحصان بكعبه، وتبعه الآخرون.

...

بعد ظهيرة اليوم التالي أتى إلى باب دار ردد ثلاثة فرسان: حقار، وشنبه، ونطاي.

والثلاثة لا ينوون الترجل.

ارتعبت رامبس التي كانت أول من رأت الفرسان، وقالت: "ماذا ينوي المهرجون الثلاثة الذين توقفوا عند باب دارنا؟.." وخرجت من جهة المطبخ، ونادت نحو البستان:

- يا ردد ويا شوباش، على الباب ثلاثة فرسان.

اتفق الفرسان الذين التقوا ردد، على ألا يقبلوا الترجل من الخيل كما تأصلت العادة في مزبه مع رأس السنة الجديدة، ولكنهم ترجلوا دون إرادتهم حين رأوه قادماً.

لاحظ ردد أنهم لا ينوون خيراً:

- تفضلوا!..

- لسنا رُسُل خبر جيد يا أمير، - قال حقار، - نُجَار البارحة قُتلوا.

- ماذا جرى لهم؟

- جرى لهم في ظاهر قرية مستخقوه ما كنت أتوَجَّس منه... صادفناهم الليلة وقد صاروا طعاماً للوحوش. جئنا لنخبرك أن لا علاقة لنا بمصرع التجار الذين خرجوا من مزبه.

- وهل من أهداني السيف حي؟ - سأل شوباش.

- لم نره يا أخانا الصغير بين الجثث.

- من أرسل إليكم الخبر؟ - هزّ ردد رأسه مزيجاً ارتيابه.

- رأينا الغربان تتسارع جهة مستخقوه، وسمعنا الجوارح تتصايح في سمائها فركبنا... وكان بعض أهل مستخقوه عبروا نهر بشده.

- وماذا أخبروكم؟

- وماذا يخبروننا يا أمير! وهؤلاء أذهلتم المصيبة... وكان نخلش معهم... نعم،

نعم، لا تستغرب يا ردد هذا ما منعنا من أن نعرف ماذا نقول وماذا نفعل...

وهذا هو السبب في أننا لم نشك في من يجب أن نشك فيه على مبدأ أن الذئب متهَم في ما افترس وما لم يفترس. وهكذا نحن سنعود إذن.

- لم تحملوا خبراً جيداً، - مرة أخرى هزّ ردد رأسه الكبير، وأمسك شوباش الذي وقف إلى جانبه من كتفه الرفيعة، وضمه إليه، - ليس من الرجولة أن تترك الرجال الصالحين في وقت السلم هذا وفي ذروة جمال الطبيعة، ولا تلتفت إليهم. يستوي قتل الأبرياء وقتل الكلب بإبرة في اللحم. سينكشف أمر الفاعل يوماً ما.

- صحيح يا أمير، وهذا سببُ قدومنا إليك... - علق حقار وهو يركب. حالما اختفى الفرسان الثلاثة وراء سور الحظيرة لجم شنبه حصانه فأوقفه على قائمته. وفعل نطاي مثله، والتفت حقار:

- ماذا جرى لكما؟

- عاتبان عليك، - قال شنبه.

- ما الخطأ الذي ارتكبته؟ - اعترضه حقار برأس حصانه.

- أما كنا اتفقنا على ألا نتصاغر أمام ابن لاورستن؟ - عبّر نطاي عن استيائه أيضاً، وغمغم خائفاً: - ترجلنا له ونحن نناديه بالأمير...

- هذا ما يحزنكما؟.. - ضحك حقار، وقال وهو يدير وجهة حصانه: - تعالا، لماذا قفزتما من الخيل إن كنتما شجاعين إلى هذا الحد؟ - كُفّا عن ادّعاء البطولة بعد فوات الهدف! - وبعد قليل أنهى بشيء من الرياء واللفظ: - ونحن لسنا أطفالاً، ولا تظننا أننا أغبياء فنشرب الماء من أنوفنا...

تبادل شنبه ونطاي النظرات، وتبع حقار خانعين.

III

خرج شوباش من الغرفة مسرعاً حاملاً السيف الإسلامي، وفتش المسطبة وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما. وحين رأى الكبير الذي يغلق باب فناء المواشي سأله:

- انظر يا ردد لحظة إلى هذا السيف الإسلامي!

- وهل أراه لأول مرة! - لأمه وهو ينظر إلى السلاح الذي مُدَّ إليه: - ماذا تقول لنا أمنا، أليست توصينا ألا نمسك أيّ سلاح إن كان سيفاً أو رمحاً أو مقصاً أو سكيناً من طرفه الحادّ. ماذا كان كولس قال لك حين مددت إليه

رأس الشوكة؟

- نعم، فهمت، مد شوباش مقبض السيف إلى ردد.

- ما هذا؟

- ألا ترى عليه شيئاً ليس من السيف؟

- تقصد هذه؟ استغرب ردد ما رأى، وسأل ثانية: - هل تقصد هذه الأشياء الصفراء المصهورة فيه؟

- ما هذه؟

- ومن أين لي أن أعرف؟ - يمكن أن تكون ذهباً... ملفوفة بطريقة عجيبة. مهلاً، مهلاً، أليست هذه لغة القرآن؟ كنت رأيت مثل هذه الأشكال في كتاب مع كولس.

- هل نعرضه على الجد كولس؟

- سنعرضه عليه ونسأله، ولكننا لن نسمح لعين تراب أن تقع عليه... - وأنهى ردد بخاتمة لم يتوقعها الفتى: لا تدعنا نستعجل عليه، احفظه إلى وقت آخر.

- ولكن يا ردد، - يبدو من عيني شوباش نوع من الفزع وإن كانتا تلمعان، - لا أعرف إن كانوا يريدون أن يسحرونا بالسيف الإسلامي كما يعتقد تراب!.. - وهل تصدق أقوال تراب؟ - ارتعب ردد أيضاً في سِرِّه.

- لا أعرف يا ردد كيف أعبر لك عن هذا... ينطق تراب أحياناً بالصواب كما تقول أينار وآنست، من أين تعلم هذه الأمور؟..

كان ردد متظاهراً بالإصغاء إلى أقوال شوباش ولكن ما يقلقه ويشغل باله أمر آخر: طريقة مصرع بعض التجار العرب. وطريقة إخبار حقار. وقلق نحلش المزعوم من أجلهم. وما لا ينساه البتة هو تبرئة أوسط الفرسان الثلاثة وقائدهم، وهم الذين رأوا المأساة بأعينهم، نفسه وتصاغره وهو يروي الخبر خلافاً لما كان عليه في الماضي. حتى لو كنت تريد الاقتناع بصحة خبره فما يشكك فيه هو طريقة ترجمه من الحصان، وترديده لقب "الأمير"، وملاحقه، وعدم الكشف عن حقيقة ما جرى. ولم يكف هذا فخلق شوباش من سيفه مشكلة. وأقحم تراب في الموضوع، وألحق بهما أينار وآنست.

- لا أعلق يا أخي الصغير على ما قلته بشأن تراب، - كان ردد يود الصبر في حضور الأصغر على ما لم يعجبه، ولكنه لم يتحمل حين سمع اسم الصبية القريبة من قلبه: - ولكن ما علاقة أبنار بهذه المسألة؟ وكذلك آنست؟.. - وتنهذ فجأة، وحمله قلبه على السؤال: - هل تعرف عن الصبيتين شيئاً بخصوص تراب؟

السؤال الذي سمعه شوباش بخصوص الصبيتين وهو الذي لم ينته بعد من موضوع السيف الدمشقي، كما كان يعتقد، هيج. انتصبت أمام عينيه مستاء الصبيتان اللتان سأل عنهما ردد حين يركض إليهما أحياناً فيرى تراب جالساً إليهما طلق الوجه واللسان، مرحاً، لا تدري أيهما أقرب إليه، يتودد إليهما بدلع، ويقرأ كفيهما الطويلتين النحيلتين ماراً عليهما بأصابعه، ماسحاً عليهما وعلى كتفيهما، وكيف كانتا تمدان إليه أيديهما، راوياً لهما أن الآلهة تحدّثه سراً أحياناً. ولكنه كتم عن أخيه الأكبر مرة أخرى كما في الأيام الأخرى لأن " نانا قالت لي مرة: لا تدخل بينهم، أخوك لن يصدّق إن لم ير بعينه، فتبدو في النهاية نماماً" - ثم غاب عن موضوع حديثه متألماً، دون أن يعرف السبب: - من يهتم بتراب كما تقول؟ كلهم يصفونه بصاحب اللسان الذرب. - وهل هذا مدح أم ذم؟

- لم أفهم سؤالك يا كبير.
- أقصد أن اللسن يستطيع أن يكون ثثاراً.
- أنا معك إذن يا كبير، - حسم شوباش موقفه الآن.
- إن كان هذا رأيك أنت أيضاً يا أخي فقد تطابق رأينا. - وكرر ما كان يشغل باله بصوت شبه مُراءٍ: - ولكن هذا لا ينطبق على أبنار وصاحبتها.
- هاتان مرأيتان جدلاً!.. - التمعت عينا شوباش الصافيتان اللتان كانتا هداًتا: - ليتك رأيتهما وقد أفلتتا لسان تراب النشيط؛ تتنافسان، وتتهامسان، وتبادلان الابتسامات.

- على روايتك يا أخي الصغير، - صاح ردد ويبتسم ويمدّ نفسه بالشجاعة، - الثلاثة يخدع بعضهم بعضاً!
- طبعاً! - وافق شوباش.

- على أي شيء نتكلم يا شوباش؟ - يقول في قلبه: " لماذا أُقحم أخي الصغير في ما لا أستطيع أنا تفسيره؟ " وينهر نفسه، - يقلقني أكثر ما كُتب على السيف الدمشقي. نحن لما جرى للتجار العرب، ولكن ألا ترى ما فعلوا بنا عبر السيف؟ أظن أن الحاج المسلم دسّه بيننا لهذا السبب... هيا نعرضه على الزعيم كولس!

خرج ردد وشوباش من الفناء.

كان شوباش يمسك السيف بأطراف أصابعه كمن يحمل جرثومة الطاعون ولا يتقلّده. وحين وقف إلى جانب ردد الذي لا يتدلى منه السيف خلافاً للعادة، نصحه:

- عُد إلى مكانك الصحيح! ستحمل من لا يَكُونُ لنا الود على السخريّة منا.
- لا أفهم المغزى من تقاليد وقوف وجلوس الأكبر والأصغر، - قال شوباش دون أن تعرف إن كان سرّه ما قيل له أم لا، وعاد إلى يسار ردد.
- هل من المعقول أن الموط جماعتك ليس عندهم مثل هذه التقاليد؟ - ابتسم ردد بعدما مشى مسافة معتبراً ما قاله غير ذا بال.

- أليس الموط أديغة؟- قابل شوباش السؤال بسؤال.
- وكيف لا! القسوغ والموط والزيخ كلهم أديغة. وهذا ما نسميهم نحن به. ليس هذا هو الموضوع يا أخي الصغير. أهتم أكثر بقولك إنك لا تعرف المغزى من مكان وقوف الكبير والصغير. إياك أن تقول مثل هذا في حضرة كولس وأمثاله من المسنين. لم يبدأ الموضوع من أجدادنا المباشرين، فاحفظ في قلبك: لو لم نتحل بقيم الاحترام هذه بين الكبير والصغير لفنينا منذ زمن بعيد في الصراعات... والآن سأجيب على سؤالك: من ينظر إلينا، انت وأنا، يميز الأكبر من الأصغر، ولكن إن لم يكن الفارق بيننا إلا يوماً، شهراً، فكيف يميزونا لأن من يجب تحيته أولاً هو الأكبر؟

- فهمت! - أسرع شوباش بالرد: يقف على اليمين.

- اسكت لحظة، وتقلّد سيفك! - ها هو تراب قادم... من هذا الذي يرافقه؟
نطاي؟ ما الذي يجمع بينهما؟

- نهارك سعيد يا أمير! - حيا تراب، - وأنت أيضاً يا شوباش. السيف ذو

حدين، أين تمضيان إن شاء الله أيها الأخوان.
- وأنتما؟

- ليس مقصدنا بعيداً، - خفت صوت نطاي. - لنا حاجة مع كولس.

- كولس الزعيم المبارك الخير، - قال ردد معزّضاً بعدم نطق اسم العجوز الذي يحترمه القسوغ ويقدّرون قيمته، كما يجب، مُبرّزاً ما يجب أن ينطقه، غير عارف سبب تصالح الشخصين اللذين جلبا للقرية المصيبة، غاضباً من هذا الموضوع. - لا أستغرب أن تقصدها، وأهل القسوغ الذين لا يحملون إليه أسلّتهم وشكوكهم قليلون. غير أنني أستغرب مجيئك من الحي الجنوبي راجلاً.

- إن أردت الحق يا أمير فلن أكتّم عنك هذا أيضاً، - بدا على نطاي مبالغته، - بقيت في الحي الشمالي اليوم بدلاً من حقل الزعيم فقررت أن أروض رجلي فخرجت. وفيما أتسكع التقيت بتراب على ضفة النهر فمشينا نحو كولس الذي تبارك له الآلهة نروي له مشكلاتنا وأحزاننا. ألا يكفي يا أمير غضب إلهنا الكبير، إله الرعد. وأنت كدت تهلك فيه...

- نعم، كاد يتركنا، نحن أهل مزبه، دون أمير، - قال تراب وعيناه الحادتان تحدقان في سيف شوباش، واختتم بعتاب: - وإلى الآن لا يزال متمسكاً بضيفه الرومي المسيحي ديمتري... وها هو أخوك الأصغر يتدلّى من جنبه السيف الإسلامي ضخماً...

- تراب! - قطع ردد متحلّماً بصعوبة حديث تراب جاره، مرسل الآلهة المتعددة، ثم لان صوته بلا إرادة منه: - يبدو يا تراب أنكما ماضيان إلى الزعيم كولس ولا شيء يوقفكما... ستوصيانه بأن يطرد من بيته، خلافاً لعادات الأديغة في استقبال أي ضيف يطرق بابه، وتُهيّئانه.

- سنخبره بما في قلوبنا وإن لم نقل له ما ذكرت، وتُفهّمه، - قال نطاي بتصميم لم يكن فيه سابقاً. لا نستطيع أن نتنازل عن آهتنا الكثيرة مقابل الإله الواحد لبعض الناس. هل تتذكر يا ردد، - وسرعان ما أضاف لقب الأمير دون رغبته، - هل تتذكر يا أمير أن الحاج المسلم الذي نجا من المهلكة بصعوبة كان يود مقابلته؟ وهو مسلم، والآخر رومي مسيحي؛ أليس كذلك؟.. ثم كيف نكتم عن جارك العجوز ما يحزّ في قلوبنا؟!

- إن وصلتم إلى هذا الموقف أيها الوقحان - امتشق ردد بلا وعي سيفه وعيناه تلمعان، وفعل شوباش مثله، - فلن تتجاوزا سيفي وتخطوا خطوة واحدة نحو زعيم الخير كولس.

- إن لم يُرضك ما سمعت يا أمير فليس في قلوبنا إلا الخير. ولن نتجاوز أمرك، ليس خطوة، بل إصبعاً. أحسن من خلال ظهري أن إلهنا الكبير، شمسنا، ليس راضياً عن الطريقة المرهبة التي امتشقتما بها سيفيكما... فالأفضل أن تغمداهما... نعم، نعم، أسمع، وها أنت ترى كيف وصلنا إلى هذا الموقف حيث يتوجب علينا أن نتقاطع. كلانا ملوم. ليس لنا إلا أنت وأهتنا الأخرى يفهموننا ويرحموننا... ارتاحوا واطمئنوا! الذنب ذنب من أعطاه السيف الإسلامي، لا من أعطى. شوباش لا يزال شاباً وعقله في طور الاكتمال، لا تلمه، سيفك...

لم يستطع نطاي الذي كان يصغي فاغراً فاه إلى أقوال تراب الأحذب وقد رفع يديه إلى السماء وشعاع الشمس يمنع عينيه من الإبصار، وقلبه يتداعى شيئاً فشيئاً إلا أن يقول:

- كفى يا تراب، كافك كلاماً على إلهنا الكبير... نحن راضون عنه إذ فهمنا... وأنا سأعود إلى حيناً دون استعجال. لم أعد إليه منذ الصباح.

- تعال يا أخي الصغير، ما فائدة البقاء هنا، قلنا وفعلنا ما علينا، - أنهى ردد الموقف بثبات، ولكنه لم يملك إلا أن يلقي على تراب نظرة استياء وغضب.

كان تراب الذي تركوه وحيداً في الشارع فرحاً لا تسعه الدنيا بدلاً من الشعور بالإهانة: " هكذا يجب التعامل مع هؤلاء ومع من نناديه بالأمير، ومن يناكفوننا في الحي الجنوبي، عليك أن توقفهم عند حدّهم، وتعرفهم أنفسهم من أجل أن يصدّقوك... متى كنت أمامهم ابتسموا لي، لا يستطيعون تعييري بعاهتي، أو اعتباري مسكيناً بائساً تعيساً. ومتى غبت عن أنظارهم لقلبي بالأحذب... مهلاً، مهلاً، سأريكم من يكون هذا الأحذب!.. " - التفت تراب فالتفت ردد أيضاً كأن أحداً ناداه:

- ماذا؟ - سأل شوباش.

- تراب منصرف... - استدار ردد بسرعة.

- هل سمعت كل ثرثرته؟

- سمعت، وإن فتحت له الباب فعنده الكثير أيضاً من الكلام... - غمغم شوباش، وقال لنفسه: " لا يزال راعباً في حديثه، يتابعه بنظراته " وبعد قليل وجهه إلى ردد السؤال نفسه الذي وجهه إليه قبل أن يتحركوا نحو كولس: - هل تصدّق ما يقول تراب؟

- لا أعرف يا أخي الصغير كيف أعبر لك عن هذا... - كرر ردد كلمات شوباش، وانفجر ضاحكاً. نظر شوباش إلى أخيه مستغرباً: نعم، نعم يا أخي الصغير، لا أعرف ما أعلّق به عليه... نُحِرس تراب أحياناً ولكن لا أظنه يخلو من شيء، من موهبة غرستها ألهتنا فيه...

- هل تعرف ما قالت نانا في شأن تراب؟.. - قال شوباش وسكت فجأة كما بدأ.

- قل، قل، لا تبتلع ما بدأت به إن كنت رجلاً. - ابتسم ردد، وأكمل ما لم يستطع شوباش قوله: - أليس: " تراب شيطان، ابتعدوا عنه، لن تناولوا منه خيراً؟"

- من أين تعرف؟ - استغرب شوباش أن يعرف غيره سرّه.

- أليس لأمنّا أخ أكبر غيرك تحبّه؟

- هذا هو؟.. - ألقى شوباش نظرة أكثر دفئاً على وجه أخيه الأكبر وقد بدا عليه ارتياحه لما سمعه، وكشف له السرّ الذي كان يقلقه: - يخدع أينار وصاحباتها. يسحرهنّ بزعمه أنه يقرأ فألهنّ.

احتدّ ردد مما سمع ولكنه كظم غيظه في حضرة أخيه الأصغر، فمازحه مع شيء من العتب:

- أنت تعرف الكثير مما لا أعرف يا أخي الصغير!

- لا أكون واثياً إن أبلغتك شيئاً مما لا يتقبّله قلبي؛ أليس كذلك يا كبير؟

- لا، لا، - استعجل ردد، - لا يخطر لك مثل هذا. لا يتبادل الإخوة مثل هذا الكلام. اسمع يا أخي، ناولني السيف الإسلامي، لنخبّه هنا تحت خزان الحبوب دون أن ندخله إلى البيت! حساً فعلنا إذ لم نأخذه إلى كولس فيطّلع عليه الضيف الرومي المسيحي. احتفظ إلى جانبك بالسيف الذي كلّفك يمزح

بصنعه لك. هذا السيف سقاه يمزش باسم آلهتنا، وأودعه قوة أرواحهم. ثم يا أخي، ولا أعرف رأيك أنت، لا يعجبني، سواء اتفقنا مع تراب أم لم نتفق، اعتيادُ المسيحيين والمسلمين علينا. الخزر والألان ليسوا بلا دين ولكنهم لا يتدخلون في أمور ديننا لولا أنهم يحاربوننا وينهبوننا. والآخرون يخالطوننا ليلاً ونهاراً. ويُغضبون آلهتنا. ويثيرونهم ضدنا... نعم، نعم، أنت مُحقٌّ في هذا. ولا أقصد بهذا أن نقتل التجار الذين يقصدوننا. يستقبلون الضيف تبعاً للتقاليد التي ورثنا إياها أسلافنا، ويقومون بخدمته، ويودّعون. أليس هذا ما حدث للتجار؟ من حظنا أن الحادثة لم تجر في مزبه؛ كيف كنا واجهنا الناس لو... - ومع ذلك أليست الحادثة جرت في القسوغ وقد دفعوا لنا الأجرة؟! - يقول شوباش الذي يُخفي السيف تحت الخزان.

- أليس ما يحزنني أنهم من القسوغ!.. أنتظر ممن أوفدتهم إلى ششحرس حيث قُتل التجار العرب أن يأتونا بالخبر اليقين. والسب وراء تأليف هذه الكوكبة من الفرسان هو ألا تحدث مثل هذه الجرائم على أرضنا، ونحمي أنفسنا من اللصوص القتلة. وأنا ألوم نفسي لأني لم أرسل ثلّة من الفرسان مع التجار إلى ششحرس. وسأرتاح إن عاد إليّ الفرسان الذين أرسلتهم بقيادة حقار بالخبر الصحيح خيراً كان أم شراً.

- كان يجب ألا تُرغم حقار الوفد... - لم يستطع شوباش الصبر. - ألا أنك تعتبر حقار عدواً لنا؟ - لا، لا يا أخي، لا تظن أنني واثق فيه كما أثق برفاقه مشقوقه وداور وججان. الأفضل أن أعرف النوايا الحقيقية لمن يحنون لي رؤوسهم إشارة احترام. وما رأيك في عدم اصطحابه نطاي؟ لأنه لم يعد يثق فيه. - أجاب ردد على سؤاله بما يعتقد.

- الآن نطاي مبالغ في إخلاصه له؟

- لا عجيب في هذا يا أخي الصغير. يحدث أن يخذلك سيفك نفسه...

...

تظاهر ردد بعدم الاهتمام حين سمع أن تراب الأحذب يخذع أينار وصاحباتها، ولكن الفتاة التي لم يصارحها بعد لا تفارق قلبه صباحاً ومساءً، في أي زمان وفي أي مكان.

" ما الذي جرى إلى هذا الحد من الأهمية، - نهر ردد نفسه، - لم يحدد شوباش أينار بالاسم بل قال: جماعة أينار!.. لن يفعل بي تراب مثل هذا وهو يعرف قربي منها وإن كنت لا أقول شيئاً. إن تصرّف هكذا كسرتُ حديثه. وأنسَتْ لا تخلو من الجمال، وطباعها حلوة، وكلامها أيضاً. وكثير مما أود رؤيته في أينار أراه في طبيعتها وسلوكها. ألا يمكن أن تكون أنسَتْ هي من أعجب بها تراب... - ليس تراب مشكلة، الفتيات اللواتي أعرفهن لن يسمحن لتراب أن يضحك عليهن. ججان أخطر الجميع... كيف يمكنني الحصول على أينار وبيننا شابٌ جميل الوجه متناسق القوام مثله، ولا تنس أنه حفيد كولس الزعيم المبارك!.. وهل يكفي أن أحمل لقب الأمير؟! الحب لا يعرف الألقاب والمواقع الاجتماعية. يتوقف على العين والقلب والروح التي تنظر بما إليك... "

كان خطر على بال ردد أن يقفز إلى صهوة حصانه ويهرع إلى البلدة وكل من يراه يستغرب سلوكه، غير أن لقب الإمارة الذي استهان به منعه من مثل هذا السلوك الصبياني. نظر من النافذة فرأى بيت أينار من بين أشجار الفواكه. ولما نظر من فوقه بدا السقف القصبي لبيت تراب. وفي هذا الوقت نفسه أحبَّ أن يلتقي بتراب. وبعده سيلتقي بججان وبجادثه.

" وماذا أقول لهما؟ أسألهما إن كانا يجبان أينار أكثر مني؟.. - ابتسم ردد وهو يسخر من نفسه وينهرها: - أقول لهما: تسلباني ما ليس لي؟! داور وججان في عداد الوفد المتوجه صباحاً إلى ششعرس. وعُشناغ عندنا في البيت. سأذهب إلى أينار، وإن كانت أنست في البيت فلن أكتم عنها. سأكشف أينار بحقيقة ما في قلبي. فإن فهمتني وقابلتني بمثل نظرتي فيها فهي مثلٌ روحي وعيني. وإن رفضتني فلن أبدي ما في قلبي وإن تأملت. وكما يقول مشقوه حين يغضب من امرأته: كثيرون من أمثالنا انتكبوا بسبب لابسات الغطاء، وكثيرون سعدوا. صحيح أن تراب البائس يتحمل منا ما يستحق وما لا يستحق ولكن تعريضه بنا أحياناً حين يغضب علينا في محله: " أنا أحذب ولكن لماذا تعيشون وأنتم تظنون أن من تشيرون إليها سترتمي في أحضانكم، وعينكم على البنات، وتوسلون إلى دكايس الأرملة اللعوب؟ " ثم أغضب على هذا المسكين قائلاً له دون اعتبار لمن يسمع: أنت تقول هذا وذاك... ليكون الوقتُ ظهراً، لا

بأس، يكفي ما أعذب به نفسي من الخجل... " - خرج ردد من الدار لا يلوي على شيء.

اليوم يخيم على مزبه نهار صاح حلّو حبيب إلى النفس يُنسيك جمال أمس وأول من أمس، والأيام السابقة. والربيع الذي قطع أكثر طريقه حلّ أززار قَبْتَه تماماً. الشمس الدافئة تلعب بين أزهار الأشجار المثمرة الملونة وأوراق الأشجار الخضراء. والفراشات الملونة تحوم حول الزهور. والمزروعات النابتة حديثاً تتوسع خضراء. وترى تناجي الجبال القريبة والبعيدة في فرحة وجوها. وتأتي من السماء الأصوات المتنوعة للغربان، وتصدر من بين الأشجار المختلفة، ويحط بعضها على سطوح الأهراء ورؤوس الأعمدة. والسنونات تلعب في السماء كالبهلوانات.

الطبيعة في مزبه جميلة صافية كأن لم يبق على العالم أحزان ولا آلام ولا دماء تسفك. يحمل ردد حَبّه إلى حبيبته التي لم تُخلص له تماماً إلى الآن، وهو الذي لم يكن يلاحظ غنى الطبيعة إلى ساعتها جاهلاً أنه كان يعيش في قلق يصدع الرأس. وما إن يتجاوز المنعطف حتى يُطلّ على باب الدار التي فيها قلبه. مهلاً، ما هذا؟ حَيِّل لردد أنه سمع صراخ امرأة. هل صدر الصوت حقاً أم حَيِّل إليه؟ ولما أسرع إلى الغرفة رأى أينار في الزاوية شاحبة تماماً، تدفع عن نفسها تراب بالمقص الحاد، فلا تسمح له أن يدنو منها.

- ماذا تنوي بحق الفتاة يا سليل الكلبين؟! - هجم ردد واختطف تراب من أرض الغرفة، وألقاه إلى الخارج وهو يتخبط. - أغرب عن وجهي أيها القدر! ارتقت أينار في صدر ردد وهي ترتجف.

- اهدئي يا أينار، اطمئي، - يمسح ردد بكفيه الضخمين على رأس أينار وكتفها. - أنا سأقضي على هذا الأحذب! اجلسي هنا، وامسحي دموعك. قالت أينار بعدما مسحت دموعها بغطاء رأسها وهذأت:

- لم يحدث لي ما لا أستحق... بقينا، أنا وأنست، نشفق على تراب بدعوى أنه أحذب ومشوه بئس حتى فقدنا السيطرة عليه. وسيدبحني أخي الأكبر إن سمع ما حدث الآن...

- اطمئي يا أينار، سنحجب الأمر عن داور. لن يعرف غيرنا، أنت وأنا، بما

جرى. وتراب لن تخرج كلمة من فمه.... أنا عائد إلى البيت، وأنت ارتاحي. - نهض ردد ضخماً يملأ الغرفة.

- يا ردد، - نهضت أبنار نخيلة جداً كعنزة عجفاء.

- ماذا يا أبنار؟

- من أجلك كنت أطلب من الأحذب البغيض أن يضرب لي بالمندل ولكن لم يفهمني... لم أكن أكتمك ما في قلبي وإن لم أصرّح باسمك.

- وججان إذن؟ - أسرع ردد.

- وماذا ججان؟ - نظرت أبنار واجمة في وجه ردد، ثم فهمت فابتسمت: - ججان وآنست موضوعهما مختلف.

- أنا لم أكن أعرف ماذا أفعل بججان... - أضاءت فرحةً وجه ردد الغرفة.

- أنا كنت أتوجس من هذا... - قالت أبنار في إثر الخارج.

...

في تلك الليلة، ما إن استسلم ردد للنوم، حتى أيقظه قرعٌ على النافذة. فخرج من الغرفة متقلداً سيفه، لابساً على كتفيه فرواً رقيقاً:

- من يحتاجني الليلة، أهذا أنت؟

- نعم... تراب.

- وماذا تريد؟

- ما فعلته البارحة عار أمراً من الموت. لم أملك السيطرة على نفسي. سامحني

يا ردد. أنا أعرف أنك تتحلى بالرجولة والإنسانية. وأنا جاءتني بك آهتنا إليك

من حسن حظي المحدود. لن أقترف مثل هذا الغباء ما حييت. وقد أرسلتني

آهتنا إليك واعدتين إياي بأن الأمير سيفهمك. أستحلفك باسمها، وباسم

نحسي، وباسم لاورستن الأمير الكبير والدك، وباسم القرية، ألا يعرف أحدٌ بما

جرى.

- كفى، اسكت!

- نعم، نعم يا أمير، نعم يا ردد، ولا أجهل عيبي.

- أي عيب تعرفه في نفسك؟

- لا تؤاخذني... لا أسيطر على نفسي حين يهاجم الدم المجنون رأسي. - متى

رأيت لابسـة غطاء، كائنة من كانت، تحدّثني نفسي بالهجوم عليها.

- أَسْكُتْ؛ هل جُنَنت؟

- لا أعرف، ربما...

- إذن تستحق ما يفعلون بفحول الخيل!

- لا، لا، لا تُهينوني بهذا!.. لن يقبل منكم ومنا الآلهة الذين أنا موفدهم... ثم الشهوة التي تلح عليّ جداً يا ردد، وليُسامحني آلهتي لأني مضطر، أكشف سرّي عقب كلامهم إليّ وتبليغيكم أوامرهم... إنس ما هدّدني به، لن يغفر لك آلهتي، وسيحتاملون عليك...

- لا أعرف إذن، - هدأ صوت ردد فجأة، ثم أعاد ما خطر له الوعي إليه: - الحقّ إن كنت لا تستطيع التحكم في غريزتك، والآلهة ستقبل منك، ألا يمكن أن تتزوج امرأة ما؟

- وأنا حاولتُ هذا دون معرفة أحد... ألا تعرف طبيعة كل النساء، جميلاتهن وقبيحاتهن؟ هن يرينني قبيحاً، ويرين أنفسهن جميلات. يُرشّحن لي المرأة الحذاء المسنة التي تقيم في ششعرس...

- أسألك يا تراب، - لان موقف ردد ناسياً حادثة البارحة، - أليست أرملة نطاي لائقة بك تماماً؟

- لا، لا. لا تأتِ على ذِكْرِها لي يا أمير، - صاح تراب مسروراً من تراجع غضب ردد عليه، وتحقّق ما يريد هو، - هذه امرأة تجاوزت الحدود! لن أدع القرية تسخر مني بأن أعرّج عليها صراحة، بل لن أدانيها حتى سراً.

- حسناً، لا أعرف إذن... - ضحك ردد مازجاً جدّه بهزله، إلا إذا كنت ستبحث عن وسيلة أخرى...

- ما العمل إذن لإطفاء الشهوة؟ - تظاهر تراب بالضحك حتى لتهتز حديته، ثم قال فيما هو منصرف راضياً بما حدث له: - لو لم أكن أعرف يا أمير أن لك قلباً شجاعاً ولساناً فصيحاً لما زرتك الليلة. لن أنسى معروفك أبداً، وسيَرْضَى عنك آلهتنا. سامحني على إزعاجك وقت راحتك. تابع ليلتك الهادئة.

حين عاد ردد إلى الغرفة على رؤوس أصابعه نادى شوباش من العتمة:

- ما الذي لا يدع الأحدب يهدأ في منتصف الليل؟

- هل استمعت إلينا؟! - جفل ردد خوفاً من أن يكون أخوه سمع الحوار.
- لا، بل كنتُ جاهزاً إن اقتضت الضرورة.
- عُذ إلى النوم؛ لا خطر! - أرسله آلهُتنا إليّ مستائين من سلوكه البارحة... -
- أجاب ردد مُحرجاً من الكذب على الشاب.
- هذا جيد، عوقب بما يستحق! - تشفى قلب شوباش من تراب.
- لا تستغرب يا أخي الصغير، مثل هذه الأمور تحدث. - اختتم ردد مجبراً الحديث الخالي من الصدق.
- جاء ردد من ششعرس بالخبر الذي كان يتوجس منه: نحلش هو من نهب التجار العرب.
- ألم تشكّوا في إجرام الأصهب من خلال دعاية زعيمكم حقار له؟ سأل ردد متابعاً الرجل الضخم الذي كان يصرفه الفارسان معهما.
- حقار الذي يظن نفسه يصرع الجميع بصدره يستطيع كتمان مثل هذه الأمور. ولكن يبقى على السيف أثر دم ولو نظفته... - قال مشقوه، ووافق داور وججان كلام الكبير بهزّ رأسيهما.

IV

- يُخطئ من يظن أنه لا يرى في الظلام، ولا يُسمع في الخلاء.
- لم يُطلق هذا القول المأثور بمناسبة السر الذي احتفظ به ردد وأينار - بل كان الخبر المنتشر في القرية هو خبر نحلش وحقار. وهذا ما جاء بنحلش الأصهب غاضباً إلى قرية مزبه معتداً برفاقه الفرسان، وهذا سبب سؤاله حقار رافضاً الترجل من الحصان:
- هل صحيح ما يشاع من أن ابن لاورستن أربك؟
- تفضّل يا نحلش، تفضّل! لماذا تُهينني رافضاً أن تتجاوز عتبة داري؟
- أعطني إذن جواباً يحملي على مفارقة صهوة حصاني خيراً كان أم شراً؟
- لماذا تهينني يا نحلش في ساحة القرية وأمام رفاقك وأنت تعرف العاهة التي تمنعني من مصارعة ابن لاورستن؟.. أنا، وآلهتنا شهودي، لا أدّخر جهداً في مساندتك.

- كفى! - خشى نخلش أن يأتي حقار على خبر التجار العرب فصرخ بكل قوته حتى إن الحصان تجمد في مكانه، ثم توقف لحظة، وأضاف متحليماً: - لا أزعم أنك محروم من الرجولة والقوة، ولكن يحزنني أن ابن لاورستن الذي لا يؤبه به ترك فيك عاهة. إن سمحت لي فأنا، ينادي رفاهه: هل تسمعون؟ - سأدفعه في التراب حتى زناره. اركب! إذن كي أحدد له موعداً لمصارعته بشهادتك!

حين نظر كولس الجالس مع أصحابه المسنين إلى زاوية السور يتدفقون على أشعة الشمس ارتجف من منظر مجموعة الفرسان الكبيرة القادمة من الحي الجنوبي.

- هؤلاء أكثر من أن يكونوا ضيوفاً، وأقل من أن يؤلفوا جيشاً. ألق نظرة يا شوباش، أنت أحدٌ نظراً، مَنْ هؤلاء؟

المسنون ينظرون متخذين من راحتهم مظلات تقي من الشمس بانتظار ما سيخبر به شوباش.

- الاثنان المتقدمان هما نخلش الأصهب وحقار. - أعلن شوباش اسم من عرفهما غير مرتاح إليهما.

- ماذا يريد المهرّجان في يوم الربيع الحافل بالعمل؟! - نهض العجوز النحيل ذو اللحية البيضاء.

- ماذا جرى لك يا طاطخ؟ - قال كولس للعجوز الرقيق المتأهب للانصراف. - وأنا لا أعرف... - أسقط في يد الجار لحظة، ثم وجد حجة: - إجراء خنازيري بحاجة إلى علف...

- وهل جفّت ضروغ أمّ الجراء؟.. - قاطع عُجْبس العجوزُ الجهم المسنيد ذقنه إلى عصاه دون أن يهتز شيء في جسده العجوز طاطخ: - هؤلاء الفرسان أدبغة، وليسوا خزرًا.

- أليس ما يحزنني أنهم أدبغة؟! ألا ترى كيف يتدافعون!.. - انسل طاطخ. "لو كانت الحياة مركبة مما تريد فحسب... - قال كولس بينه وبين نفسه، وحزنه في وجهه الجامد، دون أن يتابع العجوز المنصرف، ودون أن يدينه أو يبرئه، - في الماضي، قبل الخزر، لم تكن نتكلم موازين بين الخير والشر، والأغنياء والفقراء. وبين أناسنا ظهر أمثال "نخلش" وأمثال "حقار". هؤلاء

على ما أرى لا ينوون خيراً، يبدو أنهم يتدافعون إلى بيت ردد... ولا أعرف نية حقار. كنت فرحاً لأنه صالح ردد. أما نخلش الأصهب فلا يمكن معرفة خباياه، يتغير قلبه سبع مرات في اليوم. أياكون يزور ردد ليبرئ نفسه بعدما عرف الأخير ما فعله بالتجار العرب؟ لا أظنه من هؤلاء الذين يمتلكون مثل هذا القلب... "

- هيا يا شوباش، هات لي حالاً زنار السيف من الغرفة! - نهض كولس، وتقلد سيفه، ومطّ قامته.

- لا تستعجلوا فتتركوني وراءكم! نهض بصعوبة غجبس المعتمد على عصاه، وهو ينادي من يلاحقهم: - لن أدعكم تذهبون وحدكم إلى هؤلاء المهرجين، - يلتفت دون توقّف إلى العجوز النحيل الماشي إلى يساره والشوكة على كتفيه، ثم يخاطبه دون اهتمام: - أهذا أنت يا طاطخ؟ - ما أسرع ما علقت جراء الخنازير!..

- من يهتم بالخنازير وفي القرية حركة كهذه؟ - عدت إلى البيت من أجل شوكتي وسيفي.

- هكذا إذن! - يتوقف غجبس وقد وجد حجة وإن كان يلهث، ثم يفلت منه ضيقه وهو معتمد بيديه على العصا: - يا حسرتي؛ من أين أستعيد طيش الشباب! تابع يا طاطخ، وقف إلى جانب الأمير ابن لاورستن باسمي أيضاً. وقف كولس دون استعجال بين الجمعيتين المتجاهتين، أقرب إلى الباب الذي خرج منه ردد، وقال لنخلش الأصهب المتقدم، دون اهتمام بكون حقار واقفاً إلى الجانب حتى لا تعرف أهو من بين الذين أوفدوه أم لا، يعرفه قيمته:

- الفرسان الذين يرفضون الترحل لا يحملون خبراً سعيداً ولذا أسأل عن نواياكم دون الترحيب بكم.

- يا كولس، يا زعيم الخير، جعل الله يومك مئة!.. - أوما نخلش الأصهب إيماءة احترام لكولس، - لن أستطيع إلا أن أحييك ولو لم أحيي القسوغ كلهم. ونخبرك أننا لم نأت للقتال. ولكن ما جئنا لأجله لن يستغرق الوقت الذي يستغرقه ترحلنا ولذا لن نفعل هذا. اشهد يا حقار في هذا المكان أنك غير قادر على مصارعة ردد ابن الأمير لاورستن!

- أكرر ما قلت لك مرة يا نخلش، - لم يُطرق حقار برأسه، ولم يدعهم ينتظرونه.

لم يكن ردد راضياً عن انتزاع هذا الاعتراف بالقوة من حقار وإن كان يعرف ما قاله. كان هذا الرجل الضخم المستقرّ على صهوة حصانه كاتماً مشاعره، عدوّه ولكنه قال في نفسه، رافضاً إهانته: "كان الأفضل أن يجري لك أي شيء، بل أن نتصارع، من أن يأتوك بي بهذه الطريقة. ما أشدّ ما جعلت من نفسك ممسحة لقدمي نخلش الأصهب تأتمر بكل ما يطلب منك!.." نظر ردد بطرف عينه إلى حقار وما يجري لحقار يشقّ عليه، وجعله ما خطر له يصرخ من قلبه: - الآن أفهم نية حقار!..

- كلانا يا حقار نتبادل كثيراً من الكلام، - ابتسم نخلش دون أن يلتفت، ثم عبّر حقار بصوت أقسى: - أنتظر جواب سؤالي. - لن أستطيع أن أقتل ردد بن لاورستن، - قال حقار، وحثّ الحصان لينصرف.

- هل سمعتم يا أهل مزبه وأهل مستخقه؟! - نظر نخلش الأصهب حوله، ونادى في إثر حقار: - مهلاً يا حقار، مهلاً، اسمع دون أن تعتبر نفسك مهزوماً ما سأقول لمن نقف على باب داره. إن كنت يا بن لاورستن رجلاً فسأصارعك بدلاً من حقار الذي شوّهت ظهره. لا سرّ، الجميع يسمعون. لا ألح على موعد محدد، ليس اليوم أو غداً أو بعده بالضرورة. ما تختاره أنت موعدنا.

"هل تفهم الآن يا بن لاورستن، ما يصل إليه تخاذل حقار وكذبه، وما يخطر له؟ أفلت هو مني وأرسل إليّ نخلش الأصهب للانتقام متأملاً أن يحقق ما يهدف إليه... سنرى، سنرى..." تقدّم ردد من بين صحبه مبتسماً:

- ما قلته ذات يوم لحقار أقوله لك اليوم أنت أيضاً يا نخلش: أعذك بعد أسبوع إن لم تتراجع.

- أأنا من يتراجع! - رفع نخلش الأصهب جسده عن الحصان حتى أجبر الحصان أن يباعد بين قوائمه، وهدده وهو يهز في وجهه السوط المضموم: - أنت الوحيد الذي ناداني بالأصهب على مسمع مني طوال السنوات الأربعين

التي عشَّتها بفضل آلهتنا ،ولذا، ولأن حلبة مصارعتنا ستكون مزبه، إعلمُ أُنِي سأزهِقُ روحك أُمَامَ أَهْلِ قَرِيَتِكَ. - استدار بالحصان سريعاً وقال وهو منصرف: - لا يَهِمُ إنْ كانت السماء تمطر أو تتلج، ولا الحر ولا البرد. سأكون في الموعد.

دخل العجوز غجبس لاهثاً بين الجمهور المتابع انصراف نخلش الأصهب البارز بضخامته من بين أصحابه، وأعادهم إلى وعيهم:

- ما الذي ترونه في ظهر هذا المهترج؟ هل قال لكم ما يُهينكم؟ - وغمغم دون انتظار الجواب: ربما كان قولهم: الميسِّ إذا كان ثرثاراً سقط من حصانه المخصيِّ، صحيحاً. نحن نُحرم من كل شيء. يا حسرتي من أين أُسترجع شبابي الطائش ورجولي المنفلتة! ما الخبر الذي جئت به من عند من أرسلتكم إليهم يا طاطخ؟

- لا داعي لليأس يا غجبس، الشباب قرروا أن يتصارعوا، - أجاب طاطخ المعتمد على عصا الشوكة.

- حقاً، قرروا أن يتصارعوا! - ارتفع العجوز غجبس عن العصا حين سمع سيرة المصارعة، ولم يستطع إلا أن يضيف مصلباً جسده: - يا حسرتي من أين أُسترجع شبابي الطائش ورجولي المنفلتة! ما رأيك يا كولس؟

- نعم، نعم يا غجبس، يا زعيم الخير، - كان كولس يفكر في شيء آخر، ولكنه قال من خلال لحيته غير الكثَّة: " من يتقدم في السن يتحول إلى راوي حكايات، وإن لم يُصغوا إليه حرد " - كنا شباباً في زمان ما، والشيخوخة لا تستشيرنا، ولكن...

- ليس هذا ما سألتُ عنه يا كولس، - قاطعه غجبس، - من كان يسكن مزبه حاملاً اسم غجبس، بل في منطقتنا، أقوى مني وأمهر في المصارعة؟

- نطقَت باسم هذا الرجل يا غجبس، - جواب كولس مختصر.

- هل سمعتَ يا طاطخ؟ رفع العجوز غجبس الآن عصاه ولم تعد متكأً له. - هل سمعتم أيها الشباب؟ لأجل هذا قالوا: نهاية الشيخوخة بداية الشباب. ولكن لا تقولوا عنا: العجوز ونار حجر الخفَّان سيَّان؛ لم نعش نحن أيضاً حياتنا بلا فائدة.

- هل تريد أن تقول يا كبير، يا من جعل الله يومه مئة، إنه لم يظهر في مزبه من كسر ساقك؟ نادى تراب الذي اعتاد على المناكفات من يسار ردد. وتفحص الواقفين يريد رد فعلهم؛ أ هم راضون عنه أم لا، وابتسم.

- هذا أنت يا تراب! أوهنتني ولكن لن أدعك تمسك بي. وإن ظهر في منطقتنا مثل هذا فلن أكنم عنك، ظهر من قرينتنا، وإن ليس من إقليمنا، منافسان. أحدهما لاورستن، كان قوياً بلا حدود. والآخر كولس الزعيم هذا. كان الأمير على ما أتذكر مثل ابنه ولكن لا تحكموا على كولس من عدم شهرته، كانت حركاته الخفية اللاحدودة هي التي توهني. لا أحد يأتي إلى الحياة دون عيب ما، وأنا كنتُ أجد الحيلة للوصول إلى نقاط ضعفه. أليس كذلك يا كولس؟ ولذا لا تدع هذا الجسد الهائل الذي انصرف يخدعك بمظهره. لا شيء أشد هشاشة من القوة المجنونة. وأنا وكولس سنفكر من أجلك ببعض الحركات الخفية. لا داعي لليأس.

- ولكن يا كبير، - قال مشقوه، - المهلة التي حددها لنخلش الأصهب مهلة قصيرة.

- مهلة الأسبوع ليست قصيرة في مزبه يا مشقوه، - قال كولس واحتتم مُسمِعاً ردد قلقه: - يمكن أن تشحن قوتك في يوم واحد. ولكن لا أريد بهذا أن تحدد موعداً اليوم أو غداً.

- من يهوى المصارعة يا جدنا هو نخلش الأصهب، - لم يصبر ججان، - ولذا وقع في موقف ينتحر فيه، فليفكر في نفسه وليرثها.

- لا تظنوا أن نخلش سيكون كما تريدون، - توجه كولس إلى حفيده مُفهِماً ردد، - لو لم يكن معتداً بقوته لما تصرف هكذا. ولكنه مستعجل على ما لم يتحقق له عن طريق حقار، فلا شك أن هذا الاستعجال سيدفعه إلى الخطأ. وكما قال غجبس، سنفكر في أمور أخرى. لا يجوز أن نهمل، ولا أن نقلق.

تصرف ردد طوال الأسبوع دون أي أثر للقلق في وجهه، بل تقراً فيه التغافل والاطمئنان، وكأن من سيصارع رجلاً آخر. ولم يكن يعتب على حقار الذي كان أصل المشكلة، وإنما كان يعيب عليه أنه عرض نفسه للإهانة على مرأى من أهل القرية بسبب نفاقه غير الإرادي وهُوْره. عاش ردد قبل نزاعات القرية

لا يعادي أحداً إن لم يستفزّه الآخرون. ما حلّ بوالده حُزنه، وأسُرَّ خاله مبعث همّه، يشعر بالعار لما تفعل به غارات الأعراب، - نُهبهم لهم ومقتلهم على أيديهم، ووقوعهم في الأسر، والإتاوة التي يعجزون عن دفعها، - يفكر بما تفرض عليه الإمارة ولو لم يشعر بعدُ بحلاوتها ومرارتها. بدا موضوع حقار كأنه قد انسحب إلى الظل في بداية عهد الأمير الشاب، بفطنته ووعيه واهتمامه بأمور قومه. ولكن موضوع نخلش برز اليوم على نحو أوضح. قال ردد في سرّه، وضَمَّ إليه أخاه الأصغر شوباش كمن يجزع عليه: " نوايا نخلش أوضح ولكن ما الذي يدعوه إلى العجلة؟ أهو العمر الذي يتسرب من بين أصابعه أم القوة الغاشمة؟.."

- يا كولس، آهتنا تقول إنه لا داعي للقلق، - تراب يظل يُذكّر الجمع بنفسه، ويلمّح للأمير الواقف إلى جانبه، - هؤلاء أنصار العدل، وها هو إلهنا الكبير يقول لنا وإن لم تسمعوه. ارفعوا أيديكم وابتهلوا إليه! - ابتهل الحضور متوجهين إلى الشمس رافعين الأكفّ إليها بأصوات متداخلة وباهمسات. وقال تراب حين أسبل يديه: - ليأت نخلش الأصبه للمصارعة إن شاء! قال: لن نتذرع بالمطر أو الريح. ولذا فالיום الذي سيُغرز فيه في التراب من كتفيه سيكون صحواً، وأذكّرُكم بأنّي أخبرتكم سلفاً. وأخى تراب كلامه بأننا نحن أبناء القرية، ما دمنا أحياء، ولو لم يبق غيري، والمجتمعون والقرية والذي سيصارع، كلهم تتعلق حياتهم بك؛ فلا تجزع يا أمير!

- لم يكرهنا آهتنا بعدُ، وهذا بفضلك يا إلهنا الكبير، - تطلع غجبس إلى السماء، - لا تحرّمنا من دفنك، وأنبت زرعنا، واسمح لنا بجنيّه، ولا تنسنا ولو انحدرت فغربت. ومثّر قمرَك بالزوغ علينا، ونجومك أن يُظلّلونا. ولكن يحزني أي لم أسمع، ربما لوثر في أذني، إبلاغك تراب بأن يوم المصارعة الموعود سيكون صحواً.

- لا يتعلق الأمر يا كبير بأذن حادة أو ثقيلة، - قال تراب ببرودة أعصاب، واختتم بالافتخار: - من أجل أن تشعر بما يقول آهتنا وما يفعلون، ولا عجيب في هذا، عليك أن تصبح مثل تراب.

- هذا هو؟ - حتى لو قالوا لي: سنسترد منك شيخوختك ونعيد إليك

شبابك، - سأل العجوز غجبس وهو يبتسم ويقول في سرّه - : فلا أريد البتة إن كنت سأعود مثلك. وقال وهو يتهم نفسه بارتياحه: - سنتنظر إذن ما يحدث، سنتنظر.

اكتفى كولس بالابتسام دون التعلّق بالشخصين المتجادلين. وكان تفكيره محصوراً في موعد مصارعة الأمير ردد ونخلش الأصهب، ومكانه، لا لأنه لا يثق بقوة الأمير الشاب ولا يعرفها، ولكن يمكن أن تدخل عوامل كثيرة في المسألة. ولا أحد في القسوغ لا يعرف قسوة نخلش وحُبثه وإن كان يعالج العظام. والأمير ردد، بالقياس إلى غريمه، لا تنفصل شفقتة عن قوته، عن سلامة نواياه، عن استقامته. " قال كولس: "ولكن العالم ليس مبنياً على الاستقامة وحدها. ولا يمكن". والإله الكبير الذي رفعنا أيدينا إليه قبل لحظات، يُحرّقنا ونحن نظن أنه يدفنا. ويضرنا بصواعقه، ويصرعنا بزلزله... ولأننا أبناءه ففينا إنسانيته وظلمه. ألا يكون هذا السبب في ظهور أناس صالحين، وآخرين طالحين على الأرض؟.. وتراب يستغلّ عاهته، ونخلش يتشبث بقوته الغاشمة، ومأساة ردد في إمرته. قُل لي الآن: فيم أنت حرٌّ؟ المغلوب يترجل، والغالب يركب. والمخادع يركب الجميع متسلحاً بخبثه المعتاد..."

لم يكن كولس يستطيع مقاربة أفكار تراب، غير أن الأقرب إليه هو شوباش. كان قال لردد في منتصف الليل ذاك " لم أنصت " ولكن ما سمعه لا يفارق ذهنه. لا يتحمل رؤية تراب، ومتى خطر له تجاوزه بفكره سريعاً. كان يريد أن يقول لردد: " لا يقتَرُفُ موفدٌ من الله مثل هذا العار! " ولكن كونه الأصغر، وخجله، يجبرانه أن يحافظ إلى الآن على صمته. غير أن الفتى نادراً ما يغيب عن باله المغزى من قولهم: ما يعرفه اثنان صعبٌ إخفاؤه عن الثالث... وفي اللحظة التي كان يريد أن يُفهم أخاه الكبير بنظرة امتعاض منه عدم ارتياحه من التصاق تراب به أجفله ما سمعه:

- ما الذي جعل هؤلاء الفرسان الثلاثة يعودون؟.. - سأل داور الذي هو أول من رآهم.

- الفرسان الثلاثة هم حقار وشنبه ونطاي. - ترجلوا تسبقهم شارات احترام كما لم يفعل رفاقهم.

- خاطب حقار الحضور عبّر كولس:
- رأينا طريقة انصرافنا غير لائقة فعدنا لتوديع كولس.
- من يعدّ عن الخطأ يغفر له الآلهة...
- اسكت يا تراب!.. - نهره غجيس، - أمسك لسانك في حضور الأكابر سناً. أجّبهم يا كولس بإذني.
- نعم، نعم، - وافق طاطخ الأكبر أيضاً.
- كونوا ممن سندر على تحيتهم بالأحسن، - نقدّ كولس رغبة الأسرّ منه، - لا أظن ما أعادكم هو رغبتكم في الوداع فحسب يا حقار.
- كيف لنا أن نخالف أهل القرية أيها الزعيم المبارك؟ - حنى حقار قليلاً رأسه الضخم، - ما يقلقكم يقلقنا. كان نخلش أجبرني على مرافقته ولم أتِ بإرادي.
- ورأيتم كيف أهانني بحضوركم...
- وكيف قبلت منه هذا! - لم يستطع ججان الذي ظل صامتاً إلى الآن إلا أن يلومه.
- وهل يدعُك حراً بنفسك؟ هذا الرجل يستوي لسانه وقوته. إن سمحتم لي فلي كلمة مع الأمير ردد.
- قل يا حقار! - لم يدع ردد فرصة للحضور أن يفكروا. - لا سِرّ أخفيه عن الأكابر مني والأصاغر.
- ليس ما أريد قوله سراً، بل هو علنٌ، - قال حقار الآن بمزيد من اللهفة، - ليست المهمة التي كلّفني بها نخلش سراً. كلّفني أن أخبرك مع شهود من الطرفين. وهددني إن لم أبلغك اليوم ألا أعيش غداً، وأقسم بسيفه على هذا. ولمسه بشفتيه ثلاثاً. وفي كل مرة رفعه إلى السماء وخفضه...
- وهل جفّت برك؟ تماطل في سكّب مائك؛ قل ما تريد بسرعة! - غرز طاطخ أسنان شوكته في الأرض.
- أرسلني يطلب منك ألا تدخل الساحة وقد أكلت ما يجعلك تتعرق.
- تبادل الواقفون جميعهم، كبارهم وصغارهم، النظرات. وأول من صحا هو كولس:
- قل له: ليعضّ الكلب أباه!.. - كان عليك يا حقار أن تكشف عن هذا

قبل أن تنصرف، ولكننا لا نعتب عليك لأنك تعترف بعدم حريتك في التصرف. وأوصِل شيئاً مما نرغب فيه إلى ذلك اللعبة: لا يأتينا وقد حشا بطنه باليقطين فيفضّخ نفسه.

انفجر شوباش قبل الجميع ضاحكاً، ولم يتمالك الآخرون أنفسهم.

استقبلت رامبس ردد وشوباش حين عادا إلى البيت شاحبة:

- ما المصيبة التي لاحت لنا يا ولديّ ونحن ننتظر الخير؟

- لا حاجة للقلق إن كان نخلش يثرثر.

- أنا على المسطبة، وسمعتُ كل شيء.

- يا أمنا، نحن جائعان؛ أليس كذلك يا شوباش؟

- لا أدعي غير ذلك، ولكن...

- ما هذه الـ "ولكن"؟

- قلت بالمصادفة.

- لست يا أخي من النوع الذي يتكلم دون قصد.

- لا تتجادلا، كلاكما ليس مرتاحاً اليوم. وغدائي برد، ها هو حالاً...

- لا تتواطأ يا أمنا بهذه الحجة. ما الذي لم يعجبك يا شوباش؟ أكمل ما

بدأت به، - ردد أيضاً لا يتراجع، وصوته يعلو على أخيه، - أهو قرار نخلش

بمصارعتي؟ أم عودة جماعة حقار؟

- لا هذا ولا ذاك.

- ماذا إذن؟

- فيما بعد.

- يبدو يا شوباش أنني أنا الآن من لا تثق به، - قالت رامبس التي تسكب

الطعام للأخوين مديرة ظهرها وقد اختلط جدها بمزلهما، - وأنت بصوت أشد

حزماً: - لن يأتيني، سرّاً أو علناً، خير يهدّني ما دمتما كلاكما معي

وتسانداني.

- هذا كلام حقّ يا أمنا! هل سمعت يا أخي الأصغر؟ وأنت تقول "ولكن "

و" لاحقاً " و" قلت بالمصادفة " ولا تستطيع إكمال ما بدأت. ألسنت رجلاً

فتهاب من تهديد نخلش الأصهب؟

- يا ولدي لا تستخفّ بكلام نخلش!
- من التي قالت قبل قليل إن أحداً لن يهدّها يا أمنا؟ - غمز ردد شوباش وهو يراقب أمه التي تبرد الحساء السميك¹ محرّكة إياه بملعقة خشبية عميقة في صحن كبير،، بما يعني: انظر كيف أوقعتُ أمنا في الخطأ.
- لا يُحَيَّلْ إليك يا ولدي أني أراجع بهذا عن كلامي!
- أليس الأفضل يا أمنا أن تتحلّي بالصلابة وإن لم تتراجعني؟
- لا تتناسّ يا ردد أن صلابة الأم والابن مصهورتان في روح واحدة، - مؤهت رامبس سريعاً خشونة حديثها وإن كانت تتصبّر، - إن كنتم قررتم هذا فاخرج من الحلبة رافع الرأس!
- حياك الله يا أمنا، لن أراجع!
- ولا تتناسّ أنك ابن الأمير لاورستن. كُلا، تابعا الطعام. سأقدم إليكما بعده لحماً طرياً للتحلية.
- والحساء الطيب؟ - قال شوباش.
- وكيف لا يكون الحساء المصنوع من ماء العسل طيباً! - يقرب ردد بالملعقة إلى أخيه صحن الحساء الذي أمامه. لا تتجاوز بهذه الحجة الجواب الذي أنتظره منك.
- ألم تنسَ بعدُ يا ردد؟!
- كان عليك أن تكمل ما بدأت.
- يا ولدي، لست تعرف أخاك الأكبر اليوم فحسب؛ أخبره، سيُلحّ إلى أن ينتزعه من فمك!
- بالله ليس هذا خبراً سرياً إلى هذا الحدّ! ولا يتعلق بنخلش ولا بحقار... كنت أريد ألا تصدّق ما يقول لك تراب...
- ما الذي يدفّعه إلى هذا الكلام يا أخي الصغير؟.. - ارتعب ردد وقد تذكر زيارة تراب في منتصف الليل. - هل رأيت منه أو لاحظت ما يرييك؟

¹ يجري الكلام على طعام رقيق يُصنع من دقيق الشعير أو الدُخن أو الذرة الصفراء. المعجم الأدبي. ويُفهم من السياق أنه مطبوخ بماء العسل.

- لا، - كنتم شوباش الحديث غير الواضح الذي وصله في تلك الليلة، - بل لأنه كان يقول إن الضيف الرومي يقول إن تراب يخذع الناس في موضوع الآلهة المتعددة.

- هل عرفت الآن فحسب يا ولدي أن عبدة الإله الواحد لا يحبون أصحاب الآلهة المتعددة؟

- ليس هذا ما أقصده يا نانا، بل ادّعاء تراب أن آلهتنا تكلمه.

- هذا ما تريد قوله؟.. هذا موضوع آخر... هؤلاء يتدخلون فينا بالقول وبالفعل يا ولدي.

- هل نسيت شجرتنا التي ضربتها الصاعقة؟ - تلهّف ردد أيضاً. - لا تتكلم يا أخي في مثل هذه الموضوعات، ألم تسمع آلهتنا أرسلت إلى تراب خبر صحوٍ يوم مصارعتنا؟

- سمعت تراب يقول هذا.

- هذا هو، - قال ردد يسبقه شكّه، وسأل حين أعاد التفكير: - لماذا تقول هذا؟ ألا تصدّق؟

- بلى يا ردد أصدّق، - قال شوباش لنفسه وقد ندم على فتح موضوع آلهة تراب، واضعاً في الاحتمال أن يكون تراب بجدبته يكلم الآلهة.

- سترى يا أخي الأصغر بعينيك ذاك اليوم صحواً. وسأنتصر على نخلش الأصهب.

- يا ولدي، يا ردد، من قيل له ألا يجعل من تلك الكلمة دعاية؟ - لم تستطع رامبس إلا أن تلوم ابنها الأكبر ردد، ولكن هذا لم يمنعها من أن تنظر بعين الودّ إلى الأخوين كليهما.

...

تسللت أبنار إلى الغرفة وقد بقي يوم واحد على موعد ردد ونخلش. نهض الأخوان للفتاة المتأنقة التي لم يألفوا منها مثل هذه الزيارة. أسرع شوباش فقدم إليها الكرسي، وقال ردد:

- تفضلي يا أبنار، اجلسي!

- شكراً يا ردد، لا بأس أن أبقى واقفة، - وقفت أبنار إلى جانب الصوفا

الخشبية.

- لا يجوز أن تبقي على الباب؛ اجلسي هنا، - فهم شوباش أن الاثنين اللذين معه في الغرفة لا يحتاجانه فوجد حجة للخروج من الغرفة: - الآن، حالاً سأورد الحصان الماء.

- مهلاً يا شوباش! - استعجل ردد لا يدري أين يضع كفيه الضحمتين. وأكد عليه متوسلاً بعينيه ما يعني ألا يتركهما وحدهما في الغرفة: - لم يحن بعد موعده سقي الخيل! ما أخباركم يا أبنار؟

- كل شيء على ما يرام، - احمرت وجنتا أبنار، لا هم في بيتنا إلا موضوع المصارعة غداً... أنست وأنا قلقتان... ورامبس عندنا في البيت.

- وما رأي داور؟ - سأل ردد هكذا دون هدف إذ يعرف ما في قلب صديقه. - ألا تعرف طبع داور؟ يقول: سيظهر الوضع غداً...

- يبدو أن أخاك الأكبر لا يثق فيّ، - قال ردد، وابتسم بنظرة ود، مشفقاً على ابنة الجيران، مشعراً إياها أنه يمزح فحسب. واختتم بما يوحي بعدم اكتراثه بخصمه: وهل تستحق مباراتنا كل هذا الاهتمام؟ أليس صحيحاً يا أخي الصغير؟

- طبعاً، صحيح، - ابتسم شوباش ابتسامة خفيفة كأن الأمر غير مهم. - إن كان هذا رأيكما فسيجري ما قدره الله... زرع ما سمعت أبنار بعض الأمل في خوفها، ولكنها اختتمت مع ذلك بصوت منكسر: - قيل إن من سيصارعك يتصدى لخمسمئة؛ احذر... حسناً سأعود إذن إلى بيتنا، عليّ أن أخضّ الحليب لأمي...

V

ما كان يقلق شوباش لأجله في شأن اليوم الصاحي الذي تنبأ به تراب لم يكن أقلّ مما يقلق ردد الذي وضع رأسه الثقيل على الوسادة إثر هذا اليوم الصاحب فنام.

" إن كانت الآلهة تعتبر تراب الأحذب هكذا، ويلبّون له ما يطلب منهم، - يقول شوباش منصتاً إلى أنفاس ردد المرتاحة، - فسيظهر غداً. ولو جرى

الأمر كما يتنبأ به لكان حسناً. أن يكون الجو صحوً خيراً من أن يكون ماطرًا. سينتصر ردد حتى لو كان نخلش الأذهب قوياً نافخاً صدره بقوته. وهذا رأي داور وججان ومشقوه، وهذا هو السبب في رأي كولس: إن كنت معتداً بقوتك ومهارتك فلا فرق بين صحو ومطر. ولكن إن لم يصدّق أمام القرية تنبؤ تراب بصحو هذا اليوم؟... لا أعرف وقتها... سينتهي من وراء ثرثرته... " مرة أخرى نهض شوباش حذراً واقترب من النافذة التي ينام إلى جوارها ردد ناظراً إليه بطرف عينه. وفرح ناسياً تراب: السماء ملأى بالنجوم!

نام شوباش والنجوم أمام مخيلته فغرق فجأة في النوم فرحاً بما رآه، مردداً: إن كانت الآلهة تصدق حقاً مع تراب في صحو الغد فليدعُ إليها أن ينتصر على نخلش. وحُيِّل إليه أن أحداً نبّهه دون أن يدري. والزاوية التي ينام فيها ردد وأرض الدار منيرة ولو أن الغرفة مظلمة. مرة أخرى نهض شوباش وسار على رؤوس أصابعه نحو النافذة التي يأتي منها بصيص نور: النجوم لم تنقص إن لم تزد. والقمر الممتلئ مال نحو قبة السماء، وديكهُ الفجر تتصايح بأصوات لا تزال غارقة في النوم. ويحببها طائر ليلي لا تميز أهو بوم أم غيره.

- لماذا لا تنام يا أخي الصغير؟ - أرعب صوتٌ غيرٌ منتظر قلب شوباش.

- أريد أن أعرف إن كان النهار سيأتي صاحياً، - عاد شوباش إلى وعيه.

- وما النتيجة؟

- السماء مقمرة.

- هكذا إذن!

- طبعاً! - ابتعد شوباش معتداً بكبره عن النافذة، وقال فيما هو يعود إلى النوم غير مستخفٍ بنفسه: - نحن نسخر يا ردد من تراب ولكنه غيرٌ ما نتصوره.

- هل فهمت الآن؟

- فهمتُ، - أجاب شوباش دون حماس، وبدأ على صوته دون إرادة منه شيء من الارتباب فيه.

- يبدو يا أخي الصغير، - لَمَح ردد مازحاً، - يُقْلِقُك كلام تراب أكثر من موضوعي.

- لا، ليس الأمر هكذا، - جلس شوباش غيرَ ظاهر في سواد الليل، - ألم تسمع كلام نانا حتى لو كان كلامي مدعاة للضحك؟ تراب يضحك عليكم!
- مهلاً، من قال قبل قليل إن تراب غيرُ ما نتصوره؟
- أنا... لأن ما تنبأ به بشأن اليوم الصاحي يصدّق الآن.
- وهذا هو السبب يا أخي في أننا نصغي إلى أقواله أحياناً. - وموّه شاعراً بأن صوته كان منخفضاً: - كفى، تراب يقول الكثير؛ لا تهتمّ به، نَم!
- لماذا لا يتتهل إذن إلى آهتنا أن ينصرك على نخلش الأصهب؟
- هل تعرف إن كان لم يتتهل إليها؟
- وكيف أعرف؟
- من أرسل إلينا نهارنا الصاحي إذن إن لم يتتهل؟ - سأل ردد، ثم تفكّر. - اليوم الصاحي مناسب لنخلش ولي. أفهم أنه لا مفرّ من تدابير آهتنا. ولكن لا تتخيل أني غيرُ واثق من نفسي. سيختبرون غداً القوة والصبر اللذين غرسوهما فيّ. أنا لم يكن لي عدوّ إلا أعداء بلادتي. ولولا أن نخلش جاء إلى باب دارتي واستفزّني كما كان بيننا أي عدااء. سننتظر ما يحدث غداً. وسيتفهّمنا آهتنا. ولا تدعنا نرتاب في تراب. لنعد إلى النوم. وإن عجزت يا أخي الصغير فتمّ عندي. سأصدع رأسك قليلاً.
- لا يا كبير، - تحلّى شوباش بالرجولة مع أنه كان يود الارتقاء في حضن أخيه الأكبر كما في الأيام الأولى، - سننام كما تقول نانا وأفراحنا في قلوبنا. تصبح على خير، ارتخِ يا ردد. سيجري كل شيء على ما يرام. - تظاهر شوباش بالنوم العميق حتى لا تصدرُ منه نأمة ولا زفرة. ثم تقلّب مراراً. وبعدما بقي مستلقياً مدة سأل: - هل أنت نائم يا كبير؟ - ولما لم يسمع جواباً استغرق هو الآخر في النوم.
- في هذه المرة كان ردد هو العاجز عن النوم. وكان ما قيل له بشأن نخلش وتراب أساسَ قلقه. وأفكاره التي لا حدود لها تصل إلى كثير من الموضوعات. " لماذا يتحرش بي نخلش ويتخذني عدواً؟ " كانت عيننا ردد مركبتين على العمود حامل السقف. ويتلو السؤال سؤالاً. - أفرض أن أحدنا صرّع؛ ماذا بعد؟ وصوتٌ غيرُ مألوفٍ يقطع سؤاله " - أراك ارتعبت يا بن لاورستن؟ صوتٌ من هذا؟

أقول: هو صوتُ أمنا، ولكنها قالت لي منذ مدة غير بعيدة: " اخرج من الحلبة مهما جرى، سواء انتصرت أم هُزمت، رافع الرأس ". أأكون والدنا؟.. لا أذكر أن والدي كَلمني في مثل هذا الموضوع وغيره. مهلاً، مهلاً، هذا صوتُ نخلش الأصهب أم حَقار؟ ولماذا يصيح حَقار محتتماً بنخلش؟ هؤلاء انتهيت منهم منذ مدة طويلة على زاوية إسطلب تراب... " هل تتوهم؟.. " - الصوتُ نفسه يسأله، لا شك أنه صوت نخلش، بل صوتُ ضحكته.

انقلب ردد على جنبه الأيسر والصوفا الخشبية الرقيقة تئنّ تحته. أنصت خوفاً من أن يكون أيقظ شوباش: لا صوتُ في الغرفة المظلمة هادئة. ومن النافذة يُلاحظ بصعوبة انتصار الفجر القادم رويداً رويداً على الليل. " لماذا نخلش مصرّاً على مقاتلتي؟ " - استأنف ردد أفكاره المقطوعة. - إن كان لا يجد تصريفاً لقوته فليقاتل الدبّ، والشجر، وإن رفض ففي مستحقوه وفي ششحرس وفي نَبَج، وفي غيرها، من هم أقوى مني. أقول هذا غير أن ممارسته للمصارعة لم تبدأ بي. يُروى أنه أرسل منذ اتخذ قالب الرجال إلى والدي يرغب في مصارعته ولكن لا أحد يتذكر أنه تحدّد موعد بينهما كما فعلتُ. يبدو أن طموح نخلش الأصهب في الإمارة لم يبدأ اليوم. الآن أفهم لماذا كان يعتمد مقابلي، دون أن أعرف من أين أتى، في الطرقات الجبلية، ولماذا كان يقول " العللُ أصدقُ من السرّ، لا أريد أن يراق بيننا دم بريء ". لا يتطابق ما يصوّر به نخلش نفسه في حضورنا وما يطمح إليه في سرّه. لستُ غريمه شخصياً، بل ردد بن لاورستن الذي يحمل لقب أمير القسوغ. ضحكْتُ حين لمح لي كولس بهذا قبل أيام وهو يراقب مصارعتنا، ججان وأنا. ولكن الأفضل التفكير في ما لا يُكشف لك عن حقيقته تماماً... " - نهر ردد نفسه وقد أدرك أن عقله لم يكن يصل إلى فهم ما يقال له، وما يُلمَح به إليه.

ومن جهة الجدار الآخر انقلب شوباش. وانقطع صوت الطائر الليلي القلق. والديكة تتجاوب في استقبال الفجر. وفي اللحظة نفسها انتصبت أبنار في خياله. وفكّر مستمتعاً في طريقة زيارتها البارحة. وانقلب مرة أخرى فرحاً بالخيال، حذراً. وخطرت له أبنار مرة أخرى حلوة حلوة. " يكفي كما تقول أمنا ما عشتُ من العزوبية، الخمس والعشرون سنة ليست قليلة... متى انتهينا في

الصيف من تأليف مجموعة الحراس من خمسمئة فارس، ولن أتجاوز هذا الموعد، فسأفكر في شأني في الخريف، وسُنْفِرِحَ أمنا... ". - غرق ردد في النوم وهو يسبح في هذه الأفكار العذبة.

استفاق شوباش الذي كان النور اللطيف يعبث بوجنتيه. نظر نحو ردد، ولبس دون أن يتوقف عند الغارق في نوم ثقيل وخرج من الغرفة دون أن يُصدر صوتاً للباب. وحالما تأمل الصباح الصاحي تذكر تراب بالخير. ومدّ يديه للشمس - الإله العظيم القادم من طرف الجبل، وابتهل إليه:

- يا إلهي الكبير، أشرق علينا بالخير. وانصر ردد على نخلش الأصهب!

- هل نخصمتما من النوم يا ولدي؟ - نادى رامبس التي تحمل دلو حليب خشبياً كبيراً. - أين أخوك الكبير إذن؟

- لا ترفعي صوتك يا نانا، - نزل شوباش من المسطبة مسرعاً، وأمسك حمالة الدلو مع أمه. - ردد نائم.

- إلى هذه الساعة وقد دنا وقت الظهيرة؟! - تأملت رامبس قلقه وجه الشاب، ثم أجابت على ما كانت تتوجس منه: - لا عجب أن ينام، لا بد أنه قضى ليلته متوتراً.

- لا يا نانا، لا شيء من هذا!

- هكذا؟ - سرّت فرحة دافئة على وجه رامبس، وتغيّر لونها: - أقول هذا لأنه ليس من عادته أن يتأخر في الاستيقاظ... يا مصيبيتي؛ أياكون به شيء! نظر شوباش واجماً في وجه والدته، ونظر جهة الغرفة التي ينام فيها ردد. ثم صحا وقد تذكر حديثهما الليلة:

- أما قلت لك يا نانا إنه نائم! لماذا هذه الخواطر المزعجة؟

- أليس اليوم موعد مبارزة أخيك الأكبر؟

- اليوم إن لم يُخلَف نخلش الأصهب بموعده.

- لماذا يماطل إذن كأنه نادم؟ اذهب يا ولدي وأيقظهُ!

- ما الذي تتجادلان فيه؟ - وقف ردد على المسطبة يتمطى على رجليه.

- هل أفقت يا ولدي؟ نحن مهمومان بموضوعك.

- من الذي كان يقول "لا تفكر في ما ليس من شأنك" يا أمنا؟

- والدك يا ولدي، والدك، - الأم مرتاحة لِمَا سمعت، وارتياحُها بادٍ عليها.
- يسرني أنك لم تنس هذا الكلام اليوم. هيا حيّ إلّنا الكبير، ونُخّ له بما في نفسك!

توجّه ردد إلى الشمس يغلبه الصبر واللطف، ورفع يديه، وفعل الأمر نفسه أمّه وأخوه الأصغر.

"يا ربّ، - يدعو ردد في قلبه إلى الشمس التي ترتفع إلى كبد السماء، - اشملني بعطفك اليوم أيضاً كما في الأيام السابقة، ولا ترفع عني رحمتك. واغمري برعايتك. أظنّني بقوتك وعدالتك لأنك السند الوحيد لي. ولا تدع الآلهة التي أرسلتها إلينا بعلمك تنساني. - أنت ترى، وأنت شاهدي، - أني لم أُسيء إلى أحد، ولم أخطئ معه. ولو لم يعاندني حقار لما تصرفت معه هكذا. أرسلت إليّ عبّر تراب أن رُدّ عليهم بالمثل، وعاملهم كما يعاملونك، فلم أراجع. أفكر في موضوع علاقتي بنحlush فلا أفهم. لا هو عدوّي ولا هو صديقي. ولا يحمل لي الخير في قلبه. حين اعترضت على سلوكه مع التجار العرب ردّ عليّ بأنك كنت على علم بما فعل مع أتباع غير ديننا. إن كان الأمر هكذا فلا أعرف إذن ماذا أقول... يأتي إلى بلادنا كثيرون بقصد التجارة والسياحة. فإن قتل بعضهم فما مصير الصدق والرحمة؟ اغفر لي وافهمني يا إلهي الكبير إن كنتُ على خطأ!.. ولكن لن أسامح من يسلب الناس ما ليس له. لن أخفي عنك أن نحلش الذي سيصارعني اليوم أقوى مني بكثير وإن أخفيتُ عن أمي وأخي الأصغر والفتاة التي أحبها، وأصدقائي، وانتهاء بالعجز الحكيم كولس. ازرع في الإنسانية والاستقامة والقوة. لن أستطيع التنازل لنحlush عن الإمارة التي أوثني إياها والذي الذي دفتته في أرض القسوغ فافهمني في هذا يا إلهي الكبير!.. " - أسبل ردد يديه وقد تفصّى من همّه فارتاح قلبه. وقال لشوباش الذي سبقه إلى هذا:

- هل ترى يا أخي الصغير؛ تبين أن تراب صادق... - وأضاف بسرعة كمن لا يبالي: - تعال نملأ الخزان الخشبي بماء بارد. سأروّض أعضاء حسمي وألّين مفاصله. ثم يمّ نصحنّا كولس زعيم الخير؟

- يقول إن المصارع يجب أن يدخل الحلبة بقلب وجسد نظيفين، - كان

شوباش يتبع أخاه وهو يُدَكِّرُهُ، ولكن تراب لا يفارق الذهن منسياً إياه كولس وردد.

- أسرعاً، سيبرد حساؤكما. - تنادي رامبس ولديها.

- لن أتناول هذا الصباح إلا ماء العسل، - يقول ردد إلى من وراءه.

- ورفيقك؟ هل سيصارع شوباش معك؟ - تتابع الأم ولديها دون أن تسمح للقلق أن يرتسم على وجهها.

- هذا هو؟ - يستدير ردد فيضمّ أخاه الأصغر إلى إبطه. - إن كان قادراً فلبصارع، ولكن لا يحرم نفسه من الفطور! ويسرني أن يأكل حصتي مع حصته. - وفجأة يرفع شوباش ويحمله وهو يخطب برجليه نحو البئر.

لم يُبدِ ردد قلقه مما ينتظره اليوم فيما يستحم وهو يغط رأسه الكبير وجسده الضخم في ماء الخزان. ثم ارتدى ملابسه واقفاً وراء الخزان، وشرب ماء العسل الذي جهّزته له أمه، وأطعموا شوباش مجبراً، وجّهزت الأحصنة. ولكنه لم يُطق صبراً حين اقترب الموعد:

- هل ظهر نخلش الأصهب؟ لا أسمع لهم أي أثر.

- وهل سيأتون إلينا؟ - سأل شوباش كمن لا يهتم فيما يشد حزام سرج الحصان.

- ولماذا يأتون إلينا؟ - علق ردد زمام حصانه بالمربط دليلاً على جهوزه: ليرسلوا إلي خبراً إن كان موعدنا هو ساعة قدوم الجوارح للصيد. أنا لم أقصد أحداً لمصارعته. واربط الحصان أمام الباب كي يروا استعدادنا نحن. من هؤلاء؟ - نظر ردد باتجاه الفرسان الأربعة القادمين. - اثنان منهما هما داور وججان. والآخران أظنهما موفدي نخلش الأصهب.

توقف الفرسان الأربعة على باب الدار، وترجل الأوّلان. وقال الأكبر من الاثنين الآخرين وهو على صهوة حصانه:

- اركب يا بن لاورستن إن كنت جاهزاً! لا يعرف كبيرنا تفسيراً لتأخرك.

- هل تقصدون أن الجوارح وصلت؟ - نظر ردد إلى السماء وهو يضحك في سرّه، - سنأتي بعد أن نورد خيلنا الماء.

- سننتظرك! - جزم الموفد الأسنّ.

- ولماذا تنتظرونه؟ - صاح كولس من وراء الموفدين، - ليس ردد بنُ لاورستن ممن يقودونهم من أزمة خيلهم. نَقْدُوا ما سمعتم. - قال كولس حين اختفى موفدو مستخقه وراء المنعطف: - اركب الآن يا ردد!

خرج ردد وشوباش من أرض الدار ممسكين بأعنة حصانيهما. وحين امتطيا نظرا بوجه طلق إلى رامبس الواقفة على المسطبة صامتة، وتبع الزعيم كولس.

سأل كولس بعدما مشوا مسافة:

- ما الأخبار حيث كنتم يا داور؟

- هدوء، - ولكن المحتشد من مهمومون بمن سينتصر، إلا نخلش الأصهب.

- هل تسمع يا بن لاورستن؟ - نادى كولس إلى الورا بصوت عال خلافاً لعادته. - نخلش يعد نفسه منتصراً سلفاً. ويمكن أن تتراجع عن مصارعتة. لا أسمعك تقول شيئاً يا جاري!

- ألسن يا كولس من قال: من لا يقدر قوته يصغر نفسه؟ - أجاب ردد على السؤال بسؤال.

- ربما أنا، - ولكن الحقيقة تبقى دائماً حقيقة. - لا يفتقر كولس إلى الجواب.

وسأل الأسن الواقف وسط الفرسان الثلاثة: - أليس كذلك يا عجيب؟

- نعم يا كولس، نعم، - سُرَّ العجوز المتكى على الحصان بتوجيه السؤال إليه. يقولون: الصدق عمود ثابت، والكذب مزلة. يشبهون الصدق بالعمود لأنه لا يمكن صرعه، والكذب يتهاوى مهما ركبت له من قوائم. وها أنا هل تصدقوني وأنتم تعرفون حالي إن ادّعيْتُ أنني ركبت هذا الحصان بجهد فحسب؟! يُنزلونني من ظهره على أيديهم إن لم أسقط. يا حسرتي من أين أسترجع زمان الشباب الطائش، ورجولتي الغاشمة! من غيري كان في مزبه مصارعاً عظيماً اسمه غجيس؟ بل من في منطقتنا بما فيها مستخقه؟ هل تسمع يا طاطخ؟ شباب قلبي هو من أبقاني حياً إلى اليوم. هل تسمع يا بن لاورستن؟ اليوم ركبت كرمي لوالدك وكرمي لك؛ فلا تخذلني!

تبادل الفرسان الأحداث سنّاً السائرون وراء المسنين النظرات، ولم تصدر منهم كلمة سوء، بل لم تُسمع منهم ضحكة. وردد بين ججان وداور كأنه غير ردد الذي يصحبونه للمصارعة. ومن وراءهم بقليل هو شوباش.

حين خرجوا من مزبه رأوا في سهل قُراي الذي حدوده مكاناً للقتال جمعاً كبيراً.
- وكان يأتي من الجهتين، ومن غيرهما فرسان وراجلون، نساء ورجال.
استقبلت جماعة مشقوه كولس وصحبته. وأول من أمسك زمام حصان ردد
وركابه هو تراب الذي قال مُسمِعاً شوباش:

- إلهنا الكبير تكرم علينا يا أمير بنهار جميل، ستكون أمورنا على ما يرام.
- أنت تتأخر يا بن لاورستن! - لمح نخلش المحاط بأهل مستحقوه، ورفع كتفيه
العريضتين، وخفضهما. وأدار رأسه الكبير فوق عنقه.
- ابحث في السماء، هل ترى الجوارح، - أجابه ردد.
- ماذا تقصد بهذا؟ - سأل نخلش وهو يخفض نظره.
- لأن وصولها موعداً.

- ما حاجتنا إلى الجوارح إن كنت جاهزاً يا بن لاورستن؟ - حين ألقى نخلش
فروته الذئبية الرقيقة من على ظهره بدا جذعه العاري إلى معقد الزنار. وقال من
شاهدوا هذا الجسد الضخم: "ما هذا كله!"

- مهلاً، مهلاً يا نخلش - اعترض كولس نخلش الذي يأتي مائلاً الساحة. -
ليس الأمر هكذا. نحتاج إلى شاهدين من الطرفين يعرفان في قواعد المصارعة.
أنا شاهد الأمير ردد بن لاورستن، وابحث عن شاهد من جهتك.
- يا قُدان، قف إلى جانبي! - نادى نخلش إلى وراء بكسل، فوقف إلى جانبه
رجل طويل رشيق. - وماذا الآن أيضاً يا كولس؟

- ونحتاج إلى خمسة من كل طرف لفض الاشتباك إن لزم.
- لا أعرف إن كان لابن لاورستن عيب ما، - قال نخلش مُسمِعاً ردد، - أنا
متى هجئت فلن يوقفني خمسة أشخاص. اطلب عشرة!

- أيتها الجماعة، أفرزوا عشرة من كل جانب بناء على رغبة نخلش. والآن قف
إلى جانبي يا قُدان. نُقسم أنت وأنا أمام إلهنا الكبير أن نتحلى بالعدل تجاه
مصارعينا. كرر ما أقول على مسمع من الحضور. وأنتم، العشرين شخصاً،
كرروا ما نقول.

- لا تهتم إلى هذا الحد! - احتد نخلش الأصهب نافذ الصبر.
- والآن ادخلا إلى الساحة. - يقرب كولس المتصارعين إليه غير عابئ بما طُلب

منه، - أجبيا، كلٌّ على حِدة، على مسمع من الحضور على ما سنسألكما عته. هل معك سلاح خفي يمكن أن تؤذي به غريمك يا ردد؟
- ليس معي سلاح خفي يؤذي غريمي نخلش.

- هل معك سلاح خفي يمكن أن تؤذي به غريمك يا نخلش؟

- ليس معي سلاح خفي يؤذي غريمي ردد.

- أقسمًا أمام إلهنا الكبير على أن يسود بينكما الصدق والرحمة. والآن قفا، كلٌّ في مواجهة الآخر، والقسم في قلبيكما. وابدأ متى أعطيتكما الإشارة. ولا تخرجا من الدائرة المخططة. وليس لمدة المباراة مدة معينة. أولٌ من يغرز كتفي غريمه في الأرض هو الفائز. هيا إلى المباراة! مرة أخرى أذكركما أن من يحنث بقسمه سيعاقبه إلهنا الكبير.

الآن فحسب، خلع ردد فروته الخفيفة بناء على إيعاز كولس. وأسرع شوباش فالتقطها بسرعة. والجدع الذي بدا من تحت الفروة لم يكن أصغر من جذع نخلش وإن لم يكن مكسوّاً بالشعر الكثيف. ولكنهما مختلفان عمراً ومظهراً.

"أيّ دبّ أشعث هذا الأصهب القبيح!" قال ردد لا يعرف أهو سخرية أم خوف. وضحك في قلبه. وابتسم نخلش في وجه ردد قائلاً: "هذا الشاب بالقياس إلّاي لا يزال أنفه يسيل، وجذعه بلا شعر؛ لا أعرف لماذا جاء بصارعني..." يقول ردد وهو يناور داخل الحلبة بساعديه المفتولين الغليظين الممدودين وبجسمه، لا يسمح لغريمه أن يمسك به: "لماذا يلقّبون هذا بالأصهب؟ لا أرى في وجهه إلا الشحوب كأن الدم هرب منه، وها هو أسفل أنفه وذقنه وجبينه كلها مלאى ببثور الجدري، وأذناه صغيرتان جداً"

- لماذا لا تشتبك معي يا بن لاورستن؟ ينادي نخلش من لا يسمح له بالإمساك به، وهو يخطب بقدميه. ويوافق أنصاره بكلام متدخل غير متّسق: - أخرج من الساحة إن ارتعبت!

- أمسك بي إن كنت رجلاً! - يتوقف ردد، وحين يهاجمه نخلش بذراعيه المشعرتين يتنحى الأول جانباً فيسقط نخلش على ركبتيه وصدرة غير قادر على التحكم في رأسه وجسده، فيرتمي ردد على صدر الخصم الذي يحاول النهوض، ولكن الآخر يرفعه على ظهره. ارتعب أهل مزبه، وتصايحت النسوة. وحُبل لردد

أنه سمع صوت أينار، غير أنه ليس في موقف يسمح له بالنظر في اتجاه صوتها. ويسخر منه نخلش الذي يهيجّه أهل مستحقوه:

- هل فهمت الآن يا بن لاورستن أنك لن تستطيع الإفلات مني متى أمسكت بك؟

- فهمت، إن استطعت أن تلقيني من ظهرك!

- صاح ججان من بين أصحابه: أمسك بساقيك خصره وبطنه يا ردد. اقطع عنه النّفس!

- اسكت! - ينهر قدان ججان. - لا تتدخل!

دار نخلش الأصهب عدة مرات في الساحة ممسكاً بيدي ردد، لكنه لم يستطع إلقاء من على ظهره. وحين أحس بصعوبة التنفس همس له وهو يضغط على أضراسه:

- تكسر أضلاعي!

- وأنت لا ترأف بيدي!.. - أجاب ردد. وب نظرة واحدة ميز أينار بين الجمهور.

- هذا ما وصلت إليه! - صرخ نخلش الآن بصوت أقوى على مسمع من الجميع. وقتل في أرضه كي يتخلص من الحمل على ظهره ولكنه توقف فجأة. ولما جلس على ركبتيه وأحس بارتحاء يدي ردد ورجليه انفلت نخلش منه وهو يدور على نفسه كما تفعل القطط، حتى اعتلاه. وقال له وخصلة الشعر الوحيدة تتدلى من قبة رأسه وعيناه تلتمعان: - لست بشراً إن لم أغرز كتفك في التراب والسماء شاهدي والحضور، وسأخلق خصلة الشعر الوحيدة على رأسي.

- هذه؟ - أبعد ردد عن وجهه الشعر المتناثر أمام فمه. وضمّ الكتفين اللتين سيغرزهما غريمه في الأرض، ورفع عن جسده نخلش بيديه الصلبتين، ورجليه القويتين، وبمعونة الظهر المعتمد على الأرض، ورماه عنه. وعادا كلاهما فوقفا بمشقة شديدة على الأرض.

وكما فعل ردد مع نخلش في بداية المباراة فهو الآن يدور في أرجاء الحلبة يدنو من نخلش ويبتعد. ويبدو على نخلش من دورانه ومن نظراته أن قواه تُستنزف.

وليس ردد وحده بل الحاضرون يلاحظون. قال ردد في سرّه " أظن أنه حان الآن موعد نصيحة كولس أن أضرب ركبتيه " وتوقف، وكما توقّع تزامنت هجمة نخلش الذي كان يخرج عن طوره وركلة ردد على ركبتيه فوقع نخلش على رأسه لا يعرف كيف، وهجم الآخر عليه.

عرف نخلش أنه غير قادرٍ من الإفلات من اليدين القويتين والرجلين، فتوسّل بصوت ضعيف:

- لا تُهَيِّ... أنت ما تزال شاباً...

- لا أتخلّى بتوسّلك عن الإمارة التي أورثني إياها والدي! - سَمَر رددُ بنُ لاورستن كتفي نخلش في الأرض. وشهد قُدان وكولس على النتيجة برفع أيديهما.

- اهدؤوا لحظة! ردد بن لاورستن ولده أبواه رجلاً، رجل ذو قوة عظيمة! - إن بقي له رأس فسيكون أمير القسوغ. - ملح نخلش إلى ردد من بين أصوات الحضور الفرحّة: - لا تتوقع أن أغفر لك ما فعلت بي!

- ماذا كان يقول لك هذا القبيح أيها الأمير؟ - سأل عُجْبِس العجوز الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن وقد أصبحوا على مقربة من مزبه.

- ما سمعتموه يا كبير!

- كل الناس، لا وحدي، سمعوا مديحه لك، - وأضاف عُجْبِس إلى الجواب الذي لم يقتنع به، - يُخَيِّلُ لي أنه قال لك شيئاً آخر بعدما ربت على كتفك.

- هاه، هذا ما تقصده يا عُجْبِس؟ - ماطل ردد في الجواب، ولكنه لم يكشف عنه: - قال: خدعتني.

التفت كولس لا تعرف إن كان راضياً عما سمعه أم غير راضٍ، ولاحظ شوباش أن ردد خفض رأسه بسرعة.

- الحقّ أني أتساءل، - مرة أخرى انتظر عُجْبِس قليلاً، وغمغم بينه وبين نفسه.

- وماذا سيكون يا عُجْبِس! - شهد طاطخ على الخبر الذي لا يعرفه.

- أنظر إليكم أيها الشباب فأراكم كسالى، - صاح كولس إلى الورا.

- ماذا تأخذ علينا يا زعيم الخير؟ - سأل مشقوه.

- أسرع يا شوباش واسبق هؤلاء إلى البشارة!
- لم يتحرك شوباش.
- لماذا لا تسرع؟ - استغرب ججان غفلة الصبي.
- يمكن أن أسرع إلى نانا إن أمرني الزعيم كولس، - قال شوباش معتداً، - ولكن أفضّل أن نعود معاً إذ خرجنا معاً.
- هذا الشاب مشروع رجل، أليس كذلك يا طاطخ.
- تعرفه من طريقة ركوبه يا غجبس! - مرة أخرى جزم طاطخ.
- لم يكن ردد يسمع أقوال المسنين. الماء الدافئ الذي سرى في الأعضاء أثار وجهه المرهق. وفي هذه اللحظة خطرت له أبنار كما لم يحدث في الأيام السابقة.

VI

- من هؤلاء الفرسان الذين في القرية؟ - سأل نخلش قُدانَ الداخل إلى الدار بدلاً من "تفضّل!"
- هل تقصد فرسان مزبه؟ - أجاب قُدان على السؤال بسؤال مهموماً بخاتمة السؤال، شاعراً بالمضاضة من عدم توجيه الدعوة للدخول وهي العادة الأديغية الإنسانية.
- ماذا يفعل من لم يستشيريوني؟
- يطوّعون الحراس في الجيش.
- وهل ابن لاورستن معهم؟
- لا أراه بينهم.
- يترقّع عن مثل هذا.
- "وكيف تتنازل فتفعل هذا بعدما أصبحت أميراً حقيقياً للقسوغ... - أجاب نخلش بنفسه على ما قاله تُحرقه الغيرة والحقد. وأمام عينيه تثبت خصمه كنفه على الأرض، وابتسامة الخصم المنتصر على صدره. ولكنه استطاع أن يكتّم تنهيدة القهر التي همّت أن تنتفض من الجسم. - أخطأتُ ظناً مني بأنه لا يزال غضباً أثنيه كما أشاء. ولماذا توسّلت إليه بعدما صرّحت تحتّه وانتهى الأمر؟!"

الإمارة التي أورثني إياها والدي لا أتخلّى عنها بالتوسل... "لساني عاد عليّ بما أستحق... ولكن لن أتركك قبل أن أزرعه في فمك!.."

- ماذا سنفعل يا نخلش بالضيوف الذين لم يُدعوا؟ - سأل قُدان شاعراً بطول الفاصل بين أقوالهما.

- أنظر إليك يا قُدان، - يقول له نخلش وهو يخرج من تداعياته وكأن لا شيء يدعوه إلى العجلة، - فأراك عسير الفهم وإن كنت رجلاً فطناً جداً. ألم تفهم يا قُدان أيّ قلْدتُ ردد ابن لاورستن إمارة القسوغ؟ ألم تكن حاضراً يوم بايعته أمام القرية؟! ثم تسألني ماذا سنتصرف نحو من لهم السيادة!.. - وكيف لي أن أعرف!

- ما الذي لا تعرفه؟! - غضب نخلش، - لا تتراجع عما تقول! لست وحدك من يحترمني، ابتسم بعدما قاطعه بقليل، ثم يقول بنبرة ألطف: - ليس صاحب الملك من رشحوه للسيادة، بل من يتصرفون بالملك ويديرون السلطة هم الذين رشحوه ويقفون وراءه. هل فهمت الآن؟ - اختتم نخلش الموقف بضحكة من أعماقه يُثبت بها فطنته.

- سأقول لك متى فهمتُ كلامك يا نخلش.

- متى؟ - تلهّف نخلش على ما سيسمع وقد تغير لونه وارتخى صوته.

- حين نهضت من ساحة المصارعة، وبدأت تمتدح ردد، ابن لاورستن.

- قل إذن: حين رشّحته للإمارة. - أصلح التعبير.

- نعم طبعاً حين صرت ترشحه للإمارة. صحيح ما يقال من أن المغلوب لا يشبع من المصارعة. وفيما يقول قُدان: كيف يتصرف هذا، شهد على ما قيل له، ونظر في عينيه يريد أن يقول له: لا تنسَ فيمَ أنا بريء معك وفيمَ أنا مذنب!

- ولكن هذا لا يعني أن تصبح ممسحة لرجلي ابن لاورستن، إن لم يفهم معروفنا وصدقنا ولم ينقذ ما نريد فلن نتوقف عند إمرته. إن كانت المشكلة في الخزر فأنت خبير بهم. وبالقياس إلى تيمرقوه الغبي فأنت أمضيت سنوات طويلاً في أسْرهم. يغيّرون سلاطينهم بالحسنى وبالعنف مراراً. ويقال إن هذه عادة الروسيغ الذين يستضعفوننا. الحقّ يا قُدان كم سنة بقيت في أسْر الخزر؟

- أسروني وأنا في الخامسة والعشرين وحررتي منهم الروسيج وأنا في الرابعة والثلاثين. احسبها: تسع سنوات!
- ليست مدة قليلة: كان أصدقاؤك والقرية كلها يعدّونك ضعتَ في مكان ما. حسناً فعلتَ إذ لم تنضم إلى الروسيج كما فعل قانشاو خال ردد.
- وماذا كنت سأفعل عندهم، كان قلبي في نواحيننا.
- هذا بديهي، - وافقه، وبعد سكتة قصيرة قال ما لا علاقة له بشيء: - يبدو أنك كنت في عمر ردد حين أُسرت... - وسأل فجأة مموهاً ما خرج من فمه: - أين موفدوه؟ عند مَنْ توقفوا؟
- عند تيمرقوه، مضيفهم.
- وهل هم كثيرون؟
- ستة فرسان.
- ومن هم؟
- مشقوه، داور، جيجان، أدشس، شوباش.
- ومن هو أدشس؟ - لم يدعّه يكمل الأسماء.
- من الشباب، من عمر شوباش.
- ومن السادس؟
- سأخبرك ولكنك ستتعجب.
- قل، ماذا بقي الآن لا يدعو للعجب؟
- السادس نطاي.
- هكذا! - نصّ نخلش برأسه، وأنهى بسرعة باسمًا: - ما كنت لأستغرب حتى لو قلت لي: هو حقار... وماذا يريد نطاي؟ كان الأفضل له لو استطاع إرضاء زوجته السابقة دكابس ذات الردفين المدوّرين المنفلتين... يقال إن من يشتهيها يعرّج عليها. وأنا كان الأفضل ألا أحرّم نفسي منها... هي... لا أعرف كيف أروي لك دون أن أعرف حقيقتها... ألم تسمع أن ابن لاورستن، الأمير العازب، مهتمّ بها؟
- لم أسمع مثل هذا، - صبر قدان بصعوبة على الحديث الذي لا يعجبه، وقال لا يعرف السبب في التباين بين ما يُلمّح به وبين ما يرغب فيه: لماذا لا يترك

ردد إلى الآن؟ - ولكني سمعتُ أنه سيتزوج في الخريف.

- وماذا سيفعل بها؟ أما رويت لك خبر الردفين المدوّرين السهل بلوغهما؟ اللهم إلا أن تسبب تلك الأرملة المرائية سوء تفاهُم بينه وبين حقار... هذان الرجلان البالغان ليسا مشكلة. هل يفضحان نفسيهما إن تخاصما مرة من أجل طرف ثوبها المرفوع؟ سيتصالحان بأسرع مما تصالحا حين تقاتلا. غير أنني لا أعرف ماذا سيفعلان بالثالث، الأحذب؟ - عرّض نخلش بمحدّثه وهو يضحك تعليقاً على ما قاله: - أراك لا تسأل عن اسم من أحلّثك عنه! ألم تسمع به أيضاً؟

- أنت نطقت اسمه يا نخلش! - رسم قدان ضحكة على وجهه.

- صحيح ولكني أريد أن أسمع من فمك. هل تخاف من تراب الأحذب؟

- وهل أخاف من تراب؟!

- من يعرف؟ هذا الأحذب جعل من نفسه موفداً لله بين القسوغ... ثم هل تعرف يا قدان ما هو المضحك، ما هو أعجب العجائب؟ يقولون إن تراب الأحذب دعا إلى الآلهة أن ينصر ابن لاورستن عليّ فانتصر!.. وكيف ينصره عليّ يا مبارك النسل في حين أنني أنا من استسلم بإرادته للأمرير الشاب؟! صرخ نخلش وعيناه تنوهجان مصداً كذبهته، وسأل: - هل تتذكر يا قدان ماذا قلت له حين زلقتُ نفسي بنفسي فسمحت له أن يوقعني أرضاً؟

- أنتما تبادلتما المواقع بضع مرات يا نخلش فلا أتذكر أيّ موقف منها. - لم يشأ قدان التصريح بطرف الموضوع الذي يريده نخلش.

- لا أستطيع أن أقول إن ابن لاورستن صرعتني بضع مرات! - احتدّ نخلش للحظة، ثم قرب السؤال إليه بنبرة صارمة: - انتبه: أتكلم على آخر مرة سمحت له أن يعلوني. كنت قلت له: ثبّت كتفيّ دون استعجال وعلى مرأى من الجميع!.. ألا تتذكر؟ على مهلك، فكّر جيداً تتذكّر!

__ أتذكر أنك كنت تقول له شيئاً...

- نعم، هذا هو... وكيف لا تتذكر؟ ألم تكونا، كولس وأنت، جالسين على الركب لحظة قلتُ له؟! ماذا تتوقع سبب امتداحي له أمام الجميع حين نهضنا؟ - هذا حُسْنُ تصرّفٍ منك يا نخلش. وإلى الآن يعدّونه شهامة منك ورجولة.

- هل تظن إذن أننا نعيش دون فائدة!
- لن أعتقد هذا أبداً، - قال فُدان، وغيرَ الموضوع سريعاً: - أستغرب غياب تراب عن موفدي الأمير ردد.
- لأنهم كرهوه! - بدا على نخلش جفاؤه نحوه، وسأل عما كان يشغل باله: - كنت سمعتهم يتكلمون في مزبه على صبيتين؛ على مَنْ منهما سيرسو اختيار ابن لاورستن في الخريف؟
- بعضهم يتوقع أن تكون أبنار أخت داور، وبعضهم آنست أخت مشقوه. لا أعرف أيًا منهما... متى كنت أميراً فقد تظهر فتاة أخرى.
- لا تتوقع ألا تزيج فتاة الثالثة سابقتها كما تنازلتُ له عن الإمارة... - قال نخلش وهو يضحك في سرّه: " ستجري أمور كثيرة إلى الخريف، وقد يرى الفتاتين أو لا يراها، " وتابع: - الحقّ يا فُدان لماذا لا نتحرك؟ تعال نقابل ضيوفنا، ونسمع ما يقولون. وإن احتاجونا صرنا لهم سبب رهبة. هيا اركب دون تأخّر.
- لم يكن الظهر قد حان حين ركب نخلش وصاحبه. ليس اليوم الربيعي المتأخر سيئاً لولا أن الريح الباردة كانت تقتحم مستحقوه، فتسلل إلى ما تحت الإسطبلات عبر ثقب جدرانها، وتتناثر في الريف القريب بعد أن تنحدر من القمم الثلجية، فتصدم حواف الصخور، فتتعثّر ثم تنهض طائرةً فوق الغابات. وحصان نخلش يجهد ليحمل راكبه الجسيم، وهو الذي يكاد ظهره يتسع لراكبه، فيحمله بمشقة، وقدان السائر إلى يساره، والذي يكاد يطير بظهره المنتصب وكفيه الرفيعتين، يساير الحصان الآخر الذي يكاد يتداعى.
- ما كنت أريد مقابلة هذا القادم نحونا، - كان نخلش يريد أن يوقف حصانه وإن لم يفعل، - صرنا وجهاً لوجه مع أشد المسنين ثثرة ورياءً. دُعنا نترجل احتراماً له وإلا فضحنا في القرية.
- نهارك سعيدٌ يا بشماف، - ترجل نخلش، وفعل قدان مثله.
- رافقتكم السلامة في طريقكم! - ردّ العجوز على ترحيبهم خافضاً شوكته إلى الأرض، - لو عرفْتُ أننا سنتقابل لركبت أنا أيضاً كي لا تترجلا. ولكني أنزل شوكتي من على كتفي احتراماً لكما. ولولا أن الشوكة معي لأسبلت يديّ إلى

جانب خصري. اركبا، اركبا، هذه روح أديغية فيكما ورجولة. عبّرنا عن احترامكما لي ولشيخوختي. أنتم، إن لم أخطئ، ذاهبان إلى تيمرقوه. حسناً، حسناً، وأنا قادمٌ من عنده.

- ما الأخبار يا زعيم الخير حيث كنت؟ - سأل نخلش.

- لا شيء مهم. رجوتهم أن يضموني إلى جيش حراس الأمير ردد ولكنهم رفضوني مهما توسلت بحجة أي عجز.

- أنت العجوز؟! - سال قدان متعجباً راجباً في التودد إليه.

- يقولون يا ولدي إنه أنا، - ابتسم بشماف. - لو كان ما سألت عنه يستشيرك في قدمه... أنت حقاً شابٌ بالقياس إليّ يا قدان ولكن أترابي لن يقبلوا منك هذا، ولا أنا. ما رأيك أنت يا نخلش؟

- هذا يتبع ما يقول لك قلبك يا بشماف، - ابتسم مغمغماً في نفسه: من أجل هذا لم أكن أحب الالتقاء بهذا العجوز.

- وهل كنت أسألك يا نخلش لو لم أكن شاباً في قلبي!.. إن شئت فسنلعب لعبة الاختطاف من السرج، وترى إن لم أختطفك منه!

- هل تسمع يا قدان ما يقول بشماف الذي ندعو له أن يصبح يومه مئة!

- نعم، هذا ما أقول، - أكد بشماف مرة أخرى، ولكنه أضاف: - سأختطفك من السرج وإن كنت لا أستطيع الاحتفاظ بك بين يديّ.

- يا بشماف، يا زعيم الخير، - ضحك نخلش، - ليس من عاديّ مجادلة الأكابر سنّاً، ولكن لا تتأمل مني أن أكرّمك فأتنازل لك مثل ما فعلتُ مع ردد، ابن لاورستن، أليس شاباً بعدُ! أنا موافق على اللعبة، أعطه حصانك يا قُدان!

- لا، لا. لماذا أستعير حصان قدان وحصاني في داري؟! في مثل هذه المباراة كلّ الحصان الذي اعتاد عليه يا نخلش. هيا يا قُدان هات لي حصاني! اللهم إن لم يتراجع نخلش.

- لا تتحدث عن تراجعٍ إن كنت أنت من توعّدي باختطافي من ظهر حصاني.

- حسناً يا نخلش، إن وافقت فلي عند رجاء.

- هات، أسمعك يا زعيم الخير.

- لا حاجة لأن ينتشر الخبر. سننحدر إلى المساحة الخالية تلك وقدان شاهِدُنَا... جاري جباغ معتاد أن يستوقف الفرسان والراجلة؛ فإن قابلته يا قدان بالمصادفة فأخبره أننا سنعود حالاً وطمئنُه. وفي بيتنا عجوز نحس كعجائز الحكايات القبيحات طويلات الأسنان، تتلقت الأخبار، دائمة القلق، فإن صدف أن رأيتها على المسطبة فقل لها ما ستقول لجباغ. اجث لها عن أي حجة تطمئنُها على عودتي وستفرح كأنها عادت صبية تبحت عن عريس. عاد قدان بالحصان.

- أحسنْتُ اليوم إلى حصاني الأغر، - يخاطب بشماف حصانه وهو يمسح على جبينه، ويحدّق في عينيه، - أليس كذلك يا صديقي العتيق؟ نخلش يتوعد باختطافي من على صهوتك فلا تخذلي! حسناً، حسناً، فهمتُ. هيا يا قدان، أمسك بزمام حصاني وساعدني على الركوب. كنا، والدك وأنا، صديقين حميمين جداً. لولا الخزر الذين تودي بهم الكوليرا إن شاء الآلهة لعاش في القرية واحداً من رجالنا العقلاء الحكماء، وكان رائدنا. تعالوا يا أولادي إن كنتم رجالاً إلى هذا الحدّ، قفا على يميني ويساري حسب عمريكما، - لم يملك العجوز إلا أن يذكّرهما وإن كانوا ركبوا حسب العادات الأديغية.

"صحيح أن نخلش يسميه: بشماف الثرثار - يلتفت قدان إلى من يقف على يمينه، - ولكن من حسن حظنا أن عندنا أمثال هؤلاء العجائز. يحموننا ويحولون بيننا وبين الخطأ. ويحرضوننا على أن يحرص بعضنا على بعض. هل صدّق نخلش مزحة من هو في عمر والده واندفع لمبارزته؟ وكيف سيحمل بشماف هذا الرجل الضخم من على سرج حصانه؟ سأستغرب حتى لو رأيت نخلش يفعل ذلك. وأظنه سيحرص على سلامته فيوصله إلى الأرض بعناية. ولكن لو حمل نخلش من سرج حصانه لأذى هذا الرجل الضخم إن سقط منه... ونخلش سريع الانفعال ولولا خفة طبعه لما اصطحب العجوز إلى ساحة المباراة بكل حماسة!.. هذان يجب البحث عن ذريعة لإبطال مباراتهما وإلا جلبنا لأنفسنا، كلنا، العار. أنا لن أفصح السرّ، ولكننا سنكون موضع ذمّ من يسمعون الحكاية لاحقاً. وسيكون العجوز بشماف موضع انتقاد إذ يتعلق بمن

ليسا في عمره.

- هل تفهمان أيها الشبابان معنى ترتيب أحصنتنا؟ سأل بشماف متماسكاً على الحصان بقامته غير اللينة وغير القاسية، ولم ينتظر الجواب. - تعرفان، تعرفان، وإلا لما وقفتما إلى جانبيّ مقدّرين قيمتكما، ولافتين أنظار من يرونا. وهذا ما ربّانا عليه كبارنا. وعلاقتنا هي مَنْ حمتنا من الخزر ومن غيرهم. هيا يا قُدان استطلع المكان، هل تريان ما يحدث الآن. حين أُرسِل الأصغر حسب ما تقتضيه مكانته نبقي أنت وأنا يا نخلش في الترتيب الطبيعي لعمريّنا. أنا على اليمين وأنت على اليسار. متى تناسينا جذور العلاقات الاجتماعية بين الأديغة دُبنا بين الأقوام الأخرى الكبيرة.

- تنطق بأمر مهمّة جداً يا بشماف. وأضيفُ لغتنا إلى ما قلت.

- من يخبرك بشأن اللغة هم أمثال قدان الذين ظلوا مدة طويلة في الأسر.

- لا أسهل من أن تنسى لغتك حين تبتعد عنها، - وافق قدان العجوز. - حين تكفُّ عن التحدث بها فإنك تُعلّق على اللسان تماماً، ويعتاد على اللغات الأخرى فتقضي على لغتك الأمّ.

- كيف لم تنس لغتك إذن؟ - سأل نخلش بنبرة ريبة غير متحمس لما يسمع.

- كنت أكلّم نفسي بلغتي بعد أن أتحدث بلغة الخزر.

- وهل تعرف لغة الخزر؟ قاطع نخلش قُدان.

- نعم أتكلّم بها، وألّم بلغة الروسيّج.

- ما أسمععه عجيب... - صاح نخلش من تحت شاربيه، ولم يملك إلا أن يتمتم باسمًا.

- هذا ما يجعلني أقول ما أقوله يا نخلش، - أنهى العجوز بشماف الحديث.

وفرّح حين وصلوا إلى المكان المحدد: أليست فسحة جميلة أيها الشباب؟

- بل تتجاوز الجمال، - وافقه نخلش اعتباطاً، " غريب، هذا العجوز يبدو

حكيمًا جدًّا ومجنونًا. ما أشدّ ما علق بي وهو يعرف أنه لا يكافئني قوة. عليّ

أن أصرفه بطريقة ما؛ وإلا تسببت في العار لنفسي. وهذا الذي أصرّ على عدم

نسيان لغته الأديغية يتصام كأنه قيّد لسانه. كيف أتصرف مع هذا العجوز

المنحوس... - سننهي تنافُسنا يا بشماف، يا من جعل الله يومه

مئة، والفسحة الجميلة شاهدتنا.

- كيف ننهي هذه البساطة؟ - سأل بشماف يغلبيه العتاب الساخر. - هل ارتعبت؟

- لستُ ممن يأخذون عنه مثل هذا الانطباع يا زعيم الخير.

- ماذا إذن؟

__ ألا تقول شيئاً يا قُدان! لماذا ملأت فمك ماء؟ - استعجل نخلش و هزله يخالط جدّه.

- ما يريد نخلش أن يقوله يا بشماف، - ابتسم قدان أيضاً، - هو أننا لا نتكافأ وزناً وحجماً.

- نعم، نعم يا زعيم الخير، ما قاله قدان صحيح، عبّر عما في قلبي.

- على رأيك يا نخلش لا يُعلّق دلوان غير متساويين على عصاً واحدة؛ صحيح؟ لا تتراجع إن كنت رجلاً!

- إن كان هذا رأيك يا زعيم الخير فأنا جاهز، - رفع نخلش الأصهب جسده الهائل عن الحصان مُظهِراً احترامه للعجوز ورغبته في تخوفه. واختتم بمزحة: - إن خطفتك أنا عن السرج أوصلتُ قدميك إلى الأرض بطريقة ما، ولكن، من يعرف، أنا مهموم بطريقة إيصالك لي إلى الأرض إن اختطفتني أنت. ما قولك يا قدان؟

- عرفت ما في قلبي يا نخلش، أنا أيضاً مهموم بالأمر نفسه.

- بريك يا بشماف، يا زعيم الخير، لا تُهَيّ! نجونا من كثير من أمثال هذه المواقف. لا بأس، سنجد طريقة ما. هل ننتقل معاً أم تسبقني؟

- يا نخلش، - ابتسم العجوز، - هذه المواقف لا فرق فيها بين كبير وصغير. وانس أيضاً عادة الوقوف إلى اليمين أو اليسار. موقفنا مثل السيف؛ من يمتشقهُ أولاً ينتصر! أراك أنت وحصانك أثقل منا فانطلق أنت، وأنا ألحق بكما!

انطلق نخلش مُطِيقاً على ظهر الحصان. وبعده بقليل انطلق العجوز بشماف، ولحق به بعد مسافة قصيرة. وأسرع فاقترب من نخلش بعدما وجّه الحصان يميناً ويساراً ممّوهاً على الجهة التي سيهجم منها على غريمه. تماسكا، وتجادبا. خيل

لقدان وهلة أن بشماف يرتفع عن ظهر الحصان، ولكن، ودون أن يعرف الطريقة، انفلت نخلش من ظهر الحصان الذي مال، وسقط على الأرض لا تسعه ذراعا العجوز.

- ما هذا يا إلهي؟! - نظر نخلش القاعد لا يعرف ما جرى له إلى قُدان، غير واعٍ ما حدث. - اختطفني من السرج في طرفة عين!

- لماذا لا تنهض يا نخلش؟ - سأل بشماف الذي أطلَّ وزماما الحصانين بين يديه وكأنَّ لم يحدث شيء. ثم بدا قلقه: هل أُصِبت بكسر ما؟

- إصبع رجلي الصغيرة فقدت الإحساس... - لم يُخَفِ نخلش ألمه، ولكنه عاد إلى وعيه بسرعة: - عندك يا زعيم الخير قوة خفية لم أتوقعها منك قط.

- هذه المباراة يا نخلش، وأنت يا قدان، - ضحك العجوز بشماف ثانية، - لا تحتاج إلى قوة كبيرة. إن كنت ماهراً، وغريمك ليس مقيّداً إلى الحصان فسهل جداً اختطافه مع الجري. تراقب أولاً طريقة جري حصان الغريم فتختار الجهة التي تهاجمه منها. وتتنبأ بطريقة تعاوُر قوائمه، ثم توثِّق على لحظة التبدُّيل هذه، فينقذ الفارس من تلقاء نفسه حتى إن الرِّكاب لا يمسكه. هذا ما جرى لك يا نخلش. هيا اخلع الحذاء ودعني أرى إصبع رجلك. هذه هي؟ هل تؤلمك؟ أظنها انخلعت؟ افرح يا نخلش إذ لم يحدث لك غيرُ هذا! أمسيك ساق صاحبك يا قُدان بقوة، - نثر العجوز إصبع نخلش ففرقت، وعاد المفصل إلى مكانه.

- حسناً، كم أرحمني يا بشماف يا زعيم الخير! - نهض نخلش كأنَّ لم يحدث له شيء، ونظر إلى الحصان بلا إرادة منه. وكشف عما كان يقلقه أكثر من الإصبع الموضوعة: - عندي رجاء لك يا زعيم الخير، يا من يومه مئة يوم، وأنت أيضاً يا قُدان: لا أريد أن يعرف أحد بسقوطي من ظهر الحصان. لتبق المسألة التي بدأت بيننا على أنها نوع من المزاح نوعاً من المزاح.

- ما هذا الذي تتكلم عليه يا نخلش! - شعر العجوز بشيء من الغضاظة مما قيل له وهو يركب، ولم يملك إلا أن يصارحه بما كان يُكنّهُ: - إذا كنت صارعتَ أمير القسوغ ردد، ابن لاورستن، علناً أمام القرية فهل تظن هذه الفسحة، هي نفسها ساحة تلك المصارعة؟.. السماء شاهدتنا على أننا لن نتوجه بالكلام إلى أحد. ثم أمّا قلتُ لك إنها ليست مسألة مهمة تستحق

الحديث عنها... لتعيش حياتك على صهوة الحصان يا نخلش! لم أتوقع البتة أنك تجهل هذا النوع من المباريات. وأنا ندمت على سلوكي الصبياني.

- ونحن ما كنا نجهل عدم افتقارك إلى الرجولة يا بشماف، - بدأ نخلش الأصهب مناوراً من بعيد، - كثيراً ما سمعنا سيرتك بالخير. ولكن طريقي في مصارعة الأمير ردد بن لاورستن، وها هو قدان شاهدي، فيها شيء خفي ولذا أكشف لك عنها بنفسي: رأيت أمير القسوغ شاباً جداً، وفي بداية تفتُّح حظه من الحياة، فقررت ألا أهينه أمام القسوغ كلهم، فاستسلمت له. وستسمع ردد نفسه يُخبرك به يوماً ما متى تثبتت إمرته. لا، لا يا زعيم الخير، - أنهى نخلش بالمزاح مدركاً أنه ذهب إلى أبعد مما ينبغي، - لا، ليس الأمر هكذا، الصدق يجب أن يبقى صدقاً دائماً. - أنت سحبتي من السرج في غمضة عين دون أن أدري ما حدث. - لا تتصور الأمر بيننا هكذا، لم أستسلم لك أنت. الحقيقة يجب أن تبقى دائماً حقيقة. سحبتي من فوق الحصان برقة عين دون أن أعرف ما جرى... غير أنك لم تستطع الاحتفاظ بي بين يديك...

- لا بأس هكذا... - التفت العجوز نحو قدان بنظرة حُبٍ. وحمل ما قيل له بشأن ردد على محمل الهزل. وعادوا معاً من القرية كما خرجوا. وكما يفعل الأصاغر مع الأكابر شيعا العجوز إلى بيته وإن لم يقبلا دعوته إياهما إلى الدخول.

كان نخلش يسير إلى يمين قدان حتى لتكادُ ركاباهما تتلامسان، ولكنه كان نسي رفقته وقفز قلبه إلى قُراري حلبة المصارعة، وإلى ساحة المباراة مع العجوز. وكان قدان يستغرب سلوك نخلش الذي اتخذ صديقاً منذ عاد من الأسر: حياته وحيداً، وطباعه، قسوته التي بلا حدود، ورحمته المفاجئة، إلى ضحكته، ومشيته، وطريقة ركوبه، وغضبه، وعودته إلى طبيعته، دون أن يعرف تفسيراً لشيء منها. وإذا كان يجد تفسيراً لبعضها فإن ما لم يجد له أي تفسير هو حياته وحيداً.

"هو أكبر مني ببضع سنوات، قال قدان في نفسه، - ويعيش منذ أعرفه على هذه الحال. حكمت أنه لم يفكر في أسرة طوال السنوات التسع التي غيَّبها عن مستخقوه، ولكنه لم يحسّ بشيء نحو النساء. ثم يسخر مني بشأن أرملة نطاي

التي تعيش وحدها. ولكنه بالقياس إلى بعض الرجال المتزوجين نظيف نظافة مطلقة، لا أعرف إن كان السبب كونه طبيب عظام، وحين تصافحه يُخرج منديله المغسول حديثاً من جيبه خفية فيمسحها. وما كان أشد عنايته بنفض ثيابه حين نخض أمام بشماف العجوز... "

- ما الذي جرى لك يا قُدان؟ لماذا لجمتَ حصانك؟ - سأل نخلش من صهوة جواده وكأنه غيرُ الذي أُسقط من صهوته.

- حصانانا يسيران متوافقين يا نخلش فلا أعرف سبب ملاحظتك، - وقدان أيضاً خرج من أفكاره.

- أقول ربما لا تعرف أي صالحتُ تيمرقوه؛ من يدري!

- وهل تعاديتما؟

- حدث مثلُ هذا... - بدأ يستضيف الروم أتباع الإله الواحد فخاشته في الكلام قليلاً.

- والآن، هل كَفُوا عن زياراتهم له؟

- لا، لم يكفُوا، ولكن لم نعد نخلق مشكلة من هذا. ألا تعرف يا صديقي العزيز كيف كنا نحن؟ حين يطاءً ضيفٌ مسطبة بيتنا لا نميز أحداً من غيره. نعيش، كما يقول بشماف الثرثار، على العادات التي ورثنا إياها كبارنا.

- كنت تتحدث اليوم يا نخلش على نحو مهذَّب مع من تسميه بالثرثار.

- هل تقصد بشماف؟ - تظاهر نخلش الأصبه بأنه يسأل، وموه كلامه: - لا أعتب على هذا العجوز. هو يقول ما عليه، ونحن نفعل ما علينا. والعرب من هناك يدعون إلى الإسلام. لا أعرف ماذا ينوي آلهتنا بحِقْنَا... لماذا نهتم بهؤلاء يا قُدان؟ صار عندنا أمير جديد فليَهِتَم ردد بن لاورستن بهذه الأمور. وهل استسلمتُ له دون جدوى!.. أنت وأنا بلا أعداء، ولكن أعداءنا بلا جدال هم من يعادون من نصّبناه، نحن القسوغ، أميراً علينا. تعال، موفدوه جالسون في فناء تيمرقوه. سنلقي عليهم التحية، ونسألهم عما لا نعرف، ونعرفهم ما لا يعرفون.

"هذا الرجل النحيف الظهر اتخذته صديقاً وسميراً، ولكن " - قال نخلش، - لا أظنه جديراً بالثقة. لا اعترض لديه حين أطلب منه مرافقتي، يرافقتي. ويصغي

إليّ وهو يهز رأسه الطويل، ولكنه يقول رأيّه هو في الوقت الذي يؤيّدني فيه، ويحاول أن يحملي على فِعلِهِ. يتغلغل فيّ خِفيّةً. ويلتف على عنقي دون عناد. من حُسن حظي أنّي لم أتخذهُ مرافقاً حين سطوّت على التجار العرب... ولو رافقني لتركته في ذلك المكان كالرجال الثلاثة الآخرين غير الموثوقين الذين تعلّقوا بي يظنّ الناس أنّهم قتلوه. إنّ لم يثق بي فمصيروه واضح... ولكي سأظل أراقبه وأنتظر..."

- قدان، يا صديقي العزيز، - انتشل نخلش نفسه من أفكاره، - ألم أتصرف على نحو صحيح مع الأمير ردد؟ لن ينساه طوال عمره. أقصد عدم منافسته في الإمرة.

- هذا ما تريده! - قال قدان اعتباطاً وذهنه في مكان آخر.
- ماذا سيكون غيره! - تصبّر نخلش واكتفى بعتاب ناعم وإن كان احتدّ لعدم تأييده من صاحبه، - كأنك نسيت بسرعة ما كنتَ شاهداً عليه!
- نحبيكم يا ضيوفنا، - حيا نخلش بوجه طلق من نخضوا لهما، - وردّ عليهما مشقوه التحية باسم رفاقه. - تفضلوا واجلسوا. لا نريد مقاطعة أشغالكم، ولكننا، صديقي الطيب قدان وأنا، لا يمكننا إلا أن نبلغكم عتبنا. الضيوف ضيوف ولكنك أنت المضيف، وأنت الكبير يا تيمرقوه، لم تبلّغنا. لسنا ممن يتنكّرون لمستحقّوه، دعنا من القسوغ، ولن تقبلوا أنتم ممن يقولون: لسنا منهم، ولا نحن نقبل. انتظرناكم وانتظرناكم، ثم تأبّطنا الإهانة وجئناكم من أجل ألا تقولوا: الضيف في غير وقته غير مرحّب به.

- حسب العادات الأديغية، حتى لو كان المضيف يخدم الضيف يا نخلش، يا من جعل الله يومه مئة، - قال مشقوه والفرح بادٍ على محياه وفي عينيه، - لن نسمح بأن يقول مضيفنا تيمرقوه: اختطفوا المضيف وبقي الضيف. كان أرسل وراءك فارساً قبل أن نجد الوقت للترجل.

- هكذا؟ - ابتسم نخلش مغتبطاً بما قيل له، - لا بأس إذن. نحن كنا في زيارة خاطفة إلى مكان ما... حسناً ليست هذه مشكلة. ما الأخبار في نواحيكم؟ أليس أميرنا القسوغ بخير وبصحة جيدة؟ يسرّني جداً أنه يؤلف جيشاً للقسوغ. كنت أخبرتك حين تصارعنا أنه جدير بالإمارة. هل سنعيش متفرقين وكل قرية

منطوية على نفسها، وكلُّ يقول ويفعل ما يخطر له. يجب أن يحمينَا أحدٌ ويرعانا. وإن ساند الزعماء الحكماء من أمثال كولس الأمير حموه من الخطأ.

- هذا ما يسعى إليه أميرنا، ومن أجله يؤلف جيشاً. - أيده مشقوه، - تطوِّع من قريبتكم مستخقوه سبعة وستون فارساً.

- ألم يتطوِّع إلا هذا العدد؟

- لم نتصل بالجميع بعدُ يا نخلش. وبين السكان من عتب علينا.

- ومَنْ هؤلاء؟ - كان يسرُّ نخلش الأصهب أن يكون في القرية أمثال هؤلاء ولكنه تظاهر بالغضب.

- المتقدمون في العمر، - استدرِك مشقوه.

- لا بأس إذن، - قال نخلش ثم تذكر أمراً كان قد نسيه فسأل: - ألا تُدرج اسمينا، قدان وأنا، مع هؤلاء السبعة والستين يا مشقوه!

- قدان بينهم، كنا التقينا به مع دخولنا إلى مستخقوه فكان أول الموافقين.

- لم يُخبرني صديقي الطيب بمثل هذا، - ابتسم نخلش الأصهب في وجه قدان غير أنه قال في سرِّه: وهذا الخبر كتمه عني، ليس هذا بالإنسان الذي أثق به ويكون سنداً لي، ورفع كفيه المربعتين: - اعتبروني إذن يا ضيوفنا الأعزاء من فرسان قريتنا. وبلغوا الأمير ردد بن لاورستن أي لن أكون فارساً فحسب بل كبير حراسٍ مخلصاً له. - نحن قاعدون مكتفين هنا لأننا هُزِمنا. قال نخلش مغتاضاً في داخله، ونسمح لذلك الذي لا يساوي شيئاً هناك أن يفعل ما يريد.

إن وصل الأمر بك إلى هنا فأنا أعرف جزاءك الذي تستحقه.

VII

الرعد يقصف طويلاً في الجبال عادة.

وليس رعد المساء مثل رعد الظهيرة. إنه مريع وقت حلول الظلام. البرق الممطر يسوط بناره المفاجئة ظهر السماء. والصاعقة تصدم قمم الجبال بعضها ببعض. ويرتمي صداها وراء زوايا الغابة ريثما يتبدد مرتجفاً من الرعب. وتحت الوهاد، والمطر الفاقد السيطرة على نفسه، المجنون، ينساب تحت الأرض، وصوته يتكسر.

وتراب في البيت لابساً والبرق الممطر يجبره على حني رأسه، والطريق الذي تخطه الصاعقة يجبره على حني ظهره المشوه. تأخر بانتظار أن يصحو الجو، وظل ينفض الغبار عن ملايسه ويتأنق. كان مساء الصيف جميلاً فمن توقع أن تضرب صاعقة من الجبل الطبيعة...

" ليست الصاعقة والرعد والريح مشكلة لو لا أنها تمطر... - دنا تراب من النافذة. لم يمثل لعينيه إلا المطر السميكة بلون السحاب. وكان البرق يتضاءل والرعد يتعد متسللاً. - المطر، من صوته، كأنه يتوقف... نعم، نعم، والريح تهدأ، لولا قميصي وقبعتي لكنت منذ وقت طويل أسامر دكابس... كانت تستخف بي حين أقابلها وطرديني من أمام بابها فلماذا أرسلت إلي الآن تطلب أن أعرج عليها العشية؟.. المرأة شريرة عابثة لا تتورع عما يخطر لها. ماذا ستقول لي يا ثري، وفيم تحتاجني؟! لا أعرف ما حاجتها إلي ولكني بحاجتها منذ زمن طويل!.. لو لم تكن بحاجتي لما استدعيتني! ليت هذا المطر اللعين يتوقف! كيف تقابل امرأة والمطر يسيل منك!.. المطر يتوقف، يتوقف، ولا بأس أن أبتل قليلاً..."

ارتقى تراب في المطر وقد نسي حديثه، تتحكم به نزوته التي غزت قلبه. وبعدما مشى بعض الوقت إلى جانب النهر غير عابئ بالمطر الناعم الذي يسقط على الحدبة وعلى اللحية غير الكثيفة والشاربين الرقيقين بدا الحي الذي تقطن فيه من تنتظره. وحين تراءى لعينيه القلقتين البيت الذي سيعرج عليه قفز قلبه من صدره. ونظر في كل اتجاه كأن أحداً يترصده يريد أن يسلبه سرّ العذب. وما رآه زرع في صدره شكاً مفاجئاً. " بيوت الجيران تتلألأ بضوء مصابيح الدهن في حين أن بيت دكابس غارق في الظلمة... فما الأمر؟ ربما لا تريد أن تُري أحداً مصباحها المضيء قبل أن أدخل إليها. ها هو، ها هو، الآن حالاً! - حث تراب الخطأ، ولم يحسّ بتوقف المطر. ونسي أن يتجنب الحفر التي يقذف منها حذاؤه المطاطي المعقوف الأنف الماء. انظر، انظر، ها هي تضيء لي المصباح كما كانت أديف في الأسطورة تمد يدها بالمصباح فتطرد ظلام الليل ليعبر زوجها راعي الخيل النهر..."

توقّف تراب حين تذكر ما سمعه مرة في مضافة كولس بما فعلت أديف بحق

زوجها، إذ حرّمته من نورها. ونظر باتجاه نهر بشده. وأنصت إلى صوت الجري الأصمّ الذي صدر من السحاب الرقيق، وحين عاد إليه وعيّه هجمت عليه من جديد نظرة دكابس:

" تضيء، تنادي، ها أنا الآن قادم إليك حالاً... أقول هذا ولكن ما الذي يجمع بين دكابس وأديف! عاشت أديف توافق بين حبها وإشفاقها على زوجها، وكان أحدهما يثمن الآخر، وكان كل شيء يجري على خير حتى الوقت الذي عزّفته بحصتها من رجولة الزوج. ثم بدا انفلاتها في حبها المجنون... لم يصلح نطاي زوجاً لدكابس! كيف تستطيعان: أنت تحمل اسم الرجل تلبس قبة، وهي تحمل اسم المرأة، وعلى رأسها غطاء، وكلاكما لا يفعل العار، ولا مشوهاً، يرى أحدهما الآخر ليلاً ونهاراً، ويشتهيّه، أن تعيشا معاً ليلاً ونهاراً؟! لا أدينك يا دكابس على أنك تنصّلتِ مما فعلتِ مما تطلب أمثال أديف التي خرجت عن طورها. ولا تعتي على البائس نطاي. آهتُنا خلقوه مثلي على الأرض. وإذا كانت عاهتي الوحيدة ظاهرة لكل عين فإنهم، أعني آهتُنا، والشكر لهم، لم يهينوني في مسألة الفحولة. وستخبرين هذا سريعاً... مهلاً، مهلاً، من الذي يتسلل خفية من باب دكابس؟ أهو حقار؟! أظنها لم تسمح له بالدخول. وكيف تسمح له ولها موعد معي! حسناً فعلتُ به... أما كان هذا القبيح يستطيع الصبر هذه الليلة فحسب، أكان ينتظر مواعدي معها؟ لا يضبطون شهواتهم رغم أن عندهم زوجات... حسناً، حسناً، عدّ إلى عجوزك ذات الرأس الرفيع!.. " وتبعاً لاتفاقهما فقد طرق النافذة حذراً دون أن يتجه إلى الباب:

- من هذا؟

- أنا، أنا... - همس في خلل النافذة.

- إلتفّ من جهة الباب يا تراب! - جعله صوت المرأة الحبيب يُغمى على قلبه. ودوخ دفء المرأة التي فتحت له الباب رأسه: - أظن المطر أحرّك... ما أشد ما بعث فيّ اليأس! ما الذي أسخط آهتُنا يا ترى في الليلة الوحيدة التي دعوتك فيها؟ ما كان أهرب هجومه علينا! والبرق والصاعقة غاداراناً بسرعة. والمطر توقّف، أظنك ابتهلت لإله الصاعقة يا تراب.

- نعم، فعلتُ يا دكابس. ولم تفارقي قلبي، إذ كيف أتركك وحيدة، طوال دعائي إلى إلهنا من أجلك، وريثما توقف المطر، وطوال طريقي إليك. ورأيت ظلام الغرفة، وإشعالك المصباح.

- شعرت بأنك كنت تبتهل إلى الإله حين بدأت الصاعقة تغادرنا. وجلستُ في الظلام لا تفارق قلبي، وأشعلت المصباح قبل قليل فحسبُ، - قالت دكابس وقد خشيتُ أن يكون تراب قابلٍ حقار خارجاً من عندها، فأضافت موهمةً بالنفاق: - لماذا ما تزال واقفاً يا تراب؟ ألا تجلس! واخلع كساءك القصير؛ لا بد أنه مبتلّ.

- رأيت كل شيء، ولم يبق على تلاقي عيوني مع عيون من كان خارجاً من باب دارك إلا القليل... - قال تراب على نحوٍ لا تعرف إن كان يلوم المرأة الوحيدة أم يمتدحها. ورمى إليها الكساء المصنوع من جلد العجل وقلبه يستمتع بدفع المرأة الواقعة قريباً جداً منه وبانفتاح قلبها له. واليد الناعمة التي حطّت عليها يده فجأة أشعلت ناراً سرت في الجسد. وجلس على المقعد الذي أشارت إليه وساقاه تشعران بالنعومة.

- هل تقصد حقار؟ - سأل دكابس عما ارتابت فيه دون أي مواربة.

- نعم، لم أخطئ. ولكنه لم يريني يا دكابس.

- وما المشكلة؟ ليرك إن شاء..! هل تخاف من حقار البغيض؟

- أكذب عليك يا دكابس إن قلتُ لك إنه لم يكن يخيفنا في زمان ما. وأنت تعرفين ميتة والدنا المرحوم على يده. ومع أن ظهره الذي كسره أمير القسوغ ردد عاجله نخلش الأصهب فلا يخفى أنه يعاديه.

- لم ألاحظ فيه مثل هذا المرض! - أفلت من دكابس همها.

- يقال إن السبب رفضه مصارعة الأمير ردد. لم يكتم.

- يكذب عليكم.

- فضح نفسه في القرية وإن كان يكذب علينا.

- هذا لا يعرف ما يسمى عيباً أو عاراً! - ازدادت وجنتا دكابس توهجاً. وأطرقت برأسها الجميل. ورفعته بسرعة والشرر يتطاير من عينيها: - أجب المسكين نطاي على أن يتزوجني فتجاوزني وهو يظن أنه يغازلني فنكبن.

- ما الذي كان يريد الوصول إليه الليلة أيضاً!.. - غضب تراب مغلوباً بالغيرة التي تفنيه ولا يستطيع البوح بها.

- ما الذي يتحكم في جنس الرجال!.. - دفعت دكايس من كان ينظر إليها بوجه مُتَمَتِّع إلى تغيير مسار الحديث: - لا تظنّ نفسك المقصود بالكلام يا تراب! موضوعنا أنت وأنا مختلف. نحن نظيفان. هذا الرجل الدعوي، لن أكتمك... - بدأت تسرد حقيقة الموضوع له، ثم مؤهت مغلوبة بالحياء، - طردته من أمام باب بيتي كما لم أفعل في الأماسي السابقة... وحين حاول اقتحام البيت هددته بأن أصرخ وأجمع أهل القرية عليه فانصرف مطرقاً. والله أعلم ماذا يخطط لي الآن...

- لن يخطط لك أي شيء! لا تخافي منذ هذا المساء ولو لم يبق غيري.

- نعم، نعم يا تراب، دعوتك لأني أثق بك وأعتمد عليك.

"فيم ستعتمد عليّ هذه المرأة، ولم تُقْصِها في؟.. - انتفض تراب بقلبه مما سمع. - يا خوفي من أن تعرض عليّ الزواج بصفتي وحيداً... ولو فعلت هذا لما أمكن للمرأة التي لفظتها القرية أن تؤسس أسرة لي... أخبريني يا حلوتي دون مماطلة سبب استدعائك لي. لا أظنك الليلة متعطشة إلى شيء إذا كنتِ طردتِ حقار، ذلك الرجل الضخم، من أمام باب بيتك. لماذا ورطتني إذن طوال النهار، وطوال العاصفة المطرية، في أزمة تخرج عن حدود قدرتي؟ أقول هذا ولكن ربما طردت حقار لاستقبالي... انظر ما أطول عُقْصَها وما أرقَّه، وما أجمل عينيها ووجهها الطلق الأسمر المتناسق وشفثيها!.. وقامتُها الرشيقة النحيفة وكتفها المنسابتان وساقاها المفتولتان... يا أسفي عليك يا نطاي ما كان عليك أن تسمح لمثل حقار أن يلمسها لولا أن الإله حرمك مما غرسه في الرجال!.. "

- في أيّ مهمة يا دكايس؟ - خرج تراب من أحلامه الشهوانية، - ما تحمّليني جُملي. لن أكتمك كما تقولين أنت إذ دخلنا في الموضوع، وربما سمعتِ أنتِ أيضاً، سأقول لك الواقع: أرامل القرية لا يدعوني أستريح قائلات: أنت رجل وحيد لا بد أن هناك ما يشغل بالك؛ فما العمل؟ نحن كل يوم في حرب فأغلب الرجال يقضون على شفرات السيوف أو رؤوس الرماح. ولا يجوز أن نعتب على أولئك النسوة اللواتي يترمّسن. ولكن لماذا أذنب بحق أولاد الذين قضوا في

الحروب؟ ولماذا أورّط الأرامل في المشكلات؟ حقاً أنا لا أساويك بلابسات الغطاء يا دكايس. هنّ يغبطنك رغم أنهن مثقلات بالأطفال؛ أنا لا أريد أمثلهنّ.

- وأنا إذن؟

- ليس بينهن من أعديك بها. مهما حمّلتني فأنا جاهزٌ له. صارحيني بما في قلبك!

- ولماذا لا أصارحك؟ - انكسر صوت دكايس دون وعي منها، وقالت: هذا أيضاً واحد من أولئك الرجال الكثيرين، هُرع إليّ ناسياً حديثه، - ولماذا استدعيتك إن لم أكن أنوي مكاشفتك؟.. - انظر إلى وجنتيه كيف تحمّران، وإلى عينيه كيف ترقّان، وإلى أعضاء جسده كيف ترتجف، وجبينه عريض وحاجباه سميكان، والشففتان الظاهرتان من تحت الشاربين غير الكثيفين معتدلتان، لا كبيرتان ولا سميكتان، تلمعان. عن أي أرامل تتحدث لولا عاهتُك! كانت بنات القرية تخاطفنك... لا أظنه لامس امرأة... فجأة طُرقت النافذة.

ارتعب تراب. وصاحت دكايس بعدما وضعت إصبعها على فمها وأشارت إلى تراب ألا يفتح فمه:

- من؟

- أنا، نطاي.

- ماذا تريد يا نطاي؟

- وماذا سأريد، إن لم يكن الرعد والبرق لم يربعاك...

- ولماذا يربعاني؟

- حقاً، لا أعرف، ألسنّ وحدك؟

- وإن كنت؟

- فكّرْ أن نسهر قليلاً وننسامر.

- ألا يكفي يا نطاي أننا قضينا السنوات الثلاث يحدّق أحداً في الآخر؟ تعال صباحاً واذبح لي جروّ خنزير. سأقلّيه وأمتعك به وأمتع معك. وماذا أقدم لك غير هذا يا نطاي؟ تصبح على خير!

- سآتي غداً إذن يا دكابس. وأنتِ تصبحين على خير. والرعد والبرق انخسرا.
أنا منصرف. - ومرة أخرى نادى نطاي وهو منصرف: - ألم يترك حقار الليلة
يا دكابس؟

- ليذهب إلى الجحيم! ما أشدّ ما تهتم بهذا الكريه!

- لم يكن عندي مثل هذه النية يا دكابس.

- لا تسأل إن لم يكن عندك. الليلة طردت من باب داري هذا البغيض الذي
انتكبنا كلانا بسببه. مرة أخرى كذبت دكابس على طليقها كما فعلت مع
تراب.

- حسناً فعلت بحقه! - غمغم صوت نطاي من خلل النافذة. - وبانتظاره
موقف مماثل مني. مرة أخرى: تصبحين على خير. الآن طمأنت قلبي.

- ما حاجة حقار اللعين إليك... - تنهدت دكابس محدثة نفسها. - كان
عليك أن تفعل هذا قبل زمن طويل...

مسحت دكابس عينيها بطرف منديلها. " لا أهين نطاي لأنه مسكين ولكنه
أول من نكبتني. بدأ يأتيني بحقار بعدما عشنا معاً نصف عام وأنا عذراء،
ويتركني معه وينصرف. كيف كنت سأقضي عمري أنام مع هذا الرجل وأنا امرأة
مُحصنة اسماً؟! أصابني ضعف النساء فقامت حقار الوسادة مسلوقة الإرادة...
ونطاي كان يحترق في داخله وإن تظاهر بأنه لا يعرف شيئاً... أطمعني حقار
في السنة الأولى بأن يطلق زوجته ويتزوجني فتصرف في العام الأول مع الرجل
الذي أنا في عصمته دون خجل في ما أقول وما أفعل. ثم بدأت أصرفه،
وأستسلم لمأساتنا، أنا وزوجي، مقتنعة أنه يخدعني، ولن يطلق المرأة الهزيلة التي
تلد له كل سنة ولداً ولكن كيف لي أن أجبر ما كسرت؟! وأنا أقضي العمر
زوجة ثانية له بالقوة والسيف رغم عودتي إلى بيتي الأصلي. ويُلمح لي أحياناً
بأن أخي الأكبر الذي كان سندي الوحيد قتله حقار اللعين. وأنا أقسم أنني لن
أموت قبل أن أحرمه من رجولته متى تحققت من حقيقة الإشاعة. وقبل أن
أحقق هذا سأطلب من تراب أن يفعل به ما يستطيع. وهل هو موفد الآلهة
عبثاً! وسأسحره بالأعشاب والرقى. وسأتيه بنحلش الأصهب إذ يخبرني أنه
سيأتيني به. ولكن هل يستطيع تراب يا ترى أن يُعيد الرجولة إلى نطاي البائس

الذي يجبني كل هذا الحب؟ يا حسرتي ما أزال شابة. لم أصل بعد إلى الثلاثين. وأي حظٍ سيواتيني أكثر من عودتي إلى زوجي!.. حَقِّق لي هذا الأمر يا تراب، ولا تطلب مني أن أتزوجك، واطلب مني ما تريد. وإن تعزيت لي فأنت تشبه نطاي الرشيق الحلو بالقياس إلى حقار وشبهه القبيحين "

- أوافقك يا دكابس على ما قلت لنطاي بشأن حقار. لا شأن لي بالمسألة ولكن حقار اللعين فَرَّق بينكما... كنت بدأت كلاماً... أستمع إليك.

- يا تراب، سأصارعك بما طلبتُك لأجله: حوّل لي حقار اللعين إلى نصف رجل لا يعي شيئاً. ونطاي المسكين، وأنت سمعت كم يجبني، أعده إليّ رجلاً حقيقياً. ومتى حققت لي رجائي فما من شيء أحجبه عنك. - نظرت دكابس في وجه تراب وقد امتنع وجهها مما تقول.

" ما أجمل دكابس السمرء الصبوح وإن شحب لونها! " - سأل تراب وهو يقول في سرّه:- كيف أستطيع أن أحقق لك رجاءك يا دكابس؟ - إن لم يتحقق عبّر دعواتك إلى ألفتنا فلا أعرف...

- ثقي بي من هذه الناحية يا دكابس، - مدّ تراب يديه من فوق المائدة الخشبية المنصوبة بينهما، ولمس أصابع دكابس، ومدّها إليها حذرًا، - يصل إليّ كلام ألفتنا، ويصل كلامي إليهم. وسأجد في أودية الجبال عشبة ما تُفقد الإنسان وعيه... ما أجمل أناملك، وما أنعمها وأدفاها يا دكابس!..

- قل ما أبردها، لا ما أدفاها... - حنت دكابس رأسها ووجنتها تتوهجان، - لا، لا يا تراب، دعنا نتوقف عند هذا الحدّ... أما وعدتُك أن أحقق لك كل شيء متى حققت لي رجائي! سيبقى فراشنا مفتوحاً ثلاثة أيام حتى يصفو قلبك لي تماماً.

" ما أدفا يديها! " - خاطبها ردد متقرباً إليها دون وعي من قلبه وصدره. - لماذا ثلاثة أيام فحسب يا دكابس؟.. - هل تسمعين الآلهة تخاطبنا: افتحا قلبيكما قبل هذا، لا ينجل أحدكما من الآخر! بدأت روحكما تتمازجان، بل تذوبان معاً.

- لا، لا، لا أسمعهم، - استرجعت دكابس كفيها، - هذا مستحيل الليلة، - متى حققت لي رجائي...

- ولكن، ألا تسمعين الآن أيضاً؟ - يمد تراب يديه، وتعيد دكابس يديها إليه دون إرادتها. - أما أبلغك الآلهة أن من الممكن أن تقدّمي مكافأة مقابل أحد الطلبات الثلاثة... اجلسي هنا عندي... - يشدها إليه برفق دون أن يخاشنها.

- لا، لا، لا بأس بمجلسي... - تنهض دكابس ويستقبلها تراب مرتجفاً، يضمها إلى صدره، وما يلامس فخذيها بقوة يرقق قلبها، فتضمه إليه لا تطبيق صبراً، ولا تعود تحسّ بالحذبة التي تحت راحتيها، وتهمس في أذنه وقد ألصقت وجنتها الحارة بوجه تراب: - مهلاً، مهلاً، ليس الآن، اصبر... مرة أخرى أربعهما الطّرق على النافذة.

- من هذا؟ - لملت دكابس نفسها وسألت.
- أنا.

- ومن أنت؟ - سألته وإن تعرفت صوته.
- أنا، - قال ثم أضاف بصوتٍ أخفّ: - أنا شنبه؛ أما تعرفت عليّ؟
- وهل كنت أنتظر حتى أتعرفك!
- كم أنت ثرثارة؛ افتحي!
- أغرب عن وجهي إن لم تكن كرهت حياتك! - صرخت دكابس من الغرفة محتدة.

- ألسّ وحدك؟
- ألم تسمع؟! - مرة أخرى احتدّت دكابس، وشهدت على تصلّب موقفها:
- لسّ وحدتي.
- هكذا! ألا تحبريني من البداية!.. - قال شنبه بصوت منسحب، ثم تأكّد خروجه من صوت باب الدار بعدما خاف أن يكون حقار عندها.
- ما أشدّ ما اتخذوك مزاراً - تعجّب تراب مغتاضاً.
- من؟ - ضحكت دكابس وهي ترفع رأسها، - وهل تعدّ مسكيني نطاي بينهم؟ يا حسرتي، لو حققت لي رجائي في شأنه!.. والآخر أيضاً.
- ألم نتفق يا دكابس على هذين الرجاءين! وألهتنا سمعونا، وأقلوني.
- لولا العين شنبه لسمعْتُ بعض الكلام.

- طبعاً يا دكابس، كنا أنت وأنا في حضرة الآلهة التي خلقتنا... وكنت ستسمعهم كلامهم على نحو أوضح... تعالي إلى...

- لا، لا يا تراب! - ابتعدت دكابس بجسمها عن مد يده إليها. اليوم لا... اخرج بسرعة قبل أن يعود أحدٌ من طرقوا نافذتي!

- ولكن يا دكابس... - عادت مفاصل تراب فارتجفت. غير أن دكابس لجمت اليد الصلبة الممدودة.

- لا، لا يا تراب. يكفي هذا الليلة. أما وعدتك إن حققت رجائي بثلاثة أيام بليلاتها؟! وسأطفي مصباحي إذ أن من الصعب التكهّن بما سيخطر ببال طُراق الليل هؤلاء. لن يتورعوا عن شيء نحوك إن أمسكوا بك في بيتي، ولن أستطيع إنقاذك منهم. تصبح على خير يا تراب، ولا تنس رجائي!

- وأنت على خير. متى موعد زيارتي القادمة يا دكابس؟

- متى نفّدت أحد مطالبي.

- نعم، نعم، سأبدأ بوضع نظاي... - توقف تراب في الظلام على مسطبة البيت، وترجى بصوت مرتجف: - دعينا نتعاق مرة أخرى يا دكابس، وامسحي بيدك عليّ قليلاً، هذّيني!

- لاحقاً، فيما بعد يا تراب... - فتحت الباب له، ودفعته بحذر فلمست حذبة تراب. فانتزعت منها يدها بارتجافة قلبها كما فعلت في المرة السابقة.

خرج تراب بصعوبة من البيت متورماً وقد أفقده ألم ما بين الفخذين قوته. يحزنه أن طراق الليل بددوا ما اعتبره تحقق له. ولكنه تلّقت وفي قلبه أمل بأن يتحقق له في المستقبل. وفي اللحظة نفسها هيّجه ثانية الضوء المنبعث من النافذة. وخطر له أن يعود فيصرع دكابس على الفراش أو الأرض، لا يهم، ولكن النافذة التي أغمضت عينها فجأة غلبته.

لا يتذكر تراب أنه اقترب من امرأة في سنوات عمره الست والعشرين كما جرى الليلة باستثناء هجمته على أبنار. ماذا كانت تلك الحادثة؟ قُذِف به من الغرفة و المقصّ في وجهه... " ما أدفاً حضن المرأة، وما أمتعته! - قال تراب بقلب ممزق. - وشفناها حارتان، ونهداها صلبان. أيّ حلم لذيد متّعني به الآلهة الليلة لولا أنه قصير! لولا شنبه اللعين كنا على وشك... " استند تراب لا

إرادياً إلى الشجرة، وبحث عن وسيلة يطفئ بها شهوته فيها وعينه على نافذة دكا بس.

VIII

قضى ردد أمير القسوغ أشهر الصيف الصحابة لا يفارق صهوة حصانه يتابع تأليف الجيش. ولم يترك قرية لم يزرها شخصياً باستثناء قرى " الحكوف " المتناثرة وراء جبل غيتك. تفهم أكثر من اتصل بهم الموضوع الذي يسعى من أجله وأيدوه، ولكن من أخضعوهم بحد السيف والرمح لم يكونوا قلة. كان كل يفهم أن عليه حماية قريته وظاهرها، ولا يصل وعيّه إلى ضرورة حماية الوطن من الغزاة الأجانب وغيرهم من اللصوص، وضرورة وجود نظام واضح ودولة وأمير تُنفذ أوامره.

سيجري غداً في فسحة قراي اجتماع عملٍ لملندوبي الفرسان الذي جمعهم من كل القرى. والذين يأتون من أماكن بعيدة وصلوا إلى مزبه. وتوقف غيرهم في قرى مستحقوه وششحرس وغيرهما على أن يصلوا غداً إلى الاجتماع. وأبلغ الزبيخ والموط أن ينضموا إلى الاجتماع ولكن لم يظهر أحد منهم، ولم يُعرف ماذا ينوون. فات موعد عودة المجموعة التي يترأسها مشقوه وداور الذين هم في نواحي قرية غيتك. ولم تعد المجموعة التي رأسوا عليها ججان وقدان وأرسلوها إلى المجموعة الأولى. الوقت يمضي والقلق يشتد.

- إن لم يصلوا حتى الظهر، - قال ردد - ففي تلك الناحية خطب ما يا كولس.

- لا يزال أماننا نهار كامل، - قال كولس باسم الحضور وإن كان يخاطب شخصاً واحداً، - لا دواء إلا الأمل. أخبر يا تيمرقوه هذه القيادات الشابة عمّا منحك الحياة طوال غيابك في الأسر، - سأل كولس الضيف الذي يقال إن صهره، والد ججان، قضى على يده، كاتماً عدم رضاه عنه.

- الأمل الكبير، الحياة الغالية، يا زعيم الخير.

- وأنا هذا الأمل الكبير هو ما أنقذني من أسري. - شهد كولس مرتاحاً على الفكرة التي طرحها. - وانظر الآن ما يجري: لقد شهدت أمير القسوغ الشاب

وتأليف الجيش. من يدري ما ينتظرننا أيضاً إن منحّتنا آلهتنا مزيداً من العمر!
- ولماذا لا نحيا، ونبقى نشرف عليهم إن كنا محظوظين - وافقهم طاطخ وإن لم يفهم تماماً أصل الموضوع. وسأل من إلى جانبه من قبيل احترام العمر: - أليس كذلك يا عُجْبِس؟ ما رأيك أنت؟
- أَفْضَلُ ما تتأمله على كلّ ما عندك يا طاطخ، - أجاب عُجْبِس كأنه صحا تَوْأً من فوق رأس عصاه.

- اسمع ماذا يشتهي هذا الرجل! - صرخ طاطخ كأنهم يسلبونه أمله.
- أنا أَشْتَهِي الكثير يا طاطخ، - لا تزال راحتا عُجْبِس على العصا، - يقال إن من يتمنى لا يفقد حياته، ولذا أغبط شبابنا. وأريد أن أعود شاباً مثلهم بقدرة قادر. يا حسرتي، من يُعيد إليّ طيش شبابي وحرية رجولتي! كنا في شيخوختنا فرساناً أفراداً ولم نكن نعرف أنه يجب تأليف جيش كالذي يؤلفه أمير القسوغ الشاب ردد بن لاورستن. أنت رجل صالح يا بن لاورستن، لا تتوقف!. أنت أبعد نظراً من والدك يا ولدي!

- الموضوع الذي أتابعه يا زعيم الخير هو ما تمناه والدي ولم يسمح له الوقت بتحقيقه. - أخفى ردد الألم الذي عصر قلبه. ولم ينس ما حدث لخاله قانشاو.: ما أحواله يا ترى؟ ليته تحلى بشيء من الرجولة التي عند تيمرقوه وعاد. لو فعل لكان نفْعَي... "هرب من الخنزr الذين عليهم ثأر والدنا، وكأننا لم نعد أحياء، دون أن يثأر لوالدنا، كما يقول تيمرقوه، وانضم إلى الروسيج الذين لا نعرف أصلهم... ولم يتصل بأخته الكبرى يُطمئننها على صحته وسلامته... متى أَلْقَتْ الجيش وثبّت نفسي على كرسي الإمارة فسأعثر عليه أينما كان..."

- هل بلّغت أيها الأمير عجوزي مستخقه: بشماف وجباغ، أن يحضرا اجتماعنا المقرر غداً؟ سأل كولس كي ينتشل ردد من أفكاره وإن كان يعرف أنه دعاهما.

- نعم يا كولس، دعوهما، - أجاب تيمرقوه بدلاً من كولس. - بلّغتهما بشخصي. ووعدا أن يأتيا مع نخلش.
- وهل تصالحا؟ - استغرب كولس الجملة الأخيرة.

- منذ زمن بعيد!.. - أنتم وأنا من لا يزال بينهم إشكال، أضاف تيمرقوه بينه وبين نفسه.

- حسناً فعلوا، وهل ييقون أعداء إلى الأبد!.. - ما قاله كولس فسره مباشرة بكونه موجهاً إلى تيمرقوه: - عندي حفيد اسمه ججان عنيد، صعبٌ إقناعه من هذه الناحية... السبب في سُؤالي عن عجوزي مستخقه، - أسرع فغيّر الموضوع الذي بدأه، - أقول هذا لأنه كان خيراً لو تكلمنا، نحن المسنين، قليلاً بعد الاجتماع.

- وفيّمْ تريدنا أن نتكلم يا كولس؟ - رفع عُجْبس الآن ذقنه عن العصا. - وهل قليلٌ ما يمكن الكلام فيه يا عُجْبس؟ - ابتسم كولس، - العمر يمضي، ونهرم، وينشأ جيل من الشباب حولنا.

ارتفع صوت أغاني العرس من الحي الجنوبي، وفتح المسنون الجالسون تحت شجرة الجوز في دار كولس آذانهم. "حمراء الخدين كالشمس، مضيئة الوجه كالنهار، نرف عروساً طاهرة القلب عذبة اللسان، صلبة" - وصلّتهم أيضاً كلمات الأغنية.

- من هذا الذي يتزوج في عزّ الظهيرة؟! - غضب طاطخ بدلاً من أن يدعو إلى الإله. - يا حسرتي من أين أسترجع شبابي الطائش ورجولي المنفلتة. لو حدث لرقصت في الحفلة والشرر يتناثر مني. من يا ترى صاحب العرس؟ - أظنه الابن البكر لحقار. - قال ردد، - كان المقرر أن يتزوج هذا المساء، ولكن لا أعرف لمْ غيروا الموعد إلى الظهيرة.

- إن أردت أن تتزوج، - ابتسم كولس، - فهل من فارق بين ظهيرة ومساء؟! دعونا نخنئ الشابين اللذين جمعهما الزواج. ولندعُهما بشيخوخة سعيدة. من يا ترى قريب حقار الجديد؟

- إن لم أخطئ يا كولس، - قال تيمرقوه، - فأظنها ابنة الأخت الوحيدة لنحلش في مستخقه. لن يكون في قريتنا حديث غيره طوال أسبوع. - ما أعجب ما أسمع! - صرخ طاطخ ثانية.

- لا عجيب في هذا، - اختتم عُجْبس، - جهّزوا أنفسكم، أهلَ الحي الشمالي إن كنتم تريدون زيارتهم للتهنئة!

- ألم نتفق يا زعيم الخير ألا نستعمل بعد اليوم لقب الشمالي والجنوبي؟ - لم يستطع ردد إلا أن يقول وإن كان ما في الرأس شيئاً آخر.

- ما أعجب أن وقت نخلش وحقار فرحتهما مع يوم الاجتماع، - ابتسم كولس، وأخفى بصوت أحزم: - لن نتراجع، ما إن ينتهي اجتماعنا حتى نذهب إليهم كباراً وصغاراً ونشاركهم فرحهم.

- اليوم أيضاً، موعد اجتماع قادة الجيش، لم يعد الموفدون إلى الحكوف، ومن أرسلوهم وراءهم ومن ينتظروهم لا خبر عندهم.

- ما العمل يا أمير؟ - همس كولس لردد دون أن يبدي قلقه، - سننتظرهم. والاجتماع بانتظارك. لا تُبَدِّ قَلْقُك!

- هل هناك ما تنتظره يا أمير؟ - سأل نخلش الأصهب مُسمِعاً الحضور، عابثاً بسوط الحصان على حذائه، معتدلاً بنفسه. ولمح إليه دون انتظار الجواب، مُشعراً إياه أنه يعرف ما يكتُمون عنه: - واضح أن هناك خطباً ما ناحية غيتك. إن أمرتني أن أذهب بعد الاجتماع إليها ذهبْتُ. الحكوف عنيون، لن يُذعن ذوو السيقان العوجاء هؤلاء إلا إذا عرفوا قوتنا. وإن رفضت ركبنا معاً.

- لن نشغل أنفسنا اليوم في هذه اللحظة بأمر الحكوف يا نخلش. لا يزال عندنا وقت، - قال ردد وأضاف باختصار: - عُد وقف أمام فرسان مستخقوه الذين تقودهم.

- ألا يجوز أن أقف إلى جانبك؟

- ستأتي أيام تقف فيها إلى جانبي، ولكن أريد أن تعرف أن هذا المكان خاصٌ بأمير القسوغ منذ اليوم. يجب أن يسود القانون والنظام في بلاد القسوغ.

- إن كان هذا رأيك يا أمير فأنا أطيعك. وها هم جماعة حقار في أماكنهم، - انصرف نخلش الأصهب مغتاظاً، وقطع الساحة من المنتصف دون أن يلتفت حولها، ووقف أمام فرسان قريته.

- ليس حقار وجماعته وحدهم، - قال ردد بصوت حازم في إثر نخلش المنصرف بكتفين صلبتين، - وكذلك على كبارنا أن يجلسوا محترمين في مكانهم المحدد.

"كان تصرفي مع نخلش على هذا النحو في أول اجتماع لنا، نحن القسوغ،

ضرورياً. يلتصق بي رغم أنني جعلتهم يُبلغونه المكان الذي يجب أن يقف فيه. - قال ردد هذا، ونظر إلى كولس الواقف بين الكبار يريد أن يسأله عما إذا كان قد تصرّف على نحو صحيح. وأراحته نظرة الرضا التي قوبلت بها نظرتة. وألقى نظرة على حلقة الفرسان المحيطة بفسحة قراي، ونظر إلى أبعد منها، وتمثل أمام عينيه الحكوف والزبخ والموط: - ما سبب غياب أهل مَشْقُد؟ والزبخ والموط لم يرسلوا ممثلهم إلى اجتماعنا... هل تعتقد أنه ليس بين من يقفون أمامي أمثال نخلش الأصهب؟.. ها هو من أتوه بعروس جديدة لابنه يتودد إليّ ولكن من يعرف ماذا يُضمر لي في قلبه!.. وتراب ينظر إليّ شزراً لأني لا أسمع له بافتتاح الاجتماع باسم آهتنا في زعمه... يتقدم الجميع راجباً في إبراز نفسه؛ أليس أديغياً!.. "

كان الأمير ردد ينتظر إشراق الشمس مجدداً من وراء السحابة التائهة في سماء القسوغ. ومن انتبه إلى الأمر هو من كان وراءه إلى اليسار ببضع خطوات: شوباش.

ما إن بدت الشمسُ الإله العظيم من وراء كومة السحب حتى رفع ردد يده: - أفتتح اجتماعنا بعلمٍ من إلهنا الأكبر وسائر آهتنا. وموضوع اجتماعنا هو جيش القسوغ المؤلف حديثاً. كل قرية أرسلت عدداً من الفرسان إلى الاجتماع. شكراً لهم على أنهم فهموني. ابتداء من هذا اليوم تملك إمارة القسوغ خمسمئة فارس جاهزين للانطلاق حالما يسمعون صيحة الاستنفار: "مارج!". هل هذا العدد قليل أم كثير؟ هو قليل بالقياس إلى جيش الخزر الذي يهاجمنا. ولكن لم نحصل بعدُ على جواب من الزبخ والموط. انتظرنا ممثلهم إلى اليوم ولكن لم يرسلوهم. ولا أرى من اللائق الحديث بسوء عما لا أعرف حقيقته، وأنتم اصبروا عليهم.

- والحكوف؟ - صرخ نخلش من زاوية من الساحة وما يريده يتحقق له. - لماذا يحتفظ الحكوف بموفدينا؟

- ومن أرسلناهم وراءهم، - وافقه شنبه من الجانب الآخر أيضاً، وصرخ غيره، وسرى فوق رؤوس الفرسان ضجيج المتدخلين في الحوار. وظل المستنّ على المقعد الطويل الذي غرزوه لهم في الأرض كأنهم لا يسمعون شيئاً إلا غجبس

الذي رفع رأسه عن عصاه.

- لا داعي للقلق يا غجبس، - قال طاطخ لصديقه الأكبر عمراً.

- هذا رأيك؟ - ردّ غجبس، وعاد فارتاح على رأس عصاه. ودمد قليلاً.

رفع الأمير ردد مرة أخرى يده، فتوقف الضجيج:

- ولذا اصبروا أنتم أيضاً، - استأنف ردد بصوت حازم ما كان انقطع من حديثه، وأضاف كأن لم يحدث شيء: - وهؤلاء حان موعد عودتهم إلى وعيهم. وأظننا سنشهد هجمات الروسيج الذين استقروا في نوم تقاش عليهم بعدما ظنوا أنهم يمدون أيديهم إلى موائد الخزر وإلى "الياس - الألان" الذين يغيرون علينا. وسيجدون أنفسهم في موقف يرسلون فيه رُسُلهم يرجون العون. إننا لم نُؤلف جيش القسوغ من أجل الاعتداء على أحد أو الاستيلاء على ما ليس لنا، بل من أجل أن نحمي غاباتنا ومراعينا وجبالنا، أي كل ما يقع داخل حدود إمارة القسوغ. والاحتفاظ بالجيش يتطلب الكثير من نفقات الغذاء واللباس والسلاح. وعندنا من الذهب والفضة ما يكفينا نصف عام. وإلى وقتها هناك قضايا يجب أن نفكر فيها. وموردنا الذي نعتمد عليه لإعالة الجيش هو الطريق الممتد عبر القسوغ إلى البحر الأسود. وبمقدار ما نشيع الأمن على هذا الطريق للتجار ترتفع وارداتنا منه. ولم ننته إلى الآن من تفسير المأساة التي حدثت بين مزبه ومستحقوه. ولكني أعدكم أن أضع المسؤول عنها أمامكم حالما نجده.

- ماذا سنقرر بشأن الحكوف إن لم يعد موفدون؟ - لحظة بدأ ردد يروي ما حدث للتجار العرب صاح نخلش مرة أخرى من فوق الساحة وأعضاء جسده تبرد دون أن يعرف السبب.

- من يقابل بالشر الداخلين إلى إمارتنا على نية الخير نقابله بالشر. هذا من ناحية، - لم يقطع ردد كلامه كأنه لم يسمع شيئاً، ولم يسمع الضجيج. قال كولس في سِرّه: " هذا الرجل يتحلى بالصبر والحلم " - ومن الناحية الأخرى سيكون لكل مجموعة فرسان من قرية واحدة قائد منهم، وسيكون معاونه من القرية ذاتها، والاثنتان يخضعان لقائد جيش القسوغ. وسيختار المستون الجالسون مقابلنا قائد الجيش المقبل. والعلف المخصص للخيل يجمع في مكانه المعبّد له

بعد أن تجمع الأسر في القرى محاصيلها. ونكِّلَ بياطرة القرى بنعل خيول كل قرية بقريتها مجاناً. ومن يُقتل حصانه في سبيل الإمارة، ومن يُكسّر سيفه ستعوضه الإمارة بحصان وسيف. وستُعين الإمارة أطفال الشهداء بقدر استطاعتها حتى يصبحوا قادرين على إعالة أنفسهم. ومتى عُزيت إمارة القسوغ، وسُمع نداء الاستنفار: "مارج" فعلى مجموعات فرسان القرى أن تتحرك. وعلى أمير القسوغ أن يقف في طليعة جيشه في ساعات الخطر على الإمارة. وقائد الجيش الذي سيرشحه مُستونا اليوم سيكون معاوناً للأمير. ولا يجوز له أن يخالف أوامره ولو كانت أعمالهما متداخلة. وعلى كل أسرة من القسوغ، ابتداءً مني، أن تدفع كويكاً ذهبياً لنفقات الجيش. ومن لا يستطيع الدفع نقداً نقبل منه الماشية والمحاصيل. والآن ليدخل إلى الساحة من عنده سؤال.

"لم ينس شيئاً مما اتفقنا عليه قبل أيام، - قال كولس في سرّه راضياً، - وأضاف إلى الاتفاق ضرورة مساعدة أسر الضحايا، وإمكان الدفع بالماشية أو المحاصيل لمن لا يستطيع نقداً. وقد فكر بعد انفضاض الجلسة في أمور أخرى. يصل ذهنه إلى قضايا كثيرة بالقياس إلى عمره، فإن قُدِّر له أن يعيش فسيكون أميراً ممتازاً. وأكثر من مرة قاطعه نخلش بالأسئلة وحاول أن يصرفه عن مسار أفكاره. يقول لهم: الآن بإمكانكم أن تسألوا. ولكلّ من هؤلاء سؤال؛ فإن انهالوا عليك بالأسئلة المفيدة وغير المفيدة..." - قلق كولس، واصطنع سعة عسى أن ينتبه الجالسون معه، ولكن نخلش الذي لا يتنازل أن يتوسّط الساحة خطف منه قلقه:

- لا أعرف يا أمير إن كنت لم تسمع كلامي فلم تُجِبي، - قال نخلش الأصهب وسخريته في سرّه بادية على وجهه، - سؤالي حول عدم عودة من أوفدتم إلى الحكوف.

- سنتنظرهم اليوم وغداً.

- أقول هذا خائفاً ألا يكونوا أحياء!

- إن لم يكونوا أحياء فستصرف حسب الموقف.

- أعلن على مسمع من الجميع أنني مستعد يا أمير لأن أقود الجيش الذي

سترسله إلى الحكوف. - قال نخلش ما يريد، ثم عاد إلى مكانه.

- ما أمرك به أنا أمير القسوغ، لا ما تقرره أنت يا نخلش، - عقب رد بصوت قوي هادئ على من غادر الساحة، وأضاف وهو مرتاح: - لا تظنّ أني لم أسمع سؤالك يا نخلش. وكنتُ أودُّ أن تفهم من تجاهل سؤالك، إن كنت لاحظت، أن أمير القسوغ لا يُقَاطَع حديثه. وأنصحك، لا وحدك، بل أنصح نفسي أيضاً، أن يحترم كلُّ الموقع الذي يتحدث منه. وأوجّه هذا الأمر إلى كل المشاركين في اجتماع القسوغ.

- هذا جدير أن يكون أميرنا! - حمل كلامُ الأمير العجوزَ غجبسَ على أن يرفع رأسه عن العصا.

- وأنا عندي سؤال يا أمير، - التفت شنبه وهو يخرج من بين صحبه إلى حقار. - هل سيبقى الزيوخ والموط إمارتين مستقلتين أم ستكون دولة واحدة؟ - هذا سيتعلق بما نتفق عليه. الأفضل ألا نتطرق إلى الموضوع في غيابهم. ولكن إن لم يحم أبناء قومنا الأديغة أنفسهم فهذا لا يعني أن نتخلى عنهم. وكنتُ كلّفْتُ موفدي أن ينقلوا إليهم هذا الكلام. لن نستعجل على ردّهم وسننتظر ما يحدث. أما الحكوف فأمرهم مختلف. هؤلاء يقطنون في إمارتنا. من أيضاً يريد أن يسأل؟

- إن كنت لن تؤاخذني يا أمير، - خرج من وراء الفرسان ممسكاً بقبعته اللبادية السوداء رجلٌ في حدود الثلاثين ربةً صغير: أنا سُوالي وكلامي متلازمان، ولن أطيل: نحن قادمون من ششحرس، واسمي أغبان، كيف ستكون حياة أسرة هذا الأمير الذي يُكَنّ لنا كل هذا القلق - الشفقة؟

- سأجيبك إن كنت تقصد بسؤالك عن حياة الأسرة الطعام وما يقوم بمتطلبات العيش، - ابتسم ردد وأجاب باختصار: - أخي الأصغر شوباش وأنا على قيد الحياة بفضل ألفتنا، وبصحة جيدة، ونتمتع بقوتنا الجسدية. نعمل، ونأكل ما نجني، ونعيل أمتنا معنا.

- هذا حسنٌ يا أمير، ونحن هذه عيشتنا أيضاً، ولكن أمير القسوغ ليس مثلنا، وليس مثل المجتمعين، ولا سكان القرى. أظن من واجبنا أن يُخصَّص لخدمة بيت الأمير بضعة رجال يقبضون أجورهم من مخصصات الجيش. وافهموا أي لا

أقصد بكلامي عبيداً. والآن سؤال آخر: ألا يحتاج أميرُ القسوغ إلى عدد من الحراس على باب بيته؟

- حياك الله يا أغبان، - استعجل ردد على الجواب وإن كان راضياً عما يسمع، - لم نصل بعدُ إلى هذه الموضوعات. وأنا واثق من قدرتي على حماية نفسي.

- حسنٌ أنك هكذا يا أمير، - لم يغيّر أغبان موقفه، - ولكن في العالم كثيرين لا يُضمرون في قلوبهم الخير. انظرُ يا أمير نحو الجبل والغابة تجد أن ما يصدّم العين هو الأكبر والأعلى... أنت يا أمير حرٌّ في ما تقول وتفعل، ولكن الأفضل أن تفكر في ما قيل لك. وهنا أنهي سُؤالي - حديثي. - عاد الرجل بكل ثبات، ممسكاً بقبعته اللبادية، إلى صحبه من قرية ششعرس متبوعاً، لا بنظرات الأمير فحسب، بل بنظرات نخلش الأصهب أيضاً.

- والآن إن انتهت الأسئلة، - قال ردد، - فلنعمل على انتخاب قائد الجيش، الكلام الآن لك أنت يا كولس، يا من يومه مئة.

- أيها الحاضرون أول اجتماع للقسوغ، - نهض كولس من بين مجموعة المسنين المؤقرين، وتوقف دون أن يخرج تماماً من بينهم في مكان يراه ويسمعه منه الجميع، - وكلامي أيضاً سيكون مختصراً، سأطالعكم على ما طُلب من الواحد والثلاثين مُسنناً موقراً من أنحاء القسوغ: المرشّحون لمنصب قائد الجيش أربعة. وسنختار من يحصل على أعلى الأصوات. اختاروا خمسة ممن عيونهم وأذاقهم حادة، واطلبوا منهم الدخول إلى الساحة. وسأنطق أسماء الأربعة الذين رُشّحوا قبل أن نبدأ في انتخاب قائد الجيش، وقبل اجتماع اليوم: مشقوه، ونخلش، وقدان، وججان. أبعدنا قُدان وججان، واستبقينا مشقوه ونخلش. ولا نتطرق الآن إلى السبب وراء هذا، ولا إلى ما سنفعل اللحظة. هل الخمسة الموثوقون جاهزون؟

- جاهزون يا زعيم الخير، - قال أغبان باسم الخمسة.

- اقترب إلى هنا يا أغبان إن كنتم جاهزين، - يرفع كولس عودين رفيعين صغيرين، ويعرضهما للموثوقين الخمسة، وللحاضرين. - أحدُ العودين، وها هو، أقصر من الآخر. الطويل هو نخلش، والقصير مشقوه. ونبدأ انتخاب قائد

الجيش بالعود الذي اخترناه. المِسْ يا أغبان أحد العودين البارزين من تحت راحة اليد. ولما كنت لمست العود الذي يمثل نخلش فسنبدأ الانتخاب به. ومرة أخرى أنتهكم أيها الموثوقون أني سأنطق اسمي الرجلين، ومن يحصل على أصوات أكثر من مسنيننا نختاره قائداً. أبدأ فأسأل: نخلش أم مشقوه؟

" مشقوه، مشقوه، نخلش، مشقوه، نخلش، مشقوه، مشقوه... " تكلم الواحد والثلاثون منتخباً على مبدأ أن ينطق من يُسأل باسم مرشحه.

- رأيتم وسمعتم آراء مسنيننا. - سأل كولس مُسمِعاً الجميع: - مَنْ مِنْ بين الاثنين يا أغبان ذُكر اسمه أكثر من الآخر؟ أبلغ الأمير على مسمع من المشاركين في الاجتماع!

- يا ردد، يا أمير، - قال أغبان بصوت عال ثخين: اختار سبعة وعشرون من الأحاد والثلاثين من مُسَيِّ القسوغ مشقوه.

- انتخب مشقوه قائداً للجيش! - اختتم كولس مرتاحاً لاختيار السبعة والعشرين مشقوه، ولعدم اختبار نخلش إلا من أربعة، مبلغاً أمير الإمارة ردد، - والآن دعونا نختتم اجتماعنا الأول بدعاء من تراب.

- أيها المجتمعون، يا من أدعو لكم أن يصبح يومكم مئةً، ارفعوا أيديكم إلى الإله الكبير، ولا تنسوا الآلهة الآخرين. وادعوا أن لا يُحججكم إلى الخير، وأن يصرف عنكم الشر. - رفع الجميع أيديهم متممين. وكما رفعوها دون انتظام، خفضوها.

- أيها الضيوف المشاركون في الاجتماع، توقّفوا لحظة. - نصب الرجال المستعدون رؤوسهم بسبب نداء حقار المستعجل، - أدعوكم إلى حفلة زفاف ولدي البكر، إلى حفلة الرقص وإلى الطعام!..
الفارسان اللذان وصلا إلى الساحة على عجلة من أمرهما لم يدعا حقار يُكمل كلامه:

- لم نأت يا أمير بخبر سعيد من حيث أوفدّتنا، - قال ججان، - الحُكوف اشتبكوا مع موفدينا... ويعودون بجثمان داور واثنين آخرين.

...

كان في مزبه بُعيد الظهر ثلاثة مآتم.

- يا ججان، - نادى كولس حفيده المشارك في مأتم داور، - اصطحب شوباش المسافر معهم وعرجا على حقار. واطلبا منه تأجيل عرس ابنه إلى أن تنتهي مأتم مزبه. ما الذي تستغربه؟

- ليس عندنا مثل هذه العادة... أتساءل إن كان سيلبي طلبنا...

- لننخذها عادة إن لم تكن فينا! عيب أن يقام عرس ورقص في قرية فيها جثامين... - تأمل كولس أقرانه ومن هم أصغر منهم فيما يخاطب ججان بالكلمات الأخيرة. وشعر من وجوههم أنهم يؤيدونه، غير أنه كان مهموماً بالطريقة التي سيستقبل بها حقار موفدیه. وبعد قليل توقفت أصوات الآلات الموسيقية وأصوات المرح المنبعثة من الحي الجنوبي. وسأل الموفدين اللذين وصلا: - ماذا قيل لكما؟

- كأن حقار تفهّمنا، - قال ججان، - ونخلش الأصهب غمغم.

- ألم يتفهمونا مهما تصرفوا معنا؟ حياهم الله! هكذا يجب أن نتعامل مع كل مصيبة يا ردد. إن تعاملنا هكذا فستنمو إنسانيتنا ومشاعر الرحمة بيننا. عصر الألم قلب ردد وهو يصغي إلى كلام كولس حين سمع نواح أينار. لم يكن يفارق ذهنه قسوة الحكوف، ورثه المرتقب عليهم. وكان يواسي في قلبه مشقوه، المنتخب اليوم قائداً للجيش، والذي قُتل صديقه أمامه اليوم...

IX

من لا يُكنّ لك الود يخذلك محيّا.

كان نخلش الذي عرف أنه لا يجوز أن يجلس مزيداً من الوقت، وأنه اتخذ من الحكوف ذريعة جيدة، وأن قدان لن يوافقه على السر الذي يحمله منذ هذا الربيع، قد عاد من مزبه. وما بقي له هو قوّته الجسدية، ورياؤه. ولكن لم يكن من الجائز أن يظهر في جرائمه مهما مارس منها. وعنده ما يحتمي به بالإضافة إلى القوة والرياء: لم يجمع في السنوات الأخيرة عبثاً أملاكاً مجبولة بالدم والدمع: جنى من مصيبة التجار العرب ذهباً وفضة ما يمكن أن يعيش به طوال عمره.

"كبر حقار البغيض الذي صار قريباً لي يساوي جنونه، وكذلك شنبه. - لم يملك نخلش إلا أن يتسم لمراى الشخصين اللذين ارتسما أمام عينيه رغم أن

حقده يغلبه. كانا يتنازعان على حِزم الأقمشة ولم يخطر لهما أن يفْتشَا في المحافظ المربوطة إلى جانب التجار القتلى. القماش يتعفن مع الزمن، والذهب لا يصدأ أيها المنحوسان!.. يرجوانني أن أرافقهما إلى الشاطئ لبيعا القماش الذي خبّاه في الغابة فتعفن. الأقمشة لا أعرف مصيرها، ولكني اتخذتُ قراري في ما سأوصله إلى الشاطئ. وإن لم أفعل هذا أفلا تفهمون ولا ترون كيف يثبت حُكمه الأميرُ الذي نصبناه ونحن نمدح أنفسنا بأنفسنا. - لا حاجة إلى التفكير في أنه سيطينا تحت جناحيه. يجب إبعاده عن القسوغ المحبين للمديح، السهلي الخداع، قبل أن يضع اللجام على رؤوسهم. وما نسمح به للأمير الوريث الذي ما زال أنفه يسيل ونحن نردد هذا الكلام ومحتقرين إياه، وكأننا نحن الرجال الكبار بلا عقل ولا رجولة، عيبٌ. أديغة الساحل، الزبخ والموط، لم يرسلوا إليه ممثلهم. والحكوف الذين يعيشون في إمارته تبين أنهم رجال حقيقيون. نحن نخفي رؤوسنا لمن لا قيمة له بحجة أنه "أمير"، ونجمع من سيكونون حراسه من القرى. ونسمح له أن يقول لنا: ستأتي الأيام التي ستقف فيها إلى جانبي!" ونصطف وراءه منتظرين ما سيسقط من تحت ذيل حصانه إن التفت إلينا... "

حتّ نخلش الحصان بقدمه فأسرع بنعومة. وتبعه من وراءه عدوًّا. لم يكن على عجلة من أمره إذ كان ما يزال بينه وبين الموعد الذي أتى به الرسولُ أمسٍ للوصول إلى ظهر جبل قوبان وقتٌ كافٍ. السرّ الذي يتقاسمه الثلاثة المسافرون معاً: نخلش وحقار وشنبه، لا يفارق الذهن. ويفكر في نهايته المنتظرة. وليس السبب أنه فقد الثقة بالرجلين اللذين يقاسمناه السرّ. كان شنبه صاحب الفكرة، ولكن من يدري ما سيحدث، حقار قريبه الآن. وقد دفع ابنه إلى اختطاف ابنة أخته، أخت نخلش، دون رغبة من الأم وابنتها. ولكن من الصعب التكهّن بسلوك الآخر. في جعبته سهم وحيد مسموم. وكان نخلش جهّز سهمين من هذا النوع فاختر أحدهما بالخنزير البري قبل أيام. وقضى عليه في غمضة عين. والسهم الباقي سيكون من حصّة أمير القسوغ. والمنقذ هو شنبه.

- يا قدان، صاح نخلش الأصهب. - قف إلى يساري، رغم أن أمير القسوغ

- الذي نتفاءل به لا يتنازل أن تقف إلى جانبه، هل أنت معاوي في الحرس عبثاً،
 - ثم اختتم مُسمعاً الجميع: - يتصرف على نحو صحيح، لا يمكن لكل طامح أن يصبح أميراً على القسوغ. ألسْتُ على حقٍّ يا قُدان؟
 - صحيح يا نخلش، - وافقه قدان الذي وقف إلى يساره.
 - هكذا هو، - قال نخلش دون هدف لمن إلى جانبه وإن لم يكن راضياً عنه،
 وغير ما كان يريد أن يضيفه إلى شيء آخر: - لا أفهم ما يريد الحكوف،
 يعيشون في بطن الجبل ناشرين سواد لوْنهم فيه. عنيدون. إن كان هذا موقعهم
 فسُنْخِرْجهم حتى لو التجؤوا إلى حفرة تحت الأرض!..
 - ما كان يحقُّ لهم قتلُ موفدينا.
 - أليس هذا رأيي أيضاً؟ كيف يُشْهرون السيف على رجل وقور مثل داور؟!
 حسناً يفعل أميرُنا إذ يرسلُنا إليهم بالسلاح. يجب تأديب كل المتمردين. ألا
 تشاركنا في الحديث يا قُدان!
 - وكيف لا أشارك يا نخلش؟! - رفع قدان رأسه فجأة، شرذت عن
 الموضوع...
 - حسنٌ أنك تسمعي ولكن شرودك سيء. أعرف أنك صادق؛ أسمعني ما
 تفكر فيه إن لم يكن سراً.
 - ما سمَّيته سراً سأجيبك عنه بكلام عجوزي قريتنا بشفاف وجباغ: من لا
 يتبادلون أسرارهم لا تتحقق لهم أهدافهم.
 - من حُسْن حظنا أن في قريتنا أمثال هؤلاء المسنين الحكماء؛ يحمونك من
 الخطأ... - امتثل من جديد لعيني نخلش الحاج المسلم الذي اندفع إلى الحصان
 والدم يسيل منه، وكان شنبه الذي أرسله وراءه رجع سريعاً مدّعياً أنه قتله. -
 إن كان هذا رأيك استمعتُ إلى أفكارك.
 - من لا يفارقون ذهني هم الحكوف الذين نحن في سيرتهم. نحن من عرق واحد
 ونتقاتل! لو أنهم الخزر لكان مفهوماً...
 - والزبخ والموط؟
 - كلنا من أصل واحد وإن اختلفت التسميات.
 - إذن، - ابتسم نخلش، - تفكَّر كما تريد في ما قاله لي قبل أيام عجوز من

"النبج" لا أسمىه. إذا كان الرجل والمرأة يريدان تبادل الحب فمن مصلحتهما أن يتشاجرا أكثر، ويعودا فيتصالحا، ثم يتقاتلا. يعيشان وأحدهما لا يطبق رؤية الآخر؛ فإذا تصالحا أحرقتك حرارة، لا دفء، علاقتهما الليلية، ها، ها، ها! - أغلقت الأحصنة آذاها حين ضحك نخلش، وضحك الفرسان وراءه، وسأل هو: - هل فهمت يا قدان؟ - ودون أن ينتظر الجواب حثّ ثانياً الحصان الذي هدأ. - هذا ما يجدر أن نفعل بالحكوف الذين نتجه إليهم... - "من حسن حظي أن لا امرأة عندي مثل هذه... ثم يقول لي حقار: سأجعلك تقضي ليلة مع دكايس... ليفعل هذا مع أمير القسوغ الذي نقض الحكوف غرسه. ولكني لا أتوقع أن سهمي الوحيد المسموم سيسمح لحظه بالتجدد..." أضاف بينه وبين نفسه.

"ما كان ليبقى حيّ على الأرض لو أن الحب بين الناس يزداد مع الاقتتال..." - ثمّ قدان رأيه الشخصي في الموضوع. - أيّ نوع من البشر هذا؟! كنا نخدّمه وندله في طفولته ولكن لم يكن يتفاهم معنا. ومع أنه صار رجلاً فإننا لا نفهم حقيقة ما يريد. - خيره وشّره متلاصقان. يكسر ويجبر الكسر. لو استطاع لأحرق أرض الحكوف لأنهم لا يريدوننا. أهذه هي نيّته الوحيدة نحوهم أم له غيرها؟ من جهة استطاع الأمير ردد أن يوقفه، لا يرفض مهما كلفوه. هل اقتنع بما لم يكن قادراً عليه إلى الآن كما يقول تيمرقوه، أم هدأه؟ والسماء ليست صاحبة دائماً، والنبج ليس صافياً دائماً..."

ظهّر تلّ قُبان لا يتسع للفرسان المسلحين. والجميع متجهون إلى مضيق الحكوف، إلى حيث تبدو القرى العديدة المتناثرة. وشمس الصيف توزع حرارتها على الفرسان بالعدل، وتلمع من فوق قرى الحكوف المتناثرة هنا وهناك في الغابة الجبلية وعلى سفوح الجبال. والجوارح تدوم في السماء شاعرة بأن شيئاً غير سارٍ يحدث، منتظرة النتيجة.

- من ننتظر؟ - يسأل حقار نخلش.

- لست من يجب أن تسأله. بل هذا هو، - يشير له إلى مكان وقوف ردد.

- ننتظر فرسان نيج، - يقول شنبه. وسرعان ما يثبت صحة كلامه: - ها هم يخرجون من عمق الغابة.

- لا تَهْتَمَّ بما ليس من شأنك... خذ، - يهمس نخلش لشنبه، - علقه بطرف سرجك لا يلتبس بشيء. وكما قلت لا تسدد إلى رأسه ولا إلى صدره لأنه يلبس ترساً جليداً، سدّد على مؤخرته أو فخذته متى اشتبكنا في المعركة. سدّد جيداً إذا كنت تريد أن تصبح معاون قائد جيش...
- ألا يجوز في هذه اللحظة؟ سأرمي من وراء تلك الشجرة دون أن يعرفوا المصدر.

- قلتُ لك في ساحة المعركة!.. - كظم نخلش غضبه بصعوبة. ونظر إلى حقار بعين مستاءة، فأعاده إلى وعيه.
دخل الأمير ردد وقائد الجيش مشقوه إلى ساحة المعركة. ارتفع مشقوه الذي تأخر عن ردد مسافة رأس حصان على الركاب، ونادى الفرسان بيدٍ مرفوعة:
- ترجّلوا أيها الحرس! سيتحدث إليكم ردد أميرُ القسوغ. - ترجل مشقوه وأمسك بزمام الحصان. وفعل الآخرون مثله.
طاف ردد الساحة المستديرة على ظهر الحصان متأملاً من يودّه ومن لا يوده. ولم يتوقف عند أحد، ولم يتكلم إلى أحد. وبعدما تفقّد الحراس عاد إلى مكانه الأول، لا إلى الساحة. وقال بصوت هادئ:

- يا حراس إمارة القسوغ، يا قائد الجيش، ويا معاوني القائد! المكان الذي قُذِّتكم منه، والآخر الذي قُذِّتكم إليه هما أرض القسوغ التي أعطانا إياها إلهنا الكبير وأهلتنا الأخرى. إلهنا الكبير - الشمس يعطي بالتساوي في كل مكان. ونحن نغمرنا برعايته ونُحسِّن إلينا. لم أكن أودّ أن أبدأ إمري بالحرب. موفديّ الذين لم يكن في قلوبهم إلا الخير، إلى هذه الناحية من أرض القسوغ، - هزّ سوط الحصان أمامه مُشهداً إياه على أن هذه الأرض له، - قتلوه هنا. ولو لم تكن المسألة مسألة دولة بل كانت فورة غضب في مجابهة فردية لما جئت بكم إلى هنا حتى لو كان القتل أقرب الناس إليّ. وكما يقول حكيمنّا كولس: إن لم يستتبّ الأمن في أي جهة من القسوغ فلن يستتبّ في القسوغ كلها.

" ما الذي لا يستطيع هذا الرجل أن يقوله؟! " - غضب نخلش. والتفت إلى قدان يريد أن ييوح له بتكُدّر مزاجه ولكنه انتبه إلى قربه من الأمير فابتسم في وجهه يريد أن يقول له: ألا يتكلم جيداً؟ ووافقه الآخرُ بهزّة رأس.

- لا أريد أن أثير حرباً في إمارة القسوغ ولكننا لن نتنازل أمام من لا يريد الانصياع. والآن أرسلت أيضاً ثلاثة فرسان إلى الحكوف. وقد حان موعد عودة هؤلاء، وستتصرف تبعاً للخبر الذي سيأتونا به. وأكرر كلامي: ليس ما جئنا لأجله مسألة انتقام، بل مسألة دولة. فلنتحلّ بالصبر! السيف سهل امتشاقه، صعبٌ إعادته إلى غمده.

" نعدّه شاباً غِزّاً، ولكنه ليس مجنوناً... - تعجّب حقار مما سمع، وأضاف غابطاً إياه: - إن كان وراءك أمثال الحكيم كولس حولوك إلى عاقل وإن كنت مجنوناً... أنا نقرّ المسنين العقلاء مني، وتركّ نفسي لشنبه ونطاي يخدعاني. ونطاي يتأمل ما سيخرج من فم تراب مذهولاً من بعد ما اتهمني بما لم تبه الألهة. ولا تسعه الدنيا من الفرح إذ ينظف روث حصانه. مهلاً، مهلاً، سنرى ماذا تفعل متى استرجعوا منك هذه المهمة التي تعدّها فائدة لك. وإن عدت إليّ لاجئاً لم أسمح لك أن تدنو من باب داري. شنبه الذي رجولته وإنسانيته متلازمتان ولا يخذلك عند الحاجة هو شنبه؛ مهما امتدحناه أو نخرناه لم يتغير فيه شيء. وأنا ونخلش عقدنا عليه أملنا واثقين به... " - التفت حقار نحو شنبه، وأجابه بنظرة تعني جهوزه.

- أنت يا قُدان عندك تجارب كثرة، وخبرت الكثير من الناس، - قال نخلش، وإن كان يهمس، مُسمعاً الأبعاد أيضاً، غير متناسٍ شنبه أيضاً، - وأنا لست قليل التجارب، وإن لم أكن في الأسر، فنحن لم نخطئ في شأن أمير القسوغ. وأنت سمعت ما تصل إليه فطنته... - إن أزهقنا روحه اليوم فكيف سأجعل هؤلاء يتقبلوني؟ ارتعب نخلش في داخله.

- وأنا كنت أفكر في هذا يا نخلش، الأمير ردد رجولته ورحمته متلازمتان. " أي رحمة لا تفارق لسانيكما أنت وهو... - ابتسم نخلش في سرّه الآن وقد عاد إلى وعيه، - أستغرب أنكما لم تنتبها إلى أن العالم الذي تعيشان فيه مؤسس على الظلم!.. انظروا إلى تلك الجبال والغابات، والفرسان المحتشدين: الأعلى والأكبر يهيمن على الأدنى والأصغر. وليس الناس وحدهم المحكومين بهذا القانون. والوحوش عندها هذا الهرم التراتبي. ما فائدة هذه الإمارة التي نحاول تأسيسها؟ كيف تساوي بين الجبال والغابات والأنهار والبراري

والمراعي... وكيف تشبّه بي أغبان الآتي من قرية ششحرس، والذي لا يصل رأسه إلى خصري؟.. ألم تر ماذا فعل الأمير ردد؟ أرسله موفداً إلى الحكوف متجاهلاً إياي. ستراهم جاؤوا به على حارك الحصان كما جاؤوا بصديقك داور الأقطع... هؤلاء الذين خُلِقوا على هذا العالم الظالم لا يحتاجون إلا إلى القوة المربعة. وكيف يفهمون معروفك ورحمتك؟ أكان هؤلاء يطيعونك لولم تنتصر عليّ بالقوة؟ وهل كانوا سمحوا لك بتأسيس إمارتك؟ من يهتم بالخزر الذين تُرهب بهم الناس؟ هؤلاء مثلنا، يغيرون علينا وينهزمون. الإنسان لا يختلف عن الكائنات الحية الأخرى، سيأكلونك حالما يرتاحون. قوّ قلبك يا شنبه، ويدك وقوسك وسهمك. القوي يصرع الضعيف، هذه حال العالم الذي نعيش فيه!.."

- الفرسان عائدون!- الضجيج الذي ثار إثر نداء المستطلع الذي اتخذ رأس الشجرة مرصداً له، فطار من فوق الأشجار أعاد نخلش إلى وعيه. شوهّد في المضيق عدد من الفرسان يأتون خبيّاً، والمجموعة التي يقودها أغبان في المقدمة. والفرسان اللذان يتبعانهم يحمل كل منهما على حارك الحصان رجلاً مقيداً. ما لمح نخلش زرع اليأس في نفسه إذ فهم أن مؤامرتهم لن تنجح اليوم. ترجّل عن الخيل غير قريب ولا بعيد عن ردد الفرسان الموفدون والحكوف، وقال أغبان:

- ليكنْ يومَ خير على إمارة القسوغ يا ردد؛ الحكوف رضخوا، وجاءك كبيرهم بشكواه.

- أسمعك، لم ينتظر ردد.

- يا ردد الذي ستزدهر على يده إمارة القسوغ، يا من جعل الله يومه مئة، - خرج كبير الحكوف بضع خطوات عن رفاقه وقال، - ما فعلناه بك نحن الحكوف غير لائق، - ونادى رفاقه من ورائه دون أن يلتفت إليهم، - أنزلوا القتاتلين من حارك الحصان. ودعوهما يجثوان على الركب أمام أمير القسوغ. هذان هما من دفعا الحكوف المتنافرين الذين لا يسمعون الكلمة إلى الخطيئة. وأنت حرٌّ في ما تفعل بهما. اليوم، بل منذ هذه اللحظة، ننضوي تحت علمك المصفور من البندق.

- حرروا القاتلين! - قال الأمير ردد، ثم أضاف بعد قليل: - وارفعوهما عن ركبهما، لا أرى من اللائق بهما، ولا بي، أن أكلمهما في هذه الجلسة ولو أنهما قاتلان. لماذا قتلتما موفديّ، ولماذا هيجتم الحكوف؟

- نحن الحكوف نعيش منذ الأزل دون أمراء، - قال أكبرهما دون أن ينكسر صوته، - لا نريد أن نختبئ تحت كساء أحد من الأمراء.

- على كلامك يبدو أنك لم تندم على ما فعلت.

- لا أندم!

- أسألك مرة أخرى.

- لا أكرر ما قلته مرة.

- وأنت؟ - سأل الأصغر، - لماذا ارتكبت هذه الجريمة؟

- أخطأت، - ولم يماطل: - كنت أرغب في أن أصبح معاوناً لهذا الكبير الذي سيصبح أمير الحكوف.

- انتهينا من موضوع من لم يندم، - أمرُ الأمير ردد مقتضب: ارموه في الوادي! أوصلوا القاتل الحكوف الذي لم يعلن ندمه إلى حافة الوادي العمودية دون أن يقاوم الرجلين اللذين أمسكا به من جانبيه والآخرين من أمامه وورائه. ولم يلتفت بعدما تركوا يديه، ورمى بنفسه صامتاً دون أن يتيح لهم فرصة للكلام.

"كان هذا رجلاً!" - قال ردد في نفسه دون انفعال.

- ساحني يا أمير! - ارتقى الآخر على ركبتيه أمام الأمير.

- أنت انتهت قضيتك يا عديم الرجولة! - ألقى ردد نظرة احتقار مُرَّة على الراكع أمامه. - نعيده إليكم على أن يلبس طوال عمره قبة نسائية مهترئة.

وفي هذه اللحظة فارق نطاي تراب، وألبس الجاثي على ركبتيه القبة النسائية القديمة. وسخر حقار في قلبه من نطاي "هيه يا أيها الشجاع!..". إلى أي أسرة ينتمي هذا الذي يرتدي قبة النساء، وما اسمه يا ثرى؟ - سأل نخلش نفسه وهو يضغط على أسنانه غيظاً، وخطر له فجأة: - أسدٍ معروفاً لمن أهين، فإن لم يقتله قومه متى عادوا به إليهم، بقي طوال عمره ممسحة تحت قدميك!.."

- أيها الحكوف الذين استقبلونا بالودّ، - قال الأمير ردد، - عودوا، ونحن كنا

قررنا أن نستقبلكم بالودّ، ولذا اجمعوا رعايا القسوغ في نواحيكم تحت شجرة البلوط حيث تؤدّون القسم، ونحن سنوافيكم مع الظهر.

كان نخلش مرتاحاً لورود اسمه في عداد الخمسين فارساً الذين عيّنهم الأمير نفسه ولكنه حزن جداً حين عرف أن حقار، وشنبه الذي أودع في جعبته السهم المسموم، بقيا في المرصد.

"لا أعرف إن كان مع ابن لاورستن " طاقية إخفاء " أم سحره تراب. يكشف ما في قلبي... حظّه يغلب حظّي، ولكن الأيام ما تزال أمامنا..." - ركب نخلش مغتاضاً.

X

ينقضي شهرا الصيف، والثالث يعلن قدومه.

منذ زمن بعيد لم تأت سنة خصبٍ على نواحي القسوغ مثل هذه السنة: السنابل تقف بصعوبة على سوقها شبه الصفراء. وأشجار الفواكه تنحني على الأرض بأغصانها. وعناقيد العنب الضخمة البيضاء المحمّرة تنظر في وجهك معلنة أنها ستكون جاهزة في غضون شهر. وضافائر الفلفل والبصل والثوم معلّقة على أعمدة مساطب البيوت، وعلى جدران الأهراء. والفاصولياء ستجهز بين عشية وضحاها. وتتدلى من أغراس اليقطين أوراق تكاد تذبل، وثمار بيضاء وملونة. وأفراح الغلال التي يداعبها النسيم اللطيف لا حدود لها.

وكما الصيف الغني والبركة في الغلال فالحياة في إمارة القسوغ وحتى نواحي الحكوف هادئة آمنة لا يشغل الناس فيها إلا هموم العمل. والناس الذين يفرغون من جني محاصيلهم ينظرون أحياناً إلى السماء بقلق، ويلتفتون إلى الجبال: يدعون إلى إلههم الكبير - الشمس ألا يأتيهم بمطر في غير حينه، أو ريح عاصفة، أو جفاف يحرق الزرع. ثم ينادون آلهتهم الآخرين واحداً واحداً. لا راحة لديهم ليلاً أو نهاراً - ويؤدّعون مخازنهم وأهراءهم وسطوح بيوتهم ما يحين موعد جنّيه.

لا يفارق ردد البرية ناسياً كونه أميراً، مشمراً عن ذراعيه، لابساً قبعة لبادية، وقميصاً باهت اللون من العرق، ويده المحشّة وحجر السن. وأخوه الذي يقبّله

لا يسمح، تاركاً وراءه حُزم الحصيد، لأخيه الجسيم أن يسبقه. ورامبس التي تربط الحزم، وجارتها غشناغ التي خلّفت وراءها مأساتها، وأينار، وجارتها آنست، وراءهم.

في الحقول المجاورة ترتفع أحياناً مزحاتٌ وضحكات فتنتبه فجأة أينار وآنست، فتخطفان رأسيهما إلى الأعلى. ويحني ردد وشوباش رأسيهما حين يريان رامبس وغُشناغ اللتين ترميان وراءهما حزم القمح المربوطة وهما تسيران بخطاً قصيرة، تتوغلان في الزرع كأنهما تحبطان خبط عشواء في الأرض، ويغبطانها فيغلب خجلُهما حسدُهما لهما، فينصرفان إلى عملهما.

نُبّهت مجموعة الفرسان القادمين من جهة القرية يحملون محشّاتِهم المضمومة. وتعرّفا على العجوزين اللذين يتقدّماهم:

- مبارك لكم محصولكم الوفير! - قال كولس باسمه واسم رفيقه، وترجّلا.

- لتتقاسموا معنا محصولنا! - أجاب ردد على لسان من يجنون المحصول.

ارتفع في البرية صوت فُتح محشّات الفرسان الخمسة عشر. ومن الجهة الأخرى أخرج الفرسان الذين يقودهم حقار وشنبه مسنّاتهم.

- قبل أن نحشّ الكومة الأولى يا طاطخ، - قال كولس، - لا تبخس حقّ من أرسلنا. وأطلع الأمير، وأسمع النساء!

- إن كنت شرّفتني بهذا يا كولس، فلن أنسى معروف كبيرنا عُجبس، سأعلّنه، - بعد فاصل قصير صاح مسروراً: - ألا تعرفون يا جماعة أن عُجبس المتلفّظ دائماً، الذي لا يطمئن قلبه، لم يهدأ حتى طلب من الجميع أن يتبرعوا بالعمل من أجل الأسر التي ليس لها لابسو قبعات كي لا تضيع محاصيلها في أرضها. فلم يدعنا نرتاح في بيوتنا، ولا أمام أبواب دورنا، أنتما، يا رامبس وغُشناغ، ماذا تفعلان بين الرجال؟ اصطحبنا الفتيات وعودا إلى القرية. لن تحلّ الظهيرة إلا وقد انتهينا!

- وحقول الحبوب تلك؟ - سأل أحدهم.

- لمن هي؟

- كائناً من كان مالكها يا طاطخ فهي حبوب مزروعة جاهزة للحصاد. - قال كولس وهو يعرف أنها لردد وتراب. - سنصل إليهما متى انتهينا من حقل

داور.

- طبعاً، وهل نبدد المحصول وعيوننا مفتحة! - كان كلام طاطخ مختصراً غير أنه لم يملك إلا أن أضاف: - ليس عيباً أن نعرف المالك وإن كان يُقال: إعمل المعروف وارمه في الماء!

- صحيح، صحيح، يا زعيم الخير، - ابتسم ردد، - هذا الحقل لنا، ومجاورهُ لتراب.

- هل سمعت يا كولس ما قال الأمير؟ - ارتفع صوت طاطخ فرحاً، - يبدو أن عزّاب عملنا التطوعي اليوم ليس غجيس. بادل كولس المزاح مُسمِعاً المعنيين، ثم أضاف دون مواربة: - حسنٌ أن ينفع أحدٌ الآخر، ولكن ليت المتطوعين للعمل أكثر. كلما زاد عدد من يرفعون الصخرة خفَّ الحمل على الحاملين. ولذا لا نتخلَّ عن فكرة العمل التطوعي أياً كان صاحبُ الفكرة، وليكنْ بركة علينا. ليَقِفْ عدد من الرجال خلفي، وليتبعنا رابطو الحُرْم. لن نسمح لجماعة حقار أن يغلبونا. - يتوغل كولس في الحقل ويغني: دعونا نغلب الحشاشين المتبجحين.

وليتبع واحدنا الآخر.

تنتصب وراءنا أكوام القمح...

يردد الرجال وراء ردد، وجماعة حقار العاملة في الجانب الآخر أغنية " جناة المحصول ". ومن يصل إليهم اللحن يغنون وراءه بقلوبهم وبعصي محشاتهم. وشمس الخريف تتسلل رويداً رويداً من وراء الجبال.

- إلهنا العظيم يشرق! - قال أحد الحشاشين فصوّب الجميع وجوههم جهة الشمس. ورفعوا أكفهم إليه. ولم يكن كولس وصحبهُ وحدهم بل غنّى كل الحصادين في البرية أنشودة " جناة المحصول ". وكلّ تمنى من يوم محصوله ما في قلبه. ودعا أن يسهّل له حياته، ويغمره برعايته.

استأنف الحصادون عملهم في حقل الحبوب. وعَبَّر صريف محشاتهم البرية.

" متى جنينا الحبوب، ومحصول الخريف، - يقول ردد وقد أسند محشّته إلى كومة من القش، - سننهي بناء البيت بسرعة، وتنقضي إلى وقتها أيام حداد أبنار... هل أعيش أميراً أعزب والجميع يحذّقون فيّ مستعزين... والحكوف هدؤوا. ولو

هدأ الزيخ والموط ولم يعادونا لشهدوا على أننا من عرق واحد. أحياناً يُرى الخزر الجرّمون يتسكعون في الغابات الجبلية ولكن هجماتهم علينا قلّت. وإن تحصّناً في القرى عبّر الفرسان الحراس هؤلاء فسنتهي من مشكلتهم مستقبلاً. وسأكلف نخلش بمواجهة هؤلاء النهائيين لأنه يجب القتال... "

نظر كولس وهو يسرّ المحشة فرأى كوكبة الفرسان الخارجة من القرية. ولم يستغرب المواشي التي يسوقونها، ولا القُدور الضخمة التي يحمل كلاً منها فارسان يسيران جنباً إلى جنب. وأغرب ما رآه هو طريقة ركوب غجيس العجوز وطريقة قدومه.

- لتجنوا محصولاً طيباً من الحبوب! - قال غجيس، ونادى دون انتظار الجواب اثنين من أصغر المترجلين سنّاً: - هيتا ساعداني في التّرجل! - ولما أنزلاه، توقف معتمداً بيديه الممدودتين على عصاه كالعادة، وتأمل الجوار مدةً. ثم لام نفسه: - يا حسرتي، من أين أسترجع شبّابي الطائش، ورجولتي الطليقة! - يا كولس ما كان أسهل علينا مثل هذا المحصول الخصب!؟

- نعم يا غجيس، نعم. ليس قليلاً ما جنيته، تفضّل، قاسمنا خصبنا! - رضي الله عنك يا كولس، ركب حصاني المحجّل كي لا أحرّم نفسي من يوم عمل القرية الطوعي. إله المواشي "أحين"¹ أرسل إليكم مع الشباب راضياً هذا الفحل الطيب كي يكون غداء لكم. اسمع: اشرعوا في خدمة المواشي. - التفت إلى الشباب من ورائه: - الحقّ أُنظر إليك فكأنّ ظهرك لم يعد يعرف الانحناء، تُحرّك المحشة مستقيماً كالألف. ألا تنحني قليلاً عليها أيها البائس تصبّخ أخفّ عليك.

- يا حسرتي، وهل تسمح لنا الشيخوخة بالانحناء! - وهذا صحيح، هي تحنّني. وتحافظ عليك أنت منتصباً. يا أسفي من أين نستعيد شبّابنا الهائج ورجولتنا الحرّة؟! ولكن لا داعي لليأس أيها الشباب ما دمتم سالمين، ونحن نشرف عليكم! - هاتوا المقاعد ليجلس عليها الكبار، - قال تراب.

¹ ويُلفظ بطرق مختلفة. وكانت أمهاتنا وجدّاتنا ما زلن يحلفن به عفواً.

- نعم، بديهي أن ندعو كبارنا إلى الجلوس. - أتى نطاي أيضاً بمقعد وطيء مما جلبه الفرسان معهم. - اجلس يا عُجْبَس، أرح رجليك!

- الخصر هو المشكلة، لا الساقان... هذا هو مقعدي، - هرّ عُجْبَس عصاه بين كفيه، ثم نادى من يليانه عمراً: - كولس وطاقخ، هيا أعطيا محشيتكما للشباب، وأشرفاً على الشباب العاملين في تقطيع اللحم دون أن تنذرعا أنكما لستما طبّاخين. وأرشدهم إلى طريقة إعداد الحساء. وأنت يا أمير القسوغ ردد، لا توسّع دائرة محشيتك مغترّاً بقوتك. ولا تبالي في طول خطواتك. العين تخدعك والقوة محدودة. هيا هاتوا لي المقعد. الآن سترتاح رجلاي. ظهوركم ستعرق كثيراً فالأفضل أن تخلعوا قمصانكم. وأتما يا طاطخ وكولس لا تُكثرا من الحطب تحت الحساء فيتبخر، هل سمعتما! المحصول، بفضل الله، جافّ تماماً.

ردد الذي يتلقى النصائح بيتسم، وتنفيذه للتعليمات يظهر من حركات المحشة، ومن خطواته. ومن يتبعونه ممن تحفظوا أن يخلعوا قمصانهم أمام المسنين يشعرون بوجود عُجْبَس وراءهم، يتركون وراءهم رُزْم محاصيلهم وليس في قلوبهم إلا الخير له. ومن يربطون الحزم لا يعرفون راحةً. ومع جماعة حقار يتنافس آخرون في الطرف المقابل، ويخاطبونها ويمارحونها. لا يطمئنون لسرعة استواء اللحم في الحساء. ولكن هذا لا يحول دون تراجع المساحة غير المحصودة أمامهم.

- هيا يا شنبه، راقبه! - يقول حقار إلى من وراءه دون أن يوقِف المحشة. - وردد الذي يسبقنا في الطرف الموازي لنا لا تعرف من سرعة حشّه أنه أمير. يسبق من هم وراءه، ويتركنا نحن وراءه.

- لا تستعجل، لا شيء مهمّاً... - يقول شنبه لصاحب الجسد الضخم أمامه. اعتمدنا عليك فلم نجد أنفسنا إلا وراءه. ولكنك تبيّنت عن حكيمة مخادع، نخلش هو من جلّله العار أمام الناس. أضاف له بينه وبين نفسه. وبعد قليل توقف، وأنهى وهو يسنّ المحشة ما يُقلقه منذ الصباح: - كلنا رضخنا لردد أميراً للقسوغ ولكن ما لا أفهمه هو الصداقة بين نطاي اليائس من رجولته وتراب المعوق. انظر إليهما يا حقار لحظة كيف يحركان الحساء في القدر!.. لا يجوز أن تأكل ما لمسته يدهما!

- لا تدعهم يسمعوننا!! - يرفع حقدار صوت مسنه. وحين يفكر يصيبه الهلع: - لا يقال مثل هذا في رسل آلهتنا... ولا أظن نطاي تعلق به دون علم الآلهة. لا تتخذ منهما محدثين، ولا تسمح لهما بالمقابل... هيا، يلحق بنا من هم وراءنا!..

انتهى إعداد الطعام منذ مدة ولكن الفلاحين يأبون أن يأتوا إلى الغداء إلا بعد أن ينتهوا من حقل تراب بعد حقل داور. وقال كولس بعدما غسل الحصادون أيديهم وجلسوا:

- دعوا أكبرنا يذوق طعام العمل التطوعي أولاً. واطلبوا منه كلمة بالمناسبة. وُضع أمام غجيس الصحن الخشبي الذي تفوح منه رائحة حساء طيبة. وضع العصا جانباً وتوجه إلى الشمس التي تنحدر إلى المغيب. ورفع إليها يديه:

- لنبتهل إلى إلهنا الكبير أن نأكل من طعام عملنا التطوعي بالخير! وأن يعوض إله المواشي "أحين" ما أعطانا منها مئة ضعف... - ولما انتهوا من تمتاعهم أطلق حريتهم: - ذوقوا بعد الأمير ردد بن لاورستن بالخير!

- لا، لا أيها الزعيم المبارك. - لم يقبل الأمير ردد ما سمعه. ليس هنا ترتيب في تناول الطعام. سنمذ أيدينا جميعاً معاً إلى الطعام. - تقابلت نظرات ردد وكولس دون مفاجأة. وأحس الأمير برضا الكبير عنه.

وفيما المشاركون في العمل يشربون من الحساء، ويتناولون من اللحم حيّاهم الفارس القادم من دغل الخوخ البري:

- بورك لكم في طعامكم!

- حياك الله، شاركننا يا نخلش! أضاف كولس إلى كلامه.

- يسوؤني أن أصادف مائدة عملكم جاهزة وأنا لم أشارك فيه. - ظل نخلش يتكلم ويزيح نطاي وتراب من مكانيهما حتى جلس مقابل الأمير. - ولكني على حق في ما لست راضياً عنه. لو أخبرتمونا في مستحقوه، وهي ليست بعيدة عن مزبه، لساهمتنا كباراً وصغاراً في يوم عملكم. ثم إني لن أكتمكم أي عندما سمعت أن الأمير ردد يساهم في العمل معكم لم أجد مساهمته لائقة، ثم لما أعدت التفكير وأنا في طريقي إليكم غيّرت رأيي. والسبب في تغيير رأيي كلياً هو ما قالته لي والدتك السيدة رامبس حين طرقت باب دار الإمارة: متى كنت

أميراً، وأميراً للقسوغ بخاصّةٍ، وجب عليك أن تتقدم من اختاروك في الأفراح والأحزان، وفي العمل والأعياد.

- مُدّ يدك يا نخلش، اللحم يبرد، - قال مشقوه لا يُطيق ماطلته.

- لم يمض وقت على مفارقتي مائدة عامرة، - قال نخلش، غير أنه لم يملك إلا أن يغمغم بعدما قلب قطع اللحم التي أمامه، كأنه صادقٌ ظاهراً، - تمُدُّ، إن وجدت على المائدة لحماً طيباً يستحق أن تذوقه... لا تقلق يا أمير، لم أشتغل، ولم أتعب. يكفي أن نعص عظمة عليها بعض اللحم... - ثم حدّث نفسه: " مهلاً، مهلاً، قيل لي إنك تحب أن تصيد على طريق الجبل ذاك وحدك، سلّمني إذن نفسك مرة فحسب، ولن ترى ثانية بيت الحجر الذي أمرت ببنائه، والعروس العجفاء التي ستبني بها في ذلك البيت، وكسرة خبز تضعها في فمك... كنتُ أزهدك روحك منذ زمن طويل بالسهم المسموم، فقالوا لي: يكفي أن يصبح في أيدينا مهما كانت حالته ضعيفة حتى نعطيك الزنار الذهبي. ورجلُ الحكوف الذي ألبسته قبعة النساء بثّ لك الكثير من أفخاخ الذئاب في طرقات الغابة".

...

مضى الصيف، ومضى الشهر الأول من الخريف.

قفز نخلش من مكانه حين سمع صوت الغزال. وأسكت المجرمين الثلاثة بيده المرفوعة، وحين تبعه صوتان آخران قال للمجرم الذي يعرف شيئاً من لغة الأديغة:

- أظن أن أمير القسوغ صار بين أيديكم. - وقفز على الحصان حتى اضطر الأخير إلى حيّ ظهره. وقال لمن وراه: - احضروا حالماً تسمعون الإشارة المتفق عليها.

سخر نخلش دون أن يترجل من ردد الذي علّق رجله في الفخ:

- ثم ماذا يا أمير القسوغ؟ هل أمسك بك حقاً الرجل الحكوف الجبان الذي ألبسته قبعة النساء!

- يا نخلش الأصهب، ظننتُ نفسي أحذر منك فإذا بك تغلّبي هذه المرة!

- نقّذتُ وعيدي حين كنت تكسر ظهري في ساحة المصارعة في قراي... -

ضحك الجالس على صهوة الحصان بأسنان مطبقة. - كم مرة تبتهك حراسك
ألا تصيد وحدك!.. هيا انبح ثلاث مرات كما تفعل كلاب الصيد من أجل
من نزع عن رأسه قبعة النساء!

- مُرهم أن يحرروا رجلي إن كنت رجلاً وبارزني بالسيف!

- ولماذا أقتلك بسيفي وأنا موعود بزنار من الذهب؟!

- لا شيء من الإنسانية عندك أيها الأصهب القبيح!

- وهل سلوكك مع هذا الحكوف والحكوف الآخر من قبيل الإنسانية؟

- هذان لم يجنيا إلا ما كسبت أيديهما. إن كنت تريد ألا يشبّهك الجبان
بنفسه فتحلّ أنت بالرجولة! مهما كان عدوّ من طلبت عوّنهم فسأقاتلكم وهذا
الذي يرتحف قلبه شاهدي.

ترجل نخلش الأصهب من الحصان متمهلاً.

- هذا من سيكون شاهدي؟ - هجم نخلش فأمسك بعنق الحكوف. وبعدما
خنقه ورماه في الوادي جثة هامدة التفت إلى ردد وابتسم في وجهه: - هل
رأيت؟ أنا أعيش دون شاهد...

في هذا اليوم نفسه، حين باع نخلش ردد إلى المجرمين الخزر كان في مضافة
حقار، يبتسم في وجوه الناس الذين لا يعرفون ما حدث.

وكان نخلش الأصهب في مقدمة الفرسان الذين قلقوا لعدم عودة الأمير ردد في
المساء.

XI

"من لم يُضبط بفعلته فليس سارقاً" - لم يترك نخلش الأصهب وهو يردد المثل
السابق مكاناً لم يبحث فيه عن الأمير المفقود مع سائر الحراس. يصلون الليل
بالنهار، من غابات ودروب جبلية وضفاف أنهار، حتى الجذوع القديمة التي
حملتها الأنهار جعلهم يتفقدونها. ومرّ بالحراس على الغابة التي ساعد الخزر فيها
على اعتقاله، والوادي الذي ألقى فيه الرجل الذي خنقه من الحكوف: في
النتيجة لا إنسان ولا شيء يوحي بالريبة. كل جبال القسوغ وغاباتها، وما فيها
من مخلوقات برية وأهلية بريئة.

" مضى زمن طويل على اختفاء آثار المركب الذي أبحر به ردد كما تحفّ بقايا المطر بعد أسبوع من قيظ الصيف، - ضحك نخلش ثانية، ولكن الصوت الداخلي الذي ارتفع رغماً عنه أيقظه: - أ يكون هذا الرجل ذو القوة الهائلة الذي أفقدناه الوعي، وقيدناه بصعوبة خلّص نفسه؟.. أو، من يعرف، لم تيسّر أمور الخزر، وعثرت عليه المجموعة التي اندفعت في ذلك الاتجاه بقيادة ججان؟ هذا مستحيل!.. يكفي أن يوصلوه إلى " فيودوس " إذ أن الروم ليسوا بعيدين عن تلك الجهة... وإن ماتوا فليذهبوا إلى حيث تذوب عظامهم!"

- يا مشقوه، ولا تفهم كلامي اتهاماً لك، - قال نخلش بعدما عادوا إلى دار الإمارة في مزبه، - ولكني لا أعدّ من الصواب إرسالكم الأمير إلى الصيد وحده. وأنت أيضاً يا شوباش، ما الذي حملهم على أن يقولوا: الأخوان كخنجر ذي حدّين؟! كان عليك أن تلازمه كظله ولو لم يقبل منك... - " لماذا خاطبت بلقب " الأمير " على مسمع من الجميع، الشاب الغرّ الذي ما يزال أنفه يسيل، ولا نعرف أصله، ليس بعيداً أن يتخذوه أميراً متجاوزين أمثالي!.. ومشقوه لن يبايعوه أميراً وإن صدّق أنه قائد جيش. وججان لن يُسمح له بالاقتراب من المنصب... ولكن من يعرف ما يمكن أن يخطر لكولس الحبيث؟ أين هو الآن؟.."

- منذ أن أيفع الأمير ردد، - ردّ مشقوه وإن لم يكن يتحمل كلامه، - كان يحب الصيد وحيداً. من كان يدري أن يحدث له ما لم يحدث إلى الآن؟ ولكن قلبي يحدثني أن ردد، أمير القسوغ، ما يزال حياً.

- طبعاً يا مشقوه، - أيّده تراب، - ردد، أمير القسوغ، حيّ، انتظروه، يطلب آلهتنا منا الانتظار. هيا دعونا نبتهل إلى إلهنا الكبير أن يحافظ على حياته! - رفع يديه إلى شمس الخريف التي تتسلق السماء على مهلها، وفعل مثله من في الدار ومن خارجها.

كان ما في قلب نخلش أثناء الدعاء أمراً مختلفاً وإن كانت قلوب الآخرين متفقة. تعثّر أول ما رفع يديه لا يعرف ماذا يقول للإله الكبير الذي يحدّق فيه، ثم عادت إليه شجاعته فبدأ يدعو إليه بما يشاء: - " السبب الذي اجتمع لأجله هؤلاء لم أقترفه دون علمك يا إلهي الكبير، وقد خلقتنا، أنا ومن آذيت،

بقوة هائلة. وأنت من يهيج أحداً على الآخر ويدفعه إلى مقارعته. كنت أريد أن أصبح أميراً على القسوغ وغيرهم من أبناء قومنا، ولكنك لم تُعني، ولا أدينك بهذا إذ نصرتني دون أن تعترضني، على من وقفوا في طريقي. أنا راضٍ عنك، ليست المشكلة في زنا الذهب الذي قبضته من الخزر ثمناً له. سأجد كثيراً مثله إن أبقيت على حياتي وحققْتُ لي ما أتمنى. وإن كنتَ ساخطاً عليّ لأني قبضت ثمناً له فلن أقُرب ثانية من المكان الذي خبأته فيه. والآخر الذي كان يلبس قبعة النساء لم أفعل به ما لا يستحق. تشقيت منه راضياً بما فعلتُ. ولكن بقي عندي، إن لم تستكثر مطالبي، رجاء: لا تجعل تراب، موفدك، يشكك الناس المبتهلين إليك في من قبيل الثقة فيه. ولما كان هؤلاء سينسون شيئاً فشيئاً إمرة القسوغ فحقّقْها لي في الوقت الذي تراه مناسباً... "

- حقّقْ للقسوغ يا إلهنا الكبير كل ما ابتهلت إليك من أجله، ولا تدعنا بلا أمير! - اختتم نخلش الأصهب مُسمعاً من بجواره، والأبعد عنه، ورفع راحتيه مجدداً. وسأل قائد الابتهاال: - ماذا قال لك إلهنا الكبير يا تراب؟

- هو الآخر قلقٌ لما جرى لنا.

- أياكون جرى دون علمه؟

- نخلش!

- أفهم يا تراب، أفهم... - برأ نخلش الأصهب نفسه، ثم أضاف ما يريد: - كأني سمعته يطلب منك، إن لم أخطئ، أن تتحلّوا بالصبر.

- لا يمكن أن تسمعوا أنتم ما يقوله لي الإله إذ يخص بكلامه شخصاً واحداً!

- جزم تراب مُسمعاً الجميع، - ووافقه نطاي بهزة رأس سريعة، وصمت الآخرون.

يزداد من وقت لآخر عدد المتجمهرين أمام باب دار الإمارة وفي الدار نفسها. يأتون من القريب والبعيد رُكبناً ومشاة. وما يستغربه الجميع ولا يعرفون تفسيراً له هو انعدام أي خيرٍ، خيراً أو شراً، عن أمير القسوغ.

- هل سنبقى متجمعين هكذا يا مشقوه؟! لا يُطيق نخلش صبراً والحال أن ما في قلبه غيرُ ما على لسانه.

- وماذا تريدنا أن نفعل يا نخلش؟

- دعونا نتوغل في الجبل، ونبحث في الغابة، وإن لم نترك مكاناً إلى الآن لم نبحث فيه. لا يجوز أن نبقي هكذا. وجماعة كولس لماذا اعتكفوا في بيت الإمارة تماماً؟

- لا أدري إن كان ردُّ أحدَ الفارسيين اللذين ارتقيا ظهر الغابة! - صرخ أحد الصَّيَّبان من على الشجرة فالتفت إلى المكان الفرساؤون والمشاة. وانتفض قلبه نخلش. ولكنهم هدؤوا حين تبَيَّن أنهما فارساؤون من الحكوف. ثم هاجوا من الخبر الذي جاؤوا به.

- كم مضى من الوقت على غياب لابس القبة النسائية عن القرية؟ - سأل مشقوه الحكوفَ حاملَ الخبر.

- أكثر من أسبوع.

- يوم أو أكثر؟

- مضى على الأسبوع الثاني ثلاثة أيام دون يومنا هذا.

- اسمح لي يا مشقوه أن أسأل الحكوف، - لم يكتفِ نخلش بما قال: - هل ما يُقلِّقكم أيها الحكوف هو اختفاء جبانكم أم غياب أمير القسوغ؟

- وهل يستوي الجبان وأميرنا؟ - بدا على صوت الحكوف الأكبر عدم رضاه عن السؤال. ولكنه استدرك مراعيّاً مشاعر السامعين: - أقول هذا لأن الجبان يمكن أن يفتردي نفسه يوماً فأتساءل: من يعرف ما حدث؟!

هاج من جديد مَنْ في الدار ومن في الخارج:

- أيكون "جبانكم" تشجّع وأذى الأمير أيها الحكوف؟ - امتشق نخلش سيفه، سأمسحكم من على وجه الأرض ولو لم يبق غيري!

- يا نخلش! - ارتفع صوت مشقوه: - اهدأ لحظة!

- ماذا يجري بينكم يا مشقوه؟ - خرج كولس من بيت الإمارة، ونظرت عدة نساء، بالإضافة إلى رامبس، من الغرفة الأخرى. ومن ورائهنَّ أبنار وأنست.

- لابس قبة النساء يا كولس، - قال نخلش بدلاً من سؤاله، - يقال إنه لم يعد، مثله مثل الأمير. توجست من شرِّ الحكوف!

- ليس عجيباً ألا يرجع الجبان، - تجاوز كولس الموضوع الذي سمعه، - ولكن لا تشكّوا في عودة أمير القسوغ إلينا يا نخلش. اصبروا، ولا تفتحوا طريقاً لليأس

إلى قلب السيدة رامبس. مرة أخرى اجثوا في الجبل، وطوفوا في الغابة، ولا تتركوا البرية والسهل والمستنقع.

- لم يكن من عادة ردد الصيد في البرية وفي المستنقع يا كولس. - أسرع شوباش بالردّ على الكبير، على سبيل التنفيس، دون أن يعرف السبب.

- هكذا يا ولدي؟ ومع ذلك كل شيء ممكن الحدوث. أرسلوا إلى تلك الناحية اثنتين أو ثلاثاً من مجموعات الفرسان. و ابق أنت في دار الإمارة، لا تركب معهم. وإن لم تصل جماعة ججان الليلة فلن تسافروا غداً. - عاد كولس إلى الغرفة في غمرة كلامه.

- هل سمعت ما قال كولس؟ - سأل نخلش الأصهب نفسه وهو بين الفرسان المفتشين. - يطلب من الصبي التائه الذي لا نعرف أصله البقاء في دار الإمارة. أليكون يفكر في ترشيح من لا قدر له للإمارة؟.. ومهموم بعودة ججان من الساحل... وهل سيغيب إلى الأبد! سيعودون ورؤوسهم ملأى بالهواء كما أرسلتهم. هذه المرة أظن أن مشروعنا ناجح إذ مضى وقتٌ غيرٌ قصير على المسألة... كان حسناً لو جعلت هؤلاء يعثرون في أحد الوديان الجبلية في الغابة على عظام تشبه عظام ابن لاورستن. بين من يزورني أحياناً من المجرمين الخنز رجل جسيمٌ فعليّ أن أرى هؤلاء عظامه... ثم نرى ما يحدث. سيكون كل شيء تحت سيطرتي... "

- هيا يا مشقوه، أرني إلى أين ستتجه مجموعة الفرسان التي أقودها! - ضحك نخلش في سره متظاهراً باستشارته. - ستتجه صوب الحكوف إن شئت.

- انسَ الحكوف يا نخلش! سنتوغل في الجبل في نسقٍ واحد.

سأل غجيس المعتمد على عصاه حين رجع كولس إلى البيت:

- طوّعت بسرعة من خرجت لأجلهم يا كولس، ولكن لا أعرف ماذا قلت لهم.

- أبقى عددًا من الحراس في أرض الدار، وطلبت من المتجمهرين أن يبحثوا ثانية في الجبل. - ولم يأت على دُكر الخبر الذي جاء به الحكوف حتى لا يلقي غجيس مزيداً من الأسئلة.

- ومن أرسلتهم إلى الساحل، ألم يعودوا؟

- نحن في انتظارهم.

- ولماذا لا ننتظرهم!.. - يا أسفي، من أين أستعيد شبابي الطائش ورجولتي الغاشمة! - غمغم غجبس، ثم قال متناسياً همّة: - سأقول لك يا كولس ما فكرنا فيه، بشماف وجباغ وطاطخ وأنا: نفكر في إرسالك أنت وطاطخ إلى رامبس المسكينة، ترجوانها ألا تضعف لغياب ردد، من يعرف، وأن تكون حازمة في موضوع الإمرة، ولا تطلق صوتها بالشكوى، وأفهموا النساء الأخريات الموضوع...

...

في اليوم التالي، وفيما الفرسان يبحثون في الجبل، عادت جماعة ججان من ساحل البحر الأسود بخبرين أحدهما سارّ، والآخر محزن: أمير القسوغ ردد حيّ، وعبروا به البحر.

- من أخبركم؟ استعجل كولس، ولكنه أنهى بكلام يريحه والحاضرين: - سنجده إذا كان حياً أينما كان.

- توقعْتُ هذا... - شدّ العجوز غجبس قامته معتمداً على العصا، ونظر إلى كولس، - ما وراء البحر بعيد، وليست البلدان فيه قليلة... يا حسرتي من أين أستعيد طيش الشباب وحرية الكهولة!.. - غمغم العجوز لائماً نفسه، وعبث برأس عصاه بين راحتيه.

- ساقوه إلى جهة بلاد فيودوس، - أخبرنا فارس من الموط رآه. - عمّق ججان الخبر.

- ليست بلاد فيودوس يا ولدي، - صحح جباغ الذي لم يقل شيئاً إلى الآن، - بل قلعة رومية على شاطئ البحر.

- نعم يا جباغ، نعم. - وافقه طاطخ، وسأل كولس: - أمِنْ هذه الجهة جاء الداعية المسيحي ديمتري إن لم أخطئ؟

لم يكن كولس يسمع حديث المسنين وإن كان مهموماً بما يُقلِّعهم. كان بقلبه في مكان أسره في زمانٍ ما، وراء البحر، يحرقه ألمه وشعوره بالإهانة. هو مجرد إنسان يأكل ويتنفس مثل الكثيرين على الأرض. لا يجد تسويةً لما فعلوا بأمر القسوغ الذي كان ينوي توحيد الأديغة في دولة. ويحمّل نفسه قسطاً من

مسؤولية عدم حمايته. ويفكر في من فعل هذا، ومن يستطيع أن يفعل. ويفرح
لسلامة أميرهم وإن أهيّن. وهل الإنسان إبرة فلا يُعثر عليه حيث سقط!
- لم تسمع ما قيل لك يا كولس، - يُعيده بشماف إلى وعيه.
- نعم، نعم... - يقول كولس هذا دون هدف، ويتابع بصوت مسموع، وهو
يهز رأسه، ما كان يفكر فيه: - يبدو أنهم ساروا بأمر القسوغ على طريقي
أنا... لم تتحلّ بالرجولة يا ججان. غبت أسبوعاً وعدت مكثفياً بالقول إنهم
ساقوه إلى فيودوس دون أن تتابع أثر صديقك الأمير، متناسياً أنه أميرنا!..
اسمعوا: أعيّدوا الناس الباحثين في الجبل. ونحن لنخرج من البيت، ولننتهّل إلى
الإله الكبير أن نشهد عودة أميرنا من الأسر، جعل الله يومه مئة، ونحن أحياء.
وقبل الدعاء - الصلاة الذي سرفعه في فسحة قُراي، أرسلوا إليه روح بقرة.
وأرسلوا في طلب النساء!

...

كان نخلش الأصهب قد فرح في سرّه حين سمع بخبر اقتياد أمير القسوغ ردد إلى
ما وراء البحر، ولكنه قال لرفاقه كاتماً ارتعابه من أن ينكشف سرّه:
- أما كنت أقول لكم إن أميرنا حيّ! أقول لكم يا مشقوه إنني سأكون في
طليعة المقاتلين إن تحول موضوع أسرّ ردد إلى حرب. دعونا، نحن القسوغ،
ننتهّل إلى آلهتنا من أجل الأمير!
لم يجد الفرسان من اللائق أن يتهلّوا من على ظهور خيلهم فقفزوا حالاً منها.
وقف نخلش إلى يمين مشقوه قائد الجيش مراعيّاً عمره، لا وراءه، رافعاً يديه
الضخمتين، داعياً إلى الإله ألا ينفضح سرّه.

XII

حدثت مآسٍ كثيرة في أرض القسوغ ولكن أحداً لا يتذكر أن أميرهم أُسر وعبروا به البحر.

الفرسان والمشاة يتقاطرون من كافة أرجاء إمارة القسوغ إلى فسحة قراي، حيث يبتهلون إلى الآلهة، من أجل أن يعرفوا ما حدث في أرضهم، ويدعوا إليهم من أجل الأمير، وينشروا الاحترام والسلام في إمارتهم، فاختلطت في عنان السماء أصوات البشر والخيّل.

قبعات الرجال المختلفة: جلود الذئب، والثعالب، والخراف، والغزلان، والدببة، مختلفة حسب قياسات رؤوس لابسها. والنساء يرتدين أغطية رؤوس كبيرة تتدلى حتى السوق. وشعورهنّ محزومة بقماش أبيض - أسود رقيق. ويرتدين أحذية عميقة برؤوس مدببة تفوق أحذية الرجال بنعومتها وبزخارفها. والبنات يرتدين زنانير ملفوفة على الخصر الدقيق فوق أثواب صوفية طويلة متنوعة. وعلى رؤوسهن قبعاتٌ مدورة ومربّعة غيرٌ عالية مطرزةٌ بخيوط الذهب والفضة. وبعض الضفائر المتدلية من تحت القبعات ترتقي على أكسية ضيقة.

الشباب متناسقو الأجساد. أكتافهم رقيقة منتصبة. والخصور متناسبة مع الأرداف الضيقة الصلبة محزومة بزنانير تتدلى منها السيوف والخناجر. وعلى الصدور ظروف بيضاء منسجمة مع الفضة التي زُيّنت بها سِيَرُ الزنانير الرفيعة. ومن الأكسية المفتوحة ترى قمصاناً بيضاً تغلق قباتها على الأعناق. وهؤلاء يقفون إلى جانب الرجال كما تقف البنات المجايلات لهم إلى جانب النساء.

يبرز شوباش بتياب أنيقة من بين أقرانه خلافاً للسابق. ويقف بين مشقوه وججان. وتقف رامبس وغشناغ، وابنتها أينار، وآنست، وغيرهن غير بعيد وراء مجموعة مشقوه. وتقف حولهنّ كثير من الصغيرات.

المستون الثلاثة والعشرون الذين اتخذهم ردد مستشارين حين صار أميراً للقسوغ يجلسون وحدهم. ويجرسهم عدد من المسلحين لمنع اقتراب أحد منهم أو التّنصت عليهم فلا تعرف ما يقولون ولا ما يفعلون. والجميع متجهون إلى حيث يجلس كولس، يستمعون إليه. ولا يصدر عنهم أي صوت مسموع دليلاً على ما بينهم من تهذيب واحترام.

"انظروا، هيا انظروا إلى غجبس الذي تجاوزه الموت إلى الآن كيف يجلس ورأسه على رأس عصاه!- صرخ نخلش الأصهب من قلبه، - لا يحرم نفسه من فرح أو مصيبة طالباً أن يُركبوه على الحصان ويرجلوه منه. ما الذي رماه بينهم حتى يرفعوا رؤوسهم وينصبوا ظهورهم؟ مهما قلتُم ومهما فعلتُم فتأكدوا أن أعينكم لن تقع ثانية على من تنتظرونه، حتى قبعتي العتيقة تعرف هذا!.. وشوباش الذي يسيل أنفه لماذا تأتّق إلى هذا الحد كأنهم سيحملونه على مغازلة دكايس؟.. ضحك من أعماق قلبه، - لا تدعونا نحتفظ بهذه المواشي في انتظارنا وقد غارت بطوننا من الجوع. دعونا نأكلها ثم نفرق... "

- مُستونّا يماطلون في الدعاء إلى الإله؛ لا أعرف ماذا يضمرون لنا. - غمغم نخلش محتجّاً. - ألا يجب أن نبتهل قبل أن يسترجع الإله الكبير البقرة، ونذبّها!

- لا أظنهم جمعونا من أجل الدعاء وحده يا نخلش.

- قل يا قدان إن كان ما تعرفه ولا أعرفه، - اعتبر نخلش ما سمعه من قبيل المزاح ولكنه تساءل: أئخفون عني شيئاً؟ مهلاً، مهلاً، لماذا تأتّق شوباش؟.. هناك سرٌّ ما لإيقافه بين مشقوه وججان.

- ربما لا يريد مُستونّا إبقاء القسوغ بلا إمارة ريثما يعود ردد... - أفصح قدان عما يتوقعه.

- ما سمعته عجيب... - قال نخلش كأنه غير مهتم بالأمر، ثم أضاف غير متحمل صبراً، وراغباً في أن يؤيده غيره: - هذا ما سيجري لك حين تقدّم مسنيك المتهالكين بصفة مستشارين أمامك!..

- يا نخلش هذا عيب... همس قدان في أذنه.

- أيّ عيب وأمثال مشقوه قائدٌ للجيش، وأمثالك وأمثالي جاهزون، فيُزاحون من الطريق ويؤتّى بمثل هذا الولد الذي ما يزال أنفه يسيل ويسمى أميراً؟! لن أسمح لكم بهذا ولو لم يبق غيري...

توافق احتجاج نخلش وهوض المسنين فاتجهت عيون الحضور دون اهتمام بما يقول أي شخص إلى الثلاثة الذين دخلوا ساحة الاجتماع.

بدأ كولس بصوت هادئ:

- أديروا وجوهكم إلى إلهنا الكبير لندعو إليه أن يعيد إلينا ردد سالماً قبل أن أُطْلِعكم على قرارات المجلس الاستشاري لإمارة القسوغ. - قال كولس فرفع الجميع أيديهم ودعوا بأصوات متسقة - متنافرة. وبعدما انتهوا من الدعاء استأنف الزعيم الأسنّ كلامه: - ليحقق لنا الإله ما نبتهل إليه لأجله وقلوبنا مملوءة بالخير! وليغمرنا برعايته. وإن كان بيننا من لا ينوي الخير فإننا نترك أمره للإله الكبير. والآن سأطْلِعكم على قرارات زعمائنا الكبار: هيا يا مشقوه رافق إلى وسط الساحة شوباش الأخ الأصغر لردد أمير القسوغ. ودوروا به حول الساحة ممسكين بزمام حصانه. شوباش هو من اختاره الكبار أميراً ريثما يعود ردد. كرّموه واحترمّوه وتوسّلوا إليه!

كان أكثر المشاركين في الاجتماع يعرفون منذ عدة أيام من سيختاره مجلس الحكماء أميراً. ولكنهم كانوا مجتمعين كأنهم غير مهتمين به، ينتظرون من سيصرخ أولاً. ولم يكن المطرقون منهم، ومن يتبادلون النظرات، ومن يتهايمسون قليلاً. دفع حقار شنبه بمرفقه فأجبر صوت الأخير المجتمعين الذين ينتظر بعضهم بعضاً على رفع رؤوسهم:

- هذا مستحيل!

- طبعاً... - وافقه حقار مُسمعاً إياهم وخائفاً في الوقت نفسه، والتفت إلى قريبه نخلش بما يعني: هل أنت راضٍ عني؟

هدأ المؤتمر حالما رفع كولس يده، وسأل المعارضين دون أن يسميهم:

- ما الذي لا يعجبكم؟

سكت من كانوا رفعوا أصواتهم وغيرهم. وخرج أغبان، رئيس حراس ردد، من بين رفاقه:

- يا كولس، يا من يومه مئة، يا زعيم الخير، سأصارحك، إن سمحت لي، بما لا يستطيع هؤلاء البوح به.

- لماذا نسمح بالكلام لمن لم يستطع أداء المهمة التي ندبوه إليها فلم يستطع حماية أمير القسوغ؟ - وقف نخلش مقابل أغبان وسيفه على يده. - أنا، شخصياً، لا أكتف عدم رضائي عنه.

- أنت تهينني يا نخلش!.. - وضع أغبان أيضاً يده على رأس سيفه. وتحلّى

بالصبر فلم يضيف لقب "الأصهب" إلى اسمه، - ولكننا لسنا في موقف استعراض للرجولة.

- وأنا لا أعدم ما يلجمني! - أسبل نخلش يده. وعبر مهذباً نفسه عن سبب قدومه إلى الساحة: - لا أعرف ما يعيب شوباش الذي رشحه زعمائنا المباركون. ولكن لا أجد من المناسب أن يُقدّم أميراً على القسوغ من دخل عامه الثامن عشر، والذي كان أمس شبه خادم في دار ردد. ولا أجهل أن قرارات الأكابر لا تُنقّض... ولكني مع ذلك لا أعرف كيف نثق بمن دخل بيننا ولا نعرف أصله... نحن سنرضخ لأوامر كبارنا عند الضرورة... والمشكلة في أبناء القرى الأخرى الذين نراهم في المناسبات والذين لا يرضيهم هذا القرار... لا أعرف يا كولس، أنا قلت رأيي، وأنتم أعيدوا النظر!

- نخلش يقول الحقيقة، - قال أحد المشاركين.

- حقاً، حقاً، - وافقه آخر.

- ستتركونا بلا أمير بهذه الحجة! - عارضه غيرهما.

- البعوض كان عندهم ملك ولكنهم لم ينتكبوا حين فقدوه. - جعل الصوت الموافقين والمعارضين يرفعون رؤوسهم.

- من الذي يتكلم على الأمير بسوء! - صاح نخلش الأصهب كأنه لا يوافق على الكلام وإن كان في داخله مسروراً. وأفهم قدان: - هل تسمع ما يقول هؤلاء! لسنا في مضافة تُروى فيها الحكايات... - ثم رمى نظرتة الثقيلة نحو مصدر حكاية البعوض: - أبجده البساطة تقول بحق الأمير ردد ما يخطر لك إن قلت إننا لا نعرف أصل شوباش الذي يشرفونه بلقب الأمير!.. أليس كلامي صحيحاً يا كولس؟ يا زعيم الخير، كلنا نعرف أن شوباش ليس سليل أمراء. أقول الحقيقة أيها المؤتمر فلا يعدّ أحد كلامي تهمة!..

مرة أخرى هاج المؤتمر. وخرجت رامبس واثقة من نفسها من بين النساء، ووقفت أمام الرؤساء الثلاثة:

- لا تؤاخذني يا كولس! وأنا أريد أن أساهم برأيي في هذا المؤتمر. - كان شوباش يهّم أن يترجل من الحصان حين رأى والدته تقترب منه ولكنها أوعزت إليه أن يبقى على حصانه، ثم نادتهم وهي تفتش أرجاء الساحة بعين حادة: -

هذا الفارس ركب بناء على أوامر زعمائنا الأخيار، وأُحضِرَ إليكم. أتى بي إلى اجتماعكم من لا يوافقون على ما شرفوا به ابني الأصغر، الأخ الأصغر للأمير ردد، على ما كلّفوه به، إن تصوّرتُم أني تجاوزت موقعي الأثوي فاغفروا لي. ولكني لن أسمح لأحد أن يهين ولدي، ربيبي، أمامكم. ولن أسمح لأحد باحتقار قرارات زعمائنا. يقول كبارنا " الولد ابن من ربّته، لا من ولدته " إنه دعامة من دعامات البيت منذ أن ناداني " نانا " وناداه ردد " أخي الأصغر "، لا خادمٌ فيه. ولا ينسَ من يرى ابن الثمانية عشر عاماً صغيراً أن زعماءنا الكبار يرعونه، وأن أصدقاء أخيه الأكبر يدعمونه. من العيب في مثل هذا الموقف العودة إلى حكاية فقدّ البعوض زعيمها. ساحجني يا كولس، يا زعيم الخير، وأنتم أيها الزعماء المباركون. - قالت رامبس، ثم خرجت تومئ بشارات الاحترام إلى المسنين.

"هذه المرأة اليابسة، - قال نخلش الأصهب كاظماً غيظه بصعوبة، - لا تنحني للزمان رغم أن ابنها خُطف من أمامها... هذه يمكن أن تسيطر على الإمارة وعلينا!.. لا تريد أن تسمع ما حدث لزعيم البعوض ولكن قد تحدث لها الحكاية نفسها..."

- يا زعامة مؤتمر القسوغ! - انتظر كولس ريثما عادت سيدة القسوغ الكبرى إلى مكانها، ولما نادى أحدهم بعد كلماته الثلاث رفض ممتعضاً: - من هذا الذي يقاطعني؟!

- أنا يا كولس، أنا أيها الزعيم المبارك، أنا نطاي، عندي سؤال واحد.

- تفضّل! _ أذنّ له كولس بصوت ناعم.

_ ألسنا نعين شوباش أميراً إلى أن يعود ردد الأمير؟

- هل صحوت من النوم! - انفجر نخلش غضباً مما سمع، وأضاف في سرّه: " يا نصف رجل ".

- يكفيني نوم الليل! - رد نطاي على من سخر منه، فدفع ترابُ صديقهِ برفقه يقول له: لا تجادلْه!

- يا زعامة مؤتمر القسوغ! - نادى الآن كولس بصوت أعلى مُضْمِناً كلامه جواباً على السؤال الموجه له: - دعونا نبتهل إلى الإله من أجل الأمير الذي

بايعناه إلى أن يعود الأمير ردد. رفع الجميع دون استثناء، من أعجبه ومن لم يعجبه، أيديهم للشمس التي ظهرت من وراء الغيوم. وبعدما ابتهلوا مدة أسبلوا أيديهم، وتوجه كولس إلى بشماف:

- أبلغ القرار الثاني الذي اتخذته الزعماء إلى الاجتماع يا بشماف!
- يا اجتماع القسوغ، سأختصر كلامي أيضاً. الموضوع منته لا حاجة لمناقشته أو الكلام عليه. اختار كبارنا ثلاثة أشخاص يتقنون لغة الخزر، ولغة الروسيغ، ولغة الروم. سيكون تيمرقوه وقُدان مع كولس الخيزر، دعونا نبتهل إلى إلهنا الكبير وأهلتنا الأخرى أن يعودوا سالمين برفقة أمير القسوغ ردد.
- هل تعرف المهمة التي كُلفت بها؟ - سأل نخلش قدان بعدما انتهوا من الدعاء.

- أسمع بها لأول مرة.
- هكذا؟ - لتكونوا في أمان الله، تركبون طريقاً بعيداً... ونحن سنحتمي إمارة القسوغ...

- من هؤلاء!.. - استدعى السؤال انتباه الواقفين. رأوا الجيش المندفع بالخبب الخفيف على ظهر التبة. وفُهم من الرتل الرباعي القادمين به، ومن رماحهم المنتصبة، ومن أعلامهم المرفوعة، أنهم ليسوا من الخزر، ولا من الألان. ولما ركبت جماعة مشقوه تبعهم الحراس. وأحاط الحراس المشاة بالنساء اللواتي تباعدن وبالأطفال. ولم ينهض من مجلس الكبار أحداً إلا جباغ وبشماف، رفيقا كولس.

وقف المسنون الثلاثة الذين يحرسهم نخلش وحقار أمام شوباش الواقف بين مشقوه وججان بمقدار رأس حصان. وبعدما رصدوا قليلاً قال كولس:
- هؤلاء روسيغ! - أثبت قدان صحة تنبؤ كولس. - ماذا يريدون؟! - صاح نخلش من الصف الأول.

- اهدأ يا نخلش! - أكد كولس دون أن يلتفت إليه، - قف إلى جانبي يا قدان، وأنت أيضاً يا تيمرقوه، نحتاج إليكما لأنكما تعرفان لغة الروسيغ.
رفع قائد فرسان الروسيغ يده فخرج عدد من الفرسان من خلفه وأحاطوا به وبرفيقيه من الجانبين، ووقفوا في مواجهة القسوغ بأقواسهم.

- قفوا إلى جانبنا كما فعل هؤلاء! - نادى كولس إلى من وراءه، ولا تثيروا ضجة كبيرة! ففعلوا كما أمرهم. ثم سألمهم: - من أنتم؟ سنستقبلكم حسب نيتكم.

- نحن من الروسيج، - نادى قائدهم قبل أن يتاح الوقت لثدان أن يترجم. ونحن موفدو القائد مستيسلاف الذي دمر إمارة الخزر في توم - تقاش. جئنا نعلمكم أنكم خاضعون لإمارة الروسيج، وعليكم أن تدفعوا الإتاوة، ومن يرفض دفعها يعدّ عدواً لنا.

- أليس هذا صوت أخي الأصغر قانشاو؟! - صرخت رامبس من بين الجمع، وعادت فأطبقت على فمها بيدها، والذين سمعوها تظاهروا بعدم سماعها. - نحن القسوغ كان الخزر يnehوننا بغارات مفاجئة، - أجب كولس دون التوقف عند تعرّفه على قانشاو من أول كلمات أديغية نطق بها، معتبراً طريقة حديثه إليه إهانة، - ولكن لم ندفع إتاوة لأحد.

- ستدفعون يا كولس! - جزم الآن قانشاو مُسمعاً الطرفين المتجاذبين، ولم يتوقف عند هذا: - إن لم تقبلوا أخضعناكم بالسلاح!

"هذا هو الرجل وإن جحظ لنا بعينه، - قال نخلش الأصهب وإن لم يكن يعجبه ما يسمعه، - مثل هذا من يجب وضعه في منصب إمارة القسوغ وليس من اختاروه لنا والذي لا نعرف من هو، يحمي بظهر كولس وينكمش على نفسه... لا أعرف كيف سأقابل موفد الروسيج قانشاو وكيف أحدث إليه... هذا رجل قاسٍ... لا يسأل عن قرابة... نصّبني أميراً على القسوغ، وأنا كفيل، لا بالإتاوة، بل بكل ما يملكون"

- إن كنت تتصور أننا سنحني رؤوسنا لكل من يهددنا فأنت تخدع نفسك، وطمعنا، نحن وأختك الكبيرة يا قانشاو. ولكن إن أمهلتنا نهاراً وليلة تشاورنا، وأعلمناك بالنتيجة.

- الليلة، بعد أن نقضيها في مزبه، سنخالط الحكوف. وسنعود بعد أسبوع، ولذا نمهلكم سبعة أيام للإجابة.

- لا بأس بهذا، قبلنا، سنغفر لك حتى لو مددت يدك إلى عيوننا ما دمت في أرضنا. - سرت على شفقي كولس ابتسامة مرّة لم يألّفها منذ تجّاجّا. وأجابّه

على مسمع من الجميع بنبرة عتاب قويّ، - ولكني أستغرب ألا تسأل عن أختك السيدة رامبس، وابن أختك ردد أمير القسوغ. ليس هذا من روح الأديغة، ولا من الإنسانية.

- أمور الدولة فوق كل شيء، وعندنا الوقت لنفكر في ما تأتني على ذكره!..

...

لم يعرج قانشاو على أخته ظهراً ولا مساءً. ومع الظلام طرق باب دار الإمارة متخذاً من نخلش معاوناً. ولم يستقبلهما أحد ممن في الدار من رجال. ولم يساعدهم أحد في الترحّل على عادة الأديغة.

- ألم تبق روح أديغة وإنسانية؟ - ارتقى نخلش من على السرج، متهمّاً من في البيت ومن في الفناء، ودخل به البيت محتجاً، وهو يلتفت إلى أغبان.

لم ترجّب رامبس بأخيها. وأشارت إليه بعينيها إلى المقعد الوحيد على المدخل. أخفى نخلش الأصب ملاحظته عدم ترحيب أهل بيت الإمارة به، ولكنه وجد ذريعة وعدم تقبّله للأمر باد من لون وجهه:

- اجلسوا أنتم إذن، وأنا لي كلام مع أغبان الحارس.

- بيت الإمارة مظلم، يرين عليه الهدوء، - نقض قانشاو الصمت.

- نبخل بإشعال الشمعة تحسباً للإتاوة التي ستفرضها علينا!

- الروسيح يا أختي لا يحتاجون إلى ما ذكرت.

- وماذا ينقص الروسيح إذن؟ الذهب أم الفضة؟

- من هذا الشاب الذي إلى جانبك؟ - تجاوز قانشاو ما سألت عنه أخته.

- الأخ الأصغر لردد الذي اختطفوه إلى ما وراء البحر.

- وهل رُزقت بولد بعد لاورستن؟

- لا تدعني أنفجر يا عديم الشرف؛ ألا يكفي أنك قُدت الجيش الغريب إلى أرضنا؟ نهضت رامبس، وقفز شوباش واقفاً.

- ما الفائدة يا أختي من جلوسك في حضرة من لا يفهمك؟.. - نهض قانشاو أيضاً، - ستتحدث بهدوء أكثر متى عدنا من أرض الحكوف.

انفجرت رامبس باكية بعدما تجاوز من انتظرته سنوات طويلة قائمتي الباب.

- يا نان!.. - ارتقى شوباش على أمه.

- لا بأس، لا بأس يا ولدي - الأفضل أن نتصبرَ أمام مثل موقف اليوم. -
 عادت رامبس إلى حالها وهي تمسح على رأس من ارتقى في حضنها.
 وصل خبرُ تمزيق جيش قانشاو في أرض الحكوف، ليس بعد أسبوع، بل ثلاثة
 أيام، فصققت السيدة الكبرى فرحةً:
 - يا للفرح؛ انتصر حظنا! - واختتمت بكلام أشد قسوة: - لو وضعوا رأس
 أخي أمامي لفضّلته على أن يطاردوه إلى حيث ساق منه جيش الأعداء
 مفتخرًا. نعم، نعم يا كولس، لا تستغرب... من الذي جعلهم يقولون: الظلم
 يقابل بالظلم؟ ليس واحداً من أمثاله؟!

XIII

لم يكن فرسان الخزر الثلاثة يفكرون في التوقف أو الاستراحة، بل كان همُّهم
 التوغّل في الغابة، وتجنّب أي اكتشاف مفاجئ لهم. وحين سمعوا مع الفجر
 الاصطفاق القليل لأمواج البحر توقفوا. وأنزلوا الأسير من حارك الحصان،
 وأجلسوه مكبوم الفم إلى جانب صخرة بضربة تحت ركبتيه وضغطة على
 كتفيه.

يبدو من أطراف ردد ومفاصله أنه لم يستسلم فاقداً الأمل للمصيبة المفاجئة التي
 نزلت به رغم أنه مقيّد. ويبدو من عينيه الغاضبتين الإهانة والاحتقار. وليس
 المجرمون الخزر الواقفون أمامه من يمثلون لعينيه، ولا رجل الحكوف الذي حُنيق
 بعدما نصب الأفخاخ له، ولا نخلش الأصهب الذي حرّضه على هذا، - بل
 الإمارة التي شرّفه بها القسوغ في ساحة قراي، وعدم تمكينه من تحقيق أهدافه.
 ورغم أن هذين الأمرين كانا يعلوان كل شيء فقد كان يطفو على السطح
 الموعد الذي اتفقا عليه هو وأينار. ولكن أينما اتجه به الخزر، ومهما كانت
 نواياهم نحوه فسيبقى أمّله ما دام حياً في كولس كبير مجلس حكماء إمارة
 القسوغ الحديثة، ومشوقه قائد حرس الإمارة، وصديقه ججان، وأمّه، وأخيه
 الأصغر شوباش، وقدان، وتيمرقوه، وموفد آلهتهم الوسيط تراب.

قال الكهل الربعة للمجرم الذي لا يقلّ جسامته عن ردد:

- حرّره الان!

- سأحرره يا "أسباروخ"، ولكن إن صرخ؟
- ولماذا تمسك بالهراوة إذن؟ - لمعت عينا أسباروخ. - سدّد على رقبتك، لا على رأسه، دوّخه مؤقتاً!
- سأحاول، ولكن إن قُتل على يدي؟
- إن فعلتَ هذا يا بطاط بقرتُ بطنك!
- "ما الذي لا يستطيع هؤلاء حلّه؟ - قال ردد في سرّه، ونظر في وجه المجرم الثالث الأعوج الساقين الذي قرفص أمامه. كان منظره اليابس وساقاه مبعثاً للضحك ولو أنه لا يراه أول مرة، بل منذ أُسر. لا أظنه خُلِق هكذا بل واحداً ممن اعوجّت سوقهم من جلوسهم الطويل في هذه الوضعية. يعجز عن الوقوف حالما تستوي قدماه واقفاً، فترتجآن. يتربص بك مثل كلب يعض نفسه غيظاً إذ لا يُسمَح له بالاقتراب من الماء. رائحة البحر تصل، وصوت الموج مسموع. الآن أفهم لماذا لم يحملوني صوب سهوب الخزر..." وحالما انتهى ردد من هذه الأفكار هجم عليه الأعرج الساقين الذي يقرفص أمامه، وانتزع الخرقه من فمه.
- ليس عند هذا نيةٌ في الصراخ!.. - صرخ بطاط الذي كان واقفاً يشرف على ردد، مستعداً بعصاه، وفرّخه بادٍ أكثر من استغرابه، وبصق.
- نحن لا نختطف أحداً محروماً من الرجولة، - سأل أسباروخ ردد وهو يقول بالأديغية: - أليس صحيحاً يا أمير القسوغ؟
- ربما كنتُ أسجله رجولة لكم لو اختطفتموني، ولم تُمسكوا بي كما يُمسك بالذئب... - لم يملك ردد إلا أن يبتسم رغم معرفته أن وضعه ميئوس منه. ولكن إن رأيتم أن وقوف ثلاثة رجال جسام في حراسة رجل مقيد يليق بكم فأنا أوافق على ما قلت.
- ما الذي تسمح لهذا أن يقوله لك يا أسباروخ؟ - نهض الرجل الكسيح، - هل يهينك؟
- وهل تلاحظ عليّ مثل هذا؟ - ضحك أسباروخ من بين لحيته وشاربيه الأشقرين، ورفع حاجبه الذي يغطي عينه اليسرى التي غطاها الصدف، وخفضه، ثم اقترب من الجواب الحقيقي: - أمير القسوغ تأكّد من أننا لن نقتله، ولذا يقول ما يشاء.

- إن كان هذا موقفه فسأكسر كنفه! - أسرع بطاط إلى العصا القصيرة.
- توقف! لم يقبل أسباروخ سلوك بطاط، وقال لردد الذي لم تختلج عضلة في جسده: - هل ترى ما يستطيع هؤلاء أن يفعلوا بك؟
- لا أستغرب شيئاً من بعد ما فعلتم بوالدي. إن كنتم رجالاً بشوارب فحرروني؛ فيما أن تكونوا رجالاً أو تموتوا! الرجولة أغلى من زنار الذهب الذي اشتريته به.

- وهل تظن ما دفعْتُ فيك زنار ذهبٍ حقيقي؟! - قهقهه أسباروخ بفكين مطبقين، وفعل مثله رفيقه فضحكا حتى بدت أسنانهما الصفراء وإن لم يفهما الكلام. ولم يحرم ردد نفسه من فرح المجرمين وقد فهم الخديعة التي تعرض لها نخلش الأصهب. وحين هدأ الأربعة سأل أسباروخ: - هل فهمت كيف يخدعون أمثال نخلش الأصهب؟
- لن يغفر لك، - أجاب ردد باختصار.

- سيتقشر طلاء الذهب من الزنار خلال ثلاثة أشهر، - ابتسم أسباروخ ثانية، - وأنت ستقيم خلالها في القسطنطينية تائهاً أو يبيعونك إن ظهر زبون، من يعرف من أي بلاد سيأتي، يدفع ثمناً جيداً. سيضمنونك إلى فرق المصارعة بصفتك قوي البنية فتصارع، وتقاتل... وهذا زنار الذهب الذي نأتي على ذكره... - أخرج الزنار من تحت الصدر ثم أعاده وهو يتلامع. يمكنك أن تشتري بهذا رجولة، وأن تجمع ثروة. ثم تتحدانا ثلاثتنا!.. ويمكنني أن أريك شيئاً آخر، ولكن هذا لاحقاً... لماذا أنت جالس يا آجر؟ - نهر الرجل الكسيح، - ألا تشفق على بطنك الجائع؟ هات أشعل لنا ناراً!

"ما الذي اقترح أن يعرضه عليّ ثم أجله؟ - هاج قلب ردد وقد نسي موضوع الزنار لما لُمّح به إليه، - ربما هو الذهب الذي يهلك الناس من أجله أو الفضة. ظهرت من صدره أشياء أخرى غير الزنار الذهبي... سئرى بعد الطعام إذ قرروا إشعال النار. ما الذي يجري في مزبه يا تُرى؟ وماذا يجري في إمارة القسوغ؟ وما الذي تعانيه والدتي المسكينة؟ لا أظن أصدقائي وحراسي يُسلمونني للقدر... ساحني يا كولس؛ لم أسمع كلامك! وشوباش صرفته حين قرر أن يرافقي. لن أغفر لك ما فعلت بي يا نخلش الأصهب ما دمْتُ حياً

ورجعْتُ إلى القسوغ يوماً!..".

أخرج قدْحُ آجر الكسيحِ ردَدَ من أفكاره. ووجَّه أمله الوحيد الذي خطر له إلى أسباروخ:

- لن يستطيع هذا الكسيح إشعال النار بهذه الطريقة في القدْح يا أسباروخ. حرروا يدي وأري هؤلاء كيف يشعلونها!

- ما الذي جرى لك اليوم أيها الكسيح؟ - نهض أسباروخ مويَّحاً، متجاهلاً ما سمع، مدركاً نتيجة ما رجاه من أجله.

- القطن الرطب لا يتقبل النار.

- بديهي ألا يشتعل ورائحة العرق تفوح منه، هيا ابتعد! - دفع أسباروخ الرجل برجله فدرججه. وانتزع من فوق قبعته شيئاً من القطن. ومطَّ القطعة حتى رقت، وهزها في الهواء. - كم مرة علّمتك كيف تتصرف مع كل شيء رطب! - أشعل النار في قطعة القطن ببضع قدحات. ثم نفخ عليها بضعة مرات ووضعتها تحت نثار حطب التّوب، فارتفع اللهب. - والآن لا تسمخ للنار أن تهبّ، ولا أن تدجّن!

حين سخنوا قطعاً من اللحم المجفف في الجمر كان ردَد ينوي، بعد أن يحرقوا يديه ورجليه ليأكل، أن يهجم على السكينة الكبيرة المغروزة في الشجرة القريبة، غير أن نيته لم تتحقق له:

- وهذا إنسان يا بطاط، اقدفْ له قطعة لحم. - ترجم أسباروخ لردد باسمًا ما قال بلغة الخزر إلى لغة الأديغة.

- لستُ كلباً فترموا في فمي قطعة لحم. حرّروا يديّ وأطعموني كما يأكل البشر! ماكنت أريد أن أصرّح ولكني أميرُ القسوغ.

- سيُفهمك بطاط إن كنت لم تعرف أن إمرتك انتهت. - ردَّ أسباروخ على ردد بلامبالاة.

نطح ردد برأسه من وضع في فمه قطعة اللحم. فنهض بطاط وهو يفرك أنفه، وهجم آجر على رأس ردد بجذوة الحطب. وحين سمع اسمه أمسك قطعة الحطب التي كان يلوّح بها في وجهه، وسأل صديقه الملهوف لأجله:

- هل أصاب أنفك؟

- لا، - نهض بطاط الذي كان يمسح أنفه المغطى بالدم. والتفت إلى كبيرهم يستأذنه فيما سيفعل به.

- ابتعدوا عنه! - أكد أسباروخ على زميليه، وقال لردد بالأديغة: - كل متى طلب منك، ستندم.

- لن أسمح لمن لا يعاملونني بإنسانية أن يُطعموني. أقول لك ثانية وإن أوصلوني إليك مرعماً: لا تتناسَ أني أميرُ القسوغ!

- وماذا سنفعل بـ "توم تقاش"؟ - ابتسم أسباروخ، ما العمل؟ أقام فيها زعيمنا، نحن الخزر، ولكنه هجرها. ثم لمعت عيناه: ونسيبت بسرعة ما حدث لوالدك!.. كل ما يوضع في فمك بغضّ النظر عن يدك، مقيدة أم حرة. أقول لك ثانية: ستندم!

- أفضّل الموت على هذا!

- يا أمير القسوغ الأسير! - احتدّ صوت أسباروخ ثم أنهى هادئاً: - لا تتأمل أن نطعمك بيدين محررتين. لن أفترط فيك ولو لم أكسب منك إلا قطعة ذهب صغيرة!

وفيما يجادل من أجل تحرير يده كان ردد يلفظ كل قطعة لحم يضعونها في فمه مهما حاولوا.

- يا أسباروخ! - غضب بطاط وعصاه القصيرة جاهزة، - ما الذي يجبرنا أن نطعمه رغماً عنه؟ إن كان هذا قرارك أيها القسوغ فلن أفضلك عليّ وأعطيك هذه القطعة. خذ أيها الكسيح، وأنت لا تحرم نفسك! - التهما بوجه كلب جائع حصتهما وحصّة ردد.

- هل ترى يا أمير القسوغ ماذا يمكن أن يفعل بك هذان لولا أن أردعهما؟! سأله أسباروخ باسمًا وإن كان لا يوافق على سلوك رفيقيه.

- وهذان يمكن أن يأكلا رأسك أيضاً، - قال ردد فهجم بطاط على عصاه، ولكن أسباروخ نحر الرجل الذي ألقاه أرضاً بضربة تحت ركبته:

- كم مرة نصحتك بالصبر! - ثم لام الاثنين، - هل نسيتما أن علينا أن نوصله سالمًا تمامًا شعبان إلى من سنبيعه لهم؟ أنتما ليس لكما همٌّ إلا البطن كالوحوش.

- وما ذنبنا يا أسباروخ إن رفض أن يأكل... - ابتعد الكسيح الذي كان قد همّ أن يسلب سكينه، خائفاً من قائدده، مبرئاً نفسه.

- ألا تعرفون ماذا تفعلون به إن رفض الطعام؟ - نتأ رأساً كنتفي أسباروخ المدورتان، ولمعت عيناه الصفراوان، وهجم على ردد الذي يفقد قوته شيئاً فشيئاً، فرفعه، - لا تريد أن تأكل؟! لن ندعك تخسر قيمتك أمام أعيننا راضخين لعنادك. ألبسوه الخوذة الحديدية، وضموا إليها كتفيه جيداً. والآن اطعن رقبة الحصان يا بطاط!

تذكر ردد شوباش حين سمع بطعن الحصان في رقبته. ودّ أن ينتزع جسده منهما غير أن الجسد المقيد عجز عن التغلب على الرجلين. ومن وقت إلى آخر كان يشعر بتضعُّع قواه.

- كثيرون غيرك أخضعتهم خوذتنا الحديدية، - ابتسم أسباروخ فرحاً باختيار قوى الرجل المقيّد، - ولكن ساجننا، أنت المسؤول، لو أكلت لما جرى لك هذا. ضعوا الخشبة المعقوفة في فمه. ولا تضغطوا عليها كثيراً. - سحبوا فم ردد المفتوح إلى الدم الذي يسيل من عنق الحصان. ولكن بطاط نهره حين رأى الدم يعود من فمه: - ألا تراه، أغلق أنفه!

أفاق ردد حين مرّ الدم الدافئ في حنجرته ولكنه كان بلا حول، راغباً دون أن يدري في الدفء الذي يسري في جسده الضخم. وكان أسباروخ الممسك برأسه يحس بهذا من حين لآخر.

- ألا يكفي ما سقيناه؟ - قلق بطاط.

- ليشرب، ليشرب، هل تبخلون بالدم! لم يقبل آجر الكسيح، اجمعوا فطوره وغداءه!

- وإن أفرطنا في دم الحصان وتغيّرت حاله؟ - أبعد أسباروخ بكل هدوء فم ردد عن شلال الدم. وأشفق على رفيقيه: - أكبنا عليه، لا تفرّط في الدم القيم! - بعدك يا أسباروخ، بعدك! - قال بطاط رغم اشتهاه دم الحصان. - هات لي هذا الذي يُذهله الدم، سأنيمه عند جدار صخرته...

شرب الخزر، مقدّمين قائددهم، من دم الحصان بالتناوب حتى بدأت قوائم الحصان ترتجف. سحب بطاط سكينه الحادة وهو يمسح أطراف فمه، فلم يقبل

أسباروخ:

- لا نذبُ حصاننا الذي أعاد إلينا قوتنا وأعاد إلينا بشريتنا؛ حرام، ارموه في الوادي!

قفز ردد حين سمع من أسفل الصخرة التي غفل فيها صهيل الحصان، ولم تكن قطعة الخطب المعقوف في فمه تسمح له بالكلام. ولما بدأ يقرع الخوذة على رأسه بالصخرة قرفص أمامه آجر ضاحكاً:

- ما الأمر يا أمير القسوغ؟ هل بعث فيك دم الحصان الحميَّة؟

- اتركه! - لم يقبل بطاط الذي كان مستلقياً تحت الشجرة، - لا بتحاده!

- يريد أن يقول شيئاً، هل أنتزع الخطبة من فمه تاركاً الخوذة على رأسه يا أسباروخ؟

- نعم، انزعها! ردّ أسباروخ الذي كان يقشّر عوداً وهو يترنم بأغنية، - وإن كنت تريد أن يتقيّاً عليك ما سقيناها فلا بأس انتظره حتى يتغلغل الدم في أعضائه. - نهره، - الأفضل من هذا أن تستطلع ثانية طريق المشاة الذي سنحدر فيه من الجبل. - ولما ابتعد آجر الكسيح مدمماً سأل بطاط: - هل يمكن أن يخدعنا من اتفقنا معه؟

- لم يفعل معنا العجوز الرومي إلى الآن هذا.

- وكيف نعرف ما يمكن أن يخطر له؟! - قال أسباروخ، ثم غضب فجأة: - هذا مستحيل، هل تعرف ما سنريح من أمير القسوغ الكبير؟ والأحسن أن لا تعرف. ولكن سأكافكما ليس بأقل مما أحصل أنا عليه.

- لو لم تكن واثقاً منا يا أسباروخ، - قال بطاط ما ليس في قلبه، وبدت أسنانه المصفرة كعينيه الباردتين، - لما ترافقنا في هذا العالم الثقيل... هل تعرف من سنتصيد متى تخلصنا من هذا؟

- نخلش! - أسرع أسباروخ بالإجابة.

- كيف عرفت ما في قلبي؟

- هل كنا ترافقنا لو لم أكن أعرف ما في قلبك!.. - أجاب أسباروخ بطاط بالطريقة نفسها، ثم جمّد عينه المغطاة بالصدف، وسدّ فمه بإصبعه: - انتظر؛ كأن الكسيح عائد، لا داعي لأن يعرف أخبارنا.

- ألا تنق فيه؟
- ولماذا لا أثق به وقد ترافقنا عدة سنوات... ولكن أليست القسمة بين اثنين أنفع؟
- وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟! - ارتفع صوت بطاط رغباً عنه وإن نبت في صدره نوع من الشك. ولم يستطع إلا أن يقول: - ومع ذلك؟
- وما هذه الـ " ومع ذلك "؟ فكّر في منفعتك الشخصية فحسب.
- نعم يا أسباروخ، قولك قولي، وفعلك فعلي. انتهيت من التفكير، حاملماً أغمرك اعتبرني بقرث بطن الكسيح.
- ليس هذه اللحظة.
- متى؟
- متى دفعوا ثمن هذا وأبعدوه.
- لن أدعه يتنفس! - قال بطاط، ورفع رأسه مرتعباً.
- ماذا جرى لك؟
- أياكون الأسير يعرف لغتنا ويخفي عنا؟
- لغة الخزر التي يعرفها مثل لغة القسوغ التي تعرفها. - ابتسم أسباروخ خلال لحيته وشاربيه، ورأى من أرسله في مهمة عائداً، وابتسم له كأن لم يتطرقوا إلى شأنه البتة، - ادخل يا آجر، تفضّل. ما حال الطريق الجبلي، والمكان الذي كنت فيه؟
- طريق المشاة ينحدر من الجبل أيضاً. والبحر هادئ. - أجاب آجر مسروراً من الجواب الذي جاء به، - لا تشكّوا في أن مهمتنا الليلة ناجحة. أراكم لم تخلعوا بعد عن الأمير الخوذة الفولاذية!
- الأفضل أن يبقى مرتدياً إياها من أن نضرب رأسه فندوّخه. - أجاب أسباروخ بلامبالاة، ثم سأل عما يُقلِّقه: - المركب، هل سيصل المركب في الموعد المحدد؟
- أنت يا أسباروخ من يقول إننا لا نتعامل مع من لا نثق بهم، - ابتسم آجر وإخلاصه لسيدته يبرق من عينيه، - سيصل المركب مع ظهور أول نجمة في السماء.

التفت بطاط نحو آجر الكسيح الذي كان الاثنان، بطاط وأسباروخ قررا مصيره، متسائلاً عن سبب طلاقه وجهه. ربما كان دم الحصان فعل فعله في أنحاء جسده. تنفّس ملء رئتيك، وأسعد نفسك. وتأمل أوراق الأشجار المتساقطة، وانظر إلى السماء، ولتبق في عينيك قمم الجبال البيض ومِرْقُ السحاب مرسومة في عينيك إلى الأبد. وافرح بالقليل من الذهب الموعود به. لم يبق لك أيها البائس غير هذه الليلة... "

بدأ الظلام يغمر الغابة فأطلق الخزر خيولهم المقيدة في الريف. واتخذوا طريق المشاة ممسكين بردد من الأمام والخلف مقيداً. وكان ردد يعرف نوايا الخزر نحوه فلم يُثر ضجيجاً. يحرص على نفسه في طريق المشاة الضيق وفي ذهنه المحافظة على حياته والعودة إلى إمارته: " يبدو أن المجرمين يقودونني إلى البحر... وهذا عينه ما فعلوه بكولس... وكذلك مع تيمرقوه وقدان. كم من أمثالي على هذه الطرق!.. أنا المسؤول عن كل ما جرى لي!.. كان عليّ أن أكسر ظهر نخلش الأصهب حين صرخته، لا أن أنقذ له رجاءه... من أبقى على حياته جعلهم بمسكون بي كما تؤسر الذئاب، وباعني إلى من قضى والدي على أيديهم... لو لم يكن إلا ما تعاني أُمي الآن!.. وكذلك أيتار وشوباش... "

- لا تعاندا!.. - نهر بطاط ردد بحبل معقود، - وها هو المركب على الشاطئ. إن عجزت عن الترحل جررناك!..

دنوا من الشاطئ فصاح عدد من الأشخاص من مركب طويل:

- كم أنتم؟

- ثلاثة بالإضافة إلى أمير القسوغ، - أجاب أسباروخ، وفي اللحظة نفسها سُمع ضجيج عدد من الأديغة وصليل أصفاد.

- اسكتوا! - ووصلتهم سياط تصفر.

- لم نجتمع من أجل ترتيب أموركم، - صرخ أسباروخ من الشاطئ المظلم غير مرتاح لما يحدث. - ليقابلنا من هو معني بأمرنا، وإلا انصرفنا!..

- ولماذا تنصرفون، - خرج من وراء الصخرة ثلاثة أشخاص، وقال بلغة الخزر من يتقدمهم ومعه كيس صغير: - ها هو الذهب، وهاتوا أميركم!

- قبل أن تستلم الذهب منهم يا أسباروخ، - استعجل بطاط، - غُدّه!

كرّر الخنزير بعدما عدوا النقود: "ذهب، ذهب!" ونسوا الأمير ردد.
- أيّ خوذة حديدية يلبسها الأمير المقيّد! - وفيما يتساءل الشاري العجوز،
كان ما رآه أشد مدعاة للاستغراب: - وما هذا الذي في فمه؟ هيا اخلعوا عنه
الخوذة الحديدية، وانزعوا ما في فمه!

قال ردد بصعوبة بعدما خلعوا عنه الخوذة وانتزعوا القطعة الخشبية من فمه:
- لن أغفر لكما، نخلش الأصهب، وأنت يا أسباروخ المجرم، ما فعلتما بي!
- ليس الآن وقت هذا التهديد. - ضحك أسباروخ وقال بي إثر من يسوقونه
إلى المركب، - بل بعدما تعود من حيث يسوقونك. - ثم صاح ثانية: - توقّف
لحظة يا أمير القسوغ، خذْ، هذا خاتم والدك، هذا ما كنتُ قلْتُ لك من
أجله: "لاحقاً، فيما بعد.... " يُدَكِّرُكُ بي في وقت عصيب، من يدري... -
أحرق يد المجرم يد ردد ولكن ما وضعه في راحته أدفأها، وصعد إلى المركب
يأمل العودة يوماً ما. ثم ألقى نظرة على جبل القسوغ المظلم الذي لا يميز منه
شيئاً. وهمس في أذنه أحد ملاحى المركب المقيدين إليه:
- كنْ صلباً يا أمير. لا أسمح لنفسى أن أنسى أرضى رغم أني مقيّد هنا.

...

لم يكن بطاط يسعه الفرع؛ يقول لأسباروخ وهو يدور حوله:
- أما وقد بزغ القمر يا أسباروخ فالذهب... - لم يسمح خنجر آجر الكسيح
لبطاط أن يكمل ما بدأه. - آخ، ماذا فعلت بي أيها الكسيح!..
- ماذا جرى لكم؟.. - بقر أسباروخ بطن آجر بطعنة واحدة.

الكتاب الثالث

I

أمس واليوم فقط رأى ردد بعينيه بلاداً غير القسوغ تشرق فيها الشمس ويغيب القمر...

وأعجب ما رآه قبل أن يدخل الزاوية البحرية التي تتوضع فيها القسطنطينية، هو أن أحداً باستثناءه هو والمجدفين المقيدين إلى المركب، لم ينتبه لهوض الشمس - الإله الكبير المستدير من البحر، ولم يرفعوا أيديهم ووجوههم إليه.

"حقاً، لماذا اتهمهم بما ليس ذنبهم، - أعاد ردد القابع مقيداً في إحدى زوايا الغرفة، - لم يكن الذين يرمون الصليب ممن معنا في المركب قلائل وإن لم يرفعوا وجوههم وأيديهم للشمس. وصاحب المركب، الرومي الأسمر العبوس الذي اشتراي، تحلى بالإنسانية فلم يكن ينهري. كان، هو الآخر، يحني رأسه ويرسم الصليب، وينظر إلينا بطرف عينه، ولكنه يتظاهر بأنه لا يرانا... لا أظنه عديم الرحمة وإن كان يحمر بالأسرى، أمرهم بفك قيودي حالما صرت بين يديه. الآن ليس تقييد رجلي مشكلة، أخف وطأة من احتفاظ الخزر بي مقيداً الجسد، فأنا حرّاً!.. لا، ليس من أجل أن أصارع وأقاتل، ولكن لن أسمح لأحد، ما دمْتُ حياً، أن يهينني أو يصفني بالجن سواء كان احتراماً لوالدي أم لأينار التعيسة الحظ أم لكل القسوغ..."

نفض ردد غير قادر على الجلوس في مواجهة موجة الأفكار التي غرته. ودنا من النافذة الضيقة التي ينبثق منها شعاع شمس الصباح وهو يقعقع بقيوده. لم ير شروق الشمس أو غروبها، ولكنه رفع يديه ووجهه لنورها على سبيل الحدس. ودعا إلى إلهه أن يخفف عنه البلاء الذي وقع فيه، وينشر الأمن في القسوغ التي أبعد عنها، ويُعيدته إلى هناك سريعاً، ويلاقي أهله وأصدقائه على خير، وينصر حظّه على من جلبوا له هذه المأساة.

"هذه البلدة التي جاؤوا بي إليها ليست مثل قرى بلادنا القسوغ. إنها كبيرة، مزدحمة، - يشهد على صحة ما يقول بما رآه أمس وما يراه اليوم، - الناس هنا أكثر ممن عندنا. نتشابه في تركيب أجسادنا، وضحكاتنا، وصرخاتنا العالية،

ونظراتنا، وطلاقة وجوهنا، ولكننا نختلف في ملابسنا ولغتنا. ثم إن السُّمُر في نواحيننا أكثر من هنا. وعربات الثيران؟.. هنا حركة العربات المزينة التي يجرها حصانان أو أكثر أنشط من عربات الثيران المخصصة للحمولة على الساحل. والفرسان أحسن تجهيزاً بالسروج وأحزمتهما، وبالأرمة... والأسرى الكثيرون الذين يتحكمون فيهم داخل بيوتهم مثلي؟!"

وفي اللحظة نفسها ارتسم أمام عيني ردد كلٌّ من نخلش الأصهب والمجرم أسباروخ. أمسك بشبك النافذة الحديدي شاعراً بالإهانة مما فعلا به. وهزه عدة مرات يتشفى منه فارتجّ الجدار. ولو لم ير خاتم والده في يده لكان خلع الشباك بسهولة. كان ردد فكّر بالخير لأسباروخ إذ أعاد إليه خاتم والده ولكنه عتّف عدوّيه وهو يجمع نفسه إليهما:

" مهلاً، مهلاً، إن لم أمرّكما من خرمه فسأعد حياتي كلها عبثاً! " - تذكر ردد ما قاله بحار المركب المقيد إليه على الشاطئ: " كنّ صلباً يا أمير. " لا أسمع لنفسي أن أنسى أُرضي رغم أني مقيد هنا. " نعم، نعم، يا بن قومي القسوغ البائس، ثق بي. لم يمنعك قيدك من الإشفاق عليّ. لن أنسى إلى الأبد وصيتك المؤثرة. ولكن ما يجزني يا إلهي الكبير هو عدم تمكيني من توحيد الأدیعة!.. ليس لأنني عاتبتُ عليك بل لأنني أصارحك. ابتعد ردد عن النافذة وهو يتنهد بعمق، وعاد فجلس إلى الجدار الذي فراشه مقابله. لفّ كفيه الضخمتين حول ركبتيه وأسند رأسه الحامي إلى الجدار الحجري مغمضاً عينيه.

أعاد صوت الباب ردد إلى واقعه. ولما رأى رجلَ البارحة الروميَّ الجهمّ ورفيقه، تذكر الرجل الحليق ذا الوجه الرقيق الذي حمل إليه العشيّة وصباح اليوم الخبز والماء، ومن دخل إليه قبله، محترماً نفسه، وتذكر أنه نهض لهما؛ فنهض لزوار اليوم مقدّماً إشارة الاحترام لهم، محافظاً على عادات الأدیعة في احترام الضيوف. وقال لهم بلغته غير مهتّم بأن يفهموها أو لا يفهموها:

- صباح الخير، تفضّلوا!

- ماذا يقول لنا أسيري؟ - سأل المضيف أحد رفيقيه.

- يرجّب بنا، ويدعوننا إليه، - نقل المترجم كوستاس إلى باناتيد كلام ردد.

"لم أصدّق ما رواه لي البواب صباحاً ولكن، - ضحك باناتيد في سرّه، -

رأيتُ بعينيَّ وسمعتُ بأذنيَّ. حين أخبروني بأنه أمير ظننتُ أني بدّرت نقودي القليلة قائلاً في نفسي: إن كثيرين يدعون الإمرة... هذا ما جعل الناس يقولون: لا تطارد القطّة السوداء في غرفة مظلمة... إن كنت ستتصرف معنا هكذا فسيقولون: لا نحتاج إلى من نعيه، ولا فائدة فيه إلا تهذيبه وأناقته، فلا يشترونه مني بنصف ما دفعْتُ فيه. ولن يدفع لي الشاري الذي جئتني به يا عملاق!" - تشقّى باناتيد من أسيره وقد آلمته خسارته نقوده، لا يعرف ما يقول وما يفعل:

- لماذا تقف أمامنا وكأنك ستقاتلنا؟
- لو جئتنا إلى أرضنا، القسوغ، مقاتلاً لقاتلُك. - أجب ردد على ما تُرجم له، - ولكن بما أنك أنت من اشترايني من المجرمين الخزر دون اعتبار لإمرتي فأنا على أرض غرفتك مقيّداً. يعني إلى من تريد، ولكن لا تُهَيّ.
- مهلاً، مهلاً يا باناتيد، - كظم الشاري البائع الذي كان استعدّ للهجوم وعيناه تتقدان، - لا تغضب، لم يُخطئ أسيرُك.
- هكذا؟ - ابتسم باناتيد مما سمع لاوياً فمه، ثم غيّر موقفه بصوت لطيف: - إن كان هذا رأيك فأنا أبيعك لك بالسعر الذي اشتريته به.
- وكم دفعت فيه؟
- أربع عشرة قطعة ذهبية، - زاد ما دفع فيه ستّ قطع.
- هذه مبالغة، غشّوك!
- لا تقلق من أجلي!.. - انفعَلْ مما سمع، غير أن ضرورة إنجاز الصفقة أعادته إلى الوعي: - أسأحك في قطعة إن كنت راغباً في شرائه.
- لا، لا، لا يزال غالياً.
- رأى ردد البائع والشاري يتساومان ذاهلين فارتاح على المقعد الوطيء في وسط الغرفة، لا عند أسفل الجدار، يأكله الشعور بالإهانة مبكّناً نفسه، نادماً على احترامه لهما، مقرّراً أن أمثال هؤلاء لا يستحقونه. رفع يديه إلى صدره كأنه يقول لهما: اشتروني وبيعوني، وافحصوني جيداً. ولولا القيد على رجله لوضع إحدهما فوق الأخرى.
- ولماذا غالٍ؟ انظر إلى ضخامته! - استدار باناتيد البائع، ولما نظر إلى جلسة

الأسير الذي دفع فيه كثيراً من المال غضب في سرّه، خائفاً ألا يشتري أحد رجلاً بهذه الطباع ولكن لم يملك إلا أن يمتدحه: - ألا تمنع النظر في من تراه غالباً؛ أليس سليل أمراء! أمير كبير، ضخّم الجسد، إنسان كبير لا يسعه المقعد، ولن تتسع له الغرفة!

- ألسنتُ أراه غالباً لأنه ضخّم الجسد!.. ألا يحتاج كل هذا الجسد إلى طعام ولباس...

- وهل يُطعم العبدُ ويكسى!.. يكفي أن تطعمه قطعة خبز، ولا تظهر مؤخرته، فيجلب لك فائدة. حسناً إن كان هذا رأيك فهات يدك، نقرر عشر قطع! ماذا بقي من قيمة للذهب هذه الأيام!..

- والذهبات العشر ليست قليلة إن لم تكن تملكها... ولكن لو عرفت حقيقة أسيرك لما جئتُ شارياً. أحتاج إلى عبد شِعِيل، لا إلى عبد أمير!

تعاقب على ردد كثير من الشارين في اليوم التالي وفي الأيام العشرة ولكنهم كانوا يرتعون متى رأوا هذا الرجل الجسيم الممتلئ فيحجمون عن شرائه، بل لا يريدونه مجاناً. ولا يجدون من اللائق الحديث في سبب مجيئهم. وحين فتح باناتيد بابه للفضوليين قرر مرغماً اقتياد ردد إلى سوق النخاسة، غير أنه فضّل محادثته في الموضوع مسبقاً.

جاء باناتيد برفقة كوستاس هذا الصباح إلى ردد فاستقبلهما على مضض بشارة احترام.

"لن يقبل الآن أيضاً التراجع عن موقفه... - ضحك باناتيد في سرّه حين رأى إعراض أسيره عنهما. لا ترضخ إن شئت غير أنني لسْتُ مجنوناً فأعيدك إلى حيث جئت بك منه... شاب شعري عبثاً إن كنت لا أعرف أن من تؤذيه لن يشكرك. وأكون وشيتُ بنفسي للقسوغ الذين حصلْتُ على الذي أملكه بفضلهم. يقولون: "لا يسمى سارقاً من لم يُضبط بجريمته" فلاسترجع في سوق العبيد ما دفعْتُ فيك!.. من دون أن أربح فيك ولو قطعة احدة؟! وثمن ما أطعمته وأنفقت عليه؟!"

- أظنك أعدت التفكير في ما تحدثنا فيه الليلة وقبل أيام، - تظاهر باناتيد أنه غير مهتمّ بعدم انتهاء الموضوع على خير، ثم أضاف: - الآن سنتصرف تبعاً

لقرارك.

- لا أزال على موقفِي. أنا أحمي نفسي ولا أفنديها، - أجب ردد باختصار دون غضب، تحرقه نار الإهانة ويكظم نفسه. - أعدني إلى حدود القسوغ التي جئت بي منها.

- ونقودي؟! - تلّهِف باناتيد.

- طالبُ بها من دفعتها له!

يئس باناتيد مما سمعه. ولكنه سرعان ما عاد إلى وعيه فردّ عليه ضاحكاً:

- ألا تتذكر أن خاطفيك تقاتلوا في تلك الليلة على الذهب الذي دفعته لأجلك!..

- حدث لهم ما يستحقونه! - كان والدنا يقول: لا يمكن لكثيرين أن يتشاركوا في الذهب، يبقى في النهاية لشخص واحد. فلا بد أن يأتيك واحد من الثلاثة. فإن حدث هذا فلا تنسيا أنت وأسباروخ، أي سأتبهل إلى آهتنا من أجلكما.

- تعال إن كنت تخيفني، - غضبت الآن عينا باناتيد اللتان كان الضحك يراودهما قبل. - سأرميك في مكان تنسى فيه نفسك! - قال التاجر الرومي الذي كان عاجزاً عن إطفاء الشرارة التي هبّت في لحيته البيضاء وشاربيه لمن كانوا ينتظرونه: - هيّا، قودوا من لا يريد أن يفندي نفسه!

اليوم فحسب لاحظ ردد أن باناتيد يمشي متهاكاً على رجله اليسرى. " يأتي أن يحمل عصاً، - كان ردد الذي يجرون قيده على أرض الغرفة يبتسم دون أن تعرف إن كان يشفق عليه أم لا، ثم لام نفسه في تلك اللحظة. - لماذا أعتب على العجوز الأعرج؟ لأنه اشترايني؟ وهل بقي في العالم من لا يبيع ويشترى؟! لو لم يشتريني لاشتريني غيره... استاء من مقارنته بأسباروخ المجرم. وهل التجارة بإنسان محتطف أفضل من الاختطاف نفسه؟! " تسخر مني قائلاً: " قودوا من لا يريد أن يفندي نفسه " كيف يفهمني من لا يدرك المغزى من قولي "لا أفندي نفسي؟" ليس الموضوع أن القسوغ يعجزون أو يمتنعون عن دفع بضعة ذهباتٍ ولكن بأي عين سأنظر في وجوه من يفندوني؟ وبأي عين سينظرون إلي؟ ماذا يقول كولس؟ "الروح لا تعار، ولا يأكل الملح من في ضيق". وماذا

كان تعليق غجبس عليه؟ "الروح تباع، والشرف يُشترى". وماذا كان قال لي المجذّف المربوط إلى جانب المركب؟ لا، لا، سأحملهم على أن يعيدوني إلى حيث اختطفوني ولو كنت في الرmq الأخير!"

- هل ترى هذه؟ - سأل باناتيد، وهم يتجاوزون كنيسة صوفيا، يشير إشارات الاحترام، ويرسم الصليب، ولا يستطيع ضبط الاعتداد الذي نبت في صدره.
- لست أعمى، - أخفى ردد مشاعره وإن كان استغرب منظر الكنيسة الضخمة أمام عينيه.

- أعرف أنك لست أعمى، - ابتسم باناتيد كاظماً غيظه، - ولكن يحزنني أنك، ولست من عامة الناس، لا تتعجب مما ترى.
- ما أراه بناء ضخّم ولكن...

- ليس بناء ضخماً فحسب! - قطع باناتيد كلام ردد.
- نعم، نعم، إنه مكان الابتهاال إلى إلهكم، ولكن معابدنا، جبالنا وغبابتنا ومراعينا، تلك التي ليست من صنع أيدينا، - أكمل ردد ما قُطع من كلامه، - أجمل مما أريتني إياه. وأشرح للصدر. وها هو إلهنا الكبير، الشمس تشرق في وجهي، وتشرق عليكم.

- نعم، نعم. يُروى أننا أيضاً كنا في زمن سحيق نعبد ما تعبدون. - كان باناتيد يتسم قائلاً لنفسه: ما الفائدة من مجادلة من لم يَحْزَ ما مرّ عليّ؟ الإنسان المتوحش يبقى متوحشاً إن لم تربّه، ولكنه لم يستطع إلا أن يعرّض به:
- ولكن ليس عندكم مثل هذه الكنيسة الضخمة، ولا القصور الحجرية.
- ليس عندنا لأننا لسنا جبناء!

- لم أفهم.
- لا نجس أنفسنا في بيوتنا الحجرية، ولا في قرانا، فنترك بلادنا التي وهبها لنا ألهتنا دون حماية. وحين نعجز عن مقارعة العدو يدعون ألهتنا فتحميننا جبالنا وغبابتنا.

- على كلامك فالبلاد كلها بيتكم...
استرعى ضجك باناتيد انتباه ردد فرفع رأسه، وسأل:
- هل قلت لك ما يُضحك؟

- أضحك لأنه لا يمكن للبلاد كلها أن تكون بيتك... - شحب وجه باناتيد، كرر: - لا يمكن لبلاد كاملة أن تكون بيتاً لك! أنا أقصد البيت الذي امتزج بعرقك ومالك، تدخله فتستريح فيه، وتغلق الباب عليك فتجد الأمان.

- عجيب ما أسمعته عجيب... - ضحك ردد.

- وممّ تضحك أنت الآن؟

- أضحك لأنك ذكرّتي بالناس الذين يقولون: ما تجد فيه خبزاً هو بيتك وبلادك.

- ومن هؤلاء؟ من جماعتكم؟

- لو وُجد أمثال هؤلاء بين القسوغ الذي أرضهم وبلادهم بيوتهم لكان كل ما قلناه إلى الآن عبثاً، - لم يستطع ردد أن يغالب صوته وإن كان يكظم غضبه.

- ومن أين لي أن أعرف؟! قلت فسألت، - ثم برأ باناتيد نفسه بنبرة الوعظ: - لأني سمعتُ جذر كلامي لأول مرة.

- لا ضيرَ في أن تسأل عما لا تعرف. ولكن بين الخزر الذين غزّوا أرضنا فاستوطنوها مثل هؤلاء الناس. ولا نعرف أصلهم وموطنهم الذي جاؤوا منه. وحين تسألهم لا يذكرون أصولهم كما نقول نحن: قسوغ، موط، زيخ، روم، جنوى... يُخفون أنفسهم بين من يسكنون بينهم مسّين أنفسهم بالخزر.

- هل هم مخادعون - سأل باناتيد وطباع التاجر تغلب عليه.

- مخادعون، وأذكياء، ومحاربون.

- تصفّهم جيداً وأنت تقول إنك لا تعرف أصلهم.

- ولماذا لا أعرفهم؟ أنت أيضاً تعرفهم.

- كيف؟

- من بين من سألت عنهم، - حدّق ردد في عيني باناتيد، - أسباروخ واحد منهم.

- توقّعتُ هذا، - أعاد باناتيد النظر في وجه ردد في ما هو يصيح، وابتسم: - حسنٌ أنه ليس من القسوغ ولا من الروم. ولكن لا أكنتم عنك أننا لم نتكلم قطّ وجهاً لوجه، إلا عبر الوسطاء. لو عرفْتُ أنك أنت من سيبيعوني إياه لما

ضربت رأسي بفأسٍ مثلك. ولكن بعدما فعلتُ ما فعلتُ ولا إمكان لأن نتفاهم أنت وأنا، ثم إني لا أستطيع أن أحقق لك ما ليس بمقدوري، فلا تؤاخذني.

خاطب التاجر باناتيد نفسه مخفياً الألم الذي عصر قلبه خلافاً للأيام السابقة: "هذا الرجل ليس مجنوناً وإن كنت أسخر منه معتداً بمالي وحريتي، مهموماً بما سأربح فيه وما سأخسر. أجادله منذ اشتريته ولكنه لم يُخطئ. أنا أتحدث عن المال والذهب، وليس على لسانه هو إلا البلاد والأرض. وتأتي رجولته أن يفتدي نفسه. هذا هو الأمير، أما أمراؤنا - ملوكنا فمن أين أتوا!... يتنازعون السلطة من أجل المال فيتقاتلون أخيراً. يخافون أن يحتفظوا بالمال والذهب في بيوتهم وفي بلادهم فيخفونها ما وراء البحار... هذا إنسان بالقياس إليهم، سلطان حقيقي. هل أنا كف ملك القسوغ هذا فأطلق سراحه؟.."

"لماذا أعتب عليك إن كنت تعرف من نفسك أنك فقدت حريتك؟.. - ضحك ردد في سرّه بدلاً من أن يجيب على السؤال. وحين دخلوا سوق النخاسة لم يفهم في البداية ما يرى. ثم ملأت المأساة التي لا حدود لها قلبه يأساً. وصرخ دون إرادته:

- أيُّ عالمٍ بلا رحمة جئتم بي إليه!

- ما الذي لا يعجب أمير القسوغ؟ - قال باناتيد الذي لم تحتلج عضلةً في وجهه، وألحّ على كوستاس: - اسأله مرة أخرى إن كان سيفتدي نفسه! - يكفي أن يجيب " نعم " لأعيده بنفسه ولا أطلع أحداً على ما يعدّه عاراً في حقه. - رسم باناتيد لنفسه الصليب متمهلاً على مرأى من ردد، - سنطلقه على ساحل بحر القسوغ، أبلغه هذا الكلام! لا يحيا العالم بالرجولة والصدق وحدهما. - ثم دمدم: - العالم مملوء بانعدام الإنسانية والشرف. لا يجعل لي من نفسه مستحماً بالحليب، لا أثر للوسخ على جسده! ونحن كنا في عهد ما أنظف من الذهب... لا تنقل إليه الجملة الأخيرة! " ليتني استطعتُ أن أدفع هذا الأمير العنيد إلى الخطأ وكأن لا علاقة له به، الروح حلوة، والحياة غالية، لكنك غلبته!"

- أبلغ هذا الرجل أن لا فرق بين أن يسرق الإنسان نفسه بنفسه وبين الموت!

- جزم ردد شاعراً بالإهانة مما قيل له، وأضاف: - أكرر الآن أيضاً، ولن نعيد الكلام فيه: أفضل أن أبقى في الأسر حيث أنا حرٌّ بيني وبين نفسي على أن أسرق حريتي بنفسي.

قال باناتيد وقد تغيّر لونه وكأنه كان ينتظر هذا الكلام:

- كما تريد، أنا مددتُ إليك يدي وأنت أرحمتها جانباً. - ثم تشفى برفاقه بعد قليل: - ما جلوسكم تحدّقون في فمي؟! أبعدوا هذا عني! لا تساموا من يدفع ما دفعْتُ، بيعوه. وأنا لن أبعد عنكم.

تلاقت عيون البائعين والشارين على ردد حين أصبح في السوق. وتبع الرجل الجسيم من يريد أن يشتري ومن لا يريد. ومن تجمعوا حيث يعرضونه أكثر من الأولين. وقف باناتيد حيث توقف الجميع وكأن لا علاقة له بالموضوع، ولكنه ساهم في ما يصل إليه من الكلام، مهتماً بمصير أسيره.

- كأنه من نسل العمالقة! - يتعجب أحدهم.

- لن يشتغل بثمان طعمه، - أشار غيره.

- كم تطلبون فيه؟ - صاح الرجل النحيف من فوق رأس باناتيد، وهو يرت على كتفه دون انتظار الجواب: - ابتعد قليلاً، أليس حسناً أن يكون رجلاً ضخماً؟ تصارع به وتقاتل... كم تطلبون؟

- ليس أقل من ثماني ذهبات.

" ألا تطلب عشراً! - لم يملك التاجر باناتيد أعصابه بينه وبين نفسه، - سيدفع أكثر مما طلبت. ألم تسمعوا ما قال الرجل من الورا؟ يرشّحه للمصارعة وللقتال... مهلاً، مهلاً، ألا يمكن أن ندره عليهما؟ قد لا أملك أرضاً يجرّتها ولكن في القسطنطينية وسالونيك وجنوة وروما كثيراً من صالات التدريب على الرياضة. ولماذا أهتم بمن لا يرضى افتداء نفسه! سيكون مفيداً إلى أن يقطعوا رأسه! - انشغل التاجر باناتيد بموارد الفائدة والبيع والشراء - إن كنت عاقلاً هكذا فلسنا نحن أغبياء، وسأنافسك، لن أبيع لك... " قال باناتيد لمن أمامه: - دعوني أدخل لحظة إلى الساحة! - صاح مشيراً إلى نفسه بالعصا الفضية: - أنا أدفع عشراً!

رفع ردد المغمض جفنيه الثقيلين رأسه وهو مربوط إلى عمود العار حين تعرّف

على صوت باناتيد، ولو أن المساومة تجري بلغة أخرى، وكأن من يتساوم عليه هؤلاء الحاملون اسم الإنسان وقلبه، شخص آخر، ولكنه عاد فأغمضهما وانصرف كمن لا يبالي بما يُقال وما يجري، إلى أفكاره التي تمنحه القوة - الأمل، السارحة في بلاد القسوغ.

- من هذا الذي ينافسي؟ - التفت الرجل النحيف الطويل. - أنت يا باناتيد! أزيد على ما دفعت ذهبتين.

- وأنا أشتريه بخمس عشرة! - تدخل زبون آخر.

- سبع عشرة! - زاد باناتيد.

- ثماني عشرة.

- عشرون.

- من لا يساوي عشرين ذهباً يا باناتيد، - رفض الرجل النحيل، - لا تزد عليه وأنت تدري!

توافد المشترون والمشاهدون، وانصرف بعضهم. وغاب صوت المشتري الثالث. ومن ينتظرون ما سيحدث يتبادلون نظرات خفية ولا يتفرقون. ولم يرفع ردد جفنيه مهما حدث أمامه.

- ألسْتُ حراً في مُلكي! - غضب باناتيد لما لَمَحَ به إليه وإن لم يبق بين الزبائن من ينافسه. وزاد من لم يقبل منه السعر الذي عرضه، والذي يرفع باناتيد في وجهه عصاه الفضية، مبلغاً آخر معتدّاً بأنه تاجر خبيث ماهر: - أدفع خمساً وعشرين! - ودار ببصره هنا وهناك، وانتظر. - لا منافس لي، اشتريت الأسير. أركبوه في عربتي!

لم يملك ردد الذي عادوا به من السوق، مخمّناً أنه عائد إلى البيت إلا أن يقول: - لا أفهم سبب عودتنا.

- ليس في هذا ما لن تفهمه، - ابتسم العجوز باناتيد مرتاحاً لما حدث له، - بعث من لا يملك فديته، ثم اشتريته من جديد. ولكن لن أكتّم عنك لأنك صادق: أظنني وجدت لك عملاً تقدر عليه وتعيش من ورائه، وليس خسارة لنا كليتنا...

أشاح ردد برأسه الثقيل وانصرف بقلبه إلى بلاد القسوغ، ولم يسأل عن العمل

II

يهطل في القسوغ مطر بارد خفيف في اليوم الذي يسبق تقاطع الخريف والشتاء. ويختلط به أحياناً ثلجٌ رطبٌ ناعم. والشمس تُشرق أحياناً وتختفي أخرى من خلال مزق السحب الزرقاء - السوداء العاجزة عن تغطية السماء. والريح الراكدة التي تاهت في عالم الجبال والتصقت به تهب ثم تهدأ. ثم تتشجع وتمر فوق العشب الجاف المتبلد غاضبة. وتختطف أوراق الأشجار المتأخرة عن السقوط. وتحمل معها الجمرات المسافرة الخارجة من المداخل دون سروج ولا ركائب إلى حيث تريد.

والطيور التي أحسّت بقدوم الشتاء تطلُّ من أعالي الأشجار والأجمات، والغربان التي فوجئت بالثلج ترتقي على الأرض صارخة. والجوارح التي لا تحب الثلج كثيراً تحوم لا عالية ولا منخفضة.

مضت ثلاثة أشهر على آخر مرة وطئت فيها رامبس البيت الحجري الجديد الذي بناه ردد قبل أن يغيب. تقضي نهارها وليلها في غرفة القش التي بنتها مع زوجها لاورستن، فعاشا شبابهما فيها، وشهدت أفراحهما وأحزانهما، ورّيا فيها ولدهما الوحيد. وتسمع فيها ضحكة لاورستن وردد وضحكها هي أيضاً. وتصل أيدي أقرب اثنين إليها من الناس إلى المقاعد والمائدة والصحون والملاعق والسلسلة التي تعلّق بها القدر داخل الموقد، فتشم رائحة زوجها وولدها. ويعيشان معها...

" وشوباش أيضاً! - ترتعب رامبس في داخلها متوجّسة شراً من عدم حضور ابنها الأصغر معهما، فتتطق اسمه. - من حسن حظي أن إلها توفّع ما سيجري لي فبعث هذا الولد إليّ. وما هو الآن، حلّ محلّ أخيه الأكبر بمساندة مني ومن القسوغ، وإن لم يتخذ قالب الرجال تماماً. لا أعرف كيف كنت سأعيش دنيائي لو لم يكن حاضراً أمام عينيّ ولم يساندني!.. لا، لا، لا أعتب عليك يا إلهي الكبير في شأن ابني الأكبر، وأنتم أيها الآلهة الأخرى. لم تسمحوا لأي يأس أن يغزو قلبي منذ أن غاب. وأنا واثقة أنكم ستبّقون على حياته،

وستعيدونه إليّ. ورسائلكم إليّ عبر موفدكم تراب، حياه الله، يوصلها إليّ لا يسقط منها شيء. وكولس سافر في شيخوخته، هو وتيمرقوه وقدان فيسّر لهم طريقهم، وأعدّهم مع ولدي، وانصرّ حظّهم على حظوظ أعدائهم! واشملّ برحمتك عُجّيس المسكين الذي لازم الفراش...

أعادتها أصوات حوافر الخيل التي كانت تنصت إليها دائماً إلى عالمها. وضعت رامبس جانباً القبة المستديرة الصغيرة التي كانت تطرّزها لأينار بخيوط الذهب، وخرجت من البيت. ورأت شوباش الذي كانوا يساعدونه على الترجّل ممسكين بزمام حصانه. وكان مشقوه وججان وتراب وأغبان، وشبابٌ أحدث سنّاً يومئذٍ إليه إيماءات الاحترام. تألم قلب رامبس وابْنُها الأكبر في خيالها ولكنها كتمت ألمها واستقبلت بوجه طلق من كانوا يستقبلون الأمير الشاب.

حالما دخلت رامبس والأمير الشاب إلى غرفة الإمارة سألت الأم:

- ما الخبر السار الذي أتى به من استقبلتموهم يا ولدي؟

- أكّدوا ثانية يا أمي أن ردد حيّ، وأنهم عبروا به البحر.

- وما مصدر هذه الأخبار؟

- ليس من شخص واحد على قولهم.

- أخوك الأكبر حيّ إذن يا ولدي! - فرحت عينا رامبس من محجريهما.

- وأخبرونا يا أمي باسم من ارتكب الجريمة.

- من الذي نكبنا؟

- أسباروخ!

- وهل وصل إلينا ثانية قاتل والده؟! - صرخت رامبس، ومسحت عينيها بطرف غطاء رأسها.

- يا أمنا!.. - انكسر صوت شوباش.

- نعم، نعم يا ولدي، لا داعي لليأس. - استدركت رامبس الموقف وكأن شيئاً لم يحدث لها. - سينتصر حظنا على من لا يُضمرون لنا الخير. لم أسأل عن مهمة كولس وصحبته.

- وهؤلاء رافقوهم إلى بحر آزوف، وعبروا بهم البحر.

- وأين هذا؟

- عند توم تقاش.

- حيث هرب أخي الأصغر؟! - تنهدت رامبس عميقاً لا تستطيع ضبط نفسها، كاتمة في سرها حزناً - قلقها، قائلة إنه يأتينا مع المجرمين غير عابئ بمصيبة ابن أخته.

- نعم، تصل إلى ما يسمى فيودوس بعد أن تتجاوز هذا الموقع وتعب بحر أزوف مقترباً من "بانتيكابي"، - يماطل شوباش، محاولاً أن يلهي أمه عن أحزانها، - وبعد أن تحتازه، يمكنك أن تصل في وقت قصير، حسب كلامهم، إلى القسطنطينية، إن توفر لك مركب سريع...

- نعم، نعم يا ولدي... - توافقه وإن كان ما في ذهنها شيئاً آخر، ثم تعود إلى ما يشغل بالها: - لو وصلوا إلى توم تقاش لقدّم لهم أخي الأصغر خدمة ما... أنا أعتب على عديم الشرف هذا ولكن أليس من يبحثون عنه ابن أخته؟! انظر ما حدث لنا في ذلك المساء بعدما غضبتُ وقررت أن أكلمه متى رجع لأعيد إليه الوعي... ألا تقول شيئاً يا ولدي!

- أقول: ما كان قانشاو ليفهمنا بأسلوب مجيئه إلينا!

- رأيث هذا يا ولدي... - تمزق صوت رامبس وتنهدت: - ومع ذلك ألم تلده أُمي؟!

تذكر شوباش أن كولس وقانشاو ابتعدا وتحادثا. لم يسمع كل ما يقولانه ولكن وصلت إليه بعض الكلمات. كان شوباش يقف إلى جانب كولس في موقفه ولكنه لا ينسى قول قانشاو: "قضايا البلاد فوق كل شيء". وكلما جرى الحديث عن شؤون الإمارة ازدادت الذكريات حضوراً إلى الذهن. وكان خطر له الموضوع هذه اللحظة، ولكنه عاد سريعاً إلى وعيه فضبط نفسه في حضرة الأم. كان لا يرى من اللائق أن يخطر له هذا الموقف في الوقت الذي هو وأمه في هذا القلق، على أنه لا يستطيع إلا أن يفكر فيه. في قولهم: "تبقى أمور البلاد فوق كل شيء مهما قيل" جانبٌ من الصحة لن تفهمه ما لم تُعانه بنفسك. الآن تندمين قليلاً يا أمنا، لا أقول إن طريقة استقبالك أعجبت الجميع، ولكن القسوغ أيدوك. ما كان يضير رجالنا لو فهموا ما جرى لنا. ولكن أشهر إمرتي جعلتني أختبر بنفسي أن أمور البلاد تنسيك الكثير...

- يا ولدي هل تسمعني؟ يُحِيلُ إِلَيَّ أَنْكُ فِي مَكَانٍ آخَرَ.
- لا يا أَمْنَا، لَسْتُ بِعِيداً عَنْكَ، - صَحَا شَوْبَاشُ مِنْ تَدَايِعَاتِهِ، وَلَمْ يَكْتُمْ عَنْ
أُمِّهِ: - كُنْتُ أَفْكَرُ فِي بَعْضِ مَا قَالَهُ قَانَشَاوُ حِينَ جَاءَ لِتَحْصِيلِ الْإِتَاوَةِ.
- وَمَاذَا يَمْلِكُ أَنْ يَقُولَ مِنْ جَاءَنَا نَهَاباً مَجْرَماً؟! - سَأَلَتْ رَامِبِسَ وَغَضِبَهَا
يَغْلِبُ اسْتِغْرَاهَا، وَأَكْثَدَتْ: - لَيْسَ شَخْصاً يَسْتَحِقُّ الرَّحْمَةَ وَإِنْ كُنَّا خَرَجْنَا مِنْ
رَجْمٍ وَاحِدَةٍ. ثُمَّ مَا الَّذِي قَالَهُ وَيَقَى فِي الذَّهْنِ؟ - سَأَلَتْ الْآنَ بَنْبَرَةَ الطِّفْلِ.
- لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلَيَّ بَلْ إِلَى كُولَسِ.

- أَلْهَذَا تَقُولُ: قَضَايَا الْبِلَادِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؟
- نَعَمْ يَا أَمْنَا؛ مِنْ أَخْبَرِكَ؟ - ارْتَعَبَ شَوْبَاشُ حِينَ سَمِعَ مَا كَانَ يَفْكَرُ فِيهِ.
- أَخْبَرَنِي كُولَسُ يَا وَلَدِي بِمَا تَحْتَفِظُ بِهِ فِي سِرِّكَ لَا تَسْتَطِيعُ الْبُوحَ بِهِ. وَلَكِنْ
هَذَا التَّعْبِيرُ لَيْسَ مِنْ ابْتِكَارِ قَانَشَاوُ، وَلَا كُولَسِ، وَلَا أَخِيكَ الْأَكْبَرَ رَدَدَ. فَارْقُ
لَاوَرِسْتَنَ الْحَيَاةَ مُخْلِصاً لِهَذِهِ الْفِكْرَةِ لَا تَفَارِقْ لِسَانَهُ. وَيَسْرِنِي أَنْ تَكْرُرَوهَا أَنْتُمْ،
وَلَكِنْ لَا عِلَاقَةَ لِأَخِي بِهَا. لَا يُمْكِنُ لِلْحِصَانِ الَّذِي أَرْكَبُوهُ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يَشْقَى
فِي تَرْبِيَتِهِ وَدُونَ أَنْ تَتَهَرَّأَ مَوْخَرْتَهُ عَلَى صَهْوَتِهِ أَنْ يَكُونَ حِصَاناً لَهُ! هَذَا مَا جَرَى
لِقَانَشَاوُ نَحُونَا وَنَحُوَ نَفْسَهُ، وَنَحُوَ مِنْ اتَّجَهَ إِلَيْهِمْ. لِيَقْلُقَ لِأَمْرِ بِلَادِ الْقَسْوُغِ الَّتِي
قَضَى صَهْرَهُ لِأَجْلِهَا، وَلَا يَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ رَسُولاً لِدَوْلَةٍ أَعْجَبِيَّةٍ! لَنْ تَتَأَلَّفَ مَعَ
الْأَغْرَابِ مَهْمَا قَدَّرُواكَ وَرَفَعُوا مِنْ شَأْنِكَ. سَيَلْفِظُونُكَ إِنْ عَاجَلاً أَمْ آجَلاً. مَا
سَبَبُ تَسْمِيَةِ مَنْ يَقِيمُ فِي الْقَرْيَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي رَأْيِكَ بِالْغَرِيبِ؛ أَلَيْسَ لِأَنَّهُ يَقِيمُ
عَلَى غَيْرِ أَرْضِهِ؟

لَا حَظَّتْ رَامِبِسُ أَنْ وَجَهَ شَوْبَاشُ امْتُقِعَ مِنْ ذِكْرِ " الْغَرِيبِ " فَقَالَتْ فِي
نَفْسِهَا: " يَا لِمَصِيبَتِي؛ حَاوَلْتُ أَنْ أَكْسِبَ وُدَّ الْوَلَدِ فَذَكَرْتَهُ بِنَفْسِهِ! " - نَهَرَتْ
رَامِبِسَ نَفْسَهَا فِي سِرِّهَا، وَأَضَافَتْ: - صَحِيحٌ مَا يَقُولُهُ كِبَارُنَا: " فَكِّرْ ثُمَّ تَكَلَّمْ،
وَأَفْهَصْ مَجْلِسُكَ ثُمَّ اجْلِسْ! ". جَرَحْتُ قَلْبَ ابْنِي الْبَرِيِّ فِي غَفْلَةٍ مِنِّي... "

- إِذْنِ أَغْبَانُ غَرِيبٌ، وَأَنَا أَيْضاً يَا أُمِّي.

- شَوْبَاشُ! - صَرَخَتْ رَامِبِسُ دُونَ إِرَادَتِهَا. ثُمَّ دَانَتْ نَفْسَهَا بِهَزَّةِ رَأْسٍ: - نَعَمْ
يَا وَلَدِي، سَامِحْنِي! أَخْطَأْتُ فِي مَا قُلْتُ. وَلَكِنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً مَخْطِئٌ فِي حِمْلِكَ
كَلَامِي عَلَى مَا لَمْ يَخْطُرْ لِي. هَذَا مَا جَعَلَهُمْ يَقُولُونَ: لَنْ تَعْرِفَ نَهَايَةَ الْكَلَامِ إِنْ

لم تعرف بدايته... كيف أنسى أخي الأصغر كيفما استقبلته ومهما قلت له؟
يظل حزني من أجل القسوغ يطغى على حزني من أجل أخي. ما ذنب أخيك
الأكبر وأخي الأصغر؟ أقول هذا لأني أتساءل: هل يمكن أن يدفع آسرو
أخيك الأكبر كما فعلوا بأخي ويعيدوه إلينا؟!

- لا يمكن لردد أن يفعل هذا يا أمنا.

- أكيد لن يفعل. - وافقت رامبس التي رفعت عينيها جافلة. - إن فعل
أخوك أمير القسوغ مثل هذا فلن تقبل منه أنت أيضاً. اغمرنا برحمتك يا إلهنا
الكبير، وأعدّه إلينا سليماً معافاً! يا شوباش، سألت رامبس وقد تذكرت فجأة:
- ما اسم المكان الذي يسافر إليه كولس وصحبته؟

- فيودوس.

- ما ذكره تراب اسم آخر.

- تراب يقول الكثير إن كنا سنصدق كل أقواله.

- شوباش! - قطعت رامبس كلام ولدها، - لا تقل مثل هذا بحق تراب. لن
يقبل منك هذا من يصدّقون أنه مرسل ألهتنا. أنسيت أن أول من أخبرنا أن
أخاك الأكبر ما يزال حياً، وأنهم عبروا به البحر هو تراب؟! - وكان ردد
يقول، إن كنت تتذكر: حذبته لها حاسّة ما. مثل هذا الإنسان لا يُقَاطَع، بل
يُستفاد منه. وترى نخلش يتردد عليه أحياناً. وجماعة حقار لا يتجنبونه.
ويتوسل إليه من عنده مأتَم ومن ليس عنده. وهل تظن أن كل هؤلاء الناس
تقاطروا إلى داره من أجل أمه حين توفيت فجأة؟ أنتما، أغبان وأنت، لا أعرف
لماذا تتحاملان عليه؟

دخل أغبان متصبراً إلى الغرفة، وقال دون أن تعرف شكواه:

- لا أعرف كيف سأتصرف مع تراب، يريد أن يدخل رغماً عني!

- ماذا تريد؟ - لم يملك شوباش إلا أن يسأل رغم حرص أمه على أقواله.

- ليدخل! - قرار رامبس مختصر.

عبر تراب الباب طلق الوجه مرتاحاً وكأنه غير الذي كانوا يحتجزونه بصعوبة
وراء الباب. وحيّاهم بجزّة رأس دون أن يُلحّ على اعتداده بشخصه:

- أدعو إلى إلهنا الأكبر وسائر آلهتنا أن يكون يومكما خيراً عليكمما. وأبتهل

من أجلك يا سيدة البيت بطول العمر والسعادة بولدك ردد وشوباش. أنا واثق، كما أنت، من أن الأمير ردد سيعود إلينا. السماء والأرض تساندانك يا رامبس.

- حياك الله يا تراب، تفضّل واجلسن، - قابلت رامبس الوجه الطلق بمثله. والتفتت إلى شوباش تأمره أن يكتفم عدم ارتياحه له، وجفاءه نحوه. "انظر إلى هذا كيف يتصرف، وإلى مهارته في الابتهالات!.." تذكر كيف تحرش بأبنار ثم توسل إلى ردد. ولكنه نفذ رجاء والدته.

- لن أجلس عند قائمة الباب وإن لم أجلس مقابلكما على مبدأ " من يسمح له بالجلوس في مكان لا يستحقه لا يؤاخذ فيما بعد " - جلس تراب في مكان جانبي يرى منه الأم وابنها، ومهد لكلامه: - صحا الجوّ ظهراً بالقياس إلى الصباح. تفهّمنا آلهتنا، غير أنهم يخبرونا بأن الشتاء القريب سيكون بارداً. أتأمل أن يتفهّمونا في هذا أيضاً متى قدّم.

يريح تراب نفسه مع حديثه حيث جلس ولكنه يشعر أن شوباش لا يؤدّه، وإن كان يتظاهر بالترحيب به، ولا يتهيب من علاقته بأهته. "كيف يتصرف هذا؟ - يقول تراب متألماً، نسي بسرعة كيف وصل إلينا! من حظك أن الأمير ردد خلّصك وإلا فما كان أحدٌ ليعرف أين مكانك... ماذا فعلت بك أيها العنيد فلا تحبني منذ أول يوم! من أجل أمثالك قيل: دخل الكلب الغريب فطرد كلب الدار. القسوغ مجانين، وكولس ليس فطيناً، وأنا كيف لي أن أتجاوزهم، وهكذا سلّمنا الإمارة التي بدأنا في تأسيسها بمشقة لعاير السبيل الذي لا نعرف أصله بعدما أجبرنا أنفسنا على الاقتناع به، وأنت يا رامبس عليك اللوم في هذا. لو كان الأمر بيدي، لسلّمت الإمارة لك، ولكن من يستشيرني. وهل عجيب إن كنت ذات غطاء؟ كنت مارسيت الإمارة أفضل من الرجال أصحاب القبعات. وأنا نادّم على أي لم أتجرأ فأرشحك في الاجتماع. لن يفهمك أفضل الرجال كما تفهمك المرأة. ولكن الموضوع لم ينته هنا... سأريك أيها الغريب العنيد إن كان تراب ليس موفد الله!.."

- نعم يا تراب، نعم، - وافقته رامبس، - إن لم يشملنا الإله الكبير برحمته ويتفهّمنا آلهتنا الآخرون، - فمن يرحمنا في هذه الدنيا ويفهمنا؟ لو عاد إلينا

ردد قبل الشتاء لقدّمت لكل إله قرباناً...

- رامبس أيتها السيدة الكبرى، - استعجل تراب بصوت خائف ووجه شاحب، - لا تنذري مثل هذا النذر!

- يا مصيبي يا تراب، هل أثبت بما قلت؟

- الآلهة يُبتهل إليهم ولا يُتوجّه إليهم بالقربين... هل تسمع يا شوباش؟ ها أنا أسمع، الآلهة لا تقبل. - انظر من النافذة: ها هي السماء تتجهّم بوجهها، تتساقط نُدف الثلج. ارفعوا أيديكم لندعو إلى الإله الكبير العزيز، مكررين ما أقول.

- انفض يا شوباش! - جزعت رامبس التي أُلقيت بالرعب.

- لا بأس أن تبقى جالسين. - أمر شوباش ورامبس بالجلوس. وقال مُبرزاً معرفته بما يطلب منهما: - لن يكره الآلهة ما تفعلون متى كنتم في البيت أو على المائدة. ولكن دعونا ننهض لهم، لا فرق بين غني أو فقير، لأن الإنسان البائس هو من يُظَلّونه برحمتهم ورهبتهم. - ظل تراب يكرر: إن استطعتم،... وبيتسم حتى أوقف أسرة الإمارة في حضرته.

لم يكن تراب يُسهب في كلامه كلفاً بالدعاء - كان يفتخر ككل أصحاب العاهات القُساة بأنه فرض على أسرة الإمارة التي تحقّق لها ما لم يتحقّق له، الوقوف للدعاء، وربما كان استثنى رامبس التي تكاد تقتنع بأنه رسول الآلهة من هذا التشقيّ لولا أن شوباش الذي يتشفّى بتراب منذ وقعت عينه عليه كان واقفاً أمامه يسخر منه في قلبه. "كما أنني أقدم إليك شارات الاحترام رغم أننا نعرف أنك لست أميراً - كان تراب الأحذب يضحك في سره ملقياً نظرات خفية إلى الشاب الصلب الممشوق، - فلن أكون تراباً¹ إن لم أردّ عليك بالمثل. وسأعيش حياتي عبثاً تسخرون مني!.."

- والآن، وقد سمعنا الآلهة - اختتم تراب دعاءه بما يريد، - المسوا باليد اليمنى القلب والجبين كما كان يفعل كولس. هم يسمعون ويرون كل ما نقول وما

¹ نكرتُ الممنوع من الصرف، فنوّثته على مبدأ: مررتُ بسيبويه وسيبويه آخر، في أمثلة النُّحاة، أي بشخص آخر يشبهه.

ن فعل. هل أحسست في داخلك يا شوباش لينا لم يكن فيك قبل الدعاء؟

- لا أعرف كيف أعبر لك يا تراب... - كنتم شوباش مفاجأته بالسؤال. -

متى ما دعوت لأخي الأكبر لانت مفاصلي وأطرافي. وهل أنت أيضاً يا نانا؟

- نعم يا ولدي، نعم. - ابتسمت رامبس في وجه ابنها، - ما يتكلم عليه تراب صحيح. سمع آهتنا دعاءنا. ووصلتنا رحمتهم.

- صحيح يا رامبس، صحيح. أنا أحس بمعروفهم أكثر من غيري لأني مرسلهم. والآن دعونا نكف عن الكلام ريثما تتصرف أصوات الآلهة عنا. ولنجلس وفي قلوبنا الخير. ولن يمتد هذا إلا بضع شقيقات.

" ما الصوت الذي يتحدث عنه هذا؟ - ينصت شوباش متمهلاً ولكنه لا يسمع إلا نبض قلبه. - أظن أن في تراب شيئاً ليس في سائر الناس. وهذا رأيي نطاي أيضاً. وججان يلمح إلى هذا محتجاً، دُعك من أمنا التي بدأت تشفق عليه لعاهته حتى اعتبرته رسولاً حقيقياً للآلهة منذ غاب عنا ردد وإن لم تجرؤ على أن تعلن صراحة. وأين مشقوه من هذا؟ هذا لا يمكن معرفة ما في داخله. ينصحننا ألا نعارضه ولا نسيء إليه، فيحميه. ولكنه متى قرر السفر لم يصطحبه بداعي أنه نحس لا يتحقق لك الخير معه. أما جماعة حقار ونخلش فلولا أنهم يرتدعون من شيء غامض لما أبقوه حياً، لمزقوه إرباً إرباً. وكبارنا؟ المسنون، كما هي عادتهم دائماً، تغلب عليهم الشفقة. ولكن يُحِيل إليّ أن الناس يتقبلونه شيئاً فشيئاً مهما كان موقفنا منه. والعجيب أن أغلب ما يُخبر به على لسان الآلهة يتحقق... لماذا ليس أغبان واحداً من كل هؤلاء؟.. "

- هل تريد أن تقول شيئاً يا شوباش؟ نقض تراب صمت الغرفة، - والآن يمكننا متابعة حديثنا. ارتفعت أصوات الآلهة إلى السماء، وتفرقت في الجبال والغابات. واستقرت في البراري.

- ماذا أقول بعد آهتنا؟ - لم يُبدِ شوباش عدم تقبله للسؤال، ولم يملك إلا أن يجيب يغلبه سوء مزاجه: - لا أظنك دون مهمة، نسمعك.

- صحيح، أنا لست ممن لا رسالة لديهم ولا آلهة. جاء بي إلى هنا همي، غير أنني لم أستطع تقديمه على آهتنا. ليس همي بالمقارنة مع ما لحق بأمر القسوغ ردد شيئاً ذا بال، ولكن مع ذلك...

- لا تماطل يا تراب، نسمعك، - لم يصبر شوباش.
- لا تستعجل يا ولدي على من يأتيك بهمة.
- هذا صحيح يا سيدة القسوغ الكبرى. لن يفهمك من لم تؤلمه سته، ولا ضاق عليه حذاؤه. أنا لست مولوداً في مزبه فحسب، بل ربيت على كتف لاورستن الأمير الكبير، ولم أكن غريباً على دار الإمارة طوال عمري. كان بابها مفتوحاً لي ليلاً ونهاراً. والآن يمنعني الحارس أغبان من دخولها. ولا يسمح لي بالسير إلى جانب سورها. أظن أن أغبان ملحد.
- يا شوباش، يا ولدي، - استعجلت رامبس، - أنا أسمع شكوى تراب لأول مرة؛ هل أنت مطّلع عليها؟
- نوعاً ما يا أمنا... سأوصي أغبان ألا يسلك مع تراب هكذا.
- لا يكفي أن توصيه، - قالت رامبس بصرامة، - بل أكّد عليه!
- إن كان هذا رأيك يا سيدة القسوغ الكبرى، - نهض تراب وقد تحقق له ما أراد، ولا يجد من المناسب الاستمرار في الجلسة، - فسأتابع أعمالي، ولا يؤاخذني الحارس أغبان؛ لم أفتر عليه.
- قالت رامبس حالما اختفى تراب وراء الباب بصوت أشدّ حزماً:
- أنت مذنب يا ولدي إن كنت على علم بسلك أغبان الحارس. نعرف تراب ولكن لا تنسوا أنه مرسل الآلهة، - غادرت رامبس الغرفة لا تخفي انزعاجها.

III

صحيح ما يقال: إنك لن ترى غداً ما رأيته اليوم، رغم أن السماء والأرض هما هما.

سافر كولس وتيمرقوه وقدان في طريق ثقيل واحد يجمعهم هم - أمل واحد، غير أن لكلٍ منهم أفكاره، وفطنته، وموقفه من الحياة والعالم، ورجولته، كما تختلف أعمارهم. بل إن طرائق كلامهم وضحيهم وركوبهم الخيل مختلفة. وقد فكر كولس بهذه الأمور قبل أن يصطحبهما. وحين اختار من بين المرشحين، بمن فيهم نخلش، اختار رفيقيه الاثنين على مبدأ: ينظرون إليك من مقياس رفيقك، مودعاً ثقته فيهما.

" لا تخلو القسوغ من رجال أشجع من تيمرقوه وقدان. - قال كولس، - ولكن صاحبي شخصان عانيا مثلي. كثيرون لا يتحملون الأسر. يحنينهم، يكسرههم، والذين ينجون منه يفارقون الحياة قبل أن يعود إليه وعيهم. هذان ما كنت لأصطحبهما لولا اعتدادهما بالنفس. قضينا سنوات نعادي تيمرقوه من أجل صهري، وكان ججان أول من فرح لوقوعه في الأسر، وأنا كتمت مشاعري أمام الشاب ولكن أراحني أسرته. وساءنا رجوعه من الأسر، ولكن الحياة ليست مرغبة من كل ما نشتهي. ورغم أن شخصاً أخبرنا صراحة بأن أسباروخ هو المجرم فلا نزال إلى الآن بين المصدق والمكذب. وقد وضعتنا المأساة الأخرى على طريق آخر؛ فلنر ما يحدث!..."

خرج كولس من تداعياته لائماً نفسه على ما يخطر له نحو الرفيق الذي اختاره بمحض إرادته. ونظر من ظهر التبة التي يرتقونها: ليس في البحر المتموج مع برد الخريف أيّ مركب منصوب الشراع. وما يبدو من بعيد في الوادي هو القرية ذات البيوت المتناثرة.

- البحر غاضب فقد سيطرته على نفسه، - قال كولس.

- ينقض راحة الشتاء، - وتيمرقوه غير مبال.

وبعدما مشوا مدة سأل كولس:

- وأنت لا تقول شيئاً يا قُدان على مبدأ: الفرسان متى ناموا معاً عرف كلٌّ ما في قلب الآخر.

- إذا كان هدف واحد وضعنا على الطريق فلنا هدف واحد يا زعيم الخير.

- أتقبل هذا الجواب، - ابتسم كولس وهو ينظر إلى الأمام دون التفات إلى أيّ من رفيقيه، - ولكن ما لا أتقبله هو سلوك البحر معنا.

- البحر يقوم بما عليه، ونحن نتنظرنا مهمتنا يا كولس، - أجاب تيمرقوه بدلاً من قدان.

- لن أكتفكما ما يشغل بالي إن كان هذا رأيكما. أخشى أن يسبب لكما البحر الرعب بسلوكه الغاضب لأنكما لم تركبا البحر سابقاً. لا حاجة لأن أعلمكما الخطورة في العالم نهاراً وليلاً. هذه الصخرة، وجذع الشجرة القديم ذاك، والليل الذي يحل علينا، كلها مدعاة للخوف. ولكن، كما يقول تراب، لا

داعي للقلق إذا احتفظنا بأهتنا في قلوبنا. سيكون طريقنا خالياً من الأخطار. أنا عملت في البحر طويلاً رغم إرادتي، ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، وها أنا حيٌّ وفارس وراجل بفضل أهتنا. إن لم تقرر الآلهة أن تتوفّاك فستعمّر كثيراً مثلي. وردد أنا واثق من أن الآلهة ستعطف عليه. وأينما أخفاه أعداؤنا فستساعدنا الآلهة في العثور عليه. لا تَيْئَسُوا يا أخويّ الصغيرين. لا أعرف إن كنت أثّر فأدفعكما إلى القول: الجديد يلمع والقديم يتعفن.

التفت قدان، الأصغرُ بين الفرسان الثلاثة، إلى تيمرقوه، فقال الأخير وقد عرف ما في قلب رفيقه:

- تحني ذنباً بحقنا يا كولس؛ لن يخطر لنا مثل هذا. شرف الكبير وحظ الصغير. - أليس هذا ما يقوله بشماف يا قدان؟!

- نعم يا تيمرقوه، - يوافقه قدان مرتاحاً لسيرة العجوز بشماف، ويضيف: بشماف هو الوحيد الذي يغلب نحلش في مستحقوه.

- قلّ في القسوغ كلها فأوافقك، - نظر كولس إلى قدان بشبه رياء، ثم لامه:

- الحق يا قدان ما السرّ الذي بينك وبين نحلش ويعرفه صديقي القديم بشماف؟ نعم، لا تتظاهر أنك لا تعرف شيئاً، - ابتسم كولس، نعم، ما جرى لكما في فسحة فُجاي. يقال إن إصبع رجله ما تزال تؤلمه.

- من أخبرك يا كولس؟ - سأل قدان بما يفوق الاستغراب!

- أخبرني نحلش نفسه قبل أيام.

- حياكما الله إذن أنت ونحلش، حررتاني من قَسَمي، - صاح قدان، ثم غمغم لائماً نفسه: - أنا أحافظ على سرّ تصرفه الصبياني بكل بلاهة...

- لم يعد الآن سرّاً، - استغرب تيمرقوه ما سمع، - وكيف صبرت إلى الآن؟ أسمع لأول مرة.

- بالله عليك كيف كنت ستسمع وقد أقسمتُ أمامه! أصر بشماف على مباراته، وحمله من على صهوة حصانه...

- وهل كان بشماف أيضاً قد أقسم؟ - ضحك تيمرقوه غير منتظر جواب سؤاله: - لو سألتني الأصهب لأنقذته من العار الذي لحق به في فُجاي... أنت وبشماف كتومان جداً... - عاد فلامه.

- حقاً يا تيمرقوه، تحدث في العالم أمور كثيرة نجهلها، - اختتم كولس الحديث الذي نجم فجأة، - أن تعيش بلسان كتوم خيرٌ من أن يسموك ثرثاراً. إن كان هذا رأيكما فلنتشاور محافظين على تراتب الأكبر والأصغر. هل نقضي ليلتنا في تلك القرية أم نتابع طريقنا؟

- يقال: من يسافر إلى البعيد لا يتوقف في الطريق. - قال تيمرقوه.

- وهذا جواب ناضج. - كولس راضي عما سمع.

- جمع الرجال يرتاح إلى الظلام. وفقد الرجولة يخاف حتى في ضوء القمر. - جزم قدان اعتباطاً، ولكن كولس سأل بسرعة:

- هل تقصد الأول منهما أم الثاني يا قدان؟

- سامحني يا كولس، أظنني بالغت في زخرفة كلامي. وأنت أيضاً يا تيمرقوه، كنت أريد مباراتك في الكلام فبالغت أيضاً في منافستك. لا أقصد بـ " جمع الرجال " نفسي يا زعيم الخير، كنت أودّ قطع ما أمكن من طريقنا سواء في الظلام أم في ضوء القمر.

- أوافقكما إذن. لم يمحض الكثير على استراحة خيولنا. سنسير حتى يغلبنا النعاس.

سار الفرسان الثلاثة معاً بعض الوقت. ليل الخريف مظلم، ولا ترى ما يثقب عينك. ينظرون أحياناً إلى السماء ولكن لا يرون فيها حتى نجمة تائهة. ومن مدة إلى أخرى يشعرون من خلال صوت الموج الأصم يبعدهم عن البحر. وتأتي الرياح بنثر الثلج. والهواء الرطب يكتم وقع حوافر الخيل. وتكتشف تعبها من نخيرها. والسماء العاجزة عن الإمساك بحملها تنيخ على ظهورهم.

حين انحدروا من ظهر التل العالي تناقص الثلج، وصمتت الرياح الباردة في أعراف الخيل، وقال كولس:

- سُريح الخيل متى توغلنا في عمق غابة ما، ونعيد النظر في هندامنا. وإلى حينها من منكما ينصب سلماً على الطريق¹؟ - وحين صمت من سألهما قال كولس: - إن كنت البادئ فما العمل؟ سأنصب سلماً أمام طريقكما.

¹ سبق التعريف بالمقصود من السلم في الفصل التاسع من الكتاب الأول.

كانت المرحومة العجوز التي قضيت معها أكثر عمري تعنّفي حين أروي لها هذه الأقوال. هذه قصة المثل: " من يشي بي؟ هل هو كسار الزبادي¹؟ سواء كنتم سمعتم بها أم لم تسمعوا فسأرويها إذ بدأت بها لأن الكبير والصغير يحتاجان إليها. كسار الزبادي نوع من الأشواك الكروية الناعمة البيضاء التي تحوم مع الريح. أحد الرجال - لا أتكلم عليه بخير أو بشرّ - كان اشتفى زوجة صديقه. أخرج الرجلُ زوجَ المرأة التي اشتهاها بالخداع، وقتله. قال له الصديق "قتلتني دون ذنب، غير أنني لن أغفر لك فِعْلُكَ!"

- والله هذا محال، - لم يقبل قدان.

- لا مُحال في العالم! - صحح تيمرقوه كلام صديقه.

- لماذا قال القدماء: الحياة قاسية، وما يجري في العالم من المظالم كثير؟ - سأل كولس واستأنف: ضحك القاتل وهو يتأمل الزهرة: "أهي هذه الزهرة من ستشي بي؟" وترك القاتل في العراء وانصرف. الأرملة التي لم تعرف مِيتة زوجها تزوجت من صديقه. وفيما هما يعيشان في هناء هبّت الريح ففتحت الباب ورمت الزهرة في الغرفة. وفي هذه اللحظة تذكر الرجل ما قاله صديقه وهو يُقتل، فضحك، فسألته الزوجة: "ما الذي يُضحكك؟" فصارحها بما يُضحكه ظناً منه أنها نسيت زوجها الأول، وأنها تحبه جداً: " قتلْتُ زوجك ولا هدف لي إلا أن أحصل عليك " لم تردّ الزوجة، فلما أقبل الليل ونام القاتل قتلت قاتِلَ زوجها البريء ومضت.

- فعلتُ به ما يستحق! - قال قدان مرتاح الضمير، - سيتحقق أيضاً قول ردد يوماً ما: لا تفعل الشر وتنتظر الخير!

- فكّر يا قدان في ما تقول: - جزع تيمرقوه، - الأمير ردد حيّ. ليتنا اهتدينا إلى طريقه فحسب؛ كان الجاني انكشف.

¹ وهي في لغة الأديعة: "تَتَرَكُن". وهي زهرة أو اجتماع زهور خفيفة قادرة كما يزعمون على كسر الزبادي رغم خِفَتها. ولها أسماء كثيرة أخرى، وتتعلق بها حكاياتٌ أهمُّها أنه يحمل الأمنيات وينقل الأخبار كما في هذا النصّ. بل إن الحكاية التي يرويها العجوز لا تزال تُتناقل في سورية إلى الآن.

- وهل من حاجة للسؤال عن الجاني؟!

سأل تيمرقوه كأن بلا مبالاة وإن كان ما سمعه جعله ينتفض:

- من؟

كان كولس يود لجُم الحصان ولكنه صبر بانتظار الجواب. وسأل تيمرقوه ثانية من كان يماطل في الإجابة:

- من الجاني؟

- ومن سيكون؟.. - يمكن أن تفهم من صوت قدان المنكسر ندمه، ولكنه أجاب الاثنين جواباً صريحاً: - هذا الذي نشكّ فيه!

- هل غضبتَ منا يا قدان؟ - صدرت ضحكة كولس الناعمة من الظلام.

- لن أفعل بكما هذا يا زعيم الخير حتى لو كان هناك ما يُغضبني. هربت مني كلمة قلقة فتملصت منها.

- ليس هذا مستغرباً يا قدان، يحدث مثل هذا. لم يكن من عادتك. - كان تيمرقوه السبب في هذا النقاش المفاجئ فلطّف الموضوع.

- نعم تيمرقوه، - وافقه كولس أيضاً، - كان قدان يريد إطلاعنا على ما يشغل باله، ولم يخطئ في الكلام. - ولم يملك إلا أن يصرّح بما كان يُقلقه هو أيضاً: - ليت كل ما نشكّ فيه تثبّت صحته!.. ولكن كيف نعلن اسم من لسنا متأكدين منه؟ نعم يا قدان، لم تُخطئ في عدم نطقك اسم من ترتاب فيه. ولكن العمود غير المغروز لا يُدعم بعود؛ فكما انكشف القاتل الذي كانت زهرة كسار الزبادي شاهدة على جرمته فكذلك سينكشف يوماً مَنْ وراء جريمة فقدان ردد. الحقّ، - تغيّر صوت كولس بسرعة، - لماذا لا تسألان، كلاكما، عن سبب غضب عجوزي حين أروي لها؟ رويت الحكاية مرتين وأنا أقول: كانت تعتّفي؟ ألم تفهموا السبب؟

- أمور النساء أيها الزعيم المبارك، - قال تيمرقوه بحذر شديد، - صعبٌ تحليّلها.

- لا ينطبق هذا على عجوزي التي أخلصت لي طوال عمرها... - انكسر صوت كولس، ثم وعى فأضاف بسرعة: - لم تكن تدافع عن الرجال أو النساء. وحين أسألهما كانت تجيبني: كلاهما، العشيق والعشيقه، بلا شرف. ومتى

عارضتها: هل كنت تريدين أن تعيش عمرها أرملة أجابتي: وما العجيب في أن تكون أرملة؟ الرجال متى تشاجروا قتل بعضهم بعضاً. وتنهي قائلة: لم يكن بينهما حب ولا صدق ولا صبر. ومتى قلتُ إن المرأة التي سمتها عديمة الشرف بقيت حية معافاة بين الرجلين اللذين تفانيا كنت أثير غضبها. وإن سألتما عن رأيي في ما رويثُ لكما، أنهيت حكايتي بأني كنتُ أجيب عجوزي: إن طرف ثوب المرأة هو سبب البلية، فتقاطعتني حتى يحين موعد تناول الطعام.

"ما سرُّ إلحاح كولس على موضوع الإخلاص بين الرجل والمرأة؟.. - يربط قدان المسألة بما سمع في الأشهر الأخيرة من دواعٍ للقلق مهما قال له رفيقه في الطريق، ومهما ردَّ به عليهما، أو في وقت الاستراحة أو في وقت استئناف الرحلة فجراً، ومهما قطعوا سلسلة أفكاره. حين سألتُ مشقوقه عما إذا كان كولس يقلق لاطّلاعه على ما ينشأ بين أبنار وججان ابتسم ظناً منه أنهم يطمسون ذِكرَ أخته آنست. ولم أجرؤ على إخبار شوباش. وإن سمعتِ السيدة الكبرى رامبس بالموضوع أفنتها المصبيتان... لم أتوقع أن ينكشف ججان عن هذا الموقف من ردد. كان ردّ عليّ حين صارحته بعدم صحة موقفه من صديقه قائلاً: هل نسيت في كبرك أن البنات يتردد عليهن كثير من الخطّاب؟.. ولكن يا عديم الشرف، يا حفيد العجوز الحكيم كولس، الصديق يخطبون له، ولا يغدرون به. إن كنت تظن أن موضوع ردد انتهى كما أخبرتي وأنا نسافر عبثاً فأنت مخطئ... كولس يعرف شيئاً من هذا الموضوع ويشغل باله؛ وإلا فما الذي جعله يروي حكاية كسار الزبادي؟ ولا سيما أنه كررها بما يكفي... "

- ساحل أُنابه هادئ، - قال كولس، - يبدو أننا سنسافر إلى فيودوس. وفيها لا تعرف السفن الكبيرة المشرعة التوقف في العام كله.

- يتوجب علينا هكذا أن نعرّج على توم تقاش، - بدا من كلام تيمرقوه عدم رغبته فيها.

- لن نتميز إن دخلنا إلى توم تقاش من الناس الذين فيها، - تحدث قدان عن المدينة التي احتلها الخزر ثم الروسيج. ثم أضاف: - وفيها يسكن قانشاو ولو أنه لا يؤدنا.

- وهذا صحيح، - يؤيد كولس المعلومتين، - ولكني أدّركم بما اتفقنا عليه

قبل أن ننتقل إن كنتم نسيتموه: إن لم نعبّر البحر من أنابه فسيعود أحدكما بالخيال المسرحية. وإن وصلنا إلى فيودوس فما العمل، سيصبح طريقنا طويلاً، وقد جربنا مثل هذا الموقف، سنبيع الحصانين لنفقات الطريق، ونُعيد الثالث. شحب وجه قدان وقد توقّع أن يكون هو "الثالث" فسأله كولس منادياً إياه باللقب الذي لم يستعمله طوال علاقتهما:

– ماذا جرى لك يا ولدي؟

– فهمتُ يا كولس أنك لن تتجاوزني لأن من عادة الكبار أن يرسلوا الصغار في مهماتهم. – لم يُخف قدان ما يشكّ فيه.

– حسب تعبير الحكوف، – ضحك كولس ضحكة قصيرة مرئية، – أصبت الهدف¹. مثل هذه المهمة لا تميز فيها بين الأكبر والأصغر. ولكي منذ انطلقنا أنسى أن لي عندك رجاء أن تعود، فلم تخطئ يا قدان. – جملتك حملي يا زعيم الخير.

– ليس ما سأكلّفك به سهلاً. يوم انطلقنا، إن كنتم تتذكّران، لم أكن مرتاحاً. ولم يكن حفيدي ججان بين من شيّعونا. لن أكتمكما: لم يفهم حفيدي أن من الممكن أن يقطع رأسي بلا سبب.

– فهمتُ يا زعيم الخير، – كان قدان، وقد فهم منذ وقت طويل أصل الموضوع الذي كان يُقلق العجوز، يريد أن يبقى ما يعرفه الاثنان وحدهما لا يُطلع عليه أحداً، ولكن العجوز لم يقبل:

– لا أعدّ الموضوع الذي لم تُكشف حقيقته موضوعاً ولذا، وتيمرقوه ليس غريباً، هات اسم من شككت فيه.

– أظننا نتكلم على أخت المرحوم داور يا كولس، – مرة أخرى لم يكشف قدان تماماً الحقيقة.

– وأنت أيضاً تعرف هذا؟

– وأنا كنت كلّمتُ ججان في هذا الموضوع.

– وبمّ كان أجابك؟ سأل كولس الآن بصوت أكثر اطمئناناً.

¹ التعبير الحرفي: أوقعته فوقه.

- غضب من كلامي... - أنهى قدان سريعاً ببارقة أمل، حريضاً على العجوز، مخفياً ما قيل له، - ولكن أتصور أنني حملته على التفكير.

- من حظك يا حفيدي عديم الشرف أنني انطلقت في رحلتي وقد سمعتُ خبرك متأخراً... - دمدم كولس، وصحا في اللحظة نفسها: - إن كنت تتصور هكذا يا قدان فلا بأس. كلماه مرة أخرى. وامنعاه من الخطأ ريثما نعود. وانصحا الفتاة التي يقال إنها منحته بارقة أمل. ما الذي جرى لها حتى لا تنتظر من وعدته؟! لا تسمح أن يأكلوا رأسي بين القسوغ قائلين: يري الناس ولا يري حفيده. هذا يا تيمرقوه ما جرى لنا وسمعت به... اكنفى تيمرقوه الذي لا يصدّق ججاً أنه قاتل والده بهز رأسه، لا يريد المساهمة في الموضوع بخير أو بشر.

...

لم يدخل كولس وصاحبه توم تقاش. التقوا بواحد من الروسج أبيض اللحية دفع مقابل كل حصان ذهبتين فلم يساوموه. ولم يتأخرا في مضيق بانتيكاليه إذ وجدا مكاناً في أول مركب شراعي جاهز.

تابع قدان بقلبه وبروحه الرفيقين الأسنّين منه اللذين رافقهما أياماً. ثم ركب وهو يشفق عليهما ويغبطهما، وحث الحصان ووجهه إلى توم تقاش حيث يقيم قانشاو خال ردد. وفجأة لجم الحصان الذي كان يجري خيباً، وفكر، ثم تابع المسير.

IV

أسرع نطاي قبل الفجر إلى تراب:

- لماذا أنت نائم؟ انهض!

- هل هناك خبر مزعج؟

- بل مفرح! هذا الذي تعالجه سراً بيني وبينك دبّت فيه الحركة الليلة. - لا يستطيع نطاي أن يلجم فرحه البادي على وجهه.

- ليس هذا فرحة فحسب يا نطاي!.. - في اللحظة نفسها نهضت دكابس من بين نظراته الحارقة. وسرى سائل دافئ في الأعضاء يفتت القلب ويدوخ

الرأس. - ليس هذا فرحة للقلب فحسبُ يا نطاي... - ثم كرر بنبرة لطيفة:
- ابتعد عني، ودعني أنفض!

تنظر إلى تراب في لباسه الكامل، مسلّحاً بسيفه الضخم، على رأسه قبعته الواسعة، وقد ضاعت حدبته فتحسبه رجلاً. هذا إن لم تأت من خلفه. والآن هو عاري الظهر، حليق الشعر حديثاً، ثم إن خصلة الشعر الوحيدة أعلى رأسه تتدلى على لحيته وشاربيه¹، وقام من الفراش حافياً، فهو من يقال فيه: شوكة في عين العدو! ومن عادته أن يذرع أرض الغرفة بضع مرات إثر خوضه يتأمل نفسه، غير أنه لا يفعل ذلك الآن كرمي لنطاي. وكان يقف إلى النافذة فيتأمل عالم الصباح معتداً بنفسه. ويتسم ساخراً ممن يرى فيه عاهة، ناسياً حاله هو.

ارتدى تراب ملابسه بسرعة، وغسل وجهه وقد أنست دكابس كل ما سبق.
" إن كان وضُع نطاي على ما يصف به نفسه، فلا أعرف أثره فيه غير أنه مناسب لي تماماً، - لا يسع الفرح تراب، ويضحك غير ناسٍ أنه يخدعه، - قد لا يكون بفضل أدعيتي إلى الآلهة فحسب، بل ربما نفعه منقوع الأعشاب الذي أحضرته له... وما سقيته منه ثلاث ملاعق في اليوم؟ حقاً ليس هناك ما لا يعرفه الناس ولم يختبروه!.. لا يجوز تضييع الوقت. لئسرعُ إلى دكابس وليبشّرهما!.. وأنا إن صدقتُ معي في وعداها فسأعرج عليها الليلة. ثم خاطب نطاي فجأة:

- يا نطاي - استدار تراب فجأة كمن نسي حدبته وراءه، - الآن حالاً تذهب إلى دكابس، وتخبرها بفرحتك.
- الآن حالاً؟

- ليس ما تحقق لك يتحمل الانتظار، حالاً!
- إن كان هذا رأيك فلماذا أتأخر؟ سأفرح المسكينة... - انكسر صوت نطاي وما كاد ينطق بهذا. - ولكن لم يمض يا تراب كثير من الوقت على تناولي بصلة كبيرة.

- أكلت بصلاً؟ - ضحك تراب وهو يتأمله بعينين ذاهلتين على نحو لا تعرف

¹ تقليد عند الأديغة وغيرهم في ذلك العهد كما في المعجم الأديغي.

معه إن كان يستغرب ما فعل أم يرفضه. - وهل عجيب إن أكلت بصلاً! ألا تأكل دكايس أيضاً منه؟! سيعطيك البصل مزيداً من النشاط. ستتفقان على مبدأ: قائمة البقرة لا تقتل عجلاً... هيا إليها، تكون قد خرجت لتوها من الفراش الدافئ. دافئة، لذيدة كالعسل...

تراب من النوع الذي يشفق عليه الناس بسبب عاهته وبسبب عيشته، ولكنه تابع نطاي الذي منحه الأمل وإن كان يشفق عليه أيضاً، غير متناسٍ أمله هو أيضاً في دكايس التي وعدته بثلاث ليالٍ. وتألم قلبه فجأة للرجل الذي يتعد بكتفين صلبتين.

" هذا هو، - هز رأسه، - أنا أبكث نفسي غير أن هذا الرجل الضخم الذي يُغِدُّ الخطأ أضعف مني بكثير. إن لم يعطك الله الميزة الوحيدة التي تجعل من الرجل رجلاً فما فائدة الرأس المرفوع والجسد المنتصب والوجه الطلق؟ في أسوأ الأحوال يمكنني أن أجد من تحمل اسم امرأة على الأقل، جميلة أم قبيحة، تشاركني الحياة. وهذا؟ إنه مثل الحصان العاجز عن الوصول إلى فرس!.. أيُّ عزوبية وعاهة تشكو منهما يا تراب؟! - ينهر نفسه، وينصحها: - ارفع رأسك، واعتزّ بنفسك، ودع الناس يتقبلون ما يثقل عليك على أنه مئة من الله. ألا ترى أيها البائس أن العالم لا يخلو من صاحب عاهة؟ لا يأتي أحد إلى هذا العالم دون علة ولكنه يخفيها..."

كان تراب يوصي نفسه ويبحث فيها المرح، وينعش روحه ولكنه لا يريد العودة إلى البيت. وماذا يفعل فيه إن عاد؟ يبرد أمله شيئاً فشيئاً كأعشاب الخريف التي في أرض الدار. وبداية المساء الذي يختبئ وراء الجبال تظلم. يراقب تراب كل اتجاه: الدخان ينبعث من المواقف، ومدخنته هي الوحيدة الصامتة بين المداخل القريبة والبعيدة، باردة عقيمة. " لماذا أنا واقف؟ - عتّف تراب نفسه، - هل أنا أشد نحساً ممن ينبعث الدخان من مواقدهم فيسخروا مني! شتّر عن ساعديك واكبّخ عواطفك، وأشعل موقدك، وأر من يحبك ومن لا يحبك أنك حيّ، وجزء من هذا العالم، وأنك رسول الآلهة. لا تدع أحداً يأخذ انطباع الفقر عن الغرفة التي تُظللها مدختك ولو لم تكن قدر حليبك معلّقة مترعة، أو أفخاذ خراف تُشوى في موقدك!..."

خلع تراب حين دخل الغرفة الصدار المخيط من جلد الذئب، ورمى القبة جانباً، ولفّ الضفيرة الوحيدة على رأسه، وثبتها فوقه. ولما غطى الجمرات التي نبشها من تحت الرماد بنثار حطب التنوب صدر صوت اشتعال الحطب اليابس من الموقد. " ليعرف من ينظر إلى وجاقي أننا نحن أيضاً بشرٌ. - صرخ تراب من أعماقه لمنظر النار التي أشعلها. وأضاء اللحية غير الطويلة والشاربين. وهل عجيبٌ إن كنت عازباً وحيداً؟ الآلهة معي. لا يتصوّر أحدٌ أنني غير قادر على طبخ باستا الدُّخن، ولا على قلي قطع اللحم... ". قطع النداء الصادر من جهة الفناء أفكار تراب:

- تراب! - مرة أخرى صدر النداء بصوت أعلى.
- هذا أنت يا ججان؟! - تعرّف ترابُ الواقفَ على الباب، ولامه: - لماذا لا تدخل؟

- كنت أستطيع الدخول... ولكني بحاجة إليك على عجل.
- من يحتاجونني كثيرون... ولكني في خدمتك دائماً، أسمعك.
- مضى على رحيل والدي خمس عشرة سنة، ولذا أودّ أن نضحي لأجله بعجل أو ما شابه.

- هذا جيد، وسيُسّرُ الآلهة به.
- أليس لأجل هذا أرسلتني أمناً إليك!.. تصرّ على أن تحضر أنت، وتتلو على العجل الدعاء قبل أن نمدّ أيدينا إليه.

- شكراً لوالدتك على أنها لم تنسني، - كان تراب سعيداً بما يسمع، ولكنه اختتم بعتاب: - تبين أن والدتكم كانت أعقل منكم، وأن إيمانها بالآلهة عميق. إن كان هذا ما تطلبه الأم يا ججان، وأرسلت في طلبي، فسأتي حالاً بعدما أعالج نار موقدي.

- لا تتأخر يا تراب!
- من استدعون إلى الطعام؟ - نادى تراب في إثر من يغادر الباب.
- أغبان الذي سيدبح العجل.

- هاه! - صاح تراب مستغرباً اسم من سيدبحه، ولم يدع ججان يكمل ما بدأه. - لا أعرف يا ججان لماذا خطر لك أعبان لمثل هذه المهمة. كانت

الآلهة لمحت لي قبل أيام عن عدم رضاها عن هذا الرجل. هل أبلغته أن يأتي
ويذبحها؟

شحب وجه ججان، وتغير صوته:

- لم أبلغه فحسب، بل استدعيته.

- لا أعتبُ على أغبان ولكن لو استشرتني لما تركتك تفعل هذا.

- من يعرف، يقال إنه يزهق روح القربان بضربة واحدة.

- لا اعتراض لي على هذا، ولكن لماذا نكلفه بهذه المهمة والآلهة لا تحبه؟! لا

تقلق يا ججان، أنا سأصرف... - من ستدعو أيضاً؟ سأل تراب، وضحك

في سرّه وهو يقول: " سواء رضيتم أم لا فأنتم تحتاجوني، تُهرعون إليّ "

- دعوتُ مشقوه وطاطخ، وبضعةً من أبناء جيل والدنا. ودعوت نساء الحيّ.

- ورامبس وشوباش؟

- لم أشأ يا تراب إقلاق دار الإمارة.

- حين تقفون في حضرة الآلهة لن يقبلوا منكم أن تنكروا كوني مرسلهم لأني

المعتمد الوحيد. وسيؤذونكم، لا فرق بين أمير وسيدة، ليأت الجميع. ويفضّل

أن ترسلوا وراء حقار وجماعته من الحي الجنوبي، وكان نطاي سيُسّر لو دُعي

ولكن لن تجدوه.

- التقيت به قبل قليل وأبلغته.

- وكيف تصرف معك؟

- كالعادة، ولكن أمامه مهمة صغيرة وعدني أن يأتينا بعدها.

- نطاي مهموم دائماً بأمرٍ ما كمن يعيل أسرة كبيرة، - قال تراب باسمًا

بلامبالاة، وسأل ليعرف إن كان نطاي أفسى سرّه: - ماذا يريد يا تُرى؟

- كان الفرّح يكاد يطير به، فلما سألته "ماذا؟" اكتفى بـ "لاحقاً". ولم يلتفت.

"أجابه إجابة حسنة... - مرة أخرى ضحك تراب في قلبه راضياً. - وأنت

تضمّر أسراراً كثيرة لا تُطْلَعنا عليها... إن كان ما سمعته عنك قبل أيام بشأن

ردد فلسّت إنساناً. ما الذي جرى لك فلا يردعك شيء؟ تعلن ما تشاء لا

تنتظر عودة جدك بخبر ردد فتودد إلى الفتاة مدّعياً الرجولة. هذا عيب، لن

تقبل به رامبس، ولا شوباش ولا مشقوه، ولا أغبان الذي لا أحبه.

والقسوغ؟.. "

- ما العمل يا ججان؟ نطاي أيضاً واحد مثلنا. ربما هو الآخر مشغول بأمر ما. وأنا الآن في موقف يخبرني فيه الآلهة بسرّه وأسرار غيره إن حاولتُ. إن شئتُ يا ججان، - قال تراب وعيناه على الواقف على الطرف الآخر من السور، - سألتُهم عما يشغل بالك وبال نطاي...

- لا يا تراب، لا!! - استعجل ججان وعيناه تنظر كلٌّ في اتجاه. وتودّد إلى من يقف أمامه وإن كان نادماً على مجيئه: سأبلغ من ذكرت أسماءهم. وسنتنظرك في الموعد الذي تختاره.

- ولماذا نضيع الوقت؟ أبلغوني متى كنتم جاهزين! سأوافيكم بصحبة الآلهة. ولكن اسبقوا إلّنا الكبير الشمس قبل أن يصبح في كبد السماء. وإلى وقتها سيؤذن ثلاث مرات¹ فلا يجوز أن يتجاوز ابتهاّلنا النداء الثالث.

حُيِّل لتراب حين فارق سور الحظيرة أن قامته طالت. ونظر إلى المدخنة العالية التي يخرج منها دخان رقيق. ولم يملك أمام رغبته المزوجة بالقلق إلا أن ينظر جهة بيت دكايس على ضفة النهر. وامثل له نطاي المحظوظ المسرع إلى تلك الجهة. أما ججان فلم تكن كتفاه المتهدلتان تغييان عن عينيه.

"هكذا يجب التصرف مع أمثال ججان الذين لا يقيمون لي وزناً، - قال تراب تغلبه أحقاد الهائجة وإن ضبط نفسه، وهزّ عمود المسطبة راغباً في التنفيس عن ضيقه. - سترون إن تجرّأتم بعد اليوم على السخرية من تراب! وأنت أيضاً يا دكايس! لا تتألمي مني أن تدفعيني إلى تلبية ما تطلبين وأنت تستدعينني، وتصدرين لي الأوامر، دون أن تسمح لي بلمسك! تزعمين متى غبت أنك مشتاقة إليّ ثم تترجّنيني متى حضرت أن تؤجلي المسألة. إن لم أجعلك ترتجّفين وأنت تتوسلين إليّ أن أملك ولو مرة فلسك² تراباً! وأنتما أيضاً يا حقار القبيح وشبهه البغيض لا تظنا أني غفرت لكما دم والدي. وانتظروا أيضاً نخلش اللعين المعتدّ بقوته إن لم أحوّلّه أمامكما إلى دمية تأتمر بأمرى!.."

¹ ما يسمى الظُّهر الآن.

² انظر حاشية سابقة في شأن تنكير اسم تراب.

هاجمت الأفكار تراب ثانية حين عاد وجلس إلى الوجدان الذي لم تُعلّق به قِدْرٌ. وصل إلى الكثير، وتجاوز الكثير، وعاد إلى ما سبق وكرر: "عالمنا عالمٌ ظالمٌ. كلٌّ وما يستطيع به أن يعيش. وحياة الإنسان على الأرض شبيهة بولادة أشجار الغابات وحياتها. هذه شجرة مستقيمة تماماً والأخرى عوجاء... وثالثة تسلّقت المرتفع وحيدة وتُطلُّ منه... وهل يدرك من يحسدها أن مجامعتها للريح حنت ظهرها؟.. لا أريد أن تغبطوني ولا أن تشفقوا عليّ! إن كان رأيكم أن الآلهة، حين لم تكنف بعديد البشر، أغمضت عيونها وخلقتني فبعلم أولئك الآلهة أنفسهم ركض ججان إليّ مرغماً. أنا لستُ قاسياً. تقولون من وراء ظهري ما لا تقولونه في حضوري حتى حشوتهم قلبي بأفكار عني كثيرة غريبة. جعلتموني أفكر في طريقة حياتي معكم، وكيف أكسب احترامي بينكم... ليتحوّل كل ما أخاف منه: أسرار الليل، ومفاجآت النهار، ودوي الرعد، وخبايا الجبال، ورهبة النار، ومحلّ السماء، وزلزال الأرض، إلى مُرعبات لكم!.. - انصرف تراب عن الموقد غير قادر على الاستمرار في الجلوس، وعاد فارتدى قبعته وصداره كمن سيسافر إلى البعيد، وعلق زنار سيفه.

دنا تراب من النافذة كما يفعل عادة في أوقات قلقه، وارتسمت أمام عينيه بضع أشجار الفواكه التي زرعها والده في الفناء الخلفي: "انظر إلى هذه الأشجار أيضاً ترها مختلفة. - أثبت تراب صحة ما كان يفكر فيه وهو إلى جانب الموقد. - ما تُثمره شجرة الخوخ تلك حامض ومرٌّ دائماً قبل موسمه وفي موسمه. والعجيب أن أُمّي التزّقة كانت تحبها. والأخرى؟ - ابتسم تراب، - وشجرة الخوخ الكبيرة التي تفرش أغصانها على الأرض؟ هذه لا يُدانيها أحد. ما تُثمره دائماً حلّو يسيل له اللعاب، وكان والدي يحبها، وأنا أيضاً... قل لي الآن كيف تحكم بينهما..."

"حان موعد ركوب رجل الآلهة تراب إن لم يكونوا غيّروا رأيهم. لو كان كولس حاضراً لما منعت عنه شيئاً. كنت جئت دون دعوة ولم أحوجكم إلى شيء. وطريقة سفره لم أجدها منذ اليوم الأول مناسبة. كل ما جرى ذنبٌ لنخلش الأصهب. حين اقترح ترؤّس الباحثين عن ردد دون حاجة إلى تيمرقوه رفض كولس بحجة أنه هو من سبق أن عبّر البحر، فاصطحب تيمرقوه وقدان متخذاً

منهما موضع ثقة. وأنا أدعو الآلهة التي أنا رسولها أن يسهّل لهم طريقهم، -
نطق تراب "رسول الآلهة" هذه المرة مُقنعاً نفسه بأنه هو كذلك حقيقةً. وبعد
قليل تذكّر نداء بطنه ولو أن أذنيه مفتوحتان تتلقطان أخبار الخارج: - لن
أذهب إلى من ينتظرونني دون فطور، سأكل قطعة لحم ولو كانت يابسة؛ إذ
متى سينضج لحم هؤلاء؟! "

- أما كنتم تنتظرونني إلى أن تنزل اللقمة إلى بطني؟! - خرج تراب جاهزاً تماماً
ولو أنه قفز مسروراً لقدم من ينتظره متظاهراً باللوم. وقال لمن يقف على
الباب: - أهذا أنت يا أدشس؟ أسمعك.

- ينتظرونك في مكان الابتهاال، أرسلوني من هناك.

- حسناً، ولكن كان على من أرسلوك إرفاقتك باثنين من الكبار لو كانوا حقاً
بحاجة إلى الابتهاال. لا تتصور أنني أراك حديث السن، ولا أريد إهانتك، ولكن
هذا ما يجب أن يعامل به رُسل الآلهة. وإلا فهم سيكرهونك لأنهم يرون
ويعرفون كل شيء. ولم يُفِت الوقت بعد، عُذ، وسأركب الآن حالاً وليتظرنني
ججان مع شخص أُسنّ منه على طرف القرية.

اتّجه تراب، حين انصرف أدشس مسرعاً مصدّقاً ما قيل له، إلى الإسطل وقال
وهو خارج بحصانه، معتداً: - "هذه هي الطريقة التي تُجبر بها هؤلاء على أن
يحترموك، وتعرّفهم مقدار أنفسهم!..".

ليس ما استغربه تراب استقبال ججان وأغبان، بل استقبال الأخير له مبتهجاً
طلق الوجه. "هذا أيضاً نال مني ما يستحقه، وعرفته قيمته الحقيقية" يقول
تراب هذا ويبتسم ولكنه مهموم بالطريقة التي سيُستقبل بها في ساحة الابتهاال.
على أنه يبدو من نظرة الكبار والصغار أنهم أحسّوا بحاجتهم إليه. وسره ما
سمعه:

- أمسكوا بزمام مرسل الله، وساعدوه على الترتّل!

"أهذا صوتٌ نطاي؟.. - تعرّف تراب صوت المنادي، ورآه قريباً من مشقوه.
كان تراب الذي يُرجلونه ممسكين بزمام حصانه وركابه راضياً: - حياك الله،
تبَيَّنَت عن رجل حقيقي! كيف استقبلك من زرعها يا ترى؟.. أغفر لك
إسراعك إلى هنا دون أن تعود إليّ مقابل حملك هؤلاء على أن يفعلوا كل ما

ينم عن احترامهم لي... نَقَذ ججان كل ما أوصيته به، ودعا أناساً كثيرين. وها هما حقار وشبهه! وهل الواقف في الصدر هو نخلش؟ لا أرى رامبس ولا شوباش في مكائهما. وأينار؟ وأنست؟ ها هما أيضاً بين النساء، ولأول مرة أرى كلاً منهما تقف بعيدة عن صاحبتهما... يُحَيِّل إليّ أن أموراً غريبة ستحدث في مزبه، وفي القسوغ... هذا هو يا كولس، يا مَنْ يومه مئة، السبب في رغبتى ألا تسافر... " - دنا تراب من الفحل المربوط غير بعيد عن شجرة البلوط المقدسة مخاطباً نفسه بتلك الحواطر، مُفهِماً الجميع أنه مرسل الآلهة، ولمس جبين الفحل الذي يهدئه أربعة رجال، ومسح على قرنيه، ثم ابتعد عن الفحل ولمس غصناً من شجرة البلوط يتجه إلى جهة الشمس — واستدار بسرعة، ونادى رافعاً يديه الناس الذين انقطعت أنفاسهم:

- دعونا يا رعيتي تنضرع إلى الإله العظيم الذي أنا موفده. ردّدوا ما أقول: نقدّم هذه الضحية باسم والد ججان الذي اخترته إلى جوارك. ارحمه، أرحه إلى جانبك. وازرع الخير والطمأنينة في قلوبنا يا إلهنا الكبير! واجنأ من صواعقك، ومن جذبك، ومن زلازلك، ومن مطرك المشؤوم، ومن رجل الغابة ذي العين الوحيدة¹، من كل من لا يضمّر لنا الخير... - وحين استدار تراب إلى جناح النساء رافعاً يديه بالدعاء رأى بينهما دكابس بذراعيها النحيلتين الجميلتين. وفي هذه اللحظة أعاده، ومشاعره تهدأ، سائل دافئ سرى في عروقه ولا قدرة له عليه، فخرج صوته عن طوعه، واحتدّ، - واجعل بين رجالنا ونسائنا المودة والحنان. ووفّق بين أقوالهم وأفعالهم... ولما كان أهتنا يخبروني أن أميرنا ردد حي، فأنا أدعو إليهم، كما تسمعون، أن يعيدوه إلينا شوكة في عيون أعدائه. وأن يحسنوا إلى من نقدّم هذا القربان لروحه، وألا يجرمنا نحن. قولوا: آمين! والآن يا أغبان ها هو القربان تحت تصرّفك، افعل ما يريد أصحابه. وفي المساء عاد المحتفلون إلى القرية بعدما علّقوا رأس الفحل وجلده على شجرة البلوط، ولم يبق بينهم من لم يذق شيئاً منه.

¹ هو شبيه بمن يُسمّون في الأسطورة اليونانية بالتيتان، مخلوقات أسطورية فائقة القوة كان

بينها وبين كبير آلهة الإغريق زيوس صراعات مدّيرة.

كان بين المجتمعين للدعاء من يتعمدون الظهور أمام تراب، ويريدون الحديث معه؛ وحين وصل إلى البيت شاكراً من يدعو إلى البيت، مُشِعِراً من يقف إلى يساره بأنه على عجلة من أمره ن قال له نطاي:

- أهنتك يا تراب، اليوم فهم أهل مزبه أنك موفد الآلهة إليهم... - وكان نطاي يود أن يعترف تراب بشيء من فضله في احترام الناس له، ولا سيما في تقاليد ترجُّله، غير أن ما سمعه شيء آخر:

- السبب يعود إلى أن آلهتنا الذين أنا موفدهم زرعوني في قلوب أهل مزبه... حُيِّلَ إليَّ اليوم أن دكابس كانت بين النساء...

- لم تكن بينهن فحسبُ يا تراب، - لم يضبط نطاي نفسه، - كانت تلمع من بينهن!

- ألم تجتمعا هذا الصباح؟

- لمحتُ لها حين التقينا في الطريق فلم تسعها الدنيا من فرحها. وطلبتُ أن أمرَّ عليها مساء.

- هكذا؟! - انتفض قلب تراب مما سمع، ثم قال مخفياً مشاعره: - لا تستعجل يا نطاي... لا أظنك وصلتِ بعدُ إلى هذا. وإن سمعتِ كلامي نصحتُك ألا تزورها الليلة ولا غداً ولا في الأيام الستة القادمة. الآلهة أطمعوني في دواء أشد فعالية فانتظر حتى أسقيك بضع مرات من الدواء الجديد. وسأخبرك.

- إن كان هذا رأيك يا تراب أطعتك بكل سرور. ماذا يحدث إن خيرتِ الآلهة بمصيتي!..

- لا شيء يحدث إلا بعلم الآلهة. عدْ إلى بيتك مقتنعاً بهذا الكلام. وأنا متعبٌ اليوم، سأستريح.

فرح تراب حين رأى في ظلمة المساء قنديل دكابس.

- من هذا؟ - استقبلت دكابس فرحةً من نقر على الباب بخفة.

- أنا، تراب، أنا في عجلة من أمري!

- أيُّ عجلة؟ يا لمصيتي! - فتحت له الباب وهي تسأل بصوت رفيع عذب ودعاء اليوم في عينيها. ولم تكتم من تنتظره: - ظننتك نطاي البائس الذي

أرسلته إليّ الصباح مستعجلاً.

- نعم يا دكابس، نعم. - يوافقها، - ولكنّ ما تريده الآلهة شيء آخر. أطفئي النور، قدّمْتُ باسمهم... هيا اخلي ما عليك!
- هاه؟ وهل هذا ممكن يا تراب؟! - صرخت دكابس فزعاً، وسدّت فمها براحتها.

- ألا تسمعين ما يأمرُك به الآلهة! - تجرّأ تراب على المرأة أكثر فأكثر.
- وماذا يقولون؟ - بدأت دكابس ترتجف. - لا أعرف يا حسرتي، كأني أسمع شيئاً!..

- هذا هو إن كنتِ تسمعين... - أنا قلت ما عليّ وفعلت... لا أريد أن أرى ذراعِي امرأة جميلة مثلك ترتجفان... - استدار تراب وهمّ بالخروج من البيت.
- توقّف يا تراب!.. - نفخت دكابس على القنديل، " ستكون واحداً ممن نالوا حصتهم مني إن كانت الآلهة أرسلتك إليّ. خلعت ما عليها قائلة: لن أدعهم يصيبوني بالرجفان، " معتقة إياهم في سرّها، مرتعبة من تعنيفها. وشمعت قرقة الصوفا الخشبية، وصاحت: - ماذا تنتظر؟ هيا إليّ!
حين انحنى تراب على المرأة متلهفاً قابله بيديها وأوقفته:

- لا يا تراب، والقميص أيضاً، لا تدع شيئاً عليك... أنت وأنا ما فعله الآلهة بنا ليس مدعاة للخجل أكثر مما دفعونا إلى فعله اليوم. خلقونا في يوم، لا نعرف متى سيهلكونا... - عصرت دكابس حدة تراب بذراعين قويتين بعدما سُمع احتجاج الصوفا الخشبية بضع مرات وهمست بنكهة دافئة في أذنه: - يا تراب، يا روحي ما أقواك وما أدفأك وما أعذبك!..

V

الإهانة تمنحك الشجاعة.

كلما فكّر ردد بالإهانة التي لحقت به أزاح اليأس جانباً ولا يمر نهار أو ليل يغيب فيه عن القسوغ. وتحمل مشقة أسرِه متسلحاً بالأمل في استرداد حريته.
الآن، فيما ردد جالساً مغمضاً عينيه، مسترسلاً في همّ أمه رامبس، تنظر إليه حزينه، في حين تقف أبنار وراها مسكونة بالحياء. وفيما تتقاذفه الهموم جرّ

ردد جسده من الجدار الحجري. فتح جفنيه، ثم نهض عاجزاً عن الاستمرار في الجلوس، فمشى يجر قيده الحديدي نحو النافذة الضيقة العالية فتناول ونظر من خلالها إلى كومة السحاب التي تراءت للعين عالية نظيفة. وتبدو بعض النجوم، ويخيل إليه أن القسوغ تقع في الجهة التي تسطع منها.

"إلى أين وصل القسوغ يا ترى بأمر الدولة التي بدأت بها؟ - سأل نفسه، - أنا واثق من أن كولس لن يدّخر جهداً... ولكن ماذا سيفعل بينهم أخي في غيابي وهو الغريب فيهم؟ سيظهر من يتجرؤون عليه في غيابي، من أمثال حقار ونخلش الأصهب. نخلش هذا!! لن أغفر له ما فعل بي وفي عروقي دم! أوقعني في فخّهم بعدما نضجتُ جسداً وسلطة... ثم من دفعه إلى أن يفعل بي هذا؟ أسباروخ؟ كنت أتعجب حين أسمع غجبس وصحبه يقولون: الحياة مركبة من الضحك والبكاء. بقيت أمني النفس بأن أثار لوالدي متى كبرت، وأتي بخالي قانشاو من الأسر، وها أنا الآن مأسور في بلاد بعيدة يشغلونني فيها مصارعاً... إن كنتُ محظوظاً غلبتُ بعد أيام في سالونيك ذلك الزنجي صاحب القوة الهائلة. وعدني باناتيد إن فعلتُ هذا أن يرّد لي حريتي. حقاً هذا مجرد كلام. من يعرف ماذا سيخطر بعدها لهذا الجشع؟.. وحدث أن دفع بي إلى بضع مباريات في اليوم الواحد طامعاً في مزيد من المال يُدفع في..."

أربع شهابٍ ردد وأجبره الشرر المتطاير منه على إغماض عينيه، وتذكر كلام تراب في مثل هذه المناسبات: "في هذه اللحظة رحل إنسان آخر عن الدنيا". وما خطر له جعله يصرخ حاملاً الأمر على نفسه: "ولكن إن غلبني هذا الزنجي الضخم؟ في هذه الحالة أكون خسرت بلادَ القسوغ التي كرمتها في قلبي، والأمنية التي احتفظتُ بها في صدري سنوات. ولن أرى أمناً ثانية، ولن تستقبلني أبنار بضحكتها الجميلة. لا. لا. هذا مستحيل. ولن يقبل أهلتنا. سينصروني أهلي على هذا الرجل الأسود مهما كان قوياً. وهل يحنث باناتيد بوعده؟ عليّ أن أعود إلى بلادي بأي طريقة ولو على ظهر كلب بأربع قوائم. لا يجوز أن أفكر في هم آخر، لا أمنية!.."

أسبل ردد متعب القلب القيد الذي كان يمسكه من يديه ورقبته. ابتعد عن النافذة واستراح على الفراش الرقيق على السرير الحجري. وأنصت جهة الشارع

الذي يصدر منه صريرٌ عجالاتٍ وأصواتٌ بشرية.

" الناس الذين جمعهم رنين الأجراس في المساء يعودون من الكنيسة. - قال ردد، - ديننا لا يتطابق مع دين هؤلاء. باناتيد يذهب صباحاً وظهرأ ومساء إلى البناء الكبير الذي يسمونه كنيسة مصطحباً أسرته. ويطلُّ عليّ كلما عاد منها، ويرسم أمامي الصليب، ويخبرني أنه كان في المعبد، وأنهم دعوا الإله أن يرحمهم... ولكن كيف تعيش حياتك وليس لك إلا إلهٌ واحد؟ بالقياس إلى هؤلاء فدينانا كلها آهتنا!.. لا نجس أنفسنا في البيوت ونبتهل ونحن لا نعرف من يرانا ومن يسمعنا. في كل يوم ينزل إلھنا من السماء لأجلنا، ويُشعّ علينا نوره، ويدفئنا. ولا يسمح لنفسه أن ينسانا ولو اختفى وراء السحب. وحين يغيب ليستريح يرسل إلينا قمره المحاط بالنجوم. والآلهة الكثيرة التي يرسلها إلينا من الأرض ترعى شؤوننا في حياتنا. ويحدث أن يغضبوا علينا ليعيدونا إلى حالنا".

مرة أخرى أعادت الأفكار المتلاطمة ردد إلى القسوغ. وارتسمت أمام عينيه الجبال المكلفة بالأبيض، والغابات المتباعدة التي تعجز العين عن حصرها، والسهول الواسعة، وأدغال البرقوق، والقصب، والتلال المستديرة التي هي من صنْع الإنسان، والمواشي المتناثرة في المراعي، انتهاءً بأطمارها ورعوها وفيضاناتها. وفي هذه اللحظة أجبرته قوة إضافية غيرُ التي يعرفها في نفسه على الجلوس فجأة. ولم تكن القيود ولا البيت الحجري المحبوس فيه قادرة على الإمساك به.

" ألا يكفي قعودي هكذا مقيداً!.. - ألا يجب على آهتنا أيضاً أن يفهموني؟ أي خطأ ارتكبته؟.. صرخ ردد في قلبه ثم أرعبته الأفكار التي خطرت له نحو آلهته: - لا أعرف إن كنت ارتكبت ذنباً... عشتُ سليم الطويّة أحمي نفسي، لا أشهر السيف في وجه من أشهروه في طريقي... وجماعة حقار عرفوا ذنبهم فصالحوني. والحكوف لم أضمر لهم إلا الخير. وثأرنا لما فعلوا بالوفد الذي ترأسه داور. أكون ذني أني لم أستطع حماية التجار العرب الذين قبضت منهم رسم المرور من أرضنا ثم عجزت عن حمايتهم؟ وهؤلاء أيضاً عندهم، كما روي لنا وكما روى لنا المسلم الحاج، إله واحد، كما عند من أنا أسير عندهم. ولكن

الطرفين يتعاديان بشأن إله كل منهما... أم يكون السبب أننا، ججان وأنا، خلّصنا شوباش من الفارس الخزري ودفعناه إلى قتلِهِ؟ وهؤلاء عندهم كثير من الآلهة. ومن كان يروي أخبار هؤلاء في مضافة كولس وتيمرقوه هو الرومي ديمتري. تذكرت: أليس هذا الرجل الحكيم من هذه الأنحاء؟ كيف لا أسمع سيرته هنا؟! لو عرف، وهو الذي عانى كثيراً في نواحيننا، أي أسير هنا لأفادني كثيراً... - مرة ثانية ارتعب ردد فجأة: - هل سيقبل آلهتي أن أفكر في آلهة أخرى؟!"

كان من عادة باناتيد أن يعرج على ردد في طريقه من الكنيسة، مبكراً أو متأخراً، بصحبة ثلاثة حراسٍ حِسام، ولكنه لم يأت الليلة. سهر ردد بعض الوقت منتظراً مجيئه في كل لحظة، لا يعرف سبب غيابه. وإن كان السبب عدم عودته كدّبه صوته وهو يطلق الكلبين الحارسين في الدار. ثم يردّد: " لا يرجع إن شاء، ليس مهماً... ولكنه، كما صار عادة عنده، وقف إلى النافذة التي تهدئ قلبه. - إما أنه في مزاج سيء أو لم يتحقق له شيء ما... هذه هي حالنا، لو كان العالم مؤلفاً مما نريد لما اختطفوني أنا أيضاً إلى بلاد غريبة... على كلّ أن يحتفظ بإلهه في سرّه لا ينساه. أنت يا تراب مُحقّق في شأن آلهتنا وإن لم أكن أفتنع أحياناً بآرائك. ساحني إن أخطأت معك في قول أو في فعل. ولكني، وإن قدم العهد، أخبرك أنك لم تكن على حق في سلوكك مع أبنار. ولن أنسى قولك لي إنها ستكون بمثابة أختي الصغيرة. حسنٌ أننا، ججان وأنا، تحدّثنا عفويّاً في موضوع أبنار وأنست. حتى صديقك إن لم تتصارع معه لا بد أن ينشأ بينك وبينه سوء تفاهم. والآن اطمأن قلبي على الصبيتين، ولكن من يعرف ما قد يحدث... " - طفا الارتياح رغماً عنه مع أنه كان يُغلب الخير على الشر دائماً.

أعاد رددّ الواقف إلى النافذة إلى وعيه هريز الكلب الضخم الذي يراقبه بعينين تلمعان في الظلام. " هذا أنت! - ابتسم ردد للكلب بدلاً من أن ينهره. ثم لامه مبرئاً نفسه على عاداته في التحدّث إليه ليلاً: - أليس عليك أن تُعلّمني بانتظارك لي وإن كان عندي كثيرٌ مما يشغل بالي؟! وإن سألتني فأحوالي كما هي. سنسافر بعد غد. يقال إني سأصارع في سالونيك رجلاً أسود ضخماً

جاء به من بلاد بعيدة. سنتظر ما يجري. يعدي مالِكك باناتيد أن يُعِتني إن تغلبت عليه، ولكني لا أظنه يتمتع بمثل هذه الإنسانية... تكثير عن أنيابك وتحرر ولكن هذه هي حالي في الأسر. لا تميز الحياة بين إنسان ووحش. وإن لم تصدق قلت لك: ها أنت تشم رائحة اللحم فتشتهيه، وما أشتهيه أنا هو حربي رغم أنك تحسني... "

هجم الكلب المنفلت من وراء سور البيت على الكلب الآخر فتصارعا وتراميا أرضاً، ثم نهضا. ثم عادا فتساندا بالقوائم الأمامية. أخرج عراك الكلبين في الفناء الرجال من غرفهم. وعاد الكلبان فضم كل ذيله بين فخذه وخرسا كأن لم يحدث شيء بينهما.

- ما الذي يجري هنا؟ - خرج باناتيد من الغرفة.

- تعارك الكلبان، - أجاب أحد حراس ردد.

- كلبا الدار لا يتعاركان إلا إن رميت بينهما عظمة، - عارضهم باناتيد، وأمر حازماً: - احرصوا على ما تحرسون. لا بد أن أحداً على النافذة، انظروا!

- ها هو، ينظر من خلالها، - أشار الحارس إلى النافذة.

- ثم تقولون لي إنه عراك كلاب!.. - غمغم باناتيد ساخراً من عماله. ثم سألهم: - من من الكلبين مخلص لنا الآن؟ وقال دون انتظار الجواب: أنا متأكد أنه سينتصر على الزنجي مهما كان قوياً لأني وعدته أن أعنته إن فاز، وسأجني من فوزه ثلث قيمته، ولكن انتهيت من التفكير في الطريقة التي سأجني بها منه مئة راحتيه ذهباً، بعد هذه المباراة، بغض النظر عن انتصاره أو هزيمته، - ولُيْمَرَقوه إن أرادوا متى تحقّق هذا، فإن حدث بالمصادفة - فلن يبقى لي شريك، كل الريح سيكون لي؛ وهل سافرت خلال شهر إلى سالونيك ثلاث مرات عبثاً؟.. عاد العجوز الرومي راضياً إلى الغرفة بتذكّره الاتفاق السري الذي عقده معهم.

وبعد يومين، في المساء الذي سينطلقون فيه إلى سالونيك، دخل العجوز باناتيد إلى ردد، وقال له محدّقاً في عينيه:

- إن كنت جاهزاً، واثقاً من انتصارك على خصمك الزنجي فسننطلق.

- لا يتأملون جلد الدب الذي لم يسلخوه، ولكني جاهز ولو كان الموت

بانظاري شريطة ألا تحنث بوعدك.

- لا تسمح للموت أن يغزو خاطرك! - استعجل بانائيد، واستدرك بسرعة:
- لا أحد يسافر وهو يفكر في الموت. هل تعرف ما سنجني من المال إن ثبتت
كتفي الزنجي؟

- كنت أسمعك تتكلم عليه أحياناً ولكن لا أتذكر.

- أو لا تصدق أيضاً أي أدّخر لأجلك ذبّةً من كل مباراة تكسبها؟

- أليست من يقول: ما لم يصل إلى جيبك ليس لك.

- نعم، حفظت هذا جيداً في ذاكرتك. ستري كم سأثر أمامك من النقود إن
انتصرنا. لن تتسع لها جيوبك... تعال إن كنت جاهزاً، أنا جاهز. سننطلق
مشحونين بالأمل.

- يبدو أنك يا بانائيد، - ابتسم ردد دون خبث، - سترسل معي إلى القسوغ
كثيراً من الذهب.

- أما قلت لك - رفع بانائيد حاجبيه الأبيضين الثقيلين، - يتعلق هذا بطريقة
عودتنا من سالونيك، - وأضاف ضاحكاً في سرّه: لولا أي أخشى أن يدفنوك
هناك.

- عندي لك قبل أن نطلق يا بانائيد عتاب وسؤال.

- ربما نثرثر... - نظر بانائيد إلى كوستاس المترجم مخفياً انكسار صوته،
وابتسم في وجه ردد: - أسمعك.

- كنت اتفقت معك على أن تسأل عن الداعية ديمتري الذي كان يأتي إلى
نواحيننا.

- هذا ما تقصده بعثبك؟.. - قاطع بانائيد كلام ردد وهو ينظر إليه برياء: -
ظننتك ستشكو من قلة الطعام والعناية. المصارع يجب أن يأكل جيداً ليصارع.
سألت عن صاحبك ديمتري، وعرفت اسمه الحقيقي ونسبه وعنوانه.

- ولماذا لم تخبرني إلى الآن؟ - بان على ردد مزيد من العتب.

- عندي طبيعة صارت عادة لي فلن أخفيها عنك، - ابتسم بانائيد وارتياحه
لما سيقوله باد من عينيه المرائيتين، - لا أهتم كثيراً بما لن ينفعني. ولكن من
سألت عنه لا يمكنه أن ينفعل ولا أن ينفعني؛ هو في مكان بعيد.

- وأين هو؟ - سأل ردد كمن وجد ما يبحث عنه.

- المبشّر غريغوريادي ديمتري يعيش في فيودوس، وراء البحر، في نواحيكم، -
قال باناتيد بصوت أقوى مختلف عن سابقه، واختتم بكلمات متفائلة: -
تستطيع أن تقابله متى انتصرت وعدت إلى بلادك كما اتفقنا.
- يحيل إليّ أنك تكثر الكلام على انتصاري... - أفلت من ردد الشك الذي
يساوره.

"كيف يتصرف معي هذا!! - غضب باناتيد مما سمع، - هو أم أنا من عليه
القيد؟ ومن دفعوا لأجله كل هذا الذهب؟ صحيح ما يقوله الروم: "من تُرخ له
الحبل يتناول عليك" أنا أتوسل إليه من أجل أن يغلبهم، وهو لا يصدق أنني
أخزن له شيئاً من أجور مصارعتة، فيسأل عنها. ألا يُطعمونك ويكسونك،
ويجندون من أجلك ثلاثة حراس مع مترجم! ألسنت من يحتفظون لأجله بكلبين
ضخمين بدلاً من واحد؟.. "تكثر الكلام على انتصاري" إن لم أهتم بهذا
فمن يهتم به؟! يحدث في أثناء مبارياتك أن يعضوك وأن يؤذوا رجليك أو
يديك، فمن يدفع أجور معالجتك؟.. لم أشأ منذ اشتريتك أن أجعل منك
محادثاً ولكنك كالساحر تجذبني إليك رغم أنفي. أنت ذكي خلافاً لما توحى به
ضخامتك وقوتك، ولكن ما أحتاج إليه منك هو قوتك لا عقلك!.. أن
أعاديك من أجل فكرة ترميني بها وأن أثقب حافظة نقودي بنفسي سيّان
عندي، ولذا لن تستطيع استدراجي إلى الغضب"

- ربما تكلمنا كثيراً على فكرة انتصارك، - أضاف باناتيد ما يريد مزيجاً
الأفكار السيئة التي تراوده بحق أسيره، مؤيداً إياه: - ولكن لا أرى عيباً في
الكلام على ما يشغل بالك. من مصلحتي ومصلحتك أن نتبادل الثقة. والآن
أستمع إلى سؤالك.

"ستستمع، ولكن لن يعجبك... - ابتسم ردد كما يريد. - إن كنت تريد أن
تلعب معي لعبة الغميضة فسألعب رغم الأغلال... لا تتظاهر بالقلق عليّ
والاهتمام بشؤوني!.. ولست أجهل أن نفسك لن تجود بالمال الذي تزعم أنك
تدّخره لي، وأنت ستستغل قوتي ما دمت قادراً إلى أن يصرعني أحدهم. ولو لم
تكن لك مصلحة حيث تصطحبني لما سافرت ثلاث مرات في شهر واحد،

بالإضافة إلى أنني أظنك تتأمر عليّ من ورائي، وإلا فما سبب كلامك الدائم على انتصاري وحريتي؟ كان المترجم الرومي لمخ لي في عرض الحديث ما يعني: "لا تصدّق كل ما يقوله لك هذا الرجل!" - والآن ينظر إليّ بعين الرضا، ليته ما لاحظ عليّ ما يثير في نفسه الريبة عني!... يجد في كل شهر مترجماً جديداً إذ لا يثق بأحد...

- هذا السؤال لا يهتم به غيري ولذا، - قال ردد كأن بلا مبالاة، - لا ضرورة للإجابة. وضحك المرابي بانائيد.

- أسألني عن مقدار ما أملك. أسأل ما تشاء.

- ولماذا تسأل عما ليس لك وأنت تعرف أنه لن يدخل إلى جيبيك؟! - بدأ ردد بالمزاح، واختتم بما لم يكن بانائيد ينتظره - يقلقني هذا القيد كما يقلقك ما سيحدث لنا في سالونيك. متى ستثق بي؟

- أظنك أوقعنتي الآن وأنا أقول إن السؤال عن الملك بلا جواب. - قال بانائيد بعد سكتة. - لو سألت عن الملك لصارحتك بنصفه أو ثلثه لأن لا أحد غيري يعرف ما أملك. ولكن ما سألت عنه يحتاج إلى جواب صريح فلن أكتف عنك. ستعلق حياتك وحريتك بما سيحدث في حلبة سالونيك. من ستصارع رجل لا حدود لقوته، وقد أنزلوه ستاً وخمسين مرة إلى الحلبة في سالونيك فربح كافة مبارياته، بل بينهم ثمانية عشر أوقعهم أرضاً بإسقاطهم قبل أن يمسه.

- هل سمعت هذا قليلاً عن قيل أم رأيت بعينيك؟

- لا أتكلّم عما لم أر بعيني. ولماذا سافرت إلى سالونيك ثلاث مرات في رأيك؟ - كان بانائيد صادقاً في كلامه على المصارع الزنجي ولكنه نخض مخفياً اتفاقه على المباراة الثانية: - هبّا، ليست سالونيك قرية. أمامنا طريق بحري. أنا ماهر في البيع والشراء ولكن لا أعرف شيئاً عن المصارعة. غير أنني لا أظن الرجل الذي ستصارع بلا عيب. وسأخبرك بما لاحظت من عيوبه وما أخبروني به... - استدار بانائيد وقد وصل إلى الباب كأنه نسي شيئاً: - اسمع الآن جوابي على موضوع القيد: سنقدّمك إلى الرجل الأسود بقيودك لبثّ الرعب في قلبه فاصبر عليّ قليلاً في هذه المسألة...

VI

بدت توم نقاش من بعيد.

"أهذه من كنا نسمع بها ولا نراها؟.. - ابتسم قدان ولم يوقف الحصان حيث كان متردداً قبل الآن. - هذه التبة عالم آخر تماماً بالقياس إلى المستنقع الذي تركته ورائي والغابة الكثيفة التي خرجت منها..."

مراع لا تحيط بها العين، وكروم عنب، وأشجار فواكه، ومن بينها تظهر بيوت مبنية من أعواد الخشب، متطاولة أو مستديرة. وإن نظرت من فوق توم نقاش رأيت من ورائها البحر كأنه يندمج في السماء، وتوم نقاش نفسها كأنها تسبح فيه. وبالقياس إلى مضيق بانتيكابي حيث كان صباحاً فهنا مراكب متنوعة ترفع أشرعتها، تأتي وتنصرف. وطيور البحر تصرخ وتتفضل. والمسافرون على الطريق شرق المدينة مشاة وفرساناً وعربات ثيران يمشون فرادى أو مثنى أو ثلاث، أو جماعات. وتوم نقاش محاطة بسور حجري يلامس طرفاه البحر. وعلى الباب الكبير المفتوح يقف حراس مسلحون. ويطل من فوقه أيضاً حراس يسألون الداخلين عن المكان الذي قدموا منه. ويفتشون الأحمال، ويأخذون المكوس عليها. غير أنهم لا يهتمون بالخارجين.

كل هذا لا يراه قدان لأول مرة. كانت هذه حال الخزر حين كان أسيراً في ساركيل. ولكن لم يكن يسمع فيها وقتها أصوات روسيج وأديغة كما اليوم. لا يرى إلا الروم والجنوبيين والمجريين، وآخرين ممن يأتون من وراء البحر، والقادمين من الشرق من التركمان والعرب والفرس التجار، ولا كان يسمع لغاتهم. في ساركيل كان كل من يدخل أو يخرج يخضع للتفتيش ولو لم يدفع مكوساً. ويحدث أن يتشاجروا ويشهروا السلاح؟ قال قدان " لا أعرف ما سيحدث غداً، ولكن المكان هنا آمن. والذين يسمحون لهم بالانصراف يخرجون من الباب دون ضجيج. والذين لا يسمحون لهم بالدخول. يتعدون فيترجلون من الخيل، ويُنزلون المتاع من الجمال. ويسرحون الثيران من العربات. وينصبون خياماً من الكتان. وينقلون إلى السوق الموازي للسور ما سيبيعونه. وأنا ليس عندي شيء أبيع، ولن أشتري شيئاً ذا بال. لا أريد إلا أن ألتقي بقناشوا فمن أسأل ومن يدلني؟.."

زار قدان السوق. وتوقف بعدما قطع مسافة يُبعد الناس عن طريقه بصدر حصانه، وبحث عمّن يريد كآنه من باعة السوق. ثم سخر من نفسه: " ماذا سيفعل هنا من جاءنا بجيش الروسيج؟.. لا أعرف، ربما لم يقبل الروسيج ما فعل بالقسوغ جماعتنا. ثم ما حاجتي إلى قانشاو الذي لا يودنا حتى لو وجدته؟ أخبره أنني أبحث عن ابن أخته، أميرٍ من لا يقبلون أن يدفعوا لكم الإتاوة؟! ألا يعرف؟ يعرف جيداً ولكنه لم يعبأ بأخته، ولا بنا. أقول هذا ولكن ألا يُحتمل أن يكون عاد إلى رشده حين هدأ غضبه؟ لا أعرف، لا أعرف... وما الذي يُغضبُه؟ ما الذي لا يتحقّق له؟ ما ذنبُ قومه إذا كان الخزر أسروه؟.. وأنا حاقد على الخزر، وها أنا أسمع أصواتهم، ومائلون أمام عينيّ، ولكن أأشهر سيفي وأهاجمهم؟!"

- يا قدان، يا مبارك النسل، من أين جئت؟

- هذا أنت يا نخلش؟ - قال قدان في نفسه: "ومن أين أتاني هذا؟!"

- أنا، أنا! - "التقيت بالمنحوس الوحيد الذي لا أريده" - نهر نخلش نفسه ولكنه كتم مشاعره. - شككتُ فيك أول ما رأيتك. أين رفاقك؟

- كان عبور البحر من جهة أنابه مستحيلاً فتوجه كولس وتيمرقوه إلى فيودوس.

- وأنت؟

- أنا عائد.

- ألم تستطع مرافقتهم؟

- لا.

- لا بأس هكذا غير أنني لا أفهم سبب عودتك. أظنك تخفي عني شيئاً يا قدان؟ - كان نخلش الأصهب بشّ في وجهه قائلاً: " هذا من نوع الناس الذين يلحّون في الاستفسار، ويبشّون في وجهك ويكتمون أسرارهم " ولكنه غمغم في سرّه، وأعاد ترتيب السؤال: - كنت من بين الموفدين الثلاثة الذين اختارهم مؤتمر القسوغ فلا أجد تفسيراً لما أرى، بالي مشغول عليك.

- لا تهتم يا نخلش، - أجب قدان دون اهتمام، - لا نزال على ما سمعت. وجب علينا أن ندور حول البحر مسافة أبعد مما تصورنا فرأينا ما معنا من المال

قليلاً، فرجعتُ بناءً على أوامر الأكبرين.

- هكذا إذن؟! - قال نخلش على نحوٍ لا تفهم معه ما في قلبه، وسأل عما يرتاب فيه: - أين حصاناهما إذن؟ لماذا لا نعيدهما معنا؟

- بعناهما لأحد الروسيح، وضممنا الثمن إلى نفقات الطريق.

- أعرف أنك صادق، ومع ذلك زاد إعجابي بك يا صديقي العزيز! - صرخ نخلش فنبّه الباعة، وشهد على صحة ما قال: - كنت تشاجرت مع عجوز من الروسيح لما رأيت معه حصائِي كولس وتيمرقوه رغم أنه أخبرني أنه اشتراهما منهما، غيرَ مصدِّقٍ كلامه... تعالَ إن كان هذا ما حدث معكم؛ سأنتزعهما منه على مرأى منك!

- لا يا نخلش، لا. لا تدعُنا نخطئ، لا ذنبٌ للمشتري!

- متى قيل لك يا قدان تعال فامش. هل أنتزعهما منه لمجرد كلام! يكفي أن نعيد إليه الثمن. هل نترك الحصانين لأحد الروسيح على مرأى منا؟ لو رأيت نظراتِ الحصانين إلي! لا بدَّ أنهما تعرَّفا عليّ! تعال، كنت عُدتُ بهذه النية. سنستعيدهما ولو طلب ضعف ما اشتراهما به! - حتَّ نخلش الحصان.

- ولكن ليس معي ما يذكر من المال. - لم يكتفِ قدان حاله وإن كان يسرُّه ما سيفعل نخلش. وأكَّده على من أمامه: - لا يجوز أن ينشب بيننا أي شجار!

- قدان! - صاح نخلش إلى من وراءه، - أَمِنَ هذا اليوم فحسبُ تعرفني؟! ثَقُ بصديقِ عمرك! ولا يعني هذا يا قدان أنني غيرُ عاتبٍ على كولس الذي سأستعيد الحصان من أجله. ألا تتذكر أنه رفضني حين طلبت منه مرافقته؟

- لا تعتَبْ على كولس لهذا؛ كان يريد أن يُيقِّيك في القسوغ لترعى الأصاغر سنًا.

- فهمتُ هذا، ولكن شعرتُ بالإهانة إذ لا أكون في عداد الباحثين عن الأمير ردد. صحيح أن زعيمًا مثل كولس الحكيم لا يعجز عن شيء، ولكن ما كنتُ أسمح له بوجود أمثالي وأمثالك وأمثال حقار وشنبه أن يسافر هذه المسافة البعيدة إلى بلاد غريبة... لا أعرف نوايا الأكبرين، وها أنت أعادوك مع كونك الأصغر فيهم.

- لا أوافقك في هذا يا نخلش. لم يبعثا عن ذريعة، صحيح أنهما مُستَّان

ولكنهما لا يزالان في قوتهما.

- نعم، نعم، - يقول نخلش ثانية إلى من وراءه، مُغذّاً السير، شاهراً سوطه على من يعترضون طريقه، - ونحن لم نكن نراقب من ثقب أسوارنا لا نعرف شيئاً. ولكن ما العمل إذا رفض كبارنا أن نرافقهم؟ ندعو إلى آهتنا أن يعثروا على أميرنا ويعيدوه سالماً إلينا.

" من حسن حظكم أي حين لحقت بكم، - امتلاً قلب نخلش غيظاً، - انشقت الأرض وابتلعتكم. وإلا كنت جعلت منكم وفداً لن يعود أبداً... من عرف أنكم ستسلكون طريق أنابه في هذا البرد؟ وأنا هنا سمحت للمرائي الخبيث كولس أن يخدعني فهُرِعْتُ إلى توم تقاش. وهما يبيعان حصانيهما ويعبران جهةً بانتيكابي. وهذا المسكين لا يملك إلا متابعتهم بعينيه! والحقّ أي مررت بها ولكن لم أر أحداً منهم. وعلى رأي تراب لا يتحقق لك شيء إن لم تقرر الآلهة. ولا أظنني صدمت قدان بنفسي وجهاً لوجه بدلاً من أن أختبئ عنه دون علم الآلهة. وإذا كانا طلبا منه العودة إلى القسوغ فلماذا يجوب السوق هنا؟ لا أعرف ماذا يفعل دون نقود إلا أن يتفرج. أحمّن أنه يتابع مهمة ما؛ ما هي يا ترى؟.."

فرح نخلش لسماع صوت الأحصنة:

- هل تسمع يا قدان؟ أحصنتنا تعرّف بعضها على بعض؟ من أجل هذا أقول، ولو أن الناس لا يوافقوني، إن بين الحيوانات مودة أكثر مما بين البشر. - دنا من العجوز الروسيح الذي يبيع الحصانين دون أن يعبأ بمن وراءه، وسأله: - كم تطلب فيهما؟

- أعطوني في كل منهما ثلاث ذهبات. وأنا أطلب أربعاً وخمساً.

- أربعاً أم خمساً؟ - أكّد على قدان بلغته فيما يسأل البائع: - لا تقل شيئاً إن لم أسألك!

- إن استكثرت الخمس بعثك الاثنين معاً، كلاً بأربع ونصف. - دفعْتُ فيهما

أكثر من هذا لولا أي في عجلة من أمري. - أضاف البائع العجوز.

- لم تدفع فيهما خمساً ولا أربعاً ونصفاً، - جحظ نخلش للبائع العجوز بعينيه وهو يهز السوط في وجهه. ثم سأل قودانَ بلغة الروسيح: - كم دفع لكم هذا

مقابل كل حصان؟

- ذهبتان لكل حصان، - أجاب قدان وقد فهم ما يريد نخلش.

- هل تتذكر هذا الفارس؟

- أتذكره ولا أتذكره... - انخفض صوت العجوز ولكنه سرعان ما عاد إليه

الوعي: - ألسْتُ حراً في أن أبيع الأحصنة التي اشتريتها كما أريد؟ - "هذان

الواقفان على رأسي لا ينويان لي خيراً. والمشترون الذين كانوا يساوموني

انسلّوا. كلٌّ ونفسه، ولن يسمعك أحدٌ مهما صرخت. ولن يتورعوا عن بقر

بطنك". - تراجع شبه باسم: - نعم أيها القسوغ، فهمت من عيون

حصانيكما أنكم من القسوغ وأنهما يرغبان في العودة إليكما، ولكن أعيدا إليّ

ذهباتي. وإن عوّضتماني تعب نصف النهار معهما لأرضيتما.

- هذا أمر آخر. - بدا من صوت نخلش افتخاره بما فعل. وأضاف معتداً: -

وأنت لا تتخيل أننا نهابون مجرمون كذابون كالخزر. هل سمعت أحداً يأتي على

سيرة المدعو أسباروخ؟

- وكيف لا أسمع؟! رأيته أمس في مكان أسرى فيودوس.

- وكان يبيع الأسرى؟! - اختطف نخلش الأصبه الكلام منه ووجهه

يشحب، وكولس وصاحبه يمثلان أمامه.

- ولماذا؟ - صادفته هو نفسه مقيداً يقذفون به إلى المركب وهو يصرخ.

- هاه - صاح نخلش على نحوٍ لا تعرف معه إن سرّه ما سمعه أم لا. - إن كان

من رأيته هو القبيح أسباروخ فلي أنا أيضاً دين عليه. فعلوا به ما يستحق. هذه

ذهباتك الأربع، وأضيف إليهما ذهبتين خلواناً. بفضل رجولة من؟

- كائناً من كان، - ابتسم قدان، - فهو أرجل منه.

- أي نوع من المراكب يا ترى رموه فيه؟ - يسأل نخلش كأن الأمر لا يهّمه.

- هل انتبهت إليه؟ هل هو من جنوة أم من القسطنطينية؟

- لا من جنوة ولا من القسطنطينية، - عاد إلى العجوز شيء من شجاعته، -

بل مركب رومي حمله إلى سالونيك.

- يا لشماتي به! إن حملوه إلى الروم فقد تشقيت منه. من يصل إلى هناك فلا

رجعة له. خذ، هذه ذهبة أيضاً.

- ماذا جرى لك يا نخلش فتبعثر نقودك؟! - عرّض به رفيقه غير المنتظر قدان.
- وهذا صحيح، - دان نخلش نفسه، غير أنه اختتم دون أن يظهر خبثه
ورياؤه: - ألا تشعر يا قدان أن فرحتين تحققنا لي؟ تعال، أمسك بزمام
الحصانين اللذين استرجعناهما. وسلّمني أنا حصان الزعيم المبارك كولس. هيا،
لنُسرع بمغادرة السوق!

بعدما تركا السوق وسارا مسافة قال قدان:

- عليّ أن أدخل إلى توم نقاش.

- وماذا ستفعل في مدينة الروسيج؟

- سأقابل قانشاو.

- أيّ مهمة لك معه؟

- مهمة تخص القسوغ.

- تقابل من يعاديننا؟.. - ارتفع صوت نخلش دون إرادته، - ثم لامه بعد

سكتة قصيرة: - من أجل هذا قلت لك إنك تخفي عني شيئاً وإن لم تقبل...

هل نسيت أن من تذكر اسمه جاءنا بالروسيج محارين؟!

- لم أنس، ولكن أن يصارحنا بما في قلبه نخونا أفضل من أن نعاديّه. الروسيج

الذين استطاعوا ما لم نستطعه فطردوا الخزر، وسكنوا أرضنا ليسوا بلا رجولة

كما نتصورهم نحن والخكوف. تعال نسأل قانشاو عن أمور الروسيج!

" اسمع ماذا يقول هذا الرجل! - يستغرب نخلش جداً ما يسمع. - هذا رجل

كتوم... يقف جانبا كأنه غير مهتم بشيء فيرى كل شيء. وها قد فرض نفسه

على كولس وتيمرقوه. وكان أقنع أمير القسوغ الذي أرسلته إلى ما وراء البحر

بشخصه. ويعامله مشقوقه وججان والأمير الغريب الصغير معاملة حسنة.

وفرض على رامبس احترامه. والوحيد الذي لامه هو تراب بحجة أن أهلكنا لا

تقبل الحديث في الدين المسيحي... مهلاً، أتكون رامبس رجته أن يقابلوا

أخاها الأصغر؟ لا أحد يستطيع التنبؤ بما يمكن أن يخطر لهؤلاء... أنا أحامي

عن خيول القسوغ في حين ينتقدني هذا التافه على تبذيري نقودي. حين

يخدعك من تثق به، ويعطيك زناراً من الحديد على أنه من الذهب، ثم من هذا

الذي سمحت لهم أن يخدعوني فيه؟ فهل يُرضيك هذا؟ ما يجزني هو ألا أتمكن

من أن يكون القبيح أسباروخ أمامي وأظل أطعنه ويتأوه كالكلاب حتى أزهرق روحه. وما حدث للوحيد الذي يعرف سري دون علاقة لي ليس أمراً سيئاً، بل إنه فرحة تستحق أن تدفع البشارة لأجلها. ولكن ماذا إن قابل الموفدان اللذان استرجعتُ حصانيهما ذلك الشخص وكشفا سري؟.. " - أيقظ السؤال المرعب نخلش من تداعياته التي أغرق نفسه فيها نتيجة حديثه معها. ووجد الذريعة التي يُنسي نفسه بها ذلك الرعب:

- أراك يا صديقي العتيق مكلفاً بمهمة... لا، لا، لا أريد التدخل في ما ليس من شأني. لا تُخبرني؛ متى اشترك اثنان في سر لم يعد سراً. وعلى رأيك لن نعادي قانشاو لأنه انتقل إلى مجتمع غريب عنا. ولن نستعين بالروسيج الذين هزموا الخزر فكانت فيه فائدتنا. إن لم يعد كولس وصاحبه بالخير في غضون شهر تقريباً فهل نترك أميرنا الأسير؟ أنا من سيتابع موضوعه متى عدنا إلى القسوغ. ومتى اخترتُ رفاقي في تلك الرحلة فلن أتجاوزك يا صديقي.

- حياك الله يا نخلش. ولكن أليست أرض القسوغ ما عليها حوافر خيلنا الآن؟

- أفحمتني يا قدان! أستحق ما فعلتُ بي. أرضنا حُبناً، هي سبب حياتنا، ومن أجلها نكافح، وهي ما نحميها. لنجتمع سالمين في قريتنا الأصيلة! -

وبعدما مشيا مسافة نأدى من وراءه متظاهراً بالمزاح: - هل تثق بي، إن ركبنا معاً الطريق إلى ما وراء البحر ألا أفعل بك ما فعله كولس وصاحبه!

...

لم ينتظر قدان طويلاً على بوابة توم نقاش. حالما نطق باسم قانشاو عبر به الفارس الذي أرفقوه به الأرض المحفّرة بالخنادق، وأدخلوه إلى المدينة. " بالقياس إلى ساركيل، - يتعجب قدان مما يمثّل أمام عينيه، - فهنا لا أرى أماكن جاهزة لنصب الأشرعة، ولا جمالاً، ولا حميراً، ولا جواميس. كل ما فيها بيوت حجرية. لا، ها هي أماكن نصب الأشرعة، وربما هذه بيوت للخزر، تقوم في برية ليس فيها شجرة واحدة. وتبدو من جهة البحر بيوت متفاوتة المساحة، بعضها مسقوف بالقرميد وبعضها بالقصب. وفيها بيوت حجرية متهدمة تنبئك بكثرة الحروب التي شهدتها وبالنار التي دمرتها. ويصمُّ أذنك تصايحُ

طيور البحر، وتندس في أنفك رائحة السمك الثقيلة فتغلق المنافذ إلى رئتيك.
- هنا تعيش أقوام متنوعة، - حمله تنوع الناس الذين قابلهم في الشارع على هذا الحكم. - وهذان الاثنان اللذان تجاوزاه هما من القسوغ. وقابل قبلهما الألان، والروسيج، والروم، والخزر.

- ويعيش فيها جنوبيون ومجريون، - أضاف الفارس الذي أرفقوه به. وتوقف على باب القصر الحجري الكبير: - ها هو بيت قانشاو قائد جيش الروسيج. أنا عائد، وأنت اشرح لهم طلبك.

خرج من البوابة رجالان مسلحان، وسأل أحدهما:

- ماذا تطلب؟

- أريد مقابلة أمير الجيش قانشاو. آتي من مزبه، واسمي قُدان.
تيسر أمر قُدان خلافاً لما توقّع: الشاب الضخم الذي دخل الغرفة بلا مبالاة خرج بسرعة كأنه شخص آخر، وأنزل الضيف ممسكاً بزمام حصانه. والرجل النحيف المتين استقبله على باب الغرفة بوجه طليق:

- تفضّل يا قُدان، تفضل! أسمع أخبارك. لم نلتق منذ زمن طويل...

- "ما الذي جرى لهذا الرجل؟ كانت عيناه تقدحان شرراً حين أتى مع الروسيج إلى نواحيننا، كان كمن يُكرنا. والآن يتودد إليّ..." - اختلس قُودان نظرة مرتابة إلى المضيف.

دعا قانشاو الضيف إلى الغرفة، وأمر له بمن يقدم له ماء الاغتسال. وقُدّمت له أطباق الطعام كأنها كانت في انتظاره. وجلس هو مقابله. ونظر إليه الآن أيضاً بعين أكثر حناناً.

- وصلتُ إليّ يا قُدان رائحة بلادي القسوغ وإن لم تنجح أموري فيها؛ أنعشتُ روحي. - قال قانشاو وليس في صوته حزن أو شعور بالإهانة. وأضاف بعد إشارة سريعة باليد: - قل، قل، يبدو على وجهك أن في فمك كلاماً. تريد أن تسأل عن شيء.

- عرفتني، أليس لأبناء القسوغ الذين يعيشون معك في توم نقاش رائحة؟ - تذكر قُدان ما قال لنحلس بشأن حوافر الخيل.

- وكيف لا يكون عندهم؟ وهؤلاء مثلنا. أستمع إليهم حين يتحداثون.

وأستمع... ولكن من يأتي من مسقط رأسك مختلف عن الجميع. - خفض قانشاو جفنيه وتنهَّد عميقاً. وتعثر لا يدري أيُّوح بما خطر له أم يبتلعه: " هل يفهمني إن أعلمته بسبب عدم عودتي؟ وإن لم أعلمه هل ينتظرونني لا يفهمون سبب تصرفي؟.. "

- لماذا لا تُكمل ما بدأت؟ - قطع قدان أفكار قانشاو.

- لأن البوح به ليس سهلاً... - حُيِّل لقدان أن صوت قانشاو ارتخى - لم يمرّ عليّ يوم في أسر الخزر، وهنا، نسيت فيه بلادي... أفهم من نظراتك؛ ستسألني: لماذا لم تعد إذن؟

- أصبت، - فرحت عينا قدان.

- حين وضعتُ ما جرى لي في بضع السنوات الماضية في كفي ووازت بينهما وجدتُ كفة معروف الروسيح راجحة يا قدان. هؤلاء حرروني من أسر الخزر، وقدروني، وسلّموني قيادة الحرس... وحين زرتكم مرة لم نتفق. وهذا أشعّرني بالإهانة.

- ربما ما كان هذا ليحدث لولا أن جئنا طالباً الأتاوة، - ردّ قدان ناسياً أنه في حضرة المضيف، وبادله الآخر النظرة.

- أستحق ما قلت لي؛ لا تندم عليه! - ابتسم قانشاو كاظماً غضبه، - وسأخبرك ما جرى لي بشأن الإتاوة: لو أجبرني الروسيح الذين أعيش بينهم على التوجه إليكم لوجدتُ مشجباً لتصرفي. ألا تعرف طبيعتنا نحن الأديغة - القسوغ؟ يقتلنا حب المديح، وتباهى دون سندٍ. لو اختطفني الخزر من بلاد القسوغ على حارك حصان لوددت أن أعود على صهوة حصان محجّل والحرس الذين لا يدعون كلمتي تصل إلى الأرض يحقّون بي، ولكان ما حدث لي منحني الشعور بالعزة.

- صار ابن أختك أميراً علينا وهو شابٌ جداً، ولكن لم يسمح لنفسه بمثل هذا الشعور - ألقى قدان نظرة حذرة على وجه المضيف، مانحاً صوته الوقار.

- أصبح ردد مثل والده، - ظهر من صوت قانشاو الحاد فرحه بما يسمع، - أما كان المرحوم لاورستن رجلاً فطناً يتطابق قوله وفعله!.. الحقّ أما من أخبار عن ردد؟

- قيل إنهم عبروا به البحر.
- أعرف هذا، وأعرف أن كولس وتيمرقوه يبحثان عنه.
- من أوصل إليك هذا الخير؟ - استغرب قدان.
- كان نخلش عندي. وأخبرني أنه هو الآخر يبحث بكل جهده عن أمير القسوغ. ولكن لم أصدِّقه تماماً. أرى ما على لسان نخلش لا يطابق ما في قلبه. ولمح لي في سياق بحثه المزعوم عن ردد أنه يجب الانضمام إلى من أعيش بينهم. ثم تراجع زاعماً أنه سيخجل من مواجهة القسوغ لاحقاً. ينزلق من بين يديك كسمكة خرجت تواءً من الماء.
- كان قدان يبدو كمن يصغي إلى حديث قانشاو الذي خرج من طوعه ولكنه كان يخاطب نفسه: "أرأيت أن نخلش الأصهب سليل كلبين! يقول لي: ما شأنك بمن انضم إلى الروسيح في حين قابل قانشاو لهذا السبب! لا قعر لصاحب الصدر المنفوش هذا؛ لا يعرف أين يتجه... وهذا الذي أمامي اتخذ مني ثقة فيروي لي الأخبار ولكن قد يكون ما في قلبه نحونا شيئاً آخر..."
- هل تنصت يا قدان؟ انتبه قانشاو إلى شرود مجالسِه. - وأنا لا أنسى ردد. وأناسنا يذهبون إلى القسطنطينية ويعودون، ويخالطون الروم والعرب وأهل جنوة وغيرهم، وأنتظر أن يأتوني بخبر موثوق.
- ونحن أيضاً كما ترى، لا نجلس مكتوفي الأيدي.
- أنا راضٍ عنكم في هذا، ولاشك أن آهتكم أيضاً راضون. - لم يدع قانشاو ضيفه يستلم دفة الحديث. - ما أندم عليه هو أنني لما جئتُ إلى القسوغ مع الروسيح خرجت من فمي نحساً كلمة "الإتاوة" التي يخنق بها الخزر الشعوب التي يحتلون أرضها، فجلبتُ لنفسي العار أمام قومي. إن سألتني: أهي ظلمٌ أجبتك: نعم الإتاوة ظلم... هل تعرف الآن لم استقبلتك في بيتي وأروي لك كل هذا؟
- وكيف لي أن أعرف!.. - تلثم قدان غير عارف تفسيراً لما يسأل عنه وما يسمعه، نادماً على مجيئه، ثم اختتم: - ربما تنقِّس عن ضيقك!
- عرفت! - صاح قانشاو ثانية بصوت عالٍ، ثم رسم الصليب لنفسه وأخفى بصوت وقور: - يقال إنك إن قابلت المجنون روى لك أخباره وإن لم تسأله

عنها، ولكن لا تأخذ عني هذا الانطباع! أنا عندي حزن وعار لا يردان. ولكن ليس هذا ما يلجمني. تعاور على قلبي كثير من المشاعر، كيف أدير ظهري لهؤلاء الذين عاملوني بهذه الإنسانية، واحترموني كل هذا الاحترام؟ هذا ما ردعني، ولكن لن أؤذيكُم مهما جرى. ولن يهدأ لي بال إلى أن تعثروا على ردد. وها هم الروسيج الذين أعيش معهم عندهم أمير وجيش، ويشغل بالهم حماية دولتهم ونشر النظام فيها. متى عثرتُم على ردد فستكون عندكم أيضاً دولة. حمل ابن أختي مشروعاً جيداً ولكن لم يسمحوا له بتحقيقه... فإن وقفتم إلى جانبه متضامنين دون شقاقيات داخلية كنتم محظوظين.

- لا نألو جهداً يا قانشاو، - نظر قدان في وجه مضيفه بعين الرضا لأول مرة.

- لا تدع الطعام يبرد. أنا أثرتُ فأحول بينك وبين الطعام. ولا تتصور أنني نسيْتُ أهلكنا إذ اعتنقْتُ المسيحية. - قَرَّب قانشاو الأطباق إليه بكل لطف. - أمسِكْ بهذه الكأس، تفتحُ شهيتك.

- لا، لا حاجة لي إليها، - أبعد قدان الشراب، ومد يده بحذر إلى الضلوع المشوية ولو أنه كان جائعاً. ونظر بطرف عينه إلى قانشاو فحَمَن من وجنتيه المتوردتين أنه منتشٍ، ولما اقترب منه شَمَّ بعض الرائحة. وخطر له نحوه عتبٌ - نفور، ولكنه أبعد: " صار مثل من يعايشهم، لا عجب في هذا!"

- لا إخراج يا قدان إن لم ترغب فيه، - سحب قانشاو الكأس وأعادها إلى مكانها. - وها نحن جئنا إليكم بحجة الإتاوة فلما عرَّجنا على الحكوف طاردونا. وما فعلوه بنا نستحقه. من يسمح لك أن تمد يدك إلى عنقه وهو في قوّته! والروسيج جماعتي لم يحاسبوني على هذا.

- يسرني أنك تفهّمت هذا، - نظر إليه قدان وهو ما يزال يأكل، - ونحن بشرٌ مثُلنا مثلُ الروسيج والخزر والروم وغيرهم. ونرغب أن نعيش ونحن نمارس عاداتنا، وقراراتنا بيدنا.

- وأنا لستُ ساذجاً فأشرب الماء من أنفي، أفهم كل شيء ولكن عليك أن تفهم موقفِي... - قال قانشاو، - على ما أراك يا قدان لست ضيفاً ينوي المبيت، لابد أن عندك طلباً.

- قابلتك فأنتهيث مهمتي، - قال قدان وهو يفرغ من تناول الطعام، - لو عدت دون مقابلتك وقد وصلت إلى هنا لعتبت عليّ رامبس السيدة الكبرى.

- هذا رأيك! - أنارت ضحكة خفيفة وجه قانشاو.

- أهذا كلام؟ ألم تلدكما أمّ واحدة؟ حين عرفت السيدة سبب مجيئك إلى نواحيننا قالت لك ما يجب أن تقوله. ومن الناحية الأخرى لا تستطيع أختك إلا أن تتألم لأجلك.

- صحيح، صحيح يا قدان. وأنا لا أضمر لكم إلا الخير. إن عاد كولس وتيمرقوه وردد وقد حققوا نواياهم فهنيئهم وعلى رأسهم أختي.

- اعتبر طلبك قد ليّ، - نهض قدان، - سأستأنف رحلتي على مبدأ: متى أكل الضيف نظر إلى الباب.

- كان يسرني جداً لو أقمت عندنا ولكن أمانك طريقاً طويلاً، - نهض الرجل الطويل النحيل قانشاو من المائدة ومعه عدد من الجنود وودعوا قدان إلى ظاهر المدينة.

VII

ومن قلب الخير يمكن أن ينجم الشر!

ظهر بين الناس الذين سمعوا بخبر الحصانين اللذين أنفق نخلش عليهما ذهبه من صدوقه ومن لم يصدّقوه. ومن اكتفوا بالابتسام أو صمّوا آذانهم ليسوا قلائل. ومن حوّروا الخبر إلى ما يريدون أكثر وأكثر. وكان بين الناس من لا يجرو أن يقول "وراء هذا الخير لُغزٌ ما، ما كان نخلش ليفعل هذا إن لم تكن فيه مصلحته..." فيهمسون بينهم وبين أنفسهم. ولكن لم يظهر أحد يقول لنخلش: ما تفعله خير، أو ما تفعله شرّ. ومن سخر منه في غيابه، و لوح له بالقبضة في ظهره مهدداً، وتظاهر بالفرح في حضوره. ونخلش، وإن بدا غير عابئ بما يقال في أي مكان، ظل مغلقاً أمام الجميع يللم سرّه باستمرار، ويجلّ صورته. ولكن بعد الظلام يأتي نور، ومن معروف الشمس ينتج شرّ.

حين وصل ما أثير من كلام حول حصاني كولس وتيمرقوه قال ناسياً جرمته ضد ردد: "يقولون عليّ أول ما يجري على ألسنتهم بدلاً من أن يشكروني". ثم

غضب وقال "تشفيت من الأمير ردد ولست نادماً على ما فعلتُ لولا أن خدعني أسباروخ العين". وفيما أفكر في أن أفعل به ما فعل برفاقه اقتيد الشاهد الوحيد لدي إلى ما وراء البحار. والعجوز الروسيح أخبرني أنهم عبروا به وهو يملأ الدنيا صراخاً. والحق أني لا أعرف أحداً تجاوزوا به البحر وعاد إلا كولس الحكيم الكبير... - وفجأة أُرعبتُ نخلشَ كلمائته: - أقول هذا ولكن ماذا إن التقى به كولس وصاحبه في إحدى أسواق النّخاسة؟ أشدّ المشكلات إلحاحاً عليّ الآن هو كولس ورفيقه... وجماعة حقار الذين نجا منهم المسلم الحاج؟ كيف تحيا على الأرض إذن لا تثق بأحد؟ - نهر نفسه وجزم لها بالجواب باختصار: - ستعيش! أقول لهم هنا: افرحوا إذ جئكم بحيل كبارنا دون أن أسمح لعجوز الروسيح أن يبيعهما لغيرنا، وما يشيعونه عني شيء آخر رغم أن قدان شاهدي. لا فائدة من أي معروف تقدمه لهم... ما سأفعله بهؤلاء واضح في ذهني لو فهمني الحكوف وساندوني..."

- ماذا جرى لك يا نخلش حتى تتكئ على الجدار شارداً؟

- هذا أنت يا بشماف، انزل عن حصانك وتفضل!

- بيتك عامر! أنت الوحيد الذي وجدته حين درت القرية يا مبارك النسل، هيا اركب معي!

- هل هناك ما يُقلق؟

- لو كان ما يقلق أكان حصاني يقف أمامك مطمئناً؟ هل مضى وقتٌ طويل على مغادرتك مزبه؟

- جئت منها البارحة؛ ما الأمر؟

- ألا تركب يا نخلش بدلاً من أن تقف وتناقشني؟ هيا اتبعني! - أدار بشماف رأس حصانه وانصرف.

"ماذا وراء هذا الرجل؟ الوقت لا صباح ولا ظهر ولا مساء! غضب نخلش في قرارة نفسه، وأخرج حصانه الجاهز دائماً من الإسطبل، ثم شدّ حزام البطن وركب. - أفسدنا مُسَيِّنا إذ ننقذ لهم أي كلمة تخرج من أفواههم... إلى أين يصطحبني الآن؟ لم أذق لقمة منذ الصباح. وهو سيبدأ يقول: عجوزي، موقدي، ولدي القليل..."

لم تحلّ السنة الجديدة بعدُ. غير أن الجو بارد حتى لتشوي الرياح الأنوف. وتتناثر من تحت حوافر الخيل تُنف الثلج الرقيق الذي بدأ يتساقط الليلة ثم توقّف. و ينتشر السواد فوق الغابة التي ليس فيها أوراق أشجار متساقطة. والبراري خالية لولا أن الأرانب تقفز أحياناً من وراء الأجمات. والجبال التي تبدو من بعيد على الساحل ارتدت ملابس الثلج. والسماء المشتاقة للغربان زرقاء عالية تزحف فيها غمامات بيضٌ. والشمس الباهتة تزحف بطيئة على الجبل الشرقي. " لن أسأل العجوز الذي يصطحبني مجادلاً إياي، وسأدعُه يفعل ما يشاء... - دمدم نخلش الآن أيضاً في سِرّه، وخرجنا من مستخفوه ملازماً مكان الأصغر دون أن يلتقيا في مستخفوه بأحد. ووصلا إلى مرعى فُجاي.

- ألا ترخّب بمقدم الشمس يا نخلش! - عاتب بشماف رفيقه.
- كانت الشمس بدأت تظهر للتو من وراء الجبل حين حيّيت شمسنا، ولكن سألها الآن أيضاً إن كنت ترى هذا، وسأتضرع إليها، - غالب نخلش غضبه، وعلق الزمام بطرف السرج، ورفع يديه إلى السماء، - احملني إلينا نهاراً سعيداً، ويسّرني لنا الطريق العُقل من الاسم الذي دُعيت إلى السير فيه إن كان خيراً أم شراً. ولا تأتني في طريقنا بمن لا يُكرُن لنا الخير!

- وهذا كلامٌ حسنٌ كاملٌ يا نخلش، - ضحك بشماف في سِرّه، - حقّق الإله نواياك! نتجاوز فجاي التي أود أن تصلي لها بالإضافة إلى الإله الكبير.
- فهمتُ يا زعيم الخير، - ابتسم نخلش أيضاً، وأضاف كمن لا يبالي: - شُفيتُ إصبع رجلي الصغيرة. ربما اصطحبتني لتذكّرني بها!

- لا، لا، جرى ما جرى وانتهى. - قال بشماف بعدما مشيا مسافة، - لا تتعثر بالحجر الذي رميته أمامك!

حاول نخلش أن يضيف شيئاً إلى ما قال بشماف ولكن العجوز المرتدي فرواً قصيراً من جلد الثعلب - الذئب، الرمادي - الملوّن، لاذ بالصمت من جديد. ولأول مرة انتبه نخلش إلى أنه يلبس كاسيتي ساق وقفازين من اللون نفسه. واستغرب أن الحصان ليس ملوناً أيضاً.

"هؤلاء، - قال نخلش - أسمّعهم الآن شيئاً لا يعجبهم، أو ليبروك عملت ما يشين، يربُّوك من جديد، بل يرتابون في عقلك. انظر إلى لباسه ولا تضحك إن

استطعت!.. لمثل هذا قالوا: المجنون يجب الملؤن. يقول لي: لا تتعثر بحجر رميته في زمان ماضي. لو كنت أسمح لمثل هذا أن يحدث لي لكانت حياتي عبثاً. أظن هؤلاء نسوا أنهم كانوا يؤدعونهم في يقطينة، وتتقاذفهم الكنائن بالأرجل متى هرموا. كلما احترمتهم وقدرتهم زادوا دلالاً. يُصرون على أن نتقبل كل ما يقولون. طلب مني الركوب كما لو كنتُ مديناً لوالده! وهل كولس وغجس أحسن منه. والمسنون من القرى المجاورة ليسوا أحسن من هؤلاء. وهل عند ردد الذي ما يزال أنفه يسيل من الخبرة أكثر ما لدي؟ ابتلاه أمثال كولس بأن أقنعوه بأنه من سلالة أمراء فورطوه في مهلكة لا نجاة له منها. يكفي رد فعلهم حين يرونني! من سيعيل هذا الأمير مع كل جسامته؟ ليس بعيداً أن يقتلوه في زاوية ما وينتهوا من أمره. ونحن هنا مهمومون بأمره إذ يتابعه كولس وصحبته. هيا يا نخلش إعمل في مسعى الإمرة، وارك التفكير في ردد وأسباروخ...

- ألا تقول شيئاً يا نخلش؟

- طلبت مني ألا أسأل فصمتُ.

- هكذا! - اصطنع العجوز بشماف سعةً دون الاهتمام بنخلش. - ثم أجاب وهو يحث الحصان بعقبه: - حسنٌ أن بدأت تتحلون بمثل هذا الاحترام للكبار.

- الحق يا بشماف! - شد نخلش اللجام غاضباً فأوقف الحصان، ثم لحق برفيقه. - ما كنت أريد أن أصرح بهذا يا زعيم الخير... - انكسر صوته ولكن لم يملك إلا أن يسأل: - هل تهينني عمداً؟

- ماذا يقولون: من يتلق إهانة يجد الوقت للانتقام، - أعاد العجوز حصانه إلى سرعته الاعتيادية شيئاً فشيئاً، - لماذا أتى إليك إذا كان عندي مثل هذه النية؟! - ومن أين أعرف! - أخاف أن يتصور الكبار أن في الحكايات التربوية التي يروونها عسلاً أكثر مما ينبغي.

- صحيح يا نخلش صحيح، لا تجاملني! يستوي أن تكثر من ماء العسل ومن أكل الباستا. ولكن لا يوجد دُخُنٌ جديد من دون قديم. والتي تلسع هي النحلة التي تعرف حلاوة العسل ومرارته... لا تضعفوا أمام وخزات الكبار التي يقصدون بها تربيبتكم إلى الأحسن. أراك اليوم في مزاج سيئ؛ قل لي نفكر معاً

إن كنت أنفعك. لا يتعلق مثل هذا الأمر بكبير أو صغير إن توفّر التفاهم.

- الكلام يا زعيم الخير هو ما يخطئنا وما يأكلنا. - كان راضياً بافتتاح الحديث العاجز هو عن افتتاحه، - حين أبعادوا عنا الأمير ردد نجمت في القسوغ أقوال كثيرة لا ضرورة لها. ساجني يا بشماف، ثم إذا تدخّل الكبار أيضاً في الموضوع... جرى لي ما جرى للرجل الذي قيل فيه "معروفي انقلب نحساً عليّ، وجاري صار عدوي". وكيف كان لي أن أتجاوز حصاني كولس وتيمرقوه اللذين تعرّفا إليّ وهما حيوانان! اشتريتهما من توم تقاش بشهادة قدان، وأعدتهما إلى أصحابهما فنشروا الخبر قائلين: لولا مصلحته الشخصية لما فعل هذا، وحملوا الخبر حتى إلى خارج أرض القسوغ. ولم يعد المسلم الحاجّ يخالطنا، كنت سأسأله في حضرة القسوغ: يتهموني بما حدث للتجار العرب قبل سنوات. وكنت رافقت قانشاو حين جاء من أجل الإتاوة فأشاعوا أنني أنا من جئت بهم. وكنت نافست ردد نوعاً ما في الإمرة فلا يُستبعد أن يتهموني في اختفائه. إن حدث مثل هذا فلا أعرف وقتها!..

- إهدأ، وإياك أن تقترب خطأ ما يا نخلش. - قال بشماف بنبرة لا تعرف معها إن كان يؤكّد عليه أم ينصحه، وأكمل كلامه: - وأنا أسمع شيئاً من هذه الإشاعات، غير أنني لا أمتنع لهذا السبب من مرافقتك ومحادثتك. ما سبب تسمية جدّك لك بـ "نخلش"؟¹

- ربما كان يريدني أن أصبح قوياً مثله.

- حقاً، وصرت أقوى من جدك. ولم يُجانبك طُبه. وهو حاضر في شكل وجهك، وفي أعضاء جسدك، وطريقة كلامه، وضحكته.

- ولكن ما فقدته هو عقل جدي. أكمل نخلش ضاحكاً ما كان يتورّع عن ذكره بشماف.

- وهل تعرف هذا في نفسك؟

- إن كنت أعرفه يا زعيم الخير فأنا أستحقّ كل ما يقال عني... ولكن لا يشبهوني بالذئب الذي يُتّهم بما جناه وما لم يجنه! وإن شَبّهوني فلا بأس:

¹ يعني الاسم: أقوى، بصيغة اسم التفضيل.

الذئب قوي وعافل وخبيث. ولُيعرفُ من لا يعرفُ أنه لا يصيد في الجوار، ومن يعرفُ لا ينسَه! والآن لِننتهِ يا زعيم الخير من هذه المماحكة، وصارِحني بالمهمة التي تصطحبني لها، فقد حان وقت الكشف كما تقولون أنتم الكبار. وأنا مهموم أيضاً بسؤالك عما إذا مضى زمن طويل على وجودي في مزبه.

- نعم يا نخلش، نعم. تُدَكِّرُنِي بِجِدِّكَ الرجل الممتاز. لم أصطحبك لأجادلك ولا لأعاتبك، بل لا أريد اختبارك. سألتك عن وجودك في مزبه لأني سمعتُ أن عُجْبَس يُحتَضِر، نريد أن نسأل عنه.

- لا تَهْتَمِّ بهذا يا بشماف، - بدا على نخلش عدم ارتياحه لسؤاله عن العجوز، - من تجرّع لأجله عنده روحٌ نسيها الموت. اجتمع عنده عدد من المسنين لكثرة ما ردّد أنه سيموت، فصارت جماعة مشقوه يرتّبون أمورنا في القسوغ فاغري الأفواه... لو عرفتُ لما رافقتك، كنت أنوي زيارة الحكوف.

- إن كان هذا رأيك يا نخلش فلا أفرض عليك، بإمكانك أن تعود. لا عتب عليك!

- لن أكون في حضرتك نصف نبيل يا زعيم الخير. ولا سيما أن أعداءنا لا يقصِّرون في حقنا مهما فعلنا. ولكن إفهمني لن أخفي عنك ما في نفسي. - الأمر الوحيد الذي كتمته عني، - تظاهر بشماف بالضحك، - هو سبب عتَبِكَ على المسنين.

- وهذا الأمر كأني أفهمُك إياه يا زعيم الخير... - ابتسم نخلش، وعلى عادته تابع الحديث مغمغماً: - حسناً لا أعرف ماذا سينفعنا مُسنونا إن لم نتعَتَّر بهم على رأي أحد أصدقائي الأعزاء.

وبعدما مشيا مسافة استأنف بشماف الحديث كمن يكَلِّم نفسه:

- كيف تُفهم أحوال عالمنا اليوم لمن لا يعرف العالم الماضي! - ثم سأل: - هل سمعتُ يا نخلش القول المأثور: " متى هَرِمَ الثور ضَمَّوه إلى العجول "؟ لو كنت سمعتُ لما قلتُ ما قلتُ في حق المسنين. اسمع حكاية وصلتنا من مُسنينا قبل أن تقول لي "من يهرم يتحول إلى راوي حكايات، وإن لم يُصِتوا إليه يغضب". القسوغ عرقٌ قديم من الناريتين الأديعة. وهم معَمَّرون. حين أخبروا أحد المسنين بأنه سيعيش مئة عام أجابهم: لن أشرع في بناء بيت في حين لن أعيش

إلا هذا العمر. ومرّ بنا زمان كانوا يحزمون فيه المسنين في المهود، والكنائن يعتنين بهم كالأطفال الصغار. وحين تمّز الكنة الصالحة المهدي تغني له: "لاي مَهْدِي، لاي - لاي ذهبي... "ومتى وصل الدور إلى الكنة السيئة غنت وهي ترجّ المهدي ومن فيه: "لاي - لاي مهدي، ومن سيموت فيه حمي... " وكان العجوز يقول لها "لا تقولي هذا يا كنة، سلفتك حلوة الكلام ". وهكذا متى صغر حجم العجوز جداً أسكنوه قلب يقطينة صغيرة، وعلقوها بالعمود، يقول العجوز: "ماء اليقطين كثيف جداً يا كنة وبارد، حتى دون هذا نحن من عزّقي هسّ الأرواح"

- انظر إلى عناد هذا العجوز! صرخ نخلش، - لا يزال متعلقاً بالحياة!
- بديهي أن روح كلّ إنسان حلوة له، ويجب أن يعيش. - وافقه بشماف، وأكمل حكايته: - كانت الكنائن يُنزلن هؤلاء من الأعمدة في كل وجبة ويطعمنهم. وهكذا مرّ عصر من عصور النار. والآن جاءهم عصر جديد كما تصف أنت. وظهر آخرون يمكن أن يقولوا وأن يفعلوا أشياء أخرى. " المستون يلهونك عن العمل، وكنائنا يعطلن أعمالهن عبثاً. فقرروا أن يرموهم من الضفة العالية للوادي".

- بريك هذا ظلم، هذا لا يجوز! - غضب نخلش الأصهب الآن، - صحيح أنا أعاتب كبارنا ولكن هذا عيب في حق الكبار.

- وكان عندنا مثل هذا العصر ولكن الناس مختلفون في سرائرهم!- ثم استأنف بشماف: - وهناك حكاية تدور حول إلقاء المسنين من الجرف. وضع أحد الرجال والده في الكيس وقلبه يتألم. وعثر في طريقه إلى الجبل بحجر، فضحك العجوز من قلب الكيس: " لماذا تضحك يا والدنا؟ " أجاب العجوز: " وأنا عثرت بهذا الحجر وأنا أحمل والدنا... "، قرر الرجل أن يُخفي والده في الجبل ويعتني به هناك قائلاً: " هذا ما سيحدث لي مستقبلاً " فسأله يوماً: " ما الأخبار في القرية يا ولدي؟ " قال الابن: " رأى المجتمعون للدعاء تحت شجرة جرة ذهب كبيرة في الماء، فارتموا فيه وبحثوا عنها ولم يجدوها. واليوم جددوا بحثهم، فلما تعكّر الماء خرجوا، ومررث بهم وهم ينوون العودة متى صفا الماء. والجرة موجودة في الماء حقيقة وأنا رأيتها "، قال العجوز: "أصدّقك يا ولدي"

ثم أضاف: يجب أن تكون الجرة لمن يعثر عليها ولذلك ستجدها أنت يا ولدي. عدْ إلى المكان، ولا تتوغل في الماء بل تسلّق الشجرة. الجرة في الشجرة، وما يُرى في الماء ما هو إلا ظلُّها"

- وهذا ذكاء! - لم يملك نخلش إلا أن يقاطعه.

- استغرب أهل القرية جداً طريقة العثور على جرة الذهب، - اكتفى بشماف بالابتسام ولم يقطع حديثه، - وسأله والده حين أخذ له العشاء: - "هل عثرت عليه، حسناً إذ وجدته؟ ما الأخبار الجديدة أيضاً؟" "الآن أخبار تتعلق بالبلاد، - أجابه، مات ملكنا فقرروا أن ينصّبوا مكانه أول من يشهد شروق إلهنا العظيم - الشمس. ولكن كل المراقبين يرون شروقه معاً". قال الأب: "اخرج إذن مع المراقبين، ولكن قف على ضفة الماء. وأخبرهم حالما تراه". نَقَذ الابن نصيحة والده في الليلة التالية. فنصّب الناس ابن العجوز ملكاً عليهم لأن اتفاقهم كان صارماً".

- على ما يبدو يا بشماف. أيها الزعيم المبارك، - استغرب نخلش ما سمع، - فإن الأب هو من استحق لقب الملك، لا الابن.

- مهلاً يا نخلش، مهلاً. لا تتعجل الخاتمة. العجوز يستحق المنصب ولكن اسمع ما أمر به الابن، جمع رعيته وقال لهم: "أيتها الرعية، من جعلني أعثر على جرة الذهب، ومن ساعدني على رؤية شروق الشمس هو والدي الذي لم أرم به من الجرف وخبّأته في الغابة. تجارب مسنينا كثيرة وعقولهم كبيرة. ولهم فوائد عظيمة علينا وعلى الشباب. علينا أن نثمنهم ونعني بهم ونوقّرهم. أمّرُ بالأمر من يشيخ بعد اليوم من الجرف، بل يعزّز ويكرّم إلى أن توافيه المنية".

اختفى الفارسان وراء المنعطف ولا صوت يُسمع في العالم غير وقع الحوافر الذي ينثره الحصانان وراءهما. ولما وصلا إلى ظهر المرتفع لم يُطق نخلش الأصهب صبراً:

- يا بشماف، يا زعيم الخير، رويت لي حكاية جميلة، ولا أنكر ما فيها من حكمة. - قال بفمه، ولام العجوز في سِرّه. وسخر من نفسه إذ تظاهر باستغراب ما سمعه وإن لم يكن جديداً عليه. وقال: لا يمكن لكم أن تحببوني بأنفسكم بمثل هذه الحكايات: منذ اليوم الأول لا تريدونني ولا أريدكم!

- سيتعلق تقييم هذه الحكاية بكيفية فهمك لها. ولماذا تؤلف حكاية بلا مغزى وتصدع بها رأسك!

- صحيح، صحيح... - وافقه نخلش بنبرة شبه لطيفة ولكنه ردّ ورأساً كتفيه يرتفعان رغماً عنه: - لا أظنني الوحيد الذي سردت له هذه الحكاية...

- ولماذا تكون الوحيد؟ لا تؤلف الحكاية من أجل شخص واحد. كل شخص يجد فيها ما يناسبه من حكمة.

- ولكن مع ذلك يا زعيم الخير... - ما إن بدأ نخلش وسيلة لمماحكته حتى أسكتته الفارس الذي ارتقى المرتفع: - هذا هو قدان؟! لماذا كل هذه العجلة؟ - يبدو أن هذا الرجل يحمل خبراً ما، - قال بشماف وسأل القادم: - ماذا في المكان الذي تأتي منه من أخبار؟

"إن لم يحمل خبراً ساراً يتعلق بردد الأمير فلن يهمني لو أخبر بأن مزبه كلها خسفت بها الأرض" خاطب نخلش نفسه بما يُهمّه دائماً.

- المرحوم غجبس رحل عن الدنيا. - قال قدان.

- هذا ما يجري لنا... - حتى الخبر الفاجع رأس بشماف. - كنا في طريقنا إلى عيادته فإذا بنا نحضر جنازته... - لينترجل: كان أحد رجال القسوغ!

"وهذا كان من أنصار ردد، لم ينفعني في شيء... - " - طفا هذا الخاطر في ذهن نخلش ممزوجاً بفرحه وغضبه معاً. ولكن سرعان ما غيّر مزاجه فقال بصوت وقور:

- هكذا سقط واحد من رجالنا الذين كنا نستمد منهم الحكمة كما قلت يا بشماف. ما العمل، حريتنا محدودة في هذا المجال. لا أعرف فيم نفكر. ماذا يمكن أن تستفيد من الصبي الذي نصبّتموه مكان ردد. وكولس غائب عن الديار، ولكن عندنا وقت الضرورة السيدة الكبرى رامبس. عقلها هو من يقوم بأمورنا اليوم.

- لا داعي لكل هذا اليأس، - استلم بشماف دفعة الحديث من نخلش بصوت منكسر يرفعه بصعوبة. - لن تتخلى عنا آلهتنا. وستعيننا في العثور على أميرنا. وتستقيم أمورنا.

- بارك الله في حديثك يا زعيم، - أجاب نخلش مرعماً، وسخر منه في سرّه:

- "ستنتظر أميرك طويلاً؛ افرح إن التقيت به في معبر الأموات"¹

VIII

نهار هادئ، وثلج ناعم يتساقط.

استقبل ججان الفارس الذي توقف عند الباب بلا حرارة، قائلاً إنه أحد من سيلوموني، ولكنه أخفى مشاعره بالرياء:

- الحمد لله على السلامة يا قدان، انتظرتك ولو أنك عدت إليّ بحصان جدّي. كنت ضيفاً، حسب أخبار نخلش، عند قانشاو عدو القسوغ.

- صحيح ما يقال "لا تعتقد أن لا أحد يسمعك في الظلام، ولا يراك في البرية!" - أجاب قدان باسمّاً، قائلاً في نفسه: "ما أسرع ما أوصل لهم أخباري!" أنا شاهد على أن نخلش اشترى حصانيّ كولس وتيمرقوه ممن كان اشتراهما. ولكن لا سِرّ في زيارتي لقانشاو.

- لا أقول إنّها كانت سرّاً، - يتظاهر ججان باستدراك كلامه، ولكنه لا يغير موقفه، - لم أملك إلا أن أستغرب مقابلتك لقانشاو لأن نخلش أيضاً لم يعرف السبب.

"منذ متى بدأ هذان: ججان ونخلش يتفقان؟ - سأل قدان نفسه واستياؤه غالبٌ، راغباً عن إثارة ارتياب محادثته. - لا يسأل عن جدّه، بل مهموم بنخلش: قال كذا، فعل كذا... ولا يهتم إن كان صديقه ردد حياً بعد أم لا. كل القسوغ مهمومون بهذا، وهو، كما يقول جده مولع بالفتاة. ماذا جرى لك يا رجل فلا يردعك شيء! هل سقاك نخلش الأصب ما يذهب بعقلك؟! يبدو أن قولهم: لا تتحرك قشة دون ريح، صحيح وإن لم أكن أصدق ما كان يلمّح به لي مشقوه وأغبان، بل تراب أيضاً. وهذا هو السبب في سفر كولس وقلبه في الديار... وأينار؟ ما أسهل ما تخدع قلب الرجل! وهذه لا يُستبعد أن تكون نسيت ردد الذي انقطعت أخباره إذ أن قلب المرأة غير موثوق تماماً. أ تكون تتصرف معه على نحوٍ يُطمعه فيها؟ لا أعرف وقتها... "

- ألم يخبرك نخلش الأصب بلقائه بقانشاو إذن؟! سأل قدان وقد أغاظه كل

¹ ترجمة حرفية توحى بتصورات الإغريق للموت والموتى.

ما سمعته، وجوابه حاضر: - لست وحدك من كتم عنه الخبر، بل عني أيضاً.

- لا خبر عندي... ما تقوله أنت وما يقوله نخلش لا يتوافقان.

- ألا تثق بي؟

- ولماذا لا؟ ولا يمكن ألا أثق بنخلش أيضاً.

- لم آت إليك يا ججان لمناقشة موضوع نخلش!.. - احتد صوتُ قدان رغباً

عنه، ووجد في نفسه القوة ليتحكم فيه: - ساعِني لأني لا أتكلم في ما لا

أعرف. من يمكن أن يشهد على خبري هو قانشاو. ولكن ليس هذا من شأننا

أيضاً. ما جاء بي إليك أمراً آخر... - كان قدان متردداً: "أخبره أم لا؟

سيفهمني أم لا؟" ولكنه أزاح هذه التساؤلات وكشف عن سرِّ إرسالهم إياه: -

سأبدأ بعثي عليك لأنك أصغر مني عمراً: أتعجب من عدم سؤالك عن جدك

المسافر إلى هذه المسافة البعيدة!

- عندي أخباره، - بدا على ججان استياؤه من جده. - جاءني بها نخلش.

- وبم أخبرك؟

- أخبرني أنكم ودّعتموه عند بانتيكاليه على بحر أزوف.

- كيف استعداد نخلش هذين الحصانين لو كان معنا!

- قابلكم وقد بعتموهما فلم يستطع أن يتركهما. - جزم ججان كأنه كان معهم.

- أنت على ما أراك، لم يستطع قدان إلا أن يغضب، - لن تفهم ما نقول

لك، بل ما يقول نخلش.

- اتركوا هذا الرجل بحاله، كفاكم!.. - احتد ججان، - وجدّي أيضاً ليس

صالحاً. تخلى عن رجل مثل نخلش واصطحب قاتِل والدي. جعل القسوغ كلهم

يسخرون منه... لن أكنتم إذ بدأت: لماذا نصّبتم، وفي طليعتكم جدي، من لا

نعرف أصله مكان ردد؟ هل عجيب إن كان في الدار أميرٌ ينادونه يا ولدي،

يا أخي الصغير؟ وإذا كانت رامبس التي تتدخل في كل شيء تحامي عنه بكل

قوتها؟

- ججان!

- اسمعوا بعض ما نقول - اعترضه ججان، - وإن لم يعجبكم كلامي... نعم

حين رُشِح نخلش لقيادة الحرس تظاهرت بإجراء القرعة فاخترتم مشقوه... وأنا

بهذا المقياس لم أكن بعيداً عن ردد ولكن لم يرد اسمي... بل إنكم لم تساووا نخلش بقائد الحرس أغبان الذي عينتموه في قلب دار الإمارة. وربما لو اتخذتم نخلش قائداً للحرس لما حصل ما حصل. وتبحثون وراء البحر عن ردد الذي أزهقت روحه منذ زمن بعيد. لا تستغرب يا قدان، ليس نخلش وحده من يتكلم في الموضوع بل القسوغ كلهم. والدته وحدها هي من لا تصدّق أن ولدها فارق الحياة. وهذه أليست أمّاً؟ كيف تعتب عليها؟.. ولكن ما فعلته بحق أبنار لا يليق بها.

- وماذا فعلت؟ - ارتعب قدان مما سمع.

- من بيده السلطة يجد تسويغاً لأي تصرف، - ابتسم ججان ابتسامة مرائية، - ضمّت إليها أبنار بذريعة أنها كانت حبيبة ابنها...

"على ما يبدو، - قال قدان، - تجري في مزبه أحداث كثيرة لا علم لنا بها، وفي القسوغ التي غابت عن عين الإمارة. نتعجب من شيء فيظهر ما هو أعجب. من كان يدري أن ججان سيصدر منه مثل هذا الموقف من ردد؟ تبين هذا الرجل عما لم نتوقعه، لا كولس ولا نحن... لا يتوقف عند مغازلة الفتاة بل يرتب شؤون الإمارة. وينصب نخلش في مجاهمتنا. وأعتقد أن عنده أنصاره الذين يدفعونه إلى هذه المواقف. لا بد أن حقار وشنبه ونطاي وراءه. أما الحكوف فيسترقون النظر من وراء الجبال، ومن خلل الغابات. يجب أن أقابل اليوم السيدة رامبس ومشقوه قائد الجيش. من وراء ما قاله ججان وما لم يستطع قوله هو نخلش الأصهب بلا جدال. الولد فقد عقله من أجل أمل يائس. ولكن أكون بجواب؟.. إذا كان هذا فلا أعرف ما أعلق به على ما فعلت رامبس..."

" - ثم أفلت الكلام من قدان كأنه يكلم نفسه:

- يبدو أن الغائب تأكل الكلاب حماره، - همّ قدان بالانصراف متوهجاً.

- تنصرف دون أن تبين عن هدفك من الزيارة، - استعجل ججان.

- وكيف لم أكشف عنه؟! - التفت قدان بنظرة قاسية، - اهلّت عليّ من عندك بما يخصني وما لا يخصني. وأطلعني على نواياك. توقعت أن تكون من أوائل من يساندون ردد فإذا بك تصدّق الإشاعات التي أذاعوها عنه. لا يليق بك تعبيرك عن نوايا نخلش وأنت تعرف من هو، وتحقق له ما يريده تماماً.

ولست على حق في شأن تيمرقوه. لا تتصرف وفق تفكير نخلش الأصهب.
وبدلاً من أن تساند رامبس البائسة في محنتها تتهمها بما يأتي على رأس
لسانك. ليس هذا من الرجولة؛ عُدْ إلى وعيك!

- وهل من الرجولة أن تضمّ أبنار إليها؟ - انفجر غضب ججان مما كان
يشغل باله.

- رامبس ليست من النوع الذي يمكن أن يفعل هذا.

- إن لم تصدّق فاسأل أول من تصادفه.

- ججان، ما كنت أود أن أقول هذا، ولكن توقّف عن مناكفتك! - استدار
قدان وخرج لائماً نفسه على زيارته.

"انتظروا نخلش شهراً حتى يمكن إمرته في الحكوف، - قال ججان من النافذة
في إثر المنصرف، - ونرى بعدها ما يحدث لكم!..."

ضحك قدان إذ كان من التقى به وهو يسير في الثلج الناعم هو مشقوقه.

- مرحباً يا قدان. قل لي ما الذي يُضحكك قبل أن ترد السلام.

- ما لمح لي به ججان قبل لحظات.

- وهل أنا المقصود بتلميحه؟

- لا.

- أنا وججان على خصام منذ أن سافرتم.

- وماذا جرى بينكما؟ - سأل قدان عما كان يشك فيه.

- قبل أن نفهم أنا وأختي الصغيرة آنست وأبنار ما جرى دخل بيننا نخلش.

- ضُمني أنا أيضاً إلى صقكم إذن.

- كيف إذن أمضيت مل هذا الوقت في مضافته؟

- وجب عليّ لأني نقلتُ إليه وصية كولس.

- وهل فهمها؟

- لا أظنّ.

- تعال، رامبس تنتظر. لا تبدد أملها في ردد وإن كان نخلش نقل أخباركم
إليها.

- أتساءل يا مشقوقه، - قال قدان بعدما سارا مسافة، - ما أكثر الأخبار التي

تحوم حول نخلش!

- وهل تعرف نخلش الآن فحسب؟ حوله من الأخبار بمقدار ما يُشيع عن نفسه.

- وهذا صحيح، والآن إذ أنت أول من صادفني سأسألك عما قاله لي ججان: هل حقاً صُنّت رامبس السيدة أينار إليها؟

- صحيح كالثلج الناعم الذي يسقط.

- بالإكراه؟

- فكرتُ في أن آخذها إلى بيتنا لأنها صديقة أختي آنست، وبرعاية أمنا، ولكن هواها كان في رامبس. تربيها وتُنشئها كأنها ابنتها.

- إذا كانت أينار تصرفت هكذا بإرادتها، - صاح قدان، - فربما كانت الآلهة كلّمتهَا، هناك أمل، وردد حيّ.

IX

من يركب طريقاً لا بد أن يصل. أثبت الناس صحة هذه المقولة. ولكن كولس وتيمرقوه اللذين عبرا بحر آزوف بسهولة وتجاوزا بانتيكاليه لم يستطيعا أن يتجاوزا فيودوس.

فيودوس من بين المدن البيزنطية المتناثرة على الشاطئ الغربي للبحر الأسود واحدة من هبات الآلهة كما يقول الروم. وبالقياص إلى المدن الأخرى فمرفأ فيودوس التي يسكنها قرابة عشرين ألفاً، ويجري تناقل مئات الأسرى فيها، والتي لها شكل نعل الفرس، تحميها من العواصف والرياح المتبدلة الجبال العارية.

قال كولس حين رأى المرفأ وما تراه العين ييث فيه ضيقاً ونفوراً، ولو أنه لا يراه للمرة الأولى، ولا يعرف كيف يتصرف رفيقه فيلتفت إليه من مدة إلى أخرى.

- ها قد وصلنا يا تيمرقوه، ولكن لا أظن مهمتنا ستنجح. أمواج البحر الزرقاء المسودة تصدم الشاطئ وقد اكتسبت مظهر ذرا الجبال المتكسرة، ناشرة الرعب في القلوب، ثم تصل كالحصى المتناثرة. وسحابة الشتاء تجمع بين قمة الموج والسما.

"يا إلهي الكبير ما أعجب ما خلقت العالم متداخلاً متآلفاً! - تنهد كولس

وذكرياته تطفو رغماً عنه، - حين عبروا بي هذا المكان وغيروني إلى الورا كنت أودّع بنظراتي ضفة مدينة فيودوس الصغيرة متحسراً. والآن لا أريد أن أدخلها ولا أن أقيم فيها. إن ظهر الآن رجل جسور بمركبه فسأسافر معه. ولكن من أين أتى بمثل هذا الرجل؟.."

- تعال يا تيمرقوه نبحت عن مكان نأوي إليه ريثما يهدأ البحر، - قال كولس بصوت ضعيف، - وجدا بيتاً غير بعيد عن المرفأ وعن سوق النخاسة يقيمان فيه ثلاث ليالٍ.

- أظننا أخطأنا يا كولس إذ غزنا المأوى الرخيص. - قال تيمرقوه وهو ينظر عبر النافذة، البحر هائج، لن يسمح لنا بالراحة الليلة.

- يبدو من كلامك يا تيمرقوه أن صوت الموج يُزعجك. وأنا كنت أشعر بهذا في زمان ما، ولكن لا شيء لا تعتاد عليه.

- يعني أن ترضخ للأسر؟

- أنت أجبت نفسك بنفسك. ولذا اخترت هذا المكان أسمع فيه أنين الأمواج كي لا أسمع صرخات المعذبين وشكاواهم في سوق النخاسة. تعال، لن ننام على جوع. سنتناول ولو كِسرة خبز وماء ساخناً.

- لا بأس! - قال تيمرقوه دون حماسة زائدة، وأضاف: - لم نمد أيدينا إلى الآن إلى زاد طريقنا.

خرج كولس من الغرفة متظاهراً أنه لم يسمع بخبر زاد الطريق. الضباب يغطي الأرض والرياح الممزوجة بنثار ماء البحر لا تنوي التوقف. تهجم عليك من الأمام ومن الورا ومن الجانبين مثل كلب عضوض تحلّص من قيوده. ومهما كان لباسك دافئاً فهي تحرق البقعة التي تصل إليها. وأنين البحر وشكواه يخيمان على المدينة المتناثرة حول الشاطئ. والمساء الخالي من أيّ فرحة يزحف إلى سمائها. ومع أن الشتاء الخالي من الثلج يعرّد فوق المدينة فإن حياتها الصاخبة لا تتوقف. كلٌّ يسعى في عمله راكباً أو ماشياً. الحرُّ في عمله، والأسير يعيش على الأمل؛ هذه حال كلٍّ من على قدميه. أكثر الناس يُعَدّون الطعام ويأكلون، وأقلُّهم يبيعون ويشترّون.

" لماذا خروجنا من البيت في هذه الليلة المخيفة ونحن نحمل زادنا؟ - لام

تيمرقوه واستياؤه بادٍ عليه، ولا تعرف إن كان الكلام موجَّهاً إلى نفسه أم إلى رفيقه. ولكنه استدرك بتبكيك سريع للنفس: - كأني ارتعبت من أول موقف مخيف! لماذا أخذع إذن رفيقي الأسرّ مني؟ ولست مخلصاً إذن لأُمير القسوغ ردد الذي نستقصي أخباره. كان عليّ أن أنسحب بنفسي حين ذكر اسمي في المؤتمر دون أن أزيح أمثال نخلش. ألم تكن في الأسر، ألم تعانٍ؟.. "

- تناسَ يا تيمرقوه أن معنا زاد الطريق، - قال كولس بعدما مشيا مدة فأخرج تيمرقوه من أفكاره المتضاربة. - سنجد أنفسنا في موقف نحتاج فيه إليه... - انظر يا كولس! - صرخ تيمرقوه من بين الأمواج التي تقلب المراكب وتلعب بها كأنها قشور القصب.

- انخفض! ارتقى كولس على الأرض مع تيمرقوه. ولكن مقدمة المركب التي انقذت من البحر صدمت الرجل اليسرى لكولس، وابتعدت، فصاح: - أسرع يا تيمرقوه، والتجئ إلى ما وراء صخرة!

- وأنت يا كولس؟ - التفت تيمرقوه فرأى كولس يجرّ رجله اليسرى. - أظن أن مقدمة المركب أثّرت على ساقي... - قال كولس كمن لم يحدث له شيء. - أجلسني إلى حافة الصخرة... لماذا تحدّث في؟ لا تقلق... انظر، اقتلعت الريح سقف الغرفة التي سنقضي فيها ليلتنا. وتداعت الجدران الطينية! - مطر البحر الذي انهمر فجأة خرّب المرفأ ونثر ما فيه، وهدم البيوت، ثم ارتقى وراء الجبل كأنه لم يفعل شيئاً. وتابع كولس وهو يمسّد ركبته بيده: - ليس وضعي مشكلة يا تيمرقوه، لا بد أن بين هؤلاء من حالته أخطر مني؛ اذهب إليهم!

- وما شأني بهم؟ - لا تجلب لنا العار، اذهب إليهم! - أنا لست متأدياً جداً. ربما تحت الأنقاض أناس محصورون. وفي طريق عودتك هات معك خشبتين رقيقتين. "ماذا فعلتُ خلاف رغبة الآلهة؟ - تساءل كولس وهو يتابع تيمرقوه بنظراته، ونظر ووجهه يتغيّض من الألم نحو مصدر الضحيج. - يا حسرتي، لا نعترف بالهرم ولكن متى غمّرت سبعين عاماً وهن العظم، وتضعضت القوة. مهلاً، مهلاً يا كولس، لم يجر لك ما لم يجر لغيرك. لا تسمح لليأس أن يتسرب إلى

قلبك. بِمَ أجاب أحد المسنين حين قيل له إنك ستعيش مئة سنة بعد؟ أجاب: إن لم يُكتب لي غيرُ هذا العمر فلن أشرع ببناء بيت. وها أنا أشكو من أني عشتُ طويلاً، وانكسرت رجلي، قد أكون أغضبتُ الآلهة في أمرٍ ما. قدّمنا قريباً لإله السفر قبل أن ننطلق فاستاء إله الريح وإله البحر فلم يغفرا لنا. ولا شك أنهما عاقباني على هذا. ولكن ما ذنب ردد؟ هو من نسعى لأجله وليس من أجلنا... مهلاً، لحظة، قال تراب لنا شيئاً في أثناء توديعنا. ولكن ججان كان أفقدني أعصابي فلم أعره أهمية. سيتذكر تيمرقوه... ولماذا غاب كل هذا الوقت؟ كان يجب أن يعود منذ زمن طويل إن لم يكن يساعد ضحايا العاصفة المطرية..."

تدافع الرجال أمام الصخرة التي يستند إليها كولس جرياً وهوناً. ولم ينظر إليه أحد ولا التفت إليه. " ربما لم ينتبهوا إليّ بسبب المصيبة التي هم فيها. - قال كولس، - تابعوا، امشوا، في هذه الجهة أناس يمكن أن تساعدوهم. والآن يأتي رجلان لا شك أنهما انتبها إليّ، توجّها نحوي، ربما ساعداني... ولكن ليس لهما أيضاً مثل هذه النية... " سلَّ الرجل النحيف سكينه... - تداعى قلبُ كولس، ووضع يده على مقبض سيفه، الصخرة منعتي من الخلف. لن أدعه يقترب مني ما دمتُ حياً...

وقف المجرمان شاهرين السلاح أمام كولس الذي امتشق سيفه:
- هذا الرجل معه ذهب، - قال الرجل النحيف بلغة الأديغة. - لن يدعنا نقرب منه، ولذا سألهيه من أمامه، وأنت اضربه من الخلف.
- الناس يساعدون من في ضائقة ولا يهاجمونه، - استغل كولس نافذة النجاة التي هبطت عليه فجأة. - ألستم أديغة فلا تردعكم تقاليد الأكبر والأصغر!
- لو كنا سنتوقف عند كلامك، - ابتسم الرجل النحيل، - لما كانت توم تقاش ولا بانتيكابي ولا فيودوس مسرح نشاطنا. ولا كنا وصلنا إلى جنوة، ولا دخلنا إلى القسطنطينية... إن كنت تريد أن تعيش فهات الذهب!

- لم أقابل في حياتي من كره حياته، - تأمل كولس الرجلين، كلاً على حدة، مماطلاً على أمل أن يعود تيمرقوه. - لو روى لي أحدهم ما يجري لنا، نحن الأعراق الثلاثة التي من أصل واحد، لما صدّقْتُ... ها أنا معي كيس من

الذهب جمعوه في القسوغ لمصيبة ما، لم تُخطئنا. ولا أظنكما تجهلان المصيبة التي وقع فيها أمير القسوغ ردد...

- ليس من مهمتنا أن نخل ما حدث للأمير الذي جمع الأديغة وامتطى ظهورهم! - ردّ على كولس من يبدو من مظهره أنه الأصغر سنًا: - هات الذهب!

- ومع ذلك لسئما بعيدين عن الأمور التي تمنا نحن والأمير ردد.
- ما يهئنا نحن هو الذهب الذي معك، ولذا، - قاطع الرجل الثاني نفسه كلام كولس، - هاته بلا ماطلة!

"فكرت في أن أشغلها أو أفتح لها باب الثروة ريثما يعود تيمرقوه، ولكن هذين، - حرك اليأس كولس، - لا شيء يردعهما. يظلان، مهما افتقدا إلى الإنسانية، بائسين، لا وطن لهما، ولا سماء، ولا آلهة"

- كيس الذهب هذا، - أخرج كولس متمهلاً من صدر قميصه أحد الكيسين، - لا أعطيكما إياه بل تسلباني؟ ولكن المال الذي جناه الناس بعرق جباههم لن ينفعكما إن لم يضركما.

- هذا أمر آخر! - قال من اختطف الكيس وهو يدسّه في فتحة قميصه مستعجلاً لرفيقه: - هيا!

- دون أن تقتله؟

- أليست من الموط فتغرز السكين في الدب المقتول! تعال، هذا شخص آخر قادم. وصل تيمرقوه لاهثاً ويده دقنا الخشب. وأعجله الوضع الحرج:

- من اللذان كانا يجادلانك؟ وماذا كانا يريدان؟

- من قومنا، من الموط... جعلاني أفتدي نفسي بالذهب.

- يا أولاد الكلب! - لاحق تيمرقوه المجرمين، - ناداه كولس ولكنه رفض الالتفات إليه.

حاول كولس النهوض ناسياً وضعه ولكن وجع الرجل أقعده. نظر جرعاً إلى حيث توجه تيمرقوه، وأنصت. ووصل إليه قراع سيوف. وبعد قليل ساق تيمرقوه الرجل النحيل إلى حضرة كولس.

- أهذا هو من أهانك يا زعيم الخير؟

- نعم، ولكن كان له رفيق... - أجاب كولس والإهانة تغلب فرحه بالذهب المستعاد.

- هذا أنت من يسمونه كولس يا زعيم الخير؟ - ارتقى الرجل النحيل على ركبتيه أمام كولس. - لماذا لم تعرّفنا بشخصك؟.. ها هو ذهبك، وقد أضفّت إليه ما ليس أقلّ منه. أتوسل إليكم باسم آلهتنا ألا تؤذياني... وإن طلبتما مني مرافقتكما فعلتُ.

- أنا لن أعتد عليك فأصطحبك في طريق وليس عندك إلا هذا القدر من الإنسانية... - تنهد كولس هارّاً برأسه وقد اختلط حزنه وغضبه وقلقه. - ليرفق بنا الآلهة كلباً خيراً من أن يرفقوك بنا! عاد إليك عقلك حين وصل الأمر إلى حياتك؟ ولن تتخلى عن إجرامك ولو أطلقناك... ماذا يقول مُسنّونا: خير لك أن يطلق الآلهة عليك كلاب رجل صالح تأكلك من أن يعضّك كلب رجل مجرم...

- ألم تلاحظ يا زعيم الخير أنني لم أسمح لرفيقي بقتلك؟ - أربع المجرم ما يتراءى له في خياله.

- كان خيراً لي أن أدعكما تقتلاني والسيف بيدي من أن تهيناني دون أن يردعكما الموقف اليائس الذي كنتُ فيه. أبعد عديم الشرف هذا عني يا تيمرقوه!

قال تيمرقوه الذي خرج من وراء الصخرة يمسح سيفه بقبعة المجرم:

- لا تؤاخذني على قتلي المجرم وراءك يا كولس!

- كيف أوأخذك إن انتقمّت للكثير من الناس الأبرياء الذين أزهق أرواحهم؟ - قال كولس، - ولكن قوله إنه منع رفيقه من قتلي صحيح. - وأضاف بعد قليل: - ولكن لا أعرف كيف نسي انصرافه قائلاً: لا يُطعن دبّ قتل بالسكرين... وربما كانت الآلهة أرسلت هذه المصيبة تُضاف إلى مصائب. والآن يا تيمرقوه لنعالج رجلي قبل حلول الظلام بعدما نجونا من العاصفة البحرية ومن المجرمين. انكسرت عظمة ساقِي... وقد عالجتُ نفسي في أثناء غيابك غير أنني أعتقد أن المجرمين فكّا طرفي العظمة اللذين وصلتهما...

وضع تيمرقوه بحذر شديد رجل كولس على الخشبتيْن الرقيقتين، ولامه ونصحه

فيما هو يربطها:

- أنا جبرت كسوراً كثيرة في الحرب وفي الأسر يا كولس، ولكن لا أعرف من أين جئت بهذه القوة الهائلة، وهذا الصبر غير المحدود؟
- لا شيء يعجز الإنسان عن تحمله وقت الضرورة. - تظاهر كولس بالرد عليه ممزحاً ولكن حزنه طغى رغماً عنه: - يؤلمني انتهاء رحلتنا هنا أكثر من رجلي. بقيت عالة على الطريق. أخطأت في شيخوختي دون أن أفكر. كان عليّ ألا أعيد قدان. وربما في فيودوس من هم أمهر من نخلش الأصهب في علاج العظام. كنت ودعتكما وبقيتُ هنا...
- ما كنا لنتركك وحدك هنا ولو كان قدان معنا يا كولس. لا تفكّر. متى تحسنت رجلك بعد العلاج أوصلتك إلى القسوغ، واستأنفت طريقي مع رفاق آخرين دون أن ننتظر كثيراً من الوقت.
- وكم ستعاني المسكينة رامبس إلى حينها! ومن الصعب أن نعرف ما سيحدث لردد... - تنهد كولس عميقاً.

X

"لا ثوب لا يتهرأ، ولا شقاء لا تعقبه الراحة"

لا يفارق هذا القول المأثور ذهن ردد منذ أن جيء به إلى سالونيك للمصارعة. ويكرره في سرّه كأنه يخاف أن ينساه. وكلما فعل ارتسم في خياله كولس وغجبس، وطاقطخ والحداد يمزش وبشماف وجباغ الحكماء. ولا تأتيه لحظة منذ وقع في الأسر يفكر فيها بارتياب في مشقوه وججان وشوباش وصديقه أدشس. "وتراب؟ ليس إنساناً سيئاً لولا أنه هاجم أبنار، ولكن من يعرف ما يمكن أن يخطر له... وإذا كان شوباش يقف وراء أبنار، - ابتسم ردد الذي ما كانت الضحكة تأتيه في الأيام الأخيرة. - لن يسمح لتراب ولا لغيره أن يمسها بإصبعه. ومع علمي بأن صديقي ججان يحب أنست فقد كنت أشك فيه عبثاً. وهل يمكن لأحد ألا يحب أنست!.. إن عدتُ ولم تتزوج بعدُ فساكون أول من يركب معك إلى زفافها يا ججان. وعدني بانائيد إن تغلبت اليوم على الثلاثة الذين سأصارعهم وجلبت المال له أن يعيد لي حريتي فما مضى كثيره

فسيمضي قليله... وهل هدا الحكوف يا ترى؟ داور المرحوم قضى على يد هؤلاء... كان الأفضل أن أجابه الحكوف بنحلس الأصهب من أن أعاديه فينتهي بي الأمر إلى أن يبيعني..."

- لا يعجبني مصارعنا بسبب شروده، - قال أحد حراسه الثلاثة، فخرج ردد من أفكاره. ونظر إلى المترجم يسأله عن سبب هذا الانطباع.

- لا مبال، - يقول كوستاس.

- هل هو قلق عليّ؟

- قيل إنك ستنال حريتك إن انتصرت فإن لم تفرح بحريتك كانت النتيجة وخيمة. - ترجموا له الرومية! وفي هذه اللحظة مدّ ردد يديه للحارس.

- يكفي ما على رجليّ. ارفع القيد عن يديّ!

- أنت المخوّل بهذا - ردّ كوستاس، - لا تستعجل، استعدّ!

- لماذا اتخذت من هذا محادثاً؟ - لم يقبل الحارس الأسنّ. - ولماذا تهتم بحريته؟ - أريد له أن يغلبهم.

- يتغلب عليهم فنبقى نحن عاطلين عن العمل؟ - وافق الحارس الثالث زميلَه الأسنّ.

- هذا الكلام توجهونه لباناتيد، لا إليّ، - لم يتراجع كوستاس. - إن كنتم خائفين توسّطت لكم.

- كفى، نمزح فحسب... - تراجع الحارس الأسنّ.

خرج الحراس من الغرفة إثر بعضهم يحذر بعضهم من بعض ويخاف. ولم يعد المترجم كوستاس. والثلاثة جالسون على مدخل الباب لا يتبادلون الحديث ولا النظر. والنافذتان المعلقتان شبك حديدي عاليتان. والبيت الحجري الضخم كأنه خالٍ فلا صوت من أي مكان.

"إن كان من غضب عليه هؤلاء هو شخصي، - ضحك ردد المستلقي على مصطبة ترايبية - فقد انتصرت على خصومي الثلاثة. ولكن في طريقة كلام كوستاس ما يريب. مهموم أكثر من الماضي بحريتي. ما الأمر؟ لم يماحكني، يبدو أنه مهموم بي. أيّنوي لي الخير أم يُضمر لي شيئاً في نفسه؟ والائتان الآخران موقفهما مني واضح. سيتأذيان من حريتي. هذا بديهي، أنا عندي

أمل، وهما عندهما كذلك. يقال: إنه لا ثوب لا يتهرأ، ولا شقاء لا تعقبه الراحة. قميصي سيتهرأ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يهرثوني. وهذه محطة اختبار، ها هو إلهنا الكبير يساوي بيننا جميعاً ولكنه يُطلعنا أحياناً على عدم رضا عن طريق محله أو ناره أو عاصفته. ربما كان لوصولي إلى هنا سببٌ ما. ولكنني تفكرت في حياتي فلم أجد ما أعاقب عليه... وإن افترت علي فأنتم وما تخلصون به أنفسكم أمام الآلهة..."

قطع صوت الباب أفكار ردد، وأقامه من مجلسه، وقال للمترجم الداخل:

- لم يظهر باناتيد منذ الصباح!

- هل اشتقت إليه؟ - أجابه بين الجد والهزل.

- هل أبقى مقيداً هكذا وأنا سأصارع هذا المساء؟ - حاول ردد كظم مشاعره ولكن حراسه لاحظوا عليه سوء مزاجه فتبادلوا نظرات الاستفهام.

- سيصل باناتيد حالاً. - كان كوستاس يحاول تمويه سؤال ردد القاسي غير أن ما فهمه الآخر مختلف: أليكون هؤلاء تراجعوا فسحبوا وعدهم إياه بالحرية... ولذا سأله بقلبه وبتعابير وجهه:

- ألا تسير أموركم كما يجب؟

- لا عِلم لي بشيء من هذا القبيل، سيخبرنا باناتيد بما يجري، - أجاب كوستاس بنبرة غير مؤكدة. وأشاح بوجهه كمن يخفي قلقاً.

" هؤلاء يُخفون عني شيئاً!.. - مرة أخرى ارتعب ردد من السؤال الذي كان يقلقه. واختلس نظرة إلى الحراس. والتفت إلى محدّثه. - أهى مسألة نقود أم يمنحني استراحة واثقاً مني؟ دعوني أصارع من أجل حريتي فحسب ولكم أن تقولوا وتفعلوا ما تشاؤون. - وفي هذه اللحظة ارتسم أمام عيني ردد ما أنساه فجأة قلقه، رأى شجرة التنوب الرشيقة التي تنتصب وحيدة على طرف جبلٍ غير بعيد عن مزبه، والتي كان يشبه بها أينار، فابتسم لها لا يمل من منظرها. "

فرّقوا بيننا يا أينار ولكن لم يأت عليّ يوم نسينك فيه. هل تذكرين أنني أريتُك تلك الشجرة الصغيرة حين التقينا مساء وأنت تأتين بالماء من بشده، وقلت لك: أنت هي! وأجبتني: لماذا هربت من الغابة وأقامت وحدها هناك. ولما قلت إنها تودّ أن ترى الجميع ويروها لم أنس أنك امتعصت من جوابي، ورميتني

بعده نظرات قاسية، وقلت: إنه خيرٌ للإنسان أن يبقى في ظل أهله وقومه من أن يكون وحيداً... "

مرة أخرى قطع الشجارُ بين الحراس أفكارَ ردد، فسأل كوستاسَ كأنه مهتم بالأمر:

- ماذا يتنازع هؤلاء؟

- أنت، أجب بعد قليل.

- لماذا تكلم هذا دون إذن منا بلغة لا نفهمها؟ - نهض الحارس الأسرَّ غاضباً، يهزُّ رأسي كتفيه العريضتين وعيناه تلمعان. ووقف إلى جانبه رفيقه الذي ليس أصغر منه. ولم يكن ردد يعرف معنى ما قيل له بالرومية ولكنه قام وهو يعرف أنه ليس خيراً. ولما توجهَ إليهم وسلاسله تقعقع استلوا سيوفهم. وفي اللحظة نفسها ظهر باناتيد برفقة أوناسيس.

- ماذا يجري هنا! - صرخ باناتيد خوفاً من الخطر غير المنتظر. - ضعوا سيوفكم! - ثم انصرف عمن صرخ عليهم وسأل كوستاس بنبرة هادئة ما تزال بثباتها: - لماذا أغضبوا مصارعي؟

روى كوستاس ما جرى على حقيقته. فاستدار باناتيد وهو ينظر بعين الود إلى ردد، مشعراً إياه بمساندته له، وخاطب الحارسين المتسمرين عند الباب:

- ما المشكلة في سؤال مصارعي عن سبب تأخري؟ وهل ستمنعونه من الحديث بلغته؟ ترجم للمصارع ما أقول. وليعرف ان لا سرَّ بيننا، وأني واثق منه في مباراة المساء، وأني لن أتراجع عن وعدي. لا أعرف إن كنتم تعدّون حراستكم للرجل المقيّد رجولة حقاً.. قبعاتكم ولحاكم وشواربكم بلا فائدة إذن... إن كنتم تريدون ألا يخذلنا مصارعنا، - تكلم الآن بصوت لطيف، ودون أن يكشف عما في قلبه نحوه حقيقة، - فحرروا يديه ورجليه. وامنحوه راحة نفسية وجسدية. حقاً لولم أكن واثقاً منه لما أمرتُ بهذا. وأنا واثق أنه لن يقترب خطأ.

- إن كان هذا رأيك يا باناتيد، - كان قلبه يتشظى غضباً على الحارس الأكبر الذي يفك قيوده ولكنه لم يتوقف عنده بل أجاب على الكلام الصريح الموجه إليه: - يقال: صدقٌ مُرٌّ خيرٌ من كذبٍ معسول، ولذا لن يتراجع كلانا عن

وعليه.

- أنت مناط كل الأمور هذا المساء فحقّق لي أمني. - أنهي باناتيد والرجاء يغلب على نبرته.

- إذا كان الصدق عموداً متيناً، - أجب ردد بقول مأثور هجم على ذهنه، - والكذب مزلقة، فلماذا تتوجس من الاحتمال الأسوأ؟ أسمعك يا باناتيد!

- ماذا أسمعك؟

- أليس المساء موعد مباراتي؟

- نعم هذا المساء، - أخفى باناتيد انتفاضة رأسه الخائف كأن السائل يعرف ما لا يعرفه هو، - ستصارع ثلاثة لا واحداً. كنت أريد يوم استراحة لك ولكنهم رفضوا الاستماع إليّ.

- لا أهتم بمصارعة ثلاثة بل أسأل إن كان عندك معلومات عن خصومي.

- وهل يخبرونك! - لم يسمح باناتيد لردد أن يكمل كلامه، وكذب عليه، - لم تقع عيناى على الرجل الأسود الذي جيء به من بلاد حارة، ولا على الرجلين الآخرين. ولكن يقال إنهم يتمتعون بقوة عظيمة. وأنا جائي مستطعمون، وعرضوا عليّ رشوة كبيرة ولكن لم أسمح لهم بالاقتراب مني. وأجبتهم سترون مصارعي حين يمثل أمامكم ويدق أعناق مصارعكم. ما هذا الحديث الآن! إن كنت تريد التمرين جعلتك تصارع حراسك.

- لا يا باناتيد. أريد أن تتركوني وحدي لأني أريد أن أستريح قليلاً بعد أن أتمرن أنا بنفسى. "كيف نتركك وحدك!.. - غضب باناتيد من الطلب غير المنتظر، وقال لنفسه باسمًا مخفياً توهج وجهه من الغضب في غمضة عين: "أين تهرب من البيت الحجري؟ ومن أين لك أن تعرف أن هذا آخر يوم لك":

- نتركك وحدك إن شئت، وندعك تستريح. أخبرنا ماذا تحب أن تأكل تأنيك به، غير أنني لن أخفي عنك ما لن أستطيع أن أخدملك به الآن ولا هذا المساء من بين ما أخدملك به: سيكون حراسك الثلاثة وراء الباب، وستقتاد إلى الحلبة بقيودك فأرعب من سيصارعونك بجسدك الهائل، مقبعا من سيدفعون لك الذهب.

- وإن حان وقت خروجي منها منتصراً؟ - سأل ردد كمن كان ينتظر الكلام.

- هذا أمرٌ مختلف. - جواب باناتيد على هذا جاهز ومختصر، وابتسم قائلاً:
" إن استطعت الإفلات من الثالث " - المنتصر يخرج من الساحة مرفوع
الرأس.

لم يلاحظ ردد قدح الماء الذي وضعوه له على الرف في غمرة ترويضه لجسده.
ولما جلس ليستريح وثب بقلبه إلى القسوغ دون أن يدري. ووصلت إلى أذنيه
أصوات أمواج البحر. وانتصبت في خياله الجبال المترصفة والبراري الواسعة
والقرى المتقاربة المتباعدة.

" ها هي أينار - الشجرة الصغيرة ترى كل هذه، - تنهد ردد بعمق وإن كان
فرحاً في ظاهره، ثم ناجى الفتاة: - نعم يا أينار، الآن فهمت أن الوحدة صعبة
وإن كنت في أعلى مكان. ولا تنسي أن تحمّل علوّ جمالك صعب، ويدفعك
إلى الغرور. والأيام اللطيفة ستخدعك، والعواصف تستطيع أن تحنيك. إن كان
أملك قوياً فهذا يحافظ على إيماني. لا أحد يستطيع أن يقلل من شأنك، ولا
أن يجعلك تنطوين على نفسك، ولا أن يُكرِهك على فعل ما لا يليق بك. إن
صدف، من يعرف، أن وقعت في ضيق فلن يتخلى عنك أصدقائي ولا شوباش
ولا أمي ولا كولس. ومن أهل القرية سيساندك قدان وتيمرقوه... "

خرج ردد بنفسه من مشاعر الحب التي كانت غمرته فجأة. ولما رأى قدح الماء
تناول زاد الطريق¹. الذي كان يحمله في السفر وفي الصيد ويعتز به. أخذ من
الزاد مِلء كُشْتَبَانين وجرحه. ولما أعاد البقية بحرص شديد شرب من الماء.
وبعدما جلس زمناً شاردًا وعاد إلى أينار كان ما خطر له وهو يبيكُ نفسه
شيئاً آخر: " أفنيت نفسي بحب أينار حتى نسيت القسوغ... أمي وأخي
الأصغر وكولس الزعيم المبارك... وججان وحده رجل كامل، صديق يُعتمد
عليه. وتراب؟ لا، لا يمكن أن يطلب من الآلهة أن يلعنوني لأنه ارتكب خطأ
في يوم ما ونهرته! كنا تصالحنا. وجماعة نخلش الأصهب؟ وجماعة حقار؟

¹ كان تركيب زاد الطريق قديماً كما يلي: يذبحون عجلاً سميناً، ويسلقون اللحم مع العظم، ثم
يُخرجون العظام ويسكبون الحساء على لوح خشبي. ومتى تجمد كالصمغ عجنوه بالذُخن،
فلا يجوع المسافر ولا يعطش، ويصمد طويلاً أمام عوامل الزمن. المؤلف.

والزئخ؟.. والموط؟.. إن لم نؤلف دولة واحدة فلن يدعنا جيراننا والبعيدون عنا
نهنأ بحياتنا. سيختطفوننا واحداً واحداً كما فعلوا بي، سيمزقوننا... وأنا أقدم
أينار على القسوغ!.. مهلاً يا أمير القسوغ! - نادى صوت آخر من قلب ردد
نفسه، - أليس القسوغ وأينار واحداً بالنسبة إليك؟ هل حبك لكل منهما
مختلف عن الآخر؟ ستصارع الليلة باسمهما، وستتصر!.."

أدخلوا ردد إلى البيت الحجري المليء بالشموع فارتفع صوت رجّ السقف
والسور الحديدي المحيط بالحلبة. وهاج الناس الذين استغربوا تقييد المصارع
بالقيود الفضفاضة، والذين لم يقبلوا، والذين يسرهم هذا القيد. واستقبل
الجمهور بالتصفيق والصراخ المصارع الزنجي العاري الصدر إلى الخصر، والذي
يتلاعب بعضلاته.

" أهذا هو الذي يُخيفوني به مسكين إياه بالزنجي الضخم؟ - سأل ردد الذي
رفعوا عنه القيود نفسه على نحو لا تعرف إن كان فقد رهبته من الزنجي أم لا،
وبدأ يتمعن النظر فيه: - البطن ضخم حقاً، والأعضاء صلبة، والعضلات
تغطي خصره وذراعيه، وعيناه تلمعان... لا تفرغ! ماذا كان كولس يقول لك؟
العين مجنونة واليد شجاعة!.. - حين نظر ردد جهة القسوغ دون اهتمام باسم
المصارع بلغة غريبة عنه انتصبت شجرة التنوب الرشيقة على حافة الجبل أمام
عينيه... - لا تتراجع - حُيِّل إليه أن صوتاً ناداه من بين الضجيج. - القسوغ
بأكملها في انتظارك!.. "

المصارعان يدوران الحلبة يمعن أحدهما النظر في الآخر، ولا يعرفان من سيبادر
أولاً.

" لا تستهن به، ليس رجلاً هشاً... - ينصح ردد نفسه، - ينفخ صدره ويرخي
يديه، ولا يهتم بوضع يديه. هو مثل نخلش الأصهب ينظرته ومشيته وانتصاب
رأسه... " هجم المصارع الأسود وقد انتهى ردد توأ من تقويمه فانحرف أمير
القسوغ عن طريقه، فخطب الجدار بصدوره لا يستطيع التوقف، فسقط على
مؤخرته. لم يهاجم ردد المصارع المقععي على الأرض، بل انتظره إلى أن نهض،
ولكن حين انقضّ على ردد المصارع الذي كان ينهض بصعوبة أسقطه ثانية
بضربة رجل من وراء ركبتيه فعاد وتداعى. وفي اللحظة نفسها وقع ردد دون أن

يدري ما جرى له تحت جسد المصارع الأسود. قلب ردد خصمه دون أن يسمح للساعدين الأسودين أن يصلوا إلى عنقه بين رجله الممسكتين به كالكلابة، فصار ردد فوقه. وضغط كتفيه على أرض الحلبة... نهض من فوق الزنجي الضخم قائلاً: " هذا غلبته بسرعة؛ من سيصارعي الآن؟ "

تراجع ردد لا يطيق مرح المشاهدين وسرورهم لرائحة الدم، وجلس على صخرة جانبية ينتظر المصارع التالي. ولكن الجمهور الذي هدا انفجر ثانية. وانتفض ردد من هول ما رأى. يأتون بأسباروخ واثنان بمسكان به من الجانبين وثالث من خلفه. تشجع ردد لمنازلة عدوه، وزادت قوّته قوّة. وبادر بالهجوم عليه كما لم يفعل مع سابقه. ولوّح به وألقاه أرضاً فسمع صوت سقوطه. ورماه ثانية وثالثة على الأرضية الحجرية. وفي المرة الأخيرة تداعى أسباروخ لا تحمله رجلاه. وتوسل إليه وهو على ركبتيه:

- سامحني؛ لم أتخيل أن نلتقي في هذا المكان!
- إن بقي فيك شيء من الرجولة فانفض وصارغ ولا تسمح للمشاهدين أن يسخروا منك!

- اتركني بروحي بعد المصارع الزنجي ولن يهمني هؤلاء الثرثارون...
- إن سامحتك على ما فعلت بي فماذا سيكون رأي الآخرين الذين قضوا على يديك؟.. - روحك غالية عليك؟ - هجم ردد وقد اشتعل غضبه ثانية، وألقاه أرضاً كقطعة عجينة...

كان بين من دفعوا مالأً كثيراً لرؤية المبارتين الأوليين من يرضون ومن لا يرضون، غير أنهم بانتظار المباراة الثالثة. ولكن ظهر من الباب الذي انفتح عند الصخرة ما لم يتوقعه ردد البتة: قفز النمر الشره، ففهم ردد أن مالكة الذي يدفع به إلى المباريات إنما هو مجرم. كان يعرف أنه يجب الانبطاح حين تقابل كلباً أو وحشاً فجلس أسفل الجدار الحجري. وفيما هو جالس يشفق على من ينادونه: " انهض وصارع النمر!" بدلاً من احتقارهم نهض وهو يحك ظهره الضخم بالجدار. وهجم يريد رقبة الوحش المتربص به بعينيه الصفراوين. ولكن النمر المقعي يضم ذيله بين فخذه ألقى جسده فانحرف جانباً فأخفق ردد. وفي اللحظة نفسها هجم على النمر بوثة واحدة، فتمكن من رقبة الوحش،

وألقى النمر الذي أنشِبَ محالبه في الصدر العاري، وصدمه وهو يخنقه بالجدار الحديدي. وبعدهما كرر بضع مرات ظل ممسكاً بخناقه وهو يشعر أن خصمه يلفظ أنفاسه الأخيرة. ثم ألقاه على أرض الحلبة جثة بلا حراك. وارتفع ضجيج الناس الذاهلين...

في هذه اللحظة لم يعد ردد يشعر بالضجيج. بل ما أمام عينيه هو الشجرة الوحيدة هناك على حافة الجبل، في الجانب الآخر وراء البحر، وأمه، والسماء الزرقاء، وكل القسوغ. "أنا حرّ، أنا حرّ!" - هذه الكلمة التي كان ردد يسمعها من صدره، يرمي بها باناتيد فرحاً بنفسه. ودون انتظار شيء، ودون الاهتمام بالصدر العاري الذي كان يسيل منه الدم، وهي - الحرية - التي جعلته يتخطى الوحش القتل إلى نافذة الحرية.

كان باناتيد يصيح متظاهراً بالفرح لإنجازات مصارعه غير أن ما يقلق له في قرارة نفسه شيء آخر: "انظر كيف يتصرف هذا!.. صدّق ما وعد به، وألقى قطعة الذهب في جيبه يدفئ بها فخذة معتبراً نفسه قد عاد حرّاً... لن أقول شيئاً وسط هذا الصباح، وستفهم أن لساني الخبيث أقوى من جسدك... "

فصرخ في وجه الحراس الذين يحملون القيود إلى ردد والجميع يسمعونه:

- مهلاً، مهلاً توقفوا! المنتصر لا يُقَيّد! - مضى باناتيد بمصارعه فاتحاً له طريقاً. - ألا ترون صدره ويديه الممزقتين؟! سيعالجها، وسأحقق وعدي.

- ماذا يقول هذا؟ - سأل ردد وهو ما يزال في أفكاره البعيدة.

بعدهما أطلع كوستاس ردد على أقوال العجوز باناتيد، أضاف بكلام صريح مختصر ما كان يشغل باله هو:

- لا تنخدع بصاحب اللسان المعسول!

- ما أريد أن أقوله لك... - حين نظر باناتيد في عيني ردد غير كلامه الذي بدأه وهم يدخلون القصر، -: أنا راضٍ عنك، راضٍ. كنت رجلاً، لا تنظر إلي هكذا، أنا أيضاً لم أكن أعرف بموضوع النمر...

- أنت من لم يكن يعرف! - هجم ردد على صدر الرجل، ورفع باناتيد من أرض الغرفة. - قلّ حالاً إن كنت لا تريد اللحاق بأسباروخ!

- لم أخبرك بموضوع النمر لأني كنت واثقاً بانتصارك عليه... - ومن أنزلوه

يتراجع نحو الباب الذي يقف عنده كوستاس وينصح: - اطمئن، دعني أقبض هنا الذهب الذي جنيته أنت وأنا. سيكفينا طوال عمرنا. لِنعد دون ضحيج إلى مقرنا في القسطنطينية وأعود بك في سفينة فارهة إلى بلادك... افتح الباب يا كوستاس!..

- منذ اليوم انتهت علاقتنا! - عارضه كوستاس.
- وأنا أيضاً، انضم إليه أحد الحراس. وأجبر الحارسين الآخرين اللذين هجما على سلاحيهما على إسبال يديهما.
- حسنٌ أن تحليتم بالعقل يوماً ما! قال ردد بلامبالاة وابتسم في وجه الحارسين المتجمدين. والتفت بلامبالاة إلى باناتيد الذي سامه كل هذا العذاب.
- قلْ لنا يا ردد ما تنوي، نحن معك. - أكد كوستاس على جهوزه.
- حياكم الله، - كان جواب ردد مختصراً، - ولكن لا أودّ سفك الدم هنا...
- يا ردد! - ارتعى باناتيد العجوز أمام ردد كما فعل أسباروخ أمامه في الحلبة، - وأخرج من عُيّه كيسين من الذهب. خذْ هذين الكيسين ولكن لا تفعل بي تهديداً. ولو كان عندي غيرهما لأرفقته بهما.
- انهض! لا ألوثُ يدي بأمثالك. ولكن سأتشفى منك ولو لمرة واحدة. إن وافقتني يا كوستاس فقيدوا هذا بالقيود التي ما كان يرفعها عني. وأنتما، الاثنين، اجلسا إلى الجدار، - وحدّهما، - سنقيد الثلاثة ونكُم أفواههم. - حين انتهوا ممن كانوا جالسين يخافون أن يتحركوا، قال ردد للثنين اللذين سانداه: - ادفعا لباناتيد أجرته كي لا يتهمنا بأننا سلبناه ماله، ولا تظلما الآخرين، أنا لا أريد أكثر من أجرة طريقي.
- لا يا ردد، لا يجوز هذا، - استعجل كوستاس، أنت أحقُّ بما جنيته مخاطراً بروحك.
- وأنتما لا ينتظركما مستقبل سارٌّ، - أجاب ردد بحزم.

XI

أهل القسوغ التي كان ردد وكولس عائدين إليها، كلٌّ من مكان، بالقياس إلى من وُلِدوا في سالونيك مختلفون جداً.

لم تدع الأحلام ججان ينام هذه الليلة أيضاً. مرة يرى نفسه تائهاً في الجبل، وأخرى يطارده في البرية فرسان لا يعرف هويتهم، وثالثة لا يستطيع النجاة من الفيضان. وها هو الآن قد نجا عند الفجر بمشقة من صاحب الساعد المشعر الذي كان يخنقه.

" ما هذه الكوايس وأنا الذي ليس من عادته أن يحلم؟.. - جلس ججان في الفراش، ولمس رقبته التي أحس بأنها تؤلمه. ومسح عرق جبينه. - كان هذا الرجل المخيف صاحب الساعدين المشعرين في أحلامي منذ أسبوع. كان يتسم في وجهي ولا يكلمني. والآن يكاد يخنقني... أليكون ردد يأتييني من معبر الأموات؟ ما ذنبي أنا إذا سمح لهم أن يعبروا به البحر واختفى معتدلاً بمنصبه؟ تجاوزتني وقارنتني بمثل مشقوه وأنت تحفر أساسك، مزيجاً إياي بتنصيبك الولد الذي وجدناه في الغابة أميراً؟ أما كنت تعرف أن من لا تتوقع منه شراً لن يدعك حياً؟.. أندم على أنني لم أصارحك وأنت حيٌّ بما في قلبي نحوك، ولكن ما كان يلجمني عن هذا هو أنك ما كنت لتفهمني في أمر واحد: هل تذكر أنك ضحككت حين لميحت بجي لأينار؟ كان هذا في الربيع، وفي الصيف التالي لهذه الحادثة، حين أصبحت تساوي بين أينار وآنست في الجمال وفي الجاذبية مازحتك قائلاً: دعنا نتوازعهما بالقرعة إذن فأجبتي إن الحبيب لا يُعامل هكذا؟ وانظر الآن ما حدث: حُرمت من الاثنين!.."

كان ججان قد شعر بالبرد فغطى جسده باللحاف واتكأ على الوسادة، غير أن خواطره عادت فهجمت عليه كالمطر الممزوج بالثلج الذي يعصف في أرض الدار. كان مصراً على أفكاره، بل يزيد عليها رغم أنه أعاد التفكير فيها معترفاً بعناده. "ما كنت لأتخلى عن أينار لك ولو كنت حياً. ولو عُرضت عليّ الإمرة لزددت تمسكاً بها!.. وجدنا سافر متهماً إياي كأنه لم يكن شاباً في زمانه... وأين هو الآن؟ من سيخبره أن من يتابع أثره فارق الحياة؟ وكان نخلش وعدني أن يسافر معي متى انتهت علاقتنا أنا وأينار بالخير فوجب أن أتابع الموضوع أيضاً؟ وهل أهل جدي؟ الآلهة لن ترضى عنا، ولن أسلم من السنة الناس. وبعدها سنُفهم، بمعونة المسنين الحكماء، شوباش الغريب أنه لم يعد له شأن بنا. وسنُفهم رامبس. وهي الأخرى عليها وقد عملت من نفسها "تِرْعَتَاو" أخرى

أن تتوقف، ألا يكفي كم حكمت الملكة" ترغتاو "الموط، وكانت سطوتها تصل إلينا!.. وإن جرت الأمور كما نريد قاد نخلش حراسي على نحو جيد. لا يليق أن نساويه بمشقه الرجل اللين المطواع، فنبعده عن مناصب الدولة رغم قوته وذكائه. ومشقه من أوائل المتهمين بمقتل أخيها داور وإن لم نكاشفها... وهل عجب! إن كنا، القسوغ والموط والزيوخ والحكوف من أصل واحد؟! لا يصدغ رؤوسنا من يفكر بجمعهم في دولة واحدة!.. ها هم الخزر أيضاً متفرون..."

استغرق ججان في النوم حين غلبته أفكاره - نواياه العذبة. ولكن الرجل ذا الساعدين المشعرين، الذي يمد يده من النافذة أربعه ثانية: "عجباً، لماذا لا يتركني هذا اللعين! - عاد ججان فارتدى ملابسه غير أن أفكاره ظلت تلاحقه. - من هذا الرجل؟ ليست له هيئة إنسان، لا أرى منه إلا اليدين، أكون حقاً من يسمونه "رجل الغابة"؟ يقال إن هذا المخلوق يبدأ بملاحقتك في الأحلام ثم يظهر لك في النور. لا يُستبعد أن أحداً مارس السحر عليّ. لا يتركني رغم أنني أخبرته بكراهيتي له. ربما هي آنست... كان نطاي لمح لي أكثر من مرة أنه رآها عند تراب فلم أصدقه غير أن هذا القزم المتكتم لا يتورع عن شيء. ويا ليت لم يمارس سحره على أينار فتكرهني... " - وحين انتهى من خدمة مواشيه، ووساوسه ممن يشك فيهم ومن لا يشكّ تتزايد، أظطر. ثم ركب يريد مقابلة تراب.

توقف ثلج الليل وريحه. الطبيعة كلها بيضاء، ناعمة. صمتت الأشجار في السماء المشرقة الباردة فرحة بانقطاع الريح، تحتمي بأغصانها المكسوة بالثلج. والقمم البيضاء التي تبدو من قريب ومن بعيد، وأكواّم الحشيش اليابس المقدسة في الدور، وسطوح الزرائب والبيوت هادئة مطمئنة.

نظر ججان نحو بيت الإمارة التي آووا إليها أينار منذ خريف العام الماضي فلان قلبه وهو يتفتت ولكن كراهيته لرامبس التي حبست حبيبته غلبته: "دعها إن شئت تعيش تحت جناحك كما تحضن الدجاجة أفراخها وسترين ماذا أفعل في أول غرسٍ يقام في القرية!.. أليست هي آنست من تظهر من وراء زاوية السور؟.. لو عرفت أنني سأصادفك لتجنبّ هذه الناحية... أينما توجهت لقيتها في طريقي...". وحين وصلت سألها دون أن يترجل:

- لماذا لا تهدئين يا آنست في هذا البرد القارس؟
 - لو ترجلت يا ججان احتراماً لي، - قالت آنست وقد تورّد خذاها، -
 لأجبتك متناسبة طريقة سؤالك الفظة...
 - لا أترجل علامة احترام لمن لا أكنّ لها الودّ.
 - ألأني أشبّهك بروحي، وأحتفظ بك في قلبي، يا ججان؟!
 - أأست من طلبت منها أن تنساني!
 - لو كنت قادرة على النسيان... كيف يا ججان أستطيع أن أنسى لقاءاتنا
 بجانب أكوام الحشيش اليباس؟
 - لا أنذكر حتى إن كان بيننا مثلك هذا! - ثم قال ججان بعدما حثّ حصانه:
 - لا تُكثري من زياراتك إلى تراب، ولا تطلي منه أن يبتهل إلى الآلهة!
 ارتجفت ساقا آنست مما سمعت. وكانت ستتهاوى في مكانها لولا أن عادت إلى
 الوعي سريعاً. ولكنها لم تقدر على مغالبة دموعها ولو وجدت في نفسها قوة
 الجسد: " يبدو أنه حتى الآلهة لا تردعك... وأنا أتوسل إلى تراب، وأسمح له أن
 يمسح على ظهري. ويقول لي: بقي عليك يومان... وأنت تريدني أن أنساك!
 كيف؟ وها أنا كنت أعيش وفرحتي هي مروري بداركم مرة كل أسبوع كالخلم
 اللذيذ ولو لم أعرف أن عيني ستقع عليك. والآن؟ إن كنت تتصور أي
 سأنساك لأنك نهرتني وأتخلّى عنك لغيري فليس ما في صدري حباً إذن. ما من
 شيء في الدنيا أمسكه عنك ولكنك لا تعرف... ألم تفهم أن أينار لا تحمل
 لك مثل هذه العاطفة؟ لا تحبك ولا تريدك!.. أينار المنحوسة التي ضمّتها إليها
 رامبس هي المسؤولة عن كل شيء. ظلت تبتسم في وجهيكما، وتكلمكما من
 خارج قلبها حتى خدعتكما أنت والمسكين ردد. وأنا حطمت حياتي بمسايرتي
 إياها قولاً وفعلاً... والآن تعيش في دار الإمارة سيّدة لم تتزوج. ولم تعد تريدنا
 ولا تلتفت إلينا... أعرف ما تستحقه هذه الفتاة، لن تحتاج إلا إلى جرعة دواء
 سحري كما يقول تراب... مهلاً، لماذا تراب حاقد على أينار؟ هل بينهما سرٌّ
 يخاف تراب أن ينكشف؟.. - اندست آنست وقد ارتعبت بعد هذه الأسئلة
 المفاجئة، ونسيت أحزانها وأفكارها، في الباب الصغير الذي كان جنبها التعيس
 يسوقها إليه.

كان ججان غارقاً في هذا الحب الذي لا قرار له كما يتخيل. ولم يكن يعتب في هذا إلا على السيدة رامبس. ولما بدا بيت الإمارة الذي يؤوي أينار شدّ اللجام لا يعرف أين يذهب، ولا السبب، ولا أنه فارس، ناسياً أنه قابل آنست منذ قليل. ولكن الخاطر المفاجئ جعله يحثّ الحصان من جديد: "لماذا لا أمّر بباب الإمارة فارساً مرفوع الرأس كما يفعل نخلش؟ ألاني أخاف من شوباش وأغبان؟! ألا يمكن إن رأني التعيّسة أينار أن أمنحها بعض الأمل وأرفع من روحها المعنوية؟ ولتفهم رامبس براءتي مما حدث لردد!.. ولا يؤاخذني مشقوه على تجاوزي أخته، ولا ينس أنه انتزع زوجته ممن كانوا يغالونها في قرية " نيج " إذا كان القلب يختار شخصاً واحداً فحسب فلا يعطني أحداً، ولن أقبل من أحد، في من اخترت. وقد طلبت من بعضهم، وأنا أيضاً، أن يلمح لجدي، وهو الشهير بحكمته، بالموضوع، ولكنه لم يفهمني..."

كان ججان يتبجح من خلال طريقة ركوبه ولكن ما عرفه بمروءة من دار الإمارة، ووصله إلى الحيّ الآخر هو تحقيق حمار تراب. فلام نفسه على اتخاذه تراب جليساً. ولكن الأخير بادره:

- تفضل يا ججان، تفضل! - نادى تراب الوقف على المسطبة باسماء، - لن يكفّ هذا الذي تستمع إليه عن تحقيقه ما لم تترجل وتتفضّل.

- سمعت أخبار حمارك كثيراً غير أنني لم أعرف أنه ودود نحو الضيوف. - عندي بعض الأشغال، لا أريد إلهاءك.

- لا يأتي إلى باب داري من ليس له طلبٌ عندي يا ججان. أشعره بكلامه أنه شخص مهم يحتاجه الجميع، وأضاف: - سأساعدك، كما تأمرني الآلهة، في أمورك الصغيرة وأمورك المهمة.

- قصدك يا تراب مقتنعاً بأنك موفد الآلهة، جاءت بي إليك صداقتنا ولو أننا تماحكننا قليلاً قبل أيام دون أن نعرف السبب.

- لا، لا، تناس ذلك الجفاء العابر، - رفض تراب حديث صديقه وهو يمر براحتيه الناعمتين على لحيته الحليقة حديثاً، ثم على شاريه. - لا تنس أن الساعة أرفّت متى دب الجفاء بين موفدي الآلهة وعامة الناس.

سرى شحوب خفيف على وجه ججان الرقيق وقد سمع بموضوع الساعة ثم

اختفى وراء أذنيه. - "ها قد وجب علينا أن نعتذر ونتوسل إلى من كنا نحتقره
ساخرين منه. - ليت من يطيعون هذا الرجل كانوا يعرفونه كما أعرفه أنا!..
سيرونه جميلاً حتى لو عرّيته أمامهم! ولولا هذا أكان الناس يتناقلون أن دكابس
تخلّت عن كل عُشاقها وعلّقت بهذا؟ يا لتعاسة القسوغ إذ ظهر فيهم مثل هذا
المنحوس! لا أعرف إن كانت الآلهة تسمعي!.." - ارتجف كل ما في ججان
دون إرادته. وأجاب وهو يلوم نفسه على أفكاره التي راودته رغم أنه جاء
متوسلاً إلى تراب على ما سُئل عنه صراحة؟

- لا يمكن أن ينشأ بينك وبينني خصام يا تراب، وإلا فما جدوى صداقتنا!
كنت أشعر منذ طفولتنا أن فيك شيئاً ليس فينا، ولكن لم يخطر لي قطُّ أن
الآلهة سترسلك إلينا. والآن أقبل علينا هؤلاء بوجوههم كرمي لك، لا
ينسوننا...

- مهلاً يا ججان، مهلاً، - قاطعه تراب بصوت أكثر رهبة يعيد إليه وعيه، -
سمّ الآلهة بأسمائهم، لا بـ "هؤلاء"؛ لا تُهنهم! اغفروا لضيغي يا آهتي الأعزاء!
أفلتت منه الكلمة، وليس عن سوء نية. أنتم أملنا وحياتنا. أسمعك الآن يا
ججان. أنت يُقلقك موضوعٌ لا تستطيع البوح به، ولكن الآلهة تسمعنا.
- حقاً يا تراب، وهذا ما جاء بي إليك. ولا أظن الآلهة التي أنت موفدهم لا
يعرفون به.

- وهل تشك في هذا!..

- لا، لا! - استدرك ججان والاستعجال يغلبه: - جئتُ إليك على علم من
الآلهة. ولا أعرف كيف أبدأ.

- ابدأ بأمر القسوغ كما أملك الآلهة، واختتم بآنست وأينار. - قال تراب
بصراحة ضاحكاً في سره.

- إن كان هذا ما ترى، والآلهة يسمعوننا، - استرجع ججان شجاعته،
فسأصارك بما في قلبي. - إذا كان صديقي الحقيقي المرحوم ردد رحل إلى
الآخرة فأنا أعدّ نفسي أحق الناس في القسوغ وفي مزبه وفي كل مكان بحبيته
أينار. وكثيرون يقولون لي هذا. ومن يقولون إنك تكسب ثواباً إن فعلت هذا
كثيرون. وآمل إن فهمتني أنت أن يفهمني الآلهة أيضاً ويغمروني بعطفهم.

- ألم تعدّ آنستُ حبيبَتك؟ ثم من قال إن ردد فارق الحياة؟ - طرح تراب أسئلة متتابعة، وأخيراً أجاب بطريقة توهم أن كلامه آتٍ من جهة الآلهة: - ما يقوله الآلهة بشأن ردد مختلف عما تقول أنت.

- أيقولون إنه ما زال حياً؟ - نظر ججان غير مصدق في وجه تراب.

- إله الغابة يقول إنه كان حياً حين أبعده عن حضرتي. وإله البحر يقول إني سمحت لهم أن يُبعده عن ضفتي وأنا ألطف به. وكلما سألت إله السفر أخبرني أنه حيٌّ، وبصحة جيدة، وما عليكم إلا انتظاره.

- وماذا يقول الإله الكبير؟

- وإلهنا الكبير لم يفقد الأمل، أعرف هذا من طريقة إشراقه وغيابه. ولكن لم يجنْ بعدُ موعد سؤالي له.

- لا أعرف إذن... - نطق ججان بصوت منكسر ولكنه أضاف ما يتمناه هو: - إذا كان إلهنا الكبير متردداً في شأن ردد فلا خيرَ على ما أعتقد... وربما كان هذا هو السبب في أن الهمس يغلب على حديث الناس حين يأتون على ذكر موته... وأما ما جرى في موضوع آنست فأنت لا تجهله ولكني سأروي لك الحقيقة من وجهتي خلافاً لرواية من يأتي إليك متخلياً عن الحياء. لم يكن بيني وبين آنست حبٌّ. وكان السبب في توهّمها أن بيننا حباً هو بشاشتي في وجهها لأنها صديقة أبنار. ولم تخدعك أنت وحدك، بل خدعت أخاها والمرحوم ردد وكل أهل مزبه... والآن تقطع عليّ طريقي أينما اتجهت. تطلب من العرافين أن يعرفوا حالي ومصيري، وأن يسحروني. وضّعي أنا ليس مشكلة، ولكن يقال إنها تفكر في أن تدسّ دواءً لأبنار؛ فإن فعلت هذا...

قطع صوتُ الباب كلام ججان. وبهذه الحجة سكت ونهض للانصراف.

- ماذا جرى لك يا ججان فتنصرف متى رأيّتي، هل تُضمّر لي جفوة في قلبك؟ سأل نظاي.

- صدق أن دخلت مع انصرافي وإلا فما الذي يدعوني إلى مجافاتك؟ - أجاب ججان هكذا بلامبالاة. - جلسنا تراب وأنا مدة طويلة، ولم نترك موضوعاً لم نتطرق إليه. إن كان عندك أخبار جيدة جلسْتُ من جديد متجاهلاً انشغالي. حسناً إذن يا تراب، سنبتهل إلى الآلهة كما اتفقنا، ولن

ننساهم. وستفكر ثانية في ما تحدّثنا فيه.

"لا يجوز أن تأتي إلى هذا الرجل إلا في حال الضرورة القصوى... - نهر ججان نفسه حالماً ركب. - ظلّ جالساً يخلع قبعته ويلبسها زاعماً أن الآلهة قالوا كذا وكذا، ولم أحصل منه على جملة مفيدة. إن أتيت على ذكر الآلهة فليس بالسوء، هم في قلبي دائماً، وأحملهم معي بإخلاص عذب أينما ذهبت. ولكني لا أشكّ في أن تراب سيعيد التفكير في ما قلت بشأن ردد وأينار وأنست. أنا قلت وانتهيت من الكلام، والفعل ما زال أمامي. وحقار وشنبه حبسهم الشتاء في البيت. وكأنه لم يبق في مزه من يتزوج. ولماذا ليس فيها؟ نسمع كل مساء بزواج أدشس ولكننا لا نسمع ضجيج عرسه. إن تزوج أدشس فسيسشارك شوباش صديقه في العرس متجاوزاً كونه أميراً. ولن يحرم أينار منه. من أين تأتي بنقطة ضعف أفضل من هذه؟.."

كان ججان يحتج ويعتف سراً وعلناً، ولكن جرى في نصف الشهر الأول من مطلع الشتاء عُرسان. ولم تظهر أينار في أيّ منهما رغم استغراق كل عرس أسبوعاً كاملاً. وفيما عاد ججان إلى لياليه وأيامه القلقة أخذه إلى حقار الفارس الذي أرسله نخلش على عجل.

لم يعرف ججان تفسيراً لكثرة الأحصنة المربوطة إلى باب حقار. تعرّف على حصاني نخلش وشنبه، أما الآخرون فكان يراهم لأول مرة. كانوا من مظهرهم رجالاً أقوياء، مدجّجين بالسلاح، سود اللحي والشوارب، لامعي العيون. - هؤلاء ضيوفنا، أتوا من الحكوف، - قال نخلش. وأضاف بعدما تبادلوا التحية: - إن كنت جاهزاً يا ججان، وتريد إظهار رجولتك فسنركب كلنا معك لأن أدشس سيتزوج. هل سنُنزّلها ضيفة على إحدى الأسر أم إلى بيتك؟ أم إلى الحكوف مباشرة؟

- ولماذا أنزل بها على أحد، أو إلى الحكوف على هذه المسافة، وعندي بيت؟ - أقول هذا خوفاً من أن تندم الفتاة وتصر على الرجوع؟ - ساهم حقار لأول مرة وهو مرتعب مما على لسانه وما في قلبه. ولما نظر إليه نخلش شزراً عاد فتشجّع: - لا تتراجع ما دمنا معك!

- لا أعرف، إن لم تتراجع بسبب رامبس، - قال ججان وقد بدا أنه فقد

السيطرة على صوته، - لم تنظر إليّ بجفاء ما دامت في بيتها بل بوؤد.

- أستمع إليكم أيها القسوغ، لا تؤاخذوني، يا نخلش، - لم يملك بارج، زعيم الحكوف، إلا أن يتدخل، - نحن نخطف من أعجبتنا، ولا نهتم بعادات الزواج عندهم. هل سنستقبل النساء اللواتي سيأتين بالعروس؟

- ولماذا يا رجل - اعترض نخلش، - ننضم إلى النساء ونزفها ونحن نغني أغنية الرقة؟ ثم إننا نستغل انشغال من رُقوها، ومن رُقَت إليهم، بالعروس، نأتي بأينار على حارك الحصان ونزفها إلى ججان. إن صرخت أسكتناها، وإن صمتت كان أفضل لها ولنا.

- كان الأفضل ألا تثور ضجة، - غمغم شنبه من تحت أنفه المعقوف مُسمِعاً الحضور وإن كان يكلم نفسه ظاهراً، وتبادل الحكوف النظرات، وكما يحدث عادة لم يصبر نخلش على ما لم يعجبه:

- اسمع يا شنبه وأنت أيضاً يا حقار، ألا تُقلعان عن عادة التمتمة هذه. ما زلنا نقول هذا ونحني رؤوسنا فسمحنا لهؤلاء أن يركبوا ظهورنا!.. دعونا نُفهمهم مرة أننا لسنا أذنانهم، وأنها لا نقف على قائمة باهم مثل مشقوه وأغبان! ومن هذه الناحية تبين أن ججان أشجع بكثير من قدان الذي لم أكن واثقاً منه. توجه إلينا غير معتدّ بالناس المتعلقين بالأمر الميت حتى أخذوا كل مظاهر الحياة.

- طبعاً يا نخلش، - تغيّر حقار الآن وبدأ يهزّ رأسي كتفيه، - يكفي ما فعلوا بأينار. ضمّتها إليها رامبس دون أن تستشير أحداً. - تحتفظ بها في غرفة العروس لا فتاة ولا امرأة.

- كان تصرّفها مقبولاً لو كانت الفتاة من أقربائها، أو استشارتنا في ما تفعل... - غمغم شنبه ثانية، ثم أضاف بصوت أعلى: - وهل عجيب إن كانت سيدة بيت الإمارة!

- لأجل هذا نحن الحكوف لا نريد أمراء علينا. - ساهم بارج راضياً بما سمع، مفتخراً بعاداتهم.

- صحيح يا بارج، صحيح. - وافقه أصحابه.

- هذا هو، - زفر نخلش بعمق، - أنا المسؤول عن كل شيء!.. لو لم أتصنع

الإنسانية في حلبة قُراري فسمحت لردد أن يغلبني لما حدث في القسوغ ما نتكلم فيه. فكرت في أننا إن قدّمنا علينا ابن لاورستن، الأمير الذي لم يستطع الوقوف في وجه الخزر فسيتحلّى يوماً ما بالرجولة، ولن يسمح للناس أن نقع مضغة في أفواههم، فسمحت له، على مرأى منكم يا حقار ويا شنبه، أن يغلبني. وانظروا ماذا حلّ بنا الآن! ذهب عديم الرجولة للصيد فجعل نفسه فريسة للوحوش بدليل أننا لم نعثر عليه. وكولس الذي سنحتفل اليوم بعرس حفيده صدّق أنهم عبروا بالأمر البحر فنصّب ولدًا لا نعرف أصله أميراً علينا، وسافر فسمح لقادتنا أن يدمروا البلاد.

- إن كانت عندك أميرة أنثى، - قال أحد الحكوف، - جرت لك مثل هذه المصائب.

- هذا عيبٌ علينا، نحن لابسي القبعات! - أجاج حقار النقاش.

- ما سكوتكم إلى الآن إن كان عيباً؟ - عارضه نخلش.

- كيف يطعني من لم يطيعوك يا نخلش! - برأ حقار نفسه.

- وهذا صحيح. - كان نخلش الأصهب راضياً عن الطريقة التي قيل له بها هذا الكلام، ومن حرصهم عليه. وأضاف بعد قليل دون اهتمام: - لا أتذكر أن إمارتنا القسوغ وقعت في موقع ضعف كما في هذه اللحظات... ألا تقول شيئاً يا ججان؟ نعم، ما في ذهنك في هذه اللحظة شيء آخر. لا تهتمّ، نحن سنرتب لك المسألة. ونترك لك موضوع "الدُّخلة" كما تستطيع ترتيبه أنت. ماذا يقولون: إذا لم تكن مالك ما في يدك فمن الصعب أن تمدّ يدك إليه؛ أليس صحيحاً؟ اختتم بمزحة فيها شيء من السخرية.

- كلامي وفعلي متلازمان يا نخلش، - قال ججان ولكن أول من خطر له هو ردد الذي قاسمه جدّه كولس في طفولته وشبابه... ها هي أبنار ومن ورائها تُطلُّ أنست. وتطل على الجميع رامبس متشحة بالسواد... "أتكون أبنار سلّمت بواقع موت ردد؟.. - كذلك ظهر ثانية لججان سؤال الأيام والليالي الذي لا ينقطع. ولم يعرف أنه جرى له: ماذا كان يضير لو لم يظهر هذا السؤال في اليوم الذي سأخطو فيه أول خطوة على طريق الزواج! أهنأك مانع منه؟ وما المانع أن أتزوج؟ ولكن يدخل في هذه المسألة شيء لا أرتاح له. ما علاقة

الإمرة بالزواج؟ نخلش يبالغ أحياناً في أقواله. فيها شيء من الصحة، وأنا أوافقها عليها، ولكن مع ذلك... "

- هل تسمع؟ - نادى نخلش فقطع أفكار ججان. - أنشودة العرس تأتي من جهة ضفة النهر. تعالوا، دعونا نقاسمهم فرحتهم!.. - نخض نخلش الأصهب بكل ضخامته يضحك.

...

في اليوم نفسه، بعد الظهر، نشب قراع فرسان على باب دار ججان. تراكض من القرية المشاة والفرسان الذين سمعوا باختطاف أبنار. ولا بسو القبعات أكثر من لابسات غطاء الرأس.

- خربتم عرسنا، أهنتمونا، - قال كبير الفرسان القادم من طرف أدشس، - أعيديوا إلينا ابنتنا دون ضجيج.

- كأنك تهددنا؟ - ابتسم نخلش مبرزاً احتقاره، ولعب بارج حكوف حصانه. - ولماذا يهددك - قال العجوز طاطخ وهو يعبث بشوكتة الخشبية على كتفه،

- يعاملكم بإنسانية من لم تتصرفوا معهم بالمثل. حَقِّقُوا لهم طلبهم!

- أهذا أنت يا طاطخ؟ - سأل العجوز ساخرًا ينظر من فوق رأسه. - لو كنت سمحت لنا أن نركب بعلمك لأطعنك... كولس الزعيم عنده كنة ولو أنه غائب، فمن أراد تهنتته فليَتَفَضَّلْ!

- نخلش! - صاح مشقوه الذي وصل مع عدد من الحراس. - لا تعبت باسم كولس زعيم الخير! أين ججان؟

- رامبس سيدة الإمارة تأتي، - قال أحد الواقفين فالتفت الجميع. وأفسحوا الطريق لرامبس التي غطت جسدها من رأسها إلى ركبتيها بثوب صوفي أسود، ورافقوها إلى الحلبة. وترجل احتراماً لها كل الفرسان بمن فيهم حقار وشنبه إلا الحكوف ونخلش.

- وأنت لماذا تجلس منتصباً على صهوة الحصان؟ - نهر طاطخ نخلش مرة أخرى. - هل نسيت روح الأديعة؟

- وما شأنك أنت بي؟ - اركع لها أنت على ركبتيك! - صرخ نخلش أيضاً، وتمتم بارج الحكوف معلقاً على ما يرى:

- ما بال هؤلاء يتأملون ما ستنطق به سيدتهم الكبرى؟
- ماذا جرى أمام باب دار حفيدي؟ تعرّف الجميع على الصوت الذي صدر
من ورائهم: رأوا كولس يُنزلونه من الحصان معصوب الساق...

...

يقال إن الضيف لا يحلّ عليه ضيف آخر. ولكن لم يكن مضي أكثر من ثلاثة
أيام حين شاعت في كل أرجاء القسوغ بشرى عودة الأمير ردد من الأسر.
في غمرة الاحتفالات والأفراح المتتالية هرب نخلش وصحبه حقار وشنبه،
ويتبعهم ججان، والأشخاص الآخرون، الذين يعرفون جريمتهم، إلى جبال
الحكوف الصمّاء.

الكتاب الرابع

I

سأل ردد أمه حين بدأ المهنتون يتناقصون عما كان يُقلِّقها وإن كان عنده بعض المعرفة به:

- هل مضى زمن طويل يا أمنا على ضمّ أبنار إليك؟

- منذ اليوم الذي نكبونا فيه.

- أشفقت عليها لوحدتها؟

- نعم، ولأسباب أخرى.

- لم تقع عيني على آنست منذ عدت... - قال ردد في شبه شرود، - أهي متوعدة؟ سألت أبنار فاكثفت بالابتسام ولم ترد.

- لا تُلحّ على أبنار في شأن آنست.

- ما الأمر؟ - غلب القلق ردد الآن.

- ليستا في وئام... - أشاحت رامبس بوجهها مستصعبة الخوض في الموضوع. - لا تسأل، لا أستطيع إجابتك.

- يا أمنا! - نظر ردد في وجهها يغلبه العتاب.

- نعم يا ولدي، نعم، ما الفائدة مما تسأل عنه؟.. أفضّل أن يروي مشقوه الخبر على أن تسألني عنه، لو فعل لنفّس عن ضيقه... آنست التعيسة حامل... ثم إن الأفضل أن أخبرك، قبل أن تسمع من غيري، أن ججان الثرثار اختطف أبنار دون خجل فأعدناها حالاً. وها أنت ترى يا ولدي أنها تعيش بيننا هائلة...

- هل كولس مطّلع على هذه الأحداث؟ - سأل ردد متوهّج الوجه.

- ماذا تظن السبب في أن كولس المسكين طريح الفراش، أهو رجله المصابة!

- لم أتخيل البتة أن ينكشف لي ججان عن مثل هذا الموقف. - هيج ردد حزنه، ولما توجه نحو الباب وقلقه الذي لا يستطيع كتمه بادٍ على أعضاء جسده، نادته رامبس:

- توقّف لحظة يا ولدي! - لجم صوت رامبس الحازم الناعم ردد عند الباب،

فعاد وجلس مقابل أمه نادماً على تسرُّعه. لا تنس من يتصيدون اللحظة المناسبة للتدخل فيما بيننا إن لم نتصارع أحزاننا ووساوسنا. والأفكار مثل العالم الذي أمام عينيك. أحياناً يعرض عليك نفسه تحت أشعة الشمس، وأخرى يغمرك بضبابه. والإله الأكبر يدفعك دائماً إلى الحرص في العالم. ويُفهَمك تلازم الفرح والحزن. لا تنهَور في تصرُّفك، والتعقُّل يؤجِّل امتشاق السيف.

- يا أمنا، - سرت ابتسامة خفيفة على شفتي ردد ملاطفاً إياها، - تريدان أن تقول لي كما كان المرحوم غجبس يقول: فكّر قبل أن تتكلم، وافحص مجلسك قبل أن تجلس.

- يسرني أن تفهم كلامي على هذا النحو. - لم تختلج عضلة في وجه رامبس النحيف. - ولكن أفكاراً أخرى لا إجابات لها تقلقني. كنت مهمومة بأننا لم نجلس معاً ونتكاشف رغم مرور أسبوع على عودتك إلينا. واليوم لم نفعل غير أن بدأنا الحديث بأينار واختتمناه بأنست. ولا أقصد بهذا إدانتك، لا سمحت الآلهة، ولكن مع ذلك... لا أعرف، أتلومني على سلوكي مع أينار، كما فعل الآخرون؟

- ومن الآخرون؟ - سأل ردد رغم معرفته بمن لم تسمهم أمه. - ماكنت أريد أن أقول هذا يا ولدي، - لم تختلج عضلة في وجه رامبس أيضاً، ولكنها احتدّت هذه المرة، - ألا تثق بي؟ أيّ سؤال هذا! صارخني بما يشغل بالك دون أن تتجاوزه.

- لا تؤاخذيني يا أمنا على ما لا أستطيع البوح به... - أطرق ردد برأسه الثقيل. - كان هذا الموضوع الوحيد الذي أخفيه عنك في دنيائي، وها أنتِ ترين لم يدعونا نشهد فرحهما. ومن كان موضع أمني في هذا هو ججان، ولكنك ترين موقفه مني الآن...

- لا تعتب على ججان يا ولدي!

- يا أمنا!

- لا شيء يقف في وجه الحب، يحشد الجيوش ويواجه بعضها ببعض، ويثير الحروب بين الدول...

- رغم أنه وقف في صف نخلش الأصهب؟

- ربما لا يعرف ججان ما فعله بك هذا المهرج!

- كان ججان من أوائل من أُخبروا!

- إن كان هذا رأيك فإشهار السيف سهل، لا تستعجل عليه. - لا تغير رامبس موقفها مما تتردد فيه، - في هذه الحالة قد يكون ججان وقع في موقف حرج.

- أوضحي لي يا أمنا ما تريدن قوله. - قال ردد، وأنهى بالرأي الذي لا يتقبله: - أتريدن أن أردّ بقطعة من الجبن على من رماني بالحجر؟ - لن أدعك تتصرف هكذا مع نخلش، غير أن هناك ما يدفعك إلى فعل هذا مع ججان.

"أسرعت في نسيان إهانته لك، - خطر لردد أن يردّ على أمه، ولكنه كبت عواطفه، ناصحاً نفسه، تجاه من قاست من أجله كل هذا العذاب. ولكن بدأ ينمو في صدره، دون أن يدري السبب، شيء من الشك: - هناك ما يردعني عن ججان... وهو كولس، بغضّ النظر عن أننا زُيّنا معاً؛ كيف أتناسى هذا الرجل؟ لو لم يكن بيننا إلا موضوع نسائي لقلْتُ إنه لا شيء يمتنع في هذا المجال، فضغطت على مشاعري؛ غير أنني لن أغفر له أبداً وقوفه إلى جانب من مدّ يده إلى روحي. لا يخلو رأيي أننا من الصحة: من الصعب التخلص من شبكة نخلش الأصهب. لا أعرف إن كان الأفضل أن أتحدث إلى ججان قبل أن أجابه؟.. وماذا أقول له؟ أألومه على أنه أهانني ولم ينتظر عودتي؟ سيسخر مني الناس، وسيعتب عليّ مشقوقه الذي يخدع ججان أخته... لا، لا. إن عرف ججان أنه سيغفر له فلن يألو جهداً في إيذاك..."

كانت أفكار رامبس مشتتة كأفكار ردد: "أي حيرة أوقعتُ فيها ولدي ولما يمض على عودته إلا أيام، ودون أن أتيح له التفكير في ما جرى لنا؟! - ندمت رامبس على عنفها فأكملت مبرّة نفسها، ولكن دون حسم: - كيف كنت مارسْتُ الإمارة سنة كاملة لو لم يسندني هذا العنف! وصدف أن اضطررت إلى أن ألبس قبعة شوباش حين لم يتقبله بعض الناس. شكراً للحراس، لم يغفلوا عن حمايتي ودعموني. تحملوا معي أمنيّة الوحيدة في ردد. وظهر أمثال ججان، غير أنني لا ألوم هذا البائس؛ لي حصة أنا في جفائه نحونا.

ولكن هل كنت أترك الحبيبة التي تركها ردد وحيدة في بيتها؟! كنت أرى فيها متى نظرت إليها ولدي الوحيد. ضمنتُ إليّ أبنار متحملةً النتائج، متحديّةً تعليقات الناس، متجاوزةً بعض التقاليد. وما كان يُدريني أن ينتقدني صديق ابني على مسلكي بدلاً من أن يحميها معي ويحرص على سمعتها؟.. لا أترجع عن قولي: هناك ما يردع من كنت واثقة من أنه سيحمينا، ولو أنه جرحنا. ولكنني أترك لك الحرية إن كان لك رأي آخر...

- لا تحزن لما سأقول يا ولدي، - قالت راميس بعد انقطاع، - أمانا مهمات أكثر إلحاحاً من هذه، - اختتمت راميس كأن بلا مبالاة.

- ونحن نتابع هذه المهمات. - نهض ردد مبتسماً في وجه أمه بشيء من الخبث. - سأجمع بعد بضعة أيام مجلس رئاسة القسوغ، وتحدث في القضايا التي لا يمكن تجاهلها.

انتفضت راميس لما سمعت، ونادت في إثر ردد:

- أيّ قضايا هذه يا ولدي؟

- وهل سأكررها يا أمنا - أفهم ردد أمه عدم ارتياحه لسؤالها وإن تظاهر بالمزاح.

- وهل أترك أمير القسوغ على أرض الغرفة يكرر ما يريده؟ كان سؤالاً فحسب. - لم تكتم راميس ما لم يُعجبها. وبرزت نفسها في ما تريد: - أتساءل فحسب إن كان موضوع رئاسة أو بلاد.

- أظني يا أمنا صدعتُ رأسك بأمور الدولة طوال غيابي وراء البحر... - ابتسم ردد في وجه الأم بمزيد من الحذر.

ردت راميس بجدة على ما سمعت:

- هذا ذنبك أم ذنبي؟! - وقفت راميس بقامتها النحيفة الرشيقة.

- لا، لا يا أمنا، - اكتشف ردد في هذه اللحظة خطأه، - لم أقصد ما فهمت، سامحيني!

- ربما ما غفرتُ لك لولا وضعك الصعب. ولكن لا تكرر مثل هذا الكلام. أما قلتُ لك إنه لا يجوز أن ينشأ بيننا مثل هذا الجدل. علينا أن نتكلم في انعقاد مجلس الرئاسة، ثم في قضايا البلاد. ولكن سأطلب من أصدقائك

إخبارك بما لا يجوز تأجيله... نعم يا ولدي لا أطلب منك التكرار...
ما إن تجاوز ردد قائمتي الباب حزناً لتسببه في حزن الأم التي لم يستطع اللقاء
بها سنة كاملة حتى التقى وجهاً لوجه بأينار:
- هذه أنت يا أينار؟

- نهارك سعيد يا ردد، - رمته بنظرة قلقة، ثم أسبلت جفניה.
كانت الأفكارُ القلقة للشخصين اللذين تعمدت رامبس التقاءهما بطريقة
فتحها للباب خلصة، متطابقةً، ولكن ردد عاد إلى غرفة الإمارة وأفكاره لا تدع
له راحة. ولم يجلس على مقعد البلوط الكبير إلى جانب الجدار، وكما كان
يفعل في الأسر للتخلص من الخواطر المزعجة التي تهاجمه ظل يذرع أرض
الغرفة. ثم توقف فجأة، وسخر من نفسه: " لماذا أعرج وقد تخلصت من
قيودي؟ - وحين بدأت مناظر الأسر وراء البحر تمتثل له، نفخ رأسه فانتزع
نفسه منها، ووقف إلى جانب النافذة المطلة على الغاية الجبلية. وشعر
بالانتعاش من منظر الثلج الأبيض أمام عينيه: - هذا هو عالم القسوغ!..
لُتْطَلِّي علينا نوراً أبدياً يا شمس سمائنا! أشكرك على أنك أتحت لي أن أرى ثانية
هذه الجبال العالية، والغابات الواسعة، ودخان المواقد الهادئة، وأن أسمع صياح
دِيَكْتِنَا ونباح كلاينا. وأعدت إلى أذني لسان هؤلاء الأطفال الذين يلعبون
بالدوامات... لا، لا، لا أقول إن كل ما أتحت لي أن أراه في البلاد الأخرى
كان سيئاً. ما ذنب قوم باناتيد إن كان هو مجرمًا؟ وهل نخلش وأسباروخ أفضل
منهم؟ وجماعة حقار؟ وججان صديق الروح انضم إليهم... انظر، انظر إلى
تلك الشجرة الوحيدة على حافة الجبل! " - صاح ردد فرحاً بالمنظر الذي
ارتسم أمام عيني ردد ولكن أينار آلمت قلبه في اللحظة نفسها، ففارق النافذة.
لم يستطع ردد الاستمرار في الجلوس. وبعدما ذرع أرض الغرفة بضعة مرات ولم
يجد فيها راحة، توجه ليس إلى النافذة الأولى، بل إلى تلك المتجهة نحو أرض
الدار. ثم فارقها أيضاً غير مرتاح لما يرى في دار الإمارة الواسعة.

" أيّ قلق لا أخلص منه وقد عدت إلى بيتي ومقرّ إمارتي؟ - نصح ردد نفسه
مُزِيحاً الهَمَّ الأول له حسب علمه، متناسياً إياه. - أنا حيّ وسليم، ونجوت من
مهالك كثيرة، وأعدائي، بمن فيهم نخلش، هربوا إلى الحكوف. وظل القسوغ

الذين شرفوني بالإمارة مخلصين لي، يبحثون عني وإن لم أقدم لهم الكثير من الخدمات، وعاشوا الناس الذين تركتهم مكاناً إنسانية. والحرس الذين كنت أخاف أن يتفرقوا، زاد عددهم، وإن ليس كثيراً. ولم يدخلوا في صراعات بينهم. وبعد كل هذا أعيرَ أُمِّي بأنها اعتادت على أمور الحكم... لا أعرف إن كنت أتسبب في أن أغضَّ الطرف عن كثير من الأمور وأنا أتتبع طريق الخير فلا أرى الأشياء الصغيرة مشغولاً بالكبيرة. هل صحيح إذن ما حدث لنا بشأن أبنائنا؟ مأساة أن تقيم معك في البيت غير معروفٍ إن كانت زوجتك أم أختك، يشتاق أحدها إلى الآخر، ويتسم له في سره، ومتى التقينا هرب كلٌّ منا مذعوراً. ألا يمكن أن يكون هذا الوضع السبب في همِّ أُمِّي؟ وهو الموضوع الذي يريد من أصدقائي أن يفاتحوني فيه؟ وهل من المعقول أن أبدأ إجراءات زواجي قبل أن أستاذف شؤون الإمارة؟!"

نظر ردد مسروراً في قرارته لإنقاذ صوت الباب له كائنات من كان الطارق. وقال متحمساً للقائه:

- تفضَّلْ يا تراب، تفضل! أراك متأنقاً، مدججاً بالسلاح، هل أنت على طريق سفر؟

- كيف أمثل أمامك بملابس رثة، وقد نصحني إلهنا الأكبر قبل لحظات ألا نترك أمير القسوغ في أفكاره؟! ليست أحسن ما عندي، وجئت منفذاً أوامر ألهتنا بالدعاء لك أن يبقى كلامك وفعلك متلازمين، وأن تتابع إمرتك بخير وسلامة. وأن يبقى سرجك وحزامه مشدودين دائماً.

- حياك الآلهة يا تراب، - قال الأمير ردد شاعراً بالانتعاش مما سمع، وبتوسع الغرفة التي هو فيها، وبحفّة أعضائه ومفاصله. - وأنت حقّ الآلهة لك كل خير. وأعرف أنني عشتُ في دعواتك عاماً كاملاً، ومتأكداً من صدق مشاعرك نحوي. عشنا قرابة ثلاثين عاماً أصدقاء فإن حدث بيننا أي جفوة أو تنافر فالأفضل أن نتناساه.

- شكراً يا أمير، - توهج خدّاً تراب وهو يسمع اليوم ما كان يتمنى سماعه في كل ما مضى من عمره، - غمرتني بكلمات تنعش القلب، فحملتني حملاً أبدياً، فإذا كان ألهتنا هم من عليهم تفسيرها فسنعيش معاً أنت وأنا على طريق

الإخلاص والرحمة كما يأمرونا أمام القسوغ الذين أرسلونا إليهم. وأمتنا...
- يا تراب! - قاطع ردد تراب الذي كان يتفاحح. لم تفهم جيداً ما قلت لك.
لا تدعنا نتكلم في موضوع "الإرسال" الذي ليس من شأننا. لم يُنزلنا أحد من
السماء، لا أنت ولا أنا. ولا أحد يجهل أصلينا.

- صحيح، صحيح، يا من أدعو له أن يعيش وإمرته تزداد غنى. - وافق تراب
الأمير سريعاً. - لا غبار على ما قلت. أنت ابن الأمير لاورستن، وأنا سليل
المرحوم "تَرْزَاب" الذي قضى على يد البغيض حقار، وإن لم يكن مشهوراً
كوالدك. ولكن يجري بمعرفة الإله الكبير في هذا الموضوع شيء لا نعرفه نحن.
لا تدعني أستعجل. أنا لا أفعل غير إبلاغ ما يوحى إليّ به الآلهة. هل تعرف
إذن ما يسمى "الروح"؟

- وكيف لا أعرف ما يسمى بالروح؟!

- هل صدف أن رأيتهَا؟

- وكيف أراها؟

- هذا هو المقصد... - رفع تراب يده نحو السقف، قاطعاً كلامه أحياناً،
مُشيراً بإصبعه إلى السماء، - الروح لا يراها أحد. ولا يمكن أن يراها. متى
احتُضر الإنسان استلم منه الإله الكبير روحه، ورفعها إلى السماء. وأثابه بما
قدّره له من قبل أن يولد. ومع ذلك أنت تشكّ في ما غرسه الله فيك. - اختتم
مغمغماً.

- لا أسمع أقوالك لأول مرة، ولذا أوافقك على موضوع الولادة والموت. ولكن
الموضوع الآخر، الإرسال، - وأكرر عليك ثانية - لا تدع أحداً يسمعه منك.
والآلهة سيلعنونك، والناس سيسخرون منك.

- لن أخالفك يا أمير! إن كان هذا رأيك، - ابتسم تراب وهو يحطّ ثانية على
الأرض التي طار منها، وموّه على ما لم يتحقق له كأنه ليس هو المسؤول: -
يبدو أنك أنت أيضاً لم تفهم كلامي كما يجب. ولماذا نتجادل في ما لا نعرفه!
أنا مهمتي كما قلت لك هي إبلاغك بما قاله لي الآلهة. وها أنت ترى أن الآلهة
لم يهجرني إلى الآن، ولم يسمحوا لي أن أخدع أحداً. والقسوغ كلها، لا مزبه
وحدها، شهودي. ويأتيني من الزبخ والموط كثيرون يستفسرون عن الآلهة...

- أكّد تراب أقواله ولم يكن ينوي تغييرها. " كنت أتأمل أن يكون الأسر رَقّ قلبه ولكنه مصرّ على ما يقول، ولا يتقبّل كلامي... سأراك يوماً تكرر ما أريد أنا. أكون، تبعاً لأقواله، جاء معه بأهله البلاد التي غاب فيها؟ لا أعرف وقتها... " - لا أريد يا ردد، يا مَنْ يومه مئة، أن أسأل عن آلهة البلاد التي كنت فيها، غير أنني أحبّ التعرّف عليها.

- هؤلاء الذين تسأل عنهم يا تراب كان لهم في زمن ما آلهة متعددة، ولكنهم يؤمنون اليوم بإله واحد. - سرت على فم ردد ضحكة لا رياء فيها، - أتى لي كثيراً على ذكركم ديمتري الذي كان يزور كولس إن كنت تتذكره...

- لا تُكْمِلْ يا أمير، لا تُكْمِلْ، - قاطع تراب ردد فزعاً، - وأنا نادم على ما سألت عنه. لا تقل اسمه. وديمتري ذو وجه الصليب أخذ من نكبتنا بك وهو يذكر اسم الإله ويُسَمِّعنا. أما كنتُ أحتدّك وأنت تسخر مني أن صليبه لن يجلب لنا الخير؟! - استطاع تراب إخفاء ارتعابه ممن سمع اسمه، واتهام من ذكر اسمه بكل المصائب. ولكن صارحه بما يُقلِّقه هو دون انقطاع طويل: - لا أقصد بهذا أن نكمّ أفواه كل من يخالطوننا. ولكن لماذا نفتح أبواب مضافاتنا لمن يستقبحون طعامنا وابتهالاتنا؟ لو كنت مكانك لما سمحت لمجموعات المبشرين المسيحيين أن تطوف في الإمارة حيث تريد وتفعل ما تشاء. ما سلطتي أنا؟ لا أفعل أكثر من إبلاغكم بما يريد مني أهلي. وخلال غيابك أبلغت القسوغ ما كانوا يبلغونني. والآن، وقد رجعت، سأكون وسيطاً صادقاً بينكم لا أزيد كلمة ولا أنقص. ولكن متى رأيت في القسوغ ما لا يُعجبني، بصفي رسولاً للآلهة، فمن أبلغ إن لم أبلغك أنت؟ لن أخفي عنك أنني سأتيك بملاحظات.

- مرة أخرى أشكرك يا تراب، - قال رد باسماً منتهزاً فرصة انقطاع حديث موفد الآلهة: - العالم مرّكب من جملة أحزان ولهفات. وهُكّ واحد من هذه الهموم. أنت وأنا لا يعرف أحدنا الآخر اليوم فحسب. لا تدعني أكرر هذا كثيراً. إن كنت صادقاً في ما تقول فتفاهم مع القسوغ لأنهم بحاجتك. ونقذ لهم مطالبهم العامة منك. وأنا أؤيدك وأساندك عند الضرورة. ولكن إنس مشروعات بالإشراف عليّ باسم السماء والآلهة. لن أقبل هذا، لا منك، بل من أُمِّي ومن كولس. ولن أحقق لأعضاء المجلس الأعلى ما يتعارض مع مصالح القسوغ.

- حسنٌ جداً يا أمير، - وافقه تراب ضاغطاً على مشاعره، مغلباً رياءه، - منذ زمن بعيد لم أسمع في القسوغ كلاماً بهذه الصراحة. لا أستطيع أن أنسى توسلاتنا إلى جماعة حقار وجماعة نخلش خلال غيابك. ولا أعرف كيف كنت سأعيش لولا ما كان يمنحني الآلهة من الأمل... - أضاف بصوت منكسر.

" انتهى تراب الذي كنتُ أعرفه في زمن ما، - كان ردد يضحك في سره، ولكنه شعر برهبة خفية من هذا الذي كان يعارضه. - وكما كان في الماضي ما إن يجد في كلامك ما لا يعجبه حتى يقفز عنه مؤيداً إياك. ثم يُكمل بما يريد متى وجد الفرصة. ولكنه تحول إلى شخص آخر تماماً من خلال جلسته وسُحنته وضحكته. قضينا معك طفولتك نداريك بدعوى أنك معاق، ولا أتذكر غيرك سلكنا معه مثل هذا السلوك. انظر إلى لباسه... جلد الثعلب الأزرق الرقيق فراؤه، وقبعته المدورة المتطاولة منه. ولكاسية الساقين اللون نفسه. وسيفه وخنجره بلون الفضة. وأين ذهبته حديثه؟ يخفيها ظهر الفراء النافر. لم أصدق ما قاله لي أغبان وشوباش قبل أيام ولكنه ثبت قدميه، لا في مزبه وحدها، بل في كل أرجاء القسوغ. ولما سألت مشقوه اكتفى بالابتسام ولم يُخبرني أنه يحتفظ ببوابين، وأنه بنى بيتاً من حجر، ويستعد للزواج. لا أظن أنك تستطيع أن تؤذي بالسخرية من يأتيه الناس من الزبخ والموط يستشيرونه في قضايا الآلهة والدين. أخشى أننا فوتنا رأس الحصان ونحاول اللحاق بذيله. لأجل هذا كان كولس يقول: من ترفع الكلفة بينك وبينه يكسر ساقيك. لماذا أتحامل عليه بدءاً من فرائه إلى بوابي بيته؟ - دان ردد نفسه وهو يعود إلى وعيه: - هذا صدقٌ معي على الأقل في حضوري وفي غيابي، لم يفارقني. ولكن ألا ترى كيف يتعامل معي؟ ألا تسمع تعريضه بي؟ يلمح لي أن أتوسل إليه... "

دخل شوباش إلى الغرفة، ووقف إلى قائمة الباب غير مرتاح لرؤية تراب فيها.

- تعال يا أخي الصغير؛ لماذا تقف إلى جانب الباب؟

- لن أقاطع حديثكما! - وخرج حالاً.

- خلال غيابك يا أمير، - تنهد تراب هائلاً الرأس، - لي عتبٌ على أخيك شوباش وإن تبين عن رجولة.

- ماذا جرى بينكما؟

- وهل كان مشكلةً لو كنت أعرف؟.. هيج عليّ أغبان في الأشهر القليلة الأولى فلم يسمح لي بالمرور بخذاء سور بيتكم، دَعَك من الدخول إلى الدار. ولولا راميس السيدة الكبرى لما سمح لي المذكوران أن أقيم في مزبه، بل في القسوغ كلها. أعرف سبب عداء أغبان: كنت بين من اعترضوا عليه حين عيّنته رئيساً للحرس بحجة أننا لا نعرف أصله... وشوباش؟ أنهى تراب شكواه بسؤال وحيد لا جواب له.

- أياكون شوباش سمع شيئاً مما علّقتكم به على أغبان؟
- لا، لا يا أمير، - استطاع تراب أن يستغل السؤال وإن كان هو نفسه يعرف عدم صحة ما يسأل عنه. - كنتُ أول من استشاره كولس زعيم الخير في موضوع تأمير شوباش فوافقته على مسمع من الجميع، بمن فيهم حقار ونخلش وصخبهما، أعداؤنا الأزليون. ولكن لا أستطيع أن أغفر إلى الآن رفض ججان... وربما كان هذا السبب في عتبه عليّ...

ابتسم ردد بسبب ما تذكره ذاهلاً عن أقوال تراب: " ما لا ينسأه تراب هو ما احتفظ به في قلبه منذ كان صغيراً... - أذكّره بشيء مما فعله وهو الذي يذكّرنا بما نسينا وما لم ننس؟ ولكني كنت وعدته أن أتأسى الموضوع سَتراً لأينار أكثر مما له، لما روى لي عاهته - مأساته. ولكن الأمر تبين خلافاً لما كنا نتخيله نحن الاثنين... أقول له أم لا؟.. لماذا نفتح الباب على أينار بعدما عانت ما عانت؟! ولماذا أخرج من جديد هذا الدعيّ الذي يزعم أنه رسول الآلهة؟ " - ضحك ردد ضحكة خفيفة لا تعرف أهي سخريّة أم شفقة. وإذا كان ردد قرر عدم الكشف عن سبب رفض شوباش لتراب فإن الآخر لم يُطق صبراً:

- أظنك يا أمير تخفي عني شيئاً لا أعرفه. ولكن الآلهة يطلبون مني عدم الإلحاح على الأمير فلن أعتب عليك. ولذا إذا كان أمير القسوغ سيقيني على يمينه مثمناً قيمة موقعي فما قيمة أغبان وشوباش... وأولئك الهارين إلى الحكوف... - يعود تراب من جديد إلى الموضوع الذي يريده... - أفهم يا أمير ما يُقْلِقُك... هذا سبب إرسال الآلهة إليك بعدما اتفقوا.
- أيّ مهمة أوفدك الآلهة إليّ من أجلها؟ - سأل ردد كاظماً نفسه بصعوبة.

- هذا الذي يقلقك ولا تستطيع الإفصاح عنه يا أمير.

- أنا يقلقني الكثير. لم يعبأ رد بما لم يُكشَف له عنه.

- لا يحدث شيء في القسوغ دون علم الآلهة يا أمير، - لا يشك تراب الآن في أنه يُخرج أمير القسوغ. ثم أُنهي بصوت لطيف: - وشرفوك بلقب الأمير لثقتهم فيك. وسيُدوك على كل القسوغ. ولكن لا يجدون من اللائق أن تقيم أنت وأينار في بيت واحد. يقولون إن من قَدَمناه على الناس يجب أن يتمتع بالتُّقى في كل مجال.

" لم يهتموني بما لا أستحق! - انفعل ردد مما سمع لائماً نفسه. - ما عَرَضت لي بشأن أينار صحيح، سواء باسم الآلهة أم بغير اسمهم، ولذا لا أعتب عليك. ولكن لا يمكن أن يُوَكَّلوا مثلك بالكلام على أخلاقي! أستحق ما يجري؛ ما تَوَرَّعت أن أكتشفه للناس يتهمني به الآن!.. من أجل هذا قالوا: لا تدع رأس الحصان يفوتك وتلحق بالذنب... لم يتركني لأني وفيت بوعدِي له بشأن أينار. وسنرى ما يَحْبِي لنا المستقبل. إن كان سيسخِّر علاقاته الإلهية لمصلحة الإمارة فلن نعترض طريقه، ولن نفارقه على جفوة... "

- أنا راضٍ عن آهتنا بخصوص أينار! - قال ردد شارد العينين وهو يزيح أفكاره المتصارعة. - وأنا مشغول بهذه المشكلة لا أعرف ما أفعل حيالها.

- ولماذا تحملها معك يا أمير! - تظاهر باستغراب ما يسمع، وأُنهي الموضوع على أنه منتهٍ: - ستجد في القسوغ فتاة تريدها.

- يا تراب، يا صديق العمر، لا تدعني أخطئ في أينار، - رد عليه بالمزاح ناسياً كونه أمير القسوغ، غالباً عليه الرجاء، - لن أتجاوز من أحب إلى القسوغ أبحت عن زوجة.

- إن سمعت كلامي فلن أدعك تفعل هذا. والآلهة التي فضلها عليك لن توافقك.

- ما الأمر؟ - سأل ردد باختصار وقد امتنع لونه.

- لا أعرف ولكن أتساءل عن رأي الآلهة في الفتاة التي اختطفها ججان، ثم انتزعوها منه... - أضاف تراب لنفسه بصوت منكسر: " إن لم أعالج المسألة التي أتوجس منها فلن تسمح لي هذه الفتاة ذات الرأس الرفيع أن أعيش في

القسوغ متى صارت أميرة البلاد"

قضت الابتسامة الخفية التي سرت على شفتي ردد على كل آمال تراب. ولكنه تظاهر بإخفاء ما يعتلي في قلبه. وطرح الخبر الجديد الذي لا يعرف عنه الكثير أمام جلسيه:

- حسناً إذن يا أمير، " لا تتعلق بفتاة ليس لها حُطّاب " على رأي المرحوم عُجْبَس. أنت أدري بشؤونك؛ تصرف كما تريد. غير أنني أظن أن أمراً أَدْعَى للقلق ينشأ بيننا... متى التقيت أنت وقدان أبيها الأمير؟

- كان بين أوائل الفرسان الذين استقبلوني حين رجعتُ. ورافقتي في اليوم نفسه لعيادة كولس، ما الموضوع؟

- والآن؛ في الأسابيع القليلة الماضية؟

- برّيك يا تراب ما هذه الأسئلة التي لا نهاية لها؟ - غضب ردد رافعاً رأسه الثقيل، ثم أكّد عليه: تكلم!

- سأقول، ولكن لا أظنك ستصدّقني.

- يا تراب! - انفجر ردد غاضباً مما سمع الآن. - لا تنس من تجلس في حضرته!

- نعم يا أمير، نعم، ساجّني. أقع أحياناً في مواقف عليّ أن أنسى نفسي فيها. قبل أيام شوهد هو ونخلش الأصهب، وكان ججان معهما.

- هذا مستحيل! - جزم ردد، وسأله: - من أخبرك؟

- أنا يطرق بابي كثير من الناس لمسائل إلهية يا أمير. قبل أن أنقل إليك ما قال لي الآلهة شهد زوّاري على صحة الخبر. كيف لم يُطْلِعك أغبان أو مشقوه عليه!.. - ثم أعاد السؤال بنبرة ناعمة أشبه بالرياء: - أَيْكونان غير مطلعين عليه!..

نُحْض ردد بكل ضخامته ففهم تراب أن مهمته في بيت الإمارة انتهت اليوم.

II

إن احتكّ حجران انبعثت منهما النار.

على مبدأ " ولّد الضيق فأنجب الانفجار " قضى ردد يوماً وليلة لا يعرف راحة

البال. ولم يفهم أهل البيت ولا خدم الدار سبب جهامته ونزقه المفاجئين. وكان يدعو زواره وجلساءه إلى الارتياح وإن لم يجرؤوا على مصارحته. ويعرف هو نفسه حالته، ولكن لا يسيطر على نفسه في أن ينصحها ويلومها، وحين يخلو إلى نفسه فيعيد التفكير لا يجد جواباً. ومقابل كل سؤال ينتصب سؤال جديد قبل الجواب.

صداقة قدان بالقياس إلى نخلش وججان لا يتجاوز عمرها بضع السنين الماضية. وإذا أضفت إليها شهور غيابه عن القسوغ لم يتجاوز المجموع السنوات الخمس. من أول شخص جمع بينهما؟ تيمرقوه؟ لا. كان قدان لا يزال في الأسر حين عاد تيمرقوه إلى قريته مستحقوه. وتأخر عنه سنتين أو ثلاثاً. لا يتوجه إليه بالكلام خيراً أو شراً، اللهم إلا أن يسمع أحياناً بسيرته. نخلش هو من اختاره وكيلاً له حين تصارعا في فسحة قراي. ثم تباعدا شيئاً فشيئاً دون أن يعرف أحدهما ما جرى بينهما.

" وهل يُعقل أن يصبح قدان من تابعي نخلش الأصهب؟! - تألم قلب ردد من سؤال الشك، ثم نهر نفسه بأسرع من سابقه - كيف استطاع هذا الخاطر أن يغزو رأسك يا ردد بن لاورستن الأمير؟! هل فقدت الثقة بواحد من الثلاثة الذين وثقت بهم مجلس القسوغ؟.. لن تعرف بهذه الطريقة من هو قريب منك ومن هو بعيد. نخلش الأصهب نفسه كان ينوي السفر معهم لولا اعتراض كولس... تجري بيننا أمور لا يعرف بها إلا الآلهة على حد تعبير تراب. ثم إني أنا مصدر هذه الأحداث ومأثها... أياكون السبب أي لا أصدق أحياناً ما ينقله إليّ تراب باسم الآلهة؟ أتأمل سنوات إمري فأجد أي لم ألاق خلالها إلا المشقات والمآسي. ومن كان ينصحي: احذر من حقار، ولا تصدق ابتسامات نخلش الأصهب في وجهك، ولا تذهب إلى الصيد وحيداً، هو تراب... ومن لم يكن يودّ إرسال موفديّ الذين قُتلوا إلى الحكوف هو تراب... والخبر السيء الذي جلبه لي أمس تبين صحته. ومن استمزجت آراءهم أجابوني - باستثناء مشقوه - أنهم سمعوا به، ولكن لم يهتموا، ولم يقتنعوا أن قدان يمكن أن يفعل هذا. ومشقوه اكتفى بأن زَمَ كتفيه وابتسم، ولم أره مهتماً بما أنا مهتم به... فما الأمر؟.. "

نادى ردد إلى خارج الغرفة وطلب أغبان:

- أين مشقوه؟ لماذا يغيب طوال النهار في الأسبوع الذي سيجتمع فيه مجلس رئاسة القسوغ؟

- بقي مشقوه في دار الإمارة حتى الظهر متأهباً لتلبية نداءك يا أمير.

- ألا يقابلني قائد جيشي إن لم أطلبه؟ - لم يدع ردد قائد حرسه يكمل كلامه.

- لم ألاحظ في مشقوه ما يدعو للريبة يا أمير، - قال أغبان واختتم بالخبر المنحوس الذي لم يدعه الأمير يرويه: - أرسلوا وراءه على عجل لأنهم مشغولون بأمر آنست سيئة الحظ. تحاول الخروج رغماً عنهم كلما خطر لها ججان. وتحاول أن ترمي بنفسها من النافذة.

- مسكينة آنست... - شرد ردد ناسياً ما كان يشغل باله، وناسياً أنه ليس وحده. وعاد بسرعة إلى حاله: - لما زرت آنست قبل أيام وتحادثنا خرجت بانطباع رضوخها لما جرى لها... مرة أخرى يجب أن يعالجها أحد الرقاة، ولا يتوقف تراب عن الدعاء.

- تراب؟ - سأل أغبان بعدما سمع كلام ردد. - لا يا أمير، لا. لا يجوز أن تأتي على ذكر تراب لأنست. تصرخ حالماً تسمع صوته. ومتى سألتها انطوت حالاً على نفسها.

وبدلاً من أن يسأل ردد عن سبب تصرف آنست على هذا النحو تذكر ما ضبط به تراب مع أبنار في وقت سابق. ولكن لم يجد الفرصة للراحة:

- هل أطلب مشقوه يا أمير؟ سأل أغبان.

- لو كان العالم مركباً كما تريد... - خرج ردد من أفكاره بكلام عجائزي لا يتناسب مع عمره. - لن نزعج مشقوه قائد الجيش إذا كانت أموره الأسرية على هذا النحو. غير أن ما في بالي شيء يتعلق بالدولة: كان حسناً لو جمعنا المجلس الأعلى للقسوغ قبل حلول الشتاء. ماذا أجب من أبلغتموهم؟

- سيجتمعون إلا واحداً في الموعد المحدد يا أمير.

- ومن هذا الواحد؟ - سأل ردد دون ذكر اسم من يشك فيه.

- قُدان.

- وما رأيته؟

- غائب عن القرية.

- أين هو، وماذا يتابع؟

- أسرته لا تعرف، والناس مختلفو الآراء.

- يبدو، على رأي كولس، أن النار التي لا تنفخ فيها تنطفئ. - يظهر أن ما يُشاع عن نخلش الأصهب وقدان صحيح. - قال الأمير ردد وحرزته بادٍ من صوته ومن هزة رأسه. ثم انتفض برأسه الثقيل وسأل: - هل قابلتم مصدر الخبر؟

- قابلنا يا أمير كلٍّ من ذكر اسمه. والجميع سمعوا قالاً عن قيل، ولا أحد يعرف الحقيقة.

- ليس هذا غريباً... - قال ردد موافقاً بلا اهتمام، ثم سأل بنبرة احتجاج: - لماذا لم أسمع إن كان هناك مثل هذا الخبر؟
- لم نكن نريد أن نشغل بالك بما لم نتحقق من صحته ولا سيما أنه لم يمض على عودتك إلينا كثير من الزمن.

- لا تُشفقوا عليّ في مثل هذه المسألة! ما يُفنيني هو ما يقال وراء ظهري من أسرار. أفهم أنه لا يمكن كُفّ أفواه الناس، وأن على كل إنسان أن يعيش بقناعاته وأمنياته، وأنه سيُحاسب إن ارتكب خطأ، وأنه سيُثاب إن اجترح بطولة. "الإنسانية فوق كل شيء، وانعدامُ الشرف أدناها" - كان هذا المبدأ سياسة الأمير لاورستن في الحياة، وآخر كلمة ودّع بها الحياة. وبهذه الكلمات نفسها انتزعتُ في سالونيك روح قاتله أسباروخ. وهكذا يُنقل ما يجري في بيزنطة وبلاد الروم إلى قيصرهم. وهذا هو المكان الذي يجب أن تُحلّ فيه أمور بلاد القسوغ، وإليه يجب أن تُنقل أخبارهم. والضجة التي أثّرت حول قدان، إن كانت صحيحة أم كاذبة، واحد من هذه المواضيع. هيا يا أغبان، تشاوروا حالاً وتابعوا أخبار قدان. اعثروا عليه. لحظة يا أغبان، - أوقف رئيس حرسه، الرجلُ الربعة المتين، عند قائمة الباب. - لا تأتوا على أخبار اجتماع قدان بنخلش الأصهب. وإن وجدتموه فلا تدعوه يشكّ في شيء. وليساهم في أعمال مؤتمر المجلس الأعلى بصفته عضواً فيه.

- إن كان هذا رأيك يا أمير، - تصلَّب أغبان أكثر مما هو عليه عند الباب، - فسنصرف كما أمرت وسنجد أينما كان.
- إياكم أن ترسلوا بهذه الحجة كثيراً من الفرسان إلى الحكوف!.. - قال ردد في إثر من كان خارجاً من الغرفة، غير أن الأخير لم يسمع. ثم نهر نفسه على ما خطر له، لا يجد من اللائق إعادة النداء، متسائلاً: أيمن أن يفعلوا هذا ببساطة دون علمي؟.. وما إن نخض قاتلاً في نفسه: هؤلاء لا يمكن أن تتوقع ماذا يفعلون بك، حتى دخل شوباش:
- نهارك سعيد يا ردد، لم تقابل منذ البارحة.
- أسرع واطلب من أغبان أن يعود إليّ. - لم يترك ردد فرصة الكلام لأخيه. وفي اللحظة نفسها وقف أغبان عند قائمة الباب متظاهراً بعدم الاهتمام بسبب استدعائه:
- أسمعك يا أمير.
- أريد تنبيهكم إلى عدم إرسال كثير من الفرسان إلى الحكوف. - كرر ردد كلامه بنبرة ألطف عن ذي قبل.
- لم يخطر لي مثل هذا يا أمير. ولن أقبل من غيري إن خطر له. سأطلب منهم أن يبحثوا عنه في القرى القريبة والأبعد منها دون ضجيج كما وعدتكم.
- هذا حسن، والآن يمكنك متابعة أعمالك... وماذا بعد يا أخي الصغير؟ - قال ردد بعدما بقيا وحدهما - ما أخبرك وما حالك؟
- لا بأس، - أجاب شوباش مرتاحاً للسؤال، - لا أسمح للشقاء أن يجبسنني. كنت البارحة واليوم في الغابة.
- وحدك؟! -
- لا، كنا خمس زلاجات، وثمانية عشر فارساً.
- لا بأس هكذا. - قال ردد، وابتسم بشبه رياء.
- ما الأمر؟
- كنتم قليلاً على جيش، كثيراً على خطابين.
- أنت تسخر منا يا أمير، ولكن، - أسرع شوباش معتداً بمعرفته، - جئنا لكل من أرامل مزبه العشر بحمل من الحطب.

- هذا خبر سارّ، ولذا أسحب كلامي.
- ولكن في مزبه يا أمير أرملة لم تفهمنا. - قال شوباش وحزنه وابتسامته متلازمان.
- من الأرملة التي فعلت هذا في مزبه؟
- دكايس. اعترضت عليهم بأنها امرأة وحيدة، لا أرملة. وطلبت منهم إبعاد حمل الخطب.
- وهل يجوز أن تسمي دكايسَ المرأةَ التي تعيش وحدها بالأرملة! - ضحك ردد من أعماقه كما لم يفعل منذ أن عاد إلى القسوغ. واختتم برأيه في الموضوع:
- أقول في شأنها: إن من لا يفعل المعروف لا يفهمه، ولكنها ليست من نوع الأرامل هذا.
- وأعرف خبراً أعجب من هذا، - تأمل شوباش وجه أخيه بشيء من الخجل المصطنع.
- وما هذا أيضاً؟
- قيل إن تراب غضب حين سمع ما قالت لنا دكايس.
- كُفّوا عن تراب، كفاكم! - احتدّ ردد فجأة، ثم أضاف بصوت مرتاح: - لا تتناسوا أنه رسول الآلهة. دعوه يعيش على هواه!
- كنا سنتركه... - لم يملك شوباش إلا أن يغمغم كائناً حقدته على تراب، - لو كان من يربي القرية يرى نفسه.
- اسكت يا شوباش! - غضب ردد على أخيه الأصغر، - لا تتكلم في ما ليس من شأنك. وانسَ ما سمعته في زمن مضى. اعتبر نفسك لم تسمع ولم تعرف. وليس تراب من تفضّل عليه بهذا المعروف، بل أنا. وتحلّ بالرجولة والصبر في شأن أينار ومن التحق بأعدائنا جحان. ولن يستطيع أحدٌ تجاوزَ ما كتب الآلهة على جبينه. سامحي يا أخي إن أسأت إليك. سرتني زيارتك ولكن لم نستطع أن نتحدث كما كنت أريد... كان مُستوناً يقولون: متى اشتدّ عليك القلق وغلبك الكلام رأيت العالم مقلوباً. ثم ما أخبار النساء يا أخي؟ أنت من يخالطهنّ. كنت بدأت حديثاً بشأن أمنا، - قال ردد هكذا دون هدف إلا التنصل من الأفكار المغمّة التي غزت رأسه.

- والنساء يا ردد لا يفتقرن إلى الأخبار، - ضحك شوباش مرتاحاً للسؤال، -
ولم يمض زمان على مفارقتي إياهن. أمنا تغزل الصوف، وأينار تنسج جراباً.
- على كلامك، تزجيان الوقت لدفع الملل!
- لا مكان للملل في حياتهما. - يبدو أنهما تشتغلان عملين معاً. تصنعان
جوارب لأنست وكولس.
- ومتى ستشتغلان في جواربنا أنت وأنا؟ - مازحه ردد، - ونحتاج إلى كفوف
ناعمة. وإلى غطاء رأس لكل منا... يا أخي شوباش، النساء لا يقصّرن في
شيء. ولكننا نقصّر في شيء يجب أن ننجزه.
- وما هو يا ردد؟ - قلق شوباش حتى انتفض برأسه.
- متى عُدنّا كولس آخر مرة؟
- مساء أول من أمس.
- طال غيابنا عنه. أخبر الطباخين أن يجهّزوا سلة بَرَكٍ لأننا سنزور كولس هذا
المساء. وليرفقوها بماء العسل.
- دخل أمير القسوغ غرفة كولس فنهض جميع من عنده كباراً وصغاراً. وفرح ردد
حين رأى كولس على مقعد وطيء، لا في الفراش، والزوار حوله على الأرض:
- "راح الشرّ"، والحمد لله على السلامة يا زعيمنا المبارك الذي ندعو له أن
يُظَلِّلنا ويؤمّه مئة يوم. إن كنت جلست من رقادك فقد نجوت من المرض بفضل
أهتنا. ووقفت ثانية على رجليك.
- نعم يا ردد، أشفق الآلهة عليّ. - رفع كولس جسده قليلاً عن الكرسي
وابتساماً خفيفة تسري على الوجه الشاحب. وأضاف بعدما صافح الأخوين:
- والفضل بعد الآلهة لكم، لجيراننا، ولأبناء قريتي، وأصدقائي.
- كأني صادفتُ وصول الأمير ردد يا كولس، - قال تراب على عتبة الباب
كمن يتعجب مما جرى له، وهو الذي رأى ردد وأخاه متجهين إلى بيت كولس
ومعهما سلة الفطائر المترعة فتبعهما بسرعة. ثم قال من ورائهما: - أدعو لهما
إلى الآلهة أن يعود هذا خيراً عليك يا زعيم الخير.
- ليتقبّلنا الآلهة! تفضل يا تراب، - نهض كولس قليلاً من أجله أيضاً. - ألا
تجلسون؟ لماذا أنتم واقفون! اجلس يا طاطخ، وأنت يا ردد اجلس

مقابلتي. وأنت يا تراب إلى جانب أميرنا.

- وهل من اللائق أن أجلس إلى جانب أميرنا الكبير! - تظاهر تراب بالتردد وإن كان سرّه ما شرفوه به.

- اجلس، اجلس، لا ضير في هذا! - قال الأمير ردد، ونظر إلى العجوز المريض بعين الرضا.

- شكراً يا أمير، - قال تراب معتداً بنفسه، ثم توجه إلى كولس: - يسرني جداً يا زعيم الخير تصريحك أن الآلهة أحسنوا إليك. حقاً كان الجيران والأصدقاء يرعونك ولكن كل شيء بأيدي آلهتنا. خطرت لي مرات كثيرة، وفي كل مرة لم أنس أن أدعو من أجلك إلى الآلهة. وقد سمعوني، وأنا مسرور لوقوفك على رجلك.

أشاح شوباش بوجهه لا يطبق أقوال تراب. وتمتم: " أليس عجباً أن الأرض كانت ستخسف بالجميع لولا دعواتك! وهل يصدّق كولس وردد وطاقخ أقواله؟ انظر؛ ها هم بعض الرجال المتجمعين هناك يضحكون.

- ألا تزالون واقفين؛ اجلسوا! - لام كولس الرجال الواقفين.

- لا، نحن منصرفون إذ جاء الأمير... - قال أحد الواقفين.

- وهل يقول أحدٌ مثل هذا الكلام! - استلم ردد الحديث من الرجل. - وما المشكلة في مجيئي، نجلس ونتسامر. كلنا من أصل واحد...

- يا أمير، نريد فقط أن نقول إن الضيف متى حلّ ضيف آخر عليه وجب أن ينصرف. ولم نقصد ما خطر لك. - ساهم آخر في الحديث.

- نعم، اجلسوا أيها الشباب، - خاطبهم كولس بلغة النصيحة، وألقى عليهم نظرة ارتياح. - رجولة الأمير ردد واحترامه لنفسه متلازمان دائماً. وعلى كل حال لن يأتي أحدٌ ويكرّمنا إن لم يحترم بعضنا بعضاً يا إخوتي الصغار.

- صحيح، صحيح. - أيد طاطخ صديقه، وعاد من كانوا منصرفين فجلسوا. وأنصتوا إلى أن أنهى كولس خبر المجرم أسباروخ. وتوجه طاطخ إلى ردد مباشرة وسأله وبصيص نور يُشع من عينيه الباهتتين:

- أخاف أن يصعب عليك يا أمير ما سأذكرك به، ولكن، وقد هَرَمنا، انقطعت سفراتنا، يقال: ما تراه العين يساوي الحياة، ونحن مشتاقون إلى الأخبار. نحن

نعرف ما فعلت بالمجرم أسباروخ. وأجبرت نخلش المجرم على الهروب. ولا أريد أن أسمع سيرتهما... ولكن ما أخبار تلك المنطقة، وما أحوال معيشتهم؟

- كيف أروي لك هذا يا طاطخ؟ - قابل العجوز ردد بنظرة دافئة ممزوجة بابتسامة خفيفة تنم عن إقباله على الحياة، لا يريد أن يحرم نفسه من شيء منها. ولكن قبل أن تتاح له فرصة الاستمتاع بالجواب من جديد فتح أحد الشبان الباب. ودخل مع رفاقه بصحون الخزف وأكواب العسل.

- ليس الطعام مشكلة؛ عندنا المزيد من الوقت، - مرة أخرى تأمل في وجه الأمير. - نسمعك يا أمير.

- الإنسان يظل إنساناً أينما كان يا طاطخ، - يشتغلون، ويأكلون، ويرتّبون شؤون دولتهم. - اصطنع ردد سعة، وتابع: - ولكن بالقياس إلينا غنيهم غني جداً، وفقيرهم معدم. حقاً عندهم مدن كبيرة، وعندهم بيوت من حجر وأماكن تسلية تبهر العين... وماذا بعد؟

- وأنت بأي لغة تفاهمت معهم يا أمير؟ - لم يسأل العجوز كولس وهو الذي قضى سنوات في الأسر جاهلاً أن في البلاد الأخرى من يعرفون لغة الأديغة، ولكنه كان يريد إسماع الجلوس أن بين الروم القاطنين في مدن مثل بانتيكابيه وفيودوس وتوم - تقاش وغيرها من يعرفون لغة الأديغة.

- وجد لي من باعوني له، - كانت الذكريات تثقل على ردد، ولكنه كتم انفعاله - من يترجم كلامي.

- ما أعجب ما تقول! - نصّ طاطخ برأسه، - هناك من يعرف لغتنا إذن!

- نعم يا طاطخ، في البلدان أناس مثقفون يعلمون اللغات، والتجار أمثال باناتيد يجردون من يترجم لهم لغتنا. - يوجب ردّد العجوز.

- هيه أيتها الدنيا العارية! - هزّ طاطخ رأسه، - نحن نكتفي بالطعام وتأمل السماء، وهناك من يتعلم لغتنا في بلاد بعيدة.

- لا تحسد هؤلاء يا طاطخ، - أشار تراب إلى العجوز، - نحن إن عشنا وأحدنا يغبط الآخر نحافظ على ديننا، ونُعزّ آلهتنا، ونعضد أميرنا ردد متعاونين فسنصبح دولة. وأنا شخصياً لا أوافق من ليس لهم إلا إله واحد.

- كل أمة من الناس تعيش وفق معتقداها يا تراب، - أجابه الأمير ردد بصوت

غليظ حازم. - وهؤلاء الذين تتكلم عليهم مرت قرون يعبدون فيها آلهة كثيرين. والآن توجهوا إلى إله واحد. قال متهيباً من الحديث عن الآلهة.

- وها هما المسلم الحاج الذي تعامل معي، والرومي ديمتري، كلٌ منهما له دينه الخاص. - دخل كولس بحدوء إلى الحوار، غير أن كليهما يعبدان إلهاً واحداً يشبه إلهنا الكبير.

- لا يا زعيم الخير، لا. - ارتفع تراب وعيناه جاحظتان، وتأمل الجالسين بعين مرتعبة. - لن يتخلى عنا إلهنا الكبير وآلهتنا الأخرى إن كنا محظوظين. اقشعرّ بدني من نقاشكم. ما أعظم قدرات آلهتنا يا كولس! لنبتهل إليهم! - رفع تراب يديه ففعل الآخرون مثله، وقيم بعض الوقت لا تفهم ما يقول. ثم اختتم مُسمِعاً الجميع: - أبتهل إليك ثانية باسم القسوغ يا إلهنا الكبير أن تغفرَ لنا وترحمنا إن أخطأنا. وحققْ لأميرنا ما يتمناه، وانصره على أعدائه.

أهاج الحديث المفاجئ عن الدين معظم الجالسين، وتبادلوا نظرات التساؤل. وألقى ردد نظرة استياء على تراب. وغضب لانحراف الحديث الذي بدأه إلى ما لم يقصده. ونظر شوباش أيضاً إلى تراب غاضباً: " أنت لن تتوقف عن مساعيك إلا بأن تجعل الناس يؤمنون بأنك رسول الآلهة حقاً. ولكن سأشهد اندحارك إن عشنا!.. "

تطرق الجالسون في المضافة إلى كثير من الموضوعات: زاروا بلدان ما وراء البحر. وحلّوا في توم - تقاش. وتفقدوا الموط والزبخ. ورتبوا بفوضى حذرة أمور قرى القسوغ. ولكنهم لم يدخلوا أرض الحكوف. وتهيبوا أن يأتوا في حضرة كولس على دُكر من هربوا إلى هناك لأن حفيده بينهم. وربما منعهم أيضاً من الخوض في الموضوع أنه سيُبحث في اجتماع المجلس الأعلى للقسوغ. وفي هذه اللحظة كان ما يقلق تراب شيئاً آخر: إبعادهم عن حديث الإله الواحد الذي جرّهم إليه ردد، فلم يُراع أحداً من أجل أن يحمي نفسه:

- دعونا لا نتكلم على الآلهة! ليس تفسير الموضوع من شأننا، - قال تراب، ثم قال بصوت يبعث الرهبة في القلب ويداه إلى السماء: - دعونا نفكر في إلهنا الكبير الذي سيشرق علينا غداً... إن جفانا وأشاح عنا... إن اتجه إلى الحكوف وانضم إلى أعدائنا؟! - ملأ همس تراب الغرفة رهبة، ثم خرج فانتهش

الصمت. حتى أكثر الجالسين رؤوسهم وقد صَعُرُوا أمام انعدام الأمل. وبينهم مَنْ تبادلوا نظرات صامتة تسأل عما يقوله تراب. وكان بعضهم جاهزين للانصراف يبحثون عن حجة له.

اصطنع طاطخ سعلة، ووافقه مَنْ إلى جانبه. وارتفع في مكان آخر صوت حركة مقاعد. وتبادل كولس وردد الابتسام دون أن يُظهروا أي انفعال. ولم يتحمل شوباش:

- ساحووني أيها الكبار، أتساءل يا تراب: ألا يجوز أن تحمل في قلبك الخير يوماً ما؟! لماذا تُسمع الإله الكبير ما لم يخطر لنا؟!

- أنا إن لم أتكلم مع الإله الكبير أو الآلهة الآخرين يا شوباش، - ردّ تراب مسروراً لاعتقادهم بقربه من الآلهة، مستاء من انتقاده، - فهؤلاء يعرفون ما في قلوبكم، خيراً كان أم شراً...

- حسناً، - انتزع كولس الحديث من تراب، - مدّوا أيديكم إلى الفطائر وماء العسل اللذين أرسلتهما إلينا رامبس السيدة الكبرى!

بعدما تناول الحضور بعض الطعام جعل كلام شوباش أخاه الأكبر ردد يعيد التفكير:

- لا يشك تراب في أن إلهنا الكبير سيشرق علينا غداً، ولن ينحرف جهة الحكوف هاجراً إيانا، لا تدعونا نحتفظ في قلوبنا بما لا حاجة إليه. يطلب منا أن نعيش معه على الخير فحسب.

كان تراب سأل شوباش في سرّه: "هل سمعت، هل فهمت؟" - رمى تراب شوباش بنظرة استياء، وقابله الأخير بنظرة عدائية لاحظها الجميع.

III

الضباب الكثيف يسود الحكوف منذ شهر.

لم يجعل الحكوف مشكلة من الضباب في اليوم الأول، ولا الثاني، ولا بعد أسبوع، قائلين: ليكن الضباب! وهل نشهد الضباب لأول مرة في الجبال! وفي الأيام العشرة التالية حين بدأ الليل والنهار يلتبسان شرع اليأس يتسلل إلى قلوبهم، يفكرون في ما لم يكن يخطر لهم. وبعد أسبوعين يخرج الناس من البيوت

وقد سئموا من مصاييح الدّهن، وينتشرون على الطرقات التي غطاها ضباب لا نهاية له. وإذا أضيف إلى الضباب خوار الأبقار ونباح الكلاب ونعيق الغربان أصيب الحكوف، ساكنو الجبال الأبديون، بئاس مطبق. - يُحِيل إليهم أن نهاية العالم حانت.

- يا نخلش! - نادى بارح ضيفه، - هل أنت نائم؟
- منذ زمن بعيد نسيْتُ ما سألت عنه يا بارح، - نادى نخلش من الأريكة التي على الجدار الآخر فأَنَّ الحشب تحته.

- هل تعرف يا ضيف بِمَ أفكر؟
- وأنا أيضاً أفكر في أمور كثيرة؛ سأعرف إن أخبرتني.
- وهذا صحيح، الفكرة تأتي وتروح... الحقّ أن ما يُفَنِّيني هو الضباب الذي لا ينتهي. هل تؤمن أن أحداً لم يسلّطه علينا؟!

- ربما في كلامك شيء من الصحة، - ماطل نخلش الأصهب في الجواب مفكراً في السؤال. وأعاد عليه السؤال بالطريقة نفسها: - ما الأمر؟ هل تشكّ في أحد؟

- أليس كل ما في الدنيا موضعاً للشك؟.. - جلس بارح في الفراش، وألقى بمخضلة الشعر إلى جانب، واستند برأسه إلى الجدار. - ستحدث قليلاً إذ لا ننام، وسأطُبعك على بعض ما يشغل بالي. وتفيدني برأيك. نعم، العالم مركب من أسئلة وشكوك. نعيش ونحن لا نكاد نرى شيئاً رغم أننا مفتّحو العيون. وأكثرُ ما نراه بلا جواب، ومبعثُ للخوف. وها أنت ترى ما يجري لي في شأن الضباب ونحن نؤجل من يوم إلى آخر. ومُسيّنونا لا يتذكرون أنه جرى مثل هذا في نواحيننا. أخشى أن يكون ألهتنا تخلّوا عنا لأننا ارتكبنا ذنباً ما، أو جاءنا به سبب آخر. - لم يقطع بارح الذي لم ينتبه إلى ارتعاب نخلش من الكلمات الأخيرة حديثه، - نعم، الضباب أيضاً مصدر للرعب حقيقةً. لا يُستبعد أن يتفتت الجبل الصخري المطل علينا، وأن تفيض الأنهار، وأن تنهار السماء. ولا أسهل من احتراق الغابات. والنيران ستتحول إلى رماد.

"مضيفي في حالة غير اعتيادية... - جلس نخلش في الفراش حريصاً على نفسه. ولمس السيف غير البعيد عنه. - كأنه دُخل في عقله... - ليس منذ

هذا اليوم أعرف حكوف بارج، سافرنا معاً أكثر من مرة في مغامرات. واجتزنا أكثر من موقف خطر. ولا أتذكر أنه وقع في اليأس مرة، بل أنه ضعف أمام الأخطار. وليسوا قلائل من أنقذهم فاتحاً لهم طريقاً بحد السيف. - فما الذي جرى له؟

- هل تسمعي يا نخلش؟

- نعم يا بارج، ولكن كلامك لا يعجبني.

- أسمعنا شيئاً من عندك إن كان كلامي غير صحيح!

- لا، لا أقصد أنك مخطئ يا بارج، - استدرك نخلش على غير عادته البتّة، ولكنه لم يستطع كتمان ما يشغل باله: - أخشى أن تكون وفادتنا عليكم تثقل كاهلكم. ربما كنا اتجهنا إلى الزبيخ أو الموط، بل إلى الروسيج، حيث خال معبود القسوغ ردد، لولا أننا نقيّم عالياً رجولتكم وإنسانيتكم أيها الحكوف.

- شكراً لك يا نخلش على لجوئكم إلينا. أعبّر لكم عن رضانا باسمي وباسم من يتبعني من أناسنا. ولكنك مخطئ في شأن قانشاو: الحكوف هم من هزموه وعقباه تصطكان بظهره، فالأفضل ألا يمنحه أحد قيمة ما.

- وهل قلتُ إننا نحن من فعل هذا؟

- لا، لم تقل: نحن، "وأعرف أنك لا تعترف برجولة أحد. ولكن حين تقول "أرغمناه على الفرار" فهذا هو المفهوم.

- سامحني، يفلت منا أحياناً ما ليس في قلوبنا.

- ليس هذا ذنبك يا نخلش، - وجه بارج كلامه المتهدّج إلى الجهة الأخرى من الجدار، ثم صمت. وحِيلَ إليه أنه سمع حركة كرسي.

- هل هناك من تشكّ فيه؟ - أسرع نخلش بالكلام. ثم أنصت يلجمه الرعب، يخاف من الحركة ومن التنفس. وصاح وقد أعاد إليه هدوء البيت الشجاعة: - ألسنت أنت يا بارج من أسأله؟ أين أنت؟

- وأين سأكون؟ - أجابه بارج بصوت منكسر ثانية، - أتهيّب أن أذكر أسماء من أرتاب فيهم... - غضب من جديد، - أقصد الجيّّ الأشرار... طردوا من حولنا الجيّّ الأخير منذ أكثر من شهر فغطّوا الحكوف كلها بالضباب... ما أملنا، وبم نفكر؟ حسناً لن أكتف ما دمت بدأت: نحن وأنتم يتهمنا الحكوف

بجلبِ الجن الأشرار... لم نكن نعرف الضباب شتاءً. يقولون: من أين أتانا الضباب الذي سيكون فيه دمارنا إن لم يكن ضيوفنا أتوا به؟..
- وما شأننا نحن بضباب أرضكم؟ - سأل نخلش بين الاستغراب والسُّخط. وتوجَّس من خلوّ المضافة في الأيام الأخيرة.

- لستَ المشكوك فيه من بين الضيوف يا نخلش. - قال بارح راضياً، وأنهى بمن يرتاب فيه: - يشبه الناس حقار بالجنى الكبير الذي أوصانا موفد الآلهة تراب بالاحتماء منه حين دعوانا إلينا في خريف العام الماضي.
- هذا غير مقبول البتة! - نهض نخلش كالدب الجريح، وأنهى بصوت أعلى:
- لا تتخدعوا بتراب ذي اللسان الناعم!

- لا يا نخلش، لا. لا تصف تراب في بيتي بهذه الأوصاف! - لم يقبل بارح مرتعباً مما سمع. وأنهى بصوت ناعم حازم: - كان أخبرنا بأن هذا الجنى الشرير سيحمل إلينا ضباباً بلا نهاية، سواء في الخريف أم في الربيع أم في الشتاء، وأن نهايتنا ستكون على يده؛ وها أنت ترى حالنا اليوم... الليلة آخر المهلة التي حددها لي الحكوف؛ قل لي الآن ماذا سنتصرف!

لم يكن نخلش يريد الجلوس في الظلام أكثر مما جلس. أسرع بارتداء ملابسه كما يفعل عادة في مواقف الرعب، وقال بعدما ارتاح على الكرسي مسلحاً بالسيف والخنجر:

- لماذا نجلس في الظلام؟

- صحيح يا رجل، نهض بارح في الظلام وقد ألقى حملاً ثقيلاً عن ظهره بتصرّحه بما يشغل باله، وأشعل مصباح الدهن. وتأمل الرجل ذا الوجه الكبير، وبرأ نفسه مرة أخرى: - من عرف أن الجن الأشرار سيحاصروننا هكذا... أنت لا ذنب لك مطلقاً يا نخلش. الذنب ذنب ججان. وحقار الذي تبين عمن لم نكن ننتظره... لا أعرف إذا كنت أتسبب بمزيد من كراهية الآلهة لي إذ أنطق اسمه! - انتفض برأسه، واختتم منتظراً ما سيقول ضيفه: - إن لم نفعل به شيئاً كانت نهايتنا على يديه.

- كفاك تبكيتاً للنفس، لا بد أن نجد له حلاً. - قال نخلش اعتباطاً راعباً في ألا يُظهر شعوره بالإهانة.

- أمامنا حلٌّ وحيد، - حسم بارج المسألة. وأرعبَ الجوابُ الحازم قلب نخلش. حقاً عاش حياته منذ بلغ طور الرجولة وإلى الآن ينهب بلا خوف ولا شفقة ولا رادع كل مال غير محروس يقع في يده، إن كان الهدف فارساً أنزله من سرج حصانه، وإن كان على قدميه أزرق روحه، ولكن الاسم الأول الذي نطق به بارج جعله في حالة ذهول؛ ففي جميع الأحوال ارتكب هو وحقار الكثير من الجرائم. كانا صديقين يحتفظان بأسرار كثيرة بينهما. وهو قريبه بغضٍ النظر عن هذا كله. زوجة ابن حقار ابنة أخته وإن لم تكن أخته تماماً، لا يريد أن يفجعها. " ولكن ما يجابهني به مسألة اتفق عليها الحكوف، وليست مسألة بارج وحده. ولا أظنني قادراً على تغيير رأيهم مهما حاولت... من خدع هؤلاء يا ترى؟ أياكون قدان؟ كان مشقوه أرسله إلى ججان ليغسل عار أخته آنست..."

- بارج! - صاح نخلش وعيناه تلمعان من وجهه الأصهب، - أياكون قدان أخبركم بشيء؟

- وماذا يقول لنا؟ - لم يتحمس بارج كثيراً لما سمع، - هذا كان يبحث عن ججان، كان يجادله من أجل امرأة مسكينة.

- من يعرف، أسأل فحسب...

- لا، لا، لم يأت على ذكر من تشكّ فيه.

" من إذن أفهم الحكوف أن حقار جني شرير؟ - ألقى نخلش نظرة رعب إلى السقف. - أياكون كلام تراب الأحذب أثر فيهم بهذا العمق؟ ثم إن الضباب اللامتناهي هو من أذكى اعتقادهم. زرع في قلوبهم اليأس والتوجس من الشر... آه يا حقار، أنقذتك من المهالك مراراً ولكننا وقعنا الآن، أنت وأنا، في الهاوية. أنا سأنجو بطريقة ما، ولكنني أخشى أن تكون فيه نهايتك. لم تصبك مصيبة إلا من جرائمك، تعثر بها في كل اتجاه. طلبت منك مصارعة الأمير ردد وهو ما يزال شاباً غضاً فصرعك. وتركتك في الفراش نقيم لك حفلات الجابشه¹. وحين توجهنا إلى بيته كنت أول من انهزم. والآن وقد صار الحكوف ملجئاً،

¹ حفلات سمر تقام للمجروحين جروحاً خطيرة، أو عندهم كسور في العظام للترفيه عنهم.

يسمعون كلامي، أظن أنني لا يمكن أن أنفعل بشيء... "

- أراك لا تقول شيئاً يا نخلش! - سأل بارح بصوت مرتاب، وألقى نظرة تساؤل أيضاً، - صار موقفك من حقار محرجاً، أليس كذلك؟ ربما غلبك جنّيه الشرير دون أن تدري.

- لم تُخلق إلى الآن قوةً تغلّبي إلا قوةً ألهتنا، - انتصب نخلش بكل قوته. - رأيت الكثير من أمثال حقار، وهزمتهم، غير أنني أخاف أن نظلم رجلاً بريئاً.

- لا تشكّ في هذا! من رأى طبيعة مثل طبيعة بلادنا؟ مضى شهر بكامله، لا يوم ولا اثنان ولا أسبوع. لا يرى الناس من اللائق أن ينطقوا اسمه صراحة، يخجلون منك، ولكن الحكوف يتحادثون فيه همساً وجهرًا. يقولون إن حقار سيُهلكه الجن الأشرار.

- ما العمل إذن يا بارح إن كان هذا رأي الناس، - تنهد نخلش، - لا بد أن يكون لكلام الناس، ونحن جزء منهم، أساسٌ.

- اتفقنا إذن. - نهض بارح ومن صوته يتبين ارتياح قلبه، واقترب من المائدة وصبّ كأساً من الماء على القلب المهتاج. ثم أضاف مانحاً صوته الخشونة، ناظرًا نحو الباب: - والآن دعنا نفكر في طريقة لإزهاق روحه دون ضجيج.

تجادل الرجلان طويلاً وكلٌّ ينقض رأي الآخر في طريقة التخلص من حقار.

- عجباً يا من بورك فيه لأبيه، - صاح نخلش وقد نفذ صبره. - أنا قتلت من هو أكبر من حقار. - وأنت تعترض على كل ما أقول لك!

- أعترض من أجل ألا أثير ضجة حول الموضوع. - أجاب بارح بصوت قاطع، - سينفذه أصحاب الشأن، ومن لا شأن لهم لا حاجة لأن يتدخلوا؛ ألسْتُ على حق؟

- طبعاً، - خفض نخلش صوته بضحكة شكلية، - لنعمل هكذا إذن. حقار صديقي وقربي، لا يجوز أن أعتدي على حياته.

- وهذا رأيي أنا...

- دعني أكمل كلامي. غداً متى دخل أصحابي إلى المضافة، سننتظر بعض الوقت، ثم أقول: لا أثق بأمير القسوغ، لا يُستبعد أن يهاجمنا. ولذا سنستطلع نقاط الضعف جهة الشمال الغربي فأستدرجه إلى ظهر الجبل الذي لا قعر له،

وما تبقى مهمتكم أنتم.

- أظن أن هذا ممكن. - سُرَّ بارح، - إن تحقق ما قلت فهو أصحُّ ما اقترحت.

مضى الليل والرجلان في جدال، كان قد مضى شيء من الصباح غير أن الضباب المتراكب خلط الأوقات. وأيقظت النيران المتقطعة التي مرت من النافذة نخلش، وأجبرت بارح أن يرفع رأسه.

- ماذا يفعل هؤلاء؟ - سأل نخلش مستغرباً الشباب المراهقين الذين يتعاركون مشعلين النار في التبن المحزوم على شكل صلبان على رؤوس عصيٍّ معقوفة: - وماذا يقولون؟

- يقولون "جورا، جورا"¹ - ضحك بارح، - علّقوا الصلبان بالعصي يحرقونها. وأنتم لا بد أن الداعية المسيحي ديمتري وصل إليكم. كان يروي لنا أنهم مسيحيون لا يدينون إلا بإله واحد. والحكوف يرفضون هذا الدين. يقصد الأولاد بهذا أنهم يحرقون الكفار فيُرضون آلهتنا.

- ليقصدوا باللعبة ما يريدون شريطة أن يزيحوا الضباب. - نظر نخلش عبر الباب قليلاً ثم فارقه.

وفي اللحظة نفسها أتوا إلى الغرفة بإبريق وطست. وإثرهما بالمائدة. وفيما هما يتناولان الإفطار ظهر رجلان. ودخل بعدهما حقار. وانتظر نخلش ججان مدة غير قصيرة، ولما لم يظهر خرج ضائق الصدر من المضافة.

حُيِّل لنخلش أن أشياء ظهرت تُحيط بالضباب في هذا اليوم المعتدل الحرارة تمنعه من النظر، ومن مدِّ يده. ومع ذلك كان ينظر حائياً ظهره نحو مدخل الدار. وصل إلى سمعه وقُغ حوافر خيل أصمٍّ. ثم ظهر ججان ووراءه حصانه، ووصل إلى باب الدار. فاستقبله نخلش مسرعاً.

- كأنك تركب حصاناً لا يمشي؟

- ما الأمر؛ هل جرى شيء؟ - ألقى ججان نظرة خوف.

- لم يحدث شيء؛ أريد أن أسألك دون أن يدري هؤلاء.

¹ هي في الأصل لعبة أطفال أديغية ولكن يعلّق على العصي حشيش يابس، لا صلبان.

- عمّ؟
- عمّا قال لك قدان حين أتى.
- بخصوص مَنْ؟
- حقار.
- جادلني في شأن آنست، أوصل إليّ رجاء مشقوه، دون أن يذكر اسمه؟
- لا بأس إذن؛ تعال إلى المضافة.
- هل جرى شيء لحقار؟
- كل شيء بخير، لم أقل لك شيئاً، هل فهمت؟ - قال نخلش لججان بخشونة.
- بعد قليل على عودة نخلش إلى الغرفة دخل شابان متينا القامة إليها. ووقفوا إلى جانب قائمة الباب رافضين الدخول. وأوماً بارج بغمزة عين إلى نخلش يُعلمه بجهوزه. ولما اجتمع الرجال نهض ججان أيضاً يريد الانضمام إليهم، ولكن نخلش غيّر رأيه بسرعة قائلاً في سرّه: "ولماذا نُكثّر من الشهود؟!"
- الأفضل أن تبقى أنت وهذان الشابان هنا. ونحن سنتأكد من المواضع التي يجب أن نشدد فيها المراقبة ونعود.
- مشى بارج وحقار وبينهما نخلش مسافة غير قصيرة. ثم انحرفوا إلى اليسار، وتجاوزوا ظهر المرتفع. ثم عبروا بأقل من غلوة حصان قمة الجبل، وترجلوا. اقترب نخلش من حافة المنحدر بعدما علّق الزمام بطرف السرج. وألقى نظرة على الهاوية التي تدوّخ الرأس وتبعث الرعب في الأرجل. ثم التفت وصاح كمن يستغرب أمراً:
- حقار، ألقى نظرة على هذا الغزال! أين هو!
- وقف حقار مسرعاً إلى جانب نخلش.
- لا أعرف ممّ تتعجب، ولكن لن ترى في هذا العمق حتى رأس والدك لو كان فيه! - التفت حقار محتجاً إلى صديقه.
- ها هو، عند أسفل هذه الصخرة... هل أنت خائف؟ ألا تقترب قليلاً! ما إن خطا حقار خطوة أو اثنتين حتى دفعه نخلش الأصهب بجذعه، وألقاه إلى الهاوية وصراخه يريّج الوادي.
- هذا هو يا بارج، انتهى أمرُ الجني الشرّير إذا كان شروق شمس الحكوف

متعلقاً به. - قال نخلش كمن لم يرتكب أي جرم، وأضاف شاعراً بأن الريح الشرقية الباردة الحادة ستغير الجو: - ها أنت وأنا سنرى آلهتنا غفروا لنا ما فعلنا، وسينحسر هذا الضباب - المأساة غداً على الأكثر. - أنطق الآلهة لسانك بالخير دائماً يا نخلش، وأزونا شمسن العظيمة ثانية. ولن يُرعب شعب حقد الناس بعد اليوم...

في الصباح التالي نظر نخلش إلى خارج الغرفة فأحس بالريح الشرقية الباردة تهب، وانكمشت الخراف والأبقار والدجاج على نفسها من البرد. ومن القرية ومن المضيق كانت الريح تكس الضباب من الجبل. ومزق السحاب على القمم الثلجية تظهر على الجبال البعيدة التي تلمع تحت أشعة الشمس. كان الحكوف يدعون إلى إلههم العظيم الشمس، يتمنون وقد نسوا البرد، واختلط فرحهم برهبتهم، يتهلون إليه أن يرحمهم. وافقتوا أن الإله علم بقتلهم للجنى الشرير، فعاد واستدار إليهم. واعتبروا نخلش في ذلك اليوم واحداً منهم. وصقوه إلى جانب بارج رابطين بينه وبين أحقادهم. وآمنوا بتراب رسولاً حقيقياً للآلهة.

IV

بدأ النهار صباحاً مع شيء من رائحة الشمس فخرجت رامبس من الغرفة ترتدي ملابس رقيقة. خطر لها وهي تتفقد الدار شاردة أن ترسل أحد الخدم وراء "كُراث"، ولكنها غيرت رأيها في اللحظة نفسها. تذكرت أن جارها استعارت الغراب فتوجهت إليها بهذه الحجة. وبعدما خطت بضع خطوات التفتت إلى اليمين فتمثل لعينيها ما يشبه الظل. كان ردد بكل ضخامته يسد النافذة بحسده، وينظر إلى الفناء.

"يا حسرتي، هذا هو يا ولدي. - تكلمت رامبس إلى نفسها وهي تمزق قلبها. - قيل: من يشعر بضيق قلبه يروح عن نفسه بأي وسيلة. أعرف ما يغتلي في قلبك. لا يتسع لك البيت من ضيقك. وصارت أبنار بيننا كالدجاجة الدائخة. ينظر أحدكما إلى الآخر فيرتعد خوفاً. لا يستطيع أحدكما البوح للآخر بما في قلبه. وأنا السبب في هذا الحرج بينكما. ولكن ماذا كان بيدي؟ لم يكن عندي

خيار آخر. أنا المتسببة في هذا التعقيد ولذا عليّ حُلّه. سأستشير كراث أولاً. لن أستطيع مصارحتها بحقيقة ما في قلبي، ولكن إن افتتحت هي الحديث فكما قيل: رأيان خيرٌ من رأي واحد. امرأة حكيمة، كنوّم، وموضع ثقة... "

رأت كراث السيدة الكبرى تدخل دارها فاستقبلتها بوجه طافح طلق:

- تفضّلني يا رامبس، تفضلي، جئت في الوقت المناسب. خطرت لي في هذه اللحظات. - أدخلتها إلى الغرفة بعبارات الترحيب هذه.

- جئت أستعيد الغربال، - قالت رامبس السيدة الكبرى تبحث عن حجة. وتفحصت الغرفة.

- كان خيراً لي أن أموت من أن أدعك تأتين من أجل الغربال. - قالت كراث تخبط كفيها وعيناها الزرقاوان بتحفظان، - ألم يكن في البيت غيرك ترسلينه وراءه! كان يكفي إرسال أحد الخدم أو أبنار.

- هذه البائسة الصغيرة أشفق عليها يا كراث أن أكلفها بأي عمل. تقيم في البيت كظلّ.

- نعم، يا حسرتي، أفهم، - هزّت كراث رأسها وقربت المقعد، جلست قريبة من الجارة السيدة الكبرى. وقالت بصوت شفيق ونظرة إخلاص: - جاء بك ضيق قلبك أكثر من حُجة الغربال يا جارتنا؛ أليس كذلك؟

- عرفني، - سرت ابتسامة خفيفة على شفتي رامبس.

- ماذا قررت؟

- سأمرّ بترتيب بيت الصبية وأرض دارها، وأعيدها إليه. وأكلف اثنتين من بنات الجيران بالإقامة معها.

- حسناً ففعلين يا رامبس. ولكن هل أنت متأكدة من أن الاثنين، ردد وهي، يريد أحدهما الآخر؟

- يا حسرتي يا كراث، يكفي ما يتبادلان من نظرات ولكن لا يجروان... حين ذكرت وصول ردد وهذه المسكينة أمامي نهضت ترتجف. واغرورقت عيناها بالدموع، وهجمت عليّ تقول: " يا لفرحتنا يا نان!" ثم غلبها الحياء فهربت من الغرفة.

- أياكون ججان فعل بما أتوجس منه، وهي متحرجة من ردد أن تعترف به؟

- لا، لا، - لَوَحَت رَامِبْس بِيَدِيهَا، وَلَمْ تَدْعِ رَامِبْس تَكْمَلْ مَا بَدَأْتَهُ. ثُمَّ إِنَّ وَلَدِي لَيْسَ عِنْدَهُ مِثْلَ هَذَا الْهُوسِ. مَا رَأَيْتُكَ يَا كِرَاثُ؟ مَا وَقَعْنَا فِيهِ مَأْسَاةَ الصَّبِيَّةِ يَتِيمَةِ الْأَهْلِ. وَلَوْ كَانَ أَخُوهَا دَاوِرَ حَيًّا لَهَانَتْ الْمَسْأَلَةُ...

- مَاذَا بِيَدِكَ يَا رَامِبْسُ؟ - وَافَقْتَهَا كِرَاثُ مِنْ قَلْبِهَا، - تَتَصَرَّفِينَ حَسَبِ الظُّرُوفِ. إِنَّ سَأَلْتَنِي عَنْ رَأْيِي فَلَنْ أَتْرَكَهَا فِي بَيْتِهَا يَوْمًا كَامِلًا. أَقْتَرِحُ أَنْ تَرْسُلِيهَا صَبَاحًا إِلَى بَيْتِهَا، وَتَرْفِئَهَا مِنْ هُنَاكَ فِي الْمَسَاءِ.

- أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَلُّ، - وَافَقْتُ رَامِبْسَ. - سَأَطْلُبُ مِنْ أَحَدِهِمُ التَّحَدُّثَ إِلَى الشَّابِّ...

- وَلِمَاذَا تُثِيرِينَ ضِجَّةً؟ - لَمْ تَقْبَلِ كِرَاثَ، - الْأُمُّ أَقْرَبَ إِلَى الْوَلَدِ مِنَ الْأَبِّ. مِنْ سَيَكْمَلُهُ كَمَا تَكَلِّمِينَهُ أَنْتِ؟ تُحَدِّثِي إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً!

- رَجَّحْتُ قَلْبِي يَا كِرَاثُ، حَسَنًا فَعَلْتُ إِذْ أَتَيْتُ إِلَيْكَ. - نَخَضْتُ رَامِبْسَ، وَشَبِعْتُهَا كِرَاثَ إِلَى الشَّارِعِ وَقَدْ نَسِيَتَا الْغُرْبَالَ.

تَوَجَّهَتْ رَامِبْسُ إِلَى الْمِزَافَةِ وَقَدْ قَرَّرَتْ أَنْ تَكَلِّمَهُ مُبَاشَرَةً. وَفَتَحَتْ الْبَابَ وَهِيَ تُعَدُّ حَنْجَرَتَهَا لِلْكَلَامِ. وَلَكِنَّهَا لَمْ تَرَ ابْنَهَا فِيهَا. فَتَشَتْ أَرْضَ الدَّارِ مَغْمَغَةً: أَيْنَ اخْتَفَى فِي طَرَفَةِ عَيْنٍ؟ وَلَمَّا رَأَتْ أَغْبَانَ قَادِمًا مِنْ وَرَاءِ الْحِطَّائِرِ تَوَقَّفَتْ، وَأَسْرَعَ الْحَارِسَ.

- أَيْنَ الْأَمِيرُ رَدَدُ يَا أَغْبَانُ؟
- لَا أَعْرِفُ أَيْتَهَا السَّيِّدَةُ الْكُبْرَى، لَمْ يُخْبِرْنِي بِشَيْءٍ. - ضَمَّ أَغْبَانُ كَتِفَيْهِ، - رَكِبَ الْحِصَانَ فَرَحًا وَانْسَلَّ مِنَ الدَّارِ... نَعَمْ كَانَ شَوْبَاشُ قَدْ أَتَاهُ بِخَبَرِ فَأَرْسَلَهُ إِلَى كَوْلَسَ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ حَقِيقَةِ الْخَبَرِ.

"أَيُّ خَبَرٍ يَا تَرَى جَاءَ بِهِ شَوْبَاشُ؟ وَمَا الَّذِي أَفْرَحُهُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، أَمْ أَنَّ أَغْبَانَ تَحِيلَ الْأَمْرَ هَكَذَا؟ عَادَتْ رَامِبْسُ مُحْتَارَةً إِلَى الْغُرْفَةِ. وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا بَعْدَمَا وَقَفَتْ قَلِيلًا إِلَى النَّافِذَةِ الْمُطْلَةِ عَلَى الْفَنَاءِ: لَا مَعْنَى لَوَقُوفِي هُنَا؛ وَهَلْ يَعُودُ الْفَارَسُ الَّذِي خَرَجَ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ؟ سَأَطْلُبُ مِنْ شَوْبَاشَ أَنْ يُخْبِرَنِي بِمَا يَعْرِفُ. أَفْضَلُ أَنْ أُعَدَّ الْحَدِيثَ الَّذِي سَأَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَى رَدَدٍ. أَيُّ بَدَايَةٍ سَتَكُونُ أَفْضَلَ؟... وَلِمَاذَا أَحْسَبُ كُلَّ هَذِهِ الْحِسَابَاتِ لِمَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمِي! سَأُخَاطِبُهُ مُبَاشَرَةً: "أَتْرَكُ مِنْ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهَا، وَتَزَوَّجُ مِنْ تَرْغَبُ فَيْكَ!" وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ مَنْ يَتَوَسَّلُ إِلَيْهَا! وَلَمْ

أر صاحبة قلب أصلب من هذه الصغيرة. عيناها تفضحان ما في قلبها ولكن لسانها معقود..."

وفي هذه اللحظة طرقت أذن رابيس الأغنية الرقيقة التي تغنيها أينار. اقتربت من الباب الداخلي على رؤوس أصابعها وأنصتت: " نعم، ها هي ذي تغني، والآخر ركب طلق الوجه، - سرى في مفاصل رابيس دفء يبعث الراحة في النفس، - اغرورقت عيناها بالدموع فمسحتهما بطرف غطاء الرأس، ورفعت عينيهما إلى السقف: - أنا مسرورة إذ وصل دعائي إلى آلهتنا. يا شمسنا، إلهنا الكبير، إذا أنرت قلبي ردد وأينار وأرشدتهما إلى طريقهما كما أنرت عالمنا الكبير وأظلمتله فأنا أعترف أسديت إلي كل معروف في العالم، وأزحت عن قلبي كل أحماله..."

خرجت رابيس من الباب الداخلي بعدما زرعت أرض الغرفة بضع مرات، وانقطع غناء أينار. كانت الفتاة جالسة إلى النافذة تنسج الصوف، فأسرعت بالنهوض وابتعدت عنها. وابتسمت لها وهي تمسح عينيها:

- تعالي يا نان، اجلسي هنا، وأشارت إلى الصوفا.
- ماذا تفعلين يا بنتي؟ - مسحت رابيس على كتفي الفتاة براحتها الناعمة.-
لمن تنسجين الجراب الصوفي أيضاً؟
- أليس لشوباش! - ضحكت أينار.
- ألم تنسجي للاثنتين هذا الخريف؟
- ولكن شوباش يهرئ كعب الجوارب في شهر، ردد حريض أكثر. ما غزلته له لا يزال على حاله.

- ستهرئ إبر الحبكة أصابعك إذا كنت ستنسجين له كل شهر زوجاً من الجوارب. سألوم شوباش، وسأنصحها أن يحرص على ملابسه.
- لا يا نان، لا تعاتبه، أنا أنسج لكليهما راضية. أليس الأفضل أن أفيد في شيء من أن يقتلني الملل؟

- حسناً يا صغيرتي، ادفعي الملل عن نفسك. - خرجت رابيس من غرفة أينار مهتاجة القلب والجسد مما رأت وسمعت.

أرهق انتظار الابن الأكبر والأصغر عيني الأم. وفيما تتوقع عودة الأصغر منهما

قبل الأكبر دخل ردد أرض الدار على قدميه، على ظهره كساء أبيض، وقبعة شقراء تلمع تحت الشمس.

- يا ولدي، تعال إلى عندي لحظة. - قالت ردد، فنزع ردد الكساء عن كتفيه بحركة دائرية ونظر إلى أمه بعينين مرحتين:

- ماذا يا أمنا؟ إن كان عندك خبرٌ سارٌّ سررتك أنا أيضاً.

- من أين آتي بخبرٍ سارٍّ وأنا لا أخرج من البيت ولا أخالط الناس؟ - بدأت رامبس تناور من بعيد حول ما تريد قوله. - ألم يعد شوباش بعد؟ - لم يدع ردد الأم تكمل كلامها.

- لا!

- هو من يُفترض به أن يأتي بالخبر.

- أي خبر؟ اجلس هنا.

- ساجيني يا أمنا، لا تجوز الشماتة بإزهاق روح أيّ كان، ولكني لم أحزن حين سمعتُ بخبر من مات أخيراً.

- من؟ ألا تخبرني قبل أن ينفد صبري؟

- حقا.

- قلت لي حقا؟ - أعادت رامبس السؤال كمن لم تسمع. ثم أضافت منفعة نوعاً ما: - هذا الرجل ولدته أم أديغة، من صلب رجل أديغي، مهما بلغ من الدناءة. ليُسعدَهُ آلهتنا إذ رأوه صريعاً.

- لن يسمح له آلهتنا بالاقتراب منهم، سواء دعوت له أم لم تدعي. - ابتسم ردد ابتسامة مرة. - من أجل هذا يا أمنا قالوا: من لا يهدأ يقع يوماً في ما لا يريد.

- نعم يا ولدي، نعم، من يرم كثيراً يخلع كتفه.

- هذا هو تماماً لما روه لي يا أمنا. - ارتفع صوت ردد، - رماه الحكوف، بواسطة نخلش الأصهب، في هاوية فكسروا جناحيه، وتخلصوا منه.

- هكذا؟! ما عتبُ الحكوف عليه؟ ونخلش ألم يكن صديقه وقريبه أيضاً؟

- وهل يعرف نخلش الأصهب صداقة أو قرابة؟! لن يسأل عمن ولدته أمه إن كان له مصلحة. والحكوف أناخ عليهم الضباب فعاشوا شهراً في الظلام.

فقرروا جزعين أن عنصراً بشرياً هو المسؤول، ورسا اتهامهم على حقدار بصفته الجتّي الشرير. ولما كان هذا ما يريده نخلش اللعين نفّذ رغبة الحكوف الذين لجأ إليهم فأودى بحقدار وكسب بهذا وُدَّ الحكوف.

- لهذا يا ولدي كان والدك يقول: يجب التحقق من تصادقه أو تصاحبه. -
تنهدت رامبس وهي تمز برأسها. - وأنت تصادق أحياناً من لا يليقون بك.
- من تقصدين يا أمنا؟ إن كان ججان فأنت مخطئة.

- ولماذا مخطئة؟ نشأ ججان منذ طفولته نزقاً. ولم يحمل شيئاً من صفات جده كولس. لن يكون من عنده هذه الحدة والنزق إنساناً صالحاً.

- لا تقولي هذا يا أمنا. وُلدنا ججان وأنا معاً. وربيتانا معاً. صحيح أنه نزق سريع التأثير، ولكنه ليس امراً سيئاً. أعدت التفكير ففهمت ما جرى له. طال غيابي في الأسر فأقعوه أني فارقت الحياة. علق به نخلش متقصداً الإساءة إليّ، مستغلاً غيابي فلم يتركه إلا بعد أن أبعده عن آنست. وجعله يتعلق بأينار. ومع ذلك ربما ما حاول اختطافها، لم يتركه الأصهب... اغفري لي يا أمنا، تخليت عن الحياء في حضرتك. سأقول الحقيقة: هل تستطيع إلا أن تتعلق بأينار وأنت شاب عازب؟

قال ردد هذا، واحمر الوجه الطلق الجميل المتناسق. ثم أسبل جفنيه.

- ماذا تنتظر إذن يا ولدي الحبيب وأنت تعرف هذا؟ - فرحت رامبس للمسار الذي اتخذته حديثهما. الفتاة لا تعرف ماذا تفعل بنفسها. وأنت تقيم في البيت تتخفى هنا وهناك. ألم يبق في فمك لسان؟ إن لم نستعجل في حل المسألة سمعنا القرية تتكلم علينا من منظور آخر. وتصلني أحياناً مثل هذه التلميحات. ضع حداً لقضيتكما في الأيام القليلة القادمة. هل فهمت؟
- فهمت، - رفع ردد رأسه الثقيل وتأمل أمه بوجه مرتاح. وأغمض جفنيه حالاً. - كلمتها وانتهى.

- متى؟

- صباحاً حين زرت الجيران.

- رضي عنك الالهة يا ولدي! الآن طمأنتني. وذكّرني بالمرحوم والدك. وأنا قبل أن أُرَفَّ للاورستن كان أرهقني لا يصارحني بما في قلبه. حسناً، كفى، بالغث

في فرحي ولذا أقول ما ليس في محله. الأفضل من كل هذا أن نفكر في ما علينا فعله.

- وماذا بقي لتتكلّم فيه؟ أتزوّجها، تنتهي المسألة هنا. - ضحك ردد بصوت مسموع.

- لا يا ولدي، ليست المسألة كما تعتقد.

- أعرف، أعرف. سنرسلها إلى خالتها في ششحرس، ونزفّها من هناك.

- لن أرسلها إلى أي مكان. - حسمت رامبس الموضوع. - لماذا نورط العجوز المقعدة طريحة الفراش في همّ لا ضرورة له؟ بيت أبنار على حاله، سأرسل من عندي إلى بيتها من يجهزونه هو والدار. وأرسل معها فتاتين أو أكثر في الصباح، ونزفّها مساءً.

- فهمت يا أمي، فهمت، - نهض ردد قبل أن تكمل الأم كلامها. - سنتصرف في كل شيء كما تريدن أنت.

- ألم أطلب منك يا ولدي عدم التسرع! - نصحته الأم بلطف. - لم أكمل بعدُ كلامي. هيا ارجع واجلس، - تابعت بعدما جلس ردد: - سأقيم لها حفلات رقص طوال أسبوع.

- لا، هذا لا يجوز! - انتفض ردد، وأشار بيده، - أمامي عمل لا نهاية له. عليّ عقد اجتماع للمجلس الأعلى، وسندقق النظر في أعضائه، هل تعرفين إلام يحتاج جمع القسوغ وإنشاء دولة لهم؟

- أعرف يا ولدي، أعرف هذا أيضاً - وافقته رامبس، - ثلاثة أيام إذن. - هذا معقول.

- والآن من سيكون إشيبنك من الكبار؟

- لولا جيجان لما فكرت في غير كولس. عشنا أنت يا أمنا وأنا في رعايته منذ فقدت والدي. ولكن، حتى لو غفرت لجيجان فلن تكون أبنار راضية.

- صحيح يا ولدي، تحفطك في مكانه. ولن يؤاخذنا كولس. ولن نقع مضغة في أفواه أهل القرية. من تقترح إذن؟

- لا أعرف يا أمنا إلا مشقوه.

- يا ولدي كأنك تتكلّم اليوم من قلبي؟ - أنار وجه رامبس. وعلى عادتها

مدت يدها ومسحت على صدر ولدها. - أبتهل إلى آلهتنا أن يمدوا في حظك. كنت أفكر في التوجه إلى مشقوه لو اقترحت اسماً آخر. وستكون موضع مواساة لمشقوه ولأخته المسكينة بعد ما حدث لها. وستريحهم من أقاويل الناس. وإن عاد إلى جيجان عقله يوماً فسيرد الاعتبار لعرض أنست.

- لتكن هذه مشيئة الآلهة يا أمنا! لم يصل تفكيرى إلى حيث ذهبت بعقلك. - تصاغر ردد راغباً في التقرب من أمه. - فكرت فيه بدلاً لكلول فحسب. لا يزال منظر بيت أينار وسطحه جيدين إلى الآن. ولكن الفناء وداخل الغرف بحاجة إلى اليد الإنسانية.

وفي مساء اليوم نفسه أرسلت رامبس عدداً من الطيانات والحطابين، وعربة محملة، ونصحتهم:

- اعملوا ما في طاقتكم دون أن تثيروا ضجة! لم يكن بين الرجال ولا النساء من يعترض على رغبة السيدة الكبرى فأشعلوا حالاً نار الموقد. وبعد قليل بدأت رطوبة البيت تتحول إلى دفء لذيذ. وحين سخن الماء في القدر الكبيرة بدأت النساء في جبل التراب الأصفر، وسمعت أصوات فؤوس من أرض الدار. وهل يقعد الجيران وهم يرون غرف البيت المهجور منذ زمان منيرة، والدخان يتصاعد من المدخنة، والدار تمتلئ بالناس! وتبع الرجال زوجاتهم. وعرف هؤلاء أن أينار عادت إلى بيتها فشمروا عن سواعدهم وبدأ كلٌّ يعمل ما هو قادر عليه. رقعوا الأماكن التي تساقط منها التراب، وبعدما جفت الرقع طلوا الجدران بالكلس. ثم توزعت النساء، وكسون أرض الغرفة بطبقة رقيقة من الطين. ولما انتهى الرجال من أعمالهم تجمعوا، ورأوا النساء انتهين، فخرجوا أمامهن.

سهرت رامبس تنتظر من أرسلتهم إلى العمل إلى منتصف الليل. وما إن سمعت لغطاً في الزقاق حتى خرجت:

- إلى أين وصلتكم بالعمل يا من رعاكم الآلهة؟ - قابلتهم السيدة الكبرى بسؤال ينم عن الرضا، - لا شك أنكم تعبتم وجُعتم. تفضلوا مباشرة إلى المطبخ. تنتظركم معمولات يدوية.

- لا داعي للقلق يا سيدتنا. أجابت إحدى النساء بنبرة سرور. لم نستطع إنجاز عملنا سراً كما أمرت. اكتشف الجيران أمرنا فساعدنا الرجال والنساء.

- لم يخطر لي هذا، - ابتسمت رامبس فرحة بما سمعت. يقولون إن القرية تحبّر بالشیطان الذي يطير ليلاً؛ وكيف ينام الجار مطمئناً ومن المدخنة يتصاعد الدخان، ومن الدار تُسمع أصوات الناس؟ الآلهة سيرضون عن هؤلاء. وأي عمل أدعى للثواب من خدمة اليتيم!

سيطرت الأفكار على ردد فقضى ليلته يلجأ إلى الفراش ثم يقوم منه. ورجع حين سمع الأصوات الصماء للرجال والنساء العائدين إلى الدار. نظر في وجه أخيه النائم بسعادة فغبطه. " لن ينتبه إليك ولو رقصت على رأسه! الآلهة أنعموا عليه. أنا نشأت منذ صغري والتفكير يُفني. والآن لا أعرف بِمَ أبدأ. ومع ذلك فكلام أمنا صحيح. أيّ فكرة يكوّنها الناس عني وأنا أعيش بلا أسرة ولا أصدقاء في حين أتقدّم القرية والقوم أميراً عليهم؟ ألن يتسع قلبي إن التقينا، أينار وأنا؟ يقولون إن القلب لا يرتاح في أرض الغربة، غير أن الحقيقة هي أن أينار مَن كانت مبعث قلقي. وهي من كانت تبعث فيّ الأمل والشجاعة حين تحظر ببالي. يقول تراب: " ألا تجد إلا فتاة اختطفوها وأعيدت؟ " ولكن حتى الآلهة كانوا سيسخطون عليّ لو تجاوزتها إلى غيرها، وكنت قضيت عمري وفي قلبي جرح لا يلتئم. وإن عاد ججان معترفاً بذنبه فسأغفر له كرمي لكولس شريطة أن يعتذر أمام المجلس الأعلى. ونخلش الأصهب خلع كنفه بنفسه إذ فعل بحقار ما فعل. ومن بقوا إلى جانبه ليس بينهم من له اعتبار أو يُخشى جانبه. انتظر قليلاً فحسب! والحكوف أنفسهم سيكتشفون معدنه. ولن أعيش ما لم أجعله يدفع ثمن الألم الذي جمعه في صدري... " - وفي غمرة هذه الأمواج من الأفكار المتلاطمة نام ردد بملابسه عند الفجر.

كانت مجموعة من الخيول المكتفية طعاماً وشراباً تنتظر أمام باب الدار تمضغ أرساخها. ورامبس السيدة الكبرى تنظر عبر النافذة متلهفة على الفرّح الذي سيشهد به بيتها. شمس الشتاء الفضية تؤول إلى الغروب ولكن أشعتها الدافئة تُخلّج الثلج الرقيق. الطبيعة هادئة تبعث الطمأنينة في القلب. وأصوات الرجال المرحّة ترتفع من الدار فترفعها معها. وها هم مشقوه وتراب وقدان ونطاي وغيرهم في الميدان. رأت رامبس ابنها عبر النافذة بارزاً بقبعته بين أصدقائه يتأملهم، فابتعدت فرحة عن النافذة.

ركب ردد حصانه فتبعه أصدقاؤه. واتخذوا طريق منزل العروس: هو في الطليعة محاطاً باثنين، والآخرين كل ثلاثة معاً، يسرون بالخشب البطيء. ابتهلت رامبس لأجلهم: بارك الآلهة في خطواتكم وحققوا أمانكم!

ما إن غاب الفرسان عن مدى النظر حتى أرسلت رامبس وراء كولس. ولم يغب الفرسان طويلاً فعادوا بصحبة العجوز كولس على عكازته. وقالت له بصوت شفيق تتأمل الوجه المتهالك الشاحب، تطلب منه الجلوس:

- طلبتك يا كولس لأخبرك أن اليوم هو موعد زفاف ردد. هو ولدك مثلما هو ولدي. تجشمت معنا كثيراً من المشاق، وأفهمت القسوغ أنه سليل أسرة إمارة، وأقنعتهم به. أود أن تصل العروس إلى بيتنا وأنت فيه. - إشبين الولد المعتبر بمثابة مربيه هو مشقوه دون أن يتسبب هذا في أي سوء تفاهم.

- ولماذا أستاذ يا رامبس؟ - رفع كولس صوته بصعوبة يعالج حنجرته. - أعرف جيداً أن ردد ما كان ليتجاوز بيتي لولا حفيدي الأرعن. ماذا بيدنا؟ من لا خُلُق له يدمر مستقبله بنفسه.

- مهما جرى فستبقى علاقتنا به كما كانت، - قالت رامبس تُزيح حملاً عن قلبها.

صحيح ما يقال: مَنْ في قلبه النور يكن طريقه منيراً. سمعت رامبس قبل المساء اقتراب ترويدة الزفة فخاطبت نفسها وهي تمسح وجهها بيديها، تغالب دموع الفرح: " يا ألهتنا الأعزاء، حققتم لي كل ما في نفسي. أنا راضية عنكم. لو شهد المرحوم لاورستن فرح ابنه الوحيد لكان بمال الدنيا كلها... "

...

دخل الشباب الذين زفوا العروس مع العروس لتهنئة السيدة الكبرى. نهضت رامبس امرأةً متناسقةً رغم عمرها، على وجهها مسحة فرح خفيفة. ووقف كولس إلى جانبها والعصا بيده اليسرى.

قال كولس بعدما تلقى تهاني الشباب:

- شكراً لكم يا أبنائي. هكذا يتزوج الرجال. ندعو أن تترك العروس قدم خيرٍ في البيت الذي خرجت منه، وأن تخطو خطوة خيرٍ إلى البيت الذي دخلت إليه. وأن تكون عروس خيرٍ للحَيِّ وللقرية وللقسوغ كلهم. وأدعو لك يا رامبس

أن تشهدي أفراحهم، ومنحك الآلهة عمراً طويلاً.

- ليرض عنك الآلهة يا كولس! ولنأتِكَ أنت أيضاً في مناسبة فرح. - أجابت رامبس، ثم توجهت إلى أصدقاء ابنها: - أعطوني مهلة يومين يا أولادي. سأرسل فرساناً يبلغون أهل مستحقوه وششحرس ونيج وغيرها. وسندعو عازفي الشبابات. ومتى وصل الضيوف نبدأ بالحفلة.

- أليس اليومان قليلين يا سيدتنا الكبرى؟ - بدأ مشقوه بصوت غير جازم، - إذا قررت أن ترسلي مُبلِّغاً إلى أخيك الأصغر في توم - تقاش احتاج إلى وقت غير قصير.

- يا عزيزي مشقوه، - ردت رامبس بودّ، - لا أنت ولا غيرك يجب أخي كما أحبه. ولكن لن أسمح لمن جاءنا معادياً أن يشارك في عرس ابني. لا تؤاخذني!

- كما تريد يا سيدتنا، لا مؤاخذة في هذا... - قال مشقوه متملّصاً مما قال.

انصرف المبلّغون فرتب الرجال أرض دار الإمارة. وأزالوا كل نتوء، وردموا كل حفرة يمكن أن تتعثر به أو تسقط فيها. ونصبوا سقفاً حيث ستصطفّ الفتيات اللواتي سيشتكن في حفلات الرقص.

ولما حان الموعد الذي حدده رامبس بدأت احتفالات ثلاثة أيام يضيع فيها من يشارك فيها.

V

حقاً تفتّت قلب أينار حين سمعت أنهم يعودون بالعريس إلى بيته ولكن الوصيفتين المقيمتين معها أعادتا تزيين وجهها وشعرها وملابسها وغطائها.

دخل قدان طلق الوجه إلى غرفة العروس. وتبعه ردد حذراً. ولم يتأخر مشقوه عنهما. التفت ردد إلى صديقه راسماً ضحكة خفيفة على وجهه، ثم استدار إلى الفتيات.

- مساء الخير، - حياً قدان من في غرفة العروس.

ردت الفتيات بصوت يكاد يسمعه الرجال. وقرّبن رؤوسهن من العروس. والتقطت نظرة أينار الدافئة صورة عريسها. وفي الحال فكر مشقوه متألماً في

آنست: " ليت أختي الطائشة حظيت بمثل هذا العرس أخيراً، كان خيراً من مال الدنيا! تركتُ ججان يخدعها وها هي الآن يغلي قلبها. هل يمكن إصلاح وضعهما؟ وعلى علم قدان فإن رجع إلى ججان عقله فلن يتجاوز آنست..."
قال قدان حين انصرفت الفتاتان من الغرفة:

- اجلسي يا أينار؛ لنقضي بعض الوقت أهلاً وأحباباً!
- لا بأس، سأبقى واقفة. - أسبلت أينار جفنيها الرقيقين. وبعد أن تسامروا بعض الوقت التفت قدان إلى صديقه فنهض مشقوقه.
- تصبCHAN على خير، - توجه قدان إلى الحبيين. - أطال الآلهة عمريكما وأنتما تثمنان المودة التي بينكما، والتي تزداد مع الأيام. ولتَعشْ يا ردد حتى تحقق آمالك القومية. ولتصبح أينار دعامة قوية لك!
حنن أينار رأسها أكثر فأكثر، وأجابت على الخطيب بنظرة رضا:
- ليمد الآلهة في حظوظنا جيعاً! شكراً يا قدان.
وساهم مشقوقه:

- متى انتهى العرس بدأ تأسيس الأسرة. أنجز لاورستن ورامبس أساساً لكما. ولا حاجة أن تعضدها بدعامة، ولا أن تبنا بيتاً من جديد. أدعو أن تعيش السيدة الكبرى سعيدة في ظل كتنها.

التفت ردد إلى أينار وأجاب إشبينه - مربيّه بكلمات لطيفة:
- المعروف الواحد إنعاش للروح، والمعروفان يطيران به سعادةً. وما زاد عليهما لا يُقدَّر بثمن. كَرِّمتموني أنتم آل مشقوقه كلكم. واعتبرتموني منكم. لن أنسى فضلكم.

افترق الرجال الثلاثة المتعاضدون والمتحابون. أغلق ردد الباب ووقف أمام أينار عند مصباح الشمع. وأمسك بكل يد يداً لها، وقربها إل الصوفا. ثم جلس إلى جانبها، وضم إليه الجسد النحيل المرتحف. جلس ردد بعض الوقت يتدفأ على ما ينبعث من وجه أينار فيسري إلى عروقه. ثم وجد شفيتها الدافقتين... حنن أينار رأسها قليلاً إلى الوراء، وردت على عناق زوجها بلطف. ثم نهضت. وحاولت أن تغسل قدمي ردد الذي اعترض:

- لا تفعلني هذا يا أينار! - استعجل ردد، - ولم أر أمني تفعل هذا مع والدي.

انهضي ونامي!

أمسكت أبنار بيديها جانب السرير بملابسها. وأطفأ ردد الشمعة. واقترب ردد من أبنار وضم الجسد الرقيق.

- حين بقيت يتيمة الأبوين، وفقدت أخي تساءلتُ مرتعة: أيمكن أن يلتفت ردد إلي الآن.

- الحب لا يعترف بغنى أو فقر يا أبنار، - قال ردد بثبات، - العين تنظر حيث القلب وكذا الروح، لا تستشيرانك.

- هذا صحيح. حين بقيت وحيدة في البيت وأنت مفقود جاء بي إليكم قدماي، ودون التوقف عند ما سيقول الناس، بغضّ النظر عن دعوة السيدة الكبرى لي إلى بيتها. ولما هجموا علي ليختطفوني ركبني اليأس ولو أنهم لم يحملوني إلى أبعد من باب دار كولس إذ كيف سيكون موقفك وقد اعتُبرت مخطوفة وعائدة إلى بيت أهلها. وربما آذيت نفسي لولا السيدة الكبرى.

- من يحب يتجاوز هذه الأمور يا أبنار. ولكن لم يحدث أن هجري عقلي. كيف كنت أهجرك وأنت بلا ذنب!

- حقاً لم يكن لي ذنب، ولكن كيف غفرت للمذنب وأنت بهذه القوة؟ - جلست أبنار محتدة. - لبست ثوبها القصير الرقيق - وفي زمان ولدننا وشقاوتنا لم يكن بيننا من هو أقوى منك. ومن لا يخاف زمن اللعب لا يخاف زمن القتال.

- لو كانت الأمور كلها تُحلّ بالقوة لكان الأمر. كنت مرّقتُ ججان ورفاقه. - جلس ردد أيضاً. - لا يندم المرء إن أرفق القوة بالعقل يا أبنار. ولو وقع بيدي في ذلك المساء أو بعده ججان أو أحد رفاقه، لا أكذب عليك، لأزهقت روحه. وحين هدأت فورة الغضب فكرتُ في أمور كثيرة.

- لا أهمية عندي لأيّ من ذكرت أسماءهم. نحن النساء، متى قررنا، لا نبذل بالأحسن أو بالأسوأ.

- يا حلوتي القاسية، - نظر ردد إلى أبنار راضياً مستغرباً ما يسمع. - أخوض النار مع من أحب، وأرمي بالنار من لا أحب، - تابعت أبنار كلامها دون الاهتمام بملاحظة الزوج. - ثم إنه يأتي إلى محضرك دون خوف أو

خجل... .

- من الرجولة الاعتراف بالخطأ يا أينار.

- يعيش ججان حياته لا يعرف أين يتجه بعدما لفظه نخلش كفرخ دجاجة أفلت من صقر. من لا خير في قلبه تتهاوى ركبته.

- وأنتِ غفرتِ لآنست. وأنا أشفق على ججان ولو كرمي لكولس فحسب.

- لا أعرف ما ستفعل بشأن صديقك ولا أريد أن أعرف، ولكن فرح آنست قليل وحزنها كثير، لم تستطع المحافظة على نفسها.

- إن كنت تعيس الحظ غرقت في قطرة ماء. كفى يا أينار، دعينا نترك هذه الموضوعات. ولنغُدِّ إلى النوم...

- كنت خائفة كلما تقابلنا منذ صرنا نعيش في بيت واحد أن تنظر إليّ كأخت لك.

- آسف على أنني كنت أذهب إلى الصيد وحدي لا أسمع نصائح الناس، تاركاً إياكما وحدكما في البيت، الآلهة وحدها تعلم ما كان يغتلي في قلبكما.

- لم يرفّ لي جفن وأنت غائب عن فكري يا ردد، ولكن لم أسمح لذهني أن يصدّق موتك مهما سمعت. كنت مشحونة دائماً بالأمل.

- ألح نخلش الأصهب على ججان حتى أقنعه بموتي. وهو من ورطه في الخطأ. - عاد ردد إلى الموضوع نفسه فلم تقبل أينار:

- لا أريد أن أسمع هذه الأسماء! كان بحثُ الناس عنك، وعلى رأسهم كولس، يرفع من معنوياتنا، السيدة الكبرى وأنا. والذهب يبقى غالياً حتى في موطنه يا ردد. لا شيء يعدل اهتمام أهلك بك وأنت في بلاد الغربة. وأنا راضية عن السيدة الكبرى إلى الأبد. وقد زرعتُ فيّ عقلها وأفكارها. ورعتني كما لو كانت أُمي. لم تسمح لأحد أن يدخل بيتي بأي حجة أو يخرج.

- ألم تُثر أُمي كثيراً من الضجة من أجلي؟

- لم يسمع أحد منها كلمة نائية. لم تقل أكثر من أن تتهم من اختطف رجلاً بريئاً بالافتقار إلى الإنسانية... كفى! - لطمت أينار بقبضتها الصغيرة صدر زوجها بين المزح والجد. - تدفعني إلى الثرثرة على أمل أن تصدر مني كلمة في غير محلها. سأصرّح برضاي عن السيدة الكبرى بقلبي وروحي حتى أمام الآلهة.

والدة الرجل الصلب لا تبكي؛ هل فهمت!..

- صحيح، لا أريد أن يجني حطناً ما لا تجنيه رجولتنا. أنا استمددت قوتي من ثقة قومي بي.

تنام أبنار كالطفل وقد ارتخت شفتها. ولكنها غارقة في أفكارها: "لولا السيدة الكبرى ما درى أحدٌ بما يمكن أن يجري لي في وحدتي. كان يمكن أن يهاجمني في الليل أحد الأشرار ويلوثني فأبقى مثل دكايس مزاراً للرجال في القرية. كانت دكايس أجمل بنات القرية، وكانت تعرف هي جمالها فظنت أن كل الرجال سيحومون حولها. وصدقت كل ما يقال لها فنكبت نفسها بنفسها. وإلى الآن تقيم في القرية كفرخ دجاجة دائخ. وأنا ما كنت لأسمح لأحد غير ردد أن يلمسني. ولكن ما العمل إن هاجمك رجل في منتهى القوة وحدك؟ وهذا ما أعجل رامبس السيدة الكبرى. وهل كان يمكن إخفاء حبنا أنا وابنها؟ إنها تعرف ما في قلبك. وأنا إن أكنُ مثل حماقي فلن يصبح ردد سيد قريته فحسب بل أمير القوم كلهم، وسيرتاد مضافتنا السادة والرجال الصالحون. وسيكون بينهم من أستطيع أن أتحدث إليهم ويتحدثوا. وسيُفضي إليّ ردد بأفكاره وأهدافه. وعليّ أن أتألف مع عقله وتفكيره... فهل أستطيع أن أحقق هذا؟.." استغرقت أبنار في النوم العذب وهي تقيم نفسها وتمضي في أفكارها. وظل ردد مستلقياً يتفكر في ما شهدته في النهار، وما قالاه في الليل. وكانت المرأة الصغيرة ترتجف أحياناً في غمرة النوم.

"ما كان يدفع عني اليأس في أثناء أسري هو الحب الذي كان في قلبي نحو هذه المخلوقة اللطيفة، - قال ردد لنفسه، - القريب من القلب يمنحك القوة وإن كان بعيداً عن العين. ثم إن ما أتعجب منه هو أنني كلما تذكرت أبنار انتصبت أمام عيني الشجرة الرشيقة الوحيدة على حافة جبلنا. وخيل إلي أن وجه أبنار يرتسم فيها كأني أراها لأول مرة. وفي مبارياتي كان خيال أبنار يجدد قوتي كلما شعرت بالوهن. يطير قلبها الحنون إليّ ويهمس في أذني: "إن كنت تحبني فاغلبنيهم وعُدْ إليّ. أنا أنتظرک وسأظل في انتظارك إلى الأبد" وحين أصابني ذلك الزنجي الضخم بالدوار سمعتُ صوت أبنار. نعم لا يموت رجل في اختبار رجولة. ومتى اقترنت الرجولة بالأمل فلا حدَّ لقوة الإنسان. وأنت يا حلوتي

الصباح من أعطتني كل هذه القوة. وأما من جهة ما يبعث فيك الغضب فلن أستطيع قتل جبان إذ بيننا كثير من المواقف الجميلة والمعروف المتبادل. وموضوع نخلش الأصهب مختلف. موعده موعد لقاء العدو... "

ارتعبت أبنار فجأة، فأجفلت ردد:

- ماذا جرى؟

- حلم مزعج، - حضنت أبنار الرجل بقوة وهي تتنهد بعمق.

- إرويه لي، أي نوع من الأحلام هذا؟

- كفى، في وقت آخر.

- لن أدعك تنامين ما لم ترويه.

- هاجمنا نسر كبير يحجب السماء ونحن في البرية معاً، - ضمت أبنار ردد بمزيد من القوة. - كم كان المنظر مرعباً! أنت تضربه بالسيف وأنا احتمي بك. أنت تضربه وتضربه ولكن السيف لا يؤثر فيه كأنه مصنوع من الحديد. ثم أنشب محالبه فيك واختطفك. وأنا أصرخ. - بح صوتي وأنا ممسكة بخصرك. ثم أفقت وكلانا في الفضاء. من حظي أي رجعت إلى وعيي...

بدأت أبنار تعود إلى النوم مع انطفاء صوتها الذي تروي به الحلم. واستدارت إلى الجدار فارتاحت. وبعد قليل شُمت في الدار أصوات وضجيج. أفاق ردد بصمت، ولبس بسرعة. وحمل سلاحه، وخرج من البيت فاستقبله أغبان:

- ما الذي جرى يا أغبان؟

- لا شيء مهم يدعو للقلق يا أمير. ظهر في تخوم الحي الشمالي فرسان لصوص فلحقهم مشقوه مع عدد من الحراس. أظن أن نخلش الأصهب يدبر مؤامرة ما.

- لا أظنه هو، - لم يوافق ردد كبير حراسه. - صدق أن الحكوف جاؤوا لتلقط الأخبار. هم متلهفون لمعرفة ما ننوي لهم.

- ربما كان هذا أصح، - وافق أغبان.

- رأيت فائدة يقظتنا في الليالي الأخيرة. لهذا السبب أقول إن علينا أن نمتلك جيشاً ثابتاً. لا يكفي أن يكون عندك مقاتلون ينامون في بيوتهم لتعدّه جيشاً.

- أنا أوافقك منذ اليوم الأول يا أمير. - بدا من صوت أغبان ثانية إخلاصه

له. - لو لم أُلحَّ على ضرورة وجود حرس للأمير لما خطر ببال أحد. في الليل ينشط العدو. والنائمون والأموات سواء. حين يفاجئك العدو وأنت نائم لن تنفعل قوتك حتى لو كنت من العمالقة¹.

- صحيح، صحيح يا أغبان. علينا أن نحرص على أنفسنا. لا تتردد في إعلامي إذا جرى شيء!

التقى ردد وهو عائد بالسيدة الكبرى.

- لماذا أنت يا أمنا على المسطبة. رفع ردد رأسه خجلاً.

- وأنا أخرجتني الأصوات القلقة من الغرفة. لا بأس إن لم يكن هناك خطر. يا ولدي لن أُوَجِّل إلى الغد ما لم يُرق لي.

- هل سمعتني ارتكبتُ خطأ ما؟ - احتدَّ صوت ردد.

- ليس ما فعلت بل ما قلت، - قالت رامبس بصوت حازم: - كيف تسمح لابن حقار أن يقول لك ما يشاء!

- وهل كنت أكمِّ فمه؟

- لا، لم أطلب هذا، - لاطفت رامبس ابنها مُفهِمة إياه الطريقة التي تُخاطَب بها الأم، - من تقل له كلمة زائدة عن المطلوب يردّ عليك. حين قال لك " إن لم تتأروا لدم والدي فسأهاجم الحكوف " كان عليك أن تفارقه دون جواب. أنت وقفتَ تجادلَه فحملته على أن يقول لك " إذا كنتم تخافون من نحلش الأصهب فسأعطيكُم قُبَّعتي " وأنت رددتَ عليه: " أعطِ قبعتك لمن على قياس رأسه، أنا لن يتسع لرأسي ".

- يا أمنا، ألا تتذكرين أي نوع من البشر كان حقار؟ - احتدَّ ردد، - طباع الأب تنتقل إلى الابن.

- عودُ نفسك يا ولدي على التفكير في ما تقول وما تفعل. أنت أمير القرية والقوم. لا تنسَ هذا أينما كنت!

- حسناً يا أمنا، سأحرص على نفسي. - اقتنع ردد بصواب موقف أمه نادماً على رُفَعِ صوته في حضرتها.

¹ بالمعنى الأسطوري.

- تقول هذا يا ولدي ولكن كلامي جعلك تحتدّ. - الريبة التي لا يلاحظها في الولد غيرُ الأم أنطقتُها. - من يحبّك يطعمك من روحه، ويريك عيبك، ومن يكرهك يغتني من ورائك.

ذات صباح أفاق ردد على يد ناعمة تمتد إليه:

- هذه أنت يا أينار؟ لماذا أفقت في هذا الوقت المبكر؟ - ابتسم للمرأة الواقفة أمامه بكل ملابسها.

- انفض أنت أيضاً ودعني أرتب الفراش. - ألقت الزوجة نظرة رضا وسرور أشبه بالمرائية على الزوج، - الرجال سيملؤون المضافة متى انقضى العرس، كانت السيدة الكبرى أفهمتنى هذا قبل أيام.

- إذن لم تلمّح لك، بل قالت لك مباشرة.

- السيدة الكبرى لا تقول شيئاً مباشرة. - تلمّح لك على نحو مفهوم إن لم تكن مجنوناً.

- على قولك لست مجنونة.

- أكنث تزوّجتك لو كنت مجنونة؟! - ألقت أينار غطاء الرأس عن كتفها ضاحكة. - اغسل وجهك قبل أن تفيق السيدة الكبرى!

نفض ردد خفيف الحركة وإن لم يكتمل نومه. عانق الزوجة عناقاً حاراً، وغسل، ثم لبس.

وبعد الفطور خرج الأمير الكبير ردد مع ثلة من الحراس إلى ظاهر القرية للنزهة. وبعدما ساروا قليلاً سأل ردد صحبه خلفه وقد تذكّر شيئاً:

- ماذا كانت نهاية ضجة الليلة؟

- لم نعر على الفرسان اللصوص يا أمير. - أجاب مشقوه، - تأخرنا في ملاحقتهم. اختفوا في غابة الجبل.

كان ردد يصغي إلى ما يشغل باله ولكن ما يخطر له شيء آخر. تذكّر جدال أينار بعد الطعام على نحو لطيف. وخاطب نفسه مرتاحاً: " يقال إن الحظ يأتي مع الزوجة ولذا أدعو إلى الآلهة أن تكون خيراً عليّ وعلى الأسرة. عاقلة بما لا يتناسب مع عمرها. ألم تسمع ما قالت لي بشأن مشقوه؟ القريب لا يقطعونه من رأس نبتة. تقول: لا تتعال على مشقوه فتجعل من عدوك قريباً له.

صحيح، وأنا أعرف أن مشقوه ليس كأخته آنست. رجل وقور، مشحون بالإنسانية والرجولة. وصادق معي، ولكن إمكانياته محدودة. وهو يعرف نفسه، ولا أظنه لم يتأثر بعزلي إياه من قيادة الجيش، ولكنه أخفى امتعاضه. واقتنع في النهاية بصحة تصرُّفي. وقد رأى ما أنجز قدان في عدة أيام. نحن سنتفق يا أبنار فلا تقلقي. لن أتسبب في وجع ظفرٍ من أظافر أحد من أصدقائي. ولن أقبل منهم إلا أن يقابلوني بالمثل... "

" مَنْ في بيته امرأة حسنة فوراءه منعة، - تنهى إلى أذن ردد العبارة التي كان يرددها كولس على مسامع ابنته. - المرأة الصالحة زوجها معروف بين الناس بأفضاله، والمرأة الطالحة زوجها معيب، فاحرصي على نفسك وعلى زوجك... "

ألقى ردد نظرة من فوق دار إمرته وهو واثق من أنه عثر على امرأةٍ منعةٍ إن خالط الناس أو فارقهم دون حاجة أن يلتفت إلى الوراء.

VI

البرد يلسع الوجوه، والنهار يكاد يشرق.

لم ترتع السيدة الكبرى رامبس لخروج ردد من دار الإمارة على رأس مجموعة من الحراس. لامته: " لماذا العجلة ولم يطلع الفجر بعد؟ لن ألوم العروس الصغيرة الآن إن لم يخطر لها أن تُطعمه شيئاً، بل سأنصحها متى أفاقت. يجب أن يكون سفره من أجل المواضيع التي تكلمنا عليها أمس. أضرب به نخلش المجرم جداً. انتزع ردد من قضايا البلاد التي بدأ بها، ولم يبق من يتابعها. وتبع كولس وتيمرقوه وقدان وغيرهم ردد يبحثون عنه فأهملت قضايا الدولة. وأنا كنت أحسن بأثر غيابهم ولكن كيف كنت أطلب منهم ألا يبحثوا عن أميرهم؟ ثم لم أشأ أن يقال عني إنها مهتمة بأمر البلاد أكثر من اهتمامها بمصير ابنها. والآن أرجو أن يحقق الآلهة مرادنا بعد كل ما جرى... "

لحت السيدة الكبرى العروس الجديدة الخارجة من جهة المطبخ، فأنستها أفكارها القلقة. وابتعدت عن النافذة تريد ألا تراها العروس. ولكن صدر في اللحظة نفسها صوتٌ باب شاهداً على أنها رأتها.

- هل تسمحين لي بالدخول يا سيدي؟ نظرت أينار من الباب الموازب.

- تعالي، تعالي يا بنتي. - استقبلتها رامبس بحرارة. - ماذا تفعلين في المطبخ في هذه الساعة المبكرة؟

- جلسْتُ إلى الأمير حتى انتهى من طعامه.

- وماذا أطعموه؟

- لم يأكل إلا من القشدة الساخنة.

- من يأكل منها لا يحس بالبرد. - كانت الأم مرتاحة لعدم خروج ابنها دون طعام. - وإلى أين اتجه؟

- قرر أن يُخالط قري الموط. ثم الزبخ، ثم إلى قرانا لاحقاً. يتابع بجِدٍّ أمور عقد المؤتمر.

- أدعو إلى آهتنا أن يخطو خطوة خير. - دعت السيدة الكبرى لابنها، - هل رتبت الفراش يا صغيرتي؟

- ما أسهل ترتيبها يا سيدتنا الكبرى! - ابتسمت أينار، - غطيت السرير، ونظفت الأرض ريثما ارتدى ملابسه.

- في الدار من يقدمون هذه الخدمات. وأنتِ اعطني بشخصك فحسب. مشاعر الزوج نخوك تحددها نظرتة إليك في الأيام الأولى. اهتمي بجمالك وأناقتك...

- حسناً يا سيدتنا الكبرى، - احمرّت أينار، - وسأبشر أعمالي.

- أيّ أعمال؟ - قالت رامبس في إثرها، - ارتاحي، سيتغير منظرِك إن لم تشبعي من النوم.

راجعت الأم ما فعل ردد في أيام العرس الثلاثة، وفي الأيام القليلة التالية. ولم تجد في سلوكه خطوة خاطئة، ولا في كلامه ما ليس في محلّه. ظنت أن ابنها الذي لم يقبل الاحتفال أسبوعاً بالزواج سيسرع إلى متابعة أعماله، ولكنه لم يفعل حتى يتجنب انتقاد الناس لشروع العريس الجديد في أعماله بهذه السرعة. وانكشف على أمه وكولس وغيرهما بعد المراسم المعينة¹. واختلط بأهل القرية."

¹ لا يجوز للعريس الجديد الظهور أمام والدته والدة الكبار من أهله إلا بعد مدة غير

"الآن اطمأنت، - خاطبت رامبس نفسها وهي تجلس في سريرها مُصالية يديها. - البيلسان يُزهر وكلُّ يعود إلى قومه، كما يقال. صار ردّد كوالده حين اكتسب قالب الرجال. يذكّرني بعقله وأخلاقه وتصرفاته بالمرحوم لاورستن. كنت أضحك حين كان كولس يقول لي هذا، وأجيب: " يا حسرتي يا كولس لا أطمح في أن يشبه والده، يكفيني أن يكتسب بعضاً من صفاته " تبين أن العجز بعيد النظر. لم يأل جهداً في توجيهه كما فعل مع حفيده ججان إن لم يكن أكثر. ما أخبار ججان يا ترى؟ ليته لا يقضي على يد نخلش المحرم. مهما قيل فيه فقد نشأ مع ردّد وكأنه ولدي..."

لم تكن رامبس ارتاحت في الليل، واستيقظت باكراً، فعادت إلى الفراش شاعرة بالوهن واستغرقت في النوم.

دخلت الخادمة بعد انقضاء موعد الفطور إلى غرفة السيدة الصغيرة قلقلة لعدم ظهور السيدة الكبرى. ولما دنث أبنار من غرفة السيدة الكبرى جلست الأخيرة في الفراش.

- كأني غفوْتُ قليلاً، - سوّغت رامبس تأخُّرها.

- مضى وقت قصير على موعد الفطور يا سيدتنا، - ابتسمت لها أبنار، - دخلتُ إليك قلقلة.

أتت الخادمة بالإبريق والطست، وجيء بالمائدة. لم تكد رامبس تأكل شيئاً، ولم تمتد يدها إلى لحم الدجاج والعصيدة. وجربت ما أعجب ابنها فأكلت منه راضية. ولما انتهت من الفطور ونظرت من خلال النافذة ارتعبت من رؤية المرأة التي تدخل الدار.

- ما الذي جاء بهذه التعيسة الصغيرة إلينا؟ أطلقت رامبس صوتها غاضبة، وخرجت من الغرفة مسرعة ووقفت في أرض الدار موهمة أنهما التقتا بالمصادفة:

- ما الذي يشغل بالك يا آنست؟

- لم يأت بي قلقي يا سيدتنا الكبرى، - نظرت إليها آنست ترفّ بجفניהا وعلى وجهها مظهر البؤس، - جنثُ إليك مهتئة. أدعو الآلهة أن تكون عروس خير لك، ويمدوا في أعماركم بخير وسعادة.

- رضي الله عنك يا آنست! - خفضت رامبس رأسها ونظرت إلى اليدين

المخفيّين تحت جيب الصدر العلوي. ولاحظت أنها تحمل شيئاً. - وماذا أيضاً؟

- أوّد أن أهنئ أبنار أيضاً. - قالت آنست، - لن أخاطبها إلا بكل خير يا سيدتي، والسماء تشهد لي. سأتوسل إليها أن تغفر لي إذ أعرف ذنبي.

- ها هي السيدة الصغرى في غرفتها، - قالت رامبس دون احتفاء زائد بها. كانت آنست جالسة تثبّت أزرار كساء زوجها فوضعتة جانباً، ونصّت برأسها. ونهضت والدم صعد إلى وجنتيها. ولكن آنست بادرتها:

- أهنتك يا أبنار من أعماق قلبي. صرّت زوجة الأمير. بارك الآلهة في أسرتك. أنا مذنبه بحمّك؛ أتوسل إليك أن تسامحيني. فكرت في الكثير منذ فقدت شرفي. واستنتجت أنني لم أشهد سعادة تعدّل المودة التي كانت بيننا. والآن لا أطمع في أن أعود كما كنت. ولكن إن عرفت أنك ستسامحيني أزحت حملاً ثقيلاً عن قلبي. أرجوك يا أبنار...

انفطر قلب أبنار مما سمعت. وبدأ الدم الذي هجم على رأسها ينحسر. وأجابتها وجسمها المتشنج يعود إلى حاله:

- لم أسئ إلى إنسان بإرادتي في حياتي القصيرة. وربما يرعاني الآلهة لهذا السبب. لا أحقد عليك يا آنست. أغفر لك. ولكن أكذب عليك إن وعدتك أن نعود إلى علاقتنا السابقة. ما يقطعه السيف يلتئم، والندبة على القلب يعود إليها الألم من حين لحين.

- لو كان عندي العقل الذي امتلكته الآن يا أبنار...

- لم تفكري يا آنست أن ما يقطعه اللسان لا يلتئم. - قاطعت أبنار صديقتها، - سيفيدك عقلك ولو عثرت عليه متأخرة. لا أكنتم عنك، حين سمعت ما جرى لك لم أكن من الشامتين بل جرحت قلبي.

- فهمت لاحقاً أنك إنسانة صالحة يا أبنار... أعرف أن ما جئتك به ليس شيئاً ذا قيمة، ولكن ضمن إمكاناتي. لم أجد من اللائق أن آتي فارغة اليدين، جئتك بهذا الصوف المغزول. غزلت لك من ماعز مشقوه خيوطاً بيضاء.

- شكراً يا آنست، ورضي عنك الآلهة لهذه الهدية. - أخرجت أبنار من الصندوق قطعة حرير وجرابين، وأعطتهما لآنست.

وفيما تفكر رامبس أن تستدعي كنتها حين غابت المرأة التي جاءت مهتة وراء الباب، كانت الأخيرة عندها.

- ماذا قالت لك صديقتك يا صغيرتي؟ - ارتفعت رامبس بجسدها قليلاً عن المقعد لكتبتها.

- ارتاحي، ارتاحي يا سيدتنا الكبرى، لا يمكن أن تنهضي كلما دخلت.. - استعجلت أينار، - لم تقل لي شيئاً مهماً. هنأتني، وتوسلت إليّ أن أسامحها على ما قالته عني. وجاءتني بصوف مغزول.

- وهل ساحتها؟

- نعم يا سيدتي، - لم أستطع أن أجرح أنا أيضاً قلب من تعاني كل هذا العذاب.

- حسناً فعلت، ولكن لا تشجيعها على إعادة العلاقات معك كما في الماضي. هذه الفتاة منذ عرفتها لا يمكن أن تغلبها في المبالغة. أنت أصبحت زوجة أمير القوم، الأفضل ألا تعودتي إلى رفقة من صارت في القرية موضوع أحاديث الناس؛ ما رأيك أنت؟

- وأنا هذا رأيي تماماً. وأفهمتها أنها لن تعود صديقة كما كانت.

- صحيح، - مرة أخرى تأملت رامبس الكنة راضية. وخاطبت نفسها مغتبطة: "من حسن حظنا أن عقلها وحالها متوافقان. كان انطباعي عنها في المدة التي أقامت فيها عندي ضيفة أنها بسيطة لا تعرف شيئاً، ولكن تبين أنها فطنة، وتعرف كيف تتحدث. أظن أن ولدي وجد من تدعمه..."

مضت ثلاثة أيام ولم يعد ردد وأصحابه بعد. وفي نهاية اليوم الرابع دخلوا إلى الدار. أمسك خادمان زمام حصان الأمير وساعده في الترحيل. وجاء ابن خادم الحصان بالماء للأحصنة المتعبة.

- ماذا تفعل! - عَنف ردد الولد، - كيف تسقي الأحصنة ماء بارداً قبل أن تهدأ؟ - أين والدك؟ ألا ترى ما يفعل ذانك الرجلان؟ أمسك بالزمام وروضه. ثم اسقه متى امتص العرق وأطعمه. وأدخله إلى الحظيرة.

رأت أينار سلوك ردد مع الولد، فعادت على رؤوس أصابعها إلى الغرفة دون أن يراها زوجها.

الخدم ينقلون الموائد إلى المضافة. وعاد الرجال الثلاثة إلى الحديث في ما لم يستطيعوا الكلام عليه في الطريق، وفي ما عليهم فعله غداً. وحين خرج مشقوه وقدان من دار الإمارة انتظرت أبنار ردد ريشما يعود إلى المضافة، ولكن ردد توجه إلى غرفة أمه، ومكث معها وقتاً غير قصير. وحين دخل إلى المضافة تبعته وارتمت في حضنه.

وبعدما جلسا مدة يتأمل أحدهما الآخر، ويتبادلان أحاديث الشوق، بدأت أبنار حذرة:

- سأصارحك بشيء يا ردد إن لم يكن يزعجك.
- وهل يخرج من فمك ما يزعجني؟ - استغرب ردد ما سمع.
- لم يعجبني تعنيفك الخادم الصبي. لا يحاربون بالكلام يا ردد.
- وهل كنت تريدني أن أضربه بالسيف؟! - استغرب ردد ما سمعه.
- سموا الكلام كلاماً ليوصل ما في القلب إلى القلب الآخر¹. قيل إن الكلام اللطيف يُخرج الحية من وكرها. أنت أمير القوم. الناس يتابعون كلامك وفعلك وسلوكك. لن يسمعك من أغلق قلبه في وجهك ولو صرخت أو غضبت. ولكنه يتقبل ما تقوله له هادئاً وب عقلك، ويطيعك.
- اسمعوا ما تقوله لي هذه الصغيرة! - عانق ردد مسروراً شريكة حياته، ولامس خدها بشفتيه. - من أين وكيف تعلمت ما تقولين؟
- وأنا كان لي أب وأم. وعشتُ مع جدّة. وتعلمت كثيراً خلال إقامتي في بيتك من السيدة الكبرى. والدتك امرأة مميّزة تزرع فيك العقل إن لم تكن مجنوناً.

- حقاً، الآلهة وهبوا أمناً عقلاً كبيراً. - أتيدها ردد، - لم أخط خطوة منذ فقدتُ والدي دون استشارة أمنا، وبعدها كولس.

- والآن؟ - ضحكت أبنار بنجش.

- الآن وقفتِ إلى جانبهما، فأنا مسرور.

وفي اليوم التالي أيضاً حضر قدان ومشقوه ومعهما الحراس. وفي هذه المرة

¹ الكلام في الأدبغية من مقطعين: قلب - في.

أخرجوا له من الإسطبل الحصان الأسود المحجل ذا الصدر الواسع، وأركبوه. ضحك الأمير لاحتجاج حصانه الأول من قلب الإسطبل على عدم اصطحابه. وأسعده إخلاص حصانه الأصيل له. وقال لنفسه: " هو أذكى مما أركبه الآن غير أن الثاني أقوى جسداً "

كان قد بقي عدة غلوات حصان ليصل الفُرسان إلى القرية المجاورة حين أضاء الكون. أداروا وجوههم نحو إلههم الشمس المشرقة من وراء الجبل، وابتهلوا إليه أن يحقق لهم هدفهم. الأرض الصالحة للزراعة في الريف مغطاة بثلج خفيف. ومن تحت الثلج تبرز بقع رطبة هنا وهناك ظهرت بعد جني المحصول.

" كان موسمنا الفائت خصباً. لم ييخل علينا ألهتنا بالمطر والثلج. - قال ردد، وتفحص الأراضي المزروعة بعين راضية، ومرت أمام عينيه مزارع الفاكهة التي تتسلق الجبل. - عندنا من الحبوب والفواكه ما نحتاج، غير أن بين أمراء القرى التي زرناها من كان التواصل معه صعباً. وأكثرهم يخشون إذا صرنا دولة واحدة أن يفقدوا إمرتهم وحكمهم. وبينهم من يرى أننا لن نستطيع إعالة جيش كبير دائم. وما قالته لي أبنار في هذه المسألة عجيب: لا تُعاند أحداً كلُّ ما تُكرههم على فعله سينهار إن عاجلاً أم آجلاً. ولكن إذا استمعتُ إلى كل ناصح فكيف نؤلف دولة واحدة؟ كلُّ له رأيه الخاص. سننتظر، لا يخلو رأي أبنار من الصحة... "

- يا أمير! - لفَتَ الفارس الذي على يمينه انتباهه، - نصل إلى " ترامنا به "؛ هل ندخلها أم في طريق عودتنا؟

- ولماذا لا ندخلها؟ - قال ردد بصوت مرح: - الأمير أبج من عمري وسندي. زرته قبل أن يعبروا بي البحر أسيراً بمناسبة وفاة والده. أعرفه ويعرفني جيداً.

ألقت مجموعة الفرسان الكبيرة عصا الترحال في دار الإمارة الكبيرة فأمسك أحدهم بزمام حصان ردد، ودعاه إلى الترحل. وتوازعا خيل رفاقه. وبعدما أصرطج ردد ومشقوه وقدان إلى المضافة قال الرجل الأسمر الضخم الذي تولّى استقبالهم:

- يا ضيفنا ليس أميرنا بعيداً من هنا إن لم تكن على عجلة من أمرك. أرسلت

وراءه وسيصل قريباً.

وصل المضيف ريثما تبادل الرجال الحديث. رجل رشيق صبح الوجه متطاوله، تحفُّ به لحية وشاربان، وعينه العسلتان الصغيرتان حادتان. وكذلك صوته.

- لا يصرح الضيف بمراة قبل انقضاء ثلاثة أيام. بدأ الأمير الكلام هادئاً. - ولكننا لسنا ضيوفاً مقيمين. العمل متراكم علينا. ولا يزال أمامنا بضع قرى نزورها.

- مهلاً، مهلاً يا ردد، لا تستعجل، - ضحك الأمير أبج من بين لحيته وشاربيه. - دعوهم يأتون بالموائد وإن لم تنووا الإقامة.

- وستحدث ريثما يصل الطعام يا أبج، وستتابع بعد أن يصل. ليست المواضيع التي سنتكلم فيها قليلة.

- ما يرغب فيه الضيف أمراً عند المضيف. - استعد الأمير أبج لسماع كلام الضيف.

- المهمة الكبرى التي لا تدع لي مجالاً للراحة في ما يخص الأديغة يا أبج، وأنت تعرف جيداً، - تابع ردد كلامه، - هي أن نتفاهم ونصبح دولة واحدة. وأنت شاهد على أن الخزر الذين عانينا سنوات طوالاً من تهبهم أرضنا عندهم قائد جيش وسلطان. والروسيج الذين يستعدون للحلول محلهم عندهم ما عند أسلافهم. أسروني إلى ما وراء البحر ولكن عيني تفحصنا، وأذني أنصتتا، وشغلّ عقلي. لا أقول إن العالم يخلو من بعض الأقوام التي تشبهنا؛ غير أن الأقوام المحيطة بنا لم يبق بينها من لم يؤسس دولة. عندهم حاكم واحد تحيط به حاشية تتولى أمور الدولة. ويحتفظون بجيوش مدججة بالسلاح من فرسان ومشاة وغيرهم. ونحن لن يسمحوا لنا بالعيش ما لم نصبح مثلهم. إن انزاح خطر الخزر اليوم فغداً الروسيج. وبعدهم الروم أو الفرس.

- أفهم يا أمير ما تريد أن تقوله، - وافقه أبج بصوت رفيع حازم، - لا أجهل أهدافك. والأقوام التي تتكلم عليها لم تؤسس جيوشها في يوم أو عام. حقاً كنا بايعنا كبير أمراء في المؤتمر الأعلى فسنبقي عليه، وسنختار من يقومون بأعباء الدولة، ولكن إن تفرقنا ونحن نعتقد أننا أَلْفناه فلن نستطيع الإنفاق عليه. الآلاف من أفراد الجيش بحاجة إلى سلاح ولباس، وطعام وإيواء، ومدرين. وكل

هؤلاء يحتاجون إلى نفقات.

- وأنا فكرت في هذه الموضوعات يا أبح.

- إذن سنحدد، كما فعلنا سابقاً، عدد المقاتلين الذين يمكن لكل قرية أن تقدمهم. ونقدم الحصان والسلاح واللباس لمن لا يملك. ونختار لهم قائداً. وأنا أتعهد بهذا لقريتي. وإذا فعل أمراء القرى الأخرى مثلي فسيبلغ الرُصَاد بعضهم بعضاً الاستنفار والاجتماع في المكان الذي تحدده. وبعدها، لما كان رأيك هو الأصح، نجتمع قوانا وأملاكنا، ونؤلف جيشاً كاملاً واحداً.

- اتفقنا يا أبح، - قال ردد باختصار، - وأنت أدري بأوضاع قريتك، ومن ستجند منهم. وتأتي في اليوم المحدد إلى المؤتمر.

- هذا بديهي، تفضلوا الآن إلى المائدة!

ركب الأمير ردد منتعش القلب لاتفاقه مع الأمير أبح في الرأي. وودّعهم المضيف مع حراسه إلى ظاهر القرية.

وكان بين بضع القرى التي زارها ردد قريتان لا أمير لهما. ووجد وسيلة تفاهم مع حكمائهما ومتنفيديهما أسهل مما مع الأمراء. وعاد راضياً بما تحقّق له في هذه الجولة.

نفض الأمير ردد في صباح يوم الاجتماع وفي قلبه الفرح والقلق. وإلى عشية البارحة لم يسترح يوماً. وظل يتنقل بين حصانه الكستناوي والآخر الأسود فأرهقهما كما أرهق نفسه. ولكن تفاهمه مع من اجتمع بهم في كل قرية، وما قرأه في عيونه من مناجاة الراحة والرضا عما أنجز. على أن الخوف من تضارب الآراء في المؤتمر المزمع عقده، ومن طريقة سير أعماله، والهيبة من استدراج المجتمعين إلى الطريق الذي يريده، كل هذا لم يكن يترك له مجالاً للاطمئنان. وفيما هو يتمشى مع الفجر في أرض الدار، كبيراً كبيراً، عاقداً ذراعيه إلى الخلف، سُمع صوت أقدام.

- ما الذي يؤرقك يا أخي الصغير؟

- تحوّل اجتماع اليوم إلى موضوع أحلام لي يا كبير، قابله شوباش بنظرة مخلصه. - أفقت مرتعباً فلم أستطع معاودة النوم. أنت وأنا نقلق بلا مسوّغ إذ أن الأمور ستسير على ما يرام. لم أرقُ لكثيرين حين نُبئتُ عنك، وهذا سبب

تَعَثُّرُ أُمُورِنَا، وَلَكِنَّهُمْ يَتَهَيَّبُونَ مِنْكَ إِلَّا إِنْ حَسَدَكَ وَاحِدٌ مِنْ أَمْثَالِ تَرَابِ الْأَحْدَبِ...

- بِاللهِ عَلَيْكَ يَا أَخِي أَنْ تَتْرَكَ هَذَا الرَّجُلَ بِحَالِهِ. - لَامَهُ رَدَدَ، - قَابَلَنِي بِضَعِ مَرَاتٍ، وَسَأَلَ عَنْ سِيرِ الْأُمُورِ. لَا تَتَنَقَّدُ رَسُولَ الْآلِهَةِ. تَعَالِ مَعِيَ نَحْيِي الْحِرَاسَ! - لَوْ كَانَ تَرَابٌ كَمَا تَتَصَوَّرُهُ... - قَالَ شُوبَاشٌ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْمَوْضُوعِ الْآخَرِ نَادِماً: - لِمَاذَا نَحْنُ مِنْ سَيَّادِرٍ إِلَى تَحِيَّتِهِمْ؟ لِمَاذَا لَيْسُوا هُمْ؟

- تَعَالِ، تَعَالِ. - تَأْبَظُ رَدَدُ الشَّابِّ وَسَارَ بِهِ. وَفِيمَا يَقْتَرِبَانِ مِنَ الْحَارَسَيْنِ رَأَى رَدَدٌ أَيْنَارَ تَخْرُجَ مِنَ الْمِضَافَةِ مَسْرَعَةً إِلَى غُرْفَتِهَا. - وَالْآنَ تَعَالِ يَا شُوبَاشُ إِلَى الْمِضَافَةِ نَتَكَلَّمُ وَنُقَطِّرُ.

تَحَرَّكَ الْأَمِيرُ رَدَدٌ إِلَى سَاحَةِ قُرَايٍ وَلَا يَزَالُ عَلَى مَوْعِدِ الْجَمْعِ وَقْتُ غَيْرِ قَلِيلٍ. عَلَى يَسَارِهِ قُدَانٌ، وَإِلَى يَمِينِهِ شُوبَاشٌ. وَالْفِرْسَانُ الْحِرَاسُ وَرَاءَهُمْ. وَتَأَخَّرَ مَشْقُوهُ. كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَخَالَطَهُمْ أَمِيرُ الْقَسُوعِ إِذْ تَجَمَّعَ الْمُنْدُوبُونَ كُلُّهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ اعْتَبَرَ اسْتِقْبَالَ كِبَارِ الْمُنْدُوبِينَ بِشَخْصِهِ نَوْعاً مِنَ الْاحْتِرَامِ لَهُمْ وَلَهُ.

تَفَحَّصَ رَدَدُ الْفَسْحَةَ رَاكِباً. أَشْعِلَتْ عِدَّةُ نِيرَانٍ لَا تَتَلَامَسُ، وَأَدَخِنَتْهَا تَنْحُو جِهَةَ الرِّيحِ الْخَفِيفَةِ. وَبِالْأَعْوَادِ عُقِلَتْ الْقُدُورُ. وَالرِّجَالُ يَنْظِفُونَ لِحُومِ الْخِرَافِ الْفَتِيَّةِ وَالْأَبْقَارِ الَّتِي لَمْ تُنْتِجْ هَذَا الْعَامَ. وَالشَّبَابُ الصَّغَارُ فِي خِدْمَةِ أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ. وَوَرَاءَ مَكَانِ انْعِقَادِ الْجَمْعِ عِدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَأَغْلَبُهُمْ جَاءُوا مِنْ مَزِيهِ وَمُسْتَحْقُوهِ. وَوَقَفَ عَلَى الْجَانِبَيْنِ مَنْ أَتَوْا مِنَ الْقُرَى الْآخَرَى. وَمُقَابِلَ مَكَانِ الْجَمْعِ يَقِفُ عِدَدٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ. تَرَجَّلَ الْأَمِيرُ رَدَدٌ بِمُسَاعَدَةِ الْحِرَاسِ، فَتَوَجَّهَ إِلَى الْأُمَرَاءِ وَالرُّعَمَاءِ وَصَافِحَهُمْ. وَمَا زَحَهُمْ مَعْتَبِراً أَنَّهُمْ غَلَبُوهُ بِوُصُولِهِ قَبْلَهُ فَأُضْحِكُهُمْ. انْتَضَمَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، رُكْبَاناً وَمِشَاةً، فِي أَرْجَاءِ السَّاحَةِ وَأَطْرَافِهَا. وَالتَّامَ شَمْلُ أَعْضَاءِ الْمَجْلِسِ الْأَعْلَى.

لَمْ يَتْرَكَ الْأَمِيرُ رَدَدٌ أَحَدًا مِنَ الْمُسْنِينَ دُونَ أَنْ يَرِيَتْ عَلَى كَتِفِهِ أَوْ يَلَاطِفُهُ بِالْكَلَامِ. وَحِينَ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي مَدَى الْبَصَرِ فِي الْجَوَارِ تَوَجَّهَ إِلَى أَعْضَاءِ الْمَجْلِسِ الْأَعْلَى:

- مَا رَأَيْتُكُمْ أَنْ نَبْدَأَ؟ - التَفَتَ وَرَأَى تَرَابَ وَرَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: - لِمَاذَا أَنْتَ هُنَا، تَعَالِ اقْتَرِبْ مِنِّي!

توجه المجتمعون إلى إلههم الكبير الشمس ودَعَوْا إليه أن يحقق آمالهم.

- إلهنا الكبير الشمس يُطلِّ علينا اليوم طلق الوجه. - بدأ الأمير ردد، - والنهار الشتائي الصاحي يشهد على تعاطف الآلهة معنا. والمؤتمر وأنا نتأمل منكم يا إخوتي أن تكون كلمتنا واحدة وفعلنا. كل الأقوام أسست دولاً. ولكل دولة حاكم واحد. ويعيشون في حماية جيوش موحدة. ويعملون ويحمون أنفسهم. ونحن أديغة، نعيش واحداً من أعراق العالم، وإن تَنَادَيْنَا بأسماء مختلفة. علينا أن نتحد ونؤلف دولة واحدة.

روى ردد ما رأى وراء البحر، وترتيب أمور الناس، ونتائج الاحتفاظ بجيش واحد. وأطلعهم على الأفكار التي طرحها من قائلهم في سفراته لجمع المؤتمر. وبعدما تكلم عدد من مندوبي القرى، تقدّم يمزش الحداد ذو الشفتين الغليظتين، وسأل:

- نحن نختار قادة للجيش وللحرس، ونثق بهم، وهم يتخذون من نخلش الذي التجأ إلى الحكوف موضع ثقة لهم.

- من تقصد بالكلام يا يمزش؟ - صرَّح باسمه! - تكلم الأمير بخشونة.

- قُدان، رأوه في الحكوف.

- تقدّم يا قدان إلى الساحة. هل صحيح ما يقول يمزش؟

- صحيح يا أمير، ذهبْتُ في مهمة.

- ما مهمتك مع عدونا؟

- لم يكن نخلش مقصودي، بل عملٌ آخر...

- قُل الحقيقة، ولا تتحجج! - لم يُطق العجوز كولس صبراً، وضح المؤتمر. ولم يُعَدُّ مشقوه يتحمل المزيد. خرج من وراء ردد ووقف إلى جانب صديقه:

- لا ذنبٌ لقدان. - أنا أوفدته راجياً منه التحدُّث إلى ججان. - أطرَق مشقوه برأسه خجلاً. - تعرفون سبب ما فعلتُ...

- هذا واضح. - انكسر صوت الأمير، - من الآن؟

- دعني أقول شيئاً، - خرج الابن الأكبر لحقار من بين رفاقه، - لا أحد يأتي على إجرام نخلش. إن لم تنتقموا منه فلن تردعني قرايئنا، سأنتقم لوالدنا.

- لا تتعجّل يا غُتّيج! - نصح الأمير الشاب المنفعل. - نخلش ليس في

متناولنا في هذه اللحظة؛ لاشك أننا سنصل إليه.

وفي هذه اللحظة لفت انتباه كلِّ مَنْ في الساحة الفارِسُ القادم من جهة مزبه وحيداً. وتلاقت عليه العيون. وصل الفارس وارتمى مِنْ على الفرس. وعَبَّرَ الناس، ووقف أمام الجمع مطرقاً.

- كيف جاء دون خوف أو حياء! - تعرّفت أينار على ججان فصرخت متوردة الخدين.

- لا تقولي شيئاً! - همست في أذنها رامبس السيدة الكبرى.

- يا أمير، - رفع ججان رأسه ونظر في وجه ردد دامع العينين، - أتوسل إلى كبار المؤتمرين، وكلِّ من حضر إلى الاجتماع، ولا أطلب صفحكم، أفْضِلْ أن أموت على يد أحدكم، منه على يد نخلش الأصهب.

- جدُّك حكيم جداً يا ولدي، فلماذا أخطأت أنت؟ - سأل العجوز بشماف.

- غمَرَنِي نخلش بالمديح فخدعني. - أجاب ججان متلعثماً.

- يا حسرتي يا ولدي، لست وحدك من ضلَّه المديح! وأنا أهاني هذا الأصهب القبيح مراراً طالباً مني تغيير اسمي. والآن أظنه في موقف عليه أن يرحل عن دنياه.

خرج كولس من قيادة المؤتمر معتمداً على عكازته، وعتف حفيده هاراً العصا في وجهه كأنه سيقلع بها عينه:

- أتتوسل الآن بعدما فعلتِ فعلتك؟! لا راعيتني، ولا راعيتِ صديقك. أهنتِ القرية كلها. تركتني لا أجرؤ على النظر في وجوه الناس!.. - رفع كولس رأسه فجأة وتوجه إلى ردد. - يا أمير مُرُّ أحدهم أن يعطيني سيفه، سأقطع رأسه.

- لا يا زعيمنا المبارك، لن تفعل هذا! - دنا الأمير من كولس وأمسك به من كتفيه. - اهدأ، أرجوك، عُدْ إلى مجلسك!

- أوصلني إلى هذا الموقف... - عاد العجوز كولس إلى مكانه محتججاً.

- أيها المؤتمر المبارك! - توجه ردد إلى الناس، - سمعتم جميعكم ما قال ججان. لا يرجونا أن نسامحه على ذنبه، ويفضل أن نُزهق روحه. إن سمعتم نصيحتي فأنا أقترح مسامحته: الرجل لم يقتل أحداً، غرَّروا به...

- نسامحه، نسامحه كُرمى لكولس. - صاح الرجال من هنا وهناك.
 - لن أسامحه ما عشتُ على ما فعل بي. - أفلت من فم أبنار.
 - أما قلتُ لك: كفى!.. - نهرت رامبس السيدة الكبرى كَنَّتْهَا حذرة.
 - إن وافقتموني بقي أماننا بندٌ واحدٌ في جدولنا، - رفع الأمير ردد صوته. -
 حين نظر إلى يساره فرأى ججان الذي خرج من الساحة على رأسه قَبَعَتَهُ
 الشعثاء واقفاً إلى جانب حصانه الأصفر الصغير أضاف مُشفقاً عليه، معيداً
 إلى صوته النشاط: أرى من المناسب أن نُؤمّر قدان جيش الفرسان المقترح.
 يعرف الناسَ أكثرَ من غيره وخالطهم، وخبير في القول والفعل. ونؤمّر مشقوه
 على حرس مزبه.
 - كما تريد يا أمير، أنت أدري بالأنسب. - وافقه المؤتمرون. وانفعل مشقوه
 لما سمع ولكنه ضبط أعصابه.
 اتفقوا على أن تُعيل القرى جنودها ريشما تتحسن أحوالهم المالية وغيرها.
 وناقشوا قادة مقاتلي كل قرية على حدة. وعينوا تيمرقوه قائداً لمقاتلي مستحقوه
 بدلاً من نخلش الأصهب. وانتخبوا معاونين مناسبين للأمير الكبير ردد. ثم
 استدعى ردد ججان الذي همّ بالانصراف فمدّ إليه كأساً من الشراب أسمك
 من الباخسمة.

VII

كان القمر الأحمر المستدير يطل على القسوغ من أعلى الجبل حين خرجت
 آنست من الغرفة صباحاً، على مبدأ: ما يفعله الليل يتعجب منه في النهار.
 لَقَّتِ الرِيحُ التي قفزت من مضائق الجبال السماءَ مذكرةً بلبصوص الخزر،
 واختفت قبل أن ينتصف الليل. وعلى إثرها دنتِ السحب المتلبدة من الأرض
 فبدأت تُهَيِّلُ عليها الثلج. ولكن لم يلبث أن توقف دون أن يغطي أعلى من
 العقبين. والسماء الآن صافية نظيفة مرتفعة عن الأرض. ولا بد أن مشقوه هو
 من فتح الدروب إلى الإسطبلات، والمجارف مسندة إلى جدران الحظائر.
 سمعت آنست حين عادت إلى الغرفة أمها "وُساس" تكس الثلج وتروي لجارتها
 بإطناب:

- لا آبه لأحد بينهم. لن أشفق على أي صاحب روح ولو كانت غُرَّتْهُ من ذهب. جمعنا ما عندنا وما ليس عندنا ورافقنا ردد إلى بيت العريس بكل حفاوة، وبقينا مشغولين أياماً وليالي. وفيما نتوقع أن يساعدنا، وملتفت إلينا، مدَّ يده فأبعد الولد عن عمله. وهل يفعل أحدٌ مثل هذا؟
- لا تهتمي يا وُساس، مَنْ قلوبهم على بعضها لا يتباعدون. - كانت امرأة الجيران تريد تهدئتها، - ألم يعينوا مشقوه قائداً لحرس قريتنا!
- وما قيمة هذا المنصب بالقياس إلى منصبه السابق؟
- وهل قال لك مشقوه شيئاً؟
- كان سيقول لك ولكنه ابن والده البارد. ابتسم وانصرف.
- اهتاجت آنست مما سمعت. لم تعرف إن كان مشقوه عُزل من منصب قائد الجيش. ولكنها حين عادت إلى الغرفة أبعدتها شؤونها الشخصية إلى أفكار أخرى. لم تكن تهتم بأي شيء قليل بعدما رأت ججان أمسٍ وقد قفز إلى حضرة المجلس الأعلى وعُفي عنه. واعتقدت أن حظها عاد فاستوى بعد كلِّ ما عانت من عذاب. وكان السبب في خروجها من الغرفة واستقبالها للشمس وكل هذه الهموم على وجهها هو رغبتها في أن تسرَّع في مرور الصباح. قررت أن تذهب إلى دكايس لتتوسط لها مع تراب. ولكنها لم تكن تريدها أن تعيَّرها بزيارتها لها في هذا الوقت المبكر.
- وما إن رفعت آنست غطاء القدر لتذوق لقمة حتى عادت أمها.
- ماذا تفعلين كقطعة شقية؟ - نهرت وُساس ابتها في غمرة غضبها. - تذكرت بعدما سلقْتُ الدجاجة أن الملح نفذ. حيَّا الآلهة جارتنا " مزاغ "، تجدين عندها ما تحتاجينه. - رشت الملح في القدر والتفتت إلى ابنتها وهي تحرك العصيدة بالملعقة: - أنتِ جائعة؟
- قلبي في ضيق.
- ولماذا لا يكون في ضيق بوجود الأسباب. - وضعت وُساس صحن العصيدة على المائدة مغممة. ورمت فوقه مغرفة الباستا. - كلي! أنا سأذهب إلى مزاغ وأجلس إليها قليلاً.
- ألا يكفي ما تحدثتما؟ - رفعت آنست عينيها إلى وجه أمها.

- لم أستشرك في هذا، - غضبت وساس، - وأنت لا تستشيرين أحداً في ما تفعلين.

جلست آنست بعض الوقت منفعة لا تدري أتعيد لقمة الباستا التي غمستها في العصيدة بعدما غابت الأم وراء الباب. ولكن جوعها غلبها. وفي أثناء تناولها الطعام، وبعده حين استلقت، تذكرت عُشْنَاغَ أمّ أينار، ربما بسبب مناكفة أمها لها. "كنت أشفق على أينار حين كنا صبايا صغيرات إذ كانت أمها مسيطرة عليها كأنها في ملزمة حداد. ولا تسمح لها أن تخطو خطوة دون إذنها، في حين كانت تعدّ نفسها قدّمت لنا كل شيء بعد أن تُطعمنا. ووقتها كنت أعدّ أمي أحسن أمّ في العالم. وكانت أينار تغطني. ليس هناك قول مأثور غير صحيح. الآن أفهم لماذا قالوا: "الجنبنة تقطّع وهي طرية، والبنت يربّونها بحزم" ولكني تأخرت. وها هي أينار حمت نفسها ولو دون أب أو أم. وواتاها الحظّ. ما أعجب تصرفها معي حين ذهبتُ لتهنئتها قبل أيام!.. تصرفت كسيدة حقيقية رغم أنه لم تمض أيام على زواجها. ولم تكن تقبل أن تنطق بكلمة نائية ونحن فتيات صغيرات. ولكنها تعرف موقعها الآن فتعرف ما يجب أن تقول وتفعل. صرفتني دون كلام في غير محله..."

قطعت آنست أفكارها شاعرة بإسرافها في الوقت، ونهضت بسرعة، ولبست ملابسها الخارجية الدافئة. وغطّت رأسها بغطاء الصوف. ومسحت القماط الملفوف حول الساقين بقماش نظيف، وخرجت من الغرفة. نظرت يمينا ويساراً فتوجهت نحو بيت دكايس مطمئنة إلى أن أحداً لا يراها. رأت دكايس التي أسندت المجرفة إلى المسطبة واتجهت إلى الغرفة آنست في دارها فرجعت وقد أضاءت الضحكة وجهها الجميل.

- ما أحبّ مجيئك إليّ يا آنست! - عانقت الضيفة بجرارة. - بقيت منذ الصباح في البيت أتكاسل عن الخروج. محظوظة من عندها زوج.

- قبل لحظات فحسبُ انتهيت من جرف الثلج. تعالي، تفضلي إلى البيت. - ساعدت دكايس ضيفتها في خلّع كسائها الخارجي وغطاء رأسها. ثم خاطبتها بنبرة تدليل: - لا بد أنك تشعرين بالبرد، اقتربي من الموقد.

- لا، بيتك دافئ، - ومع ذلك جلستُ آنست قريباً من النار. وقابلت

دكابس جليستها بنظرة رجاء.

- أعرف من نظرتك سبب مجيئك. - نظرت دكابس في وجه جليستها نظرة معروف تسري في القلب. - سمعت أن " ججانك " قد عاد. وأرى السرور عاد إلى قلبك.

- لا أعرف إن كان ججان لي. - قلت لنفسي إن الأمل الكاذب خداع للنفس فجئتُ أوَسَطُك مع تراب. ألن يعرف موفد الله ما في قلب ججان نحوي؟

- وكيف لا يعرف؟ - ضحكت دكابس غير مرتاحة لما سمعت. وكنت رجوتني سابقاً فطلبت منه أن يقرأ مستقبلك، فأخبرك بعودة ججان. ألم ينفعل الدواء الذي وصفه لك؟

- الأمر الوحيد الذي ينفعني هو أن أكون صالحة للعيش مع ججان.

- لم يكن هذا رأيك سابقاً. - غمزتها دكابس بخبث.

- كنتُ وقتها مستعدة لاقتلاع عينه، وانتزاع روحه لو استطعت. ولم أكن راغبة في من هو في رحمي. ولم ينفعني الدواء الذي أعطيتني إياه؛ كنت أرغب في الانتحار قبل أن يكتشف الناسُ أمري.

" يا حلوتي الصغيرة، - توجهت دكابس بقلبها إلى آنست، أنا أفكر في ما لا يخطر لك على بال. افرحي إن كنت حاملاً. كيف أسمح لك بالتخلص من الجنين وأنا أعرف ما أعرف. إن لم ينفعل ما سقيئك فلن يضركَ". ثم سألتها بضحكة باردة مع شيء من السخرية:

- وماذا جرى الآن إذن؟

- كنت غاضبة فأتكلم من خارج قلبي وإلا ما حدث لي هذا لو لم أكن أحب ججان. ثم أليس والد من في بطني!

- هذا صحيح يا آنست. الطفل والدُه أحبُّ إليه من أحسن الرجال. فإن فهم ججان هذا واتفقتما عشتما والصبي بينكما. لا سعادة في بيت بلا أطفال. أنا

لو كان عندي ذرية لما وسعتني الدنيا فرحاً ولو دون زوج... جرفنا الكلام فنسيت أن أقدم لك شيئاً من الضيافة. - نهضت دكابس تقلدُ مشية الحموات.

- لا داعي، أفطرت قبل قليل. - أسرعَت آنست بالردِّ.

- ألن يتسع بطنك للقليل؟ - التفتت دكابس وهي تضحك. - سأقدم لك شراباً دافئاً.

- أنتِ ربّةُ بيتٍ مضيافٍ يا دكابس، - مائدتك مفتوحة دائماً، ومن بيتك تفوح رائحة العطر.

- يا حسرتي يا آنست، أتمنى أن أكون ربة بيت، ولكن لا حظاً لي أن أكونها.
- شكت دكابس. - لا تظني أنني لا أحب نطاي، والآلهة شهودي. أنا لا عيب عندي، ولكنه لم ينجح هو...

- ما الذي لم ينجح يا دكابس؟ - كانت آنست تريد التحقق من لسان دكابس من الخبر المنتشر في القرية عن نطاي.

- ما لم ينجح هو ما جعلك تخطئين، - ابتسمت دكابس، - لم أعتب عليه يوماً من أجل طباعه وإنسانيته وسلوكه معي. ولكن هل كنت أعيش معه العمر على فراش واحد محرومة؟

- وكيف تقرب نطاي من تراب إذن يتلقط كل كلمة تخرج من فمه؟ لو طلب منه تراب لقضى الليلة تحت الماء.

- لم يألُ تراب جهداً لشفاء نطاي. رأى طالعه، وابتهل إلى الآلهة، واستعمل الأدوية - ولكن لم ينفع منها شيء. وكيف يستطيع تراب أن يحقق لك ما لم يفعل الآلهة؟! - وضعت دكابس الحساء الساخن على المائدة، وجلست. واستأنفت كلامها وهي تتأمل آنست بإخلاص: - لا شيء أخفيه عنك إذ أننا متشابهتان. ولتحافظ آهتنا على سرّنا. لم يكن نطاي يحتاج إلى الكثير ليتحرك فيه شيء. لاحقني حقار اللعين فظل يأتيني بالهدايا ويغمري بالمديح. وأقنعني أنه سيطلق امرأته ويتزوجني، فعشت معه كزوجة سرّية أكثر من سنة. ثم بدأ يصطحب نطاي إليّ حتى أحبّه وأتزوجه. وبعدها ظل مدة طويلة يأتيني في غياب الزوج.

- أنت قوية يا دكابس؛ استطعت إبعاد رجل عنيف مثل حقار. يقال إنه لا يوقّر شيئاً إن أسأت إليه.

- لا أعرف كيف جرى الأمر. حين بدأ تراب يزورني صدف أن جاءني في ليلة كان تراب عندي فيها، فارتعبت. لو اكتشفنا لقتلنا كلينا. فضبطت نفسي

واسترجعتُ قواي ولم أفتح له الباب.

- لا تؤاخذيني يا دكابس. لا أقول إن تراب قبيح، وجهه جميل، ولكن... وأنت تعرفين...

ضحكت دكابس.

- فهمتُ ما تتخرجين من قوله: حدّثته. هل تعرفين يا آنست: تراب بالقياس إلى المسكين نطاي طافح بالرجولة. أنساني حقار الذي رحل عن الدنيا. ونسيت كونه أحذب.

- وهل تقبلين به زوجاً إن تزوجك؟

- تقولين: إن تزوّجك، - مطّت دكابس قامتها معتدّة، - لو قبلتُ به لتزوجني بكل سرور. ما عيّبي أنا؟

- حماكِ الآلهة! أنت متناسقة في كل شيء: وجهك وقوامك وسايك... ولا أعرف في مزبه امرأة أجمل منك. - امتدحت آنست دكابس بكل صدق.

- وأنت ماذا ينقصك؟ - لو لم يكن ججان مجنوناً لما تجاوزك واختطف من صارت زوجة أميرنا الكبير.

- أنا أعرف السبب في هذا.

- من؟

- نخلش الأصهب. أبتهل إلى آلهتنا أن يزهقوا روحه. ظلّ يغسل دماغ ججان ليلاً ونهاراً حتى أفقده عقله. وأنا أسأت إلى أينار التي لا ذنب لها.

- سمعت أنك زرت أينار مهنئة قبل أيام.

- هل أخطأت في هذا؟ - فوجئت آنست فرفعت رأسها.

- لا، لا أقول إنك أخطأت، بل أروي ما سمعتُ فحسب، - تراجعت دكابس. - اسمعي ما كانت ترويه جدتي وهو ما ذكرّني به: كانت هناك

صديقتان متشابهتان في غاية الجمال، والخطّاب يتوافدون إليهما. ولكن فيما لا تجدان من هو جدير بينهما ظهر أمير شابّ ممتاز. وفي آخر حفلة عرس

حضرتها الفتاتان غلب الأميرُ الحضور في الرماية، واختطف منهم جلد الخروف. وغلبهم أيضاً في سباق الخيل. من الصعب أن تجدي مثله إن كان عندك نية

الزواج. ولكن الفتاتين اتفقتا على ممازحة الخطيب الأمير. إحداها لا يعدل

جمالها طيشها، والأخرى طبيعتها تفوق جمالها، وطبيعتها حلوة. حين جاء الأمير مغازلاً للمرة الأولى كانت الفتاة الطيبة محدّثتها فعاد إلى البيت يطير من الفرح، وفي المرة الثانية قابل الفتاة الخبيثة فعاد الأمير دائخاً مُحبطاً.

نهضت دكايس لما سمعت صوت الباب، وسألت آنست:

- من الطارق؟

- جاري.

- لا أريد أن يراي أحد. - قلقت آنست.

- اخرجي من هنا عبر الباب الداخلي إلى الغرفة الأخرى. لن أدعها تجلس طويلاً.

بعدها جلست آنست مقرورة في الغرفة الباردة نادى دكايس:

- جاءت تطلب شيئاً من الدهن، - مطّت دكايس شفيتها.

- لماذا؟ أليس عندهم بقرة؟

- ومن أين؟ عندها رجلٌ مستقلٌّ في أي وقت تدخل بيتهم. إن كانوا محظوظين عاش إخوة المرأة المسكينة طويلاً.

- حسناً، يكفي، قطعْ علينا الحكاية الجميلة. - قال آنست تقترب من نار الموقد، - وماذا جرى بعد؟

- وماذا سيجري، - أكملت دكايس حكايتها وهي تعيد ترتيب شفيتها. - روى الأمير الشاب لصديقه سلوك الفتاة. قال الصديق: "تختبرك، - تريد أن تعرف إن كنت جاداً" وعلى كل حال ظلّت تعامله بالحسنى مرة، وبالحبث أخرى. وفي أحد الأعراس تحدّث إلى الفتاة السيئة الخلق بطريقة أو بأخرى. ولما بدأت الفتاة تتغنج له قال في نفسه: لن أجد أنسب من هذه اللحظة فاختطفها مع حراسه من الحفلة. فكّر الأمير الشاب في بناء أسرة ولكن العروس تضطهد الحماة. بل ركبت ظهر الرجل نفسه. فصار يخجل أن يخاطب الناس أو يزوره أحد. وهذا السبب في قولهم "المرأة الجيدة بيت، والسيئة قَبْو". وهل كان صبر الرجل بلا حدود؟ قرر أن يطلّقها في طريقهما إلى أهله. عرفت المرأة نية الرجل فجمعت كل ما ترغب فيه من متاع البيت في العربة، وذهبت إلى أهلها للمرة الأولى. وفي طريق الرجل من بيت حميه ترجّل للمرأة التي

صادفها. كانت تشبه زوجته تماماً. سألها: "التي تزوّجتها في بيتها فمن أنت؟ أجابت الفتاة المهذبة: "أنا صديقة زوجتك يا أمير" كنا اتفقنا أنا وصديقتي أن نمازحك حين عزمت على زيارتي خاطباً. ثم وقّعت على وفاة والدي فتزوجتك". هذا السبب في قولهم "المزاح ينتهي بالقتال" قال الأمير: "إن كنت جاهزة تزوّجت منك الليلة". وفي اليوم نفسه تزوّجها. استعاد الأمير سعادته رغم القول المأثور: "من يتزوج مرة يسعد، ومن يتزوج مرتين ينتكب".

- أنا لا أطمح في الأمير الشاب يا دكابس، - تنهدت آنست، - لا أطمح في غير ججان.

- لو استطعتُ لوصل طموحي إلى الأمير الشاب. - قالت دكابس من أعماقها، - إن كان مثلي ردد سيكون زوجك... لا أقول هذا لأنه سليل أمراء بل لقلبه الكبير ورجولته. من يعود من بلاد الروم البعيدة، حيث لا تعرف أحداً ولا يعرفك، لا بد أنه يفوق سائر الرجال. أعتقد أنه صار أميراً حقيقياً لنا. - وهذا رأيي أنا، - قالت آنست متلهفة، - ولكن ما يُقلِّقني شيء آخر. توسّطي لي مع تراب، يسمع كلامك أكثر من كلامي.

- لا تقلقي لهذا، واعتبريني أبلغته، - طمأنت دكابس آنست. - لا بد أني أملكك يا دكابس، يقولون: إطالة الجلوس مثلي الإكثار من الاغتياب. - نهضت آنست.

- ساحك الله على هذا الكلام، نفّست عن ضيقي، عانقت دكابس ضيقتها بحرارة.

كانت الكلمة الأخيرة التي قالتها أخيراً المرأة الوحداية لأنست صادرة من القلب. متى التقت امرأتان محظوظتان فلا بد أن تحسد إحداها الأخرى على شيء ما. وإن تحدثت امرأتان إحداها محظوظة والأخرى تعيسة فهذا هو الأسوأ. ولكن متى اجتمعت امرأتان تعيستان نفّستا عن ضيقهما، وتبادلنا الثقة في الأسرار، ولم تكتم إحداها شيئاً عن الأخرى. تبادلت دكابس وأنست شكواهما كأخما عاشتا العمر كله في بيت واحد، وكأخما قريبتان، أو سلفتان. - لا تجزعي يا آنست! - نصحتها دكابس على الباب. - ما نقول نحن شيء، وما يدبره الآلهة شيء آخر. لا أريد أن يراك ججان متلهفة عليه متوسلة

إليه. تظاهري بأنك لم تعودي راغبة فيه وسترين أنه سيعود إليك متوسلاً!
- لو كانت قادرة يا دكابس!..

- تقدرين، - قالت دكابس بنبرة قوية: - إن وجد ججان امرأة مثلك فليرم
قبعته في الهواء ثلاث مرات! ألسنتي جميلة، حلوة الطباع، طاهرة القلب؟ ماذا
يريد أكثر من ذلك؟
فارت أنست باب دار دكابس وقد عاد إليها وعيها وصفا قلبها وارتاح.

VIII

اختفى ججان عن جده بعد انتهاء الاجتماع. كان يعرف أنه لن يسمع كلاماً
حلواً منه. ولا يُستبعد أن يصفعه. ولم يكن السبب خوفه منه بل كان الخجل
ينهش جسده. كان كمن نجا من مرض قاتل فخلق من جديد ولكن مأسوراً
بالخوف والرعب والأحلام المزعجة. عاش يتوقع أن يصيح به أحد فيعطب
قلبه. أضحى غير مرغوب فيه في مزبه، ولو غُفرت له فعلته، لا من أهل القرية
فحسب، بل من كل من حضروا الاجتماع. وصديقه الأمير ردد هو القادر
على أن ينتشله من المواقف الصعبة ويعيده إلى حياة الناس، ولكن لم ينفعه
تقديم ردد كأس شراب إليه في نهاية الاجتماع على رأى من كل الناس. لم
يكن في تقديم الكأس رياء. وججان يعرف أن ردد لن يقول أو يفعل ما ليس
في قلبه. لو شوهده ولو مرة واحدة، إلى جانبه راكباً أو راجلاً لصالحه كثير من
الناس.

وكانت آنست أحد هموم ججان التي تفنيه. وظل التفكير في طريقة لقائها، وما
سيقول لها، ونهاية قصتهما، حجراً ثقيلاً على كاهله لا يسمح له أن يتنفس
ملء رئتيه. ما إن خرج ججان من البيت قائلاً لنفسه: " اليوم سأضع حداً لهذا
الموضوع مهما كانت النتيجة، سأقابل آنست " حتى التقى بكولس. حُيِّل
لججان أن الأرض خسفت به. هجم الدم على رأسه، وارتخت ساقاه، وسرت
رعدة خفيفة في جسده.

- هيا عُد إلى البيت! - أمره كولس باقتضاب! فتح ججان الباب ووقف إلى
جانب قائمته مفسحاً لجدّه. ذرع كولس أرض الغرفة نزفاً تسبقه عصاه. ثم

توقف مقابل الحفيد وألقى عليه نظرة عابسة. وسأله بشفتين مرتجفتين: - ماذا تستحق أن أقول لك يا ولد؟

- فهمت كل شيء، - التفت ججان إلى جده مُرتجِعاً صوته إلى صدره.
- لا أظن أنك فهمت، - هزّ العجوز رأسه. - المرحومة والدتك كانت تساوي رجلاً، ولو أنها وُلدت بلا قبعة على الرأس، ولا أقول هذا لأنها من صليبي. وكل ما قدّمته لك، وما قدّمته، وما ربّيتك عليه لم يظهر فيك أثر له. لم يكن كولس يتحمل بعض طباع والد ججان التي تظهر في الولد، ولكن لم ير من اللائق تعبير ابنه بها. ولكن أبرزها دون أن يذكر اسماً: - ما لم أقبله هو أنك تخفي رياءك وتظاهر أمام الناس بالاستقامة.

- ومتى رأيت في هذا الطبع؟
- في الاجتماع! هل لجنت أم رأسك رأس دجاجة فتعتذر بأن نخلش خدعك؟ يا حسرتي يا ولدي! ليس هذا من الرجولة ولا من الإنسانية. مهما قلت أو فعلت فلا تُلصق التهمة بأحد. لا شيء يخطئ من قدرك مثل هذا الطبع. لو جاؤوني بجثتك في ذلك الموقف لما حزنت كما حزنت لسلكوك.
- أصدّق هذا... - طغى العناد على صوت ججان - أعرف أنك كنت مستعداً لقتلي لو أعطاك ردد السيف.

- ما كنت لأتردد! - ارتفع صوت كولس غضباً من حفيده. - إذا كان حفيدي سيتصرف وقف أهواء نخلش المهرج فعمري راح هباءً. رُيِّت أنت وردد معاً، صار ردد رجلاً، وأنت بقيت بقبعة امرأة!
- لا تُهنّني يا جدي!

- اسمع ما سأقول لك!.. - ذرع كولس أرض الغرفة بعصاه. - انظر إلى أين وصل عقل ردد وتفكيره وفهّمه. حين طلبت السيف فهّم أي خرجت عن طوري فهذّاني. وحمل الحضور على أن يغفروا لك ذنبك. ولو كنت مكانه لسحبَت السيف وقطعت رأسه.

- ما كنت لأفعل هذا أبداً!
- أسكت! حين هجمت على أبنار واختطفتها قطعت رأس ردد بسيف غير منظور. وكان من الممكن أن تدمر مستقبل الفتاة البريئة، ولحسن الحظ تبين أن

أميرنا صاحب عقل وشفقة وإنسانية.

- وكيف كنت سأنكب أينار؟

- أما كنت نكبتها لو قرر ردد ألا يتزوج من فتاة أختطفت وأعيدت، فتجاوزها إلى فتاة أخرى؟ حدث مثل هذا كثيراً. هذا هو يا ولدي - لان صوت كولس، - إن سمعتُ أنك أخطأت بعد اليوم فسأقتلك ولو كنت بسبع أرواح. صدِّق هذا! لن أدع أهل قريتي مزبه ولا القسوغ يقولون: عاش كولس حياته عبثاً... والآن تابع طريقك.

خرج ججان من البيت كمن أشيع ضرباً بالعصا، وسار كدجاجة دائخة لا يهّمه أين يذهب. وقبل أن يعود إليه وعيه استرعى انتباهه صوت حوافر حصان وراءه. ووقف مشقوه موهماً أن الفارس والحصان الكستناوي من لون واحد:

- أرسلني ردد يبلغك أنه أعادك إلى جيش الحرس. - قال مشقوه يلتفت جانباً. ثم توجه إليه وسأله: إلى أين تذهب؟
- إلى بيتكم، - أفلت من ججان ما في قلبه.

- بيتنا ليس من هذه الناحية، - لم يصدّق مشقوه ما سمع.
- نعم إلى بيتكم، - ضحك ججان، - دوّخني فلم أعد أعرف إلى أين.
- من فعل بك هذا؟ - اكتسبت نبرة مشقوه شيئاً من الدفء. وشدّ قامته على صهوة الحصان.

- جدي.

- إياك أن تراك أمناً، ستهجم عليك، - صاح مشقوه وراء ججان رافعاً جسده على الركاب، وأضاف: - غداً سيعود الأمير ردد، ولذا سنؤلف جيش الحرس. تفقّد سلاحك ولباسك وحصانك!

" صدق ما توجست منه. لم يقل أحد شيئاً لأن ردد غائب. - كان ججان يُغذّ السير منزلقاً أحياناً على الثلج الرقيق. ونهر نفسه وكلمة "المنافق" التي رماه بها جدّه تخز قلبه كالإبرة: استحقّها! لم أفكر في ما سأقول. متى قلت لأحد باستمرار: أنت مجنون، صار يشك في نفسه. كان يجب ألا أذكر اسم نخلش الأصهب. أفلت مني الاسم. لا أعرف من أين كان هذا الدّعي يأتي بهذه الأوصاف الجميلة " عيناها مبطنتان بالحرير، وشفاتها المنفوختان زهرتان

حمراون، وخصرها ملء اليد فحسب، وساقاها مثل صفار البيض... " ظل يكررها كل يوم حتى أفقدني صوابي، وجعل أبنار جزءاً مني. وصرت أحملها في دمي. ولكن لو عرفت أن ردد ما يزال حياً لما خطوت خطوة في هذا الاتجاه.."
- ججان! - لجمه اسمه، ثم لحق بالعجوز. - ماذا يا ولدي؟ تذهب إلى المأتم؟ دعنا ننتظرهم قليلاً. سيخرج جيراننا أيضاً فنذهب معاً.
- من مات يا طاطخ؟ - نظر ججان في وجه العجوز قلقاً للاسم الذي سيسمعه.

- والدته ناشخوه، - قال طاطخ وعيناه نحو جيرانه، ثم ابتسم وأضاف: - لا بأس بما عاشته، وها هو ناشخوه صار كهلاً.
- هل تعرف ماذا يقول جدي في هذا الموضوع؟ - أضاف ججان: - يتمنى المرء أن تعيش أمه ولو عُمرت ألف سنة.

- وهذا صحيح. - نظر طاطخ في وجهه مديراً رأسه. - من ذا الذي ملّ من أم صالحة ومن جوّ صاح؟! متى فقدت الأم تيّمت تماماً.
التحق الجيران بطاطخ فوصلوا إلى المأتم يتحادثون. ودخلوا الدار عبر الباب المفتوح على مصراعيه، وعزّوا ناشخوه وأخاه الأصغر وكل أهله. وفيما هم واقفون مع الرجال يستمعون إلى الأخبار رأى ججان وُساس بين النساء الداخلات من الباب الضيق. تحرك ججان دون أن يلفت الأنظار، فخرق صف الرجال ووقف وراءهم. ولما دخلت النساء الغرفة تسلل من الدار. وتوجه إلى بيت آنست بأقصى سرعته.

كانت الدار هادئة. تعرف عليه الكلب الأسود الضخم فاستقبله بهزة رأس. وسار معه إلى الباب يلتف حول ساقه. وقف ججان وراء الباب وأطلق نداءه:
- هل يمكن أن آتي يا آنست؟

رفعت آنست رأسها ونهضت والدم يغزو وجنتيها. وغضّنت وجهها دون اقتناع:

- جئت وانتهى الأمر، سواء كان ممكناً أم لا. تعال، اجلس!
- هل تنسجين جراباً من الصوف؟ - سأل ججان لا يعرف من أين يبدأ الحديث.

- ليس جراب صوف، - نظرت آنست إلى القطعة نصف الجاهزة، بل شبكة صيد سمك.

- وهل هناك شبكة مثلها؟

- أنسج شبكة ناعمة جداً. لن يخرج الداخل إليها. - ألقت نظرة كبرياء على ججان، - قررت أن أوقع أحداً بشبكتي كما خدعتني.

- أمسكي بي إذن، - فرح ججان وعاد إليه شيء من جرأته. - قيل إن التائب تقبل الآلهة توبته. لم أعد إلى القرية فحسب بل إليك أيضاً. أوقعيني في شبكتك إن أردت، أو انصي لي فخاً، اعملي بي ما تريد. لن أعتب عليك مهما فعلت بي لأني أعرف ما يغتلي في قلبك. اغفري لي فحسب. هذا رأسي، وهذه قبعتي...

- لا أريد رأسك، ولا تُريني قبعتك، - بدأت آنست مدّعية القسوة ولكن صوتهما انكسر رغماً عنها: - تقول بعدما فضحتني في القرية: رأسي، قبعتي؟! أما كان عندك رأس، أما كان في صدرك قلب حين كنت أتوسل إليك، وأهددك بالانتحار؟

- لا أحد معصوم من الخطأ يا آنست إلا الآلهة. - قال ججان بلهجة الناصح. - هم أن يقول إن نحلش هو من دفع به إلى الخطأ ولكنه تذكر عتاب جده فتراجع. أنا اعترفت لك بخطئي. ولم تسؤ سمعتك في القرية على ما تظنين. من يعرف قصتنا معدودون. أرجوك أن نتفاهم. الغضب ينتج الفراق. - لا تظن يا ججان أنني أتدلل عليك، ولا أنني حردت منك. - لأول مرة نطق اسم ججان بجملة. - لو كنت أفكر في مثل هذه الأمور لنزعْتُك من قلبي منذ زمن بعيد، وتبعْتُ مصلحتي الشخصية. خلّني الآلهة وما يلتصق بقلبي يصبح جزءاً منه.

- عشتُ بين الحكوف متفهّماً موقفك، واثقاً أنني سألقاك أخيراً.

- ولكن ما سمعناه هو أن نحلش اللعين اتخذ الحكوف أميراً وأنت معاوناً له. - ضحكت آنست ساخرة، - ألا تجلس يا ججان. دخلنا في النقاش فنسينا عادات الأديغة.

جلس ججان الرشيقي رافعاً رأسه، وقال لها:

- وأنت أيضاً اجلسي. العتاب المر يتبادلہ الأحباب فحسبُ يا آنست. دعينا نتكاشف ما في قلوبنا دون غضب.

- لم تعلق بشيء على ما قلتُ بشأن الحكوف. - حرفت آنست الحديث إلى مسار آخر مقتنعة بأن تبادل عبارات الحب في هذه اللحظة غير مقبول.

- ما ذكرته إما أنه وصلكم عن طريق أحد أعدائي أو أنك تدفعيني إلى أن أقول شيئاً؛ أليس صحيحاً يا آنست؟ ضحك ججان.

- إن أردت صحيح، وإن أردت كذب، - ومع ذلك سمعنا أنكم لم تكونوا في الحكوف مجرد لاجئين لصوص... مهلاً، سأعود بعد قليل، - خرجت من الباب الصغير وقد تذكرت شيئاً، وعادت وبين يديها قطعة مرقطة كبيرة. - هل تتذكر هذه يا ججان؟ - ابتسمت آنست في وجهه ابتسامة دافئة، - جئتني بها صغيرة. وانظر الآن كيف صارت. هذه نمت، وأنت وأنا نقص منا.

أجلست آنست القطعة المرقطة على فخذ ججان. ونظرت تلك برأسها الكبير وعينيها الزرقاوين إلى وجه ججان. ثم اصطنعت عطسة وعادت إلى آنست. وتذكر ججان أنه أهدى القطعة صغيرة إلى آنست، وأنه كان لا يطيق يوماً دون لقائها، فيمر كل يوم مرات أمام باب دارها.

- توقفت عن الكلام يا ججان، - قطعت آنست ذكريات ججان وعودته إلى وعيه، - كيف سارت أموركم بين الحكوف؟

- من كان سينصب نخلش أميراً على الحكوف الذين لم يكن عندهم يوماً من الأيام أمير؟! ومن سيعينني معاوناً للأمير؟ - برأ ججان نفسه. هؤلاء عندهم رجل ثقيل الظل، قصير الرقبة، اسمه بارج. ليس أميراً ولكنه تقدّم الحكوف يريد أن يطيعوه. وقد ارتقى القبيح الأول إلى جانبه فيساهم فيهم برأيه. ولكن ألا تعرف موقف الحكوف من الموضوع؟ في المدة القصيرة التي قضيناها معهم تظاهروا بالتعلق به إلى حد الهوس مهما كان رأيه فيهم. يبتسمون في وجهه مدّعين استغراب آرائه، قائلين: " أهذا رأي القسوغ؟ عجيب، عجيب ". وها أنا أدرك بأنهم سيفعلون به شيئاً أو يطرّدونه...

- كفى! - لم تقبل آنست، - لا أريد أن أسمع سيرة هذا الرجل الكريه. قتل حقار رغم أنه نسيبه.

- سرت شائعة لا أعرف مصدرها تقول إن حقار جنِّي شرير فوافقهم نخلش الأصهب.

- ألم تفهم يا ججان أنه وافقهم لأنهم كانوا سيقتلونهم معه؟ ليست هذه مشكلة؛ كيف تعامل معك الأمير ردد؟

- لم ينطق بكلمة مسيئة. - تنهد ججان وهوى رغماً عنه الرأس الذي كان رفعه. - منذ زمن بعيد أعرف رجولة ردد وطباعه الهادئة. ولكن لم يخطر لي أن يغفر لي كل هذا ويضمنني إليه من جديد. رجعتُ بقلبي إليك قائلاً: مهما فعل بي فهو حملي وأستحقّه.

- وماذا كان موقف الأصهب صاحبك؟

- وهل أطلعته؟ اندفعوا نحو البحر للسرقة فهربتُ، - ضحك ججان، - كنا اصطدنا مرة بقوة من أجل حقار. وبعدها حين خرج من القرية اصطحب عدداً من الرفاق ممن انضموا إليهم منافقين وسرقوا. ولما لم أوافق على هذا هاجمني وكاد يخنقني. وعلى رأيك من لم يتورع عن قتل نسيبه فهل يتورع عن قتلي؟ ليس فيه رحمة أو شفقة كأنه سليل ذئاب.

- ما أكثر ما كنتَ تمتدحه قبل أن تلجؤوا إلى الحكوف!

- وهل عرفتُ أن لسانه معسول متى احتاجك، لا يمكن أن تنافسه في هذا. - وأنا أظن أنك اكتسبت بعض طباعه. لم أسمع منك في الماضي كلامك الذي تقوله اليوم.

- لا يا آنست. كنت أحمل كل هذا الكلام في قلبي عاجزاً عن البوح به. والآن لم أعد قادراً على الاحتفاظ به في صدري. أكاد أنفجر.

- وأنا فاجأتني بحضورك فأفلتت مني كلماتي الهائجة وإلا فأنت قطعة من روحي يا ججان، وتسري في دمي.

- أرجوك يا آنست أن تسمح لي بلمس بطنك مرة. من فيه هو طفلي.

- ابتعد! - تنحّت آنست وإن سرّها ما سمعت.

- نحن وحدنا، لا أحد يرانا.

- ألا يرانا الآلهة؟! لن أسمح لك أن تمد يدك عليّ قبل أن تتزوجني. - همّت آنست بالنهوض.

- كفى، ابقى في مكانك! لن المسك،- أسرع ججان،- رأيت أمك في المأتم فهُرِعْتُ إليك. مشقوه... أظن أن زوجته كانت معها. - بدأ الحديث يريد إعلامها أنه قابل مشقوه ولكن اعتبر أن لا حاجة إلى هذا، فأكمل الجملة من خياله متظاهراً أنه رأى وساس مع كَتَّيْها.

- طبعاً معها، - شهدت أنست على صحة كلامه. - لا تذهب نانا إلى عرس أو مأتم دون اصطحاب كَتَّيْها. أما واجباتي الاجتماعية فقد حرمتني أنت منها.

- سيعود كل شيء إلى حاله يا أنست، - توجَّس ججان من نشوب خلاف آخر بينهما، - لم يحدث لنا أمر لا يحدث لغيرنا. سينسانا الناس متى التقينا من جديد.

- تريد أن تقول: سيفعل غيرنا أسوأ مما عملنا فينسونا؛ أهذا ما تريد أن تقول؟ - كفاك، لم أقصد كل هذا! لا تتعلقي بكل كلمة أقولها. ما أشد ما تتحولين إلى شوكة يصعب الإمساك بها!

- لو عانيت نصف ما عانيتُ لرأيتُ إن لم تفعل أنت أيضاً!
- وأنا لم أكن سعيداً يا أنست. أقمتُ بين الحكوف ودمي على كفي. ليس قليلاً ما عانيتَه خائفاً أن تكون نهايتي على يد نخلش الأصبه، أو على يد القسوغ إن عدتُ. والآن صار هذا كله من الماضي. أعطيني موعداً!
- حتى اليوم كثير عليّ. أنا جاهزة اليوم أو غداً كما تقرر. ولكن جاري التي لا يفصل بيننا وبينها إلا ثلاثة بيوت... ما مضى كثيره فسيمضي قليله.
- لم يخطر لي هذا، صحيح ما تقولين. - وافق ججان خجلاً. - ما رأيك إذن؟

- سنتنظر موعد توزيع ملابس العجوز.
- موعد مناسب. اتفقنا إذن، - نهضت أنست مطمئنة القلب. احتاج ججان كما لم يحدث له إلى الآن حين وقفت أمامه من ستصبح بعد بضعة أيام شريكة حياته، وقد سرى الدم في الوجه النحيل فزاد اللحم القليل الذي اكتنزته جمالاً على جمال. وارتعشت يداه تريدان أن تهجما عليها فتضمأها إليه. ولكنه ضبط غرائزه. - سأنصرف قبل أن تعود أمك وإلا انهالت عليّ بلسانها.

- إفْرِخْ إِنْ اكْتَفَتْ بِالْكَلامِ، - ضَحَكَتْ أَنْسَتْ مِنْ أَعْمَاقِهَا. - هل تعرف ماذا تقول؟ " ليت عديم الشرف هذا وقع بين يدي، كنتُ اقتلعت عينيه الخاليتين من الحياء " ولذا إحرصْ على نفسك! إِنْ تَرَكْتُكَ أَعْمَى تَوَجَّبَ عَلَيَّ أَنْ أَقودَكَ بيدي!

- لن ندع الأمر يصل إلى هذا الحد يا آنست. مع السلامة إذن.
- وأنت يا ججان. أودّ أن أسألك عن أمرٍ، - أوقفت آنست الرجل على الباب. - لماذا عزل ردد أخي الأكبر مشقوه عن منصب القيادة؟
- تريدن الحقيقة؟
- لا أريد غيرها.

- مشقوه رجل صالح وصديق مخلص ولكنه رخوٌ قليلاً في القيادة.
- هل تريد أن تقول إنه لا ينفذ واجباته؟
- لا، كيف أفهمك هذا؟ - ارتسم في عيني ججان تفكير قلق، - ألقى نظرة إلى السقف ثم أعادها إلى آنست. - أنت وأنا نعرف جيداً طبيعة مشقوه. ينفذ ما يُطلب منه حرفياً، ولكنه قليل المبادرة. ردد تجاربه كثيرة. كان ألف دولة وجيشاً قبل أسره. وكان بدأ بمساعدة بعضهم بالتفكير في قضايا المستقبل. ولا أحد غير الآلهة يعرف معاناته في الأسر.

- صحيح، وافقت آنست، - سمعتُ أنه أُسْتُخِدم مصارعاً جوالاً.
- ردد من النوع الذي لا ينسى شيئاً مما رأى أو سمع منذ طفولته. وكان ممن يُغبطون على هذا. ولا بد أنه طلب خلال وجوده في بيزنطة، ممن يعرفون أنظمتهم الجيش البيزنطي أن يسردوها له وإن لم يُتَح له أن يخاطبهم كثيراً. متى كنت قائد جيش وجب عليك إعمال عقلك والتدخل قولاً وفعلًا في أموره. هذا يحتاج إلى مواهب كثيرة.

- الآن فهمتُ، - اقترعت آنست بحُجة ججان، - أفقدتُ أُمي مشقوه كثيراً من مبادراته بنصائحها وتعليماتها التي لا تنتهي.

- وها أنتِ قَلْبَتِها، - التمعت عينا ججان مسروراً بنجاح تحليلاته. - أنا أقرب بعاطفتي وعقلي إلى مشقوه، منه إلى قدان. ولكن قدان كأنه خُلِقَ لقيادة الجيش.

- الحقُّ يا ججان أن أخي كنتم مشاعره فلم يُبدِ استياءً من عزله عن القيادة.
- يعرف مشقوه إمكاناته. وليس من هواة المناصب. ثم أظن أن هناك سبباً سرّع في الموضوع.
- وما هو؟
- كان قدان جاء إليّ بإذنٍ من مشقوه حين كنتُ في الحكوف.
- لماذا؟
- من أجل أن يكلمني في شأنك.
- هكذا إذن! - اعتدّت آنست بنفسها فلمعت عيناها. - أيكون هذا السبب في عودتك؟
- كنت قررت العودة قبل قدوم قدان. لا يخطر لك شيء آخر! إن لم يكن الإنسان راغباً فيك فلن يطيع الأمير ولا جدّ الأمير.
- مشقوه سليم الطويّة أشفق عليّ. وهل يغفر له ردد هذا التصرف؟
- لن يُرضيك أي إنسان يسافر في مهمة ليتخذ من أعدائك أصدقاء. ولكن ليست هذه المشكلة بل سابقئتها. ردد قلبه وقوته متلازمان. لا يراعي أحداً حين يتعلق الأمر بالبلاد. وها هو لا يغفر لخاله قانشاو التحاقه بالروسيج. وحين أتى الأخ الأصغر لرامبس السيدة الكبرى مع الروسيج لم تُبدِ نحوه أي لين.
- حسناً فعلاً. أنا مع ردد والسيدة الكبرى في هذا. وأنت يا ججان أتوسل إليك أن تحرص على كلامك وفعلك. إن عرف ردد أنك أصفيت النية له قابلتك بالمثل. ردد رُبي على يدنا فلن يؤذينا إن لم ينفعنا.
- وأنتِ كأنك تنطقين بلسان جدي. تقدمين لي نصائح ممتازة. - قال ججان ضاحكاً من أعماق قلبه، مكرراً: - من أجل هذا دعيني ألمس خدك مرة واحدة.
- لا، لا! - اعترضته آنست بيديها. - أما أخبرتك أنك لن تمسّني إلا في بيتك؟! أسرع، حان موعد عودة أمي.
- خرج ججان من الدار بين الماشي والراكض. ومطّ قامته في الشارع يُحسّ أنه كبر عن ذي قبل، وقال لنفسه رافعاً رأسه، يعدّ ما بقي له إلى يوم زواجه:

"قالوا: أنت تفعل بنفسك والناس يعيرونك به. لن ينسوا سريعاً ما أذنبت بحقّ ردد. ولكن لا شيء يعدل التقائي بأنست من جديد قبل أن نصبح مُضغّة في أفواه الناس..."

IX

نعس نخلش الأصبه فجأة وهو ينتظر بارج. ارتعب لا يعرف كم من الوقت نام، فجلس. ووصل صوت المرأة الحاد من جهة الباب الداخلي:

- تدّعي أنك رجلٌ لا بس قبعة. لا أشتهي قبعتك، راضية عن غطاء رأسي إن ثبتّ عليه. إن كنت رجلاً إلى هذا الحد فمارسها في البرية، لا في البيت!
- تريدني مني أن أحرث مربوطاً إلى النير وأنت تأكلين فيسيل الطعام من شديقي؟ تجاوزت هذه الغباوات. ردّ عليها بارج ساخطاً.

- أيها البائس، ما أقوله لمصلحتك. سنرى إن كنت ستكسب المديح من عملك. ستنتبه متى اصطدمت بجبينك ولكن الوقت يكون قد فات. - لم تكن المرأة تريد التراجع.

- مهمتك أنت مهمة النساء فلا تتدخل في عملي. - احتدّ بارج ثانية، وعاد نخلش سريعاً إلى فراشه وكفاه تحت رأسه.

عاد بارج عابساً إلى الغرفة.

- ماذا؟ ألم تنم إلى الآن؟ سأل بارج ضيفه، بدأ يخلع ملابسه.
سكت نخلش ريثما عاد المضيف إلى فراشه. ثم أجاب متظاهراً بالخروج من سكرة النوم:

- غفوت قليلاً فجفّلتُ كأن أحداً دفعني... أنت في مزاج سيء؛ هل جئت بأخبار مزعجة؟

- وهل تفكرّ المرأة القاعدة إلى جانب الموقد في ما تقول؟! - انقلب بارج على يساره والغضب ما يزال يتملكه. - تلتهمني من في بيتي بفمها بدلاً من أن تأكل به الباستا. تعيرني بأني لا أعمل ولا أهتم بشؤون الأسرة.

- أ تكون تستقلّ الغنائم التي نأتيها بها؟ - رفع نخلش رأسه الكبير، وألقى عنه جلد الخروف لحافه، ثم استوى جالساً.

- لا يُعجبها ما ننهبه، - نظر بارج إلى نخلش وهو يَغطّ رقبتَه، - لا تهنأ السيدة بما لا أكسبه بعرق جبينِي، هل فهمت؟

- لأنها تخاف علينا يا بارج، - نصحه نخلش - ستعتاد شيئاً فشيئاً. ثم تستلذّ الأسلاب فتصبح تطالب بالمزيد. لا تتبادل جنس النساء في هذه المسألة. ولا تسمح للدم أن يهجم على رأسك بلا فائدة.

- وهل تطيق صبراً! متى وقفتَ على رأسك تنقُ أفقدتْكَ أعصابك. - غمغم بارج وشرب كأس ماء. - أحياناً تنطق بالصواب ولكنها تتدخل غالباً في غير شؤونها.

- أنا مُضربٌ عن الزواج لهذا السبب يا بارج. ضحك نخلش ضحكة قصيرة فخوراً بنفسه، - ما ذنبي حتى أسمح لكلبة أن تعبت برأسي؟ أفعل ما أريد، وحيث توجهتُ بيتي!

- ليس هذا خطأ ما دمت شاباً. - وافق المضيف، - ولكنك ستحسد أصحاب الأسر حين يبدأ قطار الزواج يفوت. ومتى صار صبي يدرج على أرض البيت ومسحت على رأسه ذاب قلبك، وأنساك إن احتدّ مزاجك. لا أعرف كيف أعبر عن هذا يا نخلش. المرأة تلين قلبك، والحياة بلا أسرة كلا حياة! أنا لا أفهم كيف تعيش إلى الآن بلا زوجة ولا أولاد.

- لم تُفهمك امرأتك اليوم شيئاً إذن، - ضحك نخلش مرة أخرى، - لو شئتُ لأُسرعن إليّ أيّ امرأة بإشارة مني ممتنةً، ولكنّ أما أخبرتك أني في غنى عمن تنكّد عليّ عيشتي! سأقتلها متى غضبتُ فتوقعني في مشكلة.

- وهل هذا جائز؟! - رفع بارج رأسه مستغرباً، - عراكك مع المرأة وعراكك مع نفسك سيّان. أنا أرد على المرأة متى وتَرْتَنِي بالكلام ولا أمدّ يدي عليها... كفانا حديثاً في هذا يا نخلش، لا نعرف ماذا في انتظارنا غداً. أطفئ ضوء المصباح إذ هو قريب منك، ودعنا ننام.

حدّث نخلش الأصهب نفسه بعدما أطفأ المصباح: " يسمحون لزوجاتهم القبيحات أن يعتلين قُبَعَاتِهِنَّ، فيدخلون في مشاحنات معهن. يفتخر بأنه لا يمد يده عليها. نساء الحكوف لسن مثل نساء القسوغ، متحدرات، تتبرّج عازباتهن ومتزوجاتهن فيقتحمن عالمك "

قطع شخيرُ بارج أفكار نخلش. نهض وربت على كتف المضيف:
- ماذا جرى؟ - همّ بارج بالقفز من فراشه.

- لا شيء، انقلب على جنبك الآخر، تحرمي من النوم بشخيرك.
استدار بارج بوجهه إلى الجدار، وصمت في الفراش غير أن النوم الذي أفلت
من يده لم يعد. وتفكّر في ما جادلته المرأة بشأنه: "لو أخبرْتُ هذا الأصهب
القبيح بما أعاني منها بسببه لقتلنا أنا والمرأة. أتصورها ملازمة موقدها ولكن ما
من امرأة لا تعرف ما يجري في الحي وفي القرية. وما الذي تعارضي فيه؟
صدرت منها فكرة عجيبة، نعم: "متى رعيْتُ في مرعى غريب فاشيع واخرج
قبل أن يطردوك..."

أرعب الطَّرْقُ الذي رَجَّ الباب الرجلين:

- بارج؛ حريق في الغرفة التي يقيم فيها الضيوف!
هُرِعَ الرجلان إلى حيث النار. والشاب الذي نقل الخبر يتقدمهم بقامة ممشوقة
وصدر عارم ومؤخرة ممسوحة ولذا يلتفت من مدة إلى أخرى مستاء من تأخّر
من وراءه. وتناقلت مشية نخلش بعد مسافة غير بعيدة حتى كَيْتَبُ بارج القصير
الرقبة بصعوبة.

توقف الشاب قبل المكان المقصود بقليل. وعاد وتأمل الرجلين ذاهلاً.

- أين البيت الذي يحترق إذن؟ - سأل بارج.
- تركت البيت والنار دبّت في السقف. أقسم بأهنتنا، - قال الشاب بصوت
منكسر، - ربما أطفئوها.

الرجال يقفون جماعات في الدار. وأمام باب البيت عدد من النساء. الرجال لا
يكادون يتحادثون بالقياس إلى النساء. واقترب من تعرفوا على بارج ونخلش،
وبينهم شنبه وشاب آخر. تأبط نخلش شنبه، وانتحى به، وهمس في أذنه:

- لا تستقرّ القدم في غير أرضك. لن نستطيع البقاء هنا طويلاً، بدؤوا يحتجون
على وجودنا بينهم.

- أظن أنهم من أشعلوا النار؟ أم أن أمير القسوغ أرفق بججان عدداً من
المشاغبين ليفتعلوا الحرائق؟

- ليس الغدر من طبع أمير القسوغ، - لم يوافق نخلش. - أسلوبه في مهاجمة

الحكوف مختلف. سيهاجمنا متى ما وطّد الجيش. وججان فرّج بمفارقة لنا. ويستعد للزواج من آنست.

- ومن أين تعرف؟ - سأل شنبه.

- عندي من يأتييني بالأخبار... تعال حتى لا يشكّ فينا الحكوف.

قال أحد الواقفين:

- لا تجزع يا بارح؛ سنجد من عنده قصبٌ أو نباتات مائية جافة، ونعيد سقف البناء غداً. وستتوازع الضيوف. انصرفوا أنتم واستريحوا.

اصطحب نخلش شنبه على غير رغبة بارح. وأفهم مضيفه أنه سيُنَجَّرُ توارُغ الضيوف هذه الليلة. ولما دخلوا الدار وقفت ربة البيت ويدها على خصرها:

- ما الذي يُقلقكم الليلة؟! بقيت أنصت حتى صرْتُ صمّاء، وراقبت حتى صرت عمياء.

- لا شيء مهمّاً، عودي فادخلي غرفتك!- لان كلام بارح مع المرأة متناسياً تعريضها بهم. - اشتعلت النار في أحد البيوت فذهبنا...

- إن بدؤوا بإشعال الحرائق عندهم... فسيشعلون قلوبكم أيضاً... قالت المرأة وانصرفت، رفع بارح رأسه مرتعباً. ولكنه اطمأن حين رأى نخلش وشنبه دخلا المضافة.

- علينا أن نفعل شيئاً بالأمير ردد! - التفت نخلش بعدما أطلق التهديد إلى المضيف العائد إلى الغرفة.

- لا يكفي أن نفعل شيئاً ما، علينا أن نقلعه من جذره! - استدرك شنبه.

- من الصعب الوصول إلى الأمير ردد، عنده حراس، - ساهم بارح في النقاش، - حتى لو وجدته منفرداً من الصعب أن تغلبه ببضعة فرسان. قوّته خارقة، وصاحب مهارة وشجاعة. من لا يفقد الأمل ينبُج من المهلكة. فكّر أين ذهبوا به وكيف عاد!

- لا تصلّق كل ما تسمع، - اعترض نخلش. - لا يحتاج إلى ثلاثة فرسان أو عشرة، لو لقينته وحده لجعلته يفلح الأرض بأنفه!

قال شنبه لنفسه ضاحكاً في سِرّه: " لا أعرف ماذا ستفعل به الآن، ولكن حين صارعته في الساحة كنت أنت من فلاح الأرض بأنفه! أنت تتناقص قوتك

مع الأيام وهو تتزايد..."

- لا تدعونا نُشهر سكاكيننا في المضافة؛ لتتكلّم في ما علينا فعله. - استلم المضيف الكلام من نخلش. - سينبلج الفجر سريعاً.

- أنا لن أقول الكثير، - عاد نخلش إلى حاله، - إن لم نستطع الوصول إلى ردد بل إلى أعوانه فاعتبرنا خلّعنا عنه درعه، وهذا أفضل من أن لا يتحقّق مرادنا، بل يحدث ما نتوجس منه. وإلا وصل إليكم، أنتم الحكوف أيضاً، يا بارح. كان ججان ذو الرأس المنتصب أول أهدائي فهرب الجبان. لن نعمل على سياسة إبعاد أصحابه عنه، بل سنقتلهم واحداً واحداً: ججان ومشقوه وقدان. - ومن أين لكم كل هذه القوة؟ - سأل بارح.

- أليس في الحكوف بضعة قرسان؟

- ليس كل من يركب حصاناً فارساً. - ابتسم بارح، - حسناً، إذا كان هذا هو الموضوع المملّح يا نخلش فسنستكلم عليه غداً. ولا بأس بعد غد. ناما أنتما هنا، وأنا في الغرفة الأخرى. ألا نغفل ولو قليلاً!

حين خرج بارح من المضافة احتدّ شنبه، وقال لنخلش كاظماً غيظه بصعوبة:

- لماذا لم تقل شيئاً لهذا المخادع قصير الرقبة في شأن من أشعلوا النار في البيت؟ تركّته يخرج كأن لم يحدث شيء!

- أنت لا تعرف إلى الآن طبيعة الحكوف، - ضحك نخلش، - سيتصنعون الجنون ولو ضبطتهم بالجرم ولن يعترفوا بشيء.

- أخبرني جاره الأشقر أن ولدي سنجار هما من أشعلا النار.

- ومن هو سنجار؟

- أحد الرجلين اللذين سلّمهما القسوغ لهم. إن كنت تتذكر، الولدان الأصغران للرجل الذي رمى نفسه من الضفة بدأ بالانتقام منا. هذا الرجل الأشقر هو من يزوّدي بالأخبار. يصل إلى القسوغ ويأتيني بأخبار القرى. هو عاطل عن العمل، متى أعطيته شيئاً نَقَذ لي ما أريد. الحكوف لم يعودوا راغبين فينا يا نخلش!..

- إياك! - احتدّ نخلش مقاطعاً محدّثه، - وماذا يعرف هذا الرجل الفاجر فاه؟

- لن يؤذينا أيُّ رجل من الحكوف ما دمْتُ أرافق بارح. إطمئن من هذه

الناحية! وسنري ولدي سَنجار اللذين أتيت على ذِكْرِها حتى يتوقفا عن إشعال النار.

- سيقتلنا الحكوف هكذا يا نخلش... - ارتعب شنبه.

- وهل ستتحرك على مرأى منهم! هناك جبل، وغابة...

وفي الجهة الأخرى سأل بارج زوجته حين عاد:

- لماذا تنامين بملابسك؟

- كنت أعرف أنك لن تنام مع الضيفين فانتظرتك. - جلست المرأة القصيرة

السمراء في الفراش. وتابعت كلامها ووجهها المدور متجهم: - لن أستطيع

تحُمِّل ضيفنا أكثر من هذا يا بارج. إن كنت تتخرج من إبلاغه أبلغته أنا. لو

كان رجلاً صالحاً لما نبذه القسوغ. يقولون: الضيف المجنون يجب صدر

الدجاج¹. ألا تنظر إليه؟ نُطعمه أحسن ما عندنا، والحكوف يموتون بسببه. هل

عميت عنه؟ ألا تعرف أن أمير القسوغ لن يغفر لك إخفاءك من آذاه؟

- وما الأذى الذي ألحقه به يا تجن²؟ - نطق بارج اسم المرأة على غير عادته.

- يقال إنه من أودى به إلى بلاد الروم.

- لم يُخبرني بمثل هذا.

- يا بارج؛ ما أشبهك بالطفل الساذج! - هزّت تجن برأسها. - هل يخبرك

بأنه هو من باع أميره؟! أنت على خطأ إن كنت تظن أنك ستصبح بمساندته

أمير الحكوف. ستصبح رخيصاً إليه، وسيقطع رأسك في لحظة غفلة فينكبنا.

ألا ترى جهامته؟ من عينيه تعرف أن لا شيء يتورع عنه.

- لن تقول امرأة صالحة ما تقولين يا تجن، - تظاهر بارج بتقديم النصيح

للمرأة. - الرجل الصالح يتحول طالحاً مع المرأة الطالحة. إن توجهت إلى

الضيف بكلمة سيئة احتقري الحكوف.

- إن كنت تريدني أن أكون امرأة صالحة فتصرف أنت أيضاً كالرجال. ها أنت

سترى وتندم ولكن الأمر سيفوتك. الليلة أشعلوا النار في أصحابه، والدور غداً

¹ العادة عند الأدبغة إثثار الضيف بصدر الدجاجة.

² يا فضة.

علينا.

- وهل يمدّ الحكوف يدهم علي!

- بكل سهولة.

"في كلام هذه المرأة نصيب من الصحة، - تملك التوجّس بارج. انتصب أمامه من جديد منظر نخلش وشنبه وقد انتحيا جانباً بعيداً عن النار. - في كلام تجن جانب جدير بالتفكير. دخل مرعانا يرعى كل ما يجد فيه. وأنا أظّل أدله على أفضل المراعي. يقترح بضعة فرسان. إن كان هذا ما توصّل إليه فلن أتيح له فارساً واحداً ولا ماشياً. ماذا سينفعنا نخلش وأصحابه إن هاجمنا أمير القسوغ بجيش؟ إن قضت الضرورة توسّلنا إلى جيران آخرين. حين تحدث نخلش مع الروسيج الأزرق العينين الذي قابلناه على الشاطئ أخبره أنهم أيضاً طامعون في أرضنا. ولكن هل يتعاطف الغرباء معك كأبناء قومك؟ نحن قررنا أن نعيش كما نريد ولكن لن يدعونا نحنأ بهذه العيشة. الأقوى يسعى دائماً لاستعباد الأضعف..."

كانت المرأة غارقة في النوم حين صحا بارج من أفكاره، ونور الفجر الخفيف يعبر النافذة. ومن الدار تصدر أصوات سعال. خرج بارج من الغرفة على رؤوس أصابعه. كان نخلش وشنبه يُسرجان حصانيهما.

- إلى أين والفجر يكاد ينبلج؟ سأل بارج مستغرباً. - ودون أن تذوقا لقمة...

- سنتنزه قليلاً ونعود، لن نتأخر، - ابتسم نخلش للمضيف، وقال شنبه:

- لا يعرض أن يركب معنا. مضيفك عجيب.

- لم يحدث مثل هذا إلى الآن. هذا حسن. ظننت أنه سيعارضنا حين خرج من الغرفة فأرعبني، - ثم غمز نخلش شنبه: - سنعاقب من رمونا بالنار اليوم.

- كيف؟

- رأيث ولدي سنجار أمس وأول من أمس. يذهبان إلى الغابة ويجمعان الإجاص الناضج. سنلقي القبض عليهما في الغابة ونسقيهما عصيره.

- هل يحدث شيء في العالم دون أن تراه أو تعرفه يا ترى؟ - ضحك شنبه مسروراً.

مشى الفارسان مدة غير قصيرة في أسفل المضيق. الجبلان المتباعدان إلى

الجانبيين يرتفعان إلى السماء بجبل مسطّح. الأماكن الخالية من الشجر تبدأ ببعض الأشجار التي تحيط بها أعشاب نامية حديثاً، فتجتمع كلما تقدّمت فيها متحولة إلى غابة واحدة كثيفة. اتخذوا قبل الوصول إلى نُحْمَ الجبل الطريق المتوغل في الغابة وترجلا. عبرا الجبل وبأيديهما زماما الحصانين، ثم ركبا بعدما صارا في قلب الغابة. ولما وصلا إلى فسحة صغيرة تركا الحصانين يرعيان وجلسا على جذع شجرة. وبعدما جلسا صامتين بعض الوقت قَلِقَ شنبه:

- يا نخلش نحن نضيع الوقت، لماذا لا ننقذ مهمتنا؟

تمطى نخلش الأصهب بعدما نظر نحو الشمس مقررأ أن الوقت قد حان فركبا. ولما انعطفا مع الطريق واقتربا من شجرة الإجاص الكبيرة أشرفا على الولدين اللذين يبحثان عن الثمار بين الأوراق المتساقطة.

- ماذا يا ولدي سنجار؛ أتسقوننا عصير إجاص أم نسقيكما؟ - ترجل نخلش ووقف مقابل الولد الأكبر.

- إن كنتما تشتهيانه سقيناكما، تعالوا أيها الأولاد! - نادى الولد الأكبر الذي أمامه.

توافد خمسة أو ستة من أولاد الحكوف الذين كانوا تحت أشجار أخرى.

- ماذا جرى؟ سأل أحد الأولاد.

- ضيوفنا يرغبون في شرب عصير الإجاص. - أجابه أصغر الأخوين.

- يا ولد، كنا نمزح فحسب؛ أتظننا لا نعرف أن ليس معكم عصير الإجاص!

- تظاهر نخلش بالضحك.

كان الوقت ظهراً حين عاد نخلش وشنبه إلى دار بارج مهتدّلي الشوارب، جائعين.

- يا بارج، أعدت التفكير في ما قررنا الليلة الماضية فرأيت أن ما أمامنا لا يحتمل التأخير.

- لا أقف في طريقكما، أنتما حران في ما تريدان فعله. - نهض بارج باسمأ ووقف إلى النافذة.

- ما هذا الكلام يا بارج، ألسن رجلاً؟ أما اتفقنا الليلة؟ - غضب نخلش.

- أنا لم أُنْفِق مع أحد. - استدار بارج، - أنتما قررتما وأنا أفعل ما أريد. -

تقول لي أأست رجلاً؟ أسألني حصاني وانزع عن رأسي قبعتي تعرف إن كنت رجلاً أم لا. - خرج بارح من المضافة دون أن يضيف شيئاً إلى كلامه.
- هل ترى؟ رأيك صحيح. هذا الرجل تغرّ علينا. - توهج وجه نخلش.
- لم تسمع كلامي، الحكوف تقودهم زوجاتهم. - ضحك شنبه.
- هل كنت أأخذ من الرجل القصير الرقبة، القليل الكلام مضيئاً لو لم أكن مجنوناً؟! - نهض نخلش يلوم نفسه، - تعال نعرّج على أصحابنا، أنا أعرف ما أفعل به.

لم يظهر بارح حين ركب الرجلان. وبعدما تجاوزا بضع دُورٍ ذاهكين لا يتبادلان كلمة، سأل نخلش:

- رفاقنا وزّعوهم الليلة الماضية؛ هل تعرف أين هم؟
- أليسوا في البيت الذي كنت فيه؟ كانوا قرروا إعادة سقفه اليوم. وهل يُخلّف الحكوف تعهّدهم؟
نهض الجالسون حين دخل نخلش وشنبه البيت. وقضوا وقتاً يتحدثون. ثم قدّر نخلش أن الوقت حان فقال للحكوف:

- علينا أن نذهب إلى القسوغ في مهمة؛ فهل ترافقونا؟
- سنرافقكم بكل سرور، - قال شابٌ رشيق، ولكنه سرعان ما تراجع، - أكّد علينا بارح ألا نغادر اليوم إلى أيّ مكان؛ سيحتاج إلينا.
التفت نخلش إلى شنبه، وخاطب نفسه ساخطاً: "سينكشف بارح القصير الرقبة أخيراً عن عدوّ حقيقي لنا. انظر ما فعل خلال نومنا. أبعد عنا رجاله".
- سنركب وحدنا إذن. انتظرونا ريثما نعود. قال نخلش والإهانة زمت شفّيته، ونهض.

حين خرج الفرسان من الدار أسرع شنبه فجانب نخلش وهمس له:
- لو وجدنا شخصاً واحداً...
- وأنا أفكر في هذا. سنصطحب بسفاته إن لم يكن حرّضه ضدنا بارح اللعين.
- ألم يقل لك بارح شيئاً يا بسفاته؟ - سأل نخلش.
- لم تقع عيني عليه اليوم.
- اركب إذن، عندنا مهمة.

- لا بأس، حالاً.

وصل الفرسان المتخفّون إلى تخوم مزبه وقد انتصف الليل. وترجلوا في التّبّة العالية التي عليها شجرة وحيدة. ودخل نخلش الأصهب وشنبه ووراءهما بسفاته إلى مزبه. كل مكان في القرية هادئ. والأرض جفّت جيداً. تسلل نخلش في الظلمة حيث لا قمر إلى ما وراء سورٍ، وأرسل شنبه وبسفاته إلى ناحية بيت كولس. ولكنهما عادا سريعاً.

- ججان ليس في البيت، هل نقتل كولس؟ - سأل بسفاته.

- هل جُئتما؟ - نهر نخلش بهمسٍ حادٍ بسفاته. - إن قتلنا الزعيم كولس لاحقنا القسوغ والزيخ والموط والحكوف فقتلونا!..

- وهل سنعود خالي الوفاض يا نخلش - سأل شنبه.

- إن لم يكن ججان في البيت، - قال نخلش، - فمشقوه وقدان وأفراد الحرس مع ردد، تعالا، حتى إن لم نجد ججان فسنقتله متى عاد.

- كيف؟ - أسرع بسفاته وقد أحسّ أن في المسألة إراقة دم.

- سنقتل خطيبته.

- هذا والله مستحيل! - كيف نقتل، نحن الرجال، امرأة حاملاً؟! - توقّف شنبه في مكانه.

- أنا أعرف ما أقول! ليعش على ذكراها! من أدار لنا ظهره يستحق كل ما نفعله به. خذ قطعة اللحم هذه. أطعم الكلب إن أحدث ضجة.

أخذ شنبه من نخلش لحم الخروف دون اعتراض.

استقبلهم الكلب الضخم ما إن دخلوا الدار كما توقّع نخلش بنباح شديد. ولما ألقي شنبه قطعة اللحم اختطفها الكلب واختفى وراء مخزن الحبوب. تسلل شنبه إلى باب غرفة آنست، ووقف بسفاته إلى جانب القائمة. أشار شنبه إلى بسفاته أن يقرع الباب كي تفتحه آنست.

- افتحي يا آنست، أنا ججان، - قرع بسفاته الباب بخفة. وفي اللحظة نفسها صدر من الغرفة أصوات جدال نسائي:

- لا تفتحي، قلّ لك لا تفتحي. - خاطبت وُساس ابنتها، - ابقى أنتِ في الفراش، وأنا سأقتلع عينيه!

- لا يا نانا، أنت لا تعرفين. نحن اتفقنا على موعد للزواج. فتحت آنست الباب والأم متعلقة بها. وما إن ظهر رأس آنست من الباب حتى غرس شنبه الخنجر في بطنها.

- يا أمي!.. - صرخت آنست وهوت.

هجمت وساس بلا وعي على شنبه. ولكن خنجر بسفاته حَزَّ عنقها فسقطت على جثة ابنتها.

- لا تركضا! - صرخ نخلش على من هربا من الدار. - ستدفعان الكلاب إلى مهاجمتنا.

عادا إلى وعيهما فتوقفا.

- قضينا على الأم وابنتها يا نخلش... - التفت شنبه بوجه مرتعب لاهثاً.

- لم أطلب منكما قتل العجوز...

- تبيّن أنهما كانتا معاً في البيت، - تظاهر بسفاته باتهام نفسه.

- حسناً، كفى، - هدأ نخلش رفيقيه. - لو كانت تريد أن تعيش لما خلّفت

مغفلاً كبيراً من نوع مشقوه. - وبعدما ساروا مدة أضاف: - ليقيم ججان الآن حفلة رقص للأموات!..

غرز نخلش خنجره في الجانب الأيسر من صدر بسفاته فجأة بعدما دخلوا أرض الحكوف فصرخ، ثم سقط من السرج.

- ما الذي جرى؟! - رفع شنبه رأسه مرتعباً.

- لا نحتاج إلى شاهد آخر! - أضاف نخلش كأن شيئاً لم يحدث.

X

ما يستلذه القلب تستحليه العين.

ليس منذ زمن بعيد فهمت دكايس هذه الحكمة في سنوات عمرها الثلاثين، كان هذا في ربيع العام الماضي. بدأت العلاقة المترددة بينها وبين تراب فجأة، يريد أحدهما الآخر ولا يريد، بعدما صارا في فراش واحد. نسيت دكايس ما مرّ عليها قبل تلك الليلة الثقيلة الحارة من سنوات، ومن الرجال ذوي القبعات الكبيرة الذين كانت تنفّس سرّاً عبّره عن شهواتها شاءت أم أبت، ولم يبق لها

غيرُ تراب يداعب آمالها الأثوية. ونطاي؟ هذا وضُّعه مختلف. لا هو زوجها، ولا أخوها. ولكن الحب الذي أسرَّته دكابس لمن كان زوجها يوماً من الأيام بقي في قلبها. لا تحاول أن تغتابه في حضرتها، ولا تأتِ على سيرته بسوء! كل أهل مزبه يعرفون هذا.

بدأ نور الصباح الربيعي يُطلّ من النافذة ضعيفاً غير أن دكابس في الفراش تستمتع بالدفع. تفتح أحياناً جفניה ثم تُغمضهما ممتعة نفسها. الطبيعة هادئة، وأفكار المرأة هادئة كالقطة السوداء ذات البطن والأنف الأبيضين الملتفة على ساقها مرتاحة.

"لست أم أولاد، ولا زوجي يطلب طعاماً، كما يقال. لم يحدث شيء مهم. - تنصح دكابس نفسها مغمضة العينين، سعيدة القلب. - لا بأس أيضاً بشيء من كسل الفراش. سأدلل نفسي. إن توجهت إلى تراب فهل ستكرر لي مثل هذه الصباحات العذبة كما كان يغفرها لي نطاي المسكين؟ كان نطاي يوقظني ونار موقدي جاهزة، وماء اغتسالي دافئ، والبيت نظيف عن آخره. بل إن استيقظتُ يوماً متوقعة ناب عني في حلب الأبقار. يا حسرتي يا نطاي! من أين أتى الآن بحبيب مثلك! ولكن كيف كنت أعيش معك برجل بديل إذ لا يتوافق قلبانا في توقعهما؟! شكراً لك، تعبت معي ولكنك فهمتني معترفاً بعُذرك. وأنا لم أقصّر معك في شيء. وسأُكاشفك بما فعلته يوماً رغم اعتراض ألهتنا وأخفيتته عنك: كنت طلبتُ من الرومي ديمتري أن يتوسل إلى إلهه من أجلك. وكنت أخلط طعامك بالأدوية التي وصفها لك. ولكننا لم نكن، أنت وأنا، محظوظين. ولم يدخر تراب جهداً. وهو وحيد وأنا أيضاً، ألا يكفي ما عشتُ ومن يقرع نافذتي أو بابي فأفتح له ليفرّج عن شهوته، ومن أطرده يفضحني في القرية بما لم أقبل أن أشاركه فيه؟.."

رمت دكابس اللحاف عنها حتى إن القطة السوداء جفلت فقفزت. وجلست ورجلاها البيضاء والجميلتان تتدليان من السرير الخشبي. وما إن وقفت على رجليها وغطت كتفيها بثوب البيت المفتوح حتى رأت القطة التي تنصت عبر الباب:

- ماذا؟ هل سمعت وقع خطأ أم تريدان الخروج من البيت؟ سألتها وهي تزرر

القَميص. - كم مرة قلت لك ولكن لم أستطع تربيتك خلال سنوات طويلة ألا تنصري هكذا ولا تتجسسي من أجل الخروج إلى الهواء الطلق؟ - فتحت الباب وأخرجتها وهي تلومها. - يا لراحتي؛ ما أعذب الهواء الذي اقتحم الغرفة، وأنا هنا في الفراش أدلل نفسي وأحرمها من الهواء النظيف! ليبق الباب مفتوحاً ريثما أعِدُّ نار الموقد.

أزاحت دكايس كومة رماد البارحة، وأخرجت بعض الجمرات التي خبأها العشيّة تحت الرماد وجمعتها إلى بعضها. ثم وضعت نشارة خشب التنوب تحت الجمرات قائلة في نفسها: الماهر في إعداد النار هو نطاي. وبنفخة واحدة هبّت فيها النار. ولا أظن تراب عاجزاً عن هذا إذ أنه عاش سنوات وحيداً. حتى لو لم يكن عنده اليوم بوابون وخادmates لما كلّفُ من صار موفد الآلهة إلينا أن يفعل هذا وإن لم يبق غيري. اغفر لي يا نطاي لأني أظن، وقد قرنا أن نتوحد قلباً وروحاً متى عاد من عند الموط، أي سأقدّم له كثيراً مما لم أكن أقدم لك. ليس السبب أنه موفد الآلهة فحسب... يا أسفي يا نطاي كيف لك أن تعرف أنت هذا! لم ألتق في حياتي بمثل هذا الرجل! وتصور مع ذلك أن آنست تلمح لي بمحبته... ما يُدريك أنت يا مسكينة أي نوع من الرجال هو؟ حلاوة الرجل تُعرف في الفراش لا وراء كومة الحشيش!..."

توهّجت وجنتا دكايس من ذكرى تراب أكثر مما تدفأ جسدها من نار الموقد. ولأنّ مفاصلها. وارتعبت مما خطر لها فجأة: " أقول هذا ولكن ماذا إن تدخل بعض الأشرار وجعلوا تراب يندم؟ ألم تتركيف خدعوا المرحومة آنست؟ لا، لا، مستحيل أن يحدث هذا بيني وبين تراب. أفضّل الموت على هذا. لن يفعل هذا من يعرف لذة تراب، ولن يستطيع فمه أن ينطق بمثله. حقّقوا نيتنا أيها الآلهة قبل أن يحدث بيننا أي سوء تفاهم! وأرجوكم أن تفهموا موقفني من نطاي. لم أهنه في ما نعرفه، نحن وأنتم، من عيبه، بل عشتُ معه أتصبر عليه ولم أخف عنه شيئاً. ولن أستطيع أن أفعل ما لم أفعله إلى الآن بدعوى أي أوّسس أسرة وأجد زوجاً. تراب عقله كبير، أنتم من رشحتموه لعلاج نطاي فهو يُشغّله معه وأنا أشجّعه على هذا. وأحمّله على أن يصطحبه أينما سافر. ها هو الأمير ردد سافر إلى الموط لقضايا دولته فاصطحب نطاي كرمي لتراب.

وسيعودون بين عشية وضحاها. يا آلهتي الأعزاء أعيذوا لنا سالمين أصحاء من أرسلتموهم في سفر!.. "

رفعت دكايس رأسها إذ سمعت وقع حوافر حصان. وقبل أن تجد الوقت للنهوض دخل نطاي لاهثاً.

- أهذا أنت يا نطاي! استغرب نطاي ما سمع.

- نعم يا دكايس أنا. كل شيء بخير، لا ترتعي!

- ولماذا أجفل إذ كان كل شيء بخير؟ أهلاً بك يا نطاي. - موته دكايس رَغَبَتْها، وسألته عما كان يشغل بالها: - متى رجعتم؟

- وصلنا قبل لحظات.

- ألم تعرّج على والدتك؟

- لم أستطع تجاؤزك.

- لا أعدّد عدم مرورك بوالدتك أولاً رجولة منك يا نطاي. - غلب العتب الصادق على دكايس وإن كانت في ذروة فرحها. وأضافت اعتباطاً كأنها تمّوه ما قالت: - يبدو أن رفاقك أيضاً عادوا. ودخلوا إلى بيوتهم.

- نعم، صحيح يا دكايس، عادوا ووصلوا إلى بيوتهم. - انتظر نطاي قليلاً، ثم بدأ يناور ليشرح لها سبب مروره بها: - أعدّد نفسي عدتُ إلى بيتي مع أن علاقتنا انتهت منذ زمن غير قصير. ووالدتي عندها من يقيم معها، أخي الأصغر والكّنة والأحفاد... في حين أننا، أنت وأنا، نعيش وحيدَين... أودّ التحدث إليك إن كنت ستفهميني...

- مهلاً يا نطاي، مهلاً. - انفجرت دكايس من ضيفها الصباحي وقد توقّعت وجنتاها لا تعرف أنضحك أم تبكي. - كيف لا أفهمك؟ أمن هذا اليوم فحسب يعرف أحدنا الآخر؟

- لا يا دكايس كيف يخطر لي هذا؟ يعرف أحدنا الآخر منذ طفولتنا. وبعدها تزوجنا نعيش إلى الآن وأفراحنا وأحزاننا متلازمة.

- والآن ماذا؟ - أشارت دكايس بصوت عالٍ جافٍ وهي تحبس ما يماطل نطاي في قوله: - لا تقف فوق رأسي، اجلس!

- سأجلس... - ارتقى نطاي على المقعد لا إرادياً، وترجّأها: - وأنت أيضاً

اجلسي. أنا لن أوْلُم ظفراً لك بإرادتي يا دكابس. الحقيقة أن ما يشغل بالي هو موضوعكما أنت وتراب... أَلستمَا تتسرَّعان في قراركما؟ ماذا كان يجري لو انتظرتماني قليلاً؟! يبدو أن الأدوية تفيدني. ليتك انتظرتني إلى الخريف يا دكابس!

جفلت دكابس مما سمعت ولكنها كتمت. وغلبتها رِقَّتُها ولو أن قلبها انفصل عن زوجها السابق: "نعم يا نطاي، يا حسرتي، أفهمُ وضْعنا، ليس منذ هذا اليوم فحسب، كم أمضينا من ليالٍ، نفرح بلقائنا، ثم نأوي إلى الفراش فيدير أحدنا للآخر ظهره. وتحملنا معنا تأنيب الضمير بمعرفتكَ ومعرفتي إذ أذنبْتُ. وحين انفصلنا لا نطيق أكثر من هذا لم أستطع انتزاعك من قلبي. وأعيش إلى الآن فاتحةً لك باب بيتي وقلبي متحملة كلام الناس، وخدمتُك بما أستطيع. والآن، وقد انفتح لي باب حظي، أتوسل إليك ألا تعترض طريقي. لا أكرهك ولكن لا أكنم أن حباً ظهر في حياتي يُنسيني إياك، فلا تقف حجر عثرة في طريقي. لن أجلس في انتظار طُراق بابي ليلاً ولو نصبت أمامي جداراً من ذهب. ألا يكفي ما قيل بشأننا؟.. ومن أين آتي غداً برجل مثل تراب؟ هو عندي رجل كامل. ليقُل الناس ما يشاؤون! مهما قيل عني فقد اعتدتُ على مثله. ما يستلذه القلب، تستحليه العين" - قالت دكابس للرجل الوسيم الطلق الوجه:

- يا نطاي، يا روحي، ألا يكفي سبعة أعوام...
- مهلاً، مهلاً يا دكابس! - استعجل نطاي.
- دعني أنهي كلامي، - قابلت دكابس اعتراضه باعتراض.
- لا، لا. أعرف ما ستقولين. ولكن لا أريد أن أسمعهُ من فمك.
- هل نعيش حياتنا ونحن لا نتصارع بما في قلوبنا؟ - سألت الآن دكابس بصوت أحدٍ من سابقه، وأضافت: - ألا يكفي أننا أخفقنا طوال هذه السنوات!

- الموتُ وحده ما لا دواء له يا دكابس.
ألقت دكابس التي تلقت جواباً قاطعاً نظرة حزينة على نطاي، وابتسمت في وجهه فخوراً بأنه لم يجعل من نفسه ممسحة للأرجل كما في السابق رغم أن

الجواب كان حاداً. " يكفي أنك عارضتني مكتسباً قالب الرجال!.. كنت أرهقتني وأنت تتلهف على التقاط كل كلمة أقولها. هيا قل لي كلمة جافية أخرى دون أن ترتعب مما تقول أو تتراجع عنه!.. يا أسفي يا نطاي ما عيشتك ومن لا يعرفك يغبطك، ومن يعرفك يتكذب على يدك؟ فهمتُ ما لا تستطيع البوح به، ولكن لا تُلحَّ عليَّ في هذا، ألي لك أي طلب ولكن ليس هذا. ما أشدَّ ما قاسيت وأنا يقتلني كبثُ الغريزة الهائجة! إن كان هذا مطلبك فأنا أيضاً عندي ما أقوله!"

- حقاً ليس للموت دواء يا نطاي، ولكن قطعة الحطب العتيقة لا تولد ناراً. لا تدعنا نتكلم في موضوعنا أكثر من هذا!.. موعداً، تراب وأنا، مساء الغد. إن كنت تريد لي الخير فلا تقفْ في طريقي. كنا متفاهمين إلى الآن؛ فما الذي جرى لك الآن؟

انتفض الرأس الجميل الذي كان الحسد والإهانة يحرقانه رغماً عن صاحبه. ألقى على دكابس وهو يُصلح وضع قبعته نظرة استياء ولكن حباً بلا حدود أعاده إلى الوعي، وآلم قلبه: " ما العمل؟.. ربما لم تكوني بريئة مما فعل بي الآلهة... وإلا فما الذي كان سيجمعنا! كنت أعرف عيبي ولكن ما كنت أستطيع التنازل عنك لأحد وأنا في وعيي. أنا صاحبُ الحق فيك، لا تراب ولا غيره. ألا تفهمين؟ أنا وحدي. ليطلقوا نافذتك وليشتهوك، ولكن لا أريد أن تبقي خالصة لأحد في بيته. لا تحرميني من كل شيء. ألا ترين من الذي لا تقيسينني به؟! "

- كفى يا نطاي، اضبط مشاعرك واكبُح جماح قلبك! - لانت دكابس مدركة ما يغتلي في قلب الرجل. وقالت راغبة في التمويه على مهاترتها: - لا تُفنِ نفسك! لا أفارقُ مزه، ولا القسوغ. ستبقى في قلبي حياً دافئاً أينما كنتُ. لم أعتب عليك يوماً في شأن إنسانيتك... - انفجرت دكابس بكاءً وقفزت واقفة تمسح دموعها وعانقتها. وهمست في أذنه وهي تربت على ظهره: - لم أحب رجلاً غيرك يا حبيبي!..

- وتراب؟

- عاطفتي نحوه شيء آخر... - همست له ثانية يغالبها الضيق. - اغفر لي

هذا الأمر فحسب.

- وماذا بيدي... - ما حَمَلَنِيهِ الْآلَهُةُ حَمَلِي...

- نعم نعم يا رُوحِي الْوَحِيدَة، لولا تَقْدِيرُهُمْ لما اتحدت روحانا. - أَفَلَتَ مِنْ دكايسِ ثم صَحْتُ إلى نَفْسِها: يا لَعْبائِي كَيْفَ لَمْ أَتَنْبِهْ إلى أَنَّكَ عَائِدٌ مِنْ سَفَرٍ؟ لاشك أَنَّكَ جَائِعٌ. سَأُعِدُّ الْمَائِدَة ريثما تَغْسِلَ يَدَيْكَ.

من الصَّعْبُ التَّكَهُُّنُ بما فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ رَغْمَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ مُتَعَدِّدَة. وَلَا يُمْكِنُ تَرْتِيبُ هَذَا الْأَمْرِ وَلَا تَحْلِيلُهُ. رُبَّمَا يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِالْحَيَاطِ الْبَشَرِي لِلْإِنْسَانِ، وَبِالْمَوْقِفِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَبِزَمَانِهِ. وَلَا يَخْلُو الْأَمْرُ مِنْ اخْتِلَافَاتٍ بَيْنَ طَبِيعَةِ الذَّكَرِ وَطَبِيعَةِ الْأُنْثَى، كَمَا هِيَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ نَطَايِ وَدكايسِ: مُتَقَارِبَانِ وَمُتَبَاعِدَانِ، مُتَّفَقَانِ وَمُخْتَلِفَانِ. يَشْتَأِقُ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ فِي الْبَعْدِ، وَمَتَى التَّقْيَا نَحْشُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ بِقَلْبِهِ، وَخَدَعَهُ بِلِسَانِهِ.

كَانَتْ عَيْنَا دكايسِ عَلَى نَطَايِ مَادَامَ عَلَى الْمَائِدَة وَلَكِنْهَا لَمْ تَكُنْ فِي الْغُرْفَة حَقًّا، كَانَ قَلْبُهَا وَرُوحُهَا نَحْوَ تَرَابٍ. تَنْصِبُهُ أَمَامَهَا حُلُوءًا طَيِّبًا: " لَيْتَنِي أُطْعِمْتُ تَرَابٍ مِنْ يَدَيِ كَمَا أُطْعِمُ نَطَايِ الْبَائِسِ! لَيْسَ لِأَنْ مَوْفِدَ الْآلَهَةِ الْوَحِيدِ لَيْسَ لَهُ مِنْ يُعَدُّ لَهُ الطَّعَامُ أَوْ يَغْسِلُ لَهُ مَلَابِسَهُ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَسْعِدَ بِمَا يَقْدِمُهُ لَهُ الْغُرْبَاءُ كَمَا يَسْعِدُ بِمَا أَخْدَمَهُ بِهِ. لَيْتَ النَّهَارُ انْقَضَى وَحَانَ مَوْعِدُ زِيَارَتِهِ! ثَمَّ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ أَمَامَنَا إِلَّا يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ... اغْمُرْنَا بِعُطْفُكَ يَا إِلَهْنَا الْعَزِيزُ؛ وَلَا يَمْتَعْضُ أَحَدٌ مِمَّا نَفْعَلُ! كَانَ الْوَحِيدِ الَّذِي يَتْرَكُ غَصَّةً فِي قَلْبِي هُوَ نَطَايِ فَأَنْفَعْتَهُ. سَتَجْمَعُنِي بِتَرَابٍ إِذْ أَنْكَ لَا تَرْسِلُ إِلَيْنَا مَا لَا يُوَافِقُنَا..."

- مَا أَقَلَّ مَا أَكَلْتُ يَا نَطَايِ! - صَحْتُ دكايسِ مِنْ خَوَاطِرِهَا الْقَلْقَة. - لَمْ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى اللَّحْمِ الْجَفِيفِ وَاللَّبَنِ الرَّائِبِ وَالْعَسَلِ. كُلْ جَيِّدًا؛ مِنْذُ مَتَى لَمْ أَحْضِرْ لَكَ مِثْلَ هَذِهِ الْمَائِدَة؟

جَفَلَ نَطَايِ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرِ الْمُنْتَظَرِ، وَلَكِنْ غَلَبَتْهُ الْغِيْرَة الَّتِي يَكْتُمُهَا كَمَنْ كَانَ يَنْتَظِرُ هَذَا السُّؤَالَ:

- أَلَا تُعَدِّينَ مِثْلَ هَذِهِ لِتَرَابٍ أَيْضًا؟

- يَا نَطَايِ... - نَظَرْتُ دكايسِ فِي وَجْهِ السَّائِلِ مُتَوَهِّجَةً، وَنَصَحْتُهُ بِصَوْتٍ لَطِيفٍ: - لَا تَقْسُ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ. لَمْ أَحْمِلْ كَلَامِي مَا فَهَمْتُ وَلَكِنْ،

سأصارحك برجائي الوحيد إذ فتحنا الموضوع. يسرني أن تبعد عنا في الأسبوع الأول من حياتنا الزوجية أنا وتراب.

- إن كان هذا فحسب، - ابتسم نطاي، - فسأبنيه لك، ولكن قبل أن ينطق بمفاسد تراب الأخلاقية صدر نواخٌ من جهة الباب أعاد كليهما إلى حاله، وأخرجهما من الغرفة. وأخبرهما الفارس المسرع:

- مأساة عظيمة في القرية: آنست وأمها قُتِلتا!

- يا مصيبيتي يا نطاي!.. - قعدت دكابس عند باب الدار تلطم فخذيها. - لم يُقتل شخصان فحسب بل ثلاثة لأن في رِجَم المرأة طفلاً.

XI

الحزن يذهب بالصوت.

المأساة التي حدثت في مزبه حطمت قلوب الكبار والصغار، ومزقت أصواتهم. المعزّون الذين لا يعرفون تفسيراً لمقتل أم مشقوه وأخته يتبادلون نظرات الحزن، وتفتت قلوبهم.

رافق ردد مشقوه حتى المساء في أرض الدار، وفي الغرفة، لا لأنه صديقه فحسب بل مربّيه أيضاً. وحين انقطع المعزون عاد ردد إلى بيته مع الحراس. وبعدها ساروا قليلاً قال لججان:

- تعال إلينا، نأكل شيئاً، وعندنا ما نتكلم فيه.

- لا يا أمير، لن أستطيع القدوم إليكم، - أطرق ججان برأسه خجلاً. - كيف أقابل السيدة الكبرى وأينار؟

- ألن تدخل مضافتي إذن بعد الآن؟ - سأل ردد وعتابه ممزوج بعفوه. - لا يُقتل رجل عقاباً على خطأ واحد؛ تعال!

تأمل أغبان وجه ججان حين دخل دار الإمارة. ولكن ماذا يقول لمن برفقته الأمير الكبير، فاقترب منه.

- انظري يا سيدتنا من دخل دارنا بلا خجل! - صرخت أينار لا تُطيق صبراً. نهضت رامبس فاقتربت من النافذة. ثم توجهت إلى الكنة فخاطبتها بلهجة نصيحة ناعمة:

- الأمير يفعل ما عليه. الأفضل ألا نتدخل، أنت وأنا، في شؤون الرجال. لو لم يكن له مع ججان شغلٌ لما اصطحبه.

جاء لردد وججان بإبريق وطست للغسيل. وبعدما انتهيا من الطعام بدأ ردد الحديث ناظراً في وجه صديق العمر مشفقاً:

- أفهم ما يعتمل في قلبك يا ججان، ولكن ما العمل: ربما كانت الآلهة قدّروا هذا.

- لم يجر لي ما لم أجنيه على نفسي. - رفع ججان عينيه متنهداً دائناً نفسه. - يخدعك من هو أدنى منك شأناً متى كنت مغفلاً. كنت أفضل الموت على أن أسمع تعنيف جدي. وأنت تعرف أن المرء متى تعثر مرة فلن يقف على رجليه قبل أن يتلقى صدمة عنيفة.

- كفى، كأن الساعة قامت، - ابتسم ردد بشفتين ناعمتين. - متى دبّ اليأس شلّت الرجلان. لم تتصرف على نحو صحيح، ولم يحدث لك شيء صحيح. ما كنت لأغفر لغيرك لو حاول أن يمدّ يده إلى شريكة حياتي. ولكننا رفيقان منذ الطفولة، وريينا معاً. وعشنا صديقين نتقاسم اللقمة. لم يخطر لي البتة أن تفعل بي ما فعلت، بل ما صدّقته لو رأيته في المنام. جرى ما جرى وانتهى، ولا يمكننا أن نغيّر فيه شيئاً. عندنا مهامٌ أخرى.

- أتوسل إليك يا ردد، يا أمير أن تسمح لي بالتعبير عما في قلبي. - استعجل ججان، - أعرف المهمة الكبيرة التي أمامك. ولكني سأنفجر إن لم أُنخّ بما في الصدر. عنّفي جدي أيضاً على تعليق أخطائي بمشجب غيري، إذ ليس من الرجولة في شيء، ولكن ما سأقوله لك هو الواقع. الأصهب اللعين ظلّ يُلحّ عليّ، وأنت تعرف سهولة خداعي، فسلبني عقلي. فقدتُ وعيي لا أعرف ما فعلتُ وما قُلتُ. وأعرف الآن تصرّفي بلا عقل. لن أنسى أبداً ما غفرته لي. أعدك أن أضحي من أجلك بكل ما أملك.

- كفى، انتهينا من هذا الموضوع، - حزم ردد أمره الآن، - أنا خطر لي الكثير، وأعرف أنك لا تُضمّر لي الشر. وردعني ما قدّم لي كولس زعيم الخير. هذا اللعين الذي ذكرت اسمه هو المجرم الذي يعترض طريقنا. لم يقتل والده مشقوه وأخته شخصٌ غيره.

- هذا الأصهب لا يقتل بيده أحداً يا أمير، - صحح ججان معلومات الأمير، - يكلّف رفاقه بالجرّمة.

- من يأمر بالقتل أشدّ إجراماً ممن ينقّذه، - جزم الأمير. - سأرسل صباح غد دون تأخير رُسلًا إلى الحكوف. ومهما تصرّفوا فلن أتركهم دون أن يسلموني الأصهب.

- حقاً يا أمير، لن يسبب لنا إلا المآسي مادام على حصانه. لو تأكّدت من قدرتي على هزيمته لتزكت المآثم وأسرعث إلى الحكوف، وأزهقت روحه، ولكن الآلهة أعطوه قوة مجنونة.

- لا تستعجل، هناك من هو أقوى منه. - هدأ ردد صديقه، - هذا ما يدفعني إلى أن أصرّ على جيش ثابت. سنكمل حاجاتنا كلها، نحن القسوغ، ونبدأ في تأسيس الجيش. متى سيتمّ هذا؟ لا نحمي قرانا، ولا طرفنا، ولا نقاط ضعفنا. انظر إلى الروم والروسيج، هل يسمحون لك بعبور حدود بلادهم دون علمهم؟ يعتقلونك فوراً ويفتشونك. من يفهمون أن علينا تأليف دولة واحدة، وإنشاء جيش نظامي، وحماية حدود بلادنا، وحلّ مشكلاتنا بأنفسنا، هم كولس وتيمرقوه وقدان. وهؤلاء، وإن عانوا الأسر مثلي، فقد عرفوا أن هناك أقواماً غيرنا، ورأوا طرائق عيشها، وكلّ ما اقترحه خبروه بأعينهم وبعقولهم. أكثرُ الأمراء والمتنفذين يوافقوني بالسنتهم، ولكن ما في قلوبهم غيره. يتصورون أنني أسلبهم سلطتهم. وهل نخلش الأصهب القبيح يقيم في الحكوف مكتوف اليدين؟ يخالط قرى القسوغ والزيوخ والموط دورياً، ويؤلّب علينا من نطوّعهم.

- نعم يا أمير. كل ما قلته مليء بالحكمة. - عبّر ججان عما في قلبه دون رياء. أنطقه عقله الذي نضج جاهلاً أين ذهب بأيام طفولته، وشعر بالتواضع أمامه، - ما تقوله أنت أمرٌ لي. إن طلبت مني أن أتقدمك فعلتُ، وأينما كنتُ لن أدع سيفاً أو سهماً يصل إليك.

- اتفقنا إذن. - نهض الأمير. وأسرع ججان ففعل مثله. إن لم ينقذ الحكوف مطالبنا فسنبلغ القرى متى رجع موفدونا إليهم. وسنجمع جيش الفرسان دون تأخير.

...

وصل الرجلان إلى الحكوف قبل انبلاج الفجر.

كان مُضيف شنبه أقرب فدخل بيته دون أن يمرّ بالقرية متهيباً. كان طوال الطريق مصدوعاً بما فعل نخلش بثالثيهما بسفاته غير أنه خاف فلم يُبدِ أي انفعال. تنفّس شنبه ملء رئتيه حين قاد الحصان إلى الإسطبل فربت على فخذ الحصان بلطف مدركاً أن الدور عليه الآن. وتمثّل له من جديد بسفاته الذي أودى بروحه الليلة وكثيرون غيره. قال لنفسه: "أنا الوحيد الذي بقي معه ولم تمتد يده إلى رقبته. - هل يمكن أن يصل إليّ؟.. لا، لن يدع نفسه وحيداً. ولكن ما فعلناه الليلة لن يغفره لنا إلهنا الكبير..."

ترجّل نخلش قبل أن يصل إلى باب دار المضيف، وكان بوده أن يدخل الدار دون ضجة ولكن الكلب الأصفر الصغير استقبله، ونظر في وجهه وهو يهزّ ذيله، وعاد إلى وجاره دون أن يقترب منه.

قال نخلش: المضافة فارغة: "بارج عند المرأة أو غائب عن البيت. وهذا أفضل لتجنّب استجوابي، فخلع ملابسه بهدوء وتمدد على الأريكة الخشبية ونام. بين المجرمين رجال لا ينسون جرائمهم، وتظل تتردد على خواطرمهم مرعبة داعية إلى الندم. لم يكن نخلش الأصهب من هؤلاء. لا يهدأ بألّه متى قرر التخلص من أحد حتى ينفذ جريمته. ولو كان قادراً لكان الأمير ردد أول ضحاياه. ولكن يده وقائمة حصانه كانتا مكفوفتين عن ذاك الاتجاه. صحيح أن ججان لم يقع بين يديه هذه المرة ولكنه بثّ الرعب في قلبه. الخنجر المغروز في صدر آنست وصل إلى قلب هذا الرجل أيضاً. ولا تزال أماننا ليالٍ وطُرُق. لان الجسد المرهق، وارتخى ذقنه حتى لامس صدره. نام مستمتعاً بالدفع الذي خزنه جلد الخروف.

كانت الشمس احمرّت حين جفل نخلش. أرسلت ربة البيت مائدة إليه مرفقةً بامتاعها. وفيما هو جالس بعد الفطور يخطط لأهدافه الشريرة عاد بارج إلى الدار. ودخل إلى المضافة، وحياء عابساً دون حرارة، وقال للمضيف وهو يجلس: - لم يُنَح لي أن أسأل شنبه، لا يزال نائماً، لم يعد بسفاته معكما.

- وأنا أفقّث من قليل، قبل قليل رُفعت المائدة. - غيّر نخلش موضوع الحديث، ولكنه أضاف لِدْفَعِ الشبهة عنه: - بسفاته شاب في عنفوان شبابه،

عشّق إحدى بنات قريتي فتوجه إلى مستخفوه عازماً ألا يعود دون رؤيتها.

- وأنتما ماذا فعلتما؟

- لم نأت بما هو مفيد.

- هل هناك ما يُقلق؟ - توجه إليه بارح ذو رقية الذئب مشدود القامة.

- كنا عند صديقي في مزبه يا بارح، - بدأ نخلش بصوت هادئ مودعاً الثقة

بمحدّثه، - ابن لاورستن خرج عن طوره، يطوف ليلاً ونهاراً، في القسوغ والزيخ

والموط. ينوي أن يضمنا جميعنا إليه ويتأمر علينا. ولكن لا أظن أن سيتحقق له

شيء. يعترضه الأمراء وبعض المتنفذين.

- ونحن، ماذا يقال بشأننا؟ - سرى الرعب في قلب بارح.

- تبعاً لمعلومات أحد أصدقائي فأكثر الناس يقاومونه. ولكن متى رتب هذا

الأمير العزّ الجسيم أموره فسيصل إلى الحكوف.

- وهل نسي أننا هزمناه شرّ هزيمة؟ - غضب بارح، ونهض لا يستطيع

الاستمرار في جلوسه، واحتدّ صوته وهو يذرع أرض الغرفة: - إن كان هذا

قراره فلا يظنّ أننا سنقعد مكتوفي الأيدي. سنطوف قرى الحكوف، وسنجهز

في مواجهته جيشاً لم ينتظره أمير القسوغ. لم أدخل قرية إلى الآن لم ترجّب بي،

ولم تمتثل لإرادتي.

- أنت لا تعرف نفسك يا بارح ولكن، - استلم نخلش الكلام منه فرحاً

لغضبه. - الحكوف اختاروك أميراً حقيقياً. ومَن في الحكوف يتجرأ أن يقارن

نفسه بك؟ قلّ لي إن كنت تعرف، أنا لا أعرف.

تابع بارح كلامه وقد رفع كلام نخلش كتفيه:

- أنا لست أدنى من أمير القسوغ ومن قائد جيشه قدان. ولكن إن لم يكن

وراء أعقل الرجال من يخلفه - ولا أقصد بهذا الكلام نفسي - فاعتبر الحكوف

انقرضوا. اليوم أنا، وغداً غيري، أليس صحيحاً يا نخلش؟

- وأنا هذا رأيي! - وافقه نخلش ساخراً في سرّه. - لا يعرف غيرُ الآلهة ما

سيحدث غداً. أنا لا أنفك عن امتداحك لأي شخص أقبله أو مجموعة أجد

نفسي فيها. ولا همّ عندي إلا أن أرفع من تقدير الحكوف لك. ابن لاورستن

لا يُطبق تعمّق جذورك هنا، وعقد الحكوف آمالهم عليك. لا تشك في

انضمامي إليك ومساندتي لك. وها أنا أخبرك يا بارح: إن حدثت مأساة في إحدى قرى القسوغ، أو قُتل شخص ما، من يدري، أو نشب حريق، فسيتهمني الأمير ردد، ويرسل إليكم وفداً كما فعل بعد المؤتمر. وإن لم تُسلمني له وجد ذريعة للهجوم على الحكوف.

- سيتوصل عقلنا إلى ما بلغه أمير القسوغ، نحن لسنا سُذْجاً، لا نشرب الماء من أنوفنا. - تصلّب المضيف، - لن أجد مثلك في تأليف الجيش وتدريبه. - وفي اللحظة نفسها طفا الارتياح الذي كانت زوجته تجنّ وسُوسَتْ بها لقلبه: - لا تقذف بنفسك، ولا بنا، إلى النار يا نخلش بحجة أنك خرجت من الدخان.

- لا يتوغل عصفور وحيد في الجبل يا بارح، - عبس نخلش، - ولستُ جاهلاً بمن خرجت منهم ولا بمن جئت إليهم. ثق بي في هذا. أفهم أنكم لن تقدروا على مواجهة ابن لاورستن متى واثاه الخطُّ ووحد الزِيخ والموط وغزاكم برفقتهم. - ماذا نفعل إن حدث هذا؟ أنقذم له الحكوف قرايين؟ - جزع بارح.

- عد واجلس هنا واسمع ما أنوي فعله كي لا يحدث هذا: تابع نخلش كلامه مع عودة المضيف إلى مجلسه: - قررتُ أن أخالط القسوغ والزيخ والموط. لا يخلو هذا من الخطر عليّ، إن وقعت عيون ابن لاورستن عليّ وشوا بي إليه، فلاحقني. ولكن لا أرى الآن مخرجاً غيره. سيكون في كل قرية من يسمع كلامي ويُطيعني.

- هذه فكرة ممتازة يا نخلش، - عادت الشجاعة إلى قلب بارح، - ولكن احرص على نفسك. مئة عين تنظر، ومئة أذن تنصت. أنا محتاج جداً إليك. - لو أرفقتنا، شنبه وأنا، بمرافق نشيط... - بدأ نخلش حذراً. - إن لم يكن عندك مانع اصطحبنا عُسرِقوه الذي نعرفه كلانا.

- عُسرِقوه شابٌ ممتاز، - وافقه المضيف، - في أوج لياقته وصحته. - اتفقنا إذن، - اطمأن نخلش على نجاح خطته كما أراد لها، - بعد غد سننطلق ليلاً.

في اليوم المقرر، وقبل الغروب، اتخذ الثلاثة يتوسّطهم نخلش الطريق المتوغل في الغابة جهة الشمال بنخب سريع.

وكما تُفتح الأبواب للرجل الصالح أينما ذهب فكذلك الطالح يجد أمثاله. لم يكن الفرسان المتخفون بحاجة إلى الاختباء في الغابات الجبلية. كان نخلش يجد مُضيفاً في القرية التي يصل إليها. دخل إلى قرى الزيوخ والموط، وقضى فيها ليالي. وفي كل مرة يأتيه عدد من الرجال الملتحين العابسين. وكان شنبه وغسرقوه يكتفيان بالإصغاء إلى الأحاديث دون المساهمة فيها. رأت جماعة نخلش في طريق العودة عربات وفرساناً في إحدى قرى الموط. ارتعب نخلش ولجم حصانه:

- من هؤلاء؟ - أشار بطرف السوط إلى من لا يعرفهم.
- لا أظنهم من الأديغة. - نظر شنبه جهة الغروب متخذاً من كفه واقية من الشمس.

- لا بأس إذن، - حثّ نخلش حصانه وقد استعاد شجاعته، - الروسيج منهمكون في جباية الضرائب. ونحن لا علاقة لنا بهم، ولا لهم بنا. حُيِّل لنخلش حين اقتربوا منهم أنه يعرف الرجل الطويل الذي يراه من الجانب، ويطيعه رفاقه. وحين استدار الرجل تبين أنه قانشاو.
- انظر من أرى! - قفز نخلش عن الحصان بوجه طلق مُراءٍ، واستقبل قائد جيش الروسيج، وصافحه. - ماذا يا قانشاو؟ مرحباً أم الحمد للآلهة على السلامة؟

- أوهُما. - نظر إليه قانشاو مدة لا يعرف من يرحّب به. - أهذا أنت يا نخلش! لم أتعرفك. جئنا نجبي الإتاوة ولكن لا أظننا سنُحصِّل شيئاً من الموط. - لماذا يا قانشاو؟

- من سيعطيك ممن تحرروا توأ من الخزر؟ - ابتسم قانشاو وقد سرى دم خفيف على وجهه الشاحب. - ما تفرضه على من غلبتهم حملهم. أما الأديغة الذين يعتبرهم الروسيج صاروا رعاياهم دون حرب فلن يدفعوا شيئاً. من أعيش بينهم لا يفهمون هذا.

- أو ليس ابنُ أختك ردد من لن يفهم! - ضحك نخلش، وأضاف متفخّصاً رجال الروسيج أمامه، - هل سمعت؟ يدّعي أنه وُحِد الأديغة، ما عدا الحكوف، في دولة واحدة.

- الروسيج يعرفون هذا أيضاً، - أزاح قانشاو رأسه ونظر إلى السماء: - متى صرتم دولة واحدة بقيادة واحدة فقد يسهل تفاهم الدولتين وجباية ما يُفرض عليكم.

- وإن لم يدفع الأمير ردد شيئاً لكم؟ إن طلب منكم ألا تطؤوا أرضه؟

- وهذا يتوجس منه الروسيج.

- لن يتحقق لك شيء بالتوَجُّس. لن ترى ممن لا تستولي عليه بالجيش إلا قمة رأسه.

- لا يحتاج الروسيج إلى من يهَيِّجهم دون حاجة إلى تدخُّلك يا نخلش. - قسا قانشاو في الكلام. - جرت أمس بلبلة عظيمة في القسوغ والحكوف دون حاجة للتدخُّل أحد. وحين تدخَّلنا هَذَا الجميع.

- وماذا جرى؟ - شحب لون نخلش. وبدأت عيناه الكبيرتان تدوران في محجريهما. - كانوا هادئين حين فارقناهم.

- سمعتُ أنكما، أنت وابن أختي، لستما على وفاق. - تأمل قانشاو وهو يرمّ عينيه في وجه نخلش. - احرصْ على نفسك، واعرف موقعك. صار ردد نسخة عن والده لاورستن الأمير؛ ليس بالشاب الذي يتسامح معك.

- وما قيمتي أنا؟ الذئب متَّهَم في ما افترسه وما لم يفترسه.

- دُعني أكمل كلامي. - صلَّب قانشاو نبرته، - افرحوا إذا كان عقلُ ردد توصَّل إلى تأليف دولة، وسانِدوه. لم يبق في أنحائنا من لم يؤلف دولة غيرنا. نحن الأديغة نتصارع على من قَبَعته أعلى... وسؤالك الآخر لا أعرف جوابه تماماً: يقال إن امرأتين قُتِلتا. وهذا ما سبب فتنة.

- ما يُدريك بما يجري في أنحائنا يا قانشاو؟ - غيّر نخلش صوته أيضاً. وهجم الدم على رأسه. - أنت في توم - تقاش.

- لنا في نواحيكم من يرى ومن يسمع. ردّ عليه قانشاو بخلافه. - لا نقعد ونحن لا نعرف شيئاً. - ثم أدار رأسه ونادى: - بلعَّهم يا ميفودي أن يجهزوا الخيل والعربات للرحيل. نحن منصرفون.

كان شنبه وغسرقوه يقفان إلى جانب الخيل حين أتى قانشاو على ذكر المرأتين المقتولتين فأدار شنبه ظهره منسحباً برأسه، وتظاهر بالمسح على رأس

الحصان. واعتلى نخلش الأصهب الحصان تُحرقه النار التي أشعلوها.

...

كان قادة الجيش مجتمعين وقد فتحوا مضافة الأمير لاستقبال الموفدين إلى الحكوف الذي حان وقت عودتهم. وكان مشقوه وقدان يعينان من سيبلغون القرى. وأمير القسوغ القلق مما سيعود به الموفدون يذرع أرض الغرفة كاتماً قلقه. ومن مدة لأخرى ينظر عبر النافذة مرتاحاً لقول تراب: "لا تتراجع؛ الآلهة معنا!"

قال الأمير ردد رافعاً رأسي كتفيه:

- عاد موفدون!

قفز قدان وفتح باب المضافة. وصاح عبر الباب وعلى فمه ابتسامة خفيفة:

- تفضلوا إن جئتم بأخبار طيبة! - وأفلت منه كلامه حين نظر في وجوه الموفدين غير المبشرة بالخير:

- فهمتُ يا تيمرقوه. أنت عملتَ ما عليك، والآن حان موعد ردِّنا نحن.

استدعتُ رامبس ابنها بعدما انصرف الضيوف بقليل.

- ما الأمر يا ولدي؟ لم يرضخ الحكوف لطلبك؟ توقعتُ هذا. ولكن أرجو منك أمراً واحداً: ما لا يأتي بالكلام لا يأتي بالسيف. لا تألُ جهداً في إقناعهم. - نصحت الأم ابنها بصوت ناعم وقور.

- وأنا أكره سفك الدم يا أمتا. ولكن لا أستطيع تطبيق هذا على نخلش الأصهب!

I

هجم الرد - الصاعقة على مزبه.

تأمل ردد ممسكاً بزمام الحصان العابث بحكمته قادة الجيش الواقفين على جانبيه. وأقلقته السحب البيضاء المتدافعة نحو الجنوب:

- مطر الربيع خيرٌ، مزروعاتنا بحاجة إليه. - قال ردد غير موجّه الكلام إلى أحد. - ولكن كان الأفضل دون مطر في هذه المرة.

- لن تمطر يا أمير، لا تقلق! - أجابه تراب.

- ومن أين تعرف؟

- آهتنا قالوا لي. - ابتسم تراب بخفة، الريح ستجرف الرد - الصاعقة والسحب.

- من دون ربح؟

- لا ربح على سطح الأرض يا أمير، ولكنها عنيفة في الفضاء. وها هي تقود السحب.

ابتسم تراب ثانية للأمير مبتسماً له وكأنه ينظر من تحت خيمة. وعاتبه في سرّه: "كنت تشاكسني ولكنك شرعت في تقبّل ما أقول لك. سأمسك بك بأقوى من هذا، ولكن بعض الوقت أيضاً! لو سألت المسنين لعلموك متى تمطر أو لا تمطر..."

ارتاح ردد للجيش المتجمع في ساحة القرية. وترجل من الحصان عالي الهمّة، وحياً أفرادَه. وترجل المقاتلون أيضاً. وفيما يصافح قادة الحرس انعطف الأمير الكبير إلى يمينه، وأعاد الكرة. ثم توقف وسط المقاتلين، وخاطبهم بصوت رجولي واثق:

- أيها المقاتلون! لن أطيل الحديث. بدأنا، نحن الأديغة في كل مكان، نتفاهم ونصبح دولة واحدة. وهذا فوق كل شيء. أنتم سواعد المقاتلين التي نعتمد عليها، وأنتم أقوىاء بتفكيركم ونشاطكم. اليوم لم يُخالِفنا الحكوف، ويؤوون إليهم أعداءنا. وقد أرسلنا إليهم أكثر من مرة نطلب تسليمهم فلم يقتنعوا. لا ننوي

محاربتهم وسفك الدم فإن اتفقوا معنا سرّنا هذا فهُم من أبناء قومنا. ولكنهم يستعدون لمقابلتنا بجيشهم فعلينا أن نكون مستعدين لهم. العدو إن غلبته اليوم فلن يهاجمك غداً. وإن أُجِلَّت هاجمك اليوم. أكرر: الحكوف ليسوا أعداءنا، ولكن الأشرار استطاعوا تأليبهم علينا. فإن جابحونا غداً بصفة أعداء فلا تظنّوهم خرافاً وادعة. بل هم ذئاب ضارية.

- سيوفنا وقِسيّنا متلازمة! - صاح أحد المقاتلين. وطار صخب الرجال فوق القرية. وبعد الظهر كان قادة الجيش مجتمعين في مضافة ردد.

- يا قدان! - توجّه ردد إلى قائد الجيش، - لم أستطع زيارة كل القرى. يجب العمل مع المقاتلين في كل مكان. لا يمكن أن تتعلم أصول القتال دون استعمال السيف.

- لم أترك قرية لم أزرها أكثر من مرة يا أمير. - نهض قدان. - فرسان الحرس يجتمعون كل أسبوع ثلاث مرات يتعلمون أصول القتال والمصارعة. ومن لا يُتقنها لا يصبح محارباً.

- أرحت قلبي يا قدان. لا بحرّ دون ماء. ولا حرب دون دماء... - قطع الأمير فكرته وتوجه إلى أخيه الذي يخدم الرجال: - نادِ يا شوباش كولس الزعيم المبارك إن لم يصعب عليه المجيء. - ثم توجه ثانية إلى الحضور وتابع: - إن فرض علينا الحكوف اللجوء إلى السلاح فسيكثر من سنخسرهم من مقاتلينا. متى عدتم إلى مقاتليكم الفرسان الحرس فأفهموهم التالي: كل من يُشهر السلاح في وجهك فهو عدوّ إن أشفقت عليه فأنت تؤذي نفسك. الأرض التي سندخلها أرض الحكوف ولو أننا لا نسافر نهابين. وهم يتصورون أننا ذاهبون لسلبها منهم ولذا سيقاومونا بضراوة. النحل أيضاً تحمي خلاياها. لن نعاود التفكير في هذه المسائل. إذا كنا ماضين إلى الحرب فعلينا أن نُقسّي قلوبنا؛ من يُردّ الحياة فليُبعد الخوف عن قلبه.

- يا أمير، أليس في الحكوف من يفهم أن نخلش رجل شرير؟ - لم يستطع مشقوه إلا أن يسأل رغم معرفته بجواب سؤاله.

- لا تستطيع اكتشاف الإنسان الشرير من بضع لقاءات يا مشقوه. يجد وسيلة عيش في أرض العدو التي لا دولة فيها.

- عجيب ألا يكتشف هذا الأصبه اللعين أنه يقصّ بنفسه الغصن الذي يقيم عليه! - مرة أخرى عجز مشقوه عن كظم غيظه.

- من عنده شرف يعقل، ومن لا حياة عنده يخسر كل ما لديه. - ما إن أنهى ردد عبارته حتى نادى كولس من المسطبة:

- على مَنْ تتكلم يا ردد؟

- أهلاً يا زعيم الخير، تفضّل! - أسرع ردد لاستقبال كولس، ونهض قادة الجيش. وحين جلس كولس معتمداً بيديه على العصا قال الأمير الكبير: - من تتكلم عليه هو نخلش.

- لا أحد يعرف هذا الرجل كما أعرفه أنا. - تأمل كولس الحضور بعينين ذابلتين. - صحيح ما قلته يا أمير عن فقدانه خجله، ولكن لا أتفق معك في شأن العقل. الأشرار أذكاء حُبثاء، عقولهم حاضرة. ومن تأتون على ذكره واحد من هؤلاء. لا يمكن التكهن بما تأتيه من أفكار.

تبادل الحضور نظرات سريعة. وتراب يستمع إلى كولس كما لو أنه يراه لأول مرة. وإلى الأمير أبج يتوجه قدان ومشقوه وآخرون بعقولهم وأجسادهم.

- ألقوا جميعكم نظرة على هذه المائدة! - وضع ردد يده على قطر الدائرة. - افترضوا أن هذا هو نهر شكه، ضفة النهر اليسرى عالية من جهة انطلاقنا؛ لن يهاجمنا فارس أو راجل من تلك الجهة. ووراء النهر برية واسعة. وتصل الغابة الجبلية إلى هذه البرية منحدره بالتدرج. وفي خلال التفافها نحونا تصل إلى حافة النهر. ما رأيكم: هل يدعنا الحكوف نعبّر النهر أم سيستقبلونا على الضفة؟

- أتصور أنهم سيحتشدون على الضفة. - ساهم مشقوه قبل غيره.

- وأنت يا قدان؟

- وأنا من رأيي، النهر ليس عميقاً.

- أتصور، - مال الأمير أبج على المائدة، - سيتوقفون قريباً من الغابة المنحدرة من الجبل، وما إن تبدأ المعركة حتى يختفوا في الغابة إذ أننا أكثر منهم. ويهاجمونا من هناك. وهناك احتمال أن يوقعوا فينا خسائر.

شارك كل القادة بآرائهم. ومن لم ينبسا بينت شفة هما كولس وتراب. كان ردد

يعرف أن تراب لن يساهم بشيء في مسألة حربية، ولكن يُقلِّقه سكوت كولس التام، فكان متلهفًا لمعرفة رأيه.

- استضافناك يا كولس على أمل أن تُغنينا بآرائك، - نقض الأمير ردد الصمت، - أنت مررت بتجارب كثيرة مما نحن فيه الآن.

- هذا صحيح يا أمير، - بدأ كولس وهو يُصقِّي صوته، - الأمير لاورستن كان يفيض حكمةً ولو أنه أصغر مني عمراً. لا حدود لرفقتي معه. استمعوا ما كان يقول: إن كنت تريد الانتصار على عدوك فضع نفسك مكانه. العدو لا يحسبون تعداده بل يحاربونه. حاربنا نحن قصيرة. ولكن متى دخلتم الساحة ففكروا بعقولكم ولو كان الوقت قصيراً. وحاربوا بقوة. الإصبع الواحدة ليست قبضةً. لا تسمحوا لهم أن يبددوا شملكم. تماسكوا كقبضة قوية. - توقف كولس قليلاً وأكمل: - والآن سنتكلم على نخلش: الحكوف يعتمدون عليه. يعرف كيف يقاتل وماهر في فنونه. سيخدعكم إن لم تنتبهوا إليه. يرى مشقوه أنهم لن يسمحوا لنا بعبور النهر. لا يا مشقوه، سيسمحون. وسيستمعون إليكم متظاهرين بجَهْلٍ مطالبكم منهم. فإن لم تتفقوا واشتبكتم فالأرجح أن يُخرجوا من تلك الغابة جيشاً. ولذا عندكم ما تفكرون فيه، مكنوا أنفسكم، الديك في داره شجاع. الحكوف شجعان محاربون، ثم إنهم يحاربون في أرضهم.

- هل سمعتم؟ - شخّ الفرع من عيني ردد. - من حمل الأديغة على أن يكفوا عن إلقاء مُسَيِّبهم من أعلى الجبل هم مسنون حكماء من أمثال كولس. شكراً يا كولس، نطقت بما في قلبي. من أخبر الابن أن جرة الذهب التي في الماء هي في قلب الشجرة هو الأب. أليس صحيحاً يا كولس؟

- نعم، - ضحك كولس بخذر.

- أو ليس الأب أيضاً هو من أعلم الولد أن شمس الصباح تبدو أولاً على الماء؟

- وهذا صحيح، هكذا يروون الحكاية. - نهض كولس معتمداً على العصا. ونهض كل القادة. سأنصرف إن لم يكن لكم سؤال آخر.

- وأنا منصرف إذن، - لحق تراب بالعجوز، وتوقف على العتبة ودعا من أجلهم: - ليحقق الآلهة مسعاكم! وكما أوصاكم كولس قووا أنفسكم. الكلب

ينبح على الشجاع، ويعض الجبان.

خرج ردد وشوباش مع المنصرفين. وتبع شوباش العجوز، وتوقف تراب ثانية، ونظر نحو أبنار المتجهة إلى المطبخ، وأشار برأسه:

- يا أمير، سيصبح عندنا ذرية لأسرة الأمير. ظهرت على وجهها بقعة تشير إلى حملها.

- وإن كانت فتاة؟ - أطرق ردد خجلاً.

- لا تشكّ في كلامي يا أمير! سيأتينا في الخريف صبيّ يكون جذراً لكم ولعرقنا.

لبث ردد بعض الوقت في مكانه ممتلئ القلب فرحاً بما تنبأ به تراب. وحين أسرع الصديق الذي تقدّم لاستقباله توقف ردد.

- لماذا أنت في الفناء؟ ألا تدخل! أشار ردد إلى المضافة.

- كنت أتحدث إلى أغبان. - نظر إليه ججان بعينين منطفئتين. - وماذا أفعل بين قادة الجيش يا أمير، ثم ألم يكن جدّي بينكم؟

- ما أشدّ شحوبك، أفنيت نفسك بالهمّ يا ججان. ألسن رجلاً؟ عُذّ إلى وعيك! - نهره الأمير، - سأعود إذن إلى المضافة، عاد الرجال. - وصله صوت رامبس وهو على الباب:

- ماذا يا ولدي؟ ألا تزالون مجتمعين؟

- نكاد ننتهي يا أمنا، - عاد ردد إلى الأم الواقفة على المسطبة.

- اذهب يا ولدي، ينتظرونك، - أضافت رامبس ما يشغل بالها: - الحرب تترك الندبات على أجساد الرجال، وتجمّد وجوهنا نحن النساء. لن أتحمّل إن حدث لك شيء ولا سيما في غياب والدك.

- لا خوف يا أمنا. سنقابل السيف بالسيف، وسنتجنب السهام وراءنا.

حين عاد ردد إلى المضافة تبين أن القادة اتخذوا قراراً جديداً. وشرح قدان الموضوع:

- في كلام كولس حكمة. الحكوف سيحشدون جيش فرسان في الغابة؛ فقررنا أن نسبقهم.

- وإن لم يحشدوا؟

- أحسن.

- إذن، - أنهى الأمير الموضوع، - لا يشعر الزيوخ والموط وغيرهم بالاستياء،
يُحِيلُ إليك أن الطريق الذي تعرفه أقصر من غيره. نحن القسوغ نعرف الطرق
إلى الحكوف أفضل من غيرنا ولذا أرسل الفرسان الحرس حالاً يا تيمرقوه، وأنت
أيضاً يا مشقوه.

...

أرض الحكوف بالقياس إلى أرض القسوغ أدعى للقلق. ولكن الحكوف لا
تبوح لك بما في القلب إلا إن وصلت إلى الحدود تماماً. كانت القوات القادمة
من الجهات كلها تحتشد بعد الشروق في المكان المحدد.

بعد الظهر بدأ بارج يرتعب. في البداية قلّ عدد الجنود القادمين من القرى، ثم
انقطعوا. لم يتجمع ما كان يتأمله. وما كان يشحن الدم إلى رأسه في المقام
الثاني هو غياب نخلش دون معرفة السبب. "هل عمي هذا الأصهب اللعين
وصم؟ - كان يصرخ من أعماقه بصوت مُدوّ. - القسوغ والزيوخ والموط
يستعدون للإغارة علينا. ألا يعرف أن عليه العودة فوراً إن كان في مكان حشد
الجيش؟ وما الفائدة إن رجع بعد فوات الأوان؟ إن حدث هذا فلا أعرف
وقتها!.."

قطع الفارس الشاب المسرع أفكار قائد الحكوف المتنافرة. ولجم الحصان حال
وصوله، واندفع قائلاً:

- وصل نخلش يا بارج!

- وأين هو؟

- عاد إلى نواحيكم.

- لا مشكلة إن كان وصل أخيراً. - قفز بارج إلى الحصان وعاد إلى بيته وقد
عاد الهدوء إلى قلبه.

وفيما يضع بارج رجله في الركاب للعودة إلى بيت عُسرقوه تأمل الثلاثة الذين
توقفوا على باب داره وهو يصفاحهم. كان التعب بادياً على شنبه وعسرقوه في
حين لا يظهر أثر إجهاد على نخلش. أعاد رجوعه الأمل إلى قلب بارج،
وغمغم: "هل هذا الرجل مصنوع من الحديد؟ ما أقواه!" لم يستطع إلا أن

يغبطه لأنه يعرف ما تعرض له هو نفسه من إجهاد.

- ماذا؟ يستعد ابن لاورستن للهجوم عليكم؟ صحيح؟

- ألا تقول: " علينا " يا مبارك النسل؟ أنت سبب كل هذه الفتنة. - أخطأ بارج فأفلت منه، ثم استدرك: - ألم نتحالف؟ ألم نتوحد؟ أنت من نعتمد عليه. - لا تقلق يا بارج! سُنْغُوقُ هذا الأمير الدَّعِيّ. - شدّ نخلش قامته معتدّاً، - رَبَّبْتُ كل شيء وأنا على الطريق. سأخبرك بنواياي بعد أن نتناول شيئاً. لا تفكّروا في مصالحته. إن سلّمَتْنَا أنا وشنبه قطعوا رأسك أنت أيضاً، وانقرض الحكوف.

- لا أفكر في الصلح مطلقاً. - رفع بارج عينيه اللتين ترقآن إلى الرجل الأصهب العملاق. - إما أن نموت أو نكون رجالاً. لا تراجع! - هذا كلام رجال، - أمسك نخلش بارج بيد واحدة وضّمّه إليه. - إطمئن! ستراني كسرت أنياب ابن لاورستن الذئبية.

...

نَحَضَ الأمير ردد مع انبثاق نور الفجر. يمكن أن يحدث لك أيّاً كنت أن تترك، ولو كان في صدرك قلب ذئب، المرأة الصغيرة الدافئة التي تنام في حضنك، وتشعر براحة يدك بحركة قدمي الطفل الذي في بطنها، ولاسيما أنك تشعر بأنها المرة الأخيرة في حياتك. ولكن شواغل الأمير الأديغي الكبير فوق كل اعتبار.

قال أغبان الممسك بزمام الحصان الأسود عريض الصدر لردد:

- يا أمير، لن أدعك تذهب إلى الحكوف وحدك ولو قتلني في مكاني. سأكون وراءك مهما حدث. - نظر الأمير ردد في الرجل الرُّبْعَة القصير، ولم يردّ بشيء. ووافق وهو يهزّ رأسه:

- اركب إذن!

لا تتسع ساحة القرية لجيش الفرسان. هذا يشدّ حزام سرج حصانه، والآخر يرتب لباسه، ومجموعات هنا وهناك تتبادل الحديث. والأمير الذي دخل بينهم، سيفه إلى جنبه، والدرع على ظهره، ولباسه الجلدي يزيده ضخامة، يبدو

كعمالقة الأساطير.

كان الفجر انبلج حين شرع الجيش في الخروج من القرية. الصّبيان والمراهقون يخرجون من الدور ويحاولون مجارة الخيل. والنساء والصبايا ينظرن من خلل الأسوار صامتات حزينات. وفيما يلتفت ردد إلى هؤلاء خطر له فجأة ججان، فقال لنفسه قلقاً: "المستعجل يتعثر كثيراً. ليته لم يجر له شيء في هيجانه. إن سقط الحفيد الوحيد الذي يعتمد عليه العجوز فهو مأساة. كان عليّ أن أوصي مشقوه بالاعتناء به..."

حين وصل جيش الفرسان إلى "شاكّا" ظهر الحكوف المتجمعون على الضفة الأخرى للنهر على هيئة مثلث. استغرب ردد: " ما أعجب ما صفّهم نخلش اللعين! على يساره بارج، والجنود وراءهم في رتل رباعي وثمانيّ. والأنساق الأخيرة لا تقل عن مئة. يريدون أن يحترقونا كالسهم، فيشتتونا ".
أكّد ردد على قائد الجيش حين عبروا النهر:

- يا قدان، ثبتّ وسط الجيش ريثما أتكلم مع زعيم الحكوف. انظر كيف اصطفّ هؤلاء!

رفع الأمير ردد يده اليمنى وسبق قائد الجيش فاستقبله بارج:

- يا بارج هل قبلتم ما طلبنا أم اخترتم الحرب؟

- من عادة الحكوف دائماً حماية من يلجأ إليهم. نخلش التجأ إلينا واثقاً بنا.

- حماية المجرم قلّة شرف، فكّر، ولا تدعنا نسفك الدم. - نصح الأمير زعيم الحكوف.

- أنتم الأمراء تقتلون من لا ينفذ أوامركم. أما نحن فمن يلجأ إلينا، كائناً من كان، يصبح جزءاً منا. نخلش واحد منا. لن نسمح لك بأن تمد يدك إليه. لا تقتحم أرض الحكوف، ودعنا نعيش بسلام.

- عيشوا، الإنسان خلق ليعيش. ولكن إن أصبحنا دولة واحدة زادت قوتنا. ولم يبق غيركم خارج الدولة. سلّمونا جماعة نخلش، وانضموا إلى دولتنا!

- إن توحدتم اليوم فستتفرون غداً. - قال بارج، وحسم الموضوع: - لا أكرر كلامي!

تدابر القائدان، وعاد كلٌّ إلى جماعته. كان نخلش يرى ردد أول مرة بعدما افترق

عن بارج. - ارتعب قلبه وشحب وجهه من ضخامته الجسدية المتزايدة. اشتبك الجيشان المتقابلان، فخيّم على النهر صليل السيوف وصهيل الخيول والشتائم المتبادلة وقراع التروس. التقى ردد ونخلش فتقابلا بالسيفين. ضرب نخلش ترس ردد بقوة ونبا عنه. وحين التقيا ثانية رأى نخلش كيف قتل الأخير الفارسيين المعادين للذين أتيا ردد من الجانبين.

- أيها البائس هل تحمي من يستعبدك؟! - عرض نخلش بأغبان، ثم عاد إلى مهاجمة الأمير ردد. وضرب الترس ضربة أودعها كلّ قوته، وظن أن الأمير لم يردّ على ضربته ولكن في اللحظة نفسها سرّت حرارة مفاجئة في رجله اليمنى. وتدلّت رجله اليمنى ما فوق العقبين. واهمر الدم منها. "ماذا فعل بي!" - هجم نخلش ثانية وهو في هذه الحمى. ولما نظر إذا ببارج دون سيفه. يحنّمي بترسه منطوياً على نفسه من ضربات قدان. ومن مدة إلى أخرى ينظر إلى غابة الجبل ملهوفاً، ولا يظهر أي فارس. ولما رأى بارج شنبه هارباً من المعركة إلى جهة بلاد الحكوف شتم بأقصى صوته: "يا قذّر! كيف اعتمدت على هؤلاء!..."

فرح بارج لجيش الفرسان الذي خرج من الغابة. ولكن سرعان ما طار فرحه في اللحظة نفسها: هجم فرسان القسوغ على مجنبة الحكوف. هوت ضربة قدان على بارج فتطاير الشرر من عينيه، وسقط الترس منه. ووقع من ظهر الحصان. وظل ردد ونخلش يكران ويفران. شعر نخلش بالغثيان، وأسقطته آخر ضربة على ترسه. وقبل أن يصل الأرض جلس ومد يده إلى سيفه ولكن الأمير ردد سبقه إليه.

- يا أمير... لا تقتلني!.. تأثرت لنفسك إذ قطعت رجلي... وأنا كنت في موقف سابق قادراً على قتلك لو أردت...

- كان الأفضل أن تقتلني ساعتها من أن ترسلني عبّر البحر إلى بلاد غريمية مخاطراً بروحي.

- الروح... غالبية يا ردد...

- أنت روحك غالبية عليك، وأرواح غيرك مُرّة. جرّب الآن كيف يكون الموت!

- هوى سيف الأمير على نخلش فقطعه من خصره.

صار مشقوه الذي كان يسبق ججان وراءه الآن. حين هوى حصان ججان وهو يقول لنفسه: "هل يحرص مشقوه عليّ أنا؟" انحصرت رجله اليمنى تحت الحصان. وغمر الألم جبينه بالعرق. وقابل بسيفه الرجل الحكوف الغليظ الذي هوى بسيفه عليه. ولكن سقط رأس الحكوف في اللحظة نفسها أمام ججان. قفز مشقوه من الحصان إلى صديقه، وسأله وهو يسحبه من تحت الحصان:

- هل آذاك؟

- الحمى تسري في رجلي... - حاول ججان القيام فلم تسعفه الرجل اليمنى.

- احتفظ بالسيف والترس جاهزين! أنا حالاً... - قفز مشقوه إلى ظهر الحصان.

راقب ججان قتال الرجال. وأنهم نفسه غاضباً عليها: "أنا السبب الأول لهذه المعركة... ما قاله لي جدي صحيح. لم أفهم وقتها أن عسل نخلش سمّ. أين ذاك الأصبه العين الآن؟ لا أراه بين المتحاربين. قتل آنست حين لم يجديني. ولم يسمح لطفلي أن يرى النور... لم أثار لأنست ولا لطفلي..."

- كفى، توقفوا! انتهت المعركة. غلبتمونا! - جرف الصوت أحزان ججان. وتوقف المتقاتلون. ومن رفعوا السيوف خفضوها. وتبادل الجانبان والوجوه تتصبّب عرقاً نظرات الحقد. وسمع صوت الرجل نفسه ثانية: - قائد جيشنا قُتل، هزمتونا. نتقبّل ما تفرضونه علينا.

أمر الأمير ردد بصوت عالٍ:

- ليقف الحكوف في جانب واحد! - توجه ردد إلى الحكوف الذين تجمّعوا: - نحن وإياكم من عرق واحد. اليوم أزھقنا، كلا الطرفين، أرواحاً بريئة جزافاً. نحن لم نأتكم لنأسركم أو نستولي على بيوتكم أو نخرق محاصيلكم. انتهينا من مطلبنا بنتيجة معركة اليوم. والآن إن فكّرتم بتعقّل فانضممتم إلينا أصبحنا دولة واحدة.

- سنتحالف معكم يا أمير. - خرج من صف الحكوف الرجل الأشقر الطويل القامة. - سنتصرف كما تأمر. أنا آتي من قرية لِعُتْكَ. وأنتمي إلى أسرة "فُخُوهُ"، واسمي دامر.

- عَرَفْتَنِي بنفسك جيداً يا دامر. - اقترب منه الأمير ردد وصافحه. - إن وافقني الحكوف عيّنتك عليهم اليوم زعيماً. ثم نعقد اجتماعاً للقرى، ونرتّب أمور علاقاتنا.

II

صعبٌ أن تحقّق كل أهدافك.

يفهم الإنسان حين يرى ما فعله أن ما كان ينويه غيرُ ما أنجزه. ولن يفهم هذه المعلومة من لا يفكر. العقل المبدع لا يتوقّف عند ما وهبه إياه الله، بل يطوّر أهدافه باحثاً، ساكباً عرق جبينه، زائداً من فطنته. ويترك مآثر خالدة على مرّ الزمن.

لا يزال القسوغ يتناقلون مآثرة قتل الأمير ردد لنخلش الأصهب. حين تسمع بمقتل إنسان تتألم زاوية صغيرة في القلب وإن كنت لا تعرفه. أما نخلش فما من أحد سمع خبر مقتله ويعرف أنه كان لصاً قاتلاً إلا شتمت به. ورضوا عن الأمير الذي أزاح عنهم رعب الجرم، وغمرهم احترامه وتقديره على نحوٍ ملحوظ.

كان كل ما جرى يتردد على عقل الأمير وإن كانت حربه مع الحكوف انتهت كما يرى بعينه، وكانت القرى المجاورة راضية به. يوازن بين نجاحاته وإخفاقاته، وما لاحظته وما لم ينتبه إليه. صالحه الحكوف، ومات من كانوا يهيجونهم ضده، وصارت الطريق مفتوحة إلى الويخ والأبخاز، والدولة النظامية التي لا تفارق ذهن ردد ستتحقق قريباً. ومتى انقضت المآثم، وهدأت نفوس أقرباء القتلى فسيختلطون ويتفقون. وكان فُخوه دامر الذي أوقف المعركة جاء لزيارة الأمير الكبير ردد. وحكم الأمير بأنه إنسان وقور يمكن الوثوق به.

لم يكن تراب مهموماً بالمشاغل التي تؤرق ردد. كان مرتاحاً للطريقة التي انتهت بها الحرب. وزار أكثر من مرة ردد ورامبس مهتئاً. وتابع الأخبار من خلال مشقوه وقدان وججان الملازم فراشه. ولكن ما يفرح به تراب قبل المعركة وبعدها دون خجلٍ هو خروجه منها دون خسائر شخصية. وإذا كان ردد أشد من يحسده في طفولته وفي شبابه فالآن كان يغبط نفسه. كان تراب يفكر في نفسه على طريقة: " حين قرروا التخلص من النحس قال: حُلِّقت منحوساً. ثم قال

عن نفسه: لو ذهبت معهم إلى الحرب لهلك فيهما ولو عاد الجميع سالمين.
امتلاك عاهة زمن الحرب فيه فائدة..."

والحق أن تراب كان قد نسي في السنوات الأخيرة عاهته. ونفذت كلمته في القسوغ وفي الأمير الكبير. وأقنعهم بأنه رسول الآلهة. ويعيش حياة مرقية بفضل إعانات الناس. وسلّمت أجمل نساء القرية نفسها له، وقفز إلى أعلى من مستواه.

وُجدت الحرب كي يتقاتل الناس ويسفكوا الدم ويحقق أحد الطرفين أهدافه. لم يعد تراب يرغب في مزيد من الامتداح للمنتصرين والتشفي من المهزومين الذين استحقوا ما جرى لهم. وما لا يفارق أفكاره هو مصيره الشخصي.

يبرئ تراب نفسه: "وما المشكلة إن كان الرجال يترددون على دكايس؟ لا يمكن لرجل، ولو كان قديساً ألا يشتهي كل هذا الجمال. كان حقدار يهوى امتداح النفس. ويعتقد أنه حقق هدفه ولو لم يلمسها. حقاً لا تتحرك قشة دون ريح. جعل الآلهة من حقدار البغيض طعاماً للكلاب وهذا ما يستحقه. ولولا أنه كان يتصرف بلا شرف دون حساب سمعة أبنائه وزوجته كما لاكت الألسنة سمعة دكايس في القرية. وها أنا لا أسمح لذي روح أن يعرف زيارتي إليها... وإن تزوجت دكايس فكيف سيتصرف معي نطاي؟ يساندني في كل مهمة دون اعتبار لشخصه. أتكون دكايس ترغب فيّ لأنه رفيقي؟ ماذا إن أعدت له فحولته عبر دعائي لأجله للآلهة والبحث عن الأدوية؟ وكيف أترك البيت لمن عاشوا فيه معاً سنوات. وهل أعيش دون مخالطة الناس؟..."

ما أغرق تراب في التفكير هو الموعد الذي أجله عقب حرب الحكوف. جاء الموعد فصعد إلى سطح الذاكرة ما كان يعرف عن دكايس، والتي كان يُعدها عن ذهنه. "حسناً لنفرض أن حقدار البغيض كان يتردد إليها، - كان تراب متلهفاً على تبرئة الأرملة الوحيدة في أفكاره، - الآلهة ساعدوني في هذا الشأن فلم يبق في القرية من يشتمني إن صادفته. أعود فأقول: هل ما فعلته كان مقدوراً لها؟ كل امرأة ورجل متى غسل وجهه من الدنس عاد بريئاً كما كان. وأنا أتزوج دكايس لأنها تعجبني ولأننا متوافقان، وأحبها... لن أطلب زفة عروس ولا مطربين، بل سأزفها بنفسني متى حل الظلام. لو كانت فتاة في سن

الزواج لاختلف الأمر، على أُنَى سأخبر ردد. الأفضل أن يعلم أميرنا الكبير بال موضوع. لن يرافقني إلى الزفة، ولن أطلب منه ذلك، ولن أخبره بالموعد. سأرى جوابه... "

تجاوز تراب باب دار الإمارة دون عقبات تُذكر، وفي طريقه إلى المضافة استقبله أغبان العبوس:

- أود مقابلة الأمير يا أغبان، - نظر تراب لاوياً عنقه مع شيء من الخوف في وجه الحارس الأسنّ منه.

- عاد قبل قليل، كان عند ججان، - حكم تراب بالإيجاب على استقبال أغبان. وقال في نفسه: " حين عرفت أن أميرنا الكبير يُكّن لي الود صفا قلبك أنت أيضاً لي. أعطاك الآلهة قوة مجنونة، أذيت بمصافحتك مفاصل أصابعي"، - دخل تراب إلى المضافة يفرك بيده اليسرى تلك التي أفلتها أغبان. فاستقبله ردد بوجه طلق. وعرض عليه مائدة ولكنه اعتذر بأنه متخم، وشكره.

- لا تؤاخذني يا تراب، من يأكل حتى التخمّة هو الكلب. - ابتسم ردد، - وأنا كنت عند ججان فأكرموني.

- لا يا أمير، لا داعي للاعتذار. - ضحك تراب في سرّه مما قيل له. - أمسكت بي على الكلمة التي قلتها دون تفكير. وأنا لم أزر ججان في هذه الأيام مسوّفاً من يوم إلى آخر. وعلى مبدأ "فوق الصلح دُمْلَةٌ" قتلوا المرحومة آنست فبقي برأس ورجلين.

- لو كان برجلين لهان الأمر، ليتّه لم يبق برجل واحدة! - ستلتئم فخذ ججان يا أمير، ثِقْ بهذا. - بادر تراب، - أنا أدعو آلهتي كل يوم أن ترحمه. والعجوز الذي استدعوه من قرية ششحرس معاليج ممتاز. ستشفى رجل ججان، ولكن قلبه يحتاج إلى كثير من الوقت ريثما تعود الحياة إليه ويحبّ فتاة أخرى. الوحدة تعدّل الموت. وأنا اختبرْتُ هذا. - اقترب تراب بالحديث إلى ما يريد إبلاغه للأمير الكبير. - أما كفاني أنا أيضاً ما عشت من حياة الغزوية؛ أفكّر في الزواج.

- مَن؟ - فوجئ ردد. - دكابس، - أسبل تراب جفنيه. - أعرف عيبي يا أمير وإن كان الآلهة

أرسلوني إليكم. ومن يزوّجني من ابنته المدلّلة؟! ولا أستطيع الاحتفاظ في بيتي بامرأة قبيحة، وجهي في وجهها كل يوم. وسينسى الناس ما أشيع عن دكابس متى صرنا نعيش معاً.

- لي تحفّظ واحد على هذا، - نظر ردد إلى تراب، - دكابس جميلة بلا شكّ، وطيبة وشفيفة، وناضجة. ولكن ما أريد تنبيهك إليه هو ملاحظتك أنت: أنا لا ألوم تلك المرأة إذ حرّمها الآلهة من زوج كفء. ما أشيع عنها سمعته وإن لم أسمع للإشاعات أن تُقنعي. فهل تستطيع أن تغفر لها ما كان يشاع عنها إن صارت زوجة لك أم لا تستطيع؟ فكّر في الأمر! ستتغير عواطفك نحو دكابس عما هي عليه الآن متى صارت في بيتك.

- أليس هذا ما يصدع رأسي! بدا التردد على تراب.
- إن كنت مرتاباً فلا تتزوجها! - نصحه ردد، - حين تبدأ بتغييرها بما كنت تسمع عنها فلن تتفقاً. وستجرح مشاعرها. هل تستطيع أن تصبر على هذا؟
- سأصبر! - أجاب تراب بحزم. وشعر بأن قلبه قد ارتاح الآن.

في المساء، وقد فترت الشمس، وبرد النسيم، لبس تراب أحسن ما عنده، وزار ججان. في وسط الغرفة التي دخلها علّقت بالسقف قطعة من الأبوة. والشباب في سن الزواج متحلّقون حولها. ومن تجرح الأبوة شفّيته يحلّ غيره محلّه. وججان المستلقي شاحباً على أريكته يراقب الشباب اللاعبين. وأحياناً لا تعجبه طريقة أحدهم، فينصحه:

- لا تمدّ رأسك نحو القرص، وقّت لحظة وصوله إلى شفّتيك، وأمسكه بفمك! التفّ تراب حول الشباب اللاعبين، ووقف إلى جانب السرير فابتسم له ججان، وجلس.

- إبقَ على حالك يا ججان! كيف حال رجلِك؟
- انقطع الألم. - رطبّ ججان شفّتيه الجافتين برأس لسانه. - اجلس، لم أنتبه إليك وأنا أتابع اللعب. سامحني، لم أعد أرى الداخل والخارج.

- أليس لأجل هذا يُقيم الأديغة حفلات الجابشه! - أشفق تراب على ججان لأن وجهه زاد نحافة على نحافة. - في مثل هذه الحفلات تسلّي هذه الألعاب المريض عن ألمه.

انتهى الرجلان من الحديث، فغرق ججان في أحزانه وهو ما يزال يتابع اللاعبين. نظر إلى تراب وقال في نفسه: " لا بد أن هذا الرجل ينوي شيئاً ما إذ تأتق جداً. يخفي عنا زيارته الخفية لدكابس، ولا يعرف أننا على علم بها. القرية تخبر بجلبه الشياطين في الليل... ولولا نخلش القدر لكان يقام لنا عرس في هذه الأيام. تشفى لي ردد من هذا الأصبه القبيح. روى لي أغبان كيف قطعه نصفين رافضاً توسلاته. ومن حظنا أن ردد عاد إلينا من تلك البلاد البعيدة الغريبة. من جهتي ما كنت قادراً على هذا، أما هو فمنحه الله قلباً شجاعاً وقوة هائلة وعقلاً كبيراً. كنت منذ طفولتي أغار حين أسمع الناس يمتدحونه، ولكن جدي كان من أوائل من تنبؤوا له أن يكون رجلاً في المستقبل. وها أنا لم يخطر لي في المنام ما وصلت إليه فطنته حين زارني اليوم. يقول ردد: نحن نفرح إذ يخالطنا الفرس والعرب والروم في أثناء تجارتهم، نشترى منهم ونقايضهم في حين أن بين هؤلاء كثيراً من الجواسيس. والروسيج المنتصرون على الخزر يعتبروننا مثلك أيديهم. يوزعون جلد الدب الذي لم يصيدوه. وعلى رأي ردد هل يمكن للروسيج أن يصروا على عدائنا؟ أقول هذا ولكن ها هم بدؤوا يخترقون أرضنا. كانوا جاؤوا بزعامه قانشاو يجبون الإتاوة. ومهما كانت الضريبة قليلة فهم يجمعونها من الزيوخ والموط... "

نفض تراب حين اقترب موعده مع دكابس. وخرج ججان من أفكاره:

- أراك يا تراب منصرفاً؟ ما الأمر؟

- سأعود إلى البيت إذ لا مكان لنا مع الشباب. - ضحك تراب، وفارق المحتفلين. ثم توجه إلى بيت دكابس. واحتج من جديد على أن الشباب لم يعيروه اهتماماً. " لن أشتري إنسانية هؤلاء بعنة جرباء. لم يقطعوا لعبهم حين صرت بينهم، أنا موفد الله. ولم يرحبوا بي. ينشأ جيل من الشباب لا يعرف تقاليد الاحترام. لو تصرفنا نحن مثلهم لصفعنا الأكابر منا سناً... "

وصل تراب إلى مسطبة دكابس فارتفع نبض قلبه. ولكنه ضبط أعصابه وارتقى الدرج وهو يجّهز حنجرته. بثّت في وجهه دكابس يغلبها الحياء على غير عاداتها. وأسبلت جفניה، وتظاهرت بترتيب الوسائد على الأريكة. ثم التفت وقالت بصوت ناعم:

- اجلسن يا تراب!

- ولماذا نجلس بعدما قررنا كل شيء. تعالي إن كنتِ جاهزة! - نظر تراب حوله ليعرف إن كانت جهّزت شيئاً تحمله معها.

- أتنظّن نفسك جئت تبيع الحطب؛ اجلسن! لندعُ إلى أهلتنا أن أخرج من بيتي بخطوة خير، وأضع في بيتك مثلاًها. وأنت موفدهم ولذا سيصل دعاؤنا إليهم بسرعة.

- نعم، هذه هي الحال، لم أتوقّع شيئاً إلا تحقّق. - جلس تراب هائلاً بما سمع. وأضاف بعد قليل: - أدعو إليهم أن يحققوا لنا كل خير؛ تعالي!

- خذ إذن هذه، - مدت دكايس يدها إلى ما وراء الأريكة، وتناولت حزمة من الأغطية، ووضعتها في يد من سيصبح زوجها.

ظل تراب يراقب الأنحاء خفية بين البيتين. كان يؤدّ الوصول إلى بيته دون أن يراها أحد. وحين تجاوزا منعطف السور وقفت كُراث أمامهما.

- أهذا أنت يا تراب؟ - تأملته العجوز وهي تنحني، - وهل أنتِ معه يا دكايس؟ إلى أين وقد انتصف الليل؟

- وأنتِ، إلى أين؟ - ردّ تراب يكظم غيظه بصعوبة.

- عَجَلِي غائب. أمّه تصرعنا. - ولميحت له العجوز وهي تخطو بمشقة: - كنت أعرف أنه دخل دار مشقوه فقررت أن أبحث عنه صباحاً ولكن تلك القبيحة لن تدعني أنام.

- هذه هي الحال، لا يمكن أن تخطي خطوة دون أن يراك أحد، إلا أن تطيري في السماء. - غمغم تراب وهو يتابع امرأة حيّه.

- وما المشكلة إن رأتنا العجوز؟ - ضحكت دكايس، - أتريد أن تتزوجني دون أن يعرف أحد؟

- أليس الأفضل أن يعرف الناس في الوقت المناسب؟ - ضحك تراب بفتور، ليعرف الحيّ والقرية متى استيقظنا غداً في بيتي! - ولكنه قال لنفسه غابطاً

إياها: " لَبَقِي في فم القرية كلها، وسيكون بينهم من يتأسف على خسارتك!.. لم يتركوا تعليقاً عليها كأهم كانوا يعيشون معها في بيتها. تناس ما

سمعت وتكلّم في ما ترى، هذا هو الصواب... "

حين دخلا الدار، تفحصت دكابس ما حولها واستغربت:

- لماذا لم يستقبلنا أحد يا تراب؟!

- ومن كنت تنتظرين؟ ألا تعرفين أني وحيد؟ - ألقى تراب السؤال إلى مَنْ وراءه دون أن يلتفت.

- توقعت أن ينظر كلبٌ سَمِج في وجهي هازاً ذيله.

- لا كلب ولا قطٌ عندي.

- متى أسست أسرة فلا بد منهما أيضاً.

- إن أردتِ جئتكِ بهما غداً. - فتح تراب الباب وقد عاد إليه المرح، ودفع أمامه دكابس...

أمضى تراب الليلة كلها وكأنه يلتقي بدكابس للمرة الأولى. لم يكن "موفد الآلهة"¹ يستمتع بما يحصل عليه سرّاً. كانت تأتية لحظات تنطفئ فيها ناره خائفاً أن يكون أحد يتجسس عليهما من النافذة، أو يطرق الباب، فلا تعود إليه قوته. وفي تلك الحالات كان ما يرتعب منه هو أن تقولَ له: وأنت لست أحسن من نطاي، وتديرَ ظهرها له. والآن كانا بكل حريتهما على الأريكة التي تنن تحتهما والعرق يتصبب منهما ومما تحتهما...

وعند الفجر، وقد نفّسا عن همومهما، حاول تراب أن ينقلب على جنبه الآخر فقالت دكابس:

- لا تُدِر لي ظهركِ يا روحي الوحيدة!

- ولماذا؟ - ارتفع صوت تراب غاضباً.

- أريد أن أبقى في السرير أتأملك. - لاطفت دكابس الرجل محاولة أن تموّه ما قالت. - إلى الآن كنت أقول يا تراب إنكِ رجل حقيقي. والليلة تبيّن أنك تفوق كل الرجال. صحيح أنك أرهقتني ولكن لا أتذكر ليلة استمتعت فيها كالليلة. إن كنت ستبقى على هذا العنفوان فسأعلن هزيمتي أمامك. - مازحته دكابس فرحة، ولكن الرجل لم يسمع كلماتها الأخيرة: غطّ في النوم.

خاطبت دكابس نفسها متأملة لأجل نطاي: "آه يا أيها البائس البريء. لو كان

¹ الآلهة من المؤلف.

فيك شيء من عنفوان تراب لما بدلتك بأي رجل في العالم ما حيث! لا يلاحظ تراب أنه لم ألمس حذبه حين كان يطرقني، وطوال هذه الليلة. وإن اكتشف هذا عاداني، وامتنع عن معاشرتي. يحاول أن يدير ظهره إلي... وكيف أستطيع النوم وأنا أرى حذبه كقرية نمل؟! في الماضي كان ينصرف مسرعاً متى قضى حاجته، والآن حكمت على نفسي أن أراها ليلاً ونهاراً. وأنا توسلت إلى نطاي أن يبتعد عنا أسبوعاً، ولكن لماذا يأتي إلى هنا معروضاً نفسه لسخرية الناس؟ سيقولون إن تراب تزوج الاثنين معاً فيزيدون الأقاويل. ثم قد يتغير قلب هذا نحوي..."

كان قلب دكايس ما يزال في بيتها. تعرف أن حبها لنطاي وإشفاقها عليه لم يهجرها. لم تكن تدين نفسها بغلبة أنوثتها عليها. وكان واضحاً أنها، بسبب سمعتها في القرية، لن تظفر بزواج أفضل من تراب. والآن سخرت من نفسها وهي تتأمل من تشاركه الفراش: "لو سمعتُ وأنا فتاة صغيرة، وحين صرْتُ في سن الزواج، ليس أن أنام مع هذا، بل أنه أحبني هو، لاعتبرت نفسي ملوثة من رأسي إلى قدمي، - عادت دكايس إلى الماضي البعيد، - لم أكن أتصور أقبح من تراب في قريتي. كنت أخاف منه حين أصادفه. وكنا نلعب معاً صبياناً وصبايا إلى أن تكوّرت نهودنا، ولكن عيب تراب كان يمنعه من اللعب معنا. كانت اللعبة الوحيدة التي يشاركون فيها هي لعبة الكعوب: كلما رمى الكعب المفرغ المحشو بالرصاص أصاب الهدف. كان يفرض نفسه على المسنين، ومن هم أسنُّ منه غالباً. وأينما رأيته أدير له ظهري. ثم تخلصت من رهبته شيئاً فشيئاً. ثم بدأت أنظر إليه بعين الرضا حين سمعت أنه لديه علماً خاصاً به. لا، لا أندم على خطوتي الأخيرة، غير أنني أعرف أنني لن أكرِّ لتراب ما أكرِّ لنطاي. يا حسرتي، أما كنت أصبح مثل أبنار لو وُلِدْتُ في غير زماني وبقيت في بيت والدي؟! انظر كيف وُقِّت هذه اليتيمة البائسة! لو كان عندي مثلاً ردد لكنسْتُ له أرض الغرفة بشعري. كفى، لن أجرح قلب نطاي مقارنةً بإياه بتراب. وليفعلوا ما يريدون. لن يزيد على ما قيل عني. كفى!... بدأت أغني الأغنية التي ليست في قلبي ولذا ستتحول إلى مرثاة..."

أسبل جفنا دكايس دون أن تدري. وما إن انتهت بعد إغفاءة قصيرة حتى

رأت الشمس خيمت على النافذة، وبقيت وحيدة في الفراش. كان تراب يُصدر من المطبخ أصوات الآنية. وسمعتُ وهي تكاد تنهض صوت امرأة:

- خدعتني يا تراب العشية، مَنْ في الغرفة؟ - عرفت دكابس صوت كراث.

- كُـراث! - ضحك تراب وهو يَمْطّ اسم العجوز، - كيف كنت أخبرك بأني أتزوج وأنت من عمر المرحومة أمي؟!

- وهذا صحيح، نوع من الرجولة، - وافقت العجوز، - خيراً فعلت، ليجعلها الله زوجة خير لك، ولتُسعدا معاً! أحتاج إلى قرن فلفل يا تراب، - ولما تحقق لكراث بُغيتها، وجد تراب ذريعة:

- وهل أحيجك إلى الفلفل يا كراث! قولي إن كنت تحتاجين غيره.

- كفى، كفى... - استعجلت العجوز، وبعدها سارت قليلاً توقفت، ونصحت تراب: - يا تراب كأنك تُعِدّ الطعام والمرأة ما تزال نائمة؟.. لا تفعل مثل هذا! المرأة على ما تربيها عليه منذ اليوم الأول. اليوم تطبخ لها فنكلكم غداً بالغسيل، ثم بالكناسة. المرأة متى امتطت رقبتك مرة فهي كالقطة، ستنفخ نفسها. الآلهة خلقوا الرجل ليكون رجلاً والمرأة لتكون امرأة.

- لا بأس، لا تقلقي يا كراث، وأنا ما أحببت منذ اليوم الأول لها في البيت أن تبدأ بالخدمة. سأمرِّغ أنفها بالتراب إن تمادت... - ابتسم تراب متصنعاً الرجولة.

احتدت دكابس لما سمعت: " ما أشدّ ما تؤلّب الجارة العجوز زوجي ولما أدخل البيت. العجائز ظالمات. لا بد أن كراث كان عندها حماة ظالمة. تودّ أن تتشفى بي من الظلم الذي لحق بها. أيتها القبيحة لن أدع زوجي يقوم بأعمال النساء ولو لم تحرّضيه عليّ. أقوم بواجبي. لستُ صبية صغيرة، أعرف ما أقول وما أفعل. قضيت عمري إلى الآن وليس عندي من أخدeme... ثم اسمع ما يقول الآخر: " سأمرِّغ أنفها بالتراب " ... سترى مَنْ مِنّا سيمرِّغ أنفه!.. "

تأثقت دكابس وخرجت من الغرفة متأنية. ولما جلست مع زوجها خاطبته بوقاحة:

- تراب، مضى هذا اليوم؛ دغنا نتفق على شيء!

- علام؟ - أعاد الرجل لقمة الباستا التي رفعها، - أسمعك.

- لا تقم بأعمال النساء يا تراب وأنا في بيتك! ولا تسمح لأحد أن يرانا على مائدة واحدة نأكل معاً.

- سألي لك هذا راضياً. - ابتسم تراب للمرأة مرائياً. - هل تعرفين يا دكابس ما رواه الأمير ردد؟ - أغلب الطباقين في بيزنطة حيث كان أسيراً هم من الرجال.

- ليقف الروم إن شأؤوا على رؤوسهم! - اعترضت دكابس، - نحن أديغة، وأنا أنثى، ولذا سأطبخ وأغسل وأكنس وأجلي. وأنت ذكرٌ تعني بالمواشي، ومسؤول عن طعامنا ولباسنا.

- ممتاز! - ضحك تراب وحذّبته ترتج. - عندي من يقوم بما كلفتي به من أعمال. سأعيش كالنبلاء.

- ومن سيجعلك تعيش نبيلاً؟

- أليس نطاي؟ - نهض تراب وقد تذكر شيئاً، فوقف إلى النافذة ونظر منها، - خرج نطاي البارحة بحجة انشغاله ووضعه سيء، ولا أعرف سبب تأخره إلى الآن. وحصاني لم يورّد بعد. والخطب المقطّع نفذ.

- إلى أين يا تراب؟ إن كان هناك حاجة إلى الخطب فقطّعه، لا تعتمد على نطاي، لن يأتي.

- ومن أين تعرفين؟ - التفت تراب بوجه قلق.

- توسّلتُ إليه أن يغيب عن الأنظار أسبوعاً. عشنا أنا ونطاي سنوات في بيت واحد وإن لم تنجح علاقتنا. والقرية تعرف أنه كان زوجي. هل ترى أنت من اللائق أن يقيم في بيتنا يذرع أرض دارنا جيئة وذهاباً؟ وأن يراه الناس يخدم في دارنا؟ سيقولون عني إنها تجمع بين زوجين. ويقولون عنك إنه تزوج امرأة لا تزال مرتبطة بزوجها.

- ومن سيقول مثل هذا! - نظر تراب في وجهها هائجاً. وأتاها من خلفها فأمسك بها من رقبتها. - القرية كلها تعرف أن نطاي قريب مني منذ زمن بعيد. لا يدع كلمتي تصل إلى الأرض، ولا شيء يسقط من يدي.

- حولته بلسانك الحلو إلى خروف وديع. وسخرته لأعمالك.

- لا، ليس الأمر هكذا. لا أكلفه بشيء ولكنه يحبني من قلبه... - قال تراب

لنفسه: ما أشد ما تقسو عليّ ولم تكذ تدخل بيتي! وما كان ألطفها قبل أن تدخله! ارتعب تراب لحظة ولكنه أخفى انفعاله.

- هو صديقك على ما تقول.

- أترك بيننا فاصلاً، نقف متوازيين.

- تراب! - لوت دكايس عنقها على نحو عجيب، ونظرت إليه نظرة ساحرة،

- قل لي الحقيقة هل أنت موفد الآلهة حقاً، تكلمهم ويكلمونك؟

- وهل تزوّجتي وأنت لا تصدّقين هذا! انتزع يديه من عنق الزوجة ووقف

أمامها. وجحظ لها بعينه المذعورتين. - أنت الوحيدة التي طرحت علي هذا

السؤال منذ صرت موفداً للآلهة وإلى الآن. لا أحد في القرية يشكّ في أمري.

كل القسوغ وعلى رأسهم الأمير ردد يثقون بي، ويصدّقون كلامي. وأنت

ترتابين في؟

- إن قلْتُ لك ما يسيء إليك فأنا أراجع يا زوجي الوسيم. - توهج خذاً

دكايس المدوران. لم أقصد هذا بكلامي. كنت أود أن أسمع كيف صرت موثوقاً

من الآلهة لأني أغبطك. ليتك أسمعني صوت الآلهة ولو لحظة!

- يا حلوتي! - سلّط تراب عليها عينيه المتوهجتين، - ما تودينه ليس في

مقدوري؛ هذا قرار الآلهة. هؤلاء لا يكلمونني على مسمع من كائن حي. متى

احتاجوني أخبروني وحددوا لي زماناً ومكاناً.

- في أي مكان؟ - استعجلت دكايس تريد الجواب.

- إن أخبرتك غيّرنا المكان يا دكايس. لا تُلحّي علي في ما ليس بيدي. ألا

تعرفين أن الآلهة تسمع حديثنا الساعة؟ - اقترب تراب من المرأة ملاطفاً وفرد

راحته على وجهها. ثم لوى رأسها ومسّ شفيتها. - لا تطرحي بعد الآن مثل

هذه الأسئلة؛ اتفقنا؟

- لن تسمع مني بعد الآن ذكراً للآلهة. - تنهدت دكايس.

- وهذا لا يجوز. أذكريهم، وابتلهي إليهم، وتوجهي إليهم، ولكن انسي تلك

الأسئلة... تعالي إلى الأريكة، ما إن ألمسك حتى تشتعل رغبتني...

- ألا يكفيك الليل! - ضحكت دكايس وقد رُذّت إليها الروح. ولامته وهي

تخلّص جسدها منه: - الأفضل أن تقطّع بعض الحطب... ما يجب أن تشتعل

حماسةً لأجله يا تراب هو الأسرة. - ثم تذكرت أنها قد تقسو في الكلام على من دخلت إلى بيته، فعادت إلى وعيها. ولكن إن لم تقف منذ اليوم الأول هذا الموقف من الرجال فلن يردعهم كونك أنثى أو ضعيفة فيتسلطون عليك. ولذا قررت ألا تتراجع وإن لانت لهجتها. فتابعت مسوغة موقفها: حين بقيت أرملة وحيدة في البيت سلّمت ما عندي من مواشٍ لأهلي يربونها لي. بيت بلا حليب بيت بلا إدام. سنعود بها إلى البيت، فإن اتفقنا سنلحق بأفضل الأسر.

- ولماذا لا نتفق؟ - سنعيش والقرية تحسدنا إن استمرت حياتنا كما بدأنا يا دكايس. - خرج تراب من البيت وقد منحه الحب قوة استثنائية.

III

أوراق أشجار الخريف تمس تحت الأقدام. تشدّك إليها رغباً في أن تتمرغ فيها. لا يتذكر كولس وقتاً جميلاً مثل هذا اليوم حين كان يستلقي بين هذه الأوراق المبلولة في شبابه، ولا حين صار سنداً للأُمير لاورستن، ولا في سنوات الشدة التالية.

"القلب لا يشيخ. يشتهي الجميل، ويرى الجيد. ولكن القوة تحذله" - يمشي كولس أمام حصانه الأصفر ممسكاً بزمامه. يبحث بين الأوراق التي تتناثر تحت قدميه عن ثمار الكستناء. وإبرّ أوراق الصنوبر تحزّ وجهه من حين لآخر. وأشجار التنوب الأنيقة تتباهى بين الأشجار العارية. كنا نستعملها بمثابة مصباح لكثرة ما فيها من الصمغ. والسرخس في مجموعات على طرف الوهدة. وجذورها دواء، ولا تقبل التخلص من أوراقها القديمة قبل ظهور الجديدة. الأشجار متنوعة كالبشر. هذه تعيش عمرها شابة، وتلك تكسي مظهر الشيخوخة مبكراً. وأنا أعيش لا أعرف من أشبه. عشت على الأرض ما ليس قليلاً. ولكن العجوز يستقلّ ما يعيش. ولم تبق لدي قوة. وأشعر كل يوم بتراجعها. ولكني، كما في كل زمان، أود أن أعيش بعد القليل. ما لم يسمحوا للاورستن أن يحققه أعيش أنا أيضاً منذ سنين وقد صار هوّساً لي. ما كان يناضل من أجله الأب يتقدم فيه ابنه ردد. ليست رامبس وحدها من ربته بل بدأنا به وهو مراهق، فعملت معه والدته من جانب، وأنا أكسبته حكمة من

الجانِب الآخر. وكذلك المرحوم عُجْبَس. أنا من جهتي لا أتمنى إلا أن أرى قبل أن أموت جيشاً نظامياً.

- نهارك سعيد يا جدي. هل تبحث عن شيء؟ نهضت من تحت الشجرة الصبية الصبوح التي ملأت حُضنها بالكسثناء.

- نعم يا بني، ألقى كولس نظرة حبور على الصبية. - أريد مقابلة كراث. - سأناديها حالاً.

- هل هناك خطر يا كولس؟ - استقبلت العجوز كراث واجمة.

- لا يا كراث. كل شيء بأمان؛ أود مقابلتك.

- هل قطعت كل هذه المسافة لمقابلتي؟ - لامته كراث. - أنت تريد أن تحقق

فوراً أي شيء يخطر لك. أما كان بإمكانك انتظاري حتى أكون في حيِّكم؟

- متى أجئنا من يوم إلى يوم فسيأتي يوم لا تأجيل فيه يا كراث.

- وما الذي خطر لك الآن؟

- أود أن تدعي النساء إلى عمل تطوعي لغزل الصوف.

- وهل هو عملٌ مُلِح؟

- لا أزعج هذا. ولكن ما تفعله في وقته تفرح به لاحقاً. جمعنا الأمير ردد، نحن

أبناء القوم الواحد. ونعتقد أننا صرنا دولة. جنودنا يحتاجون إلى أكسية. ولا

بأس بالجوارب الدافئة. الشتاء قادم. وطَرَقُ الحداد يمزج على السندان لا

ينقطع. يصبُّ السيوف والتروس ونعال الخيل. ونحن ألا يجب أن نفعل شيئاً؟

جمعت من القرية كمية لا بأس بها من الصوف. وأكثر ما يدعوني إلى العجلة

هو أن عِجلي الصغير سقط الباردة في خندق فكُسِرَت قائمته، فذبحته. أليس

الأفضل أن نُطعم لحمه للعاملات في الصوف قبل أن يفسد؟

- حسنٌ جداً.

- كنت جئتُ إليك ولكن مقابلتك غير سهلة. قيل لي إنها في الغابة فعدتُ

متحسراً. ثم أعدتُ التفكير فلحقْتُ بك إلى هنا.

- كم مرة أخبرتك يا كولس أنك بحاجة إلى عجوز مثلي كي لا تتبعني من

مكان إلى آخر. - ضحكت كراث حتى اختفت عيناها في الوجه الأحمر

الطافح.

- أنعن النساء عندكن قوة ليست فينا؛ نحن الرجال لم تبق فينا فائدة. - قابل كولس مزاح العجوز بالمزاح.

- إن كان هذا رأيك فقد حان موعد عودتنا. - سأتناول ما جمعت من الكستناء وأعود. - انصرفت كراث برجليها القصيرتين العجواوين.

- ناوليني السلة أحمله لك على حارك الحصان. - عاد كولس إلى صهوة الحصان متثاقلاً.

لم يكن تأمل كولس في البنات المجتمعات مساء لغزل الصوف يخفي أنه ينوي أمراً ما. سرُّك لك ما دمت محتفظاً به. وإن أطلقت أسيرك صار عدوك، وكذلك البسِّر. كان كولس يبحث بينهن بقلبه وبعينيه الذابلتين دون الكشف عن هدفه. ومن كان يبحث من أجله هو حفيده: "إن غلبك الحزن أغرقك دمع القلب. ولو كان الناس يدفنون أنفسهم مع الموتى لما بقي على الأرض إنسان." سمع كولس ردَّ يلوم صديقه ججان ناصحاً أكثر من مرة. وهو كيف يخاطبه؟ إنه حفيده! والآن انقضى على الحادث بضعة أشهر. وانحسر حزنه على آنست. وشُفيت رجله وإن كان ما يزال يعرج قليلاً. ألا يُشهدنا هذا الأهل عرساً قبل أن نموت؟! كثير ممن اشتھيتهن، رغم شيخوختي، دخلن الدار. إن لم يزر ما يكفي من البنات فما قد جئت إليه بما يكفي. ليخالطهن، وليتحدث إليهن، فرما يجد بينهن من يعيده إلى حاله. وسيستريح الجيران من خدمتنا. كادوا يملّون منا...". - دخل كولس إلى المطبخ مع هذه الأفكار.

كانت نساء الجيران يقمن على خدمة النار وقد احمرت وجوههن. الماء في القدر الكبيرة يغلي ثائراً. والدُّخن على المائدة مغسولاً. والدلاء مملوءة بعصير الإجاص والتفاح. والسلامه والبرك الساخن اللذان تأتي بهما النساء يملآن الصينية الكبيرة. فازق كولس الطباخات راضياً عنهن. "سأطلب من ججان بعد قليل أن يحمل عصير الإجاص إلى البنات. وإن لم يُغمض عينيه تماماً فلا بد أن يرى بينهن من تعجبه".

كانت الفتيات مستغرقات في أعمال الصوف. مجموعة منصرفة إلى الصوف الأبيض، وأخرى إلى الأسود. وحين يبدأن بالثرثرة أحياناً تنهرهن كراث: - يا بنات، أقصرن الحديث، وأسرعن في العمل. أنا المسؤولة إن تأخرنا.

كثير الصوف المجهز فبسطت كراث الحصيرة، واصطحبت إحداهن، ونجدتا الصوف بقضيب لدين. العجوز تصدر الأوامر وهي تدور حول الحصيرة:

- يا بنتي لاشين، أظن الجانب الأيسر أرق من الأيمن، أضيفي شيئاً من الصوف.

ظلت كراث تغمر المكنسة في الماء وترش به الصوف حتى لفت الحصيرة على ما فيها. وفي اللحظة نفسها شرعت الفتيات يغنين أغنية تنجيد الصوف: "يا صوف، أيها الصوف المنحوس، تنغززين في الأصابع الرقيقة فتؤلين فتاة الصوف..."

قالت إحدى الفتيات حين انقطع الغناء:

- يا جدتنا، الصوف ليس متجانساً. وهو وسخ. ورائحته منقّرة.

- ماذا تظنين سبب قولهم: صاحب الغنم هو المسؤول. - أجابت كراث دون أن ترفع رأسها عن العمل. - هذا أغنامة نظيفة جداً، والآخر يُبقِيها في الزبل. أظنّين أن كل هذه الكمية من أسرة واحدة؟

توقّف ججان على العتبة حاملاً عصير الإجاص وعيناه كلٌّ في اتجاه:

- هل من ترغب في عصير الإجاص؟..

- تناولنا منه يا ججان، ولكن لا أعرف ما تنوي لنا، - لم تدعه الفتاة السمراء يكمل كلامه.

- كُفّي عن المزاح قليلاً يا بزابز. - أخرجت الشاب، - احتجّت لاشين على سلوك زميلتها.

الفتاة التي مازحت ججان هي ابنة الحداد يَمْزُش، مرة أخرى نظر إليها ججان نظرة دافئة، وابتسم لها محدّثاً نفسه: "تشبه والدها. وفيها ملامح من والدها. غليظة الشفتين قليلاً، ولكن هذه الغلظة تزنيها. لم يكن فيها ما يغري حين كانت طفلة لا تعرف كيف تضم شفثيها. وانظر الآن ما أحلاهما. وفوق هذا تعرف المزاح"

- أنت لست عطشى، سأتركك إلى النهاية. - ملأ ججان الكأس وبدأ

بكراث. - خذي يا أمنا، عصير الإجاص كالروح¹.
أدارت العجوز ظهرها للشباب وشربت الكأس. ودعت له:
- ليعث لك الإله من يحبك كالروح! أنعشت قلبي.
تضاحكت الفتيات، وسارعت إحداهن:
- لا تقلقي يا نانا من هذه الناحية. ألقت بزابل مرساتها على ججان وانتهى.
علت أصوات الضحك والمرح بأعلى من سابقاتها.
كانت الفتيات يجرعن جرعة أو اثنتين من الكأس حريصات على أنفسهن،
ويُناولنها إلى الجارة. وكما قرر ججان تأخرت بزابل عن الجميع. وحين مدَّ
الكأس إليها أشعَّ الحب من عينيها. فارتجف ساعد ججان عفوياً. ولاحظت
الفتاة فابتسمت:
- إن كان ساعدك يرتجف دون قلبك فسأشرب هذه الكأس كي تكون روحاً
لي.
حدّث ججان نفسه فيما تشرب الفتاة: "ما أذكاه! أظنها توافق طباعي.
طُفْتُ على القرى أبحث بقلبي وها هي أمامي لا أراها..."
صدرت أصوات حديث من وراء النافذة. واتجهت عيون الفتيات إلى الشباب
المجتمعين وراء النافذة وراحاتهم على وجوههم.
- ما الأمر يا شباب؛ الأول مرة ترون فتياتنا؟ - سُمع صوت كولس من زاوية
البيت. - الأفضل أن تدخلوا إلى البيت وتأكلوا ملء بطونكم لأن عندنا من
اللحم المسلوق والمشوي، ومن الحساء، الكثير. وإن كنتم راغبين في مقابلة
الفتيات تروهن.
- لا يا كولس، الطعام لمن أُعِدَّ له، تعالوا يا شباب، - ناداهم أحدهم بصوت
أجش.
سُمع الصوت الناعم للعروس الرقيقة التي تنظر نحو النافذة:
- يا كُراث، استدعينا دون تمييز بين فتيات وعرائس شابات، وأشفقت على

¹ في لغة الأدبغة جناس ناقص بين الماء "بسه" بنصف فتحة على السين، والروح "بسه"

كُنْتُكَ!

- من كُنْتِي يا فتاة؟ - نصّت العجوز برأسها.
- أليست دكايس؟ ما أجمل العروس التي صارت جارة لك!
- نعم، صحيح، غير أن تراب لا يسمح لها أن تغادر إلى أي مكان يا صغيرتي. ولا أظنه يسمح لها بالخروج من الغرفة. - أطرقت كراث، وأضافت وهي تضحك في سِرِّها وتُغمغم: - وهل يُسعدك من عاش ورأسه في القدر!
- ودكايس ليست على حق، زوّجت نفسها من تراب بصحبة زوجها السابق. - قالت لاشين الفتاة السمراء الواسعة العينين.
- توقّفن عن هذا الحديث!.. - لامتّهن كراث، - ليست صحبة تراب ونطاي جديدة.
- هل كانت مجبّرة أن تتزوج من صديق زوجها السابق؟ ثم إنه أحدث... - ارتفع صوت لاشين.
- لتفرّج المرأة التي عاشت على هواها إلى الآن إن وحدث شاباً عازباً. - أدلت بزباز برأيها.
- أكانت عينك على تراب؟ - ضحكت لاشين.
- حاش لله! - عبست بزباز، - إن كان الأحذب أمام عينيك دائماً صرت مثله.
- لا تذمّي يا بنتي موفد الآلهة! سيحملونك إلى السماء... - بدا على صوت كراث ولونها رُعبها مما تقول.
- لا بأس يا نانا إن كنت سأعثر هناك على شاب مثل ججان. - أضحكت بزباز رفيقاً دون أن تضحك هي، ودون أن تنظر إلى بزباز. - لم تتزوج دكايس هذا الأحذب عن حب بل لأنها لن تجد غيره. ومن تتزوج من تراب متجاهلة عيوبه؟
- المسكينة دكايس لا حظاً لها. - تنهدت كراث، - لم يكن في القرية أجمل منها في صباحها. والآن ترين من حظ من صارت! كفاك حديثاً عنها. لا عتب على من تشتهي مائدة أو تتزوج رجلاً.
- دُعيت الفتيات إلى الطعام حين انتهين من لفّ الصوف. ولما اقترن من نهاية

الطعام توسلت بزائز:

- يا كراث، إحكي لنا حكاية أو خبراً نختتم به الطعام.

- وماذا أروي لكّن يا صغيرتي؟ - تأملت العجوز التي زاد الطعام وجهها اتساعاً وحمرة. ثم بدأت: - من أين آتي بما لم تسمعه، ولكن سأطلعكن على خبر زواج أحد شباب قرية ششحرس.

في أحد الأيام نزلت امرأة شابة إلى الماء تستقي فوجدت مشطاً ذهبياً. فرحت المرأة، واعتقدت أنها ستلحق بالأسر الغنية.

وفي اليوم التالي أخرجت ملكة الماء رأسها منه، وتوسلت: " أعيدي إليّ مشطي!" جزمت المرأة الشابة: " لن أعيده، أنا أبني الآن أسرة جديدة، وأنا أحوّج إلى المشط الذهبي منك"، ردّت الملكة: " لا تؤسّس أسرة بمالٍ مسلوب، لن ينفعك؛ أعيديه!" كانت الملكة تريد إرهاب المرأة الشابة، ولكنها لم تردّ، وعادت بدلو من الماء.

في الصباح لم تجد الصبي في الفراش. شكّت الأم في ملكة الماء فتوجهت إلى النبع. وما إن دنت من الضفة حتى صرخ الصبي وهو يكاد يغرق: " يا أمي أعيدي المشط إلى الملكة واسترجعيني منها"

يقال إن الولد نازّ ولكن ليست جميع الأمهات متشابهات. قالت المرأة لنفسها: " أنا ما أزال شابة، سألد كثيراً من أمثاله. لن أتنازل عن المشط الذهبي".

- تبّاً لها، ما أفساها! صرخت بزائز لا تطيق صبراً، وأضافت بسرعة: - لا أتخلّى عن طفلي بجبل من ذهب؛ فكيف بمشط!

- نعم يا صغيرتي، نعم. وافقتها كراث متنهدة، وأكملت حكايتها: - ما من خبر لا ينتشر. سمع كل أهل القرية أن ملكة الماء خطفت الطفل. وحضر الأهل والجيران إلى الأسرة المنكوبة، ولم يستطيعوا ثني المرأة عن موقفها. ولما ودّعت المرأة أقاربها وضع أخوها الأصغر المشط في جيبه وذهب إلى الماء. وفيما هو محتبئ في شجرة الصفصاف على الشاطئ جلست ملكة النهر على الضفة والصبي في حضنها. فاجأها الشاب من الخلف ولفّ شعرها الأبيض الذي يتجاوز خصرها حول يده. التفت فلم ير الشاب أجمل منها في حياته: عينان تشعان نوراً، وأنف مدوّر صغير، وشفتان كزهرتين. عشقها الشاب حالاً. نظر

متيمًا في وجه الفتاة قائلاً: "رُدِّي لي الصبي، جئتكَ بمشطك" قالت: "لن يفيدني المشط الذهبي بعد ما دخلت قلبي ولمست شعري، ولكن إن تزوجتني فسأرد إليك ابن أختك" قال: "وأنت سكنت قلبي، إن تزوجتني قبلت بكل امتنان". عاد الشاب وملكة النهر والصبي إلى القرية. ولدت ملكة الماء للشباب سبعة صبيان وصبية واحدة. ونشأ الشباب تعشقهم البنات، وكذلك أختهم الوحيدة يتخاطفها الشباب، هكذا يروي أهل ششحرس إلى الآن.

- يا نانا رغبتي في ملكة الماء. - ابتسمت بزابر متظاهرة بالحياء، - وأضافت بعدما مدت يدها إلى شعرها: - وها أنا على رأسي شعر جميل ولكن لا يجد يدًا تلتفّ عليه.

صدر من بين تضاحك البنات صوت:

- لفّ ججان شعرك على يده حين كنتِ تشربين من الماء!

- لم يلمسني بيده.

- لم تريه لأنك أدرت له قفا رأسك. أليس كذلك يا بنات؟

- صحيح، صحيح، وافق الجميع بأصوات مِرحة متقاطعة. - لفها بيده في قلبه، وضمها بنظرته الدافئة.

- هذا قليل عليّ، - مطّت بزابر شفتيها. - لو جرى الأمر كما زفّ الشاب

ملكة الماء إلى بيته... ما الفائدة إن لم تريه؟

- ها أنت في بيته؛ فأين تريدينه أن يرقّك؟ - مزحت معها لاشين.

- ليس إلى بيت ججان جئتُ، بل إلى غزل الصوف. - وجدت بزابر جواباً مناسباً.

غبطت كراث البنات اللواتي تسمع مزاحهن وضحكهن. وعادت بها الذاكرة إلى أيام شبابه. وحين كانت تجدد نفسها في سهرة أو في عمل تطوعي كانت تعتبر رفيقاتها أخوات لها كما تفعل بزابر الآن. "المرأة الضحوك خدّاعة للرجل ولكن بزابر تُضحك زميلاتها دون أن تضحك هي. هذه جديرة أن تكون امرأة، وتُسعد الرجل. ولو كنت مكان ججان لما تجاوزتها، ولكن هل ينظر إليها بعيني ويرى ما أرى؟ العجوز قلق، والشباب لا مُبالٍ، يظل يتأمل الأفضل فإذا به يقع في الأسوأ. من يضحك في سرّه لا تظهر أسنانه، وهذا ما ينكبك. بزابر

صورة عني أيام عزوبيتي، ما في قلبها على رأس لسانها. أنا سأفهم هذا الأمر لججان بطريقة ما " - أَلقت كراث نظرة وِدِّ إلى بزبز. وفيما تفكّر بصرف البنات عن العمل سُمعت أصوات رجال. وقف مشقوه على العتبة وراء ججان، فنهضت الفتيات:

- نحن نمتدحكَنّ هناك لأنكن اجتمعن للعمل في الصوف وأنتن جالسات على الطعام والشراب. هل يجوز هذا يا كراث؟ نظر مشقوه إلى كراث مبتسماً بوّد.

- من يعمل يأكل يا مشقوه، - قابله كراث بالمزاح أيضاً، - لم نتوقف عن العمل إلى الفجر. وهذا ججان شاهِدُنَا. لم يرض كولس إلا أن نتناول الطعام. تألم قلبُ مشقوه من عيون الفتيات الحادة المشرقة. وغلبه الاكتئاب: " أما كان من حظ الجميع لو كانت أختي الصغيرة حيّة؟ كانت سترافق هؤلاء وحولها يلعب صبيها الصغير "عاد مشقوه سريعاً إلى حاله، ورسم وجهاً طلقاً لنفسه، وقال لهن:

- جئتكنّ بخبر سعيد. كان عملكن في الصوف خيراً: رُزق الأمير ردد بصيّي. لم تملك بزبز إلا أن تقول على سجيّتها:

- سندهب مجتمعات لتهنئة أبنار.

- يا بنت، من يذهب للتهنئة في منتصف الليل؟! - لم تقبل لاشين.

- أماننا نهار كامل، - هدّأت كراث الفتيات. - استجاب الإله لدعائنا من أجل أبنار. كنا دعونا لها أن تعيش في بحبوحة، ويمدّ في عمرها، ويعيش أولادها، ولا يفتق ما تحيطه، تُخصّب نسل الأمير. بدأت بصي، فليكن المولود وأهله محظوظين، وليمد الإله في أعمارهم.

سألت بزبز بعد دعاء العجوز:

- هل جئتنا يا مشقوه إلى العمل فارغ اليدين؟

- وكيف آتي فارغ اليدين حيث أنت؟ جئتكم بملء قرية من ماء العسل. -

أضحك مشقوه الفتيات.

- هيّا يا فتيات إلى الصوف من جديد. - انصرفت كراث برفيقتها.

- يا نانا، رجت بزبز العجوز، - بلّغي رامبس السيدة الكبرى وأبنار تمانينا.

إن ذهبنا كلنا معاً أجفلناهم. - قالت بزابر بلسانها ولكنها اشتتت في سرّها: " الآلهة أنعمت على أينار. حلّت على أسرة محترمة. ورزقت بولد. أنا لا أطلب أميراً ولا نبيلاً. إن فهم ججان أن في مزاحي جداً حققتُ أُملي... "

عملت الفتيات إلى ما بعد الفجر. جهّزن الصوف الصالح للأكسية والطماقات. واختارت كراث من يصلح لهذا العمل. ووزعت الأخريات على مهام أخرى، ونصحتهن أن يستشرن أمهاتهن.

رأت بزابر ججان يودّع البنات فقالت: أظنه فهم ما أريد. وفيما هي تنحني لالتقاط كيسها الذي فيه عُدة عملها فاجأها العجوز كولس.

- إلى أين يا زعيم الخير؟ - استغربت كراث، وما هذا الذي بيدك؟
- أود إيصالك، - ابتسم كولس لكراث بنعومة، - لا شيء يعدل عملك من المساء إلى الصباح يا كراث، وما علّمته للبنات، أنا راضي عنك.
- ما هذا الذي بيدك يا كولس؟ - هل تريد أن تعطيني أجره؟ - غضبت العجوز ذات الوجه المتعب، - إن كنت تعبتُ فلأجل المحاربين.

- لا أعرف فيم تتكلمين الآن يا كراث، - ارتعب العجوز الحكيم، - ما الضير في أن آخذ هذا القدر من الطعام الذي في البيت؟ وهل سنعيش لا يقدم أحنأنا للآخر شيئاً؟ ما كنت لأحرمك من اللحم ولو دون ورشة الصوف. كم كان زوجك المرحوم إنساناً كريماً!

- تعال، - رضخت كراث، - قولك قول الآلهة. لا يمكن لأحد أن يغيّره.
سُمع وقع حوافر خيل فيما يوصل كولس كراث إلى بيتها. ونظر فرأى عدة فرسان يتوافدون إلى بيت الإمارة.

- من هؤلاء يا تُرى؟ - زمّ كولس عينيه ودقق النظر.
- عرفت قدان، وأربعة من شباب قريتنا. والاثنان الآخران لا أعرفهما إن كنت لا تعرفهما أنت. - ألقت كراث نظرة قلقة على كولس.

ترجّل قدان واستقبل العجوز.

- كيف حالك يا كولس؟

- وهل رأيت عجوزاً سعيداً؟ لا بأس، - اصطنع كولس ابتسامة وسأل قدان،
- من هؤلاء، ومن أين يأتون؟

- هؤلاء من الزبيخ. شيعوا الحاج المسلم.
- جئت بخبر سارٍ يا مبارك النسل. - وأين الحاج المسلم؟
- أأست يا كولس مُضيفه الدائم؟
- اختلف طريقانا إذن، - تابع العجوز مسرعاً.

IV

- يا ولدي، - التفت كولس إلى ججان، - أدخل الحصان الكستناوي إلى الإسطبل. وأنزل عنه السرج، وقدم له العلف والماء!
- كان الحاج المسلم جالساً لا يعرف تفسيراً لرائحة الغنم في المضافة الفارغة، وحين سمع صوت كولس نهض واستقبل المضيف واقفاً. تقابل الرجلان بوجهين طليقين وجلسا. ولما بدأ كولس يتأمل الضيف بعينين ذابلتين راجفتين قلق الحاج المسلم، وسأل وهو يمر بيده على اللحية الشائبة:
- هل ترى فيّ خطباً؟
- لا، تأكدت من شخصك. - عاد كولس إلى وعيه، - هذا أنت بلا شك، أتعجب من جلوسك في حضرتي. قلبوا الجبل والغابة فلم يعثروا عليك. افترضنا أنك صرت طعاماً للوحوش غير أن جثث رفاقك كانت سليمة. ولم نجد أثراً لملايسك.
- حماني الله يا كولس، - لمعت أسنان الحاج الصغيرة من بين لحيته وشاربيه، - حين هاجمنا المجرم نحلش تعثر حصاني فرماني في الوادي. لجأت إلى أسفل شجرة إذ لم يكن شيء في جسمي قد كسر، حتى تجاوزني اللصوص.
- ولماذا توجهت إلى الروسيغ ولم تعد إلينا ونحن على هذه المسافة القريبة؟
- كان المجرم سيقتلنا كليتنا لو رجعت إليك. لم يكن المجرم يحتاج إلى شاهد.
- لم يخطر لي هذا، - وافق كولس، - لم يكن ليردع هذا المهرج اللعين شيء عنك أوعني. ولكن الأمير ردد انتقم لنا منه فتشققنا به. ولعب بعقل حفيدي ججان فحمله على ارتكاب أخطاء كثيرة، ولكنه عاد إلى جادة الصواب، وأميرنا، أطال الآلهة عمره، ضمّه إليه من جديد. وما كان المجرم ليغفر له فأغار في منتصف الليل، ولما لم يجد ججان في البيت قتل الفتاة التي كان اتفق معها

على الزواج وأمها.

- أيّ مأساة رويتها يا كولس؟! لا يجوز اعتبار من يحمل روح الإجمام هذه إنساناً. أنا مررت بدياركم أكثر من مرة، ولكن لم أدخل إلى قرية مزبه حرصاً مني على حياتي، وحثراً من تعريض حياتكم للخطر.

دخل ججان فرحب بالضيف وسأل عن صحته وأحواله. ولما خرج أرسل إلى المضافة مائدة جاهزة إذ لا حاجة للطبخ.

- حين وقعتُ بين الروسيج - تابع الحاج المسلم كلامه وهما يتناولان الطعام، - كنت سمعت حكاية قانشاو خال الأمير ردد فقابلته. رجل ممتاز لم يمرّ أسبوع دون أن يقابلني مرة أو اثنتين.

- لا أعرف إن كان رجلاً صالحاً، غير أنه جاءنا بالروسيج لندفع لهم الإتاوة. - ضحك كولس ضحكة مرة. - لا يمكنك معرفة الإنسان ما لم تختبره عملياً. هو بريء في نظر هذا، ومذنبٌ بنظر الآخر.

- أنا رويثُ استقباله لي فحسبُ يا كولس. لم أعرف أن لقانشاو مثلاً هذه السيرة. - برأ الحاج نفسه، ولم يمض وقت طويل على معرفتي أن ردد قطع نخلش المجرم نصفين، وأنه أخضع الحكوف. وحين انفتح طريقنا ملثُ بقلبي إلى نواحيننا. أرسل قانشاو معي فرساناً من الروسيج، وأوصلني إلى بلاد الأديعة.

- التقيت بفارسين من الزيخ يقودهم شبابنا. يقال إنهما كانا معك. - نظر كولس إلى ضيفه نظرة قلقة.

- حبّذا لو ذهبنا حالاً إلى الأمير ردد يا كولس. - امتنع لون الحاج، وكفّ عن تناول الطعام. - أخاف أن يؤذّي الشابان البريثان.

- كلّ مطمئناً يا حاج. الأمير ردد حكيم جداً. بصره حاد، وشمّعه مرهف. - لا تؤاخذني يا كولس، - بدأ الحاج مع نهاية كلام كولس، - الأمير ردد وحفيدك ولداً معاً إن لم أخطئ، ورَبّياً على قولك وفعلك. ولهما روح واحدة. كيف انجرف ججان مع ذاك الرجل المجرم؟

- من الذي يسئُ الشوك يا حاج؟ - ساد الحزن عيني كولس المتعبتين. - الذكي يُنشئ نفسه بنفسه، والعقل لا يُباع ولا يُشتري. ولكن هذا أمرٌ آخر. أرى قلقك. رُزق أميرنا صيباً في الليلة الماضية فلنمضِ، نهنئ رامبس السيدة

الأولى، ونعرف ما جرى لفرسان الزبيخ.

سأل كولس وهما على الطريق القصير عما يشغل باله.

- أنا خالطتُ الروسيين مرة. وكنت التقيت رجلاً قوياً منهم في الأسر. ولكن لا يمكن معرفة هؤلاء من مثل هذه التجربة. أنت عشت بينهم؛ ما طبائعهم وما أحوالهم؟

- معتدون بأنفسهم يا كولس. وجوههم طليقة، لا حُبث ولا تمييز لهم بين الناس. ولا يعبؤون بالأمر بالدقة التي نهتم نحن بها. ولكن في جيشهم نظاماً قوياً. لا يخالفون قانشاو البتة رغم أنه من القسوغ. مهمومون لأن الموط والزبيخ لا يدفعون الإتاوة. وبينهم من يرى ضرورة محاربتهم. وما سمعته من قانشاو هو أن "من لا تلزمه بالحرب لا يدفع لك؟"

- إن كان يظن أنه سيربح منا فليأت! - رفع كولس صوته، - سيعود بعقاب بدلاً من الإتاوة. مضى العهد الذي نخبنا فيه الخزر.

- صحيح يا كولس، - وافقه الحاج، - وأنا لم يعجبني كلام قانشاو. أليس أديغياً مهما كان! ليس كل ما تستطيعه رجولة.

هنا كولس والحاج رامبس، ولما صارا على المسطبة لاحظت السيدة الكبرى أنهما مهمومان جداً بأمر ما. ولما هممت أن تسألها فتح ردد باب المضافة واستقبلهما طلق الوجه. ودعاهما إلى الدخول.

- ألا تتذكر يا أمير الحاج المسلم؟

- وكيف لا يا كولس! - ضحك الأمير ضحكة خفيفة. - يسرني أيها الضيف أن أراك سليماً بصحة جيدة. كنا قطعنا الأمل منك.

- يحدث مثل هذا يا أمير! - دخل الحاج المضافة قبل غيره ملتفتاً إلى الأمير. توجه الأمير إلى جاره كولس بعدما جلسوا:

- هل هناك ما يُقلق الحاج المسلم يا كولس؟

- نعم يا أمير، - هزّ كولس رأسه، - مهموم بمعرفة مصير الشابين من الزبيخ اللذين اقتيدا إليك.

- وماذا سيجري بمن شيعا الحاج المسلم حتى مزبه؟ أكرمناها بما عندنا من الطعام، وشيعناهما. ولكن حذر قدان في محلّه؛ بيننا أيضاً من لا تأمن لهم.

- وهذا صحيح يا أمير. - نطق الحاج من بين لحيته وشاربيه، - وأنا أيضاً شككتُ في أمرهما حين رافقاني. شريران في سِرِّهما، لا يزالان في طور الطيش والتوثب.

- ما العمل؟ هؤلاء أيضاً من قومنا... ألا يقولون: ما من أدغي لا يسرق، وما من بعوضة لا تلدغ. - ابتسم الأمير ردد، وغير الموضوع بسرعة: - ما الأخبار حيث كنتُ أيها الضيف؟ ما أخبار تربية خيول الروسيج، وما الأعمال التي يمارسونها؟

- ما يُقلق كولس يقلقك أيضاً يا أمير، - كرر الحاج ما رواه لمضيفه، وأتى على ذكر قانشاو دون التعليق عليه سلباً أو إيجاباً. ثم سأل هو: - ألا تعرف يا أميرُ سلطانَ الروسيج مستيسلاف؟

- إن كان يجوز أن تعرفه فأنا أعرفه. - عبس الأمير، - ثم ماذا؟ - سمعت أن مستيسلاف ينوي القدوم إلى نواحيكم. ليس اليوم أو غداً، ولكن المشروع قائم.

- على كلامك يبحث الروسيج عن ذريعة. - تظاهر ردد بأنه لم يسمع ما قالوا له بشأن مستيسلاف. ينوون مهاجمتنا بحجة أننا لا ندفع لهم الجزية. سنرى، سنرى. هذه عادة في كل زمان، من يبدأ الحرب يجن على نفسه. أليس صحيحاً يا ضيف؟

- صحيح يا أمير، - هز الحاج رأسه، - يقال إن مستيسلاف هذا أُستدعي إلى القسطنطينية بضع مرات، وضغطوا عليه. - ولماذا؟

- يريدون منه أن ينشر المسيحية بين سكان ضفاف البحر الأسود. - وإن لم نرغب؟ هل يمكن للقسوغ والموط والزيج التخلي عن ألهتهم؟ - الحق مع القوي يا أمير. الروسيج كثيرو العدد، وعندهم جيش ضخم، مجهزون، عندهم دولة وتقاليد. وها أنا رويت لكولس أن أوامر قانشاو إلى تابعيه لا تطأ الأرض.

"هذا ما نفتقر إليه، - شرد الأمير ردد حالاً، - يمكن أن تتقبل رغبة الأمير والنبييل في ممارسة سلطته في قريته. وإن تأكد أكثر لابسِي القبعات من

إمكاناتهم ألف كل دولة. لا يفهمون أن حال الدنيا الآن هي عدم إمكان استمرارنا في الحياة إن لم نتحد. مصر والروم وغيرها متى صارت دولاً؟ حتى هم لا يتذكرون!.. وهاهم جيراننا الروسيج توحّدوا وألفوا دولة فهزموا الخزر. الأشجار تتحول إلى غابة متى اجتمعت. والأصابع متى ضممتها صرعت بما من تضربه. ما الصعب في هذا فلا تفهم؟.."

- يا أمير لم أر شوباش منذ زمن طويل، أين هو؟ - قطع كولس أفكار ردد. - أخي الصغير؟ - انبعث المرح في نظرات الأمير الواجمة، - أنا نقلت إلى شوباش يا زعيمنا المبارك كل ما علّمتني من أساليب المصارعة واستعمال السيف وما إلى ذلك... والآن لا يفارق شباب المحاربين. ونحن أيضاً قلّما نراه. يسلم الأول للثاني، فلا تُضيع ما زرعتة فينا يا كولس.

- ليس كل ما يُدّر في الأرض ينبت يا ردد. - ارتاح العجوز لما سمع حتى لم تعد قبعته تسع رأسه. ونسي أنه كان أقسم ألا يذكر اسم الأمير دون لقب أمام أيّ كان. - أنا راضٍ عنك، وما بذرتُه في قلبك نما وأثمر. وهذا يمنحني قوة وإن خارت قواي.

- هذه طبيعة الحياة، - ألقى ردد على كولس نظرة حب. وأنهى بضحكة هازلة: - خذْ إن أعطوك، واركض إن ضربوك. هذا القول المأثور للروسيج الذين اندمج فيهم قانشاوا.

- لا تُدّر ظهرك للعدو بهذه الحجة. - رد كولس على الأمير بالمزاح أيضاً، - من تسمح له أن يرى ظهرك فاعتبره غلبك.

- جلسنا ما فيه الكفاية يا أمير، - نهض الحاج، - وأنا قطعت مسافة طويلة، ومضيفي لم يهدأ الليلة. كان عنده ورشة عمل تطوعي.

- أفرحتني يا زعيم الخير، - استوقف الأمير كولس: - فطنتك العظيمة تملأ قلوبنا بالأمل. ولكن إحرص على صحتك، لا تقم بعمل يؤذيها. لا تستعجلا، ستأتي الموائد حالاً.

- لا يا أمير، ونحن تناولنا طعامنا مع المتطوعات للعمل. - حيا الحاج الأمير وانصرفا.

بعد ظهيرة اليوم التالي دخل ججان إلى المضافة وقال لكولس وللحاج المسلم

بنبرة فرح مرئية:

- عندنا أيضاً ضيف كبير .

- من يقدم ضيفاً على ضيف فهو خير، فليكنْ خيراً حقيقياً علينا. - قال كولس في صورة دعاء، وسأل عنه: - من الذي جاءنا به الآلهة؟

- الرومي ديمتري.

- كأن هذا الرجل يريد أن يسلبكم عقولكم - غمغم المسلم الحاج غير مرتاح.

- وأنت يا ضيف لا أظن إلا أنك تبحث عن مدخل، ولو صغير، إلينا. -
بأدله كولس المزاح، - ولكن لم أصدق مطلقاً أن تعود.

- أعرف أنك لا تصدق. - وافق الحاج المسلم، - أنت كمن يقرأ الفأل.

- وما هذا؟

- الكتاب الذي يعرفون منه مصير الإنسان. لست وحدي يا كولس، عدد ممن يعرفون لغتكم اختلطوا بكم.

قال كولس في سرّه: " سيكون اختلاطهم بنا عبثاً، آهتنا مغروسون في أرواحنا. وآمالنا وأفكارنا متعلقة بهم. ودعاؤنا يصل إليهم"

استقبل كولس الضيف الذي كان يفك حزام سرج الحصان. فالتفت إلى الصوت، واستقبل مضيفه بذراعين مفتوحتين:

- ألا تزال بصحتك يا كولس؟

- يقولون: إذا مد الإنسان يديه فأمسك بهما. يسرني أن أراك، - عانق كولس الضيف قبل أن يكمل مصافحته. - اترك الحصان، ججان سيقوم بخدمته،
تفضل!

V

صاح الديك من البستان الفارغ، ولا ينقطع صوت مجرشة البندق. ومن المطبخ تنبعث روائح طيبة.

توقف الأمير ردد الخارج من الإسطبل وألقى نظرة على البستان. والتفت إلى الشمس الذابلة الآيلة إلى الغروب. ولمح تراب الذي كان يدخل إلى الدار. كان هنأني في الصباح مذكراً إياي بأنه تنبأ بصبي، أظنه جاء مهموماً بأمر ما:

- ما الأمر يا تراب؟ كأنك غاضب.
- ضيفٌ آخر عند كولس.
- أعرف.
- هكذا أفضل، لنذهب معاً إليه!
- ولماذا؟
- الحاج المسلم عاد، وديمتري لا تنقطع زيارته. وكلاهما لا ينوي الخير لنا. هذا يريدنا أن نعتنق الإسلام، والآخر المسيحية. إن أصغينا إليهما عاقبنا آلهتنا عقاباً شديداً يا أمير.
- أنا بعد عودتي من الأسر لا أريد رؤية أيٍّ روميٍّ كان. لم أر في تلك البلاد إلا كل ما ينفر.
- جرى هذا يا أمير قبل زمن بعيد. وما تحقق لك بعد الأسر لا يستطيع رومي وحيد أن يؤثر فيه. أتوسل إليك، إن كنتَ معي تجرأتُ عليهما. وطلبت منهما عدم التدخل في شؤوننا.
- الشكاكُ كسول يا تراب. لا تكتسب طبائع لم تكن فيك. - لم يح ردد لتراب بما يريد عبر المزاح.
- ليس اليوم كالأمس يا أمير. آلهتنا لا يقبلون تردُّد أناس غرباء علينا. - لم يكن تراب يستقر في مكان.
- كفى، هيا بنا، وعلى رأيك لن يقتلع رومي وحيد عيني. - سار الأمير دون حماسة مع تراب.
- ما إن تجاوز ردد عتبة المضافة حتى التفت ججان الذي كان يضع المائدة وسط الغرفة. ونهض الجالسون، وقال كولس:
- الرجل الصالح تنتظره مائدته؛ وصلت في وقتك تماماً يا أمير. تفضلاً!
- وفجأة ظهر نطاي وراء تراب. ولكن لا المضيف ولا الضيوف رفعوا عيونهم إليه.
- احتجَّ تراب في سرِّه: "لا أحد مثل كولس إن كان راغباً في لقائك. أما أنا فلا يفتح لي قلبه. ولا ينطق باسمي. يظنني ظلَّ الأمير..."
- مازح الأمير بحذرٍ كولس فيما يصافح الضيوف:

- ماذا إن حردتُ ولم أجلس إلى مائدتك يا كولس؟ أنتما لم تأكلا من طعامي. - وأكمل دون أن يسمح لكولس بما هم به، - أمزح فحسب، لا أستطيع التدلل عليك. ما خدمتي به دَيْنٌ أبدي. ولكني أحمله دون الشعور بثقله.

اختلس تراب لاوياً رأسه نظرة إلى الأمير. وحدت نفسه يغلبه الحسد " متى قُدت الناس علّموك ما لا تعلم، وأصبحت حكيماً بينهم. كانوا يعتبروني لَسناً ولكن الأمير غلبني. حمل الضيوف على تقبله منذ أن دخلنا، خالطاً جدّه بهزله ".

تناول المجتمعون على المائدة الطعام، مستمتعين بالجمعة، اللحم والبرك والسلامه... ولما رفع ججان المائدة وعاد، كان تراب يناكف الضيوف بصوت واثق.

- يا أمير، - ترك ديمتري تراب الآن وتوجه إلى الأمير. - عندك تجارب كثيرة. وليست قليلة الأهوال التي قاسيتها. واغفر لي إن آذاك بنو قومي، وإن لم يكن لي ذنبٌ شخصياً. في كل قوم صالحون وطالحون. وفي الأديان الثلاثة التي نتجادل فيها ما يستحقّ التصديق وعدمه. أنا أقابل الحياة والدين بالمعرفة.

- والنبي مُحمد قال " إقرأ " - استشهد الحاج في سياق الكلام.

- صحيحٌ ما قاله، - طوّر ديمتري أفكاره مرتاحاً. - ما يدافع عنه صاحبك وهو المجوسية جرّبها كثير من الأقوام. حين عجز الإنسان عن التصدي للعالم المحيط بنا غرز في الجميع قوة إلهية. الصاعقة تضرّبنا فتقتلنا، والماء يفيض فيغرقنا ويجرف محاصيلنا، ويأتي الجذبُ فيحرقها. والعاصفة تدمرنا؛ فاقنعنا أن لكلٍ منها إلهاً. ليس في المجوسية دعوة إلى دولة يا أمير. وليس فيها قوة تجمع وسائل العيش. ولا تُشعر الناس بخطورة سيطرة الأقوى على الأضعف. الجميع يتأملون حماية الآلهة كلها. وكلُّ مهموم بحماية ما عنده.

- هذه أفكار عجيبة، - قال الأمير ردد، وحُيِّل إليه أن عقله وصل إلى أفكار جديدة تتعلق بقومه. ولما همّ تراب أن يبدأ حديثاً أشار إليه بيده أن يصبر، وتوجه إلى الرومي. - إن لم تكن هناك آلهة فمن الموجود يا ضيف؟
- ما يمكن أن يوجد يا أمير إلهٌ واحد. - قال ديمتري بإصرار.

- وهذا ما يقوله الإسلام، - ساهم الحاج المسلم ثانية في الحديث، - لا إله إلا الله. والنبي مُحَمَّد رسوله.

- والأنبياء السابقون له؟ - سأل ديمتري الحاج.

- موسى ويوسف وهود وعيسى ومُحَمَّد كانوا الأنبياء، - أرسلهم الله إلى الناس. والقرآن يشهد بصحة نبوة هؤلاء. - يفصل هذه المعلومات بلغة فصيحة. - استلم الحاج زمام الحديث. - عمل الأنبياء على هداية الناس إلى الصراط المستقيم. وبينهم من ضحى بروحه. ولكن أكثر الناس ضالّون وظالمون. ومن أنزل الكتب المقدسة التي استمد منها ديمتري أفكاره هو الله. وأُم الكتب تلك وخاتمتها هو قرآننا العزيز...

- لا أجادلك في هذا، - استلم ديمتري الحديث مرتاحاً من الحاج، - أنا قرأت كتباً أخرى غير الكتب المقدسة. وما أريد أن أقوله يا أمير: دعونا نعود إلى الوراثة بعيداً ونعيد التفكير في تاريخ الجنس البشري. ما أنتم عليه اليوم أيها الأديغة مرّت به مصر وبلاد الروم وغيرها. كانوا مقسّمين إلى إمارات. واغتنت الإمارات من خلال احتلال أراضي غيرها. ولكن كان يغير عليهم قوم أسبق منهم في القوة فينبهونهم. ففهم الكثيرون ضرورة توحيد الإمارات. ومن لم يفهم أخضعوه.

- وفي نواحيننا يبدو أن الأكثرين فهموا ضرورة الوحدة. ومنهم من أخضعناهم. ولكني لا أرى أننا نمُدّ جذوراً. - لم يكتف الأُمير ردد قلقه.

- أعرف أن عندك بصيرة حادة يا أمير، - تابع ديمتري أفكاره متحمساً لها، - جمع الناس وتألّف دولة واحدة منهم مهمة مستقلة، وتطويع أفكارهم ومشاعرهم ورغباتهم مهمة أخرى. ومن يستطيع إنجاز هذه المهمة هو الدين. المؤمنون بالرب يفتحون قلوبهم لرجال الدين القادة، ويثقون بهم، ويوحدون لهم بأخصّ أسرارهم. وهذا هو السبب في أن الحكام يقرّبون رجال الدين منهم. وهم سيهابون الدولة المؤمنة بالرب. وسيتحلّون بالصبر، ويُعزّون الحاكم، ويحترمون.

تأمل تراب الذي كان جالساً منطوياً على نفسه من حوله بوجه مذعور. والتفت بوجه عابس إلى نطاي الواقف وراءه، شاعراً بأن البساط يُسحب من

تحت رجله، وصرخ:

- أيها الأمير، ويا كولس، - لماذا لا تُسكِتان هذين؟ نصغي إليهما كأن أفواهنا مكمومة. ألهتنا يسمعون كلامنا، ويرون أفعالنا. لن يغفروا لنا.

- لم يقل ضيوفنا ما يُرهبنا. - التفت الأمير إلى كولس، واستلم الحديث من تراب. - الموضوع الهام في حديثنا هو موضوع الدولة. يمكننا تجاوزُ أمور الدين. سمعتُ أن أمير الروسيح الكبير أَسْتُدعي أكثر من مرة إلى نواحيكم. أود معرفة صحة الخبر يا ديمتري.

- لا شك في هذا، - شهد ديمتري على صحة الخبر. - يلحون عليه في ضَمِّكم، أنتم وغيركم، إلى حظيرة المسيحية. أتباعُ الدين الواحد يتقاربون. وقبل هذا بعشرين عاماً فرضوا المسيحية في القسطنطينية على الأمير الكبير فلاديمير. وإن كنتم سمعتم فقد ساق هذا الأمير الروسيح إلى الماء وعمّدهم. وأظنّ أنهم سَيُليحون عليكم أيضاً.

- ليس عندنا مثلُ هذه النية الآن. - نظر الأمير ردد قلقاً في وجه كولس وججان وتراب، - ولكن جاؤنا مرة يريدون منا الإتاوة. وألحوا على الزبيخ والموط مراراً. عَزَّ الغريب لا يصبح حالاً، أليس كذلك يا ضيفنا؟

- صحيح يا أمير، - ضحك ديمتري براء، - ولكن من يجلب الإمرة ومن يحتفظ بها هو السلاح. القوي يحب دائماً أن يمد يده على الضعيف.

- ونحن جَمَعنا قوانا وبدأنا. لا يظنوا أننا ضعاف! - توخّذ قلب ردد وقوّته. - لن نخني ظهورنا لأحد، ولن نقف وراءه. وأنت يا ديمتري هل التقيت بمستيسلاف؟ ما طبيعة هذا الرجل؟

- لم أَلتق به فحسبُ بل تحادثنا أيضاً، - جلس ديمتري منتصب الظهر، وتابع مكتسباً الاعتداد من إصغاء الجميع إليه: - أمير يملأ العين جسداً وروحاً. محارب، ولا يمكن إنكار عقليته الدولية. ولاحظت أنه غير متحمس جداً لتلبية مطلبهم منه إجباركم على اعتناق المسيحية. ولكن لا أظنهم سيتساحون معه.

- وأنت والحاج المسلم، - لم يستطع تراب أن يضبط أعصابه فقال محتدأً، - لن تستطيعا إنجاز شيء! لن نحمل ألهتنا كرمي لدعايتكم.

- لم يكلفني أحد بنشر ديني بينكم، - برأ ديمتري نفسه مخفياً غضبه بصعوبة،

ولكني واحدٌ من التجار. من يسألني عن الدين المسيحي أجبه، ولا أجبر أحداً أن يسمعني.

- نحن لا نأتي إليكم طالبين أن تعبدوا آلهتنا، - لا يزال تراب متوتراً، - من طلبكم أنتم؟

- أليس حسناً أن نختلط ونتعارف يا تراب؟ - سأل ديمتري دون انفعال، وأضاف: - كان عند الروم آلهةٌ أكثر مما عندكم. ولكنهم آمنوا بأن لا وجود لأكثر من إله واحد. إن نتقارب نبادل علاقات تجارية، ونعمل معاً ونحتكّ ثقافياً. ها أنتم تحتاجون إلى معرفة الكتابة والقراءة. ونحن قادرون على مساعدتكم في هذا.

- ما أطلبه أمرٌ واحد، - لا يزال تراب مصرّاً على موقفه. ثم اختتم بما يريد، - الآلهة خلقوا أقواماً متعددة. - عيشوا أنتم على هواكم، ودعونا نعيش كما نريد.

" رومي لبيب، - قال ردد في نفسه، - يعرف الموضوع الذي يتكلم عليه. ولكن لن أبدل آلهتي متأثراً بما قاله. ولن أجبر قومي على التعمّد في النهر كما فعل الأمير فلاديمير. كلُّ يأتي في حينه. إذا كان الدين يصبح دعامة للبلاد فمن الصعب الاعتماد على تراب وحده. يجب التفكير في زعيم ديني..."

كان الأمير وموفد الآلهة يشيعان ججان. ولما صاروا وراء الباب توقف تراب لا يستطيع التنفس مدة. ثم قال بصوت منكسر:

- إن كنتما ستحدثان في موضوع خاص فأنا منصرف يا أمير.

- حسناً يا تراب، تصبح على خير. - لاطف الأميرُ تراب. - لا تجزع من حديث ضيوفنا! آلهتنا في قلوبنا. وليعبدوا هم آلهتهم!..

صاح ججان متعجباً بعدما اختفى تراب في الظلام:

- عجيّب أن نطاي لم يلحق بتراب!

- ألم تلاحظ أنه كان يصغي إلى الحاج المسلم باهتمام؟ والآخر طمِع فيه.

حسناً، كل إنسانٍ حرٌّ في أن يؤمن بأن إلهه هو "الله"! ونحن نخلص لآلهتنا...

- سكت ردد برهة وتابع بأخوة ودفع: - سمعتُ شيئاً لا أعرف مدى

صحته. حسنٌ أن عاد الدفع إلى قلبك، الحداد يمزج من رجالات القرية،

- وبزابر فتاة تلفت الانتباه. أَخْبَرْنَا متى قررت.
- مَنْ أَخْبَرُ إن لم أَخْبِرْكَ أَنْتَ يا ردد. تعال أَمْشِ معك قليلاً أيضاً.
- وفي هذه اللحظة صدر وَقْعُ خطأ من ورائهم.
- هذا أَنْتَ يا أَغْبَانُ؟ - تعرّف ردد حارسه.
- أنا يا أمير، أنا. كنت مشغولاً في مكان ما. - أَخْفَى أَغْبَانُ أن الأمير لا يغيب عن عينيه.
- استغرب كولس حين دخل ججان الغرفة وحده:
- أين الأمير الكبير ردد إذن؟
- اصطحب الحارسُ أَغْبَانُ، ولحقا بتراب يطيبان خاطره. - قال ججان بشيء من الرياء، والتفت إلى نطاي الواقف خلفه.
- ضيفاكما أذهلاني، كلُّ فكرة يطرحانها أعجبُ من الأخرى. - لم يملك نطاي أن يخفي ما يتعجب منه.
- لاحقاً يا نطاي، لاحقاً، - أجاب ججان باختصار. ووقف ينتظر كلام جدّه.
- لا تَوَاخِذْنِي أيها الحاج المسلم، سأعرض حصاني على ديمتري، لا أعرف ماذا جرى له. كئيب في الأيام القليلة الماضية، - نهض كولس، وكأن الحاج كان ينتظر هذه الفرصة، فضحك من شفّتيه، وأضاف:
- إن كان ديمتري خبيراً بأمراض الخيل فليعاينه، وأنا سأأْتِجُه إلى ضفة نهر بشده، وأُرَوِّجُ عن عينيّ.
- تذهب وحدك؟
- ها هو نطاي معي. أراه شاباً ذكياً. وإن سألت عن شيء وجدت عنده جواباً، أليس صحيحاً يا نطاي؟
- لن أَخْفِي عنك ما أعرف. وأرافقك بكل سرور. - توهّج وجه نطاي الناعم، ودارت عيناه في محجريهما.
- مشى الحاج المسلم متمهلاً، متظاهراً بالسؤال عن أصحاب البيوت التي يمرون بها. يَحْيِي كُلٌّ من يرى في الدور أو يَمُرُّ به، صغيراً أو كبيراً، وفي كل مرة يتأمل وجه رفيقه.

ألقى الحاج نظرة سريعة على النهر الذي تصطفق أمواجه وتتعثر بالصخور فتقفز فوقها، ثم عاد إلى ما في ذهنه، وأضاف:

- أصغيتَ إلينا، أنا وديمتري، جيداً يا نطاي. مَنْ مِنّا أعجبك كلامه أكثر من الآخر؟

- لم يخطر لي هذا السؤال، - صعقه السؤال غيرُ المتوقَّع. ثم صحا وأضاف: - لم يخطر لي المقارنة بينكما. أفكاركما غريبة عليّ. ولكني أقول، لا لأنك تسمعي، إن كلماتك رسخت في ذاكرتي أكثر من كلماته.

- لأنك أديعي يا نطاي، - ابتسم الحاج الذي يشرق وجهه نوراً في وجه محدّثه: - العرب المسلمون الذين أعيش بينهم أقرب إلينا بطباعهم وعاداتهم وعلاقاتهم. ويمكن القول إننا متشابهون. إن أتاها عدوهم ضيفاً رَحَّبوا به، وعاملوه بإنسانية، وقدموا له طعامهم. لا يغلقون أبواب دورهم. ويُعزّون الوالدين والأجداد. ويحترمون الأكابر سنّاً. يساوون بين الغني والفقير. ومن عنده مالٌ يعين من لا عنده. والإسلام الذي أعتنقه نشأ بينهم. وأعتبر كل ما في كتابهم المقدس قريباً منّا، نحن الأديغة.

- كلُّ ما قلّته لا يختلف عن عاداتنا. - ظهر من صوت نطاي استحسانه لما سمع. - ولكن ماذا سيكون مصيرُ آهتنا يا ضيفنا العزيز؟ ألم تر انفعال تراب؟ الأديغة كلهم بهذا التفكير.

- والعرب كان لهم آلهة متعددة يا أخي الصغير، - تابع الحاج المسلم كلامه بصوت الوعظ بعدما مسح على لحيته التي وخطها المشيب: - كانت الأصنام في بيوتهم ومعابدهم. ولكنهم اقتنعوا أن لا إله إلا الله تعالى، فحطموها. زادت حمرة وجه نطاي الذي لامسه البرد غيرُ الشديد، وصرخ مرتعباً:

- أبهذه البساطة يُراح آلهةُ الأجداد؟ هذا صعبُ التصديق.

- أنا رويت باختصار، ولكن الانتقال لم يتم في يوم وليلة. - قلق الحاج المسلم، - صدّقني يا نطاي أنا أروي لك ما جرى. وقد أذى الوثنيون النبي مُحدّداً كثيراً. وتعرّضت حياته للخطر. ولكن الله تعالى حماه. وسانده مَنْ آمنوا بأنه يبلّغهم كلام الله تعالى، ودافعوا عنه.

- ولكن ماذا بإمكاناني أن أفعل وحدي؟

- لا تبتس ما دام الله معك! النبي مُجَدِّ أيضاً حمل الإسلام وحده في البداية.
- لو عرف تراب لما أبقى عليّ حياً! - انقطع صوت نطاي، وتفحص المحيط حوله خائفاً أن يسمعه أحد.
- لا أطلب منك أن تقوم في القرية غداً طالباً من الجميع أن يسلموا. - كان الحاج المسلم يلامس قلب نطاي بصوت هادئ واثق مغروس في دماغه. - الدين لا يحتاج إلى صوتٍ عالٍ. ابدأ بالأقربين إليك وبمن تثق بهم. ومتى كثر أنصارك فلن يستطيع تراب أو غيره التعرّض لك. سأقول لك كما لو كنت رفيق تراب: بدأ بالصدّاقة، ثم وصل إلى الأصدقاء والجيران. وحين لمسوا تحقّق ما يقوله لهم آمنت به القرية.
- ليست مزبه وحدها، بل صار معروفاً بين القسوغ كلهم، والزِيخ، وأبناء قومنا الآخرين. - شهد نطاي على ما سمع مغموراً بالخوف والقلق.
- ليس الموضوع على ما تتصور تماماً يا نطاي، من لا يعرف تراب إلى الآن لا يزالون الأكثرية. أدعو إلى الله ألا ينقل كلامي بعيداً، أنا أو من ياله واحد. تراب لا يمكن أن يتكلم إليه أكثر من إله ولو افترضنا وجود أكثر من إله. ولا إله من أجل عرق واحد. ما عند أقوام العالم كلهم إله واحد. والقيوم على كل ما يحدث هو الله ذاته. ومن يرسله إلى الناس شخصٌ واحد.
- نظر نطاي وهو يبتلع لعابه إلى السماء المكفّهة. تجاوز بنظره نهر بشده، وتفحص الغابة الجرداء التي تتسلق الجبل غير العالي. ثم أفلت من فمه متنهداً ووجهه نحو البحر الأسود:
- ألقى في قلبي الارتياب أيها الحاج المسلم. وأخاف أن يسمعي آلهتنا.
- وجه راحتك إلى القبلة حين تبتهل إلى الله، وستسري الحرارة في مفاصلك شاعراً بأن الله ينشر القوة فيها. وسيرتفع إحساسك ويكبر قلبك.
- "أي إحساس يتكلم عليه هذا الرجل؟ - خجل نطاي ظناً منه أن الرجل يعرف عيبه. ولكن ما خطر له ملأه بالفرح: - "لو عرفت أنه سيعيد إليّ ذكوري لوقفت طوال النهار رافعاً يديّ إلى الشمس".
- لو أمّدتني هذا بالقوة التي أريدها، - ردّ على الحاج بصوتٍ مرحٍ، - لما بقي على الأرض من أخاف منه.

- لا تقل هذا يا نطاي، لا تُفارق مخافة الله قلبك!
- سأخاف منه، ولكن لن أحسب حساب أمثال تراب.
- لا إله إلا الله. - لا خوف إن حفظت هذا في صدرك. - ردّ الحاج بثبات.
- لا تياس إذ توجه الأمير ردد نحو ديمتري بقلبه. الرومي انتزع مني زمام الحديث، وروى للأمير ما يعجبه. وأنا كنت سأروي للأمير الكلام نفسه، حسن أن الأمير ردد ينوي أن يجعل من الأدبغة دولة واحدة. وفي هذا الموضوع يمكن أن يخدمه الإسلام ليس بأقل من المسيحية. ولذا على الأدبغة أن يتوجهوا إلى الله. وإن وقفتم إلى جانب ردد بدين واحد فسينظر إليكم الله من عليائه وستجدون في أنفسكم القوة. وستبنون دولة. لا يمكن قيادة دولة دون النظام والدين معاً.
- ما رأيك أن أقاسم الأمير الكبير ردد هذه الأفكار التي طرحتها؟
- لا، لا يزال الوقت مبكراً. لا يزال انطباعي عنه أنه متجه قلباً وعقلاً إلى أهتكم؛ لن يفهم. افعل كما قلت لك. ابدأ بالأقربين إليك. أراك شاباً وسيماً موفور العقل، ولا تخفى فطنتك. الله لا يقبل تعيير أحد بعيه، أستغفر الله، ولكن كيف تصبح مثل تراب الأحذب؟
- "يا أسفي! - أشفق نطاي على نفسه ولو أن المديح يسره، - أنا أفضل حذبة تراب على عيبي. لو كنت تعرف شكواي لما ناورت حولي إلى هذا الحد. أنا أعاني صراعات في داخلي لا تنتهي. وكثيراً ما أتمنى الموت. أنا أعيش في القرية لا فضل لي إلا أني ألبس قبة..."
- أراك لا تقول شيئاً يا نطاي! ألم يعجبك كل هذا الثناء عليك؟ - أجفل سؤال الحاج نطاي.
- بلى يا حاج أسمعك. وثناؤك ملأني اعتداداً. - كتم نطاي أفكاره المبهمة. - وأتعب من أهتنا. وأخاف من تراب. ليس الأمر كما تتصور. تراب رجل عفيف.
- هذا العنف والإجرام يتعلقان بقلب كل إنسان. تشجّع على ما قلت يظهر من الأقوى. - زاد الحاج هذه المرة إلحاحه. ألم تر صغيراً يصرخ كبيراً؟ هذا يعود إلى أن إيمان الصغير بنفسه أقوى. أنت أيضاً ملأ قلبك بالقوة والصلابة. تعال، ربما يقلق المضيف من غيابنا.

أوصل نطاي الحاج إلى دار كولس. ثم توجه إلى دكايس معتداً بنفسه.

- لا بد أنهم اهتموا بطعامك، الحبور يملؤك. استدار الوجه المدور الجميل وابتسم في وجه نطاي.

- أنا كالذب الجائع، هاتي كل ما طبخت. - ارتقى نطاي على المائدة وهو يفرح راحتيه. - لو عرفت إلى من كنت أتحدث لفرحت أنت أيضاً.

- من هذا الذي ملأك بكل هذه الثقة؟ - سألت دكايس وهي تضع مغرفة الباستا على المائدة دون أن تعير أهمية زائدة لما سيقول نطاي.

- بقينا على ضفة نهر بشدة، أنا والحاج المسلم، إلى أن لسعنا البرد. - غمس قطعة الباستا بثلاث أصابع في العصيدة، وملأ بها فمه. ثم أضاف وهو يبتلعها بصعوبة: - يتأمل مني الحاج أن أصبح داعية للإسلام في قريتي. أظنني قادراً على المهمة؟

- أيّ إسلام تخوض في حديثه الآن؟ - احتدت دكايس، - الحاج يشد إلى دين الإسلام، وديمترى إلى المسيحية، وقد يأتي غيرهما بدين ثالث. وأين نذهب بالهتتا؟ سيأكلك تراب لو سمعك. تلاحقه ليلاً ونهاراً. ألم تفهم إلى الآن طبيعة تراب؟ الأفضل لك أن تلزم ضعفك.

- ماذا؟ ألسنتك كفواً لتراب؟ - توقف نطاي عن الطعام، ورفع صوته وهو يشد قامته. - متى قررت فلن أترك مجالاً لتراب.

- بالله عليك أن تتوقف! - ضحكت دكايس. - أسد في حضرتي، ولكن كرر كلامك أمام تراب وانظر ما يفعل بك، ستتحول إلى قط عجوز هادئ.

- لا، لن أراجع. - توسل نطاي إلى المرأة متلهفاً على الطعام: - إياك أن تُفشي سرّي لتراب! هل توافقيني أنت؟ غداً سأقنع أحد جيراني وبعض أصدقائي، وسيدعمني أهلي. ومتى كثر أتباعي تركت تراب في الساحة وحيداً لا يعرف ما يفعل.

- لا تتأمل فيّ يا نطاي. لا أستطيع التخلي عن ألهتنا من أجل كلام صدر عن مسافر عابر. الأفضل لك ألا تُبرز نفسك. - تعلقت دكايس الآن بقلبها وعقلها بتراب.

في اليوم التالي التقى نطاي بتراب. بقي في الفناء بعض الوقت يخاف أن ينظر

في وجه تراب، كأن الأخير اكتشف حديثه مع الحاج المسلم، فدخل إلى الإسطبل، وقدم العلف للخيول. خرج تراب غاضباً كما البارحة دون الاهتمام به. نظر نطاي بضع مرات إلى الخارج، ثم وقف في الطريق ضجراً. وفيما هو يراوح في مكانه محتاراً رأى كراث. فاستقبلها مرحباً، وبادرها:

- هل سمعت يا كراث بمقدم الحاج المسلم؟
- وما المهم إن أتى؟ هل أتاكَ بالفطائر؟ - ناكذته العجوز.
- تحادثنا أمس وقتاً طويلاً، وباح لي بكثير من العجائب. أظن أن جارك تراب يخدعنا...

- يا نطاي، لا أريد أن أسمع أخبار المسلم ولا المسيحي اللذين تتكلم عليهما.
- حسمت العجوز الموضوع سريعاً. - لا تدع أحداً يسمعك تتحدث في أمرهما. ستحتقرك القرية.
- حسناً، كفى يا كراث، افرضي أنني لم أقل لك شيئاً إذن، ولم تسمعي. -
تراجع نطاي، وتوجه إلى بيته دون أن يعود إلى بيت تراب.

VI

لجم ردُّ الحصان فتوقف قدان الذي على يساره وسائر الفرسان وراءه. وراقب أغبان ما وراء أميره رافعاً جسده عن الحصان.

العشب الناعم كومه البرد تحت أقدام الشباب الصغار. وحول الشابين المتصارعين تحلق الآخرون. ووراءهم يسدد آخرون بالسهم على بيضة فوق رأس عمود. أحد الشابين المتنافسين على العشب الباهت أشقر ضخم، والآخر أسمر قصير. لفَّ الأشقر ذراعيه حول الأسمر ورفعته عن الأرض. ودار به قليلاً ثم طوح به في الهواء، ولكن القصير وقف على رجله. ومرة أخرى انقضَّ الأشقر الضخم على الأسمر الضئيل، وضمه إليه:

- من سيغلب في رأيك يا قدان؟ وأنت يا أغبان؟ - سأل ردد رفيقه باسمًا.
- الأشقر يتلاعب بالأسمر مثل كرة صوف. وما أسهل مثل هذا الشاب الضئيل عليه! - أجاب قدان واثقاً.

- من الصعب التأكد من النتيجة قياساً على الحجم، ولكن هذا الأسمر لن

يغلب الأشقر الضخم. أظنه لقمة سهلة لغريمه. - ليس أغبان واثقاً.

- صاحب القلب الجريء يغلب الدب. وصاحب الحيلة يغلب القوي. - لم يؤيد الأمير ردد الرجلين. انظرا، ها هو الأسمر القصير استدار، والآن سيسقطه بحركة رجل خاطفة.

وكان الأسمر القصير سمع كلام ردد ؛ ما هو إلا أن ألقى الأشقر الضخم على العشب.

- هؤلاء هم جيشنا المستقبلي، - أسعدت الحيلة التي مارسها الشاب الأمير. وتذكر أن ججان كان يصصره في بدايات تدريب كولس لهم في شبابهم. غبط الشباب وتذكر طفولته: " متى سيكبر ابني الصغير كهؤلاء ويصرع من يصارعه! "

خرج ردد من أفكاره العارضة، وتوجه مع فرسانه نحو الصبيان، فتنحّوا جانباً. وخفض رامي البيضة قوسه ونظر نحو الأمير. ثم عاد وحطم البيضة التي على العمود.

- هذه رمية ماهرة! - أثنى الأمير على الصبي. من يرم بمهارة يقتل غريمه، ومن تنب رميته يصصره غريمه. متى صرتم رجالاً وتوسّطتم ساحة المعركة فما تحتاج إليه ضربة السيف ورمية السهم مقدار طرفة عين. اجتهدوا؛ ما لم تتعلموه في شبابكم يصعب عليكم في كبركم. - وبعد سكتة قصيرة سأل الأمير الصبيان الذين وقفوا وراء رفاقهم:

- من منكم صارع قبل قليل ذاك الشاب الضخم؟
لم يُجِب أحدٌ. ثم تضاحكوا وأخرجوا من بينهم الصبي الأسمر الصغير ذا العينين الواسعتين:

- ها هو يا أمير!

- من علّمك المصارعة؟

- جاري ججان، - نظر الصبي في وجه الأمير وعيناه السوداوان تلمعان - عرفتُ هذا من حُطوتك، - وحدّثه بسرور ظاهر: - اليوم تتصارعون بالقوة والمهارة، وتتمرنون على الرماية وركوب الخيل. وغداً متى اكتملت قوتكم ووجب عليكم امتشاق السلاح نفْعكم كل ما تعلمتم. وصرتم منعة لنا وسنداً. تدربوا

دون ملل!

برُدُ الفصل القريب من الشتاء خفيف، وشمسه الباهتة تجاوزت الظهيرة قليلاً. ومن المواعد ينبعث دخان رقيق. في هذه الدار يُقَطَّع الحطب، وفي تلك حركةُ أغنام نشيطة. ودجاجة أمسكت بما العجوز تحتجّ في دار ثالثة. وكل هذا يرتسم أمام عيني ردد. وفي أذنيه نباح الكلاب المجتمععة هنا وهناك، وثرغاء الخراف، وخوار بقرة تطلب الماء والعلف. ولكنه، ورفاقه، كانوا اعتادوا على هذا كله.

كان الأمير راضياً عن المنشأة التي أمر بإنشائها خارج قرية مزبه، مرتاحاً إلى حرصهم عليها. الناس يفهمون حاجة الجيش إلى الإسطبلات، وساحات تدريب الفرسان، ومستودعات الألبسة والأسلحة. ويعملون فيها بكل إخلاص. ويمتزش ليس حداداً فحسب بل فعّال في حشد الناس ودفعهم إلى العمل. لا يترك أحداً دون عمل. ولكن من يحلّ محلّه في المحددة؟ المقاتلون يحتاجون إلى السيوف ورؤوس الرماح والخناجر.

- نحن سنعود إذن يا أمير. - قال قدان.

بقي أغبان مع الأمير وانصرف الآخرون فقيّم حارسه بينه وبين نفسه: "حارسي عاطفي خلافاً لما يوحي به شكله. وربما لا يتعامل مع غيري بهذا الشكل، لا يفتح قلبه لهم. ولكن من الصعب العثور على مثله في معاملة أمتنا وأبنار. يضحى من أجلهما بحياته. يقول أغبان دائماً: ليت لي شيئاً من عقل السيدة الكبرى "فيعمّق كلما سمعته يقول هذا مودّتي لأمتنا. طفت على السطح التبدلات التي تطرأ على عاطفة الأم بعدما رُزقت بحفيد. - لان صوت أمتنا. وبدت عليه نبرة تدليل، ولانت لهجتها معي أيضاً. وتكاد تحضن أبنار في قلبها. ولاح البريق من عينيها. وحين قررت تسمية الطفل آمني وعظّمها المبالغ في اللطف وكأنها ليست من ولدتي..."

طرق صوت الأم من جديد مسامع الأمير:

- ينتظرنا معبر الأموات بقلب بارد... متى تقدّمت في العمر لا يمكنك تجنّب التفكير في الموت، ولكن الأمل لا ينقطع ما دمت على رجلك. أقول لنفسي كلما نظرت في وجه الصبي: "هل يمكن أن أشهد هذا الصبي يمشي على

رجليه؟" ثم أَدْعُو إلى الآلهة بعد قليل: "لو شهدته وقد تزوج لفضلته على مال الدنيا"

- وهل أنت مُسِنَّة إلى هذا الحد فتياًسي؟
- كان يحدث أحياناً أن يعصر اليأس قلبي يا ولدي. أما الآن فلا يهمني بعدما زُرَقْنَا بالصبي. - كانت رامبس تريد طمأنة قلب ولدها، - نحن الأديغة نسمي الولد باسم جدّه عادة إن كان متوفى. لا تحزن يا ولدي كلما جئتُ على ذكر اسم والدك. ثم إني لا أنطق اسمه¹ ولكن لن أستطيع تحمل سماع اسمه، يَحْزُنُ اسمه قلبي فكيف أسمي الصبي باسمه؟ "زيش"² هو الاسم الذي اخترته له. أريد أن يكون الاسم حماية لِعِرْقِنَا، واستمراراً لأسرة الإمارة.

- لا اعتراض لي على ما اخترت يا أمنا، - تذكر ردد أنه غادر غرفة والدته راضياً عنها مطرَقاً، خجلاً من نفسه.

قفز تراب إلى الغرفة على أعقاب من يأتون بالمائدة فنهض الأمير الكبير لاستقباله سعيداً بلقائه:

- من السعد أن تصل والمائدة أمامك يا تراب، كنتَ قبل لحظات في بالي.
- إن كنتَ خطرْتُ لك بالخير يا أمير فليجعلهُ الآلهة خيراً. وإن بردت عواطفك نحوي فسأحترق في برد الشتاء الذي على الأبواب. - طغى على قلب تراب ما اعتمل فيه طوال النهار.

- أيّ بردٍ تتكلم عليه يا تراب؟ - أوقف الأمير عند فمه لقمة الباستا التي حملها بثلاث أصابع، - أنا صدري مشحون بالوساوس، ورأسي كأنه خلية نحل.

- وما الذي يُقلقك إلى هذا الحد يا أمير؟
- لا تقعدُ تنظرُ في وجهي، كل! - بدا على صوت ردد عدم ارتياحه لطريقة السؤال، ولكنه أضاف دون مزيد من التعمق: - تظنّني بلا هواجس يا تراب لأني لا أحتجّ ولا أشكو. لا يكفي أن نقنع أنفسنا بأننا ألفنا دولة. وهذا ما

¹ كان محظوراً على المرأة أن تنطق اسم زوجها.

² قائد جيش.

يُجرمني من الطمأنينة. يصدع رأسي، وبملاً قلبي همّاً تطويغ الدولة، ومعرفة أحوال الناس وصنائعهم، وحمايتهم، والنظام الذي سنتبعه.

تذكر تراب اصطحاب الأمير إلى ضيوف كولس رغم عدم حماسه، فأثب نفسه، معتبراً الزيارة نحساً عليه: " ليتك كنت تعرف ما يضطرم في قلبي... هل كنت اصطحبتك في ذلك المساء لو كان في رأسي ذرة عقل؟ لم يكفني إقناع القسوغ بما اختلقته لنفسه من لقب موفد الآلهة، فذهبت أجادل الرجلين المثقفين، فأفحماني أمام الأمير. لو كنت أعرف القراءة والكتابة، واطلعت على شيء مما قرأه ذلك الرومي لرأيت كيف أخسرته. أنا هنا أتردد عليك في اليوم مرة أو مرتين فلا أنسيك أهتنا ولكن أرى نظرتك إليّ. لا تعارضني بلسانك ولكن أرى في عينيك لامبالاة. تتجاهل أيّ فكرة أطرحها عليك، وتغيّر موضوع الحديث، وتتوتر منه. ديمتري الأسمر اللعين ذكّي، أتقن لغتنا، وعلمته غزير. يتكلم على دينه بطريقة جذابة. والأغرب من هذا إعطاؤه دوراً مهماً للدين في تأسيس الدولة. أعجبتني الفكرة ولكن كيف أحمل ديننا كل هذا العبء؟ لن يقبل أن يساعدني في هذا الموضوع، ولو رجوته، إذ أنه من دين آخر. وأظنك ستفهم أيّ لا أمتلك مثل هذه القدرة. ولكن لن أراجع في جميع الأحوال. وبما أن العادة أن يرافق رجال الدين الجيش في حالات الخطر فلن أتأخر عنه. ألن يقتنعوا مني إن عايشتهم ليلاً ونهاراً؟ ما لم تفعله لا يعد إنجازاً لك... " صحا تراب من أفكاره المتدافعة، وسأل الأمير:

- ألم تعاشر الروم؟ يمكنك أن تقتبس منهم.
- لو عايشتهم حراً لاكتسبت منهم علماً. والحقيقة أن اطلاعنا على طرائق حكم الروم والعرب والروسيج، وعلى نُظم دولهم لن يكون بلا فائدة. ولكن من الصعب تطبيقها على رعايانا لأن ما يُستعار يبقى موقوتاً. أعتقد أن الأفضل الانطلاق من عاداتنا وبيئتنا.
- كلامك حكمة يا أمير، - عادت الشهية إلى تراب بعدما فقدتها في الأيام السابقة، ولكن ما سمعه أذهله. - ظننت أنك حققت أهدافك حين جمعت أبناء قومنا، وألفت جيشاً في كل قرية.
- لو كانت حماية الدولة لا تتطلب إلا هذا القدر... - تكلف الأمير الكبير

ضحكة، - لاكتفيننا، ولقّفنا رجلاً على رجل. لا نزال بحاجة إلى جيش ثابت. لباسه وطعامه وسلاحه مهمة كبيرة. لا يكفي أن تجمع المال مرة واحدة. وعلينا أن نعيّن مسؤولين عن الزراعة والماشية وغيرهما. ولا يكفي أن نغزل الصوف وندبغ الجلود. في جبالنا وأنهارنا يكمن الذهب والفضة، فإن انتفعنا بهما عوّضنا ما لا نملك.

- ومن سينهض بكل هذه الأعباء يا أمير؟ - تعرّق تراب مما يسمع.
- الدولة نتاج العصر، - عاد ردد الذي يحتسي العصير اللذيذ إلى أفكاره، - من يقوم بأعباء دولتنا هو المؤتمر. كل ما يقرره المؤتمر فرضٌ على الجميع، وإن لم نفعل انتفت الطاعة في المجتمع. والمؤتمر عنده قيادة تقترح على المؤتمرين القضايا الملحة. وينفذ المؤتمر ما تفرضه متطلبات الحياة اليومية. والآن أخبرني يا تراب إن فات عقلي شيء. أنت موفد الآلهة، وأظنهم مهمومين بما يجب أن تصل إليه عقولنا.

- يا أمير، - أسبل تراب جفنيه وجبينه يتصبب عرقاً، - ما يخبروني به هو المطر والجذب والمصائب الشخصية، ونقيضها. وليس ما سردت عليّ من موضوعات لم تخطر لي، ولا الآلهة أخبرتني.

- كيف نوطّد أساس دولتنا يا تراب إذا لم نُعِنِ المجوسية التي نعتنقها؟ - شحب وجه ردد وكأنه يشكّك في الآلهة، - اهتجت حين رأيته أستمع باهتمام إلى الرومي غير أن في كلامه نصيباً من الصحة. وإذا كان للمسيحيين كل هذا الإيمان والإخلاص والطاعة لإلههم الوحيد، وإذا كان الناس ينشؤون على احترام القائمين على الدولة، ويربّونهم على تبادل الأفكار معهم، فلماذا ليس لأهتنا الكثيرين مثل هذه القدرة؟ وأنت وأمثالك من يجب أن يتحمل هذا العبء بيننا. وإيمان الناس بكم يجب أن يعودهم على طاعتكم. يجب أن نؤصّل عاداتنا، وننظم كيفية تنفيذها، ونحيا على العدل والاستقامة. العدل أساس الملك. وعليكم إيداع هذا المبدأ في قلوب الناس وعقولهم.

"ربما كان صحيحاً أن هذا واجبنا، - نهر تراب نفسه بنفسه، - ولكن لا أظني قادراً على تحقيق ما تتأمله مني. ولو أنني عرفت نفسي سأتحمل كل هذه الأعباء لما جعلت من نفسي موفداً للآلهة بل تعايشت مع عاهتي وبؤسي.

عاهتي أشعرتني بالإهانة. ليتني وُلدتُ قادراً على إقناع الناس بي بالقوة أو بالعقل..."

- لم تعلق بشيء على كلامي، - أخرج صوت ردد الأَجَشُّ ترابَ من خواطره السوداوية.

شكا تراب وحنجرته لا تعينه:

- أيها الأمير، يا ردد، نشأنا أنت وأنا في طفولتنا معاً، وكنت سنداً لي، لم تسمح لأحد أن يعتدي علي أو يهينني، وأعيش حياتي محتماً بك. سأتيك بكل ما يقوله لي الآلهة، وإن خطرت لي فكرة مفيدة لم أتجاوزك بها إلى غيرك. وسأعمل على تحبيبك إلى الناس، وحملهم على احترامك.

- ليس هذا مهماً جداً. ما عليك تحببه إلى الناس هو الدولة والنظام. - غلبت الشفقة ردد، - ما يخدم الناس به الدولة إنما هو خدمة لأنفسهم. لا يكفي أن تكتفي بحياة بيتك ومحصولك وماشيتك. ما لا تحميه وما لا تملكه سيّان. ما سبب تفكير الروسيح في أن علينا دفع الإتاوة لهم؟ أناسهم يعملون ويأكلون، ونحن إن دفعنا لهم فسيُعْثِنون إمارتهم، وهم يريدون زيادة وارداتهم دائماً. وكل ما يفيض عن حاجات الناس الضرورية من غذاء وكساء يجب أن يؤول إلى الدولة.

أنهى الصوت الصادر من وراء المضافة نقاش الرجلين. وبدا على تراب فرحه بخلاصه، فتنقّس ملء صدره، وعادت إليه الروح.

وقف أغبان منتصب الرأس على باب الغرفة:

- يا أمير، جاءك الروسيح برسالة شفهيّة.

- ما شأن الروسيح بنا؟ - نهض الأمير ردد. - أرسلوا وراء قدان، وليأت حالاً.

- أرختني يا أمير، سأنتزه قليلاً. - عاد الوعي إلى تراب واستعجل على الخروج.

- إن كنت ترغب في سماع الضيوف...

- لا يا أمير، - استعجل تراب مرة أخرى في الخروج، - أرهقتني قلباً وعقلاً. والأفكار التي فتحت بابها علي لا نهاية لها.

- يا أغبان، أدخِل الضيوف إلى الغرفة الأخرى إذن ريثما يصل قدان. - أمر ردد، وعاتب نفسه: " جهلنا باللغات مشكلة كبرى. لا حدود لما يجب أن نتعلمه في كل ناحية. نقرر إرساء النظام، ولا يخطر لنا أنه لا يقوم بالكلام الشفهي فحسب. ها هم الروم والعرب والروسيج الذين أتوا إلينا يثبتون كتاباً ما يقررونه. ونحن ما نقرره شفاهاً يزيد فيه من يزيد، وينقص من ينقص. ماذا يريد الروسيج يا ترى؟ ربما امتناعنا عن دفع الإتاوة..."

اجتمع في مضافة أمير القسوغ خمسة. رجال الروسيج الثلاثة الذين جلسوا مقابل ردد وقدان كأنهم إخوة: لحى وشوارب شقراء، وعيون زرقاء واسعة، وأكتاف عريضة متينة، وضفائهم الشقراء الطويلة تتدلى على رقابهم. تبادل الثلاثة النظرات، ثم بدأ الأوسط الكلام:

- أيها الأمير، نحن قادمون من إمارة الروسيج في توم - نقاش. أرسلنا ابن قومكم قانشاو، - كلما قال الروسيج جملة توقّف وانتظر ريثما يترجم قدان للأمير، - يرسل إليك وإلى قومك تحياته، ويدعو لكم بالصحة والسلامة. والآن حان دور المهمة التي جئنا لأجلها: قانشاو قائد جيشنا يودّ جمعكما أنت الذي نُكِّنْ له كل التقدير، وأميرنا الكبير مستيسلاف. وسيتصرف قائد جيشنا حسب الموعد الذي تراه مناسباً.

- اسأله يا قدان عن الموضوع الذي يمكن أن نتحدث فيه أنا وأمير الروسيج. هذا أمرٌ، والآخر: من الذي يودّ أن نجتمع: قانشاو أم أمير الروسيج؟ ابتسم الروسيج وأجاب باختصار:

- متى اجتمع أميران كبيران فهما يعرفان ما يتبادلان من حديث. هذا أمرٌ. والثاني: من طلب الاجتماع هو أميرنا الكبير مستيسلاف.

- أنا موافق إذن، - رضي الأمير بالجواب، - سأتي في الموعد، وسيكون معي رفاق من قومي. ولكن بلّغوا الأمير الكبير أنني لا أريد الاجتماع به في توم - نقاش. سنأتي إلى المنعة التي بنيتموها على الحدود بيننا.

- نحن ننفذ ما كلّفونا به فحسب يا أمير. - نهض كبير الروسيج فنهض الآخرون. - سنعود إن سمحتم لنا.

- لا أسمح لكم بهذا. - ردّ عليهم الأمير بابتسامة باردة. وتبادل الضيوف

نظرات حائرة. - المجيء شأنُ الضيف، والانصراف بيد المضيف. اقترب الليل، وقطعتم مسافة طويلة، تستريحون الليلة، وتسافرون صباحاً.

في الصباح الباكر ركب الروسيج الذين قضوا في مزه ليلة مريحة. وأرسل رد معهم فرساناً بقيادة مشقوه. وأرسل إلى أمراء الزيخ والموط أن يستعدوا خلال بضعة أيام. وبهذا "ذبح الأمير أرنيين معاً" كما يقول الروسيج: عبّر عن احترام للضيوف، وكلف قدان ومشقوه بإبلاغ الأمراء بوجهة سفره.

ولما حان موعد السفر ركب الأمير رد، وركب الفرسان الثلاثون المرافقون. كان ما يراه الأمير خلال اجتيازه قرى القسوغ، ثم قرى الزيخ يسر القلب: أقاموا في كل القرى مقرات للجيش. كان المنجّر من المقر كثيراً في قرية، وأقل في الأخرى. وفي بعضها لم يكادوا يشرعون فيه.

قضوا الليل عند أمير الزيخ أبج، واستأنفوا الطريق قبل الفجر. وقبل الصباح وصلوا إلى أرض الموط المصابقة لأرض الروسيج. واستقبلهم فرسان محاربون بقيادة الأمير قايت بعدما رأوهم من بعيد. مازح الأمير قايت الأمير رد باسماء:

- أراك تحمل سوطين كأن حصانك كسول إلى هذه الدرجة!

- لا تسخر من حصاني يا قايت. - ردّ رد على المزاح بمزاح. - يفهم كل ما تقوله. سيضرب حصانك بصدرة ويرميك عن ظهره. أحمل أحد السوطين إلى أمير الروسيج، وهل يمكن إلا أن نقدم له شيئاً؟!

- لم يستوعب عقلي كل هذا. - برأ الأمير قايت نفسه.

نظر رد إلى الشمس التي تَبَدَّد البرد القليل، وقال:

- الموعد المحدد يقترب. سننتقل لأنه ليس من عادتنا أن ننتظر أحداً أو ندعه ينتظرنا. ليبق مرافقونا الفرسان في هذا المكان. وستوجه، أنا وقايت وقدان وتيمرقوه وأبج ودامر، إلى أمير الروسيج. سنحتاج إلى تيمرقوه وقدان لأنهما يعرفان لغتهم.

- وأنا أعرف قليلاً من لغتهم، - ساهم الأمير قايت معتداً بنفسه.

- إذا كان القليل فأنا أعرف أيضاً، من يعرف جيداً فهو أفضل. - قابل رد قايت بضحكة مصطنعة.

وقف فرسان الروسيج وفرسان الأديغة في نسقين متقابلين على الحدود. وما إن

انتهيا من الاصطفاف حتى ترجلوا جميعهم. خرج قانشاو من بين الروسيج واقترب من الأمير ردد. صافح الجميع، ثم أشار بيده إلى البيت غير البعيد المقابل.

- تفضّلوا! أميرنا الكبير مستيسلاف بانتظاركم.

توجه الموفدون الأديغة إلى البيت المشار إليه.

- كيف حال أختي؛ أليست بخير؟ - الآن فحسبُ سأل قانشاو عنها.

- لا بأس، - اختصر الأمير الجواب.

استقبلهم على الباب رجلٌ ضخّم يقارب ردد حجماً، ولكنه أثخُن. جسيم واسع الصدر، ملتج أزرق العينين.

- أمير الروسيج الكبير مستيسلاف، - أشار قانشاو إلى من استقبلهم. ثم توجه إلى وفد الأديغة: - أمير القسوغ الكبير ردد.

جلس الأميران الكبيران متقابلين على منضدة طويلة لم يعتد عليها ردد. ووقف صحبُهما وراءهما على الجانبين. وحين تبادل الطرفان مراسم اللقاء المألوفة، استلم أمير الروسيج الكلام:

- أنا من دعا إلى الاجتماع يا أمير. ألقى أمير الروسيج نظرة من عينيه الزرقاوين الواسعتين على ردد، - أودّ أن نصبح جارين ودودين. لا يعرف أحدٌ ما في قلب الآخر ما لم يجتمعا. أتوقّع أن تنفق. يقول أبناء قومي: السلام سعادة، والخوف مهلكة. توقّعتُ أن تقدّروا خدمتنا لكم. إذ طردنا عنكم دون أن تخوضوا حرباً الخزَر الذين سيطروا عليكم سنوات. وسمحنا لكم أن تعيشوا بسلام. أنتم لا تريدون أن تدفعوا لنا. وتُعيدون من نرسلهم إليكم خالي الوفاض. ومن يقاوموهم بالسلاح ليسوا قلائل. وهذا لا يصلح أسلوب تعامل. نحن الروسيج عددنا كبير وأقوياء. إن وافقتم على شروطنا حميناكم. لا تغتروا بإبعادنا الخزَر والياسَ - ألان عنكم. سيظهر غيرهم غداً. الأقوام الطامعة في البحر الأسود من هنا ومن هناك كثيرة. فكّر في هذا بعقل الأمير.

- ما أريد أن أبلغه للأمير مستيسلاف، - نظر ردد متماسكاً إلى وجه قائد جيشه قدان، ثم عاد فتوجه إلى أمير الروسيج. - شكراً لكم على استئصالكم جذور الخزَر، ولن ننسى. ولكني لا أوافق على طلبك الإتاوة. كان هدفُ

غارات الخزر علينا نَهَبَ أملاكنا. وما تطلبونه هو المال نفسه. أنتم تريدون أن نعطيكم بلا حرب ما كسبه الآباء والأجداد بعرق الجبين لأنكم غلبتم الخزر. الآلهة خلقوا كل الأقوام كي تعيش متساوية تمارس عاداتها وتقاليدها. عيشوا أنتم كما تريدون، ودعونا نعيش على قدر طاقتنا. تُرجم للروسيج كلام الأمير ردد، فتفكّروا، فسأل أميرهم محققاً بعينيه الزرقاوين الكبيرتين:

- قلت " ألهتنا "، وأنا طُلب مني في بيزنطة أكثر من مرة أن أسألك رأيك في اعتناق قومك المسيحية. حتى الآن لا يُلحّون عليّ، ولكن سيأتي هذا اليوم.
- لا يجوز فرضُ أي أمر بالقوة. - لم يؤيده الأمير ردد في موضوع الدين أيضاً.
- لن أتدخل في شأن الآلهة الذين يعبدهم قومي.
- قلِقَ قانشاو. والتفت إلى تيمرقوه لا يهدأ في مكان. وتوسّل إلى الأمير ردد:
- لا تُخطئ يا ابن أختي. ما قاله الأمير مستيسلاف صحيح. الروسيج تعدادهم كبير جداً. وعندهم جيش ضخم لستم قادرين على مواجهته... دينكم المجوسي...
- أنا لا أكرر كلامي!... - قطع ردد حديث خاله.
- استمع أمير الروسيج إلى كلام قانشاو، ونهض وعيناه تلمعان. ثم قرع الطاولة، وقال باختصار:
- لن نُجهد أفواهنا عبثاً. ما لا يأتي به الكلام يأتي به السلاح.
- ونحن نعرف القتال بالسيف. - أجابه الأمير ردد وهو ينهض عن الطاولة.

VII

لا يسعد أحدٌ إلا على حساب غيره.

رفعت بزباز رأسها عن الثوب الذي ترفوه ونظرت عبر النافذة، فنفرت إذ رأت العصفورين على الشجرة يتحادثان بمنقاريهما. ولكن عصفوراً ثالثاً طرد الذكر وشرع يلعب مع الأنثى.

" الخطوة التي سأخطوها هي ما فعلها هذا العصفور... - امْتَقَعَت بزباز، - لو كانت آنست حية لكان لها صبي صغيرٌ يدرج على أرض غرفتها، ولما أحسن بي

ججان. ولكن ما ذنبي في ما حدث للمرحومة آنست؟ قضت على يد نخلش اللئيم. لم يكن قلبي يميل إلى ججان في ذلك الوقت، ولكن ما كنت لأسبب بإرادتي في وجع ظفر من أظفار آنست. لو كان لي أدنى علاقة بتلك المأساة لاختلف الأمر، وربما كان الآلهة قدّروا هذا. ما يقوله الناس صحيح: لا يسعد أحد إلا على حساب شقاء آخر. الحياة رتبت مستقبلتي وأنا في بيتي. ولم أطرّد أحداً كما فعل ذلك العصفور، ولم أسلب أحداً حُبّه. ولكن ما لمحت به لي إحدى صديقتي جعلني أتوحس: " ججان إنسان منحوس؛ فكّري!.. هجم على أبنار ولم يُفْلِح. والتجأ إلى الحكوف فلم يستقرّ بينهم. ودفع آنست إلى الخطيئة فتسبب لها بما لا يطاق من العذاب. وحدد لها موعداً ليتزوجها فقُتِلَت هي وأُمّها " إذا كان الآلهة قدّروا له كل نحس فما ذنبه؟ يشقى من براءة قلبه. أشفقت عليّ صديقتي: الأمر الوحيد الذي سكتت عنه هو انقضاء عام كامل على الموعد الذي اتفقنا عليه في الخريف الماضي. كان مشقوه بَشَرنا بمولد ابن أبنار ونحن نعمل في الصوف، وها هو يمشي خطواته الأولى بمساعدة جدته رامبس. وبعدها فعَلّها قريتنا العجوز فمات، فوجب تأجيل الزواج عاماً... "

- يا بنتي إن كنت انتهيت من رَفُو ثوبي فهاتيه! - أطلّ يمزش من خلل الباب. الجمرات تتواثب عليّ فتثقب القميص. ولا تنفع الستائر. قفزت بزباز فأعطت والدها القميص.

- انتهيت منه يا والدنا؛ لا أعرف إن كان سيعجبك.

- وأين مواضع الرفو إذن؟ - ارتدى يمزش القميص، - لا يبدو عليه أثر، كأنك تفوّقتِ على أمك!

- نان هي من علّمتني الصوف والخياطة فكيف أتجاوزها في المهارة؟ - أسبلت بزباز أهدايا الطويلة يغلبها الحياء.

- إن لم تفوقني على أمك فتعليمها عبثٌ. - ابتسم يمزش لابنته راضياً عنها. الشاب العامل معي بدأ يفوقني. سقى خنجراً للأمير ردد جديراً بأن يُعرَض في كل مكان.

- يا والدنا، المبالغة في المديح كالمبالغة في الذم. - توهجت وجنتا بزباز، - لا تمتدح عاملك، ولا تمتدحني! ستسبب لنا الغرور. مرّت علينا كراث صباحاً؛ ألم

تقابلها؟

- لا، - توقف يمزش بعدما انصرف، - ما الذي يقلقها؟
- سقفها يدلف.

- هذه مشكلة بسيطة. القصب الذي في موسمه يتمايل كِلحى العجائز. نأتي به في يوم، ونغطي به السطح في يوم.

- كنتُ طلبت من كراث بناء على طلب الأمير ردد تبليغك أن تصنعوا أطراف السروج، والركائب، والسيوف، فلم تشأ إزعاجكم.

- نعم، نصنع كل شيء إلا الأزقة والسياط. - لجام الحصان وتوابعه والركاب، والسوط ومقعد الراكب على الحصان... خرج يمزش من البيت وهو يعدد عن ظهر قلب تجهيزات الحصان.

لم يمض وقت طويل على عودة يمزش إلى الورشة حتى جاء ججان إلى بيت يمزش، وتسلل إلى غرفة الفتاة:

- كنت أود الحديث إلى يمزش، ارتحى نعلُ حصاني فصار يعرج.

- قلْ هذا لغيري يا ججان، - خابثته بزائز أيضاً، - ليس في بيتنا محددة.

- لا محددة فيه، ولكن فيه فتاة. ثم إنها خبيثة، ليست كأَيِّ فتاة... تظل تَوَجِّل موعداً من وقت لآخر. يكاد قلبي ينفجر. إن سألتك والدتك فأفِيعها بَحْجَتِي.

- سأجد ذريعة لأُمي. اتفقنا على يوم الأحد فلننتظر!

- ألم يكن الجمعة أفضل؟

- لماذا؟

- أخشى أن يفعلها أحدهم فيموت، فيحدث لنا ما حدث للثعلب.

- لم أسمع بهذا.

- قبض الثعلب في يوم جمعة على طائر فتوسل الأخير: "من المؤكد أنك ستأكلني ولكن قل لي في أيّ يوم" - قال الثعلب: "أليس يوم الجمعة؟" فوقع الطائر من فمه وهرب. "لماذا لم أحدد له موعداً أبكر بيومين!" عضّ الثعلب على شفتيه ندماً.

- لا يا ججان، - ضحكت بزائز، - وأنت لا تجعل من نفسك ثعلباً مرثياً.

وأنا لن أصير طائرًا فأطير. اليوم الذي قررته على الأبواب. أنت لا تعرف صعوبة أن أهجر بيتنا القديم. الموعد يقترب فيتوتر قلبي.

- سترتاحين قلباً وعقلاً متى صرت في بيتي يا حبيبتى الحوراء. - قابل ججان الفتاة مازحاً فأوقفته الفتاة بكفّيتها:

- ابق في مكانك! لا تتكلم على ما لم يحدث بعد. الأفضل أن تنتطق منجلك غداً مع بضعة رفاق، وتذهب مع والدي لجلب القصب.

- هذا عمل نصف يوم فحسب يا بزابز؛ اعتبريه منجزاً، - خرج ججان مرحاً جداً من بيت الفتاة، غير مستاء لعدم تحقق هدفه. وركب حصانه وعاد إلى بيته. ونهر نفسه معتبراً إياها مسؤولاً عن مرض جده. "سواء صدق أم لم يصدق فالكسل يغلبني. تضائل جدي فغدا كتلة صغيرة. أنا من أغضبه هذه المرة فدفعه إلى الاحتطاب. عرض نفسه للبرد أملاً منه أن يحفف عرقه. ولولا عصير الكالينا¹ لاستمرّ في السعال. وإن عرف ردد هذا لامني.

قبل أن يصل ججان إلى باب الدار اصطدم بما كان يحشاه: حصانا ردد وأغبان إلى المربط. دخل الحفيد خائفاً إلى مضافة جده. نهض الأمير الكبير قليلاً واستقبل ججان بفتور. وعاد فاتحه إلى كولس:

- هل تعرف يا زعيم الخير ما يستحق هذا؟ أن تُرْقِّصه بالسوط المعلق إلى عمود السقف. ألا تحجل من إرسال العجوز الفاني إلى الغابة للاحتطاب؟ - قال ردد بين المزح والجد. - لولا معزّتك عندي يا كولس لاتنقمت منه متجاوزاً صداقتنا.

- سامحني يا جدي، أنا مذنب يا أمير. - اعتذر ججان جدياً. - أغضبت جدي وأنا أوّجل من يوم لآخر. - لم يجرؤ في حضرة جده أن يأتي على سيرة الزواج. وإن مضى يوم لم ير فيه بزابز بقي مشغول البال عليها طوال الليل والنهار. وأكثر ما كان يقلقه هو الابن الأصغر لحقار الذي يتعقب الفتاة باستمرار فيخشى أن يرتكب حماقة كذلك التي ارتكبتها هو بحق أبنار، فلا يغيب بيت يمزش عن ناظره البتة.

¹ شُجيرة ذات ثمار حمراء صغيرة تستعمل دواءً.

- هل تظن يا أمير أن من دفعهم إلى القول: "من لا يسمع الكلمة ابن كلب" هبط من السماء؟! إنه واحد من أمثال حفيدي. - غير كولس كلامه باسمًا: - على ما تقول ليس الحكوف متحمسين لتأليف الجيش. هل يريد دامرُ أميرُ قرية "ليغوتك" أن يفصل بقرته وحدها عن الدولة؟

- لا يا كولس، دامر لا يألو جهداً. - برأ ردد أمير الحكوف، - أقنع أبناء قريته. والآخرين يعتمدون علينا. يقولون إننا لن نستطيع إيقاف من غلب القسوغ والزيوخ والموط، ووصل إلى الحكوف ولو كنا عمالقة. وأنا سألتهم: "ماذا إن لم يأت العدو من الغرب بل من الجنوب؟ فيضحكون ويردون إن الأبحاز والويخ لن يسمحوا لهؤلاء بالتقدم. "وإن هاجموكم من البحر الأسود؟" قالوا: "من يجتاز البحر الذي لا حدود له إن لم يخرج سكان البحر من قلبه؟" لم أستطع إخافتهم بهذا أيضاً.

- الحكوف لا يوافقونك، أناس عجبيون. - هز كولس رأسه وهو يسعل سعالاً خفيفاً، - ولكنك حملت الزيوخ والموط في نواحيننا على إنجاز عمل عظيم. جعلت القرى تجهز ميادين تدريب الشباب، وتحث الأرض البور التي كانت مهملة. ويسرني أنهم يساعدونك بما يفيض عنهم في تجهيز الجيش. وما أعده أهم من كل شيء هو قضاؤنا السنوات القليلة الأخيرة في أمان. بقيت قلقاً بعد اجتماعك بأمير الروسيج.

- وأنا رأيت أمير الروسيج ليس ممن يطلقون التهديدات جزافاً. - بدا التفكير المرهق على وجه ردد، - أظنه يجتمع قواه.

- وأنت يا أمير زوّدت أبناء قومك بقوة جيدة. - ألقى كولس نظرة دافئة على الأمير، - أنجزت كثيراً من ترتيبات بناء الدولة. عقلك يستوعب الكثير، ولكن هناك مهمتين أخاف ألا تتحققا لك.

- وما هما أيها الزعيم المبارك؟ رفع الأمير رأسه فجأة.

- لم يَنْ الأديغة قلعة طوال تاريخهم. كانوا يعتبرون من يحتمون بالحجر جنباء. والأمر الثاني هو أنك لن تستطيع تأسيس جيش دائم. اعتادوا أن يتجمعوا ساعة هجوم العدو. وها هم شبابنا يسرقون خيولهم من الإسطبلات العامة التي أمرتُ ببنائها ليذهبوا إلى حفلات الجابشه في القرى أو إلى الأعراس.

- ومع وجود الحراس؟
- وهؤلاء أليسوا أديغة؟ كلهم من جنس واحد، ويعرف بعضهم بعضاً. لا عجيب في هذا.
- وما المانع أن أعرفهم يا كولس؟
- لا تعاندهم! من الصعب تغيير طبائع القوم. لن يقتنعوا بين ليلة وضحاها. سيتآمرون عليك بقلوبهم. اجث عن أشخاص أقوياء نشيطين، لن تستطيع وأنت قائد القوم إخضاع الناس كلهم. وبينهم من يجب إجبارهم. هل تتذكر أقوال ديمتري؟
- وكيف لا أتذكر! اكتسبت منه أفكاراً حكيمة كثيرة.
- لا أهجر ألهتنا بحجة أن الرومي حكيم. أنت وأغبان وهذا الشاب الواقف معنا وغيرهم لا يزال آلهتنا في قلوبنا، ولكن أفكارنا لا تلتقي. ليس عندنا من يزودها بالمعرفة. ولا أرى من يرشدنا إلى الصراط الصحيح، ويحمينا ممن لا فائدة فيه. لا أحرصك على تراب ولكنه لا يصلح أن يكون رجل دين. حصانك أنفع لك من أن يساندك من طبيعته الحسد، ويتدخل في غير ما يعنيه.
- هذا صحيح جداً، - نظر الأمير ردد بحذر. ولكن لا أعرف ماذا تقصد بتدخل تراب في ما لا يعنيه.
- ما شأن تراب بمعالجة المرضى بحجة أنه موفد الآلهة؟ لم أر أحداً انتفع من طبه.
- يخدع أمثال نطاي السليم النوايا، - ضحك الأمير مازحاً. - سأجعله يُقلع عن هذه الممارسات. ولكن مهمة تأليف قلوب الناس، وتطويعهم على القبول بنا خارجة عن طاقة تراب يا كولس. ولا يظهر منافس له يتمتع بالمعرفة.
- دهم يحثون في القرى الأخرى. لا بد أن يظهر في القوم رجال يؤمنون بالآلهة، ويؤلفون بين قلوب الناس. ويحملونهم على تقبل النظام. ألم يكن رجل الدين مع الأمير مستيسلاف؟
- نعم، كان معه رجل دين ينحني له كبارهم وصغارهم. ويرسمون الصليب لمراه.
- هذا ما قاله ديمتري. وهذا الاحترام له يعود أخيراً إلى الأمير. وأنت بحاجة إلى مثل هذا الرجل. لا تخدعك فصاحة تراب إذ أن كلامه بلا مضمون.

وفيما الأمير ردد منصرف وقد استفاد من الجار العجوز ما يشغل البال، وما يرفع الهمة، ألقى نظرة على أغبان الماشي وراءه، وامتدحه بينه وبين نفسه: "ما أعظم صبرك يا أغبان: لم تنس كلمة طوال هذه المدة. الآلهة الذين حنوا عليّ منحوني إياك..."

- تعال يا ججان، - قال ردد لصديقه، - سنمر على كراث ونخبرها أن سطح بيتها سيُغطى غداً.

- المقرر أن نجلب القصب غداً.

- زاد عندنا كثير من القصب من سطوح الإسطبلات. وسأرسل الزيادة إلى كراث. - ثم زاد بعد غمزة: - إن رافقكم حموك القادم فستنتهون إلى الظهر.

- لتتزوج أولاً!.. - ضحك ججان.

- أليس يوم الأحد؟

- نعم، إن لم يحدث شيء إلى وقتها.

- هل كُتبت كل المصائب على جبينك! - استوى ردد على سرجه.

ذهبت كراث إلى الجارة العروس الجديدة تطلب مساعدتها في إعداد الطعام للعاملين في سقف البيت. وجدتها في الفناء فترجتها:

- تعالي يا صغيرتي صباح بعد غد. وهاتي معك غدة الفطائر من رقاقة ومدرجة، عندنا عمال متطوعون لتغطية السطح.

- ألا تستأذنين لي من تراب! - أسبلت ذكابس محرجة.

أنصت تراب من خلل الباب حين سمع أصوات حديث.

- ما علاقة تراب إذا كنت تريدان مساعدة جارتنا العجوز؟ - خرج نطاي من خلف البيت يسبقه سؤاله.

فتح تراب الباب وفاجأهما كنسرٍ يستعد للانقضاض:

- ما الذي يجعلك تؤلِّب عليّ زوجتي؟! - أخرج من داري حالاً!

- كلبٌ من عضك يا تراب؟ - عنفت العجوز جاراها.

- وأنت لا حاجة لي إليك فتعلميني! - استدار تراب الذي كان ينوي مهاجمة

نطاي نحو العجوز. - أtestنفرين القرية كلها من أجل سقف بيتك؟ أطعمهم أي شيء من عندك وكفى!

- لا بارك الآلهة فيك! - لم تتراجع كراث. - أهذا ما يخرج من فم موفدهم؟! أنا أكبر من المرحومة أمك بسنوات. أيها المجنون، ظننتك ستأتي قبل الجميع كما يفعل الرجال، وتساعد العاملين في البيت.

- لستُ المجنون يا كراث، بل هذا الواقف أمامك، - هداً تراب صوته مرتجفاً. - ساحيني إن أسأت الحديث معك. نطاي من وتر أعصابي. يحاول أن يرمي العداوة بيني وبين من لم يستطع إرضاءها. أما طلبت منك الخروج؟ ماذا تنتظر؟ - ماذا جرى لك؟ - نظر نطاي أيضاً في وجه تراب غاضباً - هل سينكسر ظهر دكايس إن ساعدت الجارة العجوز!

- لن ينكسر ظهرها، بل ظهرك! - هجم تراب جاحظ العينين فأمسك بتلايب نطاي.

- ماذا جرى لك يا تراب؟! - أرعب صوتُ ججان تراب.

- وماذا سيجري لي؟ أغضبي نطاي... يا أمير أهذا أنت؟! تفضل، حسناً فعلتم إذ جئتم. - تعيّرت في الحال نيرة تراب.

- أنت يا كراث من نبحت عنها. - توجه ردد إلى العجوز كأنه لم يسمع شيئاً. غداً موعدنا للعمل عندك، وليس بعد غد. القصب جاهز، أخبرك كي تطمئني.

- ما أحقك بالشكر يا ردد؛ كم أفرحتني! - استقبلت كراث الراكب وهي تبسط وجهها المحمر الجامد. - لن أنسى أبداً أنك تركت أعمالك وجئت بنفسك من أجلي. صرت مثل والدك المرحوم لاورستن تماماً في الرحمة. ليُمَدِّك الآلهة طويلاً في قيادتنا!

قفز تراب من الدار ليودّع الأمير الكبير، ولكن الأخير انصرف غير مهتم به، فعاد إلى البيت مكسوفاً.

- هيا يا كراث أشيعك إلى بيتك. - رافقت دكايس جارتها شاعرة في نفسها بالقوة. - إن كان هذا موقفه فلن أستأذنه بعد اليوم في شيء.

- يا صغيرتي ماذا جرى لتراب حتى يتغيّر كل هذا التغير؟ - لم أسمعته إلى الآن ينطق ما لا يجوز؛ دعك من أن يتوتر.

- بقيت أنصحها ولكن لم يفهم حتى اصطدم بنفسه بالمشكلة. إذا كان تزوجني

فلماذا عليه أن يصحب زوجي السابق دائماً؟ - شكّت دكابس، - اعتاد تراب على الكسل مكلّفاً نطاي بكل أعماله. ثم إن الوضع لا يستدعي أن يرتاب في مع زوجي السابق. تراب يعرف أن نطاي المسكين محروم من الفحولة تماماً. عنده إذن همٌّ آخر.

- وما هو يا دكابس؟ - دنت العجوز منها كأنها ستوشوشها.

- ألم يأت ضيوف إلى كولس في خريف العام الماضي؟

- نعم، الرومي والحاج المسلم.

- قلب زوجي ظهر الميجر لي منذ اجتمع بهما. ولو عرف أنه سيتحول هكذا لما خطوَتْ خطوة خارج بيتي.

- هل سحره؟

- لا أعرف ماذا فعلوا به. كان ذهب إليهما مع الأمير قائلاً في نفسه: " لن أسمح لهما أن يأتيا بعد اليوم " وعاد كقط ليلي خائب. كان روى لي بعض ما حرّ في نفسه. شعر بالإهانة لأن أميرنا فتح باب الحديث للرومي ولم يُعره هو اهتماماً. وأنا قلقة أيضاً لتغيّر تراب ليلاً ونهاراً منذ تلك العشية. وفي تلك الأثناء كان نطاي يدخل دارنا لأول مرة بعد أسبوع من زواجي. ولكن تراب لم يعد يحتمل نطاي مهما قال أو فعل. وهو الوحيد الذي يقدر عليه. واصطدم بي أنا بضع مرات. أجبرته بالمناكفة أن يكفّ عن التعليق على طبخي. وكلما عرف أن الأمير الكبير مقيم هُرع إليه، ولكنه يعود دائماً بمزاج سيء.

- أكانا يصطدم معه في تلك اللقاءات؟

- لا، لم يتبادلا أي كلام مسيء. ولكن يُخيّل إليه أن عواطف الأمير نحوه بردت.

- يا صغيرتي، تراب معوق، ولكنه لا يفتقر إلى العقل. - همست في أذنها كراث متلفتة حولها، - عنده شكٌّ ما فيه، نعم، نعم، لاحظتُ هذا حين لم يلتفت إليه الأمير بعدما حاول متابعته.

- هل يغفر لك الأمير ردد بعدما سمعك وأنت موفد الآلهة تصرخ وتعيّف؟! لا شك أنه سمع كلامه الجارح لك أيضاً. لا يمر يوم دون أن أستجوبه ولكن يزعم أن لا شيء مهماً، وأنا لا أصدق. كان في الماضي كمن يريد أن يلتهمني في أي

وقت، والآن فقد حرارته نحوي.

- هذه مرحلة وتميّز. لا تجادليه لهذا السبب، - نصحتها كراث. - لا نار بلا ربح. - سيمحو الزمن أحزانه. ألم تسمعي يا دكايس أن أبنار حامل أيضاً.
- ما أسعدها!.. - صدر من دكايس صوت شهوة ناعم. - يكاد الصبي الأول يدرج على أرض الغرفة.
- وأنت يا دكايس احلمي لثراب! - ثم همست كراث في أذن الجارة حتى لا تخرجها: - الطفل يشدّ غُرّ الأسرة يا صغيرة!
- اكتفت دكايس بالتنهّد.

...

- حاول ججان ألا يدخل مع الأمير حين وصل الفرسان الثلاثة إلى الباب، غير أن ردد ألحّ عليه:
- تعال، تعال، نتعشّ معاً، وتكلم ثانية على إرسال كولس المسكين إلى الاحتطاب.
- صدّقني يا ردد لم أرسله كسلاً مني، - برأ ججان نفسه، - لا يحلّ عنا ابن حقار الأصغر زيار، لم أخبرك ولم أخبره، يريد اختطاف بزائز مستغلاً الوقت الذي نذهب فيه إلى الاحتطاب. يأتي كل يوم إليها مع رفاقه الأوباش.
- وماذا تفعل متى دخلوا؟
- وماذا أفعل؟ هل أنقض العادات؟ أخرج وأراقب من الأنحاء.
- وكيف تتصرف بزائز مع الخاطب؟
- تقول إنها لا تطيق رؤيته.
- فتح ردد باب المضافة فوجد أبنار جالسةً على جلد الدب تلعب مع زيش الصغير. وحالما رأت رفيق زوجها اختطفت الصغير وهربت.
- اسمحي لي يا أبنار أن ألمس رأس صغيري. - تابع ردد المرأة المنصرفه، - أخجل أن ألمسه حين يكون مع أمنا، وأنت تهربين.
- سامحني على أني كنت في المضافة ساعة دخولكما. - أجبرني الصغير على الدخول، ولكن لا يتصوّر صاحبك أننا اتخذنا من المضافة ملعباً.
- حقاً كنت طائشاً في وقت ما يا أبنار ولكني قادرٌ على أن أفهم موقفك. -

أطرق ججان محمراً الوجه.

- يرضيني أن تقول هذا، - أنزلت أبنار الصبي، وصحبته إلى الخارج.

- امرأة عنيدة، - تابع ردد المرأة المنصرفه.

- لا أعتب عليها. - لم تقتر عليّ. - نظر ججان في وجه صديقه مُقراً بذنبه.

VIII

من يكتمل عمره يتلهف على الزواج، ومتى وصل إلى هذا الواجب ارتعب.

تجاوز ردد هذه المرحلة منذ زمن بعيد. ومن أحبها صارت في بيته. وجاءته بصبي. ومن يدري غيرُ الآلهة، قد تأتبه بصبي آخر بعد بضعة أشهر. ولا يندم على اختياره شريكة عمره. ولا ينقص حبه لها إن لم يزد كل يوم. ولكنه تذكر حين نظر في وجه ججان، مسترجعاً ما عاناه، أن فراغاً بارداً غير مفهوم كان استولى عليه حين قرر الزواج من أبنار، فعرف أن صديقه يعاني هذه اللحظة من قلق ممزوج باللهفة، فابتسم.

دخل القادمون لزفاف العروس إلى غرفة البنات. رفعت بزائز الواقعة إلى جانب الأريكة وجهها وتفحصت بعينها السوداوين الواسعتين النساء القادمات لاصطحابها واحدةً واحدةً. أوماً الأمير الذي لم تنتظره بزائز إيماء خفيفة إليها، وخرج من الباب الداخلي الضيق إلى الغرفة المجاورة. ولما فوجئ يمزش الذي ينقش غمد الخنجر بالأمير نهض في غمرة طرده الإيقاعي. واستعجل بالترحيب:

- هذا أنت يا أمير، تفضلْ!.. عندنا اليوم ضيف كبير... أنت يا عجوز، -

نادى المرأة في الخارج دون النطق باسمها.

- لستُ ضيفاً يا يمزش. - ابتسم ردد مرتاحاً للهفة الرجل. والتفت إلى قدان

الذي وقف إلى جانبه، - أنا مع القادمين للزفاف.

- أيّ زفاف؟ - تدلّت شفة يمزش الغليظة. - وهل عندنا فتاة في سن الزواج؟

- يا يمزش، حين يستوي القمر بديراً كاملاً على السطح يراه المغازلون قبل

الأبوين. لا تؤاخذني، لا ألبى دعوة كل من يطلب مني مرافقته إلى زفة عروس.

جئت من أجل صديقي، كرمى لكولس زعيم الخير.

- كان عليّ أن أتوقّع هذا. حين كنا نرمم سطح كراث كان حفيد كولس يتبعني عارفاً بكل ما يخطر لي.

- يبدو من كلامك أنه أعجبك، - ساهم قدان في الحديث.

- لا علاقة لي به يا قدان إذا كانت صاحبة الشأن أعجبت به. - قال يمزش، ثم توجّه ثانية إلى الأمير: - كولس أحد رجالات قريتنا الخيرين، ولكن سأزوج ابنتي من أي شاب تصحبه أنت يا أمير. - قطعت الضجة الصادرة من الدار حديث يمزش، وجعلته ينظر من النافذة. - أهذا ابن حقار الأصغر من يثير هذه الجلبة؟ أظنه صار مثل والده.

- لا أعرف إن كان مثل والده، ولكن أوافقك إن قلت إنه صار مثل نخلش الأصهب. - قال الأمير، وهمّ بالخروج من الغرفة.

- مهلاً يا أمير، لا تخالط الشباب الثرثارين، لن يسمعوا كلامك. - استعجل يمزش قليلاً. - الآن حالاً سأسكنهم بالمطربة.

- ليس من اللائق التدخل بين من يتنافسون على ابنتك. - هدأ الأمير المضيف.

- وهذا حقّ، - تراجع يمزش.

هدأ الشباب فاغرين أفواههم حين خرج الأمير من الغرفة.

- ولماذا تحولتم الآن إلى خراف وادعة؟! - قال زيرار لرفاقه ساخطاً، - ألم نتفق على منع زفافها؟

- اسكتّ، ألا ترى الأمير؟ - نهر أحد الشباب زيرار.

- وما العجيب في أن يكون الأمير؟! - لم يتراجع زيرار. - لن نسمح لهم بزفاف بزائر ولو أحاطت بهم الآلهة. ألم نتفق على هذا؟

- يا زيرار! - قال الأمير بنبوة هادئة، - الفتاة تختار واحداً فحسب من حُطّابها.

- لن أسمع من أحد! - حاول زيرار انتزاع نفسه ممن يمسكون به. - لم يكرسوا بنات مزبه لأجل ججان.

- ولكن، - ابتسم ردّ الآن، - بزائر اختارت ججان، لا أنت.

- كنا رأينا من تختار لو لم تكن أنت معهم! وإن لم تصدّق يا أمير دخلنا معاً

غرفتها وسألنا بزابز.

وفي هذه اللحظة صمت صوت الحوافر وراء الباب. وأسرع غُأت الابن الأكبر للحقار، ونهر أخاه:

- أيّ ضجة تثيرها هنا؟

- ومن استدعاك أنت؟ - شدّ زيرار قامته.

- وكيف تقول ما يأتي على رأس لسانك في حضرة الأمير؟ لماذا تهيننا؟ - صفع غُأت أخاه الأصغر. - اسحبوا هذا إلى خارج الدار!

لم يدع رفاق زيرار صاحبهم يرفع يده؛ جرّوه إلى الخارج.

- عندك أخ عنيف، - استغرب الأمير وهو يصافح غُأت.

- ثرثار! - ما أشدّ ما عدّب أمتنا! لم أر مثله في العناد. لا أعرف مصدر عناده إن لم يرث طباع والدنا المرحوم.

- العرق يمتدّ إلى سبعة أجيال يا غُأت. ألم يرث أحدكما من والدتكما إذن؟

- ليس لوالدتنا مثل هذا الطبع يا أمير. حتى حين كانت والدي في الفراش يقيمون له حفلات الجابشه لم تحرّضنا عليك. ولما قتلّت نخلش ألقّت اللوم عليه قائلة: هذا مصير من لا يرتدع. ما كنت أعرف إلى الآن كيف أبلغك رضاي عنك. أقول لك بمناسبة خوضنا في الحديث: أنت عملت ما عليك، والباقي عليّ.

- وماذا بقي عليك؟

- شنبه هو من جمع بين والدنا ونخلش. إن قتلته أكون، بالإضافة إلى ما فعلت، تأرت لوالدنا.

- لا تفعل هذا! هذا الذي بقي ذنباً موتوراً لن يستطيع أن يعض أحداً.

- لن يهدأ قلبي يا أمير.

- أنا جماعة العريس بانتظاري يا غُأت.

- نعم، نعم، أخرّثك. - انصرف الشاب الذي كبر في السنتين الأخيرتين على نحو ملحوظ، محيياً الأمير، معتدلاً بنفسه.

عاد الأمير إلى حيث يمزش مطمئناً، ووضع ذهبتين على الطاولة مهراً للعروس. وحين خرجوا من غرفة الفتاة توقف أعضاء الوفد حائرين ماذا يفعلون. وقال

لبزايں التي كانت تداري خفقان قلبها:

- هيّا يا بزايں إن كنت فتاة صالحة، وجاهرة للزفاف!

- يا أمير، لا يقال عن الفتاة إنها صالحة، بل عن المرأة. - مزح قدان، -
ستظهر على حقيقتها متى صرنا نزورها زوجة لججان.

مدّ ججان يده إلى ذراع بزايں فجفلت، وتصنعت التشبث بمكانها، ولكنها
نفضت في النهاية.

توجه الأمير إلى المضافة لتهنئة صاحب الفرحة، ونحس الكبار، وبعدما هنأ
كولس قال لطاطخ:

- وأنتم أيضاً أهنتكم، - الفرّح فرّح جيران العريس أيضاً. - ألسْتُ على حق
يا طاطخ؟

- وكيف لا نفرّح يا أمير؟ - رد طاطخ على ابتسامة الأمير بمثلها، - من
جهتي فرحي وحسدي متداخلان. يا حسرتي، كما كان المرحوم عُجّبس يقول:
من أين أسترّجع طيش شبّاي؟! لولا أن رجليّ لم تعودا تحمّلانني لنافسْتُ
ججان بقلبي!

تضاحك المسنّون وهم يهزون برؤوسهم. وأشار كولس إلى طاطخ والفرّح بادّ
عليه:

- هذا الرجل سيموت وقلبه شابّ.

- يا حسرتي يا كولس، من رأى القلب وقد هرم؟ - نظر طاطخ إلى ردد
بخبث: - هل باعوكم الفتاة أم وهبوها لكم؟

- جاءت معنا وهي تركض يا طاطخ. - ضحك ردد من أعماقه.

- تركتُ في بيتها أثر خير إذن. لن تُهرع عائدة، - أجاب طاطخ على سؤاله،
- ندعو إلى الآلهة أن تكون خطت خطوة خير اليوم إلى بيت كولس.

فارق ردد المجتمعين، ورافق ججان وقدان الذي صار إشبينه إلى بيت الأخير.

بعدما تناول الأمير طعامه وورُفعت المائدة فتحت رامبس باب المضافة:

- هل أنت وحدك يا ولدي؟

- الآن وحدي يا أمنّا. تعالي واجلسي. - استقبل ردد الأمّ. هل هناك ما
يشغل بالك؟ كأنك كئيبة؟

- لا يا صغيري، لا شيء يدعو إلى القلق. تعبتُ قليلاً فحسبُ. - أجابت الأم بلطف. - كنتَ كولس خيراً إن شاءت الآلهة. وسيرتاح الجيران. وأنا سأرعاهما ولكن لا أحد يحلّ محلّ من تعايشها ليلاً ونهاراً. يا ولدي، يسرني أنك تتقبل كلامي. لن أدعك تفعل ما تندم عليه!

- لن يراودني مثلك هذا الشك. - نظر إليها ردد بحرص.
- حين عيّنتُ قدان قائداً للجيش، طلبتُ منك استدعاءه من مستخفوه، وأنت طلبت منه أن يبني بيتاً في مزبه. لم يكن ممكناً التعامل بينكما وكلّ في قريته. هذا إجراء جيد منك. ونفّذتُ طلبي منك ألا تعارض ججان العائد. وها هو الآن بدأ يؤسس أسرة. والعروس الشابة ذكية، ملأى بالروح الإنسانية. لن تنتزعك من بين جفنيها ولو كنت بينهما. ولكن لا أحد يعوّض الأمّ. وإن استمعت إلى نصائح من تصحبه فلن تندم. وما يشغل بالي الآن: اتفق عقلي مع عقل الكنة فنفاهما.

- هاتي، إحكي يا أمنا، أسمعك، - قلق ردد قليلاً.
- لا يعجبني سلوك الحكوف. كنت قلت إن الأمير دامر طوّع قرية لغثك جيداً، والقرى الأخرى ليست الأمور فيها سيئة. ما رأيك أن تختار من سكان القرى الأخرى غير المستقرة، أو ترسل إليهم من الزبيخ أو القسوغ أو الموط زعماء يقودونهم؟ ها هم النارتيون كانوا يرسلون زعماء من عرق إلى عرق آخر. ألا تعرف طبيعتنا نحن؟ نطيع الغريب ونثمنه أكثر من القريب.

- لم يصل تفكيري إلى هذا يا أمنا، - التمتعت عينا ردد، وقال في سرّه لأمه: "أضرّ بالقوم من لم يخلقك أنت رجلاً!". - جمعت الفائدة في كلمات قليلة. من لا تعرفه تظنه يخبئ سرّاً.

- وما سأترجاك من أجله هو ألا تمجر تراب المسكين. شكّ لي دكابس قبل أيام. يُفني نفسه بذريعة أن الأمير استغنى عنه، ويُفني زوجته معه. احرص عليه يا ولدي؛ أليس موفد الآلهة، وشخصياً يُشعّرني برهبة ما.

- يا أمنا لا ترجيني في هذا. بين مظهر تراب وحقيقته فرق كبير.
- هذا رأيك؟ والكنة هذا رأيها. وحين قررت أن أطلب من كولس محادثتك تبين أنكما تحدثتما وانتهى الأمر.

- نعم، توافق رأينا كولس وأنا في تراب.
- أَيْكون دِينُ الرومي ودين الحاج المسلم استهويك؟
- لا يا أمنا، لا شيء من هذا. أنا مخلص لأهتنا ولكن لا أخفي أني تأثرت بالمعلومات التي استفدتها من الرومي، والتي لا تتعلق بالدين. لا يمكن رفض شيء مما قاله بشأن توطيد الدولة. الدين يقطع الناس ويملاً قلوبهم بالإيمان. وحين يصبح الناس يلجؤون بسرهم وعلنهم إلى رجال الدين فأنا من ستؤول إليه كل هذه الأمور. وتراب لا طاقة له بمثل هذا. ليس عنده بُعْدُ نظرٍ. نحتاج إلى صاحب عقل كبير ينفذ قوله وفعله بين الناس.
- فهمتُ يا ولدي، لن أناقشك في هذا، - خرجت رامبس السيدة الكبرى راضية من الغرفة.

IX

متى فاض الإنسان عن الحاجة تحوّل وحشاً. ينبذه أبناء جنسه، ولا يقبله الغرباء.

لم يجد شنبه ملجأ بعدما كشف ظهره للمتحاربين في "شكجي"، وطار ذيل حصانه في الهواء فاكشفوا جنبه. وقد هرب إلى الأبد في ذلك اليوم المرعب من قرية لِعُتْكَ معلّقاً القليل الذي يملكه على سرج حصانه. وكان يعرف أن حياته مع الحكوف انتهت بعدما أهانوه وطرده. ومَن وضع فيهم أمله فساfer إليهم خِفية عن طريق جبلي، تاركاً طريق البحر، هم الروسيج، ظناً منه أن قانشاو سيضمه إلى الجيش ويجد مأمناً فيه.

قطع شنبه حدود البلاد ليلاً متأملاً ألا يراه أحد. ولكنه لم يسر بعيداً. وصل إلى توم - تقاش تحت رقابة فرسان الروسيج، وقابل قانشاو فأدرك أن لا مستقبل له هناك.

- لا شيء أخفيه يا شنبه، - قال قانشاو وهو يمسخ على وجهه النحيف الجهم بأصابعه، - الخائنُ أيّاً كان، ومن أيّ مكان كان، يظل خائناً. أحرّق ترابُ بلادك أخص قدمك فجئت إلى بلادنا. لو جئتنا مخلصاً بقلبك وروحك لكان لك استقبال آخر. أنا يلتجئ إليّ بصفتي أعمل مع الروسيج بعض من لا

يستقرون بين أبناء قومي ولكن علاقتي بهم أمرٌ آخر. الأديغي مخلص مع من يُحسِن إليه. إن كنت تشبّه بي فأنا لا أحارب قومي، بل أعيش مع الروسيج أقابل إنسانيتهم التي عاملوني بها بمثلها. ولن أعادي ابن أختي لأنه لم يتفق هو ومستيسلاف. أود له الخير وأفرح بأهدافه. وأدعو له أن تتحقق. ولكنه لو سلّح كل أبناء قومه كباراً وصغاراً فلن يستطيع الانتصار على الروسيج. كنت أودّ إفهامه هذا الأمر ولم يتحقق لي.

- وهذا ما لم نقبله منه. كنا مستعدين للانضواء تحت جناحه، - طرق المضيف الموضوع الذي يريده شنبه فاستعاد شيئاً من رباطة جأشه.

- اسكُتْ يا شنبه! - رفع قانشاو صوته، - لستُ مَنْ تعلّمه طبيعة نخلش. باع ابنُ أختي طمعاً في بعض الذهب. ولو عرف أن ردد سيعود لتخلي عن كل رجولة وقتله في أرضه. وأنت كنت حليفه إلى آخر يوم. ولا أريد أن أحمل ثمن دمك الآن؛ الربّ ينتقم منك.

يرتب شنبه طوال الطريق ما ينفعه. ولكن لا يجد مخرجاً. كان يخيل إليه أن الأرض تجمّع بعضها على بعض، وعلّق هو في أصل نبع ماء. كان الليل بارداً ففرك براحتيه وجهه الذي يُشعّ ناراً، ونظر إلى السماء. القمر ينسل من بين السحب كذيل ديك مرفوع. وكما يحدث في بعض السنين فالشتاء يشبه الربيع. في النهار تضيء الشمس العالم، وفي الليل قليل من الصقيع.

"اعتدت على أن أتخيل شيئاً من الدفء يدخل إلى قلبي. - يتحدث شنبه إلى نفسه، - الأمير ردد ينتصب عقبة أمامنا. يقطع علينا الطريق أينما اتجهنا. هو كالريح التي لا تخطئ الطريق في النور وفي الظلام. أقول هذا لأنه عدوي، ولكن حين استدرجنا نخلش إلى السرقة والإجرام كان ردد حياً وإن كان شاباً. ولو فكرنا بالعودة لكان مصيرنا مختلفاً، وها هو قدان عاد فصار قائد جيش. كان نخلش يتحكم به ولكنه أدرك حقيقته ففارقه. وأنا عودني أن أتقبل القيد فاغر الفم. والأمل الوحيد لي الآن هو القليل من الذهب الذي سرقته. ما كان أغباني؛ هل صرت مجنوناً؟ مشقوه هو من كلّفه ردد بأمانة الخزينة. كيف نسينا هذا في تلك الليلة! لو توجهنا إلى بيت مشقوه وسرقنا الخزينة لاغتنينا بدلاً من قتل المرأتين. وما كنا وجدنا أسهل من السرقة. كنت استطعتُ اصطحاب اثنتين

من الرجال العبوسين الذين عرّفي نخلش إليهم وتصيدتُ وقت غياب مشقوه وسرقته. ولو كان معي ما يكفي من الذهب لكنّ المضيف حيثما ذهبت. وكنت انضمت إلى من يقبل بي دون تمييز بين رومي وخزري وعربي... "

أسرع شنبه بالحصان وقد أعادت نيتّه الأمل إليه. ولم يعانده حراس أمير الزبيخ أبج. وحين دخل القرية وجد البيت الذي كان نخلش قاده إليه ولكنه ندم فلم يتوقف عنده. وقبل الفجر عاد فتوجه إلى القسوغ برفقة لصّين.

تجاوز الفرسان الثلاثة غابة ششحرس ووصلوا إلى غابة مستحقوه. أوقف شنبه الحصان فجأة.

- أنصتاً قليلاً! أظني أسمع صوت فأس. وبعدها ساروا قليلاً التقوا بالشابين اللذين يقطّعان الخطب على حدود الفسحة. ناداهم شنبه: عملكم خير أيها الشابان! ما الأخبار في القسوغ؟

- السلام في كل مكان يا زعيم الخير. - أجابه أحد الشابين. - لا حرب ولا ضرب بل أعراس.

- من الذي تزوّج؟

- لم يمض أسبوع على نهاية عرس ججان. والآن أعراس نشيطة في مستحقوه. الأمير ردد وقدان ومشقوه وججان هناك.

"أكون كلام الشاب صحيحاً؟ - سأل شنبه نفسه طافح القلب بالفرح، ثم تذكر كلام نخلش: "ما تراه هو الصحيح، لا ما تسمعه". ولما عادوا فتوغلوا في الغابة قال شنبه لرفيقيه:

- إذا كان كلام الشاب صحيحاً فالليلة ليلتنا!

- ماذا نفعل إذن في مستحقوه؟ أليس الأفضل أن نختار مكاناً مخفياً نرى منه مزبه؟ - سأل أحد رفيقيه.

- ما سمعناه شيء، وما نراه بعينينا شيء آخر. - كرر شنبه كلام نخلش لرفيقيه، ووافق الأخيران.

في بداية المساء قاد شنبه الرجلين إلى حفلة الرقص. وارتقى هو كومة الحشيش واختبأ فيها. لم يهتم بالعازفين على الآلات القصبية، ولا بالراقصين، ولا بالمسنين. ألقى نظرة سريعة على هؤلاء فلما لم ير من يبحث عنهم تذكر نخلش

مرة أخرى وأسنانه تصطك سخطاً: " لأجل هذا كنت أقول: لم يخلُ نخلش من الذكاء وإن كان شريراً. لو أصغينا إلى الشاب ودخلنا مزبه لقتلونا..."

فرك شنبه عينيه، وتفحص الحضور، ثم توقف عند المسنين: " ما أراه عجيب! كولس وجباغ وطاطخ جالسون إلى جانب العجوز بشماف... مهلاً، أظن كلام الشابين صحيح..."

انفتح باب المضافة وخرج تيمرقوه وقدان ومشقوه وججان وغيرهم، وعلى رأسهم ردد إلى حفلة الرقص. تنفّس شنبه الآن راضياً بما يرى. نزل من كومة الحشيش ووصل إلى حيث واعد رفيقيه:

- أسرعاً، الخطابان لم يخدعانا. أسرع شنبه إلى حصانه.

- الحفلة في أولها؛ ما الذي جرى؟ - صاح وراءه أحد رفيقيه.

- ليست المسافة بين مزبه ومستحقوه بعيدة، هل تظنهم سيقضون الليلة هنا؟

- ردّ شنبه على من وراءه.

- والحراس يا شنبه؟

- الخطب يرتاح ريثما ترتفع الفأس عنه. متى غاب الرؤساء فالحراس إما أن يغفوا أو أن يتابع كل عمله. - ابتسم شنبه مغروراً بنفسه، - عرس من يحضره الأمير نفسه؟

- ابن عمّ قدان. وابن خالة تيمرقوه. - قال له الفارس الأصغر على يمينه.

مدّ أحدهم يده على كتف غأت الذي كان يصفق لقدان، وهمس في أذنه:

- مرّ بي وأنا قادمٌ إلى هنا قبل لحظات شنبه مع فارسين لصّين.

- إلى أين اتجه؟

- أظنه إلى ناحيتكم.

انسل غأت دون أي كلمة من مكانه وقفز إلى حصانه. وبعدما وصل إلى تخوم مزبه بيضع غلوات حصان التقى فجأة بمن ظهر من المنعطف. وتعرّف غأت رغم أن القمر ليس مكتملاً على الفارس الذي ظل أمام عينيه سنوات. وتواجهها يكاد حصاناهما يتلامسان:

- هذا أنت يا غأت! دعني أرى وجهك، سررتني كأني رأيت المرحوم والدك.

- أين رفاقك يا شنبه؟ - سأل غأت من أدار حصانه جانباً.

- من يهتم بهم، طردهم أبناء القرى، وأنا نجوتُ منهم بصعوبة. أيّ منعة بنوها على طرف القرية؟.. - وقبل أن تصل يدا شنبه الممدودتان إلى كتف الشاب جمّده الصوت الذي سمعه:

- هذه نهايتك يا شنبه! - غرز غُأت خنجره في صدر شنبه. - هذا دين أمانة! سل الخنجر وضرب به عنقه: - وهذا من أجل الأرواح البريئة التي أزهقتها. - صرت مثل والدك الوسخ... مثل... يا حيوان!.. - سقط شنبه والدم ينفر من أصابعه التي واجه بها الخنجر.

- لا تساوي ظفراً من أطفار والدي! من يقتل صديقه يُقتل! - داخ غأت الذي بقي الخنجر في يده يسيل منه الدم لا يدري ما حلّ به، فسقط على جثة المقتول.

X

قامت من الفراش رامبس التي أفزعته أحلام الفجر إذ جفاها النوم. لم تستلق على السرير المغطى ببساط مطرز جاءها به قبل سنوات ابنها ردد من بانتيكاليه بل جلست على حافته، وصالبت ذراعيها على صدرها، وشردت في الغرفة المظلمة التي يشع منها نور خافت.

"منذ زمن بعيد لم أر والديّ في الأحلام، - أعادت رامبس التفكير في الحلم الذي لا تعرف تفسيره، - لا أزال على ما نصحاني به ليلة دُفن المرحوم لاورستن. لا، لا، أنا مخطئة. زاراني ليلة لم يعد ردد، وفي نصف العام التالي، والعام التالي أيضاً يطلبان مني الصبر. ولكن لم يزرني أحد منهما يوم عاد من الأسر، ولا يوم صار أميراً كبيراً، ولا يوم تزوج، ولا يوم ولد له طفل، مهنئاً؛ غريب: أليس جدّيه؟! والآن يقولان: أنت تقاطعين أخاك الصغير الوحيد مع أنك تعلمين أنه حيّ، ويعيش بين الغرباء. ويلوماني لأنني لا أهتم إلا بمن ولدت..."

نفضت رامبس مسرورة بخروجها المفاجئ من أفكارها. وتوجهت إلى النافذة التي توقّعت أن تجد قُرْبها الراحة. وحين لم تر في الظلام ما يُبعد عنها قلقها انصرفت عنها، وعادت إلى جلستها القديمة على السرير الرقيق. نظرت نحو الغرفة التي

ينام فيها ابنها، وغرفة نوم الضيوف التي ينام فيها حفيدها، ونحو غرفة شوباش، وأنصتت. لم تسمع، لا صوتاً بشرياً بل وقع خطوات، ودون أن تعرف ماذا حصل عادت الوسواس القديمة فهاجمتها. سألت نفسها: " ولماذا ليس لاورستن راضياً عني؟ لا يسأل عن ابنه بل مهموم بأخي الأصغر: " ما من إنسان زائد عن الحاجة. لا تقاطعي أخاك قانشاو. عليّ بعض الذنب في استعباد الخزر له، وما من أحد لا يجري له شيء في هذا العالم المتصارع، فلا تدينه؛ ألسنت أخته، أليس لك قلبٌ أنثى. سيصبح سنداً لابننا الوحيد؛ لا تعاديه".

سقطت دمعة حارة من بين أهدابها المرهقة، فوصلت إلى طرف شفيتها وهي التي لم ير زوجها دمعة منها، لا في أحلك الظروف ولا في أسعدها، فكانت مرتاحة لملوحاتها. ولكن الدمعة الأخرى، على الخد الآخر، كانت أعذب من سابقتها، إذا أشعرتها بالمزيد من أمومتها وأخوتها. لم تلتقط المنديل خوفاً من أن يهتز وجهها فتساقط على الوسادة دموعها العزيزة عليها.

"هذه هي الحال يا عزيزي لاورستن، - عاد الوعي إلى رامبس بعد قليل، - تلومني وتترجاني ولكن لم أسمح لنفسي طوال هذه السنوات بعدك أن أنسى كوني أنثى وأماً وأختاً. وثقّ بي في ما تبقى لي من بقية العمر القليلة. لن أدعك تقلق من أجل ابنك الذي لم تهنأ به، ولا حفيدك الذي لم تره. ولكن لا أفهم لماذا تجادلوني، أنت وأبي وأمي، دفاعاً عمّن لم يعد بعد انتهاء أسره إلى ناحيتنا، إلى أبناء قومه، في حين أنكم تعرفون أنني أعيش مع ابني الوحيد. أخبروني إن كان في الأمر شيءٌ أجعله. حلمت أحلاماً كثيرة لا يمكنني سرّها ولكن حلم الليلة لا يبشر بخير... وكم تأخر البائس ردد في النوم على غير عادته! وللمفارقة حين أكون قلقة يكون هو مطمئناً... مهلاً، الآلهة سمعوني. هذا وقعٌ خطأ... "

وفي اللحظة جاء صوت أبنار:

- يا زيش، أين تركض ولما ينبلع الفجر؟ اترك نانا تستريح ولو صباحاً واحداً!
- لسئ نائمة يا كنة، - نادى رامبس السيدة الكبرى إلى الخارج فرحة بما تسمع. ولاطفت الصبي الذي فتح الباب: - تعال يا صغيري، تعال يا ولدي.

عائِثُني، أسعِدْني! هذا جميل. ضَمْنِي بقوة، بقوة. - شعرت رامبس بعذوبة الصبي الواقف أمامها ويدها تطبقان على عنقها. وتمزج معه باسمته: هل جدتك قبيحة؟

- تيته جميلة، - الصبي يفرح ويضحك، - نانا جميلة...
- هذا صحيح يا ولدي. كانت جدتك جميلة في يوم من الأيام. ولكنها فقدت جمالها كله الآن. عشنا حياتنا في المأساة ومشاق الحياة فما الذي يُبقي على جمالنا! تنهدت رامبس وهي تقبّل الصبي وتمسح على رأسه. ورأت سعيدةً حفيدَها في الحلم الذي عاودها يشبه لاورستن يوماً بعد يوم.
دخلت أبنار إلى غرفة رامبس، ومدّت يدها إلى الصبي ورائحة الدفء اللذيذ تفوح منها. تمسّك الآخر بجذته، فلاطفته حتى تركها وعاد إلى أمه. فحزن زبش الصغير، وقال وهو يقاوم برجليه:

- نانا قبيحة!

- صرْتُ قبيحة لأني أعدتك إلى أمك يا ولدي! - ضحكت رامبس من أعماق قلبها. ثم تبعته مسرورة بما كانت تشكّ فيه والذي بدا بوضوح الآن: - يا صغيرتي متى أفاق الولد فاطلي منه ألا يخرج من البيت قبل أن يقابلني.
وفيما انتهى الفطور ورامبس بانتظار ردد دخل شوباش:
- لماذا أنت صامتة يا أمانا؟ كيف صحتك. - سأل شوباش أمه وقد اختلط جدّه بهزله.

- لا بأس بصحتي يا ولدي، - ألقت نظرة دافئة على ولدها، - لم يبق عندي ما أقوله، ونقص عملي. هَرِمْتُ يا ولدي.

- لا تقولي هذا يا أمانا؛ كيف تهرمين! - ردّ شوباش على الأم بنظرة مائلة مستغرباً ما يرى. - الحقّ أني مشتاق الآن إلى حديثك أكثر من أيّ وقت مضى. في الماضي كنتِ تمرغين أنفنا إن أخطأنا، وإن أحسنّا التصرف تُننين علينا.

- يا شوباش متى ستسمع كلامي؟ تخرج في الصباح وتعود في الظلام. هل يُثمر عملك شيئاً؟

- يشجعنا ردد على ما نقوم به، ولكنني أظنه بلا جدوى يا أمانا.

- ما الأمر يا ولدي؟

- من الصعب تأسيس جيش دائم لقومنا. حقاً لا أقول إن ما نعلّم من استعمال السلاح والمصارعة وركوب الخيل ليس دون فائدة، ولكن يجب أن ينام كل رجل في بيته، ثم إن المتزوجين يُصرون على هذا.

- ماذا ترتّبان، الأم وابنها، الآن؟ - خرج ردد من الباب حانياً رأسه، - لا تحرماني منه إن كان مثيراً.

- من أين نأتي يا ولدي بموضوع مثير لا تعرفه أنت؟ - تحركت الأم قليلاً احتفاءً بابنها، في حين نهض شوباش لأخيه وانحنى لإمالة احترام. - نتكلم على أسباب إخفاق مشروع جيشك.

- ها هو المسؤول أمامك يا أمنا، ابنك وأخي! - بدأ ردد مازحاً، - متى حلّ المساء يُطلق هذا إلى حفلة الرقص، والآخر للمغازلة. ولا يرفض طلب من يجد حجة أخرى.

- يا ردد تتهمني دائماً كأنك لا تعرف طبيعة الأديغة، - بدأ شوباش يحوّل المزاح إلى جدّ. - لا تسمح لهم وانظر ماذا يفعلون متى وضعت رأسك على الوسادة. أليس الأفضل إذن أن نرسلهم بالتي هي أحسن يا أمنا؟
- نعم يا صغيري، من تحسن معه الكلام يفهمك. - وافقت السيدة الكبرى شوباش، ولامت ردد: - وأنت لا تقدر إلا على أخيك فتقيده إلى العمل ليلاً ونهاراً.

- يا أمنا، ها أنت أسأليه، هل أجبره أم يجبر نفسه؟

- لن أتهم ردد بما ليس ذنبه يا أمنا، أنا من قيّدت نفسي بالعمل. ولكني سأقول الواقع: - عملت إلى الآن بكل إخلاص، ردد لا ييأس ولكن يحدث كثيراً أن يصيبني اليأس. لا يسمعون الكلمة، وهم يقولون ما يخطر لهم. أمثّل لهم بالروم والروسيج، وأقصّ عليهم أنظمة جيوشهم. وفي النهاية يقول لي أحدهم: " يا شوباش ما الفائدة من أن ننام كلنا في مكان واحد؟ ما إن نسمع صيحة الاستنفار " مارج " حتى نصل، فيبدؤ فائدة كلّ ما قلّته. ولن أذهب بعيداً: أسألي ردد كيف يتعامل الروسيج مع خالنا قانشاو!

- طلبت منه مراتٍ ومراتٍ أن يرويه، - أبعدت رامبس نظرتها الهادئة عن

شوباش وقد داخلها القلقُ وألقنها على ردد، - حين جاء قانشاو إلى نواحيننا لم أفتح له قلبي في حين استقبلني هو بالترحيب. وأنت يا ردد لم يحدث أن قابلته ولم يرحب بك؛ أليس صحيحاً؟

- وفي اللقاء الأخير كان ودوداً جداً معي غير أنني أغلقت الباب في وجهه، - حسم ردد الموضوع باختصار.

- هل تريدن يا أمنا أن يرحب الأمير ردد بمن يدير ظهره لنا؟! - تصلّب موقف شوباش مؤيداً أخاه.

- وأنا أيضاً ظلت عواطفني فاترة نحو أخي. وما كنت أريد أن تقع عيني عليه. بدأت رامبس بصوت حازم، - ولكن لم أفكر في إخلاصه للروسيج الذين أنقذوه من الأسر. والحقيقة يا أولادي أن هذه طبيعة أديغية. نحن نحفظ الودّ لمن يسدي إلينا معروفاً. قانشاو ابن أبي وأمي، وليس هذا فحسب بل ساهمت في تربيته. وإذا عشتُ قوية العزيمة طوال هذه السنين فأنا الآن رقيقة المشاعر. أودّ مقابلة أخي الأصغر.

- ما الذي يدفعلك إلى هذا الكلام يا أمنا؟ - بدا القلق على ردد من رقة عينيه السوداوين السريعة. - لا تتكلمين منذ بلغت سن الرشد كلاماً فارغاً. ولا تحطين خطوة زائدة.

- حسناً، كفى! - أشارت رامبس بيدها، - لا تسخراني. الأموات يعيشون في عالمٍ ما مثل عالمنا. في الليلة الماضية أطلّ عليّ والداي. وكلمني المرحوم لاورستن. والهّم الوحيد الذي أفضى به إليّ الثلاثة هو موضوع قانشاو لا يقبلون معاداتي له. وما تذكرته أنا حين صحوت هو رفضي استقبال أخي قانشاو حين زارنا يريد أن يحدثني في موضوع.

- وهل للأحلام معنى ما يا ترى؟ - ابتسم شوباش ابتسامة خبيثة. - لا تقل هذا يا أخي الصغير، - لم يقبل ردد. - كثير من أحلامي في الأسر يتحقق. ماذا تريدن يا أمنا في النهاية؟

- قلتُ ما أريده، أريد لقاء قانشاو. وقبل هذا أريد التأكد من حقيقة الحلم. - وكيف؟

- سأرويهِ لآراب، وأسمع رأيهِ فيه.

- وجدتِ إذن من يقول لك الحقيقة! - ضحك ردد ضحكة خفيفة.

- لم أر إنساناً تحقق له مثل ما تحقق لتراب الأحذب، - هزّ شوباش أيضاً رأسه.

- ما هذا الأمر المهم الذي تحقق له يا ولدي؟ - ألقت رامبس نظرة تسأول على الولد الأصغر.

- استطاع إقناع الناس بأنه يعرف ما لا يعرف. لم يستطع أحدٌ إنجاز مثل هذا في أنحائنا.

- وهل يجوز أن تتكلم على موفد الآلهة بمثل هذا؟! - ألقت الأم التي ارتسم الذعرُ في عينيها نظرة على ابنيها، كلاً على حدة.

- وهل هذا رأيك أنت أيضاً يا ردد؟

- يا أمنا، اصطحبتُ تراب أعواماً مصدّقاً أقواله، ولكني فهمتُ الآن أنه كاذب. شوباش، رغم أنه أصغر مني، لم يسمح له منذ اليوم الأول بالاقتراب منه؛ تبين أنه أعقلُ مني. والمناسبة التي كشفت أنه أجوفٌ من كل مضمون كانت حين حاول مناظرة ديمتري والحاج المسلم. وبعدها فكرتُ كثيراً: ما السبب الذي دفع تراب إلى أن يدّعي أنه موفد الآلهة؟ لأنه معوق؟ أم الغيرة والحسد؟ كان الحسدُ طبيعة سيئة في تراب منذ طفولته. وحين عرف أنه لن يستطيع التميّز من الناس بشيء آخر ادّعى أنه رسول الآلهة. بدأ بالتنبؤ بالمطر والثلج، والحرّ والبرد، وهذه معلومات استقها من مُستينا. ثم استمرّ الموضوع. ولذا يا أمنا لا تروي أحلامك لتراب بصفته رسول الآلهة. ولا يساوي جوابه لك شيئاً.

ختم شوباش على أقوال أخيه:

- روى لي قبل أيام صديقي جازر أدشس: استمات تراب من أجل دكايس حين تزوجها في البداية. والآن يهاجمها كل يوم كذُبتٍ جريح. ولا يوقّر شيئاً على نظاي. الناس بدؤوا يكتشفون أنه كذاب فجئّ جُنونه.

اقشعرت رامبس مما سمعت عن تراب للمرة الأولى. وعاد الدم الحارّ إلى وجنتيها الشاحبتين. ولم تعد راغبة في تفسير ما سمعت أو الحكم عليه سواء كان حقيقة أم كذباً. وكانت متلهّفة على صرف الرجلين من حضرتها. ولم تعد ترغب إلا في

أن تختلي بنفسها وتخطب الآلهة. ولكنها جزعت وهي تتخيل نفسها شجعت ولديها على التجرؤ على تراب.

- لن أطلب شيئاً من تراب إذن. - خاطبتهما من خارج قلبها ونهضت فانصرف الأخوان من الغرفة. توجهت رامبس إلى الآلهة جِرة وشفثاها تختلجان: - أفهم بعقلي وقلبي يا آلهتنا الأعزاء أن ما تقدرونه يتحقق. وأتوسل إليكم إن كان تراب رسولكم حقاً أن تغفروا لولديّ ما صدر منهما من كلمات جارحة بحقه. لا أحد غيركم معصوم من الخطأ فإما أنهما ضالان أو أضلّهما الناس. وأنا من ربى ردد وشوباش فأرجوكم أن تحملوني وِزرهما. أتحمل المسؤولية إن لم أستطع إرشادهما إلى الطريق الصحيح. مررت بمشاق ومآسي كثيرة، ولكنكم أكرمتوني في شيخوختي. وأتختم لي أن أرى ابني أميراً كبيراً. وها أنتم ترون إخلاصي لكم وإيماني العميق بكم، وتسمعون رجائي. لا ذنب لي في جفاء ولديّ نحو تراب. وكنتي الحبيبة لا تُطبق رؤيته. وأنتم تعرفون السبب في هذا أفضل مني. وأغبان وقدان وتيمرقوه والعجوز كولس الحكيم ابتعدوا بقلوبهم عنه. فإن كان سلوك تراب يجري بمعرفتكم وترون تصرفاته صحيحة فأنا أرجوكم مرة أخرى لأنهم استمدّوا جذورهم مني، إلا كولس، أن تعيدوا إليهم الرشد بالحنسني. وأعرف عظمة قدرتكم. وها هي الأسرة التي خرجت عن طورها في ششحرس أغرقها الإعصار، هي وبيتها وحظائرها، في الماء. وفي الوقت نفسه رميت في البيوت المجاورة ما يكفيها عاماً من السمك. لا أطلب منكم مثل هذا ولكن احموا لي ما أملك. وإن صدر من أفواههم ما لا يجوز فاغفروا لهم.

ارتاح قلب رامبس واثقة أن دعاءها وصل إلى الآلهة. وخرجت من الغرفة كمن ألقت عن كاهلها صخرة فرأت أغبان مقرفصاً على باب الدار كأرومة كبيرة. وأسرعت حين رأت زيش الصغير أمامه، ولكن الصبي أشار إليها وبادر إلى القول:

- جدي قبيحة!

- من علّمك هذا؟ كأي أنا من حرّضك... - نهض أغبان خجلاً.

- لا يا أغبان، أعرف أنك لن تتعلّمه مثل هذا. استاء مني صباح اليوم. تعال إليّ يا ولدي الجميل. وأسعدني بعناق قوي منك. - ارتقى زيش على جدته

ماداً يديه، وأمسكت رامبس بيد الصغير، ثم توقفت: - يا أغبان، عندي رجاء لك.

- أسمعك يا سيدتنا الكبرى.

- جئني بتراب في وقت يكون فيه ردد وشوباش غائبين. لست على عجلة من أمري. هل فهمت؟

- ألا يريدك الأمير يا سيدتنا؟

- يا أغبان، لا تدعني أكرر الكلام. أنا لست ضيفة في دار الإمارة.

- فهمت يا سيدتنا.

بعد عدة أيام جاء أغبان بتراب في فرصة خلّو الدار.

رَحّبت رامبس السيدة الكبرى بموفد الآلهة. ودعته إلى الجلوس. وسألته عن أسرته وأحواله. لم يكن الفرح يسعُ تراب إذ أن السيدة الكبرى استدعته.

- أنت يا تراب موفد الآلهة، إليك نلجأ في مناسبات الفرح والحزن. - ناورت رامبس من بعيد، - أنا أتمنّ كلامك جداً. رأيت حلماً عجباً. زارني في الحلم أبواي اللذان فارقاني منذ زمن بعيد، والمرحوم لاورستن أيضاً. وعاتبوني من أجل أخي الأصغر قانشاو.

- وماذا يقولون؟ - امتدّ تراب نحو رامبس طاوياً حديثه.

- لا يقبلون معاداتي له. ويلخّون على مصالحته.

- هكذا؟ - ارتعب تراب. - هذا فيه شيء لا يخطر لك ولا لي يا سيدتنا الكبرى. - لا يجوز معادة من خرج من رحم أمك.

- وأنا أعرف هذا يا تراب. - تأملت رامبس في وجه تراب. ولم يُطِق موفد الآلهة نظرة الاختبار تلك، فحوّل عينيه عنها، وحدّق في حامل السقف. - كيف أصافح من أدار ظهره إلى قومي وإن كان أخي، وكيف أعيده إلى قلبي؟ - هذا صحيح، القوم أنتِ والأميرُ الكبير ونحن. ومن يأتنا طالباً منا الإتاوة لا بد أن تعاديه ولو ولدته أمك.

- ولكن أين أذهب بعتاب من رحلوا عن الدنيا.

- لا يجوز إلا أن ننفذ ما يأمر به هؤلاء. - ما إن نطق تراب بهذا حتى لاحظ تناقض أقواله فأخفى كلامه وهو يرفّ بعينه: - ليس سؤالك مما أقدر عليه يا

سيدتنا الكبيرة. أمهليني حتى أستشير الآلهة.

تداعى قلب رامبس نادمة على دعائها إلى الآلهة، قلقاً على ولديها. نظرت إليه الآن بلامبالاة وقد أحست بصحة كلام ردد، وإدعاء تراب إيفاد الآلهة له، وإقناعه الناس بشخصه. وقالت مُشعرة إياه بأنها اكتفت من استشارته: - كفى يا تراب، سأستدعيك متى احتجت إليك.

قالت رامبس السيدة الكبرى وهي تتابع من يخرج من الدار وقد زادت حدبته، وقلبها يتألم لأجله: "إيه يا دنيانا العارية. يا لبؤس الجهل! هذا الذي لا يساوي شيئاً استطاع إقناعنا بأنه رسول الآلهة. ولداي، لا أقول إنهما أفضل الناس، وجداً ما قَدَّر الآلهة لهما، والناس يُعلنون شأنهما بمقدار رأيهم فيهما. وذاك المعوق البائس منذ طفولته نشأ يركله أقرانه، والمستون يحمونه. ورأي ردد صحيح وهو أنه يُقنعنا بما تعلّمه من المسنين. لو كان قومنا يعرفون القراءة والكتابة لما ظهر بيننا أمثال تراب. لماذا نعيش وليس لدينا ما عند الأقوام الأخرى؟ أما كان عندنا يوماً ما قراءة وكتابة؟ يرد في حكاياتنا كثيراً أن فلاناً أعطى كتاباً لفلان وأرسله به. أيُّ مأساة عظيمة سلّبتنا هذا الكنز! فرح ولدي بتأليف دولة، والآن يشكو من أنه لا يستطيع المحافظة عليها. نعم يا ولدي لم يقل الناس شيئاً ليس صحيحاً: النظام لا يُحمل على رؤوس الألسنة. كلام اليوم تذروه الرياح. رجل الدين الرومي ديمتري متعلم ومثقف ولذا تستمع إليه مستقلاً كلامه. والمسلم الحاج عنده ما يجدر الاستماع إليه. وهذان يأتیان من دول مؤسسة منذ زمن بعيد. الناس يقولون: النظام الجيد يُتخذ مقياساً فخذ من حياتنا الأديغية وقس ما تأخذه إلى ما تعتقد أنه يناسبنا. وأنت لن تبقى شاباً إلى الأبد، مع الأيام يزيد العمر وتنقص القوة. ليغفر لي الآلهة إن أخطأت، وليصححوا لي. الناس الذين اعتنقوا المسيحية الداعية إلى إله واحد لا تحرقهم الصواعق، ولا تجرفهم الفيضانات، ولا تحملهم الرياح. قادة الدولة ضموا رجال الدين إليهم، يوطّدون من خلاهم حكمهم. وها هو تيمرقوه وهو من يعتنق المسيحية سرّاً منذ زمن بعيد، وليس مجرد اعتناق بل يمارسه، ويقال الآن إنه أقنع بها كثيرين من أهل مستخقه، ما يزال حياً في عزِّ قوته، ولم يرفعه أحد إلى السماء... إن رويت هذه الأفكار إلى ولدي فمن يعرف، قد يستفيدان منها..."

سَمِعَ وَفُتِحَ حَوَافِرُ خَيْلٍ، وَاسْتَقْبَلَ الْخَادِمَانِ رَدْدًا، وَاسْتَلَمَا مِنْهُ الْحَصَانَ. وَتَوَجَّهَ هُوَ إِلَى أُمِّهِ مُسْتَعْجِلًا، وَقَالَ لَهَا بِصَوْتٍ قَلِقٍ:

- فِي مُسْتَحْقُوهِ فِتْنَةٍ يَا أُمَّنَا.

- وَمَاذَا جَرَى فِيهَا؟

- اصْطَدَمُوا فِي مَسْأَلَةِ دِينِيَّةٍ. أَرْسَلْتُ قَدَانًا وَمُسْتَحْقُوهُ مَعَ عِدَدٍ مِنَ الْفَرَسَانِ. وَأَتَبَعْتُهُمْ بِجُحَانٍ.

- وَتَرَابٌ؟

- قِيلَ لِي إِنَّهُ أَسْرَعَ إِلَى هُنَاكَ اللَّيْلَةَ دُونَ أَنْ يُخْرِجَنَا أَوْ يَسْتَشِيرَنَا.

XI

لَمْ يَحْدِثْ لِتَرَابٍ أَنْ أَطْلُقَ حَصَانَهُ عَدُوًّا بِهَذِهِ السَّرْعَةِ كَمَا الْيَوْمَ. وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ حِينَ خَرَجَ عَائِدًا مِنْ مُسْتَحْقُوهِ ارْتَفَعَ عَنِ السَّرَجِ، وَمَدَّ جَسَدَهُ نَحْوَ عُنُقِ الْحَصَانِ حَتَّى صَارَا جَسَدًا وَاحِدًا، وَالرِّيحُ تَصْفُرُ فِي أُذُنَيْهِ، وَالدَّمُ الَّذِي كَانَ يَمْزِقُ رَأْسَهُ عَادَ إِلَى هَدْوَيْهِ. وَدَفَعَهُ الْخَوْفُ الْخَفِيفُ إِلَى أَنْ يَعِيدَ الْحَصَانَ إِلَى وَضْعِ الْخَبَبِ: "مَنْ يَتَعَقَّبُنِي فَأَسْرِعْ إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟ سِيرْمِينِي الْحَصَانُ وَيَذْهَبُ مَا أَنْجَزْتَهُ الْيَوْمَ سُدَى. كُنْتُ يَتَسَبَّبُ مِنْ إِمْكَانَاتِي وَلَكِنْ تَبَيَّنَ أَنَّ عِنْدِي عَقْلًا فِي مَوَاضِعِ الْحَدِّ، وَأَجِدُ الْكَلِمَاتِ الْمُنَاسِبَةَ. حِينَ أَلْجَأْتُ حَبَاطَ إِلَى الْجِدَارِ أَفْنَعْتُهُ بِأَنْ مَا رَأَى بَعَيْنِيهِ وَهُمْ فَحَسِبُوا..." - التَفَّتْ تَرَابٌ ثَانِيَةً نَحْوَ الْقَرْيَةِ رَاضِيًا عَنْ نَفْسِهِ. نَبَتْ فِي ضَحْكَتِهِ السَّاخِرَةِ الْعَرْقُ الَّذِي كَانَ يَتَصَبَّبُ عَلَى جَبِينِ حَبَاطَ فَيَمْسَحُهُ بِقَبْعَتِهِ الشَّعْثَاءِ، وَعَيْنَاهُ السُّودَاوَانِ الْقَلْقَتَانِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ مِنْ تَسَبَّبٍ فِي فِتْنَةِ قَرْيَةٍ مُسْتَحْقُوهُ هُوَ تَرَابٌ. أَلَحَّ عَلَيْهِ زَعْنَانُهُ ذُو الْفَمِ الضَّيِّقِ قَائِلًا: "لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَأْتِيَ إِلَى قَرْيَتِنَا كُلِّ يَوْمٍ. إِنْ خَصَصْتَ أَحَدَ أَتْبَاعِكَ لِمُسْتَحْقُوهِ سَهْلَ عَمَلِكَ". ظَلَّ يُلَحُّ عَلَى مُوَفِّدِ الْآلِهَةِ فَوَلَّاهُ عَلَيْهِمْ قَائِدًا دِينِيًّا رَغْمَ مَعْرِفَتِهِ بِكَسَلِهِ وَتَطَفُّلِهِ عَلَى مَوَائِدِ النَّاسِ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ زَعْنَانَهُ جَيِّدًا وَقَعَتْ فِي شِرَاكِهِ بِسَهُولَةٍ. يُقْنَعُكَ وَيُضْحِكُكَ وَالْمَزَاحُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ. وَلَكِنْ تَرَابٌ لَمْ يَحْسَبْ حِسَابًا لَكُونَ الْكَسُولُ كَذَابًا. وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ عَقْلَهُ أَنَّهُ يَوْرِدُكَ الْبَحْرَ وَيُعِيدُكَ عَطْشَانًا.

الناس يحكمون عليك تبعاً لما تعرض به نفسك عليهم. ولحكيمهم عليك قيمة. بدأ زغانه بعدما انكبّ على أمور الدين يحرص على كلامه وسلوكه. وبدأ الناس يحترمونه في المرات القليلة التي يزور فيها تراب مستخفوه فيصطحب زغانه إلى المضافات فيُشيد به ويمدحه. ثم شرعت المسيحية التي بشر بها تيمرقوه تقتلع ساقِي زغانه الدقيقتين. وقبل أن يلاحظ زغانه أمر تيمرقوه فكَر فيه تراب. وحين يخرج ديمتري الرومي من مزبه إلى مستخفوه يتخذ من تيمرقوه مضيفاً فلا يُعجب الأمر تراب. ولكن لا يجد من اللائق أن يشكو إلى الأمير ردد. وكان يعرف حماسة الأمير للمبشّر الرومي فيخاف ألا يوافقه أو ينهره. ثم إنه لم يكن يتصور حتى في الأحلام أن تنتشر أفكار تيمرقوه بين أهل مستخفوه بهذه السرعة. والمناسبة التي أدرك فيها تراب أن السيل طمى هي حين جاءه زغانه يخبره أن أهل مستخفوه ساندوا تيمرقوه ضد بشماف.

سهر تراب وضيّفه زغانه الذي أتاها متأخراً إلى منتصف الليل متقابلين ينقض أحدهما ما يقول الآخر. وبعدها انتهيا من الحديث وبدأت أجفان الضيف تتقل، قفز تراب وقال وهو يربت على كتفي زغانه:

- وجددُها! سنجعل أتباع تيمرقوه ينفرون منه.

- وكيف: - نخص زغانه أيضاً وقد عاد الفرح إلى عينيه الصغيرتين.

- موسم هطول الأمطار في جبالنا في الربيع والصيف خطير. الرعد العاصف فيها مجنون. والصاعقة تضرب، يُخَيِّل إليك أن الساعة دنت منها.

- هذا صحيح، الناس يخافون أن يخرجوا من بيوتهم.

- لنوقّت على وقع الصاعقة في أمسية من تلك الأماسي، ولنُشعل النار في بيت تيمرقوه. ونُشيع أنت في القرية أن إله الرعد انتقم منه. ثم ترى إن لم يُدِر الناس ظهورهم له...

انتظر زغانه طويلاً متلهفاً على الخدعة الشريرة التي ابتكرها له تراب. ثم جاء الموعد المحدد. غطت الغيوم قرية مستخفوه، وما إن بدأ الرعد يعبث بصواعقه حتى أضاء البرق القرية كلها، ودوى الرعدُ مربعاً. وفي الحال أسرع زغانه بجمرة وأشعل السقف الخشبي لبيت تيمرقوه. ثم هُرِع إلى بيته وهو يثبّت قبعته العالية على رأسه.

لمعت الجمرة في عيني حباط الذي كان واقفاً على المسطبة يعرض راحتيه الدافئتين للمطر فرأى كل ما فعل زغانه. فألقى بنفسه في المطر وتبّه أسرة تيمرقوه والجيران، فأخمدوا النار التي لم تجد الوقت للانتشار. وحين أخبرهم حباط بما جرى هاجم الرجال الغاضبون زغانه.

كان زغانه في الفراش متظاهراً بالنوم بعدما بدل ملاپسه المبلولة. روى حباط كل ما رأى، والعاصفة انحسرت والرعد ابتعد. وضحك زغانه كأن ما سمعه لا يهمه:

- حباط إن رأى شبيهه أصرّ على أنه هو. هل تصدّقون ما يقول؟ ترون أيّ على حالي من الجفاف قبل المطر، وفي الفراش. - لم يعترف زغانه بشيء.

- إن كان هذا موقفك فسأنتزع منك اعترافاً بما فعلت؛ تعال!

جروا زغانه يتشبّث بما تحت قدميه إلى تيمرقوه. وانقضى الليل القصير والرجال يحاولون بشتى الوسائل انتزاع الاعتراف منه. وانتشر الخبر في القرية كلها فتجمّع الناس.

ولما ضيقوا على زغانه ليقرّر بسبب إشعال النار في بيت الرجل البريء كان هذا ما يريده فقال بصوت حادّ:

- لستُ المذنب. تيمرقوه أزاح آهتنا. وقد أثبت له لأول مرة إله الرعد القوي أن هذا لن يُعفّر له. ولا يعرف تيمرقوه إلى الآن ما ينتظره من عقوبات من إله الغابة وإله الرياح وغيرهما. وأنتم إن لم تنفضوا عنه لعنكم الآلهة. وعاقبوكم عقاباً أليماً. عودوا إلى وعيكم يا أهل مستحقوه، ولا تتخلّوا عن آهتنا الأزلين!

- ولكن كيف أدّيت يا زغانه دور إله الرعد؟ - صاح حباط من بين أصحابه، من رأيته يرمي الشعلة هو أنت!

- بربكم يا أهل القرية أنقذوني من هذا القبيح. - قال زغانه يسبقه توسّله. أسأت إليه قبل أيام ولذا يبحث عن وسيلة للانتقام.

- وِم أسأت إليّ؟ - دنا منه حباط، - أنت من أسأت إليّ أم أنا من فضح كذبك؟

- كفى، ليست هذه مهمتنا، - هزّ العجوز بشماف عصاه وهذا الجمهور. - دعوا حباط يروي لنا بوضوح ما رأى، فنعرف ماذا نقرر.

وفي اللحظة نفسها أبعد تراب بصدر حصانه المجتمعين ودنا من حباط. وسأله محققاً في وجهه كمن يريد قتله:

- يا حباط، يستوي شاهد الزور والكذاب. زغانه واحدٌ من رجالات مستخفوه. هل رأيت بعينيك زغانه يشعل النار أم يُخَيِّلُ إليك؟

- أكيد، رأيت، - ارتخى صوت حباط.

- وما هذا " الأكيد "؟ عتبتَ على زغانه حين قال لك إنك تنام واقفاً. أتكون غفلت وأنت على مسطبة بيتك؟

- وكيف أنام واقفاً؟

- ألسْتُ من أقرّ قبل أيام أنك تنام واقفاً؟ ولستُ وحدي من يعرف هذه العادة منك، ففي القرية آخرون. وأسألك مرة أخرى: هل رأيت بعينيك زغانه يشعل النار أم يُخَيِّلُ إليك؟

- وأنا ظننت نفسي في البداية أحلم فقرصتُ نفسي. ولما آلمتُ لحمي فهمت أني لستُ في حلم.

- لستُ وحدك يا حباط، أنا أيضاً أرى أحياناً أحلاماً مزعجة فأقرص نفسي. لا، ليست أحلاماً. بل حين أفيق يائساً أعرف أنها أحلام فأفرج. هل الحلم الذي تراه في مكان منير؟

- ربما كان حلماً إذن. بحثنا أمس عن ملابس زغانه المبلولة فلم نعثر عليها. - سال العرق من وجه حباط المستدير الغليظ.

- ها هو أيتها القرية، - توجه تراب إلى الرجال بوجه طلق. - تلحّون على الرجل البريء من أجل حلم. ما حدث العشية والآن ليس مهماً. ولكن لا تعرفون ما تجلبون لأنفسكم من مصائب إن أدركتم لآهتنا ظهوركم. من حظكم أني قائم بينكم. أنا سأتوجه إليهم وأتوسل أن يغفروا لكم. لا أعرف تيمرقوه منذ اليوم فحسب. وأعرف من ضلّله. لو كان إله الرعد الذي ضرب بيته العشية راعباً في إحراقه لما سمح لحباط أن يرى النار التي هبّت. لم يفعلوا أكثر من تنبيهه إلى أنهم لن يغفروا له إن لم يستدر إليهم من جديد. أترجّاكم أن تحفظوا آهتنا في قلوبكم. كرّموا آلهة آبائنا وأجدادنا. صلّوا لإلهنا الكبير الشمس ثلاث مرات في النهار. وتوسّلوا إليه أن يغمرنا بعطفه.

- دُعني أقول كلمة يا تراب، - جهّز تيمرقوه صوته وخرج من بين الرجال.
 - لا يا تيمرقوه، - الأفضل لك وللقرية ألا تقول شيئاً هذه اللحظة. فكّروا في ما قلت لكم أنا. إن عدمي إلى رشدكم ورضيتم بأهلتنا فقد يغفرون لكم.
 كان تراب معتداً بنفسه إذ خرج من مستحقوه وقد دحر أهلها، ولكنه كان قلقاً لعدم إبلاغه الأمير ردد حين وصله خبر الفتنة في القرية المجاورة. وفي جميع الأحوال كان مرتاحاً إذ راجع نفسه ولو كلفته المراجعة ألماً: " المرائي يفلت منك رجلاه وأنت ممسك برأسه. أنا من لا يعرف الرياء؟ استطعت إقناع قريتي والقرى المجاورة بأني موفد الآلهة. وحملتهم على الإيمان بي. رفعت نفسي فوق الجميع فخدعتهم. ثم لحقت موضوعات لا جدوى منها فأسقطت نفسي بنفسي. وما كانت حاجتي إلى دكايس فأتزوجها؟ منها بدأت كل البلايا. ما كان عليّ أن أتزوجها. عشقتها فرخصت نفسي.
 كانت دكايس تستعد لتجهيز الغداء حين سلّم تراب الحصان المتعب لنطاي ودخل إلى البيت.

- ماذا فعلت حيث هُرعت؟
 - لا تتدخل في شؤون الرجال. - خاشن تراب المرأة إذ لم يعجبه سؤالها.
 - ورطت المسكين زغانه في مشكلاتك كفرخ دجاجة لا يستقر في مكان. فركضت تنقذه منها؛ أليس كذلك؟ - بدا من ظهر دكايس أنها ضحكت ولو لم تلتفت.

- وأي مشكلة خلقتها؟
 - ألسنت من حرّضه على إشعال النار؟
 - من أين جئت بهذا الخبر؟ - نهض تراب تسبقه عيناه.
 - سمعته من فمك، - استدارت دكايس، وهزّت في وجهه السكينة التي تنظف بها الدجاجة. - سمعت ما قلت لزغانه حين سهرتما إلى منتصف الليل. قل لي الآن إن كان كذباً.

- أتساءل يا امرأة أأنت مقيمة في البيت عدوة؟ - صرخ تراب ووجهه يتوهج.
 - أستطيع أن أعاديك كرجل إن عاديتني. - نظرت دكايس في وجهه بكامل صوتها وتوثبها تزمّ عينها العسليتين الجميلتين، - وإن عاملتني بلطف قابلتك

بالرحمة والإنسانية. ولكنك على ما أرى لا تستحق شيئاً. توددتَ إليّ بلسان معسول فتجاوزتُ عاهتكِ قائلةً لنفسِي: وما تضير عاهته إن كنتِ سأعيش معززة في كنفه فتزوجتكِ. وكنتِ أصدِّقُ أنكِ رسولُ الآلهة. والآن بسلوكك معي، وبخداعك لرغانه المغفل آمنتُ أنكِ لا شيء، وعرف آخرون ذاك منك. وهذا ما يدعوكَ إلى هذا الهيجان. وفي البداية حين بدأتِ تتذمر من أي شيء أقوله لكِ أو أفعله لم أكن أفهم ما جرى لكِ؛ كنتِ أتهمُ نطاي المسكين.

- يا دكابس، - تفتّت تراب فجأة، وجلس حيث يقف، ونظر إليها نظرة حب خالص كما كان يفعل في زمن ما. واختلجت شفتاه وتوسّل: - أنا مذنب بحقِّك، جرحتُ قلبك مراراً دون حق. وفي كل ما اتهمتني به الآن جانبٌ واحد من الصحة: لا تشكِّي في أُنِي موفد الآلهة، ولكن بدأتِ سطوتي تتسرّب مني منذ بدأ ديمتري والحاج المسلم يخالطانا. وهذا يوثرني كل يوم على نحوٍ ألحظه أنا أيضاً. وأنتِ لا ذنب لكِ في هذا يا دكابس. ولكني بدأتِ أفقد اهتمامي بكِ وبغيرك، لا أعرف إلاّ ما أُلجأ. أتوسل إليك أن ترشدني إلى مخرج إن كنتِ تعرفين.

- يا تراب، الآن تكلمتِ كإنسان فاسمعي ما سأقول لكِ، - لان صوت دكابس أيضاً، ووضعت السكينة بحذر على المائدة، وجلست: - ردد وججان ومشقوه والمرحوم داور أقران من أصل واحد، ونشأتم معاً. وكانوا يصدقون في ذلك الوقت ما تقوله لهم، وهم من جعلوا القرية تصدّفك. اغفر لي، ولتغفر لي الآلهة إنكاري أنكِ موفدهم. غضبتُ فكانتِ فلتة لسان. مضت سنوات يا تراب، وأقرانك صاروا رجالاً ناضجين منذ زمن بعيد. ونمت عقولهم ويفكرون في أمور كثيرة. وما على لسانك اليوم هو ما كنتِ تقوله لهم في ذلك الزمان. لم تفكر فيما كان قاله لكِ الرومي ديمتري. أنا لا أريد المسيحية، لا سمحت الآلهة، ولكن ألا يجب أن تطور علمك؟

- من أين أتى به؟ ممن أكتسبه؟

- من الناس. متى حادثتِ الآلهة فاطرح عليهم الأسئلة التي يطرحها عليكِ الناس. من يجيبك أفضل من هؤلاء؟

- هذا صحيح يا دكابس. ولكني أظل أخاف أن يغضبوا مني إن طرحت

عليهم كثيراً من الأسئلة. كفى، إن عدنا فاتفقنا، أنت وأنا، فأنا مسرور. أفضّل أن تعاديني القرية كلها على أن تعاديني زوجتي.

- سأجهز الدجاجة حالاً إن كنت جائعاً. - نهضت دكابس على عجل.

- لا أريد الطعام. سأمرّ على ججان. وسأقابل زعيم الخير كولس إذ لم أره منذ زمن.

- ججان غائب.

- وأين هو؟

- أرسل الأمير ردد قدان ومشقوه للتحقيق في أحداث مستحقوه فأرسل ججان معهما.

- لم تقع عيني على أيّ من الثلاثة. ربما ساروا في غير طريقي. - ارتعب تراب من جديد، - ثم عاد فجلس مهموماً بالخبر الذي سيعودون به إلى الأمير. - أنا تحدثت جيداً إلى أهل مستحقوه. وأعدّتهم إلى وعيهم. وأظنهم استوعبوا كلامي، ولكن لا أعرف بمّ سيخبرون وفد الأمير. ما رأيك يا دكابس؛ أظنّين أن أميرنا سينحاز إلى تيمرقوه؟

- لا تسمح لمثل هذه الوسوس أن تغزو رأسك يا تراب، - غمست دكابس الدجاجة في مزيج الثوم والملح، والتفتت، - أميرنا الكبير يبحث دائماً عمّن يستفيد منه الصواب كائناً من كان. ولكني واثق أنه لن يتخلى عن آهتنا في أي ظرف. في الأيام الأخيرة لم آتِ على ذكر آهتنا لرامبس لأنك أفقدتني الثقة فيهم. ولكني كنت سابقاً آتي على ذكرهم في حضرة رامبس والأمير لأنك أكّد أنّهما ما يزالان يؤمنان بهم ولم يجذبهما الرومي ديمتري إلى صفّه. الأم وابنها مخلصان بقلبيهما للآلهة. وإن حاول تيمرقوه تجاوز حدّ دعاهما إلى دينه فلن يتقبل منه الأمير ولا والدته. إطمئنّ من هذه الناحية!

طمأنّت كلمات دكابس قلب تراب الجريح كأنها طلّته بزبدة جاموس طرية. فرفع جناحيه من جديد آمناً. ثم نهض بعدما شدّ القميص الذي رفعته حديثه:

- وعلى كل حال سأخالط أهل القرية وأسمع أقوالهم ولن أطيل غيابي، - اصطنع تراب ضحكة لزوجته، وخرج.

نهر موفد الآلهة نفسه حالماً تجاوز سور البيت أكثر مما لامها: " الناس يزدادون

وعياً مع العمر في حين أزداد أنا غباءً. لم يفتح عقلي إلا حين بدأت دكابس تكشف عيوبي وتتجرأ عليّ. ومن أين تأتي بعدوٍ أشدَّ خطورة من المرأة التي في بيتك؟ كدتُ أقتل نفسي بنفسي. بدأت أتشفى منها بدلاً من أن أظلّ أبتسم في وجهها فاقتربتُ من حافة هاويتي. ثم أغلقت فمها ولو متأخراً. ولتتصورُ أيَّ عدتٍ إليها بعقلي وقلي؛ لا بأس سأطردها هي ونطاي شرَّ طردةٍ في الوقت الذي أراه مناسباً. لستُ جاهلاً بقول الناس: اغرز عموداً واحداً للمرأة الصالحة تُسعذك. ولكن دكابس لم تتزوجني لتساندني كعمود، بل طمعاً في ما أملك. لم تجلب شيئاً مما في بيتها إلى بيتي. أعادت كل ما تملك إلى بيت أهلها. وتخفي أكثر مما يحمله إليّ الناس. ولا تتصورُ أيَّ لا ألاحظ هذا! أقول هذا ولكن متى خاطبتها بوضع كلمات لطيفة عادت تنصحي. لا أعرف؛ أنا لا أفهم النساء... "

مرّ تراب على المحددة، ووقف بعض الوقت يراقب معالجة يمزش لقوائم حصان أدشس. سأل الحداد عن حال دكابس وعن صحة الجارة العجوز. وكان الرجلان اللذان قدما لشحذ فأسيهما ودودين مع تراب. ولكن لم يسال أحداً منهم، لا أدشس ولا الحداد ولا الرجلان، عما جرى في مستحقوه. فقال في نفسه: "إما أنهم تكلموا في الموضوع ونشوا، وإما أنهم لم يسمعوا بعدُ" التقى بججان وهو عائد من المحددة إلى البيت.

- ما أحسن هذه المصادفة يا تراب! - ترجل ججان مرحباً به. - كنا في مستحقوه نبحت عنك ولكن لم نجتمع. أوقعنا جيراننا في بلبلة. وما أسرع ما فارقتهم!

- هل كنت تريدني أن أبقى أجادل تيمرقوه؟ - تنهد تراب واثقاً من نفسه، - هو من كان يريد التخلي عن آهتنا. غير أني وقفتُ في طريقه.

- حسناً فعلت يا تراب. ظننا أن أهل مستحقوه سيتحاربون بعدك. هداهما العجوز بشماف وقدان بصعوبة.

- ومن كانت معه الأكثرية؟

- أظنها كانت معك. يا مبارك النسل أنتخلي عن آهتنا نتيجة كلام هذا أو ذاك؟! لا أعرف، من جهتي أنا ملؤوا قلبي رهبة.

- ألم تعودوا إلى الأمير، ماذا كان رأيهِ؟

- نعم، أليس هو من أرسلنا. وهو أخبرنا بصلابة: " لن أطلب أبداً إبعاد الآلهة التي أخلص لهم الأديغة طوال عمرهم من أجل إله واحد منساقاً وراء دعاية أحدهم، وأنا في هذا مع تراب " هل عرفت: الأمير ردد رفع شأنك اليوم بين الجميع.

- ليكافي الآلهة أميرنا إن أثني عليّ! - التمتعت عينا تراب الواسعتان والفرح يُشعّ من صدره. - تعال إلى بيتك، لم أر كولس زعيم الخير منذ أيام. أثني تراب بكلمات لطيفة على العجوز الذي تراجعته صحته. ولكنه لم يستطع تغيير النظرة الثقيلة التي ألقاها العجوز عليه. وبعدما استمع إليه حتى النهاية قال له:

- كلامك معسول يا تراب ولكنه مُرٌ عليّ. أنا لم أعد بحاجة إلى المديح، ولا شمس الصيف أدفأت عظامي. ولكني ما زلتُ أحتفظ بعقلي. ما زلتُ قادراً على الشعور ببرودة كلام من يحدثني...

انتظر تراب بضعة أيام ثم قابل قدان ومشقوه. ولم يحصل من الرجلين على شيء مما ملأ به ججان نفسه من الطمأنينة. وتوقع أن يستدعيه الأمير ردد ويثني عليه في أحداث مستحقوه، غير أن هذا أيضاً لم يحدث.

بدأت مخاوف تراب تزداد يوماً بعد يوم، وبدأ شعوره بعزلته يتنامى. ولاحظت دكايس أزمة زوجها من لجوئه إلى الوحدة في أرض الدار. كان يحدث نفسه: " لو كان الأمر يقتصر على القسوغ لهان، غير أنني واثق أن الحكوف سينقلبون اليوم إلى المسيحية بإشارة من الأمير. ولن يبقى مخلصاً لأهتنا إلا الزيوخ على الساحل. أنا أقنعهم بأنني رسول الآلهة، ولكني لستُ من ابتدعهم؛ أجدادنا أيضاً عبدوهم..."

سمع تراب من داخل الإسطبل صوت الباب، فمشى على رؤوس أصابعه ليرى الجارة العجوز التي استاء جداً منها متهماً إياها بأنها أول من تشي به إلى أهل القرية. ثم انقلب قائلاً: ليقولوا ما يشاؤون. لن أجد ملجأ أفضل من أبج أمير الزيوخ. أظن ردد تأثر في أسره لدى الروم بأفكارهم، إذ يستسخف كل ما أقوله له في حين يعجز الأمير أبج عن التعبير عن فرحه بلقائي. وفي آخر لقاء به

كاشفني برغبته في استقدامي إليه. وما إن ألتقط أنفاسي حتى أنتقم من ججان الذي خدعني، ومن قدان ومشقوه..."

تسلل تراب من الإسطبل زاهداً في مقابلة دكابس والعجوز، وخرج مجدداً من الدار، وتوغل في القرية حيث تقوده عيناه.

XII

لا يناضل الزعيم من أجل المنصب؛ يؤلّد والزعامة في دمه.

الأمير ردد بطبيعته الهادئة، وسلوكه وتصرفاته، ونظراته المتقدمة، كأن أسرته جمعت كل ما عنده من حسنات وغرستها فيه. ومن جهته كان يود أن يعمل من أجل قومه، ويستنهض هم أبناء قومه لينافسوا الأقوام الأخرى. ولم يكن طريقه معبداً طوال هذه السنين. وظهر من ينافسونه على منصبه. وسعى نخلش ما دام في قوته للحلول محله. وكذلك حكوف بارج.

لا حياة حيث لا صراع! اختبر الجميع رجولة ردد وعقله ولطفته على قومه. وكان يعرف من نفسه متى يضع شخصه على رأس قومه، ويقدم ما عنده لأجلهم.

وبين أصحاب العقول النشيطة من يسارع اليأس إلى قلوبهم. وليسوا قليلين بين القوم من إذا هُزم مرة ولم يفهم قومه ما يقدمه لهم تقاعد عن العمل بحجة أنه لا يطلب من الحياة أكثر مما يطلب الآخرون. لم يكن السبب الوحيد لشهرة ردد بين الأديغة أنه ابن لاورستن ورامبس، بل اتصف، إلى جانب ما وهبته الآلهة له، بثبات ورحابة صدر وتفأول. لم يكن ينسى في أقسى المواقف ضرورة أن يكون في خدمة قومه.

كان الأمير ردد الذي جمع الأديغة يشعر في كل يوم بضرورة تقوية القوم، ومنافسة الأقوام الأخرى المجاورة بهم، وفرض احترامهم عليهم، فيبحث عن الحلول. ويتفهم أنه لا يكفي أن تشتغل فتأكل حتى تصبح دولة. ورثب ما يمكن أن يستفيد به من الأرض التي تعيش عليها الأقوام الأخرى. وكان يوازن بين ما يأتي به التجار من أقمشة وبضائع أخرى، وإن لم يكونوا قادرين على صناعتها في بلادهم، وما يمكن أن يحصلوا عليه، وما يمكن أن يبيعهو هم من

نتاجهم. ودفع مجموعات من العمال إلى الجبال ومصببات الأنهار وأسافل المضائق يبحثون عن الذهب والفضة اللذين هما قِوام التجارة في أي مكان. من لا يملّ يحصل على ما يريد. كانت المجموعة التي أطلقها دامر أول من اكتشف طريق الذهب. خرجت المجموعة من مضيق شاكا، وتسقلت حتى وصلت إلى قمة الجبل، وتجاوزتها إلى الشرق حتى وصلت إلى منبع نهر شُغواشه فوجدت فيه حبيبات من الذهب بقدر حبات القمح والشعير. توقف العمال عند الأرض الرملية، وغربلوا رمل الماء، فاكتشفوا أن كثيراً من الجداول، فضلاً عن الأنهار، تحتوي على الذهب.

وبين سكان الجبال من استطاعوا الوصول إلى الطبقات المحتوية على الفضة. وبَنَوْا أفراناً لصهرها. وكان سكان ما وراء الجبال يجلبون للحدادين ما في أرضهم من خامات الحديد، فأكثروا من أفران صهرها.

شعر الأمير ردد أن أساس الدولة يتوطد حين أضيف الذهب والفضة والحديد إلى ما كان عند الأديغة من محاصيل زراعية وفواكه ومواشٍ. ووجّه إلى استخراج الفحم ذي النار الشديدة من الأشجار الخاصّة به. ورَتَّب جمع كل هذا الإنتاج المتنوع في قبضة واحدة لإغناء واردات الدولة، وكلف أخاه شوباش بالمهمة، وأرفق به مشقوه وأدشس. لم يكن شوباش يريد التخلي عن مهمة تدريب الجيش، وتردد خوفاً من العجز عن المسؤولية الجديدة، ولكنه لم يخالف قرار الأمير الكبير.

ومنذ نهاية الخريف إلى نهاية الشتاء، إلى أن يحين موعد الأعمال الزراعية الربيعية، كان يشغّل الفلاحين في أفران الذهب والفضة والنحاس والحديد. وشوباش ينقذ بكل إخلاص ودقّة أيّ مهمة يكلفه بها الأمير. وفي منصبه الحالي لم تكن حدود لجولاته. يجمع الناس حيث إليهم حاجة، ويُبيل كلاً ما يحتاج من مساعدة في العمل.

في أحد الأيام، وقد بدأ الشتاء يغلب الخريف، جاء شوباش يطلب ملابس دافئة. وحالما دخل دار الإمارة استقبله أغبان الجهم الدائم بوجه طلق ينقل إليه بشرى:

- هات الحلوان يا شوباش؛ عندك أخٌ صغيرٌ جديد.

- ومتى جاء الولد؟ لن نُخبرني بأسرّ إلى قلبي من هذا يا أغبان. أدعو إلى الآلهة أن يجعلوه خيراً علينا. - ابتسم شوباش لامع العينين في وجه أغبان. ثم أخرج من جيبه قطعة ذهبية صغيرة ومدّها إليه: توقّعتُ هذا فحملت القطعة، لا تُخبر ردد؛ لن يقبل مني.

- مهّدت للخبر فحسبُ بطلب الحلوان، - وضع أغبان القطعة في جيبه رغم شعوره بالخجل. - بلغ الآن واحداً وعشرين يوماً.

- لماذا لم تخبرني خلال هذه المدة كلها؟ - غضب شوباش. - كانت رامبس راغبة ولكن الأمير ردد لم يوافق. لم يبلغوك بحجة أنه لا ضرورة لإخبارك بكلّ مولود جديد. - وماذا سمّوه؟

- ليس بعد، ينتظرونك لتسميه أنت.

- سأسميه إذن "زفس"¹ كنت أنوي هذا للمولود القادم.

في المساء وقد انصرف شوباش واختلى ردد بأمه، بدأت الأم بلهجة تأنيب: - الحقّ يا ردد هل تريد استنزاف أخيك الأصغر؟ ألا ترى أثر الإجهاد عليه؟ ماذا يقول أهل القرية إن رأوه هكذا؟ هل نسيت طباع الأديعة؟ وأنا أول من سيدينونه. سيقولون لو كانت ولدته لما قستُ عليه إلى هذا الحد. - هل تظنين أنني أجبره؟ برّأ ردد نفسه، - يتفاني شوباش في أي عمل أكلفه به.

- احرص عليه يا ولدي! من يُطعمه في الجبل في حينه؟ ثم هناك موضوع آخر أنساه مع المستجدّات: ألا يكفي ما عاش وحيداً؟ ها هو صديقه أدشس نسي الناس متى تزوج.

- هل تقصدين يا أمنا أن عليّ تزويج أخي الأصغر؟ - ابتسم ردد، - ليس من اللائق أن أقترح عليه الزواج.

- ألا تجد من يُفأخّه إن لم تفعل أنت؟ - تابعت رامبس مجادلة ابنها، - اطلب من أصدقائه أن ينصحوه.

¹ لقاء، اجتماع.

- أنا عثرت له على فتاة جميلة جداً ولكن لا أعرف رأيه هو، ولا أظنك ستندمين عليها كَنَّةً جديدة.

- ابنة من يا ولدي؟ - قطّبت رامبس، وبدا من عينيها استغرابها.

- الأخت الصغرى للأمير الزبيخ أبج. كان اصطحبها إلى اجتماع القسوغ في العام الماضي. وإن تذكرت فهي من رقصت معها.

- وكيف لا أتذكر! ألن يكثر تردده على البيت إن كانت لي مثل هذه الكنة؟

- ارتاحت رامبس قلباً وروحاً شاعرةً أنها ارتاحت من شكواها الأخيرة من أعمال البيت.

جلس ردد على سرير المضافة غير مستعجل على النوم. سرى دفء لذيذ في قلبه من لطف أمه رامبس الصديقة على شوباش، ثم عاد إلى أفكارها في مسائل الدولة. كان تفكيره توصّل إلى معظم هذه الأفكار، ويناقشها بينه وبين نفسه، وبعضها لم يكن خطر له. " إذا كان لأنا كل هذه الأفكار والآراء في موضوع الدولة، ولها بُعد النظر؛ فكيف كان والدي؟ " تألم قلب ردد من نشأته خارج ظلّ والده. من حسن حظي أن كولس زعيم الخير رعاني في غياب والدي، ولقّنتني أفكاره. والآلهة أعطوني عينيّ اللتين لا تشبعان من النظر. وأودعوا صدري أسرع ما في الوجود، القلب الصغير يطوف على البلدان، وما عانيته يمثل لعيني. لا يجوز أن نجلس كسالى إلى جانب الموقد...

قطعت أصوات حديث وضحكات أفكار ردد. وقبل أن يرفع رأسه دخل ججان إلى الغرفة:

- ما أحسن أن أجذك يا أمير في لباسك! مدّ الصديق يده دليلاً على أنه سيروي خبراً ساراً. - عدت قبل قليل من ساحة التدريب فوجدت عندى ضيوفاً كباراً. جاء ديمتري وبرفته رومي آخر يقول إنه يعرفك جيداً. - ما اسمه؟ اختطف ردد رأسه.

- كأنه قال كوستق؟

- أكون كوستاس؟ - نهض ردد الآن بكل ضخامته.

- نعم، نعم، هو كوستاس. - لا أجيد الأسماء الرومية، نسيته على الطريق. حاول جاهداً أن يتخذك مضيفاً، ولكن ديمتري رفض. أقنعه بأن الأديغة لا

يجبون تبديل المضيف فتوقفا عندنا.

- كان كوستاس مترجمي في بلاد الروم. - وأضاف ردد وهو يبحث عن أسلحته: - رجل أسمر طويل. ذو لحية مدبية، وعلى خده الأيسر شامة سوداء صغيرة. أليس كذلك؟

- لم أنتبه إلى الشامة على وجهه، ولكن اسمه ومظهره كما رويت.

اختفى ردد وججان في العتمة فتبعهما أغبان بخط شبه صامتة.

- تفضل يا أمير، تفضل، ضيفانا متشوقان لرؤيتك. - استقبل كولس الأمير بحفاوة صادقة.

صافح ردد ديمتري باسمًا. ثم وقف أمام كوستاس وشفته تحتلجان، واغرورت عيناه بالدموع، ورفّ جفناه لأياً يتأمله، فعانقه بقوة. ثم تبادلوا النظرات الدافئة متماسكين من الأكتاف.

- لم يمض عليّ يوم يا كوستاس دون أن تخطر ببال.

- وأنا كنت أنذكرك كثيراً. ونأتي بعدما تعرفت على ديمتري على ذكرك كلما التقينا. ولما عرفت أنك صرت أميراً كبيراً على قومك فرحت لك كأن أُمي ولدتك.

- لم تكن تصدّق وقتها أنني أمير القسوغ؛ أليس صحيحاً يا كوستاس؟ - ابتسم للضيف بخبث وهو يدعو للجلوس.

- ما الفائدة الآن من قول الحقيقة؟ - ردّ عليه بنظرة ودّ صادق، - كنت أقول: إن كان أمير القسوغ حقيقة فكيف وصل إلى هنا؟

- وأنت كيف صرت تاجراً؟

- حين هربت، إن كنت تتذكر، فتحت لي قطعة الذهب التي خصصتني بها الطريق. اغتنيت من التجارة واشترت سفينة. ومنذ سنتين أو ثلاث أسافر إلى دول أخرى.

- وماذا تنوي أن تستورد من عندنا؟

- جلود الأبقار والأغنام والصوف والعسل. ولكن هل تعرف أن من سبقوني كانوا يستوردون جلود الخراف بكثرة. والآن كأنها مفقودة البتة.

- ونحن صرنا بحاجة إلى تلك الجلود. نستعمل الكثير منها.

- وماذا تفعلون بها؟
- نلتقط بها حبيبات الذهب الدقيقة في مجاري الأنهار. نفرشها في المضائق، فتلتصق بها تلك الحبيبات.
- نعم، سمعتُ من زمن بعيد هذه الطريقة في نواحيكم.
- وما أخبار بانتاليد؟ هل وجد من يصارع به بعدي؟
- رحل بانتاليد، ليوَجِّهه الله إلى الخير حيث رحل. لم يكن رجلاً صالحاً. ولكن لا نريد الكلام على الميت بالسوء.
- هل مات من مرض أم...؟
- قتله الأشرار. سلبوه ما عنده من ذهب وفضة وفرش، ورموا به في النار.
- لا تلقى خيراً إن لم يكن في قلبك الخير؛ أليس كذلك يا كوستاس؟ - اشترك كولس في الحديث، - ربما حرست الآلهة الأمير الشاب الذي هو معقد الأمل.
- ليس ردد وحده من آذاه بانتاليد. - وافقه كوستاس، - الرجل نكب المئات. وبينهم من لا يغفر لك وجع ظفره.
- بمناسبة اجتماعنا يا كوستاس، وأنت أيضاً يا ديمتري، - عاد الأمير ردد فاستلم دفعة الحديث، - لي رجاءٌ عندكم في أمور الدولة التي تشغل بالي.
- نسמעك يا أمير. - لن نألو جهداً في ما نستطيع، - قال ديمتري كمن ينتظر هذا الطلب.
- إن لم يكن جِمالاً عليكم فسأرفقكم في عودتكم ببعض الأشخاص من عندنا.
- ولماذا يصعب علينا؟ ألا تتسع السفينتان لبضعة أشخاص آخرين. - نظر ديمتري في وجه رفيقه متسائلاً - ما رأيك يا كوستاس؟
- نحملهم في قلوبنا إن رأيت يا أمير هذا، - نظر كوستاس إلى ردد بؤدٍ، وسأله: - ماذا ستكون مهمتهم؟
- سيتعرفون على أنظمة دولتكم وقراراتها. وأكثرُ ما نحتاجه هو السلاح.
- تعرفان ما عندنا، وإن وجدنا ما ليس عندنا اقتنيناها. وعندنا صُنَاع ماهرون.
- لا بدَّ أن تحتاج إلى سلاح إن كان عندك جيش. - سرى قلق في وجه ديمتري، - إن شاء الله يا أمير تعيشون السنوات الأخيرة في سلام.
- أرى أن الجيش المتوفر يجب تزويده بالسلاح سواء في وجود خطر أو

عدمه. - عارض كوستاس رفيقه.

انتبه الأمير ردد إلى القلق الذي سرى في وجه ديمتري. وسأل وهو يعرف أن كوستاس عبّر ببراءة عما في نفسه:

- ألم يُعجبك الحديث في موضوع السلاح يا ديمتري؟

- لا أريد أن أوْمَلَك ثم أعتذر يا أمير، - قال ديمتري صراحة ما يتوجّس منه. والحقّ أنت تعرف جيداً ما تريد بيزنطة، أمير توم -تقاش مستيسلاف يؤيد زعماءنا. وكثير من الروم يعيشون هناك. وأنت لا يُرضيك توطد الروسيج في أراضٍ كانت سابقاً للأديغة. وهم لا يكتفون بهذا بل يطلبون منكم الإتاوة. وأنت تعرف أن الروسيج سيغيرون عليكم إن عاجلاً أم آجلاً. أليس صحيحاً يا أمير؟

- لا شك في هذا يا ديمتري.

- إن لم تعتنقوا المسيحية فستكلّف بيزنطة الروسيج بالإغارة عليكم. ولن يقبل زعمائنا أن يزودوكم بسلاح تهاجموهم به. وهذا ما بعث فيّ القلق. لن نذخر جهداً، كوستاس وأنا، لتأمين السلاح إن لم يقفوا في طريقنا. - إن نجح مسعناً كان خيراً وإلا فليس بيدنا شيء. - لطم ردد براحته الضخمتين فخذه، ونهض. - أماننا الغد، وبعد غد. استريحاً، ولنا كلام لاحق.

أيقظ ردد الفرسان باكراً وأرسلهم إلى القرى المجاورة وإلى الحكوف والزبخ والموط. وأمرهم حازماً باستدعاء من يحتاج إليهم. ولم يسمح لشوباش بالعودة إلى الجبل الذي أتى منه.

وفي الأسبوع التالي خاطب ردد زعماء القرى المجاورة الذين جمعهم في مزبه:

- أبتهل إلى آلهتنا أن يشملونا برحمتهم. أنتم من أعتمد عليكم في السراء والضراء. يقول كبارنا: " من لا يعرف النظام يذهب ليحلبه "، لا أعني بهذا أننا لا نعرف النظام. عاداتنا ليست أدنى من تلك التي للأقوام الأخرى إن لم تُلقَّها. ولكننا نفتقر إلى الكثير مما في الأقوام الأخرى. نحن أسسنا دولة منذ عهد قريب جداً. الروم والمصريون وغيرهم يعيشون في دولٍ سويّة منذ عهد بعيد. لن نستطيع الوصول إلى الجميع ولكن أرى، إن وافقتموني، أن أرسل شوباش مع

بضعة شبان إلى الروم. وأعينَ تيمرقوه رئيساً لمن سَأرسلهم إلى الروسيج فهو يعرف لغتهم. ومن سنرسل إلى جنوة؟

- بين القادمين من الزِيخ شخص يعرف لغتهم يا أمير، - صاح تيمرقوه من بينهم.

- ممتاز. والذين سنرسلهم إلى إيران؟

- أنا عشتُ مع الأَلان. - عَرَفهم بنفسه رجلٌ صبح طويل القامة قادمٌ من الموطن. - ولغتهم تتوافق ولغة إيران نوعاً ما يا أمير.

- وأنت كم شخصاً معك؟

- رجَلاَن.

- اتفقنا إذن. سيسلمكما مشقوه وقدان أجرة الطريق. ليس اليوم ولا غداً، سافروا متى صرتم مجموعة لا بأس بها. راقبوا ما ليس عندنا ونحتاج إليه إذ سنشتريه. قولوا إن كنا نسينا شيئاً أو لم نفطن إليه. لا تدعونا نتحسّر على أن لم نتذكر من البداية.

- عندي سؤال يا أمير، - سَمِع صوت تراب من باب وراء الأمير، - بأي لغة سيكلّمهم شوباش الذي سترسله إلى بلاد الروم؟

- يكلمهم بلغتنا، - التفت الأمير إلى تراب كاظماً غضبه، - اترك قائمة الباب واجلس مع الرجال.

- وهل تحوّل الروم إلى أديغة أم تعلّم أخوك لغتهم؟ - سأل تراب ثانية وكأن الأمير لم يسمع كلامه.

- أقول من أجل أن يتفق من يحضرون اجتماعنا، - توجه ردد إلى الرجال ولم يتوقف عند ما عُرِضَ به إليه، - لم أوجه شوباش إلى بلاد الروم لأنه أخي. عندنا ضيفان روميان هذه الأيام. وكلاهما يتقن لغتنا. أحدهما كوستاس، صار صديقاً لي حين كنت في بلاد الروم، وهو جدير بالثقة. والآخر ديمتري معروف في كل إقليم الأديغة. وهو أيضاً رجلٌ صدق. وقد اتفقت مع الرجلين على أن يعملّا وسيطين مع شوباش، ولبتيا طلباته وإن كان رأيكم أن شوباش لا يصلح واقترحتم غيره فأنا موافق. والمهمة التي أبعدته عنها مهمة كبيرة.

تقاطر الرجال، وصاحوا مؤيدين الأمير:

- أرسل شوباش، جدير بالمهمة!

- أ تكون تريد الذهاب إلى بلاد الروم يا تراب؟ - قال تيمرقوه مهذباً نفسه، وأنهى بنبوة أشدّ تصميمًا: - تراب يبحث عمّن يكسر له ظهره. انقضّ علينا قبل أيام كالصقر، وأثار الفتنة بيننا وانسلّ دون أن يسمح لنا بتوجيه كلمة إليه. - هل كنت تريد أن أتكلّم إليك يا صاحب الوجه الصليبي! - رد تراب لا يضبط نفسه، - وأنت يا أمير ساندتُك فارضأً احترامك على الناس، مثمنًا كلامك، غير أنني لا أملك مزيداً من الصبر. لا أوافق على ما تحدثتم في الاجتماع ولا ما قرّتم. البلدان التي سترسل إليها وفوداً تخلّت عن أهلتها. وتطلب منا أن نفعل مثلها. وأنت تتأمل أن تقبّس أنظمتهم وتتخذها مقياساً. ما تقودنا إليه هو نهايتنا. سيلعننا الآلهة، ويخسفون بنا الأرض.

- كلبٌ من عضبك يا تراب؟! - ردّ عليه الأمير غاضباً، ونظر في وجهه مستغرباً، متسائلاً إن كان حدث شيء لعقله. - ما العلاقة بين تعلّم نُظُم الدول وبين الدين؟

- افعّلوا ما شئتم، واذهبوا حيث تريدون. ولا تبحثوا عن تراب حين يخسف بكم الآلهة الأرض! - استدار تراب، وخرج من الدار. كان تراب يُغذّ السير إلى بيته مغتاضاً، معتداً بمهاجمة الأمير، معتبراً نفسه اجتراح بطولة. غير أن الرعب عاوده حين اقترب من البيت فخفف من سرعته. لم يكن يريد أن تقع عينه على دكابس، دُعك من نطاي الذي يخشى أن يتشاجر معه أو يؤذيه.

" لم يش بي إلى دكابس غيره، - اصطكت أسنان تراب، - ليت هذا المخبث وقع بين يدي فقطّعته! كنت نقسّ عن ضيقي. يا حسرتي يا تراب، لأجل مثلك قالوا: متى قرر الذئب اختطاف الكلب غير الأخير مرقده. إن تزوّجت من شبع منها الرجال فهذا مصيرك. كنت عيّرتها بأن رائحة نخلش الأصهب وحقار وغيرهما تفوح منها، فأمطرتها بكل ما أعرف عنها، ولكن لم يرفّ جفنٌ لدكابس. أما أنت يا ردد فالآلهة أعطتك عقلاً كبيراً، فأسأت إليك من غيظي. وأنت لا تريد الخير لي، تنتزع مني ما بنيتُ لنفسي بالكذب والصدق. ولن أستطيع المضيّ بعيداً إن تخلصت منك. لم يبق لي إلا الزبح المخلصون لأهلتنا "

كان تراب أخفى في الزريبة ما عنده من ذهب ومن فضة ولباس، فجمعها في كيس ربطه إلى سرج حصانه، وخرج من مزبه لم يلتفت إلى بيته ولا إلى مواشيه، وتوجّه إلى أرض الزبخ.

XIII

كان الأمير ردد وقدان هما المهمومين بمن أرسلوا إلى البلدان، وبما سيأتون به، ويتكلمان يومياً في الموضوع. ومتى حان موعد عودتهما إلى البيت من أي مكان، ومن أي مهمة، كان هذا هو الموضوع المؤرق لهما. وأكثر من يتأمل منه الخير من بين موفديه هو أخوه الأصغر. إن جلب الأسلحة معه أمكن أن يسلّح الجيش بغير السيوف والقيسيّ.

عادت أولى البعثات بعد قرابة شهر، وتبعتها بعثات أخرى. وكان الأمير ردد وقدان يستمعان إلى ما تحمل كل بعثة من أخبار. فإن سمع الأمير ما يعجبه أو ما يهّمه طلب من قدان:

- احفظ هذا في قلبك، ودكّرني به إن نسيت!
- سأذكرك، ولكن هل تعرف بم أريد أن أذكرك الآن؟ - سأل قدان باسماء، وأضاف بسرعة: - هل تتذكر كيف تصرّف معنا تراب على نحو غير مسبوق ساعة اجتماع الوفود؟

- أتذكر، كنت أودّ استدعاءه وتوبيخه فإذا به يعود إلى الزبخ.
- وقف على عتبة الباب لأن مثل هذه الغباوات في رأسه. سأرسل الشباب يتخلصون منه. ما حاجتنا إلى هذا الثرثار؟

- اتركه! - لم يقبل ردد. - الآلهة أنفسهم لن يفعلوا بالجنون مثل ما يفعل هو بنفسه. لا أفهم لماذا ضم الأمير أبع إليه من لم يستقرّ بيننا، وأتعجب. في الأمر شيء غير مفهوم. يبدو أنه لا يوافقنا في مسألة الدين. وصلنتي معلومات متفرقة... - ثم ترك الأمير الموضوع الذي يشغل باله: - ما أخبار دكابس؟ هل تنتظر عودته؟

- لا، لم يمض أسبوع على رحيله حتى عادت إلى بيتها رافضة الإقامة في بيت غيرها. وضمت إليها نطاي. وأرسل تراب من استرجع له متاعه ومواشيه.

- كنت أُنذرتُ تراب بهذه النهاية. - حسناً دعنا من هذا ولنتكلم في شأن تأخر بعثتنا إلى بلاد الروم.

- وماذا سنقرر يا أمير؟ لن نسمح للناس أن يضربوا بنا المثل: أرسل الولد في مهمة واتبعه! سننتظرهم. هذا قدان الأمير.

مضى شهرٌ واثنان، ولا خبرٍ عن شوباش ورفاقه. وبدأ الأمير يقلق. وإذا كانت رامبس السيدة الكبرى لا تفتح ولدها مباشرة بالموضوع فقد كانت تحتج أحياناً على مسمع منه:

- أرسل الولد الساذج إلى ما وراء البحر وأنا أتوقع أن يزوجه. - أما كان بقي بين القسوغ لابسُ قبةٍ غيره؟

وفي يوم ما نفذ صبرُ ردد فردّ على أمه:

- أرجوك يا أمي لا تضيفي هماً إلى همي! ليس قلقي على شوباش أقل من قلقك. أنت لا تعرفين سبب إرسالي له إلى بلاد الروم.

- ولا أريد أن أعرف، - انكسر صوت رامبس السيدة الكبرى. - وفي اللحظة نفسها امْتُقِع وجهها وازرقت شفتاها. ولطمت صدرها بيديها وتهاوت حيث تقف. أسرع ردد إليها وحملها إلى الفراش. ونظر في وجهها مرتعباً:

- ماذا جرى لك يا أمانة؟ - جلس على حافة السرير ومسح على وجهها، - ساجيني إن سببت لك الحزن!

- لا يا ولدي، - تنقّست الأم ملء رثتها إذ ارتاح قلبها. - أخفيت عنك إلى الآن ولكن ليست هي النوبة الأولى. والكنة لم تضبطني في هذه الحالة إلا مرة واحدة. توسلت إليها ألا تخبرك.

- سأحاسبها على هذا! - غضب ردد.

- لا يا صغيري، لا أقبل أن تسيء إليها بكلمة واحدة. ما أكتّمها للسرّ؛ امرأة طيبة!

- كراث تفهم في الأدوية.

- تناولتها ولم تنفعني. - تنهدت رامبس عميقاً. - أتريدني يا ولدي أن أعيش ما لم يعيشه إنسان؟! حتى والداي والمرحوم والدك بدؤوا يزوروني في الأحلام ويستدعونني.

- هذا أسوأ حديث! - مسح ردد على وجه أمه مستلماً منها زمام الحديث. وهل أنتَ عجوز إلى هذا الحد؟ اعتبريني سقط أحد جنبي متى فقدتُك يا أمنا. اضبطي مشاعرك، وتسلّحي بالقوة. سيعود شوباش ونزوجه، وتشهدين عرسه. بل ستشهدين عرس حفيدك الصغير.

- لِنَبْطِقْكِ الآلهة بالخير يا ولدي! أنتِ ابتعدت كثيراً، وأملِي صار قصيراً، - رأى الابنُ دموعَ رامبس لأول مرة.

عاد شوباش ورفاقه مساءً إلى مزبه وقد دخل غياهم في بلاد الروم شهرة الثالث. كان شوباش زاد نخافة على نخافة. ورفاقه بين الحياة والموت. ولم يحملوا معهم أو يسترجعوا شيئاً يُذكر.

- ألم يُطعموكم حيث كنتم يا أخي الصغير أم كنتم مأسورين؟ تأمل الأمير شوباش ورفاقه واحداً واحداً مشفقاً عليهم. ماذا جرى لكم وما سبب تأخركم؟ - لم يجر لنا أيُّ خير، - نظر شوباش في وجه أخيه شاردًا. - لم يأل كوستاس وديمتري جهداً. ولولاهما لصعب علينا ما فعلنا. ضبطونا بعد وصول ما اشترينا من سلاح إلى المرفأ، ولا أحد غير الآلهة يعرف كم عذبونا. سلبونا كل ما اشترينا لجيشنا؛ ظهر من يشي بنا كما توجّس ديمتري. ولكن كوستاس انكشف عن رجل قوي فجعلهم يعوّضوننا ما دفعنا. هذا ما أنهكنا يا ردد؛ لم ننج، ولم نقع في الأسر.

- المهم أنكم عدتم بسلام، - ابتسم ردد لأخيه، - أنا أرسلتكم على الأمل فحسب، وإلا فكيف يضع من يخالفك في الدين السلاح في يدك لتحارب مُداينيه؟! اذهب وقابل أمنا وطمئننها. ما كانت لتتحمل أكثر من هذا.

تأكد الأمير ردد الآن أن دولة بيزنطة الشرقية لن تتوقف حتى تحقق مشروعها المسيحي.

I

"ربما كانت الآلهة قدّرت لكل عرق من الأعراق التي خلقوها حظّها من الدنيا. - غرق شوباش دون أن يدري في الهمّ القومي. - أنا لم أعش عمراً طويلاً ولكن ما رأيته في بلاد الروم ما يزال أمام ناظريّ. القصور الحجرية الضخمة الجميلة تبهر العيون. طُرُقهم وأبنية بيوتهم مرصوفة بالحجر. والقلاع التي أرايها كوستاس تزيد سماكة جدرانها على الخطوة. وإن نظرت إلى أعلاها سقطت قبعتك عن رأسك. وهذه لا يمكن أن يؤثر فيها السيف والسهم. وملاهي البشر مرتّبة. والمتاجر تغريك بأن تشتري ما عندها: هذا يُعدّ الطعام، والآخر يصب الجرار، والملابس والخضار والفاكهة. وتصادف صانعي السلاح في كل خطوة تخطوها. ورجل واحد يضطلع بكل ما يحدث في البلاد - الجميع يطيعون الحاكم الذي يحيط به كثيرون ممن ينقذون أوامره وقراراته. والناس يدفعون ما يترتب عليهم للدولة. هكذا أفهم كوستاس الوفد... "

رفع شوباش رأسه على صوت زيش الغاضب. وضع القصبه جانباً، ونادى أكبر الأخوين ضاحكاً مما يفعلان:

- كفى يا زيش، لا تزعج أخاك الأصغر!

- ولماذا؟ - رفض زيش، - تقول تيتا إن مالم يتعلمه في صغره لن يتعلمه في كبره. إقفز، إقفز! - يصرخ على أخيه الصغير.

- اخفض القضيب إذن! - يجادل زفس أخاه الأكبر.

يهز زيش القضيب الذي يحمله على مستوى ركبته:

- حتى السلحفاة تقفز من عليه إن خفضته أكثر، - قلت لك: إقفز!

يتراجع زفس ويحاول القفز ولكنه لا يستطيع رفع جسده عن الأرض. يضع زيش القضيب في يد أخيه ويطلب منه أن يرفعه إلى أقصى ما يستطيع. ثم يركض ويقفز بلا أي صعوبة.

- هل رأيت؟ هكذا يجب أن تقفز! يحاول زيش أن يفرك أذن أخيه، والآخر يشيح برأسه.

- لا تعانده! سيقفز متى صار في عمرك! خذ، أنا صنعت لك مزماراً من القصب. اعزف عليه، - يقرب شوباش إليه الصبي، - سأُنجز لك الثقب الثالث حالاً.

يعطي شوباش المزمار للصبي، وينادي في إثره فرحاً به: " سيصبح رجلاً صلباً مثل والده. لا يجرؤ أحد من أقرانه أن يصارعه. بل يصرع ثلاثة أو أربعة منهم معاً. وليس بينهم من يسبقه في الجري. ولكن الحفيد الأكبر ليمزش الحداد من ابنته الكبرى يغلبه في لعبة الكعوب؟ ويغار هذا فيلعب وحده في الدار، ولن يقبل إلا أن يغلبه يوماً. أنا لم أعاصر الأمير لاورستن، ولكن أمنا تقول إنه صورة عنه. الدم يسير في سبعة عروق إلى الأمام. من سيُشبه إن لم يشبه جده ".
- هذا أنت يا شوباش؟ ماذا تفعل؟ - سأله أغبان الذي يمر بجانب كومة الثلج بصوت جافّ.

- أصنع مزماراً لزيش.

يستهو العير المضيئ الذي يتعد منفرجاً. الأزهار منشورة في كل مكان من الحشيش الكثيف. وثيران العربات تسرح في تخم الغابة، والثيران الكسلى ذات القرون الضخمة ترتاح على العشب. ووراءها ترعى الخيل. وأينار وبزابز جالستان إلى جانب العربة ومن حولهما النساء يتحدثن. والطباخات مقابلهنّ يحرك بعضهن ما في القدر، ويُدكي بعضهن النار. ومن بعيد يظهر قطع من الخيل يشرف عليه راع يُعيد إلى القطيع كل حصان يحاول الابتعاد.

" إلى أين وصل ردد يا ترى؟ - خطر ردد لأخيه شوباش. - مضى على سفره ثلاثة أيام. لم يكن يريد أكثر من بضعة فرسان حماة، ولكن حسن أن رافقه أربعون. كأنه نسي ما فعل به نخلش الأصبه. يجب أن يكون فارّق قري القسوغ. كان يريد الاطلاع على أحوال من يصهرون خامات الحديد. ومتى عبر نهر بشره وصل إلى قري الموط المتناثرة على شاطئ البحر. قال رد: أليس عجباً أن الروسيح يعيشون وراء بحر الميوتي¹ وفوق نهر الدون. وهو يريد التأكد من صحة هذه المعلومة. وهذا في مكانه، يجب معرفة أحوال جيرانك

¹ الاسم اليوناني لبحر آزوف.

ونواياهم. يقولون: عاقلٌ خير من قويٍّ، ولكن الآلهة أعطوا لردد الاثنين: العقل والقوة. لم أوافق كولس على ما قاله لي في ذلك المساء ونحن نتجاذب أطراف الحديث: " الأمير ردد عاقل ونظره بعيد " قائلاً: " وهل هو أعقلُ منك، علّمه هو ما تعلمه منك. أنت لا حدّ لتجاربك ". نظر العجوز إليّ بعينيه الذابلتين وابتسم: " آه يا ولدي، العقل لا يتعلق بكبر أو صغر، ولا يتعلق باللحية. حين يكون للعرق شيء من الحظ يظهر فيه كل قرن شبّيه ردد. كان حلم والده لاورستن توحيد القسوغ، وتحمل هو همّ توحيد الأديغة. وهل تظن أن الأديغة كلهم يريدون هذا؟ من عنده عقل عنده عدوّ، قاتله حُساده. ولا تعرف الآن أعداءه الأخفياء... "

استولى القلق فجأة على شوباش. رفعته كلمات العجوز التي ترددت على خاطره عن الأرض. التقط من جانبه جعبة سهامه. وتقلّد سيفه من جديد. ونادى أخويه الصغيرين اللذين ابتعدا وهما يتلاعبان:

- تعال يا زبش!

نظر شوباش إلى ما وراء القصب والحشيش الذي ينمو وقت فيضان نهر بشده. واطمأنّ لما رأى أغبان خارجاً من بين الأجسام المقابلة للصبيين. ولكن القلق الذي تحرك في قلبه مستمرّ. ونقلته آخر كلمات العجوز كولس إلى جهة الزبيخ...

كان شوباش استعد حين عاد من وراء البحر لمتابعة أعماله السابقة، غير أن أمه وردد لم يوافقا. ولما عاد لونه كما كان في خلال بضعة أشهر قضاها تحت المراقبة أجلسه أخوه الأكبر ونصحه:

- يا أخي الأصغر، لا يجوز أن أقول ما سأقوله لك. ولا يفعل أحدٌ هذا حتى للضرورة. ولكني أراك لا تنتبه إن لم يُصارحوك. - انتفض شوباش برأسه، وابتدأ ردد يناور من بعيد، - أنت ترى صحة أمننا تتدهور، ونحن نسمع طلباتها ونهملها. وإذا تأخرنا ستبقى شوكة تحزننا. أريد أن ألبي لها رغبتها السابقة في لقاء أخيها قانشاوا. ولكن قلبي لا يطاوعني. ويمضي الوقت من إرجاء إلى إرجاء: ألا يجب أن تؤسس أسرة؛ سواءً وافقنا أمنا أم لم نوافق؟ أقرئك نسوا متى أسسوا أسرهم.

- لا نجد فرصة يا ردد، - احمرّ شوباش.
- العمل لا يُنهيه أحد بل هو من ينهي الإنسان. وهل تزوجتُ أنا من بطالتي؟ هل تريد أن تقول إني عاطل عن العمل؟
- لا، لا، - ندم شوباش على ما قاله، وأسبل جفنيه خجلاً. - أظن أني لم أقابل إلى الآن من أعجبتني...
- لا تقل هذا. لنفرض أن ليس في مزبه من تُعجبك؛ ما رأيك في الأخت الصغرى للأمير أبج التي رقصت معها في الاجتماع؟ ما اسمُها؟ - مزاع¹.
- لم تنس اسمها.
- ربما يحوم حول كل ذلك الجمال من هم أفضل مني...
- لا تُسمِعي يا شوباش مثل هذا الكلام بعد الآن! - رفع صوته محتدأً، - إن بالغت في التواضع فسيطأ ظهرك كثيرون. أنظر إليك فأراك شاباً وسيماً، وتعيش في أسرة أمراء.
- هناك من يعتبرني أعيش في أسرة أمراء فحسب. - انكسر صوت شوباش على نحو بدا من لونه. مهما كان عندك الإمكان لتصبح أعظم الرجال فلن ينسى من حولك أصلك.
- لا أحتاج إلى أكثر من أن أسمع من أحدهم مثل هذا الكلام، سأتركه في مكانه جثّة. - استنفر ردد حواسه، - لا أستطيع أن أقول دون علم إن أسرتك كانت غنية أو فقيرة. ولكن لا شكّ، حسب ذكائك وطباعك، أنك من أسرة صالحة. ولا تنفك أمتنا تردد هذا من يوم ما دخلت بيتنا.
- لم يكن شوباش ممن يطربون للمديح. ولم يحدث يوماً أن شكّ في موقف الأمير، ولا في موقف أمه منه. ولكن هذه الكلمات الدافئة بددت الأفكار التي كانت تقلقه أحياناً. فسافر مع ججان الذي اتحد معه قلباً وقوة، ومع صديقه أدشس. كان ردد أكّد على ججان ألا يتجهوا مباشرة إلى منزل الفتاة. لم يُعجب سلوكُ الأمير أبج شوباش حين نزلوا في مضافته أول مرة. كان عرّض بضيوفه دون أن

¹ ليلة مقمرة.

يسأل عن صحة أمير القسوغ الكبير:

- شباب ممتازون يترددون على عتبة غرفة مزاج. ولكن لا يستطيع كل من يُعجب بمزاج أن يراها.

- يا أمير، ونحن لا يُستهان بمن أرسلنا، - ردّ ججان على المضيف كاظماً غيظه. - لا تتجاوز الأمير الكبير!

- هذا صحيح يا ججان، - كسا الأمير أبع وجهه بضحكة مزاح، - ردّد أميرُ البلاد، ولكن هناك من يوزعون لقب الإمارة. أنا لم ينصبني أحدٌ أميراً، بل وُلِدْتُ أميراً. أنا أميرُ أمراء الزيوخ. حين قال الأمير ردد: إن نتحد ونؤلف دولة واحدة صرنا قوة عظيمة، ومن يخطر له أن يمد يده علينا نُشعره بخطورتنا، انضممنا إليكم تطوعاً. ولا يعني هذا أن تسير الأمور على رأي شخص واحد. أحد القسوغ كان أسيراً في الروم فعاد إليكم وقد أنسوه ألهتنا فندورون بموفدي الروم بأيديكم تلتقطون ما يقولونه كلمة كلمة. نحن الزيوخ مخلصون لألهتنا؛ لن نغير!..

- يا أمير، - بدأ شوباش الكلام مخفياً غضبه للإهانة التي يلحقها الأمير به، - كل هذا الكلام موجّه إليّ ولكن أسرتي التي خرجت منها، سواء كانت غنية أم فقيرة، حرة أم عبدة، لا تعرف غير ألهتنا الأعزاء. ولو كان هؤلاء لا يريدون لربما ما وقعتُ في بيت الإمارة، هذا أولاً. وثانياً: لا أزعم أن الخبر الذي جاؤوك به من مستخفوه بشأن تيمرقوه لا يخلو من الصحة، ولكن هذا لا يعني أن القسوغ كلهم تنصّروا. ونحن أيضاً ألهتنا في قلوبنا، نعرّهم ونحترّمهم.

- لا تُكمل يا شوباش، لا تُكمل! - خرج تراب من الباب الداخلي الذي كان يتنصت منه، - وقف وراء الأمير، وبدأ بشوباش مشيراً بالأصابع إليه: - أنت أول من كان ينقض كلامي. وأنت أيضاً يا ججان لا تُضمّر لي الخير. أعرف أن جدك كولس هو من يضللك. وهو لم يعد يريدني منذ زمن بعيد. كان يسخر مني مهما قلْتُ. وكيف يتقبّل كلامي من يستقبل الروميّ ديمتري بالأحضان؟ فتحتّم أذانكم لهم فسحروكم. وبدلاً من أن يطردهم الأمير ردد إذا به يوفدكم إليهم!

- كفى، توقف! - ردّ ججان وقد عرف مصدر الريح التي تهبّ من الأمير

أبج: ألا ترحب بنا قبل أن تهاجمنا! نحن من قرية واحدة وأقرباً، وكنا أصدقاء.
- لا تستحقون أن أكلّمكم، دُعك من أن أرحب بكم! أنا معزّز مكرّم هنا في حين كنتم تريدون أن تتخذوني مضحكةً، ولكن لم يتحقق لكم. - كان تراب يهاجم أبناء قريته وقد زادت حديثه حدةً.

- متى عرفك الزبيخ كما نعرفك عرفوا أين يُحلّونك. - ردّ ججان محافظاً على أعصابه، - أنا أعرف أنك لم تكف بما في جسدك من القمل فجعلت من نفسك موفداً للآلهة، وهذه رواية دكابس.

- هكذا! اسمعوا ما ستعلّق بي المرأة التي شبع منها الرجال. - شحب تراب واختلجت شفتاه، - وهذه كذبة كتلك التي كذبتها عليّ حين عدتم من مستحقوه زاعماً أن الأمير ردد واقف إلى جانبي.

- كنت قررت أن أدعك تنام هائناً ولو ليلة واحدة أيها المغفل المسكين لأنه لحبّل إليك أن القرية كلها رضخت لك. - ضحك ججان من أعماق قلبه، - كفى يا تراب، لم نأت لناكفتك أنت. - أظنك يا أمير تقبل أن نتكلم في موضوعنا.

- الفتاة التي في سن الزواج بابّ غرفتها مفتوح للجميع. - نهض الأمير أبج بنشاط. أعرف وأنا في مضافتي أنكم ستعودون خائبين متهدلي الشوارب. وإن كنتم آتين لتعلّمونا في الموضوع الآخر فأنتم مخطئون. نحن أيضاً نعرف إدارة البلاد. ولن أقبل أن تتهموا بما تشاؤون من اتخذه زعيماً دينياً. بنينا بيتاً جيداً لتراب، وضممنا إليه متاع بيته ومواشيه.

تمثّل لشوباش طويلاً جلوسهم في غرفة الفتاة مزاح، ومغازلتهم لها، ومتابعة الفتاة لهم من وراء النافذة وهم خارجون من عندها، وحين صاروا وراء الباب. وتذكر بلدة فائقة انطباع ججان: " الفتاة أعجبت بك ولكنها تخاف من الأمير أبج. لا تسمع كلام أحدا! " ورغم أنه شعر بدفء عاطفته نحو الفتاة فقد كان يزيحها معتبراً عداء أخوها الأمير أبج لأخيه الأمير الكبير فوق الجميع.

"ما أشدّ ما تراحمت عليّ الذكريات اليوم!.. - نهر شوباش نفسه، - ما إن تخطر لي مزاح حتى يطفو على السطح أخوها الأمير أبج، وتراب الأحذب. وما كان قاله لي ردد صحيح: "الدجاجة تحفر قبرها بنفسها. إذا كان تراب يحضّ

عليّ الأمير أبج فسيجد من يبحث له عن قيوده يوماً... "النساء يُشَرْنَ لي،
وسأنادي الصبيين...

نظر شوباش إلى الصبيين فرأى راعي قطع الخيل يجري بأقصى سرعته. ثم وصله صراخه. ولكنه تجمد في مكانه لا يفهم كلام الراعي. اندفع أغبان من عمق الغابة وجرى نحو صبي الأمير. وتوقف قبل أن يصل إليهما بقليل، وهيئاً القوس. وفي الحال جرى الدب الضخم من كومة الثلج صارخاً ودخل إلى المضيق. أطلق أغبان السهم. تهاوى الدبّ ولكنه سرعان ما نهض وشرع يركض نحوه والسهم في عنقه. وجرى شوباش وقد اندفع الدم إلى رأسه نحو الصبيين. وقبل أن يجد أغبان الفرصة لإعداد السهم الثاني هجم عليه الدب بقائمتيه الأماميتين. ولكن الرجل اتّقاء بالقوس وانحرف جانباً. ولمع السيف أمام عيني شوباش. وهوى أمامه الدبّ المختصر مُعَوِّلاً. وتراكضت النسوة صارخات لا يعرفن ما جرى، وقال حباط الذي كان يتصبّب عرقاً، مستغرباً، متأملاً في وجه أغبان:

- ما أصلبك يا بن أمّك! قتلت بضربة واحدة الدبّ الذي أُرهب أهل مستحقوه منذ هذا الشتاء.

- ماذا فعلتم بالدب حتى هاج؟ - سأل أغبان حباط كمن لم يجر شيء.

- ليس هو. قتل صيادونا رفيقته هذا الشتاء. ومن يومها هاجم رجال قريتنا عدة مرات. ومن حظهم أنهم يحتطبون في جماعات. قاد شوباش الصبيين إلى الدب القتل. ولم يقبل الصغير زفس الاقتراب منه. ولكن زيش تفحصه مستغرباً.

- من حسن حظنا أنك كنت معنا يا أغبان. لم أر في حياتي إنساناً حريصاً مثلك. تنفس شوباش الصُّعداء، وعانق الحارس الضخم. - أنقذت أخوي. لن تنسى أسرتنا صنيعك. ولتُسعدك الآلهة.

- لا داعي لكل هذا يا شوباش. أنا فعلت ما عليّ. - ربت أغبان براحه عريضة على كتف الشاب، - هذه المرة الثانية التي أجابه فيها الدب. وأظني لن أنجو في المرة الثالثة.

- وهل تظنهم اختاروا الدبة لتقتلها؟- تظاهر شوباش بالمزاح.

وصلت أبنار في طليعة النساء المتراكضات، فضمت إلى صدرها زفس متلهفة:
- لنعدّ يا شوباش! لا أريد أن أبقى في أسفل الجبل مقدار رقة عين. عرفت
قبل أن نمشي أن مكروهاً سيقع لنا.
- جرى ما جرى وانتهى يا أبنار. - توسلت بزابز، - الجوّ جميل صاح،
وسيسلخون جلد الدب.

- لا أريد شيئاً إلا أن أعود. نظرت أبنار في وجوه الرجال ثانية متوسلةً.
- عدّذّ إذن، وقمّن باستعداداتكن! - صرف شوباش النساء، - ساحمنا يا
حباط، أرعبنا الدبّ فنسينا السؤال عنك. كيف يمارس زغانه دينه؟ هل كفّ
عن إشعال النار في بيوت الناس؟

- لا، - ضحك حباط وهو يمسح العرق عن وجهه السميكة بطرف كُمه. -
قصّف الرعد وضربت الصاعقة بعد لجوء تراب الأحذب إلى الزبخ غير أن زغانه
لم يشعل النار ببيت أحد. لا عمل له إلا الطعام والشراب. وهجر الدين. تباً
لهذا الأحذب يا شوباش، كذبّ شهادتي التي رأيتها بعيني. ما أسوأ هذا
الإنسان! ظننته سيأكلني... وأنتم لماذا وصلتم إلى هنا؟

- أصرت أمتنا أن ننتزه في هذا اليوم الجميل، ونطلع الصبيين على العالم،
ونلاعبهما فخرجنا. ومشينا على ضفة نهر بشده مستمتعين بالطبيعة فوصلنا
إلى هنا وتوقّفنا. مع السلامة إذن، نترك لك الدبّ.

- كيف أسلخ جلد الدب وحدي؟ - تمطّى حباط. ولكن شوباش وأغبان
انصرفا مطمئنّين إلى أنه سيجد من يساعده. وحين عادا إلى النساء أكّدا
عليهنّ ألا يأتين على سيرة الدب على مسمع من رامبس. وأفهما الصبيين أن
قلب الجدة لن يتحمل خبر الدبّ.

كانت ضفة نهر بشده عالية قبل أربع غلوات حصانٍ تقريباً من مزبه حتى
لتلامس السحب. وكان هدوء الماء يشهد على عمق النهر في هذا المكان.
وللجبل طريق واحد لارتقائه من جهة مسيل النهر. ومتى وصلت إلى الذروة
وجدت نفسك في مكان مستوٍ فسيح هو قلعة طبيعية محاطة من كل الجهات
بجدار حجري. ومن الشرق ينسط مضيق يتعد وراء السور الحجري. وأسفل
الجبل إلى يسار المضيق يجري نهر شاكا الضيق. ثم ينعطف مع أسفل الجبل

الملتف نحو اليسار فيرسل نهرى لُغت وطؤاجج إلى القرى.
لم تأت على مزبه منذ حُل إليها شوباش مصيبةٌ تحملهم على النجاة بجلودهم.
وعلى ما يُروى فحين يعلمون أن لصوص الخزر اقتربوا كانوا يهجرون مزبه
ويلجؤون إلى الغابة الجبلية. وحين يهاجمهم جيش عدوٍ يستيقظونه فيصبح ملجأً
أهل مزبه والقرى المجاورة هو القلعة الطبيعية في أعلى الجبل.
أخبر شوباش أغبان بمخاوفه مشيراً له باليد:

- هذه المنعة يسمونها طبيعية ولكن لا أصدق أن يداً بشرية لم تعمل فيها.
- وأنا تفحصتُ جدرانها كثيراً بيديّ أشكّ في ما قلت. - بدأ أغبان كأنه
يشارك شوباش شكّه، ثم أبعده: - لم أر فيها حجرين متراصين.
_ إذن شكّله لنا، نحن القسوغ، إله الأرض يا أغبان.
- لا أعرف إله الأرض، ولكنه من صنع إلهنا الكبير. - ألقى أغبان ذو الوجه
والأنف الكبيرين نظرة على شوباش.
- يبدو لي أنك اتجهت إلى أفكار تيمرقوه. - سأل شوباش بوجه مذعور، -
من تقصد؟ أهو إلهنا الشمس؟

- لم أقتصر على تيمرقوه؛ استمعت إلى كثيرين من ضيوف الأمير من ديمتري
وكوستاس وغيرهم من رجال الدين. أنتم غارقون في العمل أما أنا فحارسٌ
عندي كثير من الوقت لأعيد ترتيب ما أسمع وما أرى. وكما يقول أميرنا: العقل
كلّفته الشك. أسأل عما لا يستوعبه عقلي. وأتعلم ما هو صحيح وما هو
باطل. لا أريد أن يلوك القسوغ سيرتي. ولكني حقاً توجهت نحو تيمرقوه.
- وهل دينه أصحّ؟

- فيه صدق، - قال أغبان جازماً، - القيوم على العالم إله واحد. لو كان
لكلّ من الرياح والأرض والرعْد إله كما كنا نعتقد فكيف كان كل هؤلاء
سيثفون؟ كانت ستقوم بينهم صراعات وحروب تتسبّب في مأسّ لنا بغضّ
النظر عن علاقتنا بهم. كان تراب الأحذب يرهبنا ولكن الأقوام المؤمنة بإله
واحد تعيش كما ترى ليس أسوأ منا. ولا تعاقبهم الآلهة التي يُخيفوننا منها. كل
شيء بيد إله واحد.

- في كلامك شيء جدير بالتصديق، - وافقه شوباش متحفظاً، - وأنا

تساورني أحياناً مثلُ هذه المواجهس. ولكني أرتعب فأدعو إلى الآلهة أن يغفروا لي. من الصعب التَّنكُّر للآلهة الذين عاشوا في قلوب آبائنا وأجدادنا وأجدادهم. هؤلاء يحيون معنا في السفر والصيد والحرب. اعتدنا عليهم.

غادر نهر بشده رتلٌ من العربات والفرسان، ولما وصل إلى سفح الجبل المقابل لمزبه، سُمع خرير النهر الملتف مُطمئنناً كنعل حصان. قال شوباش: " كادت تحدث لنا مصيبة، ولكننا عُدنا كبارنا وصغارنا بخير. ألقى شوباش نظرة مرتاحة إلى الطفلين في العربة، ونظر في وجه أغبان ثانية راضياً عنه بقلبه وروحه. سأعتاد على الحذر ما دمْتُ حياً. لم أفهم صحة قول أُمي: احرص على نفسك يحرص عليك الآلهة، إلى أن اصطدمت بنفسي ".

راقب أغبان الجوار بعدما وصلوا إلى تخوم القرية، مرتفعاً عن سهوة الحصان: - الكباش كلها متشابهة، كيف تعرف أصحابها إن لم تقترب منها؟ - قال شوباش، ونظر إلى المكان الذي تقام فيه مناطحات الكباش. - انظر يا أغبان، انظر: الكباش الصغير صرع الكبير!

- ليس الصغرُ والكبر مقياساً... - ثم صاح أغبان قبل أن يكمل ما بدأه: - الشباب يتعاركون!

حرف شوباش مسار حصانه ووصل بسرعة إلى الشباب المتعاركين. وضرب أحدَ الثلاثة المتعلقين بأدشس على جانب رأسه فصرعه. وحين التفت لا يعرف من جاء من ورائهم، فرأى زيرار، الابنَ الأصغر لحقار، وقعتْ على ذقنه قبضة أدشس الثقيلة فأسقطت عنه قبعته. نهض زيرار بسرعة وهجم على أدشس ولكن ضربة شوباش بقفا يده أسقطته ثانية. وهرب الشاب الثالث. فصفر وراءه الصِّبيان، وصاحوا:

- اركض، اركض، شوباش يلحق بك!

بقي زيرار بعض الوقت على الأرض ثم قعد. نفض رأسه ونهض بصعوبة. وفيما يرتدي قبعته غمغم لهم:

- شخصان بطلان على واحد.

- وماذا عن هجوم ثلاثتكم على شخص واحد؟ - ردّ عليه شوباش، - اغرب عن وجهي، لا أريد أن تقع عيني عليك!

- سيكون هذا نحساً عليك! - نظر زيرار حاقداً إلى شوباش. وصرخ على صديقه: - تعال؛ ما وقوفك والدم يقطر منك؟
اختفى زيرار وصاحبه وراء المحدة ناجين بأنفسهم فتوجه شوباش بعتابه إلى أدشس:

- لماذا اشتبك بك هؤلاء وقد صرت رب أسرة؟
- لم أعرف أن لهم مثل هذه النية الشريرة. - نظر أدشس مبرئاً نفسه نظرة وُدٍ إلى صديقه، - كان زيرار يلح عليّ طالباً إقامة مباراة بين كبشينا، فاتفقنا على جائزة ثلاثة خرفان لصاحب الكبش الفائز. وأنا صدّقتُ فاستقدمتُ كبشنا إلى ظاهر القرية، ولما بدأ كبشه يتراجع طرقت برجلي، فاتخذ هذا ذريعة للقتال.
- وهل يمدّ يده عليك وأنت من جيل أخيه الأكبر غأت؟!
- أنا أعرف ما يغظه. كلما صادفته كشر عن أنيابه متّهماً إياي بمرافقة ججان حين زفوا إليه بزبز، ومرافقة شوباش حين ذهب إلى الزيوخ خاطباً. يقول: صرتم ذئاباً في القرية. تتقصّدون من عيني عليها... هذه حالنا؛ يصعب التفاهم مع من لا عقل له.

- ومن أين عرف أننا زرنا الزيوخ؟
- ألا تعرف طباع بعض أهل قريتنا؟.. زيرار يتردد على الزيوخ كثيراً. كان تراب في أثناء إقامته هنا ضمّه تحت جناحه. ولا يزال يزوره.
- آه يا أدشس! يا صديقي الطيب، تعال إلى بيتنا نجلس بعض الوقت ونتحدث. ألم يؤذك الشبان الأشقياء؟ - تفحص شوباش صديقه، - اعتبرنا وصلنا إلى ما كان يتوجس منه الأمير الكبير ردا!
- وما الذي يتوجس منه الأمير؟

- عشنا أطول مما ينبغي في سلام! متى عاش الأدبغة بعض الوقت دون صراعات ودون دماء بدؤوا يفتعلونها. وقد اكتفينا بانتظار نتائج مفارقة تراب لنا إلى الزيوخ، ولكنه سيصدمننا بعضنا ببعض كالكبشين اللذين أقمت مناهضة بينهما.

- وهل نصل إلى هذا يا رجل؛ هل يبلغ جنون الزيوخ هذا الحد؟! - ارتسم الرعب في عيني أدشس البريثتين محتاراً بين تصديق ما يسمع وعدم تصديقه.

- لا شيء يتورع عنه تراب إذا كان فيه فائدته الشخصية. ولا أظن أمير الزبيخ الذي نعرفه كلانا صاحب عقل وافر. - زفر شوباش حزين العينين، - الأمير ردد مسرور بوحدة أعراق الأديغة، ويدور ليلاً ونهاراً على الروم والفرس والروسيج يقتبس أفكارهم، في حين أننا هنا نتنافس على الأحسن بيننا. لن نصبح قريباً أمة تحسب الأمم حسابها.

II

كانت شمس الصيف في كبد السماء حين رجع ردد إلى مزبه مع الفرسان الأريعين، وكلُّ ذي روح محتاراً أين يختمي من الحر. التراب يحرق أقدام الأطفال، وكلاب القرية تحتبئ تحت الأهراء وقد تدلّت ألسنتها. وأوراق الأشجار ذبلت. والحشائش غزتها الصفرة في غير أوانها. لم تهطل قطرة مطر منذ شهر؛ فإن استمر الجفاف هدّد المحاصيل.

يبدو الإجهاد على ردد وحصانه ذي الصدر العريض: الحصان الذي كان جلده يلمع يسيل منه الرّند، والأمير تُشعّ النار من وجهه. ومع ذلك فقد توجه إلى غرفة أمه ناسياً التعب حين أخبره أغبان بأثر الحر على السيدة الكبرى، وما قاست في الليلة الماضية من قلبها:

- كولس أيضاً عادها قبل قليل، - قال أغبان في أثر الأمير.
- كأنك مريضة يا أمنا! - قابل ردد أمه الجالسة على حافة السرير بضحكة دافئة، مخفياً هلعه عليها. ثم سأل الجار العجوز: - وأنت يا كولس ما أحوالك؟
- وأنا ممن ينتظرون النهاية يا أمير، - لم يبق في جسدي ما لا يتألم. نتراجع كل يوم.

- لا يبدو هذا على مظهرك يا كولس، - مظهرك حسن، وعيناك تلمعان.
- الأشجار المُستة تبقى أوراقها خضراء غير أنها منخورة، وأنا مثلها: - أليس كذلك يا رامبس؟

- يا حسرتي يا كولس، الوحيد الذي لا يهرم عند الإنسان هو هذا القلب المنحوس. ومع ذلك لم يعد يتجاوب معي. - دقت رامبس على صدرها حريصة على نفسها، - اجتمع الحرُّ الشديد وغياب الابن عليّ فأقلقني قلبي.

- إذا كنتِ يا أمنا ستجزعين لأجلي كلما سافرت أفنيتِ قلبك. - نظر إليها مشفقاً، - وما المشكلة في سفري؟ ها قد عدتُ كما خرجتُ!

- هل تعرف ما يقول كبارنا يا ولدي؟ - عاد الدم إلى وجنتي رامبس دليلاً على انتعاش قلبها. - متى سافر الابن في مهمة توقّعت له الأم ما يخطر على بالك وما لا يخطر من مصائب. وتأمّلت الزوجة أن يأتيها بكل خير في الدنيا. تضاحك الثلاثة، ثم نهض كولس قبل أن يدخلوا في موضوع آخر:

- سأنصرف إذ أراك يا رامبس عاد إليك عزّمك بعودة ابنك.

- ألا تجلس يا كولس؛ الولد شاهد الكثير في سفره وعنده أخبار كثيرة. - ترجّت رامبس العجوز المتجه إلى الباب على عكازته.

- لا يا رامبس، دعي من قطع هذه المسافة يستريح. والأخبار نسمعها لاحقاً. ما إن شيع ردّد العجوز إلى ما وراء باب الدار ورجع حتى انتبه إلى وقع حوافر خيل مستعجل. وصل شوباش وقفز عن الحصان، وعانق أخاه، وعيناه فرحتان: - أطلتم الغياب يا ردد، أليس كل شيء على ما يرام؟ أخبروني بعودتك فعدت مسرعاً من البرية.

- أنجزنا مهماتنا يا أخي الصغير. وهذا أهمّ ما عندنا. عدتُ وأنا مطمئن لتوطّد دولتنا في كل النواحي.

- هذا خبرٌ ساوّر، - كان خطر لشوباش أن يروي له خبر مقابلة أمير الزبيخ أبعج ووراءه تراب الأحذب، ولكنه تراجع لا يريد إزعاج من عاد تواء. - ونحن هنا تسير أمورنا على نحو مقبول. ولكن الجذب سيطر علينا.

- إمكانياتنا، أنت وأنا، محدودة في هذا المجال. - التفت ردد إلى أخيه بكآبة: - ألن يُطلّ الآلهة علينا من عليائهم؟ - كأني شممت رائحة مطر في طريق عودتنا.

- وكيف تنبعث رائحة مطر من هذا الجوّ الخانق؟ - استغرب شوباش ما سمعه وقد بدأت خيوط العرق تنساب على وجهه، ولكنه سأل عما يشغل باله هو أكثر من أي موضوع آخر: - كيف حال أمنا؟ لم تعجبني هيئتها وأنا خارج صباحاً.

- جيدة في هذه اللحظات، عادت وجنتاها فتورّدتا. اذهب أنت إلى أمنا، وأنا

سأطلّ على الولدين...

كانت أبنار يَيمَتُهُما في غرفة باردة كي لا يتعرضا للشمس ولكن الولدين اللذين لم يعتادا على النوم نهاراً يتجاذبان جلد الدبّ على أرض الغرفة.

- أنت ما تزال صغيراً يا زفس، حالما تنزل من السرير تضع قدميك على جلد الدب كي لا تطأ الأرض الباردة! - يعيد زفس بصعوبة جلد الدب نحو سرير أخيه زيش المشفق عليه.

- لا أريد، يحرّذ زفس، - ضعه عند سريرك لأنه أُعطي لك أنت.

- يا أيها الأهل الصغير لم يكن الرجل يعرف اسمك فنطق باسمي وإلا فأنت المقصود به. - كان زيش يريد إفهام أخيه أن أغبان جاء بالجلد للأخوين كليهما، غير أن زفس لا ينوي التراجع.

- لا، أنت من سمعتُ اسمه. وأنا متى كبرت سأصيد أكبر دبّ في الغابة وأسلخه.

- وماذا ستفعل به؟

- أعطيه لنانا.

نادت أبنار من الباب الداخلي مسرورة لسلوك ابنها الأصغر:

- كفاكما جدالاً، تناوبا عليه! متى صرتما رجلين فسأصيد أنا لكما دُباً. ومن إذن سيأتي لجدتكما بجلد دب؟

- أنا! أسرع زفس بالجواب.

- لا، أنا! - عارضه زيش.

وفي هذه اللحظة صرخ زفس:

- تات، عاد تات!

يعدو الصبي ويعانق رجلي أبيه. ينحني ردد فيرفعه إلى السقف. ويقترب زيش من أبيه ويعانقه من خصره.

وأبنار واقفة أمام الرجل يخفق قلبها متوردة الوجنتين. يُنزل ردد الولد الأصغر رويداً رويداً، ويمر براحته الناعمة على وجه أبنار الرقيق، إذ لا يجد من اللائق أن يعانقها في حضرة الولدين.

- كيف الحال يا أبنار، الحُرُّ أرهقكم؟ - قال ردد لا يعرف بم يخاطب زوجته

وقد جذبه إليها نور الحب المشع من عينيها الجميلتين.

- وهل الحرّ مشكلة يا ردد؟ - اغرورقت عينا أينار وهي تضم الولد الأصغر إليها. - أرعبنا مرضُ قلب السيدة الكبرى. وجفت عيوننا ونحن نرقب عودتك.

- أعرف يا أينار، أعرف، - يمازح ردد الولد الأكبر في غمرة تبرئته لنفسه: - لماذا يا زيش لا تسلي أمك وجدتك؟

- أفعل لأجلهما كل ما بيدي إلا أن أرقص لهما.

ضحك ردد وأينار من الجواب غير المتوقع.

- هل قلت يا صغيري: إلا أن أرقص؟ - يسأل ردد مع الضحك، - أنت لا تقصّر في شيء يا زيش. أنا المسؤول عن كل شيء. ما يطول انتظارك له يرهق قلبك، ولكن ما العمل؟ مشاغل الدولة لا نهاية لها.

- ولكن المرض لن ينتظر. - تبدو على أينار لهفتها قلباً وروحاً على السيدة الكبرى، - أما من شيء ينفعها؟

- تعهّد شوباش أن يجد عشبة دواء. إن أشفق علينا الآلهة نفعتنا. ونحن لن نألو جهداً...

مالت الشمس المسعورة إلى الغروب. وفيما شوباش عائد يحتمي بظل السور أنعشه نسيم بارد، وفرح وهو يراقب السحابة الداكنة القادمة من الجنوب إذ تذكر ما قاله ردد. ورأى دكايس التي تدخل إلى حظيرة الأغنام حاملة حزمة كبيرة من العشب الأخضر.

- ماذا يفعل نطاي إن كنتِ أنتِ من تخدم المواشي؟ - مزح شوباش معها وهو يخرج من الباب الصغير، -: أم أرسلته في مهمة؟

- يا حسرتي، ليت نطاي عرف مصلحته وإن لم يسافر في مهمة! - استقبلت دكايس شوباش مرحّة. - تفضّل، أنت ضيف كبير. كان يعمل مع تراب ليلاً ونهاراً لا يفارقه في حين لا يهتم لي. هل يقلقك شيء يا شوباش؟

- قيل إنك تعرفين حشائش أدوية، أمانا تشكو كثيراً من قلبها. - نظر شوباش نظرة أمل في وجه دكايس، وخاطب نفسه مكرهاً: " لم أتأمل في وجهها إلى الآن. ما أشد جاذبيتها... وما أسوأ حظها. لا شيء يعيبيها!.. "

شعرت دكا بس بنظرة الاشتهااء، وضحكت ضحكة خفيفة، ثم تأملت نفسها مشتتة إياها:

- يا شوباش، حسناً فعلت إذ أتيت ، - الآن موسم دواء القلب. نسيْتُ في العام الماضي فلم أخزنه. - عادت المرأة إلى وعيها وتوجهت نحو الحظيرة، ثم توقفت وأضافت: - مرّت كراث عليّ أمس قلقة على السيدة الكبرى، فذهبت إلى البرية حالاً وجئت بالدواء.

أعطته دكا بس حشيشة ذات أزهار شبه رمادية رقيقة، ففسرّ شوباش غير واثق: - وأنا أعرف هذه النبتة.

- تعرفها، ولكن لا تعرف أتحا دواء للقلب. - صححت دكا بس الموقف. - لتعلّها أينار وتسقيها منها ثلاث مرات في النهار. - وأنت ما أخبارك يا شوباش؟

- من أي جهة؟ - رفع شوباش رأسه مدركاً ما تسأل عنه المرائية الكبيرة. - أخبرتني كراث أن أمك ترغب جداً في تزويجك. - ليس أمراً ملحاً، ما زال أمامنا مهلة يا دكا بس، - أشاح شوباش برأسه محرّجاً.

- هل تعرف يا شوباش يمّ أعتب عليكم يا شباب قريتنا؟ سألت دكا بس وأجابت: - تتصورون بنات القرى الأخرى أحسن وأجمل من بنات القرية. لا ترون الفتيات الممتازات اللواتي أمام عيونكم. - من التي تعجبك كل هذا الإعجاب؟ - ما رأيك في لاشين؟

- هل تقصدين صديقة بزابر؟ أليست متقدمة في العمر؟ - ومن قال هذا؟ وهل تظن أن بزابر من عمر ججان؟ هو أكبر منها بأكثر من عشر سنوات. ولاشين أصغر من صديقتها بثلاث سنين. يُخيّل إليك أنها كبيرة في السن من وقارها وهي في الحقيقة أصغر منك بخمس سنين أو ستّ. ثم إنها لا ينقصها الجمال، ولا الطبيعة الجميلة، ولا المهارة، يداها ينقط منهما الذهب. لو كنتُ مكانك...

خرج نطاي من البيت على صوت الحديد:

- هذا أنت يا شوباش! لماذا تقفان في أرض الدار؟ تفضّل! - نزل المضيف من المسطبة مرجّباً به. - الآلهة أعلم بما ترويه لك دكابس.

- أشكو له كسلّك يا نطاي، - أفهمتُ دكابسُ الرجلَ ما تريده متظاهرة بالمزاح. - يقول شوباش: إسْطبلْكم يتداعى، وزريبة الأغنام بحاجة إلى ترميم.

- سنجد حلاً لهذه يا دكابس، - بادلها نطاي نظرة مرائية، - أنا تعلمت كثيراً من تراب، وأعرف كيف أتنبأ بحظوظ الناس. أليس من المفيد أن يكلفوني أنا بشؤون الدين بعدما هجر القرية لولا أن أحداً لا يرشّحني؛ صحيح يا شوباش؟..

- دُعك من هذا! - قطّبت دكابس وأشارت بيدها سلباً، - تريد أن تحلّ محلّ ذاك الأحذب القبيح وتخدع الناس. لن يصلح هذا مخرجاً يا نطاي. ما يفيدك حقاً هو ما تفعله بيديك.

لم يُسرّ نطاي بانتقادات المرأة، ونظر إلى شوباش راجياً دعمه. - يا نطاي، زَمّ شوباش عينيه، - إن كانت معلوماتك تتوقف عند حدود عِلْم تراب فالأفضل أن تطيع دكابس. لم أثق بهذا الأحذب منذ أول يوم. ليس موفداً للآلهة كما يدّعي.

- وأنت هل توجهت نحو تيمرقوه حقاً؟ - احتدّ نطاي وقد احمرّ وجهه. - دكابس تشهد لي، لم أقل مثلاً هذا. - قلق شوباش أيضاً. - ليس في مزبه من يُنكر آلهتنا. وليس أشباه تيمرقوه بين القسوغ كثيرين. أنت أكبرُ مني عمراً، ألم تفهم أن صاحبك تراب كان حسوداً؟ موفد الآلهة لا يثير الفتنة بين أبناء قومه، ولا يشعل النار في أملاكهم لفائدته الشخصية، ولا يتنكّر لأصدقائه الذين نشأ معهم. يقول كبارنا: الحسود عدوٌّ خفيّ.

- ما أحسن ما كلّمتّه يا شوباش! نطاي إنسان صالح، ولا أقول هذا لأنه حاضر معنا. يصدّق ببساطة ما يقال له. أظنك ستعيد بعض العقل إلى الرأس الكبير الذي أفسده تراب. وأنا أقول له كل يوم: كل ذي عاهة حسود، ويتأمر في قلبه على الناس الأسوياء الذين يحيطون به. أنا خبرتُ جيداً نوعية تراب. وأنا أسمعك يا شوباش فأراك كعجوز وقور. لا أعرف ماذا تفعل السيدة رامبس بمن يخرجون من تحت جناحيها: كلهم عقلاء.

- أمنا ذكية وحكيمة يا دكابس، - أضاف شوباش متباهياً بما سمعه عن أمه:
- ترتب أمور العالم دون أن تبرح مكانها. وكل كلمة منها توجهك للخير...
كفى إذن؛ سأنصرف قبل بدء المطر.
- وأيّ مطر في حين يخنقنا الحرّ؟! - نظرت دكابس إلى السماء الزرقاء.
- انظري إلى خلفك! - أشار شوباش إلى الجنوب.
- يا لفرحتنا! - صفقت دكابس سعيدة، - انظر يا نطاي! - سمع إله الرعد دعاءنا.

نصحت دكابس شوباش المنصرف بعدما دارت حول السور:
- لن يسمحوا لفتاة الريح، ولو لم يبق إلا تراب، أن تتزوج منك. فكّر يا شوباش ما قلت لك بشأن لاشين!
انكمشت دكابس على نفسها وكأن الصاعقة التي رافقت الرعد أصابتها. وفعل شوباش ما فعلت المرأة، ولكنه سأل مموهاً:
- من قال لك هذا؟

- ما من خيرٍ يخفى، - ابتسمت دكابس تستعرض نفسها لشوباش بخبت، - ذهب بعضهم إلى قرية الأمير أبج بمناسبة وفاة شقيق وُساس. قد يأتينا هذا الأحذب بمصيبة لا تتوقعونها. أخبرنا المعزّون أنه ملازم للأمير النحيف، يسافر معه إلى كل قرى الريح. ويقال إنهم أرسلوا موفدين إلى الحكوف.
- وماذا كان جوابهم؟

- يقال إن الزعيم دامر ردّهم على أعقابهم لا يلوون على شيء. لا أعرف، أروي ما سمعتُ فحسبُ. وأنتم تعرفون أفضل منا.
لام شوباش أخاه في طريق عودته: "يا لتراب الأحذب!.. هذا اللعين يستحق أن يقتل ولو كان بسبع أرواح! كان على ردد أن يوافق قدان حين قرر قتله. ما أشد ما التصق بالريح! أقول هذا ولكننا نحن أيضاً صدّقنا سنوات كثيرة أنه رسول الآلهة، فسمحنا له أن يخدعنا. ومن أين للريح أن ينعموا بعقل ليس لنا! مثل هذا من جعل القائل يقول: الأديغي يأتي عقله متأخراً. أصغرُ جرحٍ يتقيح ويسيطر عليك ما لم تعالجه منذ البداية. لم يعرف ردد الذي يرتب أمور الدولة أن تراب يمكن أن يمدّ كل هذه الجذور بين الريح..."

جلس زغانه في الفراش على طَرَقٍ خفيف جداً لبضع مرات على النافذة. وأصاخ في هدأة الليل. وها هي بضْعُ طَرَقَاتٍ أخرى.

- من؟ - نادى زغانه بصوت منخفض، ثم مشى على رؤوس أصابعه ونظر من خلل النافذة، ولكن لم ير أحداً.

- أنا، تراب، - رد تراب بصوت مخنوق، - ألسْتُ أديعياً؟ افتح الباب؛ هل أنت خائف؟ - افتح، لي معك كلام!

- هذا أنت يا تراب؟ - فتح زغانه المزلاج باسطقاً ذراعيه، - ذهبت المرأة مع أولادها إلى ششعرس، وأنا خائف أن يهجم عليّ تيمرقوه مستغلاً وحدتي، أنت تعرف...

أرعب زغانه الرجلان صاحبا الحواجب الكثيفة اللذان وقفا أمامه مع فتحه الباب، يرتديان قبعتين شعثاوين. ونظرا إليه بعيون حاقدة. سرت قشعريرة في جسد زغانه من منظر الرجلين اللذين يشبهان رجل الغابة. وعاد شيء من الطمأنينة إلى تراب الذي دخل يتقدمه رأسه حين صار داخل الغرفة. ومد موفد الآلهة يديه إلى الرجلين المخيفين، وقال تراب لزغانه الواقف لا يعي شيئاً: - اجلس هنا!

- كيف أجلس يا تراب هكذا، انتظري ريشما ألبس...

- لا داعي، قلت لك اجلس فاجلس!

جلس زغانه وسط الصوفا متحاملاً على ساقيه بصعوبة، وقلبه يكاد يخرج من بين أضلاعه. وتكلم متلعثماً:

- هل جرى شيء يا تراب؟

- لو كان مجرد " شيء " لهان الأمر. - أجاب تراب ثانية باختصار. - كنت أظنك رجلاً، أيّ خبر قذّر أرسلته إليّ؟ مَن كان أول من وصل إليك منقداً حين اتّهمك أهل مستحقوه بإشعال النار؟

- أنت يا تراب.

- إذا كنتُ أنا فلماذا اتهمتني بعدها بما ليس من ذنبي؟

- ألسْتُ من طلب مني إحراق بيت تيمرقوه وأنا خارج من بيتك؟

- اسمعوا ماذا يقول هذا! - توجه تراب إلى رفيقيه باسماء، - هذا الرفيع الرأس أرسلته رجل دين إلى أهل مستحقوه بناءً على إلحاحه ولكني أخطأت. كنت اتخذت من الكذاب الوحيد في القرية رفيقاً. يا مسكين، ماذا كنت قلت لك حين جئتني؟ لم تسمعي حين قلت لك إن الآلهة لن تغفر لك إن آذيت أسرة. تمكّن منك إله الرعد. ألسنت من أشعل النار زاعماً أنك ستخيف القرية من تيمرقوه؟ والآن قررت أن تلبسني التهمة. الرجال لا يفعلون مثل هذا!

- أنا؟! - صرخ زغانه، - ما رأيته في منامك ليس ما أراه في نهارى يا تراب! كأنك لا تعرف أهل مستحقوه. حين كان العجوز بشماف يمد يده إلى فمي....

- كفى! لا يسمح لي مزاجي أن أستمع إلى تخزّصاتك. تستحق أن تهوى أيديهم على عنقك أكثر من أن يمدوها إلى فمك.

رأى زغانه إشارة تراب برأسه إلى صاحبيه فنظر إليهما جزءاً. ولما هم أن يهرب من الغرفة قبض عليه أحد الرجلين وألقاه في الفراش ممسكاً بأنفه، مغلقاً براحتة الضخمة فمه. وأطفأ الثاني مصباح الدهن. وشُع استنجد زغانه بعض الوقت.

وحين همد الجسم المتراخي ارتفع عنه الرجلان.

- وهذا رحل إلى حيث يرحد الجميع، جعلناك تشفى به يا تراب، - ثم غمغم الرجل الضخم وهو يمسح يديه بفرو الخروف الملحفة: ملأ راحتي باللعاب.

- من حاول تلويث سمعتك لم يكن لديه ما يفوق روح دجاجة. امتدح الرجل الثاني نفسه، قُضي الأمر.

- لا تلمسا جفني الرجل ليبدو كأنه مات ميتة طبيعية. ضعاً إحدى يديه على صدره. - أصدر تراب أوامره من مكانه. - وأعيدا ترتيب الصوف. ولا تتركا ما يثير الريبة.

نُحس تراب بعدما نَقذ الرجلان أوامره، ووقف أمام جثة زغانه. نظر إلى العينين المتجمدتين، وهزّ رأسه:

- يا زغانه، الأفضل لك ولي أن تنام نومتك الأبدية فلا ينطق لسانك بعد الآن بخير أو بشر... ثم التفت وخاطب أحد الرجلين: - اخرج وتفقد المكان، ليل الصيف قصير، وبين الناس من يفيقون باكراً. إن صادفكما أحد فقولا له

إنكما تتعقبان آثار اللصوص.

- ومن سندعي أنه كان هدف اللصوص يا تراب؟ - سأل أحد الرجلين ضاحكاً.

- ألسْتُ أنا! - لم يقبل تراب ضحكة الرجل، - أنا أتابع أثر مواشي، وأنتما أرْفَقَكما بي الأمير أبج. هل فهمتما؟ وسأبتهل إلى أهتنا ألا نقابل من يعرفنا. والآن لنسرع! سنحاول أن نقطع أطول مسافة من الطريق.

لم يعرف أحدٌ من أهل مستحقوه بمقتل زغانه إلى أواخر النهار الذي تلا ليلة مقتله. وكانت أسرته ما تزال غائبة. وكانت المرأة التي جاءت تستعير الغراب هي من نشرت في القرية خبر موت زغانه.

- من رأى مثل هذا! - كان بيننا أمس يمازح هذا وذاك. - كانت مجموعة من الرجال تتبادل الحديث لا يثق أحدهم بالآخر.

- أنا كنت حملتُ له عشاء مع حلول الظلام. ثم شيعني قائلاً: لم يكن داعٍ لهذا فالمرأة أعدت لي بعض الطعام قبل سفرها. - كانت العجوز الجارة تروي لجاراتها.

- كل شيء ممكن، - قال حباط ذو الوجه السميك للرجال، - هذا يتعثر وهو يمشي فيموت، والآخر يموت من مرض مزمن. أنا لا أظن أن صاحب الجثة التي رأيته مات ميتة طبيعية.

لم يكن زغانه من الرجال المحترمين في القرية، ولا ممن يؤثر موتهم في حياة القرية. ولكن لم يبق أحدٌ لم يحضر المأتم مستغربين الميتة المفاجئة، غير مصدقين أن لا علاقة لأحد بموته.

- لماذا لا أرى تيمرقوه؟ - ألقى أحد الرجال السؤال، - إن كان غائباً لعنبه على زغانه فهو مخطئ. في المأتم يُعْفَر كل شيء.

وفي هذه اللحظة خطر لكلٍ منهم خاطره. إن كان زغانه مقتولاً فلا متهم إلا تيمرقوه. ثم إن أهل مستحقوه لم ينسوا تهديد تيمرقوه للرجل وقت اشتعال النار في بيته.

تفحص الرجال فلقين من في الدار ومن هو خارجها: لم يكن تيمرقوه في المأتم. - استدعوا حباط! - أمر العجوز بشماف مشيراً برأس عصاه، - هو جار

تيمرقوه، يجب أن يعرف إن كان مقيماً أم غائباً.
 - ماذا يا زعيم الخير؟ هل طلبتني؟ - سأل حباط.
 - أين جارك، ولماذا ليس في المأتم؟ - سأل بصوت عالٍ لسمعه الحضور.
 - تقصد تيمرقوه؟ أتبع حباط السؤال بسؤال، - سافر إلى الحكوف مع كوكبة
 من الفرسان. - وسيغادر من هناك مع دامر لتبديل عمال استخراج الذهب -
 هل نسيتم أنهم يستقدمون إلى نهر شحفواشه مجموعة من العمال ويصرفون
 أخرى؟
 - وهل تظن أنه بقيت لنا كل هذه الذاكرة؟ - ابتسم العجوز بشماف قليلاً،
 ما أكلناه البارحة ننساه اليوم!
 سرت همهمة بين الرجال وهم يتناقلون همساً ما سمعوه. وتذكر كثيرون غياب
 تيمرقوه عن القرية.
 وصل خبر زغانه إلى مزبه فأرسل ردد شوباش وججان مع آخرين إلى مستخقوه
 للتعزية. وأوصاهم قبل أن ينطلقوا:
 - لم يكن زغانه في حال تنذر بالموت المفاجئ. ولم يؤذ أحداً طوال عمره. ولم
 يعان صداعاً يوماً واحداً. قابلوا الناس دون ضجة. إن كان قُتل فهناك مئة عين
 ترى، ومئة أذن تسمع. لا بد أن أحداً رأى أو سمع.

III

"من أتى من وراء البحر يخبط برجله، ومن دخل إلى بيتنا قلب صقر وما في
 صدره مزخرفات..."، "يعمل لنفسه دون تعب، وما كسبه يتناهبونه" يردد
 شوباش وهو يتدفأ على نار الموقد بعض العبارات.
 جاءت رامبس من ورائه فجأة وسألته مستغربة ما يسمع:
 - هل تهذي يا ولد؟ لماذا تجلس وحدك إلى الموقد؟
 - ما أتذكره أكثر حين أتأمل نار الموقد. ألح عليّ زيش أن ألعب معه لعبة
 الحزازير. - نهض شوباش مرتبكاً قليلاً من مفاجأة الأم له. - هل تظنه
 سيعرف أجوبة ما سمع؟
 - جواب السؤال الأول: دجاجة ذهبية. والثاني: النحل. أنا كنتُ علّمتهما

لزيش. - ثم أضافت: - أخوك سيعود كولس فالأفضل أن ترافقه. لم نعرف بمرض جارنا، العجوز الوحيد، طوال أسبوع. ولا يصدف يوم أشبُع من ردد ومنك، غارقان في عمل لا ينتهي... - انصرفت الأم بقامتها المنتصبّة مع احتجاجها الناعم.

كان كولس المستند بظهره إلى جانب السرير يلعب الصبيّة الصغيرة الجالسة في حضنه.

فتح شوباش باب المضافة، وسار وراء أخيه الأكبر، وفي الحال استوى العجوز جالساً والصبيّة في يساره:

- تفضلاً، تفضلاً!.. - استقبلهما كولس مرحّباً، وتوسّل إلى شوباش الواقف إلى الجدار أن يجلس إذ لا غريب في الغرفة.

- كفى يا كولس دُعْ واقفاً. - ابتسم ردد، - أليس حسناً أن يبقى أخونا الصغير واقفاً في حضرتنا. يملأ القلب افتخاراً بأدبه. دفعنّا أمانا إلى زيارتك بحجة أنك متوعك؛ غير أنا نراك في أحسن حال.

- نموت في الليل، ونحيا في النهار يا ردد، - نظر العجوز راضياً إلى كلّ من الأخوين على حدة. - ججان غائب، وأوصيت الكنة ألا تقلقكما.

- لم تُحسن التصرف يا كولس، - اكتسى صوْث ردد بالعتاب، - تعيش عمرك تغمرنا، شوباش وأنا، برعايتك. إن لم نتلهف عليك فمن عندنا نخدّمه إلا أمانا. الآلهة يستحقون الشاء إذ خففوا عنك الألم، والصبيّة الصغيرة تلاعبها.

- والصبيّة تعود إلى أمها متى نادتها وإن لاعتبّها كثيراً يا أمير، - ضحك كولس وهو يبعد يد الصبيّة التي تمتد إلى عينه. كنت طلبتها من الكنة لتسلّيني. ما الأخبار هنا وهناك؟ لم نتجالس منذ أن عدت من عند الموط بسبب تدهور صحي. وكيف حال رامبس؟

- لا بأس بصحة والدتنا، كأن الدواء الذي جاءت به دكايس نفعها. والموط فارقتهم راضياً عنهم.

انفتح الباب، ودخلت الكنة بزابر وأمامها المائدة المستديرة. ووراءها أغبان مع مائدة أخرى.

- ذوقا من طعامنا دون أن تعتذرا بأنكما أكلتما تواء. - توسّلت بزابر، -

وعلى المائدة شيء مما أرسلتموه إلينا.

- يقال إنك تصبح غنياً إذا أكلت مما جئت به، - نظر كولس إلى عوّاده مازحاً.

حملت بزايز الصبية وخرجت من المضافة. ولما غسل كولس وردد أيديهما وجلسا إلى المائدة، انصرف شوباش وأغبان. وحين اختلى العجوز وكولس تابع ردد الخبر الذي ينتظره العجوز.

كان أغلب الأديغة يعملون في الأرض وتربية الماشية في عصر الأمير لاورستن، وكذا حين كان والده وجدّه ما يزالان على قيد الحياة، ولكنهم ما كانوا يبنون الدور، ولا يبنون المَنَع ولا البيوت من الحجر. كان الرجال يعتبرون الاختباء في بيت أو منعة من الحجر نوعاً من الجبن.

وخلال عبوره قرى القسوغ كان أكثر ما يمرّ أمام عيني ردد بيوتاً مسقوفة بحزم من الأغصان الرقيقة، مدعومة بالأعمدة. وبينها ما هو مسقوف بالقصب. وأغلب من يصادف من الرعاة يرعون الأبقار والجواميس والخراف، وقطعان الخيل للأمراء. ومواشي الأسر منفصلة. ولم يكن ما يعود إلى دُور أصحابها قليلاً حين تتفرق. وترتسم هذه الصورة في عيني ردد من كل مكان.

أصبح الأمير ردد وعلى يمينه قدان، وإلى يساره تيمرقوه، ووراءهم أربعون فارساً وراء نحر بشره، وقبل أن يصل تماماً إلى أول قرية للموط، استقبله "قايت" أمير الموط مع ثلّة من الفرسان.

- خطوة مباركة في أرضنا يا أمير! - ابتسم الأمير قايت للأمير الأديغة الكبير.

- لندخل بالخير بإذن الآلهة! - أجاب الأمير ردد.

انصرف الجميع دون مزيد من الكلام: قايت على يسار ردد، وقادة الجيش وراءهما. توّرع فرسان أمير الموط، ووقفوا على الأجانب.

- هذه قرية بُسِنه داك يا أمير، على ضفة نحر بشرة. وهي آخر قرية للموط إلى الجنوب.

حُيِّل لردد بعدما توسّطوا القرية أن يوتّمهم ودّورهم أحسن تجهيزاً. وكان يعرف أنهم يحبّون التنافس فلم يستغرب ما رأى.

سأل ردد وهو على مائدة الغداء أمير الموط:

- يا قايت، ماذا يمارس رعاياك عدا الأرض والماشية؟ ماذا فعلت بشأن ما كنا اتفقنا عليه؟

- كل شيء يجري كما اتفقنا يا أمير، - رفع الأمير قايت كتفيه مزهوًا بنفسه.
- بدأنا نزدهر على نحو ملحوظ. قرى الموطن على نهر بشزه وغيره من الأنهار بدأت تصيد السمك كثيرًا. نحن لا نأكله ولكن الروسيج والروم والخزر يقايضوننا عليه بكل سرور. ويحدث أن يعطونا مقابله من الذهب والفضة. وعندنا منجم للتراب الأصفر. ومن يطلبون القرميد كثيرون. ولكن لا أستطيع تشجيعهم عليه. نحن لا نبني بيوتًا من الحجر ولذا يستصعبون شي القرميد ويرونه عملاً وسخاً.

- كنت تكلمت على الخزر يا قايت؛ ألا يزالون يقيمون في نواحيكم؟ وهل يحدث أن يغيروا عليكم؟

- لا يا أمير، كانوا كالجراد ولكن لا أعرف أين تشتتوا. ستراهم متى سافرنا إلى نواحي نهر الدون.

- لا أريد أن تقع عيني عليهم. - جزم ردد.

- أفهئك، أنت حاقد عليهم طوال عمرك. - عبس الأمير قايت، - ونحن ما أكثر ما ملؤوا قلوبنا ضيقاً!

- هذه أحداث انقضت يا قايت. وأنا أريد إطلاعك على سير الأمور في نواحيننا. عشنا حياتنا، نحن، وأنتم الموطن، والزبيخ والحكوف، ملتصقين بالأرض، متمسكين بأذيال أبقارنا. ومن كانوا يستخرجون الذهب والفضة من منابع الأنهار، ويصهرون خامات الحديد أسرَّ محدودة. وبينها من اغتنى منها وأمسك بالزعامة. والآن نستثمر كل هذا من أجل دولتنا. والأعمال التي باشرناها، والتي من شأنها أن تُعلي من مكانتنا فتحترمنا لأجلها الدول الأخرى، لها قيمة كبيرة. وأنتم رفعتم رؤوسكم عن الأرض دون أن تتخلَّو عنها، واطَّعتم على شؤون جيرانكم.

- لا شك في هذا، عشنا إلى الآن منغلقيين على أنفسنا، - أيده الأمير قايت من قلبه. - وكان للصوص يكثر من عدنا في الخريف - الشتاء إلى بيوتنا. وحدث أن أغار علينا جيراننا، ولبلوا أحوالنا. والآن قليلون من بقوا فينا يمدون

أيديهم إلى ما ليس لهم. وهؤلاء سنؤدبهم بطريقة ما. وما لا أعرف له تفسيراً هو سلوك الأمير أبج. ولا أظنك تجهل هذا. بدأ يتردد على زعماء قرانا، ووجد بينهم من يستجيب له. حقاً لم يقابلني شخصياً ولكني أعدتُ أمراء الموط إلى جادة الصواب حين علمت. ونحن يا أمير، لا أكتمك، نود أن نُعلي سيادتنا. ولكن أمير الزبخ يرى نفسه كبيراً عاقلاً. ويعتقد نفسه أقدر على ترتيب أمور الدولة.

- الواقف على البرّ ملاح ممتاز. - ابتسم ردد، - إن كان عقله طاغياً عليه إلى هذا الحدّ عقدنا اجتماعاً على مستوى الدولة وانتخبناه أميراً لها.
- هل تمزح؟ - صاح أمير الموط، - أنا أعرف مبلغ عقل أبج. - سلّمه اليوم قيادة البلاد يُز بيننا غداً حرباً أهلية. يدّعي ما لا يقدر عليه.
- وماذا يفعلون بمن يشبهه؟ - ينجو مرة، وثانية، وفي الثالثة يقع. إن تعاملنا فيما بيننا بصدق أعدناه إلى مكانه الحقيقي. وإن لم يعد إلى عقله فلن نربت على كتفه.

ولما همّوا بالسفر نظر ردد من فوق الفرسان، وقال لأمر الموط بما يشبه المزاح:
- يا قايت، إن اصطحبنا كل هؤلاء الفرسان، وهم قليلون على أن يكونوا جيشاً، كثيرون على أن يكونوا جماعة، كما يقول مُستونا، ظن الناس أننا ماضون إلى الحرب. كان الأفضل لو استبقيت حاشيتك. يكفي فرساني.
- كما تريد يا أمير، - احتد الأمير قايت بعض الاحتداد لما سمع ولكنه وافق. استبقى حراسه، وسرّح الآخرين.

كان أمير الموط يشير لضيفه كلما وصلوا إلى قرى الموط أو مرّوا بها. ويسمّيها ويروي له أخبارها. وكان الجانبان مرتاحين للترحيب الذي يقابله بهما الناس. ولما وصلوا إلى حدود الموط بدت الحَيِّم على يسارهم في أطراف عمق الغابة.
- هؤلاء هم الخزر الذين لا تودّ رؤيتهم، - أشار الأمير قايت بطرف سوطه.
- ولا يبنون بيوتاً، وأين يذهبون بما سلبوا الناس من أموال طوال هذه السنين؟
- قال الأمير وهو ينظر ساخطاً إليهم.
- يقال إن أكثر أبناء قومهم اتجهوا إلى الغرب. ولا بدّ أن يلحق هؤلاء بهم. وهذا هو السبب في امتناعهم عن بناء البيوت. ثم إنهم اعتادوا على حياة

المخيمات فلا يرغبون في البيوت. انظر يا أمير كيف يتابعنا أصحاب الرؤوس الرقيقة والعيون الضيقة!

- أعمى الله عيونهم! قتلوا والدنا دون وجه حقّ. - أطلق ردد لعنةً على غير عادته.

وفي اللحظة نفسها تعثّر حصان أمير الموط.

- ليس هذا فأل خير. - لجم قايت الحصان غاضباً، - لا أتذكر حصاني تعثّر ولم يحدث لي مكروه.

- هذا ذنبك أنت يا قايت. أرخيت الزمام، يتعثر الحصان حالما غاب عن عينيك. لا بأس، - نصح ردد الأمير محاولاً صرف تفكيره عن الشرّ.

باتوا ليلتهم في قرية نَجَتْ، وتحركوا مع الفجر، وعبروا بعد الظهر نهرًا صغيراً لا يعرفون اسمه. وسقوا خيولهم حيث وجدوا على ضفة النهر السريع مجموعة أشجار ناعمة الخشب على رقعة مستوية من الأرض. وتناولوا شيئاً من اللحم والجن المجففين. وبعد عدة غلوات للخيول بدا نهر الدون بلون قريب من لون الأرض. ولما انحدروا إلى المنخفض اختفى النهر عن العيون.

- نظر أمير الموط إلى يساره: إلى الشمال يا أمير، يعيش أبناء قوم الأمير مستيسلاف. وإذا انحدرت من ضفة الدون التقيت بالياس - ألان.

- الحق أتساءل: هل الروسيج في كل مكان؟ - استغرب ردد، - من عندهم كل هذه الأرض انتزعوا منا توم - تقاش، ويثبت مستيسلاف حكمه فيها. - هم كثيرون يا أمير، ولكنهم لا ينتهون أيضاً من الصراع الداخلي الذي نعيشه. لا يريدون أن يتعاضدوا.

- لا مشكلة معهم إن تطورت دولتنا نحن دون أن يظهر بيننا أمثال أبج. تعالوا، لنبتعد عن الشمس الحارقة إلى ظلال تلك الأشجار، - قادهم الأمير ردد إلى الغابة الضيقة الممتدة إلى يمينهم. كان المكان جميلاً مفروشاً بالحشيش الأخضر.

صاح أحد حراس الأمير قايت فيهم:

- وصلنا إلى نهر الدون، سأغسل وجهي بمائه!

انفرد الشاب الجسيم عن الفرسان. وتبع قدان الفارس بإشارة من الأمير الكبير.

جرى الفارسان بعض الوقت في الوهدة، ووصلا إلى مكان أكثر اتساعاً فانحرفا جهة النهر. ولم يمض وقت طويل على غيابهما عن مرأى العين حتى رجعا إلى أعلى الوهدة. وفيما هما عائدان هوى الشاب الموطي فجأة على حارك الحصان. واندفع الفرسان الثلاثة الذين يلاحقونهم إلى الوهدة. ولما رأى قدان الشاب وراءه قد نفذ السهم في ظهره استدار بالحصان ورجع مسرعاً. وقابل الفرسان المندفعين حانياً رأسه. ارتعب الفارس المتقدم منهم فانعطف بحصانه، ولكن لم يجد الوقت إذ حاذاه قدان ورماه أرضاً. ورأى الفارسان الآخرين مجموعة الفرسان المجتمعين فحرفا مسار الحصانين بعنف، ولكن الحصانين لم يُطاوِعاهما، فصَرَ قدان دون سيف أو سهم الفارس الذي أمامه. واختطف الثالث من سهوة حصانه وعاد به على حارك الحصان.

- لماذا نقف فاغري الأفواه؟ - صاح أمير الموط، ثم نظر هلعاً إلى ردد. - لهذا قلت يا أمير حين تعثر حصاني إن هناك مكروهاً بانتظارنا.

- جرى ما جرى وانتهى يا قايت، - نظر ردد أيضاً قلقاً إلى المكان الذي جاء منه الفرسان الثلاثة. - أدعُ إلى الآلهة ألا يتبع هؤلاء الثلاثة جيشُ فرسانٍ. - ترجّل وأسرع إلى الشاب العائد وفي ظهره سهم: لا خطر عليك، أصاب عظم كفك فحسب، سيشفى. - نظر الأمير الكبير ثانية نحو الجنوب: ظهر فرسانٌ غيرُ من توقعهم.

التحق قدان برفاقه. وألقى بالفارس الذي على حارك الحصان. شابٌ صغير، أبيض الوجه واسع العينين. يتأمل بوجه شاحب الفرسان الذين أحاطوا به.

- استدعوا الآخرين أيضاً إلى هنا، - صاح أمير الموط بصوت غاضب - لأجل هؤلاء عدتم جرياً يا قدان لا تلتفتون؟ - ضحك ردد، - أرعبكم من لم تسقط من أفواههم الأسنان اللبنية.

- وهل عرفنا أنهم أحداثٌ دون أن نراهم عن قرب؟

- لا بد أن هؤلاء من شاب الألان. من يعرف لغتهم؟ - نظر ردد إلى الفرسان.

- أنا أعرف القليل، - خرج من الموط رجل قصير رقيق.

- اسأل أكبرهم عن سبب ملاحقتهم فرساننا.

خاطب الرجل الرقيق باللسان وباليد الشاب المنتمي إلى الألان. ثم خاطب
الأميرين:

- يقول الألان: هل اكتفيت لو كنت مكاني بمراقبة الفرسان للصوص
المقتحمين أرضك؟

- وهذا جزء من الرجولة، - أننى ردد على الشاب، - أفهمه إذن أننا لا ننوي
شراً. وأفهمه أنه لا يجوز مقابلة من لا تعرفه بالسهم. وأضف أننا كنا في زيارة
لجيراننا.

- لا أعرف إن كنت قادراً على التعبير عن كل هذا يا أمير، - وأفهم المترجم
باليد واللسان، الشاب الذاهل ما يريد.

- أطلقوهم! - أمر ردد.

نادى قدان بعدما أخرجوا السهم من ظهر الفارس وضمّدوا الجرح وامتطى
الحصان:

- خرج من طرف الغابة على يميننا عددٌ غير قليل من الفرسان. وهم مقاتلون يا
أمير، على ظهورهم الدروع. وتبدو من فوق رؤوسهم جُعبُ السهام. والخنودُ
تلمع للشمس...

- ما أدقّ مراقبتك لهم؛ هل أخافوك؟ - استدار قايت أمير الموط، ومع أنه
كشر عن أسنانه متيجحاً فقد شحب لونه هو الآخر.

- لا تفرّعوا، نحن لم نأت للقتال. - قال ردد لمن وراءه ووجهه نحو الفرسان
الذين يقتربون، ثم سأل قايت: هل بينهم من تعرفه؟
- أظن قائد الجيش من معارفي.

- لا أعرف إن كنت تظن، ولكنه مستيسلاف أمير الروسيج، - بدا على ردد
عدم رغبته في الاصطدام بالروسيج في هذه المنطقة.

- نعم حقاً، هو مستيسلاف وإن كنت لا أعرف أين كان. - مطّ قايت قامته
على صهوة حصانه، واستعدّ لاستقبال أمير الروسيج.

- لا تتحرك يا قايت! - اعترض ردد، - سيصل من يأتي. لا يهتّمنا أين كان
مستيسلاف، بل أين يذهب. لماذا يأتي إلى أرضنا ولا يعود إلى توم - تقاش؟

- انظر ما أرى! - رفع مستيسلاف يده قبل الوصول إلى مفترق الطريق

وأوقف رفاقه، وسرت على وجهه الشاحب ضحكة خفيفة: - ماذا يقولون
عمن خطر على البال؟

- نحن نقول أيها الأمير الكبير: من تأت على ذكره تجده على العتبة، - ردّ
أمير الموط على تحيته مغتبطاً.

- معك أمير القسوغ يا قايت، وهذا أفضل، - ترجل مستيسلاف وهم في
غمرة الحديث، وفعل مثله ردد وقايت.

- أنا يا أمير الروسيج لستُ أمير القسوغ وحدهم، بل أمير بلاد الأديغة.

- أعرف أيها الأمير ردد، - ألقى مستيسلاف نظرة باردة على الأمير ردد. -
نحن نسمي القسوغ والزيخ والموط وغيرهم بالقسوغ.

- نحن نتنادى حين نجتمع بأسماء عروق كثيرة، وحين يدخل بيننا غريب نسمي
أنفسنا بالأديغة. - شرح الأمير الكبير للأمير الكبير.

- ونحن عندنا هذه العادة، - هزّ أمير الروسيج رأسه وهو يستدير نحو أمير
الموط. - كنتُ في ساركيل وبيلا وبيج. واتجهت إلى الجنوب يا قايت حتى لا
آتي في سفرة أخرى، ونتكلم في قضايانا. هل تسمح لي أن أدخل إلى أرضك؟

- ما أهمية رأيي في حضور أميرنا الكبير؟ - زمّ قايت كتفيه.

عاد الأمير مستيسلاف إلى مَنْ بيده السلطة.

- ادفعوا لنا يا أمير القسوغ الكبير الإتاوة دون حاجة إلى الحرب. حردت حين
التقينا في المرة الماضية وانصرفت.

- لستُ طفلاً فأحرد أيها الأمير الكبير! - شحب ردد الأمير الكبير، - كنت
أريد أن تفهم أننا لا نتحمل ما لن يستقر على ظهورنا.

- ألا يجب أن نسترد ثمن ما دفعنا من دماء؟

- لا أعرف أننا سفكنا دماءكم.

- حين هزمتنا الخزر العصاة سفكنا من دمائنا ما يعدل نهرًا.

- نحن ممتنون لكم في شأن الخزر. ولا ننسى فضلكم يوماً. ولكن ما ساموكم
من عذاب ليس أقل مما سامونا. دافعتم عن حريتكم.

- هذا صحيح، ولكننا حاربنا من أجلكم أيضاً. وإن لم يكن عندكم سابقاً ما
تعطونا فالآن عندكم الذهب والفضة، وتعملون في التجارة. أنا استدعوني إلى

القسطنطينية ويجبروني على أن أتعهد أمامهم. لست مهموماً جداً بدينكم. ستعتنقون مرغمين إن عاجلاً أم آجلاً المسيحية أو الإسلام. إن اخترتم المسيحية صرتم في حماية بيزنطة. ولن تدعكم الدولة العظمى القريبة منكم تهنئون بحياتكم دونها.

- يا أيها الأمير الكبير، - حتى أكبر الأشجار تمتد منها يد الشمس وتحرقك. لن تهنأ إن عشت تحت جناح أمة كبيرة يداها مبسوطتان عليك.

- لن تستطيع الانتصار على دولة متطورة أيها الأمير الكبير ردد، - لان صوت الأمير الكبير مستيسلاف، - وأنت، والأمير الكبير فلاديمير، وأنا، لم نستطع تأسيس دولة واسعة قوية. كان أغلب الروسيج يودون البقاء موزعين على إمارات، ولا يستوعب عقلهم ضرورة أن نصبح دولة واحدة إلا أن ترغمهم بحد السلاح. ولا يتخذون مثلاً من الأقوام الأخرى التي أسست دولاً. وها أنت أيضاً بدأ الزيج يتمردون عليك. والأمير أبج زار قانشاو بضع مرات.

ارتفع الدم إلى رأس ردد مما سمع. وصار على استعداد لأن يمزق الأمير أبج إن وجده في مكانه. ولكنه سرعان ما سيطر على غضبه، وأجاب الأمير مستيسلاف ضابطاً أعصابه:

- نتحاور عبثاً لأن آراءنا، أنت وأنا، مختلفة. ولا أظننا سنتفق. إن عشنا جارين صادقين تحققت العدالة. والآن أترجأك من أجل قانشاو. أمنا مريضة دائمة وتودّ توديع أخيها الأصغر قبل الرحيل. ليتنا استطعنا الجمع بينهما بطريقة ما...

- قائد الجيش قانشاو غائب، أرسلته إلى شيرنيغوف. - قاطع الأمير مستيسلاف كلام ردد إلى موضوع آخر، - إن كنتم عائدتين ترافقنا. - لا، حسم ردد الموضوع باختصار. - لا بد أن نزر قرى الموطن بعدد. ... روى ردد لكولس مثل هذه الأخبار. وبتراً نفسه:

- أسهبت في الحديث. أخشى أن أكون أرهقتك يا زعيم الخير. - لا يا أمير. استمعتُ إلى كل ما رويت مستمتعاً بغرابته. - تنهد كولس عميقاً، - تصرفت بحكمة في قولك وفعلك.

- أنا لا أحتاج إلى مديح زائد يا كولس. لا أوجه هذا الكلام إليك لأني أعرف

إخلاصك لي عقلاً وقلباً، بل أتكلم على أشخاص آخرين. ما عندي من عقل وتفكير لا يزيدان على ما عند الناس. ولكني أستمع إلى من لا يعترض. وأرى من يحسن التصرف. ألتفت القائل " المديح الزائد يدور بالرأس، ويسبب الجنون. ويُسيك ما تعرف " ابتسم ردد في وجهه بطيبة وشيء من الخبث. - وأتساءل حين أسمع أحداً يمدحني: ماذا يريد هذا الرجل مني؟ أريد أن يجريني إلى طريق خاطئ؟

- أعرف أن هذه طبيعة ممتازة فيك. - تجتمع العجوز كولس على نفسه وهو يمازح ضيفه، - ولكن نقطتين أقلقنني في ما رويت. كنت تبهتك قبل الآن أن أمير الروسي قد يتجاوزك فاحذر منه. والأمر الثاني الذي هيّجني هو سلوك الأمير أبج. في قولهم: " لا ينجب الرجل الصالح ولدأ صالحاً " شيء من الصواب ومن غير الصواب. ها أنت صرت مثل والدك المرحوم تماماً، وكذلك لن تجد اعتراضاً على مشقوه وقدان اللذين أشبهها والديهما. ولكن أبج لم يحمل شيئاً من صفات والده. وقد نصّبه أمراء الزيوخ زعيماً لهم. يتدخل في كل شيء، ويتابع ما هو من شأنه وما ليس منه. هو إنسان أزرق أشعث كالفنغد. إن كان لك شأن مع الأمير أبج فلا تسوّف على مبدأ: من يمد يده إلى عينك فمدّ يدك إلى روجه.

- لا يؤكل أي شيء قبل مواعده يا كولس، - تملكك الصلابة صوت ردد، - كل شيء سيأتي أوانه. وكلّ سينال ما يستحقه.

IV

صاحب الطبع السليم يخرج عن طوره إن لم يحرص على نفسه. كان أبج بدأ يغار من ردد سراً ولو لم يزنّ تراب في أذنه. كان الأميران ردد وأبج من عمر واحد وصديقين. وإن التقيا رحب أحدهما بالآخر وتصرّف معه بلطف. ولا يقصر أحدهما في خدمة الآخر. وحين طُرح موضوع الدولة وافق أبج في البداية دون حاجة إلى كثير من الجدل. وكان ردد يعرف أن صديقه يؤيد أي مشروع يبدوون به حتى إذا وصل الأمر إلى التطبيق تظاهر بأنه يجهل كل شيء. ولم يكن أمير الزيوخ يصغي إليك ولو رويت له أعجب الأخبار.

ويلقي في الحديث بشيء خطر له فجأة فيحرف الحديث عن مساره. ولكن إن أحسن بأنك لا تصغي إلى ما يقوله سخط واتهمك بما هو ذنبك وما ليس ذنبك. يجب أن يكون دائماً محطّ الاهتمام.

وصلت الأخبار المتعلقة بتأسيس دولة الأديغة إلى أبج قبل مجيء ردد. وكان هذا الموضوع الوحيد الذي فكّر فيه مسبقاً. سيبقى الأمير الكبير في القسوغ وإن ألفوا دولة واحدة. إن اجتمع به في السنة مرة أو مرتين تودد إليه وجد ما يخدعه به. ومن الطرف الآخر سيقود الزيوخ على هواه. ويعيش على عادته يفعل ما يريد. ولكن ردد كان قد بدأ يخالط الناس خلافاً لما توقع. صحيح أنه لم يكن ممن يتجاوزونك ولكنه كان يتابع كل شيء من المحاصيل والمواشي وتجارة البحر. ويسأل عن النفقات والواردات.

"الاحتفاظ بجيش أمر ثقيل. يحدث الجذب ويحدث الصقيع. وتتفشى الأوبئة في الماشية ولكن لا يجوز التقتير على الجيش حتى في أسوأ الظروف بالطعام واللباس والسلاح. وإن كان عندك مخزون من الحبوب أمكنك مساعدة المحتاجين..." "وسيتجاوز هذا فيحصي ما تبيض دجاجاتنا. - سخط الأمير، - ثم إنه لم يعد يعترف بنا أمراء. يخاطبني أنا وقايت وأمراء القرى بأسمائنا المجردة في حين يجب أن نخاطبه بالأمير الكبير. إن اخترناك رئيساً للدولة فكلّ ما تجدد، وتقذّمنا في المعارك. كان عليّ أن أحمل قبل الاجتماع عدداً من الأمراء على ترشيحي. ما المشكلة؟ ألسنتُ قادراً أن أفعل ما يفعل ردد؟.. "

كانت النار التي أشعلها أبج في نفسه تضطرم كل يوم. وبدأ تراب يُذكيها. ولكن إيمان الزيوخ به رسولاً حقيقياً للآلهة، وإقناعه الأمير أبج بأن السماء تكلمه، واصطحاب الأخير له حيثما سافر، كلّ هذا جعله يتصور نفسه من جديد رجلاً مهماً جداً في مجال الدين، حتى لينسى أصله القسوغ. وكان لهذا التصور جذره: كان يدّعي في بلاد الزيوخ أنه استطاع عن طريق الابتهاال إلى الآلهة إقناع الناس كلهم بمبايعة ردد أميراً على الأديغة كلهم. ولكن ما يجعله عاجزاً عن تقبّل خبث أبج وأساليه المتلوية هو ما يعرفه من صراحة ردد. ولو كان محلّه لما روى لأيّ إنسان ما في قلبه من أسرار.

يجلس أبج تحت شجرة الإحاص يهوّي لنفسه بمروحة من ذيل الثور ذات

مقبض من الخشب. والكلب الأشقر ذو الأذنين العريضتين يُطلّ من تحت خزان الحبوب متدلّي اللسان. ويظهر هنا وهناك أحياناً حراسٌ يحتمون من الحرّ بالظلال. ادّعى تراب أنه مرهق فلم يسمح له الأمير بالعودة إلى بيته فكان يستريح في مضافته الرطبة. فقد الأمير الشعور بالطمأنينة لأن أموره لا تسير كما يريد بعدما كان واثقاً من نجاحها. يقول لنفسه: "بعضهم يلبّح لك، وآخرون يقتلع عينك بوقاحته". - كان ردد صارحه غير عابئ بإهانته قائلاً: "يا أبع أنت وأنا من سلالة أمراء دون أن يعني هذا أن نقعد متبجحين بالإمارة. علينا أن نعمل على تحقيق أهداف قومنا. كان والدك من رجال الزيخ، ولما توتّي ورثوك احترامهم له. ولن أكتف ما خطر لي حين بايعوني في الاجتماع الموسع أميراً للعموم وهو أن من فكرتُ باختياره أميراً على الزيخ هو الأمير زيكوشو. ولكن أعدت التفكير فاستبقيتُك لأن التفاهم معك أسهل بصفتك من جيلي وصديقي..."

ارتسم لعيني أبع الأمير زيكوشو بوجهه الصبوح ذي الجبين العريض، وذقنه المدب، وشذقيه العريضين، وعينييه الواسعتين، وخصره الدقيق وكتفيه العريضتين العاليتين، وراحتيه السميكتين. وقد حاولت أكثر من مرة القضاء عليه ولكن لم يتحقق لي. كلما شيعني اصطحب حراسه كأنه ارتاب في نواياي لأنه سمع مِيتة الأمير جَلَعْتُ. واعرف ماذا كان ينقص الأمير جلغت وقد تقدّم في العمر. كنت أظنه من أقرب الناس إليّ فإذا بهذا الدعيّ يذهب سراً إلى القسوغ ويعرف أنهم لم يهجروا آلهتنا، ثم يقف أمامي يُثني على ردد. إن كان رجلاً فليخرج من القبر الذي دفنته فيه ولينبح عليّ. وهذا مصير من يعترضني. وأمراء الموطن الذين كنت أسيطر عليهم انتزعهم مني قايت ذو الرأس القصير. وهؤلاء لم أقدم لهم شيئاً. ومن خدعني تماماً هو قانشاو ذو الوجه الشاحب. وقد عرض إليّ حين دفعْتُ الإتاوة التي طلبها الروسيج، بل مضيفاً إليها، متودداً إليّ، دون أن يمد يده إليّ: "الروسيج لا يثقون بمن يعادي قومه ففكّر في الموضوع إن كان يسعدك أو يسوؤك". أيّ سعادة في هذه الكلمات المجنونة. وسنراقب ماذا سيجري. كان تراب أخبرني أن الزيخ والموط والروسيج سيصبحون حلفائي. وعرف أنهم سيفارقوني بسبب تراجعهم. ولكنه يقول إنه يدعو إلى الآلهة أن

يعودوا إليّ فسأنتظر جواب الآلهة...

وقف تراب على المسطبة منتفخ الجفنين من النوم. ونظر وهو يزّم عينيه إلى الشمس التي تهمّ بالغروب:

- ألا تزال على جلستك يا أمير! اقترب تراب من الأمير بخطاً ناعمة. - إن استقبلت الليل بشيء من القيلولة ارتحت. لا تُقن نفسك بالتفكير يا أمير!
- سأتنفس الصعداء متى عرفتُ ماذا أخبرك الآلهة. وإلا فلا راحة. - نظر الأمير أبج إلى رسول الآلهة والضيق بادٍ عليه: - متى سيكلمونك؟

- هم سيُشعرونني؟

- وكيف؟

- يا أمير، أنت أيضاً تسأل عما يريد الجميع معرفته. إن كشفت السرّ فلن يتوجه آلهتي الأعزاء ثانية إليّ. لا تُغضبهم يا أمير! - نصح تراب الأمير بصوت مهموس.

- وهل تُغضب الآلهة كلمةً واحدة؟ ألا يرون ضيق قلبي؟ - فرك الأمير أبج الوجه النحيف الذي أهبطه الشمس. - لست وحدك يا تراب من يبتهل إليهم، أنا أفعل هذا كل يوم.

- ولماذا تبتهل إليهم؟ - سأل تراب الذي لم يصحّ بعد من قيلولته دون تفكير.
- ما هذا الكلام! - ارتفع صوته أبج. - أليس من أجل أن ينصروني على ردد ذي الرأس الكبير؟ أنسيّت أن لا أمنية لي غيرها.

- ساجني يا أمير، - ارتعب تراب، وحالاً وجد ذريعة. - لم أخرج بعد من أحلامي.

- جعلها الله خيراً! إرو لنا إن كانت خيراً. - استدار الأمير نحو تراب.
- لن أرويه للأمير وقد رأيته اللحظة في مضافته، بل قُبيل النوم، فأجعله يخلد إلى النوم هانئ البال.

- بربك أن ترويه بلا ملاحظة!

- ألا تعرف المنبسط على الجبل الجنوبي؟

- وكيف لا أعرف؟ ما أكثر ما تأملتُ البحر منه!

- كنت أتمشى في ذلك المكان فوقفت لأستريح.

- باختصار يا تراب، ما أريده هو الخلاصة!
- حين رفعت رأسي رأيتكما تتقاتلان، أنت وردد، بالسيف. ارتعبت في البداية ثم تشجعتُ واستعجلت للوصول إليكما غير أن رجلي لم تطاوعاني...
- وأين كان موقعي أنا؟
- كان ظهرك إلى البحر. وردد قريباً جداً منك إذ أنه فائق القوة، يُجبرك على التراجع. وكاد قلبي يتوقف خوفاً من أن تسقط في هاوية فيما هو يدفعك.
- هل تظني أضعف من ردد الرأس الكبير؟! - ارتفع أبج متوهج الوجه، - أهذا هو حلمك الذي تسرني به؟
- دغني أخني كلامي يا أمير! - توسل تراب والعرق يسيل من جبينه.
- هات، - التقط أبج المروحة وجلس مستغنياً عن كل شيء، - ولكن لا تختلق ما لم تر تودداً إلي!
- لو فعلتُ هذا لما غفر لي الآلهة أيضاً يا أمير. لا أزيد على ما رأيت ولا أحور. وهذه السماء تشهد لي. - رفع تراب عينيه الواسعتين إلى السماء ثم أعادها وهو يفركهما إلى الأمير. - وفي إحدى لحظات التقاء سيفيكما تنحيت إلى اليمين فأسقطت ردد نحو البحر، ولكنه عاد فتوقف إذ يعرف ما وراءه من خطورة فلا يتراجع.
- هذا صحيح، متى وجد المرء نفسه في خطر اكتشف في نفسه قوة خارقة. - سرى شيء من الاقتناع في عيني أبج.
- اسمع ما حدث فيما بعد: رفعت رأسي إلى السماء وتوسلتُ إلى الآلهة: " يا آلهتي الأعزاء: الأمير اللبيب الذي تعقد الأمة آمالها عليه، والذي أبتهل إليكم من أجله كلما تكلمتم إليّ، في موقف خطير الآن؛ أطلّوا عليه! لا أقصد ردد بل الأمير أبج. كل القوة بأيديكم أنتم. امنحوه القوة، واملؤوا قلبه بالشجاعة، وأضعفوا من جاء يقاتله. وسَلُّوا يديه!
- وماذا حدث بعدها؟
- تعثّر ردد بالحجر، وأنت أسقطت منه سيفه، وضربته بقائم سيفك فيما هو يتعثر. فصرعته.
- ولماذا لم أقطع رأسه؟

- لا أعرف يا أمير، أنا أروي لك ما رأيْتُ فحسبُ.
 - حسناً، لا بأس أيضاً بهذه النهاية. المهمّ أني غلبته. - رفع أبج كتفيه ونفخ صدره. - إن أضافت الآلهة دعمها إلى قوتي استطعتُ أن أغلبه في أي زمان.
 - وهذا الحلم شاهد يا أمير على أن الآلهة ستعينك. - لم يكن لدى تراب همّ سوى شحني أميره بالثقة. - وها هم سيكلمونني بسرعة. وأنا واثق انهم سيفتحون لك طريقاً منيراً.

V

مضى الشهر الثقيل ورقّ النسيم. وكل ذي روح يتنفس الآن ملء صدره. والمطر يهطل صافياً كل أسبوع مرة أو مرتين بعدما كان ممزوجاً بشيء من الجميد بعد عودة ردد من ضيافة أمير الموطن. الطبيعة تتأقن من جديد كأن الصيف لا يمضي إلى نهايته.

انتظر الأمير ردد إلى نهاية أشهر الصيف الثلاثة وهو يفكر في ما سيفعل مع الزئبق مع اعتقاده أنه آن الأوان لإجراء ما معهم، إن كان بالحوار أم بالسيف، قريباً من العمل بمبدأ: "من لا يأتي بالكلام يأتي بالسيف" ولكنه لا يريد سفك الدم بين أبناء العرق الواحد، ففكر في وفدٍ آخر:

- كما اتفقنا يا قدان. لا تجادل أبج محاولاً إقناعه بشيء، ولا تفتح له الباب ليجادل! لن يتردد في إيدائكم إن وجد ذريعة. لا تخبره إلا بأنني أنتظره بعد غدٍ في مزبه.

- فهمتُ يا أمير، - حثّ قدان حصانه ففعل مثله رفاقه السبعة. تابعهم ردد بعض الوقت، ثم قال لججان العائد حديثاً من منجم الذهب:
 - تعالَ إلى المضافة وارو لي ما يفعل مَنْ كنتَ معهم. لا مشكلة عندهم؛ صحيح؟

- لا مشكلة يا أمير، - أتى ججان من خلف الأمير فوقف إلى يساره، - كل نوع من الأعمال يندر أن يجري دون مشكلة ما، يغلب الملل على من يستخلصون الذهب بفراء الخراف. ولكن لا خطر عليهم. وسقطت صخرة على أحد عمال الفضة فكسرت ساقه.

- ومن أين الشاب المصاب؟ ألم توصهم بمتابعة وضعه؟
- كان من بين مَنْ أتى بهم تيمرقوه من مستحقوه. شابٌ حساس لا يهدأ، أرسلتُ من يزوره، وملأتُ العربة بالدخن والفواكه، وبخروفين، وهو من أسرة فقيرة.

- حسناً فعلتَ، - نظر إليه ردد بؤدٍّ، - ثم ماذا؟
- كان السقف الحجري انهار على شاب من الحكوف فحجزه. أفلقنا جدًّا، وهو الآخر خرج من تحته شاحباً. لم يتأدَّ إلا خدوشاً في وجهه ورضوضاً في أضلاعِهِ. ولكن لم يقبل العودة إلى دياره، ويتابع عمله.
_ ألم نكن اتفقنا على ألا تُقام أنفاق؟ - توقف الأمير الكبير مستاءً.
- ولكن يا أمير إذا حاولنا إزالة الطبقات الخالية من الفضة فسيزداد العمل الضروري. وما يحتاجه من وقت وجهد أكثر من فتح الأنفاق.
ما إن استراح الرجلان في المضافة حتى فتحتِ الخادمة الباب وقالت بصوت فزع:

- السيدة الكبرى رامبس تودّ مقابلتك يا أمير!
- وأنا سأنصرف إذن، لا أعرف كيف شهد جدي صباحه. خرجت من البيت باكراً جداً. - نهض ججان.
كانت الأم مستلقية في الفراش ممتعة الوجه. وأينار على رأسها لا تعرف ما تفعل.
- لا أعرف ما يجري لي يا ولدي. ارفع لي وسادتي قليلاً. - نظرت إليه نظرةً لهُفّةً يائسةً. رفع ردد أمه بحذر فوضعت أينار وسادتين تحت رأسها. - يا أينار اطلبي من الفتاة أن تدلك لي يدي ورجلي. جانبي الأيسر في خِدْرِ.
- لا يا سيدي، لن أستدعي الخادمة، أنا سأفعل كل ما تحتاجين. وأنت اخرج إن كنتِ فعلتَ ما تريده. - أفهمتُ أينار زوجها ما تريد دون أن تذكر اسمه في حضرة الحماة.

امتلاً قلبُ ردد بالجزع وهو يفكر في تراجع صحة والدته على نحو ملحوظ في العام الأخير. ونسي الوفد الذي أرسله وراء أمير الزيوخ. عاد إلى المضافة ولكنه خرج إلى الدار الفسيحة يذرّعها قلقاً. دخل إلى الإسطل ومسح على وجهه

حصانه الغيور، والآخر الواسع الصدر، وكلمهما. وحين نظر نحو غرفة أمه رأى أبنار تدخل إلى غرفة الصبيين فأسرع، وسبق فتحه الباب بالسؤال. فأجابت أبنار:

- دلكتُ للسيدة الكبرى يديها ورجليها، وارتاحت من الحذر. - تُعَدِّد أبنار خدماتها للحماة وهي تبحث عن شيء ما دون أن تنظر في وجه الزوج. - ها هو، وجدته، والآخر أين؟ - قلبت الصندوق وأخرجت منه شالاً من الصوف. - سألف يدي السيدة ورجليها بهما. صوف الغنم الناعم يستلّ المرض جيداً. - ثم عادت إلى رامبس دون أن تضيف شيئاً لزوجها.

تابع ردد زوجته راضياً: "يا حكيمتي الصغيرة، ستعمّر أماناً أيضاً ما دمت إلى جانبها. ها هو المعروف الذي كنتِ رميته في البحر عاد إليك. لو استطاعت أبنار لأسكنتكِ قلبها، ومنعت عنك كل مكروه. تتلهف عليك أكثر مني..." عاد الأمير ردد من زيارة للمحاربين في منتصف اليوم الثالث. وقبل أن يجد الوقت للاغتسال رجع قدان إلى دار الإمارة. وحالما نظر إليه ردد عرف أنه لا يحمل خيراً ساراً.

- يا أمير، أبح أسوأ مما يصفونه به. ليتك رأيت سلوكه معنا! طلبني إلى المضافة وأجلسني، ثم كلمني حاقداً وظهره إليّ، ويده خلفه، يذرع أرض الغرفة، وينظر عبر النافذة: "إن كان ردد أميرُ القسوغ أرسلك فهات كلامك الوسخ، أشر كلامك، وسأطلب من سيكسنونه". قلتُ له بلهجته نفسها: "يا أمير، الأديعي إن أتاه قاتلُ والده عامله كضيف طوال إقامته عنده. وأنا لم آت إليك عابر سبيل بل موفداً من الأمير الكبير ردد" قال: "لم أسمع إلى الآن أن حارساً أرسل موفداً؛ قل لي ما سبب زيارتك: "الأمير الكبير ينتظرك بعد غدٍ في منزله"، - استدار ونظر إليّ حاقداً، وضحك ساخراً: "سينتظرن طويلاً إذن. لم أعتد على الجزئي لمن يشير إليّ؛ من يريدني يأتي إليّ. حين أَلَف الزبخ دولة لم يكن القسوغ يعرفون معنى الدولة. نحن من كان عليهم أن يبادروا. أبلغ هذا لمن أرسلك". ودّعته كما أمرتني دون جدال، وعدت.

- المهم أنكم غادرتم قريته. نسيت أن أطلب منك هذا. - أعاد ردد التفكير قلقاً. - كلما تقدّم أبح في العمر نقص عقله. حسناً يا قدان، لن نتصرف مثله

بغرور. لن نقلل عقلنا مع المتبجح. صحيح أن أميراً جمع حوله الزيوخ قبلنا، ولكن لا أعرف مساهمة أبج في هذا. هذا أمرٌ مضى، وما يشغلنا اليوم هو مستقبل الدولة. أعرف أنكم متعبون ولكن لا وقت لدينا. قوموا صباح غدٍ بزيارة أخرى للأمير الزيوخ، واطلب منه عقد الاجتماع في قرية " دَيس " على الحدود بيننا. فإن لم يقبل فليس بيننا إلا السلاح. لن نسمح بهدم دولة أسسناها بشق الأنفس مجاراةً لعناد شخص واحد. ولن يسامحنا من يأتي بعدنا... - جلس ردد قليلاً يفكر ثم رفع رأسه الضخم وسأل ووجهه ينم عن أنه تذكر أمراً: - ألم تروا تراب في زيارتكم؟

- غاب هذه المرة؛ ماذا يا أمير؟ - نظر قدان مستغرباً في وجه الأمير.

- يعرف نُهرٌ بشده جرائمه فيجري لا يلوي على شيء.

- لم أفهم يا أمير قصّدتك بهذا، - أصاخ قدان السمع.

- هل نسيت كيف كان يغمرنا النهر متى فاض في بدايات الربيع أو أواخر الخريف؟ - ابتسم ردد على نحوٍ ينم عن أنه يُخفي سرّاً ما. - ومتى انتهى من فعلته عاد إلى مجراه كمن لم يفعل شيئاً، وأكمل طريقه إلى البحر متعثراً بالصخور، وهذه حال تراب.

- هل تقصد تحريضه الأمير أبج علينا؟

- وليس هذا وحده. إن كنت تتذكر الميتة المفاجئة لرجل الدين في مستخفوه زغانه فاسمع الخبر الحقيقي: حين أرسلتُ شوباش مع رفاق إلى العزاء استقصى الخبر ريثما عاد تيمرقوه، فزاد ارتياحي من رواية أحد أهل قريته.

- ربما رأى هذا الرجل شيئاً، - استعجل قدان.

- الناس يعرفون الجنيّ الذي يطير ليلاً. - وافقه الأمير، - كان الرجل خارجاً إلى أرض الدار في حاجة فرأى ثلاثة رجال قادمين من جهة دار زغانه. وكان ارتاب في نواياهم من طريقة خروجهم من القرية يتسترون بالأسوار. كان الثلاثة يسرعون بظهور مخنية، ولكن أولهم وآخرهم يمدان جسديهما من حين لآخر فيراقبان ما حولهما في حين يجري الأوسط حانياً ظهره دائماً.

- ما أعجب ما ترويه! - صاح قدان، - كل الناس يحنون ظهورهم ويستقيمون ولكن ماذا بيد من خُلق أحذب؟

- هذا ما وصل إليه تراب يا قدان، - سرى حزناً على وجه ردد، - ظهر جانبه الشرير حين وجد من يشجعه. لم يغفر لزعانته اعترافه بأنه صاحب فكرة إشعال النار؛ أما فهمت الآن طبيعة موفد الآلهة؟!

- حين طلبت منك يا أمير ألا تغفر لتراب... -

- لا تستعجل يا قدان! - انتزع ردد زمام الحديث من قائد الجيش، - سيلقى ما يستحقه. لن يغفر له الآلهة وإن غفرنا نحن.

بدت القرية إلى الغرب حين خرج ردد برفقة الأربعين فارساً من الغابة الجبلية وارتقى الضفة المستوية لنهر أَيْبَس. كان الماء ضحلاً فستطيع عبوره على الأقدام.

وحالما خرج الفرسان من الضفة العمودية استقبلهم في ظاهر القرية الفرسان الثلاثة الذين في استقبالهم دون أميرهم. قال ردد في نفسه: " لم تستقبلني يا أبج، وإن ظننت أنك تهينني بهذا فأنت مخطئ. لا تظنني مثلك أحتد للإهانة. أنت تتصرف كالديك ينقر من ينقره ولكني أعرف أن من يهان يجد فرصة للانتقام. توقعْتُ ألا تجيء إلى قرية أَيْبَس. ولكنك عدت فارتعبت ووصلت قبلي تنتظرنني. سنرى الآن كيف تتصرف معي متى اجتمعنا. إما أن تعترف بحجمك الحقيقي وأما أن أعرفك به. ولا ثالثَ لهما..."

استقبل أبج والمضيف رددَ في أرض الدار. استقبله المضيف بمصافحة لطيفة دون أن تفارق عيناه أميره:

- أنت ضيف كبير يا أمير، وطئت أرض قريتي بالخير. تفضّل! - فتح الأمير الأقبى ذو الوجه الواسع باب المضافة، ونادى خدام الدار - هيا توازعاوا الفرسان، وأرسلوا إليهم الموائد!

تصافح ردد وأبج كأن لم يحدث بينهما شيء. وتأمل أحدهما الآخر. وحين توجهوا إلى المضافة قال أمير الزبخ لمن وراءه:

- لم نأت للطعام، لنبحث موضوعنا أولاً!

كان الأمير ردد يود أن يجيبه: " ونحن لم نأت لنثار لبطوننا من الزبخ " ولكنه صبر.

تجأجت المجموعتان في المضافة. جلس ردد، وإلى جانبه وقف قائد جيشه وقائد

جيش مزبه. وحين استراح أبج على المقعد وقف حماته الثلاثة وراءه. ومضى بعض الوقت دون أن يقول أحد شيئاً.

- أسمعك يا ردد، - نقض أبج صمت الغرفة دون أن يضيف لقب " الأمير الكبير "، - أنت من طلبني فهات ما عندك.

- على مبدأ الحاج المسلم: مُجَّد يذهب إلى الجبل إن لم يقبل الجبل المحييء يا أبج. - مازحه الأمير الكبير ردد محاولاً تخفيف حِدَّة محدّثه. ولكن أبج لم يعجبه الكلام فقاطعه:

- يبدو أنك الجبل وأنا إنسان صغير. أهذا ما تريد أن تقولوه؟

- لا، لم تفهم، أنت الجبل وأنا الآتي إليك. - سحب ردد مشروع الضحكة الخفيفة وعاد إلى هدوئه، - تناسيتُ موقعينا، وتفاءلت بإمكان تفاهُننا فجئتُ إلى قرية من قرى الزيوخ. ليس ما يشغلني موضوعاً شخصياً. لا هم لي إلا مستقبل الدولة. ترى أن العالم ليس مستقراً. الروس يج يتحدون في الشمال الشرقي، وتزيد قوتهم يوماً عن يوم. يطالبوننا اليوم بالإتاوة، فإن لم ندفع رفعوا في وجهنا السلاح غداً. وإن عرفوا أننا متفرون تجرّؤوا علينا. ولا نعرف نوايا المجموعات الأخرى التي تتوحد وراء نهر الدون. وأنت تعرف نوايا بيزنطة نحونا منذ زمن بعيد. هؤلاء توحدوا في دولة واحدة. وجمّعوا قواهم. هل القوة في القبضة أم في الإصبع الوحيدة؟ - ضمّ الأمير الكبير قبضة هائلة، ثم أبدى إصبعاً وحيدة. - أنا لم أعدّ عليك حتى مرة واحدة. أكتفي بما ستؤول إليه.

- بربك هل تظني ما زلتُ طفلاً فتظلّ تذكّرني بمصري؟! - نهر أبج بعينين جاحظتين. - جمعت مؤتمر الدولة بنفسك وحملتهم على انتخابك. لو عقدت المؤتمر في بلاد الزيوخ لانتخبوني أنا!

- عجيب أنك لم تظن إلى هذا في الوقت المناسب. - سرت ضحكة ساخرة على شفتي ردد، ثم هزّ رأسه، - وأنت من ساندتهم الآلهة؛ أليس صحيحاً؟ أليس هذا ما يُقنعك تراب به أيضاً؟

- هل تسمعون ما يقول هذا؟ - رمى أبج حراسه بنظرة حانقة وقفز واقفاً. يسخر من آلهتنا. إن أردت الحق فأنا من اختاره آلهتنا. لن أسمح لك أن تهنهم ما أبصرت عيناى، وحملتني رجلاى! - هبّ أبج إلى مقبض سيفه. وفي الحال

تقدّم كل من قدان ومشقوه خطوة واحدة. وأمسك كلٌّ بمقبض سيفه. وهجم الرجل الضخم وراء أبج عليه فأمسك بذراعه ونصحه:

- تحلّم يا أمير! - إن لم تتفقا فافترقا على خير كما يفعل الناس.

- أنا أعرف ماذا يريد هذا. - صاح أبج منتزعاً يده، - سينتقص من مكاني بين الزبيخ، وينصب مكاني زيكوشو أمير قرية حبلج. وجد الدعيّ من يلتقط الكلمة من فمه فينقذها. لا تتأمل هذا. أنا كفيل بكما أنت وصاحب هذا الوجه الطافح.

- فهمتُ كل شيء يا أبج، - استوى ردد قائماً، وبدلاً من الغضب ألقى عليه نظرة إشفاق: أظن أنك ستغرق في هذا المستنقع الذي حُضت فيه بإرادتك. وساعتها سيدفعك إلى الأعماق من تعتمد عليهم. هيا يا قدان، أنا قمت بواجبي والبقية على هذا الرجل. وسيعرف الزبيخ أننا نُعزّ آهتنا، ونشفق عليهم من الخوض في دمائهم...

وقبل أن يصل ردد إلى مزبه سمع الزبيخ من فم إلى فم ما جرى بين الأميرين في قرية ديبس.

والأمير أبج الذي ركب طريقه يغلبه الغضب، يجادل تراب في سرّه: " ورّطني مُطمئناً إياي أن أموري ستنجح إن التقيتُ بردد ذي الرأس الكبير. جاء ليكسر عودي، ولم تصدر من فمه كلمة مما متّاني به تراب. يدعي أن الآلهة يكلمونه ويستهل إليهم لأجلي. ومن الطرف الآخر ينازعوني إمارتي. لم يتحقق لي شيء مما وعدني به تراب. لا، لا، لا أقصد الشكّ في تراب، ولا يتخلّ عني أهتي. كان أخبرني أيضاً أن أمراء الموط، والروسيج سيساندوني. ولكن لا أعرف فيم أخطأت لاحقاً. وكان أخبرني أن أحداً لا يشكّ فيّ ساعة قررت مصير أمير " جِلَعَتِ ". تحيّر الأمير أبج فترك زمام الحصان وفرك عينيه.

VI

بدأ الجو يبرد ليلاً.

تشعر ببرد الخريف في الجبال أكثر مما على ساحل البحر وفي السهول الواقعة شرقاً. والبارحة استيقظ شوباش من البرد وغطى نفسه بالفرو الدافئ. وبعد ليلة

ستصل النوبة الثانية من العمال. ولما كان الوقت المتبقي أمامهم قليلاً فقد صُعِبَ على عمال الذهب قضاء اليوم الأخير من مناوبتهم. ورحلت قلوبهم إلى ديارهم. وكان شوباش قد غادر البيت قلقاً على راميس التي ليست في صحة جيدة. وخاطرُ مقابلة الفتاة التي رشحتها له دكابس يلحّ عليه. وكان ملح لاشين مرة تودّعها بزابز.

"لم يبق شيء لم يكتشفه الناس. - لام شوباش نفسه، - الجميل تعتاد عليه إن كان أمام عينيك دائماً. ولا يعود يعجب العين. ومن نراه في القرى المجاورة يُحَيِّلُ إليك أن لا مثيل له. لاشين لا تقل جمالاً عن الفتاة التي اعتبرني الأمير أبع غير كفء لها إن لم تفقها. ولكن لا أظنه سيسمح بزيارة أخرى لها لأن ربح الحرب تهبّ..."

خرج شوباش من كوخه بعدما حزم أشياءه كي يكون جاهزاً غداً. وخالط عمال الفضة. وبينهم من كان يصقّي ماء الذهب. الأمور تجري جيداً. النهار يجري إلى غايته، و قريباً سينتهون من العمل.

رفع شوباش صوته على وقع حوافر حصان أحدهم يجري نحوه. غزت رأسه الخاطرة التي يتوجس منها: "أتكون أنا المسكينة رحلت؟ أسرع الفارس الذي استقبله بلون ممتقع:

- يا شوباش اختفى " ددام "

- ومن ددام؟ - نظر شوباش إلى وجه الرجل.

- الشاب ذو الأنف والفم العريضين، وعينه اليسرى أصغر من اليمنى.

- أأكونُ رجع إلى بيته؟ - اطمأن شوباش إذ لا مشكلة ما دامت أمه بخير.

وابتسم للرجل: - ألا تعرف طبيعة الشبان متى ألحّ عليهم خاطر ما؟

- ولكني يا شوباش رأيت ددام اليوم يضع في جيبه قطعة الذهب التي استخرجها. تفقدت نتاج النهار من الذهب فلم أر تلك القطعة بينها. وفي تلك اللحظة فحسبُ تذكرتُ هروب ددام.

- هات لي الحصان بسرعة!

دنا شوباش من الحكوف المجتمعين عند منبع الماء. وسألمهم عن ييحث عنه. تضاربت الشهادات: هذا رآه بعد الظهر، والآخر في وقت أقرب، والثالث رآه

يصعد نحو أعلى النهر.

- هل كان راجلاً أم راكباً؟

- خيولنا ترعى على يسار ذاك المنعطف، - أشار الرجل الضخم من الحكوف إلى الشرق. - من يعرف إن كان ركب حصانه وهرب به؟

- نتكلم عليه أكثر مما نفكر في ما سنفعل، - قال شوباش للحكوف المتجمعين حوله، - بديلي سيصل غداً فأخبروه بعودتي. ومشى في الطريق الموازي للجبل. ثم عبر النهر وتوغل في الغابة. ولما وصل إلى الجزء شبه العمودي من الطريق سار مسافة إلى جانب الحصان. توقّف برهة وتفقد الطريق الملتوي الخارج من المضائق. ولكنه لم ير راكباً ولا راجلاً. ثم توقف جافلاً بعدما قطع مسافة غير قليلة: لم يسبق له أن خبر الطريق من منجم الذهب إلى بلاد الحكوف. تنحدر الدروب من الطريق الجبلي فتوزع على الجانبين. والدرب الذي يسير عليه ليس مطروقاً أكثر من غيره. والشمس ستغيب قريباً. ولا دليل متى حلّ الظلام. ومن يعرف بمن يلتقي إن ضلّ في الغابة الجبلية؟ - الدببة والذئاب تطوف فيها جائعة.

اجتاز شوباش الوهدة، ولجم الحصان لا يعرف أيّ الاتجاهين يسلك. تفحص الدروب جيداً وتصور أن تلك المتجهة إلى اليسار مطروقة أكثر. حمله الحصان بلا صعوبة إلى أعلى المرتفع، وفيما هو يسير بمحاذاة الجرف الصخري أوقف صوت الدب الحصان مرتعباً. ورأى شوباش الدبّ المرعب منتصباً على قائمته الخافيتين، والذئاب تهاجمه مكشرة عن أنيابها. وحاول أحدها مهاجمته فصرعه. وفي الحال فاجأ الدب الأكبر الذئاب من الخلف فعوت الأخيرة وتفرقت. دعا المشهّد شوباش إلى التأمل: "هذه هي الحال: حتى الذئاب تمزقك متى وجدتك وحيداً، ولو كنت قوياً كالذئب. وبيننا من لا يفهم إلى الآن أن في الوحدة قوة. لا يفكرون في أنهم إن مزقوا الدولة التي ألّفها ردد بشق النفس فستلتهمهم الذئاب"

بدأ شوباش يحث الحصان من وقت لآخر. وكما يفعل الخائف بدأ يترنم بأغنية ما. ثم سمع اصطفاق أمواج نهر شاكا. فتوجه نحو مصدر نباح الكلاب، ووصل إلى تخوم قرية "لِغُنْكَ".

كانت القرية غارقة في نوم لذيذ. ومن القرى يُسمَع أحياناً ثغاء خراف. وتعالى نباح الكلاب التي تَبْهَها وقع حوافر الحصان. وخرج فجأة من إحدى الدور كلب ضخّم وقف في وجه الحصان يمنعه من التقدم. ارتقى صاحب الكلب المسطبة وسأل بصوت عالٍ:

- مَنْ؟

- يا زعيم الخير هل تدلني على بيت دامر؟

- وصلت، البيت الرابع، تفضّل، أنت ضيف. - تعامل المضيف مع الفارس الذي لا يعرفه حسب تقاليد الأديغة.

- إن شاءت الآلهة تفضلنا بالخير. أنا في عجلة من أمري. - كان شوباش مرتاحاً لاستقبال الرجل له.

خرج دامر من البيت على صوت الحوار. ورَحّب بالضيف الذي توقف على مربوط خيله.

- هذا أنت يا شوباش؟ - صاح دامر الأشقر الضخم بصوت مَرِح.

سمع ردد اسم أخيه الأصغر من خلل الباب فاندفع من الغرفة متلهفاً وبادر بالسؤال:

- هل أتيت من مزبه؟

- لا، بل من منجم الذهب.

- ظننتك جئت تخبرني عن مكروه أصاب أمنّا فجزعْتُ. لماذا إذن عبرت في الليل الغابة الجبلية؟

- هناك سبب لاستعجالي يا ردد. استخرج ددام قطعة ذهب خالصةً من النهر فحملها وهرب. تبعته ولكن لم ألحق به.

- هل تغامر بحياتك من أجل قطعة من الذهب؟! - لام ردد أخاه: - الغابة مألّى بالوحوش. ومتى انخرفت عن الدرب لم تعرف في أي وهدة تسقط. والمجرمون كثيرون. لا تكرر ما فعلت!

- هل قلت إن السارق هو ددام؟ أنا توقعتُ هذا. - بحث دامر ساخطاً عن لباسه وسلاحه. - توسّل إلي أن أضّمّه إلى عمال الذهب فأرسلته دون رغبتي. هذا يا أمير ما وراء قولهم: البيلسان يُزهر وكلُّ يعود إلى أصله. والد ددام كان

أيضاً من هذا النوع، يطمع في ما ليس له.

- أين تذهب في الليل؟ - رفض ردد نية المضيف، - أمامنا غداً نهار. إن كان هذا الشاب يعرف السرقة كما تقول فليس مجنوناً. السرقة مَرَضٌ إن لم نستأصله من جذره فسيمتدّ غداً وينتشر. ولكن لا حاجة إلى إثارة البلبلة من أجل قطعة صغيرة من الذهب.

- ليست قطعة صغيرة، تساوي الإجمام. - تلهّف شوباش، - أخبرني من رآه. - الآن عرفتُ السبب في تصرّف الشاب. - أعاد دامر غُدّته إلى مكانها، وجلس سارحاً في البعيد. - في قريتنا امرأة جميلة مشبوهة عشقها ددام. وأهل القرية يتناقلون ساخرين أّها وعدته بالزواج مقابل أسوارة من الذهب. لا شكّ أنه سيأخذ الذهب إلى الفتاة غداً.

- ها أنت يا دامر وجدت الحلّ. أرسلْ إليه غداً لا يضغ جهد شوباش سدى. والآن نستريح.

- ألا يأكل مَنْ قطع كل هذا الطريق شيئاً يا أمير؟ - تذكّر دامر وخرج من الغرفة دون اعتبار لرفض الأخوين.

- ما انطبأعك عن الحكوف يا ردد؟ - كان يعرف أن أخاه لم يأت لتزجية الوقت، فنظر إلى أخيه بوجه متعب.

- جنوا محاصيلهم منذ وقت بعيد، - فهم ردد سبب سؤال أخيه، ولكنه بدأ من بعيد، - المساحة التي يستثمرونها صغيرة. أغلب الأراضي هنا جبال تغلب عليها الأشجار والكروم. وجمعوا الفواكه الخريفية أيضاً. والآن يقطفون العنب. وسيدوون بزراعة العنب أيضاً. ويجمعون الكستناء والبندق من الغابات.

- وكيف استقبلك قادة الجيش، - سأل شوباش عما يقلقه خصوصاً. - جاهزون حتى لو طلبت منهم الحركة اليوم. - ابتسم ردد مرتاحاً لاهتمام أخيه بأمور الدولة، - دانوا جماعياً سلوك أمير الزيوخ.

ظن شوباش أن المرأة الجميلة التي أتت بالمائدة هي دكابس ففغر فاه دهشةً. والتفت إلى أخيه الأكبر خجلاً كما لو أنه يعرف سرّه، كانت تشبه دكابس في كل شيء: القوام والهيئة والمشيّة. ثم خرج ردد إلى الفناء مع خروج ربة البيت. وفيما هو يتناول الطعام تذكر أنه زار دكابس للمرة الثانية ليأتي لأمه بالدواء.

كانت استقبلته من وراء الباب مُرَحَّبة إلى الغرفة:
- أين نطاي؟ - سأل شوباش الباحث عن دواء أمه، والذي لم يجد من اللائق أن يدخل البيت في غياب صاحبه.
- أظني وضعته في الصندوق. - لم تهتم دكابس بالسؤال، والتفتت وترجّت: -
ألا ترفع لي يا شوباش غطاء الصندوق!
الصدر الكبير الناعم الذي ارتاح على كتف شوباش المنكب على الصندوق نشر دفئاً لذيذاً في أوصاله. وسكب الدم في الرأس. استدار شوباش مهتاجاً فشم رائحة صدر دكابس الدافئة الطيبة. وأسرع الشاب المأخوذ برجفة خفيفة:
- نطاي!

- لا تخف، هو في الغابة. التقت به دكابس حتى ركبتيها.
قال شوباش لدكابس التي وقفت أمامه بثياب رقيقة بعدما ربت له ملابسه:
- أخبرني أنك وجدت لي فتاة أتزوجها؛ فما هذا الذي دفعني إلى فعله الآن؟
- يا شوباش، يا فتاي! - ابتسمت له دكابس وهي تمر على كتفي الفتى براحتها الناعمة، - الرجال يفعلون كل يوم مثل هذا. لا تخف، لن يعرف أحدٌ غيري وغيرك. لا تعطل مشروع زواجك من لاشين لهذا السبب. يمكنك يا شوباش حتى بعد زواجك أن تعرّج عليّ كلما اشتهيت. تمر أيامٌ على المرأة كل شهر لا تكون فيها مستعدة لك...

خجل شوباش من النظر في وجه أمه في ذلك اليوم فأشاح بوجهه عنها سريعاً. وقضى وقتاً طويلاً يظن أن كل إنسان من معارفه اكتشف سرّه مع دكابس. ثم هداً شيئاً فشيئاً. وهفا قلبه إليها مراراً وهو مع عمال الذهب والفضة. ولم يكن مهتماً كثيراً بتجاوزهِ نطاي. كان يعرف عجزه فلا يتأثر لما فعل مع امرأته. ولكنه كلما تذكر تراب نحر نفسه لائماً إياها على تقبُّله من عاشرت ذلك الأحذب البغيض...

عيّن دامر من سيفقدون بيت الفتاة التي يشتهيها ددام. وظل ردد وشوباش بانتظار النتيجة.

مضى النهار. وساعة انقضاء عتمة المساء، قامت بلبله في دار دامر. جاء رجالان يشدان ددام من جانبيه، ومن ورائه رجل يدفعه، وهو يتشبث بالأرض.

نظر دامر إلى ددام وكأنه سيقتله بعينه، وصاح فيه:

- أهنت الحكوف يا عديم الحياء! كيف ستمثل أمام أميرنا الكبير؟!

- كيف فعلتَ فِعَلتَكَ يا أخي الصغير " - سأل الأمير الكبير ددام بصوت هادئ، - أراك شاباً وسيماً، والعمرُ أمامك، يم ستدافع عن نفسك إن وقفت أمام أهل قرينك؟

- أنا مذنب يا أمير، - انكسر صوت الشاب. وارتحى جفن العين السليمة. لا أريد أن أستمِر في الحياة إن فضحتُموني أمام القرية. أخطأتُ فاعفُ لي. كانت الفتاة اشتَرطت عليّ إسَواة من الذهب...

- وماذا قالت حين حملتَ إليها الذهب؟

- طلبت مني أن آتيها ببيضة النسر الجبلي.

- ليست إنسانة من هذه طبيعتها يا أخي الصغير! - ستتجاوز هذا الطلب فتُلحّ عليك أن تحمل إليها قلب أُمك؛ فهل تطيعها؟

- توفيّ والدي ووالدتي، - انكسر صوت الشاب أكثر فأكثر.

- يا دامر، - توجه الأمير الكبير إلى زعيم الحكوف، - دعنا نسامح الشاب هذه المرة؛ لن يكرّر فعلته، أليس كذلك يا أخي الصغير؟

- أَعِدْكَ يا أمير باسم آلهتنا الأعزاء ألا يسمع أحد أني سرقْتُ. أسرع ددام بالجواب وقد عاد إليه اطمئنائه.

- حسناً إذن، لا تسرق مرة أخرى سرّاً أو جهراً. إن كنت رجلاً فلا تنقض عهدك!

ركب الأمير الكبير مع الفجر. وشيَّعه دامر مع رفاق له إلى حدود الحكوف. وبعدما سار الأخوان مدة أمام الفرسان سأل شوباشُ عما يشغل باله:

- لماذا هذا الاهتمام بالحكوف؟ أتخاف ألا نستطيع الانتصار على الزبخ وحدنا؟

- ليس الحكوف وحدهم، بل سأشركُ معي الموط أيضاً.

- كل هؤلاء يمكنهم أن يبيدوا الزبخ كلهم...

- لا سمح الآلهة! لماذا تُفني الزبخ؟ لا أريد أن يُشاع عني أني أسعى للفتنة بين أعراق الأديغة. ألا تتذكر الحرب التي نشبت بيننا وبين الحكوف؟ هذا

مستحيل. حين نهاجم الزبيخ معاً، نحن الأعراق الثلاثة، فسيذهب أكثر الناس أننا على حق. وسيبقى أبج وحيداً في الميدان.

- لم يستوعب عقلي هذه الفكرة يا كبير، فكرت جيداً.

اجتاز الأخوان حدود القسوغ، ووصلا إلى مزبه، فرأيا في البرية التي يبلغ طولها خمس غلوات حصان أو ستاً الفلاحين متفرقين هنا وهناك، والصبيان الذين يحملون عيداناً رفيعة، ويكبون على أحد الثورين المتقدمين على رفيقيهما في المحارث ذات الثيران الأربعة، وهو الحصان الماشي بين حدّي السهمين المتجاورين، والآخرين الذين يقفون على أجناب الثيران حاملين عيداناً غليظة وطويلة. والرجال متمسكون بدفوف المحارث منحنيين عليها. والغربان المعتادة على هذا الموسم تحوم فوق الأرض المحروثة حديثاً، تلتقط الديدان والحوام. أوقف الأمير الكبير ردد حصانه سعيداً بما يراه. وتفقد البرية كلها، وقال لأخيه وهو ينظر إليه بوجه مرح:

- الأرضُ المحروثة في الشتاء حديثاً تصبح طرية في الربيع. والمزروعات تنمو أفضل.

- من يعرف هذا هو من عنده القدرة. - قال شوباش متأملاً البرية حوله.

- الكسول هو من لا قدرة عنده. ليس في مزبه من لا يمتلك ثورين للحراثة. ومن ليس عنده ثوران يجد رفيقاً لثوره.

- انظر لحظة نحو القرية يا ردد! كأن من يقف على حدّ السهم هو كولس!

- كولس يتحرك بصعوبة فما الذي يأتي به إلى هنا؟ - لم يصدق ردد، غير أنه دقق النظر فصرخ: - عجب ما أرى!

عرف رفاق كولس الأمير ردد من بعيد. واستقبله قدان ومشقوه وججان. وخطا كولس بضع خطوات تسبقه عصاه. ولكن ساقيه اهتزتا فرجع. وجلس بصعوبة على المقعد الذي نُهص عنه.

- إن كنتَ قطعت كل هذه المسافة يا زعيم الخير فقد شُفيت. - ابتسم ردد لكولس.

- لا أعرف إن كنت شفيت، ولكني اشتفيت التمتع بمنظر الحراثين فطلبت أن يصطحبوني. - اختلجت وجنة كولس الشاحبة. - عاد الولد ومعه قدان

ومشقوقه فرجوتهما. طلبت منهم إيصالي في تلك العربة التي تحت تلك الشجرة. انتهت علاقتي بالسرج يا أمير. ومع ذلك فما رأيته اليوم أعادني سنوات إلى الوراء... والآن لا أعرف ماذا يجري لي...

- ججان! - استعجل ردد مدركاً أن العجوز ليس بخير. - جهّزوا العربة حالاً! أوصلوا كولس إلى القرية بالعربة القصيرة ذات العجلتين يتقدمها ويتبعها الفُرسان. وفي الدار حمله ججان ومشقوقه منها بأيدي متشابكة. ولم يلبيأ له رجاءه أن يوقفاه على الأرض فأدخلاه إلى الغرفة. ولما أجلساه على السرير ألقى نظرة يائسة عليهما واثكأ على السرير:

- أظنه وصل الآن يا أمير! - اجلس على طرف السرير عند قدمي كي أراك. - رجاء كولس بإشارة يد خفيفة. - وقف قابض الأرواح على عتبة الباب يا أمير. - لم يدخل بعدُ إلى مضافتي. - يتهيّئكم لأنكم كثيرون. - تظاهر بممازحة من في الغرفة فأفهمهم.

خرج من في المضافة بصمتٍ. ولم يبق إلى جوار كولس إلا ردد وججان.

- يا أمير ويا ججان، عشْتُ عمري صريحاً معكما. أنا راضٍ عنك يا ردد. وأريد أن يعرف حفيدي برضاي عنه وإن بدر منه في شبابه ما ساءني... - تعب كولس من الكلام فاستراح والتقط أنفاسه بصعوبة: - من يقترب أجله تصدر عنه تصرفات غريبة، وهذا ما ساقني أنا إلى البرية. أنا راضٍ عن حياتي، ومرت عليّ أفرّاح وأحزان كثيرة. من يخف من الموت تصعب عليه الحياة. لم تكن حياتي سيئة، ولا أخاف من الموت. حتى الجرة القديمة يأتي عليها يوم تنكسر فيه... أنت لا تحب المديح يا أمير، ولكن لم أبالغ البتة في وصفي إياك. من الرجال من يكفي قرناً، ومنهم من يموت لا يدري به أحد. أنت أشهدُني الأديغة صاروا دولةً، وهذا فوق كلّ ما تحقّق لي. لا تسمح لأحد أن يهدم الدولة سواء كان أبيض أم غيره. لا شيء ينسف أساسك كالحرب بين أفراد الأمة. فاحذر منها. متى تفرقتم بقيتم بأمل كبير، وقدرة ضعيفة... لا تسمع كلام أحد، خالطوا الدول المجاورة، واقتبسوا منها الصالح، وتجنّبوا الطالح. واجتث عن وسيلة للتفاهم مع الروسيح. ولا شيء أدعى لليأس من عداء جيرانك...

- هل تتلو وصاياك يا كولس؟ لا داعي لليأس. ستشفى، - تظاهر ردد
بالابتسام، ونظر نحو الباب ثم نصح كولس: - انصرف قابض الأرواح إذ عرف
أنك رجل صالح.

- قابض الأرواح لا يميز صالحاً من طالح. - سرت ابتسامة ضعيفة لا تكاد
تظهر على شفتي كولس. - وكما كان المرحوم "الأحزان" يقول: لم يُخلق أحد
صنعوا له مهدياً إلا حفروا له قبراً. الموت يلوح أمام عيني منذ أيام يا أولادي.
كان يؤدّي أن أفضي إليك بالكثير، ولكن صدف أن كنت غائباً فلم أجد
الفرصة... - حاول كولس رفع يده اليمنى فسقطت. ومال رأسه في منتصف
كلامه. وهوى ذقنه.

انفجر ججان بصوت عال فافتتح المأتم. وسجّى ردد أجفان كولس مغالياً
دموعه. وشدّ ذقن المتوفّي إلى رأسه. وغطى وجهه بالملحفة. ثم وقف إلى
الجثمان وقال لمن دخلوا الغرفة:
- استدعوا طاطخ، وأخبروا كبارنا!

لم يكن في مزبه كهل أو شاب لم يصله كلام كولس وأفكاره في سنواته السبع
والثمانين. ولم يقتصر هذا على قريته. ولم يكن بين القسوغ والزبخ والموط
والحكوف من لا ينهض احتراماً لاسمه. ومن كانوا ييكون عليه في أرض الدار
بصوت مسموع كثيرون. ومن كانوا ييكون بدموع صامته ليسوا قليلين. ولم
ينقطع نواح النساء.

جلست رامبس بين المسنّات وكنّتها أبنار تحرص عليها. وبزباز تبكي بجفون
متورمة مع كل مجموعة نسائية تأتي إلى البيت. ومن في البيت يعاودن البكاء من
وقت لآخر. ورامبس في كل مرة لا تطيق صبراً، والكنّة التي وراءها لا تكفّ
عن نُضحها:

- احرصى على نفسك يا سيدتنا الكبرى، قلبك لا يتحمّل. ليس عليك أن
تبكي مع كلّ من يبكي!

- يا صغيرتي، يا حلوتي، أبكي من حزني، لا واجباً. - ردت رامبس على كنّتها
بكلمات لطيفة. - دموعي تتساقط من تلقاء نفسها، - إن كنت محظوظة
منحني الآلهة حظاً، وقوّوا قلبي. كان كولس كمن ولدته أمي. كان يُعنى بولديّ

بمنزلة جدّ لهم.

يقولون إن القبر فسيح حيث الأهل كثيرون، ولكن يمكنك أن تقول: إنه لم يكن في أرض الأديغة من هو أغنى من كولس أهلاً وأصدقاء ومعارف. ولكن لا أولاد له أو أحفاد غير ججان. غير أن الحفيد لم يقف وحده لتلقّي التعازي، بل وقف إلى جانبه الأمير ردد وقدان ومشقوه، وغيرهم، ومُسوّ القرية وعلى رأسهم طاطخ.

كان الرجال يقفون في مجموعات، ويتحدثون بصوت وقور. والجميع يبدوون الحديث: قال كولس، فعل كولس. وينتهون بما يعرف كلُّ من أخباره. وهذه المجموعات متى لمحت أحداً من القسوغ أو الموط أو الحكوف قادماً صممت ريشما يدخل القادمون الدار ليقوموا بواجب العزاء.

لم يملك من رأوا أمير الزيكوشو مع مجموعة من الرجال يدخلون الدار إلا أن يستغربوا. وعدّوا قدومه دون خوف من أمير الزيكوشو الكبير أبج شجاعة منه. بعدما انتهوا من المصافحات، ووقف زيكوشو بعض الوقت مع الرجال، قال للأمير ردد:

- لا تؤاخذني يا أمير، أنا على سفر. أذهب إلى أرض الحكوف بمناسبة وفاة إحدى قريباتنا المسنات. سمعت بوفاة المرحوم كولس فلم أجد من اللائق ألا أعرج عليكم. كان رجلاً حكيماً؛ يُخيل إلي أن جانباً منا ومنكم تداعى.

- يقال: خيرٌ أن تجلس إلى جانب عجوز حكيم من أن تجلس على كومة من الذهب. سرّني قدومك، نزورك في مناسبة خير إن شاء الآلهة. لا تتأخر، ما يزال أمامك طريق طويل. كنا رافقناك ولكنك ترى ما نحن فيه أيضاً. احرص يا زيكوشو من الأمير أبج متى عدت.

- لا تقلق يا أمير، لن أسمح له أن يفعل بي ما فعل بالأمير شلّمت. - ودّع زيكوشو الأمير الكبير، وغادر المأتم.

توجه ججان إلى ردد بصوت مبحوح بعدما عاد الأخير إلى مكانه:

- يا أمير، كان لجدي أصدقاء كثيرون، ومعروفاً في إقليم الأديغة كله. ولكن هؤلاء كلهم إنما جاؤوا كرمى لك.

- لا تقل هذا يا ججان! ليس بين الحضور من لم يحزن لوفاة كولس.

- لا أقول إنهم ليسوا حزانى، - لم يتخلَّ ججان عن فكرته، - مهما كان الإنسان معروفاً نسيه الناس شيئاً فشيئاً متى هرم وتقاعد وتبدد ما اجترح من بطولات وما تحلَّى به من إنسانية. أنت من أعاد لجدي احترام الناس وتقديرهم له.

- لستُ وحدي، - لمس ردد ذراع صديقه. - لن ننسى، أنت وأنا، ما حيننا من أنشأ منا رجالاً، ولا الناس سينسون. لم يكن من نوع الرجال الذين يموتون اليوم ويُنسون غداً.

وفد معزّون إلى الدار فسكت ردد وججان.

خاطب قدان في الليل الجمع الذين يسهرون مع الجثمان، وبينهم ردد:

- ما رأيك يا أمير أن نبني لكولس قبراً خاصاً متميزاً من نوع تلك القبور المقبّبة؟ لا حصر لمن حضر المأتم. ومن سيأتون إلى ظهر غدٍ كثيرون. إن أهال كلُّ حفنة تراب صار قبة كبيرة.

- يا قدان، يستحق كولس أيّ تكريم منا. - قال الأمير الكبير سعيداً بما سمع، - زعيمنا المبارك لم يمت في سفر أو في حرب، فارقنا مشاركاً إيانا بقوله وفعله. والدا كولس وأقرباؤه جميعهم في مقبرتنا فإن دفناه معهم ارتاح بينهم. وكان راضياً عنا. دُفِنَتْ زوجته في أعلى المقبرة فإن واريناه إلى جانبها تذكّرهما المازون بالخير.

- صحيح، يا أمير، - وافقه مشقوه، - سننصب شاهدة كبيرة على قبره، ونتصور أنه ما زال بيننا.

- وافق كلامك رغبة جدّي يا أمير. - ساهم ججان الآن في الحديث، - كان يقول لي في أيامه الأخيرة: " ادفنوني إلى جانب عجوزي "

أغلق الموضوع بعد كلام ججان الذي كان الموئل الأخير لكولس.

أخرج الجثمان ظهر الغد، وتحلق الناس حوله. وتقاطر من على الطرقات إلى باب الدار. أبّن الأمير الكبير ردد الفقيد بكلمة مناسبة. وتبعه العجوزان طاطخ وبشماف، وقدان وتيمرقوه، ودامر. وكان ردد بين أوائل من حملوا النعش. وأنشد رجلان مرثية نظمها للفقيد ضمّناها مآثره الحربية والمدنية. وردّد معهما الآخرون. وانضم إلى الجنازة كثيرون من الشارع. فتحول جمعاً لا حدّ له يرين

عليه السواد. بل يمكن القول إن كل من في إقليم الأديغة توافدوا إلى مزبه إلا الأمير أبج.

VII

بعد العاصفة مطرٌ، وبعد الحرب مآتم.

خطر على بال ردد كل ما كان يوصيه به كولس منذ صار قادراً على امتشاق السيف في شأن حروبه على الأعداء أو إخماد حركات العصاة. وتنهّد شاعراً بالحاجة إلى حكمة العجوز. وناجاه في سره: "كنت ألجأ إليك كلما عجزت عن إيجاد المخرج أو وقعتُ في مأزق. ولم تدعني أخطئ ولو مرة واحدة. لم ينطق فمك إلا الصواب. وها نحن أمس هبت علينا العاصفة ثم انحسرت فعاد كل شيء إلى هدوئه، ثم ائمال المطر. وأعرف أن المآتم تتلو الحرب. أتألم حين نعود من ساحة الحرب للشكالي والأرامل ومن بقوا وحيداً في بيوتهم. ولا أستطيع إبعادهم عن مخيلتي. وأشدُّ ما يؤلني هم الأيتام، ولا سيما في معاركنا المحلية. أيّ مأساة أعظم من هذه يا كولس؟ حاولت بكل وسيلة ألا أجابه بالسلاح الحكون الذين ألّهم علينا نخلش الأصهب اللعين، ولكنهم تصاموا وتعاموا فلم يستجيبوا لنا. وكان ما يخرج من أفواههم كالسلاح القاتل. والآن وضعنا أبج الخارج عن طوره في موقف يوجب علينا التوجّه بالسلاح نحو أبناء قومنا الريخ. أعرف أن لا مفخرة في محاربتهم، ولكنني لستُ حراً في أن أسمح لرجل عنيد أن يمزق وحدة الدولة..."

كان قد بقي على موعد اجتماع المقاتلين في مزبه القادمين من مستحقوه وششحرس ومن قرى القسوغ الأخرى بضعة أيام حين ركب ردد الطريق مع الفجر. بعثت حركة الحصان الآخر محتجاً على تجاوزه وإخراج زميله الحصان الأسود من الإسطبل ضحكة خفيفة في وجه ردد. استاء الأمير من نبرة قدان ومشقوه على جانبيه، لم يفيقا بعدُ من سكرة النوم. فصاح بعدما نظر في الأربعين فارساً المرافقين بطرف عينه:

- الفرسان من ورائنا تصدر منهم أصوات مرحة، وأنتم اكمين يمشيان في جنازة!
- ليس "كمين" يا أمير، بل شيعنا رجلاً كبيراً. - نظر قدان إلى الأمير واجماً،

- كنا تبعنالك لنعبر البحر في أثرك حين علمنا بأسرك، وكانت العاصفة كسرت ساق كولس في ذلك المكان. لا أستطيع أن أحمو من ذاكرتي كيف تصدى للمجرمين الخطيرين وقتها.

- لم يكن كولس حكيماً فحسب، بل صاحب قلب شجاع، وقوة جسدية كبيرة. - أيّده ردد متحمساً، - ولولا ساقه المكسورة لما نجا منه المجرمان.

- سأروي لكما إذن ما ذكرتماني به، - ساهم مشقوه الآن، - كنت صبيّاً يافعاً أشارك في مصارعات الصبيان، وكما يأتي بعد اللعب الجدُّ فقد تعاركتنا. أحد الصبيان، والأرجح هو شنبه، لكمني على وجهي فسال الدم من أنفي. ولما رأيت الدم انفلتُ فبكيت. دنا منا كولس ونهني: " لا يجوز هذا يا ولد، سيثبت عليك لقب " البكاء الأسود العنين " . إن لم تردّ على من يضربك ظنّك بلا يد. ضمّ قبضتك، وثبت قلبك، وتخيّل أن لا أحد أقوى منك! " وفي الحال كففتُ عن البكاء، وجمعتُ قبضتي، وهجمتُ على من ضربني بعينين جاحظتين، وبادرته بالضرب، وصرعته، وجلستُ فوقه. وأردت أن أسيل الدم من أنفه ولكنه حمى وجهه بيديه، حتى جاء كولس ورفعني عنه قائلاً: " كفى؛ لم أنصحك بقتله. أثبتّ أنك ستصبح رجلاً "، وأبعدني عنهم وهو يربت على كتفي. ولم أبك بعد تلك الحادثة مهما تأملتُ.

- لاشك أنك تذكرت هذا حين كنت تبكي على كولس لا يستطيعون إسكاتك. - قال قدان.

- بكيته لأني كنت أعدّه بمكانة والدي، - أجاب مشقوه جدياً وأضاف: - وإلا فمن يتذكر ما جرى له في صغره.

- حقاً يا مشقوه كان كولس أحد رجالات إقليم الأديفة. - سرى دفء في صوت الأمير. - ودونه ربما قضيتُ على يد الخزر حين أيفعتُ. كنت أتوهم نفسي شخصاً خطيراً فأقتلع عمود الحظيرة حين أغضب، فيهدّئي، وينصحني وهو يصطحبني إلى غابة الجبل: " لن تستطيع وحدك شيئاً في مواجهة جيوش المجرمين، سيأتي اليوم الذي تجابههم فيه "

- جعلنا جيراننا الروسيج نتشفى بالخزر قبل أن يأتي اليوم الذي وعد به كولس. - شهد قدان.

- نحن راضون عن الروسيح في هذا، - تذكر ردد لقاءهم بمستيسلاف وهم يغادرون ضفة الدون. - ولكنهم يحون معروفهم بمطالبتهم لنا بالإتاوة كلما التقينا. - لن أعطيه إبرة!

- صحيح يا أمير، - وافقه قدان ثانية، - سيركبون ظهورنا متى عؤذناهم على الإتاوة. وسيتحكمون فينا دون أي اعتبار لنا.

- كان كولس المرحوم يطلب منا أن نجد وسيلة للتفاهم مع الجيران. كان رأيه أن معاداة الجار ومعاداة الذات سيّان. ولكني كلما تكلمت مع مستيسلاف تذكرت قوله: " من لا يأت بالكلام يأت بالسيف "

- أعرف يا أمير طريقة استعمال الروسيح للسيف. - سرت خشونة في صوت قدان، - لا أقول إن سيوفهم مفلولة، ولكن إن كان مستيسلاف معتداً بشجاعته إلى هذا الحد فليدخل ساحة المعركة، ونرى وقتها من ينتصر.

- صحيح يا قدان ولكنهم كالجراد لا حصر لهم. يحل مئة محلّ من تقتل منهم، - أجب ردد بهدوء.

نظر قدان في وجه الأمير محتاراً، وخاطب نفسه: ربما تساور الشكوك الأمير. دخلت مجموعة الفرسان فجأة دار قايت، أمير الموطن، فلم يصدّق عينيه. وانتبه من الرغبة التي تسيل من أفواه الخيل إلى أن هناك أمراً ملحقاً. ولكنه التفت إلى ردد بنظرة تساؤل:

- هل هناك خطر داهمّ يا أمير؟

- ومتى عاش الأمير في راحة بال يا قايت؟ - أجب ردد بضحكة قلقة، - إن لم يهاجمنا عدوّ تحاربنا فيما بيننا.

- هذا صحيح يا أمير، - انقلبت نظرة الأمير القصير المتين البنية، الموثوق، إلى الاكتئاب. - نعيش عمرنا تتنافس على من فينا الأفضل. وبين أمراء الموطن من يتمرد أحياناً. لم يعتادوا على إطاعة أحدهم لغيره. روى لي موفدوك إليّ أنك بذلت ما أمكن من جهد مع الأمير أبج. لم يبق ما يُعيد إليه عقله سوى السلاح.

- فهمت يا أمير سبب زيارتي دون أن أفصح عنه. - ارتاح ردد لما سمع. - استدعى الأمير قايت كبير حراسه:

- أرسل إلى أمراء الموطن؛ ليصلوا فوراً!

- لا تُقلق الأمراء المقيمين بعيداً جداً يا قايت. لا يستحق أبج أن نواجهه بكل هذا الجيش. وأظن أن الزيوخ لن يساندوه جميعاً. ارتاب ردد في قايت.

- لا يجوز هذا يا أمير، أنت لا تعرف جيداً جداً طبيعة أمراء الموطن. إن بلغنا بعضهم وتركنا الآخرين شعروا بالإهانة أو عاذونا. إن لم يستطع موفدونا إبلاغ الجميع فليوصوا أن يبلغ كل جاره.

بعدما خرج كبير الحراس احتار الأمير قايت كيف يبوح بما على رأس لسانه فسرى الحياء في عينيه البريتتين. ولاحظ الأمير الكبير تردده:

- تريد أن تقول شيئاً يا قايت.

- لا أعرف يا أمير إن كان ما أقوله لا يسوؤك، - أسبل الأمير قايت جفنيه، ثم نظر مباشرة إلى وجه الأمير الكبير: - زرتُ قبل زمن غير بعيد الأمير أبج دون علمك. ونصحتته حتى جفّ لساني على مبدأ: عالم مفاوضات خيرٌ من يوم حرب. وتوسلت إليه دون جدوى. والأسوأ منه هو الأحذب الذي كان وراءه. يصرّعك بما يخرج من فمه. لا أعرف كيف صبرتَ عليه كل هذه السنين يا أمير.

- كان تراب جاري يا قايت، - انقلب مزاج ردد إلى الكآبة، - وُلدنا معاً، وأقنعنا منذ صبا بأنه رسول الآلهة. احترامناه ولكننا لم نسمح له أن يسلك سلوكه اليوم. كنا نشرف عليه كي لا يتجاوز حدوده. وحين عرفنا أنه دعيٌّ فحسبُ غادرنا. أما زيارتك لأبج فلماذا أستاذ منه؟ كان يسرّني أن تعدّله أنت عن سلوكه، ولكن اختبارك له بنفسك كان حسناً. وسيفهم أمراء الموطن على نحو أفضل أنه لم يبق مخرج آخر. ثم إن في ما نفعل حسنةً أخرى: متى رأونا أنتم ونحن والحكوف متعاونين كثر عدد الزيوخ الذين سيؤوبون إلى عقولهم.

- وعلى كل حال يا أمير، - أضاف الأمير قايت، - الزيوخ المنضوون تحت جناح أبج ليسوا كثيرين كما يتصور هو. يُبعد أو يهرب من لا يوافقونه. لا يمكن إخضاع الناس طويلاً بهذه الأساليب.

قضى ردد الذي تعب ثلاثة أيام على الطريق ليلة هائلة إذ تفهّم الأمير قايت الوضع. وفي اليوم التالي وصل أمراء الموطن القريبون بعد الفطور. ووصل بعدهم

الأبعدون. وبعد الظهر كانوا اجتمعوا كلهم. توجه الأمير ردد إلى قادة جيش الموط:

- أيها الأمراء، يا إخوتي الأعزّاء. صرنا في موقف يوجب علينا أن نخطو خطوة صعبة. وأنتم تفهمون أن الحرب بين أبناء القوم مأساة. متى بدأ يظهر بيننا كثيرون من أمثال الأمير أبج فسيقتل بعضنا على يد بعض. نحن أسسنا دولة واحدة من أجل أن يحمي بعضنا بعضاً، وتعاون فنجدا أنفسنا أقوىاء على العدو الخارجي. يقول الأمير أبج " كان الزبيخ في وقت مضى دولة، وعاشوا بسعادة، وسنعيش الآن أيضاً وحدنا، ومن يشاء الانضمام إلينا فإلى تحت سيفي ". ليس هذا كلاماً سيئاً إن أراد أن يكون قائد دولة. ولكنه يتناسى أن حياتك صارت في قبضته إن وقفت تحت جناحه. يكفي أن يغضب مرة واحدة. إن كان الزبيخ يوماً ما دولة فأنا أيضاً كنت طفلاً في زمن ما، أعيش سعيداً دون أي عمل أو مسؤولية. وعاش المرحوم والدي أميراً لمزبه يرتب أمور الناس فيها ويرتاح. وتجاوزنا هذه المرحلة فصارت لنا دولة القسوغ. ولما اكتمل عقلنا ألقينا نظرة واسعة على العالم ففكرنا وألفنا من أعراق الأديغة دولة واحدة. وكل الأقوام تتطور مع الزمن ولا تتراجع. كانت بيزنطة تتألف من عشرة أجزاء، والآن تعيش دولة واحدة. وأنا لن أعود طفلاً، ووالدي لن يقوم من قبره، والزبيخ لن يرجعوا فيؤلفوا دولة.

صدر من أمراء الموط أصوات متضاربة:

- حدّد لنا الموعد يا أمير، نحن جاهزون!

- سنعيد العقل إلى من لا يستشير حتى قبعته.

رفع ردد يده فهذا الأمراء. وأكمل كلمته:

- ليس بينكم من ليس عنده قليل أو كثير من فرسان الحرس. ونحن القسوغ لسنا ضعافاً. والحكوف كذلك. لا أريد أن أتسبب لكم في كثير من العناء. ما رأيكم في الاستغناء عن جهود سكان الشرق البعيد، وسكان ناحية بشزه؟

- هذا غير ممكن يا أمير، - قال أحد الأمراء، - إذا كنا سنؤلف دولة واحدة وجب علينا التعاون على الخير والشر.

- أنا موافق، - ابتسم الأمير الكبير بلطف وقد تذكر ما قاله له الأمير قايت،

- ولما سألتهم عن الموعد فسنلتقي بعد غد ظهراً في ريف قرية الأمير أبج. ومن نحن متجهون إليهم هم أبناء قومنا وإخواننا. لا يجوز أن نقوم بأعمال سلب وإحراق أو قتل أناس أبرياء. ولكننا سنرفع السلاح في وجه من يقاومنا.

- وماذا سيكون سلوك قرى الزبيخ الذين نركب إليهم يا أمير؟ - سأل أمير آخر.

- إن كان أبج حشد جيشاً فلن يظهر فيه من لن يقاومنا. - طمأنهم الأمير من هذه الجهة أيضاً. - عرضتُ أحياناً على أمير الزبيخ، حين عدمتُ أي إمكان للتفاهم معه في النقاش أن يحل محلي، فلا تظنوا أنني لا أحترم قراكم بانتخابي أميراً كبيراً. أنا أؤمن الثقة التي أوليتموني إياها، لا أدخر جهداً بعقلي أو بقوتي من أجلها. كل دول العالم يحكمها حاكم واحد، وقد شرفتموني أنا بهذا المنصب. وقد يكون أحدكم أو أحد أولادكم بعدي في هذا المنصب. ولكن يجب أن تكون الدولة الهمة الأول لكم ولغيركم.

هان على ردد طريق العودة بعدما استمد القوة والتصميم من النقاش الذي دار بينه وبين الأمراء. ولما وصل إلى مزبه مع حلول الظلام صرف الحراس، وتوجه مع قدان ومشقوه إلى ساحة تدريب الجنود.

في القاعة التي دخل إليها عدد كبير من الرجال. ومن يتقدم أبناء قرى القسوغ وجنودهم هم الأمراء. وما إن تجاوز الأمير الكبير وقدان ومشقوه عتبة الباب حتى سكت الجميع ونهضوا. أخبر ردد الجميع بما جاء به من الموط. ولما هدؤوا سأل تيمرقوه خارجاً عن الموضوع:

- يا أمير وصلت لحظة سألني أخوك شوباش إن لم يكن عندي إلا إله واحد.

- يا تيمرقوه، الدين الذي اعتنقته هو أحد مآخذ أمير الزبيخ علينا. ليتك صبرت قليلاً... - نظر ردد في وجه تيمرقوه بوجه متعب، - لنحتفظ بأهتنا إلى اليوم. لا حاجة بنا إلى الفتنة.

- هذا صحيح يا أمير، - انكسر صوت تيمرقوه، - أنا لا أفرض رأيي على أحد. ولا أفاتح من لا يسألونني. وليحتفظ كل بقناعته.

- هذا كلام صحيح، - نهض الأمير الكبير ردد، - سننطلق فجرًا، اطلبوا من المقاتلين أن يناموا باكراً ليرتاحوا.

خرج ردد من القاعة فقال تيمرقوه من جديد:

- كيف تترتاح وأمامك معركة! من لن يطرق النوم عيونهم الليلة أكثر.

- من قلبه شجاع ينام. - لم يكن شوباش يهدأ. - أجب عن سؤالى إذ انصرف الأمير الكبير.

- لستُ صاحب فكرة الإله الواحد. - نظر تيمرقوه بلطف إلى المجتمعين، ثم استدار إلى شوباش، - ها أنت أيضاً كنت في بيزنطة، وأنا عشت بين الروسيج. وكذلك قدان الذي انصرف مع الأمير. وقد أرسل أميرنا الكبير مندوبين إلى كل الدول. من يثق به كل الناس ويستهلون إليه هو الإله الكبير وإن كانوا يدينون بألهة أخرى غيره. من يخلق الرعد والصاعقة والسماء والأرض وكل ذي روح هو الرب. وهو القيوم على الجميع. والأقوام التي خالطها مندوبونا كان لهم ديننا نفسه. كانوا يعدّون كل ذي قوة لا يعرفون مصدرها إلهاً. ولكن الناس العاقلين فكروا فتوصلوا إلى الإله الواحد. وكل من وُهب الروح، ثم سُلِب منه سيمثل أمامه.

- تُرهبني يا تيمرقوه، - ابتسم شوباش، - تراب أيضاً كان يهددنا باسم آلهتنا. وأنت تُرعبنا. كيف سيقف كل هؤلاء الناس الذين يحيون على الأرض أمام إله واحد؟ ومن أين لهم أرض تسعهم؟

- لا حدود لقدرة الله. سيجد موقعاً إذا اقتضى الأمر. - احتدّ تيمرقوه، - وهل تظن أن جميع الناس سيمثلون أمام الله في يوم واحد؟ لولا الحرب لاقتصر عدد الأموات في كل قرية على بضعة أشخاص.

- كفى، ليس تحليل الأديان من شأننا، - ساهم أميرُ ششحرس الجهم، - ليس ما سنقصده غداً حفلة عرس.

تجمع الفرسان الذين توازعههم سكان مزيه قبل الفجر. استعرض ردد الجنود أكثر من مرة، ثم وقف أمامهم وخاطبهم:

- إخوتي! أعراق الأديغة كلهم سواءٌ عندي ولكن من أعرفهم بينكم لسبب أو لآخر ليسوا قليلين. لا يُقتل كل من يذهبون إلى الحرب وأنا أريد أن تعودوا جميعاً سالمين. احرصوا على أنفسكم لحظة الاشتباك، ليقف كلٌ منكم وراء الآخر. قلت للحكوف وللموط، وأقول لكم: ليس الزيتُ أعداءنا. هم من أبناء

قومنا، دون أن يعني هذا عدم رفع السلاح في وجه من يرفعه علينا. من يريد النصر لا يهاب الموت. نحن على حق لأننا ندافع عن وحدة البلاد. وصاحب الحق قوي دائماً. لننطلق! وادعوا إلى آهتنا أن يحمونا.

النسوة يودّعن بعيون مذعورة من وراء الأسوار جيش القسوغ. والمستون يهزون برؤوسهم حزاني لما يحدث. والصبيان الذين لا يعبؤون بالحرب ساروا معهم إلى ظاهر القرية.

عبر الجنود نهر طازقوه على مرحلتين، واختاروا الفسحة في الغابة الرقيقة موقفاً. نظر الأمير ردد إلى السماء: لا يزال مزيد من الوقت على الموعد المحدد. أرسل قدان عدداً من الفرسان لمعرفة وصول الحكوف القادمين من الجنوب. وراقب تيمرقوه الموط من الغرب.

أشجار البرقوق الشوكي تلتف على مدخل الغابة. ومن ورائها أجمات كثيفة متفرقة هناك وهناك. والبرية الواسعة من الجهة الأخرى استمرار لبرية الأمير أبج. ومن في الغابة يرون جيداً القرية المرتفعة. ولكنهم لا يعرفون سرّ هدوئها.

- الحكوف وصلوا قبل زمن طويل يا أمير، - أخبر مشقوه، - بل وجدوا الوقت للاستراحة.

- هيا إذن إليهم!- ألقى الأمير الكبير نظرة على المقاتلين الحكوف، لمح الشاب الذي كان قد سرق الذهب. وسأل دامر مرتاباً: - كأنك اصطحبت الشاب اللص!

- هل تقصد ددام؟ - نظر دامر إلى حيث الشاب،- ترجاني بحقّ أُمي أن أصطحبه حتى يبرهن على صدق كلمته لك، فصدّفته.

- وإن خدعك ثانية؟

- لا يا أمير، ددام صادق هذه المرة.

- سنرى بلاءه في المعركة. لا تنطلقوا قبلنا يا دامر. لاقونا إلى اليسار متى ما دخلنا إلى الفسحة العارية من الشجر. والموط سيأتون من اليمين. إياكم أن تشتبكوا عن سوء تمييز. - أكّد الأمير الكبير ردد على دامر.

شهد تيمرقوه على وصول جيش الموط أيضاً:

- ألم تُخبر الأمير قايت أين سينتظرونه؟

- بالطبع يا أمير! قُلْتُ له متى ما خرجنا من الموقع الكثيف. - قال تيمرقوه مسرعاً وأدار ظهره. ورسم الصليب لنفسه خلسة.
لمح ردد هذه الإشارة فخاطبه في سِرِّه: " تَبَّتْ ديمتري إيمانك بالدين الذي جئت به من الروسيج فتدعو إلى الإله الكبير. أفضلُ لك أن تبتهل إلى آلهتنا. سيسمك من يخلص لهم القوم بأسرع من غيرهم..."

...

كان محاربو بضعة الأمراء الذين سمعوا كلمة أبج، وأهل القرية محتفين في القرية نفسها فلا يتحرك ذو روح. وكلُّ خيرٍ من الأخبار التي يأتيه بها المستطلعون أسوأ من الآخر. وبعض الأمراء الذين وعدوه لم يظهروا بعدُ. وفرح حين أخبروه أن الأمير زيكوشو خرج من قريته قبل يوم ولكنه لم يصل.
من يضقُّ قلبه يفركُ وجهه. يكاد وجه الأمير أبج يحترق من كثرة ما فكره. وها هو يذرع أرض غرفة المضافة لا يعرف على من سيصب نقمته.
- لا تُقنِ نفسك يا أمير، - نصح تراب أبج حذراً. - اجلس واسترخ. من يجابه العدو بقلب واثق ينتصر.

- ألم تسمع ما قيل لك اللحظة أم أنك أصم؟ - ألقى أبج نظرة على تراب، - ألسنت من أخبرني أن القسوغ لم يعودوا يطيقون الأمير الكبير ردد؟ - من ساند آلهتك؛ أنا أم ردد؟ الآن استقبلُ أبناء عرقك القسوغ. وأرني ما يقدمه لك الآلهة. لم يبق رجل في القسوغ، ملؤوا جانب النهر.
- جيوش بعض قرى الزيوخ لم تصل بعدُ يا أمير، انتظرهم بعض الوقت! .. - بدأ تراب يشحذ صوته، غير أن أبج قاطعه:

- لا فائدة ممن لم يأت في حينه ولو انتظرتة سنة. ما إن يملأ القسوغ الفسحة حتى نهاجمهم كالعاصفة. وسترى إن لم نجبرهم على الانسحاب. ستكون على يميني؛ هل فهمت؟

- يا أمير، أنا رسول الآلهة وطوال عمري لم أصوب سهماً، ولا ضربتُ بسيف، ولا عندي سلاح. - نهض تراب شاحباً.

أمر الأمير أبج الحارس الذي نظر من فتحة الباب قبل أن يتكلم:

- هاتوا لتراب حلاً حصانه، وأثوه بسيف وقوس وجعبة سهام!

- كما تريد يا أمير... - رضح تراب وقد احمرّ وجهه بعد شحوب.

جمع الأمير أبج جنود الزيخ بسرعة، وقادهم إلى ضفة النهر. وأسرع الحارس الذي كان يعتمد عليه الأمير إلى حضرته زائغ العينين، وهمس في أذنه:

- خير سيء يا أمير، جيش الموطن الذي لا ترى نهايته قادمٌ من الغرب. ومن الجنوب جيش الحكوف جاهز للهجوم. وجيش القسوغ ها هو أمامنا.

"أظنّ نهايتنا حانت!" قال أبج لنفسه، ثم صاح فجأةً خارجاً عن طوره:

- سنحمي أرض الزيخ! أرسلوا رماة النبال أولاً. وأشهروا السيوف!

أسرع جيش الزيخ من دار الإمارة. وضاعف فرسان القسوغ سرعتهم، وها هما الجيشان يهاجمان. الجانبان يرسلان السهام تصفر في الهواء. وما أصاب التروس ينزل، ومن أصيبوا يُسمع أنينهم. وتتداعى الخيل المصابة، وركابها يترنحون فيسقطون. رأى أبج انقباض الأمير ردد عليه فنادى كبير حراسه أمامه:

- انحرف إلى اليسار!

حاول تراب الانعطاف حيث اتجه الأمير ولكن الفرسان من جانبيه منعه.

الفرسان تجاهوا بالسيوف والتروس. وحصان تراب تشبث بمكانه يراوح ويصهل. وهو لا يرى من يضربه أو يضربه. يراقب مذعوراً وسيفه مشهّز. وفجأة وقف شوباش أمامه كأنه خرج من تحت الحصان.

- أأنت من كنت أنتظره أيها الأمير الزائف الذي جاؤوا به؟! - صرخ تراب شاهراً سيفه. لم يلق شوباش السيف بالترس. أمر الحصان بالانبطاح، فوقعت ضربة تراب على كاهل الحصان. وفي اللحظة نفسها قصّت ضربته الجانب الأيمن لتراب مع حذبتة. وطارَت الصرخة فوق الخيل والسيوف.

تقدّم غأت يصرع كل من يلاقيه من الجانبين، وراه الأميرُ ردد يتوغل بين الزيخ، فقال في نفسه: "استعماله للسيف كحركات والده، ولكنه ليس ظالماً، فيه شفقة". وكان غأت يتوجس مرتعباً أن يقابله أخوه زيار: "لم يسمع الأحمر القبيح كلامي، حلّ محلّ نخلش الأصهب... " صرع فارس الزيخ بصدر حصانه وهو يخاطب نفسه، وتجاوزوه.

أغبان يحمي ظهر الأمير الكبير ردد، وقدان ومشقوه على جانبيه. ومن يصرعه بمقبض السيف أكثر ممن يقطعه بحده.

- احذروا، الزبيخ يقلّ عددهم. قابلوهم بمقابض السيوف! - ينادي ردد جماعته، ولم يلمح أبج الذي يبحث عنه كلما سنحت له الفرصة. انقض أحد رجال الزبيخ على مؤخرة سرج أغبان، انتزعه من الحصان. كان الرجلان يتبارزان على الأرض. وفي هذه اللحظة هجم من وراء الأمير ردد رجل من الزبيخ جهماً، فصرخ من الضربة التي أصابت كتفه: - عصّني الكلب! هل على يدك قضيتُ أيها الشاب!.. - سقط الرجل الذي لم ينطق غير هذا عن الحصان.

التفت ردد فرأى أمامه ددام، وسيفه يقطر دماً. - أنت رجل صالح يا أخي الصغير، وقد رتبت عليّ ديناً. - أثني ردد على الشاب.

لم يكن بقي في جوار الأمير ردد من يُشهر عليه السلاح. وفلول الزبيخ كانوا يسقطون عن الخيل بأعقاب السيوف ولا يُقتلون. لم يظهر الأمير أبج في نهاية المعركة بين القتلى ولا الجرحى. ولا زيرار الأخ الأصغر لغأت الذي كان الأخير يخشى لقاءه في المعركة. لا شك أنهما نجوا بجلديهما حين اشتبك الجيشان.

...

كانت المهمة الأولى لردد بعد المعركة هو الأمير المرشح لزعماء الزبيخ. "حسناً فعل إذ لم يتحالف معنا الأمير زيكوشو. لم يكن الزبيخ ليغفروا له، ولو دفعناه إلى هذا التصرف لأسأنا إلى أنفسنا..." - كان فرح ردد وهو يخاطب نفسه بهذا الكلام ممزوجاً بحزنه على الضحايا...

VIII

سُمع صراخ امرأة ينتصب له شعر الرأس. قامت في مزبه وحدها سبعة مآتم. وفي سبع عشرة أسرة تقام حفلات الجابشه. ولم تخل قرية من قرى القسوغ من بضعة مآتم. وعاد الحكوف بثلاثة جثامين. وكانت أقل الخسائر بين صفوف الموط. لم يكن عندهم إلا ستة جرحى أو سبعة. هاجم الموط على يسار الذين جابههم القسوغ فاحتفى فرسانهم بعضهم

ببعض. وحاربوا بلا خسائر. وكان وضع الحكوف مقبولاً. أما الذين تفتأوا فهم القسوغ والزيخ.

"ما من إنسان فائض عن الحاجة" - كان ردد يطوف على أهالي ضحايا مزبه والقرى المجاورة لتعزيتهم وفي ذهنه هذه الفكرة، ومعه قدان ومشقوه وججان وعدد من الحرس. أعفى ردد ججان من الحرب بداعي أنه لم تمض أيام على وفاة جدّه. ولم يندم على ما فعل. التفت إلى صديقه: "لو اصطحبته إلى القتال لتهوّر في حربه، ولحسننا الوريث الوحيد لكولس. ولا يعني هذا أنني لا أحزن لمن سقطوا في المعركة. كان أربعة منهم شباباً عازبين، والثلاثة الآخرون أرباب أسرٍ ناشئة".

- انعطف إلى هذا الاتجاه يا أمير، - اتّجه مشقوه إلى البيت الذي فيه المناحة في ششعرس. ترجلوا وقد بقيت بضع أسرٍ بعد، ومشوا على أقدامهم. وقال أحد المسنين بعد قليل من تأدية واجب العزاء:

- شكراً يا أمير، ورضي الآلهة عنك. ما كنا لنعتب عليك لو لم تأت بشخصك إذ نعرف ما عليك من أعباء.

- وكيف لا آتي يا والدنا! - أجب ردد بدفع، - كلُّ ضحيةٍ إبرةٌ تخز قلبي ولكن ما العمل؟ ما من حرب سارة. خرج الأمير أبج عن طوره فدفعنا، أبناء قومه، إلى الاقتتال.

- يقال إنه لم يظهر بين القتلى ولا الجرحى؛ فأين إذن هذا الأمير الصلّف؟

- سأل الرجل الأسمر الطويل صاحب العزاء.

- ولم يظهر بعدما انتهت المعركة. هذه طبيعة الجبان. يحرّضك وينجو بجلده.

هرب إلى الروسيج مع الابن الأصغر لحقار.

- هل هو زيرار، - سأل المضيف، ثم أضاف: - شابُّ أحمر ضخم. كان أثار فتنة في عرس ابني. فطُرد من الدار.

- هو بالضبط، - شهد ردد، - كان الوحيد الذي بقي صديقاً لأبج. يقال إن الطباع تنتقل إلى سبعة أجيال. أخوه الأكبر غأت شاب ممتاز. والآخر يُفسد من يحالطه.

تذكر أن أرملة حقار العجوز استقبلتهم بالدموع. تجاوزت الأمير الكبير ورفاقه

وهجمت على ابنها غأت وعانقته:

- ماذا جرى لأخيك الأصغر يا ولدي؛ أهو حي أم ميت؟ لماذا لا تخبى؟
- لا تأتي على ذكر أخي يا أمنا! لا أريد سماع اسمه. - حضن غأت أمه
وهذاها. - ليس بين القتلى ولا الجرحى... هو خائن!
- يا حسرتي يا صغيري. أنا أيضاً أعرف أنه ليس صالحاً. ولكن أين أذهب
به؟! كيف لا يتألم له قلبي، ألم يخرج من رحمي!

عزى أيضاً أسرتين من ششحرس. كان الأمير ردد وصحبه يقتربون من مزبه.
كل الذين زارهم الأمير راضون عن نتيجة الحرب. ولم يسمع لعنة أو كلمة نابية
من فم رجل أو امرأة. والأمير من هذه الناحية راضٍ عن رعيته. ولكنه يعرف أن
من فقد ابنه أو زوجه لا يمكن إلا أن يشعر في سرّه بالعداء نحوه ونحو الأمير
أبج. الناس مختلفون. بعضهم يقول: الأمراء يتقاتلون على مَن منهم الأقوى،
ونحن يضيع أولادنا وأزواجنا بين الطرفين. وآخرون يتفهمون مَن البريء ومن
الظالم. ولكن ألمه سيغلبه. وسيكون بينهم من لا يقدّر قيمة أن يصبحوا دولة
واحدة. وفي جميع الأحوال كان حزنُ أهل مزبه على كثرة ضحايا الزبخ يملأ قلبه
بالارتياح.

لم يجد الأمير الكبير من اللائق أن يجمع أمراء الزبخ لاختيار زعيم لهم فور انتهاء
المعركة. زارهم بعد بضعة أيام. "حسنٌ أن يرد اسمُ زيكوشو في اجتماع أمراء
الزبخ دون أن يأتي الاقتراح مني. أعتقد أن حجراً ثقيلاً انزاح عن صدورهم.
كانوا مرتاحين لتخلصهم من أبج قبل أن يبلغهم أذاه. كان الزبخ يبحثون بين
من لم يشاركوا في المعركة، وهذا ما يناسبني جداً..."

انعطف الفرسان وقد دخلوا مزبه إلى صوت استغاثة. كانت الضجة صادرة من
بيت خالة تراب. العجوز على المسطبة تحتج وتشتّم، وتتكلم مشيرة بيديها
رغمًا عن الكنة التي وراءها:

- إن كانوا زقوني من الزبخ فلست أنت من فعلت هذا. اهتمي بنفسك
فحسب.

كانت المرأة، وهي أختُ الحداد يمزش، خارجة عن طورها، وقد سقط غطاء
رأسها على عنقها. يحاول أخوها بكل جهده أن يسحبها من أرض الدار،

ولكنه كلما أمسك بساعدها انتزعت نفسها منه، وأطلقت اللعنات على الكنة بأعلى صوتهما:

- عمى الآلهة عينيك وشلّوا رجليك! عمك الحارس اللعين قتل ابني البريء!
- كان عليك أن تحتفظي به تحت ذيل ثوبك إن كنت لا تريد أن يُقتل.
أجابت الكنة.

- اسكتي أنت أيضاً يا كنة! لا تتهميني أنت أيضاً بما ليس من ذنبي. حاكمي من بدؤوا الحرب. - كانت العجوز التي تحجز بين المرأتين تهدّثهما.

- وأنت لستِ صالحة، - قالت الأخت التي يجرها يمزش من الدار حانقة: - ابن أختك الأحذب البغيض كان يشعل النار بين الزبخ. تشقيت منه.

- يا صغيرتي، ابن أختي هذا الذي تعيّرنني به رحل عن الدنيا دون أن يطرق باب بيتي. وعاداني طوال حياة أمه. - كانت المرأة تبرئ نفسها بقدر ما تستطيع. ولما رأى يمزش الأمير الكبير قد ترجّل ترك ذراع أخته. وأعادت المرأة الأخرى غطاء رأسها الأسود على عجل، وقالت بنبرة باكية:

- سامحي يا أمير، تشفيت من عجزهم وكنتهم مما في صدري. أعرف أن لا فائدة الآن من هذا، ولكن يا حسرتي لو لم أفعل هذا لانفجرت.

- جنون المرأة على قدر طول ثوبها. هل تسمع يا أمير ما تقول هذه؟ - نظر يمزش في وجه الأمير الكبير متهماً أخته، - تفضحنا في القرية، وما ذنب العجوز والكنة؟!

- من تلوّع قلبه لا يستطيع ضبط نفسه يا يمزش. - تابع ردد مشفقاً المرأة المنصرفة ويدها على صدرها. - لا ذنب للطرفين. الأمير أبج هو من نكب الأبرياء. لا تؤاخذني من فقدت ولدها يا نانا، ستندم على ما قالت متى هدأ قلبها، ولكن لا أوافقك على رأيك في من بدأ الحرب. - عاتب الأمير الكبير العجوز الضئيلة.

- أخطأت يا ولدي، وأعرف المسؤول يا حسرتي، - ندمت العجوز، - هاجمونا فجأة فتكلمنا بلا وعي.

صرف الأمير رفاهه، ودخل الدار سعيداً باستراحته المقبلة، فاستقبله أغبان، وقال له فيما يساعده على الترجّل:

- أهلاً بعودتك، عندك ضيف.
- خيرٌ يا أغبان أن يأتيك كل يوم ضيف من أن يقابلك عدو، من أين الضيف؟
- لا أعرف من أين قديم، الأمر الوحيد الذي أعرفه هو أنه عاد من الأشر مع كولس. صحبه شوباش إلى بيت ججان للتعزية.
- ألا يعرف أخي الأصغر أن ججان كان معي؟
- يعرف يا أمير؛ خبرنا بقدمكم، ولم تصل، فظنّ أنك ستتأخر إذ عرّجت على مكان آخر..
- دخل ردد إلى غرفة أمه دون تعليق على ما سمع. كانت كراث ورامبس جالستين تتحدثان. ونهضت العجوزان في استقباله.
- تفضّل، تفضّل، - وصلت في الوقت المناسب. كنت أفكر في الانصراف.
- همت كراث بالخروج.
- كأني أحفلك يا كراث، كيف تنصرفين بهذه البساطة؟ - تعالي واجلسي، سأعتب عليك إن خرجت. وكذلك أمنا؛ صحيح؟
- إن لم تملّ مني كراث فأنا لا أملّ منها ولو جالستني طوال النهار. - قابلت رامبس العجوز وابنها بضحكة ناعمة. - اجلسي يا كراث نتكلم بعد أيضاً.
- بدا على وجه كراث الحمّر سرورها بما سمعت. واقتربت من السيدة الكبرى وسألت:
- أليس صحيحاً يا أمير أن المرحوم تراب سقط في المعركة؟
- صحيح يا كراث، - أجب ردد دون حماسة.
- حزنت عليه ولو كان تنكّر لنا. كنا جيراناً طوال عمرنا، ونشأ تحت أنظارنا.
- وأنا أيضاً حزنت عليه ولو أن ولدي لم يعودا يُطيقانه آخر الأمر. - وافقت السيدة الكبرى جارتها.
- وكيف كنا نطبق من يهاجمنا كالكلب المسعور! - غضب ردد، - ما كان أحسن معاملتنا له حين كان يتصرف معنا كإنسان!
- نعم يا حسرتي، - تنهدت كراث، - ما من إنسان لا ينتظره الخير والشر في حياته، ولكن تراب رحل مبكراً جداً.

- لم يجر له ما ليس من ذنبه، - لم يلن قلب ردد على تراب.
- الكلب يفتسه الذئب متى خرج من مأواه يا ردد، ما تقوله صحيح. -
- وافقته كراث، - ماذا كان يتأمل من الزيح؟ ألم يكن الأفضل أن يقيم في قريته وفي بيته الأصليين؟ أنا كنت أراه كل يوم، وأنت من جعل منه رجلاً. والقرية احترمته كرمي لك.
- لا أعرف إن كنت صنعتُ منه رجلاً بل أفرطتُ في احترامه حتى خرج عن طوره. الحصان يا كراث يرفسك متى أشبعته.
- ثم أيُّ امرأة كان تزوّجها! - انبسط وجه المرأة وهي تتحدث من أعماقها. - لا يهمني ما يقال في دكابس ولكن أتحدث عن إنسانيتها. حرصتُ على نظافة بيت تراب ومتاعه. ولم أسمع منها طوال جيرتي لها إلا ما يُسعدني. انتكبت هي الأخرى على يد هذا الأحذب المجنون.
- حسناً إذن يا كراث، تابعنا حديثكما. متى رأتكِ أمنا نسيت آلام قلبها. وأنا سأستقبل ضيفي الذي عادوا به.
- دخل ردد قبل أن يُتاح الجلوس للعجوز الذي رافقه شوباش. استدار الضيف بكل نشاط، واستقبل المضيف وصافحه:
- أنت الأمير ردد بالتأكيد! - لمعت عينا العجوز الرّبعة ذي العينين الزرقاوين الصغيرتين.
- ومن أين تعرفني يا تات؟ - استغرب ردد، - لا أتذكر أننا التقينا.
- كان قانشاو وصفك لي.
- على قولك أنت قادمٌ من توم - تقاش. تفضّل - أشار ردد إلى المقعد فجلس العجوز الخفيف، وتفحص الأمير. - الضيف لا يُسأل عن مراده قبل ثلاثة أيام، ولكني أتصرف تبعاً للمكان الذي أتيت منه. أود أن أعرف اسمك وأصلك وسبب زيارتك. قانشاو الذي ذكرت اسمه خالي.
- أعرف يا أمير، - ضحك العجوز الأفسس وفمه الخالي من الأسنان يُضفي عليه مزيداً من الشيخوخة، - اسمي بَحْ، من الموط، وأعيش في توم - تقاش. ومضى زمن طويل على معرفتي بقانشاو. وهو من أوفدني.
- ما الذي يشغل بال خالنا؟

- هو مرتاح البال يا أمير. يحترمه من يعيش بينهم، وأموره تجري حسناً. لم يعرف قانشاو إلا منذ وقت قريب أنك أخبرت الأمير مستيسلاف حين قابلته في الدون بتوَعُّك صحة أخته، وبرغبتها في توديع أخيها الأصغر. كان يودّ القدوم ولكنه لا يريد أن يوحى للروسيّج بالارتياب.

- ألا يتقون به؟

- كل قوم يشكّون في أي حركة لك إن لم تكن منهم. أرسل قانشاو نحياته إلى أخته. ورجاني أن أطلّعه على حالها. والسبب الأهمّ لإيفادي هو أنت.

- وما شأنه بي؟

- علم الروسيّج بحركم ضد الزيخ. وقد اعتبروا هذه نقطة ضعف لديكم. وهم يستعدون للإغارة على الزيخ والموط. إن لم يقبلوا دفع الإتاوة فسيُلزموهم بالسلاح. وسيكون قانشاو قائداً للجيش. يبلّغك: "أنا أخو أمه فلا يقف في وجهي!"

توهّج ردد رغم محاولته كتم غضبه.

- حقاً قانشاو خالي، ولكن هل ينسى من استسلم للروسيّج أني قائد الدولة؟
- وضع قانشاو في الاعتبار جوابك هذا. قال لي: "أفهمه إن لم يوافق أني أخبرته بنوايا الروسيّج. أنا قلبي في القسوغ وإن كان جسدي هنا. وأخبر أختي رامبس وابن أخي ردد أني أتألم لهما ولكل القسوغ". هذا ما جئت لأجله يا أمير، وكان بودي أن ألتقي بالمرحوم كولس أيضاً، ولكني تأخرت.
- ومن أين تعرف كولس أيها الضيف؟ لم أسمع له يأتي على ذكرك طوال هذه السنين.

- لم تكن معرفتنا وثيقة جداً. التقينا، ونحن لا يعرف أحداً الآخر، في طريقنا من الأشر. ولما وصلنا عاد كلٌّ إلى بلاده، ونسي الآخر. كان كولس أسنّ مني. ولكن رجولته هي من أنقذتنا.

- هذا صحيح يا ضيف، كان لكولس إنسانية ورجولة وعقل كبير. وأنا أستشيريه حتى رغم رحيله متى وقعت في ضائقة. أتساءل: يمّ كان كولس سينصحنني يا ترى؟ - بدا على الأمير ردد أن العجوز الحكيم قريب منه قلباً وروحاً. وتفكّر في رسالة قانشاو وهو ينظر في وجه العجوز الأدرد: "لم يحدث

أن كان خاله صريحاً كما الآن. كأنه يملي وصيته مبرئاً نفسه. ماذا جرى له يا ترى؟.."

...

لا يُدير ذئبٌ ظهره لذئب آخر.

جرى الأمير أبج لا يلوي على شيء، والريح تعبت بذيل حصانه، وزيرار يكاد يلحق به ولا يلحق، حتى وصل إلى الطريق الملتف على ساحل البحر الأسود. وحين زال عنهما الخطر أعادا حصانيهما إلى الحنب الخفيف. ثم إلى السير العادي. ثم سارا على الأرجل حتى عادت سوقهما إلى حالها.

- لنركب، ما نقطع من الطريق لفائدتنا. - قال الأمير بصوت هادئ، وركب. كان الأمير والشاب متوجسين أحدهما من الآخر ريثما وصلا إلى حدود الروسيج. يخاف كلٌ منهما أن يدير ظهره للآخر. وكلٌّ يرى رفيقه ذئباً. أبج يعرف أن زيار لا يتورع عن قتل أحدٍ كائناً من كان. لم يتفق مع أبناء عرقه ولم تستطع أمه ثنيته، ولا أخوه الأكبر. بل اعترض على الأمير ردد. وحين التجأ إليه لم يضمه إليه ليصلح من أخلاقه. لم يكن في ذهنه إلا مناكدة الأمير الكبير. ولم يكن زيار متردداً في النجاة بجلده إن لم تسر الأمور كما يتوقع الأمير أبج؛ قتل الأخير من هم أقوى منه دون أن يترك أحدٌ منهم أثراً.

نظر الأمير أبج مرة أخرى في صدر الشاب وصدغيه الأحمرين، وزنديه المشعرين الأشقرين، وقلق إذ عاوده الخوف ثانية: " ما أثخن زنديه؛ فيهما قوة مجنونة. لو عرف أي ربطت كيساً من الذهب على خاصرتي لتنكر لكل ما قدمته له، غير أنني لست عاجزاً... "

تبين أن قائد الروسيج على الحدود يعرف أبج جيداً لأنه كان يدفع الإتاوة لهم فاجتاز الحدود بسهولة.

دخل الفارسان توم - تقاش، ووجدا مقرّ قائد الجيش قانشاو سريعاً. ولكن تبين أنه غائب. وأخيراً أنه عائد غداً. وفيما بدأ يبحثان عن موقف سأل الأمير أبج:

- هل تعرف لغة الروسيج يا زيار؟

- ومن أين أعرفها يا أمير؟ - لمعت أسنان الشاب الصغيرة، - عشت سنوات

- عمري العشرين في مزبه لم أفارقها. وأبعد ما وصلت إليه هو بلادكم، بلاد الزبخ. وها أنا الآن وصلت إلى توم - تقاش!
- وكيف ستعيش بين الروسيج وأنت لا تعرف لغتهم؟
- إن كنت سأبقى معك...
- وهل ستبقى متعلقاً بذيلي! - ثم قد يصدف أن نجد أنفسنا في مواقف يجب ألا نكون فيها معاً.
- لا أعرف إذن مصيري... - خاب أمل زيرار!
- ألسنت رجلاً؟ - تودد أبعج إلى الشاب الذي أرخى زمام الحصان من يده، - أمسك الزمام جيداً، ولا تُرخ شاربيك. ولا تدغ حصانك يتعثر. لغة الروسيج سهلة. أفهمهم في الأيام الأولى بأصابعك ما تريد، وحرك فمك معها. ونحن أيضاً بدأنا بهذه الطريقة.
- مرّاً على البيوت يسألان أصحابها حتى وجدا من يقبل بهما.
- أنت توقّف هنا، وأنا سأبحث عن بيت آخر. - كان أبعج يبحث عن بيت أفضل.
- أليس الأفضل يا أمير أن نسكن بيتاً واحداً؟ عبّر زيرار عن قلقه.
- متى رأيت الأمير وحارسه يسكنان بيتاً واحداً؟ - احتدّ الأمير أبعج، - ستتجاوز هذا وتدّعي أننا متساويان. على كلّ أن يعرف موقعه.
- لم أقصد هذا يا أمير. - ارتعب زيرار من الفكرة، - أقصد أنني يمكن أن أخدمك إن كنا معاً...
- ألن تنفذ أوامري إن لم نكن معاً؟! - ازداد غضب الأمير، - تعود أن تقلّر قيمة ما يقدمون لك. لولاي لقطعوا رأسك في المعركة. ألم تر المهاجمين كانوا كالجراد؟ بالتأكيد لم ينج أحد من الزبخ من هذه المعركة.
- سامحي يا أمير، - لانت نبرة زيرار، وجعله الموقف الذي وجد نفسه فيه بلا مخرج منه، يرضخ لكل شيء.. أفهم ما أسديت إليّ. السبب في خوفي من الوحدة هو جهلي بلغة الروسيج.
- ستعتاد، - هل معك أجرة البيت؟
- عندي بعض الذهب.

- حسناً إذن، سأجذك إن احتجت إليك. - حثّ أبج الحصان إلى الأمام.
وقال لمن تركه: - وأنا سأتوقف في الأنحاء.

حاسب أبج الشاب في سرّه: " هل يتأمل هذا الدعيّ أن أسكن معه بيتاً واحداً فأكشف له عن ذهبي؟ اعتماداً كله على هذا الذهب. - لمس الكيس على خصره مستمداً منه القوة والأمل. - إن امتلكت الذهب امتلكت كل شيء. سأشتري بيتاً جيداً. وآتي بأسرتي. وإن رفضت فكما تريد. لن أعيش دون امرأة.

اختار أبج بيتاً من الخشب مرتفعاً يبعد عن الذي استأجره لزيار بضعة بيوت. وبعد موعد الفطور في اليوم التالي التقى الأمير والشابّ وذهبا إلى قانشاو. ولما أخبر أبج الحراس بطلبه استدعاه قانشاو دون تأخير.

- احرس الخيل ريثما أخرج من عنده، لا تبتعد! - تبع أبج الحارس بعد تنبيه زيار.

اجتاز أبج الباب العالي فوجد نفسه صغيراً في القاعة الكبيرة التي رأى نفسه فيها. وانكمش على نفسه شاعراً بضآلته. واستقبله قانشاو بوجه نحيف متطاول.

- أيّ إله جاء بك يا أمير؟ تفضّل، - صافح قانشاو أبج دون أثر للابتسام على وجهه. ودلّه على المقعد وهو يتأمله بدقة: - اجلس! يسرني أن تأتينا أيضاً بدفعة من الإتاوة.

- كيف أجبي يا قانشاو إتاوة من بلاد لم أعد أسيطر عليها؟ كاد أبج ييكي.

- ماذا جرى لك؟ هل عزلوك من منصب الإمارة؟

- بل اغتصبوه مني.

- من؟

- من غير ابن أختك قادراً على هذا في إقليم الأديغة؟

- يبدو أن الأمير ردد عزلك. - ألم أتّبّهك من البداية أن مشروعك لن يتحقق؟! لا تظنّ أنني أمدحه لأنه ابن أختي. لم يكتف ردد بجمع أعراق الأديغة بل أقنعهم، واتخذوه زعيماً للبلاد. يثق الناس به، ويتأملون منه. هل تكسر الصخرة إن نطحتها؟ من استلم مكانك؟

- لا أعرف يا قانشاو. لم يعزلني ردد ذو الرأس الكبير كما تتصور أنت. هاجمني وهزم جيشي.
- وهل هذا ممكن؟! - احمر وجه قائد الجيش الشاحب. - الزيوخ ليسوا أقل من القسوغ إن لم يكونوا أكثر؛ كيف هزمك؟
- لم يحشد القسوغ وحدهم. هاجمنا الحكوف والموط من الجانبين فأهكونا. وبعض الأمراء الزيوخ خذلوني.
- يبدو أنك لم تتعلم طبيعة أعرافنا. من ليس سليل أمراء يعدّ نفسه في سيره أميراً. أنت كنت تريد الاحتفاظ بالأمراء في قبضتك.
- هل كنت تريدني أن أتصاغر أمامهم؟ كنت رأيتهم وقتها ركبوا رأسي!
- لا أطلب منك أن تتصاغر، يجب أن تُريك طبيعتك الناس مساوين لك يا أمير. حاربت ردد بدلاً من أن تقلّده في تعامله مع الأمراء والعمال والحراس. وكيف نجوت أنت من الحرب؟ هل جئت وحدك؟
- حماني حراسي، ومعني شاب قوي.
- من أي أسرة؟
- من قريتك، الابن الأصغر لحقار، نسيب نخلش الأصهب.
- فهمت، من أسرة تُكرّ العدا لردد. وبأي نية توجهت إلينا؟
- سأتحالف معكم إن قبلتم بي. أنت لا تريد اغتيال ردد لأنه قريبك يا قانشاو، ولكنه ليس على ما تتصوره. إن لم توافقه سحقك.
- قيادة دولة أمرٌ صعب. تحتاج إلى رحمة وظلم وعقل وصفات أخرى. ولكني أظن أن تراب خدعك.
- وهذا الأحذب البغيض حرّضني وشوّش رؤيتي ولم ينفعني. كان يصوّر لي القسوغ لم يعودوا يطيقون ردد. ثم انكشف عن شخص آخر.
- ونحو من سيتجه تراب الآن؟
- وهل تظن هذا القبيح الذي كمن ينظر من تحت خيمة يخرج سالماً من ساحة المعركة؟ كنت جرّته رغماً عنه إليها. ليس تراب مشكلة يا قانشاو. دعنا نتكلم في مصري أنا. إن قبلتموني حالفتكم بإخلاص. ردد ابن أختك ولكني أعرف أن بينكما فجوة كبيرة. أنتما على صفتين مختلفتين. لن يسمح للأديغة أن

يدفعوا لكم أي شيء. وأنتم مصرّون على أن يدفعوا لكم. ستصطدّمان إن شئت أم أبيت يا قانشاوا.

نَهَضَ قائِد جيش الروسيج يذرع أرض القاعة دون كلام، يفكر في طريقة عاجلة لإجابة الأمير الخائن: " لا خير فيه من طريقة كلامه. وأعرف أنه ليس امراً صالحاً، إن أدّرت له ظهري أمكنه أن يتجاوزني إلى الأعلى مني. لا يردعه شيء. سيورّطني في مشكلة. الأفضل أن أتظاهر بإطلاعه على ما في قلبي. وإن حاول التمادي فعندي من يضع له حداً... "

- يا أمير، - استدار قانشاوا نحو الأمير ووقف أمامه. وابتسم له لأول مرة. أعدت التفكير فقررت أن الروسيج لن يجدوا حليفاً أفضل منك. تعرف إقليم الأديغة جيداً. تعرف الغابات والجبال والأنهار والطرق، حتى الدروب. لن يقبل الأمير الكبير مستيسلاف إلا أن يعتنق الأديغة المسيحية ويدفعوا الإتاوة. الربُّ أرسلك إلينا. نحن بحاجة إليك. نرى أن نُفّاتح الموط والزِيخ في شأن الإتاوة دون تأخير. ستُحالفنا، وإن انضمت إلى جيشنا فلن يكون عليك خطر.

- بكل سرور يا قانشاوا، - انطلق وجه أبج من جديد - وإن سلّمتني قيادة مجموعة كبيرة من الجنود أمكنني ترؤسهم. وأعرف لغة الروسيج.

- لا أعِدُّك بهذا. - عبس قانشاوا ثانية، - لن يقبل الروسيج أن أقود أنا الجيش وأن تقود أنت وحدة كبيرة منه. ولكن كل شيء سيتعلق بما تعطي من انطباع.

- وهذا صحيح. - رضخ أبج، - متى آتي؟ وصاحبي الشاب...

- سينضم هذا إلى الجيش. تعالاً بعد غد.

- إذن إلى ما بعد غد، - نهض الأمير أبج وخرج مرفوع الرأس من قيادة الجيش.

IX

يحدث أن تشعر بالملل من انتظار أحدهم، ويحدث أن تتلهف عليه.

تحدث الأمير ردد وضيئه عجوز الموط على انفراد قبل أن يطلب الأمير من حرسه تشييع العجوز. كان راضياً عن قانشاوا لإرساله الخبر الإنذار وإن كان

سيئاً. ولكن الأمير الكبير لم ير من المناسب أن يستنفر الجيش ويحشده على الحدود دون أن يعرف موعد هجوم الروسيج. وخاف أن يهيج جيشه بهذا التصرف. وليس من السهل جمع الفرسان والاحتفاظ بهم دون معرفة مدة الانتظار.

كان ردد توسل إلى العجوز الأدرد الصغير حين تحدث إليه على انفراد واثقاً منه:

- يا والدنا، الحرس لن يسمحوا لك بعبور الحدود متى أردت. سيراتابون فيك. إن كنت قادراً فأطلق الدخان عند غروب الشمس على مرتفع قريب من حدود الموط قبل ثلاثة أيام من انطلاق الروسيج. يصلح هذا إنذاراً لنا.

وعد العجوز الأفطس ردد، وتعهد أن يجد من ينفذ هذا إن لم يستطع هو. أرفق ردد شوباش بالعجوز بعدما أهدها حصاناً بسرجه، وشيخ الضيف إلى حدود الموط - الروسيج. وأمر ردد شوباش وصحبه:

- عرج متى عدت على الأمير قايت وأوصه أن يراقب عند غروب كل يوم النار التي ستشعل على حدود الروسيج. وليحتفظ بأشخاص يشعلون النار على المرتفعات من عنده إلى أرض القسوغ. وأنا سأكلف من يشعلها على مرتفعات القسوغ.

- وماذا يعني هذا يا ردد؟ - كان شوباش يعرف أن الدخان وسيلة إعلام، ولكنه نظر في وجه أخيه لا تعجبه المهمة المكلف بها. - انتهينا توأ من قتال الزيوخ. والناس مرهقون جسداً وفكراً. وكان كولس أشار عليك أن تجد وسيلة للتفاهم مع الروسيج.

- يا أخي الصغير، البيضة لا تعلم الدجاجة. - تكلم الأمير الكبير بنبرة قاسية، - كان خالي رد علي بهذا القول المأثور لدى الروسيج حين جادلته. والآن ينطبق عليك هذا المثل. وهل تظني أشن حروباً حباً فيها؟ أنا أفضل أن أحرث سنة على أن أخوض حرباً يوماً.

- ولكن أليست من قال إن الروسيج لا يُحصيهم العد؟ وها أنت قابلت مستيسلاف في بلدة ساركيل خلال عودتك من عند الموط. وكنت قلت إنه أرسل قانشاو إلى شيرنيغوف. ومن جهة الغرب الآلهة وحدها هي من تعلم

عدد الروسيج. ثم إن بيزنطة تساندتهم...

- يا أخي الصغير، لا تحف من العدو لكثرتة. ولا تتجراً عليه لقلته. - ربت ردد على كتف شوباش بعدما صفا مزاجه. - لن أسمح للروسيج أن يذهبوا قومي خوفاً من كثرتهم. ولن أسمح لهم أن يطؤوا ديارنا. وإن لم نتفاهم وهاجمونا فلن يلقوا منا خيراً. من يكن جريئاً يغلب الدب.

- لم يلحوا علينا في شأن المسيحية. - كان يغلب على شوباش احتجاجاته، - ليس الروم والروسيج وغيرهم من الأقوام الكبيرة التي دانت بالمسيحية أقل منا عقلاً. وتراب الأحذب غاب عنا. ولا أرى من يهيج الناس. لو أرسلت إلى القرى من يقنعهم ويثبت فيهم الإيمان...

- لا تجادلني في هذا أيضاً. - حسم الأمير النقاش، - لا أستطيع من جهة أن أطلب من الأديعة أن يهجروا الآلهة الذين قدروهم طوال عمرهم، وإن فعلت هذا فسيظهر عدد من المعارضين أصلب من تراب. الدين لا يتغير بالكلام وحده. هو في قلوب الناس ودمائهم. ومن جهة أخرى، فما لا تفهمه أنت أمراً واحداً: لا تلح علينا القسطنطينية لاعتناق المسيحية حباً فينا. إن قبلنا فسترسل لنا المبشرين، وسيتقاطر علينا التجار بعدهم. وستندفع السفن إلى سواحلنا. وسيخرج من هذه السفن مقاتلون تحت ستار حماية أشياءهم. وسيزداد عدد من يترددون علينا من البر أيضاً حتى يملؤوا أرضنا. وفي هذه المرحلة تكون أجبرت على دفع الإتاوة للروسيج والروم.

- يا ردد، من حسن حظي أنك لم تغب طويلاً في الأسر. - تنفس شوباش ملء رثيته وتنهد. - لو تبوأ منصب الإمارة في القسوغ وحدها إلى الآن لنكتبها. أسمعك فأتعجب من أين جئت بكل هذا العقل؟

- متى هددك الماء بالغرق تعلمت أنت أيضاً السباحة. - مزح ردد مع شوباش في شبه تودد، وأمسك بيده، - مع السلامة، نقذ ما طلبت منك. كلما كثرت المهمات زاد نشاط العقل.

أرسل الأمير ردد دون انتظار عودة شوباش من تشييع العجوز القادم من توم - نقاش إلى أميري الحكوف والزيوخ يطلب منهما مراقبة دخان الإنذار. ومن جهته كان يقوم بأعمال النهار، ويعود إلى مضافته مع غروب الشمس إذ لم

يكن يريد أن يَضِيع وقتٌ في إخباره بالإنذار.

وجد ردد في الأيام الأربعة الماضية فرصة للجلوس إلى جانب أمه. ووجد ولداه الوقت لصحبته، دُعًا من أُنبار التي كانت تستغرب سلوكه وتعدّ عودته قبل حلول الظلام نعمة.

دخل ردد مساء متعباً إلى المضافة وإن لم يُنجز أعمالاً تُذكر في النهار، وتمدد على الأريكة العارية. وفيما هو يغرق في أفكاره وعيناه مسَّرتان على العمود حامل السقف فتح الصبي الأصغر الباب فجأة ودخل. ضم ردد الصبي بإحدى ذراعيه فرحاً بنشاطه، وابتسم له:

- ماذا يا ولدي؟ هل تلعب؟ جلس ردد ومسح على رأس الصبي، - هل كفّ زبش عن ملاحقتك؟ هل تعلمت القفز؟

- صرت خفيفاً يا تات، أففز الآن ما يقفزه الصَّبَّيان. - امتدح زفس نفسه، - ليس هذا سبب قدومي إليك. لا أجد من يروي لي حكاية استعادة ساوسرقوه¹ للنار. جدتي مريضة، وماما لا وقت عندها؛ تطلبُ مني أن ترويها أنت لي. وأنت ماطلت يومين.

- أفحمتني إذن، - ضحك ردد، - تعال اجلس بجاني، سأرويها لك. - لا، لن أجلس، - عاند الصبيُّ، - جدتي وأمي تنصحاني ألا أجلس بجانبك ولا في حضرتك.

- ولكن جدتك وأمك لا تريانك الآن. اجلس، لن أشي بك.

- ألا تراني أنت إن لم ترياني هما؟ إرو أنت، سأبقى واقفاً.

- أنصتْ إذن بكل جوارحك، - ضم الأب الصبي إلى حضنه، وبدأ الحكاية: - كان بين النار رجل صغير² صلبُ اسمه ساوسرقوه. في أحد الأيام هاجم العملاق ذو العين الواحدة³ النارَ في غياب ساوسرقوه وسرق منهم النار. ولما عاد ساوسرقوه كان بردُ الشتاء الشديد بدأ يفتك بالنارتيين. فسألهم: لماذا

¹ سارق النار في أساطير النار مقابل بروميثيوس في أساطير اليونان.

² المقصود بالصغير هنا الإنسان البشري، بالمقابلة مع الأسطوري.

³ ما يقابل التيتان في الأسطورة اليونانية.

تَدْعُونَ البرد يقتلكم؟ أين ناركم؟ - سلبنا إياها العملاق الأعور؛ دنتْ نهايتنا. قال ساوسرقوه: سأذهب وأستعيد النار. توسّل إليه الناريون: لا تذهب، سيقتلك العملاق. ذهب من هو أكبر منك ولم يعد. أجابهم: لم يعودوا لأنهم كسالى. انطلق بحصانه الصغير. سار وسار حتى تسلق جبل "حرام"، وتفقد الأنحاء فرأى دخاناً خفيفاً من بعيد. أسرع بحصانه كالريح فأوصله. قال الحصان: يا ساوسرقوه الناريّ، هذه نار العملاق: ترَجُلُ شيئاً فشيئاً، وتَعَدُّ العملاق رويداً رويداً. لا تلمسِ الجذوة الكبيرة بل التي بجانبها. ومتى عُدتْ إلى صهوتي انقضى الأمر.

- يا تات، وهل تكلّمك أحصنتك؟ - تأمل الصبي والده ذاهلاً.
- لا يا ولدي، - تعجب ردد من فطنة ولده، - الخيل لا تتكلم، ولكنها تفهم ما يقال لها.

- لماذا تجعل حصان ساوسرقوه يتكلم إذن؟
- لستُ من يُنطِّقه بل الحكاية.
- فهمتُ، وماذا بعد؟

- ثم... _ تابع ردد وهو يَمِطُّ الكلام، - نَقَدَ ما أوصاه به حصانه، وحين اختطف الجذوة الصغيرة سقطت منها شرارة على العملاق فأمسك بساوسرقوه، وصرخ: الآلهة جاءتني بك أيها الإنسان الصغير: إن لم ترو لي ألعاب ساوسرقوه لم أفلتُك حياً. أجاب: وكيف لي أن أعرفها؟ سأروي ما سمعتُ. - خدع ساوسرقوه العملاق: يوقف العجلة الكبيرة على جبل حرام ويدحرجه. ثم يصدمها بجبينه ويُعيدها. قام العملاق بما طلب ساوسرقوه، فألقى العجلة من الجبل. قال ساوسرقوه: ماذا أثّرتْ فيك يا عملاق؟ قال العملاق: شفتني من الصداع. إن لم ترو أعجب منها فلن أعيدك سالماً. يغلي سبع قدور من الماء ويصبّها في الحوض، ويستحم فيه ". استحم العملاق وخرج يلعب. ماذا فعل بك الماء الحار يا عملاق؟ كنت أعاني من الحُكَاك فأراحي. وإن لم ترو لي أعجب منها فلن تعود سالماً. قال: ينثر التبن في الماء ويجلس فيه ثلاثة أيام والماء يغمره حتى عنقه حتى يتجمد فيه. ثم يكسر الجليد ويخرج. لم يستطع العملاق كسر الجليد. ولما دنا منه ساوسرقوه ليقطع رأسه قال العملاق:

لم تقتلني أنت أيها المنحوس الصغير بل أنا من قتل نفسه. حين تسلقت جبل حرام رأيتك كسيحاً، فشككت فيك. لم أكن أنوي معاداتك يا ساوسرقوه. كنت أريد أن تتحالف معي. ولكن لا فائدة الآن. متى قطعت رأسي فانزع أمعائي الغليظة واحزم بها خصرك ولن يغلبك أحدٌ في هذا الكون الكبير. استعجل الحصان قائلاً: تعال من وراء العملاق واقطع رأسه بسيفه هو. فعل ساوسرقوه ما نصحه به الحصان. ثم سأله بعدما انتزع الأمعاء: ماذا ستفعل بها؟ أجاب: سألفها على خصري فلا يغلبني أحدٌ. قال الحصان: انشرها على تلك الشجرة لأن الأمعاء رطبةٌ. ولما فعل هذا قطعت الأمعاء الشجرة. قال ساوسرقوه: شكراً لك يا حصاني؛ عقلك هو من أنقذني. وعاد فرحاً بجذوة النار. فأشعل الناريون النار وتدفؤوا...

- هات لي يا تات حصاناً عاقلاً مثل حصان ساوسرقوه أستعيد به نارنا إن سرقوها منا. نظر الصبي مسترجلاً إلى والده، وسأله: ونحن من يمكن أن يسلبنا نارنا؟

- متى سلبوك أرضك يا ولدي انطفأت نارٌ موقدك. - هاجت المحنة التي تنتظر ردد، فنظر عبر النافذة، ثم ربت على مؤخرة الصبي: - هيا، أمك تبحث عنك!

حين بقي ردد وحده سمع صدى نقاش شوباش من جديد. وشعر بقلق الشاب وهفته " لا يخطر لي أن أنشر المسيحية بين الأديغة. ولكن علينا أن يكون لنا من يقوم بأعباء ديننا. تابع أفكار أخيه الأصغر، - كان تراب يقنع الناس بالصدق والكذب. ويخيفهم. والآن انتهى دوره. في ما رواه لي الرومي ديمتري شيء صحيح: الناس يتقبلون كلامنا وندفعهم إلى فعل ما يجب فعله، ولكن لا نعرف إلا ما على أفواههم. أقول هذا ولكن تلك المعرفة صعبة أيضاً في المجوسية التي نعتنقها. بيزنطة التي كنت فيها والروسيج الذين خالطتهم عندهم معابد. ويأتي الناس إلى زعماء الدين في هذه المعابد. ويستهلون إلى الرب، ويروون لهم ما في قلوبهم من أسرار؛ في حين أن أمكنة ابتهالنا متناثرة هنا وهناك، على أطراف الأشجار، وعلى ضفاف الأنهار، وأجمات البلوط، وأشجار أخرى حدّوها. وفي جميع الأحوال يجب أن تجد من يهتم بأمور الدين... " سيتبجح

علينا تيمرقوه معتداً باعتناقه المسيحية.

دخل نطاي أيضاً في جملة الأفكار التي تشغل بال الأمير الكبير. واستعاد ذكرى زيارته إليه قبل أيام. جلس الرجل الوسيم مدة يتتسم غير قادرٍ على البوح بما في قلبه. ثم شرع يتكلم منزهاً عينيه في أرجاء القاعة، مصطنعاً ابتسامة:

- وأنا أعرف يا أمير استعمال السيف، والرمي بالسهم، ورعاية الخيول.

- لا معرفة تزيد عن حاجة الإنسان يا نطاي، تنفعل يوماً ما. - قابل الأمير كلامه، - هل تريد الانضمام إلى الجيش؟

- لا مانع من هذا، ولكن ليس مقاتلاً حقيقياً. - نظر إلى الأمير الكبير خافضاً رأسه، ناظراً إليه من طرف عينه، - أنا رافقتُ تراب طويلاً وأنت تعرف هذا. لم يكن يعرف شيئاً من أمور الدين. أنا كنت أقرب إلى أمور الدين. هذا الأحذب اللعين سلبني زوجتي.

- دعنا من الكلام على من فارق الحياة يا نطاي، - غير ردد موضوع الكلام. وأنت ماذا تريد؟

- لا أعرف إن كان الأفضل أن أنضم إلى الجيش رجل دين، أم أن أنجّه إلى القرية؟

- وهل يقبلونك يا نطاي وقد كنت رقيق تراب؟

- فكرت في هذا أيضاً. هذا الأحذب آذاني من كل ناحية. سلبني زوجتي، واصطحبني سنواتٍ يخدعني. والآن يؤذيني حتى بعد موته. - ما رأيك في الانضمام إلى الجيش؟

- لا نمنع أحداً منه؛ كما تريد...

كان ردد يعرف أنه لا القرية ولا الجيش يقبلان نطاي خليفةً لتراب. والآن سأل نفسه بعدما عاد إلى هذه الفكرة: " ألا يمكن تعيين تيمرقوه رجل دين؟ ترؤس المؤمنين جزء من مهام القيادة. ويحتاج إلى رجولة وثبات وصبر. ونطاي لا يملك هذه المؤهلات. ولكن ليحتفظ تيمرقوه بمسيحيته لنفسه. لا يتكلم عليها صراحة. لم يُخلق مسيحياً. عاش بيننا مؤمناً بأهتنا حتى وقع في الأسر. ولیدع من يثق به جداً إلى دينه. إن اجتمعُ به كلمته وأقنعتُه "

صدر صوت أغبان القوي من جهة الباب. وتبعه صوت حازم لا يكاد يسمعه

الأمير. ورأى من النافذة شوباش يدخل الدار مسرعاً نحو المضافة دون آثار تعبٍ. وبعده أغبان ممسكاً بزمام الخيل. - جفل الأمير الكبير: " ما الذي يدفعه إلى العجلة؟ أليكون العجوز أبلغه شيئاً؟ أليكون أخي رأى دخان الإنذار قبل أن يُخبروني؟ "

دخل شوباش المضافة تسبقه تحيته المسائية. ونظر إلى أخيه بعينين ذابلتين:
- ما الأمر يا أخي؛ لا يبدو عليك التعب؟ يسرني إن كان الطريق سهلاً عليك؟ - هل رأيتم شيئاً؟
- أوصلنا العجوز إلى الحدود بسلام. ولكن حدث ما توجّستُ منه. - رفّ جفنا شوباش.

- وما الذي توجست منه؟
- ألم أقل لك قبل سفري إن الحرب المستمرة ترهق الناس؟
- وممن علمت هذا الخبر؟
- جلسنا عند أَدشس بعض الوقت بعدما دخلنا إلى القرية. - خجل شوباش من عدم عودته فوراً، - جاء رجلان إلى المضافة يبحثان عن قدان وقالا لنا: الخبر الذي أرسلته إلى الحكوف لم يُعجب بعض القرى.
- ولماذا يخبرون قدان في وجودي؟ هل بدأ الأمير دامر يتجاوزني؟ - احتد الأمير ردد.

- وهل يبلغونك الكبيرة والصغيرة يا أخي؟ يقترح دامر إرسال مجموعة كبيرة من الجيش لإعادتهم إلى وعيهم. هذا ما أبلغنا إياه أحد الرجلين.
- هل جُحّ دامر؟ لا يُستعان بالجيش لمثل هذه القضية. غضب ردد على غير عادته. ثم مد يده على الأسلحة المعلقة بالعمود. - أين قدان؟ هل وجدتموه؟
- استدعوه من عند الحداد يمزش. - سنّ سيفه، وسبّأني إلى هنا.
عاد الأمير ردد إلى طبيعته. وأعاد الأسلحة إلى مكانها. ولكنه وقف على أرض الغرفة يذرعهما تعبيراً عن عدم ارتياحه.

- حقاً، كدث أنسى. - استدار الأمير إلى أخيه، - نفد دواء أمانا، هاتِ لها منه إن لم تكن متعباً.
- وهل أتعب إن كان من أجل أمي؟ - حالاً يا ردد، - استعجل شوباش.

- وهل عبر العجوز دون أن يعترضه الروسيح؟
- دون صعوبة، أرسلت معه شخصاً.
- سَمِعَ وَقَعُ حوافر حصان، ثم دخل قدان بكامل لباسه مستعداً لركوب الطريق:
- هل الجيش جاهز يا قُدان؟ - سأل الأمير ردد.
- ليس جيشاً بل طلب دامر عدداً ليس قليلاً من الجنود فأبلغتُ مئة فارس أن يستعدوا. - انتبه قدان إلى أن وراء سؤال الأمير غاية ما، - ألا حاجة إليهم يا أمير؟
- لا حاجة! - حسم ردد باختصار، - يكفي أن نسافر أنت وأنا مع حراس.
- الحكوف لا يحتاجون إلى جيش بل إلى كلام. لابد أن نجد وسيلة تفاهم معهم.
- يا أمير، ضُئْ نطاي إلى الحرس إن لم يكن مانع، - توسّل قدان، - يرغب جداً في مرافقتك.
- لا بأس إذن، - قال الأمير لنفسه ضاحكاً: "أعرف ماذا يريد نطاي: يريد أن يَحِلَّ محل تراب صاحبه السابق. ولكن لا أظنه يصلح لمنصب زعيم ديني. لا يسلّمونك أي منصب لأنك راغب فيه فحسب. يجب أن يراك الناس أهلاً له، والأفضل أن تستحقّه بجدارتك..." - ما سبب رغبته تلك يا قدان؟
- عَشِيَّتْ عيناه من القعود في بيته لا يرى غير زوجته، يريد أن يخالط الناس، ويسمّع آراءهم، ويساهم برأيه في أحاديثهم.
- توهجت وجنتا شوباش من سماع اسم نطاي، وقال منصرفاً خجلاً من نفسه:
- سأمرّ على أمنا، وأبحث عن الدواء.
- جلس شوباش إلى جانب أمه، يسليها بمزاح لطيف ريثما غادر المسافرون إلى الحكوف. جلست رامبس تمطُّ رقبتهما، ونظرت من النافذة. ثم استدارت إلى ابنها الأصغر محتجّة:
- ماذا جرى له حتى يغادر في هذا الوقت المبكر؟ أما كان يستطيع انتظار النور؟
- وهل تعرفين ردد هذا اليوم فحسب يا أمنا؟ إذا كانت المسألة تتعلق بالدولة فلن ينام الليل.
- فكّر في نفسك أفضل لك من هذه الثثرة. - لامته السيدة الكبرى. -

سأشهد عرسك متى انقضى نصف عام على وفاة كولس.

- نان!

- هيا أثّني بالدواء. - قاطعت الأم ابنها، - أنت وردد تجاوزتما الحدّ. لم تعودا تسمعان أي كلام مني. - فكّر في الموضوع يا ولدي.

دخل شوباش، والنهار يكاد يغمض عينيه، ودخل دار نطاي وهو يبحث عن العشبة. وظهرت دكايس بسرعة على الباب:

- تفضل يا شوباش، تفضل! رأيتك من النافذة. عرفتُ بقدم أحد ولكن لم أعرف أنه أنت.

ما إن عبر شوباش الباب حتى عانقته دكايس بصدرها الطري الدافئ. تردد الشاب ثم لفّ أصابعه المرتجفة على خصرها. ومرّ بيديه على رديفها المدوّرين. وهمس في أذنها وأنفاسه تتقطع:

- أنا جئتُ من أجل الدواء...

- من أجل الدواء، ومن أجلي أنا... - كانت دكايس تقود الشاب إلى الفراش وخداها يتوهجان، - من أجلك أقنعُ نطاي فانضمّ إلى الجيش. اقترحته مكان تراب البغيض غير أن الأمير لم يقبل.

- تشفيت لكما، أنتِ ونطاي، من تراب، اقتلعت ظهره الأحذب. - أفلت من تراب لأول مرة أنه قاتلُ تراب.

- يا لعنة الآلهة عليّ! أنت من قتل تراب؟! - صرخت دكايس وهربت من حضن الشاب. وقعدت في الفراش تنظر إليه كأنها ستقتله. ثم جلست مدة تتنهد ويدها تسندان وجهها.

- لم أعرف أنك ستحزين كل هذا الحزن. - قال شوباش بصوت منسحب، قلتُ هذا جزافاً، وإلا فمن أين كنت أجد تراب في المعركة؟!

- ألم يكن زوجي يا شوباش إن كان صالحاً أم طالحاً؟ - عاد وجه دكايس فانفتح. - الوحيد الذي كان زوجي حقيقة وإن لم يُسعِدني. - عادت ذكرى حقدار ونخلش وشنبه، زوارها الليليين، إلى دكايس، ولكنها لم تنطق بأسمائهم. كفى، تعال إليّ يا شوباش، لم يُمتعني أحدٌ مثلك.

- لا يا دكايس، لم أعد أريد شيئاً. - لم يتحرك شوباش الذي فارقه حُمي

الشهوة. - هاتي الدواء، أمتنا تنتظرني.

- هذا ذنبي أنا، - نهضت دكابس، - نطقْتُ اسم الأحذب اللعين فقطعتُ رغبتك. - أخرجت من الصندوق حزمة من العشب. - أعطيتك القليل منها لتتردد عليّ أكثر. نسيت، إلى أين وصلت مع لاشين؛ ألم ترها إلى الآن؟

- لم يمض وقتٌ كافٍ على وفاة كولس...

- لا مشكلة، - قالت فجأة، - وهل ستتزوجها غداً؟! أعلمها برغبتك فيها وتنتظر. ستندم إن سبقك إليها غيرك.

- خرج شوباش من بيت دكابس يشدّ قبضته على حزمة الدواء حزناً على ما فاتته من المرأة.

...

نظر ردد وهم يعبرون نهر بشده من مكان ضيق إلى رأس النبع. وتأمل أسفل النبع الصافي الذي يقفز فوق الصخور.

- كان الصيف جافاً نوعاً ما، - بدأ الأمير الكبير ما يخاف منه، - متى بدأ موسم المطر فاض نهر بشده. وإن بدأ يقذف التراب المتكوم وقعت القرية في ضائقة.

- هناك ثلاث معضلات من الصعب التعاقل معها يا أمير، - وافقه قدان، - إن كنا محظوظين حمانا الآلهة: الريح والنار والماء.

- إن كنت حريصاً استطعت مقاومتها. - اعترض ردد، - الآلهة منحونا العقل لنتوقع ما يمكن أن يحدث، وندفع ما يمكن أن يضرنا.

- هذا صحيح، ما أقصده هو ألا يهاجمونا فجأة. - فسّر قدان كلامه، وقال لنفسه ملتفتاً إلى الوجه الذي عاد إليه هدوؤه: " هذا الرجل كلما عايشته اقتربت منه فكراً وقلباً. عنده عقل ممتاز يصل إلى كثير من الأمور. ويجد الكلمات التي تعبر قلوب الناس. أمس استطاع بسرعة تطويع الجنود الذين اختارهم دامر من قريتين من الحكوف، وحملهم على التراجع عن موقفهم. قال لهم فور وصوله: " يا إخوتي ليسوا قليلين من يكرهون الحروب. هناك قادة دول يُخلَقون هواة عُدوانٍ على أملاك غيرهم وقتل الأبرياء وأسرهم. لم يكن عندي يوماً مثلك هذه الأهداف. وإن شهرت السلاح فمن أجل وحدتنا واكتساب قوة

دولة واحدة. وقد تحققت لنا هذه الدولة. لا يجوز اليوم أن تقعوا، أنتم الحكوف والزيوخ، مكتوفي الأيدي إذا تعرض الموط لاعتداء، معتبرين أنفسكم في أمان ولا شأن لك بهم. كل عدوٍ يده طويلة ورجلاه سريعتان. من وصل إلى الزيوخ اليوم يصل إليكم غداً. سيدخل إلى قراكم وبيوتكم. ستعضون يومها أصابعكم ندماً. ولكن بعد فوات الأوان... "

- انظر لحظة إلى الجبل يا أمير! - نادى أحد الحراس الأمير، هربت من قدان أفكاره، ورفع رأسه إلى الجبل. سكت ردد ونظر عبر الدخان الذي يلتفّ مع حلول الظلام، وأصدر أمره بسرعة:

- ليصعد أحدكم إلى الجبل ويرَ إن كان الدخان يظهر ناحية الحكوف! ونحن سنتوجه حالاً إلى معسكر تدريب الجيش.

سأل قدان وهم يجرون عدواً:

- كم عندنا من الوقت يا أمير؟

- ثلاثة أيام بلياليها.

- لماذا العجلة إذن؟

- سأجيبك متى وصلنا إلى مركز التدريب.

لم يكن في مركز التدريب إلا بضعة أشخاص لعلمهم بخروج الأمير الكبير وقائد الجيش، ولكنهم كافون لإنذار مقاتلي مزبه.

- اسمع ما قررتُ، - نظر الأمير إلى قدان بوجه عابس حين جلسوا إلى ما يشبه طاولة: إن واجهنا الروسيج وقد دخلوا أرضنا فسنصل نحن وخیلنا متعبين إلى حدود الزيوخ - الموط؛ أليس الأفضل أن ندخل المعركة مستريحين؟

- وهل يستوي الموقفان؟ فكرتُ عميقاً. ولكن ألا يجوز ألا يقاتلونا يا أمير؟

- لن يأتي الروسيج حياً في رؤيتنا. - ابتسم ردد، - سيحشدون الجيش في مواجهتك ويسألونك: " هل تدفعون لنا الإتاوة؟ " وسأردّ: " لسنا عبيدكم فندفع لكم! نحن أيضاً نعمل لنأكل، وأنتم تعيشون هكذا " وهذا الموقف سينتهي إلى حرب. ما يجب أن نفكر فيه الآن هو طريقة الاستفادة من الفرسان. الروسيج ليسوا أضعف منا. يعرفون أساليب القتال. لا نستطيع إيذاءهم بمهاجمتهم مباشرة. سيبيدوننا بالسهام وبالرماح. وهم يلبسون دروعاً،

وخوذهم المزودة تغطي أكتافهم. والسيوف في أيديهم. ولكن ليس ما يقرر نتيجة المعركة هي هذه الوسائط. لن يسمح لك الروسيج أن تباغتهم من خلفهم. سنجابهم كما جابهنّا، نحن القسوغ، الأمير أبج. والحكوف والزيوخ معاً يهاجمون أحد الجانبين. ومن الجانب الآخر الموط.

- وإن كان الأمير أبج أعلمهم بهذه الطريقة؟ - ارتاب قدان.

- ليخبرهم إن شاء، سنخدعهم! - وضع الأمير يديه على الطاولة، - إليك ما كنت رأيت في بلاد الروم: متى أطلق النسق الأول من الفرسان سهامهم، تقدم من وراءهم إلى أمام النسق الأول، وأتبعوا سهامهم بسهام رفاقهم. ثم النسق الثالث فالرابع... ولذا اترك مسافة بين الفرسان...

مضى الليل، وفي بداية اليوم التالي اندفع عدد من الفرسان من الغابة الواقعة غرب الفسحة الكبيرة. توقفوا على حافة الفسحة، ونظروا إلى جهة فرن صهر الحديد. وفي الحال انسحبوا واختفوا في الغابة.

- الانطلاق!! - أبلغ الأمير، وأخبر هذا ذاك بالتسلسل، فامتطى المقاتلون خيلهم. وعبروا الغابة هوناً كما أمرهم قدان. ووقفوا وبين كل فارسين فسحة تتسع لواحد.

ظهر الروسيج وخوذهم تلمع تحت الشمس. وظلوا يخرجون من الغابة بلا انقطاع حتى ملؤوا المرعى - الفسحة. واصطفوا أنساقاً كثيرة. كانت المسافة بين الجيشين المتواجهين بعيدة فلا يميّز أحدٌ منهما أحداً من الجيش الآخر ولو كان يعرفه سابقاً.

نظر ردد إلى الفرسان الثلاثة الخارجين من بين الروسيج فلم ير بينهم الأمير مستيسلاف. وفي الحال قال لقائد الجيش:

- يا قدان اصطحب كلاً من مشقوه وتيمرقوه إلى الروسيج، وبلغهم ما اتفقنا عليه دون أن تزيد كلمة أو تنقص!

تقابل الفرسان الثلاثة من كل طرف على جانب الفسحة، وتبادلوا خطابين قصيرين، ثم عاد كلٌّ إلى جيشه.

أمر الأمير ردد حال عودة الوفد:

- جهّزوا الأقواس، واستمروا في رميهم حتى يصلوا إلى وسط الساحة! ثم

ننطلق.

حملت الريح قليلاً من اصطفاق سيوفٍ وتروسٍ من جهة الروسيج. وارتفعت فوق رؤوسهم صيحات التشجيع حتى ارتجت ساحة المعركة. وصدر من كل مكان وقّع حوافر الخيل.

- لا تبتعدوا إلى الأجانب! سنخترق جيشهم من المنتصف. - أصدر ردد آخر أوامره، وامتشق سيفه. وانطلق بهم بأقصى سرعة. ثم عطف رأس الحصان قبل أن يجد الفرصة لإيقافه، وصرخ على قانشاو الذي وقف أمامه:

- إن كنت رجلاً يا خالنا فلا تحارب أبناء قومك في أرضهم! خرجت الكلمة التي كان يرغب ردد في إبلاغها لخاله كالسهم. ولكن أغبان أسرع إلى جانب ردد، والسيوف التي ارتفعت مقابل سيفه ما تزال في الهواء، فألقى قانشاو قائد جيش الروسيج عن حصانه.

- ماذا فعلت يا أغبان! - صرخ ردد، - قتلت خالنا الوحيد. - وهل عرفت؟! انتبه، إلى يمينك رجل أشقر ضخم. وجه الأمير الترس إلى المهاجم وطعن بطنه بالسيف. ولمح قدان رأس الأمير أبج من وراء الرجل النحيل الطويل.

- أنت من أبحث عنه! - ألقى قدان الرجل النحيل أرضاً، وانحال على أبج بالسيف. هجم زيرار يريد أن يحمي الأمير، غير أن شوباش هاجمه فالتقى السيوفان. استغرب قدان مقاومة الأمير برجولة ومهارة. ولكنه أحس أن ضربات سيفه تضعف. فلما حرف الأمير ترسه يميناً ضربه قدان من الجانب الآخر، فسال الدم من ذراعه. وصرخ أبج، ثم سقط عن الحصان.

بدأ اليأس يتسرب إلى قلوب الروسيج. لم يكن جيش الفرسان الذي جاهاهم في بداية هجومهم مما يُعتدُّ به، ولكن الموط والزبيخ والحكوف الذين حصروهم من الجانبين سدّوا عليهم المنافذ.

- السلام، السلام! - صاح أحد الروسيج بلغته رافعاً السيف. توقف الروسيج عن القتال، وتوقف الأديعة. لماذا يصيح الروسيج يا أمير؟ - سأل أغبان. - يطلب إنهاء المعركة. - أجاب الأمير ممتعضاً.

تراجع الروسيج، وعاد الآخرون إلى نقطة انطلاقهم. ودخل فرسان الطرفين إلى الساحة ممسكين أعنة خيولهم. كانوا ينقلون القتلى والجرحى على ظهور الخيل. استقبل الأمير ردد برفقة قدان الروسيج الذين أخذوا جثمان قانشاو. وقال لكبيرهم:

- أنا الأمير ردد. وقائد الجيش قانشاو خالي. إن سلّمتموني جثمانه فسأخذه إلى أمانا. هو منا وإن عاش بينكم.

- لن أستطيع يا أمير أن أحقق لك هذا الطلب. - حسم قائد الروسيج الأمر، - لا تدعونا نجدد الحرب. جيشانا يتبعانا. كان قانشاو قائد جيشنا، ومن ديننا، مخلصاً لنا قلباً وروحاً. راضون عنه ونقدّره. نحن سندفنه وكان هذا ما طلبه.

- ما العمل إن كان هذا رأيك... - حزن ردد أكثر للجواب الأليم الذي تلقاه متوجساً مما يمكن أن يصيب أمه متى عرفت بالمصيبة.

X

ما ينقضي من النهار يذوّب جزءاً من القلب. حين يبدأ الخريف يمضي إلى نهاياته يفاجئ الظلام الناس فيتعجلون الفجر. ويضغط على الأكتاف، ويحثم على القلب. وفي مثل تلك الليالي الطويلة تتخذ البنات سُماراً، والنساء والعجائز يلتقين في أعمال منزلية تطوعية في بيت هذا أو ذاك. والحكايات تعيد الفكر بعيداً إلى الوراء، إلى الأحداث الماضية. هذا يطير على البساط، وذاك يسبح تحت الماء. يخالطون الروم والروسيج والعرب والزنج و حُرّز العيون. والقلب الصغير يطوف العالم الذي لا حدود له.

انتصب أمام الأمير ردد العائد من المعركة متعباً الأيام التي قضاها في مضافة كولس، وكلمات المسنين التي يمثّلها كلمة كلمة، فارتاح جسده. والتفت إلى الماضي متشوقاً إليه.

في تلك الأيام كان قانشاو اليافع يصطحب ردد الطفل في كل مكان. كان ردد قادراً على مقاومة أثرابه، ولكن خاله يحميه من الأطفال الكبار، ويطلبه إلى المضافة في الوقت المناسب ليصغي إلى الكبار. وعلمه السباحة والمصارعة منذ

نعومة أظفاره.

يتذكر ردد أن قانشاو لم يبدر منه قبل أن يفارق القرية إلا كل خير. والآن بعدما صار هو رجلاً واستقر خاله بين الروسيج، يندم على الكلام الجافي الذي كان يوجهه إليه، ولكن الكلمة متى خرجت من الفم طارت كالعصفور لا تُسترجع. برأ ردد نفسه " لم أوجّه إليه ما لا يستحق، الروسيج الذين التجأ إليهم أعداؤنا يحاربوننا منذ عهد سفياتيسلاف، جدّ مستيسلاف. هذا هو من هزم عصابات الخزر، وسلب الأديغة توم - تقاش. ثم أحسن ابنه فلاديمير إلى أولاده الاثني عشر فكانت أرضنا من نصيب مستيسلاف هذا ذي العيون الزرق. والآن تحالف معه خالي قائداً للجيش. فكيف كنا سنغفر له أمنا وأنا! ولكن لما كانت العادة أن يغفروا للميت كل شيء فلا أعتب عليك الآن في شيء. غير أنني لا أعرف ما سيكون وضْعُ أُمي إن عرفتُ بوفاتك... "

- يا أمير، أعتقد صحة تنبؤك؛ السحب تغطي السماء. - أخرج صوت قدان ردد من أحزانه. نظر إلى السماء وهزّ رأسه:

- لا يا قدان، السحب السوداء - الخضراء لا تحمل كثيراً من المطر. بعض الرذاذ، أو تذروها الريح.

- كيف تخبر والدتك يا أمير ب وفاة خالك؟

- وهذا ما يصعب عليّ إخبارها. - فرك ردد وجهه المتجمد، - رجعتي مراراً أن أرتّب لها لقاء مع أخيها. ولم أستطع أن أنقذ لها رجاءها. ما من خير يخفى، وإن لم أخبرها فهناك من يخبرها؟ وأنا أيضاً لم تفارق صورة قانشاو ذهني منذ عدنا... ألا تقول شيئاً يا قدان!

- ماذا أقول يا أمير؟ - نظر إليه قائد الجيش مشفقاً. - في مثل هذه الحالات يحرص الأديغة على أقوالهم، فيناورون حول الموضوع. لا تقل إنه قُتل، بل أخلي مجروحاً.

- ألا تعرف طبيعة أمنا؛ ستكتشف متى نظرت في عينيّ أنني لا أقول الحقيقة.

- أفهم يا أمير سبب لهفتك إلى هذا الحد.

- ماذا تظن يا قدان؟

- اصطدمتما حال دخولكما المعركة، إن كنت أنت قتلتته...

- أنت مخطئ، ليس عليّ دم خالي. حقاً أشهرنا سيفينا حين التقينا، غير أن الفارس الذي جاء من ورائي لم يدع فرصة لقائنا أو أن يعود إلى وعيه.

- ومن هذا الفارس؟

- لم أجد الوقت للتعرف عليه. - كتم الأمير ما رآه بعينه، مسوِّغاً عمله: "أئنا نُعزّ أغبان، صار جزءاً من الأسرة. سنتسبب لها بمزيد من الحزن إن عرفت أنه قاتل قانشا. حاول حمايتي وهو لا يعرف من يجاهني. لن أدع أئنا تعادي الرجل البريء"

ما إن دخل ردد الدار وراء أغبان حتى ارتقت السيدة الكبرى المسطبة. ونظرت في وجه ابنها واجمة. وقالت متلعثمة:

- من حظي أنك عدت سليماً يا ولدي. لم يضطرب قلبي كما في هذه المرة. وأين شوباش إذن؟

- وهو الآخر سالم يا أئنا، ها هو قادم. أشاح ردد بوجهه لا يستطيع النظر في وجه الأم. وتوجه أغبان إلى الإسطل ليتجنب النظر في وجه السيدة. هل الضحايا كثيرون يا ولدي؟ - سألت غير مرتاحة لهيئة ابنها. - حرب لا نهاية لها، كادت دموع الأمهات تجفّ.

- ماذا بيدي يا أئنا، من يمد يده إلى أعيننا نمد يدنا إلى روحه. هل نسمح لهم بالقضاء علينا؟ - لاطف الأمّ محاولاً إفهامها أنه ليس المتسبب في الحروب. - تعالي إلى الغرفة، ليس من اللائق أن نتحدث على المسطبة. حين توجهت رامبس إلى الباب الكبير ترنّحت على نحو ملحوظ. هجم ردد على ساعدها وضّمّها.

- كأني دُخْتُ يا ولدي، - لم تعد في أي منفعة. - هذا لأنك لا تتعرضين للهواء كثيراً يا أئنا، - وجد ردد ذريعة. - تمشّي متى تحسّنت في أرض الدار.

توقفت رامبس على أرض الغرفة، وقالت لابنها شاحبة:

- يا ولدي، لا تعجبني نظرتك، تُشيع بوجهك. تُخفي عني مصيبة ما. لا فرق بين أن أعرفها الآن أو لاحقاً. - توسّلت الأم.

- في جيشنا خسائر يا أئنا. - أطرق ردد، - قضى عدد من شبان القسوغ،

وَجُرَحَتْ كَتِفٌ مَشْقُوه. وعندنا جرحى آخرون. وكذلك عند الحكوف والزبخ والموط. سبب الروسيج لنا خسائر كثيرة، ولكننا فعلنا مثلهم فيهم.

- وقانشاو؟ - ألم يكن أخي بين مَنْ جابهوكم؟ - ارتفع صوت الأم.

- قانشاو؟.. - تلعم ردد من السؤال المنتظر والمفاجئ، - كيف لا يكون قانشاو قائد جيشهم.

- يا لمصيتي ماذا جرى له؟

- في المعركة تجري أمور كثيرة. هذا يُقتل، والآخر يُجرح...

- قل لي ما جرى يا ولدي دون مقدمات!

- الروسيج أخلوا قانشاو في حالة خطيرة.

- انظر في وجهي دون أن تطرق برأسك! لم تكن في والدك مثل هذه الطبيعة. كان يروي الحسن والرديء دون مواربة. إن كنت تعرّضت لروح خالك فعليك لعنتي إلى الأبد!

- لستُ من فعل يا أمي، بل أحد جنودنا. - جاء من خلفي فجأة... - تعرّ ردد ثانية نادماً على ما أفلت من فمه. - جرى كله في غمضة عين.

- يا بن أمي البائس! لم أر وجهك مرة أخرى... كان انضمامك إلى الروسيج نحساً يا قاند...

- أرجوك يا أمنا اضبطي أعصابك!

- وهل بقي لي أعصاب! - توقعتُ هذا، ابن أمي الوحيد...

- لم تتأثري يا أمنا كل هذا التأثير حين قُتل والدنا أمامنا. لا يمكن أن تُفني نفسك مع قانشاو!

- حقاً! - صرخت رامبس، - والدك... قاند... قانشاو... - ازرقّت شفّتا الأم، بدأت تتهاوى فأسرع ردد، وضمها إليه. وفيما يُضجّعها في الفراش صاح ملهوفاً:

- أينار، ألم يبق في البيت أحد، أقول أينار...؟! نادى ردد وقد هجم الدم على رأسه.

هُرِعت أينار ومعها الولدان إلى الغرفة. حلّت أزرار قميص السيدة الكبرى بسرعة. ووضعت أذنّها على صدرها واستمعت، ثم نهضت دامعة العينين وقالت

لزوجها:

- السيدة الكبرى رحلت... أسعدتنا في الأيام الأخيرة بنشاطها... ظلت تنتظركم ليلاً ونهاراً... خذ الولدين خارج الغرفة. واستدع كراث بسرعة. وصلت كراث تركض وتصرخ معاً. وتقاطر الجيران رجالاً ونساءً. وتجمع كل من في الدار من خدم وطباخين. وبكاها الرجال والنساء كما لن يبكو على أمهاتهم.

دخل أغبان إلى غرفة السيدة يبكي، ثم دار خلف السور ووقف قليلاً وكتفاه ترتجآن، ثم بدأ يضرب رأسه بالجدار. أشفق ردد على الرجل البريء الذي أخلص له كل هذا الإخلاص طوال سنوات. فدنا منه، ووضع يده على كتفه، ونصحه:

- كفى يا أغبان، لا ذنب لك في ما جرى...

- وكيف لا يكون لي ذنب يا أمير! - أنا المذنب الكبير. - نطق أغبان بمشقة وهو ينتحب. - لم أعرف أنه قانشاو. وهل كنت أمد يدي على قانشاو وأنا أرى حال سيدتنا الكبرى! أنا سأغادر منذ هذه الليلة.

- لا يخطئ لك مثل هذا! لا أحد غيرنا، نحن الاثنين، يعرف ما جرى. لا تُخبر أحداً. أنا لا أدینك. كان قانشاو سيقضي على يد غيرك إن لم يكن على يدك. كان الموت يحوم حوله.

- شكراً لك يا قانشاو!

وفي اللحظة ارتفع نحيب رجل قوي من جهة باب الدار.

- يا أمي الحبيبة، الآن تركتينا أيتاماً حقاً! - دخل شوباش باكياً. وانحنى على جثمان السيدة، وبكاها إلى أن انتزعوه من حضرتها. ولما خرج إلى خلف الأهرء نصحه الرجال الذين لم ينتهوا من بكائهم:

- كفى يا شوباش، لا يعيد البكاء الحياة إلى الميت.

- اتركوه! - قال مشقوه لمن يواسونه، - لبيك حتى يخفَّ حمل قلبه. كانت رامبس بمثابة والدة شوباش ووالدها معاً.

ظل شوباش يبكي وهو يخرج من خلف جدار إلى خلف جدار آخر مثيراً شفقة الحضور. وكان بين الحضور في الدار من يتصور أن رحيل السيدة الكبرى

أشد تأثيراً على شوباشَ ربيها، منه على ابنها الحقيقي الذي يتكلف الصبر. لا يزال أهل مزبه يروون أنه حتى بعد مراسم الدفن، ثم توزيع الملابس، ظلت دار الإمارة، بل القرية كلها، تعجّ بالمعزين كأن القرى فاضت بأهلها. وحين انتهى سيل المعزين الذين كانوا مرضى وقت الدفن أو على سفر أو غائبين، عاد ردد إلى القيام بأعباء الدولة وإن شقّت عليه. وقام الناس بواجباتهم وإن تركت الحروب المتصلة جروحاً وندبات لا تُمحى: كانوا يأتون إلى مستودعات الدولة بما يفرض عن حاجتهم من قمح وشعير وذرة وجلود حيوانات مدبوغة أو غير مدبوغة وعسل وأعنان. ولكن لم يظهر التجار الأجانب. فوقعوا في موقف يجب أن يبحثوا فيه عن طريقة لتصريف منتجاتهم.

لم يكن الأمير الكبير ردد يرى من المناسب أن يتوجه بعد الصدام مع الروس إلى توم - تقاش، أو بانتيكاييه، أو فيودوس. كان يخشى أن يعتدوا عليه وعلى أبناء رعيته، يحاكم الوضع كما يلي: "لن يقطع دميتري الذي اعتاد أن يربح من التجارة معنا زيارته لنا بهذه السهولة. لا أظنه يغيب عن قرى الساحل وإن لم يصل إلينا. ربما ارتعب من الحروب بيننا وبين جيراننا. لو عرفت أنه نزل في نواحي مرفأ أنابه لذهبتُ إليه بشخصي. يمكننا أن نشترى منه، بالإضافة إلى مقايضته، ولو كرمى للآلهة فحسب. وقد جمعنا الكثير من الذهب والفضة. إن أخبرهم بقدراتنا علم كوستاس وغيره من التجار..."

حُيِّل لردد المستلقي على أريكة عارية أن أمه نادته: "حقاً هو صوت أمنا" جلس الأمير قلقاً. وتفقد المكان بلهفة. ثم سخر من نفسه قائلاً: أظنني غفوت دون علمي. وكأني رأيتُ وجهها. قالت لي: "الحرب منعت الناس من تأسيس أسرٍ" نعم يا أمنا، لا تحلّف الحرب إلا الضرر. همد قلبي وإن لم تنقص قوتي. منذ شبابي لا أعرف إلا الحرب والمصارعة وإراقة الدم. ولم أعش يوم سعيد... " عادت إلى مخيلة ردد مصارعته لحقار، وكسره ظهره، بل حمله إلى منزله والدم يسيل منه. والزنجي الضخم في بيزنطة، وقتلهم عدداً كبيراً من فرسان الموطن في الغابة. والأدهى من كل هذا هو الوحش الذي جاؤوا به إلى حلبة المصارعة. كان الدم الذي سال من المصارع الزنجي ومن رأس النمر أحمرين متشابهين، ينشر البخار المتصاعد منهما الأسى في القلب. وما لم يؤلم قلبه هو نخلش الذي

قطعه نصفين. كان الحقد الذي تسبب فيه طوال سنين أفقده كل عطف عليه. خاطب ردد نفسه: " ولكن ما أراه إن فتحت عيني أو أغلقتها هو الدم والمأساة والحرب. صحيح يا أمي أن عيون النساء تكاد تجفّ، ولكننا، نحن الرجال، أيدينا هي التي تسيل دماً. هي التي تحارب. وهم من يُقتلون. نخفي عنكم دموعنا. نتحمل وقلوبنا تقطّر دماً. وأيدينا نحن تشتاقي إلى المحارِب. ونحب أن نحشّ ونحن نشمّ عبق العشب الطري. وإن أخصبنا حقول الحبوب شبعنا عيوننا منها. يا أمنا تعرفين أيضاً أن قلوبنا مختلفة كما قلوبكن: منها اللطيفة ومنها القاسية، منها الرحيمة ومنها الظالمة. ومستيسلاف أمير الروسيج الكبير الذي يكشف عن أنيابه لنا إنما يعيش لأجل الحرب. لن يتورع عن شيء يجلب له الثناء. صحيح أنه رجل وسيم، عريض الكتفين، ذو عينين واسعتين مجرمتين، غير أن سعادته في سفك الدم. لا شك أنه سيغير علينا بسيف مُشهر. إن ردتني دموع النساء ضاع الوطن، وتبدد شملنا. وقضينا عمرنا نتحمل ما يحملوننا. لا أستطيع الرضوخ لهذا الوضع..."

نُفض الأمير بسرعة، وطرَد الأفكار الثقيلة بسرعة. أزاحها عن كاهله. خرج من المضافة وتفحص دار الإمارة الواسعة. رآه أغبان فدنا منه:

- هل تريد شيئاً يا أمير؟

- هل شوباش في مكان بعيد؟

- رأيته يذهب نحو الإسطبل، سأناديه.

وقف شوباش بوجه كئيب أمام الأمير الكبير:

- هل تبحث عني يا ردد؟

- ابحث عن مشقوه أو قدان، واطلب منه أن يرسل عدداً من الشباب النشيطين إلى أنابه. وليطَّلِعوا على مواعيد وصول السفن من بيزنطة! - ولما خرج شوباش من الدار قال الأمير لأغبان: - دُعهم يأتوني بحصاني!

أعاد ردد الحراس الذين تبعوه، وأخبرهم أنه ذاهب إلى مستحقوه برفقة عدد من الفرسان.

كان لرغبة ردد المُلحة في مقابلة تيمرقوه سببان: الأول أنه تذكر قراره بإيكال أمور الدين إليه، والسبب الأهم لتذكره الموضوع هو قيامه بمراسم ماتم والدته.

"لم يتكلم كثيراً ولم يتحرك كذلك. أثنى الأمير الكبير ثانية على من رشّحه لمنصب رجل الدين: "قاد كل هؤلاء الناس بوتيرة واحدة، وحملهم على إطاعته. ولم يتدع شيئاً ليس من تقاليد القسوغ. وما امتدح به إنسانية أمنا ورحمتها التي بلا حدود في مكانه. وامتدح كذلك عقلها الواسع، وهذا أيضاً صحيح، ولكن قوله "رامبس الراقدة أمامنا لم تكن أمماً فحسب، ولا امرأة عادية" جعلني أُسبل جفوني، وأُخرجني خوفاً من أن يكون قال هذا لأنها أُمي فحسب. حقاً كان بين الرجال من كانوا يصيحبون مؤيدين إياه، ولكن لم يكن كل الحضور قادرين على معرفة طبيعة أمنا...". والسبب الثاني هو دخول الأمير الكبير مستيسلاف على خطّ أفكاره. كان تيمرقوه هو من روى له طبيعة الأمير الكبير، وعلاقة الرعيّة به وخصائصهم. كانت معلوماته التي استخلصها منهم خلال أسره بلا حدود.

كانت شمس الخريف تداعب ظهور الفرسان بأشعة صفراء ناعمة. والبرد اللطيف في الهواء يسري على وجوه الخيل. وصلت كوكبة الفرسان إلى مستحقوه، ولما وقفوا أمام باب دار تيمرقوه استقبلهم المضيف جاهزاً بلباسه وسلاحه كأنه بانتظارهم. وتساءل فيما يستقبلهم واجماً: "أجاءني يعرف الخبر أم يتابع مهمة أخرى؟"

- يصعب عليّ التحرك بعد دفنِ أمّنا. - قال ردد ثم أضاف: - عندي لك طلبٌ.

- أسمعك يا أمير، - تجمّع تيمرقوه على نفسه.

- لم آتِكَ جاهلاً ميلك إلى المسيحية. ولا أجبرُك أن تزيجها وتعتنق ديننا. أنا فكرتُ كثيراً ورشّحتُ في ذهني عدداً من الأشخاص المهمّين بأمور الدين. غير أنني توقفتُ عندك.

- أنا لستُ صاحب وجهين يا أمير. - استعجل تيمرقوه.

- مهلاً، مهلاً، دعني أكمل ما بدأت. - استعاد ردد زمام الحديث، - لو كنت ذا وجهين ما جئتُ إليك، بل ما اتّخذتُ محادثاً. لستُ من هذا اليوم أعرف صدقك. لا أرى مرشّحاً في كفاءتك عقلاً وإنسانية وفهماً لتولي أمور الدين. تعامل تراب معنا وصدقُه مواز لكذبه، وأنت لست من نوعه. كلامك

وفِعْلُكَ يَنْفُذَانِ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ. وَيَعْرِفُونَ أَنَّكَ لَا تَتَخَلَّفُ عَنْ غَيْرِكَ رَجُولَةً. أُرِيدُكَ أَنْ تَكُونَ مَعِيَ رَجُلًا دِينَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى صِدَاقَتِكَ. اعْتَنَقَتِ الْمَسِيحِيَّةُ عَنْ قِنَاعَةٍ فَلَا تَتَخَلَّى عَنْهَا. نَحْنُ نَتَوَجَّهُ بِدَعَائِنَا إِلَى الشَّمْسِ الْإِلَهِيَّةِ، إِلَهِ الْآلِهَةِ، وَأَنْتَ تَقُولُ إِنَّهُ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا الرَّبُّ الْكَبِيرُ. اْعْمَلْ لَأَهْلَتِنَا، وَاطْرَحْ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ أَفْكَارَكَ عَلَى مَنْ تَتَّقِ بِهِمْ. وَلَا تُثَلِّقْ فِيهِمْ كَلَامًا عَلَى مَسْمَعِ النَّاسِ يَثِيرُ الْفِتْنَةَ بَيْنَهُمْ.

- وهل يقبل الربُّ مني يا أمير؟ - عاد إلى وجه تيمرقوه القلقُ الخائف.
- إن كنت تعمل لفائدة الناس غفر لك الربُّ الكبير، وأهْلَتْنَا. - كان الأمير الكبير يريد طمأننة المضيف. - ولكن هناك ما يشغل بالك، لاحظتُ هذا منذ وصولنا، ولكن لم أسألك، فيك شيء غريب اليوم ليس من طباعك. سأمحني إن كانت مسألة أُسْرِيَّةٍ إذ لم آت للتدخل في شؤونك.

- عرفني يا أمير، أنت تنظر في وجه الإنسان فتقرأ ما في قلبه، - اختلجت شفتنا تيمرقوه، وسرت رجة خفيفة في يديه، - بفضل الرب لا مشكلة عندي من جهة أُسْرَتِي، ولكن حدثت مأساة كبيرة في داري.

نصَّ الأمير الكبير برأسه، واحمرت وجنتاه لا يعرف ما جرى. وسبقته عيناه:

- أي مأساة يمكن أن تحدث في دارك؟

- أفقتُ وأمام حظيرتي جثة يا أمير.

- جثة من؟

- الرومي ديمتري.

- هذه أكبر من مأساة. - نهض الأمير شاحباً، وذرع أرض الغرفة نزقاً، ثم توجه إلى المضيف الذي نهض معه. أين الجثة؟

- أخفيتها في الحظيرة. وضعتها في الملفف وغطيتها ببعض الحشيش اليابس. وأغلقتُ بابها.

- ولماذا تخفي الجثة.

- خفتُ، ولم أخبر مَنْ في البيت.

- ألم ينتبه كلبك حين جرت في دارك كل هذه الأحداث؟

- نبح بضعة مرات بعد منتصف الليل وسكت فلم ألق. ولما أفقتُ في الصباح

ناديثُ الكلب الذي من عادته أن يرحب بي. ولم يظهر. ولما درت خلف الحظيرة رأيت ديمتري مستنداً إلى الجدار ميتاً، والكلب نافقاً. وبعدما أخفيت الجثة ركبْتُ وتفقدت الطريقَ الذي جاء منه ديمتري، والغابة التي خرج منها. لم يكن ديمتري يأتي خالي اليدين. توقعت أن أجد شيئاً مما كان يأتي به في عربته للبيع فلم أجد.

- هل سألت الجيران وسكان الحي؟

- نعم يا أمير، عرفت كل ما رأوا أو سمعوا دون أن أدعهم يشكّون فيّ، ولكن بلا فائدة.

- وماذا تنوي الآن؟

- كنت نويت التوجه إليكم لاستشارتكم، غير أنك وصلت قبلي. لا يحدث شيء دون سبب ما، أو في غياب أي شاهد. من الواضح أن ديمتري لم يُقتل في داري. قتلوه في الغابة. ألم يجتازوا قرى من تلك المسافة أو يصادفهم عابر سبيل؟

- وهل عليه جروح؟

- وجهه وجلده بلا أي أثر. كسروا رقبته. كان في إصبع ديمتري الوسطى خاتم ذهبي عليه صورة رأس حصان، وهو الصليب الذي كان في عنقه، والكساء الصوفي الناعم، ليست عليه. لن يتوقف اللصوص عند هذا إن لم يجدوا العقاب المناسب.

- تعال واجلس هنا يا تيمرقوه، - سأل ردد العائدُ إلى مكانه المضيف: - ما رأيك أنت في حمل الجثة إليك؟

- يهددني من لا يعجبهم اعتناقي للمسيحية. أفهم أن بانتظاري ما فعلوه بديمتري. يريدون أن يراني الناس على غير ما أنا عليه.

- لست وحدك في هذا يا تيمرقوه، هؤلاء يحفرون تحت أساسي أيضاً. قتلُ ديمتري منّا بلا شك. ليس فرداً ولا مجموعة كبيرة. لن يطمئن قلبي ما لم أجد القتلة. هذا سلوك الجبناء. وضع هؤلاء المهرجون في الحساب أن وجود ديمتري قتيلاً في أرضنا سيؤلّب علينا بيزنطة.

- وما العمل؟ أخفي الجثة؟ - سأل تيمرقوه بصوت منكسر، - لن يغفر الله

لي يا أمير.

أجاب ردد بما خطر له دون الإجابة على سؤال المضيف:

— أنا أوصيت قبل خروجي بإرسال عدة فرسان إلى أُنابه لترُقُب وصول ديمتري. - صارت مهمة الموفدين صارت عبثاً.

- ألم يكن يأتيك تاجرٌ غيره يا أمير؟ أظنه صديقك حين كنت في القسطنطينية.

- هل تقصد كوستاس؟ - ارتاح وجه الأمير، - ربما يأتينا أيضاً. والآن إليك جواب ما سألت عنه: أعتقد أن الأفضل لنا الآن ألا نثير ضجة حول ديمتري. ادفنه بحدوء في طرف بستانك كما كان يفعل أجدادنا. ونحن سنصمت حالياً. وكن واثقاً أن أحداً لن يتكلم، وسنرى ما يحدث.

- عقلاً خيرٌ من عقل واحد يا أمير، - حسناً فعلت إذ لم أثير ضجة. وسيغفر الربُّ لنا تعاملنا مع ديمتري بإنسانية وإن لم يكن حسب تقاليدنا الأدبغية.

- وأنا سأدعو إلى ألهتنا ألا يدينونا. لا مخرج آخر لنا، - ارتاح ردد لموافقة المضيف على اقتراحه، - والآن لم تُجِبني يا تيمرقوه بتفصيل على ما جئت لأجله. قل لي: هل وافقت على رئاسة المنصب الديني؟

- لم تدع لي مجالاً للرفض يا أمير. - ابتسم المضيف لأول مرة. ثم قلق فأضاف: - لا تتخيل أن أهل بيتي مشغولون. كنت أكُدت على زوجتي ألا تشغلنا ريثما نتكلم على المأساة. ستصل المائدة حالاً.

- لا داعي يا تيمرقوه. لا ترزعج أهل بيتك! - نهض الأمير ردد.

كانت الشمس الباهتة تفكر بالرحيل ساعة ركب الأمير الطريق. ولم يكن في ذهنه إلا طريقة مقتل ديمتري. وطفاً على سطح الذاكرة بضْعُ المرات التي تحدّث فيها في مضافة كولس. ولكن ما فوق الجميع هو المجرم الذي قتل ديمتري الداعية المسيحي لتوريطه هو وتيمرقوه. ولم يكن يخطر له أحدٌ يحوم حوله شكّه. كان أبج قمة الإجرام ولكن قدان أخبره بإسقاطه عن ظهر الحصان. فشكٌّ في أن يكون جريحاً أخلاه الروسيّج. ولكنه أزاح هذا الاحتمال أيضاً. لاشكٌّ أن قدان جرحه وإن لم يقتله. رفض أن يقتنع أن أبج الذي كان قلبه ينتفض وهو

يلعق جرحه يُختبئ الآن في توم - تقاش.

الكتاب السابع

I

أنت قوي حيث أنت مُضيف، وأسير حيث أنت ضيفٌ.
كلما زاد الماضي ابتعاداً صعبت الحياة على الأمير أبعج في توم- تقاش. كان البيت الذي اختاره ممتعاً في الأيام الأولى ولكن الهدوء فارق قلبه. وكلما طاف في أرض الدار المسوّرة بجدران حجرية عالية خيّل إليه أنه سقط في خندق. ومتى دنا من المضيق وتأمل البحر هدأ قلبه، وانزاحت عنه همومه الثقيلة. وإذا عاد إلى الدار ارتسمت أمام عينيه أرضُ الزبخ التي يشواق إليها، وقرينته، وبيته. لم يتصور أبعج أن يشواق إلى دياره من أعماق قلبه. كان يتأمل ألا يشعر بالوحدة إلى هذا الحد بوجود أسرته معه، ولكن زوجته خيبت أمله. أوفد إليها زيار في مهمة سرية تستغرق يوماً وليلة، واثقاً به، يُبلغها: ما يذهب إليه الرأس يذهب إليه باقي الجسد. وكان جوابها "أفضل أن أموت في أرضي على أن أسعد في أرض غريبة". أحسّ أبعج بإهانة عظيمة في الجواب، ففضى وقتاً يسبّ ويلعن.

والآن أعظمُ همومه الإمارة التي سلبوها منه. ومتى قاس مكانته السابقة بالحالية شعر برأسه ينفجر. "يثير غضبي أن يحتلّ مكاني في الإمارة زيكوشو ذو الوجه الطافح الذي لم ينقطع عن التآمر عليّ سراً وجهراً. لم يكن الأميرُ شلمت أول من كان عليّ التخلص منه، بل صاحبُ الفك العريض هذا. والأمرء الذين كانوا يدورون في فلكي انضموا إليه. وقبلوا به زعيماً عليهم دون اعتراض. مجانين إن تصوّروا أني سأغفر لهم هذا. سيعود عهدي. وسأفرح برؤية بلاد الزبخ عادت إلى يدي. وهل عيشتي الآن ليس عندي من أعتمد عليه إلا زيرار عيشة؟!"

نُحِض الأمير أبعج من السرير يائساً من الأفكار - الآمال. مد يده إلى الحافة

الخشبية فتعثر فاصطدمت يده المجروحة بها فمزق الألم قلبه وشم مغضباً جبينه: "الكلب... أمك، لن يُخلق على ظهر البسيطة أشدّ جنوناً ممن اتخذتوم تقاش مُقَماً. أيّ بؤس أوقعُ نفسي فيه، وأنت تحتاج أن يأتوك بالماء الذي تشربه، وإن سكبت كأس ماء أسفت عليها؟ كنت أرتوي من الماء في حياة قانشاو في زيارتي له، فترتاح نفسي. وكان وعدني أن يعرّفني على الأمير الكبير مستيسلاف ولكن قومنا المناحيس لم يُمهّلوه. وأنا لم يسمحوا لي بالاقتراب منه في المرة التي قصدته فيها. ما الأمر؟ وهل ينضم كل يوم أمراء من الريح إلى الروسيح؟ في الأمر شيء غير مفهوم، أظنهم لا يثقون فيّ؛ ها هو قانشاو أيضاً قديم من القسوغ، ومع ذلك عينوه قائداً للجيش! ما أشد ما كرموا جثمانه! وما أجمل الكلمات التي أبثوه بها. جعلوني أشتي موتة أكثر مما غبطته على حياته. وضع أبج راحته حذراً على اليد التي خفت ألها. وخاطب نفسه ساخطاً على قدان: " لا يتصور هذا القبيح الدائر في فلك ردد أي سآغر له الجرح الذي تركه على جسدي! يمكنني أن أصل إليه وأنا في مكاني. وسأوقع قلبه في بليلة. ظننت نفسي قادراً على هزيمته إذ أن مظهره لا يوحي بحقيقته، ولكن تبين أنه يتمتع بقوة مجنونة. كانت يدي ترتج حين تقع ضربة سيفه على الترس. ولو طالت مبارزتنا لكانت النتيجة وبالأعلى عليّ. حسناً فعلت إذ تشبّثت بالركاب وقفزت عن الحصان. فظنّ أي قُتلُ وانصرف عني. وشوباش نصف الأمير ذاك لا أدري من أين جاءني. حين قفز زيرار إلى أمامي ليحميني تصورت أننا الاثنين يمكننا مجابهة قدان بطريقة ما، أنسى أن أسأل زيرار الأحمر كيف افترق هو وشوباش؟"

صب أبج لنفسه شيئاً من ماء الدلو وشرب. وتمتم مغتبطاً بتأخر زيرار عن مواعده: " هذا الذي لا هموم عنده يأبى رأسه الوسادة، يظل يتسكع ليلاً ونهاراً. اتخذت من أقبح الناس رفيقاً. صحيح أن هذا الشاب مقبول الوجه ولكن عينيه تفضحان خُبته. حين أرسلتهم مرة إلى جهتنا عربدو بالقليل من الذهب الذي أعطيته لهم. لمح لي زيرار الأحمر قبل أيام يختبرني: " أظن أنك غني يا أمير، تُخرج الذهب من عُبك من وقت لآخر ". هذا الذي لا يساوي شيئاً يتصيدني ليعرف كم عندي من الذهب فيقتلني. أخبرته أن الروسيح يكافئونني أحياناً

- على خدماتي، ولم أخبره بسرّي..."
- ارتعب الأمير أبج من فتح الباب المفاجئ. وبدلاً من أن يرد على تحية زيار نهره:
- إن كنت لا تصلح رفيقاً فابتعد عني يا ولد! أنا هنا في ضيق وأنت تتسكع في البلدة.
- وأنت يا أمير لا يؤمك إلا ساعدك، لماذا لا تنزل إلى البلدة وتروح عن نفسك!
- لا تقل أيّ كلام يأتي على رأس لسانك! هل أنت صديقي فتمازحي!
- أردت أن أنعش روحك فحسب يا أمير.
- الرّجلان نشيطان في أرضك، والقلب. ما الذي نشهده هنا حتى نمرح؟ -
- عاد الأمير إلى وعيه، فلان سؤاله الحزين: - غيّز لي ضماد ساعدي، - نزع زيار الضماد، وطلّى الجرح بالدواء. ثم أعاد تضميده. - وماذا أيضاً يا أمير؟
- اجلس عندي، - أشار أبج إلى المقعد المقابل. - ما رأيك في زيارة لنواحيكم؟
- وهل هناك ما أفعله؟ - نهض زيار حالاً، - سيقتلونني إن قبضوا عليّ.
- اجلس! خفض الأمير صوته الذي علا عفواً، وألقى نظرة لطيفة على زيار:
- أما اشتقت إلى ديارك، أمّك، وأخيك، وأهلك، وأصدقائك؟..
- لا يخطرون ببالي يا أمير، - مرة أخرى كشف زيار عن أسنانه الدقيقة، - أنا وجدت هنا صديقاً ممتازاً. وعرفني على صبايا من الروسيج.
- هذا هو السبب في متعة أيام الشباب... - لمعت عينا الأمير وهو يرفع رأسه المتكبر، - ونحن من أين نسترجع ذاك الزمان؟ - لا أهتم بالزوجة الجميلة التي رفضت أن تلتحق بي، ولكني مشتاق إلى أولادي. حين تكون في عمري يرتاح قلبك متى عدت إلى قريتك حتى لو كنت في قرية أخيك القريبة.
- أنا بيتي حيث حللت، - قال زيار بلامبالاة.
- ومع ذلك ألن تجد مضيفاً إن سافرت إلى ديارك؟
- أفقرّ الأديغة يصلح مضيفاً يا أمير. هذا يتعلق بسبب إيفادك لي. - زمّ زيار كتفيه حذراً إذ يجهل نوايا الأمير.

- أنا عَنِيتُ بالمضيف شيئاً آخر، - استدرك أبعج، - ستحتاج إلى من يُخفيك ويرافقك.

- في مزبه، حيث تسكن أُمي ويسكن أخي، رفيق يمكن أن يحارب معي. صلّب زيار قامته الآن وهو يمتط ظهره، - وإن سافرت من هنا فبيته في طرف القرية تماماً. والغابة قريبة منه. وإن لم يتزوج في غيابي فهو وحيد بلا والدين.

- هل أنت واثق منه؟

- لا يخالف كلامي خطوة. أنا من جعلتُ منه رجلاً.

" لم أكن أعرف لماذا رافقتي هذا الشاب ولكني بدأت أفهم الآن. - ألقى الأمير نظرة ودّ إلى زيار، - هو يشبهني، جريء. هكذا يجب أن تكون إن كنت رجلاً. وسيربي صديقه على طبعه هو. نقدّ جيداً المهمة التي كلفته بها مرة وإن كنت أجهل العواقب. وسيجد خطأً للمهمة التالية... "

- اسمع السبب في إرسالي لك إلى مزبه: - مدّ الأمير يده فوضع في كفّ زيار الذهب قطعة قطعة: - هذا نصف المبلغ، والنصف الآخر متى عدت. ومرة أخرى مد يده إلى جيب آخر وأخرج قطعاً أيضاً: - هذه سبع قطع. إن طمعتَ فيها قتلثك ولو كنت بسبع أرواح. احفظ هذا جيداً في سرك. تُوصِلها بطريقة أو بأخرى إلى اللعين قدان. واضحٌ أنه لن يقبلها منك، ولكن فكر، واعثر على طريقة. أنا لن يخطر لي حتى في المنام ما يمكن أن يخطر لك من حيل. أنت ماهر في اختلاق المواقف، عندك دماغ جيد.

- ما قصدُك يا أمير بهذا؟

- سترمي العداوة بين ردد وقدان بهذه القطع الذهبية. سأقلب الجرح الذي تركه سليل الكلاب هذا إلى نحسٍ عليه. - سلّم الذهب إلى زيار وسأله: - هل تستطيع تنفيذ المهمة؟

- سأفكر يا أمير حتى يتعرق رأسي، - قال زيار صادقاً، وقطع الطرف النظيف من الضماد الذي نزع عن يد الأمير. ووضع في الذهب في الخرقه، وأودعه في جيبه. - أليس الأفضل أن أتخذ رفيقاً؟

- لا حاجة إلى رفيق، لا حاجة إلى شاهد. - وأضاف بعد سكتة قصيرة: - ما حاجتك إليه يُقاسمك المال؟

- هذا إذا كنت ستضيف إلى الذهب...

- ما وضعته في جيبك هو ما أعطاه الروسيج لي. هل تريدني أن أتوسل منهم مبلغاً آخر؟ - تمسكن الأمير أبج، ووجد حالاً موضوعاً آخر: - حقاً أنسى أن أسألك: كيف نجوت في المعركة من شوباش؟

- نجوت بنفسي حين حجز بيننا فارس من الروسيج يا أمير. - ابتسم زيرار، وهل كنت أضحي بحياتي من أجل الروسيج! ألم أتصرف على نحو صحيح يا أمير؟

- لا يباريك أحد في خبثك. - تظاهر الأمير بامتداح زيرار. "وأنت مستعد أن تقطع رأس من يؤمك مقدار ظُفر، ما أسرع ما تتحسس من الإهانة! - ردّ زيرار على الأمير ضاحكاً في سرّه. - ماذا تجني من اتخاذ ردد وقدان قائد الجيش أعداء؟ ولكن لن يهدأ لك بال ما لم تتأّر لكل نقطة دم سالت منك..."

...

كان ردد يتابع الكشف عن قاتل ديمتري رجل الدين المسيحي باهتمام. ينتظر منذ أكثر من ثلاثة أيام الخبر الذي سيأتي به مشقوه ورفاقه الفرسان الذين أرسلهم إلى قرى القسوغ الغربية لتلقط الأخبار.

في المساء ترجّل الأمير ردد وقائد الجيش عند باب الدار. سأل قدان وهما يدخلان الدار:

- يا أمير، ألن يصل ديمتري إلى مزبه إن دخل أرضنا؛ لماذا الاستعجال عليه؟ - ألا تعرف يا قدان طبيعة التجار؟ - أجاب ردد دون أن يلتفت إليه، - لن يمشوا مسافة زائدة متى باعوا ما معهم. إن ترك شيئاً على الساحل رجع حالاً. أنا بحاجة إليه، وأريده أن يعثر لي على تجار آخرين. ما تجمّع عندنا من بضاعة للبيع أو للمقايضة كثير.

دخلا المضافة، وخلعا عنهما السلاح، ووصلتهما المائدة ريثما اغتسلا. وفيما الرجلان الضخمان جالسان متقابلين إلى المائدة وركبهما تعلوانها، سُمع وقع حوافر حصان. وقبل أن يذوقا شيئاً من الطعام فتح مشقوه الباب.

- تعال، تعال، وصلت في وقتك إلى مائدة رجل صالح. - رحب ردد بالقادم.

وأُسرع مشقوقه فغسل يديه، وجلس إلى الطعام. - هاتِ إن كنت تحمل خبراً ساراً؛ نزيد في ترحيبنا بك.

- وجدنا شخصين يا أمير. وكلاهما لا يعرف ديمتري. ولكنهما رأيا رجلاً أَسمر يبدو أنه ليس أديغياً بين رجلين متجهين إلى الشرق. كانوا راكبين ووراءهم عربة ملأى.

- وهل عرفت شكلي الشخصين؟

- سألتهما ولكنهما لم يُعِنا النظر فيهما. وكنت عند تيمرقوه الذي لم يرسل أحداً في استقبال ديمتري.

نظر الأمير ردد إلى الرجلين، كلاً على حدة:

- من إذن من بين أمراء قرانا يستضيف التاجر؟
ابتلع مشقوقه اللقمة بسرعة وقال:

- يا أمير، لم يزرنا ديمتري بعد وفاة كولس، ووفاة والدتك. كائناً من كان مستضيفه فلا بد أن يأتيانا ديمتري للتعزية.

- وهذا صحيح، نقلق عبثاً، - وافق ردد.

حين انصرف مشقوقه الذي فرغ من طعامه سأل الأمير ردد:

- ما رأيك يا قدان أن تتفقد مناجم الذهب والفضة؟ مضى وقت طويل على زيارتك لهم، وهي مناسبة لتختلطُ بالناس. وترى سير العمل. وتبلغ شوباش أن يعود لأني مسافر خلال بضعة أيام.

- للتفقد فحسبُ يا أمير أم في مهمة؟

- لتأتي بما عندهم من ذهب وفضة جاهزين. اصطحبُ ما لا يقل عن مئة فارس؛ لا تخلو الطرقات من خطر.

- هل سمعت بحادث ما؟

- لم يحدث، ولكن يمكن أن يحدث. - تظاهر الأمير الكبير بالنظر عبر النافذة، - الذهب والفضة مغريان فالأفضل الحيلة. إن انطلقتم صباح غد عدتم بعد ثلاثة أيام أو أربعة...

...

كان المطر الذي يهطل أحياناً في الجو الخريفى الدافئ قد أنبت العشب

الأخضر الفاتح الجديد، والأشجار لا تزال تحتفظ بالخضرة رغم تساقط أوراقها، والناس يستغربون حال الخريف كأنه استمرار للصيف.

رأى زيرار الجالس على سقف الإسطبل يراقب بعدما ثقب سقف القش، صاحبه يركض في البستان. غضب زيرار من تلكؤ " برجي " ذي الساقين الطويلتين قائلاً: " ماذا يفعل هذا المجنون في البستان؟ يتفقد الأشجار، وها هو قطع غصناً طرياً. ماذا سيفعل به يا ترى؟ لا بأس إن استأنف طريقه... " انفتح باب الإسطبل رويداً رويداً، وسمع صوت برجي الرفع:

- خرج قدان مع عدد كبير من الفرسان صباحاً باتجاه منجم الذهب. عاد برجي إلى البيت يعث بالعصا ويصقر، وعاد زيرار يتقلب في الحشيش الناعم: " لا أعرف سبب سفر قدان. ولكن اعتبرني فُزت بالذهب. يظن الأمير أبج أنه يخدعني. كلما نُفذت مهمة وُعِدْتُ أعطاني النصف الباقي من المكافأة. يتوقع أن يحتفظ بالباقي إن حدث لي شيء، ولكن يستحيل أن تُحقق مهمة لي. الآلهة يقفون في صفي. سأستخلص منه الذهب شيئاً فشيئاً ثم نرى مَنْ مِنّا الأمير. انتظر إن كان الروسيح يعطونك ذهباً. أعرف أن عندك منه. لو علمت ونحن في الطريق أنك تخفيه في لباسك لعرفتَ ماذا فعلتُ بك. لا يزال أمامنا وقت، ولكن هل أسفك الدم جزافاً قبل معرفة مكان إخفائه. متى لمحتُ لصديقي القديم مجرد تلميح كتم نفسه... ماذا إن سبقني وتخلص مني وأنا أخطط للمهمة؟ ليس الأمير ممن يردعه شيء متى انتهيت من تنفيذ ما يكلفني به. عليّ أن أحترس... " - جلس زيرار وقد هيج الدم رأسه. أدار الخنجر جانباً وبحث في كومة الحشيش، ثم ارتدَّ بيده لا يعرف ماذا لمس. وفي هذه اللحظة ففز قَطُّ أرقط كبير من السقف.

اطمأن زيرار، وتمدد على كومة الحشيش، فنام نوماً عميقاً مع أفكاره لأنه لم ينم ليلة البارحة. وها هو يحلم: يقف على رأس الأمير أبج بخنجر مسلول. والآخر يتوسل إليه: " لا تقتلني، أعطيك ما عندي من ذهب. أنت أنشط مني وأشجع وأذكى. ما جعل مني أميراً هو الذهب. والآن أنت مالِكُ الذهب؛ إذن أنت الأمير "، ويحييه زيرار: " هكذا! تريد أن تغافلني فتخلص مني. لن أدع هذا يتحقق لك! " فيصرخ الأمير دون إرادته: " زيرار!.. زيرار!.. "

وفي هذه اللحظة جفل زيرار، وسمع صوتاً:

- زيرار، هل أنت أصم؟!

- ماذا حدث يا برجى؟

- الليل يمضي يا مبارك النسل!

- ولكني أظن أنه مجرد غفوة. - نزل زيرار من السقف مبرئاً نفسه، - هل حان موعد انطلاقنا؟

- هذا أفضل وقت! لا أعرف ماذا كنت ستفعل من دوني. - قال برجى لمن ورائه بصوت طفولي معتداً بنفسه، وخرج من الإسطبل يسبق زيرار، - لا يجوز أن نسير في الشارع، الطرق بين البساتين آمنٌ. ولن ندنو من البيوت. إمش أنت ورائي، وانبطح متى انبطحت؛ سأقودك مباشرة إلى بيت قدان.

وصلا إلى دار قدان دون أي صوت عبر البساتين فاعترضهما كلب ضخم.

- هذا كلب الأسرة التي عندها ولد مجنون. من نوع الكلاب الغدّارة، يعض دون إنذار. ويبدأ بالنباح بعد أن يعضّك. خذ، جئتك بعظمة مكسوة لحماً. تعرّف عليه الكلب فدنا منه يهز ذيله، واختطف منه العظمة. - والآن طريقنا مفتوح.

وصلا إلى بيت قدان، فرفع برجى زيرارَ على يديه المتشابكتين. فعلق الأخيرُ الخرقَة التي تحتوي قطع الذهب وراء الباب. ثم أعاده برجى إلى الأرض بصمتٍ. - ما العمل الآن؟ - نظر برجى راضياً عن نفسه في وجه زيرار. - انتهى عملنا هنا. وأنا سأنتقل عائداً. والبقية تقوم بما أنت كما اتفقنا بعد انقضاء يوم على عودة قدان.

- أنت لا تقوم بهذا العمل بلا مقابل. وأنا ألا يجب أن أحصل على شيء؟ إن اكتشفوني فارقت الحياة وأنا أعرف لماذا أموت... - ضحك برجى بصوت ناعم رجّاج. ولام زيرار المنطلق في طريقه.

اختار أصغر قطعة بين الذهب، ومدّها إليه رغم تحذير الأمير أبج:

- نسيت يا صديقي، لم أتأخر عن سوء نية.

- هكذا لا بأس، - دقائق القطعة كفّ برجى.

- طبعاً، - قطع زيرار البرية الضيقة المقابلة للقريّة على رجليه ممسكاً بزمام

حصانه. واختفى في ظلام الليل.

كان من يرصده برجى منذ الصباح هو الولد المجنون جاؤ قدان. لم يكن في الحقيقة مجنوناً تماماً. كان الرجال يتسلّون بثرتته. وكان يعدّ كل فتاة جميلة يراها حبسته. يعيش في الحيّ على هامش الحياة.

" ألقى هذا المجنون ألف مرة في اليوم إن لم أكن في حاجته، واليوم أين هو يا ترى؟ " رأى برجى وداخله يغلي من ينتظره. قابله وتظاهر بمعاتبته:

- أراك لا تلقي علي التحية، ألا تهتم بي؟

- ولماذا أحبيك وأنا لا أعرفك! لماذا لا تحبيني أنت؟

- ليست هذه مشكلة يا شورا¹. ألم تر الذهب الذي خبّاه جارك قدان في

السقف الخلفي لبيتته؟ - نظر برجى باسمًا في وجه الولد المجنون.

- وهل عجيب إن لم أراه؟ يمكنني أن أقول: رأيته. - رفع المجنون أنفه وضحك.

- صحيح يا شورا، خرجت الليلة لقضاء حاجة فرأيتته.

- نعم، رأيته، - شهد شورا بعينين بارزتين. - ولماذا لا أرى؟ هل تظنني أعمى؟

اختلط شورا بالرجال الكثيرين المجتمعين أمام ورشة الحدادة، وأعلن فيهم ما أقنعه به برجى. تضاحك الرجال، وبينهم من مازحه، ومن صدّقه...

...

دخلت إلى مزبه مجموعة الرجال العائدين من الصيد. شوباش إلى يمين أخيه الأمير الكبير، ومشقوه إلى اليسار. وأغبان إلى جانبهم وإلى الخلف قليلاً منهم، وعلى سرج حصانه رُبط الغزال الذي صاده الأمير.

- أخطأت الهدف اليوم أكثر مما ينبغي يا أمير خلافاً لعادتك. - التفت شوباش إلى أخيه الأكبر مع ضحكة مزاح وسخرية.

- الإنسان ماهر في ما يتمرّس به يا شوباش، - أجاب مشقوه بدلاً من الأمير. - منذ متى لم يخرج الأمير إلى الصيد؟

- لم تكن عندي نية الصيد اليوم لولا إصرارك. - قال الأمير، - نحن غارقون

¹ مجنون.

في العمل. الحقّ يا مشقوه الشابان المحاربان اللذان تشاجرا ما أصلهما؟ وما الذي يتنازعانه؟

- لا أعرف يا أمير، ليسا من تابعي، قدان سيجبيك.

- تفضّلوا، تفضّلوا! أنتم ضيوف مباركون. - لم ينتبه الفرسان المندمجون في الحديث إلى العجوز طاطخ الذي يقفون على بابه. - لا أذكر منذ متى لم تخرج إلى الصيد يا أمير. حسناً فعلت إذ روّحت عن نفسك. ترجل الأمير الكبير وصحّبه.

- كيف تجري أمورك يا طاطخ؟ - ابتسم الأمير في وجه العجوز ذي الفك المنسحب.

- متى صرت بثلاث أرجل فالصحة تتراجع ولا تتحسن يا أمير. - حدّق العجوز الذي فقد أسنانه واختفت شفتاه، في الأمير وصحّبه. - هل الخبر الذي شاع في القرية صحيح يا أمير؟

- أيّ خبر؟ - انتفض الأمير برأسه متسائلاً: أيكون خبر مقتل رجل الدين ديمتري انكشف؟ - نحن لم نسمع شيئاً يا طاطخ.

- لا بأس إذن، ستسمعون، - تراجع العجوز عن السؤال.

- أكمل إذ بدأت يا طاطخ! - طلب الأمير الكبير من العجوز.

- بالله عليك أن تُعفّيني، ليس خيراً مهماً، ولم أصدّقه، - سحب العجوز كلامه نادماً على سؤاله، - لن يفعل قدان مثل هذا. ألن يحترم نفسه ويحسب حسابنا؟ يكفي تعائلُك معه يا أمير.

- ماذا جرى يا طاطخ؟ - قلق الأمير الآن.

- يتناقلون خبراً مفاده أنه طمع في الذهب الذي أمرّته بنقله.

- اسمع ما يقول هذا! - ابتسم الأمير، - هذا مستحيل يا طاطخ. قدان أحدُ أجنحتي. وأنت تعرف مقدار رجولته وإنسانيته.

- لا مستحيل في العالم يا أمير، - لم يوافق العجوز، - لا تشهد على ما لا تعرف حقيقته. أنا لا ألوم قدان. وهو من جهته يعاملني بلطف. ولكن الطريقة الوحيدة لإيقاف الشائعة هي اختبار صحتها. يقولون إنه أخفى في السقف الخلفي لبيتة كومة من الذهب فمُرّ بتفتيشه.

- يا والدنا! - جزع مشقوه، - نكون أهنا قدان إهانة شديدة إن فعلنا هذا.

- يا أمير، أنا رافقت قدان. - انفعل شوباش. أما كنتُ رأيته لو مدّ يده إلى الذهب؟ أيّ ابنٍ حرام أشاع هذا الخبر!

- إن كنتم تريدون تبرئة الرجل ففتّشوا! - شجّعهم العجوز ثانية، - إن تبين كذبُ الخبر - لتشهد الألهة على كذبه! - لحق العار بمن أشاعه.

- هذا صحيح يا طاطخ، - وافق الأمير الكبير الآن. - يا مشقوه وشوباش اذهبوا وفتّشوا المكان المقصود!

لم يخطر قدان بسوء لردد البتة. غير أنه كان مهموماً بالخبر الذي سيأتي به الرجلان. وكان يذرع أرض المضافة يُغالبُ النزق. يجلس ثم يقوم متوتراً. ينظر عبر النافذة ثم يعود إلى مجلسه.

عاد مشقوه وشوباش، حلّ مشقوه القماش الذي لُفّت به قطع الذهب. ووضعاها أمام ردد. نظر ردد إلى الرجلين الواقفين في حضرته شاحبين:

- لا أفهم، ولا يتقبل عقلي - رفع الأمير صوته، - فائدة هذه الكمية الضئيلة من الذهب. هل هو جائع؟ أم لا يجد ما يعيل به أسرته؟ - هيا يا شوباش، اطلب قدان إليّ!

ما إن خرج شوباش من المضافة حتى عاد:

- قدان قادم دون دعوة، حالاً.

سأل قدان وقد تغيّر لونه، لا يفهم مظهر الرجال الثلاثة في المضافة:

- هل هناك مصيبة ما؟

- وأكثر من مصيبة، - أجاب الأمير، - أهنّت نفسك، وأهنّتنا معك!

- ماذا؟ - احتاج قدان.

أشار الأمير بسبابته:

- وجدوا هذه القطع الذهبية في سقف بيتك.

نظر قدان إلى القطع التي على المائدة، ثم توجه بنظرات واجمة إلى الأمير:

- من وضعها استخرجها، لا علاقة لي.

- قل الحقيقة أفضل لك. - نصحه الأمير.

- يا أمير! - ارتجفت شفتا قدان، - إن كان هذا مقدار ثقتك فيّ فلا أريد أن

أبقى إلى جانبك يوماً واحداً. لا يعني كونك أمير البلاد أن أتحمّل أيّ تهمّة تُلصّقها بي. قِيّمت عملي كلّ هذه السنين على نحو حسن يا أمير. ولن أغفر هذا لأحد. - انصرف قدان من قاعة الإمارة.

ساد صمت مشؤوم في المضافة. وتبادل الرجال نظرات واجمة.

- يا ردد، - خاطب شوباش أخاه الأكبر باسمه المجرد ناسياً حضور مشقوه: هناك سرٌّ لا نعرفه في موضوع قدان.

- كيف كنت تريد أن نعرف سرّاً من لا يهمه إلا أن يدافع عن شخصه يا شوباش؟ - دان مشقوه سلوك قدان وكلماته المرّة.

- أليستما من عثر على الذهب في سقف بيت قدان؟ - زاد الأمير حدّةً، - كفى، دعونا نتوقف عند هذا الحد! - مارس منذ اليوم يا مشقوه مهمة قيادة الجيش. وأعيّن شوباش معاوناً لك. ومتى عقدنا مؤتمراً موسّعاً اخترنا قائداً جديداً.

لم تزرع قرارات الأمير فرحاً أو حزناً في نفسَي مشقوه وشوباش. خرجا من المضافة مطرّقين. وافترقا دون أن يتبادلا أي كلام.

II

سُمِعَت نصيحة تيمرقوه من الطرف الآخر وراء النار:

- الرجلُ لا يأكل رجلاً. من لا يعرف التمييز هو الكلب. ولا أقصد بهذا أن أشبّه أحدنا بالكلب؛ سنحترم أنفسنا. علينا أن يحمي بعضنا بعضاً يا مشقوه. أصاخ ردد السمع من فوق أمير الزبيخ الكبير زيكوشو. كان مستعجلاً على سماع رأي تيمرقوه الذي يضع فيه ثقته. تابع تيمرقوه: - مهلاً يا مشقوه. دعني أكمل ما بدأت. ليست معرفتي بقدان منذ هذا اليوم. كنت غلاماً يافعاً حين بدأ تيمرقوه يُخالطنا وهو صبيّ. ولا أعرف من يومها أنه ارتكب خطأ.

- وأنا لا أريد أن أتكلّم على سيئات قدان. - أجابه مشقوه، - ما أرويه هو ما حدث. وهذا صعبٌ تفنيده. أخرج شوباش من المكان المحدد الذهب أمام عينيّ. ولا أعرف في القرية أحداً يمكن أن يسيء إلى قدان. ثم أيّ مجنون يأتيك بالذهب الذي سيؤسّس به أسرة، ويخفيه في بيتك؟

- يا مشقوه، الحاقد عليك يدفع مال الدنيا إن عرف أنه يستطيع إيداءك. وهناك أناسٌ من هذا القبيل. وأنت تعرف أن من لا يتورع عن العار لا صديق له. ولم يأت يوم على قدان في طفولته وشبابه إلا وحوله الكثير من الأصدقاء. كان الأمير الكبير يُصغي مستغرباً إلى الدفاع المستميت لتيمرقوه عن ابن قريته: الربّ يوحى إليّ بأن بعضهم يحاولون زرع الشقاق بيننا.

- سأقول لك إذن ما أتوقّعه،- توجه مشقوه بقامة ممتلئة متينة إلى تيمرقوه: لا تظنّ أي أحسد تيمرقوه على أنه احتل منصبي في قيادة الجيش. كانت العَصّة الوحيدة عندي وقتها هي طرُحُ الأمير على المؤتمر موضوع تغييرِ دون أن يخبرني. المنصب يُعري الإنسان حتى تكاد لا تعرفه. وكلما ارتقى في المنصب زاد سلوكه سوءاً.

وافق الأميرُ الكبيرُ مشقوه في سرّه: " أنا محقّق في أيّ لم أخبر مشقوه سلفاً بإبعاده عن منصبه. وهو مُحقّق في شكواه. وفي ما قاله تيمرقوه حكمة. أكثر الناس يفقدون عقولهم مع المنصب. ولكن من يحترمون أنفسهم، ويساوون أشخاصهم بالآخرين يحافظون على انتراهم "

- يا أمير، أصحابك يتبادلون حديثاً عجيباً. - همس في أذنه الأمير زيكوشو مستاءً مما يسمع.

- لا تنظر إليهم، دُعهم يعبرون عما في قلوبهم، تظاهروا بأنك تحادثني.
- وفي كلامك جانبٌ من الصحة، - أصلح تيمرقوه من وضع فرو الثعلب على كتفه العارية، وامتد بجسده نحو مشقوه، - ليسوا قليلين من تُفسد المناصب عقولهم، ولكن قدان ليس منهم. لم يطمع في مُلك أحد حتى بمقدار إبرة. فيه رجولة وصلابة. لا يسمح لأحد كائناً من كان أن يهينه. حقاً لا أوافق على جوابه للأمير، تخلّى عن حلمه. الغضب طبعٌ سيء. على المرء في مثل هذه المواقف أن يستقصي معلوماته بعيداً عن الشتيمة والاحتجاج العنيف. وإن لم يكن يعرف فليُعرف. ليس صفقُ الباب من الرجولة.

- يا مشقوه، لابد أن الملابس جفّت؛ ألا تفقدوها! - تدخّل الأمير الكبير راغباً في إنهاء نقاش الرجلين.

- جفّت تماماً يا أمير، - اختبر مشقوه بأصابعه الملابس المعلقة بحبل قريب من

الموقد. وجلب ملابس الأمير الكبير ووضعها أمامه.

ما إن دخل ردد المتوجه إلى أنابه بصحبة عدد من الفرسان أرض الزبخ حتى فاجأهم المطر العاصف فبلل كل ما يرتدونه. ولما رأى بعد بضع غلوات أمير الزبخ ومرافقيه دون أثر للبلل استغرب الأمير ردد:

- مطر الصيف غير عام، ولكن لا أتذكر مطراً خريفياً من هذا النوع. ألم يجد المطر العاصف غيرنا يبلله؟! بل لم يهللنا حتى نتغطي بأكسيتنا.

- كأن الصيف عاد يا أمير، وما تزال الفرصة أمام الخريف. - هزّ الأمير زيكوشو رأسه وهو يتفحص الأمير الكبير.

تمدد ردد مستمتعاً في فراش المضافة المريح، غير أن النوم الذي كان يغالبه في أثناء جلوسه إلى الموقد هرب من عينيه. أدخل وقوف تيمرقوه بقوة إلى جانب قدان شكوكاً إلى نفسه. لو عرف أن بضع القطع الذهبية - أبادها الآلهة! - ستثير كل هذه البلبلة لما أتى على سيرتها. كان اختلى به وأحرجه وأعادته إلى الصواب. ولكن كيف كان سيحكم ما انتشر في القرية؟ لو فعل هذا لعيّروه بأنه هو وحاشيته متواطئان، ولتفرّق من يستخرجون الفضة والذهب بكل مشقة من الأنهار والصخور الجبلية حاقدين علينا.

كان الأمير ردد يبرئ نفسه بسلوكه: " أفهم أكثر من غيري ما تعني خسارة دولة ناشئة قائد جيش مثل قدان. ولكني لن أغفر لأحدٍ ما لن أغفره لنفسه. على كل إنسان، سواء كان قائد جيش أم جندياً أم ربة بيت، أن يتحلى بالصدق والاستقامة. وها أنا دخلت إلى غرفة أبنار قبل أن أنطلق فرأيتها تُخاشن الخادمة، فأخرجتُ الصبية من الغرفة وعاتبت المرأة: " لم تتكلم أمنا طوال عمرها بصوت عالٍ إلى أحد في الغرفة أو في أرض الدار. وأنت عايشتها كابنتها، وتعلمت منها، وظننتُكِ صرّت مثلها " وأظني ألزمتها خجلاً. ولولا أنني على طريق لقسوتُ أكثر. ملاحظة مشقوه صحيحة: من يتقلّد منصباً يبدأ بالترفع. كنت أرى أبنار حكيمة فلما رحلت أمانا، واستلمت مكانها بدأت تتغير. وأنا لن أقبل منها هذا... "

انقلب ردد إلى جانبه الأيمن رغبة في النوم. لا يزال عليه أن يسافر إلى الساحل. وما إن يخطر له هذا حتى ينتصب أمامه ديمتري رجل الدين.

"نكبوا الرجل الممتاز، وتسببوا في أذى كبير لنا. - تنهد الأمير الكبير من أعماقه، - قتل أحد الأشرار الرجل الحكيم الكبير الذي كان يأتينا بالخير. لن يزور قبره أحد، ولن يعرف أهله مكان قبره. ولا يعرف أحد إلا الآلهة ما اغتلى في قلب تيمرقوه وهو يدفنه في داره. ما الذي دفع ديمتري إلى التوجه إلى بيزنطة تاركاً فيودوس؟ ربما ما كان يجد تصريفاً للتجارة التي امتهنها إلى جانب الدين. ثم لا بد أن من يرسلونه للتبشير بالمسيحية بيننا يدفعون له بسخاء، وإلا لما عاش بيننا منفقاً وقته على التبشير أكثر مما على التجارة. وفي جميع الأحوال ألقى قاتله ناراً حامية بيننا. لو أننا أمسكنا بطرف خيط لجعلتهم يعثرون على قاتله ولو لجأ إلى تحت الأرض..."

كان ردد يكاد يغفو حين تاناهاى إلى سمعه ضجيج المضيف. ومع ذلك كان ارتدى ملابسه وسلاحه حين دخل المضيف زيكوشو إلى الغرفة.

- لا داعي للاستعجال يا أمير. سننطلق بعد الفطور، - قلق زيكوشو لمنظر ردد، - كأنك لم ترتح؟

- لا ملامة على الفراش؛ الآلهة منحوني قلباً لا يهدأ. - غفوت وأنا أفكر في نقاش الرجلين العشية.

- لماذا لا تستريح إذن اليوم يا أمير...

- لا يا زيكوشو، لا، - قاطع الأمير الكبير كلام المضيف. - أنا معتاد على الأرق.

انضم فرسان أمير الزيخ إلى فرسان الأمير الكبير فتقاطروا مساءً في مجموعة كبيرة إلى ساحل البحر الأسود. كانت أواخر أشعة الشمس تنعكس على البحر الصافي حمراء - سوداء. والفرسان ينظرون صامتين من وراء البحر شاعرين بضآلتهم أمامه، ونظرات ردد أبعدّها عبوراً إلى ما وراء البحر. تذكر كيف أركبوه السفينة وعبروا به وهو يحتج رغم كونه مقيداً. وأوصله هذا القلب الذي لا يكلّ ولا يملّ إلى مكان أسره في بيزنطة إلى الجنوب الغربي. وألقى من جديد نظرة على باناتيد الشره، وكوستاس الرحيم، والمصارعين الوقحين الخارجين عن طورهم. ولم تكن القسطنطينية تفارق مخيلته. لو وجد نفسه بإرادته دون قيود عليه في هذه المدينة الكبيرة الغارقة في المديح لما رجع. ثم تجاوز الأسوار الحجرية

العالية للمدينة الصغيرة الرشيقة على ساحل بحر آزوف التي سلبها الروسيج من الأديجة، فدخل إليها. وبدأ يعدّ المراكب في عُرض البحر: " لو بقيت توم - تقاش على حالها كما حين كانت لنا، - تنهد ردد من الأفكار الطموحة - لكانت السفن تأتي إلينا من كل مكان، وكنا نختلط بغيرنا، والعالم يحترموننا و يقيمون لنا وزناً. ولكن من أين لنا مثل هذا الحظ؟ حتى الدولة التي ألفناها يتصيدونها لتفكيكها... "

- يا أمير، الأفضل أن نصل إلى القرية قبل أن يهبط الظلام. عطف ردد وجهة حصانه حين سمع الأمير زيكوشو، واتخذ الطريق الملتف على الساحل. قضوا الليلة في القرية المتناثرة في المضيق الجبلي، ثم اتخذوا طريقهم على الساحل من جديد والشمس على يسارهم. ووصلوا إلى المضيق غير الكبير قبل أنابه ببضع غلوات. لم تكن هذه مثل توم - تقاش. السفن هنا أصغر وأقل عدداً. ولم يكن يرسو هنا إلا من له شأن مع الأديجة.

استقبل الأمير بالترحيب رجلٌ واسع العينين، أبيض الجفون.
- السفن أنت من هنا، - أشار الأمير زيكوشو بطرف سوطه.
- الاثنان على اليمين للأبحاز. والتي إلى جانبيهما أنت من بيزنطة.
- أين اتجه من جاءت بهم السفينة البيزنطية؟
- كلهم استأجروا عربات واشتروا أحصنة وتوجهوا إلى أنابه.
- أليس بينهم من توجهوا إلى القسوغ؟ - سأل الأمير ثانية.
- لا يا أمير، أبلغوني أن سفينتين ستصلان بعد ظهر اليوم أيضاً. إن كنت تنتظر أحداً ففي إحداها.

- وماذا شحنت السفن؟
- أقمشة وملابس وأكسية ساق، وأشياء صغيرة أخرى. - ضحك حارس المضيق حين بدأ يعدّها، - أفرعْتُ تاجراً رومياً خيفاً طويلاً القامة جاء بتسعة كلاب صيد أو عشرة.

- ماذا فعلت به؟
- قلت له إن عليه أن يدفع عن كل كلب ضعفين ونصف مما يدفع عن الرجال فارتعب. وناقشني طويلاً: " أخبرتُ أن أمراء الأديجة يحبون هذه الكلاب

فجئتهم بها. وأنت تسلخ جلدي بالضربة عليها" فأعدت عليه ما قلت لي: "هذه ليست كالبشر، لا تتكلم، إن كانت تحمل أمراضاً مُعدية جلبت لنا مصيبة". ولما يغس مني أعاد الرجل الكلاب إلى السفينة. وبعد قليل بدأت تهرّ وتنبج. فأشفقت عليها وصرفتُ الرجل النحيف إلى أنابه.

- لا تغيّر الأنظمة التي قررناها بداعي الشفقة الزائدة، وإلا عزلتُك. - تظاهر الأمير زيكوشو بالغضب، - ليست الكلاب مشكلة، ونحن سنظلّ على أنابه، وإن لم نعد قبل وصول السفن البيزنطية فالمحتمل أن ينزل من إحداها رجل رومي اسمه كوستاس؛ اطلب منه ألا يغادر المضيق أبداً طلب منه ذلك.

- سأبقي لك هذا يا أمير، وإن رفض أمرت رجالي باعتقاله. - نظر الرجل الواسع العينين إلى الأمير زيكوشو معتداً بسلطته.

- لا تُسبّ معاملة، قلْ له إن الأمير ردد ينتظره فحسب، وسينتظرنا بسرور. أفهمه الأمير زيكوشو أن الرجل الرومي ليس غريباً.

بعدها ساروا قليلاً لاحتاج قلب ردد، ونادى رفاقه:

- حصاني يود أن يجد نشاطه، دعونا نجرّ ولو غلوة.

جرت مجموعة الخيل يتقدمها حصان الأمير الكبير. حاول نطاي مجارة ججان. ولكن حصانه ضعّف حتى اختلط بأحصنة الآخرين. ثم عادت الخيل إلى الخبب.

دخل الفرسان إلى وسط المدينة والشمس تكاد تتوسط السماء. وقف الخدم في استقبال الفرسان فتوزع الآخرون على مجموعات. اصطحب الأمير ردد ثلاثة شبان أقوياء بالإضافة إلى مشقوه وججان. واشترى لولديه صافرتين وبعض الحلوى. خرجوا من حشد الناس واتجهوا إلى السوق فالتقوا بالرجل الرومي الذي نجا من حارس المضيق ينادي على كلابه التي لم يبق منها إلا اثنان.

- يجب أن تكون الكلاب من عرق ممتاز، مظهرها جيد، - قال الأمير الكبير لمن وراءه وتابع سيره.

اقترب منهم في طرف السوق رجل رومي معه غلامان مقيدان بجبل قصير، أحدهما في حدود العاشرة والآخر أكبر قليلاً. وطرف الحبل بيد الرومي.

- يا ججان، أعد هذا الرومي حالاً! - احتاج ردد من المنظر.

اقتيد الرومي ممتعضاً إلى ردد:

- أين تقود الولدين؟

- هذان مُلكي. اشترَيْتُهما تَوّاً.

- والآن لم يعودا لك. - صرخ ردد على التاجر الرومي. - خذْ ضعفي ما دفعْتَ ثَمناً لهما. ولا أريد أن أراك ثانية نَحْاساً!

لم يعدّ النخاس ما أعطي له. وانصرف فرِحاً بنجاته من الرجل الضخم الواقف أمامه.

- ما الذي أتى بكما إلى هنا؟ - سأل ردد الصبيين منتظراً جوابهما وإن انتبه إلى ما جرى لهما.

- لم نأت بإرادتنا اختطفونا، - أسرع الأصغر بالجواب، وانفعل الأكبر، ومدّ يده إلى عينيه.

- كفى؛ أَلست رجلاً! - تظاهر ردد بأنه ينهره. - ومن اختطفكما؟
- وكيف أعرف؟ تنهد الولد الأكبر، - كنا نجتمع الكستناء ففاجأنا رجلاَن وحملانا تحت الكساء.

- هل تستطيعان العودة وحدكما إلى قريتكما، أم أرسل معكما؟
- ليست قريتنا بعيدة. نعرف العودة إن أطلقْتنا. فرح الولد الأصغر.
مشى الولدان بضِع خطوات ثم جريا.

- هل سنشهد يا مشقوه أنفسنا يوماً وقد أصبحنا بشراً؟ - هزّ الأمير الكبير رأسه وهو يتابع الصبيين، - هل هناك ما يفوق بيع طفل أحدهم في قلة الشرف؟ - توجه ردد إلى الأحصنة التي تباع على جانب من السوق: - دعونا نسأل عن الأسعار، القسوغ أيضاً عندهم قطعان من الخيل. إن كان في العملية فائدة فليأتوا بما إلى هنا وإلى طوابسه وغيرهما؛ ما رأيك يا ججان؟ - دنا ردد من الحصان الكستناوي العالي وهو يلتفت إلى صديقه. وفَتَش صدره وخاصرته وقوائمه الرفيعة. ولما استدار ونظر في الاتجاه الآخر تسمّرت نظراته القلقة على اليد الكبيرة على ظهر حصان أزرق:

- فاجئوا صاحب اليد التي على الحصان لنمسك به!

اتجه مشقوه وججان مع رفيقين لكل منهما إلى جانبي الحصان. وانحنى ردد

ووقف وراء الحصان. وتعرّف على الخاتم الذي عليه صورة رأس الحصان.
رأى زيرار ردد فارتعب. استدّار وهرب بأقصى سرعته. ولكنهم أمسكوا به بعد
بضع خطوات، وقيدوه.

- ها قد نفعنا الحبل الذي كان الصبيّان مقيّدين به يا أمير. - مزح ججان.
كان زيرار واقفاً يتنفس بصعوبة أمام الأمير الكبير وقد احمرّ وجهه فصار من
لون شعره. يدفع الرجلين اللذين يمسكان به بذراعيه.

- هيا ارفع رأسك ودعني أرى وجهك الشرير. - وضع ردد طرف السوط
تحت ذقن زيرار. أما طلبت منك أن ترفع رأسك! دعني أر عيني الكلب.

- ماذا تريد أن ترى فيهما؟ - نظر زيرار من طرف جبينه إلى الأمير وهو ما
يزال مُطرقاً. - ألا يعجبك أنهما ليستا كعينيك السوداوين؟

- سأجعلك تعترف بما يعجبني وما لا يعجبني ما إن نتجاوز السوق. - أجاب
ردد باختصار وانصرف. وعاد مشقوقه وججان إلى جانب الأمير، وزيرار
وراءهما.

عاد الأمير ردد وصحبّه إلى خيولهم وزيكوشو وتيمرقوه يغادران السوق. فاستغربا
ما يريان.

وأمر ردد:

- يا ججان اربط هذا المهرج بحبل الحصان واجعله يمشي خلفك!
ظل زيرار طوال الطريق من المدينة، إلى حدود الزبخ، يتلفت إلى الغابة متأملاً
أن يتبعه صديقه من الموط. كان يتوقع أن يخرج من وراء إحدى الأجمات "أنا
مجنون وإلاّ فمن يهاجم مجموعة خيل معرّضاً نفسه للقتل؟ - تسرب الأمل
المحدود من قلب زيرار. - وقعت في الفخ وأنا أتبحج. والآلهة أداروا لي
ظهورهم. ما أكثر ما نصحتني أمنا ولكن لم أستمع إليها: "كفاك يا ولدي وإلا
وقعت في المصيبة ونكبتني. دُع رأسك الفارغ يفكر في عاقبة الدك ونخلش
الأصهب وشبهه..". ولو كان من وقعت بين أيديهم لا يعرفوني لهانت، كنت
اختلقت قصةً ما. هؤلاء يعرفون كل شيء عني... أيقتلوني على محاربي إياهم؟
هذا ما جناه عليّ ذهب الأمير أبج..."

ترجل الأمير الكبير ردد، ففعل مثله الآخرون. وربطوا زيرار إلى الشجرة. نظر

ردد مرة أخرى إلى الخاتم ذي رأس الحصان في إصبع زيرار. وقال على مسمع من الجميع:

- يا بن حقار، لو اكتفيت بجرائمك في القرية، وهروبك إلى أمير الزبخ، ورفع السلاح في وجهنا، لقلت إنه ما يزال شاباً طائشاً، وأمامه متسع من الوقت ليبلغ الرشد، وتوقف عند جلدك بالسوط، وأطلقتك، ولكنك أخطر من الكلب الغدار.

- ماذا تعرف عني أكثر من هذا؟ - فاجأ زيرار الحضور، - أنت من حملي على رفع السيف في وجهك. هاجمت والدي وطرده من القرية. ثم قتلته. وكذا فعلت مع نخلش وشنبه. وأهنتني في دار يمزش الحداد بوقوفك مع ججان. تملكون السلطة فتظنون أن أي شيء تفعلونه يُعَفَّر لكم. لم أنس شيئاً من هذا. - الحقد يأكلك. - ابتسم ردد، - كان عليك أن تجاهنا نحن بهذه القضايا، لا أن تقتل الناس الأبرياء. والآن اعترف من أين أتيت بالخاتم الذي في إصبعك! - اشتريته، ألسنت حرراً في أن ألبس خاتماً؟ - نظر زيرار في العينين الغاضبتين للأمير دون أن تطرف له عين.

- يا ججان، اقطع الإصبع التي تحمل الخاتم وانزعه منها! - أعلن ردد فجأة. - لا، لا، سأنزعه بنفسى... - صرخ زيرار. وفي اللحظة أسند ججان الإصبع إلى الشجرة وقصّها. ونزع الخاتم الذهبي وسلّمه للأمير.

- هل صرتم وحوشاً؟! هل ستأكلونني؟ - بدأ زيرار يصرخ دون وعي. - اعترف من أين جئت به! أعرف من أين ولكن أريد أن أسمع من فمك. - مرة أخرى أمر ردد ججان: - اقطع الإصبع المجاورة لها! - لا، لا تقطعها!.. نزعت من إصبع الرومي ديمتري. - أنت من أجرم بحقي يا عديم الشرف؟ - هجم تيمرقوه على زيرار مشتعلًا غضباً، - قتلت البريء وجعلت الناس يتهموني! - وأنت أيضاً لست بريئاً. اشتكى زيرار وهو يشير بيده التي تنزف دمًا. - كنت ضربت الأمير أبج بالسيف لولا أنه هرب. وهجرت ألفتنا مؤيداً ذلك الرومي. لا تظن أن الأمير أبج سيغفر لك هذا.

فغر مشقوه وججان والأمير زيكوشو وآخرون أفواههم دهشة مما سمعوا بشأن الداعية الرومي. وأكثرهم استغراباً هو مشقوه: "إذا كان يعرف أنه قُتل فلماذا طلب منا أن نبحث عنه؟.. لا أظنه كتم الموضوع دون سبب وجيه..."

- من كان معك؟ - سأل ردد ثانية.

- صديقي كَتَف الرومي، وأنا قصفت رقبته.

- وما شأنك أنت بمن يمارس دينه؟

- لست من يعترض عليه، بل الأمير أبج الذي يرفض أن يخالطكم رجال دين أو تجار. ألا تعالجون إصبعي اللتين تنزفان دماً؟ الألم ينخر عظامي.

- لن يكون أكثر مما تسفك أنت من دم. - أنت لم تاتِ على رجلك إلى أنابه؛ ماذا كنت تنوي بالحصان الإضافي؟

- كان الأمير أبج أرسلنا كي نختطف من ينزل من السفن قادماً إليكم.

- وأين ما سلبتموه من الداعية الرومي؟

- بعناه هذا الصباح في السوق.

- انتهت أسئلتي أنا. - تعال يا تيمرقوه ومشقوه، - توجه ردد إلى تيمرقوه وهو منصرف بعدما ترك رفيقين لججان: - ما من سِرٍّ لا ينكشف. تحقّق صدق ما قلت لك. كان الخاتم وبالأعلى ابن حقار. كأن الآلهة لعنتنا يا تيمرقوه؛ ما نراه ليلاً ونهاراً هو الدّم والحرب، وصراخٌ بلا تسامح. نظن أنفسنا على طريق مستقيم في حين يرانا من يراقبنا على طريق أعوج.

- ما العمل؟ تقابل بالقوة من يصارعك. لو فكرتُ مئة مرة أو ألفاً لما تخيلتُ أن تأتينا المصيبة من توم - تقاش يا أمير، - نظر تيمرقوه أيضاً في وجه الأمير مستغرباً ما يرى. وفي اللحظة نفسها سُمع صراخ الموت من زيرار. تظاهرا بأنهما لم يسمعا، وتابعوا حوارهما.

- ليتنا لم نشهد مصيبة أعظم من توم تقاش! - أجاب ردد مُضْمِناً جوابه الكثير.

أوقف الأمير ردد الفرسان حين وصلوا إلى الطريق الساحلي، وأمرهم بحزم:

- لم يجر شيء، ولا رأيتم شيئاً اليوم. - سأعاقب أيّ شخص تصدر منه كلمة واحدة. هل فهمتم؟

- نعم يا أمير، فهمنا. - أجاب الفرسان بأصوات مختلفة متقاطعة.
لفت وقع حوافر الخيل انتباه الرجل الأسمر الطويل على طريق المضيق. ولما تأمل
كوستاس الفرسان تعرّف على ردد. فتقابلا سعيدين باللقاء:
- قدّم واجب العزاء لججان لأن كولس فارق الحياة منذ مدة، - قال ردد
لصديقه الرومي.

نظر كوستاس حزناً إلى ردد، وصافحه:
- أنت أول من أعزّيه يا ردد، كان كولس بمثابة جدك أنت أيضاً.
- رضي الآلهة عنك! - وودّعت والدتي أيضاً.
- ما أكثر مصائبكم! جعلها الله خاتمة الأحران يا أمير. حزنْتُ جداً لهما. -
صافح الأمير ثم عانقه.
دنا الأمير زيكوشو ومشقوه وججان وتيمرقوه من الرجلين. وقال ردد بعدما
عزى كوستاس ججان:
- أود أن أتحدث إلى كوستاس على انفراد. ليتك تأمر يا زيكوشو بإخلاء غرفة
لنا.

جلس الرجلان إلى طاولة مربعة. وضع ردد الخاتم الذهبي بينهما. ألقى كوستاس
نظرة واجمة على الأمير، ثم أخذ الخاتم حذراً. ولما رأى صورة رأس الحصان امتّقع
لونه:

- الآن أنا أعزّيك يا كوستاس. لا أستطيع إبلاغ أسرة ديمتري حزني عليه.
أوصل إليها الخاتم ذكرى له.
- ماذا جرى له؟ - سأل كوستاس متلعثماً. - لا أعرف أن ديمتري كان
مريضاً.

- ديمتري مات مقتولاً. أرسل الأمير الذي حاربنا قاتلاً مأجوراً.
- وما مأخذ الأمير عليه؟

- الكلب البريء يضيع مع الكلب المذنب يا كوستاس. نحن هدفُ أبج. لا
يتحمل تجارة ديمتري معنا ولا دينه. يقاتل بلا وعي من أجل منعك وغيرك من
الغرباء من الاتصال بنا. وأنت لم تكن بعيداً عن دائرة الاستهداف. كان
مأجورو الأمير يترصدونك.

- أين هم؟ - قلق كوستاس.

- أحدهما قُتل، والآخر لم نعرف مكانه، اختفى عن أنظارنا. لا تقلق إن كنت تنوي التعامل معنا. سيحرص عليك أتباعي. أنا استقبلتُك مع رجاء لي. أتأمل منك أن تقرّبنا إلى التجار القادمين من بيزنطة. جمعنا الكثير من الذهب والفضة بفضل الآلهة. وعندنا ما يكفي من المحاصيل إن كان من يرغب فيها، والكثير من الجلود والعسل والحديد الخام والفواكه.

- أنا لا أقابل تجار بيزنطة فحسب، أصادف تجاراً من دول أخرى. - عاد كوستاس إلى وعيه، - لن أدّخر جهداً، سأقف إلى جانبك بقوة وعقلي ما دمت أسست الدولة التي كانت أمنيتك. والآن أود تقديم نصيحة لك يا أمير: إن خالطتنا وهم يعرفونك في بيزنطة أنك مؤسس دولة فستجد كثيراً من المعلومات تتعلق بإدارة شؤونها وترتيب أمورها المالية والخارجية وغيرها. الروسيج لن تستفيد منهم الكثير. لم يخطوا إلى أبعد منكم. الإخوة يتحاربون. لم يؤسسوا بعد دولة حقيقية.

- قدّمت لي نصائح جيدة يا كوستاس إن أمهلونا إلى وقت تحقيقها. - فرح الأمير الكبير لإخلاص صديقه له. - خمنّت الأفكار التي صارت هوماً لي. - والآن ها أنا عزّفتك على أمير الزيوخ. سيعتني بك ويحرص عليك. ونحن أمامنا طريق طويل. ستزورنا في رحلتك القادمة. أتأمل أن يكون معك رفاق أيضاً.

III

كان لشوباش هموم تمزق قلبه. كلما فكر في دكابس صعد الدم إلى رأسه وهاجت جوارحه، فذرع أرض الغرفة لا يطيق صبراً، ويحدثه قلبه أن يسرع إليها متجاهلاً أي رادع يمسكه عنها. ولكن قوة خفية تغلبه فتوقفه عن نزوته.

في الشهر الأخير ظهر لشوباش ما يمنعه عن زيارة دكابس. لم يكن ججان في البيت حين عرّج عليه، ولكنه التقى بزوجه بزابز تودّع صديقتها لاشين. عادت بزابز إلى البيت ولم يتبادلوا إلا بضع كلمات حين سمعت بكاء ابنتها. وتأكد بعينه من استحقاق لاشين لثناء دكابس عليها، فزاد ميله إليها. الوجه المتناول أبيض صافٍ، والنور يشع من عينيها العسليتين. ولم يكن في قوامها وطباعها ما

ينفرك منها.

- لا معنى لوقفتي، لن تعود بزباز، عليّ أن أنصرف. - التفتت لاشين إلى أرض الدار، وأعلنت بصوت رفيع.

- أود أن أزورك يا لاشين ولكن لا أرى هذا مناسباً قبل انقضاء عام على رحيل والدتنا. - لاحق شوباش الفتاة المنصرفة بكلامه.

لم تردّ لاشين. سرت ضحكة خفيفة على أطراف شفتيها، واحمرّ خداه المستديران.

- لا تحتجي بأيّ لم أفاتحك برغبتي فتتزوجي من غيري. - تابع شوباش. كانت كلمات الحب التي وجهها شوباش إلى لاشين تردعه كلما اشتهى دكايس. ولكنه يتصور مهما تظاهر، ومهما كان الوازع، أن لا امرأة في العالم كنتلك التي كانت باكورة خبرته الرجولية. لا يفارق خياله خصرها الرقيق، ومفاتن جسدها الأخرى، ووجهها الجميل، ويضمّمها إليها حتى ليشعر بالدوار. والآن حين تأمل شوباش القريبين من قلبه لم يكن من اختاره شوباش ليزوره امرأة ولا فتاة، بل قدان. غلبته الرجولة، وفكر وحده حين سافر أخوه الكبير: "إن لم تجد محادثاً ضاق صدرك وغلبك الملل حتى لو كنت في الجيش. يحدثني قلبي أن قدان بريء. لا شك أن التهمة التي ألصقت به أهّمته، ولا بد أن الجميع، بمن فيهم الجيران يتجنبونه. لن أستطيع إزاحة الصخرة التي على قلبه، ولكن كيف أخففها عنه؟ عاد إلى قريته مغلوباً بالإهانة، وهكذا تتزايد الأقاويل عليه..."

علق شوباش الزمام على المربط، ودخل دار قدان. وقبل أن يصل إلى باب المضافة خرجت ربة البيت من المطبخ تحمل طستاً من النحاس مليئاً بالصحن. تجاهلت شوباش، وأسرعت نحو البيت. قال شوباش لنفسه وهو يفتح باب المضافة: "قدان ينقذ عهده، زوجته في مزاج سيء، يتجهزون للهجرة".

التفت قدان على صوت الباب:

- تفضّل يا شوباش، - استراح قليلاً، وتابع بوجه حزين: - من تريد أن ترى؟
- ومن غيرك؟ - اصطنع شوباش ابتسامة ومازحه: - كأن صوتك ضعيف.
- ألم تعرف هذا؟ متى ضاق القلب ارتخى الصوت. - أشاح قدان برأسه دون

أن يدعو للجلوس. - أنت أول من وطئ داري بعدما اتهمني الأمير بالسرقة.

- وما رأي زوجتك؟

- وماذا سيكون رأيها، تستعد للرحيل. هي الأخرى قاطعها الجميع. وهي غاضبة جداً لأنني لم أُنح لها بسبب خروجنا من مزبه. وأولادي متشبثون ببيتهم.

- ليس تصرّفك صحيحاً يا قدان، - نظر شوباش إليه نظرة عتاب. - إن فعلت هذا شئت بك أعداؤك. وزاد كلام أهل القرية عليك. أطعني ولو كنت أصغر منك فاسمع كلامي. أنت وأنا نعرف أنهم اتهموك ظلماً.

- اجلس لحظة! - أشار قدان حازماً إلى المقعد. وجلس بعدما جلس شوباش. وضع الإبهام على طرف السبابة وأبرزهما: - أدعو إلى الآلهة أن لا يمنحوني يوماً إضافياً من الحياة، ويحلّصوا أسرتي مني إن كنت مذنباً بهذا القدر. لست مذنباً ولكني لا أستطيع أن أعرف من الذي يريد أن يلوّث سمعتي.

- أصدّقك يا قدان. لولا ثقتي فيك لما تجاوزت أخي الأكبر وجئتك. - كان شوباش يبحث متلهفاً عن الكلمات التي تهدئ بال الرجل البريء الذي يأكله الشعور بالإهانة. - الدولة الناشئة تحتاج إليك. - الأمير الكبير ردد، ونحن والجميع محتاجون إليك. اضغط على مشاعرك، وأبعد الإهانة.

اغرورقت عينا قدان. تنفس وهو يطم قامته المتينة، ونادى الزوجة من الباب الداخلي:

- اتركي ما بيدك، لن نهاجر! - ابتسم شوباش الآن قليلاً. - سأصارك إذن بما توجّست منه، كل شيء يخطر ببال الإنسان متى وجد نفسه في ضيق. تخيلت أن هناك غاية خفية وراء إرسال الأمير لي في مهمة إلى مناجم الذهب والفضة. وصرت سارقاً حال عودتي منها.

- لا يا قدان، - عبس شوباش، - ردد، كما تعرف، سليم الطويّة، صادق. ترى كيف جرى الأمر. بدا كأن الكذبة التي أبلغوه إياها تحقق صدقها.

- لا فائدة يا شوباش في مزيد من الكلام في هذا الموضوع. ولكنك أرحت بالي، ودكّرتني بما أخشى منه من جهة القرية.

- وما هو هذا؟ - نظر شوباش مرتعباً في وجه المضيف.

- المطر الذي لم يهطل على القرية إلى الآن سيبدأ قريباً معوّضاً تأخره. وسيتبعه

الثلج. متى أضعف ماء المطر الصدع الذي حدث في الضفة الشمالية لنهر بشده فسينزل حتى يسد مجرى الماء. ثم أين سيجري نهر بشده؟ سيفيض على القسم المنخفض من القرية، ويجرف الأسر التي تعيش هناك.

- كيف تريدنا أن نقاوم النهر؟ - سأل شوباش يائساً.

- سنبنى جداراً حجرياً على طول قاع النهر. - شرح قدان الخطة التي رسمها منذ زمن بعيد. ولكن الأفضل أن نعرضها على أحد المسنين لاختصار الصعوبات. لو كان المرحوم كولس حياً لأجابه حالاً. ما رأيك في طاطخ؟

- هو الآخر رجل حكيم. خير الكثير من هذه القضايا.

- تعال إذن، لن يُفيدنا، على رأيك، أن نحرد كالأطفال. لن يقوم عنا أحد بأعمالنا - نهض قدان وقد عاد إليه صفاء قلبه وإن لم يعد إليه صوته.

ارتعب طاطخ حين رأى قدان دخل داره برفقة شوباش؛ ليس خوفاً بل حياءً. ونهر نفسه نادماً على أنه كان أبلغ الأمير الكبير بالخبر المزعج، وهو العثور في سقف بيت قدان على الذهب. " يفلت الكلام من اللسان فيصيب الرأس. أتدخل في ما لا يعني وقد صرت عجوزاً ضئيلاً. ماذا أقول الآن للرجل، وكيف سأنظر في وجهه؟ "

ارتاح قلب طاطخ حين رأى قدان طلق الوجه.

- لن ندخل البيت يا طاطخ، - بادر قدان المضيف، ثم نظر في وجهه الشاحب، وأعلن مراده: - كنا نريد استشارتك في مسألة، هل أنت متوَعك؟ أرى وجهك شاحباً.

- لا شيء من هذا يا قدان. إن كنت مفيداً رافقتكم إلى أي مكان. - أسرع طاطخ بالتعبير عن استعداده.

- إلى مكان قريب جداً، شمال القرية فحسب. يُخشى أن تنزل من الجبل صخرة أكبر من بيتك بثلاثة أضعاف أو أربعة، فتغلق مجرى النهر. ليتك عاينت الموقع.

- بكل سرور. وحصاني جاهز في الإسطبل.

أكد طاطخ بعد معاينة الجبل المطل على النهر صحة توجُّس قدان. كانت الصخرة الكبيرة انفصلت بكاملها عن الجبل. ولم يبق شك في أنها ستنزل متى

حفر ماء المطر تحتها.

بدأ الرجلان بعدما أوصلا طاطخ إلى باب داره في ترتيب العمل الطوعي الضروري: توجه قدان إلى الحي الشمالي، وشوباش إلى الحي الجنوبي، لاستنفار كلّ لابِسِ قبعة في مزبه.

كان ما يبلغه شوباش لكل باب يطرقه واحداً:

- لا نميز كبيراً من صغير، ليحمل كل واحد فأساً، ومن عنده عربة ليجهّزها، تعالوا في الصباح إلى العمل.

مرّ على بيت أدشس الذي كان غائباً. قالت له والدّة الصديق بنبرة لا تميّز جدّها من هزلها:

- يا ولدي، ليبس سكان الوهدة السدّ، ما علاقتنا نحن بالأمر؟

- يا أمنا، متى ضربت ثور الدار اهتزّ قرن الثور البري. - أجب شوباش بشيء

من الخبث، - ألا تتألم قلوبنا، أنت وأنا، إن رأينا أهل قريتنا يجرفهم الماء؟

- نعم يا شوباش، نعم. أنا قلت ما قلتُ اعتباطاً، ولن أستطيع أن أ منع صديقك ولو حاولت. - تراجع العجوز: أقول هذا لأني أخشى أن يكون خارج طاقتكم.

- سنزحج الجبل يا أمنا إن تعاونّا. - كان جواب شوباش حاضراً هذه المرة أيضاً.

دنا شوباش من دار لاشين مستحيياً. استقبلته أم الفتاة.

- أولادنا ما يزالون صغاراً يا شوباش إلا أن نأتي نحن النساء، ماذا بيدنا؟ - شكّت المرأة.

- الحنصر صغير يا أمنا، ولكن القبضة تقوى متى رافق الأصابع الأخرى. - وجد شوباش جواباً مناسباً أيضاً. يمكن أن يأتوا بالعيدان، ويصبوا الماء أسفل تحت الأعمدة.

كان الحداد أشد الناس حماسة:

- العمل التطوعي مدعاة لعمار الأسرة يا شوباش. إن كان في عملنا فائدة لبعض الأسر فلا جدال. سأصطحب فأسّي ومجرفتي. وأجهز عربة الثيران. وإن تذكرت شيئاً آخر فأخبرني. وسأصطحب المسنّ لمعالجة الفؤوس المثلومة.

خرج شوباش من المحددة، وتجاوز بضعة بيوت، فالتقى بدكابس. ولما لم يجد ما يقول لها سألها عما تحمل.

- الفأس والمجرفة بحاجة إلى سَرٍّ، ونطاي الكسول غائب. آخذهما إلى يمزش. - كانت دكابس لا ترفع عنه نظرتها الشهوانية أكثر من اهتمامها بحديثها.

- هل تستعدين للمساهمة في عمل الغد؟ - ضحك شوباش، وفي اللحظة نفسها بدأ دمه يغلي.

- سآتي إن كان إليّ حاجة، ولكنك انقطعت عن زيارتي البتة... كأنك لا تعرف أُنِي وحدي في البيت هذه الأيام.

- كنت آتي من أجل الدواء، ولكن ما حُجّتي الآن لأدخل إلى بيتك؟ - أفلت من فم شوباش الذي يضبط غرائزه.

- وهل هذه مشكلة؟ - غمر الدفء الذي لا يُقاوم وجه دكابس. - إِدّع أن سينك تؤلمك، وهل تفتقر إلى حجة؟ ما من مرض إلا عندي دواؤه. - الليلة إذن.

- تعال، أنتظرك. - كانت دكابس تغري شوباش بعينيها الجميلتين ولكنها تعتب عليه في سِرّها: "تُعب نفسك وأنت في ريعان الشباب، من نظرتي الأولى إليك تلهب شهوة حتى لتتوهج وجنتاك؛ فلماذا لا تمتّع نفسك وتُنقّس عني؟!

لفت سؤال أينار شوباش وقد عاد إلى البيت مع الغروب:

- أيّ عمل اخترعتموه يا شوباش في غياب أخيك؟

- وهل أوصلوا إليك أيضاً الخبر يا أينار؟ - بدا من صوته المرح مزاجه الحسن، من أخبرك؟

- كان طاطخ مرّ على كراث.

- لا نحتاج إلى نساء. - لم يفهم علاقة العجوز بالعمل. - ما أماننا عمل رجال.

- ألا يجب إطعام من يعملون؟ - قالت أينار معتدة بصحة كلامها. - دخل طاطخ إلى دارنا وهو يبحث عن كراث، فطلبت منه أن يأخذ من قطعاننا عجلاً وبضعة خراف. هل تظن أن أخاك سيكون له كلام آخر؟

- ردد؟ - ابتسم شوباش مستغرباً ما يسمع، - سيثني عليك، وسيرضى عن عملنا.

- من يعرف؟ - سرى وجوم حزين في عيني أinar، - بدأ ينصحنى أحياناً.
- اسمعي إذن يا أinar ما سأقول لك. كنت أسمع أمانا تقول: بين الزوج والزوجة خندق. إن لم يحرص الطرفان فقد يقع أحدهما فيه.
- هذا صحيح، ويمكننا تفاديه. - وافقت أinar.
- أين أخوأي الصغيران؟ لا أسمع صوتهما.
- في الحى. لا يعرفان العودة إن لم تستدعهما. - انصرفت أinar إلى غرفتها متظاهرة بالاحتجاج.

شعر شوباش بالضيق كأن الشمس أجمت عن متابعة سيرها. نام ونهض وهو يشتعل رغبة وينطفئ. كان قلبه غادر البيت. وحالما هبط الظلام توجه إلى بيت دكايس. مشى لا يلتفت إلى شيء إلى أن التقى بكراث تحمل عوداً رفيعاً، فغمغم شوباش: " ومن أين جاءتنا هذه العجوز؟ لا يمكن أن تخطو خطوة خارج رقابتها... "

- إلى أين يا شوباش وقد حلّ الظلام؟ سألت العجوز موزّعة نظراتها الساهمة على الجانبين.

- أليس الوقت مبكراً بعدُ يا كراث؟ هل تريدان أن ننام مع الدجاج؟ -
مازحها شوباش أيضاً، - أنا بمنعني وجع الأسنان من البقاء في البيت، ولكن ما الذي يشغلك أنت؟

- لن يقول صاحب المثل: ربّ ديك الحبش إن استغنيت عن رجلحك، أصدق من هذا. أبحث عن اثنين منها. - اشتكت كراث، ولكنها نصحته ببراءة: -
إن كانت سنّك تؤلمك فعند دكايس الدواء. اختبرته بنفسى.

- وأنا ذاهب إليها، - قال شوباش في إثر العجوز المنصرفّة دون أن يكشف سره: - مررت بديكي حبش على السور يا كراث.

- حقاً؟ هما لي إذن. - ثم وقفت وقالت له وهي تهر العصا بوجهه كمن تفكرت في الأمر: - حسناً، إذهب إن كانت سنّك تؤلمك، ولكن لا تطمع في دواء آخر منها.

- من أين تعرف دكايس الأدوية؟ من أمها؟ - سألها اعتباراً محولاً التمويه على كلماتها الأخيرة.

- لم تكن أمها تعرف شيئاً من هذا. بل جدتها. كانت تصطحبها حين تخرج لجمع الحشائش فعلمتها.

انصرفت العجوز تنداعى، وضحك شوباش في سِرّه.

فتحت دكايس الباب، وصحبته إلى الداخل وهي تبشّ في وجهه. ولامته مع أنها عانقته وهو ما يزال على أرض الغرفة:

- أنتم الرجال ليس عندكم مبادرات. شغلوا عقولكم تجددوا ذرائع كثيرة... لا تستعجل يا شوباش. همّك منذ أن تدخل هو الفراش. ألا تلاطفني قليلاً! - تملّصت دكايس بمهارة منه. - أدِرْ ظهرك واخلع ما عليك. وأنا لن أدعك تنتظرن طويلاً.

- تعديني دائماً بهذا. - ضحك شوباش وهو يستدير. - ننام في فراش واحد؛ ألا يجوز أن أراك؟

- لم أسمع حتى لزوجي أن يراني نصف عارية... - التصقت دكايس به والدفع يشعّ منها، وهمست في أذنه: - والآن اخلع عني ثوبي القصير. يظل الرجل يشتهي ما تحفيه المرأة...

بقي شوباش مستلقياً بعض الوقت، ثم قعد ينوي النهوض.

- ألا تبقى مستلقياً يا "شوباشي"! استرخ، قد ترغب في واحدة أخرى. تسللت أصابع دكايس الرفيعة إلى صدر شوباش تعبت بشعره. ومرت باليد الأخرى على ظهره مداعبة إياه. - ذيلُ حصانك ملتهب دائماً.

- كفى يا دكايس. - انسلّ شوباش من المرأة بهدوء. ووقف على أرض الغرفة. من يحرص على نفسه يحرص عليه الآلهة أيضاً. الأفضل أن أنصرف قبل أن يطرق بابك أحد.

- ومن سيطرق؟ - غضبت دكايس، - ألسن من أخبرته أن نطاي غائب؟ لا يأتيني رجلٌ غيرك.

- أليس عندك جيران، وهل تظنّيني الوحيد الذي يحتاج إلى دواء! - قال شوباش جاداً.

حُيِّل لدكابس أن في هذا الكلام سخرية، ولكنها أجابت بعتاب مبطن خشية أن تثير مشكلة معه:

- من يحتاجون إلى أدوية أعطيهم في النهار. وأنا أخبئ لك دواءك كل ليلة. ولكن زيارتك قليلة.

- نحن في قرية يا دكابس. لو كنا وحدنا لزرتك كل مساء. لا أصل إلى هنا دون أن أصادف أحداً. متى ما انتشر خبري...

- نعم، نعم. - استلمت دكابس الحديث من الشاب - إن وصل الخبر إلى لاشين فقد خسرناها تماماً. - التقيت بخطيبتك قبل أيام وأنا أستقي من نحر بشده فغازلناها من أجلك. وأنت لا تقصّر، أعلمتها برغبتك فيها. وهي تريدك. ولكن يا شوباش متى حان الموعد وتزوجت منها فلا تهجرني. لن أغفر لك.

- وإن اكتشفتنا لاشين؟ - ارتعب شوباش كأنه تزوجها حقيقة.

- لا تخف، سأمنعها من الارتياح، عندي وسائل كثيرة.

ارتاح شوباش من كلام دكابس...

...

فتح شوباش عينيه دون أن يعرف أن زيش الواقف أمامه يبتسم وصل إلى كتفه، وزفس إلى جانبه مغتاضاً. كان شوباش ترجى أن يوقظوه مع الفجر، خائفاً من الاستغراق في النوم، ولكنه كان طلب من أغبان، لا من أخويه الصغيرين.

- ما الذي أغضبك أنت مع الفجر؟ نظر شوباش وهو يتمطى في وجه زفس. - هل أزعجك زيش؟

- أنت، لا زيش. - نظر إليه زفس عابساً.

- ماذا فعلت بك؟

- تأخذ زيش معك إلى العمل، وتتركني.

- هذا هو السبب؟ - ضحك شوباش من أعماقه، - لا تزال صغيراً جداً يا زفس. متى صرت في عمر زيش اصطحبتك أينما سافرت، أليس حسناً؟

- لا، - زاد جبين زفس عبوساً. - الحسن هو أن تأخذني معك إلى العمل.

- أخبر أملك إذن!

- أخبرتها، إن وافقت سمحت لي.

- تصلحنا إذن يا زفس.

تقاطر الرجال والمسنون مع أدواتهم إلى ضفة بشده. وإلى جوارهم أقران زيش والأصغر منهم. وكانت العربات تتزايد. وقدان وطاطخ في الساحة، وحوهما حشد من الرجال.

- انظر من أراهما! - ابتسم طاطخ مسروراً بولدي الأمير الكبير. - أنتما ولدان صالحان، جئتما تشاركان في العمل. لا يخفى أنكما ستصبحان رجلين. - سيقوم أخوأي الصغيران بما يقدران عليه. - نظر شوباش راضياً إلى الطفلين اللذين يفتخر بهما، ثم أنهى بما يُقلقه: - ولكن لا تعجبني حال السماء المكفهرة.

- لا تقلق يا شوباش، الصباح الضبابي يعقبه نهارٌ صاح. - قال طاطخ واثقاً من نفسه.

- لن نصيِّع وقتنا. - نظر قدان إلى مجتمع العربات. - كم يكفي من العربات إلى الغابة؟

- يكفي عشر عربات. إن جاءت كل منها بنقلتين فلا أظن أن الحفرة التي بعمق ثلاث خطوات تحتاج إلى أكثر من هذا من الأعمدة والدعامات. ما رأيكم أنتم؟ - استشار طاطخ الرجال.

تفحص بزمز القاع، وحسب بينه وبين نفسه:

- لن ينقصنا الكثير وإن لم يكف. يكفي يا طاطخ، يكفي.

- استدركت ما نسينا أنا وشوباش من موضوع إطعام العمال. - امتدح قدان العجوز، - وها هم يغرزون الأعمدة التي يعلّقون بها كلابات القدور.

- ألم أقل لكم؟ - سأل طاطخ وقد تذكر شيئاً، وأجاب نفسه بنفسه: - ساهمت السيدة الكبرى أبنار، حفظها الآلهة من كل سوء، بعجلين وسبعة خراف. أخبروا الناس بهذا، لا يجوز إضاعة معروف أحد. وساهم قدان بثلاثة خراف وفحل فتى...

- بحقك لا حاجة لهذا يا طاطخ! ما كان ينبغي أن تأتي على ذكري. - قاطع قدان محرّجاً تعداد العجوز. - سأذهب إذن يا شوباش مع من يجهزون الأعمدة والدعامات. وأنت خذ معك مزيداً من الرجال إلى جلب العيدان،

وهو ما يستغرق وقتاً أطول. وسيشرف طاطخ على من سيحولون مجرى النهر، وسيرافقك يمزش.

- ولّيتني عملاً سهلاً يا قُدان، - ضحك العجوز، - إن كان المطلوب مجرد إشرافٍ فالصغير زيش يمكن أن يقوم بهذا أيضاً. لن أستطيع الحفر ولكني لا أزال قادراً على رصف العيدان. وإذا كان يمزش سيرافقني فسأصعدُ بنهر بشده الهائج إلى الأعلى، لا إلى الأسفل فحسب.

انطلق شوباش لتفقد النساء والعجائز قبل التوجه إلى عمل العيدان فرأى دكايس بينهن، فتوقف، ثم نحر نفسه: " لماذا أتوقف وكأن الجميع يعرفون أنني زرت دكايس بضع مرات؟! ". وتابع مسرعاً. وحالما خالط الطباخات سألت كراث:

- ما حال أسنانك يا شوباش؟

- شفاها الدواء يا كراث. نمت الليلة مرتاحاً. - ضحك شوباش ونظر من فوق جبينه إلى دكايس. وردّت الأخرى بابتسامة شبه مرئية.

- أما أخبرتك أن دواء دكايس يسكنّ الألم حالاً؟! - جاءت إلينا بدواء الجروح أيضاً تحسباً لإصابة أحدهم. - التفتت العجوز راضية إلى دكايس.

- هذا حسن، - مرة أخرى توجه شوباش إلى العجوز، - يا كراث أنا ذاهب مع العمال، انتبهي إلى أخوي الصغيرين. بدؤوا ببناء السور؛ ليساعدهم!

- تعالا إلى هنا يا صغيري، - ضمت العجوز الصبيين إليها. - لا تقلق، سأجد لهما ما يلهيهما.

نزل الرجال إلى الأرض المنخفضة من ضفة النهر، ووقفوا على جانبي المسطح الذي سيرفونه بالأعمدة والدعائم، وبدؤوا بالحفر. ووصلت بعض عربات الثيران تحمل متطلبات العمل. اندفع الرجال إلى العربات ففرغوها في الحال. ويمزش يعلم الشباب الذين لا خبرة لديهم بإعداد الأعمدة:

- هكذا تفعل: تمسك بالعمود، وتقصّ مقدمته...

- هؤلاء لن يدعونا نرفع ظهورنا. - علّق أحد الرجال حين رأى قافلة العربات القادمة.

- اضرب، اضرب، افعل ما تستطيع. سيساعدنا القادمون من الغابة. لا إجبار

في عملنا ولا عجلة. وسُيُنجز العمل بأسرع مما تتوقعون دون إضرار بكم. -
يُحِبُّ يَمْزُحُ العمل إلى النجارين. ولا يرفع عينه عن الحفارين المتنافسين. ثم نظر
من فوق الأعمدة المرصوفة ونادى أدشس: - أين طاطخ؟
- مع الطباخات. - أجابه شخص آخر.

عاد طاطخ يعرج ووقف ينظر إلى قدان منتظراً الأوامر.
- تعال يا يَمْزُحُ أيضاً، - نادى قدان، - دعونا نفكر في إرساء القسم المتين
من السور. علينا في رأيي أن نترك ثلاث خطوات بين الضفة والسور نملؤها
بالحجارة.

- لا مجال لطريقة أخرى. - حسم يَمْزُحُ باختصار.
- انتبهوا إلى مكان التقاء السور بالضفة، لا تعطفوه على نحو سريع. -
صَمِّمُوهُ على نحو لا يضِرُّه اندفاع الماء. - ساهم طاطخ برأيه.
- وهذا صحيح، - وافقه قدان، - سنبدأ يا طاطخ بنصب الأعمدة. - أدغ
إلى الآلهة أن يقووها.

دشّن طاطخ العمل. واختتم باسماء:

- من أين أستعيد شبابي الطائش وقوتي اللامحدودة كما كان صديقي المرحوم
عجيب يقول. في زمن مضى كنت أغرز العمود بضربة واحدة. والآن لا أكاد
أثبت طرفه.

رأى زفس ابن الأمير العمال يغرسون الأعمدة، فأسرع إليهم عدواً، واستلم منهم
إبريق الماء.

- احرص على إبعاد رأسك كلما سكبت الماء في أصول الأعمدة يا زفس وإلا
لَطَّخَ الماء الموحل وجهك. - نصح قدان الصبي.
وبعدما انتهوا من الأعمدة بدؤوا بوضع العيدان.
وطاطخ لا يهدأ. يُصلح أسس الأسوار.

- هذا لا يصلح طريقة للعمار. هل تظنه سور دار؟ طَوِّلُوا العيدان لتبرز، لا
تقطعوها. هذه ستمسك الأحجار جيداً.

حان وقت الغداء، جاءت كراث إلى الرجال وخاطبتهم كمن تبرئ نفسها:

- جَوْعناكم. - نحن جاهزات، لا تدعوا الطعام يبرد.

وبعد الغداء ركز الكبار والشباب جهدهم على إنجاز سور بطول مئة خطوة قبل حلول المساء. ولم يبق أمامهم إلا ملء الفراغ بالحجارة فأجلوه إلى الغد. وانصرفوا مرتاحين للعمل الكبير الذي أنجزوه.

IV

كان أول خبر استقبلوا به ردد حالما وضع حصائمه قوائمه في مزبه بعد مسير أسبوع هو خبر العمل الجماعي الكبير الذي أنجزه الأهالي. وبعدما مشوا مدة التقتوا بغأت القادم من مستحقوه. سأل الأمير الكبير نفسه ولونه يمتنع: " ما الذي يجمع الناس يا ترى؟ ربما كان في التقائنا بالأخ الأكبر لزيار الذي أزهقنا روحه، وليس بغيره، عبرةٌ ما... "

- أليست القرية في سلام يا غأت؟ - سأل ردد الذي لا يعرف ماذا يقول.
- لا خطر عليها، - نظر غأت نظرة ذكاء ورضا في وجه الأمير الكبير. -
أنجزنا عملاً كبيراً في غيابك يا أمير.
- أيّ عمل؟ - أصغى ردد بكل جوارحه. - العمل الكبير قد يكون خيراً أو شراً.

- عمل خير يا أمير، - بدا على صوت غأت فرحه بما أنجزوه. - سدّدنا الضفة المنخفضة لنهر بشده بجدار صناعي متين. والآن لا يمكن أن يصل الماء إلى القرية مهما فاض النهر. وإن أردت رؤيته رافقك.
- يسرني أن أطلع على مثل هذا العمل العظيم - أمر وهو يلتفت باسماء: -
إصرفوا الفرسان. وأنت يا ججان تعال إلى جانبي. سنرى الجدار الاصطناعي الذي يمتدحه غأت.

كان مشقوه وتيمرقوه إلى جانبي الأمير فابتعد مشقوه وسمح لغأت أن يقف إلى جانب الأمير الكبير.

- قل لي يا غأت من صاحب المبادرة إلى العمل التطوعي؟ - كان الأمير الكبير يريد معرفة كل التفاصيل - كان هذا الموضع يشغل بالي أنا أيضاً.
- صاحب المبادرة إلى بناء الجدار هو قدان على حدّ عملي. ومن جمع الناس هما قدان وشوباش. - كان غأت يروي الخبر بكل جدّ. - لم يبق كبير أو صغير

في القرية لم يساهم فيه. وولدك الصغيران لم يوقرا جهداً.

- كم يوماً استغرق العمل؟ - كان ردد مسروراً بما سمع عن ابنيه ولكنه تظاهر بعدم سماعه، - لا أعتقد أنه عمل سهل.

- أليس لأجل هذا أقول إنه عمل كبير؟! - ارتفع صوت غأت. - ثم إنه ليس مجرد سور حجري، في البداية أسسنا بصفٍ من الأعمدة، ثم ملأنا الفجوة بين السور والصفّة بالحجارة. أنجزناه في يومين يا أمير.

- هذا غير معقول! لا يمكن إنجاز جدار بهذا الطول في يومين. - لم يصدق الأمير ما سمع.

- نعم يا أمير، في يومين، وها أنت ستري! - أضاف غأت مسروراً من أعماقه، - توازنا على مجموعتين، إحداها بقيادة شوباش، والأخرى بقيادة قدان. ثم اجتمعنا على بناء الجدار. وفي اليوم التالي نظفنا النهر من الحجارة بالعربات والأيدي. وما كنا لننجز في أسبوع هذا العمل لولا مساعدة غيرنا.

- ومن هؤلاء؟

- أتى من مستحقوه أكثر من ثلاثين عربية. لا أعرف من آخرهم، لم نطلب نحن منهم يا أمير، ووصل الفرسان أيضاً. سررنا لمجيئهم. غير أن هؤلاء منا، هم قسوغ. وسررنا جداً باصطحاب الأمير دامر عدداً من الحكوف. ولما رأى أهل قريتنا هؤلاء لم يبق من يمشي على رجلين إلا شارك في العمل.

كان الأمير ردد فاتحاً أذنيه فحسب، ولا يستمع. تعجّب وهو يُعاین السور العالي مما أنجز قدان وشوباش. وشعر بالضعف كمن ألحقوا به إهانة إزاء العمل الذي تمّ دون مساهمته شخصياً، والذي سيثمنه أهل قريته والجيران والحكوف، وسيتركلمون عليه دون ملل. ولكنه وجد في أخبار غأت ما يهدئ قلبه. كان اسمه على لسان المشاركين في العمل، وبينهم قدان الذي يعتقد أن الأمير سيسرّه أن يعود وقد أنجز العمل الذي كان بباله. لم يكن الأمير يفهم سلوك قدان: " ما معنى هذا؟ أريد أن يُذكرني بشخصه أم لا يزال على موقفه حين كانت نواياي نحوه صافية؟ إن كان طمع في الذهب، لا لقيمتة، فلن أغفر له مهما فعل بعد الحادث. لا أعرف ما الذي ثناه عن الرحيل عن القرية بعدما جهز نفسه له. من الذي أقنعه يا تُرى؟ ربما أعاد التفكير من نفسه إن كان يرى

نفسه بريئاً... أينار أيضاً ساهمت في العمل، وكأني سمعتُ من غُأت أنها قدمت عجلين وسبعة خراف. وقد أحسنتُ صنْعاً بهذا. لم تكن مثلاً هذه الفكرة لتخطر ببال شوباش. ربما كان المشروع من أساسه مبادرة من قدان. ورافقه أخي وإلا فأخي لا يصدع رأسه بأمور القرية والدولة. يكفي بأن ينقذ ما يُطلب منه..."

وصل ردد إلى باب الدار ولم يبق إلى جانبه فارسٌ إلا تيمرقوه. لامه أغبان الذي استقبلهما بدلاً من أن يفرح بقدومه:

- أما وعدتني يا أمير ألا تتحرك وحدك؟

- لسْتُ وحدتي، معي تيمرقوه. - ابتسم الأمير، - صرفتُ حراسي. ما الخطورة في داخل القرية يا أغبان؟

- من ينو الشر لا يميّزُ داخلاً من خارج. - اعترض الحارس، - يسلبونك ما في داخل فمك. ويمدون أيديهم إلى جيوبك، وإلى قلبك.

- ستصوّر لي الساعة قامت. - التفت ردد بشبه ابتسامة إلى أغبان، - تعال، تنصرفُ بعد أن نأكل شيئاً. سينتظرك رفاقك في مركز تدريب الجيش. مَنْ في البيت؟

- سيدة البيت ذهبت إلى المطبخ قبل قليل. والصبيان يلعبان، وشوباش دخل قبلكم بقليل.

استقبل شوباش الرجلين على باب المضافة:

- مرحباً يا أمير، ويا تيمرقوه، - جابه أخاه بوجه متسائل. - غبتم طويلاً؛ لا بد أنكم أنجزتم كثيراً من المهمات.

- لا تستعجل يا شوباش، اطلب منهم أن يسرعوا بالطعام إن كان هناك شيء جاهز. تيمرقوه مستعجل. وأنت لن نحرملك من الأخبار لاحقاً.

شيع شوباش الضيف بعد الطعام ورجع، ولكن الأمير لم يقل شيئاً. ولاحظ شوباش أن وراء السكوت أمراً مهماً. فاستعدّ لسماع الأخبار المزعجة.

- اجلس يا أخي، - قال الأمير بصوت جافٍ أصمّ، ونظر إليه عابساً.

- لا، سأبقى واقفاً. - لطف شوباش أخاه الأكبر حذراً.

- ابقَ واقفاً إن كنت تظنّ الوقوف يزيد في طولك، ولكنني أعتقد أنك لم تنم

- بعدً. - وضع ردد راحتيه على فخذه، وجلس مرتاحاً.
- ألن ينمو عقلي يا أخي وإن لم ينم جسدي؟ - أجاب شوباش إجابة ساخرة دون تفكير.
- إن كنت ستصرف هكذا فلن يكبر عقلك أيضاً.
- ماذا؟
- تُهرع إلى من عارضني، وتتوسل إليه ألا يرحل عن القرية. الأخ لا يفعل مثل هذا. أنت أول سندٍ لي مهما فعلتُ أو قلتُ أو جرى لي. ماذا سيكون رأي الناس فينا إن عرفوا أنك تحالفت مع قدان؟
- إن كان المهزوم بريئاً اعتبروا من ساندته عادلاً يا ردد. - كان شوباش قد شحب غير أن صوته احتفظ برقته وشفقته. - لم أبادر إلى قدان لأني أحبه أكثر مما أحبك. لا أريد أن تخسر رجلاً ذكياً مثل قائد جيشنا. هو صادقٌ معك منذ رافقك. أنت صدقت الكذبة حين جاؤوك بها في لبوس صديقٍ، ولكنني واثقٌ من قدان. ولسْتُ وحدي من عنده هذا الرأي.
- وجدتُ إذن من يؤيدونك! - تكلم ردد الآن بنبرة أمرٍ من سابقتها، - أنا المذنب حسب كلامك!
- لا أتهمك يا ردد، ولكنك تسرعت في شأن قدان خلافاً لطبيعتك. أنا كنتُ في مركز تدريب الجيش قبل أن تصلوا. وسألتُ دون أن أعرف ما الذي دعاني إلى هذا عما طلبت من قدان جلبه من الذهب والفضة، لا تزال الكمية على حالها مفصولة عن غيرها. والذهب الذي كان سبب الفتنة لم يخلطه الخازن في الذهب المدخر.
- وماذا ينتظر؟
- يتوقع أن يُفتش ثانية.
- ومن سيفتش؟ أنت؟
- أنا أو غيري، لا يهم؛ هل تريد نكبة الرجل البريء؟ ألن يعرف ددام الذي سلّم الذهب إلى قدان مقداره؟ هل يعطيه هكذا دون حساب؟
- من قلتُ لي إنه سلّمه الذهب؟ - علا صوت الأمير الكبير.
- هو ددام، ماذا؟

- اتخذت من الذئب راعياً! - غضب ردد، وجحظت عيناه نحو أخيه. - لا تخبرني إلا بما يورثني. ماذا يجري من ورائي؟
- لست بل الأمير دامر. هذا ما قال، وظننتكما اتفقتما عليه: "إن أعطيت من اعتاد على السرقة بيتاً من الذهب طمع في مقدار ذرة رمل، وإن وليت من أخطأ مرة أمر الذهب شبت عينه ونفسه، ولن يمد يده إليه. سيتصور الذهب الذي يتولى أمره حديداً فحسب".
- ربما تغير الشاب ددام، - رقّ صوت الأمير الكبير. - أثبت صدقه في المعركة حين جابهنا الأمير أبج. وأنقذني أنا من ضربة سيف. ولكن عليك أن تعرف بمن تثق. ألم يجد دامر غيره بين الحكوف؟ ماذا تأملت أنت منه؟
- ددام يزن الذهب القادم، ويختمه ببعض الأختام ويودعه المستودع.
- ويَمَ يزن؟
- يعلّق الذهب بأحد طرفي العود، وبالأخر قطعة العظم. ثم يبدأ يقطع منها شيئاً فشيئاً حتى توازن الذهب. ليتك طلبت ددام مع قطعة العظم التي وزن بها ما سلّمه قدان. الذهب لا يزيد وزنه، يبقى على حاله مهما طال الزمن.
- هذا ينمّ عن عقل صحيح. - وافق ردد، - اذهب إن أردت إلى مكان استخراج الذهب، أو اجث عمن ترسله. سنرى النتيجة. وأنا لست عدوّاً لقدان، ولا أجهل قيمته، ولكنكما تتجاوزاني أحياناً دون تفكير بالعواقب.
- نحن؟ لم يحدث مثل هذا يا ردد.
- والعمل التطوعي؟
- في شأن العمل عليك أن تُثني على قدان، لا عليّ، بدلاً من أن تدينه.
- ألا يجب أن أكون مطّلعاً إذا كانت القرية بكاملها ستعاون في العمل؟
- يا ردد، يا أخي الكبير العزيز، - غلبت النصيحة اللطيفة على شوباش. - أنت أمير البلاد كلها، غارق في شؤون الدولة إلى أذنيك. إن حملوك مسؤولية كل ما يجري في الدولة من أعمال كبيرة أو صغيرة ضعت بينها. شجّع من يقوم بعمل يفيد الجميع وكافئه بكلمة حلوة. قديماً حين كنت تحكم قرية واحدة كنت مسؤولاً عن كل بيت يُبنى، وكل بستان لم يُزرع، وكل محصول لم يُجَنّ، وكل طريق لم يُفتَح. وحين صار القسوغ دولة أضيفت أعباء جديدة إلى

أعبائك. ثم أضيف الحكوف والزيوخ والموط إلى القسوغ فتوسّعت الدولة. وما يجب أن يُسند إليك الآن هو المسائل المهمة للدولة. واترك لنا المسائل الصغرى كبناء جدار، ولن نخذلك.

- من أين جئت بكل هذه الأفكار يا شوباش؟ - نظر الأمير الكبير في وجه أخيه متعجباً مما يسمع، وتعمّق بسؤال أشدّ مرارة: - أيكون قدان مصدر هذه الأفكار؟

- لم أتحدث إلى قدان إلا لإقناعه بعدم مفارقة القرية.
- في كل الأحوال هُزِعت إلى من كان قائداً للجيش.
- صدّقني لم يغيّر قدان موقفه نتيجة كلامي إليه. كان نادماً على قراره ينتظر أيّ شخص يحثّه على تغييره. لم ندخل في جدال.
- ممن اكتسبت هذه الأفكار إذن؟

- لن تصدّقني إن أخبرتك؛ هي أبنار. بدأنا قبل أيام في السهرة بموضوع قدان، واختتمنا بك. العمود يصبح ربيعاً إن نُجّرت. والإنسان إن جهدت معه اكتسب عقلاً. أبنار اكتسبت الحكمة من أمنا المرحومة. ولكن لا يُخيّل إليك أن كلامي خالٍ من أفكارٍ! - ضحك شوباش من قلبه مسروراً بقدرته على تليين موقف أخيه. - متى تبادل شخصان أفكارهما يا ردد توصّلا إلى نتائج رائعة من خلال تكامل الأفكار.

كبرت أبنار في نظر ردد بعدما سمع أخبارها من شوباش، وزاد احترامه وتقديره لها، ولا سيما وقد سمع مصدر هذه الأفكار. وفي هذه اللحظة حنّ إليها يريد أن يراها.

- كنت أودّ أن أعفّك يا أخي فإذا بك تروّح عن قلبي. أنا راضٍ عنك، - نهض ردد، وربّت على كتف شوباش. - نخطئ نحن أيضاً أحياناً. وكما يفرح الإنسان بما يفعله في حينه فكذلك الكلام يداوي القلب أحياناً. سأطلّ على الولدين، - ثم توقف عند الباب وقال: - يسرني أن تُنهي موضوع قدان.

- لن أهدأ إلا مُنهيّاً موضوعه. - غادر شوباش المضافة مسرعاً.
- الإنسان لا يُسأل عن المكان الذي يقصده. ولكن لا أستطيع إلا أن أفعله، - تراجع أغبان عما بدأه، ولكنه لمح إلى ما يريد: - أقول هذا ولكن الأبواب

كلها مفتوحة إذا كنت عازباً.

- أنا ماضي ولكن لا أعرف إن كانت هذه السحب السوداء ستسمح لي بالعودة. - أجاب شوباش وهو ينظر نحو السحب الجنوبية، - ثم إن المطر يهطل غزيراً على الحكوف.

- إن كانت عندك مهمة فلا تؤجلها لهذا السبب. هذه السحب أبعد من أرض الحكوف. لن تصلنا قريباً.

- أرى أننا بنينا الجدار في وقته إذا بدأ المطر يهطل الليلة.

- الأحجار استقرت في الأيام القليلة الماضية. أرحُثم كثيراً من الأسر التي لن تتضرر بعد الآن بالمطر. - شيع أغبان شوباش إلى باب الدار وهو يمتدح الجدار الاصطناعي.

كان شوباش يفكر فيما سيفعل بعد أن يتوقف عند صديقه أدشس: " أعلمني ردد أن من المستحب أن أسافر أنا إلى منجم الذهب ولكنني لن أذهب. ربما يشك في إذ يعلم أنني قلق على قدان. سأرجو من أدشس وغأت أن يستدعيا ددام. جرح الجانب الأيسر فحسب من رأس أدشس في أثناء العمل. وفارقنا دون أن يخبر غيرنا كي لا يُفسد سير العمل. وأنا استغللت هذه الفرصة فذهبت إلى دكايس لأخذ منها دواء الجروح. والآن لن أطلّ عليها ما لم يسافر نطاي إلى جهة ما. كان ردد أفضى مرةً بحكمة حقيقية: " ليس كل من عندهم بصراً يرون العدو " ولم أفهم ساعتها ماذا يقصد، والآن فهمت. هناك عدو واضح وعدو خفي، والثاني المخيف هو من ينسف أساسك وهو يمشي معك باسمك لك. ليس من تأمر على قدان جرحه فحسب. بل أصاب قلبي أنا أيضاً، ولكن لم نستطع قتله. ومن لا أستطيع الوصول إليه هو من نقل الخبر الكاذب. الجميع يقولون: سمعنا كذا وكذا، ولا ينطقون باسم القائل. متى عدتُ فسأدخل ثانية ورشة الحداد بمزح وأبحث داخل فمه. يقال إن الخبر صدر من باب الورشة... "

توقع شوباش أن يستقبله صديقه بالترحيب ما إن يجتاز العتبة. ولكن لم يكن في البيت أحد.

- كانوا جالسين معاً يتحدثون إلى أحدهم فأين هم الآن؟ - بحث شوباش

تحت الأريكة لعله اختبأ عنه.

- سيموت صديقك قبل أن يكتمل عمره. - سُمع صوت زوجة أدشس الضئيلة. - خرج من النافذة يلعب الكلب.

- عاد رجلاً من جديد إذن؟ - فرح شوباش. - ألم يُعِدّ الجرح يؤلمه؟
- ما جئته به دواء جيد. قتل الألم، وبدأ الجرح يلتئم منذ أول استعمال.
أبلغ شوباش صديقه رغبته:

- سأكون جاهزاً، أبلغُ غُأت أن يكون مستعداً صباح غد باكراً. - وعدّه أدشس بكل تأكيد.

- ألا يمكن أن تعرّج أنت عليه؟

- ولماذا نطوّل طريقنا؟ المكان المقصود في جهة أخرى.

"عندي صديق عجيب، يعدّ كل خطوة يخطوها. - عرّج شوباش محتجاً على غُأت، ولكن لم يجده في البيت. "كأنه ابتلع قائمة كلب، لن تجده في أي وقت تطلبه"، - وفيما هو عائد غاضباً التقى به.

- أنا كنت عندك.

- مزاجك معكّر؛ هل هناك خبر مزعج؟ تعال، عد معي.

- لا داعي بعدما التقينا، سأخبرك بما أريد، ولكن قل لي هل تتألم من أجل قدان؟

- قلبي وجسدي يتألمان له، - أهانوا الرجل الصالح في القرية.

- عرّج إذن على أدشس صباحاً باكراً. اذهبا إلى منجم الذهب، واصحبا معكما شاباً اسمه ددام، مع العظمة التي وزن بها الذهب الذي جاء به قدان. أخبراه أن الأمير الكبير ردّ يطلبه؛ وإلا رفض القدوم معكما.

- هل ترى في هذا فائدة لقدان؟

- بلا شك.

رأى شوباش في طريقه إلى المحددة يمزّش عائداً إلى بيته فلحقه بأقصى سرعته.

- ما الأمر يا شوباش؟

- لا شيء، - تنفس شوباش عميقاً وابتسم للحداد، - أريد أن أسألك ثانية، كنت أخبرني بأسماء الرجال الذين كانوا متجمهرين أمام باب الورشة يوم أشيع

عن قدان ما أشيع. وسألت الجميع، ولكن لا أحد يتذكر من أتى بالخبر.
أتكون نسيت أحدهم ممن له فطنة وذاكرة جيدة؟

- بالله عليك يا شوباش؛ ما سرُّ هذا الاهتمام بالموضوع؟ - غضب يمزش
جاداً، - هل يجوز اتهام رجل كقدان بهذه الطريقة؟ لن أسلمك إياه بوزنه ذهباً.
هو من يُعتمد عليه بعد أميرنا الكبير.

- أليس هذا ما يُقلِّقنا نحن أيضاً يا يمزش؟ نحاول ألا يتلطح اسم الرجل البريء.
- ما يلصق بك لا يفاركك يا شوباش.

- سنمسحه، ولكن أعمل فكرك أنت!

- لا أظن أنه كان بينهم رجل بهذه المواصفات ونسيته. ولكني تذكرت الآن،
ابن أختي الصبي كان أمام الورشة. والأطفال يحفظون ما يسمعون أكثر من
الرجال الذين تعتمد عليهم؛ إسأله!

- هذا صبي لبيب، قدّمت لي شاهداً جيداً يا يمزش، - عاد شوباش راضياً عن
الحداد، وقال لنفسه " لن أفاجئ الأسرة مساءً، أمامن الغد. إن لم يتذكر فمن
يتذكر إذن؟ الريح لن تخبرني، ولم يبق عندنا من يتكلم إلى الشمس الإله الكبير.
لو كان تراب الأحذب حياً لاختلق قصة ما صدقاً أو كذباً. كفى، إن صح
وزن ددام فسيشهد على براءة قدان. أدعو إلى الآلهة أن يحققوا هذا... "

قضى شوباش ليلة قلقلة. ورأى أحلاماً ثقيلة. رأى نهر يشده قد فاض وجرف
الجدار الذي بذلوا فيه كل هذا الجهد. ولما أفاق تنفس الصُّعداء إذ تبين أنه
حلمٌ وحسب. وفي الحال رأى جيشاً من الفرسان يصرعون من يقف في طريقهم
ويقتلون، ورأى ردد وحده محاصراً يحاربهم. فأفاق يتصبب عرقاً. ألقى الفرو
الدفائي عنه وقعد في الفراش. فشرب ما في الكأس من ماء، وعاد إلى النوم.

أفاق باكراً جداً في الصباح. تطلّع إلى السماء التي تلامسها أشعة الشمس.
والتفت إلى الجنوب. كانت السحب اختفت. ولا رائحة للمطر. بحث شوباش
عن أغبان " عرف أغبان أنها لن تمطر، لو كان عنده مثلاً هذا الحدس نحو
قلوب الناس لطلبت منه الحقيقة. لا، من أين له أن يعرف هذا؟ ما في العين
علنٌ وما في القلب سرٌّ. وكما يتقلب ليل الخريف ألف مرة فكذلك أتذكر
قدان، وأفكر دكابس، وأعزُّ لاشين في أعماق قلبي. فاعرف من أخفي بينهم في

قلبي! كان عليّ استجواب الصبي ابن أخت يمزش. كان قلبي هداً، ونمت ليلتي مرتاحاً لو فعلتُ. والآن لن أبكر فيقولوا عني: هل جاء يربّبُ فُرشنا... "

عاد شوباش إلى الغرفة واستلقى في السرير بملابسه. ثم غرق في النوم سارحاً مع أفكاره حتى أيقظه حوار زيش وزفس.

مضى وقت الإفطار فذهب شوباش إلى الصبي الشاهد. لم يكن في البيت ولكنه رآه بين الأولاد.

- يا أخي الصغير، - حدّق شوباش في عيني الصبي، - فكّر جيداً وأجني:
من أخبر الرجال وأنت على باب الورشة أن قدان سرق الذهب؟
- شورا؟ - لم يتردد الصبي.
- طلبت منك أن تفكر جيداً.

- لا حاجة، هو شورا، - لم يتزحزح الصبي عن كلامه.
أحبّط الصبي قلب شوباش: " انقطع خيط الأمل الوحيد الذي كان لديّ إلى الآن مع هذا الذي بلا عقل في القرية. -كلام المجنون مكتوب على الرمال. لن يصدقه الرجال. الناس الذين تقبلوا هذا الخبر ونشروه أشدّ جنوناً من المجنون. ومع ذلك فسأسأله، ليس مجنوناً تماماً...".

قابلته المرأة السمراء الضخمة المفتقرة إلى أيّ أنوثة، ودعته إلى الغرفة مغممة. وقّرتّه إلى ابنها في الفراش.

- أولاد القرية الأوباش لا ينجو أحد من شرهم. ألقوا قبعة هذا المسكين أمس في الماء، فنزل إلى النهر. والآن هو بين نوبات الحمى ونوبات البرد. ليتّه لم يمرض.

- وهل تريدني أن يحرف الماء قبعتي أمام نظري؟ - اعترض شورا على أمه مدّعياً الرجولة.

- ليسهّل عليه الآلهة مرضه! سيشفى. - ابتسم شوباش للولد وجلس على حافة سريره. - لا تؤاخذيني يا أمنا، أود أن أطرح على ابنك سؤالاً فحسب.

- ولماذا المؤاخذة على هذا؟ - أسأله، ولكن ماذا تتأمل منه؟ يقول ما على رأس لسانه. ويكرر ما سمعه.

- هل رأيت أحداً ينجي شيئاً في سقف جارك قدان حين خرجت لقضاء

حاجة في منتصف الليل؟

- رأيت، - أجاب بثقة.

- وماذا رأيت؟ ومتى تخرج في الليل؟ - نهرت الأم ولدها رافضة شهادته. - لا أتذكر منذ وقفت على رجلك إلى اليوم فعلت هذا. كنت أضع له الطست حين كان طفلاً. ولا أتذكر بعدها أنه أفاق في الليل.

- ماذا؟ ألا يمكن أن أرى وأنا نائم؟ - جحظ شورا بعينيه الواسعتين لأمه.

- انس جنونك وقل الحقيقة! - صاحت عليه الأم بقسوة، - من زارك لا يبحث عن هزلِك. هو أخو الأمير الكبير.

ارتعب شورا فسحب رأسه. ولفّ ذقنه بطرف الملحفة.

- أنا طلبوا مني أن أقول إني رأيت. - انكسر صوت شورا، والتفت إلى أمه مذعوراً.

- من طلب منك؟ - استعجل شوباش.

- لا أعرف اسمه.

- كيف لا تعرف اسمه؛ أليس من القرية؟ - نهرته الأم مرة أخرى.

- وهل أنا الأمير ردد فأعرف أسماء كل أهل القرية.

- يكفي أن تحبرني من أي حيّ هو.

- يسكن في طرف القرية، - أشار المجنون إلى الغرب. - أنا لا أزوره، لأنه

يسكن وحده. وليس عنده من يعطيك من الشلامه أو من الفطائر.

- الآن تصرفت كرجل، أخبرتني ما أريد. - نهض شوباش وقد استردّ قلبه

عزيمته. أفادني يا أمتا. أنت من أنطق ولدك بالصدق. - كان شوباش ممتناً جداً

للمرأة، وراضياً عن نفسه إذ لم ينادِ الولد بالمجنون. كان واثقاً أنه لم يحمل هذا

الاسم حين وُلِد فلم ينطقه على مسمع من الأم.

...

- يا جو! - سمع برجي النداء القوي، وطُرق الباب. كان الشاب واقفاً على

نار الموقد يجّهز لنفسه حساء الفاصولياء، فخرج من الغرفة متوهج الخدين.

وقابل الفارس بابتسامة رضاً:

- ألا تتفضل يا شوباش، أنت ضيف كبير.

- لا وقت عندي، البس بسرعة وتعال!
- حالاً، سأطفئ النار، - لبس مسرعاً أحسن ما عنده ظناً بأن الأمير الشاب يريد له مسألة خير، وخرج. - هل أركب يا شوباش؟
- لا حاجة! - ستأتي معي راجلاً. - كان شوباش يكظم غيظه بقدر طاقته، ولكن الغضب يغلبه.
- فهم برجى حين اقترب من الفارس أن الأخير لا ينوي له خيراً. وفي هذه اللحظة سأل بصوته الرفيع ساحباً رأسه إلى ظهره المحني:
- ما حاجتك إليّ يا شوباش؟
- الرجال ينتظرونك في المحددة. لهم حاجة إليك.
- لم ينطق شوباش بكلمة ريثما وصلا إلى المحددة. وراود القلق برجى الماشي إلى جانب الحصان إذ لا يعرف لماذا يريدونه.
- كان الجدار الأمامي والخلفي للمحددة حيث يجتمع الرجال يتجاذبون أطراف الأحاديث فارغاً. - غمغم شوباش: " المكان لا يتسع لهم حين لا تحتاجهم. والآن كأن الريح كنستهم - يكفي يمزش وحده، ومعه نافخ الكير".
- أين هم إذن من يطلبونني؟ - نظر برجى هلعاً في وجه شوباش.
- ادخل، هم في الورشة، - دفعه من خلفه، وحشره في الداخل. - أخبرنا الآن على مسمع منهما من كان معك حين وضعتم الذهب في سقف بيت قدان!
- شحب وجه برجى حتى إنه لن تسيل منه نقطة دم ولو قتلته. وارتجف ساعده وأطراف شفتيه. وقال متلعثماً:
- أيّ ذهب تتكلمون عليه؟ وما الذي يوصلني إلى سقف بيت قدان؟
- هجم شوباش عليه وأمسك بساعده. وطلب من نافخ الكير:
- ألهب النار بقوة! سأردّ الذاكرة إلى من يتظاهر بالنسيان.
- لا، لا، - صرخ برجى، - سأروي كل شيء.
- إن اعترفت فلمصلحتك، وإلا أحرقت اليد التي امتدّت إلى السقف. - رجع شوباش باليد التي تظاهر بمدّها إلى النار.
- لم يكن معي، بل كنت معه، - صدر عفويّاً عن برجى التبرئة الأولى لنفسه.
- لا تتدأك عليّ! أسألك من! - صرخ شوباش بصوت أقوى.

- زيرار... زيرار لم يضع شيئاً في سقف بيت قدان، بل أخرج منه.
- كذاب!

- لا أبرح مكاني إن قلتُ غير ما قاله لي! - تباكي برجى وقسمه وشكواه متداخلان. - ألا تساعدني يا يمزش؛ ما ذنبي أنا؟ ترجاني فساعدته.

- وجدت رفيقاً جيداً، - نظر إليه يمزش عابساً، ثم أدار ظهره.

- وهل هو ذنبي إن لم يكن غيره محتاجني؟ - بدأ برجى يدافع عن نفسه متنهداً، - ولماذا أضرتُ بقدان؟ وزيرار أراد أن يؤذي الرجل فوضع له الذهب في السقف. ثم أخبرني أنه ندم فاسترجعه.

- ألم تسمعا من أين جاء الذهب يا يمزش؟ - سأل شوباش وقد ارتاح. ونهر برجى: - أغرُبتُ عن وجهي! متى عرفت أنك خطوات خطوة خارج القرية فسأجلك ولو اختبأت تحت الأرض.

بعد ظهيرة اليوم الثالث لركوب أدشس وغأت عادا إلى مزبه ومعهما ددام. وأعادوا وزن قطعة الذهب التي جاء بها قدان. والحق أنه لم يعد من حاجة لهذا الوزن بعدما أثبت شوباش أنهم ورطوا برجى في العملية القذرة. وكان يمزش وشوباش فيهما أن إفادة برجى مجبراً في المحددة كانت كذباً. ولما علم الأمير الكبير ردد بالموضوع أمر بالكف عن معاندة الشاب الساذج.

لم يتراجع ردد عن قراره بجمع المجلس الأعلى للدولة، ولكنه أرسل إلى أمراء الأعراق يطلب منهم القدوم دون الموفدين.

كانت ريح خفيفة ترافق الضباب الذي يغطي الأرض حين جمعوا القرية في ريف مزبه، والناس مجتمعين في الساحة يرتحفون. وكان الأمير ردد وولدها وقدان ومشقوه على خيولهم، وعلى مرأى من الجميع.

تكلم ردد على موضوع الوحدة الوطنية.

- لا شيء يعدل مساهمة الحكوف وأهل مستحقوه وغيرهم بمبادرة منهم في بناء الجدار على ضفة نهر بشده في مزبه. - قال الأمير من أعماقه، - فبغض النظر عن التقارب الذي حدث بين أعراق الأديغة لم يمض زمن طويل على حياتنا ونحن يتأمر أحداً على الآخر، وتبادل نظرات الريبة والكراهية. إن تعاضدنا أصبحنا أقوىاء كقبضة اليد، وسنزداد قوة باستمرار. وإن كنا أقوىاء

فرضنا هيتنا على العالم. ما إن تَخَلَّصْنَا من الخزر والألان حتى ظهر الروسيج يصرون أن ندفع لهم الإتاوة. فعلينا الحذر وتجميع القوى. لا أكنتم أن الروسيج لن يتركونا بأمان، وإن لم يكن في المستقبل القريب. ونحن لسنا غافلين عن الخطر، وأنتم أتأمل منكم أن تشجعوا أولادكم ورجالكم على التطوع في الجيش. سكت الأمير برهة، والتفت إلى قدان، وأشار إليه فأوقفه على يساره.

- والآن أرجو من قائد الجيش قدان أن يغفر لي الإساءة التي ألحقتها به إثر المؤامرة التي حيكت ضده، وأقنعوني بها. وأقول لكم أيضاً: أعطني يدك يا قدان، وها هي يدي.

تصافح الرجلان. وصدر هتاف من الحشد. واعتبر أكثرهم تصرف الأمير الكبير رجولةً. وبينهم من اعتبره تنازلاً.

لم يمنح الجوّ مزيداً من الوقت للناس للتجمهر وإن أرادوا. كان المطر الناعم الذي انحبس طوال العام يشتدّ مع الوقت.

V

يُحِبُّ إليكَ أن عاماً واحداً من الأمان يعدل عمراً كاملاً.

لم يَفُضْ نهر بشده بكل طاقته مرة واحدة فحسب: اتجه إثر مطر الخريف المتأخر على نحوٍ مريع نحو البحر جارفاً ضفته. وزاد الأمر سوءاً مطر الربيع، كما اقتلع في طريقه الأشجار الهرمة الشعثاء. هاجم النهر حافة السدِّ الحديث الذي اعترضه إلى الشمال من مزبه، ودفعه بجدار مائي سميك، ولكن لم يستطع أن يزحزحه. الإنسان يلتف حول الجبل متى عرف أنه لن يستطيع تجاوزه. ونهر بشده هجم إلى اليمين حين لم يستطع التغلب على حافة الجبل، ووجد طريقاً فصبّ في المنخفض المحاذي للقرية. وغمر الجدار الاصطناعي إلى صدره، وانعطف، غير أنه لم يتمكن من التأثير فيه. وفهم أن لا طريق آخر له فعاد إلى ضفتيه.

قضى أهل مزبه خريفين لا يعانون إلا الخوف من النهر دون أن يتأدّوا منه. وكذا شتاءين وربيعين. وسعدوا بصيفين غنيين بالمحصول. وساد السلام في مستحقوه وششحرس وطوكج، وغيرها من قرى القسوغ المتوسدة نهر بشده. ولم

يكن لدى الزبيخ والموط والحكوف ما يُقلِّقهم.

كان الأمير الكبير يعتدّ سراً، وعلناً أحياناً، بتكوّن الدولة وتطورها، ويخشى أن يصيب نفسه بالعين فيدعو إلى الآلهة أن يمدّوا في عمر أعوام السلام في بلاد الأديغة. وإذا غلبه الغضب أحياناً فأكثر مَنْ يُخرجونه عن طوره هم مجموعات الفرسان التي تغيّر أحياناً على الروسيخ. يظهر من بين القسوغ والزبيخ والموط والحكوف شبان متحمسون تأخذهم الحمية فلا يغفرون للروسيخ أن توم - تقاش التي اتخذوها عاصمة كانت للأديغة يوماً. لم يكن الأمير الكبير يعتب كثيراً على الشباب بل على الكهول الذين يهيّجونهم، ويشاركونهم غاراتهم.

لم يكن يصدر عن الفرسان الذين يتبعون الأمير الكبير إلا وقع حوافر خفيف، فتفرّغ لأفكاره: "إذا تحرّشت بالدب في وكره أغضبتّه فهجم عليك. إن كنت تريد جلد الدب فأعزّ على الوكر مستعداً، قادراً على مواجهته. نحن ما زلنا في بداية تأسيس الدولة. وليس عندنا بعد جيش نظامي ثابت. ولم نسلّحه كما يجب. إذا أثاروا الأمير الكبير مستيسلاف حشد حراسه على حدودنا وهدم ما بنيناه إلى الآن بشق الأنفس. وها هم التجار الذين زارونا في العام الماضي وقبله أفرعهم جنود الروسيخ. وبينهم من سلبوهم ما جاؤونا به. صحيح أنهم لم يتعرضوا للروم لأنهم يخشون سلطات القسطنطينية..."

التفت ردد ونادى الفرسان الحرس:

- هيا ساعدوا العربة التي علقت في المرتفع!

تابع بضعة الفرسان المتجهين إلى العربة طريقهم، وتابع هو أفكاره.

"تبين أن كوستاس صديق مخلص لي. مهما عبّر للتاجر الرومي عن شكره لِمَا استورد من البلاد وما صدّر إليها خلال عامين فقد ارتسم أمامه من جديد راضياً عنه. كانت العربات المحملة بالجلود والفراء والمحاصيل والحديد الخام، والتي لا ترى نهايتها تتجه إلى البحر. ومتى عادت حملت معها الأقمشة والجلود المدبوغة وحاجات النساء الصغيرة. ومن الصعب أن تعرف كيف يجد لكل هذه الأقوام وسيلة تواصل. وعلى كلام التاجر الفارسي فهو أقرب من يأتينا من التجار إلى طباعنا. يربون أولادهم على ثلاث: الفروسية، والرمي، والصدق. وهي ما نعدّها رجولة لأبناء قومنا. كان كوستاس لمّح إلى أن الألمان هواة سرقة

ونهب، ولكن رأيت أن من خالطنا منهم يتمتعون بنظام متين. الأمير مستيسلاف يريد أن يوجه إلى توم - تقاش كل السفن القادمة إلى الساحل. ونحن علينا أن نتعلم الملاحة. ما الفائدة من استقبال السفن بالمراكب الصغيرة؟ أعرف أن الروم يطلبون ثمناً غالباً للسفن الكبيرة، ولا تفيض عن حاجة الفرس والمصريين وأهل جنوة، وليست السفن الغريبة التي تضع بينهم قليلة. إن اتفقت مع بيزنطة على تعليمنا صناعة السفن فسأرسل بضعة رجال إلى هناك. أرفع لهم ما يطلبون من الذهب والفضة. ولكن كيف يدربون لنا من لا يعرفون اللغة؟.."

شهر الحش في أوج جماله. العشب طويل، تتناثر الزهور المتنوعة بين الأعشاب في كل مكان. والطيور تغرد. والنسور تحوم فرادى في السماء. نظر ردد إلى الشمس الفضية فأبهرت عينيه. الدفء اللذيذ يداعب الوجه. "خيل إلي أن الزمن القصير الذي عشناه في سلام يعادل العمر كله. انقبضت قلوبنا إذ لا نرى حيث توجهنا إلا الحرب والدم. الإنسان يُخلق للعمل، تأمل الأمير الكبير الرجال المنكبين على محشاتهم. لم يخلق الإنسان ليعمل ويأكل فحسب، كل ذي روح صار قريباً منه يتأمل مساعدته. وهو يعيش لا يستطيع تحقيق أمله. يُنجب، ويربي، ويرسل ربيبه إلى طريقه، ويزرع فكره في ما يعمل إن كان كثيراً أم قليلاً. يُغل حبة الذرة، ويربي الماشية، ويعمل، ويموت.."

رأى الحشاشون الفرسان، فوقفوا صفاً مستنديين إلى عصي محشاتهم. ثم غرزوها سريعاً في الأرض، واستقبلوا الأمير.

- من محشته أحد سينا؟ تأمل الأمير الرجال والشباب ورضاه عنهم بادٍ على وجهه المرتاح.

- ليس بيننا من يحمل محشة مثلومة يا أمير، - أضاف قدان ابتسامة سريعة إلى كلامه. - ومن تتلّم محشته يهرع إلى يمزح الحداد فيعيد إليها حدتها.

- إلى القرية؟ - تظاهر ردد باستغراب ما يسمع.

- يمزح معنا، - ضحك شوباش من قلبه، وتضاحك الرجال، - ها هو جالس في ظل الشجرة. لا، بل هو آت.

- يا قدان عندك من المشاغل ما يُغرقك وإن لم ترافق الحشاشين. - نظر إليه

الأمير مُشفقاً عليه، - لن تستطيع القيام بكل الأعمال وحدك.

- ألا نروض أجسادنا قليلاً يا أمير، - كان قدان مرتاحاً لإشفاق الأمير عليه، - سنعوّض ذلك اليوم الوحيد لاحقاً.

- هات محشّتك إذن قليلاً، - مدّ الأمير يده نحو أخيه الأصغر. - قدان، قف أنت أمامي إلى جانب المساحة الكثيفة. - ألم تحشوا في العام الماضي كمية كبيرة؟

- ما يُحشّ في الموسم الواحد لا يكفي لعامين يا أمير. زاد كثيرٌ مما حُصّص لخيول المقاتلين. ولكن هناك من احتاج إلى علف لحيواناته في مزبه ومستحقوه وغيرهما. ووزعنا عربة أو نصف عربة لكل محتاج. والحشيش يتفتت مع الزمن.

- ابدأ يا قدان! - لوّح الأمير الكبير بالحمشة، سنحشّ متخيلين أنفسنا في عاصفة ثلجية.

- كان عليك إذن تصل قبل انحسار الندى. - مازح شوباش أخاه الأكبر، - الحشّ ممتع مع الندى.

تبع الأمير الكبير قدانَ معتمداً بخفة على الحمشة. وها هو يتقدم بخطوات قصيرة تلامس الأرض ولا تلامسها. يجمع الحشيش في أكوام منتظمة طولاً. وشوباش يتقدم إلى جانبيهما. ومن وقت لآخر يلقي نظرة إلى قدان مرة، وإلى أخيه أخرى.

- أسرع يا قدان، أسرع! أكاد أصيب عقبك. - الأمير الكبير يرمي وراءه أكوام الحشيش تابعاً قائد جيشه.

- وأنتم؟ لماذا تتأخرون كثيراً عمّن أمامكم؟ - يحثّ شوباش الحشاشين الذين وراءه.

- إن كنت على هذه الدرجة من النشاط فخذ محشّتي، لا تتأخر عن الأمير، - يردّ عليه غأت دون أن يرفع رأسه. ويضحك أدشس الذي يتابعه.

- هات، لا أسهل منها، - ينفخ شوباش في راحتيه، ويتبع أخاه الأكبر. ويسرع في حركة الحمشة.

يقول قدان إلى من وراءه:

- انتبهوا إلى الأماكن التي تطير منها الطيور! لا تكسروا بيوضها. متى فرّخت

فستنفعنا في الصيف.

يقصّر شوباش المسافة التي تأخر فيها غأت عن ردد، ويكاد يلامس عقبه. الحشاش أصم، لم يعد ردد يسمع شيئاً. يتقدم خطوة خطوة على وتيرة واحدة. وإذا كان شوباش لا يلاحظ فصاحبه غأت يرى: الشاب يضعف، وحركة المحشة تتراخي. والعرق يسيل من وجهه. ومهما بذل من جهد فأخوه يبتعد عنه.

- هذا غير مقبول، ظننتك ستفعل شيئاً عظيماً، - يستعيد غأت المحشة من شوباش ببراءة.

يصل العمال إلى الشجرة التي يستظل بها يمزش. يعتمدون على مقابض آلاتهم بوجوههم التي تشتعل ناراً، ويلقون نظرة على أكوام الحشيش. وينادي الحداد المنكب على طرقي المحشة:

- أما نسيت الحشّ يا أمير؟

- أنت ماهر في ما مارسه كثيراً يا يمزش. كأني نسيت شيئاً منه، ولكن لم أذكر جهداً. هل تبدو أكوامي سيئة الترتيب؟ يسأل الأمير الكبير راضياً عن نفسه.

- أرجو ألا يغار الآخرون، كومتك أحسن صفاً من أكوامهم يا أمير. - يقابله الحداد بنظرة خبث وإن كان يقول الحقيقة: - عملت جيداً لأنك ما تزال محتفظاً بقواك.

- كيف نتكافأ، أنا وأنت يا يمزش؟ - مزح الأمير مع الحداد.

- ألسنا متكافئين ما دمنا معاً؟ - يبتسم يمزش.

- ولكن من يحشّ ومن يجلس في الظل يقول إنه كان في الحشّ. - هل هذه عدالة؟

- أفضل أن أحش طوال النهار يا أمير على أن أجلس أسنّ الحشاشات. - دافع يمزش عن نفسه وإن كان يعرف أن الأمير يمزح. ومن يغبطني أعطيه مطرقتي وسندان الصغير¹.

¹ يتم سنّ الحشاشات بطرقها على سندان ومطرقة صغيرين. وكان كل فلاح يحملهما معه.

- من بينكم يعرف طُرُق الحشّة على السندان؟ يسأل الأمير بصوت أجشّ ناعم، ولكن الجميع يزمّون أكتافهم دون جواب. - هل ترى يا يمزش؟ أنت الحداد الوحيد لدينا. لا أحد بينهم يعرف طرق الحشّة. الآلهة وزعوا الصنائع سلفاً على بعض الناس. ليس من أجل الاستمتاع بها. بل من أجل أن يتعبوا لأجل الناس.

- هذا كلامٌ حقّ يا أمير، ولكن القلب يسعد حين يراك قد نفعت الناس. وتتجه إلى الآلهة الذين غرسوا فيك المهنة راضياً عنهم. - وهل هناك ما يدعو للرضا أكثر من أن تبقى مهنتك بين الناس يا يمزش؟ - اختتم الأمير كلامه، ونادى حراسه الشباب: - والآن أمسكوا أنتم بالحشّات وأهّؤا ما تبقى. القلب ينتعش حين ترى الحشيش في أكوام. ونحن سنستريح قليلاً ثم ننصرف. - ألا تتناولون شيئاً يا أمير؟ يمكننا إعدادُ مائدة شهية. - استعجل قدان، - تعبتُم، هذا عمل مرهق.

- لا يا قدان، لسنا جائعين. - انصرف الأمير الكبير بعدما ألقى نظرة على الشجرة التي تستريح تحتها الأحصنة. - سأمرّ على تيمرقوه. سمعتُ أن رجلاً من قريته عاد من توم - تقاش. أودّ أن أطرح عليه بعض الأسئلة. ما إن انصرف الأمير حتى رآوا ثلاثة فرسان يلتفون بسرعة من الغابة. لم يطمئن الأمير الكبير إلى سرعتهم، فالتفت إلى قدان قلقاً.

- كأن الفارس الأول صبيّ يلاحقه الآخرون. - وأنا أظنه هكذا. - قال قدان الذي يتابع الفرسان بعناية، - أظنه من طريقة ركوبه رجلاً صغيراً. 0 انظر يا أمير، ظهر الفرسان الذين يتبعونهم.

- إقطعوا طريقهم! - نادى الأمير حراسه. ونصح قائد الجيش المتوتر: - لا تقلق يا قدان، لن يسمحوا للفرسان الثلاثة أن يبتعدوا. - رآوا من يعترضهم فسمّروا خيولهم. - كان ردّد يروي ما يجري. - ثم تخلّوا عن الأحصنة واختفوا في الغابة. وتابعهم ملاحقوهم على الخيل. وفي غابة مستحقوه من الصعب التنقل على الخيل ما لم يجدوا درباً ما...

ترجّل الأمير وعاد فانضم إلى الحشاشين. وفيما الرجال مجتمعون صامتين ووجوههم إلى الغابة قال غأت لا يطيق صبراً:

- ما رأيك يا أمير أن ألحق بهم على الحصان؟

- لا حاجة يا غُأت. سيعود الفرسان الذين أرسلتهم قبل أن تصل. - جلس الأمير على أحد السروج المتراصفة تحت الشجرة يحاول إخفاء قلقه. ونادى قائد الجيش: - تعال، اجلس يا قدان.

- ما سبب ملاحقة الفرسان الثلاثة من مستحقوه يا ترى؟ - وقف قدان في حضرة الأمير الكبير ولم يجلس. - أقول هم لصوص، ولكن الوقت ليس ليلاً، أم تشاجروا مع أحد؟ أم قتلوا أحداً؟

- لماذا تتخيل يا قدان ما لم يحدث؟ متى عاد الفرسان أخبرونا بالحقيقة. اجلسن، أنت على رجليك منذ الفجر.

- لن أرتاح ما لم أعرف الخبر. - عاد قدان فوقف مع الناظرين جهة الغابة.

تابع الأمير قائد جيشه، معتبراً عدم تغير موقف الأخير منه، بعد الجفوة التي حدثت بينهما، رجولةً. وعاد فتوجه إليه من جديد. نفَعَنِي، أنا ورفاقي، الحديث الصريح الذي سمعته من شوباش، كائناً من كان الذي أوحى به إليه، حتى لو كانت أبنار. كنت ممسكاً بالناس كأن على رؤوسهم الأعنة. ولما أطلقت لهم الحرية تطوروا روحاً وعقلاً. وصاروا ينجزون مهمات كبيرة. وقدان خالط الحكوف والزيخ، ودرّب فرسانهم أفسى تدريب، وأشاع بينهم روح التنافس. واختبر مبارزاتهم. وكنت أعتقد أنه وشوباش سيتقاربان أكثر بعد مساعي شوباش معه. ولكن لم يتغير شيء مما بينهما. ليس في قدان طباع التملق والرياء. لا يتغير مهما جرى. كان تصرّف معي بنزق حين اتهمت، ولكن حتى الكلب يعضك إن وطئت ذيله، فكيف يقبل الرجل البريء الاتهام الظالم؟ لا تخفى عاطفته الدافئة نحو شوباش. ولكن لا يبالغ في مسابرتة من أجل هذا. وكان بين الأمراء وقادة الجيش من رأى في سلوكي معه أمام المجلس الأعلى تنازلاً، ولكني لا أندم عليه. أنا إنسان، ويحدث أن أخطئ. وأتذكر كثيراً ما قاله لي قدان بعد الاجتماع: " لا أعتب عليك يا أمير، تصرّفت تبعاً لما أقنعوك به. وأنا لو كنت مكانك لربما ما وجدت طريقة أخرى للتعامل معك. اغفر لي ما صدر مني من كلمات جافية في ذروة انفعالي. وما أنت طلبت مني أمام المؤتمر أن أسامحك على اتهامك لي. ومن يستطيع هذا من موقعك قليلون. ولولا

شوباش كنت هجرت مزبه ملتصقاً بي اسم السارق. الحياة لا تبدأ يا أمير من مزبه، ولا تنتهي فيها. كنت أستطيع أن أتابع حياتي على نحو ما في مستحقوه، ولكن كان حرماي من المشاركة في أمور الدولة التي بدأت بتأسيسها سيقى حسرة في نفسي. كنت في انتظار أن يدخل بيننا أحد، كبيراً أم صغيراً، موطناً نفسي على الصبر..."

- الفرسان عائدون يا أمير! - قطع صوت حاد أفكار ردد وذكرياته. نهض بسرعة، ونظر جهة الفرسان. ولما اقتربوا تعرف على تيمرقوه حاملاً على حارك حصانه من ظنوه صيباً. وقف تيمرقوه راكباً أمام الأمير الكبير، وألقى الرجل المحمول على الحشيش. ثم ترجل وراءه. أمسك تيمرقوه بظهر الرجل ونصبه أمام الأمير يرتجف. رجل أسمر نحيف. ذو أنف ووجه مدورين. ونصف الشعر القصير أبيض. وعيناه خضراوان، وبالإجمال له هيئة قطّ.

- انظر يا أمير، حدّق فيه جيداً. - قال تيمرقوه، - استطاع هذا الهيكل الذي لا لحم عليه أن يخدعنا.

- من هذا؟

- هذا الرجل الذي لا يساوي شيئاً عاد إلينا، كنت أرسلت إليك قصته. - دار تيمرقوه من حوله، وأمسك بذراعه فانكمش الرجل الضئيل. - هل أنت خائف؟ لولا خوفي من الربّ لقتلتك في مكانك أيها القزم.

- هدّئ نفسك لحظة، وارو لنا ما حدث. - نصح الأمير تيمرقوه.

- ساجني يا أمير، أنساني الغضب الذي تملكني أي في حضرتك. - هذا المنحوس رافقنا، قانشاو وأنا في الأسر، ولما عدت إلى هنا، وانضم قانشاو إلى الروسيج، التحق هذا الدمية بأرملة من الروسيج، واستقر في توم - تقاش. وصدّقناه حين عاد إلينا بحجة أنه ملّ من الروسيج وحنّ إلى قريته. ولم تقبله زوجته السابقة، فضمه إليه ابنه الأكبر. أراقبه كل يوم فأراه لا يهدأ، يظهر هنا، ويختفي هناك. فأقنعت نفسي بأنه اشتاق إلى القرية وأهلها. أليس هاوي الأخبار جوالاً في الحيّ! تبين أن ما يريده مختلف جداً. في الليل يطوف على قرى القسوغ بحجة النزهة، فيتعرف ما يقولون، وينظر إلى أحوالهم. ثم تجاوز هذا إلى تحريض الناس.

- ماذا يقول لهم؟
- يُقنع الناس أن التجار القادمين إلينا لا يدفعون إلا نصف قيمة ما نبيعهم، وأنتك تأخذ لنفسك أكثر ما يدفعون.
- أهو مصدر كل هذه الشائعات؟! - ابتسم الأمير الكبير.
- ألسنت من القسوغ - عدِمك أهلك! - ألم يبق فيك شيء من الإنسانية، هل تحولت إلى كلب حقيقي؟ - لم يصبر قدان.
- الحجر الذي لا يعجبك يفج رأسك يا أمير. أليس من البؤس أن يتآمر عليك مثل هذا؟ - شكاً يمزش. لو كنت في المحددة لقطعت لسانه بالملقط الحامي.
- عجيب أن لم ينطق إلى الآن بأي كلمة! - تأمل الأمير الكبير في عيني الرجل الصغير الراكنتين، - كأن لسانه مقطوع. انظر يا يمزش!
- ضغط الحداد على وجنتي الرجل ثم فتح فمه عنوة.
- لا، لا يزال لسانه القدر في فمه. - تراجع يمزش ضاحكاً.
- نطق الرجل الأسود الصغير ذو العينين الواجنتين لأول مرة وهو يعض على شفثيه الرقيقتين:
- أناديك باسم الأمير لأنهم ينادونك به، غير أن أميرى أنا يقيم في توم - تقاش. هذا أولاً...
- اهدؤوا، الرجل الصغير انطلق لسانه. - رفع الأمير يده، - وما الثاني؟
- وثانياً أتوسل إليك أن تسمح لهم أن يفعلوا بي ما يريدون، خير من أن تدعهم يوجهون لي ما يأتي على رؤوس ألسنتهم. أنا أيضاً ولدت بقبعة. - رفع الرجل الأسود الصغير رأسه متكبراً، وضّم شفثيه الرقيقتين حتى اختفتا.
- هذا أيضاً كلام رجال. - رفع الأمير رأسه. - لا تستعجل على ما تطلبه، ستجده أخيراً. ماذا قدّم لك أميرك حتى تقاتل قومك؟
- منحنا الروسيح حريتنا حين صرنا في أسرهم. وسأؤونا بأنفسهم. - التفت الرجل الصغير إلى تيمرقوه، - إن كنت أكذب فليشهد هذا! حين منحونا حرية أن نفعل ما نريد اخترت توم - تقاش مُقاماً، ولاسيما أني أحببت امرأة منهم.
- حسب كلامك، لم تمش على طريق رفاقك السابقين.

- لم أعد مع هذا، - أشار إلى تيمرقوه، - ولم يقبلني الجيش الذي انضم إليه خالك قانشاو. لم أنجح في الاختبار.

- يبدو أنك اخترت الطريق الأسهل، وهو طريق التجسس والخيانة. دنا منه الأمير بجين مقطب وعينين جاحظتين، - أنت تطلب أن أحميك من إهانتهم لك، ولكن هل تفهم معنى محاربتك قومك؟ ألا يُحرّك أخص قدمك متى وشيت بنا؟ وبأي عين تنظر في وجوه أولادك؟ وتُهين أولاد أولادهم بدلاً من أن تلاعبهم على فخذيك...

- هؤلاء جئتهم بما يكفيهم من المال. - أضاف الرجل إلى ما يروي للأمير الكبير.

- أنت مخطئ إن اعتقدت أنك تستطيع شراء ابنك بالمال. إن عرف أنك خائن طردك من بيته فلا تقع عينك عليه ثانية. - هزّ تيمرقوه رأسه. - ما أحسن ابنَ هذا المجنون!

- يا تيمرقوه: الرجل الصالح لا ينبغي ولداً صالحاً. ابن من لا يساوي شيئاً يجبرك على احترامه. - ساهم يمزش.

- كفى، ليس هذا لبَّ موضوعنا، - أوقف الأمير الجدال، - كم مرة جئت إلى نواحيننا؟

- هذه أول مرة. - أطرق الرجل الصغير، - قبل هذه زرت الموطن مرتين. والزيخ مرة. الأمير الكبير مستيسلاف لا يقبل تدريب هؤلاء، ولا محيي التجار إليكم.

- ألا يدرب أميرك الجيش؟

- هو غير مهتم بالموضوع، عنده مسؤولون، ويزيد تعداد الجيش من مدة إلى أخرى.

- من في جيشه؟

- الأغلبية من الروسيخ، ويقبل أبناء قومنا أيضاً، لا تميز عنده.

- وأنت ماذا يقدمون لك؟

- يعطونني ذهباً. - نصف المبلغ مع القدوم والنصف عند العودة.

- وإن لم تعد؟

- سيأمر باختطائي، ويُرْهِق رُوحِي ضَرْباً بالسوط.
- من كان معك؟
- شباب من القسوغ. جاؤوا لينقلوا الأخبار التي جمعتها إلى الروسيغ.
- وأين هم الآن يا تيمرقوه؟ - سأل الأمير الكبير.
- هؤلاء رفعوا السلاح في وجهنا فكان لنا تصرُّفٌ آخر معهم.
- وتركتم الجثث في الغابة؟
- لن ندنِّس مقبرتنا بهم. سيدفنونهم حيث قُتلوا.
- ومن أخبرك أن هذا خائن؟
- الصبي ناقلُ أخبار براءة يا أمير. ما سمعه حفيد هذا الرجل رواه لجاره الصبي. والآخر أسرع إليّ. والثلاثة هربوا لما ارتابوا في وصول الموضوع إليّ.
- هل يستعدُّ الأمير مستيسلاف للحرب؟ ماذا سمعت من أخبار؟- توجه الأمير إلى الرجل الصغير.
- لا أخبار من هذا القبيل.- رفَّ الخائن بجفونه. لا يفعل أكثر من تطوير الجيش. زار القسطنطينية قبل وقت قصير، ويدور على مدن الروسيغ وقراهم. وغالباً ما ينتشي حتى يتورد وجهه. وأحياناً يغضب ويحفظ عيناه حين يُغير عليه فرسان قومننا. ولكن حاشيته تُهدئه.
- كنت طلبت مني أن يفعلوا بك ما يريدون، والآن اخترت أنت ما تستحق. -
- تغير لون الأمير الكبير، واكتسى وجهه بالقسوة.
- إن أطلقتني، - نطق الرجل الصغير دون أن تظهر حركة فمه، وانكسر صوته، - فلن أضركم، ولن أطأ أرضنا ثانية.
- وتوم - تقاش التي تقيم فيها أليست أرضنا؟ - احتد الأمير.
- كان هذا قبل وقت طويل. حان الوقت لتنسوها.
- هذا رأيك؟ - احتدَّ الأمير، - نسيت أصلك سريعاً. امسخ على ظهر الكلب الذي عضَّك بعضَّك مرة أخرى. أبعدوه! لا أريد أن أراه بعدُ.
- نادى الرجل الصغير الذي يجرونه رغماً عنه:
- ليخبر أحدكم ابني أن يأخذ الذهب الذي وضعته فوق عارضة باب الإسطبل. أتمت انتهى أمركم مهما حاولتم. الأمير الكبير مستيسلاف سيفنيكم.

- يا للعجب! - صرخ يمزش، - ما أعلى صوت هذا الرجل الصغير! يربنا متناسياً ما سيحدث له.

تضاحك الرجال، ولكنهم تابعوا بنظراتهم الرجل الصغير الذي يسحبه قدان ورجلان ضخمان. ثم صمتوا فجأة.

عاد الرجلان مع قدان ولكن منظر الأمير العابس لم يُعجب قدان، فنصحه قلقاً:

- لا تفكر في هذا يا أمير! الخائن لقي ما جنى على نفسه.

- كنتُ فحراً إذ قطعنا شوطاً دون حرب ودماء، - تنهد ردد، - الكلب يموت ميتة الكلاب. لا أشفق عليه. ولم أصدّق شيئاً مما قاله. تبين أنه رجل صغير صلبٌ ولكن لونه تغير أخيراً. ألم تسمعوا ما قاله وهو منصرف؟ بدأت رائحة الحرب تهبّ. متى ما رأى الأمير مستيسلاف دمًا نفر الدم من عينيه، وسعد به. إذا كان يجمع جيشاً فهذا يندر بالشر.

- ونحن لسنا مكتوفي الأيدي يا أمير، - كان قدان يريد طمأنة الأمير الكبير. - وأنت تعرف أننا نعمل ليلاً ونهاراً. وها كل هؤلاء جئنا إلى الحشّ، وتركنا عدداً ليس قليلاً من المقاتلين، وبينهم مشقوه.

- دعونا نهمّ بالجيش يا قدان. لنفكر في الوسائل التي تسمح لنا بالتحرك في الوقت المناسب. - عاد الأمير فتوجه بالتوصيات إلى قائد الجيش، - علينا أن نكون جاهزين للخطر متى ظهر حتى لا نعصّ مرافقنا ندماً. وإلا فمتى وقفنا في الساحة ننتظر الحكوف والموط والزيخ متأملين وصولهم فسيمزقونا قطعاً للكلاب.

- ليس إلى هذا الحد يا أمير، - قال قدان واثقاً. - ما يخيفني هو العدد الهائل للروسيج. من يتلقى كل يوم تدريباً أقوى ممن يترك يد المحراث ويتجه إلى الحرب. إن حشدوا جيشاً أكثر مما عندنا بكثير فأنا أخشى أن نقع في مأزق.

- لن نبكي أنفسنا قبل أن نموت، - قال الأمير، ثم خرج عن الموضوع المقلق الذي هيمن فجأة على الجمع: - كنتم تستعدّون للطعام لولا هذا الرجل الصغير المنحوس...

- من عنده الآن استعداد للطعام يا أمير... - قال قدان، غير أن الحشاشين

وضيوفهم تناولوا الغداء معاً. - وبعد ما جلسوا قليلاً قال الأمير مستاءً:
 - وهناك محاربون من قومنا صقّوا إلى جانب الروسيح. وهذا مما يرهق تفكيرى. ها هم يرفعون سيوفهم في وجوهنا كأن ما سفكناه من دمنا قليل.
 - لم يبدأ الأمر بنا يا أمير، ولن ينتهي. كل الأقوام يظهر فيها من يعادونها. وأنت من كان قد قال هذا يا أمير.
 - ولكن إذا كنت تحب قومك يا قدان تمنيت أن يكون الجميع صالحين. - عاد الأمير فابتسم مدركاً أن هذا مستحيل.

VI

هذا يمد يده إلى الأعلى فيقطف، والآخر إلى الأسفل فيتناوله...
 "لا تمد يدك إلى ما لن تصل إليه. ولا تنزل بيدك فتتناول ما ليس لك" - كرر الأمير أبج على مسمعيه وصايا والده. ثم انتزع يديه من تحت رأسه وقعد في الفراش.

الوقت صباح يوم ربيعي متأخر. ومن المضيق البحري تهب ريح صافية تتصور نفسك تطير معها. والأشجار العارية تكتسي بالأوراق والأعواد الفتية الخضراء. والعشب الكثيف غطى أفنية البيوت. وكل الكائنات الحية أفاقت مبكرة تبسم للنهار الجديد.

"وما هذه النصائح التي يلقني إياها والدي؟ - غضب أبج نوع غضب. - حين حللتُ محله كنتُ مالِك كلِّ مَنْ على أرض الزيوخ وما عليها. وكنت حراً في ما أقطف، وما ألقط. وروح من يعارضني في جيبي. ولكن ما أخطأت فيه هو قتلي الأمراء الصريحين معي مثل شلمت. عرفت متأخراً أن هؤلاء كانوا حريصين عليّ. لم أنتبه إلى من كانوا يشيخون بوجوههم فلا أعرف ما في قلوبهم. سبقي ابن لاورستن فاكتشف أمثال زيكوشو. أفكر كلما خطر لي محاولاً تدكّر التاريخ الذي بدأت فيه علاقاتنا، أنا وشلمت، تسوء. كنا نتقابل بالعناق الحار إن زرتّه أو زارني. الآلهة زرعت فيّ طبعاً مشؤوماً: لم أتحمّل حين بدأ يلح عليّ أن أفعل هذا أو ذاك. لم أصاحب إلا من يهيجني. ومن خدعني بعد ذلك هو تراب الأحذب. أقنعي أن الأمراء والفلاحين لم يعودوا راغبين في

ابن لاورستن، فهجمت في الوقت غير المناسب. وماذا كان يعدل أن أعيش والزنج تحت إمري؟ والآن أخاف أن أطا أرض المدينة دون حراسة الجنود الروسيج. ولا فرحة عندي إلا البيت الصغير الشبيه بالخندق...

انتظر أبج زيرار أسبوعاً واثنين بعدما أطلقه إلى نواحي أنابه. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة اقتنع أنه لن يعود. وأول ما خطر لأبج هو الذهب الذي أعطاه لزيرار. ذهب إلى البيت الذي استأجره له واثقاً من أنه لن يركب طريقاً خطيراً والذهب في يده. ولكن سبقه من بعثر كل ما في البيت. وعرف أن لا أحد فعل هذا غير الشاب الموطي الذي اتخذ زيرار صديقاً. لم يكن يريد أن يراه، ولكنه عاد فقلب الدار الصغيرة من جديد، وسأل عنه فلم يعرفه أحد. ولما لم يجده كفّ عن السؤال عنه: " لا شك أنه سرق بيت صديقه حين لم يعد. حدث مكروه ما لزيرار، وصاحبه سرق الذهب واختفى. عرف أبج أن هذا ما يمكن أن يحدث فعنف هو أيضاً نفسه. كان الروسيج خبروا أن الأمير ردد جاء إلى أنابه في ذلك الوقت برفقة عدد كبير من الفرسان. فإن وقع زيرار بيده فقد اهتز أساسي أنا أيضاً. كان يتنمر في حضرتي ولكن إذا كان وقع بين أيديهم فقد ذهب قتلي ديمتري على يده، والمؤامرة على قدان سدى..."

حُيِّل لأبج أن جدران البيت الأربعة انطبقت عليه. وحين رأى من النافذة شابين صديقين من الروسيج يمران، قفز من البيت متلهفاً، وتبعهما، وناداهما: - أين تذهبان؟

- ولماذا تسأل؟ - توقف الشاب الأشقر القصير وسأله مازحاً، - نبحت عن البنات.

- سأرافقكما إن لم يكن عندكما مانع. - صافحهما متصاغراً متوسلاً إليهما. كان قد فهم منذ اليوم الأول أنه لم يعد قائداً في جيش الروسيج، ولا أميراً للزنج، فتظاهر بأنه يمازحهما فرحاً بأنهما تقبّلاه رقيقاً: - وأنا ألا تجدون لي امرأة حلوة؟

- ألا يمكن أيها القسوغ أن تكون المرأة كجرو جنزير صغير؟ - مازجه غريشكا الأشقر الأزرق العينين. - أنفها في السماء، وردفاها مدوران، وخصرها كبرميل خشبي؟

- يكفي أن تكون لابسة غطاء رأس مهما كان شكلها. - لم يكن أبج يريد أكثر من دخول المدينة برفقة الشابين.

كان الشاب الأشقر القصير يتحدث إلى كل امرأة في الطريق، وفي السوق، وعلى المضيق. وأكثرهن يتابعن طريقهن دون إجابة، وبينهن من يقابلنه بإشارة إصبع إلى الجبين تعني: هل أنت مجنون؟

وحين يظهر لأبج من له سحنة أديعية يتابعه شاحباً حتى يغيب عن النظر. من لا تفارقه الهموم يشيخ قبل أوانه. لم يتوقف الهرم عند النحافة، بل شاب معظم شعر رأسه. لا يفارقه الخوف من احتمال أن يأتيه سهم أو ضربة خنجر من منعطفٍ ما. وكان عذابه سيتضاعف لو لم يستطع بكل الوسائل إقناع القائد الذي خلف قانشاو بتقبُّله. القائد الأول الذي يشبه الأمير الكبير مستيسلاف رفضه في البداية مطلقاً، ربما لأنه كان يظن أنه طامع في منصب. ولما لم يعد زيار تملكه الخوف من أن يرسو الدور عليه فطار النوم من عينيه. ولم يعد يطمع في أكثر من أن يجد محباً له أو يقبلوه جندياً عادياً.

دخل المضيق محتتماً بالشابين، ونظر فارتماً قلبه نحو الزبخ. تصفّح السفن المتنوعة المتراصفة. ارتسم ردد برأسه الضخم أمام عينيه فخاطبه بسخرية مُرّة: "إن كنت رجلاً مهماً إلى هذا الحد فتاجر الآن مع من كنت تأتي بهم من مختلف الدول. الأمير مستيسلاف تشقّى لي منك. طلب تحويل ما يأتي إليك من بضائع إلى توم - تقاش. وسترى منهم ما هو أفسى من هذا دون تأخير. أنا سأعود أميراً للزبخ، وأنت لن تعرف إلى أين تنجو بجلدك..."

قفز قلب أبج من الأمل المحدود الذي خالط أفكاره. وطففت رغماً عنه وصية والده التي كان يرفضها: "يا ولدي قوّ قلبك حيث لا قوة لديك، سيُعِدُّونه لك رجولة". - "لا يا والدنا، لم تعد الحياة كما كنت تتصورها، لم أستطع إخضاع أمراء الزبخ رغم أنني لم أتسامح. حرموني في يوم واحد مما جمعت أنت وأضفت أنا. صحيح أنك لم تمسك يد محراث، ولا أنا محشّة، فكأن مالنا جاءت به الرياح، فجرفه السيل. ولكن ألم نكن نحن أصحابه؟ ألم تكن إمرئتنا هي ما جلبته لنا؟ لا أكتّم أنني كنت أضيف إليه كل يوم مستقلاً ما عندي. نعم يا ولدي، يقولون إن من ماله قليلٌ مصيره حفرة فارغة، ولكني قفزت من فوق الحفرة، وها

هو الذهب الذي جمعناه أحملة على خصري، وسأزيده متى عدت إلى منصبي.
كنت تنهرني في شبابي مهما جئت من المال، حتى لو ادّعيْتُ أنني وجدته، تقول لي: "ما لا يقبله القلب لا تمتد إليه اليد". انتهى العالم الذي عشت فيه أنت.
لا يمنعونه عنك فحسب، بل افرح إن سلبته منهم..."

- إيه يا أبج، بم تفكر؟ - هل اشتقت إلى بنات القسوغ السُّمر؟ - فاجأه غريشكا الأفطس بصوت مرج.

- عندنا يا غريشكا السمر والبيض. وعندنا العيون الزرق والعسلية والسود.
ولكن لا أفكر فيهنّ. - نظر أبج فلقاً إلى الرجلين الأسمرين اللذين ينظران إليه من حين لآخر، وقال:- أليس هذان من القسوغ؟

- ألا ترى ملابسهما؟ هذان تاجران روميان.

- والقسوغ يمكن أن يلبسوا أي زيّ - لم يطمئن أبج.

- لا يا رجل، هؤلاء أشدُّ سمرة، - كان غريشكا جاداً في إقناعه بأحما روميان.
ملامح الوجهين مستوية، وأنفاهما مسطحان، أو محدبان قليلاً. أنا كنت في نواحيكم. ملامح القسوغ منسحبة، وأنوفهم مستقيمة، وعيونهم سوداء أو عسلية، سمّرتهم أخفّ من سمرة الروم.

- تفحصتهم جيداً يا غريشكا. - ابتسم أبج وقد هدأ باله. - أنتم تسموننا بالقسوغ ولكن لسنا جميعاً من القسوغ. عندنا الموط والزبخ والحكوف وغيرهم.
وعندنا الأسمر والأشقر والوجه الصبوح والأحمر، تجد بيننا ما تريد. ومن جهة العيون عندنا أي لون تريد. وبيننا من يشبهونكم.

- لا، أنا لا أخلط بين الروسيخ وجماعتكم. وها أنا أعرف من في جيشنا من أبناء قومك من النظرة الأولى. انظر إلى الاتجاه الآخر - أشار الشاب إلى الرجال الثلاثة الذين ترجلوا من السفينة، - هؤلاء من جنوة، والذين من ورائهم يلبسون الطرايش...

- وأنا أعرف أن هذه طرايش، - سبق أبج الشاب.

- ألا تُخطئ؟ - هزّ الروسيخ له يده رياءً، - ألا يمكن أن يكونوا جواسيس من القسوغ ارتدوا ملابس فارسية؟

- لا، من سُحتتهم أراهم أيضاً، ليسوا من القسوغ. - فهم أبج المزحة.

- هل تحنّ إلى دياركم يا أبج؟ - سأل الروسيح الطويل القائمة الذي لم يقل شيئاً إلى الآن.

- ليس مجرد حنين يا كوزما بل أكاد أنفجر حنيئاً. - اكتأب أبج، - لم أكن أمير قرية فحسب في الزيخ، كانت القرى كلها تحت إمّرتي. كنت أمير الزيخ كلهم.

- سمعتُ بهذا، - ابتسم كوزما دون أن تميز إن كان أشفق عليه أم يسخر منه، - ربما لهذا السبب منحوك بيتاً مستقلاً. والآن بقيت جندياً عادياً. ألم يكن الأفضل التعايش مع أميركم الكبير؟

- ليس من النوع الذي يمكن التفاهم معه. - احمرّ أبج غضباً، - لا رأي إلا رأيّه هو.

- ويقال إنه لا يتفق مع أميرنا الكبير مستيسلاف. لا بدّ أنه رجل قوي طموح. ألف دولة لم تكن للقسوغ يوماً. وجمع بين الأعراق التي أتيت على ذكرها. ونحن يأخذنا أميرنا مستيسلاف إلى نهر الدون. ويوصلنا إلى نهر الدنيبر. ونُشهر عليهم السلاح. ويُجرّ الروسيح بالقوة على الرضوخ له.

- وهل تظن أبناء قوم ردد انضوّوا تحت سلطته بإرادتهم؟ - صرخ أبج حتى احمرّ وجهه النحيف، - قاومه الحكوف فهزمهم، وأنا حشد ضدي هؤلاء الحكوف أنفسهم والموط والقسوغ. وسلبني سلطتي.

- لا تغضب يا أبج! - ربّت كوزما على كتفه كما يفعل الأصدقاء. نظر إليه صادقاً، - لا يحارب الفرد في البرية كما يقول الروسيح. إذا كان كل من ذكرتهم حاربوك فهذا يعني أنك مذنب بتهمة ما، كما سمعنا أن أمراءك أداروا لك ظهورهم.

- لأنهم جنباء، - لم يكن أبج يتراجع، - يعرفون أن ردد لا يتورع عن أي أحد يخالفه، فحنوا ظهورهم وهرعوا إلى مخالفته.

- مهما كان الأمر فما حدث لك ليس مقبولاً، - أنهى كوزما الجدل، - من حسن حظك أنك انضممت إلى جيشنا، وإلا أنهى القسوغ أمرك؛ ألسْتُ على حق؟

- بدا أمير القسوغ الكبير طويلتان. لا يُستبعد أن تصلا إلى القلعة التي أنا

فيها. - وافق الشاب الروسيح الضخم أبج....

كان ليل الربيع في أواخره حين قُرع باب أبج. كانوا يُستنفرون بهذه الطريقة مراراً دون حرب. يجمعونهم بأقصى سرعة، ثم يصدر قائد الجيش أوامره وحصانه يروح ويغدو أمامهم. ويخرجهم خبيئاً من قلب المدينة، فينتقلون إلى العدو. ويعودون بعد أن يصلوا إلى حافة المستنقع أو إلى إحدى الغابات دون أن يفعلوا أو يروا شيئاً. وكان هذا جزءاً من برامج تدريب الجيش. والآن ظن أبج أنهم يجمعونهم أيضاً عبثاً، فشرع يرتدي ملابسه محتجاً. لم يكن غارقاً في النوم بل في النقاش الذي جرى بينه وبين كوزما، والذي تحول إلى غصّة لا يستطيع ابتلاعها: "أنا أقول شيئاً، وهو يردّ بأول ما يخطر له. - تقلّد أبج سلاحه غاضباً، - كأنه يعرف ردد أحسن مما أعرفه فيمدحه لي... كنت رأيّتك لو وقعت تحت سيفه... وانظر بَمَ عَيَّرني أخيراً متظاهراً باللطف. يقول إنك لست بريئاً تماماً. أنت قائد مجموعة من الفرسان فلا بد أن بعض الأخبار تصلك. ولم تتقبل انتقادي لردد ذي الرأس الكبير. تنصحي كما كان والذي يفعل. لا ترّ ما في العدو من فضيلة. تعلّم منه ما فيه فائدة لك، تشجّعوا أنتم وهاجموا ردد، وتخلص من فضائله وعيوبه معاً"

سأل أبج بعدما امتطى حصانه الفارس إلى جانبه:

- أهو مجرد مناورة أم هناك خطر ما؟

- أخبر الرّصّاد أن أكثر من عشرين فارساً من القسوغ عبروا الحدود من جهة المستنقع.

بحث أبج متلهفاً عن غريشكا ولكن لم يره بين الأعداد الغفيرة من الفرسان المجتمعين. نظر إلى السماء؛ ليست ليلة مقمرة تماماً. يختفي القمر أحياناً وراء مزق السحاب ثم يظهر. وما إن أطرق أبج حتى شُمع صوت كوزما، ووقع حوافر خيل على الأرض المرصوفة بالحجر. ولما خرجوا من المدينة بين عدوٍ وخبيب خفتت أصوات الحوافر واتّسق مسير الجنود.

حُيِّل لأبج قبل أن ينطلقوا أن جوّ الليل لطيف، وسرت رعشة خفيفة في ظهره. والآن كان يستمتع ببعض الحرارة التي تحتلط بالبرد على شكل موجات. ويجد راحة في الحرارة التي غمرت الوجه النحيف.

سمع كوزما قبل أن يصلوا إلى الحدود بقليل صوت تدافع خيل، فرجع يده وأوقف الفرسان. وفي الحال تعرّف على الفارس الذي ظهر على ضوء القمر فناداه: - تيموفا، أهذا أنت؟

- نعم يا كوزما، أنا. - وصل الفارس إليه مسرعاً. - نلاحق مجموعة فرسان القسوغ.

- لن يبتعدوا! - لمع سيف كوزما على ضوء القمر.

أضاء القمر الطالع من وراء الغيوم الفرسان الملاحقين قبل أن يتقدموا غلوة حصان واحدة. والتحم الطرفان. والتجأ إلى السيوف والتروس. وكان من نصيب أبج رجل في منتصف العمر. فبادر محمولاً بأحقادته إلى الضرب بسرعة. وقابل الرجل سيف أبج بالترس فانطلق منهما الشرر. وفي الحال قطع جندي من الروسيح ظهر الكهل من الورا. استدار أبج في الحال إلى اليسار فقتل الرجل الذي كان ينوي ضرب كوزما فقتله. وتراءى له فارسان هربا. - لن تعودا! - لاحقهما أبج.

تعثر حصان الفارس المتأخر عن رفيقه ورأى أبج عرجه. نظر الفارس مرتعباً إلى الخلف. ولما رأى ملاحقه يكاد يصل إليه استدار شاهراً سيفه. ولكنه لم يجد الفرصة ليضرب به. رماه أبج وهو في أقصى جريه عن الحصان وتجاوزته. الفارس الآخر يخفق بمرفقيه بسرعة. ويحاول جاهداً حثّ حصانه. ويلتفت من لحظة إلى أخرى. وأخيراً لحق به. ورغم محاولة الفارس الانحناء على حصانه لتفادي الضربة فقد أتاها أبج من جانبه وقصّ خصره.

- يا لشماتتي فيك! تشقيت منك! - قال أبج بصوت عالٍ وأدار حصانه - اعتبر نفسي قتلت ابن لاورستن بأحدهما، وبالثاني عوّضت الإمارة التي سلبوها مني.

وقف كوزما الذي لاحظ اندفاع أبج الجنوبي إلى جانبه وامتحده:

- أنت تتفاني في حريك يا أبج. أستغرب الكراهية التي تقابل بها قومك. لو ستموك لما تصرفت هكذا.

- وسأهزم هؤلاء بأعنف مما رأيت، انتظري ريثما ندخل أرضهم، - كان يريد إقناع كوزما أنه صار واحداً من الروسيح. - أوقف كوزما حصانه أمام الجثث

- هؤلاء شباب وسيمون، لا يزال الحليب يسيل من أفواههم.
 - كان على هؤلاء أن يجلسوا على مواقدهم يمسون بأطراف أثواب أمهاتهم.
 لم يرق قلب أبج: أقتل من يريد قتلك؛ ولا تفرق بين عجز وشاب!
 - أقول هذا لأننا تصرفنا بما يشبه الوحشية. - ارتخي صوت كوزما، - كان حق هؤلاء أن نجلدهم، ونصرفهم حتى لا يغيروا مرة أخرى علينا.
 - إن صرفتهم عادوا غداً فأغاروا، قتلوا ونهبوا. - احتج أبج.
 توجه جنود الروسيج بعد تلك المعركة الليلية القصيرة جداً إلى أبج. وغيروا طريقتهم من تحية هز الرأس الخفية. إلى مصافحته والسؤال عن حاله. وبدؤوا يخاطبونه سابقين اسمه بلقب الأمير.

كل هذا أعاد الثقة إلى نفس أبج. وكف عن تبكيت نفسه كما في الماضي. وغابت عنه ليالي الأرق. وكان يحدث أن يعفيه كوزما من التمارين الليلية. وأسعد الأوقات إليه حين يصطحبه كوزما إلى بيته فينسى كل هم وعدو. وكان غريشكا يرافقهما دائماً. وأبج يعتمد عليهما إن كانا في المدينة أو في غيرها واثقاً من أنهما سيحميانه. ولا يمر عليه يوم لا يخشى فيه وصول ردد إليه. ولكنه يطمئن في بيت كوزما. فيجلسون على مائدة ربة البيت يتناولون من الخمر البيضاء والحمراء، ويتبادلون الأنخاب حتى تتوهج الحدود.

وبعدما تحضر ربة البيت المائدة تتسلل فتدعو جارحاً الجميلة. لم يكن في ماريا ما لا تشتهي: الوجه أبيض، والعينان زرقاوان، والشفتان غليظتان، والقامة ممشوقة، والساقان كصفار البيض. وبعد أن يتبادلا بعض المزاح يجد غريشكا ذريعة فيخرج على أن يعود سريعاً. ويتظاهر كوزما بالعبث مع امرأته فيدفعها إلى الغرفة المجاورة، فيبقى أبج مع المرأة عاجزاً عن الكلام دون معرفة السبب، فيجلس غالباً لا يعرف ماذا يقول، ولا سيما أنه لا يتقن الحديث بلغة الروسيج، ويغلبه حياء لم يكن فيه في الماضي. ولا يجد من اللائق أن يسأل ماريا إن كانت متزوجة قبل أم بكرأ. ولا يخبره كوزما. يقولون له: " لست شاباً، وكنت ذا زوجة وأطفال. عليك أن تعرف من نظرتك للمرأة إن كانت ثيباً أم بكرأ " فيضحكون. ويرتب هو جوابه ناظراً إليها: " من منظر صدرها يفترض أن

تكون تزوجت ولكن لا أعرف لماذا بقيت وحيدة؟ ما الضرير في أن أسألهما:
أمات زوجها، أم قُتل في الحرب، أم انفصلا؟ ستخبرني بوضعها، ولكن ما
الفائدة؟ لن تتزوجني، ولن أتزوجها. إن قبلتني عشيقاً أنفَسَ بها عن قلبي فلن
أرفض. ولكن إن تعلقت بي على أمل أن أتزوجها؟ أنا لن أقيم هنا إلى الأبد.
وكيف أعود إلى قومي مع امرأة من الروسيج؟ "

في أحد الأيام فيما هما جالسان يتبادلان النظرات، وقد تركوهما وحدهما
بالطريقة نفسها، نخض أبج وشرب من الماء. وعاد من خلف ماريا فضمها إليه.
وكان ردّ فعل المرأة سريعاً وعفويّاً: أبعدت يديه بحركة عنيفة. ونهضت مسرعة
وألقت عليه نظرة باردة من عينيها الزرقاوين الواسعتين:

- من سمح لك أن تهجم علي؟ أنا أجلس معك معتبراً إياك إنساناً. وأنت
تهاجمني بيديك الملوّثتين بالدم.

- وكيف تكون يداي ملوثتين بالدم؟ انظري؛ ها هما! - مدّ أبج يديه للمرأة
مرتعباً. وتفقدتهما هو نفسه. - ما أنظفهما! لا أدعي أنني لا أشارك في الحرب،
ويحدث أن نسفك الدم. وكوزما وغريشكا مثلي. لماذا تجالسيني إذن؟

- لا أريد أن يعتب عليّ جيرانِي، هم طيبون معي.

- إذن أنت جالسة معي هكذا!

- كنت أريد أن أعرف من أي نوع من البشر أنتم القسوغ.

- وما حاجتك إلى هذا؟

- لا أعرف إن كان قتلُ زوجي بشراً أم وحوشاً.

- وكيف وجدتهم أخيراً؟

- إن كانوا مثلك فليسوا أناساً صالحين. من عينيكَ الماكرتين يبدو حُثُك.

- أنا سليل أسرة أمراء. ومقاتل في جيش الروسيج. لا أسمح لك أن تنعتيني بما
يأتي على رأس لسانك! - اشتعل أبج غضباً، - أتى زوجك إلى قومي قاتلاً
سارقاً فلقي جزاءه العادل. هل تعرفين أصحاب المدينة التي تقيمين فيها؟ ألا
تعرفين أصحاب الأرض التي تقفين عليها؟ جاء الكلب المجرم فطرد الكلب
البريء، فصرنا نحن الآن قتلُ تسيل أيدينا دمّاً، ووحوشاً، مجرمين! انظروا إلى
أنفسكم أولاً.

ربما كانت حمية أبج ستدفعه إلى كلام أقسى من هذا لولا أن عاد الرجل والمرأة وغيوئهما تقدح شرراً. فخرجت ماريا صامتة من البيت.

- ماذا جرى بينكما؟ سأل كوزما وهو ينظر واحماً في وجه أبج. - كنتما تجلسان في كل مرة لطيفين ودودين.

- هذه المرأة التي لا تساوي شيئاً تتهمني لأن زوجها قُتل على يد أبناء قومي! غيرتني بأن يدي ملطختان بالدم. - فهم أبج أن الكلمات المسيئة التي قالها لماريا ستترد عليه رغم أن الغضب لم يُزايله بعد، فتوجه إلى كوزما بصوت حازم: كفى، سأعود إلى بيتي.

من الصعب معرفة ما يطير بقلب الإنسان وما يكسر جناحيه. إن تحقق له أمر يشتت عذ نفسه أسعد الناس خطأً. ويحدث أن ينهار قلبه من مسألة تافهة. ما تصرف به مع ماريا أثار أحقاد أبج من جديد. ولو عرف أنه قادر على ابتلاع الكلمات التي دافع بها عن قومه ضد ماريا لقليل أن يشرب أشد الأدوية مرارة. كان يعرف أن الروسيح لن يغفروا له الكلمات التي نطق بها في وجه ماريا لتبرئة قومه في الوقت الذي بدأ فيه يستقر بينهم، فكان كلما قابل كوزما شعر بخطر وشيك عليه.

تبين أن المرأة خلاف ما توقعه أبج. لم يصله منها أي موقف رافض أو مؤيد. ومع أن الحادث ظل ذا أثر أليم عليه، فقد مضى عليه أسبوع فهدأ باله. وفي صباح أحد الأيام تم استنفارهم على عجل. وجمعوا في الدار الواسعة. وعلم أبج أن الأمير مستيسلاف سيتوجه نحو شرينغوف.

كان كوزما روى لأبج، بعدما استقر بين الروسيح وصارا صديقين، الصراع بين مستيسلاف وأخيه ياروسلاف. كان لكل من الأميرين الكبيرين أمه ولكن أباهما واحد. لم يكن مستيسلاف هاوي الدم والقتل يُطبق سيادة أخيه. ولا يخفي رغبته في الحلول محله.

خرج جيش مستيسلاف خبياً من توم - تقاش، مع العدو أحياناً طوال النهار، واستراحوا في الليل. وبعد مسير أربعة أيام وصلوا في الصباح إلى نهر صغير. عبرت المجموعتان الأوليان النهر دون أن يغمر الماء أعلى من رُكب الخيل. وقبل أن تشرع المجموعة التي فيها أبج بالعبور هجمت عليهم فجأة مجموعة من الغابة

الموازية للنهر. وقبل أن يعود العابرون إلى رفاقهم قُتل في الحرب القصيرة أحد عشر جندياً، وجرح أربعة. وبالسّعة التي هوجموا فيها اختفى المهاجمون في الغابة. وكان أبج بين الجرحى جرحاً خفيفاً إذ وصلت ضربة سيف إلى أسفل أضلاعه، وصبغت قميصه بالأحمر. ضمد له رفاقه الجرح وتابع سيره. وطوال مسيره لم يؤلمه صدره أكثر من وخزات مفاجئة أحياناً.

أعاد الأمير مستيسلاف فجأة جيشه فيما هو يستريح في إحدى القرى قبل الوصول إلى شيرنيغوف بمسافة غير قليلة.

ارتعب كوزما وهو يبدل ضماد جرح أبج بعدما وصلوا إلى توم - تقاش:

- الجرح متقيح. ليس جرحاً سليماً. سأتيك بالطبيب.

تفحص الرجل الكهل الأسمر ذو العينين الجاحظتين الذي أتى به كوزما الجرح طويلاً، وجسّ أطرافه حتى تألم أبج من داخله:

- كأن السيف نفذ إلى كبذك. - لم يكتم الطبيب.

- أخبرني إن كان عندك الدواء أدفع لك ذهباً، - نظر أبج إليه نظرة أمل.

- ماذا بيدي حتى لو أعطيتني بيتاً من ذهب. جدي علمني طب الأعشاب فحسب، فلا أعرف ما في داخل الجسم. ارتعب أبج، والنهار يتبع النهار. وكلما غيروا الضماد ازداد القيح. ثم تركوا الجرح مفتوحاً ولم يُفده هذا أيضاً. وفي إحدى الليالي تقيّاً ما أكله. وتأكد أن مصيره مظلّم.

في صباح ما دخل كوزما إليه، وجلس ينظر إليه مشفقاً. وعجز أبج عن النهوض. ولما أدرك النهاية المحتومة عاد ففكر للمرة الألف في من سيرث كيسه المملوء ذهباً. والآن توسل إلى صديقه الروسيح ناظرّاً إليه بانكسار:

- يا كوزما، ليس لي غيرك أعتمد عليه. أعرف أنكم ستهاجمون نواحينا عاجلاً أو آجلاً. كنت أنتظر ليلاً ونهاراً أن أعود إلى الزبيخ والكيس بيدي، غير أن الحظ لم يُسعفني. أرجوك إيصاله إلى أولادي. وأيّ مقدار تقتطع منه حلال عليك.

- لا تقل هذا، ستشفى، وتعود إلى أسرتك. - ابتسم كوزما للصديق راغباً في إنعاش روحه. ولكن أصرّ على تسليمه كيس الذهب.

VII

"حتى المناحة لها لحن الأغنية "

"أهو قول مأثور أم سمعتُ أحدهم يقوله؟ - كرر ردد هذا القول مرة أخرى. تذكرت: في أيام الحروب، حين تتتابع المآتم، لم أكن أقبل منهم الاحتفال بالأعياد. وكانت أمانا تنصحي حين تسمع هذا: "يا ولدي، من المناحة أيضاً يصدر لحن أغنية. مآتم أحدهم، وعرس الآخر. عليك مهما عانى الناس أن تُرثيهم يوم فرح أيضاً. يروّحون عن نفوسهم به، وينسون أحزانهم. وهل سيقضون حياتهم حانين ظهورهم؟! " كان لأمانا المرحومة فطنة عميقة. سنخصص يوم عيد، ونجمع أهالي القرى، وننشر بينهم التنافس متى جئنا البندق، ولا سيما أننا لم نجتمعهم في عيد الإله أحياناً منذ سنوات. لم يفكر أحد بعد وفاة كولس في يوم عيد. ولما توفيت أمانا فوَّتنا يوم الفلاحين. وبين العيدين حدثت حروب. والان أنا مطمئن إلى الآلهة، ولا خطر يهددنا. والمآتم انقطعت. والدولة بدأت تتخذ قآلبها. صحيح أن الأمير مستيسلاف لن يغفر لنا رِفْضنا المسيحية ودفع الإتاوة. والأمير أبج الذي التجأ إليه بعضنا بقدر ما يستطيع، ويثير بيننا الفتنة، ويرسل إلينا القتلة. وما قلته لقدان بهذا الشأن لم يستطع تنفيذه إلى الآن. وإن فكر بقتله ما اعترضتُ. ولكني لا أريد أن أحمل دم الجاسوس أبج. يكفي ما سفكنا من دم. لو كفّوا يده ولسانه عنا كان أفضل لنا ولهم؛ الآلهة سيصلون إليه أيضاً".

دخل ردد مركز التدريب وفي نفسه القرار الذي خطر له الليلة. سماء الربيع الأخضر صافية، والعصافير المرقطة الصغيرة على رؤوس الأعمدة وعلى الأسوار. والبلابل تستمتع بالنسيم الرقيق. والشحارير تتجاوب بأصوات متناغمة. والجنود الذين يدرهم شوباش يقطعون العصي المغروزة في الأرض بالسيوف، ويحتطفون القبعات المنثورة على الأرض. وقدان يراقب أزواج الجنود المتبارزين بالسيوف والتروس. ومشقوه يقود الرمي بالسهام.

- هذه ليست طريقة صحيحة للإمساك بالترس. - استلم قدان من المقاتل الشاب ترسه، - الآن أنت على الأرض، ولا يُستبعد إن كنت على الحصان أن ينحرف بك تبعاً لتدريبك له. حدِّقْ في عيني من ثقاتله. يمكن أن تعرف من

عينيه إلى أين سيتجه بالسيف. وبحث عن نقطة ضعفه. أنت تحرف ترسل باتجاه الضربة الكاذبة. والآخر يغير في طرفة عين فيقطع رأسك. هذا غير صحيح، انظر...

تذكر رد كيف كان كولس يدرهم في شبابهم: "لا تغب عينا خصمك عن عينيك إن كنت تصارع أو تقاتل. فإن فعلت فلن يفاجئك. - كان العجوز الحكيم ينصحهم دائماً. - أكسوا وجوهكم بالقسوة والصلابة! متى رآك خصمك ارتعبت فاعتبر نفسك مغلوباً" شعر الأمير بالسعادة إذ يتعلمون فنون المصارعة وحركاتها. ولقد هم دون قصد.

كان ظهر قدان إلى الأمير فاقترب منه دون أن يلاحظه. وبعدما حياهم انتحى بقائد الجيش، وانضم إليهما مشقوه وشوباش.

- يا قدان، رأيت أن طلبك جاء في الوقت المناسب. سنجمع أهالي القرى ونقيم حفلة رقص كبيرة مع سباق خيل. - نظر الأمير إلى قائد جيشه عارفاً أن الأخير سعيد بموافقته. - لن نستطيع إقامة حفلة على مستوى البلاد، ولن نستطيع دعوة القسوغ كلهم، يكفي أن نجمع بضعة قرى؛ ما رأيك؟

- ممتاز يا أمير! - أضاء وجه قدان. وسرت ضحكة فرح على شفاه مشقوه وشوباش. - هذا المشروع ليس من مبادرتي وحدي. هذان الرجلان وججان يرغبون فيه جداً. ومن يلح عليه أكثر من غيرهم هم الشباب. - في هذه اللحظة امتنع وجه قائد الجيش. ونظر في وجه الأمير قلقاً حزناً. - ما نقره نحن يعيد الآلهة ترتيبه. قابلت العشية رجلاً كان عند الموت، كان عندهم ماتم كبير، الروسيح قتلوا عدداً منهم.

- هل هاجمهم؟ - تصلب جسد الأمير.

- لا، يقولون إنهم اصطدموا على الحدود. لا يمكن تمييز المذنب من البريء. أكثر القتلى من جانبنا أحداثٌ جداً.

- ماذا بيدنا إن غامروا بأرواحهم يا قدان؟ - ارتاح قلب الأمير قليلاً وإن حزن لما سمع. - كم قلتُ للأمير قايت، وأكدت للأمير زيكوشو أيضاً، ألا يستفزوا الروسيح، وأن يسدوا حدود بلادهم! فلم يسمعوا. ألا يرون كيف يؤمن الروسيح حدودهم؛ لماذا لم يقدوهم؟ يكتفون بحراسة مفارق الطرق. يمكنهم

أيضاً أن يتعلموا من الأمير دامر كيف يحمي حدود الحكوف الجنوبية. لا يسمحون لأحد أن يدخل أو يخرج. متى صرت دولة كانت هذه من أولى مهماتك. نعيش وبلادنا كباستان بلا أسوار تعبت فيها الدواب.

- ماذا نفعل يا أمير؟ - لم يكتف قدان رغبته في إقامة الحفلة وسباق الخيل، عاد الأمان إلى قلوب الناس. يريدون أن يمرحوا، وبعد الحرب تقام الحفلات.

- وهذا صحيح، - أتيده الأمير الكبير، - تبلدت أحاسيس كبارنا وصغارنا وهم يعيشون في الهم. لا بأس أن يعيشوا شيئاً من المرح. - وأضاف بينه وبين نفسه: " من يرسل إلينا الجواسيس لا يُستبعد أن يقصر أيام سعادتنا. متى رُوح الناس عن نفوسهم زاد نشاطهم للعمل "

عاد الأمير ردد بعد هذا الحديث ببضعة أيام. لم يكن راغباً في رؤية أغبان، ولم يدخل إلى المضافة، بل توجه إلى غرفة ولديه. نظر من خلل الباب فلم ير أحداً. وقبل أن يستدير ظهرت أبنار من ورائه.

- ادخل، ادخل - ستشم رائحة الأولاد وإن لم يروك. - ربت المرأة على ظهر زوجها براحة ناعمة دافئة.

- أين هما؟ - ألقى رد نظرة ثقيلة على المرأة وهو يجلس.

- زيش اصطحبه شوباش إلى مركز تدريب الجيش، وزفس يلعب مع أولاد الحي. - عادت أبنار فألقت نظرة ذكية على زوجها، - وجهك قلق، هل هناك خبر سيء؟

- لا، بل مجرد تعب. كل شيء تمام، على قول المسلم الحاج. لم يكشف للمرأة عما سبب لقلبه الانقلاب. - يُكثر شوباش من اصطحاب الولد إلى مركز التدريب. ماذا يفعل هناك؟

- ألا تعرفه؟ - ضحكت أبنار بلا حماسة.

- لا يزال زيش صبيّاً على أعمال المقاتلين.

- لا يصطحبه للقتال، بل يعلمه ركوب الخيل.

- ألا تكفيهما أرض الدار الواسعة؟

- هل تتذكر المهر الذي كان اختاره المرحوم كولس لشوباش من القطيع؟

- ما الأمر؟

- يحتفظ أخوك به في مركز التدريب. ويجهز أخاه الأصغر لسباق الخيل.

- هذا مستحيل، زيش غير قادر على الجري بالحصان. - صرخ ردد محتجاً.

- وأنا كان هذا رأيي ولكن شوباش لم يسمع كلامي. ثم وافقت حين رأيت من هم أصغر من زيش يركبون الخيل.

- لم أفهم إلى الآن طبيعة شوباش. - ابتسم ردد لا يخفى رضاه عنه. - يبدو رحيماً، وعطوفاً على أخويه الصغيرين. ويخفي عني دائماً بعض الأسرار. لم يُعلمني باحتفاظه بحصان السباق. أتذكرُ تدريبه المهر الذي كان في سنته الأولى. ثم نسيت الموضوع كله. أنت يا أبنار أشجع مني. أتعجبُ كيف وافقت على أن يُجري الولد حصان السباق.

- ليفعل ما يفعله الناس عادة! سينفعهما متى صارا رجلين. - قالت أبنار حازمةً، - أظنك تريد أن تأكل، سأوصي لك بمائدة.

- لستُ جائعاً. سأعود إلى المضافة وأستريح قليلاً.

استلقى ردد على السرير بلباسه. تبين من الخبر الذي عاد به الفارسان من توم تقاش أن الأمير أبج ليس في المتناول: جرح أمير الزيوخ اللص، ولم يعد يخرج من الثكنة.

" الجرح الكبير يلتئم، والجرح الصغير يتقيح. لم يعد مصير أبج مهماً. - عاد ردد إلى القلق الذي لم يفارقه طوال النهار، - الخطر الأكبر هو النشاط المحموم للأمير مستيسلاف منذ عاد من القسطنطينية. الذئب يبحث عن رفاق حين يعتزم الصيد، ويجدها، فتهجم معاً على القطيع. زار الأمير مستيسلافُ ساركيل، وأماكن أخرى في الشرق. وكان خالط روسيج الشمال، ولكن لم يصل إلى شيرنيغوف. ألن يجد في الأرض الواقعة بين توم - تقاش وشيرنيغوف من يساندونه؟ يجمع قواه، لابد أن له نوايا شريرة نحونا. هل نستطيع مجابهته؟ عندي طريقة واحدة لتهديته: إذا أزعنا المجوسية واعتنقنا المسيحية، وأعطينا الإتاوة... ولكن لن أقدر على أيٍّ منهما. تغيير دين القوم يحتاج إلى سنوات كثيرة. ما تريده بيزنطة هو أن ننجز في يوم واحد كما فعل الروسيج. ها هو تيمرقوه يشرح لهم المسيحية مع الاحتفاظ بالمجوسية. وأتباعه يزدبون. ولكن مستيسلاف مستعجل دائماً، لا يمكن أن ينتظر. يريد أن تتخذ في الحال ما

يطلبه. الدين يمكن أن نتفق في شأنه على حلٍّ ما ولكن الرضوخ للإتاوة صعب. لن يدع لنا راحة طالباً باستمرار زيادة المبلغ المطلوب. سيرفع من مستوى معيشة الروسيج ويُيقِننا نحن بين الحياة والموت. أَفْضَلُ الموت واقعاً على الحياة راكعاً. وأظن أبناء قومي يوافقونني على هذا..."

نَبَّهت الضجة التي أثارها شوباش وزيش وهما يخرجان من الدار الأمير، اتجه إلى النافذة. ولم يتأخرا عن الدخول إلى المضافة.

- ما الذي تلاحقانه؟ بطن الأمير سؤاله الفجّ بشيء من اللطف.

- أرى إشتراك أخي الصغير في السباق؛ ما رأيك؟

- ماذا أغيّر في ما انتهيتما منه؟ ألقى نظرة دافئة على أخيه وابنه. وخاطب نفسه واثقاً من زيش: "وصل في الطول إلى كتف شوباش. سيكون رجلاً بين عشية وضحاها دون أن تُحسّ. ولكن لا أعرف إن كان الطريق إلى مستقبله معبداً. - وسأله: - هل تستطيع أن تُجري الحصان يا ولدي؟

- نعم، أستطيع! - لم يدعه ينتظر الجواب، - لا يُطِيعُنِي إلى الآن تماماً، ولكن سأخضعه.

- ما الذي لا تنجح فيه؟

- الحصان اعتاد عليّ فيرى زيش غريباً، سيعتاد أحدهما على الآخر قريباً، - سبق شوباشُ زيشَ إلى الجواب واثقاً من نفسه.

- سيشعر الولد بالإهانة يا شوباش إن سبقوه، ويسخر منه الناس. - كان ردد يحاول تنفيرهما من مشروعهما. ولكن مَن أمامه، ومعهما والدة زيش، ليس عندهم فكرة التراجع.

الاحتفال المقرر إقامته في ظاهر قرية مزبه جاهز للانطلاق. ولم يبق في القرى الثلاث من لم يحضر. النساء يحيط بهن الصغار. والأولاد يلعبون على حدة. وتحت الأشجار المحيطة بالفسحة يدور الشباب بخيولهم. وعريف الحفلة يُدير حفلة الرقص ممسكاً بعضاً صغيرة. وعلى جانب مجلس المسنين عدد من عازفي المزمار. والكهول يقفون على حدة، وكذلك الشباب، والبنات. وبعيداً عن هؤلاء يتصاعد البخار من القدور الكبيرة المعلقة بالكلابات. والموائد المتراففة مزدحمة بالسلامة وفطائر الجبن وأنواع أخرى من المعجنات، بالإضافة إلى عصير

الإلّجاص.

ظهر الأمير الكبير ردد. على جانبيه قدان وتيمرقوه. ومشقوه وججان وراءهم. اتجهت إليه أنظار المتحلقين حول ساحة الرقص. ونهض المسنون. واستقبل الكهول والشباب الأمير. وبعدهما حيّا الأمير المسنين أعاد عريف الحفلة تنظيم الساحة. ولما بدأ العزف اصطحب العريف فتاة افتتح معها ردد الحفلة. وبعدها دار معها الساحة بضع مرات أعادها إلى ركن الفتيات.

احتل الراقصون الشباب الساحة. وكلٌّ يبذل جهده في الرقص. والعازفون يغيرون الألحان، فبعد رقصة " القافه " تأتي رقصة "الوجّ"، ثم تعقبها الرقصات الثنائية. ويكاد يضيع صوت الشبابة وسط التصفيق المتناغم.

وصل البرنامج إلى سباق الخيل. ولما بدؤوا يصفّون الأحصنة القادمة من كل قرية رجا الأمير المسنين:

- يا بشماف وطاطخ، والكبار الآخرين، دعونا نتفقد الخيل قبل أن يبدأ السباق. ونرى من منا يَحْمَن الحصان الفائز.

نهض المسنون متحمسين، ووصلوا يتوسطهم الأمير إلى المتسابقين. وتفقدوا أجساد الخيول، وصدورها، وقوائمها، وأسنانها.

- لو كان الأمر بيدي يا أمير لجعلتُ زيش الفائز. - بادر طاطخ إلى الحديث، - ولكني أرشح الحصان الأزرق القادم من مستحقوه.

- وهل راكب ذاك الحصان المحجّل ابنك يا أمير؟ - سأل بشماف وإن كان يعرف أنه ابنه، - صار رجلاً دون أن نتبه إليه، ليمدّ الآلهة في عمره! - ثم قال لطاطخ: - يا صديقي العزيز لم أر أفضل مما يركبه ابن الأمير. لا أظن بين الخيل منافساً له.

- وبين خيل قريتنا حصان أشعث لم يلفت انتباه أحد منكم. - ساهم عجوز من ششحرس، - مظهره لا يُعجّب، ولكن جسده طويل، وظهره متين، وقوائمه سريعة. أتوقع أن يسبق الجميع.

تظاهر ردد بأنه لم يسمع تعليق بشماف على ابن الأمير. أشار إلى منظّم السباق برأسه، ووجه لوماً رقيقاً إلى الكبار:

- الأحصنة التي رشّحتوها للفوز قليلة. ماذا سيكون موقفكم إن فاز غيرها؟

- سنفتقر قائلين: الغالبُ ثوري. - أضحك طاطخ الواقفين.

انطلق المتسابقون. وقَّع الحوافر يتتابع فيرَّج الأرض. وأكثر المتنافسين من قياس جسد زيش. وبينهم من هم أكبر قليلاً. الفرسان الصغار تكاد رؤوسهم تعلو رؤوس خيولهم، والحصان الأزرق المرشَّح من قبل طاطخ أمام الجميع.

- ألم أقل لكم؟ انظر يا بشماف كيف يجري كالسهم! - العجوز طاطخ مسرور: - هو لا يجري بل يطير.

- لا تستيقِ الأمور! - يراقب بشماف الخيول وهو يمد جسده إلى الأمام. - انتظر حتى يصلوا إلى المنعطف. سيظهر حينها من يشبه السهم، ومن يشبه العصفور.

بدأ توثُّع بشماف يتحقق، - حين انعطف الفرسان يساراً وبدؤوا يجتازون البرية عرضاً بدا للعيان تناقص سرعة الحصان الأزرق. وبدا رأس الحصان الأشعث من ورائه. وبدأ جسمه يتقدم على رفاقه.

- انظروا ماذا يفعل حصاننا الذي لا يعجبكم مظهره. - ارتفع صوت عجوز قرية ششعرس.

- ما أراه عجيب! - صرخ قدان من بين رفاقه، - زيش يلحق بالأزرق، يُجانبه، يتجاوزه. ولن يطول به الأمر حتى يلحق بالأشعث أيضاً.

تبارى زيش وفارسُ ششعرس مدة جنباً إلى جنب. وفجأة رمى أحد المشجعين قبعته في الهواء فرحاً فجفل الحصان الأغر وانزلق جانباً. وتمايل زيش. وظن ردد أن الصبي يسقط من ظهر الحصان فاختلج قلبه، ولكن زيش تشبث بالحصان، ولحق بذيل الحصان المتقدم عليه، فوصلا ورأساهما متلاصقان.

دخل الجمهور في جدال حول من يستحق المركز الأول. والأغلبية مع زيش: يتذرعون بأن الفتى الخبيث رمى قبعته فأجفل حصان زيش؛ وإلا كان الأول.

وقال منظم السباق دون أن ينطق اسم ولد الأمير:

- المركز الأول لراكب الحصان الأغر!

- ليس هذا عدلاً، - ساهم ردد برأيه، - لم يسبق أحد الفارسين الآخر. إن كان أحدهما أجفل فليس ذنب حصان ششعرس. إن سمعتم رأيي فكلاهما في المركز الأول. والثالث واضح: حصان مستخقه الأزرق.

- كلام الأمير الكبير أكثر عدلاً! - وافق الجميع بمن فيهم منظم السباق ومعاونوه. وُزِعَ المركز الأول على الفارسين، ومُنح كلٌّ من منهما خنجرًا فضياً. والثالث سرجاً مزخرفاً. ولم يُصَرَفَ أيّ مشارك في السباق دون هدية تذكارية. ربت بشماف على كتف طاطخ:

- تستحق أن نغزّمك بمائدة يا صديقي!

- ليس الذنبُ ذنب الحصان يا بشماف بل الراكب. - برأ طاطخ نفسه، - قسا على الحصان قبل أن يصل إلى كامل لياقته. ولكن لن أتذرع بهذا. تعالوا، تفضّلوا! سأقدم لكم المائدة التي تشتهونها.

- لسنا مجانين، - مزح بشماف مع صديقه، - هل نترك مثل هذه المائدة ونجلس إلى مائدتك الفقيرة!

استمرت مائدة المشاركين في السباق إلى ما بعد الظهر. وتناولوا السوائل اللذيذة. ثم انصرفوا كباراً وصغاراً، واستمتعوا بانتظار العيد أكثر من العيد نفسه.

انتطق زيش الخنجرَ الجائزة، وانصرف. نظر إلى أمه باعتداد. وابتسمت أبنار لولدها ووجهها ينير:

- بارك الآلهة في أول جائزة لك يا ولدي الكبير! أصبحت رجلاً حقيقياً بهذا الخنجر الفضي!

دنا ردد من ولده متجاوزاً زوجته. ووضع راحتيه الضخمتين على كتفه، وقال له متناسياً القلق الذي عاشه في الأيام القليلة الماضية:

- أنت رجل صالح يا زيش، تحليت بالنشاط والهمة العالية. لم تسمح للحصان أن يرميك.

- كدث أسقط لو لم أتشبث بعرفه. - أخفى زيش الخنجر خجلاً من والده. ثم صحوت بسرعة فأمسكت بالجام.

- رفعت رأسي، لم تخذلني. هذا فوق كل شيء، - ربت على كتفي الصبي بلطف، ثم خرج من الغرفة.

أميرٌ ششعرس وقدان ومشقوه وججان وتيمرقوه قطعوا حديثهم لا يعرفون تعليمات الأمير. ثم ألقى نظرتة الثقيلة على كلّ واحد منهم محضراً في سرّه

المدخل إلى الموضوع.

- قدان يعرف الموضوع الذي سأكشف عنه، وأظن أن عليكم أن تعرفوه. -
بدأ ردد دون أن يُلبس صوته نبرة يأس، - الجار الحسود يحتقر. سنصبر مرة
أخرى كي لا أسمح لهم أن يقولوا إن ردد يستعد للحرب لأن الأمير
مستيسلاف تجاوز نظرة الاحتقار إلى التحضير للحرب. ولكن دعونا نفكر في
ما علينا أن نفعله.

- الجيران يتبادلون الموائد، لا الشر، - عبّر قَزاز أمير قرية ششحرس عن رأيه.
- مَنْ عنده بيتٌ من حديد يحتاج إلى إبرة من حديد. لو تعامل معنا بصدق
كنا آخيناه. ولو وجد نفسه في حاجة إلينا كنا في عونه.

- أنا أعرف طبيعة مستيسلاف. - احتدّ تيمرقوه، - قلبه قلبٌ ذئب. يقتل
حتى من لا يستطيع أكله. يجد سعادته في أن يصرعك يائساً تحت قدميه.

- والله حتى الذئب لا يهاجم جاره. - استعاد الأمير زمام الحديث. - اتفقنا
على رفض مطلب أمير الروسيج. لن نخضع لأوامره، ولن نتصاغر أمامه. بعد
المطر لا حاجة للواقية منه، ولذا علينا أن نكون جاهزين متى شنّ مستيسلاف
علينا الحرب. الروسيج ماهرون في الطعن بالرمح، وحدث كثيراً أن ثقبوا تروسنا.
- وصدور خيلهم متينة. ومشائهم ليسوا جنباء. وافق قدان الأمير.

- هذا صحيح. - التفت ردد إلى أخيه، ونظر في وجه قدان - لا تتهاونوا! لا
تنسوا هذه الأمور وغيرها في أثناء تدريب المقاتلين. وتعرفوا على نقاط قوتهم،
ونقاط ضعفهم. وأنت يا تيمرقوه أدعُ إلى آهتنا وإلى إلهك أن يلطفَ العداء بيننا
وبين الروسيج. لا داعي للعجلة، غير أن الأفضل أن نكون جاهزين لكل
شيء.

جلس الأمير صامتاً بعض الوقت حين بقي الأخوان وحدهما في المضافة. نهض
وتمشى على أرض الغرفة. ثم قال كأنه لا يقصد شيئاً بكلامه:

- من مرّ به الجراد فهو فاني، وما مرّ به الجيش بلاد مدمرة. سواءً غلبنا
الروسيج أم غلبونا فخسائر كلا الطرفين باهظة. وستمضي سنوات كثيرة قبل أن
نستعيد وعينا.

- كانت أمنا تقول: ما من حرب سعيدة. - وافق شوباش أخاه بنظرة حزينة،

ولكنه أضاف حازماً: - حتى لو كانت النتيجة دمار البلاد فسنرد دون رحمة على من يأتينا عدواً. فإن عشنا أعدنا بناء البيوت، وأصلحنا الزرائب، وأرضنا تُطعمنا بما يكفيننا.

- ونساؤنا يربّين. ويظهر الشجعان بيننا من جديد. وينظمون الأغاني. تابع ردد باسماء كلمات شوباش المفعمة بالأمل. ثم أضاف بمزيد من الصلابة: - الروسيح تعدادهم كبير جداً يا أخي، وعندهم جيش مدجج بالسلاح. سيقابلنا في ساحة المعركة الكثير منهم. وأنت عندك آمال كثيرة فتخطط لما بعد الحرب. - أنا لا أدع لليأس طريقاً إلى قلبي مهما حدث يا ردد، - خجل شوباش لامتداحه نفسه، ولكنه لم يغير موقفه.

- وأنا لا أياس البتة يا أخي الصغير، ولكن عليك أن تعرف إمكاناتك. ما الفائدة من مقارعة من تعرف أنك لن تغلبه.

- وفي جميع الأحوال لن نسمح لسهام العدو أن تصيب ظهورنا. - لم يتراجع شوباش أيضاً.

- الموت هكذا بموتتين. - وافق ردد، - ولكن الروح مع ذلك غالية. لا أحب الحياة من أجل شخصي. أود أن أرى ولدي صارا رجلين، وأن أشهد عرسهما. وأشتهي أن أربي أولادهما على ركبتيّ. وأنت يا أخي ألن تتزوج وتؤسس أسرة؟ حين أسمع كلمة الحرب أفكر بهذه الأمور. وأتألم قلباً وجسداً. وأرتعش من المآثم التي ستشهدها أسرٌ كثيرة. لم أكد أنسى الحزن الذي جمعه في قلبي الدّم والمآسي. اطمأنتت وفرحت معتقداً أننا بدأنا حياة السلم، ولكن السُّحب المريعة بدأت تسد آفاقنا.

- لا تنس يا ردد قول أمانا: الإنسان يعيش بالأمل. - ابتسم شوباش لأخيه مصطنعاً المرح.

- تعال إذن يا أخي نخرج ونتنزّه قليلاً، ننعش قلوبنا ونريح أعيننا. اختلس أغبان الخطأ وراء الأخوين خارج الدار. ولما وصلا إلى الحي سمعا نقاش بعض اليافعين:

- ماذا تريدون؟ - سألهم الولد المحاصر.

- ها هو ما نريده! - ضربه أحدهم على أنفه وصرعه. - إياك أن تلقي

قبعتك الوسخة في ساحة السباق. - أذيت زيش بعدما سبقهم. حرمت أهل مزبه من الجائزة.

- لست من فعل هذا بل من كان ورائي. خلع عني قبعتي ورمها في الساحة. لم أفعل إلا التقاطها.

- لا تكذب! - نهره أحد الأولاد أيضاً، - أنا رأيك ترمي قبعتك.

- فعلت هذا من شدة الفرح، ولم أكن أريد إيذائه. - اعترف الولد بفعلته.

- كفاكم ثثرة! - صرخ فيهم أغبان.

- توقفوا! ألستم رجالاً؟! - صاح الأمير وراء الصبيان الذين هربوا. وجمعهم

إليه. لام الأولاد المعتدين وهو يمسح على رأس الولد الذي صرعه: - أتقاتلون

ابن بلدكم لأن حصاننا لم يسبق؟ صالحوه حالاً، وصافحوه!

صافحوا غريمهم مكرهين، مشيحين بوجوههم عنه. ثم تفرقوا.

- هذا هو الواقع يا أغبان وشوباش، - عبر رد عن ألمه بهزة رأس، - نحن نظن

أنفسنا صرنا دولة في حين أن أولادنا ما يزالون بعقلية القرى والأحياء. لم

يتجاوزوا بعد التمييز بين الأعراق.

VIII

شورا ذو العقل الناقص كانت هوايته أن يُخرج السرطان من أعشاشه. يمسك كل يوم أربعة سرطانات، ويقيم بينها قتالاً على الضفة. ويجد في هذا لذة، فيجلس إلى جانبها مرحاً.

في أحد الأيام مد يده إلى عش السرطان فإذا به يمسك بحية ماء. ولما مدت لسانها ونفخت عليه ارتعب فرمى بها في الماء، وهرب إلى بيته مولولاً. هرع الجيران لا يعرفون ما حدث. وظلت أمه ونساء أخريات يواسينه حتى هدأ. ولكنه قضى ليلته يرتعب ويحاول الهروب من البيت.

سمع نطاي الخبر فزار الولد المريض.

- مساء الخير يا أمنا؛ ما أحوال الولد؟ - نظر نطاي في وجه الأم موهاً إياها

أنه ليس غريباً عن البيت.

- ليتني أعرف يا نطاي! فوق الجرب دملة! لم يكف تحلُّف عقله فأضيف إليه

- الربع الليلي. - نظرت إليه المرأة المنهارة حزينة. ومرت براحتها على المقعد وجلست. - ما إن أضع رأسي على المخدة حتى يقفز من سريره مرعوباً.
- وأين هو؟
- في الغرفة الأخرى. على الأرض يلعب نفسه.
- ومتى سينام؟
- قريباً، سيدأ يصيح: " أطعميني يا نان وتيميني! " لا يقبل أن ينام إلا بعد أن يأكل أي شيء. وحالما يمتلئ بطنه يرتقي في الفراش، ويغفل في لحظات. أمسك بحية ماء منحوسة. لم يُقلِّني قبلها ليلة واحدة.
- إذن إن وافقتني يا أمنا فسأعالج الولد. أظني سأنفعه.
- تنال ثوابه يا نطاي! سأنادي به حالاً. - همت الأم متلهفة بالخروج إلى الغرفة الأخرى.
- لا يا أمنا، ليس حالاً، - استعجل نطاي، - اخدمني الولد بما اعتاد عليه. أنا لست في عجلة من أمري. سأعالجه متى أكل ونام. وسأطرد عنه ما يربعه.
- خرج شورا من الغرفة كما قالت المرأة. ولما أطعمته الأم تمدد حالاً ونام.
- هل تريد أن تنام يا ولدي الحبيب؟ سألته الأم ملاطفة إياه.
- نعم يا نان، نعسان، - ترك شورا المائدة وجلس في الفراش.
- ألا تعرف نطاي يا صغيري؟ - سألت الأم.
- كيف لا أعرفه؟ - نظر شورا من فوق جبينه، - أليس زوج دكابس؟ ما أجملها، لا تعجبني امرأة في القرية مثلها.
- لا تنطق بالسخافات! - نهرته الأم، - جاء نطاي لمعالجتك.
- وماذا سيفعل بي؟ - نهض شورا فزعاً.
- أفضد، أفضد! - نهض نطاي خافضاً يديه. - وإن استلقيت كان أفضل. لن أفعل بك شيئاً. ليس أكثر من أن أتحدث إليك. سأزقيك.
- قعد شورا في الفراش دون مزيد من الاحتجاج، وانقلب على جنبه. وقرب نطاي المقعد إلى الولد وجلس مقابله.
- حين مددت يدك إلى عش السرطان...
- أخرجت حية! - أسرع شورا بالجواب.

- لا، ليس ما أخرجته حيةً، بل دودة. الديدان كبيرة و صغيرة. أخرجت من الثقب دودة عملاقة. وأنت ظننتها من الرعب حية. الدجاجات تبتلع الديدان. وتحملها في مناقيرها. وأنت ترتعب منها! لست جباناً إلى هذا الحد، لا أعرف لماذا جرى لك هذا. يقال إنه ليس في القرية أشجع منك.

- طبعاً أنا شجاع! - همّ شورا بالنهوض تسبقه عيناه. - هل في هذه القرية من أخاف منه؟!

- أليس لهذا أتعجب كيف خفت من دودة؟ - أجاب نطاي الشاب جاداً، - ألم تصدّق أنك لم تمسك بحية؟ وأنا خيل إلي وأنا عائد من القرية أن الخطبة المشتعلة عينا ذئب.

- هكذا! - أنا إذن ظننت الدودة العملاقة حية.

- والآن أغمض عينيك و تمّ مطمئناً. أنا سأزقيك. - سادعو من أجلك أن يتعد عنك كل مكروه. جلس نطاي إلى جانب شورا بعض الوقت يحرك شفّتيه وينفخ على الصبي، ثم قال لمن وراءه: - نام بإذن الله يا أمنا. تصبحون على خير. أعدك أن يتخلص من هذه الحالة.

- بارك الآلهة في حظك يا نطاي. إن توقف المرض هنا جُزيت بمئة ثواب. - دعت المرأة لنطاي بكل ما تعرف من كلام خير.

انتشر بعد بضعة أيام خبرٌ سعيد في القرية مفاده أن نطاي شفى شورا من حالة الرعب التي كانت تحرمه النوم ليلاً. ولما سمعت دكايس التي تعرف سرَّ الرجل وعلنه ضحكت في سرّها: " صادف موعد شفاء الولد المسكين فعاد بمديح كاذب. وكيف يشفي نطاي أحداً، - غضبت وإن كانت هي من شجّعته. - أنا أنفع الناس بأدويتي، وهو ماذا سينفع بالكلام وبالنفخ؟ إن اكتشفوه جعلوه طعاماً للكلاب القرية".

- أيّ طيّ تمارسه يا نطاي باسم الإسلام؟ - سألت دكايس الرجل في أحد الأيام، - شفيت شورا من الزُّهاب. صرت حديث القرية.

- نعم شفّيته، - قال نطاي معتدّاً بنفسه، - وإن لم تصدّقني فاسألني والدة الشاب.

- لا تعني هذا الكلام وإن خدعت من لا يعرف، - قابلت دكايس زوجها

بضحكة ساخرة، - متى كشفوك فقد الناس ثقتهم في أدويتي أيضاً.

- لا تخافي عليّ، حقاً شفيتُ شورا.

- كيف؟ بشيء من حركات الشفتين والنفخ؟

- وهذا يجب أن تُريه للناس يا دكايس. ولا تنسي أن الكلام دواء أيضاً. من

شورا؟ مجنون ساذج. جلستُ إليه وأقنعتُه أن ما أخرجه من ضفة الماء ليس

حيّة، بل دودة كبيرة. ليس إقناع ناقص العقل بهذا صعباً. لو كان عاقلاً لما

خاطرثُ بهذا أنا أيضاً.

- الآن فهمتُ، - اقتنعت دكايس، - في جميع الأحوال جلبت لنفسك الشناء.

وخلقت لنفسك سمعة. طلبك اليوم غأت مرتجفاً.

- وماذا كان يريد؟

- تشنّج عنق برجي وكتفه منذ ثلاثة أيام.

- وما علاقة غأت به؟ لن أذهب ولو كان سيموت. ما أشد ما عدّ ب الرجل

البريء قدان!

- لا تقل هذا يا نطاي! - نصحته المرأة بصوت ناعم، - غأت وبرجي

جاران، وكان صديق زيرار. وما قلته قاله غأت: حتى لو كان صديق أخي فهما

لا يساويان لفة خيطان. ولكن أليس إنساناً، ألا شفقة عنده! إن كنت تريد

معالجة الناس فلا تميز بريئاً من مذنب.

وعلى مبدأ: من تأت على ذكره تجده على الباب قفز غأت إلى الغرفة.

- أعرف ما ستقول، أخبرني دكايس بكل شيء. - استقبل نطاي بحراة

غأت القادم بابتسامة مُخرج. - هيا، إن كنت قادراً على نفعه فلن أتأخر.

كان الشاب الذي تبدو عليه علائم البؤس ممّداً في الفراش.

- ما الذي جرى لك يا برجي؟ هل سقطت من مكان ما؟ - جلس نطاي

جهة قدمي برجي وسأله متفحصاً وجهه.

- سقطت في أرض الدار دون معرفة السبب. رطب برجي بلسانه شفتيه

المتقشرتين، وارتعش صوته.

- ألسّت رجلاً؟ لا داعي لليأس! أنا سأشفيك، - أراح نطاي الشاب نحو

الجدار، واقترب أكثر منه. أرى من عينيك أن شخصاً شريراً أصابك. ولكن

ارو لي التفاصيل.

- برجى يخجل، أنا سأروي لك يا نطاي. - ضحك غأت وبدأ، وجدّه وهزله لا يفترقان، - هذا الشاب فيما هو واقف إلى سور البيت يراقب عراك الديكين ناداه جاره فجأة: " قدان والأمير الكبير آتيان إليك يا برجى ". فلما نظر رأى فارساً قادمًا إليه. وقبل أن يصل إلى البيت سقط على المسطبة.

- هذا هو يا برجى... الحجر الذي ترميه أمامك تظل تتعثر به. - تظاهر نطاي بمعاتبته. - تدخلت في ما ليس من شأنك فأصابك منه الرعب. - انظر مباشرة في عيني دون أن تشيح بوجهك. واجعل نظراتنا تتلاقى. سأمزق من أربعك، وسأمنعه من الاقتراب منك طوال عمرك. أريني حركة أصابعك قليلاً... حسناً لا داعي للخوف. - أمسك باليد اليسرى جانب رأسه، وجسّ باليمنى عرق الرقبة الممدودة. وفكره بعض الوقت بلطف. وفعل ذلك بجانب صدره. والآن كرر ورائي ما سأقول لك: " أعوذ بالله من شرّ الشيطان الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس بالأفكار الشريرة، سواء كان من الجنّ أم من الناس "

أنهى نطاي كلامه متوقفاً من حين لآخر كي يكرر الشاب كلامه، ونفث على جبينه. ثم قال له بحزم:

- ثق أنك ستشفى. سيخفّ الألم هذه الليلة. وستسترجع قوّتك بين الغد وما بعده شاعراً بها، وينحسر المرض عنك. ضع تحت وسادتك هذه الأجرّة التي عليها كلام الله تعالى. وأعدّها إليّ متى شُفيت. الشيطان في منتهى الشرّ. لست مقصوده يا برجى، يجب أن تطهّر نفسك.

- سأجلس في الطشت متى شفيت، وأنظّف جسدي تماماً. - لم يفهم الشاب تلميح نطاي.

- لا أقصد هذا بكلامي. ألا يستحم الجميع كل أسبوع؟! - ابتسم نطاي في وجهه بخبث. - تخلّص من كل ما لصق بك من مفاسد. وإلا فلن يتركك الشيطان ولو شفيئتك هذه المرة.

ارتعب برجى، وجحظت عيناه. وارتعشت شفتاه المتشققتان. ولكنه لم يُجب. رأى نطاي بعدما جلس قليلاً عودة الانتعاش إلى نفس برجى ظاهراً ببطء على

وجنتيه. وسرّه هذا جداً، وشجّعته على متابعة مهنته الجديدة.

ظهر إلى العلن مرة أخرى شفأء برجى على يد نطاي وعودته إلى الحياة العامة. وسرى الخبر في الأسر. ووصل إلى الأمير الكبير ردد، ولكنه لم يكن يجد الفرصة للاهتمام بالخبر لأن الخطر المحيط بالبلاد والذي لا يترجل لأجله عن جواده لا يسمح له.

كانت دكايس تنظف إحدى الدجاجتين اللتين جاءت بهما أمّ شورا حين ألقت نظرة من الشباك فأطلقت صيحة تعجّب وهي تكاد تتعرف الرجل القادم: " أهو نطاي أم أنا مخطئة؟ كأنه هو، غير أن مشيته مختلفة. هو بعينه! فقد عادة الإسراع على أصابع قدميه. يطاء الأرض بنعومة. ويحافظ على استقامة جسده. وعلى رأسه القبعة العالية التي كان ينجل أن يلبسها... إيه يا مسكين؛ تتوهم نفسك صرت رجلاً مهماً! من جعلهم يطلقون القول المأثور: " يقفز في الفراغ " شخصٌ مثلك ". يا نطاي... " - نظرت إلى الرجل العائد إلى البيت بابتسامة ساخرة، ولكنها تذكرت أنها تبالغ في جرح مشاعره، فقالت له:

- ما إن خرجت صباحاً حتى جاءتك أم شورا بدجاجتين. ومرّ بعدها برجى.
- الأخير وجدني.

- ماذا كان يريد؟ ليفرّخ إن شفيته!

- أعاد لي الأدعية المكتوبة بأحرف القرآن. - لم يكن نطاي راغباً في إخبار المرأة أنه أخرج من جيب برجى الذهب التي أعطاه إياها زيار، ولكنه لم يستطع:
- وأعطاني قليلاً من الذهب.

- هكذا! - أربي إياها! - مدت دكايس كفّها متوددة إليه.

- أعطيك إياها خالصة لك! - وضع نطاي قطعة الذهب في يد المرأة بكبرياء. - هل تعرفين أي استخلصتها من برجى؟ - شككت في أنه حين تأمر مع زيار فوضعا الذهب في سقف قدان، استبقيا قليلاً منه، فجعلته يتهيب من فعلته. أفهمته أن الشيطان سيظل يلاحقه فألقيت في قلبه الرعب.

- أنت مسؤول عما فعلت بالشاب. - إن بدأت بذهبة واحدة فسأدعو الآلهة أن تنمّيها. تفحصت دكايس القطعة فرحة، ثم ضغطت عليها في راحتها. -

ابتداء من اليوم سأنفذ كلام أمي.

- وماذا كانت تقول؟

- لا تسأل من يخرج من البيت عن مقصوده. بل اسأله متى عاد عمّا جاء به.
لن أعترض على ما تذهب إليه. ولكني سأسألك كلما عدتَ عمّا جئتَ به.

- وإن لم آت بشيء؟

- يجب أن تأتي بشيء يا نطاي؛ بل دائماً! وسأشهد عودتنا أسراً. اجتهد
أنت، أقنع الناس أنك موفد الله، ولا تصرّ على فِعلٍ ما ليس في مقدورك. لا
تكشف نفسك، ولا تترفع عنهم! تفحصتُك وأنت عائد فوجدتُ مشيتك
تغيرت.

- إذا كنت سأقود المسلمين فهل أخالطهم راكضاً على أصابع قدمي!

- وهذا صحيح، - وافقت دكابس.

أطعمتُ نطاي مرق الدجاج المغمور بالسمن والفلفل، ثم نظرت من فوق
السور بعد قليل، فرأت نطاي عائداً متعثراً على رؤوس أصابعه، كما في
الماضي. ولم تنتظر وصوله بل دخلت إلى البيت.

نظر نطاي إلى دكابس حال دخوله البيت، وجلس ووجنتاه الناعمتان
تتوهجان. ثم وضع راحتيه على فخذه، وأطرق برأسه.

- خرجتَ مرحاً من أعماقك فماذا جرى الآن؟ - نظرت دكابس في وجه
زوجها مائلة عليه برأسها. - هل أساء إليك أحد؟

- هذا يُفرح قلبك، والآخر يهينك يا دكابس. لم أهتم كثيراً بما قيل لي، ولكن
عليك أن تعرف ماذا تقول وماذا تفعل.

- من هذا الذي جرح قلبك؟ أليس له اسم؟

- الحقيقة هو أدشس الرجلُ القميء، صديق شوباش.

صعد الدم إلى رأس دكابس. وظنت أن شوباش يخبر صديقه بزياراته لها، وأن
الأخير أخبر بها نطاي فارتعبت. ثم تماسكت وسألت:

- أتكون بادرت بالإساءة إليه؟

- كنت أدعوه إلى الإسلام، فقلتُ له إن أخبار تراب لم تكن صحيحة، وإنه لا
إله إلا الله تعالى، فغضب.

- أيها المجنون البائس، أما قلت لك ألا تعاند الرجال؟ ما الذي جرح به قلبك؟

- قال لي " أنت حاقد عليه لأنه كان سلبك زوجتك، لا تتكلم في ما لا تعرفه. الأفضل لك أن تتعلق بقوة بطرف ثوب من تقيم في بيتك ".

- وبِمَ أجبتُه أنت؟ - رفعت دكايس صوتها والدم ينفر من وجهها، - كان عليك أن تلکمه، ما علاقة هذا القبيح بي؟!

- المهمة التي شرعتُ في تنفيذها لا تحتاج إلى قبضة يا دكايس. - نظر نطاي في وجهها بلامبالاة. - سألتُه بكل احتقار: - " ما الفرق بين أن تتركب حصاناً ركبته كثيرون غيرك، وأن تتركب حصاناً لم يركبه غيرك؟ " أجابني: " لا فرق، هذا يتعلق بنوع الحصان " فقلت له: " لا تدنني إذن في زوجتي "، وانصرفْتُ.

- تزداد ذكاء يوماً عن يوم يا نطاي. أفحمتُه، - ارتاحت دكايس إلى حِلْم زوجها الذي لم يُستفَرَّ إلى الإجابة بكلمات أخرى مهينة.

في أحد الأيام وصل نطاي إلى ضفة النهار عائداً من الاحتطاب فرأى من بعيد قدان برفقة عدد من الفرسان عائدين من قرية ششحرس. وفي الحال بسط كساءه ووقف وصدره نحو الفرسان. ولما تأكد أنهم رأوه شرع في الصلاة. رفع يديه إلى السماء ووقف بعض الوقت. ومد يديه إلى فخذه وانحنى. ثم سجد على ركبتيه. وأخيراً ألقى السلام إلى اليمين وإلى اليسار. وصل الفرسان، وتوقفوا.

- ماذا يفعل نطاي يا ترى؟ هل يلعب الجن؟ - سأل أحد الفرسان فأضحك رفاقه.

- لا تسخروا منه، نطاي يصلي، - نهر مشقوه رفاقه، - وها هو الآن سيكرر الحركات نفسها. وبعد ثلاث مرات تنتهي صلاته. والآن يدعو إلى الله، لا تؤذوه!

انتهى نطاي من الصلاة والتقط كساءه فعرّج عليه الفرسان، وسأله قدان:

- ما معنى الحركات التي كنت تؤدّيها يا نطاي؟

- اعتنقت الإسلام فصليت صلاة الظهر. - نظر نطاي في وجهه متسائلاً، ثم

أضاف ما يريده: - وأنتم إذا وقفتم إلى جانبي رضي الله تعالى عنكم. لا إله إلا الله. وهو القيوم ولا أحد غيره يعلم الغيب.

- لا أفهم شيئاً! - صاح قدان، - أقمتما، أنت وتراب، سنوات لا يفارق دُكْرُ ألهتنا ألسنتكم؛ فماذا جرى الآن؟

- خدعوني فخدعتكم! - أجاب نطاي ببساطة، - والآن اقتنعت بأن لا إله إلا الله تعالى، وأنا مخلص له.

- ماذا أخبرت إلهنا الوحيد إذن؟

- أدعو إليه كلما صليت أن يُشيع السلام في البلاد. ويحمي قومنا من المرض ومن الشرّ، وباختصار: لا أتوجه إليه إلا بالخير.

- يبدو أنك الوحيد الذي استطاع المسلم الحاج إقناعه. - سرت على شفقي قدان ضحكة خفيفة، - هل تظن أهل مزبه يعتنقون دينك؟

- والنبي مُحمَّد حمل الإسلام وحيداً يا قدان، - قال نطاي كمن عنده إيمان عميق، - وشيئاً فشيئاً وقف أغلب العرب إلى جانبه. إن عشنا فسرى الأديغة كلهم، لا أهل مزبه وحدهم، أسلموا.

- وتيمرقوه يردد ما قلت أنت تماماً. هو الآخر يتصورنا سنعنق المسيحية.

- الإسلام أقرب إلينا من المسيحية.

- حسناً، أرى أنكما ستثيران غضب ألهتنا علينا. - غيّر قدان الموضوع الذي لا يريده: - هيا اردّف أحد الفرسان، وعُدْ نحملك معنا.

- لا، أنا أنتظر من في بيتي.

اقتاد قدان الفرسان إلى طريق القرية خشية أن تكون دكايس تستحمّ في الماء. تابعهم نطاي وخاطب نفسه راضياً عنها: " فكَروا في ما أريْتُكم وقلت لكم! تدبّروا الكلام، ربما وصل شيء منه إلى عقولكم. حُيِّل إلي أن مشقوه قريب من الإسلام. سينفعكم ".

روى قدان وضع جيش ششحرس للأمير الكبير، وانصرف، غير أنه توقف فروى له ما رأى عليه نطاي، وما دار بينهما من حوار.

- ليست هذه أول مرة يا قدان أسمع فيها خبر اعتناق هذا الرجل للإسلام. - سرى قلق خفي في وجه الأمير الكبير، - أفكّر في محادثته فلا أجد وقتاً. ولما

- شيع الأميرُ قدان طلب أغبانَ: أرسلْ لي وراءَ نطاي.
- حالاً! - أرسل أغبان أحدَ الخدم في الدار والتحق من جديد بالأمر، - هل صحيح يا أمير أن نطاي يشفي المرضى؟ - ليس ما يمارسه هذا الرجلُ الدينَ وحده.
- فكّر أنت في صحة الخبر وعدمها يا أغبان. شفى شورا من الرهاب، وأعاد الحياة إلى الجنب المشلول للشباب الذي تأمر على قدان.
- هذه أمور تتعدى التعجب يا أمير. أظنها أموراً إلهية.
- ليس بعيداً البتّة، - وافق الأمير، - ربما يودع الآلهة بعضَ الناس علماً ليس في الآخرين.
- ولكن نطاي يقول إنه لا إله إلا إله واحد، وإن اسمه: الله.
- ما يردده نطاي هو ما علّمه إياه المسلم الحاج، فلا عجب في هذا. وأنا تحدثت إلى هذا الرجل كثيراً. وعلى كلامه فقد أودع فيه من يسميه "الله" قوةً خفيّة. - ضحك الأمير ردد، وقبل أن يستطيع أن يميز إن كان كلام أغبان جدّاً أم هزلاً، عاد إلى الغرفة.
- وفيما ردد جالس مهموماً بالأخبار الآتية من الروسيج أكثر من اهتمامه بما سيقول لنطاي صدر وُفّع أقدام: وقف نطاي أمامه لا يخفى ارتعابه.
- اجلس يا نطاي، - بدأ الأمير كلامه دون مقدمات. - أريد أن نتفاهم على الإسلام الذي رفعت رايته. إرو لي ما تُقنع به الناس. وأود أن أعرف طريقة معالجتك للمرضى.
- لا أقول لهم يا أمير شيئاً من فكري إلا ما أنزل الله تعالى من كلام. - أجاب نطاي بصوت رفيع ورعشة خفيفة تسري في يديه وأطراف شفّيته.
- وما يُدريك أن هذا الكلام من عند الله؟
- هكذا قال لي المسلم الحاج، وما على لساني هو ما علّمني إياه.
- ألم تكن تفكر في الحلول محلّ تراب؟
- نعم، ولكن حين اتجهت صوب تيمرقوه فهمت أنك لن ترشّحني لهذا المنصب.
- لم أتجه إلى تيمرقوه عن هوى فيه. هو الآخر كان بدأً بالتبشير للمسيحية

فوددت أن أنتزعها منه دون حرب أو صراعات. وأنت تأتي الآن بدين آخر.

- حين بدأ المسلم الحاج يُلح عليّ...

- مهلاً يا نطاي، دغني أكمل ما بدأت، - استلم ردد الكلام من نطاي محافظاً على رزاقته. - لا أرى في إسلامك ضيراً عليك. وإن جمعت الناس من حولك ونشرت فيهم روح الجماعة فهذا يسرني ولا يزعجني. يجب أن نضع في الاعتبار حالة الخطر التي نعيشها اليوم. الروسيح يمكن أن يهاجمونا في أي لحظة. أخاف أن ننشر الفرقة بين الأديغة إن جعلنا الدين أساساً لتصنيفهم. وأنت تعرف أن الروسيح يُلحّون علينا في مسألتين: الإتاوة، والمسيحية. وأعرف أن الروسيح ستلين قلوبهم إذا فرضنا هذا الدين على قومنا، وربما وجدنا وسيلة تفاهم معهم تُعفيننا من دفع الإتاوة. ومع ذلك لا أستطيع إجبار قومي على التخلي عن دينهم الأزلي، واعتناق المسيحية. وأريدك أن تفكر أنت أيضاً في شأن الدين الإسلامي الذي حملت لواءه الآن.

- إن كان رأيك يا أمير أن الوقت غير مناسب، - ضعف نفس نطاي، وأحزنه تسربُّ أمله الكبير منه. - فأنا لم يخطر لي حتى في المنام أن أسبب الضرر لك أو للبلاد. ومتى توجهتُ إلى الله فأول ما أتوسل منه هو السلام، وحماية بلادنا وقومنا.

- أعرف يا نطاي أنك لا تحمل في قلبك إلا الخير. والآن قل لي الحقيقة تماماً: كيف تشفي المرضى؟

- أيّاً خدعتُ فأنا لا يمكن أن أكذب عليك يا أمير، - ابتسم نطاي خجلاً، - أعالجهم بالكلام؛ أُنقِهم بأنهم سيشفون، ولا أستعمل معهم علاجاً آخر. - أنا راضٍ عنك لإخباري بالحقيقة. وأنا لن أبوح بهذا لأحد. ولكن أرجوك أن توقف نشاطك ريثما تستقرّ أحوالنا.

- ثِقْ بي يا أمير. لا أحد أحميُّ منه وأحترمه مثلك. فهمتُ ما قلت لي.

- يسعدني جداً أننا تفاهمنا. - نهض الأمير ردد فنهض معه نطاي وانصرف.

IX

لا يسعد أحدٌ إلا بموت الآخر. هذه الفكرة مكتوبة على وجه نطاي. شمس الخريف الباهتة تدور حول قبة السماء. ولن تلبث أن ترسو بهدوء وراء البحر. دكايس عند الجيران تستعير منهم كأس لبن لتزوّب الحليب. ونطاي مستلق على حصيرة فوق الأريكة الخشبية. يداه تسندان رأسه، وعيناه مسمّرتان على السقف. يُفرّج قلبه موثٌ تراب في حرب الزيف، ليس لاحتلال موقعه. حين زار الأمير لهذا الهدف كان تراب ما يزال حياً يثير الفتنة بين الزيف الذين التجأ إليهم، ومنصب الزعيم الديني شاغراً. ولم يقتنع الأمير الكبير بأن الآلهة الذين كانوا يتكلمون إلى تراب كما أقنع القسوغ يتكلمون إلى نطاي الآن. وليس نطاي مغفلاً فلا يفهم، ولو لم يصارحه الأمير، أنه لن يُسند إليه هذا المنصب. ومراسم ماتم رامبس قام بها تيمرقوه المسيحي، ولم يُكلّف هو بها. ولم يعد للمنصب الذي اشتهاه مكان، سواء كان تراب حياً أم ميتاً.

"إن لم يكونوا راغبين فلا أريد هذا المنصب ما دمت حياً. ولكن قاتِل تراب، كائناً من كان، رجلٌ حقيقي. تشقّى لي منه، - شدّ نطاي قبضته بقوة وهزها. ضرب الحصيرة بسرعة وكأنه هو من ضرب تراب بالسيف، وصرخ: - أسعدني بثّر حذبة من كان كأنه برأسين. لم يجد القذُر في مزبه القرية الكبيرة، ولا في كل القسوغ، غير زوجتي يتزوجها. ولم يراعِ مرافقتي له سنوات مخلصاً له. أقول هذا ولكن أيّ امرأة كانت تقبل بهذا القبيح كأنه ينظر من تحت قبو؟ ودكايس تزوجته لقصوري أنا. ولو كنت قادراً، أو كانت دكايس بكراً، لما سمحت له أن يقترب منها.

قفز نطاي من الأريكة كأنه تذكّر شيئاً. أخرج من قاع خزان الحبوب قطعة الأجر الرقيقة التي أخفاها فيه. فكّ القماش عنها، ومّر بأصابعه على الحروف المنقوشة عليها. كان الحاج المسلم أعطاه إياها وهما في ماتم في ششعرس قائلاً: "هذه كُتبت عليها كلام الله تعالى العزيز. أبقها في بيتك، أو احملها معك تُبعد عنك الجنّ والشياطين. هل تقابل الناس وتحكي لهم منافع الإسلام؟" فأجابه "تكلمت إلى بعض الناس، ولكن أحدهم سخر مني، والآخر لم يسمح لي بكلمة واحدة"

سَمِعَ صوت من الفناء. ظن نطاي أن دكابس عائدةٌ فوقع في مأزق: إن أعاد الأدعية إلى قعر الصندوق للمرأة رأسها دائماً فيه؛ إن وقعت بين يديها فيما أن ترميها خارجاً أو تثير مشكلة. تفقّد البيت بنظرة قلق لا يعرف أين يُخفيها. تذكّر ما كان قاله له الحاج المسلم فوضعها في عبّته. ونظر عبّر النافذة: لا شيء! فعاد إلى الأريكة وقد اطمأن قلبه. استرجع كلمات المسلم الحاج، وسمع أجوبته عليها:

- لا تياس مهما بدأت من مهمة! لا تعرف قدرتك ما لم تبدأ.
- وإن لم يظهر بين الناس من يؤيدك؟
- اليوم يتصامّ عنك، وغداً يسمعك. من يُدِرْ لك ظهره اليوم يُدِرْ إليك أذنه غداً. متى عرفوا صدقك أقبلوا عليك بوجوههم.
- الحقّ معك، الآلهة لا يعيقون ما سيحدث.
- لا تقل " الآلهة "؛ هناك إله واحد، وهو الله تعالى.
- سامحني: أقول ما اعتدنا عليه فحسب.
- متى كنت تهتم بالدين وتمارسه وجب أن تكون طاهراً في شخصك، ونحو أسرتك، ونحو الناس. سمعتُ أن بينك وبين زوجتك بعض الخلاف. لا تسمح للغرباء أن يروك تلاطف المرأة أو تعتفها. سيحكمون عليك بالبّله. ويحتقرون كلامك.
- لا ذنبٌ لدكابس، أنا المقصّر.
- من أصعب الأمور أن تعرف نفسك على حقيقتك. إن رضختَ لذنبك فأنت ذكيّ. ويمكنك التعامل بعقل مع الناس.
- الانطباع الذي تأخذه عنك القرية يصبح لباساً لك. ولن يروك بشكل آخر ولو كنت أعلى منهم.
- من لا يقل شيئاً يحكم عليه الناس بالجهل. ورّع عقلك عليهم. وتأمل دائماً أن تتحقق لك نواياك. الأمل عذب. يُحييك ولو أنه يصدف أن يدفعك إلى الخطأ أحياناً.
- لو كنت أعرف الغيب... كان تراب أقنعهم بهذا.
- راقب ما يحدث في العالم، وتعلّمه. استمع إلى أحاديث المسنين الحكماء.

الليب يتنبأ بالمصيبة قبل أن تقع. ومن يتمتع بالرجولة يتحملها بعد وقوعها.

- عشت عمري محتمياً بأحدهم، والآن لا أجد الوسيلة لأتقدمهم.

- اتَّخِذْ من الصالح قُدوةً، وتجنَّبِ الطالح! وإن حالفك الحظُّ فلا تبطُرْ يكرهك الناس. وإن جانبك الحظُّ مرة عاد إليك إن أعملتَ عقلك...

تنهد نطاي متعزِّ القلب. تفكَّر في أقوال الحاج المسلم وأعاد ترتيبها. وقال لنفسه: " الأمير الكبير وكولس وآخرون تعلَّقوا بديمتري فلا يسمحون للحاج المسلم أن يتوجَّه إليهم. لا يسمحون لصاحب كل هذا العقل أن يخاطبهم، ولو فعلوا لاكتشفوا أنه أذكى جداً من الرومي. وها قد اكتشف أي صاحب عقل. اختارني من بين رجال القرية. وإذا كانت بعض الشكوك تراودني إلى الآن في شخصي فلماذا لا أصبح ممثلاً للإسلام وقد اختارني الحاج المسلم من بين كل الناس؟ أتهم نفسي بالخوف من آلهتنا ولكن ديمتري والحاج المسلم ينكران وجودهم. ولو افترضتُ وجودهم فلماذا لم يحموا من الموت تراب الذي أخلص لهم كل هذا الإخلاص؟ كان بإمكانهم أن يجتنبوه الحرب. وكان بإمكانهم أن يصرفوا عنه ضربة السيف... في كلام المسلم الحاج نصيب من الصحة. العالم يسير وفق نظام مقدَّر. ها هم الذين آذوني في دكابس، من حقدار وشنبه ونخلش، أبعدوا عن طريقي. وجاء الأجل قبل أوانه لتراب. كل هذا لأني بريء. والآن لم يبق من يسلب مني دكابس، أو يهينني أو يهينها... لو عادت إليّ ذكورتني...

وحُيِّل لنطاي حالاً أن الرقية التي في صدره توقف فيه شيئاً فتلمس جسده ملهوفاً. ولكنه لم يحس بأيّ تعيُّرٍ، فعاودته الذكريات المرة لمأساته.

كان نطاي يومها في السادسة أو السابعة. رأى صبيانا وصبايا أكبر منه قليلاً على الشجرة ووجوههم كثمار التوت الأسود، فتمنى لو يفعل مثلهم. تردّد لحظة، ثم تشبَّث بيديه ورجليه الحافيتين بجذع الشجرة كالقسط، فوصل بسهولة إلى تفرُّع الأغصان. ومن فرع إلى آخر صار فوق مستوى الأولاد. نصحه أحدهم:

- لا تبتعد إلى الأعلى كثيراً! الأغصان لن تحملك.

لم يأبه نطاي بنصيحة الولد. كانت الثمار السوداء تملأ الشجرة. ولما مدَّ يده

إليها فقد توازنه وبدأ يتخبط وهو يكاد يسقط. لم يصرخ، ولم يطلب النجدة ولكن الرعب داخله من اضطراب قلبه وذوار رأسه. سقط نطاي وفخذه منفرجتان على الغصن. فصرخ من الألم. ولا يعرف ما حدث بعد السقوط. عاد إلى وعيه وهو تحت الشجرة يحيط به رفاقه من الأولاد والبنات. كان حوضه يتألم، ويمشي بصعوبة...

صاح نطاي بصوت خفي: " لا شك أن هذه الحادثة أصلُ مأساتي! - لا مصيبة تصيب المرء إلا مما جنت يده. أصبت نفسي بعاهة قبل أن أبلغ سن الرجولة. دمّرت الغيرة حياتي. ولا أزال بهذه الصفة. أنا أغار دائماً في سري وإن لم أتصف بها في عملي وفي سلوكي. لا أعرف ماذا بإمكانني وماذا خارجه. وكيف أقود أهل مزبه لو تقبلوا الإسلام حقاً؟ وهل أجد ما أقول لهم؟ وعلى قول دكايس: إن خدعت نفسي بنفسي سقطت مكانتي في القرية..."

لم يشعر نطاي بالمرأة وهي تفتح الباب وتقف فوق رأسه أيضاً. تأملته دكايس مستغربة وسألته:

- ما الذي جرى لك؟ لماذا تجلس ممتنع الوجه.

- لا شيء، كنت وحدي فهجمت علي الأفكار والذكريات.

- لا أتذكر أنه جرى لك ما يحضُّك إلى هذا الحدّ. - ضحكت دكايس بعدما زالها القلق، - لم تصارع دُباً ولم تخض حرباً.

- هل تظنين أن هذا كل شيء؟ - لم يكشف نطاي عما زرع اليأس في قلبه،

- حدثت لنا أمور كثيرة في صِغَرنا. وعالمنا الذي نعيش فيه يأتينا كل يوم بهموم مختلفة.

- أرى أنه ما زال عندك نوايا سرية.

- لا أعرف إن كانت سرية، ما أفكر فيه هو ما ذكرته لك سابقاً.

- ذكّرني به!

- أقصد كلامي حول دعوتي إلى الدين الإسلامي... ذهبت قبل أيام للعزاء إلى قرية ششحرس فانفرد بي الحاج المسلم، وقدم لي نصائح. قال لي أموراً عجبية. والآن أثق بقدرتي على إقناع أيّ شخص.

- دغك من هذا يا نطاي، - خلطت دكايس اللبن الرائب بالحليب، وقالت

وهي تحرك القدر: - لو كان الأمير ردد يريديك لوجدك، بل حين طلبك إليه وتوسلت إليه صراحة لم يقبل أن يُحلَّك محل تراب. واختار تيمرقوه للقوى المجاورة. لن يطيعك كبير أو صغير ما لم يعرفوا أن الأمير الكبير يساندك. ولن يقتنعوا بصحة ما تخاطبهم به.

- سأعمل معهم دون كلل، إن لم يتحقق لي اليوم فغداً. غطت دكابس الحليب. والتفتت إلى زوجها الذي قابلها بنظرة دافئة على غير عادته. جلست إلى جانب نطاي، ومسحت على رأسه، وقالت له باسمه: - أعدت التفكير فتساءلت: إذا كنت تعرف ما يجب أن تقول فلماذا لا تصبح مبشراً بالدين الذي يدعو إليه المسلم الحاج. إن تقبلوه فسيذكرونك باسم أول من جاءهم بالإسلام.

- أعود فأسال: أأن أكون في مستوى تراب؟ - أنا لا أريد حتى سماع اسم هذا الأحذب اللعين. ولكن أقول لك بما أنك نطقت باسمه: لم يكن لدى تراب من يتكلم إليه ولا من يردّ عليه. عاش بينكم يخدعكم جميعاً: الأمير الكبير وأنت والآخرين. أنا أعرفه جيداً وهذا هو السبب في هروبه. يمكن أن تصبح لا مثله بل أحسن منه. ولكنك لن تجاريه في ذلاقة لسانه. تعلّم كل ما على السنة الناس من فصاحة، سواء كانوا رجالاً أم نساء، كباراً أم صغاراً.

- ولم يرغب هذا عن بالي أيضاً. ولكن الحياء يغلبني. - الحياء نصفُ الحظ يا نطاي. مهما قلت لأي إنسان فأفهمه أنك مقتنع بكلامك. هذه كانت وسيلة تراب لاجتذاب الناس. ومتى لم ينجح بالكلام تظاهر بأنه يتميز غيظاً. ثم أريد أن أقول لك شيئاً آخر: الرجال يمكن إيصال أي شيء إليهم. وأشر لأي امرأة كبيرة أو صغيرة إلى جمالها وأنت تخاطبها. خطاب الجمال يصل حالاً إلى قلبها. وتبدأ توافقك وإن لم تحبّك. والمرأة الجميلة متى شعرت بأنها لا تثير اهتمامك تبدأ تكرهك. وها أنا نصحتك دون قصد.

- يجب أن تقفني إلى جانبي قبل الجميع حسب الدين الإسلامي. - لن يتوقف الأمر عليّ، - حدّقت فيه المرأة، - سأبتهل إلى أهتنا قبل كل

شيء أن يغفروا لي، ثم أصبح رفيقتك. وهل لي ملجأ آخر غيرك. وأنت توجه
إلى الآلهة، أخبرهم، ولو لم يجيبوك، أنك راض عنهم حتى لا يؤذوك. أليس
حسناً أن نقيم في القرية محترمين من أهلها يا نطاي؟

- ما قلته صحيح بالنسبة إلى الرجال يا دكابس، ولكن ألن يتبعني بعض هؤلاء
أيضاً. ها هو تيمرقوه استطاع إقناع بعضهم بالمسيحية.
- لا أعرف. فكّر. لو كنت مكانك لركّزت على مشقوه. أهدأ من غيره طبعاً،
وتجاوز صعوبات كثيرة. من تحدث له مصائب كثيرة يصبح رقيق القلب أو
قاسياً.

- سأزور مشقوه إذن؛ هل الوقت متأخر؟

- وهل تظن الرجل ينام مع الدجاج! لا يزال الظلام يهبط.
حدثت دكابس نفسها ريثما جهّز نطاي نفسه للخروج راضية بتشجيع زوجها
على الدعوة: "إن نجح تحسّنت أحوالنا. رأيت ما قدم الناس لتراب خلال
حياتي معه. حتى القرية الواحدة ليس ما فيها من أفراح ومآتم قليلاً. وفي كل
مناسبة كان يأتينا مما في الأسر من أرزاق. ليكن الإسلام، ما المشكلة؟ إن نجح
نطاي في مسعاه اتجه إليه الناس، وفي مقدمتهم الأمير الكبير. ثم يبيّض الآلهة
وجهي. ونعيش شيخوختنا لا نحسد أحداً وإن لم نلحق بالأمير الكبير..."
تابعت دكابس نطاي ضاحكة:

- توجه نحو النساء؛ أعرفك فلن أغار عليك!

- ما كان عليك أن تعيّني بهذا، - تغيّر لون نطاي.

- سامحني إن كشفت السر الذي بيننا. لا بأس، لا أحد غيرنا يعرف.

- والغرباء لن يتأثروا بالموضوع ولو سمعوا به يا دكابس، ولكنه إبرة تحز قلبي. -
قال بصوت منكسر، وخرج.

فتحت دكابس النافذة، وتابعت زوجها مشفقة عليه.

كانت دكابس فهمت منذ زمن بعيد أن أحداً لن يستطيع تجاوز السقف الذي
قدّره الآلهة له: "نطاي يجهد من أجل أن يتميز من الناس بناحية ما ولكن لا
يعرف كيف يتصرف. الآلهة لم يزرعوا فيه هذه الموهبة. ولا تصل فطنته إلى
مستوى عقلي. اكتسب برادتي أو غيرها عقلاً من الرجال الذين عاشرتهم،

من حقد البغيض، إلى نخلش الأصهب القبيح، إلى تراب الأحذب، وإن لوثوا سمعتي. وهل كانوا ينامون معك في الفراش وأفواههم ملاءى بالماء؟ لا بد أن يتكلموا! كان كلٌّ منهم يروي لي كل ما في ذهنه، وما يسمع، ورأيه في الآخر، فعرفت طباعهم، وما يعمل في نفوسهم، وما يجري في العالم من حولهم. أنا لم أنجب، ولم أربّ أولاداً، ولم أَمُرْ بمآسي كبيرة. وكان عندي الكثير من الوقت لأعود فأرتب ما سمعتُ وما شهدتُ، وأتأمل فيها، وأساهم برأيي فيها. ولكن كيف كنت سأبلغ نطاي كلَّ ما في ذهني في حين لا أريد أن أثّر في قلبه حساسية تجاهي؟.. "

استقبل مشقوه نطاي الذي عبر نصف أرض الدار:

- تفضّل يا نطاي، تفضل! كان عليّ أن أعرفك إذ لم يعترضك كلّبنا. يشتبك مع كل من يدخل إلى هنا غيرك. أظنه يعرف أنك إنسان صالح.
- إلى الآن لم أقم من مكانه حيواناً يستريح، سواء كنت صالحاً أم طالحاً يا مشقوه. - امتدح نطاي نفسه بكلام لطيف مسروراً بثناء المضيف عليه.
ما إن استراح في المضافة حتى جاءت المائدة كمن تنتظره.
- لا تظن يا نطاي أن المائدة أُعدّت لك وحدك! ضحك مشقوه مازحاً، - لم أتعشّ إلى الآن لأنشغالي بالمواشي. جئت في الوقت المناسب.
- تعادّلنا إذن! - اندمج نطاي في المزاح، - جئت إليك دون انتظار دكابس التي عند الجيران.

- هل هناك ما يُقلقك؟ - ألقى عليه مشقوه نظرة ثقيلة.
- لا شيء يقلقني. جئت أجلس معك قليلاً. لم ألتق بك منذ زمن بعيد.
- لا بأس إذن يا ضيف! - أطرق مشقوه، وغمس الباستا في عصيدة الدجاج التي تفوح منها رائحة بهارات طيبة.

بدأ نطاي الحديث مناوراً من بعيد وهما منهماكمان في الطعام:
- هل يحدث أن تتكلم إلى الحاج المسلم في أثناء زيارته إلينا؟
- نعم، حدث أن كلّمته، غير أن أكثر لقاءاتي كانت بديميتري.
- يحتفون به باهتمام، من ردد إلى ججان وقدان وتيمرقوه، ولكن المسلم الحاج لا يتأخر عنه إن لم يُفقه.

- وهذا كان رأيي في آخر لقاء.
- دفعته موافقة مشقوه له إلى الحذر قائلاً في نفسه: " يبدو أنني لست الوحيد الذي يرشحه الحاج للدعوة. إذا كان يعمل مع مشقوه فلن تصلني زعامة الإسلام. أنا لست مؤهلاً لمنافسته. ومع ذلك سأؤكد من حقيقة الأمر ".
- وأنا صادفت المسلم الحاج عدة مرات، - تابع نظاي حديثه، - عندنا، نحن الأديغة، كثيرٌ من أفكاره وتعاليمه. أرى أن الإسلام أقرب إلينا من المسيحية إذا كنا سنتخلى عن آلهتنا. وأنت ما رأيك يا مشقوه؟
- ومن سيسلبنا آلهتنا؟ - توقف مشقوه عن الطعام، وألقى نظرة قلقة.
- ألا يجادلنا الروسيح؟
- وهل هذا عجيب؟ - ضحك مشقوه من أعماقه، - إن لم يُدرِ الآلهة ظهورهم لنا فلن يستطيع أحدٌ انتزاعهم من قلوبنا بسبب اعتراض هؤلاء. ولكني سأجيبك إذ سألت: أنا أيضاً أفضل الإسلام على المسيحية. حاول تيمرقوه معي في هذا الاتجاه أكثر من مرة، ولم أوثِّله مطلقاً.
- أنا، على سبيل المثال، إن سمع الأمير ردد أنني أعتنق الإسلام فهل يعاديني؟
- ولماذا يعاديك؟ كل دين يعمل لصالح دولته كما يقول ديمتري والمسلم الحاج. ويسير في ظل السلطة. أنت لن تقا تل أحداً بدعوى أنك اعتنقت الإسلام. ستعيش من أجل بلاد الأديغة. وستقف إلى صفِّ الأمير الكبير ردد؛ أليس صحيحاً؟
- وهل هذا سؤال؛ لن أدخر جهداً.
- ولكن في الموضوع نقطة لا تُعجب الأمير الكبير.
- وما هي؟
- كان تراب مخلصاً لآلهتنا، وتيمرقوه يدعو إلى المسيحية، فإذا دخلت أنت أيضاً إلى الساحة تدعو إلى الإسلام فلن يقبل الأمير الكبير، وهذا لن يرضى به قائد أي دولة. تقسيم الأديغة دينياً إلى ثلاث طوائف يضرب الدولة. متى اعتنق القوم ديناً واحداً، بزعيم واحد، كان توطيد الدولة الواسعة أسهل منالاً، والنظام أشدَّ رسوخاً.
- إذا كنت إذن تختار الإسلام، وأنا أميلُ إليه؛ أفليس الأصحُّ أن نتضافر فنقود

الأديغة إلى طريق الإسلام؟

- لو كان الأمر سهلاً كما تتصور لوافقك الأمير الكبير أيضاً. ولوقفتُ معك يا نطاي، ولكن سيكون من الصعب إقناع الأديغة بالتخلي عن الدين الذي هم عليه من الأزل. هذا يحتاج إلى قوة وعقل.

- ومع ذلك فسنفكر. العمل الذي تتهيّبه محروس بحية كما يقال. أنا سأوجه إلى النساء، وأنت ستجد طريقة تواصل مع الرجال أفضل مني.

- أنا لا أعدك بالكثير. ولكن إذا قررت جازماً فعليك أن تأخذ بالاعتبار ما سيكون عليه موقف الرجال منك أيضاً. لو كنت تعرف ما سيحدث، خيراً أم شراً، لنجح مسعاك، ولتوجه الناس إليك دون حاجة إلى العنف.

كان نطاي يحدث نفسه وهو عائد إلى البيت فرحاً بزيارته إلى مشقوه: "المسلم الحاج بعيد النظر وذكي ولكنه مخادع. لا شك أن كلمات مشقوه الأخيرة جاءت من الحاج. أوصل إليّ أيضاً الأفكار نفسها. من يا ترى ثالثنا الذي رشحه للدعوة؟ إن لم يظهر غير مشقوه فلن يكون منافساً لي إلى الآن إذ يقود جيش القرية، ولن يتخلى عن هذا المنصب ويتفرغ للدعوة. ولكن لا يستبعد أن يطمع فيه متى حان موعد تقاعده. وأنا سأهرم معه. وإذا أمضيت سنوات أقود الناس فلن يستطيع زحزحتي من منصبي. ربما لست في مستوى فطنة مشقوه، هو قائد عسكري منذ وقت طويل، ويكتسب علماً وعقلاً من آخرين غير الأمير الكبير. ألا ترى ما وصلت إليه فطنته في شأن صراع الأديان؟ أنا لم يخطر لي هذا حتى في المنام. متى تشبث القسوغ بالهتهم، وشدّ تيمرقوه باتجاه المسيحية، فأنا أول من سيضغط عليه الأمير ردد. ولا بد أن يكون وراء تكليفه تيمرقوه بمراسم ماتم رامبس السيدة الكبرى سرّ ما. مشقوه في مظهره دبّ وديع، ومن سحته تتساءل إن كان يعرف شيئاً، ولكنه حكيم خبير. يرتب كل الأمور التي لا تخطر لي البتة. ورغم ذلك لن أتوقف عن المهمة التي أنا متحمس لها. ولا يُستبعد أن تتحقق لي..."

قابل نطاي في الأيام التالية، حتى في أوقات الصباح، عدداً كبيراً من الناس. التقى بيزايز زوجة ججان، ووالدها يمزح، وبأمّ غأت، وجيرانهم. وأبرز هذه اللقاءات هو موقف العجوز كراث. لم تكن نطقت بكلمة قبلنا، وفي هذه المرة

أمطرته بالأسئلة وهي تتفحصه عميقاً، وتعجبت مما قال لها.
توجه نطاي إلى الداعية الديني وهو يفرك راحتيه قائلاً: "حديثك غني أيها
الحاج المسلم، بدأ كلامي يطرق قلوب الناس. سأخلص لك بكل طاقتي. وأنت
قابلي بمثله. ولا تُرفق بي مشقوه أو غيره..."

X

من يتهيب المشقة طويلاً يتجمد دمه، ويخب أمل، ويفقد عمله.
لا حدود لما خبر ردد في عمره من مشاق: جابه نخلش الأصهب والأمير أبج،
واجتاز الحرب الأهلية والأشر، وغارات لصوص الخزر والألان. تجاوز كل هذه
الأحوال دون أن يفقد صبره وشجاعته واتزان طبعه. ولكن التفكير في الحرب
القادمة التي سيسبها عليه الروسيج بدأ يُفقد صبره وطُمأنينته. وكان يحدث أن
يفيق في منتصف الليل، ولا يستطيع العودة إلى النوم إلى الفجر غارقاً في أفكاره
وهواجسه. ومع ذلك لم يكن يعير الأرق اهتماماً زائداً، معتبراً أن الأهم هو
نجاح مشروعاته، يمكنني أن أعوض شيئاً من النوم في النهار. ولكنه كان يعرف
أنه يحد نفسه.

يتوجه الأمير الكبير ردد برفقة عدد من الحراس إلى ضفة نهر بشده. الطريق
يقترّب حيناً من الضفة، ويتعد حيناً. والشمس ما زالت تحتفظ بحرّ الصيف.
والسحب الرقيقة تعبر السماء. وأكوام الحشيش على أطراف الغابات، والتبن
مجمّع في الريف.

أسراب اللقالق تطير نحو الجنوب متنادية. وقبلها عبرت أسراب مهاجرة أخرى.
ومن بين الأشجار المكتسية بلون الذهب تنصايح عصافير ملونة.

الأحصنة تدنو ببطء من شلال نهر بشده عبر دروب المشاة. توقف الأمير
الكبير عند مقطع الصخرة العالية، وبهره منظر الماء الفضي المتساقط من الجبل
العالي.

إلى هذا الشلال جاء ردد برفقة أصدقائه مراراً. ولكنه أحس بجماله اليوم
فحسب. قال ردد في نفسه: " يبدو أن الطبيعة لا تكشف كل مواطن جمالها
مجتمعة للناس. لا بد أن هناك من يتصور أن الشلال منظر مألوف كما

الشمسُ في إشراقها، والجبالُ في علوّها، والأزهارُ في تفتُّحها. الجمال يهيج أبرد القلوب. ويأسر الحيوان والجماد".

صحا ردد من أفكاره، ونظر من فوق القمة العالية ونادى:

- يا أغبان هل لاحظت أن الشمس تتباطأ في السماء بعض الوقت قبل أن تغرب؟

- كأن أحداً أوقفها. أليس كذلك يا أمير؟ - استغرب أغبان انتباه الأمير الكبير إلى هذا رغم مشاغله.

- هل تعرف لماذا تتباطأ الشمس في تلك الساعة يا أغبان؟ - سأل ردد، ودون أن يلتفت إليه سمّر نظره على القمم البيضاء، والغابات المتسلقة والمنحدرة، وماء الشلال الفضي.

- لم أسمع هذه الحكاية يا أمير، - مال أغبان نحو الأمير منتظراً ما سيرويه.

- روت لي أمنا وأنا طفل، - ألقى نظرة دافئة على حارسه المخلص، وسرت ضحكة خفيفة على شفّتيه. - ألم تسمع حكاية السيدة ستناي؟

- بالتأكيد يا أمير. نحتفظ منذ الصغر في قلوبنا بحماها. يقولون عند فلان ستناي، ولا يقولون عنده فتاة جميلة.

- ألم تسمع قولهم: متى أزهرت ستناي منعت النجوم من الحركة؟

- وهذا شائع يا أمير. ويقال: متى أزهرت ستناي فلا تغطّ النحل.

- إذا كنت تعرف كل هذه الأقوال فلماذا لا تعرف سبب ترثيث الشمس مساء؟

- لم أسمعه يا أمير، لا تحاسبنّي على ما لا أعرف. - ابتسم أغبان للأمير الكبير يغلبه الحياء.

- اسمع إذن: - بدأ ردد متحمساً: - تجادلت ستناي مرة مع نازت صانع الجلود:

- أستطيع أن أحيي زيّ امرأة أديغية في يوم. - قالت السيدة ستناي.

- وأنا أصنع سرجاً في يوم، - قال نارت الدبّاغ.

جلس الاثنان ينفذان ما التزما به. وعملا طوال النهار دون أن يرفع أحدهما رأسه عن عمله.

كان نارت صانع جلود ماهراً فأنتهى من عمله وجلس، في حين لم تنته ستناي من الخياطة فتوسلت إلى الشمس:

- يا شمسنا - إلهنا الكبير، لو تريت قليلاً لوفيتُ بعهدي، ليتك تلقي نظرة على اللباس الذي أخيطه!

لم يشبع الإله الشمس وهو يرفّ بجفنيه من النظر إلى الكساء الذي ألقى فوقه أشعته الذهبية. فتوقف متأملاً الثوب، منتظراً فراغ ستناي السيدة من الخياطة.

نهضت ستناي ولبست الثوب الجديد. وتعجب الشاب صانع الجلود مما يرى: - أنتِ كما يصفونك حقاً يا ستناي. وضعتِ اللباس في قالب كأن يداً بشرية لم تمتد إليه. فغرت في دهشة، وأوقفت الشمس.

- ها أنا زدتُ في معلوماتك اليوم يا أغبان، - ابتسم الأمير برقة، - إذا كان الجمال أوقف الإله الشمس فماذا بيدنا نحن الكائنات الفانية؟ يخطف منا النظر والقلب. ولكن لو خلا الكون من الجمال لعشنا يقتلنا الملل إذ لا شيء نصبو إليه. قطع الأمير الكبير كلامه، وتوجه إلى الطبيعة الجميلة ثانية وقلقه يساوره: " يا آلهتنا، الروسيح سيصلون إلى هنا أيضاً إن لم نكافئهم قوة. سيدنسون بأقدامهم كل هذا الجمال. هم أغرابٌ عن كل هذه الأرض. لا، يا آلهتنا الأعزاء، أفضل أن نموت قبل أن نشهد هذا "

- يا أمير، أرسلوا إليك رسولاً على عجل، - أخبره أغبان. نزل ردد من القمة الصخرية العالية، وحاذاه الرسول والزبد يسيل من فم حصانه:

- جئتُك بخبر سيء يا أمير: عبر الأمير مستيسلاف حدودنا! لجم الأمير حصانه فأوقفه على قائمته الخلفيتين. وفي الحال انتقل إلى العدو: "هجم علينا من كنا ننتظره بمشقة إلى الآن. وانتهينا من جدالنا، ومن ترتيباتنا". كان الحصان يفعل ما بإمكانه وما ليس بإمكانه كأنه يعرف أفكار راحه. ويكاد ينقطع نفسه من سرعته، فخاف عليه ونقله بمهارة إلى الخب. ثم أبطأ والتفت قلقاً إلى رفاقه: أغبان وراءه على مسافة قريبة، والآخرين يتسابقون غير بعيد عنه.

قفز الأمير الكبير الذي سيطر عليه التفكير في الحرب التي تنتظره من أفكاره

فجأة. ارتسم ولداه أمام عينيه، زفس وزيش يتصارعان على اللعبة. يلعبان مع صبيان الحيّ لعبة الغميضة وقد توهج وجهاهما. ويصغيان إلى حكايات جدّهما ساندنّ رأسيهما بأيديهما، قاطعين تنفسهما. بدأ زيش ينمو طويلاً، ويدّعي الرجولة. وكان زفس بدأ عنيداً كجرو الدبّ، ولكنه كبر فبدأ يفوق أخاه ذكاءً ونشاطاً.

"الحرب ليست لعبة. إن لم يساندنا الآلهة فقد أعود منها أو لا أعود. وماذا سيكون مصير الولدين اللذين لم يكتسبا بعدّ قلب الرجال إن لم أعد، وكيف سيعيشان؟ أقول هذا ولكن حتى من تيّموا أباً وأماً لا يموتون. إن كانت سيدتي ستناي سترعاهما فلا بأس عليهما. أينار، يا أينار... متى فقدتُك اعتبرت نفسي انتهيت. وأنت أظنك من هذا القبيل. - عصر الألم قلب ردد، - ما أبأس ألا ترى كيف يكبر أولادك، ولا ما يحدث لهم، ولا تشهد فرحهم! وما كان أعزّ الأمنية الأخيرة إلى أمانا. كانت تمسح على رأس الصبي، وتوقفه في حضنها وهي تقول: "لا أطمع في أن أشهد فرح زفس الصغير ولكن لو شهدت فرح الأكبر زيش لفضّلت على مال الدنيا". أكثر عقلهما اكتسباه منها. أينار امرأة حكيمة، ولكن لا أحد يعدل الجدة للأولاد. أنا راضٍ عن الآلهة: شَبّ ولداي وفيهما العقل والاحترام. حقاً أفرعني ما قال لي زيش قبل أيام وهو يتأملني بكل اهتمام: "كنت أتصورك ونحن صغار يا تات تعرف كل شيء"، ولما سألتها "والآن يا ولدي؟" أجابني "عرفتُ أني أعرف أشياء مما تعرف" بعد نفسه صار رجلاً. لا تستعجل يا ولدي. ستلحق بالرجولة يوماً. استمتع بالحياة ما دمت طفلاً لا تهتمّ بأسرة... أيّ أفكار يائسة تغمرني؟ إن كنت سأخوض الحرب بهذه الروح فلن أتحمّل ضربة سيف. ولن أستطيع قيادة جنودي!" - نهر ردد نفسه، ثم أسرع بالحصان الذي منحه بعض الراحة.

كان في دار الإمارة قدان ومشقوه وججان وشوباش وطاطخ وبشماف وغيرهم. بدأ الرجال والشباب يقعدون. جاء أغبان بمقعد للأمير الكبير. ولكن ردد لم يقبل. عبر بين المقاعد، ووقف أمام المسنين:

- أعتقد أن أمانا حرباً لم نشهد مثلها. ما رأيّ كبارنا في الموضوع؟ همّ بشماف أن يقف في حضرة الأمير الكبير كما اعتادوا، ولكن ردد أشار إليه

- بالجلوس، فتكلم من مجلسه:
- هذه الحرب لم نشهد لها مثيلاً. لا بد أنها ستكون حرباً طويلة، وأعتقد أن أولادنا وأولادهم، وأولادهم سيشهدونها.
- هزّ ردد كتفيه:
- ومن أين تعرف هذا، ومن قال لك يا زعيم الخير؟
- لا أعرف يا أمير، استنتجتُ بنفسِي.
- لماذا؟
- لا أعرف.
- مثل هذه الأمور تحدث لصديقي. - ساهم طاطخ في النقاش. - تصدّق توقّعاته.
- هل يكلمك الآلهة كما تراب؟ استغرب ججان.
- لا، قلقٌ بشماف. - أنا لا يكلمني الآلهة، أقول ما في ذهني فحسب.
- تبادل الجالسون النظر واجمين.
- تذكر ردد كلام ديمتري: "موقف القوم هو كلام الربّ" فاستراح دون أن يعرف السبب. ابتسم لبشماف مع شارة احترام. ثم استدار إلى الجالسين:
- لا شك أن أقوال كبارنا هي نتيجة خبرة العمر.
- نعم، نعم، - وافقه طاطخ الذي يختفي رأسه في قبعته الضخمة، هازأً برأسه،
- من يقول هذا ليس بشماف، ولا نحن، بل العمر الذي عشناه.
- وماذا سيكون رأي قدان؟ هل جيشنا جاهز لمجابهة العدو؟
- انظروا لحظة في هذا الاتجاه! بدت نار الإنذار. - صرخ شوباش.
- كان الدخان يتصاعد ملتفاً حول قمة الجبل. نخض الجالسون يراقبون نار الإنذار المقلق.
- هذا جواب سؤالك يا أمير، - مقاتلو كل القرى التي مرّ بها الرسول يجهزون الخيول. وكل قادة جيوش الفرسان يعرفون ما يجب أن يفعلوا.
- يا شوباش! - نادى ردد أخاه، - أرسل من يستدعي نطاي.
- وما حاجتك إليه؟ - استغرب شوباش.
- سأصطحب كل دعاة الأديان. ليقف معنا آلهتنا والمسيح والله! الحرب التي

أمامنا يا أخي ستقرر مصير بلاد الأديغة.

قرر شوباش أن يذهب بنفسه فركب، وأجرى الحصان بأقصى سرعته.

رأى نطاي الفارس الملهوف القادم إليه فوقف على المسطبة. ووقفت دكايس وراءه ويدها جرة الحليب. وسبقت غيرها بالسؤال:

- لماذا أنت قادم بهذا الوجه القلِق؟

- الأمير الكبير يريد نطاي حالاً. - أسرع شوباش دون أن يترجل.

- يا شوباش، هذا إنسان الله، ليس محارباً.

- أعرف، - رد شوباش باختصار، - ولكن كلام الأمير الكبير أمرٌ لكل إنسان.

- هل أركب أم يمكنني أن آتي على رجلي؟

- كما تريد.

- جهّز حصانك يا نطاي، وأنا سأحضّر لك ما ستحتاجه. - عادت دكايس إلى الغرفة.

وقف نطاي أمام الأمير الكبير في غاية القلق بانتظار ما سيقوله له وجفناه يرقّان.

- ينتظرنا موقف صعب يا نطاي. - الروسيغ يهاجمونا، - بدأ ردّد حازماً هادئاً. - قررت اصطحاب كل دعاة الأديان إلى الحرب. سننطلق فجرأ.

- الحرب مأسأتنا جميعاً يا أمير. - أنا جاهز، - احمرت وجنتا نطاي الناعمّتان، - يسرني أنك تذكرتي. وإن كنت تتذكر فقد تطوعت من نفسي لمحاربة أمير الزيخ مع مشقوه.

- أتذكر جيداً. تصرفت كالرجال. - امتدحه الأمير الكبير، - والآن استدعو إلى الله أن ينصرنا على الروسيغ.

XI

أشرقت شمس الصباح الحمراء الكبيرة من وراء جبل بباو. بعضهم رأى فيها خطراً داهماً، والآخرين علامة حزن. والفريق الثالث اعتقدوا أنها ستحتار بين أن تكمل طريقها أو تغيب كأنها تود الاختفاء عن أعين الناس.

أزاح ردد حياءه جانباً وعانق أبنار بجمارة أمام ولديه. ولمس وجهها بشفتيه. ثم ضم إليه الولدين في عناق رجولي متين.

- الأعداء اقتحموا أرضنا. أنتما ما تزالان صغيرين وإن صرتما رجلين. احميا بيئكما وأمكما. الشرف والرجولة لا يتعلقان بالعمر. تحلّيا بالصلافة!

وتبعه شوباش يودع أبنار وأخويه الصغيرين.

خرج جيش الفرسان من مزيه. وكما تصب الجداول في النهر كان جنود القسوغ والزبخ والحكوف والموط ينضمون إلى الجيش الأصل كلما قطعوا مسافة من الطريق. وفي المساء وصل جيش الفرسان إلى أسفل الجبل، فترجلوا وانتشروا في المكان ليريحوا أنفسهم وخيلهم.

يُسمع أحياناً نخير الخيل، وسعال حراسها. والأمير الكبير جافاه النوم. قلبه في بيته، لا يفارق ولده وأبنار مخيلته. ونهض حارسه أيضاً لا يستطيع النوم.

- نَمْ، نَمْ يا أغبان، أنا سأمشي قليلاً. وما إن ابتعد قليلاً عن الخيمة حتى استوقفه الجدال:

- أنا لم أترجّ الأمير الكبير لأحل محلّ تراب. هو من أوكل إليّ المهمة. - تعرّف ردد على صوت تيمرقوه، - أنت من كان يجري وراءه. أنت من كان يريد الحلول محله. وكما كان تراب يعالج المرضى فأنت بدأت الطريق مثله تشفي المرضى.

- تراب كان يخدعنا كلنا. لا شغاني أنا، ولا نفع أحداً. وشهدت دكابس بعدما انفصلت عنه أنه لم يكن يكلم الآلهة. - عرف الأمير أن نطاي هو من يتكلم إلى تيمرقوه من صوته الحادّ.

- أنت شفيت المرضى، ماذا فعلت بهم؟ - سأل تيمرقوه.

- لم أفعل بهم شيئاً. ولم أعطهم الدواء المرّ الذي كان يسقيني منه تراب. ولكني أقنعتهم بأنهم سيُشفون.

- هل تعلقت بالإسلام عن قناعة؟

- هذا شأني الخاصّ.

- لا أقول إنه ليس من شأنك يا نطاي. أنا صارت المسيحية خلال أسري جزءاً من دمي. لم يُجبرني أحد. آمنت بإخلاص من تلقاء نفسي بالمسيح رسول

الربّ.

- ما كان عليك إذن أن تحل محلّ تراب تخدع نفسك وتخدع الناس.

- لا تعلّمني ما عليّ فعله! - ارتفع صوت تيمرقوه.

خشي ردد أن يتماسك الرجلان إن تأخر فدنا منهما مصطنعاً سعدة.

- هذا أنت يا تيمرقوه، وهل نطاي معك؟ فيم تتحدثان أيها الداعيتان. ولماذا لا تنامان؟ أماننا غداً يوم شاقّ.

- انتحى بي تيمرقوه يريد محادثتي. - بادر نطاي بالإجابة.

- إن كنتما تنويان الجدل فالوقت ليس مناسباً يا تيمرقوه، - قال ردد بنبرة الناصح، ما يجب أن تفكرا فيه، أنت ونطاي، هو تشجيع المقاتلين وتهدئة خواطرمهم وهيئتهم للنصر. اذهبا واستريحا!

اجتمع الفرسان بعد انقضاء الليل في المرعى في مجموعات. وفيما هم يستعدون للتقدم صاح المستطلع المقيم على رأس الشجرة:

- الجيش قادم! الأرجح أنهم الروسيج!

- يا قدان، أرسل ثلاثة فرسان، ليعرفوا ما هذا الجيش!

خاطب ردد نفسه: "لا شك أنهم الروسيج. من غيرهم سيهاجمنا؟ - ألا طريقة لإيقافهم أو ردّهم؟ ما أشقّ انعدام الوسيلة، يحتم على القلب كالحجر... لا، ليس هذا جبناً. ولا خوفاً في القلب. ليس أكثر من صراع الحياة ضد الموت. هذا القلق ينتابنا، لا يميز الجندي العادي من قائد الجيش.

ارتقى ردد التل الصغير، ورصد. وخيّل إليه أن الجيش الزاحف كالجراد ليس جيشاً بل هو موجّ بحر يعلو إلى السماء، فقال لنفسه: "أظن أن الأديغي الواحد سيقابله مئة من الروسيج..."

- الأمير الكبير يتقدمهم. ومن الفرسان الذين يتبعونه؟ - سأل ردد قدان مع أنه عرف أنهم أديغة. - لماذا لا تقول شيئاً؟ - وأضاف بصوت يكاد يُسمع: ستكون حرباً بلا نهاية كما قال بشماف...

كان الجيش يقترب من ردد شيئاً فشيئاً.

- انظروا إلى ذاك الاتجاه، - توجه ردد إلى قادة الجيش. - الصفوف الأولى هم من الأديغة، وكثيرون. ما العمل؟

- لم يأت جواب إلا الريح الخفيفة.
- لماذا لا تقولون شيئاً؟
- لا يليق بنا أن نحارب إخوتنا. - أجاب أحدهم بصعوبة.
- ولماذا لا يليق؟
- سيعاقبنا آلهتنا بدمنا يا أمير.
- هل نسمح لهم إذن أن يسلبونا أرضنا، ويأسروا نساءنا وزوجاتنا؟ - أوقف الأمير حصانه فقفز بصدرة في الهواء.
- اضطرب الجيش وهاج. وصهلت الخيل كأنها تعرف ما أمامها من مأساة.
- لن نسمح لهم أن يفعلوا هذا!
- جئنا لنحمي أرضنا.
- لن نتراجع ولو فئينا.
- هدأ الأمير حصانه. واختلج جسده القوي بلا حدود كمن ضربته صاعقة.
- واستعد دمه الهائج للتضحية. وغاب عنه الهدوء. ثم رفع يده:
- لن نتحارب! سادعو الأمير الكبير مستيسلاف إلى الساحة، ونتصارع.
- وسنحسم نحن الاثنين نتيجة المعركة.
- هاج الجيش من جديد. وعارض بعضهم. وهبت ريح الفرقة كالعاصفة فوق الساحة وعلى رؤوس الفرسان.
- رفع ردد سيفه عالياً يطلب من الفرسان الصمت. فانطفأ الضجيج. ترجل ردد، ونزع عنه أسلحته، ووضعها على الحشيش وتوجه حازماً إلى الروسيج. فهم الأمير مستيسلاف نية الآتي إليه. فنزع هو أيضاً أسلحته.
- كانت الشمس تلمع ناعمة جداً في السماء الزرقاء العالية. والهواء الذي يهب على دفعات يغيض أعالي الأشجار. وأشعة الشمس الدافئة تعبت بأوراقها الصفراء. والمأساة التي خيبت فوق رؤوسهم تقف في طريق كل جمال.
- أيها الأمير الكبير مستيسلاف، متى اشتبك جيشانا فلن يحتاج هذا المرعى بعد إلى أي نوع من المطر. سيرويه مقاتلوك ومقاتلي بدمائهم. ولن يغفر الآلهة والناس هذا إلى الأبد، ولذا دعنا نحلّ خلافنا أنت وأنا دون سلاح. إن غلبتني فلك أرضي وبيتي وأسرتي. وإن غلبتك فلي كل ما تملك.

تفحص مستيسلاف ردد من رأسه إلى قدميه، ثم نظر إلى السماء، دعا إلى الرب في سرّه، وقال:

- ليكن هذا!

- دون سلاح!

- دون سلاح!

أخلى الجيشان وسط المرعى ووقفوا ينتظران ما سيحدث.

تقابل الأميران الكبيران الشجاعان. هجم كلٌّ منهما على يدي الآخر. حاول مستيسلاف أن يرمي ردد من فوق رأسه غير أن أمير الأدبغة كان أمهر. وكاد أمير الروسيح يسقط. ثم تماسك وحنى كتفيه وتحفز لهجوم آخر.

كان مستيسلاف يهوى المصارعة، ويتقن فنونها. ولم يكن في توم - تقاش وفي غيرها من يغلبه. وهذا ما جعله يوافق دون تفكير على اقتراح المصارعة. ولكنه فهم من محاولاته الأولى أن النصر ليس سهلاً. وتذكر أن ردد حصل على حريته من أسر الروم عبر مباريات مع أقوى المصارعين.

وها هما الآن يتبادلان الهجمات. حُبل إلى مستيسلاف مرتين أن النصر دان له، ولكن ردد كان يتملص منه في اللحظة الأخيرة. والآن فاجأه ردد بحركة رجل فرماه على الحشيش. وثبت جسده الضخم على الأرض.

بدأ مستيسلاف يضيق نفّسه. وفهم أن نهايته حانت. جمع ما تبقى له من قوة، وهوى بيده فاستل السكينة التي كان خبأها في عنق حذائه...

خارت قوى ردد، والتوى عنقه الغليظ.

- أنت لست رجلاً، - نطق ردد بصعوبة، - أنت قاتلٌ قذرٌ...¹

¹ دُونت هذه المأساة في "حكاية الأحداث الماضية" كما يلي "في عام 1022 أتى

ياروسلاف إلى فيرست. وفي الوقت نفسه هاجم مستيسلاف الذي كان يحكم توم - تقاش

القسوغ. فتصدى له أميرهم ردد. تجابة الرجلان فقال ردد لمستيسلاف: "لماذا ندع مقاتلينا

يتفانون؟ لنتصار! إن غلبتني فلك مالي وأرضي وأمرأتي وأولادي. وإن غلبتك فلي كل

مالك" قال مستيسلاف: "ليكن!" وأجاب ردد: "نتصار بالأيدي دون سلاح" هجم كلٌّ

على الآخر بعنف. وطال الصراع. وبدأت قوى مستيسلاف تنهار. فقال: "يا مريم العذراء

- انتصرتُ عليه!.. - نهض مستيسلاف سريعاً، ورفع يده إشارة النصر. وأسرع حالاً إلى جنوده. كان في لهفته كالمهزوم. أسرع شوباش إلى الساحة. وهوى على صدر ردد. وأعول بكل صوته، حتى رفعه قدان بصعوبة:

- اهدأ، لا تُبْنِ ضعفك أمام هؤلاء!

عرف المحاربون الأديغة حقيقة ما جرى في الفسحة فهذا قادة جيوش القرى مقاتليهم بمشقة.

صنعوا من الرماح نعشاً، وأخرجوا جثمان الأمير الكبير ردد من الفسحة. وحملوه طوال النهار المشرق والمساء الغائم. وساروا في الليل حاملين مشاعل ضخمة. وخيمت تلك الليلة زمناً طويلاً على أرض الأديغة ليلة حداد. قال قدان لتيمرقوه:

- لا بد أن هذه الليلة التي أتت على أرضنا هي المأساة التي أتى العجوز بشماف على ذكرها لما تنبأ بالحرب الطويلة. وأضاف كوستاس:

- كان ردد يؤمن بالهة كثيرين، ومع ذلك أدعو إلى الرب أن تجد روحه السلام. ضحى بحياته لحماية مقاتليه الأبرياء. وهذه بطولة منه...

ما بعد ردد

خيّم ليلٌ مظلم طويل على بلاد الأديغة.

لم ينقُضْ أمراء الأديغة وقادة جيشهم عهد الأمير ردد. منحوا مستيسلاف إمرتهم وأرضهم ومناجم الذهب والفضة والحديد والنحاس. وأرسلوا معه السيدة الكبرى أينار وولديها زيش وزفس. ورافقهم شوباش وأغبان إلى توم - تقاش. وبقي مشقوه وتيمرقوه وججان وقدان في بلاد القسوغ. وقتل الحزن - الإهانة أينار: لم تعمّر في أرض الغربية إلا بضعة أشهر.

أعيني، إن غلبته فسأبني لك كنيسة باسمك. وفي الحال أخرج سكينه وذبح ردد. واقترح أرضه، واستولى على ماله وزوجته وأولاده. وفرض الإتاوة على القسوغ. ودشن الكنيسة الموعودة حين عاد إلى توم - تقاش. ولا تزال الكنيسة إلى أيامنا في توم - تقاش. المؤلف.

دخل أمير الزيخ زيكوشو، وأمير الموط قايت، وزعيم الحكوف دامر في خدمة جيش الروسيج. كانوا يشرفون على متسابقي الخيل الأديغة. ويجهزون جنوداً منهم ليخدموا في جيش الروسيج. ولكن عاش في ذلك العصر من توقع أن العداء الذي أكتّوه للمحتلين في قلوبهم سيتفجر يوماً بعد قرون على أرض الأديغة؛ ولكن هذا بعد قرون. كان الأديغة في ذلك الوقت يعملون بإخلاص لصالح الأمير مستيسلاف.

وضع تيمرقوه الصليب في عنقه، وعلى جدار بيته صوراً جاءت من بيزنطة للمسيح وأمه. واعتنق كثير من الأديغة المسيحية. وصاروا يأتون في الأعياد إلى تيمرقوه ليتهل إلى الرب من أجلهم.

ونطاي ما يزال يود أن يصبح زعيماً دينياً ولكن الجيش انتهى. ولا يعرف أي دين سيكتنق: المجوسية أم المسيحية أم الإسلام؟ وهذا حبه اللامحدود لزوجته دكايس. والعينان اللتان كانتا تلمعان يوماً فقدتا لونهما وخمدتا.

وأمر مستيسلاف وفاءً لندره عام 1022 ببناء كنيسة باسم الأم - الإلهة في توم تقاش. وفي ذلك المعبد عُمد ولدا الأمير ردد. ولما تحولوا إلى المسيحية سُمي زيش بـ يوري، وزفس بـ رومان. وتزوج رومان من ابنة مستيسلاف فزُقا بـ ميخائيل. ومزّت الأعوام. وأصبح دم ردد يمتزج شيئاً فشيئاً بدم أمراء روسيا ومتنفذها.

شغل فرسان جيش الأديغة المجهزون جيداً للحرب مراكز كبيرة في جيش مستيسلاف¹. وبرفقة هؤلاء هاجم مستيسلاف كييف سالباً ياروسلاف ميراثه. وتحصّن في أرض شيرنيغوف. وفي العام التالي حطم الجيش الخليط من الروسيج والأديغة جيش ياروسلاف قرب ليستفين. وفي عام 1026 عقد مستيسلاف وياروسلاف معاهدة سلام في "غورودز" وبموجب هذه المعاهدة حصل على الأرض الواقعة على يسار نهر الدينير. واختار شيرنيغوف عاصمة، وجلب إليها

¹ المعلومات التي استفاد منها المؤلف في خاتمة مستقاة، بالإضافة إلى ما سبق، من كتاب

ب. ملباخوف و أ: إيلمس: "كاباردا في القرون الوسطى" و م. عُبحوق: "ردد الرجل الفدّ" وغيرهما. المؤلف.

أسرته وجيشه.

توفي مستيسلاف عام 1035. واستولى ياروسلاف على كل أراضيهِ. وماذا كان ينتظر أولادَ مستيسلاف وأحفاده؟ هؤلاء من سلالة ريوريكوفيتش من جهة الأم فكانوا ممنوعين من منصب الإمارة، ولكن كان بإمكانهم تولي مناصب كبيرة. وليس في ما كُتب خلال أربعمئة عام أيّ كلمة تتناول سلالة ردد. ولكن كارامزين يورد في " تاريخ دولة روسيا " أن أربعاً من أسر موسكو القديمة تعتبر نفسها من سلالة الأمير الكبير ردد. وهذه الأسر هي: دوبرينسك، وبيلوتوف، وسوروكوموف - غلييوف، ولوبوخين. وقد حملت هذه نسب ردد. ويبدو أن بعض فروع نسب ردد في القرن السادس عشر، مثل: فولكولامسك، وديمتريفسك، وزفينيغورودسك، وسوزاليسك، وغيرها، كانت أسراً غنية مشهورة، وتحت يدها أراضي في إمارة موسكو. وحين اتحدت الأسر المنفصلة وأُسست دولة واسعة أنجزت مهام كبيرة في دولة روسيا. وكانت مقرّبة من القيصرية، وأقوالهم وأفعالهم لا تقدّر بثمن. ومن المؤكّد أن أندريه أودينيز عمل مع ديمتري دونسكوي في بعض المجالات، وأن ابنه بيلوت ألكسندر كان مقرباً من القيصر فاسيلي الأول. وتولى أوبرازيس فاسيل قيادة الجيش. وكان غنياً جداً. وكان نيكيتا رومانوف، وهو سليل ردد، قريباً جداً من إيفان غروزني.

وكان لسلالة ردد فضل كبير في وصول ميخائيل بن فيدور أول من تولى العرش من أسرة رومانوف التي حكمت روسيا ثلاثة قرون.

وبمضي الوقت وتكاثر الأسر المنحدرة من ردد، وتتنوع بدمها وشرفها في العرق الروسي، وتمدّها بالقوة والجدور. ومن بينها ظهر رجال دين أقوياء. وكان فيلاريت بطريرك روسيا والد ميخائيل رومانوف.

وبين المآسي التي حدثت لسلالة ردد كان ما حدث لأسرة لوبوخين عجباً. في عام 1689 صارت إفدوكيه بنت فيدور لوبوخين أول زوجة لبطرس الأول، فكانت ملكة روسيا. وفي عام 1698 طلقها زوجها وأدخلها الدير. وفي عصر إليزابيت أبعدت الأسرة عن البلاط الملكي. ونُفي الأدميرال ستيفان لوبوخين بعد جلده إلى سيبيريا.

وأعيد بعض سلالة بطرس لوبوخين الثالث إلى البلاط. وعُيّن في عصر إيكاترين

الثانية حاكماً، ومُنح لقب أمير. وعين ألكسندر الأول لوبوخين وزيراً للعدل، رئيساً لمجلس الدولة. وشارك ابنه بافيل ببطولة في الحرب الوطنية عام 1812¹ برتبة جنرال - ليوتونانت. وانتُخب بربارا بنتُ إيفان لوبوخين أًجمل امرأة في بطرسبورغ. وأحبّها الكاتب ليرمنتوف، وكتب لها شعراً دخل في الشعر الكلاسيكي الروسي.

متى امتزجت قوتان ولدتا قوة ثلاثة هائلة كما لو قُرع حجر بحجر فولدا ناراً. وهذه حال الحفيد الثاني لردد، الأدميرال فيدور وشاكوف. والعجيب أن أول سفينة حديثة من الأسطول الروسي في أواخر القرن التاسع عشر سُمّيت "ردد- أمير القسوغ".

وُلد وشاكوف عام 1745 في أسرة متنفذة غير غنية. ومن قرية بورناكوف التي تنتمي إلى مقاطعة رومانسك، من إقليم ياروسلافسك. وانتسب في عمر السادسة عشرة إلى مدرسة البحرية العسكرية. وبعد سنة رُقّي إلى رتبة عريف. ثم بعد سنة إلى رتبة ضابط صف. ثم ملازماً في البحرية بعد سنة، وهكذا حتى تولى قيادة الأسطول.

وفي عام 1780 عُيّن وشاكوف قائداً لليخت القيصري. ولكنه يبتعد عن البلاط ويختار مهنة البحرية. وفي بداية الحرب الروسية - التركية عام 1788 ، دُمّر في فيدونوسي، وهو في السفينة المتقدمة، أسطول العدو المتفوق جداً عددياً، فمُنح وسام فلاديمير من الدرجة الثانية. وحقق بصفة قائد لأسطول البحر الأسود انتصارات متتالية على الأسطول التركي منذ عام 1790، فحصل على مزيد من الأوسمة تقديراً لهذه الإنجازات. وتوجه في عام 1798 إلى البحر المتوسط فبرز قائداً بحرياً متميزاً زمن تأسيس الجمهورية اليونانية. وفي أواخر الخريف مُنح وساماً آخر مع أحجار كريمة لاحتلاله جزر يونيشيسك. ولم تقتصر على روسيا أوسمته وألقابه وانتصاراته، بل اشتهر في خارج روسيا أيضاً. تمضي سنوات وعقود، ويمضي الشباب، ويتقدم العمر، وتتابع الأسئلة لا تدري من أين. وليست هذه مجرد أسئلة، بل من أجل أن تعرف أصلك وتعرف

¹ المقصود حملة نابليون بونابارت على روسيا، والتي انتهت بهزيمة بونابارت.

نفسك، وتُبلغ من يأتي من أخلافك.

كان بطرس الثالث أصدر أمراً بمنح امتيازات لسلالات الأسر العريقة تكريماً لها. وبعد عشرين عاماً من ذلك الأمر أكد بافيل الأول على العاملين في الأرشفة، وعلى دوائر الدولة أن يمنحوا الوثائق التي تشهد على أصول أسر الأعلام. ونتيجة لهذا الأمر كتب الأدميرال وشاكوف رسالة إلى القيصر يطلب فيها شهادة تُثبت أنه سليل الأمير ردد.

و جاء في جواب القيصر على رواية ف. أوفجينيكوف في كتابه: "وشاكوف بن فيدور بن فيدور": "قتل مستيسلاف بن فلاديمير الأمير الكبير ردد، وحول ولديه إلى المسيحية. وعلى إثر اعتناقهما الدين الجديد غير اسم الأول إلى يوري، والثاني إلى رومان. وزوج ابنته لرومان. وفاسيل بن رومان هو حفيد ردد. ويوري ابن فاسيل... وأولاد غريغوري هم وشاك ولابوت وكرابوتكا وإيليا وألكسي وإيفان الكبير وليف وإيفان الصغير..."

ويشهد هذا الجواب على أن أسرة وشاكوف تبدأ من ردد.

يكتب الأدميرال وشاكوف في ربيع عام 1804 إلى القيصر طالباً إدراج نسب وشاكوف في الكتاب المتضمن أسر روسيا الثرية. ويرد في الطلب الموقع من الأدميرال: "أتوسل إليك أيها القيصر أن يتضمن الكتاب على نحو مفصل انتماء أسرتنا إلى أمير القسوغ ردد، واستحقاق منحننا خاتماً خاصاً..."

في عام 1807 لُيِّي رجاء الأدميرال وشاكوف، فورد اسمه في سجل الأحوال المدنية، وأدرج خاتم الأسرة في كتاب الأختام، فُمنح الأدميرال وثيقة وخاتماً. ولا يزال عندي بعض الكلام على أخلاف ردد.

القرن العشرون.

كان ألكسندر لوبوخين قائداً للبوليس الروسي. وقاوم موجة الثورة التي تخيم على البلاد، ولكنه ضاع بين القوتين المتجابهتين فدخل السجن.

وكان ديمتري لوبوخين ضابطاً في الأركان. ومات في الحرب العالمية الأولى. وكان ميخائيل لوبوخين من الحزب الفوضوي. وكان نيقولاي الأول يحاول برفقة تروبيسكوي تحريره.

واليوم، وقد انتهيت من الكتاب في بداية ربيع 2000، ليس ما جاء في

الكتاب صدئٌ فحسبُ، بل هو صوت القرون الماضية؛ جاء في أحد برامج تلفزيون موسكو: " نعطي الكلمة إلى السيدة الأميرة ناتالي ابنة فلاديمير لوبوخين " وشهدت المرأة: " حقاً، أنا من سلالة أمير القسوغ الكبير ردد " وها هو أيضاً فيدور بن فيدور كوكوشكين أحد أخلاف ردد. كان أستاذاً حقوقياً بارزاً. ومندوباً في مجلس الدوما. وضع قانون انتخاب المجلس التأسيسي، وكان أحد زعماء الحزب الديمقراطي الدستوري البرجوازي. وسُجن إثر ثورة أكتوبر 1917 في قلعة بيتروبافلوف. وقتله جنود الأسطول البحري.

وما سبرد بعد هذا من أخبار قصيرة جزءٌ من التاريخ. إذا عدت ألف عام تقريباً إلى الوراء، وهي دروب تبدأ من الفسحة الواقعة أسفل جبل بياو. وهذا التاريخ فرع عظيم نما في الإقليم الواقع بين البحرين الأسود والأبيض. ثم قدِمت موجات التتر - المغول. وتلتها مآسي القرون التالية...

دخل الأديغة الأوائل إلى روسيا في القرن السادس عشر. وتعبير أدقُّ لم يدخلوا من تلقاء أنفسهم. نادتهم ذاكرة القرون، وجمعهم أجدادهم.

في عام 1540 توجه شَبَقُ أمير جَنَه إلى روسيا. ومرافقة ولديه ألكسندر وفاسيل اللذين تنصَّرا ساهما قادهً للجيش الروسي في حرب ليفونيا¹ وفي الوقت نفسه وجد أمراء الأديغة شَبَق ومشقوه وتيمرقوه الطريق إلى روسيا.

تيمرقوه إيدار² من المحاربين الجسورين. رجل جسيم قوي. اللبأُ فراشه، والكساء لحافه، والسرَج وسادته. وأيُّ شيء يجده طعمه. لم يكن يفاجئ العدو بالغايرة بل يخبره سلفاً. ولا يتصف بالخبث أو المبالغة. مبدؤه الحرب العادلة. وحارب خانات القرم مراراً على ضفاف إيندل والدون.

وكان لتيمرقوه أربعة أبناء: دَمِرقوه، ومامسرقوه، ويَغْلَيرِقوه، وسلطان. وأسماء بناته: أَلْتَنَجاج، وملْخَرِب، وعُشُوناي. وزوج ابنته أَلْتَنَجاج من بيكبولات ابن خان أستراخان، وابنته الوسطى ملخرب من ابن خان النغوي تينيخمتا،

¹ 1558 - 1583 خاضتها روسيا للسيطرة على ليفونيا الواقعة حالياً في أراضي أستونيا

ولا تقيا ضد تحالفٍ من الدانمارك والنرويج وغيرهما.

² التشديد هنا وفي ما يلي من المؤلف، وكذلك الأقواس.

فتقرب من زعماء الطرفين.

وحين اندمجت إمارة أستراخان في روسيا أعطى القيصر إيفان غروزني الأراضي الواقعة على امتداد نهر أوكا للزوجين بيكبولات وألتنجاج. وأرسل في عام 1556 رُسلًا إلى الأمير تينبخمات. وأرسل إلى الشركسية ملخرب هدايا ثمينة. وبعدها يختارون موسكو مقر إقامة فتتحدر منهم أسرة وروسوف. وسهّل إيفان غروزني على نفسه مجابهة الأعداء مستعيناً بأقربائه بالمصاهرة. ويختتم هذه القرابة عند وفاة زوجته الأولى أنستاسيا بالزواج من عُشُوناي الابنة الصغرى لتيمرقوه. ورافقها في زفافها إلى موسكو ألفٌ وخمسمئة من الفرسان الأديغة والقوزاق. وكان على رأس الفرسان القائد بوتورلين. وفي رفقتهم الموفدان مياكينين وفوكشونين. وعقد قران إيفان غروزني وعُشُوناي في كنيسة ماكاري في الشهر الأخير من صيف عام 1561.

كان الأديغة متحمسين لمثل هذه التحالفات، ففي عام 1558 يذهب مبعوثو الأديغة إلى موسكو، وعلى رأسهم بغلايرقوه وسُلطان، ابنا تيمرقوه. ويتوسل المبعوثون إلى القيصر لحمايتهم من اللصوص الأعراب. ولما كانت القفقاس من حدود إيفان غروزني فقد تحمّس للأمر ومنحهم الحماية. وتنصّر سلطان في موسكو فتحول إلى الشركسي ميخائيل.

نشبت حرب بين تركيا وروسيا.. كانت تركيا محتاجة إلى أراضي الأديغة الواقعة في الجنوب الشرقي لنهر إيندل لمجابهة روسيا وإيران، فتوجهت جيوش تركيا وخانات القرم إلى أستراخان. ولما هزم الجيش الروسي جيش تركيا وخانات القرم فتراجعا، هجم عليهم الجيش الذي يقوده تيمرقوه فأبادهم. وأسر كثيراً منهم، وسلبهم كثيراً من الأملاك.

استغل خان القرم افتقار القسم الغربي من إقليم الأديغة إلى الجيش فأرسل ابنه عادل - جري، فتوجه تيمرقوه إلى هناك راغباً في مساعدة أبنائه. ولكن العدو كان أقوى فغلبهم. ووقع مامسرقوه وبغلايرقوه في الأسر. ومات تيمرقوه متأثراً بجروحه البليغة.

مامسرقوه بن تيمرقوه الشركسي كان الأخ الأكبر لعُشُوناي زوجة إيفان غروزني (ماريا). وكان سافر إلى موسكو للمرة الأولى عام 1565. ويردُّ في

الكتاب المتضمن أحداث روسيا " أنه وصل من شركيسيا إلى موسكو في السابع عشر من الشهر الأول من الصيف. وكلفه القيصر بالسفر إلى قرية المتنفذين ألكسندروف. وقد حيا مامسرقوه القيصر باسم والده تيمرقوه. وأبلغه أن الشراكسة لا يطيعون والده في كل شيء، وأنه يود تهدئتهم من أجله".

ترك مامسرقوه أثراً لن ينساه العرق الروسي. وورد اسمه في كثير من التاريخ الشفهي وفي الأغاني التاريخية. واستقى ليرمنتوف من هذه الحكايات مادةً لقصيدته "أغنية إلى القيصر الجندي الشاب إيفان بن فاسيل، والتاجر الشجاع كالاشنيكوف".

ويرد اسم الشركسي مامسرقوه في الأغاني وفي التاريخ بصفته أخاً لزوجة القيصر الحبيبة. كان القيصر، كما تشهد الكتابات، لا يشبع من الإعجاب بجسامة أخي زوجته وقوته وشجاعته. "هيه، أنت أيها الأمير الشركسي، أنت خلقت عملاقاً من عمالقة الأساطير..." والكتاب الذي يحمل عنوان "تاريخ أمراء الأديغة" يؤكد أن كلمات الأغنية موجّهة إلى مامسرقوه: " كان مامسرقوه جسد ضخم، ويخافون منه في القبرتاي ". والأشخاص الذين يرد ذكرهم في الأغنية التاريخية المخصصة لمامسرقوه هم أشخاص حقيقيون عاشوا في تلك الفترة: إيفان غروزني، وتيمرقوه، وماريا، ومامسرقوه، وغيرهم، يُعدّون من أقدم من ذُكروا في الأغاني التاريخية في القرن السادس عشر. وتشهد الأغنية أن الأحداث جرت لمامسرقوه في موسكو.

وفي أواخر الشهر الأول من خريف عام 1565 غادر مامسرقوه موسكو مرسلًا من إيفان غروزني إلى القبرتاي تلبية لطلب حميه مع المحارب ماتفي رجيفسك والقوزاق. وكانوا أرسلوا مجموعة مشاة كبيرة بزعامة داشكوف. فلما التقت المجموعتان دخلتا محاربتين إلى القبرتاي الكبرى¹، وأخضعتا أمراء قايتقوه المتحالفين مع خانات القرم.

أسرّ عادل - جري مامسرقوه وأخاه الأصغر بغلايرقوه حين هاجم إقليم الأديغة

¹ يقسم نهر تبريك أرض القبرتاي إلى قبرتاي الكبرى إلى الغرب، والصغرى إلى الشرق، بينهما بعض الاختلافات اللغوية البسيطة.

عام 1570، فلم يدخر إيفان جهداً لتحرير أخوي زوجته من الأسر رغم سوء علاقاته بالترتر. وها هو ما كتبه لدولت - خان: "وصلنا خبر وقوع مامسرقوه وبغلايرقوه ولدي تيمرقوه في أسرٍ ولدك عادل جري. ونرغب إليك باسم الرحمة التي تَكُنُّها لنا أن تبعث بهما مع رسولي نجم إلى مدينة أفاناسي. فإن أعدتهما إلى نواحيننا دون عقبات سهَّلنا لك ما تطلب من عندنا".

ولا يكفَّ إيفان غروزي عن المطالبة بولدي تيمرقوه، فيرسل شابكَيْن موفداً قيصرياً إلى القرم، ويسلِّم بغلايرقوه المسجون في مانغوب هدايا القيصر مع تحياته. ويلتقي بمامسرقوه في باغجسراي. وكان مسجوناً مقيداً في قبو، ففرح إذ وثق بإمكان تحرره سريعاً إذ لم ينسه قيصر الروس. وعلى أي حال فقد عاد مامسرقوه من الأسر، ولكن طريقة تحرره ما زالت سرّاً إلى الآن. وربما كان أهله افتدوه، أو هرب من أسريه، أو تحرر بوساطة إيفان غروزي. أما بغلايرقوه فلا يعرف أحدٌ إلى الآن ما جرى له.

في عام 1578 يستدعي إيفان غروزي مامسرقوه مع مجموعة من الفرسان لإرساله في مهمة عسكرية. ويؤدي إخلاصه لموسكو وللقيصر الجديد فيدور بن إيفان. ويتزجأه أن يحمي الأديغة من الترك ومن غوي القرم. وكان أنشط المتابعين لرغبات الأديغة بعد وفاة تيمرقوه ولده دامنقوه، وعلى نحو أخصّ ولده الآخر مامسرقوه.

كان المسؤولون الروس يثمنون جداً شخص مامسرقوه. الأعداء يرهبونه، والأصدقاء يحبونه ويستمدون منه الثقة.

في بداية القرن السابع عشر دعا أمراء قازي الأخوين مامسرقوه ودامنقوه إليهم لتصفية الخلافات بينهما. وبقيت الأمور التي أثّرت بين الأخوين لمنع اتفاقهما سرّاً، ولكن تبعاً لما تثبت الكتابات فقد "احتفظوا بهما مقيدَين مدة يومين، وفي اليوم الثالث قُتِلَا " ولم ينقُض الأخوان الشجاعان وصية والدهما: ربطا الحياة بالموت. وسلك أولاد مامسرقوه طريق والدهم وجدهم في خدمة روسيا.

ابن تيمرقوه الثالث ميخائيل. (سلطان سابقاً). كان في الثامنة عشرة حين سافر إلى موسكو. وأعجب به القيصر جداً. ونصّره، وأمر بتعليمه وتدريبه على قيادة الجيوش.

أُلّف أول كتاب تاريخ عن روسيا في عصر إيفان غروزني مزيناً بصور ملوّنة. وبين هذه الصور زهاء عشرين صورة عن العلاقات بين روسيا وشركيسيا، في إحداها تنصير ميخائيل سلطان، وفي الأخرى تعليمه وتدريبه العسكري. ويمكن اعتباره أول أدبيغي تلقى تعليماً ممتازاً في روسيا. وهذا ما جرى:

انضم ميخائيل الذي اقتدى بوالده إلى الجيش القيصري. وترقى في المنصب سريعاً. وفي عام 1559 حطم ميخائيل، وهو في شرح الشباب، كما يروي ديمتري فيشنيفسك، جيش الفرسان القادم من الجنوب، واحتل قلعة بولوسك التي كان لها أهمية كبيرة للروس، وتعدّ عصية على الاحتلال. لم يكن إيفان غروزني يمتدح الكثيرين غير أنه كان شديد الارتياح إلى القائد الشاب. وقرّبه منه، وأهداه الكثير. واستدعاه وعزّفه على النبيل الشهير زاخارين يوريف. ويصبح ميخائيل نبيلاً وهو في الثلاثين. ويُحدّث الرجل اللبيب بمجهود خارقة تغييرات كبيرة ذكية في الجيش، ويدججه بالسلاح، ويسرّع من عملياته. وكان من أغنى أغنياء روسيا حتى لا يعرف حدود أملاكه. ويكتب و. ل. أوبريشك في كتابه "دروب التاريخ": "كان ميخائيل بن إيدار تيمرقوه يُعدّ الرجل الثاني في روسيا بعد القيصر. وكان يجلس في الصف الأول من مجلس النبلاء، واسمه الأول حين يُنادى على الأنساب..."

وفي إحدى هجمات خان القرم على روسيا لم يستطع الجيش الروسي الذي يقوده ميخائيل التصدي للجيش المعادي المؤلف من مئة وعشرين ألفاً، فاحتل دولت - جري موسكو. وأحرقها، وقتل وأسر الكثيرين.

والتجأ إيفان غروزني إلى ياروسلاف.

في صيف عام 1571 اقتيد الشركسي ميخائيل إلى قرية ألكسندروف وأُعيد فيها.

وهذا ما يكتبه كارامزين في هذا الموضوع: "كان ميخائيل بن تيمرقوه آسيوياً قاسياً، قائد جيش مشهوراً جداً. قاتلاً جالباً للعار، مغموراً بالمديح وبالهجاء. جمع مالاً كثيراً. ثم سلبه السلطان ببساطة كل ماله. كان عليه أن يهتم بأمر دولت - جري من خلال متابعة أعمال الجيش. وحاول... ولكنه أُسقط فجأة من عليائه. وأعدم على الخازوق..." ويقول باديجين في روايته "قراصنة إيفان

غروزي": "ألقى القيصر نظرة غير مفهومة على قائد جيشه. وخرج من شديقه زبد أصفر. وانتصب شارباه، وتقلصت أصابعه من المرض. تراجع ميخائيل الشرکسي نحو الباب... أشار القيصر بإصبعه الطويلة: "اعتقلوه!" وأعدموه على الخازوق!.." أحاط حراس القيصر من كل الجهات بقائد الجيش. وفهم ميخائيل أنهم سيقتلونه فامتشق سيفه وبدأ يقاتلهم..."

ربما أنهى إيفان غروزي حياة أخلص الشراكسة إليه على هذا النحو. ولا يُستبعد أن يكون قضى بطريقة أخرى.

سعيد - بولات - حفيد تيمرقوه، وابن ألتنجاج. وصل إلى أعلى درجات المجد، ومات ميتة مأساوية كسلفه ميخائيل. حين زوّجا خالته غُشوناي للقيصر إيفان غروزي كان من بين مشيعيها إلى موسكو. ولم يكن سعيد - بولات ابنُ صهر تيمرقوه بيكبولات رفيقاً لغشوناي فحسب، بل كانوا ينوي البقاء في البلاط والخدمة فيه.

وبعد وقت غير طويل يعطيه عدليه القيصر بكرم. ويعينه على خانيّة قاسم الخاضعة له قرب نهر أوكا. وفي ذلك الوقت كان عدد غير قليل من شباب النغوي الطامعين في هذه الخانية يقيمون في موسكو وفي قازان. ولما توفي والد سعيد - بولات، وكان الأخير تلقى تعليماً ممتازاً في موسكو أصبح وريثاً للخانية. وتموت ألتنجاج في خانية قاسم، وتدفن هناك. ويبقى إيفان مخلصاً لقاسم رغم وفاة خالته غشوناي.

عمل سعيد - بولات بإخلاص ورجولة في حرب ليفون. وهو معروف جيداً، لا في موسكو وحدها بل في إمارات أخرى. ويزور القيصر خانية قاسم مراراً عن ثقة مطلقة بسعيد. ويستريح هناك آمناً مطمئناً. يذهبان معاً إلى الصيد، ويتكلمان في قضايا الدولة. ولم يكن السبب وراء اهتمام القيصر بسعيد - بولات وثقته المطلقة فيه القربة وحدها. كان يقاسمه أسراره وأهدافه البعيدة.

يقسم إيفان غروزي روسيا إلى قسمين لتأسيس دولة واسعة والتخلص من منافسيه الأمراء النبلاء. أحدهما تحت سيطرته بالاستعانة بجيشه المختار، والآخر يديره الأمراء النبلاء وفق أنظمتهم السابقة.

يكلّف القيصر جيشه باغتيال الأمراء النبلاء الذين يعيشون في القسم الخاضع

مباشرة له، ويقضي عليهم. ويصل جيشه إلى المناطق الخاضعة للنبلاء. ويوصل البلاد إلى حافة الهلاك فلا تستطيع الوقوف على قدميها. ولا يجد إيفان طريقة أخرى لتحويل روسيا إلى دولة واسعة.

يحقق القيصر هدفه الرئيس، ورغم أن جيشه أفقر البلادَ جداً فقد تخلص تقريباً من آثار النظام الإقطاعي. وقضى على أكثر الأمراء المعارضين. ووطد سلطته. ووضع في الاعتبار سُخْطَ الأمراء النبلاء ورجال الدين، والحالة الاقتصادية المتزدية للناس فأبقى لنفسه جزءاً من جيشه المختار وسرَّح البقية. ولكنه يقرر أن يعهد إلى شخص آخر بتحقيق الأهداف التي لم يستطع تحقيقها. وتبعاً لما جاء في كتاب "إيفان غروزي" للكاتب ك. فاليسيفسك فإن إيفان يعيد تنظيم جيش النخبة عام 1574، ويتخلى عن السلطة، ويأتي بسعيد - بولت من خانية قاسم، وينصِّره، ويسميه سيميون، ويعطيه لقب القيصر الذي له.

وهكذا يصبح سعيد - بولات حفيدُ الأمير الكبير تيمرقوه من ابنته قيصرًا لروسيا. ويبدأ إيفان غروزي ينحني له على مرأى من الجميع. وحين يذهب إلى سيميون يجلس بعيداً عنه كما يفعل النبلاء. ويجلس سيميون في مكان الإمبراطور. ويكتب إيفان باسمه هو، وباسم أولاده الطلبات إليه، ويليهما الآخرُ له. وبينهما ما لا يلبيه باتفاق بينهما.

وفي كتاب "تاريخ حكام روسيا" للكاتب ن. كوستوماروف فإن الطلبات التي كان يرفعها إيفان إلى سيميون بيكبولات كانت تبدأ على النحو التالي: "إلى قيصر روسيا كلها، القيصر العظيم سيميون بن بيكبولات. إيفان ومعه ولداه يؤدون لك الخنساء الاحترام..."

يضع إيفان غروزي في الاعتبار أن سعيد - بولات متى تزوّج من آل ريوريكوفيتش أصبح حراً في ممارسة سلطة القيصر. فيزوجه من أنستاسيا ابنة إيفان مستيسلاف. ويعطيه واحدة من قبعات القيصر الثماني، والعصا التي تشهد على سلطته قيصرًا. ويريد أن يفهم من جلسته زواره من الأقوام الأخرى تثمينه لسيميون. ولا يترك رغم ذلك السلطة لسيميون تماماً. ويدير شخصياً أمور البلاد الكبيرة.

وبين عامي 1574 - 1576، وهي المدة التي استلم فيها سيميون بن

بيكبولات وألتنجاج سلطة القيصر ينتزع إيفان غروزني من الكنيسة أملاكها الواسعة بيد سيميون. ويحلّ المشكلات التي لم يستطع جيش النخبة حلّها. ويضيقّ على النبلاء وعلى رجال الدين. ويجهد لإفهامهم أن القيصر الجديد لا يتعامل معهم بأسهل من تعامله هو.

في بداية النصف الثاني من عام 1576 يستعيد إيفان غروزني سلطته. ويعيد حالاً إلى الكنيسة الأملاك التي سلبها منها سيميون. وبهذا يستعيد ثناء رجال الدين. ويرسل سيميون إلى مدينة تُفِير ليمارس فيها سلطة الإمارة. وعلى رواية معاصريه فقد كان شخصاً لطيفاً، لا نزقاً ولا أنانياً ولا مرائياً. وتعيش معه رعيته حتى عام 1596 في سعادة، ويحرص على عدم زيادة الضرائب عليهم.

وحين يموت إيفان غروزني يدفع فيدور الطامع في السلطة بصره إيفان بوريس، ابن القيصر، إلى انتزاع إمارة تُفِير من سيميون. وتُفرض عليه الإقامة في قرية كوشالين.

وحالما استلم ديمتري الأول الدجال¹ السلطة أمر بإيداع سيميون في الدير خوفاً منه. وسماه باسم ستيفان. ثم يُقتل ديمتري ويصبح شويسك فاسيل قيصرًا باسم النبلاء. فيأمر بإرسال سيميون الذي صار اسمه ستيفان الأعمى، إلى إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط إذ لا يجوز بقاءه في الدير. ثم بكتاب توصل إلى القيصر يُنقل سيميون إلى دير آخر عام 1612. ويمكن اعتبار إيفان بن بوريس الشركسي ممن ساهموا في التخفيف عن سيميون.

وفي 25 كانون الثاني عام 1616، توفي سيميون بن سعيد - بولات، وحفيد إيدار تيمرقوه، الذي حكم روسيا 1574 - 1576. ودُفن بما يستحق من مراسم الاحترام في دير موسكو للرجال.

فاسيل بن قردانقوه من أقرباء عُشُوناي زوجة إيفان غروزني. وكان قائداً للجيش في أواخر حكم إيفان.

ولا بد من إيضاح ما يلي: كان كل الشركاسة يتسلمون مناصب في الدولة أو

¹ يحمل ثلاثة من القياصرة هذا اللقب، أو لقب الزائف، لآدعائهم الانتساب إلى غير أسرتهم.

في الجيش كأن هذا مكتوب عليهم، فيرتقون بسرعة في المناصب. ولكنهم يسقطون عنها بطرق مختلفة، بالسرعة نفسها.

وهذا ما جرى لفاسيل بن قردانقوه: هو قائدُ جيش موسكو الكبير في عام 1582. وخدم عدة سنوات قائداً على ضفة نهر أوكا. وحمل حدود البلاد. وجابه خانات القرم والنعوي. وهو قائد الجيش المتمركز في كاشير في ربيع عام 1589. وفي عام 1591 هاجم خان القرم روسيا فكان على رأس الجيش الروسي في تولا، وحقق إنجازات كبيرة. ثم عاد إلى أوكا، وقاد الجيش سبع سنوات.

في عام 1599 يُدعى فاسيل إلى مادبة الغداء التي أقيمت على شرف ملك السويد غوستاف. ويتولى سفارة في عام 1601، ثم قيادة الجيش في سمولنسك عام 1604.

وفي ولاية شويسك يبقى فاسيل بلا منصب فيعود إلى إحدى أملاكه في إقليم ريازانسك، وكان بوريس غودانوف أعطاه هذا الملك مكافأة له على مساعدته إياه في استرجاع العرش. ولا يعرف أحدٌ مصير فاسيل حين عزل بوريس من السلطة. ولكن المؤكد أن اسمه ورد في قائمة مجلس الدوما التي وضعها ديمتري الدجال. وكان ينوي منحه لقب نبيل، ويُحتمل أنه حصل منه على بعض الخدمات.

بوريس بن قامبولات الشركسي (قرشاي). خدم روسيا منذ عام 1577. وفي عام 1582 كان قائد جيش نوفجورود الكبير.

في عام 1591 هاجم خانُ القرم قاز - جري روسيا على رأس جيش من مئة ألف. وتبين أن بوريس قامبولات قائد ممتاز إذ هزم الخانَ رغم أن تعداد جيش القرم كان أكثر من جيشه. ولذا منحه لقب النبيل. ونال ثناء القيصر، وشهرة عظيمة بين قادة الجيش.

ويكتب الإنجليزي فليتشر في كتابه "تاريخ روسيا": إن الحروب مواسم يصبح فيها بعضهم جنرالات كباراً أو أمراء. ويذكر اسم قامبولات بين أربعة نالوا هذا الشرف.

تزوج بوريس قامبولات من مافرا ابنة نيكيتا رومانوف. وكانت هذه قرية الزوجة

الأولى لإيفان غروزني. وأخت فيدور بن نيكيتا. ثم صار بطريكاً لروسيا باسم فيلاريت. وكان للزوجين ثلاثة أولاد: إيفان وإيرينا وكسينيّا. وتزوجت إيرينا من شيرميتيف بن إيفان، وكسينيا من كولشيف بن ديمتري.

وكان بوريس قامبولات ذا تفكير ممتاز في قضايا الدولة، ويحظى باحترام كبير. ومع ذلك كان بوريس غودونوف يعدّه من أعدائه بسبب قربه من أسرة رومانوف المنافسة له في السلطة. وفي عام 1569 اتّهم بالتخطيط لقتل القيصر فاحتُظ به مقيداً رغم مناصبه الكثيرة ورغم كبر سنّه. واقتيدت مافرا زوجته مع بنتها إلى مكان آخر. وأُرفقوا بهنّ ميخائيل بن فيدور ذا الأعوام الخمسة. وأصبحت أسرة قامبولات أباً وأماً لميخائيل، ورُبيّ أحسن تربية في الأسرة ليكون أول قيصر من أسرة رومانوف.

ومات بوريس قامبولات عام 1601.

إيفان بن بوريس الشركسي. سلبوه مُلكه كما فعلوا مع والده. واقتادوه مقيداً من فياتك. ثم إلى نيجني نوفجورد. وبعدما توفي والده سُمح له بالعودة إلى موسكو. كان غودونوف يريد من إيفان أن يخدمه ولكنه لم يوافق. واستقرّ في أحد أملاكه.

وفي ذلك العصر حدثت اضطرابات في روسيا، وجرى التنازع على العرش. وينجح غريشكا أوتريبييف أحد الطامعين في استمالاته، ويعدّه إيفان بمساعدته نتيجة كُرهه لغودونوف. وحين يحتل غريشكا موسكو يأمر بنقل رفات بوريس الشركسي إلى كنيسة نوفوسباسك.

لا يساعد إيفان غريشكا البتة رغم وعوده. ويندم على انجراره وراء كراهيته لغودونوف، ويتألم له: الغرباء لا يدنسون الأرض فحسب، بل يبددون شرف روسيا التي أخلص لها الشراكسة وهيتها. وحين ظهر ديمتري الدجال الثاني تصدى له إيفان الشركسي بقوة. وفي هذا الوقت عينّ القيصر فاسيل شويسك إيفان بن بوريس قائداً لجيش روسيا.

يكبر الصبي ميخائيل رومانوف الذي عاش مع أسرة شركسية في بيلوزيري فيبائع قيصرًا لروسيا عام 1613، فيدشن عهد أسرة رومانوف. ويُخلص منذ أيامه الأولى لإيفان الشركسي الذي رباه، ويعهد إليه بمهام كبيرة في الدولة. وحين

يموت فيلاريت عدیل والد القیصر یتراًس إیفان الشرسکی الحکومة. ویحد سياسة الدولة الخارجية. وكان إیفان ثانی أربعة أغنیاء روسيا فی ذلك العصر. ومات إیفان بن بوریس الشرسکی عام 1642. ودُفن إلی جانب والده فی كنيسة نوفوسباسک. وكانت زوجة إیفان الشرسکی أدیغیة. ولكن لم ینجبأ، فتقاسم أملاكه الواسعة دیمتری ویعقوب الشرسکیان.

دیمتری بن مامسرقوه الشرسکی (قانشاوا) كان من الأقارب القریبیین جداً من میخائیل بن تیمرقوه الشرسکی. وهو أول من اكتسب لقب نبیل بین الأدیغة، ومن یأتی ذكراًهم فی ولاية غودانوف. وكأسلافه لم یكن یعرف إلی آین یتجه. ولكنه استدرک خطأه فیما بعد، فبرهن بالسلاح إخلاصه لروسيا، وحارب إلی جانب بوجانسك دیمتری ضد الأعداء الخارجیین، وضد دیمتری الدجال. ولما عاد إلی موسكو احتل مكانة رفیعة، وساهم فی تطهیر أكثر من موقع من القوزاق الذین حاربوا إلی جانب دیمتری الدجال. وانتزع منهم عدة مناطق.

وكوفئ وحده بخاتم ذهبی لإخلاصه لروسيا. ومنح لقب نبیل عام 1619. وقاد جيش قازان وسیبریأ. وحين تنصّر عُج، الأخ الأصغر لدیمتری، سمی فیدور، وتولى قيادة الجيش. وبقي دیمتری عضواً فی مجلس نبلاء روسيا 32 عاماً، وتوفي عام 1656.

یعقوب بن قُدايْنَت الشرسکی (وُرسقان) بدأ الخدمة فی ریعان الشباب. ولكن ما أنجزه خلال أربعین عاماً یعجز عنه خمسة أشخاص.

كان یعقوب من أغنی أغنیاء روسيا فی القرن السابع عشر. وامتلك خمسين ألفاً من العبيد. وظل عضواً فی مجلس النبلاء أكثر من عشرين عاماً. ومارس مهام كثيرة، منها رئاسة الحکومة. وكان الشخص الثاني فی روسيا بعد القیصر.

وكما قلنا سابقاً فقد كان أمراء الشراكسة یصلون بسرعة إلی أعلى المراتب متحلّین بالثبات والتصمیم. واختیر یعقوب (ورسقان) عام 1624 مديراً لموائد القیصر. وكانت الأسر المتنفة تعمل طوال عمرها جاهدة للوصول إلی هذا المنصب. وبعد سنتین من هذا التاريخ یتزوج میخائیل رومانوف. ولأزم یعقوب الموثوق من القیصر الخطیبة ریشما تزوجها. وكانت هذه هی العادة قديماً. ولا

شك أن رجالاً مشهورين كانوا يحسدونه على هذا المنصب. ولم يتوقف الأمر هنا، ففي عام 1632 يتوفى أحد أصحاب الضيعة دون وريث فتمنح ليعقوب. وتضاف إليها بعد سنة أملاك المتوفى الأخرى.

كان يعقوب متميزاً من حاشية ألكسي بن ميخائيل بعقله ونباهته. وكان رئيساً للموائد زمن استلام ألكسي الحكم عام 1654، والأول إلى جانب القيصر كما يُروى. وكان يصب الخمر في كؤوس مائدة الملك. ويمنح لقب نبيل في العام نفسه. ويصبح مقرباً جداً ممن سيكون أباً لبطرس الأول. ويعاديه النبيل موروزوف الذي يري القيصر، ويحس المرء أن كل أقرباء يعقوب يعادونه فيشي بالأمير الشركسي، فيُرسل بصفة قائد جيش إلى الشمال. ولكن سكان موسكو يثرون ضد ظلم موروزوف فيختفي عن الأنظار لحماية نفسه. ويستدعي القيصر يعقوب من الشمال ويعينه رئيساً للحكومة. ومن جديد يتحرك موروزوف ويحاول تلويث سمعة يعقوب. ومرة أخرى يُبعد القيصر قليل الخبرة يعقوب عن مناصب الدولة. في عام 1653 تنضم أوكرانيا إلى روسيا ويجري الإجماع على استرداد أراضيها من بولونيا وليتوانيا. فيوجه القيصر يعقوب لهذه المهمة الكبيرة. ويهزم يعقوب جيش ليتوانيا، ثم جيش بولونيا.

استمر يعقوب الشركسي واحداً وعشرين عاماً عضواً في مجلس النبلاء. وأنجز مهام كبيرة في سبيل توطيد دولة روسيا. ورزق بصبيين، هما إيفان وميخائيل، من إفدوكيه، وبابنتين هما إفدوكيه وآن. وأوصى يعقوب قبل وفاته بما يلي:

- لا تنسوا أن تحبوا أرضكم، أرض الأديعة، وأرض روسيا التي أنتم أصحابها أيضاً. أحبوا الأرضين معاً كما فعل والدكم وأجدادكم. ومات يعقوب عام 1666، ودفن في كنيسة نوفوسباسك.

غريغوري بن سونجاليه الشركسي (سونجاليه) قال أحد الحكماء: "تبقى تشابكات الخبث والرياء التي تنسجها الحياة معقدة غالباً، غير مفهومة. ويبقى الموت كالسيف المشهر حقاً بسيطاً كما خلقه الله، مفهوماً منك. وهذا ليس صحيحاً. فإذا كنت ستفهم شيئاً من الحياة فالموت مظلم كالقبر. ثم إنه مجرم غالباً".

ينطبق هذا الكلام نوعاً ما على غريغوري الشركسي. كان سيتحقق له الكثير.

انفتح له الحظ وهو شابٌ جداً، ففي عام 1654 يصبح مسؤول مائدة القيصر. ويُمنح لقب النبيل. ويجد له فيدور شيريميتوف بنفسه زوجة جميلة جداً. ويظل قرابة عشرين عاماً من المقربين إلى القيصر. ويكتب ف. بينيشيفيتش بخصوصه: "كان مرافقاً للسلطان حامياً له في أسفاره، وفي أيام توّسله إلى الربّ. ويقيم معه في بيت واحد. وفي أيام الاحتفالات يصب للقيصر كأس الخمر. ويتقدّم دائماً حملة الموائد".

وفي عام 1660 يحظى بالثقة العظيمة للقيصر فيرسله قائداً للجيش إلى أستراليا. ثم إلى زاريزين. فيجهّز الموقع ويحصنه بالحجر. ويُمنح في أثناء تعميد ألكسي والد بطرس الأول، شرف المساهمة في هذا الحدث.

وفي عام 1672 يصاب غريغوري بمأساة عظيمة إذ يقتله أحد نبلائه. لماذا؟ بقي هذا من أسرار التاريخ.

ميخائيل بن ألقوه الشركسي يتولى قيادة أحد الجيوش وهو شابٌ جداً. ويمنح لقب النبيل. وكان من يعرفونه يقولون: "هذا الرجل وُلد قائد جيشٍ جاهزاً". وسواء صدق هذا القول أم لم يصدق فقد أثبت في حروب روسيا ضد تركيا وضد القرم أنه قائد عظيم.

يكتب ب. كامينسك في معجمه "أعلام روسيا": "منع ميخائيل ألقوه جيوش الترك والنغوي من احتلال أوكرانيا عام 1679 ، وألحق بهم خسائر فادحة قرب مدينة كييف". في تلك السنة منح لقب النبيل.

وفي كتاب "وقائع تاريخ روسيا" يورد المؤلف سولوفيف أسماء كبار الأمراء المتنفذين، ويذكر أسماء ست عشرة أسرة مرتّبة حسب أهميّتها، وأولها أسرة شيركاسك.

وفي ربيع عام 1782 تحركت القوات الخاصة بهدف تنصيب مرشحتها صوفيا الأخت الكبرى لبطرس وإيفان قيصرًا. وكان بطرس الأول وقتها في العاشرة من عمره. وقف الشركسي ميخائيل في صفّ الأخوين. وكتب الأكاديمي وستريالوف: "كان ميخائيل معاوناً قوياً شجاعاً لهما، ودان الرجل المعتر بشرفه وصدقه أنصار صوفيا بقوة. وكان ميخائيل درّب جيداً بطاريات المدفعية التي

حدّثها. وهذه البطاريات هي من دعمت بطرس الأول ووطدت سلطته. وخدم ابنه أندريه ضابطاً، ثم رئيس بعثات دبلوماسية إلى أوروبا. وإليه سافر بطرس الأول متنكراً بصفة بطريك.

كان للجيش المجهز زمن بطرس الأول قيمة عظيمة. وأسرع في إنشاء أسطول بحري. وفي 14 كانون الأول عام 1695 يترفع ميخائيل إلى رتبة جنرال. ثم حوّل نتيجة مرضه إلى مجلس النبلاء.

ودفع ميخائيل من حسابه الخاص كلفة سفينتين حربيتين حين بدأ القيصر بتأسيس أسطول بحري. ويشهد كتاب "علاقات روسيا - القبرتاي" على أن إحدى السفينتين من أحسن السفن. ويشهد كاتب آخر على الاحترام والتقدير اللذين يلقيهما ميخائيل بسبب عمره وعمله. وقد اكتسب محبة الجميع لأنه يتصرف بصدق، ويتجنب الخطأ، ويحترم نفسه. ولما قرر بطرس الأول التوجه نحو بحر آزوف ترك مكانه ميخائيل. ويأتي الكاتب على ذكر سبب اختيار القيصر السفير أندريه مشرفاً على المائدة. ولكن أندريه مات شاباً دون اللحاق بمكانة والده.

كان بطرس الأول أصدر بعدما عاد من أوروبا أمراً بمنع تربية اللحى. ولكنه استثنى ثلاثة هم بطريك روسيا وميخائيل، وشخص آخر.

توفي ميخائيل عام 1721. وصار أولاده وأحفاده من الرجال المحترمين في روسيا. كان ابنه ألكسندر وبترس جنرالين. وسُمّي شارعان في موسكو باسميهما تخليداً لأخوة الروس والأديغة.

ميخائيل بن يعقوب الشركسي. قام الشراكسة بأعمال مهمة لروسيا. وتولّوا أعلى المناصب الحكومية.

بقيت واحدة من الذكريات الجميلة التي تدعو إلى التعجب. احتل إيرماك بن تيموفيه من قوزاق الدون سيبيريا بالحرب. وما هي سيبيريا؟ لا يمكن الوصول إلى حدودها في شهر كامل مهما بدّلت أحسن الأحصنة. وما هذا الجو الذي تهبط الحرارة فيه إلى أربعين أو خمسين تحت الصفر؟ وكيف كان مواليد الجنوب الدافئ سيفهمون الأمر؟ كانت الأراضي المتجهة نحو أوروبا غنية بالغابات. ولكن كيف تقارنها بغابات سيبيريا التي لا نهاية لها؟ وأي مكان يُقارن بسيبيريا

من جهة مناجم الذهب والفضة والحديد وغيرها؟
كان إيمارك اقتحم سيبيريا بالقوة، ولكن مَنْ يذهب إلى هناك حاملاً المعول والمنشار، مضحياً بدفته؟ إن اكتشاف أسرار سيبيريا يحتاج إلى قرون، وإلى الكثير من البشر. ولكن الشراكسة يذهبون إلى هناك ويستولون عليها في وقت قصير. يقوم الشركسي ميخائيل برفقة ولديه بطرس وألكسندر بعمل جبار هناك. كان بطرس الأول أرسلهم عام 1697 إلى توبولسك لاستخراج الحديد والنحاس وغيرهما.

عملت الأسرة الشركسية ثلاث عشرة سنة في سيبيريا. ويُثني بطرس الأول عليهم إذ يعملون لمصلحة البلاد، دون اعتبار مصالحهم الشخصية، لإنشاء مصانع للحديد تنتج المدافع وحاجات الجيش الأخرى.

في عام 1710 عادت الأسرة الشركسية من سيبيريا. وفي عام 1712 توفي ميخائيل بن يعقوب. وكلف ابنه ألكسي بمتابعة أعماله.

ألكسي بن ميخائيل الشركسي ليس طريق الإنسان ما عاش أَرْضاً مستوية. بل طريقٌ جبلي، صعودٌ ونزول، يصعد إلى السماء حيناً، ويهوي إلى القاع حيناً. حين عاد أليكسي الشركسي من سيبيريا كان قد ارتفع إلى السماء حقيقة، وتزوج من أخت القيصر لأُمّه أرغيبين، فصار قريباً من أسرة القيصر، ولكن أطفالهما الثلاثة ماتوا. ولحقت أرغيبين بهم. وبعد بضع سنوات من الترمُّل تزوج من ماريا ابنة أمراء تويتسكوي.

ولما كان عائداً من سيبيريا مصمماً ماهراً فقد عُيِّن رئيساً للجنة بناء بطرسبورغ التي هي قيد الإنشاء. وبدأ أليكسي ينفذ المهمة بنجاح تام. ولم يبق موضع في المدينة لم يصل إليه، من شوارع وساحات وقلاع... بالإضافة إلى المرفأ.

كان بطرس الأول يقدر ألكسي جداً. وأحياناً يدخل إلى بيته على الغداء دون إعلام مسبق. ويأتي الوقت ليلتفت القيصر ثانية إلى سيبيريا، فيرسل ألكسي حاكماً عليها عام 1719. ويعمل هناك بلا كلل متخذاً من والده وأخيه قدوة.

ويموت بطرس الأول في الشهر الأول من شتاء عام 1725. ويعود أليكسي إلى سان بطرس بورغ. وتعيّنه القيصرة إيكاترين الأولى مستشاراً لها. ولا تلبث آن ابنة إيفان أن تحل محلها. فتعيّنه عضواً في مجلس الشيوخ. وفي خريف عام

1731 يؤلّف مجلس وزراء روسيا، ويدخل فيه ثلاثة أشخاص، منهم أليكسي. وفي 10 أيلول عام 1741 يصبح وزيراً أول. ويحضّر البيان الذي ستقدمه ابنة بطرس الأول، القيصرية.

وفي إطار الاتفاقية المعقودة مع بروسيا، والتي تعهدت فيها روسيا وإنكلترا بالحماية المتبادلة، كان ألكسي هو الموقع عن الجانب الروسي مع الدانمارك. وتبعاً لما جاء في " قاموس ما جرى لكبار رجال الدولة الروسية " فإن أليكسي المسنّ كان صادقاً لا يمكن شراؤه بالمال. وكان حارساً لمصالح روسيا. ويحترم أصدقائه الإنجليز وأعداؤه الفرنسيون فيه هذه الصفات. وكان السفير الفرنسي في روسيا نصح معاونوه وهو يغادر منصبه ألا يفارق العجوز الشركسي الذي تثق فيه قيصرية روسيا.

وفي أواخر الشهر الثاني من خريف عام 1742 مرض أليكسي بن الشركسي ميخائيل مرضاً شديداً خلال الاحتفال في موسكو بتنصيب الملكة إليزابيت، ثم مات في الشهر التالي.

كان يقال إن أملاك أليكسي لا يُحصيها العدّ فيؤلفون حولها الحكايات. والحقيقة أنه كان غنياً جداً. وكان يعمل في أراضي التي تبلغ مساحتها مئة ألف ديسياتين¹ سبعون ألفاً من الفلاحين. وكان هؤلاء جمعوا له مُلكاً كثيراً على مدى أعوام.

ترك أليكسي وريثة وحيدة هي ابنته بربارا. وكان الشاعر الشهير أنتيوخ كانتيمير طامعاً في الزواج منها. ولكنها تزوجت من الجنرال بطرس شيريميتيف. ودخلت أملاك أليكسي الكبيرة في تجهيز أوستانكينو² فدخلت في الموقع أرض أسرة الجنرال والقصر الكبير والمسرح ومرافق أخرى من أملاك أليكسي سابقاً. وأوستانكينو التي تعتدّ بها دولة روسيا بقيت تمثالاً رمزاً للصدقة الروسية – الأديعية.

...

¹ وحدة مساحة قديمة تساوي أكثر من هكتار بقليل.

² اسم نصب تذكاري فيني.

ستمر السنون... وسيصبح الأمراء الكبار الذين تفرعوا من ردد ومن إيدار، ورجولتهم وعقولهم وأملاكهم، سنداً لروسيا وجزءاً من تاريخها، ويدوبون فيها. وستنشر الفرقة الأدبغية صدامات دموية بينهم. وستطحن رحى الحرب الروسية - القفقاسية مئات الآلاف. وستنثرهم في أرجاء العالم. وسيدرك الأدبغة عُمق مأساة فقدان هؤلاء الكبار منهم. وستمر قرون قبل أن يستعيد العرقُ وعيه. والمفكرون الواعون لضرورة تأسيس الدولة سيظلون يهجرون أرض الأدبغة ويتجهون إلى روسيا فيُعنون قيمها الإنسانية، ويجمعون لها الثروات. ويجلبون الثناء. ولكن الأدبغة سيعيشون حياتهم دون أن يسمح لهم من أحسنوا إليهم أن يصبحوا دولة.

كلما انفعلت مع هذه الحكايات - الأفكار تألم قلبي حيناً، وكبر اعتدادي بقومي حيناً. وتنحسر دموع حزني ودموع أملِي من الوجه. لم نكن مع روسيا مجرد حلفاء: صارت جزءاً منا. وتوازعنا فيها، وفي عرشها وأرضها وهوائها حياتنا - عرقُ جبيننا. وأختتم كتابي خائفاً على الخيط الذي يربطنا، فلقاً على نقاط قوته وعلى نقاط ضعفه.

